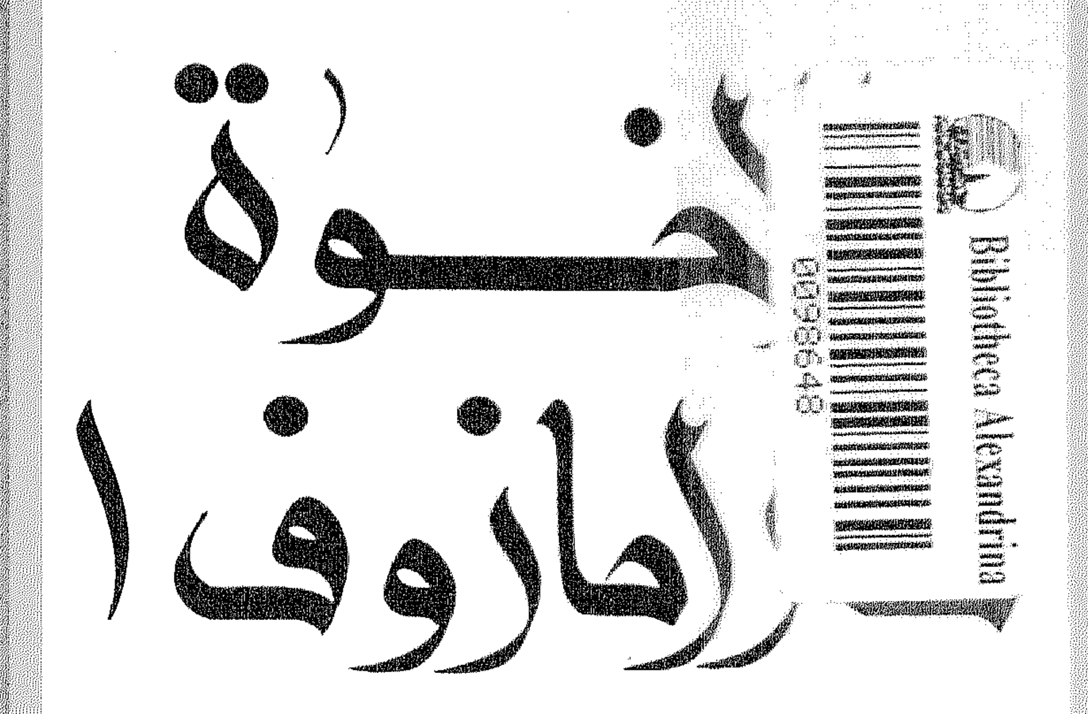
دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السادس عشر

دوستويفسكي : الأعمال الأدبية الكاملة ـ ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية : د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية : دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان ـ شارع فردان ـ بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ ـ هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف : عماد حليم

طبعت بإشراف : نتوورك ـ ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الإخـــوة كارامازوف

١

تقديم

لم يبارح المرض دوستويفسكي ، فنوبات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد أضيف اليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه في السن • على أن الفترة التي تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيست بالفترات التي سبقتها ، وهي على كل حال خصبة الى أقصى حدود الخصوبة • هي سعيدة من الظاهر : ففيها تعاظم مجد دستويفسكي حتى انتخب عضوا في الأكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى ألقى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبقري لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جرأته واستقلاله ، وتعترف له به الشبيبة الليبرالية رغم « الجن » ورغم المقالات «الرجعية» التي تضمها «يوميات كاتب» • والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلئن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على انتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا في سترايا روسا ، وان حقوقه في الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعها مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير • وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان آنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستويفسكي يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا • والنازلة الوحيدة التي ألمت به في هذه السنين انما هي موت ابنه ألكسي عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب • وحياته سعيدة في الباطن أيضا ، أو هي هادئة نوعا من الهدوء في أقل تقدير : لقد تخلص دوستويفسكي بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيث فيه ماكان يعيث فيه من تمزق • صحيح أن القلق مايزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التي أوحت اليه بأمهات آثاره • ففي تلك الفترة انما كتب دوستويفسكي رواياته الثلاث: «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» •

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا فى أشخاص ٠

ان دوستويفسكى لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يدعو اليه ويتعصب له ٠ ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستويفسكى يتيح عرض تلك الأفكار فى مختلف جوانبها ويتيح ابرازها بمزيد من الوضوح فى تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الرأى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارىء أمام حلول حاسمة أو قناعات قاطعة ٠ ومن هنا يجىء اختلاف الاجتهاد فى تحديد موقف دوستويفسكى ، وتفاوت الرأى فى تعيين اتجاهه وتعارض التفسير فى تعريف الحل الذى ينتهى اليه ٠ فمن قائل : ان دوستويفسكى قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم أنه ، على عكس ذلك ، قد فتنته أوروبا فتنكر لروسيا ، ومن مدع أنه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع أنه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد ٠

والواقع أن دوستويفسكى قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كانسان ، ووظيفته كروائى قد أملتا عليه مجتمعتين أن يعرض لمناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها ٠ فما هى تلك المشكلات التى يثيرها دوستويفسكى ، أو تثور فى نفس دوستويفسكى ؟

فى قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » ٠ لقد كتب دوستويفسكى الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « اننى أقرأ فى هذا السفر ثم أدعه ، وآخذ أسير فى الغرفة وأنا أكاد أبكى ٠٠ ان هذا السفر، يا آنيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتي منذ أن كنت طفلا صغيرا ٠٠ » ٠ وان الشر الاخلاقى ، ان ارادة الشر لدى الانسان ، هى التى عذبته خاصة ٠ لقد فهم دوستويفسكى أكثر من أى انسان آخر قوة الاتحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليقة أيضا ، ويكفر بعلة وجود العالم والحياة ٠ لذلك نرى دوستويفسكى ، حين يتناول النقاد اللبراليون كتابه «الاخوة كارامازوف» ، فيقولون عن ايمانه بالله انه «رجعة» ، نرى دوستويفسكى يثور عندئذ ويهتف مستاء : «لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، وانما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب أليم» • ليس ايمان دوستويفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هي مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الأوغاد منهم ، هم فى أكثر الحالات ، أسذج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى أفعالهم ••» • ولكن هذه الطبيعة يمكن أن تنفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تأتى من أسفل أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبث بالانسان ويلتهمه التهاما «كحشرة» ، «كعنكبوت» كريه ، « كرتيلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى مختلفة : هو الشهوانية ، والأنانية ، والبخل ، والرغبة فى السيطرة ، والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو «لمجرد القيام بدور غير متوقع» • ولكن هذه الاندفاعات التى تأتى من غياهب « القبو » تقابلها نداءات سماوية هى التفانى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة رهيبة» • هو فى حجم الكون بأسره •روحه ميدان قتال «يصطرع فيه الاله والشيطان» • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستويفسكى بعد تجربة السجن وخبرة الحياة ، غائصا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه هو •••

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض، ومشكلة العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة• ولكن دوستويفسكى قد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها فيما حوله • لقد درس دوستويفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ، وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا، فانتهى الى أن العدالة لا سلطان لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس، ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ، والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حساب النفس • ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتها تستطيع أن تنصهر فى الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن وثنيا يستحيل الى كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مسيطرة !•• ولكن الكنيسة فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقق سعادته ، كما ان الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد أن تكون ملحدة لتحقق للانسان رخاءه ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضيعة للانســـان : تستوى فى ذلك الرأسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية الالحادية • أفلا يمــكن أن يتحقق نظام تتعانق فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين فى نظر دوستويفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم فى الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهيأة لان تجىء بحل ، لان الشعب الروسى لايزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم تخضع لاغـــراء السلطة والحكم • تلك كانت أمنيـات دوستويفسكى ونبوءاته • أكان رجعيا فى تفكيره ؟ أكان أعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن دوستويفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى عذبته لم تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبد الدهر •

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستويفسكى أن يعبر عنها ، فأخذ يبحث لهـــا عن اطار روائى • وسرعان ما وافاه ذلك الاطار الروائى : أسرة يمثـــل أبناؤها الاتجاهات المختلفة التى يمكن أن تتجهها الشبيبة فى المجتمع الروسى • تلك هى أسرة كارامازوف •

ان أبناء هذه الأسرة ، «الاخوة كارامازوف» ، يحملون عيوبا وراثية ، ولكن امكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية • فأما أحدهم فهو شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بذور أخلاقية (انه ثائر على وجود الشر) ، ولكن نزعته العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شىء مباح» ، «أنا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه» • ذلكم هو ايفان الذى سيجن • وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة للعــواطف الخـــيرة وللتطهر بالألم ، ولـــكن ذلك لا يوقيه من الانكسار والانحدار • ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل أبيه ظلما • وأما الثالث فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ، وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة • انه ، فى نظر دوستويفسكى ، الحياة والمســـتقبل • ذلكم هو اليوشا ، أصغر الاخوة كارامازوف •

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستويفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فأما دمترى الشيلرى فهـــو يصـور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايفان فهو يمثل السنين التى أوشك فيها أن يستعيض عن الايمان الدينى بالاشتراكية الملحدة ، وأما اليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو العودة الى الشعب الروسى والى الارثوذكسية » .

مهما يكن من أمر ، فان دوستويفسكى قد أعطانا فى « الاخوة كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره . ففى هذه الرواية نجد التعارض الذى رأيناه فى رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه فى « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجد هيكل ما رأيناه فى رواية « الأهبل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا فى مسودة «الاخوة كارامازوف» هو «الأهبل» ، وجروشنكا فى « الاخوة كارامازوف» تذكر بآناستازيا بطلة «الأهبل» ، وايفان يذكر براسكولينكوف « الجريمة والعقاب » . وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش فى « قرية ستيبانتشيكوفو » . والمشكلة التى تطرح فى حلم « المفتش الكبير » قائمة بذورها فى قصة « الجارة » التى كتبها دوستويفسكى فى شبابه .

ان « الاخوة كارامازوف » هى عالم دوستويفسكى كله مصغرا . ولكن صورة هذا العالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفنى وتملك حتى من جمال الاسلوب ، مالم يصل اليه دوستويفسكى فى أى أثر من آثاره قبل ذلك . أما الاغوار التى هبط اليها فهى الاغوار نفسها ، وما أعمقها !

ولقد شعر دوستويفسكى بسعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيا وأن أكتب عشرين سنة أخرى » . كان ذلك فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ .

« الاخوة كارامازوف » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا فى مجلة « الرسول الروسى »
سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صـــدرت أولى طبعاتهـــا
المستقلة سنة ١٨٨٠

الإخــوة كارامازوف

١٨٧٩ - ١٨٨٠

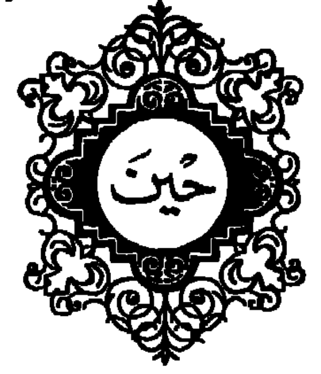
إهداء

إلى آنا جريجوريفنا دوستويفسكي

« الحق الحق اقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها · ولكن ان ماتت تاتى بثمر كثير »(*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤)

إلى القارئ



أشرع فى قص حياة بطلى ، ألكسى فيدوروفتش كارامازوف ، أشعر بشىء من الارتباك ، وهو ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشىء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا قليل ، لذلك أتوقع أن تجىء الأسئلة التى لا بد أن تطرح علىّ ، من هذا القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى اتخذته بطلا ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت، وأين ؟ ولماذا يجب علىّ أنا القارىء أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت به حياته من أحداث وحركات ؟ » .

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ، هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون ». وما عسى أن يكون موقفى اذا قرأ القارىء الرواية ، فلم يوافقنى على رأيى ، ولم يشأ أن يسلم بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى ان أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر سيكون كذلك . فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك فى أن أصل الى اقناع القارىء بذلك . بل اننى لأراه بطلاً فعّالاً ،

بمعنى من المعانى ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل في وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحا مفهوما فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه ؟ على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابة والشذوذ تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى عصر يجهد فيه الناس أن يوحدوا ما اختلف ، وأن يبددوا ما نشز ، التماساً لشيء من الوضوح والفهم فى هذه الفوضى العامة الشاملة . والشذوذ ، فى أغلب الأحيان ، سبيل الى التميز ، والتفرد . أليس كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأى الأخير كل الموافقة ، واذا كنتم تجيبون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ الىَّ هذا شيئاً من الثقة ببطلى ألكسى فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتما - ليس دائماً - ذلك الذى يبتعد عن القاعدة ؛ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة ...

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه التعليلات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأساً بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتى برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر أننى أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنا من الأولى، لأننى أقصُّ فيها أعمال بطلى فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست فى

حقيقة الأمر رواية ، وانما هي فصل بسيط يصور حياة بطلي في صدر شبابه . وكان يستحيل عليّ أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت، لاستحال فهم الأمور في الرواية الثانية . وهذا ما يفاقم حيرتي الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لي ، أنا الذي أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التي أبذلها للاجابة على هذه الأسئلة تضيعني ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أي تعليل . وواضح أن القارىء الذي أوتي نفاذ البصيرة قد أدرك دفعةً واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أنني لم أزد على أن التمست لنفسي العذر عن ذلك العدول، ولا أشك في أن تضييعي الوقت الثمين في كلام لا طائل تحته قد أحنقه. ولكن جوابي على هذه النقطة الأخيرة ماثل في ذهني . لقد استرسلت في كلام عقيم ، وأضعت في ذلك لحظات ثمينة ، لسببين اثنين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر . « وبهذا ألفت نظر القارىء الى ضرورة الحذر، في أقل تقدير » . ثم انني لا يسوءني كثيرا أن روايتي تنقسم قسمين، مع الاحتفاظ بما في « مجموعها من وحدة أساسية » . ان القارىء يستطيع، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغي له أن يتحمّل نفسه عناء قراءة الثانية . وواضح أن لكل انسان حريته في هذا كله ، بل ان في وسع المرء أن يرمي الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً . على أن هنالك قراءً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا في قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجـــل أن يستطيعوا الخـــلوص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن النقاد الروس عامة ، على وجه التخصيص • واليهم انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنهـــا زائدة لا محـــلّ لها • ولكننى كتبتها ، ومن أجل ذلك أحتفظ بها • لا بأس •

ولننتقل الآن الى الموضوع •

الجزء الأول

الباب الأول: قصة أسرة صغيرة طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي اشتهر جداً في مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة في الماضي (وما يزال الناس يتحدثون عنها الى يومنا هذا (سأروى قصة نهايته تلك متى آن الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الاشارة الى أن هذا « البوميستشيك » (كما كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكد يعيش أبدا في أراضيه) كان انسانا عجيبا . انه ينتمي الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين ـ وهو نوع منتشر انتشارا كافيا والحق يقال ـ الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرّفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ، يأكل تارةً عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيلي تماما ؛ ولكن وُجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عداً ونقداً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذا

وغرابة . أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطني ان صح التعبير .

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمتري فيدوروفتش الذي ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسي اللذين ولدا له من زواجه الثاني . كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة في نبالتها التي كان أفرادها ملاكين أيضا في مقاطعتنا . فاذا سألتني كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق ـ ذكاء من هذا الذكاء الذي نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك في الماضي ـ أقول اذا سألتني كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج « طرحاً » تافهاً هذه التفاهة (كذلك يلقبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره . لقد أتيح لي أن أعرف على كل حال فتاةً ـ هي من الجيل القديم الرومانسي ـ ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان في وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التي تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هي في ذات ليلة عاصفة ترمي نفسها من أعلى شاطىء وعر يشبه أن يكون جرفاً ، واذا هي تقضي نحبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير ؟ حتى أن في وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذي اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان في مكانه شاطىء منبسط عادي مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا . هذه قصة واقعية صادقة ، وهنالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيدور بافلوفتش كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بأن الأعمال التى من هذا النوع كانت كثيرة فى حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال . فلعل زواج آديلائيد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامح ؟ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوى ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها . لعل خيالا طيِّعاً قد أقنعها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما استقر فى أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلى ، هو واحد من أشجع الرجال وأطرفهم فى عصر التقدم هذا الذى يصارع أخطاء الماضى ، على حين أن الرجل لم يكن فى حقيقة الأمر الا مهرِّجاً شريراً حقيرا لا أكثر من ذلك . وقد أضيفَ الى هذا أمر يؤثر فى النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلائيد ايفانوفنا وفتنها عن نفسها . أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعى ، لحل من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة فى ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح فى الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل . فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة ضخمة كانا يغريانه أيما اغراء . وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أى شأن فى هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة ومن جهة الخطيب، رغم ما كانت تنعم به آديلائيد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولعل ذلك كان حالة فريدة فى حياة فيدور بافلوفتش الذى ظل طوال حياته انسانا تلتهب عواطف الحب عنده التهابا شديدا ، لأنه بطبيعته شهوانى يمكن أن يكلف فى طرفة عين أىّ امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجَّع. ومع ذلك كانت آديلائيد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التى لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه .

ولم تلبث آديلائيد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار • ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أن ظهـــرت • فرغم ان اسرة المراة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيهـــا المناقشات • وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن في هذا الظرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذى استطاع ، كمـا نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة ، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد • أما القرية وأما المنزل الرحي الذى كانت تملكه في المدينـة ، وهما جزء من البائنة ، فقد ظل الرجـل زمناً طويلاً يحـاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانوني ، وكان يمكن أن يظفـر بذلك حتما لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقحة التي لاحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التي لا تنقطع ، كان قـد حضّها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضـجرا ورغبةً في التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلائيد ايفانوفنا قد تدخلت في الأمر في الوقت المناسب فوضـعت حداً لهـــذه المكائد وحالت دون ذلك التبديد • وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر في تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مدهشة • وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمـل مربيا ويعيش في فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذى كان يومئـــذ في السنة الثالثة من عمـره • وسرعان

ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلائيد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاءة لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصِّها . وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعا من اللذة في أن يمثل أمام الملأ هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خانته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التي ألمت به مضيفا اليها مزيِّنا لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يافيدور بافلوفتش قد نلت ترقية أو ظفرت بترقيع ، فأنت تبدو مسرورا كل السرور رغم ألمك الشديد . » ؛ وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسؤه أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرِّج ، حتى لقد ألمع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامدا بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانبا من سذاجة كان له شيء من تأثير أيضا ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحررا لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطرابا شديدا ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هو نفسه الهدف الذي يسعى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكراً قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة .



ام اليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشـقية قد قضت نحبها • لقد توفيت المرأة فجأة فى غرفة حقيرة تحت السطح من أحـد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انهـا ماتت من البؤس والجوع اللذين هدّماها تهديما • فلما تناهى هذا الخبر الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان فى حالة سكر شديد ، فأخـذ يركض فى الشوارع رافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب ! » ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن فى رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صـغير ، فاذا رآه الرائى أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه فى النفس من اشمئزاز وتقزز • وقـد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه فى الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التى وهبت له هذه الحرية • ان فى البشر – وحتى فى أعتى المجرمين – من السذاجة والطيبة فوق ما قد نتخيل • وهذا يصدق علينا نحن أيضا •

٢

كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعا أن تتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومربياً • لقد تصرف، من حيث هو أب ، التصرف الذى يجب أن نتوقعه منه : أى انه لم يعبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلائيد ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاما ، لا لأنه يضمر للصغير كرهاً وعداوة ، ولا لأنه يحمل له حقداً وضغينة من حيث أنه زوج خانته امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسى حتى وجود هذا الابن • وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه ، ويصدّع رءوسهم بندبه حظّه العاثر ، مع اتخاذه منزلة مكانا للفسق والعهر والفجر فى الوقت نفسه، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمّه اليه وعنى به، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبى لما وُجد من يهتم به ، ولما تهيأ له قميص يُستبدل بقميص • زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى • كان جدُّ الصبى ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلائيد ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ؛ وكانت أرملته ،

جدة الصبى، التى انتقلت الى موسكو ، تعانى من آلام المرض ما لم يتح لها أن تتدخل فى الأمر • أما أخوات آديلائيد ايفانوفنا فكن قد تزوجن • فكذلك لبث الصبى ميتيا سنةً كاملة مقيما مع الخادم جريجورى فى كوخ يسكنه فى آخر فناء المنزل • وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه فى مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابنا على كل حال) لأسرع يطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبى عقبةً فى طريق عهره وفسقه وفجوره • ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيد ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع فى ذلك الأوان من باريس • ان بطرس هذا ، الذى سيعيش فى المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا فى شرخ الشباب ، وكان رجلا من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد نشأ وترعرع وتربى فى العواصم الكبرى ، وأحالته اقاماته فى الخارج رجلاً غربياً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح فى أواخر حياته لبرالياً على طراز ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ ؛ وكان على صله بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم تطرفاً فى زمانه ، سواء فى روسيا وفى خارج روسيا ، حتى لقد عرف برودون وباكونين* معرفة شخصية • فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيرا أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التى قامت فى باريس ، وكان يحلو له كثيرا أن يُفهم سامعيه فى هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك فى تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس • كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر بألف نفس*• وكانت أراضيه العظيمة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضى ديرنا الشهير الذى أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أى بعد أن آلت اليه هذه الأراضى فورا ، قضيةً طال أمدها فما تنتهى • والقضية تتعلق

بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابات ، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره ، وهي قضية تافهة في ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح وانسان متنوّر أن يقاضي « اكليركيين » • فلما علم بمصير آديلائيد ايفانوفنا التي لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها في الماضي ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل في الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه ازاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبيعي في شاب • ففي هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لفٍ ولا دوران أن في نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي • وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليبرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه في أول الأمر أنه لا يفهم أيّ صبيٍ يعني ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن في مكانٍ ما من المنزل • وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئا من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرا • فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة في دور ليس متوقعا ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجني من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر في كثير من الأحيان • وتلك صفة نقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء، فليست وقفاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواه • وصرّف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة • هكذا مضى ميتيا يعيش في منزل ابن عم أمه ، الذي لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم

فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبى الى احدى بنات أعمامه وهى سيدة من موسكو • وانتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبى هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التى أثرت فى خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها • وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبى الى منزل احدى بناتها المتزوجات • ويظهر أنه غيَّر عشه بعد ذلك مرةً رابعة ، ولكننى لا أريد أن أفيض فى ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأننى سأتحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التى لا غنى عنها ، والتى بدونها يستحيل علىَّ أن أشرع فى قصّ هذه الرواية •

فأقول قبل كل شىء أن دمترى فيدوروفتش هذا قد شبَّ على الاعتقاد ، رغم أن لأبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيئول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال • وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياةً مضطربة • لم يتم سنى دراسته فى الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية • ولكنه تورط فى مبارزة ، فجرِّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ••• ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموالٍ من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض • ولم يرَ أباه لأول مرة منذ تركه فى طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه فى أمر ميراثه • ويظهر أنه نفر من أبيه دفعةً واحدة ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعيِّن له قيمة الأرض وايرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة فى أذهاننا) • وقد أدرك فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التى قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجّلها) أن الفكرة القائمة فى ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية • وسُرَّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له مصالحه • لقد لاحظ أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وتتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافد الصبر متعجل ، وانه الى ذلك يحب اللهو والقصف • فاستنتج من ذلك ببساطة أن الشىء الذى يهم هذا الفتى خاصةً هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته المباشرة ، فمتى تحقق له ذلك هدأ فورا ، ولو الى حين طبعا • أدرك فيدور بافلوفتش الفائدة التى يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التى يتصف بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلا ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعاتٍ زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعةً من حين الى حين • حتى اذا نفد صبر ميتيا أخيرا ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوِّى قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئا البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مديناً له بشىء ؛ وما كان أشد دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذى أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له أن يطالب بشىء البتة ! الخ الخ ••• صُعق الفتى ، وأحسَّ بأنه خُدع وغُرِّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت ثائرته حتى بدا كمن طاش لبه وذهب صوابه وجن عقله • تلكم هى الوقائع التى أدت الى

الكارثة .. الكارثة التي تتألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية، أو قل يتألف من سرد قصتها البناء الخارجي لتلك الرواية . ومع ذلك ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابني فيدور بافلوفتش الآخرين ، ينبغي لي أن أتكلم عن أخوي ميتيا ، وأن أذكر كيف جاءا الى هذه الحياة الدنيا .

٣

الزواج الثاني وابنا الفراش الثاني

بعد أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا ولمَّا يكد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن تزوج مرةً أخرى . وقد دام زواجه الثانى هذا زهاء ثمانى سنين . وكانت امرأته الجديدة، صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير حقير من أجل قضية تتعلق بشراء أرض . ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على استرساله فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا عن الاهتمام باستثمار رءوس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرّف شئونه الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشيء من النذالة والغش فى كثير من الأحيان كما يُتوقع ذلك من مثله . وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوما . انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت فى منزل ارستقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فوردخوف ، التى كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربيها وتضطهدها فى آن واحد . لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة مسكينة عذبة دمثة ، قد وُجدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بمسمار

في شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظـــاهر شريرة ، ولكنها كانت في حقيقة الأمر امرأةً جعلها الفراغ متســـلطة تسلطاً لا يطاق ، مستبدة استبدادا أحمق لا يحتمل • وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتـــاة فسألوا عنه ، فرفضوه • فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله في المرة الأولى ، فعرض عليهـــا أن يختطفهـــا • وأغلب الظن بل الأرجح أنهـــا ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها. ولكن السمعة السيئة التى نالها فيـــدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينه لا تعرف الا شيئا واحدا هى أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها في منزل هذه السيدة المحسنة اليها • هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى بيت محسن • ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشا واحداً ، لأن الجنرالة قد غضبت غضبا شديدا فلم تهب للعروسين شيئا عدا اللعنة. على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال في هذه المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه ما رآه فى نظرتها من صفاء أحـدث تأثيرا عميقا فى نفس هـــذا الرجل الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الســاقط الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسيسة • « ان تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عنـــدئذ كسكين » : كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضـحكة الساخرة المعهودة فيه • ومن الجائز أيضا أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى فاسق مثله الا صـــورة من صور اللذة الحسية • وقد اعتقـــد فيدور بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أى تحـــرج ، واستغل شعورها بأنها « مذنبة » فى حقه هو الذى

« أنقذها من الحبل » ، واستغل من جهة أخرى مايتصف به طبعها من عذوبة مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التى توحيها الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات . ويجب أن أذكر ، فى هذه المناسبة ، كسمة من السمات التى تميز هذه البيئة ، أن الخادم جريجورى ، الانسان الماحك المتجهم الغبى العنيد ، الذى كان قد كره زوجة سيده الأولى ، آديلائيد ايفانوفنا ، قد انحاز فى هذه المرة الى صف الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش فى أمرها ، مستعملا فى مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبولة من فم خادم . حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا القوة فى طرد المخلوقات الفاجرة التى تجمعت فى المنزل . وقد أصيبت هذه المرأة البائسة التى قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها، أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصةً بين أبناء الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى»*. ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستريا ، كان يهوى بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف . ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ، وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين . وحين ماتت ، كان الصغير ألكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره . وانى لأعلم ، مهما يبد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنه طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً . وقد كان مصير هذين الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى كوخه مثلما ضمّ اليه أخاهما من قبل . وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انما

اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التي كانت لأمهما محسنة ومنشئة.
كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الاهانة التي ألحقت بها. وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار «عزيزتها صوفيا» تفصيلا، فلما علمت بنبأ المرض الخطير الذي ألم بها، كما علمت بأنباء البيئه الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها، قالت مرارا كثيرة، بصوت عال، أمام صديقاتها ومحمياتها: «لقد استحقت ذلك، فان الله هو الذي يعاقبها على نكرانها الجميل وجحودها النعمة..».

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماما، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأسا الى منزل فيدور بافلوفتش. ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة، ولكنها لم تضع وقتها سدى. كان ذلك في نحو المساء. ان فيدور بافلوفتش الذي لم يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هب الى لقائها الآن وهو في حالة سكر لطيف. فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين مدويتين، دون أن يراودها أي تردد، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات. ذلك ما رواه بعضهم. ثم اتجهت الى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان، دون أن تنطق بكلمة واحدة، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يغسلا وينظفا، وأن ملابسهما الداخلية لم تغير، أسرعت تصفع جريجوري أيضا، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها. ثم خرجت بهما كما كانا، بعد أن لفتهما بغطاء، ووضعتهما في عربتها، وعادت بهما الى مدينتها. لقد تلقى جريجوري هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع، دون أن ينطق بكلمة، ودون أن يخرج عن أدبه؛ بل لقد رافق السيدة العجوز الى عربتها، وقال لها وهو ينحني حتى مستوى الحزام، قال لها في اقتناع

كامل وايمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هـــذين اليتيمين • » ، فصرخت الجنرالة تقول له وهى تنصرف : « أنت مع ذلك أبله • » • وبعد أن قلّب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفـة انتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام • ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرســمية على أن يُربّى الصــبيّان فى منزل الجنرالة وذيّل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه • أما الصفعات التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها •

وحدث أن توفيت الجنرالة بعد ذلك بزمن قصير ، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن هذا المبلغ « مخصص لتعليمهما ، فما ينبغى أن ينفق منه شيء الا عليهما ، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فاذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غـير كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ » • اننى لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هـــذا القبيل ، وانها قد كتبت بعبارات طريفة عجيبة • ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هـو ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة • وقد كتب الى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشا واحدا فى سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ، وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد أحيانا الى التدفق فى أقوال عاطفية) • قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصيا ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فربّاه فى أسرته نفسها خلال سنين • أرجو من القارىء أن تظل هذه النقطة ماثلة فى ذهنه • لئن استطاع هذان الشابان أن ينعما فى حياتهما بتربية جيدة

وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى ايفيم بتروفتش هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما فى غيره . انه لم يمسن الروبلات الألف التى ورثها كل من الصبيين من الجنرالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين . لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبلات الألف طبعا . لن أدخل هنا فى قص تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقتصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها . فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء . صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منـــذ السنة العاشرة من عمـره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرة هى أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربَّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمـــال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، الخ الخ . وقد أظهر هذا الصــبى فى وقت مبكّر ـ منذ طفولته الأولى فيما يقال ـ استعدادا عظيما للتعلم وتفوقا واضحا فى الدراسة . اننى لم أطلع على التفاصيل ، ولكننى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتش وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بمــوسكو حيث عاش فى « بنســيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتش فى طفولته . وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتش من حماسـة شديدة لأعمال الخير » ، لأن ايفيم بتروفتش قد استقر فى ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مرب عبقــرى . على أن ايفيم بتروفتش والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمـة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب الى الجامعة . وقد تأخر استلام الروبلات الألف

التى أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتى صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التى اتخذها ايفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والآجال الطويلة التى لا بد منها ولا غنى عنها فى بلادنا ... لذلك كانت السنتان الأوليان اللتـان قضاهما ايفان فى الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات . لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته. يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات أن يستنجد فى ذلك الظرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم فى نفسه ، واما عن احتقار وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادىء قد حدَّثه بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال . المهم أن المصاعب لم تفت فى عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا . أخذ فى أول الأمر يعطى دروسا فى المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيرا — بالسعى من ادارة تحرير الى ادارة تحرير — أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، فى حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلةً بتوقيع « شاهد عيان » . وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتـوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعا . بذلك استطاع هـذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئـك الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما فى عـوز وفاقة ، ويلم بهم فى عواصمنا البؤس والفقـر والشقاء ، ويحـاصرون ادارات تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح الى المساء . انهم فى العـادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال المراسلة . فلما استطاع ايفان فيدوروفتش أن يصل الى ادارات التحرير دبـّر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء السـنين

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية . على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت اليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه . كان هذا فى مناسبة طريفة جدا شائقة جـدا . كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهيأ بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريبا التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعا لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمى (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) . لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى * الذى كان فى تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان . فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية . وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة . ومع ذلك فان عددا من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله . وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة . وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى الدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركى تثير اهتماما عاما على حين فجأة . لقد قرىء المقال فى المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، « ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه » . وها هو ذا كاتب المقـــال يظهر فى مدينتنا بنفسه فى تلك الآونة نفسها .

تُرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أننى قد ألقيت هذا السؤال على نفسى منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق . ان هـــذه الزيارة المشئومة التى كانت السبب فى وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت فى ذهنى خلال زمن طويل ، بل ظلت فى ذهنى الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلاً . انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقـرر على حين فجأة أن يجيء الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن يجيء الى أب كهذا الأب الذى جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعـــرف شيئاً عنه ، حتى نسى وجوده ذاته . والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذى كان سيرفض قطعاً فى أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنـه شيئاً من مال لو سأله ذلك ، كان فى خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبا منه بعض المال واحدا بعد آخر . ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا . وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريبُ زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان فى ذلك الحين يقيم عندنا فى الأرض التى يملكها بضواحى مدينتنا . فلقد رضى أن يترك باريس الى حين ، بعـد أن اتخذها مقراً له . ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصبح يحس

بالمنافسة بينه وبينه فى شئون العلم والثقافة العـامة ، على شيء من ألم يستشعره خفياً . كان يسر الينا فى كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء . ولن يصعب عليه أن يجنى رزقه . ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال، لأن أباه لن يعطيه شيئاً . أما أن يسكر وأن يسترسل فى المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فان الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! » . هذا صحيح . ولقد كان واضحا أن الشاب يؤثر فى أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يطيعه فى بعض الأحيان، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعى كثيراً ، ورغم أنه يكون فى بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم فى سلوكه قليلاً ...

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمن طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الاكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه . وفى هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينتنا ، انما عرف ذلك الأخ الذى لم يكن قد رآه من قبل فى يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره الى موسكو فى موضوع قضية هامة تتعلق خاصةً بدمترى فيدوروفتش . وسأشرح للقارىء ماذا كانت تلك القضية ، حين يجيء أوان الكلام عليها . ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطلعت على هذه الظروف الخاصة ، ظللت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً محيِّراً ، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجـد له تعليلاً ولا تفسيراً .

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً فى النزاع الناشب بين أبيه وأخيه الاكبر دمترى الذى ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية .

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع في تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون في هذه المناسبة . ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذى كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل اليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضع كلمات تكون مقدمة للدخول في موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : انني مضطر في الواقع الى أن أقدم بطلي للقارىء في مسوح فتى يتأهب للترهب . انه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئاً لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

٤

اليوشا ، الإبن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقـــد دخل أخوه ايفان فى الرابعـة والعشرين ؛ أما أخـــوهما دمترى فهـو يشـــارف على الثامنـة والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاجمال ان الفتى اليوشا لم يكن فيه شيء من تعصب دينى فى رأيى ، لا ولا كان صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيى فيـــه قلت : انه ، بكل بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منـــذ السنين الأولى من حياته •فلئن اختار طريق الاعتكاف فى الدير ، فما ذلك الا لأن هـــذا الطريق كان يبدو له فى تلك الآونة السبيل الوحيدة التى يجب أن تسير فيها حياته ، والملاذ المثالى لنفسٍ مفتونة بالنور والمحبة ضدّ ظلمات الكره والبغض فى هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيما*، الذى عدّه الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقا شديدا فيه كل الحرارة الأولى التى تتدفق فى قلبه الظامىء • على أننى لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منـــذ المهد • سبق أن ذكرت ، فى هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه فى السنة الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة فى خياله طوال حياته ، فهـو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها « كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي » . ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع قد ترسخ في النفس ، حتى في سن أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبعثرة تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاءً منفصلةً من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التي بقيت وحدها ساطعة . وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسي الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أي شيء آخر) ، وصورة مقدسة في ركن من الغرفة ، وسراجٍ صغير يشتعل أمام الصورة ، والأمّ راكعةً على ركبتيها ناشجةً منتحبة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة ، ثم اذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت الأم تمده الى الأيقونة كأنما لتضعه في حمى أم الرب ... وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة ، فيبدو في وجهها ذعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدي أمه . يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الافصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم في الطبع والمزاج ... أبداً ... بل بسبب شيء خاص في نفسه ، بسبب اهتمام داخلي ، شخصي تماما ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس • ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر•
وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها فى اندفاعة ثقة بالناس ، ومع
ذلك لم يعده أحد فى يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً • كان فى نفسه
شيء لا أدرى ما هو ، شيء يُشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد
أن يحكم على أخيه الانســان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن
يرضى بحال من الأحوال أن يلقى اللوم على الملأ • حتى لقد كان يبدو
أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة فى كثـير
من الأحيان • ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفـه
شيء ، وذلك منذ غضارة صباه • وفى منزل أبيــه ، الذى كان ماخور
فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذى بلغ العشرين من عمـره
محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه
لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهـر
عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأى انسان • أما أبوه ، الطفيلى القديم
الذى كان لهذا السبب سريعا الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله
فى أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود
كثير (« انه مسرف فى الصمت تجاهى ، مسرف فى التفكير دون أن يقول
شيئاً ») ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين فى أكثر تقدير يعانقه ويضمه الى
ذراعيه فى كل لحظة • صحيح أنه كان يفعـــل ذلك بدموع السـكران
وعواطف المخمور • ولكن كان واضحا مع ذلك أنه يحبــه حبا صادقا
عميقا ، كما لم يحب رجل من نوعه أحدا •••

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال• لقد أيقظ عواطف
المحبة والمودة له فى نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته • وأيام
كان يعيش فى منزل المحسن اليه والمربى له ، ايفيم بتروفتش بولينوف،
بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاما عن أى مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سن يجهل فيه الكائن الانسانى كل شيء عن فن الممالأة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه . لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك . هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان . لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه فى فترات الراحة بين الدروس ، فيغرق فى التأمل . كان أليوشا يحب كثيرا ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتابا من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيما ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه غير منازع . كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية رائقة . وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى كذلك أحدا . ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدلّ بها ، بل يظل بسيطا منطلقا على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجرأته وجسارته . وكان لا يحتفظ أبدا بذكرى اساءة نالته أو اهانة أُلحقت به . وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين . كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يغفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فورا . ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، في جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خبيثة في السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع في نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشديد ، وخفره العظيم المرتبط بالحشمة والعفة . ان الأحاديث التي يتبادلها التلاميذ عن النساء، والتعابير التي يستعملونها في هذا المجال ، كانت أمورا لا يطيق الصبي أليوشا أن يسمعها . ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها . ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صغارا ، يجدون لذة كبيرة في أن يتحادثوا في هذه الأمور ، بصوت عال في كثير من الأحيان، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحي حتى الجنود في الثكنات أن يتكلموا فيها . الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، في كثير من الحالات ، أمورا أصبحت في أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب. والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التي يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة في الذوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلَّد . فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على « هذه الأمور » ، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة . فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتمي على الارض ، ويخفي وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساءة صامتا . وانتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه . وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه فى يوم من الأيام .

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم بتروفتش . ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التى لا يجد العزاء الى قلبها سبيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التى تتألف من نساء فقط . فانتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمتان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هى الترتيبات التى استقبلته هاتان السيدتان على أساسها . تلك سمة بارزة من سمات طبعه، هى أنه كان لا يهمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياةً شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله . على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقتنع بأنه كان فى شئون المال واحدا من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألهم ذلك أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه ويسلبهم اياه . وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وانما يجب أن نفهم هذه الكلام على المجـاز لا على الحقيقة طبعا . كان أليوشا اذا أعطى شيئاً من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له اما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن ينفقه بلا حساب فاذا بكل شيء يختفي في غمضة عين . ان بطـرس ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شـئون المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما بعد أن لاحظه عن كثب : « لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد في هذا العالم الذي يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد في وسط مدينـة كبرى لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد ... انه سيدبر أموره عندئذ بأيسر طريقة ... فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه .. ولن يكلفه ذلك أي جهد ولن يحمّله أية مذلة .. والشخص الذي سيضمه اليه لن يشعر بعبئه ، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى . » .

لم يتم أليوشا دراسته في الكوليج . كان قد بقي عليه أن يقضي في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن في ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهمـا أنه سيذهب الى عنـد أبيه لأمر يتنويه . ندبت السيدتان حظه كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصـداه عن عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته – وهي هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج – فقد زوّدتاه بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثيابا جديدة وملابس داخلية. ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حـرصاً مطلقاً على أن يسافر في الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصـل الى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التي ألقاها عليه أبوه (« ماذا دهاك ، يا بنيّ ، حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟ ») ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عُهد فيه • ذلك ما قيل • وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه • وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذى دفعه الى المجىء • ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه • ولعله كان يجهل هو نفســـه فى تلك الآونة الأسباب العميقة التى حملته على المجىء ، ولعله كان لايستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها • لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذى دُفنت فيه زوجته الثانية • انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيَّع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت •••

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش • لقد أقام فيــدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا • انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واســـتقر فى أوديسا حيث عاش عـدة سنين متصلة • وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حـــد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا فى منازل يهود فحسب ، بل فى منازل عبريين أيضا » • فمن حقنا اذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حيـاته انما نمَّى وحسَّن وجوَّد فنه فى تصريف الأعمـــال وارباء الأموال • ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين• وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثــيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعـد ؛ كما اكتسب عادات فيهـــا مزيد من الاستهتار والوقاحة • من ذلك مثلا أن هذا المهرِّج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من الغطرسة والعجرفة أن يخفض الآخـــرين الى هذا المستوى ؛

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك كله في الماضي ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز أيضا . ولم يلبث أن فتح في مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه كان يملك رءوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديريتنا يقرضونه أموالاً ، لقاء فوائد طيبة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتضعضع وتغضن في الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه منها في الماضي ؛ وأصبح سلوكه أقل ترويا وتأنيا ووعيا ، حتى لقد برهن في بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبل ، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه الى غيره، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض . وأصبح يسكر مزيدا من السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجوري الذي دلف الى الشيخوخة قليلاً هو أيضا ، والذي كان يسهر عليه سهر المربي أو المربية تقريبا ، اذن للقي فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجيء ألكسي قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيرا حسنا فيما يظهر ، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذي شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » (كذلك كان يسمي امرأته المتوفاة ، أم ألكسي .) . واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجوري ، أن يهتدي الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم في ذات يوم الى مقبرة المدينة ودله على صفيحة من الصلب كانت مهجورة في مكان ضائع ، وقد نقش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها في أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذي جرت العادة أن تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه

الصفيحة المعدنية انما كانت قد وضعت فى ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا • لقد حاول جريجورى أن يذكّر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابىء بالقبور ، وغير حافل بالذكريات • لم يظهر أليوشا أى انفعال أمام قبر أمه؛ واستمع بغير اهتمام الى ماروا، جريجورى جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدنى كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضا رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرةً أخرى ربما خلال سنةٍ كاملة • على أن تذكر الماضى هذا قد أثر فى فيدور بافلوفتش بعضَ التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه• أخذ ألف روبل دون أن ينبىء أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تُتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلائيد ايفانوفنا ، تلك التى كانت تضربه • وفى ذلك اليوم نفسه أيضا ، سكر سكراً شديداً وقال بحضور أليوشا كلاما أسوأ من شنق الرهبان • لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين الى أقصى حدٍ ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعةً بقرشٍ واحد أمام أيقونة • غير أن أفرادا من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، ولكنه موقت على كل حال •

سبق أن قلت انه قد تغضَّن وجهه • والحق أن وجهه كان يحمل فى تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التى عاشها ، وأنواع الأهواء التى عصفت به • فالى الجيوب الطويلة المتنفخة التى كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً باحثتين مفتشتين

وقحتين ساخرتين ، والى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تخدد وجهه الذي كان صغيرا ولكنه ملىء بالشحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تضفى على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منفّرة . وكان له أيضا فم كبير نهم منتفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تفتتت تماما . فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متناثرا . ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؛ كان يلح في كلامه خاصـةً على شكل أنفه الذي كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس . كان يقول : « هو أنف روماني حقا ، فاذا ضممت اليه ذقني المزدوجة كنت ترى نبيلا من نبلاء روما في عصر الانحطاط . » . كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معتزا به .

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً . وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرّ أمنياتها ، وانه في هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير . وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذي انزوى في الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا في « ابنه الطيب العذب » .

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذي لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

ـ لا شك أن هذا الشيخ زوسيما* هـو خير أولئك الرهبان ... هيمْ ! ... ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بني الطيب اللطيف . (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من مكر وخبث) ... هم ! ... لقد تنبأت أنا بأنك ستنتهى الى حيث انتهيت ، هل تعلم ؟ هأنت ذا قد عزمت أمرك الآن . انك تملك ألفى روبل هما لك وحدك ... تلك ذخيرة طيبة ... أما أنا يا ملاكى فلن أتركك قط ، حتى اننى مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل ما سيطلبه منى . ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن نزعجهم ... أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق كثيرا ، ولست تحتاج من المال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيور الكنارى ... تكفيك حبتان فى الأسبوع ... اننى أعرف ديراً يملك ، فى خارج المدينة ، دوراً صغيرة . وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم « زوجات الدير » ... ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة هناك ... ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم . لقد ذهبت الى هناك، وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التنوع . ليس ثمة الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووحدانا ... أما هنا فلا شيء من ذلك ! ليس للدير زوجات ... وعددهم مائتان هؤلاء الرهبان ! لا شيء هنا الا العفة والشرف . هم أناس أطهار ... أعترف أن ... هم ... أتريد أن تكون راهبا ؟ اننى أرثى لحالك قليلا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أننى تعلقت بك ؟ على كل حال ... رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويغفر لنا ، ذلك أننا قد أثمنا كثيرا على هذه الأرض . اننى أتساءل منذ زمن طويل : « ترى من ذا الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلي لنا ؟ » • يا ولدى المسكين ، انني غبي جدا في هذه الأمور ، لو علمت ••• غبي جدا ، صدقني ! ••• ولكن مهما أكن غبيا في هـــذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا • صحيح أنني لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكنني فكرت فيها • قلت لنفسي : « يستحيل أن تنسى الشياطين انتقاطي بمجارفها حين أموت » ، ثم تساءلت : «مجارف؟ من أين لها المجارف ؟ وممّ صُنعت هذه المجارف ؟ ألعلهـــا صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ ألعل عندهم اذن مصنعا ؟ » • ان الرهبـان ، هناك ، في الدير ، يؤمنون مثلا بأن في الجحيم سقفا • أما أنا فلا مانع عندي من أن أعتقـــد بوجود الجحيم ، ولكن شريطـة أن لا يكون له سقف • انني أوثر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمـانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعاني• ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؟ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه ••• من عسى يلتقطني بعد موتي ، من عسى يحملني على مجرفة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطني الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ في هـذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجلي أنا خاصة ، من أجلي وحدي ، لأنني مذنب خالع العذار يا أليوشا ، لو علمت ! ••••

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه :

ـ لا ليس في الجحيم مجارف •

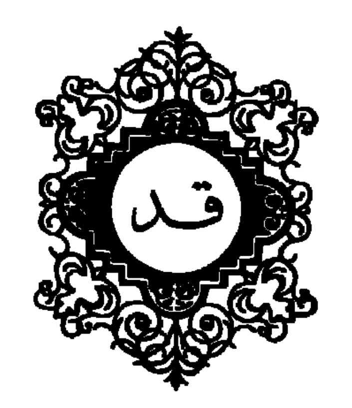
ـ هه ! هي اذن أطياف مجارف فحسب ؟ فهمت ! فهمت ! هـــذا يذكرني بفرنسي وصف الجحيم كما يلي : « رأيت طيف حوذي * كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة » • من أين عرفت يا طائري الصغير

أن ليس ثمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنّ غير هذا الكلام .
اذهب اليهم على كل حال . ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدتها
تعال الىّ فحدثنى عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسوة على ، لأننى
أكون قد عرفت ما ينتظرنى فى الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسبك أكثر
من منزلى الذى يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ... رغم أنك بما
لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ
بها ملاك . لا أدرى هل تستطيع البقاء أيضا مع هؤلاء الرهبان ... لذلك
آذن لك أن تلتحق بالدير ! ... اننى أُعتمد على سلامة حكمك وحصافة
رأيك . ليس الذكاء ما يعوزك . ان النار تشتعل ثم تنطفىء . فمتى
شفيت رجعت الىّ . لسوف أنتظرك . أنت الانسان الوحيد فى هذا
العالم الذى لم يتهمنى ولم يدنّى ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعرفه
يا صغيرى الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل . انه عاطفى : هو خبيث
وعاطفى معا .

٥

مشايخ الرهبان



قد يميل بعض قرائى الى الاعتقاد بأن الشاب الذى أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم . والواقع أن أليوشا كان فى تلك الآونة عكس ذلك : انه مراهق فى التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورّد الخدين مضىء النظرة ؛ بل لقد كان جميل الوجه قوى البنية . وهو مربوع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسمات على شىء من الاستطالة، تسطع فيه عينان شهباوان قاتمتان متباعدان تفيضان حياة . انه يبدو شارد الذهن كثير التفكير ، وهو فى الظاهر هادىء هدوءا كبيرا . رب قائل يقول ان تورد الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى الصوفية . ولكننى أعتقد أن أليوشا كان واقعيا أكثر من أى انسان آخر . صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأيى أن تزعزع فكر انسان واقعى . ذلك أن المعجزات ليست هى التى تولد الايمان لديه . ان الواقعى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا سبيل الى جحودها آثر أن يشك فى صـــدق حواسه على أن يسلم بالواقع • حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عده ظاهـرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر • ان المعجـــزات لا تولد الايمان لدى الواقعى • بالعكس : فان الايمان هو الذى يستدعى لديه المعجزات • فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجـــزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها • لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشىء قبل أن يرى ، ولكنه حين رأى هتف يقول : « أنت الهى يا رب ! » • فهل المعجزة هى التى أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا ••• وأنه انمـا آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، فى أعمـاق كيانه منذ كان يقول : « لن أؤمن ما لم أشاهد • »

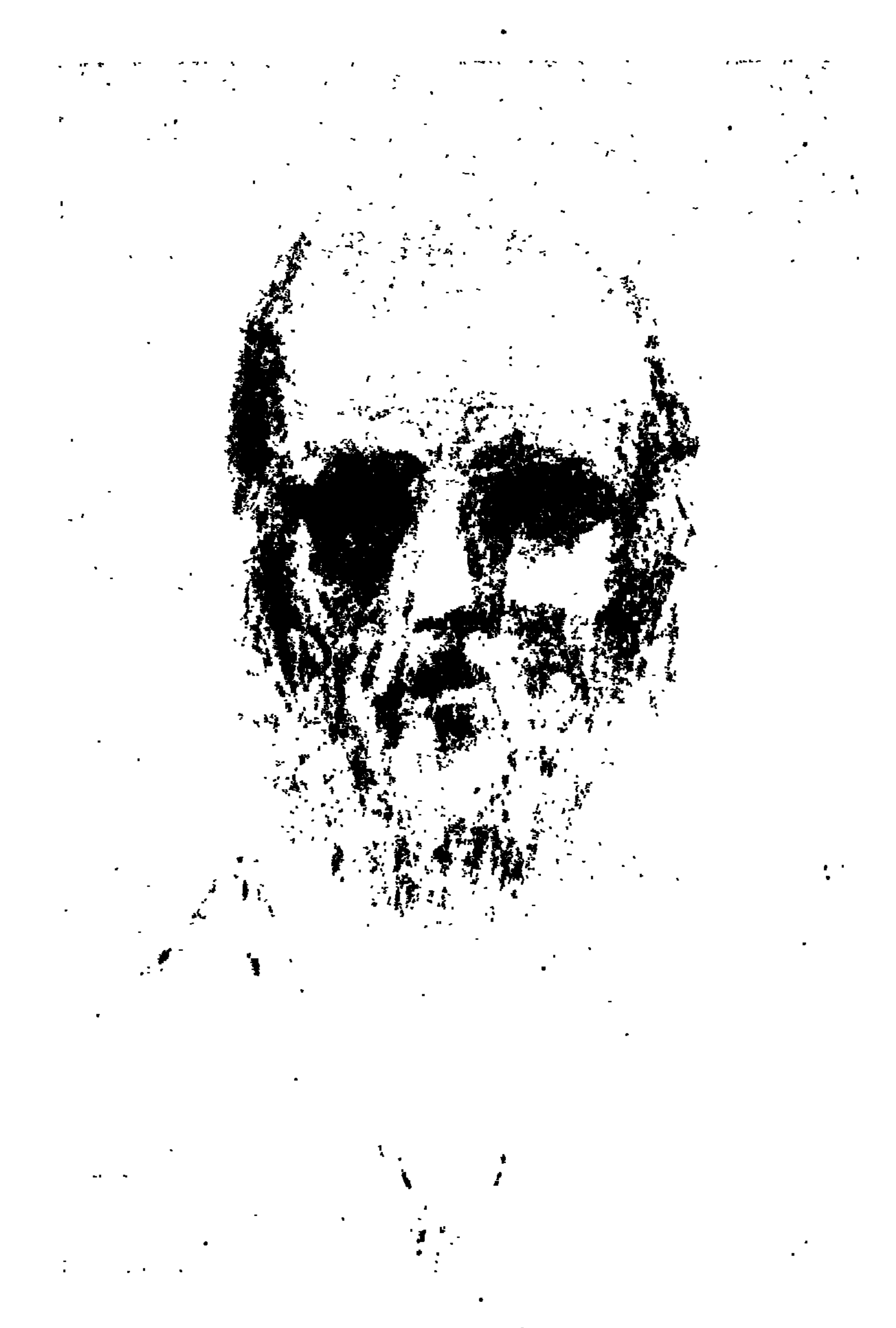
وقد يُظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم يتم دراسته فى الكلية ، الخ • فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسبانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير • ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها الطريق الوحيدة التى كانت تجتذبه فى تلك الآونة ، لأنها الطريق الوحيدة التى تتيح له فرصة رائعة هى أن يتمكن مرة واحدة من حـل الصراعات القائمة فى نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطـلاق نحو النور • تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشىء، أى كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتســـعى اليها وتؤمن بها • فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة فى أن يقف على خـدمتها كل روحه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطـاء أو تلكؤ ، وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن كل شىء فى سبيلها والزهد بكل شىء من أجلها ، ولو كان هذا الشىء هو الحياة ذاتها • من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لايدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال خمس سنين أو ستة من الدراسة ـ ولو لمضاعفة وسائل تاثيرهم وأدوات عملهم بالمعرفة المكتسبة ـ بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون ان ينذروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمـــالهم التي يحلمـــون بها تحقيقا أتم وأكمل ، اقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم . تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب. صحيح أن أليوشا قد اختار طريقا تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوية حارة في الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين . انه منذ فكر تفكيرا عميقا فاقتنع بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعي تماما : « انني أريد أن أعيش للخـــلود ، وانني أرفض التســـويات وأنصاف الحلول » . ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدا واشتراكيا (لأ نالاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو مايطلق عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانمـــا هي قبـــل كل شيء نظرة الحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين . انها قصة برج بابل القديمة التي أراد البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرتفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) . ما كان لأليوشـــا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي . لقد قيل : « هب كل ما تملك واتبعني اذا أردت أن تبـــلغ الكمال » » فحـــدث أليوشا نفسه قائلا : « هل في وسعي أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب « كل شيء » ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء « اتبعني » فهل أكتفي بالذهاب الى

الصلاة ؟ » • من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا في ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير في الماضي للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبته أيضا • ومهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطي « كل شيء » أم يعطي روبلين فحسب • ولكنه التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك •

انه شيخ الرهبان زوسيما ، كما سبق أن أشرت الى ذلك • وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان في أديرتنا • سوف أحاول ، رغم انني أشعر ، على أسف ، بأنني لست بالعالم الكفء في هذا المجال ، وبأن معارفي ليست راسخة جدا في هذه الشئون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحيا • ويجب أن أذكر قبل كل شيء ان المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية الا في عهد متأخر بعض التأخر ، في عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسي كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام • ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التتري والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود • ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضي على يد أحد كبار

المناضلين منا في سبيل الايمان ، ألا وهـو الناسك بائيسي فيلتشوفسكي * (كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مريديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك المدة كلها ، وهي تقارب مائة عام ، الا في عدد صـغير من الأديرة ، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب كما لو كانت بدعةً خارقة • ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصـةً (في روسيا) في الصحراء الشهيرة ،صحراء كوزلسكايا أوبتينا * • أما متى دخلتْ الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك أمر اعترف بأنني أجهله ، ولكني أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيما • كان زوســيما يحس أنه يوشـك أن يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذي سيحل محله اذا مات • ان لهذه المسألة شأنا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذي لم يكن يملك شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضـمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومي • ان هذا الدير لم يشارك في أي عمـــل باهر ، ولم يسهم في أي عمل وطني • انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شـهيرا في روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج ذرافات من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة في رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهـم • فما هو الشـــيخ على وجه التحديد ؟ انه السـيد المطلق الذي يسـيطر على النفـوس والارادات ، ويحتوي في ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار• فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطـاعة مطلقة ، ناسيا ذاته كل النســيان • والذي يختار هذا النظــام القاسي ، ويرتضي تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهبية ، انما يفعل ذلك بارادته، أملاً في أن يصــل ، بعد محنٍ طــويلة ، الى التغلب على ذاته ، والى



الشيخ زوسيما

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقة : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطـــوفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم • ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدها الى أكثر من ألف عام ، قبـــل أن يدخل الى بلادنا • ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجـــرد « الطـــاعة » التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتنا الروسية • فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفترض ثقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ فى اتصال روحى أصـــبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحـــوال • يحـــكى مثـــلا أن راهبا مبتدئاً من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر فى البلد الجديد الذى مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين • وأخذت الكنيســة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التى يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعاً ، وتكرر ذلك ثلاث مرات • وعُرف أخيرا أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، مالم يأذن بذلك شيخه • واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته • تلكم أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا * ، اعتكف فى دير بجبل آثوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذى ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطىء الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا . قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » . حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضن ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة . ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد فى العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذى فرضه عليه وألزمه به . هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح فى بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود . وذلكم هو السبب فى أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا فى كثير من أديرتنا فى أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد . ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما . من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكبارهم واعجابهم ويُسرّون اليهم ، فى مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد . وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التى نالوها وهذه الثقة التى اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف. غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا فى بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أديرتنا . يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح روحى للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالاً روحيا ، يمكن أن يصبح فى بعض الأحوال سلاحا ذا حدين ، وأن يخلق لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدى الى استعباد النفس بدلا من تحريرها .

ان الشيخ زوسيما هو الآن فى الخامسة والستين من عمره ، كان فى سالف الزمان « بوميستشيك » انخرط فى العسكرية فى صدر شبابه، وعمل ضابطا فى القفقاس . لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ، فأحدث فى نفس أليوشا تأثيرا قويا . كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها التى كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفا كبيرا ، فارتضى أن يكون له ولياً حميما . يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن قد تقيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب ، وربما غاب عن الدير أياما بكاملها . ولئن ارتدى مسوح الرهبان، فلقد فعل ذلك بارادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شىء . على أن من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضا . ولعل خيال أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين كانتا تحيطان بشيخه . ويقال ان زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسدى اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به

اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شـــجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التى تجيش فى نفســه وحتى الآلام الخبيئة التى تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبـؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليـكاد يرمى فى قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحـوا أفواههم بكلمة واحدة • وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضــــطراب وخوف ، حتى اذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادىء النفس مطمئن البـــال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة فى أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة • ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة • بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح • وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا • صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى فى نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كرهاً ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لاينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها فى الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذى كان من أقدم رهبان الدير ، والذى اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام • غير أن أكثر الرهبان قـد انحازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشـك أن يكون تعصباً ،

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك فى أنه قديس ؛ واذ كانوا يتنبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسعدون سلفا للمجد الذى سيناله الدير فى مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله . وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المعبد . لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يعودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له . كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضىء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجّين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة . وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تجيئه برجالها ليشفيهم . فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، ويباركهن قبل أن يصرفهن . وقد أصبحت نوبات المرض فى الآونة الأخيرة تبلغ من اضعافه فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أياما بكاملها . ان أليوشا يرى أن من الطبيعى أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة .

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حناناً حين يرون وجهه . كان أليوشا يشعر شعورا قويا بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسى ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضنيها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة ـ خطايا الناس وخطايا هى ـ كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلا أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ... ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؟ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقـل ، ويعرف أين هى الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هـــذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضا فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء فى الكتاب . . » . كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب . فأما أن الشيخ هو القديس وهـو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايمانا لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفـلاحات اللواتى يمددن صغارهن الى الشيخ ؟ ولعل يقينه من أن الشيخ سـيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أى راهب آخر. ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوما بعد يوم . وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائى فى هذا العالم رغم كل شىء . كان يقول لنفسه : « أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّ بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هـــذه الأرض بغية أن يصـير جميع الناس قديسين وأن يحب بعضهم بعضا ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعا سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكـوت

يسوع المسيح ٠ ٠ ٠ ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا ٠

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث في نفس أليوشا أثراً كبيرا فى تلك الآونة ٠ لقـــد تفاهم مع أخيه غير الشقيق ، دمترى فيــدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمـق من تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل دمترى ٠ كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كثب ، ولكن رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان كثيرا ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقي : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شـيئاً ما أو ينطوى على نفســه فى نوع من الخشية أو من الحرج الداخلي ؟ وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصـبح لا يهتم به ٠ وكان أليوشا يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فـرق فى السن والثقافة ٠ غير أن تعليلا آخر كان يساور فكره أحيانا ، فكان يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشـــغول البال دائما بشيء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جدا ، وأنه يتطلع الى بلوغ هدف لعله رفيع جدا وصعب جدا ، فما يتسع وقته كثيرا لأن يلتفت الى أخيه وأن يفكر فيه ٠ أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقي الوحيد لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شيء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجـاه راهب مبتدىء غبى ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله ٠ ان مثل هذا الاحتقار ــ اذا وجد ــ قد لا يكدّر أليوشـــا ، ومع ذلك كان أليوشا ينتظر ، بقـــلق غامض تخالطه خشـية ، اللحظة التى يقرر فيها أخوه أن يقترب منه ٠ أما دمترى فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة • ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التى خلقت بين الأخوين فى الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقا • وكانت هذه الحماسة التى يظهرها دمترى فى تقدير أخيه ايفان تكتسب مزيدا من الدلالة فى نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلا لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقـــافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختـــلاف أحدهما عن الآخـــر فى الطبـع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصـــور انسانين بينهما من قوة التنافر وشدة التفاوت ما بين هذين الأخوين •

وفى تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلى أو قل الاجتماع العائلى فى حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة ، وذلك حادث كان له فىأليوشا تأثير كبير• الحق أن الحجة التى اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة • ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيــه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصـــفية الحساب كان قـد بلغ فى تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق • وان فيدور بافلوفتش هو الذى اقترح ـ مازحاً فيما يظهر ـ أن يُعقد اجتماع فى حجرة الشيخ زوسيما بغيـة الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المـــودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ فى الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا فى الجميع تأثيرا يهـدىء النفوس ويصالح القلوب • وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذى لم يسبق له أن زار الشيخ يوما والذى لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعا أن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويفه بسلطان هذا الشيخ • ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدى ، لأنه كان فى سرّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحيانا كثيرة في الآونة الأخيرة • ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن فى منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وانما كان يقطن وحيداً فى الطرف الآخر من المدينة • وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطرس ألكسندروفتش ميوسوف الذى كان يقيم فى مدينتنا آنذاك ، أن تبنى الرأى الذى اقترحه فيدور بافلوفتش • انه ، وهو اللبرالى على طراز سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ،قد ساهم في هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة طائشة في السخرية والاستهزاء • وقد اشتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى « قديس » الدير • واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيه وحدود أراضى الدير ، وعلى الحقوق الغامضة فى قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر ، لم يكن قد حسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصيا ، فعسى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى القضاء ! وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يستقبل استقبالا ألطف وأكرم من الاستقبال الذى سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر • وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات فى داخل الدير ، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذى أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا اليه • لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحدد موعد للقاء ، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم : « ما أنا فى الحقيقة حتى يحق لى أن أكون حكماً بينهما ؟ » .

حين علم أليوشا بأمر هـــذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شـــك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسىء الى الشيخ وتجـــرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الادراك . فأخوه ايفان والســـيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربمـــا بداعى الفضول الفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرّجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هـــذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء. غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ، فكان يرتعد قلقاً عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسّها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهـــله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدّد للزيارة أن يبـــلغ أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه فى رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده فى سبيل أن يسيطر على نفسه وفى سبيل أن يتجنب أى « صغار » ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فخاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقـــوله : « ومع ذلك فاننى أوثر أن أبلع لسانى على أن أقول كلاما يؤذى هـــذا الانسان المقـــدس الذى تجله وتعظمه . » . غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا .

الباب الثاني: اجتماع في غير محله

١

الوصول الى الدير

كان ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مضيء حار . ان لقاء الشيخ قد حُدِّدت له الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظة انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهي مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره ، اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده ، يريد أن يصطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً . هو فتى قوي البنية طويل القامة حلو الوجه ، ولكن نظرته تجمد في بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له في بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو

فى العادة كثير الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شيء من خرافة ، ولكنه يتحمس فى بعض الأحيان ـ اذا خـلا الى صديق ـ فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب ظاهر • على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة • والفتى حسن الهندام دائما ، على شيء من تأنق • وهو يملك ثروة حسنة تكفل له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم • ولقد كان صديقاً لأليوشا •

وأما العـربة الثانية فقد ركبهـا فيدور بافلوفتش وابنـه ايفان فيدوروفتش ، وهى عربة عتيقة مهترئة مترنحة مقرقعة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناءً فى اللحاق بمـركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما •

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة •

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيراً على الأقدام • يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؛ أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً • كان ينظر حواليه بشيء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث • ولكن ما من شيء فى داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المبانى الدينية والمبـانى الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهى مبانٍ ليست على حظ وافـر من جمال فن العمارة • كان أواخـر المصلين يخرجون من الكنيسـة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رءوسهم ؛ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليـــل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجنرال عجوز جدا . كان هؤلاء جميعا قد نزلوا فى الفندق . وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجانوف ، فقـد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كوبكات ، وسارع يدسها مضطرباً بعض الاضطراب ــ لا أدرى لمـاذا ــ سارع يدسها خلسةً فى يد احدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » . لم يُبد له أحد ملاحظةً على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه .

استغربوا أن أحدا لم يجىء لاستقبالهم فى الدير . يظهر أنهـم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يَستقبلوا استقبالاً فيه حفاوة . ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل فى الآونة الأخيرة ؟ أليس الثـانى منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتـــوقف أمرهم عليـه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد فى النهر اذا جرت القضـية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجىء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجـاورة للكنيسة ، وهمّ أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقّ لهم أن يدفنوا موتاهم فى مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالســخرية اللبرالية تحرك فى نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لا يعلم الا الشيطان من الذى سنتجه اليه فى هذه الفوضى ... وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضى ...

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصلع ، متلطف النظرة . انه يرتدى معطفا فضفاضا من معاطف الصيف . رفع الرجل قبعته ، وقدّم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زاياً ، قائلاً انه المـلاّك ماكسيموف من اقليم تولا . وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

ـ ان الشيخ زوسيما يقطن الصومعة فى مكان منزوٍ على مسافة أربعمائة قدمٍ من الدير . فيجب للذهاب اليه اجتيازُ الغابة الصغيرة ، هذه الغابة الصغيرة ...

فأجاب فيدور بافلوفتش :

ـ أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجىء الى هنا من زمان طويل ....

قال الرجل :

ـ يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً فى الغابة ... الغابة الصغيرة .. هيّا بنا .. هل أستطيع أن .. اننى أنا أيضاً ، أنا أيضاً .. الطريق من هنا ، من هنا ! ..

خرج الجميع من الباب وساروا فى الغابة . كان مالك الأطيان ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة .

قال ميوسوف بلهجة قاسية :

ـ يجب أن أقول لك اننا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمور تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فلعلك

تدرك اذن أننا مع شكرنا لك على أنك تدلنا على الطريق نسألك أن لا تصحبنا فى الدخول عليه •

ـ لقد كنت عنده ••• كنت عنده ••• هو فارس عظيم ••

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه فى الهواء •

سأل ميوسوف :

ـ من ؟ من هذا الذى تصفه بأنه فارس ؟

ـ الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ••• شرف هذا الدير ومجده •• زوسيما •• ذلك الشيخ •

وفى تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأطيان حديثه المضطرب المفكك • توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف• وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحنى أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه مستوى الحزام :

ـ ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ، حين عودتكم من الصومعة ، بالمجىء اليه جميعاً لتناول طعام الغداء •

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

ـ وأنت أيضاً مدعو •

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحاً بهذه الدعوة :

ـ سأجىء ، سأجىء حتماً ••• لن أتخلف عن المجىء ! اعلم أننا قد تعهدنا جميعا بأن نتصرف هنا باحتشام • هل تجىء أنت أيضا يابطرس ألكسندروفتش ؟

ـ سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصى على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيـــد الذى يقلقنى الآن هـو أننى فى صحبتك يا فيدور بافلوفتش !

ـ نعم ! وما رأيكم في دمترى فيدوروفتش الذى لم يتنـــازل أن يصل حتى الآن ؟

ـ ليته لا يصل أبدا ! ألعلك تظن أنه يسرنى أن أجد نفسى مقحماً فى جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

ـ اننا نقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا .

فأجاب الراهب :

ـ أنا باق معكم ، لأننى مكلف باصطحابكم الى الشيخ .

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً :

ـ أما أنا فذاهب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً . أنا ذاهب اليه حالاً .

قال الراهب متردداً :

ـ الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن ...

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاّك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة :

ـ يا للعجوز الصغير المزعج !

فعقب فيدور بافلوفتش فجأة يقوله :

ـ انه يذكرنى بفون سون ! *

ـ كل شيء يذكرك بفون سون ؟ أى شبه بينه وبين فون سون ؟ وهل رأيته أنت ، فون سون هذا ؟

ـ رأيت صورةً له . قد لا يشبهه بملامح الوجه ، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده ... هو نسخة عن فون سون . أنا لا يخطئنى الظن أبدا فى مثل هذه الأمور . تكفينى نظرة واحدة ألقيها على الوجه ...

ـ طيب . لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال . ولكن لا تنس يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على أنفسنا عهداً ليكونن سلوكنا هنا محتشماً . تذكر هذا . راقب نفسك. اننى أطلب اليك ذلك جازماً قاطعا. اياك أن تأخذ فى تمثيل دور المهرِّج. اننى أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك .

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

ـ أرأيت أى نوع من البشر هو ؟ يميناً اننى أخشى أن أذهب فى صحبته الى عند أناس محترمين ...

وارتسمت على شفتى الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامةٌ ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء . لقد كان واضحا كل الوضوح أنه انما يتعمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية . قطَّب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب . وقال يحدث نفسه : «شيطان يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ، الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هذه هي الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصد والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التى تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه . وقال :

ـ لكل دير قواعد تجب مراعاتها . هم هنا خمسة وعشرون قديساً على وجه التقريب ، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص فى هذا المنسك، يتفرس بعضهم فى بعض ويأكلون الكرنب المخلل . ولكن ما من امرأة واحدة يُسمح لها باجتياز هـــذا الباب . ذلك أعجب شيء هنـا ، ولكنه حقيقة . فكيف نعلّل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل فى هـــذا المكان سيدات فى بعض الأحيان كما قيل لى ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب.

ـ ان نساء من عامة الشعب توجد هنا فى هذه اللحظة نفســها . تستطيع أن تراهنّ : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات . أما سيدات المجتمع الراقى فقـــد خصصت لهن فى الرواق ، ولكن على الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هـــذه نوافذهما تراها من هنا . فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلى متى أحس بأنه قادر على ذلك، دون أن يجتاز السياج طبعاً . وثمة سيدة من مالكات الأطيان هى الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا . أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج .

ـ هناك اذن ممر يؤدى من المنسك الى السيدات . لا يذهبنّ بك الظن أيها الراهب المحترم الى أن فى كلامى هذا شيئاً من غمز ! حاشا... فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النسـاء ،

فى جبل آثوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يُمنع هناك أيضاً وجود الأناث من أى نوع من أنواع الحيوان ... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟ ...

ـ فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك ! ولئن انصرفت أنا ليُخرجُنَّك من هنا جراً من كتفيك ! اننى أحذرك ...

ـ وددت لو أعرف ما الذى يزعجك منى يابطرس ألكسندروفتش؟

كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك :

ـ انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه ! ...

حقاً ... ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً فى هذا الأوان . لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال . وكان واضحاً أن يداً ماهرة صناعاً هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب . ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران . والبيت الصغير الذى يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوقه من كل جهة .

ـ قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات .

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل .

أجاب الراهب الصغير قائلاً :

ـ كان مظهر الشيخ فارسونوف يوهم حقاً فى بعض الأحيان أنه انسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التى قيلت فى حقه ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد فى يوم من الأيام ! انتظروا هنا لحظةً يا سادة . سأبلغ الشيخ قدومكم .

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش :

ـ أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ... أحسن التصرف ، والا جعلتك تندم ! ...

فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

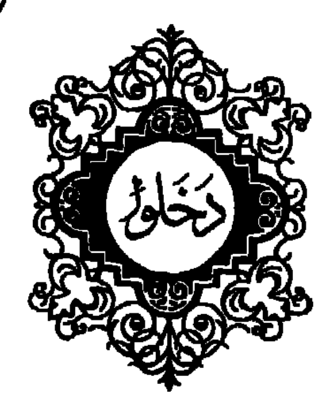
ـ لا أستطيع أن أفهم ما الذى يجعلك ثائر الأعصاب الى هذه الدرجة .أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أأنت خائف من قدرة هذا الشيخ ؟ يقال انه يقرأ فى أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش فى الضمائر وكل ما يثوى فى قرارة النفوس . هل يجوز لرجل باريسى تقدمى مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات ، لأنهم قد دعوا الى الدخول . وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحنق يلم به وغيظ يغزو قلبه .

قال يحدث نفسه : « اننى أعلم ما سيحدث الآن . أنا أعرف نفسى . سوف تثور أعصابى ، سوف أغضب ... سوف أتحمس ، فبذلك أخفض قدرى وأغض من قيمة آرائى . » .

٢

الهرج العديق



الحجرة فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريباً . كان فى الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما . ان أحدهما هو الأب القيّم على مكتبة الدير ، والثانى هو الأب بائيسى . ان الأب بائيسى رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن فى السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم . وكان هنا لك فتى يبدو فى الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف فى ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) . انه طالب سيصبح فى المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية . هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضىء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه . وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة . انه لم يسلّم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لايعد نفسه نداً لهم ، بل شخصاً ثانوياً مرءوساً .

دخل الشيخ يصحبه أليوشا ومترهب مبتدىء . نهض الراهبان

الكاهنان فسلـّما على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنيا له حتى لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلا كلمات المباركة وقبلا يدى الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردّ عليهما التحية منحنيا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفســها لامساً بيديه الأرض • ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التى قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية • ومع ذلك أحسّ ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال • وكان ميوسوف فى مقدمة صحبه • وكان يقول لنفسه ـ وذلك أمر فكّر فيه طويلاً منذ الليلة البـارحة ـ ان عليـه من باب اللباقة وحدها ، مهمـا تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك فى هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده • ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبـــلات التى طبعها الرهبان على يدى الشــيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتفى بأن حيّا الشيخ تحية عميقة منحنياً له الانحناءة الكبيرة التى ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وقوراً • واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه فى كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً ، ولعله فعل ذلك عامداً • وسلـّم ايفــان فيدوروفتش هو أيضا ســلاما رصيناً مهذبا ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسى أن يسلـّم • وأنزل الشيخ يده التى كان قد رفعهـا مباركاً ؛ وبعد أن حيّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا • صعد الدم الى خدى أليوشا • لقد كان يشـــعر بالخجل والخزى من ذويه • ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق •

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الآكاجو ، قديمة الطراز جداً ، مغطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، باستثناء الراهبين الكاهنين ، صفاً

واحدا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم الى مقاعد أربعة من خشب الآكاجو مغطاة بجلد أسود رث جدا . وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة . أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدىء فقد ظلوا واقفين . ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذي فيها عادي فقير يقتصر على ما هو ضروري لا غنى عنه . وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة ، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس في ركن من الغرفة ، احداها للسيدة العذراء ، وهي أيقونة كبيرة جدا يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق الديني * . وعلى جانبي العذراء صورٌ مقدسة أخرى في صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبعدها بقليل يرى الرائي تماثيل أطفال لهم أجنحة ، وبيضاً من خزف ، وصليبا كاثوليكيا مع أم محزونة تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان في القرون الخوالي ، وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى ؛ والى جوار تلك الصور الفنية التي لها قيمة كبيرة يرى الرائي عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء ، هي من تلك الصور التي تباع في جميع أسواق البلاد بكوبك واحد . وهناك صور ليتوغرافية أخرى هي وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الغرفة . طاف ميوسوف على هذه « التفاهات » بنظرة سريعة ، ثم حدّق الى الشيخ . ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة نافذ البصيرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفره له حتماً اذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهي سنٌ يكون فيها الانسان الذكي الذي ينتمي الى المجتمع الراقي وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيرا ، على غير شعور منه في بعض الأحيان .

لم يعجبه الشيخ في الوهلة الأولى . والحق أن في وجه الشيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضا . هو رجل قصـــير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاما فحسب ، غير أنه يبدو أطعن فى السن بسبب مرضه الذى يُظهره أكبر من عمـــره بعشر سنين فى أقل تقدير . وان وجهه النحيل الضامر المعروف مخدَّد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة. وليست عيناه بالكبيرتين، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كثير من الحـــركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين . ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين . أما لحيته الدقيقة فهى صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفتاه اللتان كثيرا ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقَّ من ســـيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير ...

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيـــه يدل على ان له طبيعة كالحة شرسة ، وعلى أن فيه زهواً ســـخيفا وكبرياء مسكينة » . وأحس ميوسوف باستياء من نفسه .

ودقت الساعة تقطع الصمت . ان ساعةً صغيرة بخسة الثمن كانت معلقةً بالحائط ومزوَّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتى عشرة دقة متتابعة سريعة ، مؤذناً بحلول بالظهر . فصاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ هو الموعد المحدد ولمَّا يصل ابنى دمترى فيدوروفتش . أرجو أن تعذرنى أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش أليوشا حين سمع قـــول أبيه هذا « أيها الراهب المقدس جدا ») . لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعدٍ فى يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأننى أتذكر أن دقة المواعيد هى أدبُ الملوك .

ـ ولكنك لست ملكا فيما أعلم ...

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منــذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه . فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :

ـ صحيح . لست ملكا . ثق يا ألكسندر بتروفتش أننى أعلم حق العلم أننى لست ملكا ، لا يراودنْك فى هـذا شك ! ولكن هـذا شأنى دائماً : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له .

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجىء غريب :

ـ يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرِّج عريق . كذلك أقدم اليك نفسى . هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فاننى لا أفعــل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم . أليس من واجب الانســان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ... منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقـد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية . قـررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء . استقبلنا الايسبرافنك . انه رجـل ضخم طويل أشـقر متجهم المظهر . ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات . ان أكبادهم مريضـة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً ان صح التعبـيـر ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاً تنازلت ياسيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلا : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » . فسرعان ما أدركت أن كل شىء قد ضاع . صمت الرجل قاسىَ النظرة كالح الهيئـة صعب المراس . حاولت أن أعتذر . قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أشيع المرح فى الجو • وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا فى حاجة الى شىء فالى نوع من رئيس أركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام ••• » • ظننت أننى قدمت له بهذا الكلام تفسيرا معقولاً قائما على تشبيه سليم ، أليس هـــذا صحيحا ؟ » • فأجابنى قائلا : « عفواً ، أنا ايسبرافنك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف • » • قال ذلك وأدار لى ظهـره وانصرف • ركضت وراءه صائحا : « أنت الايسبرافنك ! أنت ايسبرافنك لا نابرافنك » . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول ••• لقـــد سميتنى نابرافنك ، فحسبنا هذا ! » • هكذا غرقت صفقتنا فى الماء •• فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسىء الىَّ دائما فى هذه الحياة • من ذلك أننى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حسّاسة اذا دغدغت » ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية • ولكن الرجل أسرع يسألنى فجـأة : « أأنت دغدغتها اذن ؟ » ولم أملك أن أقاوم رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله ••• دغدغتها قليلا ، وهكذا » ••• فليتـك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! ••• غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحى الآن أن أرويها • فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

ـ وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة •

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر •

ـ صحيح يا بطرس الكسندروفتش ••• ولكننى أعـرف ذلك ،

وقد تنبأت به منذ فتحت فمي . وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا . وفي مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خداي فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابي ، الى الأيام التي كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقي بتلك المهنة ! أنا مهرج يا صاحب السعادة ، أنا مهرج حقيقي ، مهرج مفطور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب السعادة انني انسان بسيط أبله ! ... قد تكون الروح التي تحركني غير طاهرة ، أنا لا أجحد ذلك ، ولكنها روح صغيرة . فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاختارت لها مسكناً أفضل . على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورني الشك الا في الآونة الأخيرة ، وهأناذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررني من اساري . أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو . لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوما الى البطريرك افلاطون في عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول في برود : « الله غير موجود » . فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغة السلافونية : « الطائش يقول في سره : الله غير موجود » ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتمي فجأة على قدمي الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمدوني ! » . وسرعان ما تم تعميده على الفور ، فالأميرة داخكوفا * أمسكته على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرابه ...

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

ـ فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا التمثيل ؟ .

فهتف فيدور بافلوفتش يقول فى حماسة فرحة :

ـ كنت طول حياتى أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها . والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرانك أيها الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التى ذكرتها عن تعميد ديدرو انما اخترعتها فى هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد خطرت ببالى مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة فى مزيد من الملاحة ... اننى أمثّل هذا التمثيل ليرضى عنى بطرس السكندروفتش مزيداً من الرضى . ثم اننى لا أدرى أنا نفسى فى بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذاك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر بالله » ، فتلك نقطة سمعت السادة القرويين فى هذه المقاطعة يروونها منذ أكثر من عشرين عاما ، وذلك فى شبابى أيامَ كنت أعيش عندهم ؛ حتى أن عمتك نفسها يا بطرس الكسندروفتش ، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور . وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب الى البطريرك أفلاطون ليناقشه فى مسألة وجود الله .

نهض ميوسوف نافدَ الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على نفسه . لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً . ان ما يجرى فى هذه الحجرة لهو فى الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن جرى مثله من قبل . فمنذ ثلاثين عاماً أو أربعين تتوافد على هذا المكان ، حتى فى عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن أولئك الزائرين جميعا بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام

والخشوع والتقديس . ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتمى على الأرض راكعاً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة . وان أكثر الزائرين ، حتى أعلاهم مقاماً ، وأغزرهم علماً ـ وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب النقد وكثرة المشاكسة والميل الى الالحاد ـ أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم فى هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأى مال ، وأن كل شىء فيه يتم محبةً واحسانا من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظمأ الى الحقيقة والرغبة القوية فى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب . كذلك كانت تجرى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة فى تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث فى نفوس من يرون هذا المشهد أو فى نفوس بعضهم على الأقل استغرابا شديدا ودهشة أليمة . فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً . وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكى . ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذى كان يمكن أن يتدخل فى الأمر ، قد لبث ساكناً على كرسيه ، غاضاً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكتراث أو اهتمام ، كأنه غريب عن هـــذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها . وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يعـــده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر مايدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدير على كل حال .) .

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

ـ سامحنى ... لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقيرة. ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسناً لائقا أمام شخص محترم مثلك ... فلو كنت تنبأت بأننى سيكون علىَّ أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن ...

لم يكمل بطـــرس الكسندروفتش جملته ، وكان قـد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه . قال له وهو ينهض على ســـاقيه النحيلتين ويمسك بطـــرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

ـ لا تخش شيئاً ، أرجوك ... هدىء روعك ، أرجوك ... ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة .

وبعد أن حيَّا مرة أخـــرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة .

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه ، هل يسوء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعي المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثباً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

ـ أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج . لا تكره نفسك على شيء ، وتصرّف كما لو كنت في منزلك ... واياك أن تشعر بالخزى من نفسك خاصةً ، فان شعورك بالخزى من نفسك هو بعينه أصل البلاء .

ـ أتصرف كما لو كنت في منزلي ؟ أتريد أن تقول ان عليّ أن أطلق نفسي على سجيتها وأن أظهر على طبيعتي ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل انه لجميل مسرف في الجمال ، ولكنني أوافق ... انني أقبل ما تقترحه عليّ شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوي . اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفعني الى حالة الطبيعة ، لا تجازف فتفعل هـذا ... على انني لن أمضي بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية والظهور على حالة الطبيعة . وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً . أما فيما عدا ذلك فان كل شيء ما يزال غارقا في ظلمـات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسي . ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يابطرس الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذي هو ضياءٌ كله ، فانني أضع عند قدميك اعجابي مندفعاً بغير حدود .

ثم نهض فرفع يديه الى السماء وقال :

ـ « بورك البطن الذي حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »*، نعم الثديان ... انك حين نصحتني منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزى من نفسي ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتي وقرأت في أعماق قلبي . ذلك بعينه هو ما أحسه . انني أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأنني أخبث من غيري ، وأن الآخرين جميعا يعدونني

مهرّجاً ، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلا : « ليكن .. سأمثل دور المهرج طائعا مختارا ، ولست أخشى رأيكم ، لأنني أعرف أنكم جميعاً شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء ! » ذلك هـــو السبب أيها الشيخ العظيم في أنني أهرّج ... انني أهرج لشعوري بالخزي ، لشعوري بمذلة عميقة ! انني لانعدام ثقتي بنفسي اضطرب فأمثل دور المجنون ! آه ... ليتني ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقا من أن كل واحد سيعدني على الفور خير انسان وأذكى انسان في العالم ، اذن لأصبحت عندئذ رجلا من أنبل الرجال ...

قال ذلك ثم ارتمى راكعا على حين فجأة يقول :

ـ ماذا يجب عليّ أن أعمل ، يا معلم ، حتى أظفر بالحياة الأبدية ؟

انه ليصعب على المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجـــل ما يزال يمثل ويهرّج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ ...

نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

ـ تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذي يجب عليك أن تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك . امتنع عن الاسراف في الشراب ، لا تستسلم للفجور ، وتخلّ خاصةً عن عبادة المال . أغلق دكاكين بيع الخمرة ، أغلق دكانين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تغلقها كلها. وقبل هذا وذاك ، لا تكذب ... فذلك أهم شيء ...

ـ ألعلك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

ـ لا ... ليس الأمر أمر ديدرو ... فانما الشيء الأساسي أن لا تكذب على نفسك . ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلي عليه أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزا عن رؤية الحقيقة في أي

موضع ، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله .
لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غير .
لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يزجي الأمور .
أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء وينـدفع وراء الملذات الخشنة هذه
فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية .
وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على
نفسه . ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه .
ألا يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟
وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اخترع
الاهانة بنفسه اختراعاً في سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالغ
وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على
غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً ... هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع
الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذا تلذذا يبلغ حد الفرح ، فاذا هو
يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقي ... ولكن انهض
عن الأرض ، أرجوك ... اجلس في مكانك ، أرجوك ، تلك كلها
أوضاع كذب أيضا ...

ـ أيها الانسان المقدس ، اسمح لي أن أقبل يدك العزيزة
اللطيفة ! ...

لقد نهض فيدور بافلوفتش بوثبة ، واقترب من الشيخ بحرارة
وقوة ، وطبع قبلة رنانة على يده الضاوية المعروقة .

ـ تماما ، تماما ، هذه هي الحقيقة . ان في اهانة المرء نفسه لذة .
لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا
الكلام . لقد ظللت طوال حياتي أهين نفسي ، نشداناً للذة ، بل وطلباً
للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا . ذلك ما نسيت أن تضـــيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم ! سوف أدون هذا فى دفترى الصغير . لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة . أنا فى الواقع كذب يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لسـت للكذب أباه ... لعل هـذا التعبير بقايا جملة قرأتها فبقيت فى ذاكرتى فاستيقظت الآن .. والأولى أن أقول اننى ابن الكذب لا أبوه ... يكفينى كِبَراً أن أكون ابن الكذب ... ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه لا تسىء الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارّة... بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ... لقد أوشكت أن أنسى ... اننى أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة القاء سؤال عليك . كنت أريد أن أتعلم منك ،كنت أريد أن أجىء الى هنـا لهذا الأمر خاصـة ، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً . ولكن أصدر أمرك أولاً الى بطرس السكنـدروفتش بأن لا يقاطعنى . اليـــك ما كنت اريد أن أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجَّل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين يروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجـزات واستشهد فى سبيل ايمانه ، أى قطعوا رأســه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأســه من الأرض ، ويعانقه فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ، حانيا عليه ملاطفاً له * . قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟

قال الشيخ :

ـ بل هو غير صحيح .

وقال الراهب قيِّم المكتبة :

ـ لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذى تقصده ؟

ـ أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور • لا شك فى اننى خُدعت وضُللت • لقد سمعت أحداً يروى هذه القصة • وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بطرس السكندروفتش هذا الذى ثار علىّ منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذى روى لى هذه القصة ، نعم هو •••

ـ هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اننى لا أكلمك أبداً ، ولا أتحدث اليك يوماً !

ـ اعترف بأنك لم تروها لى أنا • ولكنك رويتها فى اجتماع كنت أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت ايمانى فى ذلك المساء ، بتلك القصة المضحكة ••• نعم يابطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان لك أن تتنبأ به ،ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى سقوطى الأخلاقى ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو •••

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ، ولكن كان واضحاً لنا جميعاً فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرّج • ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذى ايذاءاً شديداً أليماً • فدمدم يقول :

ـ يا للسخف ! انك لاتقول الا حماقات ! من الجائز حقاً أن أكون قد رويت هذه القصة مرة ••• ولكننى لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد سمعت أنا هذه القصة ••• حدث ذلك فى باريس • أكد لى فرنسى أن هذه القصة الواردة فى كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسى رجلاً مثقفاً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش فى بلادنا زمناً طويلاً ••• أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسى ••• ولست أنوى أن أقرأه على كل حال ••• ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء •••

ـ أثناء عشاء ••• ها ••• ها •• يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى ! •••

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً !

فانفجر ميوسوف يصيح :

ـ ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما ثاب الى هدوئه فقال بلهجة احتقار :

ـ انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطبا جميع الحضور :

ـ معذرةً أيها السادة • اننى مضطر أن أترككم لحظات • هناك زوار ينتظروننى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

ـ أما أنت فاترك الكذب ! •• صدقنى •••

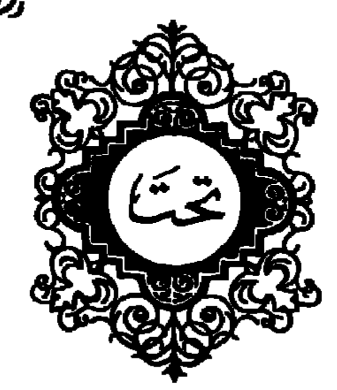
وخرج • واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم • كان أليوشا قد نفد صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب • وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ،

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة • قال بصوت مختلتج :

ـ أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العـزيزة اللطيفة مرة أخرى • ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك دون أن يفقد حبه للحياة واقباله عليها وميله اليها • لا تظنن أننى أكذب هكذا طـول الوقت وأننى لست الا مهرجاً • الحق أننى فعلت هذا عامداً من البداية الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك ! لقد أردت أن أتأكد من أنك رجل انسانى ، ومن أن شخصى الهيّن يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك • فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك • والآن لن أتكلم قط ، لن أقول كلمة واحدة • سأجلس على هـــذا المقعد ، فألبث ساكتاً حتى النهاية • الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسى •• مدةَ عشر دقائق •

٣

إيمان نساء الشعب



قرب الرواق الخشبي المتاخم للحاجز الخارجي من السور ، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددهن نحو من عشرين فلاحة . لقد أبلغن أن الشيخ سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهي امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهي لطيفة باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهي في الرابعة عشرة من العمر ، فهي مصابة بشلل في الساقين . لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر ، فهي الآن تخرج على كرسي متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواه المرض قليلاً ، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئا من المكر يتراءى في عينيها الصغيرتين القاتمتين اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى

منذ الربيع أن تمضي بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدئت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان في مدينتنا الامنذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال في الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذى أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته • لقد توسلتا بكثير من الالحاح أن يُمنّ عليهما « بأن تسعدا برؤية هـذا الشافى العظيم مرة أخرى » • وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمي الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة • لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا • ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضا أن يحظى بمباركة الشيخ • ولكن الشيخ الذى ظهر على الرواق فى تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقـة الشعب • تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التى لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقـول الرواقُ الذى لا يرتفع كثيراً عن سـطح الأرض • توقف الشيخ على الدرجة العليا من هـذه الدرجات ، وتلفع بجبته وأخذ يبارك النساء اللواتى يزدحمن أمامه • قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسـكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهيبة تدل على هذيان ، وهي ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعاني آلام ولادة • وضـع الشيخ جبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ • لا أدرى ماذا يحدث الآن ، ولكننى فى أثناء طفولتى قد أتيح لى مرارا أن أرى وأن سمع هاته النسوة المريضات فى قرانا وفىأديرتنا • كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نابحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة . فما ان يُقرّبن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين . لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية . وقد أدهشنى ذلك كثيراً في طفولتى وترك فى نفسى أثراً قوياً . ولكننى حين سألت عن سرّ هذا الأمر قال لى بعض الملاّكين ، وقال لى معلمو مدرستى خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة . حتى لقد رُويت حكايات فى بيان صحة هذا التفسير . ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة منى ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا فى الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشارا واسعا فى روسيا خاصة ، وأن مردّه الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة فى أريافنا من قسوة شديدة ؟ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات فى بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن ؟ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مرد ها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى مايلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها . فأما ذلك الشفاء العجيب الذى تُنقَذ به نساءٌ مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس ــ وهو شفاء يدعى بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجه « رجال الدين » اخراجا مسرحيا ــ فالحق أنه يرجع هو أيضا الى أسباب طبيعية ؟ ثم ان النساء اللواتى يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايمانا عميقا



كليكوشـــا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كايمانهن بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخبيثة التى حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فاذا هى تبارحهن متى دنون منه وانحنين له • لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى فى جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبى نفسى معا منذ يواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذى لا بد منه فى نظرهن ، ولانتظار البرء الذى لا محيص عنه حتما ، وهو نتيجة طبيعية لايمانهن بالمعجزة ايمانا ليس له حدود • فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير • وهذا بعينه هو ما وقع فى الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه •

كان بين الجمهور الذى ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاًوحماسة •واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل • وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب • باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن • وكان يعرف الكليكوشاالتى قدمت اليه • انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؟ وما هذه أول مرة يؤتى بها اليه على كل حال •

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن فى السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوحاً ولكنه مسود اسودادا غريباً (كانت راكعة على ركبتيها تحدق الى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة، وفى وجهها شىء من الوجد والنشوة) :

— هذه آتية من مكان أبعد •

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهى ترجح رأسها ترجيحاً متواتراً موقعاً ، وقد أسندته الى راحة احدى يديها :

— نعم يا أبى ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ •

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى الترتيل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألمًا أخرس مذعنًا ، هو الم ينطوي على ذاته ويعتصم بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألمًا متفجرا ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل . وهـذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين . ان الترتيل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيي جروح القلب بلا انقطاع ، وينكؤها بغير توقف . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تغتذي من الشعور بسعة أبعادها ، فالترتيل انما يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

ـ لعلك من سكان المدن ؟

ـ أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعم ... وان أكن قروية الأصل. نحن من سكان المدن لأننا نعيش فيالمدن. ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابني ، ابني الصغير ... فخرجت أضرب في الأرض حاجّة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقيل لي هنالك : « اذهبي اليه أيتها المسكينة ناتا سيوشكا* ... اذهبي لرؤيته هو ... يقصدون أنت .. اذهبي لرؤيته ... رؤية الأب العزيز جدا ... » . هكذا جئت اليك . أمس اعترفت وتناولت ، وهأنذا الآن أمامك .

ـ لماذا تبكين ؟

ـ أبكي صغيري أيها الأب الطيب . كان عمـره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر*. انني أبكي ابني ، أبكي صغيري . ذلك ما يعذبني . كان آخر أبنائي . كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا * أربعة أبناء . ان

الأطفال لا يبقون عندنا . انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا. دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم . أما ذاك ، الأخير ، فانني لا أستطيع أن أنساه . يخيل الىّ انني أراه ، هنا ، أمامي ، أراه طـول الوقت . جفّت نفسي ، يبس قلبي . أنظر الى ملابســه ، الى قميصــه الصغير ، الى حذاءيه ، فآخـــذ أنشج وأنتحب . أعرض أشياءه أمامي لأتأملها ... أستعرض جميع بقاياه التي تذكرني فأبكي . قلت لعزيزتي نيكيتوشكا ، زوجي : « دعني أمضي ... أريد أن أضرب في الأرض حاجّةً » . زوجي حوذي . ولسنا فقراء أيها الأب الطيب . عندنا مال. لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد . نملك خيولا وعربة ننفـق عليها من مالنا . فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزي نيكيتوشكا الى طريق الضلال حين تركته . أخذ يشرب . أنا أعلم ذلك . وما هذه أول مرة . كان يضعف كلما حولت عيني عنه . ولكنني الآن لا أحفـل بذلك . استوت عنـــدي جميع الأمور . أصبحت لا أفكر فيه . تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر . نسيته . نسيت كل شيء . أصبحت لا أريد أن أتذكره . وما عساني أفعل معه ؟ لقد أنهيت صـــلتي به ، أنهيت صلتي بجميع الناس . لا أريد أن أرى منزلي بعـــد الآن يوما ، لا منزلي ولا رزقي ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطء :

ـ اسمعي أيتها الأم الطيبة ! في يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسي الماضي ، رأى في الهيكل أماً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما تبكين ابنك الآن ... كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخـذه الرب اليه . قال لها القديس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس في ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هـــؤلاء الصغار ! انهم يقـولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجرأة ؟ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك . » . وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي . ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة . فاعلمي هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح ... وصلي للرب من أجله . كفاك بكاءً ... ابتهجي وافرحي ! ...

كانت المرأة تصغي الى الشيخ مسندةً رأسها الى احدى يديها ، غاضةً بصرها . وتنهدت تنهداً عميقا .

ـ بمثل هذه الأقوال انما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة . » . كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكي هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي ... قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا ... أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر ... وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقترب منه ، سأختبيء في ركن ، وسأصمت ! آه ... أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتني أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » . ليتني أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض : تك .. تك ... ولقد كان يجيء الى – اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا جدا – يجيء الى راكضا صائحا ضاحكا .. آه .. ليتنى أسمع وقع خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ... » . ولكن لا ... يا أيها الأب الطيب ... لن أسمعه بعد اليوم قط ... انظر ... هذا حزامه الصغير ... أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ..

قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبّها الحزام الصغير المزخرف ، حزام ابنها الغائب ، فما ان رأته حتى هزّها النشيج ، فسارعت تخفى عينيها بيديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

– هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شيء * . ذلك هو حظكن فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تتعزى يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت فى حاجة اليه . لا تتعزى ... بل ابكى ما استطعت الى البكاء سبيلا . ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويغتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع ، دموع الأم المفجوعة بابنها . ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادىء ، وستصير دموع المرارة التى تحسينها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة ساجية ، وتطهر روحى . سوف تتخلصين من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

– الكسى ، أيها الأب الطيب .



امرأة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ اسم جميل . مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله .

ـ نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

ـ ما أعظمه من قديس ! سأذكره في صلواتي * . وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لايصيبه سوء. ذلك أن هجرك اياه خطيئة، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به . ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما . فهل تريدين أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت . ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تريه . فكيف يمكن أن يجيء اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتتعذبين ، فعودى الى منزلك يرسل اليك أحلاما تهدىء روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

ـ سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأتبع نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لآيبة ...

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلا ... ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوبا عاديا من ثياب المدينة . كان فى وسع المرء أن يرى فى عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر . قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش . انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد . وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسيبريا . كتب

اليها رسالتين فى البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة • أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه ••• قالت :

ـ ان ستيبانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى : « هلمىّ فخذى منذ اليوم شيئا من المـــال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليـــك • » • ذلك ما قالته لى تلك المـــرأة • وقد أكدت ستيبانيدا ايلينشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائما • » • غير أن فى نفسى شكوكا ••• فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهــل يجب علىّ أن أتبع نصيحتها ؟

ـ دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالا كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً ؟ أتفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هـــذه الخطيئة ستُغفر لك بسبب جهــلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأقوله لك أيضا يا بروخوروفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريبا ، أو سيكتب اليك حتما • كونى على ثقـــة • وانصرفى الآن بســـلام • ان ابنك حى • صدقينى •

ـ جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعا ، وتستغفر عن خطايانا •

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصـــابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة • كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيهـــا

تسألان شيئا من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألها الشيخ :

ـ وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقالت بصوت بطيء خافت :

ـ أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الارض •

ـ لقد أثمت يا أبتاه ، وأنا خائفة من الثمن •

قعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزّها نوع من التشنج :

ـ ترملت منذ ثلاث سنين • كنت شــقية مع زوجي • كان هرماً وكان يضربني كثيرا • ففي ذات يوم ، بينما كان مريضــا متمددا على سريره ، نظرت اليه وقلت بيني وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي اذا شفي من مرضه ونهض من جديد ؟ » • في تلك اللحظة انما برقت في ذهني تلك الفكرة الخبيثة •

ـ انتظري لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبــلغ من الخفــوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارّتها •

سألها الشيخ :

ـ أهذا منذ ثلاث سنين ؟

ـ نعم منذ ثلاث سنين • لم أكن أفكر في الأمر من قبل • أما الآن فقد صرت مريضة • ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسي •

ـ أأنت آتية من مكان بعيد ؟

ـ من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا •

ـ هل ذكرت هذا في الاعتراف للكاهن ؟

ـ نعم •• ذكرته مرتين •

ـ هل قبلوا أن تتناولي القربان المقدس ؟

ـ قبلوا • ولكنني خائفة ، خائفة من الموت •

ـ لا تخشي شيئا ! هدئي روعك ! اطمئني بالاً ! لا تدعي للخوف أن يستولي عليك ، واطردي الحزن من نفسك • اجعلي الندامة مستقرة في قلبك قويةً عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء • ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً • ثم ان الانسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستنفد رحمة الرب التي لا حدود لها • أفتظنين أن في هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الالهي ؟ اندمي ، اندمي بنفسك كلها ، واطـــردي من قلبك كل خوف • ثقي أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصـوري ، وأنه يحبك حتى في خطيئتك ، ورغم هـــذه الخطيئة • ان الآثم الذي يندم ويتوب قد أعدت له في الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأثمـوا فما ندموا * • كذلك قيل من زمان بعيد • امضي • لا تخشي شيئا • ولا تحملي للبشر حقداً • انسي الاساءات • اغفري في قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه في قـــرارة نفسك • أنت تحيين ما دمت تشعرين بالندامة • وما دمت تحيين فأنت لله ••• ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء • لئن كنت ، أنا الخاطيء ، أشاركك ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفّر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل عن خطايا الآخرين أيضا • انصرفى الآن بسلام ، وكونى بعد اليوم بلا خوف •

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول صورة مقدسة كان يحملها فى عنقه فوضعها فى عنق الفلاحة • حيته الفلاحة صامتةً وانحنت حتى الأرض • ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناءً وهى تحمل بذراعيها رضيعاً •

ــ أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب •

ــ من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملةً هذا الصبى على ذراعيك ؟ فيم ترغبين ؟

ــ أردت أن أراك فقط • لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تتذكر ؟ ان كنت قد نسيتنى فليست ذاكرتك اذن بالقوية • لقد قالوا عندنا انك مريض ، فأردت أن أراك بعينى • وانى لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أنك مريض • دعك من هذا ! لتعيشنً عشرين سنةً أخرى ان شاء الله • ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن تمرض ؟

ــ أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبى !

ــ لى عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً • اليك خمسين كوبكاً فأهدها يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر منى • لقد قلت لنفسى وأنا فى طريقى

الى هنا : « سأدفع هـذا المـال اليه هو ، فانه أدرى منى بمن يستحق أن يوهب له • » •

ـ شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب • هذا يسرنى • سوف أفعل ما تطلبين • هل طفلك هذا بنت ؟

ـ بنت أيها المبارك ! اسمها اليزابيث •

ـ بارك الله فيكما كليكما انت وابنتك اليزابث • لقد أفرحت قلبى أيتها الأم الطيبة • الى اللقاء يا أصدقائى ، الى اللقاء يا أعزائى ، يا أولادى الطيبين •

بارك الشيخ الحجاج وحيّاهم جميعا تحية عميقة •

٤

السيدة الضعيف إيمانها

كانت السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة ويباركها ؛ وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير . انها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيرا . فلما اقترب الشيخ منها أخيرا ، تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة :

ـ ما كان أعمق انفعالى ، وأشد اضطرابى حين رأيت هذا المشهد المؤثر ...

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه . ثم استأنفت تقول بعد لحظة :

ـ انتى أفهم أن يحبك الشعب . وأنا أيضا أحب الشعب ، أنا أريد أن أحبه . وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لايحب المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

ـ كيف حال ابنتك ؟ كنت تريدين حديثاً آخر معى ؟

ـ أوه ... لقد ألححت فى طلب هذه المنة . توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتى ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك فى سبيل أن تستقبلنى • لقد جئناك ، أيها الشافى العظيم المقدس ، لنعبّر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتى ليزا من مرضها ، شفتيها شفاء تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضى ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقبيلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثرنا ، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا •

ـ شفتيها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها متمددة فى مقعدها •••

ـ ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالا تاما ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماما (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشىء من العصبية) • وأكثر من ذلك أن ساقيها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماما ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وها هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة• أصرت اليوم اصراراً مطلقا على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتنى على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوما قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسننشتوبه ، فهزّ كتفيه وقال : « اننى لا أفهم شيئا ! هذا أمر خارق!»• فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً الى أن نطير اليك ، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا ليزا، عبّرى له عن عميق امتنانك •••

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك هيئة الجد ، ونهضت على كرسيها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامةً يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة • قالت وهى تشير الى أليوشا خجلةً غاضبةً كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

ـ هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد فى تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة • وومضت شعلة فى عينيه اللتين سارع يغضهما •

تدخلت الأم قائلة :

ـ عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسى فيدوروفتش •

وأضافت الفتاة تقول وهى تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

ـ كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة • ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج • وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجد والوقار والرصانة • وقالت له وهى تناوله رسالة صغيرة :

ـ كلفتنى كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة • انها ترجوك كثيرا أن تجىء اليها ، أن تجىء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء • انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنها •

ـ تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ••• لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت فى وجهه دهشة واضحة • وسرعان ما اكتست سحنته تعبيرا عن همٍ أظلمت له عيناه •

قالت الأم تشرح :

ـ أوه ... الأمر أمر دمترى فيدوروفتش طبعا ... وأمر هـــذه الأحداث كلها أيضا ... لقد اتخذت كاترين ايفانوفنا قرارا فى هـذا الشأن . ولكنها تريد أن تراك أولاً ... لماذا ؟ لا أدرى ... ولكنهـا تصر اصرارا شـــديدا على أن تراك بأقصى سرعة . ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ! ... العاطفة المســيحية نفسها تأمر بذلك .

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

ـ ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !

قالت الأم :

ـ ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ... تذكر ما عانته وما تزال تعانيه.. وفكّر أيضا فيما ينتظرها ... أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟

قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى ايضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

ـ طيب ... سأذهب ...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

ـ أوه ! ... ما أجمل هذ منك وما أنبله ... تباً لى ... لقـد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ... سوف يرفض قطعاً ... لأنه اعتكف فى الدير » . انك طيب جداً ، نبيل جـــدا . لقد قدّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم .

تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

ـ ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت تخاطب أليوشا :

ـ لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الىّ مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينه ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحا أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه آتٍ من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا بسان سلفستر ، ديرٍ لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعاه أن يزوره فى حجرته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومىء الى ليزا باشارة رصينة ذات أبهة :

ـ ما تلك القوة التى تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

ـ لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاماً، وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان ثمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا عن النعمة الالهية . لا شىء يتم الا بارادة الله .

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

ـ تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلي . انني مريض ، وانني أحس أن أيامي معدودات .

صاحت أم ليزا تقول :

ـ لا .. لا ... ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ، طويلاً جدا . ما عسى يكون مرضك ؟ ان في وجهك كثيرا من الحياة والفرح والسعادة .

ـ صحيح أنني أشعر أن حالتي اليوم أحسن كثيرا مما كانت ، ولكنني أعلم أن هذا لن يدوم . أنا أعرف الآن مرضي معرفة كاملة . تقولين انني أبدو فرحاً . فاعلمي أنه لا شيء يمكن أن يفرحني كما يفرحني أن أسمع منك هذه الملاحظة . لأن الانسان انما خلق للسعادة ، والذي يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : « لقد حققت ارادة الله في هذا العالم » . ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع الشهداء كانوا سعداء في جميع ظروف الحياة .

هتفت الأم تقول :

ـ ما أجمل هذا الكلام الذى تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعاني التي تعبِّر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضي الى القلب رأساً . ولكن أين هي السعادة ؟ من ذا الذي يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاَّ تحمَّلت أن أفضي اليك اليوم بما سكتُ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه في المرة الأولى ! دعني أكلمك فيما يعذبني كثيرا منذ زمان طويل ، منذ سنين . انني أتألم . انني شقية ! آه ... معذرة .

قالت السيدة ذلك وهي تضم يديهـا أمامه في سورة مفاجئة من الانفعال .

ـ ما الأمر ؟

ـ انني أتألم ... من فقدي الايمان ؟

ـ أأنت لا تؤمنين بالله ؟

ـ ليس هذا ... انني لا أجرؤ حتى أن أفكر في هذا . وانما أنا أشك في الحياة الأبدية . ذلك لغز لم أستطع أن أستبينه ! وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يهب لي جوابا عن هـذه المسألة ، ما من أحـد يستطيع أن يقدم لي حلاً لهذه المشكلة . اصغ الي : أنت انسـان تشفي المرضى وتعرف أغوار النفوس . لست أطمع طبعاً في أن أفوز بثقتك ، لست أطمع في أن تصدّقني تصديقاً كاملاً ، ولكنني أؤكد لك ، أقسم لك بأعظم ما في هذه الحياة ، أنني لا أتكلم في هذه اللحظة طيشاً وخفة. صدقني : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمني الى حد العذاب ، الى حـد الرعب ، الى حد اليأس . لا أدري الى من يجب أن أتجه ... لقد ظللت مترددة في هذا الأمر طول حياتي . ولكنني أجازف الآن فأكشف لك عن دخيلة نفسي . يا رب ! ما عساك تظن بي من ظنون ؟ ما عساك ترى فيّ من رأي ؟ (قالت ذلك وهي تعقف يديها) .

أجابها الشيخ قائلاً :

ـ لا تهتمي برأيي . أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق .

ـ أشكر لك ذلك أعمق الشكر . انني أغمض عيني وأفكر . أقول لنفسي : « ان جميع البشر يؤمنون ، فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضـهم الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذي أحدثته في نفس الانسان في الماضي

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود فى الواقع ؟ » ثم أقول لنفسى عندئذ : « واذن فاننى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى منى بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى ، كما قرأت هـــذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب ! فكيف ، كيف أرتد الى الايمـان ؟ على اننى لم أؤمن الا فى طفولتى ، وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط ... فكيف ، كيف السبيل الى البرهان على الحقيقة ؟ » . لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضـــع أن تنيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصـة اليوم ، فلن يستطيع أحد أن يجيبنى فى يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ اننى أريد أن أقتنع . ما أشقانى ! اننى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع الناس ، أو جميع الناس تقريبا ، لا يحفلون به ولا يكترثون له ، واننى الوحيدة التى لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

ـ هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان . ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .

ـ كيف ؟ بأية طريقة ؟

ـ بمعاناة الحب الفعال . حاولى أن تحبى أقرانك حبا فعالاً غـير منقطع . فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعا بوجود الله ، وازددت اقتناعاً بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخـرين نسياناً تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة ...

ـ أتقول : الحب الفعّال ؟ هذه مشكلة أيضا ، ويا لها من مشكلة ! انظر يا أبتاه : اننى أبلغ من حبى الانســانية أنه يتفــق لى فى بعض اللحظات ـ صدقنى ـ أن يخطر ببالى أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبـــة ! اننى أغمض عينى ، وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالَب • ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى • أنا أشــعر بأننى مستعدة لأن أضمِّدها ، لأن أغسلها بيدى ، وأتمنى لو أصـــبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم •

ـ انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة • بدأت أعتقد أنك ستنتهين فى يوم من الأيام الى أن تقومى بعمل جليل فعلاً •

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسةً :

ـ نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك هو السؤال الأساسى ، ذلك هـــو ، بين جميع الأسئلة ، الســؤال الذى يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة • اننى أغمض عينى وأسأل نفسى : «أتراك تستمرين طويلاً فى هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذى ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبِّر لك عن شكره فوراً ، وانما هــو يرهقك بنزواته ، دون أن يقدِّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلظ لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيـــان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تســـتمرين فى حبك أم لا تستمرين ؟ » • ولقد أجبت نفسى عن هذا السؤال ، هل تتصور ؟ أجبت نفسى عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شىء يمكن أن يطفىء جذوة حبى « الفعال » فوراً ، فذلك الشىء انما هو نكران الجميل • » • معنى هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأننى أطالب بأن يُجزى حبى على الفور مديحاً وحباً • وما لم أنل هذا الجزاء ، لا أستطيع أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها في سورة صدق جامح ، حتى اذا فرغت من كلامها حدّقت الى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً .

قال الشيخ :

ـ ذلك بعينه ما حدثني به طبيب منذ زمان طويل . كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء . وكان يتكلم بصدق واخلاص كما تتكلمين، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه . قال : « انني أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً في نفسي يدهشني : كلما ازداد حبي للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبي للبشر أفراداً ، أي أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطبيب يسرُّ اليَّ بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لي كثيراً أثناء اندفاعي في الأحلام أن تستبد بي حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة في خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أُصلب في سبيلها اذا بدا هذا ضرورياً في لحظة من اللحظات . ومع ذلك لو أريد لي أن أعيش يومين متتالين في غرفة واحدة مع أي انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك . انني أعرف هذا بتجربة . فمتى وجدت نفسي على صلة وثيقة بانسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتي وتجور على حريتي . انني قادر في مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح في نظري انساناً لا يطاق لأنه مسرف في البطء في تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح في نظري انسانا لا يطاق لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط . انني أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم . » . وأضاف الطبيب يقول مؤكـداً : « ولكنني لاحظت في كل مرة انني كلما ازددت كرها للبشر أفرادا ، ازدادت حرارة حبي للانسانية جملةً . » .

ـ فما العمل في هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس تماما ؟

ـ كلا ... انه ليكفي أن تشعرى من ذلك بأنك تعيسة شقية. افعلى ما تستطيعين أن تفعلى ، وسيُحسب لك هذا . ولقد فعلت منذ الآن كثيرا ما دمت قد استطعت أن تقرئى فى قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله . واذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى فى هذه اللحظة ، الا لتسمعى منى ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلتُ ذلك ، فانك لن تصلى طبعا الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك فى أحلام لا أكثر. ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل وستنتهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .

ـ لقد دمرتنى ! الآن أدركت ، فى هذه اللحظة وحدها ، حين سمعت كلامك ، أننى كنت لا أتوق فى الواقع الا الى سماع ثنائك على صدقى فى الاعتراف لك بعجزى عن احتمال نكران الجميل . لقد نفذت الى دخيلتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتنى على أن أفهم نفسى بنفسى .

ـ أصحيح هذا الذين تقولين ؟ اننى بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلبا طيبا . فاذا لم تبلغى السعادة ، فلا تنسى أنك سائرة فى الطريق السليمة ، فلا تحيدى عنها . واهربى من الكذب قبل كل شيء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب فى نفسك كل ساعة ، وكل لحظة . وتجنبى الاشمئزاز أيضا ، تجنبى الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أننى لا أملك أن أقول لك شيئا فيه

مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب اذا قيس بالأحلام التي يحلمها المرء عنه . ان من يحلم بالحب يشعر بظمأ الى عمل مبـــاشر بطولي يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضيا شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلا ، وانما يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن . ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضي جهدا ويتطلب صبرا ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله . وثقي مع ذلك أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهـــودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه ، ثقي أنك في تلك اللحظة نفسها تكونين في الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب في نفسك من فعـــل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدَّ أزرك وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره . معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً أطول ، فان هناك أناسا ينتظرونني . الى اللقاء .

كانت المرأة تبكي . ثم هتفت تقول كأنما هي ثابت الى نفسها على حين فجأة :

ـ ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها . باركها !

فقال الشيخ مازحاً :

ـ هي لا تستحق حتى أن تحب . لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا . لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟

كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر . لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها، فكان هذا يسليها كثيراً . فهي اليوم ترقب نظرته وتترصدها بالحاح .

واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه ، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب . وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ . ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التى مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فأجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المباغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

ــ لماذا تحاولين أن تضايقيه أيها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عيناها ، واكتسى وجهها هيئة الجد الشديد ، وأجابت بغتةً بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

ــ ولماذا تركنى هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملنى بذراعيه ، وكان يجيء في الماضى الينا ليعلمنى القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّد لى ، حين ودعنا ، أنه لن ينسانى في يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائما الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفا منى كأننى سآكله ! لماذا لا يقترب منى ؟ لماذا لا يكلمنى ؟ لماذا لا يجيء الينا ؟ أأنت الذى تمنعه ؟ نحن نعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية . وليس علىّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر . ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟ ... انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض ...

قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فاذا هي تعطي وجهها بيديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكة ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصبية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبة كثيراً . أصغى الشيخ اليها مبتسماً ، ثم باركها في حنان . فتناولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكي قائلة :

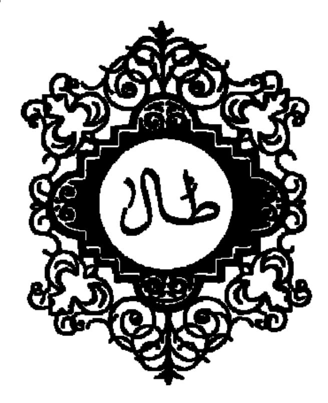
ـ لا تغضب مني . ما أنا الا حمقاء لا أساوي شيئاً ... ولا شك في أن أليوشا على حق ... انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله ...

قال الشيخ بلهجة جازمة :

ـ سأرسله اليكم حتماً .

٥

لتكن مشيئة الرب



طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة • كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولمّا يصل بعدُ دمتري فيدوروفتش الذى عقد هذا الاجتماع من أجله • وكان يبدو أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا • ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين • أما ميوسوف فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه• لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فىميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة. فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان • كان يحدثه نفسه قائلاً : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أنني فى مستوى كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا » • وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسما ابتسامة

هزء وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حنق وغيظ . انه يفكر فى أن يثأر لنفسه منذ مدة طـــويلة ، ولا يريد أن يفوّت فرصة جميلة كهـذه الفرصة . واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

ـ لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة واهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثأر فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللماح . وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بذكائك .

ـ استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا .

ـ دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخـر المنصرفين ! ...

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة .

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعـــد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة . ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتغلب على تعبه . ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شـدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيبوبة هذه عامةً ، ها هى ذى تغشى وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضّان . وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع . لا بد أن هناك سبباً يدعوه

الى ذلك . ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشـيخ بانتباه شديد .

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيِّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

ـ كنا تتكلم عن المقالة الشائقة جداً التى نشرها هذا الشاب . لقد أورد آراء أصيلة فى عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين. والموضوع هو موضوع القضاء الاكليركى ومدى الصلاحيات التى يجب أن يُعطاها . كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً فى هذه المسألة*، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها فى جريدة ...

أجاب الشيخ وهـو يلقى على ايفان فيـدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

ـ يؤسفنى أننى لم أقرأ مقالتك ، ولكننى سمعت عنها .

استأنف الأب قيِّم المكتبة كلامه يقول :

ـ ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقا ، وكأنه حين يعـالج مشكلة القضاء الاكليركى ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة .

قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

ـ هذه فى الحق فكرة شائقة ، ولكن بأى معنى تفهمها ، وما الذى تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع فى جـوابه ذلك التعالى الذى يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة ميتة أو حكم سابق . قال :

ـ ان فكرتى هى أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كتعارض الكنيسة والدولة ، سيظل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يؤدى الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطتين بل ولا الى مصالحة بسيطة مهما يكن حظها من الاتساق والانسجام يسيرا • والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه• وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمر" مستحيل ولا يمكن تخيله اطلاقاً• ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكانا معينا واضح الحدود • فأجبته بأننى، من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بمأوى بسيط تعتصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى • وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن ننظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل •

قال الأب بائيسى الراهب الكائن ، العلاّمة الشديد الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية :

ـ هذا صحيح تماما •

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقا على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

ـ ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلا :

ـ دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متجهاً الى الشيخ :

ــ ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه ــ ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس ــ وهى آراء يعدها خصمه « جوهرية وأساسية » : الرأى الأول أو الموضوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها . » ؛ الموضوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضا مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية . » الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم . » .

فقال الأب بائيسى يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحا :

ــ ذلك لعب بالالفاظ لا يليق فى رأيى بعضو من أعضاء الاكليروس.

ــ لقد قرأت الكتاب الذى رددت عليه ، وقد أدهشنى أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم . » . ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هذا العالم فمن البديهى أنه لن يمكن عندئذ أن يتحقق فى هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد فى الأناجيل ، القائل بأن «ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض. صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه فى السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التى أقيمت فى الأرض . لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمرا لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله فى هذا المجال . ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة . وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوءة على كل حال ...

قال الأب بائيسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً .

وكان ايفـــان فيدوروفتش يصغى الى كلامه بانتباه فيه كثـير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجـة رصينة باشة طيبة :

ـ ان الفكرة الأساسية التى تجمل مقالتى كلها هى أن المســيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسةً فحسب ، وكانت لا تطمع فى أن تصبح أكثر من ذلك . ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتنــق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحى . ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هـــذا على كل حال . فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضـارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها . وكان طبيعيا أن لا تستطيع الكنيسة المســيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبـدأ من مبـادئها ، ولا أن تترك أى جـــزء من الصخرة التى بُنيت عليها . كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعا لذلك . ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معيَّن فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقـــوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذى انتقدته) ، بل العكس هـو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هى التى يجب عليها أن تستحيل فى خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة، متنازلةً من أهدافها الخاصة عن تلك التى لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهـذا التحول لن يغضّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هى دول كبرى ، لا ولن يسىء الى مايتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعى نتيجة للوظائف التى يقومون بها ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذى ساروا فيه ، وسيضعهم فى اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى تحقيق غاياتهم الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكليركى فى داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولمّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هـذه الأسس التى عرضها والتى عدّد لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنيهة هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تُمس . ذلك كل ما قلته فى مقالتى التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائيسى يتدخل مرةً أخرى مشدّدا على كل كلمة من كلماته :

ــ الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيرا فى قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلةً من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تذوب فى الدولة ، بعد أن أخلت



ايفان كارامازوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هى رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرض عليها عندئذ مكان" محدود تلوذ به وتأوى اليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم فى أكثر البلاد الأوروبية • أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهى ترى أن الكنيسة ليس عليها هى أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صـــورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هى التى يجب عليها أن تحاول أن تصـير أخيرا الى كنيسة وأن لا تكون شيئا غير ذلك • هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن فى اتجاه معاكس :

ــ أعترف لك بأنك قد رددت الىَّ شجاعتى : اذا صح فهمى فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه فى زمان مقبل مايزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح • لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جدا ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل ان هذا يذكّـر بالاشتراكية بعضِ الشىء • لقد كنت أخشى فى البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمع للكنيسة ، منذ الآن ، فى أن تمارس السلطة فتقضى فى الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاما بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

ــ حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هى السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم فى العالم ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعـدام أو بالأشغال الشاقة • ان صفة الجريمة وطــريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئا فشيئا ، على التـدريج • ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية •••

قال ميوسوف وهو يحدّق اليه بنظرة نافذة :

ــ أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

ــ يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحــرم الخطاة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا . قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب، بل بالمسيح أيضا . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للانسانية وعدواً لكنيسة المسيح . وان الأمر لكذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً . ان السيء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سبيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحيح أننى سرقت، ولكننى لم أناصب الكنيسة العداء ... اننى لست عــدو المسيح . » . هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا . أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على المسيء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضــاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعا على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى ــ أنا القاتل أو السارق ــ أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق » . وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر . وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى ببتر العضو المــريض ، كما يُفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديدا وبعثه بعثاً جديدا وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة .

قاطعه ميوسوف سائلاً :

ـ الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرة أخرى لا أفهمك . انك تعود الى الأحلام . هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم، بل لا سبيل الى فهمه . عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة، قال :

ـ ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن . ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة . فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه .

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

ـ كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

ـ انظر . ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسدى ، ان ذلك كله لم يُصلح أحدا ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم . فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد . لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة . يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة . فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخران • فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انسانا جديدا ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضا الى قانون المسيح على نحو ما رسخ فى قرارة ضميرنا • ان اعتراف المجرم بذنبه كابنٍ من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كابن من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة • فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب • فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عـرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج فى الحياة الاجتماعية • ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لهـا تأثير أو نفـوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهمها العقاب الفعلى الذى يتم انزاله فى المذنبين • انها لاتطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس • انها تتجدهم وتغيثهم، وتعاملهم معاملة تعساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة• وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هى أيضا ، فتحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحداراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذى يمكن أن يهـوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمـانهم ! ومن ذا الذى يضـمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رءوف، وهي تعزف عن معاقبتهم في الواقع ، لأنهـــا ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هي ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقـــاب قاس ، فهم في حاجة الى أحدٍ تأخذه بهم شفقة على الأقل . وهي تمتنع عن معاقبتهم خاصةً لأن عدالةَ الكنيسة هي العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنويا وعمليا مع أي قضاء أجنبي ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أي تنازل في هذه النقطة . ان المجرمين لايشعرون في البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التي ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هي أعمال تمرد على القوى التي تضطهدهم ظلمـا وعدو نا ، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقـوته العليا ، وهو يشفع هذا الابعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله في أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجري اذن دون أي عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها في عدد من تلك البلاد التي لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبانٍ دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقي فقد سارت منذ زمن طويل في طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهي مرحلة لجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التي يُزعم أنها عليا وهي مرحلة الدولة ، بغية أن تغرق فيهـا غرقاً كاملاً . تلك هي على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكيـــة الرومانية فانها منـــذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقـام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو في الكنيسة ، فهو حين ينبذه المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة • وفى وسعكم أن تتخيلوا بسهولة الى أين يؤدى هذا • قد يتراءى ان الامور تجـرى على هذا النحو غالبا فى بلادنا أيضا • ولكن الفرق بين بلادنا والبـــلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعده ابناً عزيزاً ما يزال جديرا بالحب • هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هـــذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً • وانه لصحيح كل الصحة أيضا ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاحا لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصا كبيرا • ان الكنيسة نفسها ـ وهذا أمر مؤكد ـ ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سيرتكب ذنبا فى المستقبل، وأن تعرف الجريمة التى تتهيأ ، أكثر كثيرا مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدى الضالين ، وأن تُبقى فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تُنهض أولئك الذين سقطوا •

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهيأ ، وأنه غير باقٍ الا بفضل الصالحين السبعة ؟ ولكن هؤلاء لايمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعا أى تنظيما انسانيا يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع • هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو فى آخر الزمان ، لأنه قد أريد وحُدِّد منذ الأزل • وما ينبغى أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن ، ما دام مفتاح العصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته وسابق علمه • ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا جدا فى تقدير البشر قد يكون فى بعض الأحيان على وشك أن يتحقق بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها • لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب •

قال الأب بائيسى مؤيدا فى رصانة ووقار :

ـ فلتكن مشيئة الرب •

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

ـ هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلاً بحذر :

ـ ما هو الشيء الذى تراه فى هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

ـ شيء عجيب كل العجب ! شيء لم أسمع به من قبل ! يزيلون الدول القائمة ليشيدوا فى مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف فى الأخذ بعقائد ما وراء الجبال ! ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القبيل!*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

ـ الأمر نقيض ما ترى تماما • نحن لا نعتقد أن الكنيسة هى التى يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه • ان ذلك الحلم هو حلم روما حقا ، وهو ثالثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض عقيدة ما وراء الجبال ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارثوذكسية • أن نجمة هذا الايمان المظفر ستطلع فى سماء الشرق •

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا • ان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته • وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع • وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب • لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه • ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شىء بانتباه ، ويسمع كل شىء باصغاء ، رغم أنه غاضّ بصره • ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبث فيه هذا الاضطراب •

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاظم :

ـ اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة • حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بُعيدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية • فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره • لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية ـ ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها • انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفعنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع • واذ

لم يكن عنـد رب الدار عنـدئذ بصفته زائراً بل بصفته مرءوسا يقدم تقريرا ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بى ، قد شرفنى بأن أفضى الىَّ ببعض الأمور وباح لى ببعض الأسرار . طبعا لم ينفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاطفة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكننى استطعت أن أرى ما فى نفسه واضحا كل الوضوح. لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانبا وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جدا أفلتت من لسان هـذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسرُّ الىَّ : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدين الثوريين . نحن نراقبهم من كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجالاً من طـــراز خاص ، وإن لم يكن عددهم كبيرا جدا : أولئك هم المؤمنون، المسيحيون، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الدينى . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى شىء آخر . هؤلاء أناس خطرون جدا . ان رجلا يجمـــع بين الاشتراكية والمسيحية معا لهو أخطر كثيرا من اشتراكى ملحد . . » . لقد فجأتنى هـــذه الفكرة كثيرا فى تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدرى لماذا ...

سأله الأب بائيسى فجأة بغير لف أو دوران :

ـ هل تريد أن تقول ان هذه الفكرة تصدق علينا واننا فى نظـرك اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بطرس الكسندروفتش الى جـواب يقوله ، فُتح الباب وظهر دمترى فيدروفتش بعد تأخر طويل جدا . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجىء هذا قد أحدث فيهم شيئا من دهشة .

٦

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل

إن دمترى فيدوروفتش ، وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه، يبدو فى الواقع أكبر من سنه . انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائى أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان فى قسمات وجهه شيئا مرضياً . هو نحيل المحيا خاسف الخدين ، فى لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة . وان فى عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضا مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة . وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً فان نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هى تفصح فى كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة فى بعض الأحوال . « ان من الصعب على المرء أن يعرف مايدور فى فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين . وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة يدهشهم فى أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها فى نفس اللحظة التى تتجهم فيها عيناه . على أن ما يظهر فى سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التى يعيشها

بمدينتنا فى الآونة الأخيرة « لاهياً قاصفاً مستهتراً » ، أو هم قد سمعوا عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضا درجة الاهتياج المرضى الذى وصل اليه فى خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؛ حتى أن الناس فى مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات . والحق أنه بطبيعته غضوب، وأنه « مندفع مشوش » ، كما وصفه بذلك صادقاً كل الصدق قاضى الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات . ولقد كان فى ذلك اليوم يرتدى صدرة ذات أزرار أنيقة أناقة لا مأخذ عليها ، ويلبس قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية . وكما يفعل كل عسكرى محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ، ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين . وهو يمشى مشية حربية حازمة واسعة الخطى .

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور، اتجه نحو الشيخ قُدُماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيَّاه منحنياً له انحناءة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبَّل دمترى فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديدا بصوت يدل على الحنق والاستياء ، قال يشرح :

ـ أرجو أن تتفضلوا فتغفروا أننى جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها . ان الخادم سمردياكوف الذى أرسله «باتيوشكا» * قد أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدِّدت له الساعة الواحدة بعد الظهر . وهأنذا أعلم الآن أن ...

قاطعه الشيخ قائلا :

ـ اطمئن . ليس الأمر بذى بال . لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة ...

ـ أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيًّا مرة أخرى ، ثم التفت نحو أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيَّاه تحية فيها ما كان فى تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم • واضح أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفاً ، وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته • وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً فيرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيرا رصيناً مفرطاً فى التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشراً • وبعد أن حيا دمترى فيدوروفتش سائر الحضور فى الحجرة بانحناءة واحدة صامتة ، اتجه نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائيسى ، على المقعد الوحيد الذى كان لا يزال خاليا • ومال بصدره الى أمام ، متهيئاً لمتابعة المناقشة التى قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين، وكان لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً• ولكن ميوسوف لم يرَ فى هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذى طرحه الأب بائيسى والذى يكاد يكون مزعجاً •

قال بشىء من الاهمال الذى يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

ـ اسمح لى أن لا أتعرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جدا من جهة أخرى • وأنا ألمح أن ايفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر الينا، فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة فى هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه ان شئت •

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلا :

ـ ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظةً ثانوية . ان اللبراليين في أوروبا ، كسائر هـواة اللبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمي اليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمي اليها المسيحية . وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير . ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفـرد به اللبراليون وهواة اللبراليـة ، وانما هو يحـدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية . وان حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش .

فكرر بطرس الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

ـ أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هـذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخـرى شائقة جدا ومميَّزة جداً : والحكاية في هذه المرة تتصل بايفان فيدوروفتش . لقد كان ايفان فيدوروفتش منـذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحةً أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ،فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هـو اعتقاد البشر بأنهم خالدون . حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هـذا الاعتقـاد بالخلود فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

حياتهم فى هـــذا العالم • أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شىء يعـــد منافيـاً للأخلاق ، وســيكون كل شىء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر • بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقى للطبيعة يتغير وجهه فوراً فى نظر كل فرد ـ فى نظرنا نحن مثلاً ـ متى كان هذا الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقى للطبيعة يأمر عنـدئذ بنقيض ما سلـّم به الدين من قبل وما جاء فى تعاليم الدين من قبل ، فاذا بالانانية التى تمضى الى حد الجـــريمة لا تصبح مباحةً للانســان فحسب ، بل تصبح كذلك مشروعة وضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول، بل والمخرج الوحيد النبيل • ففى وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التى يراها عزيزنا الخيالى الكبير والسفسطائى العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التى سبق أن أعلنها وآراؤه التى لعله ما يزال ينوى أن يعلنها •

هتف دمترى فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا فى حسبان أحد البتة :

ـ اسمح لى ! هل ما سمعته منك هو « أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعدً كذلك ، فى نظر كل ملحد ، هى المخرج المعقول الذكى من وضعه ؟ » •

قال الأب بائيسى :

ـ تماما •

فقال دمترى فيدوروفتش :

ـ اننى أسجل هذا •

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما تكلم فجأة • فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول •

واتجه الشيخ في تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :

ـ هل يمكن أن يكون في تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

ـ نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا فضيلة بلا خلود •

ـ ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا واما شقى جدا •

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

ـ ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

ـ لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح ولا بشىء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية •

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر وجهه على حين فجأة :

ـ قد تكون على حق ••• ولكننى لم أعبث الا نصف عبث ، لم أمزح الا نصف مزاح !

ـ أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح • فان هذه المسألة لمّا تُحلّ في قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك • ان الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحياناً أن يعبثوا بعذابهم ، وتلك طريقة في التعبير عن كربهم ويأسهم • وهذا ما تفعله أنت • فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات فى الجرائد ، أو بالاندفاع فى مناقشات فى الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل فى سرك متألماً ... ان هذه المسألة لم تحسم فى نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً ...

فقال ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحنته تغيراً غريباً وحدّق الى الشيخ مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها :

– وهل من سبيل لى الى حلّها ؟ هل يمكننى أن أحلها ايجاباً ؟

– اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون فى قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر لله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعانى ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة فى الأعالى ، لأن وطننا فى السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد فى قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو فى مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفـــان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس فى مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهـــه فى تلك اللحظة يعبر عن صـــلابة وجد ورصانة. ان هذه البادرة التى قام بها وان تلك الكلمات التى تبادلها مع الشيخ والتى كانت لا تُتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث فى جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهـــة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هـــذا الجو الأخَّاذ اذ رفع كتفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيـــدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً الى ايفان فيدوروفتش:

ـ أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابني ، هذا فلذة كبدي ، هذا ولدي الحبيب ! انه أعلى أبنائيَ قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هـــو من نوع كارل مور قليـــلاً ان شئت ... أما الذي وصـــل الآن ، أما دمتري فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم احتراماً ، انه صنو فرانتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتي أشبِّه نفسي في هذه القصة بجراف فون مور * . فانظر في الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن في حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضا .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

ـ لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تهن أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء .

هتف دمتري فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار، هتف يقول :

ـ هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آتٍ الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمتري بافلوفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى انني أجهل اللقب الذي يجب أن أناديك به . لقد خـــدعوك وغرروا بك ، فكنت ضحية طيبة نفسك وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبي لا يسـعى الا الى الفضيحة والجرسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

في كل عمل يقوم به حساباً يجريه . وأظن مع ذلك انني أحزر مايضمر من نيات خفية في هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

- انهم جميعا يتهمونني . هم جميعا يناصبونني العداء . وبطرس الكسندروفتش يتهمني أيضا ...

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطبا ميوسوف :

- نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتني . هم يأخذون عليّ أنني سلبت أولادي ثروتهم ، واغتنيت على حسابهم . أليس هناك اذن محاكم ؟ انني ألقي عليكم هذا السؤال . هلا اتجهت الى المحاكم يادمتري فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التي وقعتها ، والرسائل التي أرسلتها ، والاتفاقات التي أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ، وما هو المبلغ الذي بددته ، وكم بقي لك ؟ لماذا يرفض بطرس الكسندروفتش أن يقضي في خلافنا هذا ؟ ليس دمتري فيدوروفتش شخصاً أجنبياً عنه ، فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً يناصبونني العداء ، مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مديناً لي بمال في آخر الحساب ! هو المدين لي ، وليس ديني عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق في يدي ! ان حياة القصف واللهو والتبذير التي يعيشها تترجع أصداء اشاعتها في مدينتنا كلها ؟ وهو منذ كان في الجيش قد تعود أن يرمي ألف روبل أو ألفين في سبيل أن يقضي على عفاف البنات الشريفات ! هه ... انني أعرف هذا يا دمتري فيدوروفتش ... انني أعرف أدق التفاصيل الخفية ، وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ... فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أفسد دمترى فيدوروفتش أخلاق أنبل فتاة من الفتيات ، فتـاة تنتمى الى أسرة كريمـــة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هى ذى الآن تقيم فى مدينتنا كتيمة مع أنها خطيبته ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدنى مع رجل محترم جدا ، هى قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها ـ كزوجة شرعية تماما ـ لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة ... يمينا انها لفاضلة ! هى الفضيلة بعينها أيها الآباء المبجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتـــاح من ذهب ، وذلك هو السبب فى هجومه علىَّ الآن ، لأنه يأمل أن يسلبنى مالاً . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالاً بعد مال . انه يستدين ، وهـــلُ تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أأقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدوٍ :

ـ صـــه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أســمح لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالماع اليها اهانة لشرفها ... لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقاً .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأنين وهو يحاول أن يمنع انسكاب دموعه :

ـ ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى يحدث لو لعنتك ؟



ديمترى كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزأر دمترى فيدوروفتش يقول وقد جُن جنونه غيظاً :

ـ ممثل هزلى وقح !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـ انظروا كيف يعامل أباه ! انظروا كيف يعامل أباه ! وهو فى معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً . اسمعوا هذا أيها السادة : فى مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو رائد (كابتن) محال على التقاعد . لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير ان كل شيء قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه سليماً لم يمسسه أذى ولم ينله سوء . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة . فهل تعلمون ما صنع به دمترى فيدرووفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه من لحيته فى احدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس ! كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل سراً ببعض الأمور فى قضية صغيرة ! ...

قال دمترى فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقاً :

ـ هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر كذب فى الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر مفترس ، واننى نادم على ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزى والعار من ذلك الغضب المسعور الذى استبد بى . ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذى تقول انك عهدت اليه ببعض الأعمال، انما ذهب الى تلك التى وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة ، فكلمها باسمك ، وعرض عليها أن تشترى السندات التى وقعتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودَع السجن

متى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلـــلق بتصفية حساباتنا • فكيف تجرؤ أن تأخذ عليَّ اليوم أنني أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها أنت نفسك أن تجتذبني اليها ! ثم انها لا تجد أى حرج في أن تقص هذا على جميع الناس ، ولقد روته لي أنا أيضا ، ساخرةً منك متهكمـة عليك ! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلني السجن فليس لهـــذا الا سبب واحد على كل حال ، هو أنك تغار مني ، لأنك حاولت أن تزعج هــذه المرأة بحبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع ؟ ضاحكةً عليك ، مستهزئةً بك ! تلكم هي ، أيها المباركون، حقيقة هذا الرجل ، تلكم هي حقيقة هذا الأب الذي يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه ! أيها الســادة الذين شـــهدتم هذا المشهد ، اغفروا لي ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست ســلفاً ، وا أسفاه ، أن هذا العجوز الوقح انما جمعكم كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة وأن يثير مشاجرة أما أنا فلقد جئت على نية الصـــفح والمغفرة اذا مدَّ اليَّ يده ، وعلى نيـة نسيان الاســاءة التي ألحقها بي ، والشر الذي نالني به ، وعلى نية طلب الصـــفح والمغفرة كذلك • أما وأنه أهانني الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة ــ وهي فتاة أتحاشى أنأذكر اسمها في غير طائل ، لأنني أحترمها احتراماً دينياً ــ فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رءوس الأشهاد ، رغم انه أبي •••

لم يســـتطع دمتري فيدروفتش أن يتـابع كلامه • كانت عيناه تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً • وكان جميع الحضور من جهة أخرى مضطربين أشد الاضطراب • وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين ، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ • ولم يكن الشيخ قد تحرك • كان وجهه مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض• ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه • وهـــو من حين الى حين يهمُّ ان

يرفع يده ليهدىء روع هؤلاء الممسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته . ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافيا عنه مستعصيا على فهمه . وأخيرا شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل اذلالاً عميقا ، وأنه جُلّل بالخزى والعار . قال بحرارة :

ــ اننا جميعا نتحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشىء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أننى كنت أعرف مَنْ هذا الرجل .. يجب أن ينتهى هذا الأمر فورا ... أيها الأب المبجَّل ، ثق أننى لم أكن على علمٍ دقيق بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن . لقد كنت أرفض أن أصدّقها ، وانما عرفتها فى هذه اللحظة لأول مرة ... أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن ... هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجىء معهم اليك . لقد غُرِّر بى ، فأريد أن أصرِّح علانية أننى قد غُرِّر بى وخدعت كما خُدع غيرى ...

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :

ــ دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فورا .. بالمسدس .. على مسافة ثلاث خطوات .. والأعين معصوبة ...

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

ــ نعم ، والأعين معصوبة ! ...

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثّلون يبلغون أحيانا من عمق تشبعهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً

ويبكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ورغم هذه الدقيقة « المقـدسة » من الحماسة والاندفاع . » .

قطّب دمترى فيدوروفتش حاجبيه ، وأظلم وجهـه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف . ثم قال بصوت رفيق مكظوم :

ـ ما كان أغبانى حين اعتقدت ، حين أمّلت وأنا أعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيبتى ، أننى سأستطيع أن أجمّل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، وممثلاً دنيئاً خسيساً !

زأر العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

ـ الى المبارزة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلهـا لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف ـ نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ ـ من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تحرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمترى فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيبتك فى سبيل هذه «المخلوقة» وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيبتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها . تلكم هى المرأة التى سميتموها « مخلوقة » !

صاح الأب جوزيف يقول فجأة :

ـ هذا خزى وعار !

وانبرى الفتى كالجانوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحـدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف استياءً وامتعاضا واستنكارا :

ـ يا للفظاعة ! يا للشناعة !

وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا •

وزأر دمترى فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر ، زأر يقول فى نوع من التخفف :

ـ لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاّ قلتم لى ، هلا قلتم لى هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحد ، مومئاً الى أبيه بيده • وكان يتكلم ببطء مقطّعاً ألفاظه •

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

ـ هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو جوابه على قولك « هذا خزى وعار ! » • هلاّ قلت لى أين الخزى والعار ؟ ان هذه « المخلوقة » ، ان هذه « المرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدس منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون فى الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت فى شبابها ضحيةَ بيئتها ، ولكنها « أحبت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التى أحبت ••• *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

ـ المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

ـ بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان ••• نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه • تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامز ، وتظنـــون أنفسكم بررة تقاة صالحين . تغتذون بالأسماك ، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم، وتتخيلون أنكم تخدعون الله بأسماككم هذه التي تأكلونها ! ...

ــ هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا لا يغتفر بحال من الأحوال .

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات .

غير أن هذا المشـــهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو لم يكن في الحسبان : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشـــيخ وعلى أهله ، هرع يسنده من ذراعه . اتجه الشيخ نحو دمتري فيدوروفتش ، فلما وصل اليه هـوى يركع على ركبتيه . اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً ، ولـكن الأمر لم يكن كذلك . فحين صار الشـــيخ راكعا على ركبتيه ، انحنى يحيى دمتري فيدوروفتش عامدا ، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه كاد يلامس الارض . دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسى معهـا أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض . وهذه بسمة صغيرة لا تكاد تُدرك ، تحرّك شفتي الشيخ . قال وهو ينحنى لجميع ضيوفه في كل جهة من الجهات :

ــ معذرة ، معذرة ...

لبث دمتري فيدوروفتش جامدا من الذهول بضع لحظـــات : لقد ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

ــ يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة .

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف • واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته •

ـ لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون فى تلك اللحظة نطاق الصومعة) •

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غضبى :

ـ لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعا• لست أعبأ بحركاتهم ، ولكننى فى مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد • أين ذلك الراهب الصغير الذى استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصغير » ، وهو الذى كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذى تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت •

قال له بطرس الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

ـ أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الرهبان احترامى العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرنى ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن فى الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية فى تلبية هذه الدعوة الكريمة •

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلا :

ـ آ ... هذا أنا . الظروف الطارئة التى لم تكن فى الحسبان هى أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد سئم صحبتى ولولا ذلك للبى الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة يا بطرس الكسندروفتش ، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذى سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! هيَّا اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلى ، وآكل فى دارى ، لأننى لن أستطيع أن أبلع شيئا هنا ، هل فهمت يا بطرس الكسندروفتش ، يا قريبى العزيز جدا ؟

ـ أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك فى يوم من الأيام أيها الانسان الدنىء !

ـ لقد تعمدت أن أقول لك قريبى لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها . ولكنك قريبى مع ذلك ، وفى وسعى أن أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقويم القديسين . أما أنت يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربة لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فابق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعتذر اليه عن الفضيحة التى شاركنا فيها جميعا ...

ـ أصحيح أنك منصرف ؟ أأنت لا تكذب ؟

ـ كيف أجرؤ أن أحضر المأدبة بعد الذى حدث يا بطرس الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعا طائشا أيها السادة ، لقد نسيت نفسى ، فاغفروا لى ذلك . هذا الى أننى مضطرب ، وأننى أشعر بالخزى أيضا . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير،

وان لبعضهم الآخر شـــجاعة كشجاعة الكلب الصـغير « أمين » . وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألعق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثـل تمثيلا» بهذا حدّث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذى أخذ يبتعد ، بنظرةٍ فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بافلوفتش الى وراء ، فلما لاحظ أنّ ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ أأنت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

ـ ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوةً خاصة ...

ـ المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لنعتذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها . ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلا :

ـ صحيح . يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

ـ أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

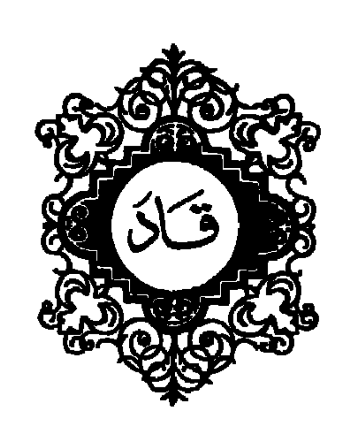
مضى المدعوّن الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً • واقتصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف ساعة • ولكن أحداً لم يجبه •

ألقى ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه : « انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير كارامازوفي ! » •

٧

طالب اللاهوت



ألیوشا شیخه الى المهجع وأجلسه على السرير . هی حجرة صغيرة جـدا لا تضم من الأثاث الا ما لا غنى عنه . السرير صغير من حديد ، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش . وفی ركن من الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل . تهالك الشيخ على السرير منهوك القوى . كانت عينـــاه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً . فلما جلس ، ألقى على أليوشا نظرة طويلة منتبهة ، كأنه يفكر فی أمره ، ثم قال له :

ـ اذهب یا عزیزی ، اذهب . يكفي بروفير لمساعدتی . أسرع . هم فی حاجة اليك هناك . اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة .

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع :

ـ اسمح لی أن أبقى قربك !

ـ أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام . سوف تخدمهم ، وقد يكون فی حضورك خير لهم . اذا استيقظت الشياطين فاتل دعاءً . واعلم

أيضا يا بنى العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعانى اليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما !

ارتعش أليوشا • فقال له الشيخ :

ـ فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • اننى أبارك بدايتك العظيمة فى هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها وأن تعانيها فى الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تتزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكننى لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه فى نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة فى العذاب • اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحث عن الفرح فى التجربة • اعمل ، اعمل بغير هوادة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أننى أعلم ، ولو أتيح لى أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة •

عبرّ وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان •

سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رفيقة :

ـ ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فاننا نغتبط مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلى له • دعنى الآن • يجب على أن أصلّى • هيّا أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما •

وروفع الشيخ يده ليباركه • كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته فى البقاء معه قوية • وكان يحترق توقاً الى سؤاله عمّا تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمترى ساجداً • وكان هـذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به • انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدّر أن ذلك فى الامكان • أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل • غير أن تلك التحية قد أحدثت فى نفس أليوشا تأثيراً قوياً جدا : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرياً • ان هذه الحركة التى قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول • ولما خرج من نطاق الصومعة حاثاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتـــداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعا)، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوّى فى نفسه كلمات الشيخ التى يعلن فيها أن نهايته قد قربت • ان ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع • هـــذه فى نظر أليوشا حقيقة مقدسة • فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيمسك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طـويل بمثل الذى يشعر به الآن من حـــزن • أغذّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التى تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجـــزه عن احتمال خواطره التى كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التى تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتى تنتصب قائمة على جهتى الممر فى الغابة • ليست المسافة بعيدة ؟ هى خمسمائة خطوة فى أكثر تقدير ؟ وفى مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداء ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة • كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر •

سأله أليوشا حين أدركه :

ـ أتنتظرنى أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

ـ حزرتَ • أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلمُ ذلك • ان عنده وليمة غداء • هل تعرف أنه منذ اليوم الذى استقبل فيه الأسقف الذى كان يصحبه الجنرال باخاتوف ـ هل تتذكر هذا ؟ ـ لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء • اذهب اليه وحدك • قدّم المرق للضيوف • هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك هذا السؤال •

ـ أى رمز تعنى ؟

ـ تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش • لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض •

ـ هل تقصد الأب زوسيما ؟

ـ طبعا أقصد الأب زوسيما •

ـ صدم جبينه الأرض ؟

ـ أيكون فى هـذا التعبير اخـلال بواجب الاحترام ؟ طيب ••• لنفرض أننى أخللت بواجب الاحترام • ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

ـ أجهل معناه يا ميشا •

ـ كنت أعلم أنه لن يشرحه لك • وليس فى الأمر شىء من سر طبعا • هى تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر • ولكن الشيخ

لم يمثل هذه يمثل هذه التمثيلية بغير نية يبيتها • ان جميع الثرثارين والاقليم سيتحدثون الآن فى هذا الأمر وسيتساءلون : « ما دلالة هـــذا الرمز على المســتقبل ؟ بأى شيء يؤذن هـــذا الرمز ؟ » • فى رأيى أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأى ولا يعوزه نفاذ البصيرة • لقد أحسّ أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح فى منزلكم تنذر بشر مستطير •

ـ أية جريمة تقصد ؟

كان واضحا أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الافصاح عما يدور فى رأسه ويجول فى خاطره •

ـ فى أسرتك انما ستُرتكب هذه الجريمة • ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبيك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه • فاذا وقع شيء فى ذات يوم قال الناس : « لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ! » • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفعون الشيخ الى الســـحاب ، وســيظلون يذكرون بغــير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معتوهى القرية لا يفعلون الا هذا ؟ يرســمــون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شــيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

ـ أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ أأنت مجنون ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضا ، وقال يســـأل أليوشا :

ـ أية جريمة ؟ أتزعم أنك تجهل الجريمة التى أعنيها ؟ ألا اننى أراهن على أنك فكرت فى هـــذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة . اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائما ، رغم أنك جالس دائما بين كرسيين : أفكرت فى هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

ـ خطر ببالى :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلا :

ـ ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

ـ أقصد أننى ... لم يخطر ببالى ... ولكننى حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جدا منذ هنيهة ، خيِّل الىَّ أنه خطر ببالى .

ـ أرأيت ؟ لقد عبَّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً . أرأيت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطىء اذن ظنى ...

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

ـ انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ... ولمــــاذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولا ...

ـ هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة . فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فاننى أقول لك اننى ما كان لى أن أدرك شيئاً وما كان لى أن أحزر شيئاً لولا أننى فى لحظة معينة قــد نفذت الى سريرة أخيك دمترى فيدوروفتش ، فرأيت ما فى نفسه بمثل

ومض البرق • لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل سـمة من سمات طبعه • هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء فى حقيقة أمرهم ، ولكنهم ميالون الى الملذات مقبلون على المباهج ، هنـاك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه فى معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال فى شىء من الأشياء يوما ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة فى يوم من الأيام •

ـ لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطىء ، وأنا أسترد تفاؤلى ، لن يمضيا الى هذا الحد •

ـ فلماذا أراك ترتعش اذن كورقة فى مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتيا رجل شريف ، أسلّم لك بذلك (هو غبى لكنه شريف) ، غير أنه يحب الملذات • ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر فى نفسه • وقد أخذ هذا عن أبيه الذى أورثه شـهوانيته الخبيثة • اننى لأستغرب فى بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا • كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شىء ••• والميل الجامح الى اللذة قـد أصبح فى أسرتك مرضا فتاكا ، أصبح قرحةً فى الروح ، أصبح سلاً مفترساً ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً فى كمه خنجراً • لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم •

ـ أنت مخطىء فى موضوع تلك المرأة • ان دمترى يحتقرها •••
كذلك قال أليوشا فى تشنج • فأجابه راكيتين :

ـ من ؟ جروشنكا ؟ * لا يا صاحبى ••• لا ••• انه لا يحتقـرها

البتة . يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيئته فى سبيلها حتى تصبح على يقين من أنه لا يحتقرها ذلك الاحتقار الذى تتصوره ! هناك شيء .. شيء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويعشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصبحون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمهم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم لينالوا الحظوة لديها . قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رقاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم ينسون ويغدرون . ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجّد ساقيها الصغيرتين فى شعر * . وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف . وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب . لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحتقر جروشنكا . قد يكون صحيحا أنه يحتقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها .

أفلت لسان أليوشا يقول فجأة :

ـ أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث :

ـ هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها . ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك . وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا العف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوشا أنك انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس • ولكن مهما تكن فتى نقياً بريئاً هادئاً فان الشـيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهـر الذيل ، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة ••• انتى ألاحظك وأرصدك منذ زمن طويل ! أنت واحد من أسرة كارامازوف ••• أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً ••• ولا بد أن نؤمن بأن للعرق والوراثة أثراً رغم كل شيء•• أنت شهوانى من جهة أبيك ، بسيط من جهة أمك • مالى أراك ترتعد فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت الى جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جئنى به (كانت تتكلم عنك) ، فأخلع عنه ثوب الراهب الذى يرتديه ! » • ليتك تعرف كم ألحت : « جئنى به ، جئنى به ! » ولقد تساءلت ما الذى يجعلها تهتم بك هـذا الاهتمام كله ، ما الذى يشوقها فيك الى هـذا الحد ؟ ••• هى امرأة خارقة ، صدقنى •••

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

ـ بلغها تحيتى ، وقل لها اننى لن أجيء • أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا ، وسأجيبك بعد ذلك •

ـ ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟ انه كارامازوف هو أيضاً ••• ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طماعون ،أناس بسطاء • ان أخاك ايفان يسلى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً فى ذلك لحساب لا أدرى ما هو ، لأنه فى حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الخطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب ايفان ! ••• وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو . كيف ؟ بموافقة ميتيا ... ان ميتيا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشنكا انصرافاً كاملاً . وهذا كله ــ لاحظ ذلك ــ لا يبث شيئا من الاضطراب فى نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً . الشيطان وحده يعلم ماذا يجرى فى نفوسكم . ان أخاك يعترف بحطته وصغاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح . اسمع أيضاً : ان أباك ، العجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا . لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، وذهبت برشـــده ، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة فى حجرة الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالعة العذار . ان أباك مجنون جنونَ قط بقطة ... لقد استخدمها فى الماضى بأجرٍ فى شئون حقيرة من شئون الخمارات التى يديرها . فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعالَ نار الهشيم على الفور ، وهو منذ ذلك اليوم يكد ويجهد فى ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه الخسيسة طبعاً ... ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما جروشنكا فهى لمَّا تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هى تمثل عليهما كليهما ، وتتسلى بالهاب نار غرامهما . انها مترددة تتساءل أيهما أنفع لها وأجدى عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهى تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب فى أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتيا لا يملك مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيبته ذات الجمال الذى لا يضاهى ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحتد النبيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشنكا التي كان يعيلها في الماضي تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة . ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدي حقاً الى جريمة . وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان . وهو يجني من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحي : يظفر بكاترين ايفانوفنا التي يتوق اليها ، ويظفر ببائنتها التي تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحدا . لاحظ أيضا أنه لا يكون في هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به ... انني أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ، وقد كان منذ أسبوع في احدى الخمارات ثملاً يقضي وقته مع نساء غجريات ، قد صرح بصوت عالٍ أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً . أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغوٍ مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين . ألا انني لأتساءل ما الذي تجدونه أنتم جميعاً في ايفان هذا حتى تفتتنوا به هذا الافتتان ، وحتى تكونوا أمامه في حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقني اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً .

سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه :

ـ من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟

ـ تسألني هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابي . انك تسلّم اذن، في قرارة نفسك ، بأنني على حق .

ـ أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذي يرضى أن يغريه المال .

ـ صحيح ؟ طيب ••• وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ •

ـ ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تفتنه ألوف الروبلات • انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء • ربما كان يتوق الى الألم ويرنو الى العذاب ! •••

ـ ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً لمتشابهون ، هؤلاء النبلاء !

ـ اسمع يا ميشا ! ان نفس ايفان قلقة عاصفة ، وان عقله مهموم بمسائل خطيرة • ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذبه • هو من أولئك الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة الروحية •

صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفى نفسه :

ـ ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ••• انك لم تزد على أن كررت أقاويل شيخك !

قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفتاه ، وتابع كلامه :

ـ ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أغبى كلامك ! ما من شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة • يكفى أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء • ان مقالته التى نشرها فى الجريدة مضحكة سخيفة باطلة ! أما النظريات التى عرضها منذ قليل فهى غبية بليدة ! « لا فضائل بغير ايمان بخلود الروح • كل شيء مباح اذا لم نؤمن بخلود الروح • » (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذ يقول : « اننى أسجل هذا الكلام » ، هل تتذكر ؟) • هذه نظرية تغرى أناساً أوغاداً أوباشاً ـ مالى أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! ـ لا ••• لا أناساً أوغاداً أوباشاً،

بل مثقفين أدعياء يحملون فى أنفسهم « مشـــكلات عميقة لا تُحل » !
ألا انهم لمتبجحون ! ان جـــوهر تفكيرهم هو ما يلى : « من جهة أولى يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخـرى يستحيل عدم الانكار ! » •
ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانسـانية ستجد فى نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آآمنت بخـــلود الروح أم لم تؤمن • لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معـــانى الحرية والمساواة والأخوة •••

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة• وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئا ما •

قال وهو يبتسم ابتسامة مصـــطنعة متكلفة أكثر من الابتســـامة السابقة :

ـ كفانا كلاماً فى هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحسبني نمـاماً خبيثاً ؟

ـ لا ••• ليس يخطر ببالى أن أحسبك نماماً • انت انسان ذكى ••• ولكن فلندع هذا الموضوع ••• ثم اننى قد ضحكت بغير سبب • أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميشا • لقد أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة فى أقوالك أنك أنت أيضا لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث • انك لا تقف منهـا موقف من لا يبالى بها ••• وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها الأخ • فذلك هو السبب فى أنك تكره ايفان • أنت تغار منه عليها •

ـ لعلنى أغار منه على باتنتها أيضا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

ـ لا ••• لن أتكلم عن المال ••• لن أهينك !

ـ أصدق قولك ما دمت قد قلته • ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايفان ... ألا يمكنك أن تفهم اذن أن فى وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترين ايفانوفنا ؟ هلاَّ قلت لى لمــاذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عنى سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضا ؟

ـ لم أسمعه يتحدث عنك يوما ، لا بخير ولا بشر ... انه لا يهتم بك .

ـ تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عنى ، فى منزل كاترين ايفانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق . انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فان لى فى هــذا رأياً ... لقد تفضل فقال عنى اننى ان لم أقرر فى مستقبل قريب جــدا أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى صحيفة يومية كبرى ، كناقدٍ طبعا ... وأبقى محــرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحبَ الجريدة ، وأوجه الجريدة فى اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ... معنى هذا أننى سألعب على الحبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت ـ فى رأى أخيك ـ رأس مال ضخما رغم الصبغة الاشتراكية ، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صــغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقهــا الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً . حتى لقد حــدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقــال على نهر نيفا بين حى ليتــاينى وحى فيبورج ...

ـ ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطـة فى أغلب الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه .

ـ أنت أيضا أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتش !

ـ لا ... لا ... تلك مزحة ... سامحنى ! وانما كنت أفكر فى شىء آخر تماما . ولكن قل لى : من قصَّ عليك هذه التفاصيل ، ومن أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضرا عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ، حين دار الحديث عنك !

ـ لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هـــذا الحديث عنى ، ولكن دمترى فيدوروفتش كان حاضرا . ومنه انما سمعت هـذا هذا الكلام بأذنىَّ . أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته على غير ارادة منى طبعا ، لأننى كنت فى غرفةنوم جروشنكا ، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفـــان فيدوروفتش كان متلبثاً فى الغرفة المجاورة .

ـ صحيح ... تذكرت الآن ... هى قريبتك فيما أظن ، أليس كذلك ؟

ـ قريبتى ؟ جروشنكا قريبتى ؟ أتراك جُننت ؟ أيكون عقـــلك مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

ـ لماذا ؟ ألستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

ـ سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر الســـادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النبيلة العريقة ، على حين أن أباك كان مهرّجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبة يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم أننى لست ابن قس ، وهذا يجعلنى فى نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كاف لتهيننى بهـذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت المبذولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا .

ـ معذرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن فى وسـعى أن أعرف هذا . ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة ؟ ألعلها ... واحدة من تلك النساء ... ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة . ثم أردف يقول :

ـ أعود فأقول لك اننى قد ذُكر لى انها قريبتـك . وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب .. فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحتقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

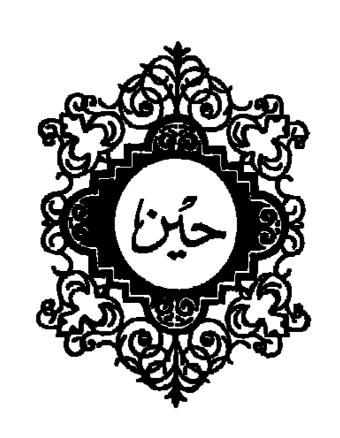
ـ قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها . لن أقول لك أكثر من ذلك . أما القرابة مع جروشنكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا علىّ أنا ... ها نحن وصلنا الآن . الأفضل أن تمضى رأساً الى المطبخ . آه .. ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغـداء مع ذلك ! اللهـم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلبا» مما عُهد فيهم ! أكيد ... هـذا

أبوك يبتعد ، ووراءه ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما يبدو ••• أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟ وهذا ماكسيموف يركض في تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن لم يتم الغداء ••• أتراهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون الآخرون هم الذين ضربوهم ! ••• وددت لو أرى هذا •••

لم يكن تعجب راكيتين في غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً •• فضيحة لم تكن في الحسبان ••• فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل ••• وقعت بمجرد « وحي والهام » •••

٨

فضيحة



وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند رئيس الدير (كبير الرهبان) ، تغيرت حالة بطرس ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ، بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة : لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه . أحس فى قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار ، فما يفقد هدوءه فى حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه . قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فان الرهبان لا يتحملون تبعة شيء مما حدث ، فما ينبغى أن أؤاخذهم .. وما داموا هم أيضا أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولا ، رئيس الدير ، يرجع الى أصل نبيل هو أيضا) ، فلماذا لا أكون فى معاملتهم لطيفا رقيقا مهذبا ؟ لن أتهجم على آرائهم ، بل سأتظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ، وسأبرهن لهم أخيرا على اننى لا شيء يجمعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ ، هذا الايزوب ، هذا المهرج ، هذا التافه ، وأننى فى هذه المغامرة كلها ضحية مثلهم ! » .

أما حقوق قطع الأشجار فى الغابة ، وحقوق الصيد فى النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلا كاملا نهائيا ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة . سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير .

وقد تعززت نياته الطيبة هذه فى نفسه مزيدا من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير . والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين . ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فان الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجَّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن . حتى أن الأرض لم تكن مطلية . ولكن كل شىء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاءً ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار جميلة ثمينة . على أن الشىء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة انما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جدا ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أُحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، ابريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيرا فى المنطقة كلها . ولم يكن على المائدة كحول . وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساءَ سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمثلجات ، فثمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة * . كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شىء . انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فتسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات في كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس . ان له نفساً قلقة حسودا . وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها . وكان واثقا من أنه سيصبح في المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل في الحياة دورا كبيرا . ولكن أليوشا الذي كان يحبه كثيرا كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظةً أنه كذلك : ان راكيتين ، لثقته بأنه لايسرق مالاً من دروج الناس ، كان يعدُ نفسه مثال الكمال الأخلاقي . وما كان لأليوشا، ولا كان لأحد في العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه في هذه النقطة.

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وبائيسي قد دُعيا اليها ، كما دُعي كذلك راهب كاهن آخر . ففي اللحظة التي وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون في غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك في أحد الأركان . استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة . انه شيخ فارع القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوي البنية ، له وجه طويل صارم وقور . حيّا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا في هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده في الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل ... أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبي ، وطبعا على يده قبلةً كبيرة سُمع صوتها .

بدأ بطـرس الكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسـامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

ـ نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا . لقد اضـطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه . لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبجَّل زوسيما ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسـفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ... أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ... وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) . وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجانا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه . وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه.

صمت ميوسوف . انه بعـد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للحنق الذى ألمَّ به من قبل . أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه .

أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصـانة ، ثم أحنى رأسـه قليلا ، وقال يجيبه :

ـ يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف . فلعله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة . تفضلوا فاتخـذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة .

ووقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخفض جميع الضيوف رءوسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصـغيرتين احـداهما الى الأخـرى معبراً عن تقوى خاصة .

وفي تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة . يجب أن نذكر أنه قد كان في نيته حقا أن ينصرف . كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن الفاضح في حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ، فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام في هذه الظروف . ولكن ما كادت عربته المترجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسَّ بتردد مفاجىء ، فتوقف في اللحظة التي كان يهم أن ينزل فيها من العربة . تذكر أقواله نفسها التي نطق بها في حجرة الشيخ : « انني أشعر كلما دخلت على بعض الناس أنني أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدونني مهرِّجاً ! فأقول لنفسي عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرِّج ، لأنكم جميعا أكثر مني غباوة ، وأخبث سريرة » . تمنى في تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته . وتذكر بهذا الصدد ، في الوقت المناسب تماما ، أنه سئل مرةً عن السبب الذي يجعله يكره فلاناً من الناس ، فأجاب في اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلا : « لماذا ؟ سأقول لكم . صحيح أنه لم يسيء اليَّ أية اساءة . ولكنني ارتكبت أنا في حقه حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التي ارتكبتها في حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه، وارتعشت شفتاه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : « لقد صُبَّت الخمرة فيجب شربها . سوف أتم ما بدأته . » . ان الشعور الخفي الذي خضع له فيدور بافلوفتش في ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالي : « لقد فاتني أوان رد الاعتبار الى نفسي . فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الاهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل اننى لا أخشاهم ، وأننى لا أحفل بما عدا ذلك ! » • وهاهو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعـــود أدراجه الى الدير مستحثاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً • لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يســـتطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحـدود القصوى من الدناءة ـ دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعـــد من ذلك ، ودون أن ينجرف الى ارتكاب جريمة أو الى اقتراف أى عمـل يمكن أن يؤدى به الى المثول أمام المحاكم • انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيرا ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال • ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة • وقف ساكنا جامدا على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متغطرسة خبيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقـد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز • وصاح يقول بصوت دوّى فى الغرفة كلها :

ـ ها ••• لقد ظنوا أننى انصرفت ••• فهأنذا أعود •

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شىء كريه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع • ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقـل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مســعور • ان الغيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثـل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقا قويا • صاح يقول :

ـ لا ••• هذا كثير في هذه المرة • لن أطيق ذلك ولن أحتمله • انني لا أستطيع الصبر على هـــذا بأي وجه من الوجـوه وأي حال من الأحوال •

ازدحم الدم في رأسه ، وتعثرت كلمـــاته واختلطت أقواله ••• ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ••• وها هو ذا يتناول قبعته •

قال فيدور بافلوفتش :

ـ ما الذي لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه« بأي وجه من الوجوه وأي حال من الأحوال » ، أيها الأب المبجَّل ؟ أتأمرني بالدخول أم تأمرني بالانصراف ؟ أتقبلني ضيفاً مدعواً الى مائدتك أم لا ؟

فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

ـ أهلا وسهلا • انني سعيد برؤيتك •

ثم أسرع يقول للحضور :

ـ أيها السادة ، انني أسمح لنفسي بأن أرجوكم من أعماق قلبي أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلتئم شملكم حول هـذه المائدة مصلـِّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة •

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

ـ لا •• لا •• هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـ اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة الىّ أيضا • لن أبقى أنا ما لم يبق هو • فعلى هذه النية انما جئت • لن أترك بطـــرس ألكسندروفتش بعـــد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطـــرس

ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا • ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس • انه لا يريد أن يكون أخي ! انه ينكر القرابة التي بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبي فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

ـ أأنا الذي ••• تسميني بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتش :

ـ طبعا أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ ألعلك تحسب أن الأب الرئيس هو الذي يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

ـ ولكنني لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

ـ بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة • لقد قُتل في ماخور ـ أحسب أن هذا هو الاسم الذي يطلق على تلك الأماكن في بلادنا ـ قُتل ••• وجرّد من كل ما كان معه ؟ ثم وضع في صندوق دون مراعاة لتقدمه في السن ، ثم سمّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرسبرج الى موسكو بالقطار البطيء • وبينما كان الصندوق يسمّر كانت المومسات تغني وترقص على أنغام البسالتريون ، أعني على أنغام البيانو• ان فون سون ذاك هو الذي ترونه الآن أمامكم • لقد بُعث بعد موته • أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة .

صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :

ـ فلننصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى الأمام خطوة أخرى :

ـ لا .. لا .. اسمحوا لى .. تحملوا أن أنهى كلامى أولاً . لقد ادُّعى أننى تصرفت تصرفاً خاليا من الاحتشام والاحترام فى حجرة الشيخ منذ قليل . لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان بطرس الكسندروفتش ، قريبى المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام من الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلتذهب الرفعة الى الشيطان ! أليس هذا صحيحا يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم ! قد أكون مهرِّجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرِّجاً ولكننى فارس من فرسان الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة . نعم ، أنا فارس من فرسان الشرف ، على حين أن بطرس ألكسندروفتش هذا ليس الا حزمةً من غرور جريح ، ولا شيء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت على نية أن ألاحظ وأن أحكم . ان ابنى الكسى يحقق فى هذا الدير خلاصه . وأنا أبوه . فمصيره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه . لقد ظللت أمثِّل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتنى كلمة واحدة مما كان يقال . لم يفتنى شيء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل الأخير من تمثيليتى ! اننى أعرف كيف تجرى الأمور عندنا . ما سقط فقد سقط ، أليس هذا صحيحا ؟ ان الخطأ الذى يرتكب يستمر قروناً ! ولكن لا ... اننى لا أقبل هذا ... اننى لا أُسلم بهذا ... اننى أثور وأتمرد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى أعمق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرٌ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتأثر قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس فى تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ . فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً فى الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سراً مقدساً . تلك قاعدة قديمة محترمة معظَّمة . كيف تريدون منى مثلاً أن أروى بحضـــور جميع الناس أننى فعلت كيت وكيت ـ هل تفهمون ؟ ـ كيت وكيت ... أقصد كيت ... وكيت ... قد لا يكون من الحشمة أحيانا أن يروى المـرء أموراً بعينها . تلك فضيحة أيها الآباء المبجَّلون ! من ذا الذى يضـمن أن لا تصيروا من هذا شيئا بعد شيء الى ملة الخلستيس ؟ * ... لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسى الأعلى عند أول مناسبة ... أما ابنى ألكسى فقد قررت أن استرده الىَّ وأصطحبه الى منزلى ...

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا . كان فيدور بافلوفتش قد سمع فى الماضى صدىً ضعيفا عن الخلافات الاكليركية ، فهـــو اذن يعـــرف على أى وتر يجب أن يضرب . ان وشايات خبيثة كانت قـد انتشرت فى الماضى ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا فى مدينتنا وحدها بل حدث كذلك فى أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) . قيـل فيما قيل ان الاحترام الذى يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعى اليه ، بل قيل أيضا انه يسىء الى مهابة رئيس الدير ويسىء الى كرامته . وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرّ الاعتراف ، وقيلت أيضـا حماقات كثيرة من هذا النوع . ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت فى كل مكان على كل حال . ولكن الشيطان الأحمق الذى ركب فيـــدور بافلوفتش وأخـــذ يهـــوى به متوترَ الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذى كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحــدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سيما وأن أحدا لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ فى ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عال ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئا وانما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكرا أقاويل قديمة . لكنه وقد أخرج هــذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاما سخيفا فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف . ورغم أنه كان يدرك ادراكا كاملا أن كل كلمة أخرى يقولها انما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى فى الطيش والحماقة مزيدا من التردى ، فانه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر ، بل أخذ يهوى الى القاع منكس الرأس .

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

ــ يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

ــ اسمح لى . جاء فى كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقد اتهمت بأشياء منكرة . فلما سمعت تلك الأقوال ، قلت لنفسى : « ان المسيح هو الذى أرسل الى هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض على هذه المحنة لأخلص نفسى من غرورها » . لذلك أشكر لك كلامك أجزل الشكر .

قال كبير الرهبان ذلك وحيا فيدور بافلوفتش منحنياً له انحناءة كبيرة .

ــ ته ته ته ! .. نفاق قديم وجمل مهترئة ! .. معروفة هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعني هــذه التحيات ! « قبلة على الشفتين وطعنة

فى القلب » * تماماً كما ورد فى كتاب شيللر « قطاع الطرق » ! اننى أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست فى أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك . هلاً قلتم لى أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة فى السـماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا اننى مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً فى سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هـذا أيها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضـيلة فى الحياة ، ولأن تكون نافعاً للمجتمع ، خيرٌ من أن تلوذ بدير لتحمى نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتنال فوق ذلك مكافأة فى الحياة الآخرة ! ولكن لعل هـذا يبدو لك أصعب وأشق ... أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس ..

قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف :

ـ فلننظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام ... خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة فى هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه ... هيه ... ما أروع هذه الزجاجات التى أخرجوها ! ... ومن ذا الذى أمد الدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسى الطيب الشهم الذى يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التى جنتها يداه المتشققتان، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء المبجلون !

قال الأب جوزيف :

ـ عيب ما تقول .

أما الأب بائيسى فقد أصرّ على الصمت فى عناد . وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجانوف .

قال فيدور بافلوفتش :

ـ انني أترككم أيها الآباء الطيبـون ، تماما كما فعـل بطرس الكسندروفتش ! ولن أجيء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم اليَّ جاثين على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هـذا شهوتكم وأسال لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا ... هأ هأ ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به سـورة عنف مقصود :

ـ لشـبابى انما أنتقم الآن ... ان هـذا الدير قد لعب فى حياتى دوراً ... جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجَم عليَّ زوجتى الكليوكوشا . أثقلتمونى باللعنات فى جميع معابدكم ، وأسأتم الى سمعتى فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! اننـا نعيش فى عصر لبرالى ، اننا نعيش فى عصر سـفن البخار وسكك الحديد . لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيكم شيئاً البتة .

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتـل فى حياته مكاناً فى يوم من الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة . ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه فى التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه مما عاناه من هذا الألم المزعوم . ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة أنه قد آن له أن يتوقف .

أما كبير الرهبـان فانه لم يردَّ على أكاذيبـه الخبيثة التى نطق بها الا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة ، وقال بصوت رصين :

ـ لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التى تُلحق بك على رءوس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تغضب ممن أهانك » . وذلك ما سنفعله .

ـ ته ته ته ... سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون ! ... أما أنا فذاهب . وسآخذ ابني من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لي عليه من سلطة الأب على ابنه . يا ايفان فيدوروفتش ، يا بني المطيع ، هلاّ تحملت أن آمرك بأن تتبعني . وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال اليّ بالمدينة في غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه . وليست المسافة بعيدة . هي فرسخ صغير . وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسيك مطبخ الدير . سوف تتغذى عندي . وسيكون على المائدة كونياك وخمور شتى . عندي خمرة رائعة من فاكهة التوت . هيه ! فون سون ! لا تفوّت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه . وفي تلك اللحظة انما لمحه راكيتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا .

فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

ـ ألكسي ! عد الى البيت في هذا اليوم نفسه ... عد الى البيت نهائياً ... خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس . كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا . وفي تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجي عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار . ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة • كان يلهث لهاثاً شديدا بعد أن ركض ركضاً سريعا حتى لا يصل متأخرا • كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً • وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهودا كبيرة ليثب الى داخلها •

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز الى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شيء :

ــ جئت ، جئت معكم •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

ــ ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأي واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذي دعاك الى العدول عن غدائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لي جبهة أنا أيضا ، ولكن لا يسعني أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيّا اقفز ، اقفز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ••• سيكون هذا مضحكا ••• سوف يجد مكانا بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذي ؟ اقفز الى المقعد بجانب الحوذي يا فون سون !•••

ولكن ايفان فيدوروفتش الذي كان قد استقر في العربة ، لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزةً أنه لم يسقط •

وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذي بصوت غاضب :

ــ امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

ـ ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت • ولم يجب ايفان فيدوروفتش •

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس النظر الى ابنه :

ـ عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

ـ كفَّ عن قول هذه السخافات ! أَوْلى بك الآن أن نرتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخم :

ـ قليل من الكونياك لن يضر الآن •••

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب •

قال الأب :

ـ ستشرب معى قليلا من الكونياك فى المنزل •

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا •

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

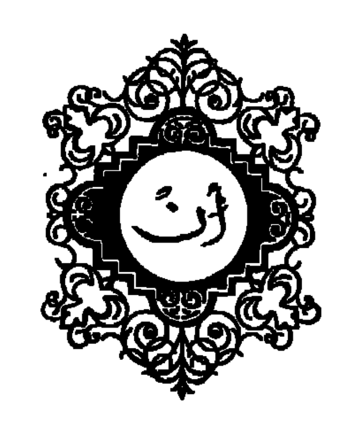
ـ أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور •

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا • ثم أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق • ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة الى أن بلغا المنزل •

الباب الثالث: الشهوانيون

١

في الخدمة



منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك فى أقصى الضاحية . هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضى واحد ، رمادى اللون ، يغطيه سقف من صفيح أحمر ؛ قد أُحسن بناؤه جدا ، ففى امكانه أن يصمد لأذى الزمن طويلا ؛ مريح واسع ، يضم حجرات مظلمة متعددة ، وأركانا منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفئران فيه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقه وجودها ، حتى لقد كان يقول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا فى المساء ، اذا كان هنالك فئران . » . ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون فى مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع فى الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه . صحيح أن المبنى الرئيسى كان يضم مطبخا ، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت الروائح الكريهة ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن أن نقول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم

يساوى خمسة أضعاف العدد الذى يقيم فيه منهم الآن . ومع ذلك لم يكن يقطنه فى الآونة التى جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامرأته العجوز مارفا ، والخادم سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا . يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة . الحق أنه ليس هنالك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية . انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يمضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) . وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عنيف نزيه . لقد ألحت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألحّت عليه الحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأقنان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئا من مال ادخراه) . ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقينا نهائيا أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم ، مهما تكن عيوبه « لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن » . وسأل الرجل زوجته مارفا قائلا :

ـ هل تفهمين أن هنالك واجبا لا يجوز التخلى عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

ـ أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا أفهم أبدا ما هو الواجب الذى يلزمنا بالبقاء هنا .

فقال لها :

ـ سيان أن تفهمى وأن لا تفهمى . وعليك بعد الآن أن تسكتى !

وكذلك كان . بقى جريجورى ومارفا . ولقد حدّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعا ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر فى مواعيده بغير تأخير . وكان جريجورى يشعر من جهة أخرى، أن له على مولاه نفوذا لا يُنكر . كان جريجورى يحس ذلك ، وكان على حق فى احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرّج ، الماكر ، العنيد، الذى يعرف كيف يكون صلبا فى « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره، كان ضعيفا الى أقصى درجات الضعف فى « شئون أخرى من شئون الحياة » . وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصرا بمخاوف شتى . كان يرى أن على المرء « فى بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه دائما بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جدا . وكان جريجورى شخصا موثوقاً حقاء حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مرارا (أثناء حياته) أن أوشك أن يضرب ، وأن يُضرب ضربا مبرحا يلحق به أذى شديدا ، ولكن جريجورى كان ينقذه دائما من المأزق ، مع ازجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات . على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفى وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته فى بعض الأحيان . ان هناك ظروفا أخطر من ذلك كثيرا ، وان هناك ضروبا من القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش يعانيها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هى حاجة مفاجئة قوية صارمة عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصا قريبا منه مخلصا له . تلك لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر العاهر الى أقصى حدود الفجور والعهر ، انه وهو الرجل القاسى فى

شهوانيته قسوةَ حشرة رهيبة ، كان يحس فى بعض لحظات من السكر بنوع من خوف سرى وتضعضع نفسى يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ، حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لى فى تلك اللحظات أن روحى تندفع خارجةً من أحشائى » • ففى تلك اللحظات انمـــا كان يجب أن يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن فى غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنـــه كل الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شىء ، لكنه رغم معرفتـه بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره ، يغفرها له من باب الاخلاص ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصةً ، ولا يهدّده بعقوبات مقبـلة لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ••• رجل يمكن أن يحميه عند الحاجة ••• ممّن يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر •• كان لا بد له حتماً فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منـــه كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده صديقا ، حتى يستطيع أن يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه لا لشىء الا أن يرى وجهه ، وربما بادله عنـــدئذ بضع كلمات فى أى موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئا من لطف وتسامح ولم يؤنبه ولم يقرّعه أصبح حزنه أقل ثقـلاً فى قلبه ، واذا تجهّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيدا من الثقل • حتى لقد كان يتفق لفيـــدور بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى فى المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به • وكان الخادم يجىء عندئذ الى مولاه الذى يأخذ يُجرى معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شـــأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؟ ويعود الى سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئا بعد أن أفرغ ما فى جوفه • ولقـد مرّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله•

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه ، ويرى كل شيء ، ثم هو لا يُدين شيئا من الأشياء » • وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل، هو أن أليوشا لم يحتقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديرا بها • ان موقفا كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذى كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات • ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه • وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك فى ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلّم بها قبل ذلك •

سبق أن ذكرت فى مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلائيد ايفانوفنا زوجةَ فيدور بافلوفتش الأولى ، أمَّ ابنه دمترى ؛ وأنه فى مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا، الكليكوشا ، وأنه تحيَّز لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش • وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، استحالت فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسىء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور • وكان جريجورى فى مظهره رجلا هادئاً وقورا رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعرا بوزن كل لفظ من ألفاظه ، لايلقى الحديث على عواهنه، ولا يقول قولا خفيفا ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا محل لها • وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيعة أم هو لا يحبها • ولكن الحقيقة هى أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك . ولم تكن مارفا اجناتفنا هـذه بالمرأة الغبية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منـــه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا في شئون الحياة العملية . ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوّجا ، فلم تجحد سلطته عليهـا ، وكانت تحترم احتراما أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي . يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلّما يتبادلان الكلام ، فاذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية . لقد تعود جريجوري الوقور الرصين المهيب أن يفكر في أموره وحـــده ، فكان لا يفضى الى أحـد بمشاغله ولا يشرك أحدا في همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه في غير حاجة الى نصائحها . وكانت تحس أن زوجها يقدّر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليـــلا على ذكائها . ولم يضربها زوجها في حياته الا مرة واحدة ـ وكان ضرباً خفيفاً على كل حال . واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيـــدور بافلوفتش بآديلائيـد ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ، ولم يكنّ قد تحررن من القنانة في ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل الســادة يغنين ويرقصن ، فبينما كانت الفلاحات تغني أغنية « في المروج » ، اذا بمارفا اجناتفنا التي كانت ما تزال في ميعة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذي تعودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذي تعلمته أيامَ كانت ما تزال تعمل خادماً في منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذي أقامته تلك الأسرة في أملاكها والذي استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص . رأى جريجوري زوجته تندفع في ذلك اللهو فرحةً كل الفرح ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدّبها التأديب

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها . تلك هى المرة الوحيــدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شىء من هذا فى حياتهما بعد ذلك . ثم ان مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبهـا هـذا للرقص وميلها اليه .

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعش طويلا . ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجــل . فلما هربت آديلائيد ايفانوفنـا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثـة من عمره ، قرابة سنةٍ ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها . أما ابنه هو ، فانه لم يذق الا فرحة انتظاره مدةَ حبل أمه به . حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً . ذلك أن الصبى قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد . وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق . كان ذلك فى الربيع . وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يعـزق الأرض فى بســتان الخضار . فلما حل اليوم الثالث الذى سيُحتفل فيه بتعميد الصبى كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه . فهذا هو يدخل على مسـكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيــدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبى عرّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضـل أن لا يُعمَّد الطفل البتة . . » . لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً ، وقاله وهو يلقى على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة .

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

ـ لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

ـ لأنه ••• تنين !

ـ ماذا ؟ أى تنين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات • ثم دمدم يقـــول مضطربا أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحـــزم ، وكان واضحا أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

ـ اختلط الأمر على الطبيعة !

ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبـــبى المسكين مع ذلك • صلّى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغيّر رأيه فى الوليد • على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهـــزيل ، بأن يصر على أن لا يراه ، متظاهرا بأنه يجهل وجوده، قاضيا أكثر وقته فى خارج مسكنه• ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القلاع ، تولى هو نفســه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلا بحزن شديد • وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيّا القبر منحنيا حتى الأرض • ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجئ جريجورى على ذكر هـــذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام • فاذا اتفق لها أن تكلمت مع أحـــد عن « صـغيرها » ، تكلمت هامسة همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلفتش • وفى رأى

مارفا اجناتفنا أن هذه الجنازة هى أصل الاهتمامات الدينية التى أصبحت تُلاحَظ عند جريجورى الذى انصرف منـــذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا فى كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة فى كل مرة نظارتيه الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة • كان ينـــدر أن يقـرأ جريجورى فى هذا الكتاب جهراً ، الا فى أيام الصـــيام الكبير • وكان يحب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصـــةً ، كما استطاع أن يحصـــــل من مكان ما على كتـــاب يضـــم أفكار ومواعظ « أبينا حبيب الله ، اسحاق السورى » * ، فكان لا ينى يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئا بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدِّر هـــذا الكتـــاب مزيدا من التقـــدير ويحترمه مزيدا من الاحترام • وقد عنى فى الآونة الأخيرة بآراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كثب ، هذه الحركة التى التقى ببعض المنضمين اليها فى القـــرى المجاورة ، فاهتزت نفســـه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنــه رأى أن الانضـــمام الى العقائد الجـــديدة ليس بالأمر المستحسن • وطبيعى أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيدا من الخطورة والرصانة والوقار •

لعل جريجورى كان ميالا الى الصوفية • وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن فى الحسبان قط ، يحدث كأنما على عمد ، فى تلك الآونة نفسها التى شهدت ميلاد ابنه ذى الأصابع الست وشهدت موته السريع ؟ وهـــو حادث خلَّف فى نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضى أن يعترف هـــو نفسه بذلك مرةً ، خلف فى نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليهـــا « طابعا لا يندثر » • اليكم ما حدث : فى الليلة التى أعقبت دفن الصبى الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاءَ وليد • ذعرت مارفا اجناتفنا ، فايقظت زوجها • وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التى يسمعها هى أصوات أنين « كأنه أنين امرأة » • ونهض فارتدى ملابسه • هى ليلة حلوة من ليالى شهر أيار (مايو) • خرج جريجورى الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة • فدهش واستغرب : ان الحديقة تُغلق فى الليل من جهة الفناء بقفل قوى، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسياج عالٍ قوى • عاد جريجورى الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غيرَ عابىء بذعر امرأته الهسترى التى أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكى فى الحديقة ويناديها هذا النداء • وأدرك جريجورى عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات المقامة فى الحديقة على مقربة من الباب الحديدى ، وأنها أنّات امرأة ما فى ذلك ريب • فلما فتح باب الحمامات جمد فى مكانه دهشةً من المنظر الذى رآه : ان معتوهة المدينة التى تجوب الشوارع كل يوم والتى يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة ـ وقد أطلقوا عليها لقب اليزابث سمردياستشايا * ـ قد تسللت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً • وكان الصغير راقدا قرب أمه التى تُحتضر • لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم • يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل •

٢

اليزابث سمردياستشايا

بث هذا الحادث فى قلب جريجورى اضطرابا عميقا، وذلك بسبب تفاصيل ذكَّره هذا الحادث بها ، وعزَّز فى نفسه شبهة أليمة مقزِّزة كانت قد ساورته من قبل • اليزابث سمردياستشايا بنت قصيرة القامة جدا ، لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين ، كما أصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات فى مدينتنا بعد موتها أن يقولوا • وكان وجه هذه المرأة الشابة التى تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا ، ولكنه يفصح عن العته والبلاهة افصاحا تاما : ان نظرتها جامدة ، وهى نظرة تشتمل رغم هدوئها على شىء يؤلم النفس • وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت ، فى الشتاء وفى الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب• وكان شعرها ، الأسود تقريبا ، الكثيف جدا ، المتجعد كأنه جزائز شاة ، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة ؛ وهو على كل حال ملطخ دائما ، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والغصينات والأقذاء والنشارات، لأنها اعتادت أن تنام على الأرض فى الغبار والوحل • وكان أبوها ايليا، وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمَّر مريض لا مأوى له قد أدمن على الشراب ، وأصبح منذ عدة سنين يعيش فى دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هى وظيفة عامل . أما أم اليزابث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل . وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب اليزابث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هى جاءت الى الدار. على أن اليزابث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هى امرأة « مجذوبة » يحبها الرب . وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين فى مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يعملون فى التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا اليزابث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، فى أوائل أيام البرد، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين . فكانت اليزابث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج ، ولكنها ماتلبث أن تبتعد عنهم ، وتمضى الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية فىأغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التى أُلبستها ـ اللفعة والتنورة والمعطف والحذاءين ـ فتدعها هنالك ، ثم تمضى كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص . وقد حدث مرةً أن حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا فى جولة تفتيشية ، فلما رأى اليزابث هذه صدم منظرُها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هى «يوروديفايا» * ، وقد ذُكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شيء يؤذى الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حدٍ لهذه الفوضى . ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه باليزابث وتُركت تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش . ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يمتنعون عن مشـــاركتها ويعفون عن تنكيدها ، مع أن الأطفال في مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة. كانت اليزابث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها. بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويعطيها قرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هـــذه الاعطيات الصـــغيرة من النقود ، ولكنها ماتلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون. فاذا أعطاها أحد في السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التي تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهبها لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدةً من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحةً . كانت لا تريد أن تتغذى الا بخبز أسود وماء . وكانت في بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء في متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطـــر ببالهم أن يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نُسيت . وقلّما كانت تُرى في الكنيسة ، ولكن كان يحلو لها أن تقضي ليـــالي بأسرها مضطجعةً في فناء معبد من المعابد ، حين لا تتسلل الى بستان من بســاتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجـــز كثيرة في منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار ـ أعني دار أسياد أبيهـا المتوفى ـ مرة في الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهي تلطو عندئذ في دهليز من الدهاليز أو تقبع في الاســـطبل . والناس يستغربون كيف تستطيع اليزابث أن تتحمل هذا النوع من الحياة ، ولكن اليزابث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال .
صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار في مدينتنا بحظ وافر من الهناء كانوا يؤكدون أن اليزابث انما تتصرف هذا التصرف من باب الكبر والزهو والخيلاء . ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمة لا تبين . فهل يمكن الحديث بصددها عن كبر أو زهو أو خيلاء ؟

ففي ذات ليلة من ليالي شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد جدا) ، ليلةٍ مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار في مدينتنا عائدة من النادي بعد افراط في الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفنية الدور وبساتين المنازل . كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة . ان الشارع الصغير الذي يجتازونه الآن محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضار في المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضي الى الجسور الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذي اعتاد الناس أن يسموه في بعض الأحيان نهرا . وان العصبة لتسير اذا هي تلمح اليزابث على حين فجأة نائمةً قرب السياج بين نباتات القرّاص والأرقطيون . توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد في قهقهة مجلجلة مدوية ، وأخذوا يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء . وفجأة خطرت ببال أحد أبناء الأسر فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالا من طبيعة خاصة جدا فقال :
« هل يمكن أيّ انسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة ، في هذه اللحظة نفسها مثلا ؟ الخ .... » . فضج الجميع يظهرون اشمئزازا متكبرا ونفورا مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد . ولكن فيدور بافلوفتش الذي كان

أحد أفراد العصبة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان في وسع المرء تماما أن يعد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاثارة اللذيذة ، الخ الخ ... » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالي في ابراز دور المهرِّج الذي يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التي يتاح له فيها أن يلمع نجمه في هذا المجال وأن يسلّي رفاقه وأن يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم في الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم في حقيقة الأمر . وقد حدث هذا في الآونة التي كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيد ايفانوفنا ، فكان وقد وشَّح قبعته بشريط أسود يسترسل في السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة في نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعا لهذا التصريح الذي لم يكن في الحسبان . وقد مضى أحد العابثين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه في وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن اليزابت التي صار واضحا أنها حبلى ، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق ، وأن السؤال الذي تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجاني ؟ » . وفي تلك اللحظة انما انتشرت في مدينتنا شائعة رهيبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصبة

الفرحة التى كانت عائدة من النادى فى تلك الليلة من ليالى شهر ايلول، لم يبق منها فى مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان • ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئاً ، حتى ولو كان يعرف شيئا • أما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة • ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاما ملحا عنيدا• والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر • ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة • لقد أصبح فيدور بافلوفتش فى ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا أن يسلّيهم ويضحكهم • ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ، بحيث أن عددا كبيرا من الأشخاص تبددت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم • كان جريجورى يؤكد قائلا بلهجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هى وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » • (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب فى تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ فى مدينتنا) • لقد بدا هذا الافتراض مقبولا، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه فى تلك الليلة نفسها من ليالى شهر ايلول قد حام فى شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم • على أن هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسكينة من عطف الناس عليها • بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم • حتى أن التاجرة كوندراتيفا وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت فى نهاية شهر نيسان (أبريل) أن تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها • وقد روقبت اليزابث بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة استطاعت فى آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش • أما كيف استطاعت وهى فى حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالى المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما • فبعضهم يزعم أن هناك « أناساً » نقلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز • وأغلب الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعى تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان اليزابث ، الماهرة فى تسلق الأسيجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فآذت نفسها بذلك طبعا •

هرع جريجورى الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضى الى اليزابث لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ فى قرية قريبة من المدينة • ولقد أمكن انقاذ الطفل • أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر •

وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا • ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله الينا ! ان هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم ، فأطعميه ، ولا تبكى بعد الآن • • » • هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير • وقد عُمِّد وسُمِّى بافل ، أما الاسم الأبوى الذى كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام

وبغير شرح أو تعليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » .
ولم يعترض فيدور بافلوفتش أي اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد
الأمر داعيا الى الضحك جدا ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكارا قاطعا
أنه هو الفاعل . وتخيل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمى الصبى
باسم أسرة ، فأسماه سمردياكوف مشتقا ذلك من لقب أمه ، اليزابث
سمردياستشايا .

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور
بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم
فيه العجوزان جريجورى ومارفا . وقد جُعل سمردياكوف طباخاً .

قد يكون ضروريا أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من
الافاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدة
طويلة الى الحديث عن خدمٍ مبتذلين ، فهأنذا أعود اذن الى سرد قصتى ،
آملاً أن تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن
سمردياكوف فى باقى الرواية .

٣

اعتراف قلب حار
شعرا

حين تلقى أليوشا الأمر الذى أصدره اليه أبوه صائحاً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامدا فى مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة . على أن أليوشا لم يكن جامدا كتمثال، ذلك أنه لا يفقد أبدا ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة . حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخواطر التى هزّت نفسه وبثت فيها الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال فى غرفة الطعام . ثم مضى فى طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التى كانت تدور فى رأسه وتعذبه وتقلقه. ويجب أن أذكر فورا أن الأقوال التى صاح بها أبوه والأمر الذى أصدره اليه بالعودة الى المنزل « مع وسادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم يوقظ فى نفس أليوشا شيئا من خوف. فهو يدرك حق الادراك أن هذا الأمر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه اليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك الطريقة الجازمة ، انما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبته فى الاخراج التمثيلى والتزيين المسرحى ... وقد ذكّره هذا بما حدث فى مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلما

أسرف في الشراب أكثر مما اعتـــاد أن يسرف ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه، لأنه مُنع من أن يصب له مزيد من الفـودكا ، فاذا هـــو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك في سبيل حسن الاخراج وجمال التأثير ••• فلا شك أن أباه حين ألقى اليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع • ذلك ما حدث به أليوشا نفسه • وقد ثاب الرجل الذى احتفـل بعيد ميلاده ، ثاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعا على أطباقه وصحونه وأوانيه التى تحطمت • كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له فى الغداة أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه • ولقد كان واثقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوما أن يحـــزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد ـ كان أليوشا مقتنعا بذلك ـ ليس هناك أحد فى العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد • تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشا • لذلك سار قُدماً لا يتردد ولا يلوى على شيء •

أما الخوف الذى كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هى كاترين ايفانوفنا تلك التى توسلت اليه بكثير من الالحاح ، فى البطاقة التى أرسلتها اليه مع السيدة هوخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجيء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التى تلح فى طلبها • ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ولا محيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملأ نفسه منذ البداية بضيق غامض وهمٍ مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يعذّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئا بعد شيء حتى غدا ألماً واخزاً كاوياً لا يطاق ، دون أن تستطيع كبته الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك في الدير ، والمشاهد والوقائع التي تلاحقت في حجرة الشيخ وفي مسكن كبير الرهبان • وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيجيبها به • فليست المـرأة بوجه عام هي ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت في صحبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير • وانما هو خائف من هـذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها ؛ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين ـ وربما ثلاثا ـ وبادلها بضع كلمات عرضاً في مناسبة من المناسبات • ان الصورة التي بقيت في خياله منها هي صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء، قوية السطوة• ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلا ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيدا من المفاقمة في تلك الساعة • لا شك أن هـذه الفتاة تسعى الى أنبل الأهداف • ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيـه دمتري الذي أذنب في حقها ، وهي لا ترغب في ذلك ولا تتمناه الا شهامة منها وأريحية • ولكن أليوشا رغم ما في هذه العواطف من نقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذي كان يغزو نفسه ويثقل على صدره كلما ازداد اقترابا من منزل الفتاة •

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذي توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه • أما دمتري فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضا ، وهو

يوجس سبب ذلك. معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى فى خلوة. ألا ليته يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث المحتوم ! خطر ببال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوثبة ليراه . ترى أليس ممكنا أن يتناقش معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعا ؟ ولكن دمترى يقيم فى مكان بعيد ، وأغلب الظن أنه ليس فى منزله الآن . توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيرا . رسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهيبة » .

كان يعرف أين تقطن . ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم عبور الميدان ، ثم ... الخ ... كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلا . ان مدينتنا الصغيرة مبعثرة جدا ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان * أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذى ألقاه اليه ، وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته . وقرر أليوشا ، بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأفنية والحدائق، فهو يعرف الشوارع الصغيرة والمخارج المختلفة فى مدينتنا كما يعرف راحة كفه . كان عليه أن يقطع الشوارع قطعا ، فيمر بأراض بور ، ويجتاز فى أماكن شتى أسيجة تحيط بأملاك خاصة ، ويعبر أفنية منازل أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره . فعلى هذا النحو يبلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السبيل العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه فى لحظة من اللحظات قريبا من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل صغير عتيق بال ليس له من النوافذ الا أربع وكأن القدم قد شقق جدرانه. ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة من سكان المدينة ، عجوز ليس لها الا ساق واحدة ، تسكن فى المنزل

مع ابنتها • وكانت ابنتها هـــذه قد عملت فى الآونة الأخيرة بالعاصمة ، خادمةً رئيسية ، لدى جنرالات فى الغالب • ولكنها رجعت منذ مايقرب من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهى الآن تظهر فى مدينتنا بأثواب أنيقـة جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعـوز كبير ، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من حيث هما جارتان ، تلتمسان شيئا من حساء وخبز تغـــدقه عليهما مارفا اجناتفنا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والاحسان لم تقبل أن تبيع أى ثوب من أثوابها التى كان بينها ثوب سابغ الذيل • وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقـه راكيتين الذى كان على علم بكل شىء فى المدينة حتما ، ثم لم يلبث أن نسيها طبعا ، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ على حين فجأة ، فاذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقا الى الارض طوال المدة التى قضاها مفكرا متأملا أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على ما لم يكن فى حسبانه قط •

لقد لمح أخاه دمترى فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعدا على شىء من الأشياء مشرئباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدره ، يومىء اليـــه بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيبا به بالاشارات أن يجىء اليــه ، متحاشيا أن يصرخ ، بل ومتجنبا أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ ، مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه أليوشا •

ـ من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت أن أصيح •

كذلك همس يقول دمترى فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته • ثم أضاف :

ـ تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر ببالك أن تجيء . لقد كنت أفكر فيك ...

سُرَّ أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، مع تساؤله عما يجب أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على أن يقفز ، فشمر أليوشا ثوبه الرهبانى ، ثم اذا هو يصير فى داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبى صغير من الصبية الذين يسيرون حفاة الأقدام .

همس ميتيا يقول له بحماسة :

ـ والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامسٍ أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات فيرى أنهما وحيدان فى الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :

ـ الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعا ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى تمكله العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل .

ـ نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟

ـ لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

ـ حقا ... فعلا ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة فى بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سراً ، ويجب أن أكون كتوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغباوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلك ...

المجد للخالق في الخلق *
المجد للخالق في نفسي

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت ..

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار الا فى محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهى أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطى فى كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وثمر الريباس وعنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زُرع قرب المنزل الصغير شىء من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

قاد دمترى فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانه متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناه أحد المالكين السابقين الذى تعاقبوا على هذا المنزل الصغير ، رجلٌ يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتنان كولونيل محال على التقاعد . كل شىء فى هذا « الكشك » منخور مسوّس : أرضه خربة نتنة ، أخشابه متزعزعة مترنحة ، رائحته عفنة رطبة . وفى داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، وأحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فورا حالة الحماسة التى كان عليها أخوه ، فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلىء نصفها، والى جانبها قدح صغير .

قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ هو كونياك يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل من جديد » . ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !

أكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ،
فلا تسمع لها ابدا ، وبدد كل أوهامك .

ـ لا .. اننى لا أسكر .. ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك، ذلك الخنزير راكيتين ... الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشــار دولة ، دون أن يكف عن أن يتكلم كما يتكلم رجــل من الأرياف . اجلس هنا . وددت لو أضمك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت لو أضمك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟ ذلك أنك فى الواقع ... فى الوا ... قع ... (افهمنى جيدا ، افهمنى جيدا) ... ذلك أنك فى الواقع ... الانسان الوحيد ... فى العالم ... الانسان الوحيد ... الذى أحبه ... فى العالم ...

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشــوة والوجد .

ـ أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ... ولكن العشق شىء آخر غير الحب . فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره . احفظ هذا الكلام ! اننى أتكلم الآن فى فرح ومرح . اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة . وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح. سأقول لك كل شيء.. وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!... بالمناسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تتكلم هنا همساً ... ذلك أن من الجائز ... هل تعلم ؟ ... من الجائز أن توجد هنا آذان مختبئة ... آذان لا نتوقع وجودها ... سأشرح لك ... اتفقنا على هذا . تابع كلامي ... لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي اليه بما في نفسي ، ولأن هذا ضروري لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لي عنك. هل شعرت يوما ، في المنام مثلا ، بأنك تنحدر من جبل في هاوية ؟ فاعلم انني الآن أتدحرج الى هاوية ، وليس هذا حلماً. ولكنني لست خائفا ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا . أقصد ... أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذباً ، وانما هو شعور رائع.. لا يدري الا الشيطان ماذا ... جنى قوى ، جنى ضعيف ، جنى المرأة ... ليس هذا بذي بال على كل حال ! ... ألا فلنمجّد الطبيعة : ما أكثر الشمس في كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ... نحن في قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد . صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أبينا ، ولكنني كنت أنوى أن أمرّ أولا بكاترين ايفانوفنا .

ــ اليها واليه ؟ أوه ... يا للمصادفة العجيبة ! ... هل تدرى لماذا كنت أنتظرك فارغ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدرى لماذا كنت ظامئاً الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدرى لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روحي وجسمي ؟ هل تدرى لماذا ؟ لأننى كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً منى ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا، بغية أن أصفّي الأمر معهما كليهما ، معه ومعها ... كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان في وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكننى كنت أريد ملاكاً . وهأنت ذا تذهب اليها وتذهب الى الأب .

ـ أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبىء عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

ـ اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصةً ، لا تقل كلمةً واحدة الآن . لا تأسف على شيء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكّر بضع لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

ـ هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القبيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟

أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

ـ هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

ـ وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة .. شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى . اسمع يا أليوشا ! اصغ الىّ يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء • لا بد لى من أن أفتح نفسى لانسان ما ، أليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما فى نفسى الى ملائكة السماء ، ولكننى كنت أريد أن أبوح بسرى الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا • وأنت أنت الملاك على هذه الأرض • ستصغى وتفهم عنى ، وتغفر لى •• ان بى حاجة قوية الى ن يغفر لى انسان أعلى وأسمى • اسمع : اذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، فى اللحظة التى يهمُ فيها أن يبلغ السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقى انسانا آخر فيقول له : « قدّم لى هذه الخدمة ، اعمل من أجلى هذا الامر الذى لا يمكن أن يطلبه أحد من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ••• » فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه ••• اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

ـ سأفعل ما تطلبه منى ، ولكن ما هو الأمر ؟ أسرع فى ذكره مزيدا من الاسراع !

ـ مزيدا من الاسراع ؟ هم ••• لا تتعجل هذا التعجل كله يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب فى غير طائل • لكل شىء أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا فى الواقع ؟ أعليك أنت أن ترتقى هكذا ؟

كن نبيلا يا أيها الانسان !*

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر • لقد أدرك أنه فى هذا المكان انما سيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع • وفكّر ميتيا دقيقةً ، متكئاً بكوعه على المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده • صمت الاثنان كلاهما •

استأنف ميتيا كلامه يقول :

ـ أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعنى دون أن تضحك ••• أريد أن أبدأ ••• أن أبدأ ••• اعترافى ••• مرتلاً نشيد الفرح الذى كتبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » • حذار خاصة أن يذهب بك الظن الى اننى سكران • ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلم • الكونياك هو الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر

قد امتطى يوما حمارا يترنح *

••• وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير • ثم اننى ان لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) . أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد اتخذته الى الأبد ! اغفر لى هذه النكتة القائمة على الجناس اللفظى • وهناك أمور أخرى سيكون عليك أن تغفرها لى اليوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة قائمة على الجناس • اطمئن بالاً ••• اننى أهذر ولا أهرف ••• اننى أتكلم جاداً ، وأمسُ قلب الموضوع • لا يخطر ببالى أبداً أن أتيه فى لف ودوران • انتظر ••• اننى أحاول أن أتذكر •••

ورفع دمترى فيدوروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجلون *
اختباوا شبه عراة فى المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات •
كان الصيادون المسلحون بالأقواس والنبال
يبثون الذعر فى قلب كل حى يتنفس •
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطىء أجنبى •
من أعلى الأولب الهادىء
هبطت سيريس الأم على الارض
تبحث عن بروزربين •
ناصبتها الأرض العداء
لم يستقبلها احد
لم تجد مأوى لها فى مكان
بحثت الالهة عبثا عن معبد
يمجد الوهيتها •
لا يرى أحد فى المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة •
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرابين المضحى بها •
تأملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا وأسى •
فى كل مكان يذل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له !••

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب • أمسك أليوشا يده •

ـ أخى ، أخى ، صديقى ! مذل هو الانسان حتى اليوم • رهيب مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان • لا تحسبن ، لأن لى رتبة ضابط، أننى امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالسناء ! اننى فى الواقع لا أفكر الا فى مصــير البشر الذى يدعو الى الشفقة والعطف والرثاء ، ذلك هو اهتمامى الوحيــد تقــريبا ، وما أنا بكاذب عليك البتة . ألا فلتشهد السماء أننى لا أكذب ولا أتباهى فى هذه اللحظة ! ان المصير الفاجع الذى كتب على البشر يعذبنى تعذيبا شديدا ، لأننى أنا نفسى واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء .

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعثا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الأبد .

ولكن الصعوبة هى هذه : ما عسانى أفعل من أجــل أن أعاهد الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو راعيا صغيرا ؟ اننى أسير فى الليل دون أن أعــرف أأنا أغوص فى الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك هو بعينه البلاء : ان كل شىء فى هذا العالم لغز . حين كان يتفق لى أن أغوص الى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم أكن أفعل شيئا غير هذا على كل حال) ، فقد كنت فى كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التى تحدثنا عن سيريس وعن الانسان . فهل أصلحتنى ذلك ؟ كلا ثم كلا ! لأننى كارامازوف . فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسى فى الأمام، وقدماى فى الفضاء ؛ حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة ، من السقوط على هذا النحو المزرى المذل المهين ؛ اننى أحس عندئذ بنوع من المتعة الفنية . فاذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد . ألا فلأكن ملعونا ، ألا فلأكن منحطاً سافلا ، ولكننى أريد ، أنا أيضا ، أن أقبل ذيل الثوب الذى يتدثر به الهى . لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فانى أظل ابنك ، لأنى أحبك ، ولأن فى نفسى سبيلا الى الفرح الذى لولاه ما وُجد الكون .

روح العالم التى خلقها الله *
تغنى الفرح الى الأبد .
الفرح قائم فى أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة .
ينبت العشب من الأرض
يحيل السديم شمسا
ينشر ضياءه الخير
فى الفضاوات التى لا نهاية لها .
كل حى يبتهج
فى حضن الطبيعة .
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحده .
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاء وازهارا وثمارا .
هو اللذة فى الحشرة ...
وهو الله فى الملاك

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبرات ، دعنى أبكى قليلا . أسلّم لك بأن فى هذا حماقة وسخفاً . وربما ضحك الآخرون منه ، أما أنت فلا ... لقد رأيتُ شعلةً تومض فى عينيك يا أليوشا . كفانا الآن شعرا . أريد أن أحدثك عن أولئك « الحشرات » ، عن أولئك الذين وهب لهم الله اللذة .

هو اللذة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما تستهدفنى أنا خاصة . ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء فى هذه النقطة ! فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فيك أنت الملاك ! انها

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تنبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحببتُ المجون حتى فى العار • لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكا• ركبنا سبع عربات ترويكا • كان ذلك فى فصل الشتاء • ففى العربة التى كنت فيها أخذتُ ، بفضـــل الظلمة ، أشد على يد فتـاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير• انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ••• تركتْ لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيـل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدّر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتهـا تجاهلا تاما مدة خمسة أشــــهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجيء المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحبنى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هـذه الحكاية على أحـــد ، وأننى لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهـــك يتخضب الآن بحمرة شــــديدة ، وان عينيك تلتمعان

٤

اعتراف قلب حائر

نثراً

نعم

لقد لهوت وعبثت وتلذذت هنـاك ! ادعى أبونا فى هذا الصباح أننى كنت أرمى ألوف الروبلات من أجل أن أقضى على طهـارة بنات فضليات ! كذبٌ هذا الكلام ، كذب مقزّز ... لم يحـدث شىء من ذلك قط ! لم يُطلب منى شىء من مال من أجل «هذا» . كان المال أمراً ملحقا الحـاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينـة لا أكثر . أحب سيدة فى ذات يوم ، فاذا أنا فى الغداة أوثر عليها بنتاً من بنات الشوارع . وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعياً الى تسليات . أصحب المرأة الى المسارح ، وأخرج معها فى نزهات ، وأمضى بهـا الى حفلات رقص الغجر ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخـدم وغيرهم . وكنت أعطيهن هن أيضا مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرصن على هذا ، بل يحببنه حبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات ممتنات . أحبتنى نساء من المجتمع الراقى ... لا جميع نسـاء المجتمع الراقى ، بل عدد منهن ، عـدد على كل حال ... ولكن كانت تجذبنى دائما قبل كل شىء الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحيـاء المريبة البعيدة عن الأماكن التى يختلف اليها الناس . فهنالك المغامرة ،

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تنبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحببتُ المجون حتى فى العار • لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكا• ركبنا سبع عربات ترويكا • كان ذلك فى فصل الشتاء • ففى العربة التى كنت فيها أخذتُ ، بفضـــل الظلمة ، أشد على يد فتـاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير• انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة ••• تركتْ لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحتْ لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيــل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدَّر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتهـا تجاهلا تاما مدة خمسة أشــــهر • كنت أرى عينيها فى أمسـيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجىء المكظوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحبنى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هـذه الحكاية على أحـــد ، وأننى لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهـــك يتخضب الآن بحمرة شـــديدة ، وان عينيك تلتمعان

وتسطعان . طيب ... لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات القذرة المزرية . ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئا قليلا ... هو زخرفات اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في نفسي واستولت عليّ واستبدت بي . ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي ... ان لي منها « ألبوماً » كاملا ... ولقد كنت أحاول دائما ، حين أقطع صلتي باحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك المفاجيء العنيف ، وأن أتقي المشاكل والمشاهد . ثم انني ما أفشيت سراً في حياتي قط ، ولم أعرّض سمعة احداهن لسوء . ولكن كفاني ما قلته حتى الآن في هذا . أرجو أن لا يدور في خلدك أنني جئت بك الى هنا لأقص عليك هذه المباءس ! اطمئن بالاً ! هناك أمور أشق من هذه الأمور أحب أن أفضي بها اليك . ولا يدهشك مع ذلك أنني لا أستحي منك ولا أشعر بخجل أمامك ، وأنني ربما كنت ألتذ بايقاظ هذه الذكريات في حضورك ...

قاطعه أليوشا سائلاً :

ــ أأنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهي ؟ ان وجهي لم يحمرّ بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأنني مثلك ...

ــ أنت ؟ أنت مثلي ؟ ألا انك لتبالغ قليلا ...

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ــ لا ... لا أبالغ (كان واضحا أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة) . ليس بيننا الا فرق في المقدار . نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم . فأنا ما زلت في أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ... أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد في الحقيقة ، واحد تماما ... ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته .

ـ ففي رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

ـ يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .

ـ هل تستطيع هذا أنت ؟

ـ يبدو أنني لا أستطيع .

ـ اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزي الطيب الشهم . وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً . ان تلك الوغدة جروشنكا خبيرة في شئون الرجال ! لقد أكدت لي ذات يوم ان في وسعها أن تزدردك لقمة واحدة . هأنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد . دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتي الشخصية ... التي ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهي معجونة بالخسة والدناءة أيضاً . اسمع : لئن افترى أبونا علي حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفي ان ذلك بعينه هو ما حدث في مأساتي ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة، أو قل أخيرا انه لم يحدث قط. وأبونا العجوز الذي اتهمني بفعال دنيئة كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة في مقابل ذلك . انني لم أحدث عنها انساناً في يوم من الأيام . ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعا . ذلك أن ايفان قد عرف كل شيء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل . ولكن ايفان قبر .

ـ ايفان قبر ؟

ـ نعم .

كان أليوشا يصغي الى كلام أخيه بانتباه شديد • وبدأ دمترى يقص حكايته • قال :

ـ رغم أنني كنت ملازما (ليوتنان) في تلك الكتيبة ، وهي كتيبة ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعاني ، أشبه أن أكون منفيا من المنفيين • وقد استقبلني مجتمع المدينة الصغيرة التي فيها المعسكر استقبالا ممتازا واحتفى بي واكرم وفادتي • كنت أنفق المال بغير حساب ، وكانوا يظنونني غنيا ، وكنت أنا أظن نفسي غنيا كذلك • يبدو على كل حال أنهم قد استلطفوني لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا ما يهزون رءوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبونني كثيرا • وفجأة أخذ الليوتنان كولونيل ، وهو رجل طاعن في السن ، أخذ يناصبني العداء ، ويلتمس الفرص لمناكدتي ومشاكستي • غير انني لم أكن بلا سند أعتمد عليه ، وانحازت المدينة كلها الى صفي ، وتحزبت لي • ثم انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى مني والحاق الأذى بي • ولا شك في أنني كنت مخطئاً في حقه ، لأنني تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغي أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير والتعظيم • لقد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذي لم يكن امرءا خبيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ، ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما• فأما الأولى ، وهي مخلوقة بسيطة متواضعة، فقد خلَّفت له بنتاً ساذجة الطبع كأمها كانت في ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احدى خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع هي أيضا • ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتي الليوتنان كولونيل ، كانت تجمع الى بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرني وأنا أستحضر

ذكراها أن أطريها وأثني عليها : انني يا صديقي لم ألق في حياتي امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع . كان اسمها آجاتي ... تصور ... آجاتي ايفانوفنا . ولم تكن خالية من الحسن في الذوق الروسي : قامة طويلة ممتلئة قوية ، عينان رائعتان ، ولكن في تعبيرهما شيئا من عامية . ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خُطبت مرتين . لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها . وقد انعقدت الصلة بيني وبينها ـ لا على تلك الطريقة ، لأن كل شيء قد ظل بيننا طاهرا بريئا ـ وانما أصبحنا صـديقين لا أكثر . والواقع أنه كثيرا ما اتفق لي أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة . وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما تزيد على أن تضحك . اعلم أن نساءً كثيرا تحببن الصراحة .. ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسليني كثيرا . يجب أن أضيف الى ذلك أن في وسع المرء أن يسميها آنسة . وكانت الفتاة وعمتها تحتجبان في منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع المرءوسين ، ولا تضعان نفسيهما في مستوى سائر أفراد المجتمع . وكان النـاس جميعا يحبون آجاتي حبا عظيما ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة: لقد كانت تملك موهبة فذة في الخياطة ، ولكنها لا تتقاضى عن خـدماتها أجراً ، وانما هي تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر . على أنهـا كانت لا ترفض أخذ شيء من المال اذا عُرض عليها . أما الليوتنان كولونيل فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف . لقد كان شـخصية من أهم شخصيات المدينة . كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف في منزله كثيرا ، ويقيم مآدب غداء ، وينظم أمسيات رقص . وحين وصلتُ الى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة الليوتنان كولونيل الصغرى التي ستصل قريبا ، والتي يقال انهـا

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها • ان هذه الفتاة الاخرى ليست الا كاترين ايفانوفنا نفسها ، بنت الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضا • كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة - أحسب أن أباها كان جنرالا معروفا - رغم أنها لم تحمل الى زوجها ، هي أيضا ، مهراً ضخماً ••• ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع • لقد كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها امال في أكثر تقدير ، اما المال فلم يكن عندها مال ••• على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباها ان صح التعبير • فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتا « صاحبي سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في اقامة المآدب لها • لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن• لم أقل أنا شيئا ، بل بقيت بعيدا متنحيا ، ألهو وأقصف على ما يشاء لى هواى • وفى تلك الآونة بعينها انما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التى أثارت العياط والزياط فى المدينة كلها • لقد لاحظت فى ذات مساء، أثناء حفلة استقبال أقامها كومندان الكتيبة ، أنها كانت تروزنى بنظرها ، ولكننى لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التى عرضت لى للتعرف بها • وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن أتجه اليها بالكلام • فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر الى ، وعبَّرت شفتاها عندئذ عن احتقار • قلت بينى وبين نفسى عندئذ : « اصبرى قليلا ••• سأعرف كيف أثأر لنفسى » • وكنت فى ذلك الأوان شرس الطبع ، شديد التهور ••• وكنت أعرف ذلك فى نفسى ••• وقد شعرت خاصةً

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وانما هي انسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقا ... والامر الذى أشعرنى بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أننى لا ذكى ولا مثقف . لعلك تظن أننى أردت أن أخطبها ؟ أبدا . كل ما كنت أتمناه هو ان أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثأر منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى. وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتـــدال ، حتى ان الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسى ثلاثة أيام . وفى تلك الآونة انما أرسل الىّ أبوك ستة آلاف روبل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الاخرى . لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد « صفينـا حساباتنا » ، وبأننى لن أطالبه فى المستقبل بشىء البتة . ولقد كنت لا أفهم شيئا من أمر هذه الحسابات فى الماضى . ويجب أن أعترف لك ، يا أخى أليوشا ، اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئا من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أبينا . على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن ... وان لى اليها عودة . المهم أننى بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الىّ صديق ، أمراً يمكن أن يهمنى كثيرا، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل، وانها تشتبه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيـدة خبيثة . وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرّع صـــاحبنا الليوتنان كولونيل تقريعا شديداً ، وما هى الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمرا بتقديم استقالته . لن أقص عليك تفاصيل هـــذه الحكاية . فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء . وقـــد

تنكرت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفى تلك الآونة انمـــا ارتكبت غلطتى الأولى • ففى ذات يوم التقيت بآجاتى ايفانوفنا التى ظللت صديقا لها :

« ـ هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟

فقالت لى آجاتى :

« ـ كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا •••

قلت لها :

« ـ صحيح • كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى » •

جزعت آجاتى • وقالت :

« ـ لا تخفنى ! من قال لك هذا الكلام ؟

فأجبتها :

« ـ اطمئنى ••• لن أقول لأحد كلمة واحدة • أنت تعلمين أننى كالقبر صمتا حين يجب الصمت • ولكننى أحب أن تعرفى أيضا ما يلى : اذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك ـ حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه فى آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا ـ سيكون عليك أن تبعثى الىّ ، خفيةً ، بأختك الآنسة طالبة المدرسة الداخلية • لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبيك منه عن أربعة آلاف وخمســـمائة روبل • وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر فى يوم من الايام •

هتفت تقول :

« ـ يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هى الكلمة التى استعملتها) . يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ... ؟ » .

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لهـا مرة أخرى ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، واننى سأحافظ على السر محافظـة تامة ، وأكتمه كتمانا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ، آجاتى وخالتها ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كانتـا فى الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادةً ، وتمـَّحيان أمامها امحاءً ، وتسعيان بين يديها كخادمتين ... ومع ذلك أسرعت آجاتى تقص الحـادث على أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها كل شىء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع .

« ففى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستلم قيـادة الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالليوتنان كولونيـل العجوز يمرض بغتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلـِّم أموال الدولة . وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهـر بالمرض تظاهرا . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقـد اطلعت على تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخـزنة عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقـد كان الليوتنان كولونيـل يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفـونوف يمضى بالمبلغ الى « المعرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى المدينة رد المبلغ المقترض الى الليوتنان كولونيل مضيفا اليه الفوائد وبعض

الهدايا . ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذى هـو وريثه والذى هو أفسد مخلوق فى هذا العـــالم) . لم يرد تريفونوف المبلغ اذن . فلما هرع اليه الليوتنان كولونيل يطالبه برد المال قال له تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان فى وسعى أن أقترض منك شيئا عـلى كل حال » . فاذا بصاحبنا الليوتنان كولونيـــل يرقد فى فراشه ، ويغطى رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه ثلجاً . وفجأة يصل الى منزله فرّاش حاملا دفتر الحسابات مع أمر بردّ « أموال الدولة بغير ابطاء ، فى غضون ساعتين على أكثر تقدير » . فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت توقيعه بنفسى فيمـا بعد ، ثم ينهض قائلا انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على صدره ، ويتلمس الزناد باصبع قدمه . ولكن آجاتى التى ساورت فكرها شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفســه ، فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه، فانطلقت الرصاصة فى اتجاه السقف لم تجرح أحدا . وهرعت المرأتان الأخريان أيضا ، فتمت السيطرة على العجوز ، وانتُزعت منه البندقية ... لقـــد رُوى لى هذا المشهد تفصيلا فيما بعد ... وكنت فى تلك اللحظة فى مسكنى . وكان الوقت مساء ، فأنا أستعد للخروج . لقد ارتديت ثيابى، وصففت شعرى ، وعطّرت منديلى ... وانى لأتناول قبعتى ، اذا بالباب يُفتح فجأة ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى ...

« ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة .. وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الىّ ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن فى شقة أجّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين، طاعنتان فى السن جدا ، تخدمانى باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامرى طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد فى أمر هذه الزيارة ، فكانتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شىء من أول نظرة طبعا . دخلت الفتاة ، ونظرت الىّ وجهاً لوجه . كان فى عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئا من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

« ـ قالت لى أختى انك ستعطينى أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك ... بنفسى . فهأنا ذا جئت ... هات المبلغ ! » .

« لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئا ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خداها . أتصغى الىّ يا أليوشا أم تراك نمت ؟

قال أليوشا مضطربا :

ـ ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لى الحقيقة كلها .

ـ سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التى ساورتنى هى فكرة جديرة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لى فى الماضى يا أخى أن لدغتنى حشرة فرقدت فى فراشى أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرةً أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى القلب من جسدى ... هى الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شغلتْ الفتاة بصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لى جميلا عندئذ : لقد كانت فى تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الىّ

أنا الشقى ، كانت جميلة بالتضحية التى تقدمها في سبيل أبيها بالقياس الى أنا البقة الحقيرة ! وها هى ذى الآن تقع تحت سلطان هـذه البقة ، ها هى ذى الآن خاضعة خضوعا كاملا لى أنا ، أنا الشقى ، خاضعة كلها ، جسما وروحا . انها كلها تحت رحمتى ... سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران : ان هـذه الفكرة التى خطـرت ببالى ، ان فرحة الحشرة هذه التى نبتت فى نفسى ، قد استولت علىّ فى أول الامر استيلاء تاما وملأت قلبى الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر . بدا لى أنه ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لى الا أن أتصرف تصرفَ بقـة ، تصرفَ رتيلاء مفترسة ، بغير شفقة ولا رحمة ... وكادت تنقطع من ذلك أنفاسى . افهمنى حق الفهم ... انه لبديهى أننى لو فعلتُ لمضيت أخطبها منذ الغد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة فى أى مكان . صحيح أن لى شهوات دنيئة ، ولكننى مع ذلك رجل شريف . غير أننى فى تلك اللحظة سمعت كأن صوتا يهمس فى أذنى قائلاً « دعك من هذا ... ان هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها فى الغد ، وستكتفى بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطرودا . ستقول لك : افضح سمعتى ، وشهّر بى فى المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك » . ألقيت نظرةً على الفتـاة ، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبنى ، فذلك بعينه ما سيحدث . لسوف أُطرد شر طردة : اننى أقرأ هذا فى عينيها منذ الآن . استولى علىّ حنق مسعور حين خطرت ببالى هذه الفكرة ، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقـر وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظـر اليها مبتسما وأدمّرها تدميرا فى مكانها ، هنا ، أمامى ، قائلا لها بلهجة لايجيدها الا صاحب دكان :

« ـ أجئت حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عابثاً يا آنسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامى محمل الجد ! مائتا روبل ، معقول ! ... لو سألتنى أن أعطيك مائتى روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ... أما أربعة آلاف روبل يا آنسة ، فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الاهانة من أجل أمور تافهة كهذه ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل يا آنسة !

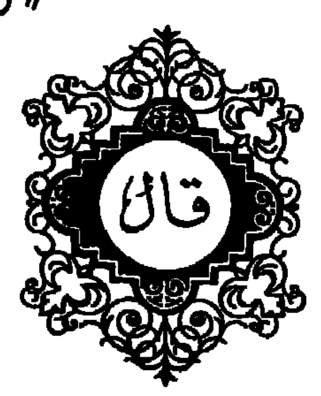
« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شىء طبعا ! كانت ستهرب ... ولكننى أكون قد ثأرت لنفسى ثأراً رهيبا ، وأكون قد أرضيت كرامتى الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكى طوال حياتى بعد ذلك ، حنقاً وحسرة وأسفاً ، ولكننى لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها فى تلك اللحظة انتصارا ساحقا ! صدقنى اذا قلت لك اننى لم يتفق لى يوما أن نظرت الى أية امرأة فى ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما فى تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ... أحلف لك ... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذى لاتفصله عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت جبينى على زجاجها البارد ... اننى أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لى احساسا بحرق قوى . اطمئن : لم أُبقها عندى طويلا . التفت ، واتجهت نحو منضدتى ، ففتحت الدُرْج وأخرجت منه الحوالة التى كنت قد أودعتها معجمى الفرنسى ، وهى بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع « لحامله » . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسى ، ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحييتها منحنيا حتى الحزام ، تحيةً فيها أعظم الاحترام ... تستطيع أن تصدّق ذلك ! ... ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، وحدّقت الىّ لحظةً ، وانكفأ لونها انكفاء

رهيباً ، ثم اذا هى ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تنحنى هى أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحيينى ساجدةً هـــذا السجود ، لا على طـريقة آنسةٍ تعلمت فى مدرســـة داخلية ، بل على الطــريقة الروسية • ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة • وكنت حاملاً سيفى فى تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده فى صدرى • لماذا ؟ لا أدرى ! لو قد فعلت لكان هذا منى حماقة طبعا ، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة • هل تفهم أن من الممكن أن يقتـــل الانسان نفسه فى بعض لحظات الحماسة ؟ على أننى لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده • تلك تفاصيل لم يكن من الضرورى أن أرويها لك على كل حال • ويخيَّل الىَّ أننى قد زخرفت دورى قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلهـــا ، وأنني قـد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسى • لا ضير ••• لنسلّم بهذا ••• تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هى « مغامرتى » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخى ايفان ••• ولا أحد يعرفها سواكما ! ••• » •

نهض دمترى فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديدا ، وأخرج منـــديله فجفف به جبينه • ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس فى المكان الذى كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضـــطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه •

٥

اعتراف قلب حار
« والقدمان في الفضاء »



أليوشا :

ـ الآن عرفت الجزء الأول من القصة .

ـ عرفت الجزء الاول ، وهو درامة مُثّلت فى مدينة أخرى . أما الجزء الثانى فهو تراجيدية ستجرى أحداثها هنا .

قال أليوشا :

ـ لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثانى .

ـ وهل تظن أننى ، أنا نفسى ، أفهم من هذا الجزء الثانى شيئاً كثيراً ؟

ـ لحظةً يا دمترى . هناك عنصر أساسى . قل لى : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيبها ؟

ـ لم أخطبها فورا ، وانما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع . قلت لنفسى غداة ذلك اليوم ان كل شىء قد انتهى ، وانه لن يكون لما وقع تتمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغارا . وهى ، من جهتها ، لم تحرك ساكنا طوال الأسابيع الستة التى قضتها فى المدينة بعد ذاك ،

ولا أشعرتني بوجودها ، اللهم الا مرة واحدة في الواقع : ففي اليـوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحـدة • قرات على الحزمة عنواني • وفضضـت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت في حاجة الى أربعة الاف وخمسمائة فقط ، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الي الباقي وهو مائتان وستون روبلا فيما أظن ، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً • لم يكن في الحزمة الا المال ••• لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • بحثت في داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعني تقريعا شديدا • أما الليوتنان كولونيل فقد رد أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد رد المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغي على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام•وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التي طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفي تلك اللحظة فقـط (فانني ما رأيتهن مرة أخرى ولا ودعتهن في المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هـو ورق الرسائل الأنيق ذي الحافة المخرمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتي • ـ ك) • ذلك كل شيء •

سأسرد عليك التتمة مقتضبا موجزا • في موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المـرء له مثيلا الا في الحكايات

الشرقية . لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها اليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنرالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألمت ألماً شديدا ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتهـــا كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الموحشـــة وعزلتها الكئيبة . استولت الجنرالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها . على أن الوصية ليست الا آمالاً . غير أن العجـــوز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطـاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجـل أن تستطيع التصرف فيـه على ما يشاء لها هواها . كانت الجنرالة امرأة هســـترية ، وقد أتيح لى أن ألاحظها بعـــد ذلك فى موسكو . فى ذات يوم ، تلقيت بالبريد أربعـة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلت أكبر الذهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً . وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتنى الرسالة الموعودة . ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائما ، وسأحتفظ بها حتى الممات . هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ... اننى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض عليّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض عليّ هذا بنفسها رأساً . كتبت تقول ما معناه : « اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له . ولست أطلب منك أن تحبنى اذ كنت لا تستطيع ذلك . كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى . لا تخش شيئا : فاننى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها ... اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك . » . لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظى القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها فی یوم من الایام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبی ، فما یزال ینزف بتأثیرها حتی الآن • أتظن أننی مرح النفس فی هذه الأیام ، وأن وضعی لا یعذبنی عذابا شدیداً ؟ ولقد أسرعت أجیبها (لأننی كنت لا أستطیع أن أسافر الی موسكو فورا) ، كاتباً لها من خلال الدموع • غیر أن هناك شیئاً سأظل أشعر منه بالخزی والعار ماحییت • لقد ذكرت فی رسالتی التی بعثت بها الیها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة ، وأن لها بائنة ضخمة، أما أنا فلست الا ضابطا فقیرا لیس له علاقات • نعم ، لقـــد كلمتها عن المال ، كلمتها هی عن المال ! ••• كان ینبغی لی أن أسكت ، كان ینبغی لی أن أقبل هذا التفاوت بینی وبینها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت منی رغم أنفی ••• وكتبت فی الوقت نفسه الی ایفان الذی كان یومئــذ بموسكو • عرضت علیه الموقف عرضا دقیقا فی حدود الامكان ـ ضمت الرسالة ست صفحات ـ وكلفت ایفان أن یذهب الیها • لمـاذا تنظر الیّ هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة ؟ نعم ••• لقد وقع ایفان فی حبها ، وما یزال یحبها ، أنا أعرف ذلك ••• فی رأیكم أنتم وفی رأی الناس أننی ارتكبت بهذا حماقة كبری ••• ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هی الآن سبیلنا الوحید الی الخلاص جمیعا ! ألست تری مدی ما تكنه له من تقدیر ، بل وما تحمله له من اعجـاب ؟ كیف یكون فی وسعها اذا هی وازنت بینی وبینه ، أن تحب رجلا مثلی ولا سیما بعد كل ما حـــدث هنا ؟

ـ أما أنا فأعتقد أنها لا تستطیع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله هو •

ـ هی ؟ لا ••• انها لا تحبنی أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأریحیة قلبها وشهامة روحها •••

ذلك ما أفلت من لسان دمتری فیدوروفتش مع شیء یشبه أن یكون

كرهاً . ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

ـ أحلف لك يا أليوشا ... صدّق أو لا تصدق ... أحلف لك صادقاً صدقَ وجود الله وصدقَ أن يسوع المسيح ربُّنا ، أحلف لك أنني ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أنني لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسي لا تعدل جزءا من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقيني من هذا هو بعينه مأساتي كلها !.. أي ضير في أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألست أستعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جدا . أما ايفان فانني أتخيل أنه في هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك ، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكي ذلك الذكاء كله ! من الذي تفضله المرأة ؟ ما الذي تؤثره المرأة ؟ انها تخص بايثارها الانسان النذل الذي هو أنا ، الانسان الذي برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور، رغم ايثارة خطيبته، هل تفهم ؟ نعم ... رغم ايثاره خطيبته .... فهذا هو الرجل الذي يُؤثَر ، أما الآخر فيُبعَد .... ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطري هذه في يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أي اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر . ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذي يستحقه ، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيغوص في الأزقة المظلمة ، ويختفي من حياتهما الى الأبد . ان هذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة الموبوءة العفنة التي

يحبها ، والتى تستهويه وتجذبه اليها ، والتى يشعر فيها أنه فى بيته ، ليهلك هنالك فى الحقارة المقزّزة راضيا عنها متلذذا بها • اننى أسترسل الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه • سأغطس أنا فى الحضيض ، وستتزوج هى ايفان •

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا شديدا :

ـ لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شىء ••• فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطيبتك ، لا تريد ذلك ؟

ـ أنا خطيبها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع القواعد المقررة ، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة • تمَّ ذلك فور وصولى الى موسكو ، تمَّ فى كثير من الأبهة وسط كثير من الأيقونات مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ هنأتها قائلة لها : « أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفس هذا الفتى • » • أما ايفان فقد ناصبته العداء ـ هل تتصور ؟ ـ ولم ترض أن تهنئه ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ، فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا دقيقا صادقا ، فكانت تصغى الى ما أقول بانتباه شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع
وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء • وأجبرتنى على أن أقطع على نفسى عهداً لأُصلحنَّ حالى • قطعت لهـــا على نفسى ذلك العهد • وهأنت ذا ترى •••

ـ ماذا ؟

ـ لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجىء الى هنا فى هـــذا النهار ـ تذكَّر التاريخ ـ من أجل أن أوفدك قبل حلول المســـاء الى كاترين ايفانوفنا ، فتبلغها •••

ـ أبلغها ماذا ؟

ـ اننى لن أذهب اليهـــا بعـد اليوم قط • وانقل اليهـــا تحيتى واحترامى •

ـ ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟

ـ هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسى ، فما عسانى قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟

ـ وما الذى ستفعله بعد ذلك ؟

ـ أضيِّع نفسى فى الأزقة !

ـ هى اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى • وتابع كلامه :

ـ أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحا وا أسفاه ! أعترف لك بأننى قد خطر ببالى أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكننى كنت آمل أن تكون قد سئمتها أخيرا •

ـ الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرتضي الانسياق الى منزلها ؟ أتظن أن هـــذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء . صحيح أننى منذ اللحظة التى بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر أفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ اعلم اننى حين ذهبت اليهـا أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضـابط الذى يكلفه أبى بقضـاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطرنى بهذه الوسيلة أن أنسحب . لقد أرادوا تخويفى. لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحـــدث فى نفسى أثراً كبيرا لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هـو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنزا كبيرا ؛ وكنت أعلم أيضا أنها تحب المـال حباً عظيما ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوغدة ، هذه الحقيرة ... فذهبت اليها لأضربها ... فاذا أنا أؤخذ بها ... كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمّه ... ولكننى قد أُصبت وما أزال . وأنا أعلم أن لا مهرب لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئا سواها ... وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذا ... فذهبنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فاستدعيت هنالك غجـــراً ، رجالا ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أسقى بسخاء ، بوفرة ••• كنت لا أحسب ما أنفق من مال ، فمئات الروبلات تذهب بعضها وراء بعض ، فما هى الا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضى فلم يبق معى شىء ••• ولكننى كنت أحسب أننى قد غزوت هذه المرأة واستوليت عليها • فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شىء ، هل تظن أننى ظفرت منها بشىء ؟ أبدا ••• لم أنل منها شيئا البتة • لقد رفضتْ ، بل لم تتنازل حتى أن أتأمل جمال جسدها معجبا به عن بعد ! ان لها قواما ••• أوه ••• لن أقول لك الا هذا ••• قواما ••• ان فى جسمها نوعا من تثنٍ تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصبع الصغير من قدمها اليسرى • لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته ••• ولكن ذلك كان كل شىء ، أحلف لك • كانت تقول لى :

« ـ أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك ـ عِدْنى بأن لا تضربنى ، وبأن تدع لى أنْ أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فَربما قبلت عندئذ أن أصبح زوجتك •

« كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن ! » •

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور • أصبح كالسكران دفعة واحدة • احتقنت عيناه دماً •

ـ وهل ترفض أنت أن تتزوجها ؟

ـ اذا وافقتْ تزوجتها فورا ؛ واذا رفضت بقيت الى جانبها ولو خادماً • هل تعلم أنت ••• أنت •••

توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ، وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة •••

ـ هل تعلم ، أيها الطفل البرىء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا هذيانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة؟

اسمع يا أليوشا : أنا رجل دنيء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيرا ، أما أن أكون لصاً صغيرا شقياء فذلك ما لن يرضاه دمتري كارامازوف لنفسه في يوم من الأيام ! ألا فاعلم اذن أنني لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففي ذلك الصباح الذي ذهبت فيه الى جروشنكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتني الى منزلها سرا ، وكلفتني (راجية أن أنفذ طلبها في الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتى ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي حين ذهبت الى جروشنكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأنني ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكنني لم أسلّم كاترين ايفانوفنا ايصال البريد ، وانما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالايصال في يوم آخر . ولم أعطها الايصال طبعا حتى هذه الساعة ، متعللا بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فنقلت اليها تحيتي واحترامي ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلا لها ؟

ـ أنت شقي يا ميتيا ... هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

ـ أتراك تظن أنني سأنتحر لأنني لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هي أنني لن أنتحر ، لن أنتحر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكنني من الانتحار . لا أحد يدري ما قد أفعله في المستقبل . أما الآن فانني لا أفكر الا في الذهاب الى جروشنكا ... وليكن ما يكون !

ـ وما الذى ستفعله عندها ؟

ـ أصبح زوجها • أنال هذا الشرف • فاذا جاء عشيقها يزورها اختبأت فى الغرفة المجاورة • وسأنظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة •••

قال أليوشا بصوت مهتاج :

ـ ان كاترين ايفانوفنا ستفهم كل شىء ، ستفهم مدى شقائك ، وستغفر لك • ان لها ذكاء فذاً • لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ، وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

ـ لن تغفر لى قط • هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضيها أية امرأة • هل تعرف ما هو أفضل شىء يجب أن نعمله ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل •

ـ ولكن من أين نجىء بهذا المبلغ ؟ اسمع: اننى أملك ألفى روبل، ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف • خذ هذه الآلاف الثلاثة ورُدَّها اليها •

ـ ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جيبك ؟ انك ما زلت الى الآن قاصراً ، ولا بد حتما أن تذهب اليها موفدا منى ، فى هذا اليوم نفسه ، بالمال أو بدون المال، لأننى أصبحت لا أطيق احتمال هذا الوضع• لقد بلغت الأمور حداً لا أملك معه أن أنتظر مزيدا من الانتظار • فى غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات • سوف أرسلك الى أبينا •

ـ الى أبينا ؟

ـ نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثـلاثة آلاف روبل •

ـ ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال •

ـ أقدّر ذلك • هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟

ـ أعلم •

ـ فاسمع اذن : انني أعلم أن أبانا ليس مديناً لي بشيء من الناحيـة القانونية ، فقـــد أخذت حقوقي كاملة • ولكنه مدين لي من الناحيـة الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقـــد شق طريقه في الحياة بمبـلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التي خلفتها أمي ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف • فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطني ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحي من هذا الجحيم ، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة في مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا لا مين فيه أنني سـأختفي متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهي بعدئذ ولا يسمع عني • هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب • قل له ان الله نفسه هو الذي يهب له هذه الفرصة •

ـ أوه ••• ميتيا ••• انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •

ـ أعلم أنه سيرفض أن يعطي المبلغ • أنا من ذلك على يقين مطلق، اليوم أكثر من أي وقت مضى ! بل انني أعلم شيئاً آخر أيضا : لقد بلغه منذ زمن قصير جدا ، في الأيام الأخيرة ، وربما أمس فقط ، أن جروشنكا تتكلم جادةً حين تعلن أنهـا تريد أن تتزوجني • فلأول مرة ، أدركَ « فعلاً » (« فعلاً » ، لاحظ كلمة « فعلاً » هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجني حقا • انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هي ! فهل يمكن أن يعطيني مزيدا من المال ليشـجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقا نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختـــومة ، وربط الحـــزمة بشريط أحمـــر متصالب في الاتجاهين . هأنت ذا تلاحظ انني مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكي جروشنكا ، اذا هي رضيت أن تجيء » . كتب هذه العبارة بخط يده في كثير من العناية ، وفعـــل ذلك كله سراً في الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذي يثق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » . ولكن اذا ذهبت الى العجـــوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبيء في هـــذا المكان مترقباً مترصداً ؟

ــ أتترصدها هي ؟

ــ نعم . ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتي المنزل ، قـــد أجَّرتا توماس غرفةً من بيتهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتي ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل . انه في النهار يمضي الى صيد ديوك الخلنج فيجني من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند توماس هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرّ ، أو يخطر ببالهما أنني هنا أترقب وأترصد .

ــ هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

ــ وحده . ثم انه سيبلغني مجيئها باشارة سريعة اذا هي جاءت .

ـ أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

ـ نعم ، فى الخفاء • وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المـال وعن بقية الأمر • لقد قرر العجوز أن يرسـل ايفان الى تشرماشنيا يوما أو يومين • لقد جاء اليه أحد المشترين يعـرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحّ العجوز على ايفان قائلا له : « اذهب الى هناك نيابةً عنى • قدم لى هذه الخدمة » • وانما يهـدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بغية أن لا يكون حاضرا حين تجىء جروشنكا •

ـ أهو ينتظر اذن أن تجىء اليه جروشنكا اليوم كما انتظـر فى الأيام الماضية ؟

ـ لا ••• لن تجىء اليه اليوم • هنالك قرائن تثبت لى ذلك • لن تجىء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) • وهذا رأى سمردياكوف أيضاً • ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان • اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة •••

ـ ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهـذا صاح أليوشا وهـو ينهض فجأة ، ويتفـرس فى دمترى فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا • (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن) •

قال دمترى فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهـو يحدق الى أخيه هادئاً :

ـ اطمئن • ما زلت أملك عقلى كاملا • لا تخش شيئاً • أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا • اننى أعتقد بحدوث معجزة •

ـ معجزة ؟

ـ معجزة الهية . ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب وكمد ويأس . انه يرى ما يجـــرى هنا . فلن يرضى ـ أنا واثق من هذا ـ لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع. انني أؤمن بالمعجزة يا أليوشا ! اذهب اليه .

ـ سأذهب . هل ستنتظرني هنا ؟

ـ سأنتظر . أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فورا ، وأنه لن يكفي أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا ... هات المال ! » . لا بد أنه في هذه اللحظة سكران . سأنتظر ماوجب الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم . واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب في هذا اليوم نفسه ، ولو في منتصف الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمال أو بغير مال ، لتقول لهـا انني كلفتك بابلاغها تحيتي واحترامي . انني أحرص حرصا مطلقا على أن تقول لها هذه العبارة : « كلفني بأن أنقل اليك احترامه » .

ـ ميتيا ! فماذا لو جاءت جروشنكا غدا أو بعد غد، هذا اذا لم تجيء اليوم ؟

ـ جروشنكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحـــول دون الأمر مهما يكن الثمن ...

ـ فاذا حدث رغم كل شيء أن ...

ـ اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال .

ـ من تقتل ؟

ـ أقتل العجوز . أما هي فلن أقتلها !

ـ أخي ،أخي ، ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

ـ لا أدرى ، أصبحت لا أدرى ... قد لا أقتل ، ولكن قد أقتل... أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القذر الكريه فى تلك اللحظة ! اننى أكره جوزة عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة الخليعة . انه يوقظ فىّ اشمئزازاً جسمياً . ذلك ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماحى وان أسيطر على نفسى .

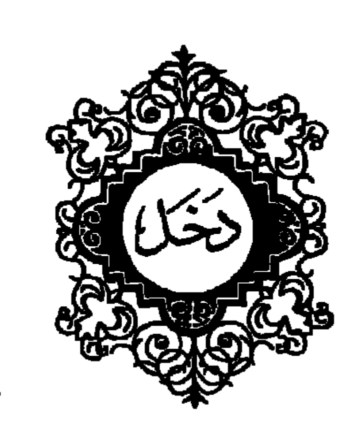
ـ أنا ذاهب اليه يا ميتيا . اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شىء فى سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !

ـ وسأنتظرك أنا هنا آملا أن تحدث معجزة . أما اذا لم تحدث المعجزة ...

اتجه أليوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً .

٦

سمردياكوف



اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة فعلاً . ولقد قُدِّم الطعام فى الصالون ، كما جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة طعام .

الصالون أوسع حجرة فى المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة . ان الأثاث كله قديم جداً ، أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن . وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أُطر مفخمة من طراز بالٍ ، بيضاء اللون أيضاً ، ولكنها مذهبة . والسجاد أبيض كذلك ، مهترىء فى مواضع كثيرة ، والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احداهما صورة أمير من الأمراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً . وفى الركن الذى يواجه باب المدخل، توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها فى المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءةً أثناء الليل . ذلك أن فيدور بافلوفتش لا ينام الا فى ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه فى الثالثة أو الرابعة من الصباح ، ويقضى وقته قبل ذلك سائراً فى الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً • لقد أصبح هذا عادة فيه •
وكان في بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه
الى المبنى الملحق • ولكنه في أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف
الذي ينام في الدهليز على دكة •

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجيء
بمربب وقهوة • ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى
بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك • وكان ايفان فيدوروفتش
بجانبه ، يحتسي القهوة معه • وكان الخادمان جريجوري وسمر دياكوف
واقفين قرب المائدة • وكان يبدو في تصرف السيدين والخادمين ، على
السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير معهود • كان فيدور بافلوفتش يضحك
ملء حنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة
التي تتصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها في أبيه حق المعرفة من قبل ؛
فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو
الآن مسترسل في نوبات ملاطفة ومطايبة •

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاجاً صاخباً وقد سرّه فجأة أن يرى
أليوشا :

ـ ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس • قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ،
وهي ساخنة ولذيذة • لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن
تريد ••• هل تريد ؟ لا ؟ طيب ••• سأعطيك اذن خمرة ، خمرة
عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ••• الخمرة على الرف الثاني
يمنة • اليك المفاتيح • هيّا أسرع !

وكان أليوشا يتهيأ منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة • قال له
أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

ـ لاتريد ؟ طيب ••• لا بأس ••• سيؤتى بها الينا نحن ، ما دمت لا تريد أن تشربها ••• بالمناسبة ،هل تغديت ؟

ـ تغديت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرةً من خبز واحتسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان •

قال الأب :

ـ مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن تسخين القهوة ؟ ولكن لا ••• انها ما تزال تغلى • هى قهوة ممتازة ، هل تعلم ؟ لقد أعدَّها سمردياكوف • ان صاحبى سمردياكوف فنان فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكولبياكا* ، وكذلك فى طهى حساء السمك • هذا حق • يجب أن تجىء الينا ذات يوم ، فتذوق حساء السمك هذا ، ولكن عليك أن تنبئنى بمجيئك سلفاً • آ ••• صحيح•• نسيت ! ألم آمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود الى المنزل نهائيا ؟ هل أتيت بفراشك ؟ هأ هأ هأ •••

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضا :

ـ لا ، لم آت به •

ـ لقد أخفتك فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روَّعتك ، أليس كذلك؟ يا طائرى الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك• ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينىَّ هذه النظرة ضاحكاً • ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ ••• ذلك أننى أحبه ، هذا الفتى • اقترب يا أليوشا ، فاننى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية •

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

ـ لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا ...
اجلس هنا ... سوف تسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك .
سوف تضحك يا عزيزى . تخيَّل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم .
هى تتكلم الآن ، تتكلم ... وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التى يعنيها الأب الا الخادم سمردياكوف.ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهو فى الواقع جرىء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول فى هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجورى فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميل » كما كان يقول جريجورى ، صبياً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء . كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلا بدفنها احتفالا كبيرا ، فهو يتدثر فى هذه المناسبات ببطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة . وكان يسترسل فى هذه اللعبة فى خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى فى ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة . فانزوى الصبى يومئذ فى ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعا برمته .

كان جريجورى يقول لمافرا اجناتفنا :

ـ ان هذا الصبى الشاذ لا يحبنا كلينا ، وهو لا يحب أحدا على كل حال .

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

ـ أأنت كائن انسانى ؟ ما أنت بانسان ... لقد وُلدت فى رطوبة الحمامات ، هذا أنت ...

لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال فى يوم من الأيام، كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه «التاريخ المقدس» . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . ففى ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبى يضحك على حين فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

ـ ما بك ؟

ـ لا شىء . ان الرب قد خلق الضياء فى اليوم الأول ؛ وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن فى اليوم الاول ؟

بُهت جريجورى لحظةً . وكان الصبى ينظر الى معلمه نظرة ساخرة، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره. فلم يستطع جريجورى أن يكظم غيظه ، فاذا هو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهو يقول له :

ـ من أين ؟ من هنا ...

تلقى الصبى الصفعة دون أن يقول كلمة واحدة ، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له ، رغم أنه لم يقرّعه فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفحه كوبكاً

كلما لقيه ، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التى يمر بها أن يرسل الى الصبى من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جاداً ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا برء منه • كانت نوبات الصرع توافى الصبى مرةً فى الشهر وسطياً، على تفاوت فى طول المدة ، واختلاف فى قوة النوبة ، فالنوبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل فى الصبى عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعى الصبى اليه من حين الى حين ، كما عارض فى تعليم الصبى أى شىء خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث فى ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مراهقا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عددا كبيرا من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا فى يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له :

ـ اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى•• ذلك خير من التسكع فى فناء المنزل • تناول كتابا واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولا •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدَّ اليه كتاب « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به ، حتى أنه لم يبتسم مرةً واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطَّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

ـ هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ هلاّ أجبت يا أهبل ؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

ـ هذا كله أكاذيب ... أمورٌ لم تحدث ! ...

ـ شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً صادقة . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة، فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبى أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم : أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه طويلا ، ثم يملأ ملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان جريجورى يسأله :

ـ هل وجدت فى الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

ـ أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى المشمئز المتقزِّز لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف تفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك . انه يرفع شوكته فيأخـــذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فجأة فيضعها في فمه .

فكان جريجوري ينظر اليه فيهمهم قائلا :

ـ انه يعد نفسه سيداً من السادة !

فلما أُبلغ فيدور يافلوفتش موقف ســـمردياكوف الجديد هذا ، قرر فورا أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة . قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى في موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً . لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتغضن وجهـــه تغضناً لا يتفق وسنَّه . أما من الناحية النفسية فانه لم يكد يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشـاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش في صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان . ولقد لبث في موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شئونه ، كما عُرف ذلك فيما بعد . ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيرا ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها . وقد شهد في ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استياءه رضى . غير أنه ، في مقابل ذلك ، قد عاد الينا من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جدا ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة في ان يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركهما الى أن تلمعا لمعان مرآة . وبرهن ســـمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم .

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يبتعد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهش فيدور بافلوفتش من هـــذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتفنا اضطرت أن تقـــرر اعداد وجبات الطعـام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظـــرة اشتباه :

ـــ انني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محركاً يده بحركة تعبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرةً الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يســـطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوما . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضـــاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن ســـمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

ـ يمينا ما لقيت في حياتي أناساً مثلك •

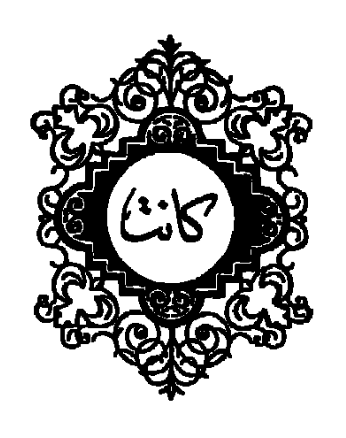
ثم أسرع يهدي اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدري أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيرا ما كان ينظر اليه نظرة شزراء ، وهو لا يكاد يفتح فمــــه بكلمة في حضوره يوما • وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال ، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عمّا لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جوابا • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء في المنزل ، أو في الفناء ، أو في الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فاذا هو يبدو عليه أنه يسترسل في تفكير عميق خــلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرســّام كرامسكوي* وجعل عنوانها « المتأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابةً في فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذي يقطعهـا ، فلاحٌ يرتدي قفطاناً وينتعل خفين باليين ، فهو في عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترســلاً في التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق في « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئا مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لمـا استطاع أن يجيبك بشيء • ولكنه

سيظل محتفظاً فى قرارة نفسه بالمشاعر التى تجمعت له أثناء استرساله ذاك فى أحلامه ، وهى مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها فى نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به • وهو لا يدرى طبعا لماذا يفعل ذلك • ولعل هذه المشاعر التى تراكمت فى نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجـر كل شىء على حين فجأة فيمضى الى القدس حاجاً ينشد الخلاص ؟ أو تدفعه ، لا تدرى لماذا ، الى أن يشعل النار فى قريته فيحرقها • وقد يفعل الأمرين كليهما • ان هؤلاء الحالمين كُثُر فى شعبنا • ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم فى نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعا الى ذلك فى حماسة وحميًّا ، دون أن يعرف حتى الآن الهدف الذى يرمى اليه والغاية التى يسعى اليها •

٧

مجادلة



الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً . وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية : ان جريجورى ، حين كان فى الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى الذى وقع فى أيدى أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكراهه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذبوه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فى سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجِّد المسيح . كانت الصحف فى ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندى ، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجورى قد روى ماسمعه أثناء الغداء . ان فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل فى حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجورى . ثم انه كان فى ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهج النفس متفتح القلب . فبعد أن أصغى الى ما رواه جريجوى وهو يشرب قدح كونياك، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندى وأن تعده ولياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، « بغية أن يجتذب الجماهير والمال » . فقطب جريجورى حاجبيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فى

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر . وفى تلك اللحظـة انما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب . كان الخادم الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى فى السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات الطعام ، أعنى أن يشهد المناقشات التى تعقبها . ولكنه تعوّد منـذ وصول ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء فى يوم من الأيام تقريبا .

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفـور أنه يسخر من جريجورى ، سأله قائلا :

ـ ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقى خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن فى الحسبان ، فيقول :

ـ بصدد تلك القصة . فأنا أرى أن فعل ذلك الجندى الجـدير بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شـك ، ولكننى أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح فى ذلك الظـرف وتنـازل عن تعميده انقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسنات تكفِّر ، بعد سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك .

تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

ـ ما كان ليعد خاطئاً آثماً ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأى الذى تراه ، أو ستُشوى كما يُشـوى خروف .

وفى تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشـا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجا قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعـوه أن يجلس وأن يصغى الى المناقشة :

ـ هذا موضوع مألوف لك • هـــذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها •

قال سمردياكوف مؤكداً :

ـ لا أوافق على موضوع الخروف المشوى • ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف •

ـ اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهـــو يلكز ركبة أليوشا •

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عينى سمردياكوف بغضب مسعور :

ـ هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلا بلهجة هادئة صابرة :

ـ أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتتمهل قليلا وتقضى فى الأمر بنفسك : هبْ أن جلاّدى الجنس المسيحى قبضوا علىّ ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أفعل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

ـ سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه • فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج •

ودمدم جريجورى يقول باحتقار :

ـ طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

ـ أما عن قولك بأننى طاهى حساء ، فأرجو ياجريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل بعض التمهل أيضا . لا تشتمنى ، وانما فكّر قليلا : هب أننى قلت للذين يعذبوننى : « ليكن لكم ما تريدون ... اننى أرتد عن دينى المسيحى وأتنكر لالهى الحق » . أفلا تديننى الحكمة الالهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حُرمت منها كأى وثنى ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حُرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذةً فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجيب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم العجوز .

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

ـ ايفان ! مِلْ علىّ حتى أستطيع أن أهمس فى أذنك بشىء .

ثم همس يقول له :

ـ من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو ينتظر تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن .

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد فى الاصغاء الى هذه الملاحظة التى أسرّ بها اليه أبوه .

وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

ـ اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

ـ هناك شىء آخر أريد أن أهمس به فى أذنك .

فمال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجد نفسه الذى أظهره فى المرة الأولى . فقال له الأب :

ـ اننى لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطـرن ببالك أننى أوثره عليك . قليلاً من الكونياك ؟

ـ بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس فى أبيه : « لقد سكر بعض السكر منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجورى يقول فجأة :

ـ كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر فى المناقشة أيها الشقى ؟

فأجابه سمردياكوف :

ـ مهلاً يا جريجورى فاسيلفتش ، اصبر علىّ ولو لحظة قصيرة ، واصغ الى كلامى حتى النهاية ، لأننى لم أتممه بعد . أعود فأقول اننى متى لعننى الله فى تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأنى شأن أى وثنى ،

ويكون تعميدي قد أُلغي تبعاً لذلك ، فلا يُحسب له أي حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك ، استحثه قائلاً :

ـ أوصلنا الى النتيجة التي تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بني .

فتابع سمردياكوف حديثه :

ـ فاذا لم أعد مسيحياً ، فانني لا أكذب على الذين يعذبونني ويسألونني : « أتعد نفسك مسيحياً أم لا ؟ » ، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجني من المسيحية بسبب نيتي وحدها قبل أن يتسع وقتي للاجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة . فاذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب في العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب في العالم الآخر كما يُحاسب مسيحي ارتد عن دينه ، مع أنني أكون قد جُرِّدت من تعميدي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أرتد عن ديني بالقول ؟ انني بعد أن جُرِّدت من مسيحيتي ، لا أكفر بالمسيح ، لأنني لا يكون قد بقي لي دين أرتد عنه . هل يخطر ببال أحد يا جريجوري فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التتري ، حتى في السماء ؟ ما من أحد يسلخ بقرة واحدة مرتين ! وهبْ أن الله العلي القدير سيحاسب هذا التتري بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا التتري لم يأثم حين ولد من أبوين غير مسيحيين . ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحيا ، ولا يمكن أن يعده مسيحيا ، فان عدَّه مسيحيا كان هذا كذبا ظاهرا واضحا ، والله الذي هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن

يكذب ولو فى مناسبة واحدة ، ولو فى كلمة واحدة من كلماته •

أصيب جريجورى بالبكم من شدة ذهوله ، ونظـــر الى الخطيب محملقا • فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكا غامضا بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجلٍ صـدم الحائط بجبهته على حين فجأة • وأفرغ فيدور بافلوفتش فى جوفه قدح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة •

ـ أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعـلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفـــان ؟ اذهب أيها اليســوعى العفن ؟ من ذا الذى لقنك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجورى ، سوف نهدِّم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، ســوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب فى موقفك من معذِّبيك • ان هذا لا ينفى أنك أنكرت دينك فى قـرارة نفسك ، وأصـــبحت فى تلك اللحظـة كافرا ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل • فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعى الظريف ؟

ـ لا أنكر أننى أكون قد ارتددت عن دينى فى قـــرارة نفسى ، ولكن ليس فى هذا أى اثم كبير ، واذا كان ثمـــة خطأ فهو خطأ عادى جداً •

ـ عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

ـ أنت تكذب • أنت ملعون •• مل •• عو ••ن •

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرِح أرضاً :

ــ اقضِ في الأمر بنفسك يا جريجوري فاسيلفتش : لقد جاء في الكتاب المقدس أن الذي يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : « اذهب أيها الجبل الى البحر » ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فورا عند أول أمر يصدر اليه* . فياجريجوري فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب لك حق اهانتي بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جدا) بل ان يتقدم قليلا نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذي يجري وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل لن ينصاع لأوامرك، وأن كل شيء سيبقى على ما كان، مهما يكن صراخك شديدا ومهما يكن زعيقك قوياً ! فهذا يبرهن يا جريجوري فاسيلفتش على أنك أنت أيضا لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس في زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى الناس سلطانا وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاحٍ من الفلاحين ــ أقول ليس في زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس في زماننا هذا أحد يملك هذه القدرة ، ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين في أكثر تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين في صحراء ما من صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع أن نهتدي اليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما . فاذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقا ، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعا ، وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو جحدت، أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة ...

ـ قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة ! تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كريه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

ـ ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان الشعب الروسى .

ـ أنت تشاطرنى هذا الرأى . لا بد اذن أن أكون على صواب . هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

ـ لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

ـ لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة ذينك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسما :

ـ نعم هى سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

ـ قولك هذا يساوى دينارا ذهبيا يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ، أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها الغبى أن خفة العقل وحدها هى

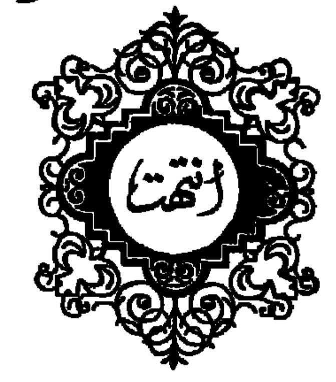
التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير في الله : فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكارا ، والرب ثانيا قد ضنّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعة فقط ، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك لا يمكن أن يكون في ذهنك في مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير فكرة الايمان التي كانت هي بعينها الفكرة التي يجب أن تكفل لها الغلبة والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي ؟

ـ لقد جرت الأمور على هذا النحو حقا . ولكنك تسلم أنت نفسك يا جريجوري فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنا وأخف وزنا ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض انني اعتقدت ، في ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : انني لأرتكب عندئذ اثما اذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني ، وارتضيت اعتناق دين محمد . ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفيني أن أقول للجبل في تلك الدقيقة : « امش أيها الجبل فاسحق الجلاد » ، فاذا بالجبل يرتمي على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضي في سبيلي هادئا أغني وأمجد الله . فاذا راودتني هذه الافكار لتحقيق هذه الغاية مناديا : « اسحق الجلادين أيها الجبل » ، فاذا بالجبل لا يستجيب لندائي ، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاّ قلت لي كيف يمكنني في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك ؟ لقد علمت سلفاً انني لن أظفر بملكوت السماوات كاملا (لأن الجبل لم يطع أوامري ، وذلك دليل على أن ايماني ليس محلّ ثقة هناك في السماء ، ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة) . فأي جدوى اذن في أن أدع لهم أن يسلخوا جلدي حياً بغير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبـــل لن يتحرك من مكانه رغم جميــع صرخاتى • وفى تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وانما يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب ذعرى الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير • أفيكون اثمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أفيكون اثمى كبــيرا اذا أنا أردت عندئذ أن أنقــذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هــو السبب فى ثقتى الكاملة بالرحمة الالهية ، وفى أننى آمل أن تغفر لى السماء غفرانا كاملا •

٨

أثناء شرب الكونياك



المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور بافلوفتش الذى كان مرحاً فى أول الأمر قد عبس واكفهر وجهه فى النهاية . وها هو ذا ، وقد بدا عليه الامتعاض واضحا ، يفرغ فى جوفه قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيرا . وصاح يقول للخادمين :

ـ انصرفوا ، اخرجوا ... أيها اليسوعيون ! امض يا سمردياكوف . سيصلك الدينار الذهبى الذى وعدتك به ، ولكن هيَّا انصرف ! وهوِّن عليك يا جريجورى ، عُدْ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك وتضعك فى سريرك .

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة :

ـ ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء . وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجىء كل اليوم عند الغداء ، أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتنته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

ـ لم أفعل شيئا البتة • وانما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدرى لماذا ••• هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ••• ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة •

ـ الى الصف الأمامى ؟

ـ سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه ، ولكن سيجيء أيضا أناس مثله • وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم أولا ، ثم يجيء دور من هم أفضل منه •

ـ ومتى تحين تلك الساعة ؟

ـ ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت قبل أن تنطلق • ان الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرّضين كثيرا •

ـ ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدرى الا الشيطان الى ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها •

قال ايفان ماكرا ساخرا :

ـ انه يجمّع آراء ويراكم أفكارا •

قال الأب :

ـ أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكنّ لشخصك الاحترام • أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره • ولكن يجب أن نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل • وهو الى هذا يجيد طهى أنواع الكولبياكا • أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً ؟

ـ لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

ـ أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه ، فأنا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب ضربا مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأي دائما . ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يُضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التي تؤخذ منها العصي دليل على قوة روسيا . فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا . أنا شخصيا أحب العقل . ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لافراطنا في حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم * . وما أعتاهم في هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهي بلد قذر حقير ... ليتك تعلم يا صديقي كم أكره روسيا ... أو قل انني لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضا ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذي أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

ـ لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . فعليك أن تمسك !

ـ لا لن أمسك بعد . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانيا ، ثم أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعتَ سلسلة أفكاري.. ها.. نعم.. حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلا عجوزا فأجابني بما يلي : « نحن نحب كثيرا أن نحكم على البنات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب . فكثيرا ما يحدث أن نرى الفتى الذي جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطبا . وهكذا تنتفع البنات أيضا من الامر ، كما يقال » . ما رأيك في شبابنا أنصار المركيز دي ساد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد • ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟
لا تخجل يا صغيري ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان
لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذني يا أليوشا على
أنني أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل • ان الخردل يصعد الى أنفي
في بعض اللحظات ••• لا شك أنني أكون آثما ، ولا شك أنني سأعاقب،
اذا كان الله موجودا • ولكن اذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع
هؤلاء الرهبان ؟ اذا لم يكن الله موجوداً فانه لقليل جدا أن نقطع
رءوسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقني يا ايفان اذا قلت لك ان
هذا يهين أسمى عواطفي ؟ لا ••• أنت لن تصدقني ••• انني أرى هذا
في عينيك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أنني مهرج لا أكثر •
أليوشا ، هل تصدقني اذا قلت لك انني لست مهرجا فحسب ؟

ـ أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب •

ـ أصدقك • أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك
دائما • أنت تقول الحقيقة • وعيناك لا تكذبان • ولا كذلك ايفان •••
فانه ليس بمخلص ••• هو رجل مزهو بنفسه ••• مع ذلك ، لو كنت
في مكانك لتركت هذا الدير وانتهيت منه ••• هذه الصوفية يجب
اجتثاثها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها في
ذات يوم ، لنردّ الأغبياء الى العقل ، ونرجعهم الى الرشاد • ما أكثر المال،
ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تسترده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

ـ لماذا نلغيها ؟

ـ لماذا ؟ لنعجّل انتصار الحقيقة في هذا العالم •

ـ أفلا تدرى اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسيأخذون يجردونك تجريدا تاما ، ثم ... يزيلونك ؟

ـ هه ! ... على كل حال ، قد تكون مصيبا ...

قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة، وأضاف :

ـ اذن فلا نمسنّ ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك . أما نحن ، معشر الأذكياء ، فلنستمر ... نعيش فى رخاء ونحتسى الكونياك! ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هــو الذى لا بد أنه أراد اقامة ذلك النظام . ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى وأرحنى ... ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جادٍ لاهازل! لماذا تضحك من جديد ؟

ـ أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبّرت عنها منذ برهة تعبيرا فكهاً فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجــود ناسـكين قادرين على تحريك الجبال .

ـ هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هــذه النقطة ؟

ـ جدا .

ـ معنى هــذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بمـا يتصف به الروسى من خصائص تميزه . ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهــذه الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا . هــل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منــذ الغـد . ومع ذلك أجبنى : أيوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعـرف ذلك .

ـ لا ••• لا يوجد اله •

ـ أليوشا ، هل الله موجود ؟

ـ الله موجود •

ـ سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

ـ لا شيء بعد الموت !

ـ لا شيء البتة ؟

ـ البتة •

ـ أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما وُجد قليل من حياة مع ذلك ! لقليلٌ خيرٌ من لا شيء •••

ـ لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ••• لا أكثر من ذلك !

ـ أليوشا ، هل هناك خلود ؟

ـ نعم هناك خلود •

ـ اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

ـ نعم ، يوجد اله والخلود موجود في الاله •

ـ هِمْ ••• لا شك أن ايفان هو صاحب الرأى الصحيح • ومع ذلك ما أكثر التضحيات التي ضحاها الانسان في سبيل هـذا الاعتقاد ، وما أكثر القوة التي أنفقهـا على هذا الأمل في غـير طائل ، منذ ألوف السنين ! ••• فمن ذا الذي يضحك على الانسانية هذا الضحك ، من ذا الذي يسخر منها هذا السخر ، قل لي يا ايفان ! انني ألقي عليك هـذا

السؤال آخر مرة ، ألقيه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبنى آخر جواب ...

ــ أجيبك آخر جواب : لا !

ــ فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر المساكين ويضحك عليهم ؟

فقال ايفان ماكرا ساخرا :

ــ هو الشيطان ما فى ذلك شك .

ــ اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

ــ لا ... لا يوجد حتى شيطان .

ــ خسارة ... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك الذى اخترع الله أولَ من اخترعه ... ان الشنق قليل عليه .

ــ لولا أن أختُرع الله لما وُجدت المدنية !

ــ المدنية ؟ لولا الله لما وُجدت المدنية ؟

ــ لا ... ولما وُجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه .

ــ لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيرا آخر ... لقد أسأتُ الى أليوشا . ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد علىّ يا عزيزى الصغير اليوشا ، يا بنىّ الطيب الشهم ؟

ــ لا ... لست غاضبا . أنا أعرف أفكارك . ان القلب فيك خير من الرأس .

ــ قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب ! ايفان ، هل تحب أليوشا ؟

ـ أحبه ٠

ـ يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) ٠ اسمع يا أليوشا ٠ لقد أسأت الى شيخك فى هذا الصباح ، لقد أهنته ٠٠٠ ولكننى كنت مهتاجاً اهتياجا شديدا ٠ ألا ان فى قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

ـ صحيح ٠

ـ نعم نعم ٠٠٠ ان فى داخله شيئا من بيرون * ٠ انه يسوعى ، أقصد أنه مجادل روسى ٠ وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحيانا فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل فى هذا العالم٠٠٠ أن يصطنع مظاهر قديس ، أن يتخذ أوضاع ولىّ ٠٠٠

ـ لكنه يؤمن بالله ٠

ـ هو ؟ أبدا ٠ ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ٠٠٠ لا لجميع الناس طبعا ٠٠٠ بل للأذكياء ممن يزورونه٠ لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولتس : أنا أؤمن ، ولكن لا أدرى بماذا ٠

ـ أهذا ممكن ؟

ـ تماما ٠ وأنا أحترمه مع ذلك ٠ انه فيه عنصرا مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتى ٠٠٠ أقصد أنه رجل يحب الملذات ، رجل شهوانى ٠ وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترفان له ٠٠٠ فتخيل ! ٠٠٠ هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصص ! ٠٠٠ منذ ثلاث سنين دعانا الى

احتساء الشاى عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ، فأخذ يستحضر ذكرى مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوننا حتى لا تنفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التى شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقىّ مريضتان هذا المرض ، لرقصت لك رقصةً من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ، أليس كذلك ؟ وقد اسرّ الينا يومئذ قوله : « كانت لى فى حياتى مغامرات !» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

ـ ماذا ؟ سرقها ؟

ـ استودعه الرجل المبلغَ أمانةً لما عرف به من صلاح وفضل . قال له : « احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيفتّش فى الغد » . فاحتفظ الآخر بالمبلغ كاملا غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة . » . فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ... فقال لى : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة . » . ولكن لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر .. دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت .. كان عليك أن توقفنى عن الكلام يا ايفان ! لماذا لم تقل لى اننى أكذب ؟

ـ كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك .

ـ غير صحيح ! انك تركتنى أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث وحده . انك تحتقرنى ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معى ، ثم أنت تعاملنى باحتقار حتى فى منزلى !

ـ سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

ـ لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح، أن تذهب الى تشرماشنيا ••• يوما أو يومين ••• ثم لم تفعل !

ـ سأذهب غدا ما دمت تلح •

ـ لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبنى هنا • تلك هى غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح العجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول الى تلك المرحلة التى يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم فى العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه •

ـ مالك تتفرس فىّ هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقذرهما ! انك تنظر الىّ فأقرأ فى نظرتك قولك : « أيها السكير الدنىء » ! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! ••• أنت انما جئت الى عندى لغاية معينة فى نفسك ••• ولا كذلك أليوشا ••• انه ينظر الىّ بعينين تشرقان صراحة • أليوشا لا يحتقرنى • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •

قال أليوشا بحزم مباغت :

ـ لا تغضب من أخى • أكفف عن اهانته !

ـ السبب هو •• آه ••• أصبحت لا أدرى ••• أنت على حق • اف ••• ما أشد هذا الصداع الذى ألم برأسى على حين فجأة ! ارفع هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة •

ـ لا تحقد يا ايفان على هذا العجوز المهووس ... لا تحقد عليّ يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبنى كثيرا . وليس هناك ما يوجب أن تحبنى على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألحق بك حاملاً اليك حلوى ... وسأعرّفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منـــذ زمن طويل . هى الآن فتاة صـــغيرة رثة بائســـة . لا تخش الصــبايا المزفّتات . لا تحتقرهن قط ... فهنّ لآلىء فى كثير من الاحيان .

قال ذلك وقبّل يده قبلة مدوّية ، من باب التأكيد . ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن اثارة موضوعة المفضـــل قد أوتيت القدرة على أن تردّه الى الواقع رداً مباغتاً :

ـ ما أنتم أيها الفتيان الا صبية ، الا خنازير صغيرة ... هأ ... أنا من جهتى لم أقبل فى حياتى أن تستطيع امرأة أن لا تعجبنى ... تلكم هى مبادئى ! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن تفهموه ! ان عروقكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد ! ان القاعدة التى التزمها فى سلوكى هى أن فى كل امرأة شيئا خاصا شائقاً لا يمكن أن يوجد فى امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المـــرء اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة أمكن أن تكون فى نظرى دميمة أو باعثة على الاشـــمئزاز فى يوم من الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هـــذا وحده نصف الحب .. حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله أن يتصور أن هناك اناسا أغبياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن يلاحظوهن . وأول شيء يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصـــغيرات الرثات الوسخات هو أن يدهشهن . بهذه الوســيلة انما يجب التوســل اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة والوجد ، حدّ الألم والعذاب ، حدّ الشعور بالخزى والعار من أن سيداً

أنيقاً أمكن أن يتوله حباً بدمامة كهذه الدمامة . ألا انه لشيء رائع يشحذ العزيمة أن يعرف المرء أنه سيبقى فى هذا العالم الى الأبد سادةٌ وخدم ، ففى هذه الحالة سيظل هناك صـــغيرة رثةٌ ما يحلو لها أن تفرح سيدها ومولاها . تلك هى سعادة الحياة ! انتظر ... هل تعرف يا أليوشا ؟ ان هذا الامر يذكرنى بأننى قد بعثت الدهشة دائما فى نفس المرحومة أمك، ولكن بمعنى آخر . كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم اذا أنا فى ذات يوم ، فى دقيقة من تلك الدقائق التى يتفق لى أن أعرفها ، أسترسل فجأة فى اظهار جميع أنواع العـــواطف ، حتى لأزحف على ركبتى ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأنقلها فى كل مرة ـ ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس ـ أنقلها فى كل مرة الى حالة نفسية خاصـــة ، فاذا هى تأخذ تضحك ... تأخذ تضحك ضحكة فريدة فى نوعها ... ضحكة واهنة حادة فى آن واحد ، ضحكة عصبية طويلة . وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذى عرفته فيها . وكنت أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطـــريقة نفسها ، فهى تأخذ فى الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبِّر فى الواقع عن أى فرح . ولكننى كنت أرى ذلك الضحك لذيذا ، سواء أعبَّر عن فرح أم لم يعبر عن فرح . فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن أجد فى كل شيء جانبا جذابا مجهـــولا ؟ وقد اتفـــق فى ذات يوم أن بيليافسكى ـ وهو رجل متظـــرف غنى جدا كان يسعى اليها واستطاع أخيرا أن يدخل بيتى ـ قد صفعنى على وجهى فى بيتى بحضورها ! فماذا حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التى تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن تضربنى بسبب هذه الصفعة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبنى وتقرعنى: « سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ ... ارتضيت أن تتلقى صفعةً من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تبيعنى له ... كيف تجرأ أن يصفعك

أمامى ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا ... هل تسمع ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط ... هيا اطلبه الى المبـــارزة .. اسرع .. أركض » . هكذا أخذت تقول لى . أخـذتها الى الدير لأهـــدىء روعها ، وصلى الرهبان من أجلها . ولكننى أقسم لك يا أليوشــا أمام الله أننى لم ألحق بهـــا أذى فى يوم من الايام ، لم ألحق أى أذى بصغيرتى العـــزيزة الكليكوشا .. اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السـنة الأولى من حياتنا ، ثم لم يحدث شيء من هذا بعد ذلك يوما . وكانت منذ ذلك الأوان تسرف فى الصلاة فى رأيى ، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فما تسمح لى بأن أقاربها أثناء ذلك . خطر ببالى مرة أن على أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : «هل ترين هذه الأيقونة ؟ هذه الأيقـونة المقدسة ؟ سأمضى اليها الآن ، فأرفعها من مكانها ... انك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات .. طيب .. سأبصق عليها الآن أمامك ، فلا يحدث لى شيء ... » . يا الهى ! حين نظرت اليها عندئذ فـــرأيت تعبير وجهها ، خيـّل الىّ أنها ستقتلنى فـــورا . ولكنها لم تزد على أن انتفضت ، ورفعت ذراعيها فى الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض ... منهارة انهيارا تاما ... أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيرى ؟

وثب العجوز عن مقعده مروّعاً مذعورا . كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئا فشيئا منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه . لقد احمر فى أول الامر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفتاه تختلجان ... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذا من لعـــاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب : لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التى وصفها أبوه فى كلامه عن الكليكوشا : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه فى القصة التى رواها

أبوه عنها ، ورفع ذراعيه فى الهـــواء ، ثم غطى وجهـه بيديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلةً واحدة ، وأخـذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هسترية تصاحبها دموع صامتة • وقد دُهش العجوز دهشـة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشـا وأمه • فقال ينادى ايفان :

ــ ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماما ! صبَّ عليه ماءً بالمغرفة ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها • هذا بسبب أمه ، أمه •••

ــ أمه ؟ يخيَّل الىَّ أن أمه هى أمى أيضا ، ألا تقدِّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقـــول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش العجـــوز حين رأى نظـــرته الحانقة المسعورة •

عندئذ حدث شىء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان • يبدو أن العجوز قد نسى فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضا ، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم :

ــ أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أتكون هى حقاً ؟ ••• آه ••• لعن الله الشيطان ! نعم ••• هى أمك أيضـا ! لعن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى! معذرةً يا ايفان • لقد خيِّل الىَّ أن ••• هأ هأ هأ ! •••

قال العجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهـــاء من ابتسامات السكيرين • وفى تلك اللحظة نفسها سُمعت من الدهليز جلبة رهيبة ،

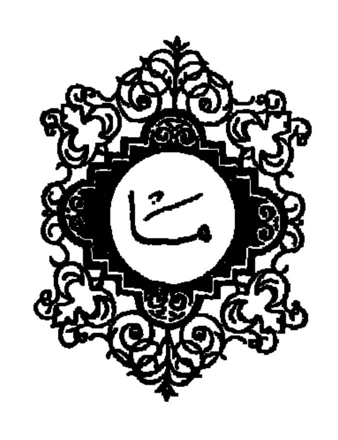
وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه الاعصار ، وظهر دمترى بافلوفتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتمى العجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جـــزع هائل ، وطفق يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتى من قوة :

ـ سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تتركنى •• دافع عنى •• احمنى !

٩

الشهوانيون



ان دخل دمترى بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره . كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذا للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمترى فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويفضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق . فلما رآه دمترى أطلق صرخة حادة ، بل قل زأر زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز ، قائلا :

ـ هى اذن هنا . خبأتموها فى الغرفة المجاورة . ابعد أيها الشقى !

أراد دمترى أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجُنَّ جنون دمترى حنقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلةً واحدة ، وركله دمترى بقدمه ، واقتحم

الباب • أما سمردياكوف فقد ظل فى الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم •

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

ـ هى هنا حتماً • رأيتها تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكننى لم أستطيع أن أدركها • أين هى ؟ أين هى ؟

أحدثت هذه الصرخة « هى هنا » ، أحدثت فى فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه وهلعه دفعةً واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :

ـ أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب • وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه • وسُمعت فى الغرفة الثالثة ضجة سقوط شىء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت •

أعول العجوز من جديد يقول :

ـ أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا فى تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة •

ـ بنىّ فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنكا • هى هنا • رآها بنفسه تجرى نحو دارى •••

ان فيدور بافلوفتش يتعثر في الكلام • كان لا يتـوقع أن تجيء جروشنكا في ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله • ان جسـمه كله يرتعد • وكأنه قد فقد جميع رشده •

قال له ايفان حانقاً :

ـ أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت •

ـ لعلها دخلت من الباب الآخر •

ـ ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه في جيبك •

وفجأةً ظهر دمتري مرةً أخرى في الصالون • لقد وجد البـاب الثاني مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان في جيب فيـدور بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة في جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أي مدخل ولا أن تغادره من أي مخرج •

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

ـ اقبضوا عليه • لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومي !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدي ايفـان ، فهجـم ثانيةً على دمتري • ولكن دمتري رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتي شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض في قرقعة ، واتسع وقته كذلك لأن يطـرق رأس أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً • ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ؛ وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك في حدود طاقته ، ممسكاً دمتري من أمام •

صرخ ايفان يقول :

ـ أأنت مجنون ؟ لقد قتلته .

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

ـ أحسن ! لقد استحق ذلك . واذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فورا .

ـ ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة ...

ـ أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! ...

ـ ولكننى رأيتها بعينى ... اذن هى ... لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ... الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزوب* كلمةً واحدة فى أمر المال الآن . اذهب فورا الى كاترين ايفانوفنا . يجب أن تذهب اليها حتماً . قل لها : « انه يبلغك احترامه ، احترامه، احترامه ، يبلغك احترامه مودعاً ! » . وصِفْ لها هذا المشهد ...

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد . كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا

مختبئة في مكان ما بالمنزل • وحين همَّ دمترى فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

ـ لا يعذبنى ضميرى على أننى سفحت دمك • حذار أيها العجوز! اذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملى أنا ! اننى ألعنك وأنكرك !

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً •

ـ هى هنا ، هى هنا قطعاً • سمردياكوف ، سمردياكوف !

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يومىء بأصبعه الى الخادم •

فأجابه ايفان بصوت حانق يقول :

ـ بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاقد عقله ! ها •• ها هو ذا يُغمى عليه • هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء • وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيرا ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريره ، وأحاطوا رأسه بخرقة مبللة • فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه الكونيـاك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض عينيه ونام • وعاد ايفان فيدوروفتش وأليوشا الى الصالون • ولمَّ سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة • ولبث جريجورى جامداً قرب المائدة ، مظلمَ الوجه ، خافض الرأس فى عناد •

قال أليوشا لجريجورى :

ـ يحسن بك أنت أيضا أن تلفع رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد فى فراشك • لقد ضربك أخى ضربة قوية كذلك •

قال جريجورى بصوت مبحوح بطىء :

ـ تجرأ أن يضربنى .

فقال ايفان فيدوروفتش :

ـ تجرأ ؟ لم « يتجرأ » أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضا !

ـ لقد ربيته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسى ... ثم هو يتجرأ علىّ الآن فيضربنى ...

كذلك ردد جريجورى .

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

ـ من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم نبعده عنه بالقوة . تُرى هل ينجو ايزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

ـ حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

ـ حمانا الله من هذا ؟ ألا فلتأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو المصير الذي تستحقه !

ارتعش أليوشا .

ـ طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة . ابق هنا يا أليوشا . وسأخرج أنا الى الفناء استنشق الهواء قليلاً ، فقد بدأت أشعر بصداع فى رأسى .

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة ساعتين ، جالساً بين السرير والحاجز . ثم اذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل

النظر الى أليوشا صامتا ، وهو يحـــاول أن يتذكــر وأن يفهم ؟ ثم اذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

ـ أليوشا ، أين ايفان ؟

ـ في الفناء . ان به صداعاً . ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف يحمينا .

ـ ناولني المرآة . هي هناك ، هل تراها ؟ ناولنيها .

مدّ اليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوّرة ذات المســـند المطوى التي كانت موضوعة على المنضدة . نظر العجوز في قسمات وجهه : كان أنفه قد تورم تورماً شديدا ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف .

ـ ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بني الطيب الشهم ، أنت وحدك ابني ! انني أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر . أنا لا أشعر بالطمأنينة الا معك . ولا أخاف منك ...

ـ ولا تخف من ايفان أيضا . صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنــه سيدافع عنك .

ـ أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنكا ، أليس كذلك؟ يا ملاكي الطيب ، قــل لي الحقيقة كاملةً : أجاءت جـــروشنكا الى هنا أم لا ؟

ـ لم يرها أحد هنا . تلك كذبة . انها لم تجيء .

ـ يريد دمتري أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها ...

ـ لن توافق هي على هذا !

ـ سترفض ، سترفض حتماً أن تتزوجه ، سوف تصده وتنبذه !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره فى تلك الدقيقة هذه الفكرة التى عبَّر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسته ، أمسك يد ابنه فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تلألأت دموع فى عينيه •

ـ خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التى تكلمت عنها منذ برهة • اننى أهب لهاهذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك • واننى لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير ••• لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فاننى ما أردت الا المزاح • بى صداع يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا ••• هدىء روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها •

ـ أفى أمر جروشنكا أيضا ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟

كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة • فقال له أبوه :

ـ لا ••• لا ••• سامحنى ••• اننى أصدقك • اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، أو دبِّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحدة ••• حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أيّنا تفضل ، هو أم أنا ؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

ـ سأسألها عن ذلك اذا رأيتها •

ـ بل الأفضل أن لا تراها • اننى أعرفها • هذه امرأة مجنونة • سوف تلعب بعقلك وتجيبك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبغى أن تراها ••• لا تصلح جروشنكا لمثلك !

ـ ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !

ـ قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه « اذهب اليها » ؟

ـ الى كاترين ايفانوفنا .

ـ للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟

ـ لا ... ليس الأمر أمر مال .

ـ أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا . اسمع يا أليوشا . سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور . دعنى الآن . قد تلقاها فى طريقك ... ولكن تعال الىَّ غدا فى ساعة مبكرة ، تعال حتماً . هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها . هل تجىء ؟

ـ أجىء .

ـ تظاهر بأنك تجىء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى . لاتذكر لأحد انى رجوتك أن تجىء . ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة .

ـ سأصمت .

ـ الى اللقاء يا ملاكى . لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً ... سأقول لك فى الغد شيئا ... يجب أن أفكر فى هذا الشىء مزيدا من التفكير ...

ـ ما شعورك بصحتك الآن ؟

ـ سأنهض منذ الغد فأخرج . سأكون فى غد قد شفيت ، سأكون قد أبللت تماما .

وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالسا على دكة قرب

الباب • كان ايفان بسبيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم الرصاص • أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل •

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتحبب :

ـ أليوشا ، أحب كثيرا أن أراك غدا فى الصباح •

فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألفها فيه • وأجابه :

ـ سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها • ومن الجائز أيضاً أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها •

ـ أأنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنا مع ذلك ؟ لتنقل اليها احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يبتسم على حين فجأة •

اضطرب أليوشا • وأردف ايفان يقول :

ـ أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات أخرى سابقة • أغلب الظن أن دمترى رجاك أن تذهب اليها لتبلغها أنه يريد ••• أنه يريد •• أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته بها ؟

سأله أليوشا :

ـ قل لى يا أخى • كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع الرهيب بين دمترى وأبينا ؟

ـ يستحيل التنبؤ بذلك • قد يسوّى الأمر ، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه • ان هذه المرأة وحش كاسر مفترس • مهما يكن من أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه •

ـ اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

ـ ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة . أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقّ أن يتمنى ما يناسبه ؟

ـ أن يتمنى موت انسان آخر ؟

ـ حتى الموت ، اذا دعت الحاجة . ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه ... ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجرى الأمور على غير هذا النحو ... أأنت تلقى عليّ هذا السؤال بسبب فكرتى تلك عن السراطين ؟ فاسمح لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أننى قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

ـ ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شىء من هذا فى يوم من الأيام ! ... وحتى دمترى ، ما أظنه قادرا على أن ...

قال ايفان ساخرا :

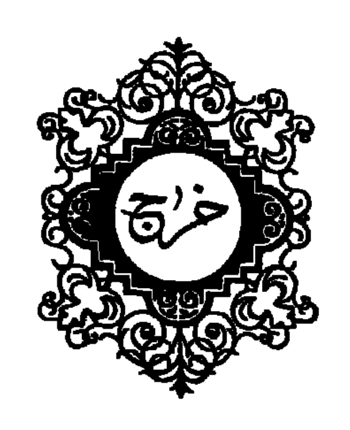
ـ أشكر لك هذه الثقة على الأقل . اعلم أننى سأدافع عنه فى كل ظرف . أما عن أمنياتى مع ذلك ، فاننى أحتفظ فى هذا المجال بحريتى . الى اللقاء . الى الغد . لا تُدِنّى ولا تحسبنّى مجرماً .

كذلك أضاف وهو يبتسم .

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط . وأحسّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية فى نفسه ، وأنه يبيّت نية من النيّات حتماً .

١٠

المرأتان كلتاهما



أليوشا من دار أبيه أشد حـــزناً مما كان حين دخلها . انه يشعر باضطراب عميق فى ذهنه . أفكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمهـا ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض . ولكنه يدرك فى الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر فى خواطره المبلبلة ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذِّبة التى عاناها فى هذا النهار. ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به و يوشك أن يكون يأساً . وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل. هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر فى فكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلاً : ما عسى يصير اليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدرامة ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخـر . وأحق الناس بالرثاء على كل حال انما هو دمترى ، لأن شقاءه يبدو رهيباً، ولأن بلاءه يبدو مستعصيا لا دواء له ولا برء منه : ان الكارثة تتربص به . وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيرا مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين . هذا كله يُحـــدث فى نفس ألیوشا احساسا مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم . من ذلك مثلا أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه متودداً اليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فان ملاطفات أخيه هذه قد بثّت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضا ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهبا الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فانه قد ملأته تلك الزيارة اضطرابا . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فانه ماض اليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنهـــا تستطيع أن تنقذه من قلقه ! على أن المهمة التي كلّف بها تبدو له الآن أصعب وأشق: لقد عدل دمترى عدولا نهائيا عن ردّ الثلاثة آلاف روبل. هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل ، فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذى جرى فى دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التى تشغل فى « الشارع الكبير » منزلاً واسعا فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى هذا المنزل فى صحبة قريبتين لها . فأما أولاهما فلا تمت اليها بقربى الا من جهة أختها آجاتى ايفانوفنا ، وهى بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيعة التى عُنيت مع آجاتى تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهى سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا فى كل شىء ، ولا يعيشان قربها الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترين ايفانوفنا فهى لا تطيع الا الجنرالة ، المحسنة اليها ، التى لبثت فى موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتى كان على كاترين أن تكتب اليها مرتين فى الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التى فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين فى الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) • فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغـــرفة • استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب • ومع ذلك أُدخل الصالون فورا بدون انتظار • هى غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شىء • دواوين وصـــوفات وكنبـات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهـــريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة فى كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب احـــدى النوافذ • والغرفة مظلمة قليلا فى هذا الوقت من الغسق • ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحدا كان جالسا عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر • لاشك اذن فى أن أهـــل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم • فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير • ولكن الســـتارة أزيحت فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى ، مادةً الى أليوشا يديها كلتيهما ، مبتســـمة له ابتسامة فرحة مبتهجـــة • وسرعان ما دخلت فى اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة •

ـ الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طـــول الوقت أضرع الى الله أن تجىء • اجلس من فضلك !

ان جمال كاترين ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخـــذه

أخوه دمترى اليها قبل ثلاثة أسابيع ليعـــرّفها به لأنها أحبت كثيرا أن تعرفه . ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثـــيرا على كل حال . ذلك أن كاترين ايفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته فى تلك المرة فلم تتجه بكلامها الا الى دمترى ، وصمت أليوشا طـــوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء . كانت هذه السمات فى طبعها واضحة ، وأحسّ أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ فى تصـــورها . وقد أعجب أشـــد الاعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الذى تشبه صفرته صفرة العاج قليـــلا ، ومع وجهها المســـتطيل بعض الاستطالة . ومع ذلك كان فى عينيها ، كما كان فى رسم شفتيها الرائع ، شىء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ فى النفس حباً باقياً مستمرا . ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمترى عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمترى ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفى عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته . لقد قال له أليوشا يومئذ :

ـ سوف تكون سعيداً معها ... ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة.

ـ هذه هى الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبدا ، ولا يذعنّ للقدر . أأنت تعتقد اذن أننى لن أحبها الى الأبد ؟

ـ بلى ... ربما أحببتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تسـعد معها دائما .

أفصح أليوشا عن هذا الرأى وهو يحمر استياءً فى قرارة نفسه ، من رضوخه لالحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهذه الأفكار . ذلك أن رأيه قد بدا له غبياً غباءً رهيبا منذ عبَّر عنه . ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه فى الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؛ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترين ايفانوفنا التى هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد خُدع عن حقيقتها فى المرة الماضية وأنه قد أخطأ فى الحكم عليها خطأ فاحشا . لقد كان وجهها فى تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة ملتهبة حارة . ولم يبق من « الكبرياء والخيلاء » اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وجسارة سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضح مضىء . وأدرك أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التى نطقت بها ، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المندفع كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شىء منذ الآن ، بكل شىء اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب فى حقها ، كأنما هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد . لقد غُلب أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التى قالتها ، أنها فى حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفا لها أو معهودا فيها ، وهو اضطراب يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

ـ انتظرتك نافدة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها ... أنت الانسان الوحيد الذى سيذكر لى الحقيقة كلها ! ...

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

ـ أنا جئت .. أنا جئت .. موفداً منه !

ـ آ ... أهو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك . الآن فهمت كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت كلامها تقول :

ـ لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أحرص على أن أشرح لك أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر . وسترى أننى ربما كنت أعلم من الأمر أكثر مما تفترض اننى أعلم ، وأكثر كثيرا مما أنت تعلم . فلن أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شيء آخر : اننى أريد أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه فى الآونة الأخيرة . اننى أحرص على أن نذكر بصراحة تامة ، دون أية مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمت الخشونة (بأكبر خشونة تريدها) أن تذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقائك معه اليوم . فلعل ذلك خير من أن أمضى أفاتحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن يرانى . هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد اليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الىّ (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك) . تكلم بلا تردد . قل كل شيء ، ولا تخش أن تسىء الى !..

ـ لقد كلفنى بأن ... أنقل اليك احترامه ... وأن أقول لك انه لن يجيء بعد اليوم ... وأن احترامه ...

ـ احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

ـ نعم !

ـ لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك، ودون أن يلح أيضا ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟

ـ بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه، حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها .

تخضب وجه كاترين ايفانوفنا بحمرة شديدة . وقالت :

ـ ساعدني الآن يا ألكسي فيدوروفتش ، أنا في حاجة الى مساعدتك . سأفتح لك أعماق فكري ، وستقتصر أنت على أن تقول لي هل تعد رأيي صحيحا أم لا ؟ اصغ الىّ جيدا . لو كان قد كلفك عرضا ومصادفةً بأن تبلغني « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً خاصا ، فان كل شيء يكون قد قيل ... ويكون الأمر في هذه الحالة قد انتهى ! ... أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحا خاصا ، وأنه رجاك صراحة أن تستعمل تعبير «الاحترام» هذا ، فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجا عن طوره ! لقد اتخذ قرارا ، ولكن قراره نفسه يبث الجزع في نفسه ! انه لم يتركني بخطى حازمة، وانما هو أسرع يسقط في هاوية . ان اصراره على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يُفسَّر الا بأنه تبجح وتحد ...

فقال أليوشا مؤيداً :

ـ هو كذلك ، هو كذلك تماما . وهذا هو شعوري الآن أيضا .

ـ فاذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعل يدفع اليه اليأس . ولكنني أستطيع أن أنقذه رغم كل شيء . لحظة ! ألم يكلمك في موضوع مال ، في موضوع ثلاثة الاف روبل ؟

ـ طبعا ... حدثني في هذا الموضوع ... بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أي شيء آخر رغم أن شرفه قد تلطخ ، وقال ان جميع الأمور تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشيء •

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه في تلك اللحظة أحسّ بالأمل يملأ قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ، وربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه • ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة :

ــ أأنت اذن على علمٍ ••• بما حدث لذلك المبلغ ؟

ــ أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل • انني أعرف كل شيء • لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت أن عرفت الحقيقة • انه لم يرسل المبلغ ، ولكنني لم أحدثه في الأمر • حتى لقد علمت في هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال • ولم يكن لي في هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن يتجه اليه ويعتمد عليه في مثل هـــذا الحالة ، هو أن يعرف أنني خير صديق له في هذه اللحظة ! ولكن لا ••• انه لا يؤمن بصداقتي • لم أخطر بباله في هذا الظرف • هو لا يرى فيّ الا المرأة • ان هناك سؤلا يعذبني منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب عليّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهي بالخزي والعار من أنه أتلف تلك الثـــلاثة آلاف روبل ؟ افهمني حق فهمي : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهي ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بأموره، والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخجل مني ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله في سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلني هذا الجهل كله ؟ كيف يجرؤ أن يجهلني بعد كل ما جرى بيننا ؟ انني أريد أن أنقذه الى الأبد• فلينس أنني خطيبته، لينس أن لي هذه الصفة، ولكن ماينبغي له أن يخشى

أن يفتح قلبه لى ، وأن يثق بى ، وأن يطمئن الىّ فى مسألة كمسألة الأمانة هذه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيـــدوروفتش ؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نطقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها فجأة ، وانبجست الدموع من عينيها •

قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

ـ علىّ أن أروى لك ما وقع فى منزل أبى منذ قليل •

وقصّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلّفه بأن يطلب له مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغـــرفة على حين فجأة • وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ، بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيء اليها ليبلغها « احترامه » •

وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

ـ ثم ذهب الى تلك المرأة •

ـ أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المـــرأة فى حياته ؟ أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟

ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضـحك ضحكا عصبيا :

ـ ولكنه لن يتزوجها • هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً • ثم انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه •

كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك تلك الضحكة الغريبة نفسها •

فقال أليوشا فى حزن وهو يغض بصره :

ـ من الجائز جدا أن يتزوجها •

ـ قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هتفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماسة قوية • وتابعت تقول :

ـ هى أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء فى حياته ! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة واغراء ، ولكننى أعرف أيضا طيبتها وشهامتها ونبلها • لماذا تنظر الىّ هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لعل كلماتى تدهشك ؟ أغلب ظنى أنك لا تصدقنى ، أليس كذلك ؟ يا آجرافين الكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادت كاترين ايفانوفنا وهى تنظر الى الغرفة المجاورة) ، تعالى الينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوى لطيف أو متلطف :

ـ انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التى تنادينني فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من المائدة ضاحكةً وقد بدت فى وجهها سعادة • أحسّ أليوشا فى اللحظة الأولى أنه يوشك أن ينهار • حدق الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هى اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه هى اذن ذلك « الوحش المفترس الكاسر » على حد التعبير الذى أفلت من أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسناوات اللواتي لا يُحسبن « خارقات » . والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا ... لها ذلك الجمال الروسي الذي قد يوقظ في بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً . هي طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة والرقة والرخاوة التي تظهر في تنتيات صوتها . اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا . انها تمشي بلا جلبة ولا ضوضاء . وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفاخر شيء من عذوبة ورقة في السمع أيضا . وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين، شال ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً فيه كثير من رهافة الذوق . انها في الثانية والعشرين من عمرها . وان قسمات وجهها تدل على أنها في هذه السن تماما . لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردا خفيفا عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا . ولكن شعرها الكستناوي الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخمليين ، وعينيها الزرقاوين الشهباوين الفاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب اليه أقل الرجال اكتراثا، وأشدهم ذهولا ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو في وسط جمهور مضطرب متدافع أو في زحمة الشوارع الكبرى المكتظة بالمارة ، أن يتوقف لحظةً أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً . وقد أخذ أليوشا خاصةً بما في هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة . ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول . ولقد تقدمت من المائدة في الواقع « متهللة » الأسارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكا ، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل • وكان فى نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحس به أليوشا واضحا قويا • وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جليا فى تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيرا لاشعوريا، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة فيحركات جسمها وفى ليونتها ورشاقتها الصامتة • ومع ذلك كانت قوية الجسم نامية الأعضاء • ان كتفيها العريضين يرتسمان تحت شالها ؟ ومن ينظر اليها يدرك أن لها صدراً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة • ان جسدها يعد بأن يكتسب مع تقدمها فى النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نسبه مفرطة قليلا منذ الآن • على أنها لو رآها خبير فى جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية فى جسدها ستضمحل فى نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها سترهل عندئذ ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها فى وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها، بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذى يلاحظ كثيرا لدى النساء الروسيات • ان أليوشا لم يسترسل فى أفكار من هذا النوع طبعا، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساسا غامضا بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجر هذه المرأة كلامها جراً، ولا تطلق صوتها فى الحديث على سجيته طبيعياً بغير تكلف ؟ ان المرء ليشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية فى هذه الطريقة فى تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر • والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامية التى تكونت فى ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية • وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر فى وجهها من تعبير عن الفرح البرىء والابتهاج الساذج وما يشع فى نظرتها

الوديعة وداعةَ نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة . وقد قامت كاترين ايفانوفنا بتقبيل جروشنكا على شفتيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى لكأنها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

ـ اننا نلتقى اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش . كنت أتمنى أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت فى أن أزورها ، ولكنها جاءتنى من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتى . وكنت على ثقة سلفاً بأننى سأستطيع التفاهم معها على كل شىء ، تفاهماً تاماً . قلبى أدرك ذلك وحدثنى به.. وقد حاولوا أن يصدونى عن القيام بهذا المسعى وأن يثنونى عن انفاذ هذه النية ، ولكننى كنت أتنبأ بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطىء ظنى ولا خاب فألى . لقد شرحت لى جروشنكا كل شىء ، وأطلعتنى على جميع ما عقدت النية عليه . جاءتنى الى هنا تحمل الىّ السلام والفرح ، كملاك طيب ...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطىء ، وهى تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها :

ـ الفضل لك يا آنستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتى ولم تحتقريها .

ـ كيف تستطيعين أن تقولى مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة ! أأحتقر صحبتك أنت ؟ دعينى أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى . لكأنها متورمة قليلا ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة ... هاتِ قبلةً أخرى ... وقبلة أخرى أيضا ... انظر اليها كيف تضحك يا ألكسى فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً ....

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفا لا يُرى .



جروشنكا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ أنت تدللينني يا آنستي اللطيفة ، مع أنني قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك •

ـ أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعي أنها لا تستحقها •

كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ، ثم أردفت :

ـ اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيـال ، متسلطة القلب ، ولكنهـا ذات كبرياء وكرامة . هي نبيـلة الروح يا ألكسى فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ • لقد تعجلت فأرادت أن تضحي بكل شيء في سبيل رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقـل • كان ضابطا هو أيضا • أحبته ووهبت له كل شيء • حدث ذلك منذ زمن طـويل ، منذ خمس سنين • ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج • وقد توفيت امرأته فهـو الآن أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها • اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذي أحبته فعلا وما تزال تحبه • وسيجيء وستعود الى جروشنكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب منذ خمس سنين • من ذا الذي يجرؤ أن يلومها ، من ذا الذي يستطيع أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء ؟ هو ذلك العجوز وحده ـ التاجر ـ ولكنه كان لها أبا ، كان لها صديقا ، كان لها حارسا • وجدها فريسة اليأس ، قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذي محضته ذلك الحب كله ••• وقد فكرت في أن ترمي بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأنقذها ذلك العجوز ، أنقذها •

عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطيء :

ـ أنت تدافعين عني بحرارة فيها غلو يا آنستي العزيزة ، ولعلك في هذا تسرفين في التعجل •

ـ أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك فى حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشنكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر اليها ! لقد حملت الىّ السعادة ، لقد ردتنى الى الحياة . سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا .. هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! ...

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً ... قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرفة فى السمنة . وكانت جروشنكا قد مدت اليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الآنسة اللطيفة » ، مغتبطة اغتباطا واضحا بتقبيلها على هذا النحو . قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلهـا تسرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه . ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت .

قالت جروشنكا :

ـ لا تخجلنى يا آنستى اللطيفة بتقبيل يدى هذا التقبيل أمام ألكسى فيدوروفتش .

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

ـ أأنا خطر ببالى أن أخجلك ؟ آه ... يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

ـ وأنت أيضا تسيئين فهمى فيما يخيّل الى يا آنستى اللطيفة . أنا قد أكون أخبث كثيرا مما تقدرين . ان لى قلبا شريرا ذا نزوات . لقد اجتذبت دمترى فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزىء به .

ـ ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً ••• ستردينه الى الصواب ••• ستقولين له انك تحبين رجلا آخر ، منذ زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن •

ـ آه •• كلا ••• أنا لم أقطع لك على نفسى هذا العهد • أنت قلت لى هذ االكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشىء •

قالت كاترين ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة خفيفة :

ـ أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت •••

ـ كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشىء البتة •

كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادىء ، وما تزال تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك • ثم أضافت تقول :

ـ فهأنت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه سلوكى معك من خبث ونزوة • أنا أفعل ما يخطر ببالى ، أنا أفعل ما يبرق فى رأسى • قد أكون وعدتك بشىء منذ قليل ، ولكننى فى هذه اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبنى من جديد ميتيا هذا ؟ » ؛ ذلك أنه قد أعجبنى مرةً فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها ! وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى منزلى نهائيا منذ الآن ••• هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال •••

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

ـ كنتِ منذ لحظات تتكلمين ••• بطريقة أخرى مختلفة كل الاختلاف •••

ـ منذ لحظات ؟ ربما ••• ولكن لى قلباً حنوناً غبياً ••• فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي •• ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟

ـ لم أكن أتوقع أن •••

ـ أوه •• آنستي العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الي ؟ لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن ، أنا الحمقاء الغبيـــة ، بسبب سوء طبعي • هاتي يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة)• لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب علي أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك علي • ولندع الأمور على ما هي عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من يدري ؟ قد أنتهي الى الخضوع لارادتك خضـــوعا أعمى ، فأفعل كل ما تأمرينني به • لندع الأمور تجري على مشيئة الله ! فلا نقطع على أنفسنا عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمـــل يدك ! أوه ما أجملها يداً فاتنةً أخاذة ! آنستي اللطيفة ، انك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال ••

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايفانوفنا الى شفتيها ، على تلك النية الغريبة حقاً ، وهي أن « ترد اليها دينها عليها » • لم تعـــارض كاترين ايفـــانوفنا • كانت قد أصـــغت الى الوعد الذي وعـــدتها به جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضـــوعا أعمى ، أقول كانت قد أصغت الى ذلك الوعد مؤمِّلة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو خاص• وهي تحدق الآن الى عينيها اللتين ماتزالان تعبِّران عن تلك البراءة نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشـعة نفسها ••• وحدثت كاترين ايفانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة في السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق في قلب كاترين ايفانوفنا • وفي أثنـــاء ذلك الوقت كانت جـــروشنكا التي تبدو نشوى أمام « اليـــد الصغيرة اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء • ولكنها بعـــد أن

وضعتها على شفتيها ، لبثت بضـــع لحظات لا تقبّلهـا ، وكأنها تفكر في شيء ما ، ثم قالت فجأة وهي تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التثنيات وأطرى الترجحات العذبة :

ـ هل تعلمـــين يا ملاكي ؟ لقـد قررت فجأة أن لا أقبّــل يدك الصغيرة .

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة .

قالت لها كاترين ايفانوفنا وهي ترتعش :

ـ كما تشائين ... ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء . عيشي بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدي ورفضي تقبيل يدك !

ـ وقحة !

بهذا قذفتها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً في هذه اللحظـة فقط .

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع .

ـ بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدي أما أنا فرفضت أن أفعل.

ـ شقية ! اخرجي من هنا !

ـ يا آنسة ؟ ألا تستحين أن تتكلمي على هـذا النحو ؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي العزيزة ؟

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ اخرجي من هنا أيتها المخلوقة التي تبيع نفسها بالمال .

ـ ها ها ! تبيع نفسها بالمال ؟ أنسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء، كنت تذهبين في الظلام الى منازل شباب لتحصلي على مال ؟ أما ذهبت تبيعين جمالك ؟ ثقي انني على علم بهذا الأمر ! •••

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخةً قوية ، وانقضت عليها ، ولكن ألكسي فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتي من قوة قائلا لها :

ـ اياك أن تقولي كلمة واحدة ! لا تجيبيها بشيء ، لاتنطقي بحرف، سوف تنصرف ، سوف تمضي فورا •

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما الخادم ، وأحطن بها جميعا •

قالت جروشنكا وهي ترفع شالها عن الديوان :

ـ أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! أليوشا ، حبيبي ، رافقني !

فقال لها أليوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ اذهبي ، اذهبي ، ناشدتك الله •••

ـ صغيري العزيز أليوشكا ، رافقني ! سأقول لك أثناء الطريق شيئا يسرك ، يسرك كثيرا ••• من أجلك أنت يا ملاكي انما مثلت هـــذه المهزلة • رافقني ، يا طائري الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت •••

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه • وخرجت جروشنكا راكضة وهي تضحك ملء حلقها •

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشنكا بنوبة عصـــبية عنيفة ، فأخذت تبكي منتحبة ، وأخذت تخنقها تشنجات قوية• ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون •

قالت لها كبرى قريبتيها :

ـ لقد حذرتك •• أردت أن أمنعك من الاحترام على هذه الخطوة ••• أنت مسرفة فى الاندفاع ••• كيف أمكنك أن تقررى القيام بهـذا المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ، وهذه أخبثهن طرأً ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد النــاس ! ••• انت مسرفة فى التشبث برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك••

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ انها نمرة ! لماذا صددتنى عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت أن أضربها ، أن أضربها •••

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشـا ، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها •

ـ انها لا تستحق الا الجلد بالسياط • يجب أن يجلدها جلاد على رءوس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب •

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

ـ آه ••• يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصَّ على هذه المخلوقة ما جرى فى ذلك اليوم المشئوم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد • « أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستى العزيزة ! » • هى تعلم اذن • ان أخاك وغد دنىء يا ألكسى فيدوروفتش !

ودَّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه • كان قلبه ينهصر ألماً •

ـ اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أشعر بالعار ، أشعر بالعار شعورا رهيبا ! عُدْ غدا ... أضرع اليك جاثيـة أن تجيئنى غـدا . لا تؤاخذنى ، لا تحقد علىَّ ، سامحنى ، اغفر لى . أصبحت لا أعـرف ماذا أصنع بنفسى !

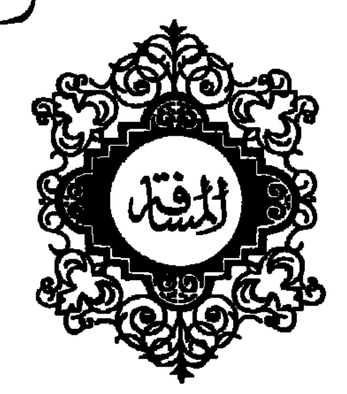
خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالمترنح ترنحاً . كان يود لو يبكى مثلها . وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له :

ـ نسيت الآنسة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا . لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها .

تناول أليوشا الظرف الوردى الصغير ، ودسَّه فى جيبه دون أن يوليه انتباها .

١١

أخرى تعرض نفسها للضياع



بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ واحد . كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالى فى تلك الساعة . لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين مترا . وفى منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب . فها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة مزهرة عند ذلك التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما عليه قائلا له بصوت صارخ مروِّع :

ـ مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

ـ كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال مترى فيدوروفتش وهو يضحك :

ـ هأهأهأ ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلتُ أين عساى أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؟ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك . فقررت أخيرا أن أرابط هنا قائلاً لنفسي انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، اذ ليس هناك طريق آخر يؤدي الى الدير . طيب ... قل لي الحقيقة الآن ، إسحقني كما تُسحق حشرة خبيثة . . ولكن ماذا بك ؟

ـ لا شيء يا أخي .. هو الخوف وحده . آه يا دمتري ، يادمتري! دم أبينا الذي سُفح منذ قليل .. (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي . كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة) ... لقد أوشكتَ أن تقتله .. وقد لعنته .. ثم هأنت ذا الآن تمزح .. وتتفكه .. قائلا : مالك أو حياتك ! .

ـ آ .. هذا هو الأمر اذن ؟ لعل فعلتي لم تكن لائقة ؟ يخيَّل الى أن موقفي لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

ـ لا .. ليس هذا ما أردت أن أقوله .

ـ لحظةً يا أخي . انظر من حولك . الظلام دامس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء ، والريح قد هبَّت ، وهي ريح متأوهة حزينة . لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك ... فاذا أنا أقول لنفسي فجأة (هيه .. نعم ..) : « فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة .. ومعك منديل وعليك قميص .. فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً ببلّ القميص قليلاً ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنِّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! » ، وفي تلك اللحظة بعينها ، في تلك اللحظة التي خطرت لي فيها هـذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت في رأسي عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسي : « هناك اذن انسان أحبه أنا أيضا . وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذى أحبه ، هـــذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبده أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقا ! ».. وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أننى وددت لو أرتمى عليك معانقا . غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ . قلت لنفسى : « سأخيفه قليلا لأسلّيه وأضحكه » . لذلك صرخت أقول كغبى : « مالك أو حياتك ! » فاغفر لى هذه المزاحة الحمقاء البلهاء، لقد فعلتها دون تفكير ... أما عن حالتى النفسية فهى على ما يرام ... تستطيع أن تصدقنى ! بئست هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأحرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيّا اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبت ؟ هل طاش صوابها ؟

ـ لا .. ليس هذا هو الأمر .. كان هناك شىء آخر يا ميتيا ... كان هناك .. لقد وجدتهما كلتيهما هناك ...

ـ كلتيهما ؟ من هما ؟

ـ كانت جروشنكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولا . ثم صرخ يقول :

ـ مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنكا عندها ؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيلاً . دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحا وضوحاً تاما ، ومتسقا اتساقا كاملاً . لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائعَ الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادر الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التى وصفها وصفا حياً ، مركّزا فى بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جمودا مرعبا . وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التى قالها ، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكا صحيحا . كان تعبير وجهه، كلما أوغل أليوشا فى سرد القصة ، يزداد تجهماً وعبوساً ، حتى ليفصح عن معانى التهديد .. فحاجباه يقطبان ، وأسنانه تكز ، وجمود نظرته يتفاقم مزيدا من التفاقم ، ويصبح مخيفا مروّعا .. ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذى كان حتى ذلك الحين متوحشا مفترسا مهدّدا ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيبا محيّراً . فقد انفرجت شفتاه بغتةً ، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة عريضة لا تغالَب ولا تقاوَم، حتى أصبح جسمه يتلوى تلوياً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لايستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة. ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التى كان يمكن أن تكون وقحة خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها :

ـ اذن لم تقبّل يدها .. هأهأ .. رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة .. هأهأ .. والأخرى زأرت تقول عنها انها نمرة ؟ حقاً انها لنمرة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رءوس الأشهاد ؟ طبعاً .. أنا أيضا أرى هذا الرأى .. انها تستحق ذلك .. تستحقه منذ زمن طويل .. هأ هأ .. أنا لا أعارض أيها الأخ أن تُنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفى أولاً . انني أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبّر عن حقيقتها ، انه هى بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التى يمكن أن تخرج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارَع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن لقد هربت وعادت الى منزلها .. هأهأ .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب أن أراها ! لا تُدنِّى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

ـ وكاترين ايفانوفنا ؟

ـ اننى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى جروشنكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم تتهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير ، لم تتهيب لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى، معرَّضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء التى تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبثاً بالرأى وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جنرالة موسكو من أبهة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من منصبه ، وفقد كل شىء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحها ، وغيَّرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أتغلب على كل عقبة ، لا شىء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشنكا » . ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به منذ نبتت الفكرة في ذهنها ! فمن المذنب في هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة في تقبيل يد جروشنكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير ! أبدا ... لقد كانت صادقة كل الصدق في تولهها بحبها ، لا بحب جروشنكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هي بها ، بحب الوهم الذي قام في ذهنها هي عنها ... قل لي يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن الذي ترتديه ، هه ؟ هأهأهأ ...

ـ أخي ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة الضخمة التي ألحقتها بكاترين ايفانوفنا حين حكيت لجروشنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشئوم ! لقد صرخت هذه المرأة في وجهها قائلةً في غلظة وفظاظة : « ذهبت سراً تبيعين جمالك لشباب ! » . ليس هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المسبة يا أخي !

لقد كان يعذّب أليوشا تعذيبا خاصا تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترين ايفانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئا في أغلب الظن !

ـ آه ...

كذلك تأوه دمتري فيدوروفتش في تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهرارا غريبا ، ولطم جبهته بيده .

لقد أدرك دمتري فيدوروفتش ، في تلك اللحظة فقط ، هذا الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل اليه أثناء سرده لوقائع المشهد الذي حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التي

وجهتها جروشنكا الى كاترين ايفانوفنا ، والصرخة التى أطلقتها كاترين ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقير ••• » •

قال دمترى :

ـ من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك « اليوم المشئوم » ، على حد تعبير كاتيا ••• صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ••• تذكرت الآن •• وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت ثملاً ••• وكانت الغجريات تغنى ••• ولكننى زويت القصة ضارعاً أمام صورة كاتيا ، وفهمتنى جروشنكا حق الفهم •• فهمتْ كل شيء ••• أتذكر الآن هذا ••• وأخذت تبكى هى نفسها •• شيطان يأخذ النساء ! كان ينبغى لى أن أتنبأ بهذا ••• لقد بكت فى ذلك الحين ، ثم ها هى ذى الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ••• هكذا هنَّ النساء ! •••

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر • وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

ـ أنا وغد حقير •• هذا صحيح ... سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينفى بكائى أننى وغد حقير ! ••• قل لهنَّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك تعزية لهن • وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثرثرة ؟ وليس هذا بالأمر السخيف •• ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى طريقى •• لك سبيلك ولى سبيلى •• ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن، اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شيء ما ، مضى يسير غاضاً بصره ، دون أن يرفع رأسه • واتجه نحو المدينة بخطى سريعة • أتبعه اليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائيا •

ـ لحظة يا ألكسي ! هناك اعتراف أخير ...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة . وتابع يقول :

ـ هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخي ! أنعم النظر الى ! ان رجساً كريهاً يتهيأ هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمتري كلمة «هنا» وهو يلطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذي يشير اليه انما يوجد مدفونا في هذا المكان بعينه ، مختبئاً في جيب السترة أو في كيس معلق بالعنق) . انك تعرفني الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضي ومما قد أن أفعله في الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل في حقارته الدنيئة الوغدة ما أحمله في نفسي ، في هذه اللحظة ، هنا ، في هذا الموضع ، على صدري ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكنني أن أكبته .. ذلك أنني حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا ... ولكن ألا فلتعلم انني سأحققه ، وانني لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شيء الا هذا الامر وحده ، لأنني استحيت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحيت أن أعترف به ! ما يزال في وقتي متسع لأن أتراجع ، واذا أنا توقفت عن الانحدار في الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف سعادتي الضائعة ، على الأقل ... ولكنني لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضي في انفاذ خطتي السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قراري الذي اتخذته وأنا في كمال حريتي وتمام وعيي ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شيء قريبا . زقاق عفن وامرأة جهنمية! وداعا . لا تصلِّ من أجلي ، لا تدعُ لي ... فأنا لا أستحق ذلك .. ثم

ان صلاتك من أجلي ودعاءك لي أمران نافلان لا حاجة بي اليهما ، أؤكد لك هذا . والآن ، انصرف ! ...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك ، ومضى في هذه المرة نهائيا .
واستأنف أليوشا سيره في الطريق الى الدير . « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة . « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا . كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟ » .

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى الصومعة راسا . فُتح له الباب ، رغم أن القاعدة هي أن لا يسمح لأحد بالدخول في هذه الساعة المتأخرة . وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة . سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلني الى العالم ؟ هنا مكانُ صمتٍ وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيِّم الظلمات، هناك يتيه الانسان ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر .. » .

وجد في الحجرة الراهب المبتدىء بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجيء ساعةً بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما . كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مروَّعاً مذعوراً . حتى لقد ارتُئى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيما أن يجريه في المساء بغير انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير . لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بعد القداس ، وقبل راحة الليل ، في حجرة الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالخواطر الآثمة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالاغراءات المباغتة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شيء من

ذلك . وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم . وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصـــدر اوامره فيهم ، ويعـــرض عليهم كفارات ، ثم يبارحهم جميعـا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه . وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؟ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر . حتى لقـــد حاول بعضـــهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقـق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والغـواية أيضا . وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم . بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحياناً قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتثبته » ، حتى يكون هنالك ما نقـوله فنتخلص من هذه المهمة وننتهى من هذه السخرة . وكان أليوشا يعـرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان . وكان لا يجهل أيضا أن هنـــاك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا ويمتعضون امتعاضا قوياً من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انمـــا يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها . الحق أن الأصـل فى هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفســـهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهـــداف السـلامة ، وغايات الخلاص . ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلّمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل. على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كان لا يسوؤهم هـــذا الأمر كثيراً ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والســلامة بنية صادقة فلا بد أن يجني فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقاً ، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذى خلقوا له انما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتـــوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا فى العالم ولا فى الدير على الســـواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأنهذا الاعتراف اليومى يمكن أن يحضّ على الخطيئة».

أسرّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرّ اليه قائلاً بصوت خافت :

ـ انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب ايقاظه ؛ والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقـــد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلّوا فى الليل من أجله . وفى نيته أن يتناول القـربان المقدس غدا مرة أخـــرى . وقد تذكرك يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضى الى المـــدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا » . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذى تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

في العالم زمناً • أتراه تنبأ بشيء عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسي أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تتصرف فيه بروح الخضوع للقاعدة التى ألزمك بها شيخك ، متحاشيا الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة •••

وخرج الأب بائيسى • فأما أن الشيخ بسبيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوما آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلابة وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير في الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلاكوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وانما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هــذا العالم • ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجيا بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جدا يجرى مطردا منتظما ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكنا هادئا •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى ـ وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحا ـ اضطجع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبث يصلى زمناً طويلا • لم يدعُ الله فى صلاته الحارة أن يخلصه من قلقه وأن ينقذه من مخاوفه ، لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائما بعد تلاوة الآيات التى تمجد الله ••• فتلك هى صلاة الليل كلها ••• ان الفرح الذى يغمر قلبه فى تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحا •

وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه فى الشارع • فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السخر كله فى الصباح بحضور الشيخ • وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفيةً ، على غير علم أمى ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك • ولكن أصبح يستحيل علىّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج فى قلبى ، ودون أن أطلعك على العاطفة التى وُلدت فيه والتى يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين• ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلا وحياء ••• ولكننى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمرُ الآن أمامى مثلما أحمرُ أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك ، أحبك منذ طفولتى ، منذ سنى موسكو التى كنت فيها مختلفا عنك الآن اختلافا كبيرا • لقد أحببتك منذ ذلك الحين مدى العمر • اختارك قلبى لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشيخوخة ••• شريطة أن تترك الدير طبعا ••• أما عن السن ، فان

في وسعنا أن ننتظر المدة التي يقتضيها القـانون . والى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضي شفاء كاملا ، فأستطيع أن أمشي وأن أرقص كما كنت أمشي وأرقص ... ذلك أمر لا ريب فيه .

« هأنت ذا ترى أنني فكرت في كل شيء . ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيهـا شتات فكري : ما عسى أن يكون حكمك عليّ ورأيك فيّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية « شيطانة » ، أكثر من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك في هذا الصباح . ولكنني أحلف لك أنني صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة اليك ؛ وانني لأصلّي حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكي !

« هذا سرّي وضعته بين يديك . واني لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر اليك غدا حين تجيء ؟ أوه ! ألكسي فيـدوروفتش ! ما عسى يحدث اذا أنا لم أملك أن أسـيطر على نفسي فاذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لي هذا من قبل ! لسوف تظنني عندئذ فتـاة خبيثة ساخرة ، ولن تصـدق عندئذ ما عبّرت لك عنه في رسالتي . لذلك أضرع اليك ، يا صديقي العزيز ، اذا كنت ترحمني بعض الرحمة وتشفق عليّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينيّ كثيرا حين تجيء الينا غداً ؛ ذلك أنني قد يتملكني ضحك لا سبيل الى مغالبته متى التقى نظري بنظرك ، ولا سيما بسبب هـذا الثوب الطويل الذي ترتديه ! ... حتى في هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسري في جسـمي حين أتصور أن من الممكن أن يحـدث شيء من ذلك . أستحلفك أن لا تنظر اليّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجيء الينا غدا ، وانمـا تلتفت بنظرك نحو أمي أو نحو النافذة .

« هأنذا كتبت اليك رسالة حب . رباه ، ما هذا الذي فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحتقرني ! اذا كان ما أفعله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لي ! واعلم على كل حال أن سري الذي قد يضيّع سمعتي ـ ربما الى الأبد ـ هو الآن بين يديك .

« سأبكي في هذا اليوم حتماً . والى اللقاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» في الغد .

« ليزا »

حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتي قطعاً ، قطعاً ، قطعاً !

« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكّر قليلا، فاذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون اثماً . ولكنه عاد يضحك ضحكا هادئا بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها . وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورقد ... زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر . « اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم في هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم في نفوسهم . اللهم احرسهم وسدّد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة . » .

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً .

الجزء الثاني

الباب السابع: المتزقات

١

الأب تيرابونت

استيقظ أليوشا في ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح • وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم ، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرَّ مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد • انه كامل الوعى ، وان وجهه يبدو مضيئا حتى لكأنه فرح ، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه • وان نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة •

قال الشيخ لأليوشا :

ـ قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم •

ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس • وكان الأب بائيسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه • فبعد أن أتم الشيخ التناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » • فاجتمع الرهبان الكهنة فى حجرته التى أخذت تمتلىء بالنساك شيئاً بعد شىء • وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون هم أيضا • وبعد القداس أظهر الشيخ نيته فى توديع الجميع ، فأخذ يقبل كل واحد • واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول يجلون المكان للواصلين بعدهم • ولبث أليوشا الى جانب الشيخ زوسيما

الذى كان قد جلس على مقعده . فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم النبرة .

ـ انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين . انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عال ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أنني أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل عليّ من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفى (كذلك قال مازحاً ، وهو يُجيل على الرهبان والزوار الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنونا) .

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التى عبر عنها الشيخ فى ذلك اليوم . ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاما واضحا متميزا ، ورغم أن صوته ظل صلبا صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير . لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعمق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلا كاملا . وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعا اليه بظمأ حار الى اشراك الجميع فى الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخيرة ...

كان الشيخ يعلّم قائلا :

ـ أحبوا بعضكم بعضا . أحبوا جميع أبناء الرب . لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه . بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه في الدير ، بأنه كان شراً من الانسان العادي وأسوأ من جميع أولئك الذين بقوا في الجهة الأخرى من الحاجز ... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها تشربا ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته في الدير . فلولا أن الامر كان كذلك ، لما كان ثمة أي سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ، بل أنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل الشر الذي يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فبهذا الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير . اعلمو أيها الاخوة الأعزة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هذا العالم لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية ، بل هي مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع أخطاء أفراده . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذي يتوج الحياة الرهبانية ، كما يتوّج من جهة أخرى حياة كل انسان أياً كان . ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا الى ما ينبغي لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذا تحقق هذا الهدف انفتحت قلوبنا أخيرا للحب اللانهائي ، الشامل ، الذي لا يعرف الحدود ولا يرتوي ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض ... ألا فلتصغوا جميعا الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعا بأخطائكم لأنفسكم في غير مهادنة . لا تخشوا خطاياكم وان تكن واضحة لأبصاركم ، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن تتوبوا عنها ! ولكن اياكم و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطا ! واياكم والعجب والزهو والصلف ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ! لا تتعالوا على

الصغار ، ولا تتعالوا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم • ولا تكرهوا الملحدين، الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى اسوا هؤلاء واخبثهم ، ناهيكم عن اخيارهم ، لان بينهم أخيارا ، فى عصرنا هذا خاصه • اذكروهم فى صلواتكم على النحو التالى : « انقذ جميع الناس يا رب ! انقذ جميع الذين لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! » • ولكن عليكم ان تبادروا فتضيفوا الى ذلك فـــورا : « اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فاننى شر الناس طرا واشقاهم قاطبة » • احبوا أبناء الرب، احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع • فاذا استسلمتم للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى) ، فان رجالا من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم • بشروا بالاناجيل فى صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال ••• اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب او الفضة ••• ازهدوا فى امتـــلاك الذهب والفضة ••• آمنـــوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية •••

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهـــر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك أليوشا • كان يتوقف عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهاثاً واضحا ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة • وكان الحشد يصغى اليه فى حميا وخشوع، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضةً لبعضهم الآخر ••• وقـــد تذكر المستمعون هذه المعانى التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد •

وقد تغيب أليوشا عن الحجرة لحظات ، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا فى الحجرة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان فى

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا . قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة . وكان وجه الكاهن الراهب بائيسى يعبر عن خطورة خاصة .

لقد غاب اليوشا عن الحجرة لحظة لان راكيتين الذى عاد من المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوفا رساله غريبه بعض الغرابه ، قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفية . ان هذه الرساله تبلغ اليوشا حادثا غريبا جاء وقوعه الان فى أنسب وقت . يتذكر القارىء أن بين نساء الشعب المؤمنات اللواتى جئن امس الى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امراة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهى أرملة صف ضابط . ان هذه المراة قد سالت الشيخ هل فى وسعها ان تطلب اقامة صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذى سافر بمهمة الى منطقة نائية من سيبريا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أنباؤه منذ سنة، سألت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد مات ؟ ويتذكر القارىء أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهياً قاسياً ، ووصف اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر . ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلا لها « كأنه قد وُهبت له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل » (هذه هى العبارة التى استعملتها السيدة هوخلاكوفا فى رسالتها) ، قائلا لها ان ابنها فاسيا مايزال على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته . « فما الذى حدث ؟ » (هذا ما جاء فى رسالة السيدة هوخلاكوفا) « حدث أن النبوءة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! » . فان المرأة العجوز ما ان رجعت أمس الى مسكنها حتى أُعطيت رسالة وصلت من سيبريا أثناء غيبتها ، وفى هذه الرسالة التى كتبها اليها فاسيا فى طريق عودته ، من ايكاتيرنبورج* ، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ، وأنه « يأمل أن يستطيع تقبيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع فى أكثر تقدير .

ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة » ، وتقول له هاتفة فى ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما ... » . وكان واضحا أنها قد كتبت هذه الاسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتج الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاه فى هذه المناسبة نفسها أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه حالا ليكلمه فى أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه فى غير ابطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، آملاً فى كثير من المذلة والتواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة» . ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يُظهر عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل الصارم الريّاب يقرأ الرسالة مقطبا حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطع ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يبتسم

ابتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تُفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة •

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، رددوا يقولون :

ـ سنرى معجزات أخرى كثيرة •

ولكن الأب بائيسي قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

ـ يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا، لأن العلمانيين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا في هذه الأمور •

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره :

ـ ثم ان الحوادث ، في هذه الحالة التي أمامنا ، قد يمكن أن تُفسَّر كذلك تفسيرا لا شأن له بما هو فوق الطبيعة •••

قال الأب بائيسي ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسته شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا •

وسرعان ما انتقل نبأ « المعجزة » من فمٍ الى فم ، فما هي الا برهه قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس • وكان أشد الناس انبهارا في الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصير الذي وصل أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبريا • كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوفا ، فبعد أن حيَّا الشيخ سأله ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هي القوة التي تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » .

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن . ذلك انه في مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، في الحجرة الخاصة التي يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذي جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع. والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذي كان يعد ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعة طائشة ضارة . وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التي كان يحب أن يلزم بها نفسه . وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناساً كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل . ولكن بساطة العقل هذه هي بعينها عنصر الجاذبية فيه . كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط . ورغم أنه عاش في المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا في أمر مراعاة القواعد المتبعة في الدير لأن تصرفه في هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل . انه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، في حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالاً متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضي فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام : ذلك هو الأب جوناس الذي عمَّر مائة سنة،

وعُرف بأعمال قداسة ما يزال الناس فى الدير وفى المنطقـــة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شائقة • وقد اســـتطاع الأب تيرابونت أن يظفر أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المنزوية التى تكاد تكون خربة بسيطة والتى فيها شبه غامض بمعبد، لكثرة عدد أيقونات النذور التى تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التى تشتعل فيها أمام الصور المقدسة بغير انقطاع • وقد كُلِّف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشعالها • وكان طعامه ، كما يقـال (وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز فى أكثر تقــدير يحمله اليه كل ثلاثة أيام ، الراهب الذى يتعهد خـلايا النحل ويسكن غير بعيد عن ذلك المكان أيضا • فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هــذا الراهب الذى يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا • وهو لا يأكل طوال الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافة الى لقم القربان المقدس التى كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية • وكانت جرة الماء التى يشرب منها تُملأ له كل يوم • وكان الأب تيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبدا • وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضى أياما بكاملها فى الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لاينظر حوله يمنة ولا يسرة • فاذا اتفق له فى مناسبة من المناسبات أن يكلمهم، كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظاً غليظاً فى جميع الأحيان • صحيح أنه كان يحدث ، فى القليل النـــادر ، أن يندفع فى مناقشات أطول ، ولكنه كان فى أكثر الأحيان يكتفى باطلاق جملة عجيبة يكون وقعها فى نفس زائره وقع لغز محيِّر ، ثم يرفض أن يعقِّب عليها بأى شرح رغم جميع التوسلات • ولم يكن الأب تيرابونت فى رتبـة كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا • وقد راجت عنه فى بعض الأوســاط ، وهى الأوساط الجاهلة التى تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنـه

شائعة غريبة مفادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين .

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خـــلايا النحل ، وهو راهب صموت متجهم أيضا ، فاتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة الناسك . وقد قال له الراهب الذى يتعهـــد خلايا النحل :

ــ ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة .

اقترب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد . وكان ذلك فى ساعة متأخرة . ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أنعشـته طراوة المساء .

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليـــه أن يباركه . فقال له الأب تيرابونت :

ــ أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟ هيا انهض .

نهض الراهب الصغير .

ــ ألا فلتحل عليك البركة . اجلس بجانبى . من أين أنت ؟

دُهش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن فى السن ، ورغم الصيام القاسى الذى يفرضه على نفسه ، ما يزال صحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارع الطول منتصب القامة ، له وجـل نحيل لكنه نضر سليم . ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنيـة عظيمة . ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضى على كل حال . ثم انه على تقدمه فى العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه ولحيته ، الذى كان فى الماضى فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا . وعيناه الشهباوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمة تخطف البصر رأساً . وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا . أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذى كان يسمى فى الماضى « جوخ السجناء » مع حبل طويل يتخذه حزاما . والعنق والصدر عاريان . وتحت الثوب يُرى قميص من نسيج مبتذل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور . وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً . وقدماه بلا جوربين ، وانما هو ينتعل حذاءين عتيقين قد تشـوه شكلهما كل التشوه .

ـ أنا آتٍ من دير سان سيلفستر الصغير فى أوبدورسك .

كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين الغريبتين اللتين ما تزالان مروّعتين قليلا .

ـ أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر . لقد عشت عنده زمنا . كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

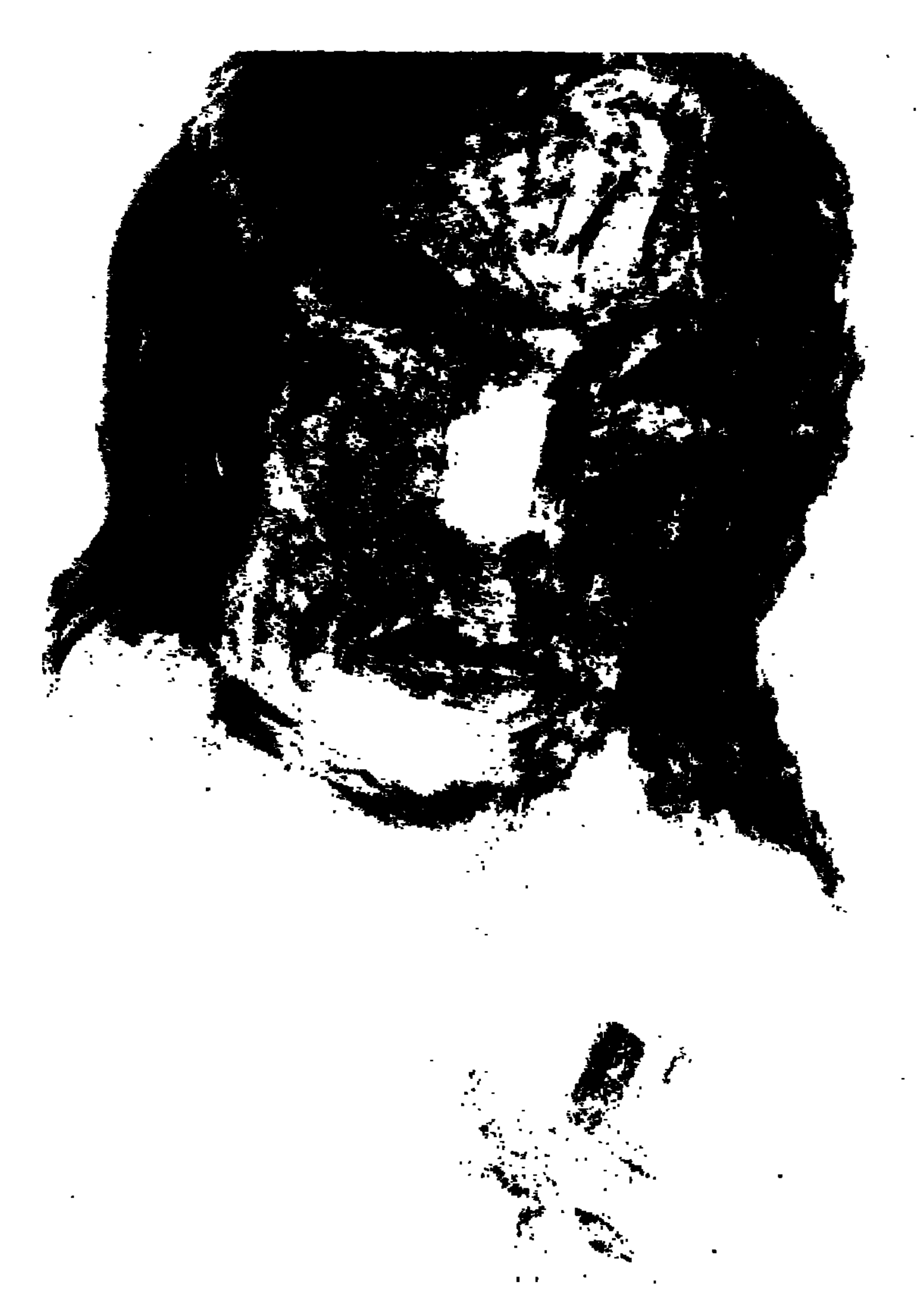
اضطرب الراهب الصغير .

ـ يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟

ـ طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففى أثناء الصيام الكبير لا نطعم شـيئا فى أيام الاثنين والأربعـاء والجمعة . وفى أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلاً ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء . وفي أيام السبت نأكل كرنباً أبيض وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت . ويضاف الى الكرنب شيء من سمك مقدد وبرغل عادي في أيام الأحد . أما في الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أي خلال ستة أيام ، الا خبزا وماء وخضارا نيئة ـ وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال . ذلك أنه اذا كان مباحا لنا أن نأكل في ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم . ففي يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملا ، وفي يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسي قدحا واحدا من النبيذ ؟ وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم الينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المآكل الناشفة . ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديسه قد أقر النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام في خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله » . ذلك هو صيامنا . وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكورا بالقياس الى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذي بدا أنه استرد شيئا من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى في يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعا كاملا . فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقا بمثل هذا التقشف العظيم .

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الأب تيرابونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

ـ فطر الغابات ؟

ـ طبعا ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتغذى فيها بالفطر والثمار . ولا كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يسـتطيعون الاستغنـاء عن الخبز ، فهم مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به . ان فى زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له . فتفكيرهم مشبع بالزهو والصلف والكبر قد تسللت اليه روح الشيطان وسكنته .

قال الراهب الصغير متنهدا :

ـ ما أصدق هذا الكلام !

ـ هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

ـ عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء .

قال الاب تيرابونت :

ـ زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكننى لم أعد اليه منذ ذلك الحين . لقد رأيت عندهم جناً ! رأيت جناً يتسلقون صدور الرهبان ، ورأيت جناً يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا قرونهم . حتى لقد رأيت واحدا من هـؤلاء الجن يقبع فى جيب من الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين. كان خائفا منى فيما يبدو . وبعض الرهبان يؤوون جناً فى بطونهم بين

أحشائهم النجسة • وبعضهم يحملونهم على رءوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

ـ وهل ••• وُهبت لك القدرة على رؤيتهم ؟

ـ قلت لك اننى أراهم • ان نظــرتى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحــدا منهم حاول أن يختبىء وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله مترا • وكان له ذيل ضخم أشقر ، طويل جدا ، قد انحشر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فبينما كان يتخبط رسمت عليــه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فاذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يشمون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • انى أسرُّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

ـ رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

ـ وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجَّل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

ـ الروح القدس يأتى فيقف هنا أحيانا • ذلك يحدث •

ـ يقف هنا ؟ في أية صورة ؟

ـ في صورة طائر •

ـ الروح القدس يظهر لك في صورة حمامة ؟

ـ يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة • فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى في صور شتى ، فتارة تظهر في صورة سنونو ، وتارة تظهر في صورة حسُّون أو في صورة قرقب أيضا •

ـ فكيف تميزها عن قرقب عادي ؟

ـ أعرفها لأنها تتكلم •

ـ كيف هذا ؟ بأي لغة ؟

ـ بلغة الانسان •

ـ ماذا تقول لك ؟

ـ يختلف ما تقوله لي باختلاف الأحوال • ففي هذا الصباح مثلاً أبلغتني أن زائراً غبيا سيزورني وسيزعجني بأسئلة حمقاء • هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف في الاستطلاع ؟

ـ أيها الاب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان هذا الذي تعلمني اياه يطيش اللب ويذهب بالصواب !

كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه • على أن شيئا يسيرا من عدم التصديق قد ظهر في عينيه اللتين عاد اليهما الروع والخوف •

سأله الاب تيرابونت بعد صمت قائلا :

ـ هل ترى هذه الشجرة ؟

ـ أراها يا أبي المحترم •

ـ لا شك أنك تظنها شجرة دردار . أما أنا فأرى فيها شيئا آخر.

وانتظر الراهب الصغير بضع لحظـات يرتقب أن يقول له الاب تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قـرر أن يسأله ، فقال :

ـ فماذا ترى فيها ؟

ـ يحدث لى هذا فى الظلام . هل ترى هذين الغصنين ؟ ان المسيح يظهر لى فى هذا الموضع حين يخيّم الليل ، فيمد الىّ ذراعيه ويبحث عني . اننى أراه رؤية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفا . ذلك شيء يبث الذعر فى النفس ، هل تعلم ؟

ـ لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

ـ قد يقبض على ويرفعنى الى السماء .

ـ حياً ؟

ـ ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المسـيح بذراعيه ويأخذنى ...

رغم أن راهب أويدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجرة التى عُيِّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى قـرارة قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ زوسيما . ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قـد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتى موهبة « رؤية المعجـزة » . صحيح أن الأقوال التى قالهـا الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذين بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعث على الدهشة. أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعة ً ضارة ضررا صريحا . وكان قد أُتيح له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هـذا النظام . واذ كان بطبيعته امرءاً طلعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيما قد هزّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجرة ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شىء ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وانما تذكره فيما بعد ... وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المبتدىء بروفير . فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء ، وحدق الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

ـ هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا .

وعاد الشيخ يسأله :

ـ أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه اليوم ؟

ـ وعدت أبى ... وأخوىّ ... وآخرين أيضا .

ـ ذلك ما قدّرته . فاذهب اليهم حتماً . ولا تحزن . اعلم اننى لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك . اليك سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ... اليك أنت يا بنى لأنك تحبنى . امض الآن الى من ينتظرونك .

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف فى هذه اللحظة . ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً . لذلك أغذّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير بأقصى سرعة . وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؟ وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى نفسه أثراً عميقا لم يكن فى الحسبان . لقد قال له الأب بائيسى :

ـ تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

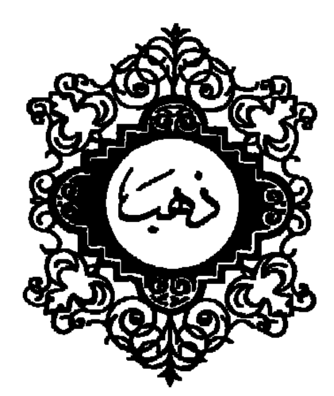
تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التى نمت نمواً كبيراً وأصبح لهـا سلطان عظيم ، قد هجمت ، فى خلال هـــذا القرن خاصة ، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية . فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حاقد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشىء ، لم يحتفظوا بشىء البتة مما كان يُعدُّ مقدساً فى القرون الماضية . لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الدينى على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهـم هذه العماوة حقا . ذلك أن «الحقيقة» انمـا هى فى «المجمـوع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقـــدر أبواب الجحيم أن تتقيـأ شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها . ألم تعش هذه الحقيقة تسعة عشر قرنا ؟ ألا تزال تعيش اليوم فى أشواق جمـاهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلب أولئك الملحدين الذين أرادوا أن يدمِّروها . ذلك أن هـــؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظـــون بصورته حيةً فى أنفسهم ، كما كانت فى الماضى ، شاءوا أم أبوا . ذلك أنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرمت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلا أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذى قدمه الينا المسيح فى الزمان القديم . ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدِّ الى غـير الحطة والغلطة . فاحفظ هذا جيدا أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك الى العالم . فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضا فى هذه الكلمات التى قلتها لك صـــادرة من أعمـــاق قلبى لتضىء لك طريقك . ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكفيك قواك وحدها للتغلب على هذه المغريات دائما • والآن امض أيها اليتيم •

وبعد أن قال الأب بائيسي هـــذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك أليوشا فجأة ، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التى لم يكن يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذى كان الى ذلك الحين صـارماً تلك الصرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها فى معاملته ، سيكون له بعد اليوم صديقا جديدا وموجّها روحيا يحمل له أعمــق المودة والعطف ـ كأن الأب زوسيما هو الذى عهد اليه بهذه المهمة وهو يحتضر • قال أليوشا يحدث نفسه : « من يدرى ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل هذه الشروح العليمة النقية التى سمعها من فم الأب بائيسى ، وهى شروح أدهشته فى أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أى حديث آخر ، على أن الأب بائيسى يضمر له عاطفة صادقة حارة ؟ لقد أسرع الأب بائيسى يزوّد عقله بالأسلحة التى تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم ، وأراد بغير ابطاء أن يحصّن نفسه الفتية المراهقة التى عُهد اليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

٢

في منزل الأب



أليوشا أولا الى منزل أبيه . فتذكر وهو يقترب من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان . فتساءل فجأة : « لماذا ؟ اذا كان أبي يريد أن يبوح لي بشيء من الأشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل دون أن يعلم أخي بذلك ؟ أحسب أن أبي قد أساء التعبير من شدة اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التي يفصح بها عن مراده . » .

هذا ما قاله لنفسه . ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدي (كان جريجوري قد مرض فلزم سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين .

ــ وباتيوشكا ؟

ــ نهض من فراشه ، وهو يحتسي الآن قهوته .

هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشيء من الجفاف والخشونة .

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، منتعلاً خفين ، مرتديا مبذلاً عتيقا . كان الأب بسبيل التدقيق في بعض الحسابات تزجيةً

للوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذى يقوم به • ولم يكن فى المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) • كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منصرف الى غير ذلك • وكان يبدو عليه التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صحا فى ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه • وقد عقد على جبينه الذى ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً أحمر • وكانت على أنفه الذى تورم كثيرا منذ البارحة ، كانت على أنفه بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهى تضفى على وجهه تعبيراً عن غضب حانق خبيث • وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة • وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

ـ القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً • وأنا نفسى ألتزم اليوم حميةً قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسمك ولا أدعو الى مائدتى أحدا • لماذا رأيت أن عليك أن تجىء ؟

قال أليوشا :

ـ أردت أن أسأل عن صحتك •

ـ أعرف • ثم اننى أمرتك أنا نفسى بالأمس أن تزورنى • تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل • على أننى تنبأت بأنك ستسارع الى المجىء •••

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفِّرة كريهة ، ونهض فى الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والقلق (لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؟ وفى هذه المناسبة

عدل المنديل الأحمر الذى يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقه. وقال بلهجة متكلفة :

ـ لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى . هيه ! ماذا وراءك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟

فأجابه أليوشا قائلاً :

ـ حاله سيئة جدا ، وقد يموت فى هذا النهار .

ولكن الأب لم يصغ الى جواب ابنه ، وكان قد نسى السؤال الذى ألقاه عليه .

قال العجوز بدون تمهيد :

ـ خرج ايفان . انه يهيىء جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيبته.

ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشّرة :

ـ وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا .

فسأله أليوشا :

ـ هل باح لك بهذا فعلاً ؟

ـ طبعا . قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟ اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع . ما أحسب أنه جاء الى هنا ليذبحنى خفية هو أيضا . فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه المدينة .

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا رهيبا :

ـ ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

ـ صحيح انه لم يطلب منى مالاً ، ولن أعطيه قرشاً واحدا على كل حال . اننى أريد ، يا ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، أن أعيش فى هذا العالم أطول عمرٍ ممكن ... ضع هذا فى ذهنك ! ... لذلك سأكون فى حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك .

ثم أضاف وهو يسير فى الغرفة طولاً وعرضا ، واضعا يديه فى جيبى مبذله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفى خفيف أصفر اللون :

ـ وكلما طعنت فى السن وتقدمت فى الشيخوخة ازدادت حاجتى الى المال . أنا الآن ما أزال رجلا ، فعمرى لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتنازل عن رجولتى. واذ أننى سأشيخ طبعا ، فسأصبح منفّراً ، فلا يأتين الىّ من تلقاء أنفسهن راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها و لاغنى عنها . لذلك ترانى الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسى وحدها يا بنى العزيز ألكسى فيدوروفتش ... ضع هذا فى بالك ... ذلك أننى أعزم عزماً قاطعا جازما ـ اعلم هذا أيضا ـ على أن أسترسل فى خلاعتى الى آخر أيام عمرى . ان الخلاعة تلطف الحياة : جميع الناس يعيبون الخلاعة ، ولكنهم جميعا يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين اننى أتعاطاها علانية . ان صراحتى وسذاجتى هما اللتان تعرضانى لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق . أما جنتك يا ألكسى فيدوروفتش فاننى لا أريدها لنفسى ... اعلم هذا ... ان الانسان اللائق ليس له فى الجنة ما يعمله ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة. وفى رأيى أنا أن المرء يموت فينتهى بموته كل شىء . ينام ثم لايستيقظ ، ولا شىء بعد الموت أبداً . صلّوا من أجلى بعد موتى اذا شئتم ، وان لم

تشاءوا فلا تصلوا ... شيطان يأخذكم ... تلك هي فلسفتي كلهـــا . لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى . ان ايفان انسان متبجح . ليس هو بالعالم قط . بل انه ليس على شيء من ثقافة حقيقية . انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس صامتا . ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا .

كان أليوشا يصغى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة .

وتابع الأب كلامه قائلاً :

ـ لماذا لا يكلمني أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمني كان يمثــل تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فسأتزوجها متى حلا لي أن أتزوجها . ما دمت أملك المال ، فيكفي أن أريد حتى أبلغ كل شيء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه يعيش هنا ويراقبني حتى لا أتزوج ، ويحض ميتيا في سبيل تحقيق هذا الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعـدني عن هـذه المرأة بهذه الوســيلة (كأنه يظن أنني ســأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج جروشكا !) . ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته اذا تسنى لميتيا أن يتزوج جروشكا . ذلك هو الحساب الذي يجريه . انه وغد ، صاحبك ايفان هذا !

قال أليوشا :

ـ ما أشد اهتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن ترقد في السرير .

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في هذه اللحظة وحدها :

ـ قد تكون على حق فيما تقول . انك الآن تنصحنى فما أغضب. ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى. معك وحدك انما أتيح لى أن أقضى لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيبا، لأننى شرير فى العادة .

قال أليوشا مبتسما :

ـ ما أنت بشرير .

ـ اسمع يا أليوشا . لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا ، ولا أدرى حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيرا. أنا لا أجهل أن « الموضة » الرائجة الآن هى أن يُعدّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادة سخيفة . ولكن القانون لا يجيز ، حتى فى عصرنا هذا ، أن يجرّ ابن أباه العجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكعب حذائه ، فى منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه فيما بعد . فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس .

ـ وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

ـ ثنانى ايفان عن عزمى . على أننى لا أحفل برأى ايفان ، وانما خطر ببالى شىء آخر ...

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً :

ـ لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتْ هى بأننى أودعته السجن ، فهرولت تسعى اليه فورا . أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلنى أنا الشيخ العجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودنى ... ذلك هو طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! انني أعرفها حق معرفتها ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدحٍ من الكونياك فيطيب مذاقها .

ـ لا ... شكرا ... لا أريد ... ولكنني فى مقابل ذلك سآخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك .

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبكات ، ودسَّه فى جيب ثوبه . ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

ـ أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا .

قال الأب :

ـ أنت على حق . ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى . لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ... كأسا واحدا ... الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة ...

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملأ كأساً ، وأفرغه فى جوفه ، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردّ المفتاح الى جيبه .

ـ يكفينى هذا . كأس واحدة لن تقتلنى .

قال أليوشا وهو يبتسم :

ـ ها قد عدت طيباً .

ـ طيب ؟ هم ... اعلم أننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك ... أما الأوغاد فاننى أعرف كيف يجب أن يُعامَلوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس علىّ :

انه يحب أن يعرف هل سأعطي جروشنكا مالا كثيرا اذا هي جاءت • انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فانني لا أعترف به ابناً لي • من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا ! أيظن أنني سأورثه شيئاً من مال ؟ ألا انني لن أكتب حتى وصية ••• اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة • انه يتفق لي أن أسحق خنفساوات في الليل ، فتطقُ طقيقاً جافاً حين تفطس ، فبهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت « صاحبك » فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تعلقك به لا يقلقني ••• على حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لانتابني خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسي • غير أن ايفان لا يحب أحدا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا بشراً مثلنا ، هم تراب أثارته الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط التراب ••• لقد خطرت ببالي فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقي ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون جروشنكا طبعا ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم أليوشا يقول :

ـ سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف ، فمن الجائز أن •••

ـ خطأ ! لا تكلمه في هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل تسمع ؟ لقد غيَّرت رأيي منذ الأمس • هي فكرة غبية خطرت ببالي • لن أعطيه شيئا ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأنني في حاجة الى هذا المال أنا نفسي (كذلك صرخ الأب العجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تقصص عليه

شيئاً ، والا فقد تراوده آمال . ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندى . فاذهب الآن ، امض الى ديرك . ولكن قل لى : هل تريد خطيبتُه ، هـل تريد كاترين ايفانوفنا تلك التى حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنى ، هل تريد أن تتزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ، أليس كذلك ؟

ـ انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

ـ هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته ! انهن يحببن شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! ثق أن هذه الآنسة الشاحبة الراقية لا تساوى شيئا . ما أكبر الفرق بينها وبين ... الخلاصة ! آه لو كان لى عمره ووجهى أيامَ شبابى (لقد كنت أجمل منه فى صباى) .. اذن لكانت لى غزوات أنا أيضا .. ألا انه لشقى ! أما جروشنكا فلن ينالها ، لن يحظى بها .. لأمرغنّه فى الوحل !..

استعر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات . ثم قال بلهجة جافة خشنة :

ـ اذهب الآن . لا عمل لك اليوم هنا .

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبـــله فى كتفه . فسـأله الأب دهشاً :

ـ لماذا هذه القبلة ؟ سوف نلتقى بعد الآن . أم تُراك تقدر أننا لن نلتقى قط !

ـ لم يخطر ببالى هذا . لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد .

ـ ولا خطر ببالى أنا أيضا . وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً وغفلة .

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى أليوشا قلقاً . وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه :

ـ لحظة . انتظر لحظة ! تعال اليّ في أقــــرب فرصة . سأذيقك ما أعده من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعــال حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

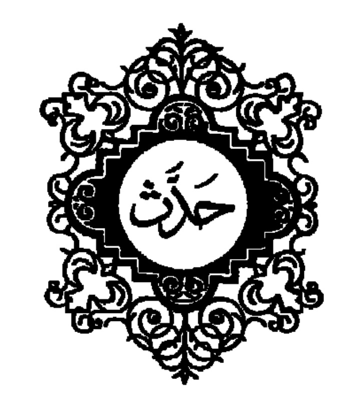
وحين أُغلق الباب وراء أليـــوشا ، اقترب العجوز من الخـزانة الصـغيرة مرة أخرى فأفرغ في جـــوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة . ثم دمدم يقول وهو يتنحنح :

ـ سأتوقف عن الشراب الآن .

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعــــد ذلك الى غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق . وسرعان ما نام .

٣

لقاء مع تلامذة



ألیوشا نفسه قائلا حین خرج من عند أبیه متجهاً نحو منزل السیدة هوخلاكوفا : « الحمد لله علی أنه لم یُلق علیَّ أسئلةً عن جـــروشنكا ، فلو فعل لاضطررت أن أحدثه عن مقابلة الأمس ».

وقد قدَّر ألیوشا ، وهو یشعر بكثیر من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعارا أثناء اللیل ، وأن الخصوم یستعدون للمواجهة والمجابهة بقوی غضة جدیدة ، وأن الصبح قد طلع علیهم وهم أقسی قلباً وأعتی نفساً . قال یحدث نفسه : « الأب حانق سیء المزاج خبیث النیة وقد نبتت فی رأسه فكرة لن یتخلی عنها ... ودمتری ؟ لا شك أن كرهه قد اشـتد رسوخا واصرارا منذ أمس ، وأن قلبه هـــو أیضا قد امتلأ حقدا ومقتا وغضبا . ولا شك أنه أخذ یبیت أمرا ... أوه ! یجب علیَّ حتما أن أستطیع رؤیته فی هذا الیوم ، یجب أن أراه الیوم مهما كلف الأمر » .

ولكن ألیوشا لم یتسع وقته للتفكیر طویلا . فقد وقعت له أثنـاء الطریق حادثة قد لا یكون لها شیء من خطورة الشأن طبعا ، ولكنهـــا أحدثت فی نفسه أثرا قویا جدا . كان قد اجتاز المیدان الی شارع میشیل الذی یوازی « الشارع الكبیر » ، ولكن تفصله عنه قناة صغیرة (ان مدینتنا تقطعها فی جمیع الاتجاهات حفر وقنوات صغیرة) ؛ وانه لیسیر فی هذا

الزقاق اذا هو يلمح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبةً من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة في أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً ليناً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدي دراعة ، وبعضهم يرتدي معطفا قصيرا ، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقيها أخاديد ، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الاطفال الذين يدللهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا في موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضاً . لذلك أحب فجأةً ، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث . فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم الملونة المنتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاةً ، حتى أن بعضهم يحمل حصاتين اثنين . ورأى في الجهة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلا آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبي يراقب عصبة التلاميذ الستة الذين يقابلونه ، وكان واضحا أنه يعدهم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسطعان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبيا أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدي دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

ـ أيامَ كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك ، كانت العادة أن نضعه في الجنب الأيسر ، حتى تناله اليـــد اليمنى بســهولة أكبر • أما أنتم فالكيس يتدلى عندكم على الجهة اليمنى ، فلا تستطيعون امساكه على وجه مريح •

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية* ، دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتودد بها الى الطفل ويكسب ثقتـه • ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفـال ، ولكسب ثقة عصبة من الأطفال خاصة ، هي أن تدخل في الحديث معهم على الوجه الذي عمد اليه أليوشا، أي أن تخاطبهم جادا في أمور محسوسة ملموسة جاعلا نفسك نداً لهم ، واقفاً على قدم المســاواة معهم • وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته •

ـ ولكنه أعسر !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جريء الهيئة قوى الجسم ظاهر الصحة يبدو في نحو الحادية عشرة من عمره •

وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدّثون الى أليوشا •

وقال تلميذ ثالث :

ـ وهو يستعمل يده اليسرى أيضا في قذف الحجارة •

وفي تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الأطفال ، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قد قُذف بمهارة واحكام وقوة • ان ذلك الصبي المرابط في الجهة الأخرى من القناة هو الذي رمى الحجر •

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

ـ هيّا يا سموروف •• سدّد اليه •• ارمه بحجر ! ••

ولكن سموروف (الصبى الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الردّ فورا ، فرمى الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض • وسرعان ما ردّ الصبى على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثان، ولكنه رمى فى هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه فى كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً • وكانت جيوب الصبى ملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائى حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف •

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

ـ انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً• ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ أصحيح أم لا ؟ هيّا بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً فى هذه المرة !

وطارت حجارة ست فى آن واحد معاً • فأصابت احداها الصبى فى رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حانقاً مسعوراً ، وأخذ يقصف عصبة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف فى الاتجاهين • وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هى أيضاً بقذائف •

صاح أليوشا يقول لهم :

ـ ما هذا الذى تفعلونه ؟ ألا تستحون ؟ أستة على واحد ؟ سوف تقتلونه •

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف فى مسار القذائف ليحمى بجسمه الصبىّ الواقف فى الجهة الأخرى من القناة • فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات •

وصرخ صبى يرتدى دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حانق :

ـ هو الذى بدأ • انه قاطع طرق •• لقد جرح كراسوتكين فى

المدرسة بطعنة موسى . وتدفق دم كراسوتكين غزيراً . ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه . ولكنه يستحق عقاباً ...

ــ ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكستموه فى البداية ، أليس كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

ــ ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر . لقد عرفك . انه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن . هيًّا بنا ! عليه يا أولاد ! لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتتالى من الجهتين ، أشدَّ هولاً فى هذه المرة . فأصيب صدر الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة ألم ، وأخذ يبكى ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية فى اتجاه شارع ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

ــ آه .. خاف .. هرب .. جبان .. خرقة مبللة ..

وعاد الصبى الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمى :

ــ أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبى يا كارامازوف. ان قتله قليل عليه .

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً .

ــ ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشٍ مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية .

وتابع الصبى نفسه كلامه فقال :

ـ أأنت ذاهب فى اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...

وردّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

ـ هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك .

ـ أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! اسأله هـذا السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين . فنظر اليهم أليوشا ونظروا اليه صامتين .

وصرخ سموروف يقول له محذراً :

ـ اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...

قال أليوشا :

ـ لن أكلمه عن ليفة الحمام ، لأننى أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة . ولكنى سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره .

فأجابه الصبية ضاحكين :

ـ فسأله اذن ، اسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الرابية ، ماراً قرب سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبى المعتزل .

قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم :

ـ انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك من خلف ، كما فعل بكراسوتكين .

كان الصبى ينتظره دون أن يتحرك من مكانه . فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً فى التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل نحيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة • انه يرتدى معطفاً عتيقا جـــداً أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمين المسرفين فى القصر • وعلى السروال تُرى رقعة عنـــد الركبة اليمنى • ومن ثقب فاغر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء • وجيبا الرداء منتفختان بما فيهما من حجارة •

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظـــرة سائلة ، فأدرك الصبى من نظرته فورا أنه لا ينوى أن يضربه • فبدا عليه شيء من التأنس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

ـ أنا واحد وهم ستة ••• ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة •

قال ذلك واشتعلت عيناه •

قال أليوشا :

ـ لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيرا •

فهتف الصبى يقول :

ـ ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه •

سأله أليوشا :

ـ هم يزعمون أنك تعـرفنى ، وأنك رميتنى بالحجـــر عامدا • فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة •

قال أليوشا ملحاً :

ـ أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفنى أنت ؟

فصرخ الصبى فجأة يقول بصوت حانق ولكن دون أن يتحـرك فكأنه ينتظر شيئا ما :

ـ دعنى وشأنى . انك تزعجنى وتضايقنى !

قال أليوشا :

ـ طيب . سأنصرف . ولكن لاحظ أننى لا أعرفك ولم أشاكسك أبدا . وقد ذكروا لى كيف يمكننى أن أغيظك ، ولكنى لا أنوى أن أفعل ذلك . استودعك الله !

ومضى أليوشا .

ـ راهب منافق ! انك ترتدى تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبى أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن .

ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصـبى صامتا ، ثم ابتعد ... ومع ذلك فانه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد فى ظهره . لقد أصابه الصبى بحصاة ضخمة جدا هى أثقل حصاة كان يحملها فى جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال للصبى :

ـ آ ... تهاجم من خلف ؟ لقد صدق الصبية اذن حين ذكروا أنك تضرب بغتةً كما يفعل جبان !

غير أن الصبى وقد استبد به غيظ شـديد قد رماه فى هذه المرة بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمى وجهه بذراعه ، اذن لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه .

هتف أليوشا يقول له :

ـ ألا تستحي ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبى جامدا فى مكانه وقد لاح فى وجهه الشر والعدوان. كان مقتنعا بأن أليوشا سيهجم عليه فى هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقى الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه ، وعض خنصره عضةً قاسية رهيبة ، غارساً أسنانه فى لحم الاصبع بكل ما أوتى من قوة مدة ثانيتين . صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبى . فلما أرخى الصبى أسنانه أخيرا ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هى المسافة السابقة نفسها. كانت العضة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت الى العظم . انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، فقضى فى هذا التضميد دقيقة كاملة . وفى أثناء ذلك ظل الصبى واقفا فى مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

ـ هل رأيت الجرح العميق الذى أحدثته فى اصبعى ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فقل لى الآن : بماذا أسأت اليك ؟ أى أذى ألحقته بك ؟

فنظر اليه الصبى مشدوها . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

ـ أنا لا أعرفك .. صدقنى .. وهذه أول مرة أراك فيها .. ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصـــور أننى لم أسىء اليك أية اساءة ، فلولا أننى أسأت اليك لما عذبتنى هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذى اقترفته فى حقك ، وما هو الشر الذى أنزلته فيك ، قل لى ! ...

ولكن الصبى ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكى بكاء قويا جدا على حين فجأة ، ثم ولـّى هارباً ... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهـــارب لا يخفف سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكى . وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية ، ليجلو هذا السرّ الذى أحدث فى نفسه أثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع لهذا .

٤

في منزل أسرة هوخلاكوف

لم يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة هوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوفا . انه من أجمل مبانى مدينتنا . ورغم أن السيدة هوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها فى مقاطعة أخرى تملك فيها أرضا ، وعاشت كذلك فى موسكو حيث تملك قصراً خاصا ، فقد احتفظت بالمنزل الذى تملكه فى مدينتنا والذى ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن نذكر مع ذلك أن أرضها فى مدينتنا هى أوسع الاراضى الثلاث التى تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا نادرا حتى الآن .

هرعت السيدة هوخلاكوفا تستقبل أليوشا فى الدهليز ، وسألته بسرعة عصبية :

ــ هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتى بشأن المعجزة الجديدة ؟

ــ تلقيتها .

ــ هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردّ الشيخ الى هذه المرأة ابنها .

قال أليوشا :

ـ سيموت الشيخ فى هذا اليوم !

ـ أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هـــذا . آه ... ما أشـد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر .. بل اليك .. اليك أنت ! خسارة أننى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ... ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟

هتف أليوشا قائلا :

ـ صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم ! لقد أصرّت أمس أن أزورها اليوم .

ـ أعرف هذا . أنا على علم بكل شىء . لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً ... عرفت كل قطاعات تلك ... المخـــلوقة ! هذه فاجعة ! ... لو كنت فى مكانها ... حقا اننى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هـــذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ... يارب ! ... أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ... لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل مافعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معها، ان حديثاً فخماً يدور بينهما ! ... ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيــع ، شىء فظيع ، أؤكد لك ... تمزق حقيقى ! قصة لا يصـــدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة . أوه ! لقد انتظرت وصولك ... كنت فى حاجة الى أن أراك . يستحيل علىّ ، يســتحيل

عليّ اطلاقاً أن أشهد هذه الدرامة مكتوفة الأيدى عاجزة كل العجز ! سأقص عليك هذا فيما بعد . ولكن يجب على الآن أن أقول الشيء الأساسى .. آه .. كدت أنسى الشيء الأساسى . هل تستطيع أن تشرح لى لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستريا !

ـ ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا .

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، فى الغرفة المجاورة .

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة فى الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتى من قوة . ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذاالشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه من خلاله ، جالسةً على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها .

ـ أأنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان فى هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! ... ان نزواتك المستمرة الدائمة خليقة بأن تجعلنى مجنونة . ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش الى أى حد هى مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد على أن تئن ... ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه . وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من الأمر شيئا ، وأن علينا أن نصبر ، فنرى كيف ستتطور حالتها . ان هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئا غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ فى كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة هنا .

ـ ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا • فأنا لم أهرب الى هذه الغرفة بسببه هو •

ـ غير صحيح يا ليزا ! لقـــد أسرعت جوليا تبلغـك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنت قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصـوله •

ـ ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعينه بالدعابة الفكهة • فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبـير من الذكاء فأبلغى ألكسى فيدوروفتش المحترم جدا ، الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجىء بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه •

ـ ليزا ، انك تسرفين ! ثقى أننى سأتخذ فى حقك اجراءات قاسية آخر الأمر • من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ اننى من جهتى سعيدة جدا برؤيته • أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه • آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقائى وتعاستى ! •••

ـ ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

ـ هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهـــذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هـــذا الطبيب الفظيع الأبدى هرتسنشتوبه ، هذا الطبيب الأبدى خاصةً ، هذا الطبيب الأبدى الذى لا مفرّ منه ولا معدى عنه ! ثم كل شىء ، نعم كل شىء ، كل شىء اطلاقا ••• وحتى هذه المعجزة ! ••• لا تستطيع أن تتصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجـــرى الآن فى الصالون والتى يستحيل علىّ احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ••• أؤكد لك ذلك منـذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ••• ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ...
يا رب ! ... أصبحت لا أدرى ماذا يقع لى . فى كل لحظة أغمض عينى،
فأرى أن كل شىء باطل لا معنى له ...

قاطعها أليوشا سائلا :

ـ هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقةً نظيفة أعصب بها
اصبعى ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاماً شديداً .

نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من
الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت
حاجبيها .

ـ يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! ...

ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت
الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم :

ـ ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة!
آه ... يا رب ! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان
يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماءً قبل كل
شىء ، هاتوا ماء ... يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطس اصبعك
فى الماء البارد تهدئةً للألم . لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة
طويلة فى الماء ... اسرعى يا ماما ، هاتوا ماءً على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول فى عصبية :

ـ هلاّ أسرعتم !

كانت ليزا مروّعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها
أثراً رهيبا .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ــ ألا يستحسن أن نستدعى الدكتور هرتسنشتوبه ؟

ــ سوف تقتليننى يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه سيجىء فيقول انه لم يفهم من الأمر شيئا . هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك يا أماه ، ناشدتك الله ، أو قولى لجوليا أن تسرع . ان جوليا بطيئة دائما، ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به فى حينه . أسرعى يا ماما ، انك تميتيننى ...

تدخل أليوشا يقول وقد أقلقه جزعهما :

ــ ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشىء .

وهرعت جوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء . فغطس فيه أليوشا اصبعه .

ــ ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا شاشاً ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح ... لقد نسيت اسمه .. عندنا منه .. نعم عندنا منه .. أنت تعرفينها يا ماما .. تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين .. ويوجد هنالك شاش أيضا ...

ــ سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا ليزا ، أرجوك ، أتوسل اليك ... انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا مسرعة . وذلك بعينه ما كانت ترغب فيه ليزا وتتمناه .

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

ـ أجب عن سؤالى أولا : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تتكلم بعد ذلك فى أمرٍ آخر ٠ هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستنقضى الى حين وصول الأم ثمينة جدا فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة ٠ فبعد أن أصغت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حانقة ، كأن من حقهـا أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

ـ فيم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صـغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى عر أنت أيضا ٠٠٠ ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سراً ٠ شىء آخر الآن ٠ قل لى أولا يا ألكسى فيـدوروفتش : هــل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهمك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً ٠

ـ أنا قادر على ذلك كل القدرة ٠ ثم اننى أصبحت لا أشعر بألم فى اصبعى ٠

ـ لأنك غطستها فى الماء ٠ يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يدفأ بسرعة٠ جوليا ! أسرعى الى القبو فائتينى بقطعة من ثلج ، وائتينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد ٠ ها هى ذى قد مضت الآن فلنتحدث جادّين : هل لك أن ترد الىّ فورا ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيّا ردها الىّ بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظـة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن ٠٠٠

ـ ليست الرسالة معى !

ـ كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ••• ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة • رد الىّ الرسالة فورا ! اعطنيها !

ـ تركتها فى الدير •

ـ لا بد انك أصبحت تحسبنى طفلةً صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ••• انها مهزلة خبيثة سيئة ! ••• أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتينى بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتينى بها فى هـذا اليوم نفسه ، قطعاً ••• اننى أطلب ذلك ، وأصرُّ عليه !

ـ أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك اننى عائد الى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيما ••

ـ أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل سـخرت منى كثيراً ؟

ـ لم أسخر البتة •

ـ لماذا ؟

ـ لأننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا •

ـ أنت تهيننى !

ـ أبدا • اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فورا : لتجريَنَّ الأمور على هذا النحو فمتى مات الأب زوسيما ، سأضطر الى مغـادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأتقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك، وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج ...

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة :

ـ ولكننى دميمة ، مقعدة ، كسيحة .

ـ سأجر الكرسى المتنقل بنفسى اذا لزم الأمر . ثم اننى على يقين من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة .

قالت ليزا بعصبية :

ـ ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ... هذه ماما قد رجعت . أحسب أنها عادت فى الوقت المناسب . ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت دائما تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

ـ أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجـــوك ، أستحلفك بالله ! ... ان هذا الصراخ يطيش عقلى ... ليس ذنبى أنك قد دسست هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ... لقد بحثت عنه فى كل مكان فلم أظفر به ... انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة .

ـ تماما ... عامدة ! لم يكن فى وسعى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل بجرح فى اصبعه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعــــلاً ! ماما ، ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقا !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من شىء على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أقاسى



ليزا هوخلاكوفا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هى التى تقتلنى ، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذى يرهقنى ••• بل جملة الأمر ••• جملة الامر ••• ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله•

قاطعتها ليزا تقول وهى تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسنشتوبة يا ماما ! ناولينى الشاش والسائل • هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى فيدوروفتش •• تذكرت الآن ••• ولكنه نافع جدا • اعلمى يا ماما أنه اقتتل فى الشارع مع ضبية صغار ، وأن طفلا قد عضه فى اصبعه ! أليس هو نفسه صبيا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما •• تخيلى هذا ••• هل تتصورينه متزوجا ؟ شىء يميت من الضحك ! ••• أليس هذا فظيعا ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبى بلا توقف ، وهى تلقى على أليوشا نظرة ماكرة •

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هذا الامر لا يعنيك ••• أما ذلك الصبى الذى عضه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكَلَب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأننى قلت اذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون الصبى قد عضه كلب مصاب بداء الكلب ، فاذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميدا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضميد هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

ـ قليلا جدا .

وسألته ليزا :

ـ ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

ـ لا تسرفي يا ليزا . لقـد تعجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبي ، فأخذت تستنتجين استنتاجات ! يا ألكسى فيدوروفتش ان كاترين ايفـانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُّ على أن تراك حالا ... انها في أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

ـ اذهبي اليها وحدك يا ماما ! أما هو فانه لا يستطيع أن يمضي اليها، لأن اصبعه توجعه كثيرا ..

فقاطعها أليوشا قائلا :

ـ كلا ! ... انني لا أشعر الآن بوجـع . في امكاني أن أذهب اليها .

ـ ها ! .. تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب ...

ـ ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم . انني أحرص في الواقع حرصا شديدا على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأنني أريد أن أرجع الى الدير في أقرب وقت .

ـ خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وفّر على نفسك عناء العودة الى بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا . ارجع الى الدير رأساً ،

فهنالك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر • أما أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون ســعيدة جدا اذا أنت استطعت أن تنامى قليلا •

وتمتم أليوشا يقول :

ـ لا أدرى ماذا فعلت حتى ••• وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .

ـ وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! •• خذيه يا ماما •• ماذا تنتظرين ؟ هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

ـ ليزا ! أنت مجنونة ! هيَّا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليــوم شديدة النزوات ، وأخشى أن نثير أعصابها ••• ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة الى النوم أثناء حديثكما • ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع •••

ـ مرحى يا ماما ! هأنت ذى الآن تقولين كلاما لطيفا ! أحب أن أقبلك •

ـ وأنا أيضا يا ليزا !

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشــا وهما يخرجان من الغرفة :

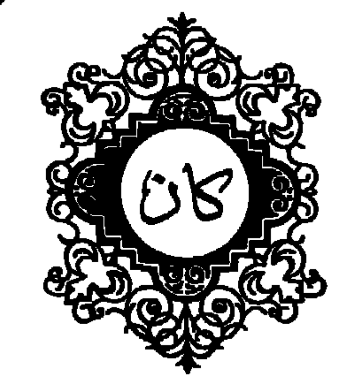
ـ اصغ الىَّ يا ألكسى فيدوروفتش •••

وراحت تكلمه متعجلة بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام والجد والتعجب ، قالت :

ـ لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبـــل الأوان ، ولكنك سترى بعينك ما يجرى الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك . شيء رهيب . تمثيلـة عجيبة !... انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم هي تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى فيدوروفتش . شيء مروّع ! سأدخل معك ، فاذا لم أُطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله .

٥

التمزق في الصالون



كان الحـــديث في الصـــالون يشارف نهايته • ان كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا، رغم أن فى وجهها تعبيراً عن عزم وحسم• وحين دخل أليوشا والسيدة هوخلاكوفا كان ايفـــان فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف • انه شاحب الوجه • لاحظه أليوشا فى قلق • ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، فى تلك اللحظة، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق الذى كان يشغل باله • ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ، منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصةً ينوى أن « ينتزعها من ميتيا » فعلا • ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الاخيرة أن يصدِّق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك • انه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تنشب بينهما خصومة كهـذه الخصومة • على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يســعده و يبهجه ، لأنه يسهِّل وضعه وييسِّر أموره • وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ ألأنه يتيح له أن يتزوج

جروشنكا ؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً عارماً . ولكن هـذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسـه الليلة البـارحة . يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجـلاً من نوع ايفان ، وأنهـا انما تحب دمترى كما هو ، على عـلاته ، رغم ما فى هـذا الحب من أمور عجيبة مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قـد أنبت فى نفسه على حين فجأة شعورا معارضا لهذا الشعور تماما ، لم يتضح له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليـوم نفسه ، أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة « حب التمزق » هذه عدة مرات ، جوابا على أحلام لم تكد تتبدد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لعباً ، من قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعة شكران غامضـة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضـطرب اضـطراباً شديداً ، وتساءل : « ألا يمكن أن تكون هـذه هى الحقيقـة رغم كل شىء ؟ » . ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السـيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو هى على الأقل لا تسـتطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الاذعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى • ولا كذلك ايفان • فان ايفان لن يقبل الرضوخ فى يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؟ أو هذا على الاقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس معرفته بطبع ايفان ، وعلى أساس الفكرة التى قامت فى ذهنه عن ايفان •

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت فى فكر أليوشا لحظة دخل الصالون • ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟ » • ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتى أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجيز لنفسى أن أرى آراء من هذا القبيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل فى تأملات أو تخمينات وتقديرات فى هذا المجال • ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر فى هذه المسائل • كان يدرك بغريزته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلا على مصيريهما ، وأنه يحمل فى طياته عواقب ضخمة • « فلتأكل السراطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمترى • معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل • أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا فى اللحظة التى عرف فيها كاترين ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان على غير ارادة منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كشفاً عن الحقيقة • فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما ؟ أليس فى هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره فى داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما فى هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والرثاء له ؟ وما

الذى ينبغى أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما • ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد المتشابك المشوش • وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال • انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة • فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما • ولكن كل شيء فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وابهاما ، وا أسفاه ! فأين يمكن الاهتداء الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذُكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » • فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللغز كانت تفوت فكر أليوشا •

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرعت تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرعت تقول له فرحة فرحا واضحا :

ــ لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا • أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة •

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

ــ ابقى أنت أيضا يا كاترين أوسيبوفنا •

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش •

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهمُّ أن تسيل من عينيها ، تهدّج صوتها بانفعال صادق أليم :

ـ أنتم جميعا أصدقائي ، أنتم أصدقائي الوحيدون في هذا العالم ..
يا أصدقائي الأخيار ، الأوفياء ...

أحسّ أليوشا في تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد .

وتابعت كلامها تقول :

ـ لقد شهدتَ بالأمس ذلك المشهد يا ألكسي فيدوروفتش ... شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا ... أنت لم ترني في تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآني . لا أدري ما الذي رآه فيّ من رأى في تلك الظروف . ولكني في مقابل ذلك أعلم علم اليقين أنني لو وُجدت اليوم في موقف مماثل لكان ردّي هو الرد الذي بدر مني أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال نفسها ، وتلك الحركات نفسها . انك تتذكر يا ألكسي فيدوروفتش الحركات التي بدرت مني أمس ، وقد اعتقدتَ أن من واجبك أن تثنيني ... (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) . فاعلم يا ألكسي فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أنني عاجزة عن الاذعان لأي شيء ، عاجزة عن الرضوخ لأي شيء . واعلمْ أيضا أنني أصبحت لا أدري في هذه الساعة أأنا أحبه « هو » أم لا . انني الآن أشعر نحوه « بشفقة » ، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة . واذا ظللت أحبه ، اذا ظللت أحبه رغم كل شيء ، فلن أرثي لحاله ، وانما سأكرهه من غير شك ...

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة في أطراف أهدابها . واضطرب أليوشا . قال لنفسه : « هذه الفتاة انسان مخلص صادق ، و ... قد أصبحت لا تحب دمتري ! » .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

ـ انتظرى يا كاترين أوسيبوفنا ! أنا لمّا أقل بعد الشىء الأساسى، لم أذكر القرار الذى اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه . اننى أوجس أن قرارى هذا سيعود علىّ بعواقب رهيبة ، ولكننى أعلم أننى لن أنكص على عقبىّ ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحـــوال . لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها . وان صديقى المخلص الوفى ، ان ناصحى النبيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفـــان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد رأيى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراءً كاملا ، ويشجعنى على المضى فيما عقدت النية عليه ... وقد عرف قرارى ...

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رفيق لكنه حازم :

ـ أنا أؤيد قرارك ... هذا صحيح !

ـ أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه ... اغفر لى يا ألكسى فيدوروفتش اننى سميتك أليوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش هو أيضا ، بحضور صديقىّ ، أأنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يدَ أليوشا الباردة:

ـ أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز الغالى) ... أنا على يقين ... أنا أحس أن جوابك وتأييدك سـيعيدان السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، واننى سأقبل مصيرى وأرتضى قدرى بعد أن أسـمع كلامك ... نعم ، أنا أحس ذلك !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

ـ لا أعرف ما هو الامر ! ولكننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى ...

ثم أسرع يضيف ، لا يدرى أحد لماذا :

ـ على أننى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً .

ـ فى هذه الامور ، يا ألكسى فيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة شرف وكرامة وواجب ، وربما شىء آخر أيضا ، شعور لا أستطيع أن أعرفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة لا تقاوم تهيب بى أن ألبيه . وأجمل فأقول اننى قد اتخذت قرارى ، واليك هذا القرار : هَبْه تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) ... هبه تزوج هذه المخلوقة التى لن أغفر لها أبدا ، أبدا ... فاننى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ، وسأظل دائما الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) . لن أتعلق بكمّه طبعا ، لن أحاصره بوجودى دائما ، لن أعذبه بحبى أبدا ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ، نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ، وأسهر عليه طوال حياتى لا أكل ولا أمل . فاذا شقى مع الأخرى ـ وذلك أمر لن يتأخر كثيرا ـ فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد فىّ صديقة مخلصة ، أختاً حنونا ... أختاً لا أكثر ... طبعا ... ذلك أن كل شىء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود فى المستقبل . يجب أن يعلم يومئذ اننى أخت له حقا ، أخت مخلصة ضحّت فى سبيله بحياتها كلها . سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيرا ، سوف أجبره على أن يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىّ بلا خجل . سأكون الاله الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيانته وعمّا قاسيته أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى فى جميع أيام حياته أننى وفية له

الى الأبد ، وأنني أحفظ العهد رغم أنه خانني وهجرني . سأكون ... سأصبح ... سأجعل نفسي أداةً لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عما بنفسي) ، سأجعل نفسي آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتي ، طوال حياتي ... ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قراري ! ان ايفان فيدوروفتش يؤيدني تأييدا كاملا .

كانت تلهث . لا شك أنها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا أرصن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة ، مترجمة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف . ان المرء يحس ، في جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها الى تأكيد عزتها وكبريائها من جديد . وقد أدركت هي ذلك على حين فجأة ، فأظلم وجهها والتمع في عينيها تعبير شرير . ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته بها شفقة . وتدخل ايفان في تلك اللحظة يقول :

ـ أنا لم أعبِّر الا عن رأيي الشخصي . ان عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطفَ مصطنعةً مفتعلة هي ثمرة جهد ارادي شاق أليم معذِّب ، أما عندك أنت فلا ... لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ ، أما أنت فلا .. لست أدري كيف أعبِّر عن شعوري ، ولكنني ألاحظ أنك صادقة الى أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب .

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

ـ هي صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع تتخذه وهي تحت وطأة اهانة الأمس ؟ ذلك هو السبب في قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منهـا هـذه الملاحظة السديدة •

فقال ايفـان بعنف مكظوم ، وقـد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

ـ صحيح ••• غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعا مؤقتا مردُّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايفانوفنا • ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمرا قد قد يكون قاسيا أليما حزينا ، ولكنه لا مفـر منه ولا عدول عنـه • ان كاترين ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها • ان حياتك ، يا كاترين ايفانوفنا ، ستنقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك • على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيـل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عـذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء ••• نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى ••• وستنتصرين آخـر الأمر ••• وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك •••

تكلم ايفان بلهجة نافذة فيهـا غضب مكبوح • وكان واضحا أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرِك سخريته•

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترين ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

ـ ألكسى فيدوروفتش ! هلاّ قلت رأيك أخيرا ! اننى أشعر بحاجة شديدة قاهرة الى معرفة رأيك .

نهض أليوشا عن الديوان .

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

ـ ليس هذا بشىء ، ليس هذا بشىء البتة . اننى مرهقة الأعصاب بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقة مسهَّدة . ولكننى ، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ... ذلك لأننى أعلم أنكما لن تتركانى أبدا .

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ آسف . قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن أتركك فترة طويلة .

ـ الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها . ثم أردفت تهتف قائلة بصوت تغير فجأةً ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى :

ـ ولكن ... ولكن هذا يقع فى حينه ... يجىء فى وقته ! يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى فى حالة توتر ممزِّق ، قد حلَّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة ، وتبدو راضيةً ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً .

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبتسم ابتسامة مهذبة :

ـ أوه ••• لا يذهبن بك الظن الى أننى ابتهجت لتركك ••• طبعا لا ••• ان صديقا مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ، وأن ينسب لى مثل هذه العواطف ••• بالعكس : اننى لأحزن أشد الحزن حين أتصور أننى سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) • ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجاتى ، فى موسكو ، الظرف الذى أنا فيه • حدثهما عن فظاعة الأيام التى عشتها هنا ، فأما مع آجاتى فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشىء من المداراة• وانى لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور • لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة ••• ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابة ••• أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شىء! آه ••• ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى • صدقنى ! ••• وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شىء يمكن أن يحل عندى محل صداقتك •••

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب الغرفة :

ـ سأكتب الرسالة حالا •

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة :

ـ وأليوشا ؟ أليوشا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفى رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

ـ ما نسيته •

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

ـ ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين أوسيبوفنا ؟

وتابعت تقول :

ـ ما زلت مصرّة على ما قلته • اننى لا غنى لى عن معرفة رأيه• بل اننى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا • وسأتبع ما ينصحنى به • فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظمأ الى سماع كلامك ••• ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

ـ ما كان لى أن أصدّق هـــذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الايام !

ـ ماذا ؟

ـ يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدةً ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره ، وأنك على عكس ذلك يُحزنك فقده • وهذا أيضا قلته عامدة ••• كما فى المسرح ••• كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! •••

ـ كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلغت أوج الدهشة •

لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها •

واستأنف أليوشا كلامه :

ـ وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحـــرمانك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •

ـ الى ماذا تريد أن تصــل ؟ ما الذى تريد أن تســـتنتجه ؟ اننى لا أفهم •

ـ أنا نفسى لا أعرف تماما ••• لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنمـا فى ضوء برق •••

وتابع أليوشا كلامه يقول بصــوت يختلج ألماً حتى ليـــوشك أن ينكسر :

ـ أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشــاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحبين أخى دمترى •• ولعلك ما أحببته فى يوم من الأيام ••• ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ••• فيما أظن ••• لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى •• وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ••• اننى أتســاءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا ••• ولكن لابد أن يعزم أحدٌ أمره على أن يقــول الحقيقــة أخيراً ••• ما دام لايريد أحــد هنا أن يعترف بها •••

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شىء من الهستريا :

ـ أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

ـ عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى ـ وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة ـ استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تريدين على أن تعذبى

ايفان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحبينه ـ وأنت انما تعذبينه لشغفك بالتمزق ••• لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمترى ••• حباً لا تشعرين به البتة ••• وتحاولين أن تقنعى نفسك به •

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت •

ـ ما أنت ••• ما أنت الا أبله صغير ••• ما أنت الا يوروديفوى ••• ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحب وجهها شحوباً شديدا وظهر على شفتيها انهما تنعقفان غضبا مسعورا •

وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك فى تلك اللحظة ، ونهض عن مكانه حاملاً قبعته بيده • وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر فى وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوما ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها :

ـ أنت مخطىء يا أليوشا • فان كاترين ايفانوفنا ما أحبتنى فى يوم من الأيام • وكانت تعلم منذ البداية أننى أحبها ، رغم أننى لم أحدثها فى حبى قط • كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحبنى • لا ولا كنت صديقها فى ظرف من الظروف • ان هذه المرأة التكبرة لم تكن فى حاجة الى صداقتى • وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى الانتقام ، الا لتثأر منى ، نعم منى أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التى أنزلها فيها دمترى منذ أول لقاء بينهما ••• ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقى فى نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغاً • هذه هى كاترين ايفانوفنا ! وأنا لم أجىء الى هنا الا لأصغى اليها متحدثةً عما تحمله من حب لدمترى • وسأنصرف الآن • ولكن اعلمى يا كاترين ايفانوفنا أنك لا تحبين حقاً الا دمترى • وستحبينه مزيداً من الحب على قدر ماسيذلك

مزيدا من الاذلال . ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحبينه كما هو ؟ أنت انما تحبين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من الأيام ، اذن لكففت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً. ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطيعى أن تتأملى منظــر وفائك البطولى ، وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ... وذلك كله زهواً وصــلفاً وتكبرا ! ان ههنا جحيما من مذلة تريدينها وتتحملينها ، والكبرياء هى التى تدفعك دفعا الى السعى وراء هذا الجحيم ... اننى ما زلت فى ريعان الشباب ، ولقد أحببتك فأسرفت . والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جــروحك أنت . ولكننى سأسافر الى مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبدا . لقد سئمت من أن أكون شاهدا أبديا على تمزقاتك النفسية ! ... أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج فى قلبى ويدور فى خلدى . ولقد انتهى الأمر على كل حال ... لقد قيل كل شىء ... فوداعاً يا كاترين ايفانوفنا . وليس من حقــك أن تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيرا من العقاب الذى تنالينه أنت . حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً . وداعاً ! لا تمدى الىّ يدك . لقــد آلمتنى ايلاماً فيه من الوعى والعمــد ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هــذه اللحظة . قــد أنساك فى المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصافح يدك .

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا أحفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفســه عليها اجباراً ، مبرهناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أنه يستطيع هو أيضــا أن يقرأ الشاعر شــيلر فى هوى وشغف ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل • ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت •

صاح أليوشا يناديه بصوت تائه ، ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

ـ ايفان ، ايفان ! ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ فى نفسه يقين مباغت :

ـ لا ••• لا ••• انه لن يعود ••• لن يعود مهما يكن الثمن••• أنا أعرف ذلك • هى غلطتى ، هى غلطتى أنا ••• اننى بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايفان أشياء شريرة ظالمة ••• ما كان ينبغى له أن •• هذا ظلم ! •••

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون !

وفى تلك اللحظة مضت كاترين ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة •

وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا فى أسف ولوعة :

ـ ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه • بالعكس : لقد تكلمت كملاك • سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان •

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد • ولكن كاترين ايفانوفنا رجعت فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملة ورقتين نقديتين كل" منهما بمائة روبل •

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة هادئة طبيعية الى أقصى حد، كأن شيئا لم يحدث :

ـ لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش • منذ أسبوع •••

نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ... ثار دمترى ثورة عنيفة ظالمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كاباريه » ، التقى فيه دمترى ، في ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذى يستعين به أبوك فى بعض شئونه . وقد غضب دمترى من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدرى لماذا ، فأمسكه من لحيته وجرّه الى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط ، وهو صبى يختلف الى مدرسة المدينة ، صبى صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكياً ناشجاً منتحباً متوسلاً الى أخيك أن لا يؤذى أباه ، متضرعا الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصغ اليه ، وانما كانوا جميعا يضحكون. معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذى سلكه أخوك فى ذلك الظرف ، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد فى هذا العالم غير دمترى فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتى ... لذا ترانى أتيه فى سردها واضطرب ... وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الاهانة ، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنيجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش ، فسُرّح ... لا أدرى تماما . وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما أظن ، صاروا أخيرا الى حالة رهيبة من العوز والفاقة . انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة . عندئذ خطـــرتَ أنت ببالى ... أو قل اننى قدَّرت أن ...
لا أدرى ماذا دهانى حتى صرت لا أعرف ماذا أقـول ... ان كلامى
مضطرب . أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب
الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل
متذرعا بحجة مناسبة ، متعللا بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هـــذا
الضابط ... أوه ... رباه ! اننى أخلط كل شيء ... فتعطيه هـــذه
المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ... كما لا يستطيع أحـــد أن
يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هـــذه
الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم
محاذر . انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ... أقصد أن عليك أن تلح فى
سبيل أن يقبلها ... هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن .. ولكن لا..
يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى
القضاء (يبدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات)،
وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة في مد يد المساعدة اليه . وليعلم أيضا
أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطيبة دمترى فيدوروفتش ،
لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ... الخلاصـــة : ســـتعرف كيف
تتصرف ... كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر
الأمر خيراً منى . انه يسكن فى « شارع البحيرة » عند امرأة من سكان
المدينة اسمها كاليكوفا ... قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ،
أرجوك ، أتوسل اليك ... أشعر الآن بأنى متعبة ... أشـعر شيء من
الاعياء ... الى اللقاء ...

قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء
وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمـــة واحـــدة . وكان
أليوشا مع ذلك يشـــعر بحاجة قـــوية الى أن يكلمها . كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر اليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة حباً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة • ولكن السيدة هوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته الى خارج الحجـــرة ، ثم توقفت في الدهليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه •

قالت له السيدة هوخلاكوفا بصوت خافت :

ـ انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى أقصى الحدود • ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما في بعض اللحظـات ، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الىّ السعادة بكل شيء ! يجب علىّ يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنتَ تجهله حتى الآن • اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أي جميعـا ، وحتى ليزا ، كنا نتمنى ونتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعـزم أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمترى فيدوروفتش الذي تؤثره أنت، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذي هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم • حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هـذا المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هـــو السبب في أنني لم أسافر بعد •••

صاح أليوشا يقول :

ـ ولكنها عادت تبكي من شعورها بالمذلة •

ـ لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا في هـــذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة • أنا مع الرجال •

وهنا دوّى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

ـ ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !

وردّد أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو يشعر بخزى شديد من غضبته ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء واضطرابا :

ـ شيء رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغتفر !

فقالت له السيدة هوخلاكوفا :

ـ بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

ـ كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

ـ لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها تحب ايفان ، فأفلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث الآن ؟ ...

ـ عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميتينني يا ماما ! ألقى عليك أسئلة ولا تجيبين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

ـ كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الآنسة تبكى ... تتخبط كأنها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصيح قائلة فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

ـ هلاَّ قلت لى يا ماما أخيرا ما هى الفضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب الآن بنوبة هسترية ، لا هى ! ...

ـ هدئى نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتلينني بهذا الصراخ! ان عمرك لا يسمح لك بعدُ أنْ تعرفى كل شىء كما يعـــرفه الكبار . سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه . أوه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ... نوبة عصبية ... ولكنْ هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع ... ذلك ما يجب أن يحدث ... أنا أقف دائما ضدَّ النساء فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا جوليا ، امضى اليها فقولى لها اننى آتية اليها حالاً . سأدركها فوراً . على كل حال ليس عليها الا أن تحمّل نفسها تبعة خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه لن يسافر . ليزا ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك لا تصرخين . فأنا التى صرخت . سامحى أمك يا ليزا ، ولكننى سعيدة، سعيدة جدا ، سعيدة سعادة رهيبة ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟ انه يُشعر بأنه مثقف جدا ، عالم جدا ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقا ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل التجربة ، قليل التجربة جدا . آه ... ما أروع هـــذا ، ما أجمله ، ما أعظم أثره فى الفؤاد ! هو مثلك تماما ! .. وهذا البيت من الشعر الذى رواه ، هذا أنت أيضا ... أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها .. أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمـــة التى عهدت بها اليك ، ثم ارجع الى هنا بأقصى سرعة . ليزا ! ألست فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات..

وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيرا مسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن البـاب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

ـ أبدا ••• مستحيل ••• لن أطيق الآن أن تجيء الىّ ••• تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •

ـ هو قولى كلاماً سخيفا غبياً يا ليزا !

صاحت ليزا تقول :

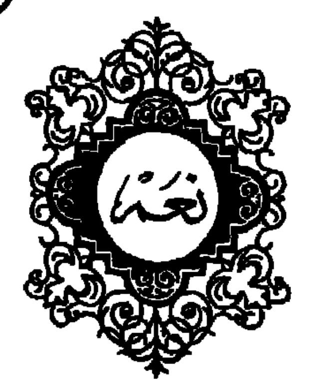
ـ لا أسمح لك أن تمضى هكذا !

ـ ليزا ! ان بى حزناً كبيرا • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير، كبير جدا ، صدقينى •

وخرج مسرعاً •

٦

التمزق في الخربة



كان حزنه كبيرا جدا قلما شعر بمثله من قبل. لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكب « حماقة » ! وفى أى موضوع ؟ فى موضوع حب ... « أنا أعلم حق العلم أننى لا أفهم فى هذا الأمر شيئا ، فكيف أمكن أن أدعى ادراك شأن من هذه الشئون ادراكا واضحا ؟ » . كذلك ردّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر خجلاً وحسرة . « ليس العار الذى أشعر به شيئا يُذكر ، فهو العقاب الذى أستحقه وانما الشقاء الحق هو أننى سأكون سبب كوارث جديدة.. لقد أرسلنى شيخى العالم لأوحّد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ، أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! » . وتذكر أليوشا فى تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع احداهما فى الأخرى ، فازداد اضطرابه الى أقصى حد . وأخيرا قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرّى عنه : « لئن كان تصرفى مخلصاً فى تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن فى المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » .

ان المهمة التى كلفته كاترين ايفانوفنا أن يقوم بها ، تضطره أن يذهب الى « شارع البحيرة » . وأخوه دمترى يسكن غير بعيد عن هناك، فى زقاق جانبى . فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضى

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده فى منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضى فى أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهى تلاحقه حيثما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأثارت انتباهه اثارة قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذى كان يركض الى جانب أبيه باكياً منتحباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه فى تلك اللحظة : لابد أن هذا الولد هو الصبى الذى عضه فى أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبى نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظةً عن همومه الثقيلة ، واذ استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التى بدرت منه وتلك « المصيبة » التى سبَّبها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عقيمة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور • وقد سرِّى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل فى الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذى أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته •

لم يكن دمترى فى المنزل • فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل ـ وهم نجار عجوز وامرأته وابنهما ـ أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متغطرسة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذى ألح فى السؤال عن أخيه :

ـ انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلعله سافر •

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمترى.

قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخـــرى ، متعمدا أن يذكـر هذه المعلومات السرية :

ـ أتراه عند جروشنكا ؟ أم تراه مختبىء عند توماس مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة . فقال أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه . » .

قفل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كاليكوفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لهـا الا ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قذر جدا رأى فيه أليوشا بقرة. ان الدخول الى الفناء يتمُّ عبرَ حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيرا هيالأخرى. والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن الضابط عدة مرات . وفهمت احداهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهـة الاخرى من حجرة الدخول ، مشيرةً الى الغرفة التي هي أفضل غرفة في الدار . ان الضابط المتقاعد يحتل في الواقع غرفة واحدة .

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمَّ أن يفتحهُ ، ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذى يخيم في الجو . لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط المتقـــاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفســـه : « انهم نائمون ، أو انهم أحسوا بمقدمي فهم ينتظرون دخولى عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب». وقرع الباب فعلاً ، فأُجيب ، ولكن الجواب لم يجىء رأساً ، وانما تأخر نحو عشر ثوانٍ .

قال صوت خشن حانق :

ـ من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فاذا هو يجد نفسه فى غـرفة واسعة سعةً كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد عُلِّقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندى قد نُضِّد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بحبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكمِّلها كرسى ، والسرير لا يُرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى تُرى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشـعر فيها المرء باختناق . وعلى المـائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شيء من مظهر سـيدة . انهـا ترتدى ثوباً من قماش هندى ، وهى ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبئـان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجىء أليوشا خاصةً بتعبير نظرتها الذى ينم عن تساؤل وتعالٍ فى آن واحد . وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هى فى الحديث ، لم تكفَّ عن تنقيل نظرتها

بين الرجلين معبِّرة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه. والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دميمة الوجه ، ترتدى ثيابا فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة؛ وكانت تتفرس فى أليوشا باحتقار وازدراء. وعلى اليمين ، قرب السرير أيضـــا ، تجلس امرأة أخرى هى مخلوقة بائسة ، فتاة فى نحو العشرين من عمرها ، حدباء الظهر مقعدة" متيبسة الساقين ، كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازتاها فى الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة ، وهى تلقى على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل فى نحو الخامســة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهى من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضا ، تذكر لحيته الحمراء المتناثر شعرها بليفـــة من الليف الذى يستعمل فى الحمام . (ان هذا الشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر أليوشا رأساً ، فسرعان ما برق فى ذهنه تعبـــير « ليفة الحمام» الذى استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعد. واضح أن هذا الرجل هو الذى صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن فى الغرفة رجل سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المـائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقَّبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقفة فى الزاوية اليسرى :

ـ هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى أين يجىء ! ...

ولكن الرجل الذى اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

ـ فى هذه المرة أخطأت يابربارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ماتصورت.

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

ـ هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ... فى هذا المكان الحقير ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة . ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحنق . لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً . وفى وجهه تُرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما ... ان هيئته هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؟ أو قل بتعبير أدق ان هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية فى أن يَضرب ، ولكنه يخاف خوفا قويا من أن يُضرب هو نفسه . ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هى تارةً شريرة خبيثة ، وهى تارة أخرى خائفة وجلى ، فهو لا يستطيع أن يجريها على نمط واحد ، حتى لتنهار وتتحطم فى بعض اللحظات . لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقير » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملقاً عينيه ، بالغاً من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوةً الى وراء بغريزته. كان الرجل يرتدى معطفاً حقيرا مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقعاً فى مواضع كثيرة ، متسخا ببقع كبيرة . أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربّعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى أى مكان . والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أدناه وانشمر ، فكأن لابسه صبىٌ طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيرا قصيرا عليه .

قال أليوشا يجيب عن سؤال الضابط المتقاعد :

ــ أنا ... أنا ألكسى كارامازوف .

ــ لى شرف معرفة ذلك من قبل .

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر . ثم أضاف يقول :

ــ فاسمح لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد سنيجيريف ــ س* . ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه من ...

ــ لم أجىء لهدف معيَّن . كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمى ... اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً ...

ــ فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسى ! تفضل فاجلس ... أليس هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسياً بحركة مباغتة عنيفة (هو كرسى بسيط غير منجَّد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط الغرفة تقريبا ؛ ثم تناول كرسياً آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسى أليوشا أن رُكَب الرجلين يحتك بعضها ببعض .

ــ اسمى نيكولا ايلتش سنيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح المدفعية بالجيش الروسى . واننى لأظل ضابطا رغم عيوبى ورذائلى التى هوت بى الى الحضيض . ولقد كان ينبغى أقول الرائد ــ س ، لا الرائد سنيجيريف ، ذلك أننى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل «س» . تلك عادة ناشئة عن الانحطاط .



سنيجيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة متحرجة :

ـ نعم . ولكن هل يتعود المرء هذه العادة عامدا أم هو يتعودها على غير ارادة منه ؟

ـ بل على غير ارادة منه ، شهد الله ! يمينا ما كنت أتكلم بهذه الطريقة فى الماضى ! ولكن حرف «س» قد هبط على لسانى أثناء سقوطى، كهبوط الذباب على القاذورات . ذلك يحدث بتأثير قوة عليا . ولكنى أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لى أن أعرف السبب الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ؟ اننى أعيش هنا فى ظروف لا تؤهلنى للقيام بواجبات الضيافة .

قال أليوشا :

ـ أنا انما جئت ... من أجل ذلك الامر الذى ...

فقاطعه الرجل سائلا :

ـ أى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

ـ أمر لقائك ذاك بأخى دمترى فيدوروفتش ...

ـ أى لقاء تعنى ؟ ها ... ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم فى هذه المرة ركبتيه .

ودقّت شفتاه فى تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل .

تمتم أليوشا يسأله :

ـ أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت" عرف أليوشا فورا أنه صوت الصبى الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبى يقول :

ـ بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبى مغطى بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحا أنه مريض ؛ واذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحدق الى أليوشا بغير خوف ولا وجل ، واثقا ثقة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد أن يقول : « أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى شيئا . . » .

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

ـ عضك فى اصبعك ؟ أأنت من عضه فى اصبعه ؟

ـ نعم أنا . كان يقتتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق الحجارة . وكان واحدا وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرمانى بحجر ، ثم رمانى بحجر آخر مستهدفا رأسى ، فلما سألته ماذا فعلت له ، انقض علىّ فجأة فعضنى فى يدى ، لا أدرى لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه :

ـ لأجلدنّه ، لأجلدنّه !

ـ ولكننى لم أجىء لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه . اننى لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو .

ـ أفصدّقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدّقت أننى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايليوشا * ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أأنت تحرص على هذا اذن حرصا شديدا ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتفتا نحو أليوشا وقد لاح في وجهه التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه . ثم أضاف :

ـ يؤسفني ، يا سيدي العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكني أوثر على ضرب ايلينوشا ، اذا شئت ، أن أبتر الآن أمامك أربعاً من أصابعي بهذه السكين ، ارضاءً لك ... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافيا لارواء ظمئك الى الانتقام ، وأن تسمح لي بالابقاء على الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق ، وكانت عضلات وجهه جميعا ترتعش ، وكانت نظرته تفيض تحدياً واستفزازاً . لقد أصبح عاجزاً عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :

ـ أحسب أنني فهمت كل شيء . ان لابنك قلباً طيباً ، فهو يحب أباه ، وقد هجم عليّ لأنني أخو الرجل الذي أساء اليك ... فهمت الآن ... (كذلك استأنف كلامه يقول مطرقاً مفكرا) ... ولكن أخي دمتري نادم على فعلته ... أنا أعرف ذلك ... فاذا أذنت له أن يجيئك الى هنا ، أو حتى أن يلقاك في ذلك « الكاباريه » نفسه مرةً أخرى ، فسيكون مستعداً لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس ... متى رغبت في ذلك ...

ـ أهكذا اذن ؟ تُنتف لحية الانسان ، ثم يُعتذر اليه ، فينتهي كل شيء ويسوّى كل شيء ، أليس كذلك ؟



نينوتشكا ابنة سنيجيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

ـ كلا ... كلا ! ... انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك .

ـ معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكاباريه » نفسه ـ كاباريه « العاصمة الكبرى » ـ أو حتى فى الميدان العام ، فاذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول .

ـ نعم ، يجثو على ركبتيه !

ـ كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عينى ! اننى أقدر هذا الكلام حق قدره ... فاسمح لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى . هـــذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ... هذه ذريتى المحترمة . فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويداريهم، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمـــكن أن يحبنى ما دمت حياً ، من ذا الذى يمـــكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء.. ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هـــذا العالم ...

ـ صحيح ، هذه حقيقة كبرى .

كذلك هتف يقول أليوشا .

فصاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها معبِّرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءة تقول :

ـ ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر معتوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

ـ مهلاً يا بربارا نيكولايفنا ••• تذرعى بشىء من الصبر ••• دعينى أكمل ما أريد أن أقوله •••

ثم أضاف يقول ملتفتا الى أليوشا :

ـ ان لها طبعا صعبا ••• يصدق عليها قول الشاعر :

ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لى أن أقدم اليك زوجتى : ايرين بتروفنا ، سيدة مقعدة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاما ، فقدت استعمال ساقيها تقريبا ؛ هى من أصل وضيع جدا • يا ايرين بتروفنا ، هلاً بسطت أسارير وجهك قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • وأنت يا ألكسى فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يُتوقّع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) ••• اننى أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض ••• اسمحى يا عزيزتى ، هذا ليس ليس نفس كارامازوف الذى ••• الذى ••• هِمْ ••• هذا أخوه ••• شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسالمة ووداعة • اسمحى لى يا ايرين بتروفنا ، اسمحى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمحى لى أن أقبل يدك أولا •

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبحنان • فرفعت الفتاة الواقفة قرب النافذة كتفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك شيئا • غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبّر عن تساؤل واستعلاء ، هش وبش على حين فجأة •

قالت :

ـ تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

ــ بل كارامازوف ... اسمه كارامازوف .

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

ــ هي من أصل وضيع ، وضيع جدا .

قالت المرأة :

ــ طيب ... كارامازوف ... فليكن اسمه كارامازوف ما دمت تحـــرص على ذلك . كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاســـمان عندى واحد . تفضل فاجلس يا سيدى . أما لماذا أنهضك ؟ فلأننى مقعدة ، كما قال لك ذلك . صحيح أن لى ساقين ، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين، أما باقى جسمى فهو يصوّح . كنت فى الماضى سمينة جدا ، وهأناذا الآن نحيلة مثل ابرة ...

ردّد الضابط قوله :

ــ هى من أصل وضيع ، من أصل وضيع جدا .

فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامتة على كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

ــ بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها .

وقالت الفتاة الواقفة قرب النـــافذة ، قالت بلهجـة احتقار شديد عنيف :

ــ جبان !

وقالت الأم وهى تمد ذراعيها مشيرةً الى ابنتيها :

ـ أنظر ما يحدث لنا • سحائب ثم تنقشع • وستنقشع • وستعود الموسيقى • فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من الأحيان زيارات كزيارتك • لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه • يجب على الانسان أن يحب جميع الناس • وفى ذات يوم جاءت امرأة الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لها : « لكل امرىء أذواقه الخاصة • وما أنت الا كرة صغيرة ، ولكنك كرة عفنة نتنة » قالت : « سنعرف كيف نؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء ! من أباح لك حق المجيء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا أجيئكم بهواء نقى ، على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد الجو » ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كريه الرائحة ، فاذهبى واسألى أولئك السادة الضباط » • ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لايبارحه• وهكذا حدث لى منذ قليل ، أن رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح » ، فقلت له : « يا صاحب السعادة ، ان من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا صحيح ، ليس الهواء هنا نقياً • يجب فتح الباب أو النافذة • » • هم جميعا سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتى • قلت : « لن أفسد الهواء الذى تستنشقه ؟ سأشترى لنفسى حذاءين ، ثم أمضى ، مادام الأمر كذلك • » • يا أولادى ، يا صغارى ، لا تدينوا أباكم • يا نيكولا ايلتش ، يا زوجى الطيب ، أأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك ؟ لم يبق لى الا ايليوشا ••• فهو الذى ما يزال يحبنى • يعود من المدرسة ، فيغمرنى بملاطفاته • وقد جاءنى أمس بتفاحة • ارحمونى يا صغارى ، يا أولادى الذين أعبدهم ، اشفقوا

على أممكم المسكينة التى أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذى تستنشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتحبة على حين فجأة ، فتسكب سيولاً من دموع • اسرع اليها الضابط •

ـ عزيزتى ، عزيزتى ، حمامتى ، هدئى روعك ، أرجوك ، أتوسل اليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نعبدك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل، ثم دغدغ خديها فى رفق ولطف• ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذى أغرقتـــه الدموع • وتراءت لأليوشا فى تلك اللحظة دموعٌ فى عينى الضابط السابق أيضا • والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى امرأته ، وقد استبد به يأس شديد :

ـ هل رأيت وهل سمعت ؟

فدمدم أليوشا يقول :

ـ رأيت وسمعت •

وصرخ الصبى وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق الى أبيه بعينيه الملتهبتين ، صرخ يقول :

ـ بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلةً بهـــذا الـ ••• قل له أن ينصرف !

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بهـا فى هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

ـ دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزليـة البلهاء التى لا تؤدى الى شىء ! كفى كفى ! •••

فقال الأب :

ـ حقاً ان لحنقك ما يسوّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسألبى أمرك على الفور . يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسآخذ أنا قبعتى ، فنخرج . أريد أن أكلمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا. ان هذه الفتاة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسيت أن أقدمها اليك . انها ملاك تجسد وهبط على الأرض ... ملاك حق نزل من السماء ... هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

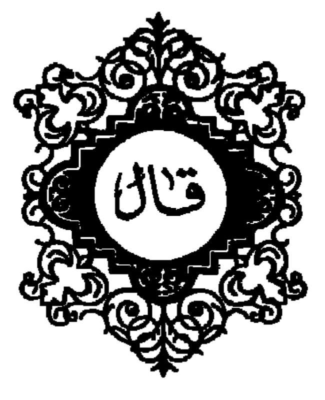
ـ ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً قوياً ! ...

ـ أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتنى بأننى مهرج منذ هنيهة ، فهى أيضا ملاك من السماء ، وهى على حقٍ اذ تعاملنى هذه المعاملة . لنخرجِ يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا الأمر ...

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع أليوشا ، وجرّه الى الشارع .

٧

وفى الهواء الطلق



الضابط المتقاعد :

ـ هنا يتنفس المرء ، أما فى مسكنى فيختنق، بجميع معانى هذه الكلمة . سنمشى الهوينى . أرجو أن لا تبعث أحاديثى السأم والضجر فى نفسك !

قال أليوشا :

ـ هناك أمر أريد أنا أن أحدثك فيه ... ولكننى لا أعرف من أين أبدأ .

ـ لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لى . ولولا ذلك لما جئت الى مسكنى بغير سبب ... اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو الىّ الصبى ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! ... وعلى ذكر هذا الصبى ... اننى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شىء بحضوره . فسأشرح لك الأمر الآن . لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف مما هى الآن ... أعنى بالليفة لحيتى ... وأولئك التلامذة هم الذين سموا لحيتى ليفة ... فمنذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش لحيتى هذه ، فى ذلك « الكاباريه » ، وجرنى الى الميدان . وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة في تلك اللحظة نفسها ، وكان ايليوشا بينهم ، فما ان راني على هذه الحال حتى ارتمى عليّ صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكني بذراعيه الصغيرتين ، وشدني بجماع قواه ليخلصني ، وتشبث بي ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدي بقوله : « دعه ! هذا أبي ، هذا أبي ، اتركه ، اغفر له ! » نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التي كانت قابضةً على لحيتي . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبي في تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أليوشا يقول منفعلاً :

ـ أحلف لك ، أحلف لك أن أخي سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه في ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخي .

ـ آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النبيل الحار . كان عليك أن تذكر لي هذا فورا . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لي أن أصف لك روح الفروسية التي أظهرها أخوك في ذلك الظرف . انه بعد أن جرّني من هذه الليفة ، تركني وقال لي : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهدا ، فأرسله اليّ : انني أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنيء » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايليوشا ، ولكن هذا المشهد العائلي الجميل النبيل قد استقر في نفس الصبي الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته في لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس شرفاء ؟ واقض في الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدباء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن ايليوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذي سيحدث لهم جميعاً ؟ انني ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المبارزة فقتلني ، فما هو الوضع الذي سيصيرون اليه ؟ من الذي سيعنى بهم وسيهتم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلني ، وانما يصيبني بعاهة تقعدني : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه ، أصبح عالةً عليهم . من ذا الذي سيطعمني وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد أضطر أن أُخرج ايليوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه علىّ مبارزةٌ من عواقب . هى كلمة سخيفة ، لا أكثر ...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته ناراً :

ـ ليستغفرنّك ، ليرتمين على قدميك فى وسط ذلك الميدان .

ـ خطر ببالى أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفى أن نرجع الى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تثأر لى من الاهانة التى ألحقها بى . زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتنى وقالت لى غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكشفنّ اختلاساتك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أنت الملاحَق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتى ، أم أننى أُمرت بها فكنت أداةً لا أكثر ! اننى لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلمْ عدا هــذا أننى سأطردك من خـدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجنى منى بعد ذلك قرشاً واحداً • وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضا » • فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ماعسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبونان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر ••• حتى أن أباك يفكر فى جرّى الى المحاكم مستندا الى الايصالات التى وقعتها بامضائى • فلهذه الأسباب مجتمعةً ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شىء• لقد رأيت بنفسك الظروف التى نعيش فيها • ولكن قل لى الآن : هـل أوجعتك كثيرا عضة صغيرى ايليوشا ؟ اننى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه •

ــ نعم • أوجعتنى كثيرا • فقد كان غاضبا غضبا شديدا • لقد ثأر منى أنا للاساءة التى أُلحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف • لقد اتضحت المسألة الآن • ولكنـك لم تر كيف اقتتـل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة • ذلك خطر جدا • ان من الممكن أن يقتلوه • هؤلاء أطفال ، لا يفكرون • رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته •

ــ أصيب اليوم بحجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصـدر • أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرقاً باكياً يئن أنينا شديدا ، وها هو ذا الآن مريض •••

ــ يظهر أنه هو الذى يبادىء رفاقه بالهجوم • ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار • والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطعنة من موسى •••

ـ قيل لى هذا . شيء مزعج . ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجرَّ علينا هذا الحادث وبالاً ...

تابع أليوشا كلامه قائلا :

ـ أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذى يتقد فى قلبه .

قال الضابط المتقاعد مؤمِّناً :

ـ الغضب ! الغضب ! تلك هى مشكلته . غضب كبير فى كائن صغير . وأنت لمَّا تعرفْ بعدُ كل شيء . فاسمح لى أن أقصَّ عليك كيف جرت الأمور فى الواقع . بعد ذلك حادث « الكاباريه » ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه ، ويسمونه ليفة . ان الأطفال الذين هم فى هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة . هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم . لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النبيل وتمرد . رب صبى آخر ، رب ولد فاتر المزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزى والعار من أبيه ، أما هو فقد هبَّ وحيدا ضدَّ جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضا ... نعم ، عن الحقيقة ... ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبَّل يد أخيك متوسلاً اليه « أن يغفر لأبيه » . فانظر كيف يعرف أطفالنا ـ أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم ـ أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك . فهم مهما يعيشوا ويكبروا لن يروا أعماق الهوة فى يوم من الايام ! أما ابنى

ايليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة فى تلك اللحظة التى قبّـل فيها يد أخيك بالميدان ••• لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحفرت فى كيانه الى الأبد •

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحميًّا قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيدا من التوضيح كيف انغرست «الحقيقة» فى نفس ايليوشا •

وتابع الرجل كلامه فقال :

ـ وفى الليلة التالية انتابته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت • ولم يكلمنى فى الغداة ، وانما التزم صمتا يشبه أن يكون مستمرا ، ولكننى لاحظت أنه كان يرقبنى ويرصدنى من الركن الذى هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهىء واجباته المدرسية • لقد أدركت أنه لم يكن يفكر فى دروسه فى تلك اللحظة • حتى اذا جاء اليوم التالى شربت فأصبحت لا أتذكر شيئا ••• يا لى من شقى ! ••• نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى علىّ الكرب والكمد واليأس • وأخذت زوجتى عندئذ تبكى ـ اننى أحبها كثيرا ـ ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخر كوبك أملكه لأسكر فأنسى • لا تحتقرنى يا سيدى • ان أصحاب القلوب الحسَّاسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم فى بلادنا روسيا • ونمت، ولم أحفل بايليوشا • وفى ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصبية يعيِّرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أُخرج أبوك من الكاباريه مشدودا من لحيته ، فأخذتَ تركض الى جانبه تستغفر له وتستعفى عنه ! » • وفى اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه • سألته: « ماذا بك ؟ » فلم يجب • وكان يستحيل علينا التحدث فى الغرفة ، فلو قد تحدثنا فى الغرفة لتدخلت الأم والبنات فى الحديث ••• وكانت بناتى

على علم بالقضية منذ أول يوم • كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جبناء ! ما عسى يُنتظر منكم ؟ » • قلت لها : « أنت على حق ، مانحن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات تلو الحماقات • • » • وبذلك أرحت نفسي منها • وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير • يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء • وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قرب السياج • ان البرية تبدأ هنا • المكان خال جميل • سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي • يدي في يده • ان يده صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة • انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا• قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم، حينما شدّك • • • » قلت : « ما العمل يا صغيري ايليوشا ؟ » ، قال : « لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدّعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » • قلت له : « لا ، لا يا صغيري ايليوشا ، لن أقبل منه مالاً في يوم من الايام ! » • أخذ الصبي يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين، وغمرها بالقبل• ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المبارزة ! فالأطفال يدعون في المدرسة أنك جبان ، وأنك لن تطلبه الى المبارزة ، وانما ستقبل منه عشر روبلات • » • فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز أخاك ، وأطلعته بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصغى اليّ باتنباه ، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرته : « بابا ! لا تصالحه أبدا • ولأطلبنه أنا الى المبارزة حين أكبر ، فأقتله ! » • وأنا أبوه على كل حال • • • فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق • قلت له : « انه لاثم أن يقتل انسان انسانا ولو في مبارزة • » • فصاح عندئذ يقول : « لسوف



ايليوشا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله في مبارزة حين أكبر ، فألقيه على الأرض بعد أن أسقط له سلاحه بضربة من سيفي ، ثم ارتمى عليه وأشهر سيفي فوق رأسه قائلا له : انني أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكنني أعفو عنك ، فذلك كل ما تستحقه ! » • فانظر يا سيدي في أي شيء قد فكر هذا الصبي طوال يومين ، انظر الى الخواطر التي شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين! لقد ظل يفكر خفية في هذا الثأر الفروسي ، ولا شك أن هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر • ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا • ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذه مع رفاقه الا أمس الاول • وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة • لقد خفت عليه خوفا شديدا حين بلغني أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداء وأنه هو الذي تحداهم أولا • ان الغضب يعصف في قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم • لقد خرجنا نتنزه مرة أخرى في يوم من الايام ، فاذا هو يسألني : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن في هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل الغني يملك قدرة لا حدود لها » فقال لي بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنياً أنا أيضا في يوم من الايام ، وسأصبح ضابطا ، أغلب الأعداء ، فيكافئني القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن ••• » • وصمت بضع لحظات، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بني ايليوشا ، ليست هذه المدينة محببة الى القلب كثيرا » ، فقال : « فلماذا لا نتركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا نتركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبته بأن هذه هي نيتي في الواقع وأننا سنغادر هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال • لقد أسعدني أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نتحدث عن هذا الرحيل ، ونناقش

تفاصيله . قلت له : « سنشترى حصانا وعـربة كارّة ذات عجلتين . نركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيدا ، ونمشى نحن الاثنين الى جانبهما . وقد أُركبك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسأمشى على قدمى ، لأن علينا أن نراعى الحصان وأن نداريه ، والا فستنهد قواه اذا اضطر أن يجر الأسرة كلها . سنرحل قريبا » . بهـذا وعدته . تحمس الصبى تحمساً شديداً ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يركبه هى التى تلهب حماسته أكثر من أى شىء آخر . ان الصبيان فى روسيا يولدون فرسانا كما تعلم . وقد ثرثرنا مدة طويلة فى ذلك المساء . قلت لنفسى : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهدأت نفسه ، وسُرّى عنه . » . حدث هذا فى مساء أمس الأول . ولكن كل شىء تغير أمس من جديد . لقد عاد من المدرسة فى الظهر مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى . وفى المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية . كان مصراً على الصمت فما ينطق بكلمة . الريح تهب قليلا ، والسحب تغطى الشمس ، والغسق يهبط . ان المرء يحس قدوم الخريف . كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حـزن دفين . قلت له آملاً أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرنا » . فلم يجب . ولكننى شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف فى يدى متشنجة . قلت لنفسى : «حالته سيئة ... لا شك أن هناك جديدا . » . ومضينا الى تلك الصخرة التى تراها هناك . جلست على الصخرة . كان فى السماء طيارات كثيرة من طيارات الورق التى يطلقها الأولاد . انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع . كان فى السماء يومئذ ثلاثون طيارة من هذه الطيارات على الأقل . ذلك هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء . قلت له : « لقـد آن لنا يا ايليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طيارة العام الماضى . سوف

أتولى أنا اصلاحها . أين وضعتها ؟ » . لم يجب بشيء ، وانما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب . وفجأة هبّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من غبار ... فاذا هو يرتمى علىّ ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه . تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين يستطيعون أن يكظموا ألمهم وأن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيرا ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول . فما هى الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقا فى هذه الدموع المنهمرة الحارة . كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعادا قويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الىّ وهو جالس على الصخرة . قال لى منتحباً : « بابا ! ما أشد ما أذلّك ! » . فأجهشت أبكى أنا أيضا . وتعانقنا عناقا شديدا والدموع تهزنا كلينا . فكان ما ينفك يردد قوله : « بابا ... حبيبى بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ... بنى الطيب ايليوشا ! » . لم يرنا أحد فى تلك اللحظه ... لم يرنا الا الرب من علياء سمائه ... الرب الذى قد ينتصف لى . أشكر أخاك يا ألكسى فيدوروفتش . لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأسرّك وأرضيك ! ...

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سخريته المرة الحانقة الوضيعة . ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل، وأن هذا الرجل ما كان له أن « يتحدث » الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصّه عليه هو . وسُرّ أليوشا من ذلك . كان يرتعش من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تسيل .

قال أليوشا :

ـ أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيىء ..

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

ـ كما تشاء ... طبعاً ...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

ـ يجب عليّ الآن أن أكلمك في شيء آخر . اصغ الي . ان أخي ذاك نفسه ، ان دمتري ذاك نفسه ، قد أهان خطيبته أيضا ، وهي فتاة نبيلة جدا أغلب ظني أنك سمعت عنها. ومن حقي أن أكلمك عن الاهانة التي ألحقها بها ، بل ان ذلك واجبي أيضا ، لأن هذه الفتاة ، بعد أن علمت بالاساءة التي نالتك ، وبعد أن عرفت الظروف البائسة التي تعيش فيها.. قد كلفتني ... قد عهدت اليّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت مني أن أقدمها اليك . اعلم أن هذه الفتاة هي التي ترسل اليك المعونة لا أخي دمتري الذي هجر الفتاة من جهة أخرى ... والمعونة ليست من دمتري على كل حال ، ولا مني أنا أخيه ، ولا من شخص آخر ، بل منها هي وحدها . وهي تتوسل اليك أن تقبل معونتها ... ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن أُلحقت بها الاهانة نفسها التي أُلحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) . فهي اذن أخت تريد أن تساعد أخاها ... لقد كلفتني أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين من الروبلات ، معونةً من أختٍ لأخيها . ولن يعلم أحد بالأمر ، ولن تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع . اليك المائتي روبل ... عليك أن تقبلها ... أحلف لك ... والا كان على البشر أن يعدوا أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة في هذا العالم.. انها موجودة أيضا ... ان لك نفساً نبيلة ... فلسوف تفهم ... لسوف تفهم حتماً ! ...

قال أليوشا ذلك ومدّ الى الرجل ورقتين نقديتين جديدتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا في تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد • بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا في نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتعش في أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصةً • انه لم يحلم بشيء من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة• انه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهبّ الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ • تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة •

ــ أهذا لي ، لي أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! انني لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهي تعطيني هذا المبلغ كما تعطي أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

هتف أليوشا يقول :

ــ يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

ــ قل لي يا صديقي العزيز : أأكون جبانا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جبانا ، أليس كذلك ؟ أأكون جبانا في نظرك ؟ اصغ اليّ يا ألكسي فيدوروفتش ، اصغ اليّ حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه في كل لحظة) : انك تشجعني على قبول هذا المال ، لأنه مرسل اليّ من أخت ، ولكن ألن تشعر نحوي باحتقار وازدراء ، في قرارة نفسك ، سراً ، اذا أنا أخذته؟ قل •••

ــ يميناً لا ••• أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعني أنا وأنت وسيدة أخرى هي صديقتها الكبرى •••

ـ لا تهمني السيدة • دعني أقول لك كل شيء • انني في لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الافصاح عن كل ما بنفسي •

ثم أضاف الرجل البائس الذي أخــذت تغزوه شيئا فشيئا حماسة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

ـ انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة اليَّ اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يســمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

ـ ان هذا المبلغ ليس مالاً حلالاً ترسله اليَّ « أُخت » محترمة مبجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضــا على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتي الحبيبة ، ملاكي الحدباء ، نينوتشكا التي يمكنني أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسنشتوبه في ذات يوم ، شهامةً منه ونبلاً ، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال « انه لم يفهم من الأمر شيئاً » ، ذكر أن الماء المعدني (الذي وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضــاً حمامات للرجلين بأملاح طبية • وسعر الماء المعدني ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذ كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا البذخ والترف ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين في اليوم ، مرةً في الصباح ومرة في المساء • فكيف يكون في وسعها أن تتبع هذا العلاج في مسكننا الفقير ، بغــير خادم ، بغير أحد

يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الرومانزم ــ لم أذكر لك هذا من قبل ــ وهى تشعر فى الليل بآلام شديدة فى كل الجانب الأيسر من جسمها • ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمســـك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا • ونحن نأكل بقدر ما تتيح له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام • فهل تصدق أنها تختار لنفسها فى كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا • أنا أحرمكم من نصيبكم ، وأنا عبء عليكم جميعا» • ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناءً فى سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها: « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها » أهى تستحق ؟ هى ؟ مع أنها هى التى تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح فى بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحــلوة الرقيقة العذبة التى تعرف كيف تقولها فى اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تليِّن حتى فاريا ! واياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هى أيضا ملاك •• هى ضحية ••• مثلنا جميعا ••• لقد وصلت الينا هذا الصيف وفى جيبها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التى يجب أن تكون فى شهر ايلول (سبتمبر) ، أى الآن • ولكننا أخذنا هـــذا المال وأنفقناه فى سدّ رمقنا • فبأية وســيلة يمكنها أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لاتمام دراستها ؟ هأنت ذا عرفت كيف تجرى أمورنا • ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمـــل فى خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وترقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات، تبكى لأيسر سبب ، تبكى لغير سبب ، فهى مجنونة ... هى مجنونة ، الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الروبلات المائتين أن أستخدم خادما ... هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أدارى المريضتين العزيزتين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ، وسوف أشترى لحماً ، فأحسِّن ما نصيبه عادةً من طعام . آه ... يارب السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هـذا الفرح كله ، وهنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة .

ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت فى نفسه حماسة جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

ـ لحظةً يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخـرى ! هل تعلم أننى أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا وأن أفى بوعدى له ؟ لسوف نشترى حصانا وعربة كارّة . وسيكون الحصان أكحل . ان ايليوشا يصرّ على هذا اللون . وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول . اننى أعرف فى مدينة «ك» محاميا هو من أصدقاء الطفولة . وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقى هذا سيعيننى كاتبا فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك المدينة . من يدرى ؟ قد يستخدمنى فعلا ! سأُقعد الأم اذن على العربة ، وسأقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره، وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة . وهكذا نرحـل جميعا ! يا رب السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به أحدهم هنا ، اذن لملكت من المال ما يكفينى لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

ـ ستملك ما أنت في حاجة اليه ! سترسل اليك كاترين ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه . وأنا أيضا عندي بعض المال ، هـل تعلم ذلك ؟ خذ مني ما أنت في حاجة اليه ، خذه مني كما يأخذ أخ من أخيه، كما يأخذ صديق من صديقه . وسترده الىّ في المستقبل (ذلك انك ستغتني ، هذا مؤكد) . صدقني اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم آخر هي خير فكرة يمكن تخيلها . ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنـك خاصةً . وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شيء . سافر قبل حلول الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد . وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة . ليس هذا حلماً ، ليس هذا حلماً البتة !

ودّ أليوشا لو يقبله وهو فيغمرة الفرح هذه. ولكنه أمسك فجأةً حين نظر اليه . لقد مدّ الرجل عنقه ، وقدّم فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة . ان شفتيه تختلجان ، كأنما هو يهمس بشيء أو يحـاول أن يتكلم . ولكن لم يخرج من فمه أي صوت ، وظل يحرك شفتيه صامتا. منظر غريبٍ مقلق .

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا ؟ :

ـ ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كانسان يهم أن يهوى في فراغ ، بينما شـفتاه تصطنعان ابتسامة :

ـ ألكسي فيدوروفتش .. انني .. أ .. نعم .. انني أ ...

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع :

ـ هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتى ؟

ـ براعة ؟

ـ نعم ، براعة من نوع براعة الحواة !

كذلك أجاب الضابط المتقاعد فى همس أيضا .

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

ـ ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

ـ نعم .. هى براعة .. أنظر .

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمناه ، ثم اذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما فى قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقا وقد أخذ منه الحنق كل مأخذ .

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

ـ فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحبَ الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل .

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير اليهما باصبعه :

ـ هل تراهما ؟ اليك هما ! ..

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشى ، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

ـ أنظر ماذا أفعل بمالك ، أنظر ماذا أفعل به ! انظر اليهما ، ورقتيك ...

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا مشدود الجسم منتصب القامة . كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا تغلب .

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

ـ قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تبيع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا . ولكنه ما ان قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا ، وحرّك له يده مودّعاً . ثم ما ان قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتاً نحو أليوشا مرة ثانية . كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلّها دموع . وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

ـ ماذا كان يمكنني أن أقول لابنى لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى . تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق . وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما . انه الآن يركض ، ولن يرجع . ذلك أمر كان منه أليوشا على يقين . ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه، لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك . حتى اذا غاب الرجل عن بصره ، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين فى الرمل ، ولكن دون أن يصيبهما أى تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان . حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دعك ، عاد فطواهما ودسهما فى جيبه . ثم سار فى طريقه ليبلغ كاترين ايفانوفنا ثمرة مسعاه فى انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه .

حواش

الصفحة

١٢	★	« الحق الحق أقـــول لكم ··· » : يرى بعضهم أن تصـدير دوستويفسكي كتـــابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكي بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة ·
١٩	★	ان اسم كارامازوف ، كغيره من أســماء بعض الأسر النبيلة ، يرجـــع الى أصل تترى · ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستويفسكي هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثـــانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف · ويقال ان دوستويفسكي قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه · ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا ·
١٩	★	«ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ···» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستويفسـكى يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قـد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩
٢٧	★	« ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تحببا
٢٨	★	بيير ـ جوزيف برودون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) وميشيل باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب الفوضوى » منذ ١٨٤٠
٢٨	★	« الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش ·

٢٨ ★ يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر «بألف نفس»: ألف نفس ، أي ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضي المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار •

٣٥ ★ « كليكوشي » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسي ومعناه صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتي يأخذن في صراخ كأن بهن مسا من جن •

٤٠ ★ « لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركي » : ان مسألة المحاكم الاكليركية (التي كانت تفصل في شئون الطلاق خاصة) ترتبط باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت في الصحافة مناقشة حادة في ذلك العهد •

٤٤ ★ « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما وتبجيلا على الرهبـان الطاعنين في السن • أما العجوز العادي فاسمه بالروسية « ستاريك » •

٥٤ ★ « الشيخ زوسيما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ أمفروسي الذي زاره دوستويفسكي في أوبتينا سـنة ١٨٧٨ ، ولكن دوستويفسكي قد استوحى أيضا كتابا بعنوان : « حياة الشيخ الراهب زوسيما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب في موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوي ، وقد كان في شبابه ضابطا في حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح شيخا يعيش حياة نسك قاسية • وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستويفسكي في اعداد الباب السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » •

٥٦ ★ « رأيت طيـــف حوذي ••• » : عرض بتصرف لمقـــطع من النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التي تصف الجحيم) ، وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو •

٥٩ ★ « أعلن الرسول توما ••• » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عـــدم تسرعه في التصديق قد أشـير اليه في انجيل يوحنا (الاصحاح العشرين ، ٢٤ ـ ٢٩) ٠

٦٢ ★ بائيسي فيليتشكوفسكي (١٧٢٢ ـ ١٧٩٤) : ناسك يرجـع أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهبـــا في جبـل آثوس ، وفالاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذى أدخل نظام « المشايخ » الى روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت ٠ وقد نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٣ ★ كوزلسكايا أوبتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب كوزلسك في مقـــاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق تائب ، اسمه اوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه ٠ وزاره دوستويفسكي في شـهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٨ بصـحبة الفيلسوف الشـــاب فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠) بعد موت ابنه أليوشا ٠ وكان في هــــذا الدير الشيخ أمفروسى ، الذى اتخذه دوستويفسكي نموذجا للشيخ زوسيما في هذه الرواية ٠

٦٤ ★ « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون في عصرنا ٠٠٠» ٠ هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ ـ ١٧٠٤) الذى قضى حياته في الاديرة بتركيا وفلسطين ، ثم أصبح أسقف هولموجورى ، ومات في روسيا ٠ كان دوستويفسكي مطلعا على حجات هذا الراهب الى الشرق ٠

٧٢ ★ يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير في الكنيسة الارثوذكسية اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية ٠

٨١ ★ «فون سون» موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ في ماخور بموســكو ، ووضعت جثته في صندوق وأرسل الصندوق الى سان بطرسبرج بالقطار ٠

٨٢ ★ « لكل دير قواعد ٠٠٠ » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » ٠

٨٧ ★ « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة ١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » في روسيا ٠

٨٩ ★ « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك٠٠»:
ها هنا لعب لعظى على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فأما كلمة ايسبرافنك التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار نابرافنك (١٨٣٩ ـ ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو من أصل تشيكى ، وقد شاءت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح ٠

٩١ ★ الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) ، دعته كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون لفشين (١٧٣٧ ـ ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى العهد بافل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو ٠

٩١ ★ الاميرة كاترين داخكوفا (١٧٤٣ ـ ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ، وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب ٠

٩٥ ★ « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »:
كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) ٠

٩٨ ★ هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠» : هذه القصة لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا:

١٠٧ ★ ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا ٠

١٠٧ ★ « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : فى هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى • وقد كتبت أرملة دوستويفسكى تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا أليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر • ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية » •

١٠٧ ★ نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا •

١١٠ ★ « هذه راشيل ••• تبـــكى صـــغارها ••• » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ أمفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه •

١١٢ ★ « سأذكره فى صلواتى » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسى ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا •

١١٥ ★ النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » •

١٢٢ ★ « أوبدورسك » : مدينة صغيرة فى أقصى شمال سيبريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد •

١٣٤ ★ « كان أحد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسالة » : ان أستاذا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتـــابا عنوانه : « بحث فى الاسس العلمية للقضـــاء الاكليركى » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب ••

١٣٥ ★ « ولكن هذا ليس الا عقيدة ممـا وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو ايطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التى تتفق ودعاوى بابا روما • وهكذا تفهم النكتة التى ترد فى الحوار بعد ذلك « ــ نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال » •

١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه ٠

١٥٠ ★ « باتيوشكا » : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة ٠

١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدرامة التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور ٠ فأما الاول وهو كارل مور فيترأس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهيىء مقتل أبيه ٠

١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشـارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لانها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) ٠

١٧٦ ★ « جروشنكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشـتق من اسم أجرافين تصغيرا ٠

١٧٧ ★ «ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقيها الصغيرتين فى شعره»: ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « أوجين أونيجين » ٠

١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة ٠

١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا ٠

١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها أنبياؤها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم وأعمال خليعة ٠

١٩٨ ★ « قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » ٠

١٩٨ ★ أحسن متجر لبيع المواد الغذائية في سان بطرسبرج ٠

٢٠١ ★ « فانيا » : تصغير اسم ايفان

٢١١ ★ « اسحاق السوري » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ في موسكو ٠ وقد ضمت مكتبة دوستويفسكي هذا الكتاب ٠

٢١٢ ★ « اليزابت سمردياستشايا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة ٠ وقد روى أخو دوستويفسكي الاصغر (وهو آندره دوستويفسكي) في مذكراته التي نشرت سنة ١٩٣٠ أن امرأة معتوهه اسمها أجزافين كانت تسكن في أراضي أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ ـ ٢٥ سنة ٠ وكانت قليلة الكلام ، فاذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا ٠ فاذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة ٠ ويظهر أنها كانت معتوهة منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات في سن مبكرة ٠ فحين قرأت قصة اليزابت في رواية الإخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافين» ٠

٢١٤ ★ « يوروديفايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » ٠

٢٢٤ ★ « ان مدينتنا مبعثرة جدا ٠٠٠ » ٠ ان دوستويفسكي يسمى هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد ـ بهائم) ٠ وفي المسودات يسميها توبولسك ، وفي رأى زوجة دوستويفسكي أنه وصف ستارايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة ، بأقنيتها ، وحفرها وحدائقها ذات الاسيجة الخشبية ٠

٢٢٧ ★ هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء الثاني ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) ٠

٢٢٨ ★ « اكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ، فلا تسمح لها أبدا وبدد

كل أوهامك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكراسوف ، نشرت سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها وبعثها بحبه • وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة في غير هذه الرواية («قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» ، و «في قبوي ») •

٢٣١ ★ « كن نبيلا يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشـــاعر جوته عنوانها : « الالهي » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ ★ «سيلين ذو الوجه المزهر» : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها . «آلهة اليونان» ، في ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب دمتري بالالفاظ مستغلا الجناس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون (ومعناها قوي) •

٢٣٣ ★ « سكان الكهوف الخائفون الوجلون » : ان دمتري لا يتلو هنا نشـــيد الفرح بل قصيدة أخرى للشـــاعر شيللر هي « عيد ايليئوزيس » (١٧٩٨) في ترجمة روسية قام بها ف • آ • جوكوفسكي (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) •

٢٣٥ ★ « روح العالم التي خلقها الله » : هاتان همـــا الفقرتان الثالثة والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة «الى الفرح» ، في الترجمة الروسية التي قام بها ف•اي• تيوتشيف، وقد استخدم بتهوفن هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة •

٢٧٠ ★ « الكولبياكا » : فطائر بالسمك •

٢٧١ ★ « حمارة بلعام » : ان الأتان التي ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) •

٢٧٣ ★ « سهرات في المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة أقاصيص خيالية رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) •

٢٧٤ ★ « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف : هو موجز في التاريخ للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل .

٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى » : هو ايفان كرامسكوى (١٨٣٧ ــ ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية فى ذلك العصر ، وقد رسم وجوه تولستوى ونكراسوف وغيرهما فى لوحات رائعة .

٢٨٦ ★ « جاء فى الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ... » : تحوير لما ورد فى الأناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شىء غير ممكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) .

٢٩٢ ★ « ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ قد الغى العقوبات الجسدية فى محاكم الدولة ، ولكنه تسامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .

٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى بيرون (١٦٨٩ ــ ١٧٧٣) .

٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من زماننا » ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .

٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى ايفان وأليوشا .

٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة» : ان دمترى يسمى أباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف

أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عي اللسان أحدب ٠

٣٦٠ ★ « ايكاتيرنبورج » : مدينة فى منطقة المنـاجم من الاورال ، على طريق سيبريا ٠ وتسمى الآن سفردلوفسك ٠

٣٧٨ ★ « ميتكا » : تصغير تحقيرى لاسم ميتيا (دمترى) ٠

٣٨٠ ★ « جروشكا » : تصغير تحقيرى لاسم جروشنكا (أجرافين) ٠

٣٨٢ ★ « فانكا » تصغير تحقيرى لاسم فانيا (ايفان) ٠

٣٨٨ ★ « أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » : روت أرملة دوستويفسكى أن هذه الطريقة هى التى كان يستعملها زوجها فى مخاطبة أطفال لا يعرفهم ٠

٤٢٤ ★ « بالشكر ياسيدتى لا أحفل » : آخر بيت من قصـــيدة شيللر « القفاز » (١٧٩٧) ٠ ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج ٠

٤٣٨ ★ « الرائد سينجيريف ــ س » : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن ٠ فهكذا يتـكلم الحقراء أمام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر الكلمات ٠

٤٤٢ ★ « ايليوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا ٠

٤٤٥ ★ « ليس فى الطبيعة كلهـــا ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة ليرمونتوف التى عنوانها «الشيطان» ٠ وهاهنا تحريف ، فالنص الاصلى لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك شيئا فى الطبيعة بأسرها » ٠

٤٤٥ ★ « تشرنومازوف » : لعب لفظى على اسم كارامازوف الذى يعنى نصفه (كارا) : أسود (تشرنى) فيـكون معنى تشرنومازوف : «المسود» أو «الملطخ بالسواد» ٠

فهرس

الموضوع	الصفحة

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

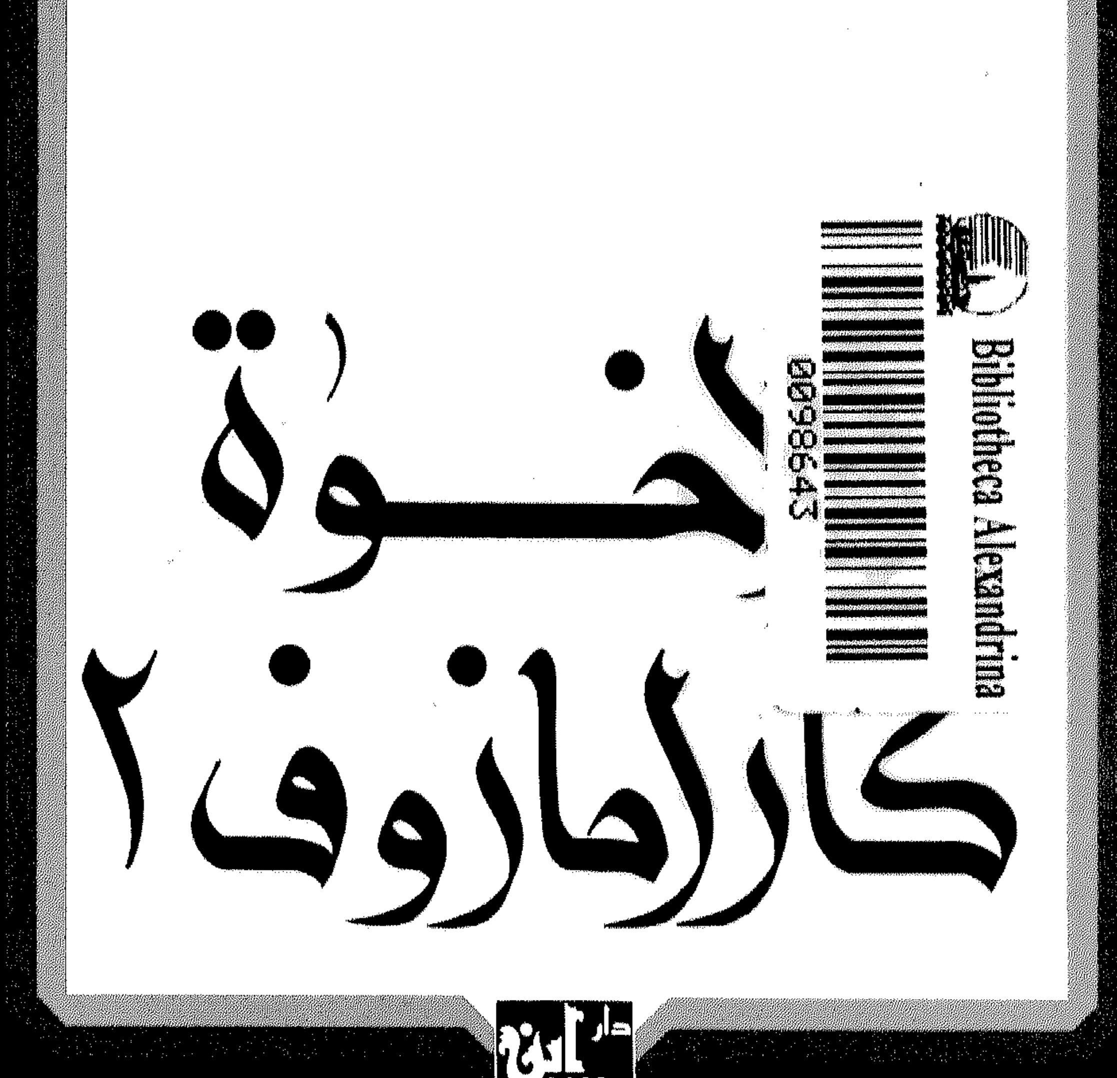
"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" "والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٧

ترجمة الدكتور سامي الدروبي





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السابع عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة ـ ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان ـ شارع فردان ـ بناية شبارو
ص.ب: ٥٥٣٧ / ١٤ ـ هاتف: ٣٥٢٨٢٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك ـ ايطاليا ١٩٨٥

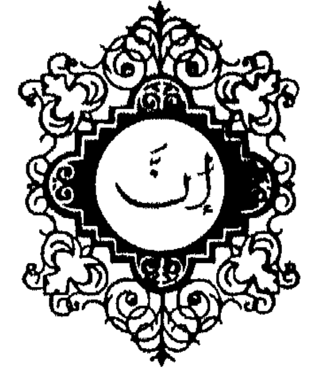
Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA · Via Bertini, 34 · 20154 Milano

الإخــوة كارامازوف
٢

الباب الخامس: ما للأمر وما عليه

١

الخطوبة



إن السيدة هوخلاكوفا هي التي استقبلت أليوشا من جديد في الدهليز • كانت تبدو منهكة جداً • لقد وقع حادث خطير : ان نوبة الهستريا التي أصابت كاترين ايفانوفنا قد « انتهت الى اغماء أعقبه ضعف فظيع واعياء رهيب • لقد رقدت كاترين ايفانوفنا ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهذى ، وارتفعت حرارتها • واستدعينا الدكتور هرتسنشتوبه والعمتين ، فوصلت العمتان ، ولكن الطبيب تأخر وصوله • الجميع محتشدون الآن في غرفتها • انهم ينتظرون قلقين خائفين • ماعسى يحدث ؟ انها في غيبوبة • آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية • • » •

كانت هيئة السيدة هوخلاكوفا تدل على ذعر حق • فهي تصيح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع : « الأمر في هذه المرة خطير ، خطير جدا » ، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة • كان أليوشا يصغي اليها بمرارة • أراد أن ينهي اليها نتيجة المساعي التي قام بها ، ولكنها كانت تقاطعه منذ ينطق بأول كلمة قائلة له : « ليس الآن » • ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه • وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا ، واعدة اياه أن تلحق به فيما بعد •

قالت له بما يشبه الهمس في أذنه ، مفضية اليه بسر :

ـ تصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش ! لقد أدهشتنى ليزا أشد الدهشة منذ قليل ؛ ولكنها تبلغ من التأثير فى قلبى أننى أغفر لها راضية ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامة صادقة جدا ، لأنها فيما نزعم قد سخرت منك أمس واليوم . الحقيقة أنها لم تسخر سخراً ، فأنا أعرفها، وانما هى مزحت مزاحاً . ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكى، فما وسعنى الا أن أدهش. لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر منى ، سخراً لا خبث فيه على كل حال . وهى تسخر منى بغير انقطاع كما تعلم . أما الآن فالأمر خطير . لقد أصبح كل شيء خطيراً . انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسى فيدوروفتش ، وما ينبغى لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها . لا تسوءنْك أساليبها . أنا شخصياً أفعل ما أستطيع أن أفعله لأداريها وأراعيها ، ذاك أنها لطيفة جدا ، ذكية جدا ... ليتك تعلم كم هى لطيفة وذكية ! ولقد ذكرت لى منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها ، أنك كنت « خير أصدقاء طفولتها ، وأخلصهم ، وأصدقهم » . كذلك قالت . أصدقهم ، هل تفهم ؟ فأين مكانى أنا من نفسها اذن ؟ ان لها فى هذا المجال ذكريات حية وعواطف عميقة . وهنالك خاصة تلك العبارات وتلك الكلمات التى تجيد استعمالها ، تلك التراكيب التى لا يتوقعها المرء ! ذلك يخرج من فمها فجأة ، ارتجالا . قصة الصنوبر تلك مثلا . لقد كان فى حديقتنا شجرة صنوبر ، أيام كانت ليزا صغيرة جدا . أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن ، فما ينبغى أن نتحدث عنها بصيغة الفعل الماضى . ليست الأشجار بشراً يا ألكسى فيدوروفتش ، انها لا تتغير . قالت ليزا منذ أيام : « ماما ، اننى أرى شجرة الصنوبر هذه كأنها فى حلم ، أى « Sosna mak so sna » .
الحق أنها قالت لى ذلك بطريقة أخرى * . نسيت الآن كيف قالت لى ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة فى ذاتها . ولكن ليزا بلغت من

الطرافة والأصالة فى توشيتها أننى لا أستطيع أن أقلدها • ثم ان هذا كله قد خرج من رأسى • والآن ، الى اللقاء • ان هـذه الأحداث قد قلبت نفسى رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقـلى • لقد أوشـكت يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش أن أُجنّ مرتين فى حياتى • فاضـطروا الى معالجتى • اذهب الى ليزا ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة •

ثم صرخت تنادى ليزا وهى تقترب من الباب :

ـ ليزا ! جئتك بألكسى فيدوروفتش الذى تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى • انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أؤكد لك ذلك ، بل انه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !

ـ شكراً يا ماما ! ادخل يا ألكسى فيدوروفتش •

دخل أليوشا الغـرفة • ان ليزا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ، خجلى خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين • كان واضحاً أنها تشعر بشىء من الخزى • وكما يحدث دائما فى مثل هذه الحـالة ، طفقت تتحدث فى أمور لا شأن لها فى نظرها ، متظاهرةً بأنها مهتمة بها فى هذه اللحظة اهتماما كبيرا • قالت :

ـ حدثتنى أمى منذ برهة يا ألكسى فيدوروفتش عن المائتى روبل ، وعن المهمة التى كلفت بها ••• لدى ذلك الضابط المسكين ••• وقـد وصفت لى الاهانة الفظيعة التى أُلحقت به ••• رغم أن أمى لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هى تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتُسقط فى جميع الأحيان تفاصيل هامة ••• لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت • فقل لى الآن : هل أعطيته المبـلغ وكيف تصرف هـذا الانسان الشقى المعذب ؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن اخفاق مسعاه هو ما يشغل باله، أجاب يقول :

ـ المشكلة هى أننى لم أعطه المبلغ ! تلك قصة طويلة !

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه فى ضيق وحرج ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث فى أمور ليست بذات بال • وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروى الحكاية ، فما ان قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تماما ، وحتى أسر انتباه ليزا • كان يتكلم وهو ما يزال تحت وطأة الانفعال الذى ما يزال قوياً فى نفسه لم يخمد أواره ، ذلك أن الضابط المتقاعد قد أحدث فى نفسه أثرا شديدا • وقد عرف كيف يروى القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة • كان قد اعتاد فى الماضى ، بموسكو ، أن يجىء الى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى ، فكان يتفق لهما فى كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاما مشتركة أو أن يخترعا حكايات هى فى الغالب مضحكة خيالية غريبة • وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ويشعران فى نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التى قضياها هنالك قبل سنتين • اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطرابا قوياً • لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبى ايليوشا صورة حارة • فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف كيف داس المسكين الورقتين النقديتين ، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

ـ ألم تعطه المال اذن ؟ أتركته ينصرف ؟ أوه ! يا رب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه ، فتحاول أن تكلمه مزيدا من الكلام •••

ـ لا يا ليزا ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه • ذلك أفضل •••

قال أليوشا ذلك وهو ينهض شارد النظرة حالم الهيئة ، وأخذ يسير فى الغرفة •

ـ هذا أفضل ؟ كيف يكون هذا أفضـــل ؟ لسوف يهلكون الآن فقراً !

ـ لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال • سيقبلهما فى الغد حتماً •

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير فى الغرفة مطرقاً مفكراً :

ـ نعم ••• لن يعارض فى الغد ••• هذا أكيد •••

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

ـ لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة •

ـ ما هو الخطأ الذى ارتكبته ، ولماذا تتصور أنه ستكون له ثمرات طيبة ؟

ـ اسمعى • ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل • لقـــد أرهقه القدر ، ولكن له قلباً طيباً • حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهـل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، ثقى بهذا ! وأحسب أننى استشف الآن الأسباب الكثيرة التى جعلت شعوره تُجرح ••• وكان ذلك أمراً لا بد منه ••• فهو أولا قد أسرف فى اظهار ابتهاجه بهـــذا المال أمامى ، ولم يكتم سعادته فى اللحظة الأولى • فلا بد أنه شعر بعد ذلك بمذلة من استجابته تلك السريعة التى لم يستطع أن يسيطر عليها وأن يتحكم بها • فلو أنه اغتبط اغتبـاطا أقل ، لو أنه امتنع عن اظهـــار هذا الاغتباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال ، لقبل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة • لقد أسرف فى الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره • آه يا ليزا !

انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعّب الأمور دائماً في مثل هذه الأحوال.
لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل .
وكان يضحك ضحكه صغيرة أيضا ... يضحك أو يبكي ... لا أدري
... بل أدري ... لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء .. كان يبكي
حماسةً ... حدثني عن ابنتيه ... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في
مدينة أخرى ... لقد فتح لي قلبه ، وأسرّ لي بذات نفسه ، وأفاض في
الافصاح عن عواطفه ... فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي
وعار ... ثم اذا هو يشعر نحوى بكرهٍ على حين فجأة . انه واحد من
أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الاحساس بالخجل والعار .
لقد شعر بالذل من انه سارع يعدني صديقا ، وأنه استسلم لي بغير مقاومة.
في بيته كان قد هدّدني وتوعّدني تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال
يسارع فيوشك أن يرتمي على عنقي . لقد ودّ لو يقبلني ، وكانت يداه
تلامسني في كل لحظة . فلهذه الاسباب جميعا أحسّ أنه أذلّ نفسه
أمامي ؛ ومما زاد الطين بلة أنني ارتكبت تلك الخطيئة ، أنني قارفت تلك
الغلطة الخطيرة : لقد صرّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيدا من المال اذا
كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه
أن أسهم أنا في ذلك بمالي اسهاماً كبيرا . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل :
لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن المذلين
أمثاله لا يحبون أن يروا جميع الناس تتقدم اليهم محسنة . ذلك يشق على
أنفسهم كثيرا . سمعت هذا الرأي كثيرا ، ولا سيما من الشيخ زوسيما.
لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتيح لي أن ألاحظها بنفسي
مرارا . ثم انني لو كنت في مكانهم لكان رديّ كردّهم . انني أشعر
بذلك في ذات نفسي . يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر
لحظة بأنه سيدوس المال أخيرا ، كان يشعر بذلك شعورا غامضا مبهما .

هذا أكيد • ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض المبهم بأنه سيقوم بهـــذه الحركة ••• على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمه داعيةً الى الأسف والحسرة ، فما ينبغي أن نقلق منها • بل انني لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل ، وأن الأمور هي الآن على خير ما يرام •••

ــ على خير ما يرام ؟ كيف هذا ؟ انني لا أفهم !

كـذلك هتفت ليزا وهي تلقي على أليـــوشا نظرة دهشة • فقال أليوشا :

ــ لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لظل يبكي في بيته من الذل ساعةً بكاملها ، ذلك أمر محتوم ، واندم على ما فعل ولجاءني مع الغد حانقاً ساخطاً ليرمي بهما وجهي ، أو ليدوســهما بقدميه كما فعل منذ قليل • أما وقد صنع ما صنع ، فسيشعر بعـــد الآن بالكرامة والكبرياء ، وبالظفر والانتصار ، رغم علمه بأنه قد « ضـــيّع بفعلته نفسه » • يترتب على ذلك أنه لن يكون هنالك شيء أسهل من ردّه الى قبول هاتين المائتين من الروبلات منذ لغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه • ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردهما اليه في الغداة • وهو في حاجة رهيبة الى هذه المساعدة الماليه ؟ ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر في هذا الأمر طوال النهار ، وسيدرك مدى الخسارة التي مني بها • وسيكون أمره في الليل أدهى ، فان الندم والحسرة سيقضان مضجعه، وسيعذبانه في أحلامه، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالا الى المجيء اليّ معتذراً • وفي تلك اللحظة انما سأذهب اليه أنا ، وقد لاح في وجهي انني أقول له معترفاً : « أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فاقبل الآن هذا

المال ، واغفر لى واعف عنى » . وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب .

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه السكر . وصفقت ليزا يديها احداهما بالأخرى ، وقالت :

ــ هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شيء فهماً تاماً ! أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق ... ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك !

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة الحماسة :

ــ الأمر الأساسى الآن هو أن نقنعه بأننا سنعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا . يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب ، بل على قدم التفوق أيضا ...

ــ « على قدم التفوق » هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن هلاّ شرحته لى ...

ــ أقصد ... الحق أننى لم أحسن الافصاح ... لا ... ليس الأمر أمر قدم ... ولكن سيان ...

ــ طبعا ... سيان ... أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، ياعزيزى أليوشا ... لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً ، هل تعلم ؟ أقصد ... كنت أحترمك ، ولكن على قدم المســاواة ، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق ...

وسرعان ما أردفت تقول بحرارة :

ــ لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفكهت وتندرت قليلاً .

أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت ••• قل لى يا ألكسى فيدوروفتش ، ألا تظن أن فى استدلالاتنا ، أو قل فى إستدلالاتك أنت ــ لا فى استدلالاتنا نحن ــ شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين ، شيئا من الازدراء له ؟ اننا نشرِّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه • أفلا نبرهن على احتقار له حين نطمئن كل هذا الاطمئنان منذ الآن الى أنه سيقبل أخذ المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

ــ لا يا ليزا ، ليس يداخل هذا شىء من احتقار البتة • لقد ألقيت على نفسى هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا • فكرى قليلا : كيف بمكننا أن نحتقره ونحن جميعا مثله ، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعا مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهبنا خيراً منه الآن ، فاننا لن نبقى خيراً منه متى وُجدنا فى ظرف كالظرف الذى هو فيه • لا أستطيع أن أقطع برأى فيما يتصل بك أنت يا ليزا ، ولكننى على يقين من أننى أنا « مسكين » فى بعض الأمور • أما ذلك الضابط فليس « مسكيناً » ، ان له نفساً مرهفة جداً • لا يا ليزا ، صدقينى ، ليس فى موقفنا هذا احتقار ولا ازدراء • هل تعرفين ماذا علمنى شيخى مرة ؟ قال لى : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى •••

ــ قل لى يا ألكسى فيدوروفتش ، قل يا صديقى ! ما رأيك فى أن ننذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى ؟

ــ أوافق يا ليزا ، أتمنى • ولكننى لست متأهباً بعد كل التأهب • ان صبرى ينفد فى بعض الأحيان ، فأضيق ذرعاً • وفى أحيان أخرى أرانى غائباً فما ألاحظ شيئا • أما أنت فشأنك شأن آخر •

ـ لا أصدق من هـــذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ما أعظم سعادتى !

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا !

ـ ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبه خارقة • ولكنك توهم فى بعض اللحظات بأنك متفيهق قليلا • ومع ذلك فان المـــرء حين يعرفك مزيدا من المعرفة ، يدرك أنك لست كذلك ••• اقترب من الباب فى رفق وهدوء ، فافتحه بلا ضجة ولا ضوضاء ، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا •

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبى • فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما •

وتابعت أليوشا كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

ـ أقترب منى مزيدا من الاقتراب • هات يدك ••• هكذا ••• يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جداً •••

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها • كان واضحا أنها تشعر من هــذا الاعتراف بحياء شديد • وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة •

هتف أليوشا يقول :

ـ أوه ! ليزا ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الاقتناع على كل حال بأنك كنت جادةً فى رسالتك .

ـ كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفـة سعيدة •

ــ ألثم يده فيقول « حسن منك هذا » !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا •

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمرّ أيضاً :

ــ لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا ، ولكننى لا أعرف كيف أحتال لهذا ولا كيف أتدبره •

ــ أليوشا ، عزيزى ، أنت فاتر ووقح • أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاختارنى زوجةً له ثم ها هو ذا هادىء النفس! كان مقتنعاً بأننى جادة فى رسالتى ، لا مؤاخذة ! ولكن هـذه وقاحة ، وقاحة •••

سألها أليوشا ضاحكاً :

ــ أكان عيباً الى هذا الحد اذن أننى كنت مقتنعاً بذلك ؟

فقالت له ليزا وهى نلقى عليه نظرة حنونا رقيقة سعيدة :

ــ أوه ! أليوشا ! بالعكس ••• كان ذلك منك حسنا جدا ، حسنا جدا جدا •

وكان أليوشا ما يزال ممسكا يدها بيده ، فما هى الا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها فى فمها •

هتفت ليزا تسأله :

ـ ما هذا أيضا ؟ ماذا دهاك ؟

كان أليوشا قد فقد سيطرته على نفسه • قال :

ـ اغفرى لى ••• ان كنت قد أخطأت ••• لعلنى ••• حقا انها لحماقة رهيبة ••• لقد أخذت علىّ أننى بارد ، لذلك ••• قبلتك ••• ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى •

انفجرت ليزا ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها • ثم لم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية :

ـ أتفعل هذا وأنت فى مسوح الراهب أيضا ؟ ان علينا أن ننتظر قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا • نحن لا نعـرف حتى الآن كيف نتدبرها ، لا أنا ولا أنت • لا بد لنا أن ننتظر زمناً طويلا أيضا •

بهذا ختمت كلامها فجأة • ثم أردفت بعد لحظة تقول :

ـ ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلى هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة ؟ ••• أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك أبدا •••

ـ لا تقولى مثل هذا الكلام يا ليزا • سوف أترك الدير تماما بعد بضعة أيام • فاذا عشت فى العالم فسيكون علىّ أن أتزوج ، أنا أعـرف ذلك • ثم انه « هو » الذى أمرنى بهذا • فأين عسى أجد امرأة خـيراً منك ••• ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شىء • أنت أولاً تعرفيننى منذ الطفولة • وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها • نفسك أقرب الى المرح من نفسى • وأنت خاصةً أكثر براءةً منى • فأنا

قد عرفت حتى الآن أشياء كثــيره • أوه ! أنت لا تعلمين هــذا ! انني كارامازوف أنا أيضا • أي ضير في أن تضحكي وأن تمزحي دائما وأن تسخري حتى مني ؟ بالعكس : اسخري ما شاء لك هواك أن تسخري•• انني لأسعد بهذا ••• انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتحكمين على نفسك بأنك شهيدة •

ـ شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ نعم يا ليزا • انظري مثلا في ذلك السؤال الذي ألقيته منــذ لحظات حين قلت : أليس في نفسنا شيء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذي نشرّح قلبه ؟ تلك فكرة تخطــر ببال شهيدة يا ليزا ••• لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر في رأيي على أن يتألم كثيرا ••• لا شــك أنك قلّبت معاني كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسي المتنقل •••

قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة :

ـ أليوشا ، ناولني يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لي يا أليوشا : أي زي تنوي أن ترتدي حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تغضب ، ذلك أن هذا الأمر يهمني كثيرا •

ـ لم أفكر بعد في الزي الذي سأرتديه يا ليزا • ولكنني أريد أن ألبس ما يرضيك أكثر من غيره •

قالت ليزا :

ـ أحب أن ترتدي سترةً من مخمل أزرق قاتم ، وصديرة من « بيكيه » بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طري ••• قل لي الحقيقة : لقد

صدّقتَ في مساء أمس أنني لا أحبك ، حين تنكرتُ لرسالتي ، أليس كذلك ؟

ـ لا ... لم أصدّق !

ـ أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصـــلاحه ! انك لا تطاق ولا تحتمل ، هل تعلم ذلك ؟

ـ كنت أعرف أنك ... تحبينني ، ولكنني تظاهرت بأنني أعتقـد بأنك لا تحبينني ... وذلك لأجعلك ... أكثر ارتياحا ...

ـ هذا شر وأدهى ! ولكن لا ... حسنا فعلت يا أليوشا ! انني أحبك حباً رهيبا ! قلت لنفسي في هذا الصباح وأنا أنتظـــر زيارتك : « سأطلب منه مرة ثانية أن يردّ اليّ رسالتي ، فاذا أخرجهـا من جيبه بلا مقاومة فمدّها اليّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحبني ولا يستحق حبي ... وأكون أنا قد هلكت . » . غـير أنك تركت الرسالة في الدير ، فردّ هذا اليّ شيئاً من شجاعتي . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أنني قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

ـ أوه ! ليزا ! كلا ... الرسالة معي الآن ، ولقد كانت معي من قبل . هي هنا ، في هذه الجيب . انظري !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكا ، وأظهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

ـ اعلمي مع ذلك أنني لن أردها اليكِ . انظري اليها من بعيد .

ـ كيف هـــذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتـك بها ؟ أتكذب وأنت راهب ؟

فقال أليوشا مسلّما باتهامها وهو يضحك :

ـ نعم أكذب ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك الرسالة .

ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد :

ـ هذه الرسالة عزيزة عليّ الى أقصى حد . سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها مني !

كانت ليزا شاخصةً اليه ببصرها مأخوذة مفتونة . ثم قالت له هامسةً :

ـ أليوشا ! هيّا انظر هل تتنصت علينا ماما وراء الباب ؟

ـ طيب يا ليزا ، سأنظر ما دمت تريدين ذلك . ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذا ؟ لماذا نظن في أمك هذا الظن ؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت ليزا مستاءةً وقد احمر وجهها احمرارا شديداً :

ـ أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن تراقب أمٌ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من واجب الأم أن تفعل هذا مع ابنتها . وليس في عملها ذاك أي اخلال بقواعد اللباقة وأصول الأدب . كن على يقين يا ألكسي فيدوروفتش من أنني حين سيكون لي ابنة أنا أيضا ، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل مناسبة !

ـ صحيح ؟ ولكن هذا شر يا ليزا !

ـ لماذا يكون هذا شراً ؟ أي ضير فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس

على حديث عادى يجرى فى المجتمع ، اذن لكان ذلك منى ضعةً وحقارة بدون ريب . أما هنـــا فالأمر مختلف كل الاختلاف . هنا فتاة مختليه بشاب ... اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن اننى سأراقبك أنا أيضا متىٰ تمت خطوبتنا ، وسأفض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك . اعلم هذا . هأناذا أبلغك منذ الآن .

ـ موافق ... ما دمت تريدين ذلك ... ولكن هذا ليس حسناً ، صدقينى .

بهذا تمتم أليوشا . فقالت ليزا :

ـ أوه !.هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقى ، لا نتشاجرن منذ أول يوم . اننى أوثر أن أعترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جدا . لقد أخطأت أنا ، وأصبت أنت . ولكننى سأراقبك مع ذلك .

فقال أليوشا ضاحكاً :

ـ راقبينى ، راقبينى .. ولن تكتشفى أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن .

ـ أليوشا ، هل ستطيعنى ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن نســـوّيها سلفاً .

ـ سأطيعك يا ليزا ، سيسرنى جدا أن أطيعك ، ولكن لا فى الأمور الأساسية . فى الشئون الهامة ، سأعمل بما يمليه علىّ ضميرى ، حتى ولو خالفتنى .

ـ هكذا أفهم أنا الأمر . ألا فاعلم يا أليوشا أننى مستعدة من جهتى لأن أطيعك لا فى الشئون الاساسية فحسب ، بل فى كل شىء ، وفى كل

وقت ، مدى الحياة ••• أعاهدك على هذا منذ الآن • واذا خضعت لك، فانني أخضع راضيةً سعيدة فرحة • (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة)• واني لأحلف لك أيضا أنني لن أراقبك أبدا ، لن أراقبك مرةً واحدة، لا ولن أقرأ رسائلك قط ، في يوم من الأيام • ذلك أنك على حق ، وانني على خطأ • أعرف أن رغبة رهيبة في مراقبتك سوف تتأجج في نفسي ، ولكنني سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا معيب في نظرك • ستكون لي بمثابة العناية الالهية ••• اسمع يا ألكسي فيدوروفتش : لماذا أنت حزين هذا الحزن كله في هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن هناك أنواعا من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكني لاحظت فيك حزناً خاصا ••• أهو ألم سري ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

ـ نعم يا ليزا ، هو حـــزن سري • انني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك •

سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة :

ـ ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرَجاً :

ـ سأذكره لك يا ليزا ••• ولكن فيما بعد • اذا حدثتك الآن عن سبب حزني ، فلن تفهمي • ثم انني لن أحسن شرحه كما ينبغي •

قالت ليزا :

ـ أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذي يعذبك !

قال أليوشا حالماً مفكراً :

ـ نعم ، هناك أخواى أيضا !

قالت ليزا فجأة :

ـ أنا لا أحب أخاك ايفان يا أليوشا .

استقبل أليوشا هذا التصريح بشىء من الدهشـــة . وتابع كلامه يقول :

ـ أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى . وهم يجرّون الى الشقاء كائنات أخرى . انهم ألعوبة في يدى « القوة الخفية الغامضة التى تحرك آل كارامازوف » ، كما قال الأب بائيسى فى الآونه الأخيرة ... هى قوة خفية ، عارمة ، لا يمكن السيطرة عليها والتحكم به ... حتى أنى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة ... ولكننى أعلم أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا . أنا فى الظاهر راهب . فهل أنا راهب حقاً يا ليزا ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب ...

ـ نعم قلت ذلك ..

ـ راهب ... ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله ...

ـ أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك سألته ليزا قلقة محاذرة بصوت خافت .

ولكن أليوشا لم يرد . ان هذا القول الذى أفلت من لسانه يعبّر عن فكرة تثوى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفســـه أن يستبينها ، ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب . وتابع أليوشا كلامه :

ـ وفوق ذلك كله ، هذا هو يموت ... ان الانسان الذى أعـده خير انسان فى هذا العالم سيبارح الأرض . آه ! ليزا ! لو علمت مدى

تعلقي بهذا الانسان ، ومدى شعوري بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له ! ••• سوف أكون بعد اليوم وحيداً ••• سأجيء اليك كثيرا يا ليزا ••• لن نفترق بعد الآن •••

ـ نعم سيظل كل منا قرب الآخر • سنكون متحدين مدى الحياة ، متحدين الى الأبد ••• أليوشا ، قبلني الآن ••• اسـمح لك الآن بأن تقبلني •

قبلها أليوشا •

ـ والآن اذهب • كان المسيح معك • (قالت ذلك وهي ترسم عليه اشارة الصليب) • أدركه « هو » قبـل أن يموت • الآن أفهـم أنني أضعت لك وقتاً ثميناً • سأصلي له ولك اليوم • أليوشا ، سنكون سعيدين، سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟

ـ أعتقد يا ليزا •

لم ير أليوشا ، حين خرج من عنـد ليزا ، أن من الضروري أن يذهب أولاً الى السيدة هوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يودعهـا • ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطـوة على السلّم حتى انبجست السيدة هوخلاكوفا أمامه • فأدرك أليوشا فورا أنها كانت تترقب انصرافه •

ـ هذا فظيع يا ألكسي فيدوروفتش ! هذه أمور صبيانية ، هـذه سخافات وحماقات • آمل أن لا تحمل أقوال ابنتي على محمل الجد ، وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقه ! يا للحماقة ! يا للحماقة !

كذلك أخذت تردد وقد لاح عليها أنها تُدينه • فقال لها أليوشا :

ـ لا تقولي هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضـطربت اضطرابا شديدا وساءت حالها كثيرا •

ـ هذا أخيرا كلام متزن يبرهن لى على أنك شاب عاقل • هل أفهم من كلامك هذا أنك انمـــا وافقتها اشفاقا على حالتهـــا ، حتى لا تثير بمعارضتك حنقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ لا بل كنت جاداً فى حديثى معها كل الجد •

ـ لا شأن للجد هنا • هذا شىء لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولاً اننى لن أستقبلك بعد اليوم فى منزلى ، واعلم ثانيا أننى سأسافر من هذه المدينة مبتعدةً بابنتى • هل فهمت ؟

قال أليوشا :

ـ فيم تقلقين هـــذا القلق كله ؟ انمـا الأمر أمر مشروع ما يزال تحيققه بعيدا جدا • لا بد أن ننتظر سنة ونصفا على الأقل •

ـ لعلك على حق يا ألكسى فيدوروفتش • فالى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنهـــا مائة مرة • آه ••• ما أشقانى ! ما أشقانى ! صحيح أن هذا كله صبيانيات ، ولكننى صعقت حقـا • أنا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشـــاهد المسرحية الهزيلة * • أما تشاتسكى فأنت ، وأما صوفيا فهى • انظر الى هذا التطابق • لقد رابطت على السلّم لأنتظرك • وفى تلك المسرحية الهزلية حدثت جميع المصائب على السلم أيضا • سمعت كل شىء • وتجلدت تجلداً شديدا حتى أستطيع أن أسيطر على نفسى • هذا هو اذن سرُّ الأرق الرهيب فى الليل وسر نوبات الهستريا بالأمس ! البنت عاشقة • ولم يبق للأم الا أن تموت ! هو قبرى اذن يُهيَّأ ! أجب عن سؤالى الثانى الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التى تحدثتما عنها ؟ هل كتبت اليك رسالة ؟ أرنيها فورا ! اننى أطالبك بذلك وأصر •

ـ لا تلححّى • والأفضل من هذا أن تقولى لى كيف حال كاترين ايفانوفنا الآن • اننى أحرص على معرفة ذلك •

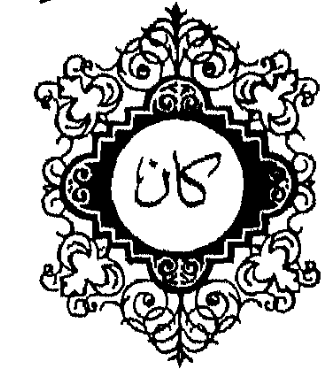
ـ ما زالت تهذى • لم تستردّ حواسها بعد • وعمتّاها معها ، ما تنفكان تتفجعان وتئنان وتصطنعان مظاهر الأبهة • أما الدكتور هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أننى أصبحت لا أعرف ماذا يجب علىّ أن أعمل لأهدىء روعه • حتى لقد خطر ببالى أن أستدعى طبيبا له• وجىء بالطبيب فى عربتى• ثم هأناذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة ، تتمةّ للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك ثمانية عشر شهرا ••• ولكننى أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك بشيخك المحتضر ، أن ترينى هذه الرسالة يا ألكسى فيدوروفتشْ • أرنى الرسالة ، أرنيها أنا ، أنا أم ليزا • امسكها بأصابعك اذا شئت ، فلن آخذها ، وانما أقرؤها من بعيد •

ـ لا يا كاترين أوسيبوفنا ، لن أريك الرسالة • لا جدوى من الالحاح • لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لى هى بذلك • سأعود غدا، فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل • أما الآن فالى اللقاء •

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلّم راكضا ، فخرج الى الشارع •

٢

قيثارة سمردياكوف



كان يُغذُّ الخطى • فحين ودّع ليزا كانت قد برقت في ذهنه فكرة عن الطريقة التي يستطيع بها أن يفاجيء أخاه دمترى الذى كان واضحا أنه يحاول أن يتجنب لقاءه • الوقت متأخر • هى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا • كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود الى الدير قرب شيخه المحتضر ، ولكن حاجتـــه الى رؤية أخيه دمترى مرة أخرى قد تغلبت أخيرا : ان احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك حدوث أمر رهيب ، يرسخ فى نفسه مزيدا من الرسوخ كلما انقضت الساعات • أما ما هى تلك الكارثة التى ستقع ، أما ما هو ذلك الشقاء الذى سينزل ، فان ذلك شيء لم يكن يعلمه أليوشا ، لا وكان يستطيع فى تلك اللحظة أن يوضح لنفسه ما يريد أن يقوله لأخيه دمترى • « اذا مات شيخى المحسن الىّ أثناء غيابى ، فلن ألوم نفسى فى أقل تقدير ، مدى الحياة ، على اننى كان فى وسعى أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود الى مسكنى بأقصى سرعة• وانى اذ أفعل الآن ما أفعل انما أطيع أوامر معلمى • » •

كانت خطته هى أن يعثر على دمترى فجأة ، متسللاً الى الحديقـة من خلال السياج الذى سبق أن تخطاه أمس داخلا الى « الكشــك » • وكان يقول لنفسه : « فان لم أجده ، فسأختبيء فى الجناح دون أن أنبيء

لا أهل لدار ولا توماس ، ثم انتظره هنالك حتى المساء اذا وجب الأمر . فاذا كان ينوى أن يترقب جروشنكا كما فعل أمس ، فربما جاء الى هذا الكشك ... » . ولم يتأخر أليوشا فى وضع خطته بجميع تفاصيلها ، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفذ فورا ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع الى الدير فى ذلك اليوم ...

وقد جرى كل شيء على ماصورته له نبوءاته . تخطى السياج فى موضع غير بعيد عن الموضع الذى تخطاه فيه أمس ، وتسلل الى الجناح دون أن يراه أحد . وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد . ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وتوماس (فى حالة وجـــوده بالدار) منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونه اذن من دخول الحديقة ، أو قد يبلغون دمترى وصـــوله فى الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى نفسه . لم يكن فى الحديقة أحـــد . جلس أليوشـا فى مكان الأمس وانتظر . ونظر الى الكشك فبدا له أكثر تداعيا مما بدا له كذلك فى اليوم السابق ، وأحدث فى نفسه شـــعورا بالشقاء . ولكن النهار كان مضيئا مشمساً كما كان يومَ زيارته الأولى . وعلى المائدة الخضراء تُـرى علامة مستديرة خلّفها قدح الكونياك الذى لعله صُدم أثناء المناقشـــة . وساورت أليوشا خواطر تافهة كثيرة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما يحدث عامةً أثناء انتظار مضجر ممل . تساءل مثلاً : لماذا جلس فى المكان نفسه الذى جلس فيـــه بالأمس ، ولم يجلس فى مكان آخـــر . واجتاحه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردُّه الى قلة التأكد وشدة القلق . وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قيثـارة تنطلق قريبةً منه . لا شك أن أحداً كان متلبثاً فى الغابة الصغيرة على مسافة عشرين خطوة فى أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان منذ برهة قصيرة . وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتعد

عن « الكشك » قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكه ريفية قديمة غائرة فى الأدغال • فهنـــالك اذن لا بد أن يكون قـــد جلس الواصـــل أو الواصلون • ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل ينطلق فى تلك اللحظة مغنياً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثـارة (ان الصوت صوت مترقق من طبقة التينور ، عامىّ النبرات) :

بقوة عظيمة انجذب *
الى الجميلة التى لا تغلب
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية • وهذا صـــوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً فى غنج ودلال :

ــ لماذا لا تجىء الينا الا نادرا يا بافل فيـدوروفتش ؟ أأنت تكره صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل فى تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئا من ارادة تأكيد الرصانة والوقار والتفوق :

ــ لا ••• لا •••

كان واضحا أن الرجل مسيطر على الموقف ، فى حين أن المرأة تبدو مستعجلة • قال أليوشا لنفسه : « ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته على الأقل • أما المرأة فأتخيل أنها ابنـــة صاحب الدار ، التى رجعت من موسكو فى الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتى تجىء كل يوم الى مارفا اجناتفنا التماسا لشىء من حساء •• » •

وعاد صوت المرأة يقول :

ـ انني أعيد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة . لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
مادمت احظى بصديقة أنسى
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

قال صوت المرأة :

ـ غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن. كنت فى المرة الماضية تقول : « صديقة أنسى العذبة » ، فكان ذلك أرق عاطفة . هل نسيت ؟

فقال سمرد ياكوف بلهجة قاطعة :

ـ ما الأشعار الا سخف وحماقة !

ـ أوه ! لا ... أنا أحب الأشعار كثيرا .

ـ الشعر هزل لا جد . افضى فى الأمر بنفسك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، بأمرٍ صادرٍ عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها . لا ... صدقينى يا ماريا كوندراتيفنا : ما الشعر الا كذب وتصنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلا وقد ازداد غنجاً ودلالاً :

ـ ما أذكاك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافة ؟

ـ كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أوسع ثقافة وأغزر علما ، لو ان القدر لم يحاربني منذ المهد . كان يمكنني ان أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذي قد يصمني بأنني امرؤ جلف لانني ليس لي أب ، ولأن أمي امرأة نتنة * . لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فاسيلفتش. ان جريجوري فاسيلفتش يعيب عليّ تمردي على ميلادي . وقد قال في معرض حديثه عن أمي : « لقد مزقت لها أحشاءها . » . انني أسلم بذلك ، ولكنني كنت أوثر أن أُقتل في بطنها على أن أجيء الى هذا العالم . ان الناس يتناقلون في السوق (وقد ظنت أمك ، لقلة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لي ذلك أيضا) أن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام . وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جدا على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها . ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك) . هل يستطيع الموجيك أن يشعر بعواطف نحو رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأي شيء . انني حين أسمع أحرف المدّ تُمطُّ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار . وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي ! أوه ! انني أكره روسيا يا ماريا كوندراتفنا .

ـ لو كنت ضابطا أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا .

ـ لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا ، بل ان من رأيي الغاء الجيش أصلاً .

ـ فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا العدو ؟

ـ لا داعى الى الدفاع . فى عام ١٨١٢ غزا امبراطور الفرنسيين ، نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى * ، غزا روسيا ، فلو قد تم له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى ، وحظاً عظيماً ؛ لأن أمةً ذكية تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية ، وتلحقها بها . فلو قد تم تحقيق ذلك اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف .

ـ كأنهم خير منا ! ... ألا اننى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شبابنا الحسان ثلاثة رجال من الانجليز ...

كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة . ولا شك أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض حباً وحناناً .

قال الرجل :

ـ المسألة مسألة ذوق !

ـ هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبى ، أجنبى نبيل جداً . أعترف لك بهذا دون أن أحمر خجلا .

ـ هل تريدين أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق ، أجانب كانوا أم روساً . هم جميعا أوغاد أوباش ، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمّعة ، فى حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن ، لا يجدون فيه ضيراً . ان الشعب الروسى يستحق أن يُجلد . لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا .

ـ ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراما كبيرا .

ـ ذلك لم يمنعه من أن يصفنى بأننى خادم نذل • هو يتخيل أننى واحد من أولئك المتمردين • ولكنه مخطىء • لو ملكت قدراً كافيا من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل • أما دمترى فيدوروفتش فهـو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه• هذا رجل لا خير فيه ، ولا يصلح لشىء • ومع ذلك يحترمه جميع الناس • أنا أعلم أننى لست الا طباخاً فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسـوف أفتتح « مقهى مطعماً » بموسكو ، فى شارع بتروفكا • اننى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب • ودمترى فيدوروفتش هذا ليس الا انسانا دنيئاً ، ومع ذلك لو طلب الى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه • فيم هو يفضل غيره ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلف من مال فى سبيل حماقات وترهات ! •••

قالت ماريا كوندراتفنا :

ـ لا بد أن المبارزة شىء جميل جدا •

ـ لماذا ؟

ـ هى خطرة جدا وتحتاج الى شجاعة ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروعه من منظر ! لو كانت تُقبل فتيات فى مشاهدة مبارزة ، لو هبت أى شىء فى سبيل أن أشهد مبارزة •

ـ المبارزة ممتعة حين يسدِّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدِّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ كريهاً ، وربما تهربين ياماريا كوندراتفنا •

ـ أتخاف أنت فى مثل هذه الحالة ؟

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها • وبعد برهه من الوقت سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً :

سأرحل مهما أكابد
فانى سئمت العذابا •
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
أمتع نفسى وأحيا سعيدا
حياة العواصم •
فلا شيء يمسكنى ها هنا
ولست بباك عليك كذلك
ولست بباك على أى شيء •

وفى تلك اللحظة حدث شيء ليس فى الحسبان : لقد عطس أليوشا فجأة • فسرعان ما صمتت الأصوات • فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكه • الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، بنبابه الجميلة ، وحذاءيه الملمّعين ، وشعره المدهّن حتى لكأنه مجعّد • كان قد وضع القيثارة على الدكة • والمرأة الشابة هى ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار • انهـا ترتدى ثوباً أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً • وكان يمكن أن تبدو جميلة لولا تلك البقع الحمراء البشعة فى وجهها المسرف فى الاستدارة •

سأل أليوشا بلهجة هادئه وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط لا قيمة له :

ـ هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟

فنهض سمردياكوف بدون تعجل، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا•

ـ أنّى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى لم أكلف بحراسته فيما أعلم •••

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعاً ألفاظه دون أن يرفع صوته ، وقد بدا في وجهه الاهمال .

فقال أليوشا شارحاً :

ـ انما سألتك لتجيبني اذا كنت تعلم .

ـ أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن أعرف ...

ـ لكن أخي أسرّ الي أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار ، وأنك وعدته بابلاغه عن مجيء آجرافين ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب . ثم قال وهو يحدّق الى أليوشا ويتفرس فيه :

ـ هل يمكنني أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟

قال أليوشا :

ـ مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى الكشك رأساً .

ثم أضاف يقول مخاطبا ماريا كوندراتفنا :

ـ أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تحرجي . لقد كنت أحرص على أن أرى أخي بأقصى سرعة .

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيراً :

ـ كيف أؤاخذك ؟ ان دمتري فيدوروفتش يسلك هذا الطريق

نفسه لبلوغ الكشك ، فما ان نلاحظ وصوله حتى يكون قد اسـتقر فيه .

ـ لا بد لى أن أراه حتماً . اننى أبحث عنـه فى كل مكان . ألا تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمه كثيرا .

فتمتمت المرأة الشابة تقول :

ـ انه لا يطلعنا على تنقلاته .

واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ اننى أجىء الى هنا زائراً ، فاذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى . لقد طالبنى بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى . حتى لقد هدّدنى بالقتل مرتين !

ـ بالقتل ؟ لماذا ؟

ـ انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شىء ... ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال . لقد أنذرنى بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لآجرافين ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلةً فى الدار . اننى أخافه وأخشاه ، ولولا أنه يثير فى نفسى هـذا الجزع كله اذن لأبلغت عنه السلطات . الله وحده يعلم مايمكن أن يفعله دمترى فيدوروفنش !

وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول :

ـ وقد صرّح له منـذ أيام بأنه سيسحقه بالهاون سحقاً ، ويدقه دقاً ...

قال أليوشا :

ــ لئن تكلم عن الهـــاون ، فليس الأمر بالجد • ليتنى أستطيع أن أعثر عليه الآن ، اذن لقلت له كلمةً عن هذه التهديدات أيضا •

قال سمردياكوف وكأنه قد غيّر رأيه فجأة :

ــ اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهيهـا اليك • اننى أجىء الى هنا كصديق قديم ، ولِمَ لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعه مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى « شارع البحيرة » • لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أُعلم دمترى فيدوروفتس جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجىء لتناول طعام الغداء معه فى الكاباريه الذى يقع فى الميدان • لم أجد دمترى فيدوروفتش فى مسكنه • كانت الساعة هى الثامنة صباحا • وقالت لى صاحبتا المنزل « ان دمترى فيدوروفتش قد خرج » • أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه • من الجائز جداً أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى ذلك الكاباريه مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان لم يرجع الى المنزل للغداء • أما فيدور بافلوفتش فقد تغدى أخيراً منـــذ ساعة ، ولا بد أنه الآن يـُقيل • أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدّث أخاك عنى ، وأن لا تقول له اننى ذكرت لك هذه المعلومات • فلقد يقتلنى اذا هو عرف ذلك !

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيدا من التأكد :

ــ هل ضرب ايفان موعدا لدمترى فيدوروفتش فى لكاباريه ؟

ــ تماما •

ــ أهو كاباريه « العاصمة الكبرى » الذى يقع فى الميدان ؟

ـ هو نفسه .

هتف أليوشا يقول وقد ألمّ به انفعال شديد :

ـ جائز جدا . شكرا يا سمردياكوف . هـذه معلومات ثمينه . سأذهب الى هناك فورا .

قال سمردياكوف ملحاً :

ـ اياك أن تفضحنى !

ـ لا تخف . سأتظاهر بأننى دخلت الكاباريه مصادفةً .

وبينما كان أليوشا يتجه نحـو السياج ، هتفت ماريا كوندراتفنا قائلة :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان .

ـ لا داعى الى ذلك . من هنا أقرب . سأتخطى السياج .

أحدث هذا النبأ فى أليوشا أثرا قويا . وأسرع متجهاً الى الكاباريه. ليس من الحشمة طبعا أن يدخل أليوشا الكاباريه وهو فى مسوح راهب. ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن يستدعيهما اليه على السلّم . وانه ليقترب من مبنى الكاباريه اذا بايفان يناديه سائلا :

ـ هل تستطيع أن تجيئنى الى هنا يا أليوشا ؟

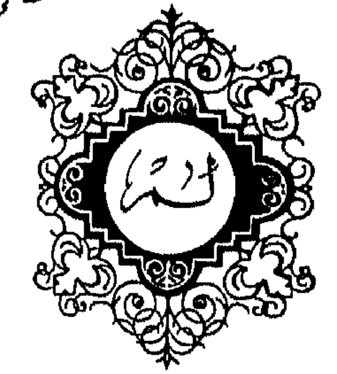
ـ طبعا . ولكننى أتحرج من الدخول بثوبى هذا .

ـ أنا فى حجرة خاصة . تعال الى سلّم المدخل ، فألقاك هناك .

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه . لقد كان ايفان وحيدا ، وكان يتناول غداءه .

٣

الإخـــوة يتعــارفون



يكن ايفان يحمل حجرة خاصة بمعنى الكلمه • وانما كان جالساً قرب النافذة فى ركن تعزله عن الصالة حواجز • فالأشخاص الذين يجلســون فى هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الكاباريه الآخرون • هى قاعة مدخلٍ تفضى الى الصالات التى بعدها ، قد نصب « بوفيه » أمام جدارها الجانبى • والخدم يجتازون هذه القاعة فى كل لحظة • ولم يكن فى القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد كان يحتسى الشاى • ولا كذلك الصالات الأخرى فهى تزخــر بما تزخر بها أمثال هـــذه الأماكن عادةً من نداءات عالية ، وصرخات فرحة ، وقرقعات الزجاجات التى تُفتح ، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو ، مع أصوات أرغن بربارى تشق هذه الجلبة كلها •

كان أليوشا يلعم أن أخاه ايفان لا يكادُ يرتاد هذا الكاباريه أبدا ، لأنه لا يحب جو الأماكن التى من هـــذا النوع على وجه العموم • فقال أليوشا لنفسه : « فانما هو جاء اذن ليلقى دمترى ، ولكن دمترى لم يلبّ دعوته » •

قال ايفان وكان يبدو سعيدا بحضور أليوشا :

ـ هل تريد أن آمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل الىّ أنك لا تتغذى بالشاى وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من الشاى . أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

ـ يسرنى أن أصيب طبقاً من حساء السمك ؛ واطلب لى كذلك شايا ، فاننى جائع .

ـ فما قولك اذن بشىء من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربّب كرز . وعهدى بك أنك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت صغيرا وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف . أما تزال تتذكر هذا ؟

ـ أأنت تتذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فاننى ما أزال أحبه كما كنت أحبه فى الماضى .

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشاى ، وبمربب كرز .

ـ اننى أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحاديه عشرة من عمرك . وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة . ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفاقة بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين . ولست على يقين من أننى أحببتك فى ذلك الأوان . وبعد سفرى من موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى . حتى اذا جئتَ بعد ذلك الى موسكو أنت أيضا ، لم أصادفك الا مرةً واحدة لا أدرى أين ! وهأناذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثا حقيقيا مرة واحدة . وانى مسافر غدا ، لذلك تساءلت منذ لحظات: « ترى أين يمكن أن أجده لأودّعه ! » وفيما أنا أتساءل هذا التساؤل لمحتك من النافذة .

ـ أكنت تحرص حرصا كبيرا على أن تراني اذن ؟

ـ نعم ، حرصا كبيرا . انني أود أن أعرفك مرة ، وأن تعرفني كذلك مزيدا من المعرفة . ان أفضل لحظة للتعارف هي في رأيي اللحظة التي تسبق الفراق . لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة. كان في عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله. لذلك لم أحاول أن أقترب منك . ولكنني تعلمت أن أحترمك . قلت لنفسي : « ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقعه » . انني أمزح قليلا ، ولكنني أتكلم الآن جاداً . أنت فتى ثابت جدا ، أليس هذا صحيحا ؟ وأنا امرؤ يحب الثبات كيف ظهر وأين ظهر ، حتى لدى صبية صغار مثلك . لهذا أصبحت نظراتك التي تعبّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفّرني ، حتى لقد أصبحت محبّبة الي ... يبدو لي أنك تحبني يا أليوشا ، أليس كذلك ؟

ـ أحبك يا ايفان . دمتري يصفك بأنك « قبر » ، أما أنا فأقول انك لغز . ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن . هناك نقطة مع ذلك أحسب أنني أبصرتها واضحة في نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب .

سأله ايفان ضاحكاً :

ـ فما هي ؟

ـ ألن تغضب ؟

ـ طبعا لا ...

ـ اذن فاعلم أنني اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم في الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم ، ويعوزك النضج كما يعوزهم ، أي ... هل كدّرك قولي هذا كثيرا ؟

ـ بالعكس ! بل أدهشنى صدق رأيك ، وهو يتفق ورأيى • لقد كنت منذ لقائنا فى هذا الصباح أفكر فى هذا الجانب من طبيعتى ، فى هذا الفتوة العارمة الجامحة التى تزخر بها سنتى الثالثة والعشرون ، فاذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! ••• هل تعلم بماذا كنت أحدّث نفسى قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسى : مهما تخيب الحياة ظنى ، ومهما أفقد ايمانى بالمرأة التى أحبها ، ومهما أقتنع بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً ••• قد أغوص فى جميع وهاد اليأس الانسانى ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شىء • أود لو أعب كأس الحياة متلذذا حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه • ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمى الكأس قبل نفاده ، ثم أمضى ••• الى أين ؟ لا أدرى بعد ••• أما حتى ذلك الحين ، أى الى أن أبلغ الثلاثين ، فان الشباب سينتصر على كل شىء ـ أنا واثق من هذا ـ سينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز • لقد تساءلت مرارا : « هل فى هذا العالم يأس يمكن أن يخنق فى نفسى هذا الظمأ الى الحياة ، هذا الظمأ المسعور الذى قد لايكون لائقاً ؟ » • وانتهيت الى الاعتقاد بأن لا ، ولكن حتى الثلاثين من عمرى فحسب ، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسى بعد ذلك ••• فيما أظن ••• ان الواعظين بالأخلاق ، المصدورين الحزانى ، وكذلك الشعراء ، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعة هذا الحب الحارّ للحياة • ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف ارادة الحياة هذه بأى ثمن • لا بد أن تكون هذه الارادة قائمة فيك أنت أيضاً • ولكن لماذا توصف بالجبن والضعة ؟ ان القوة الصادرة عن المركز لم تنفد فى كوكبنا السيّار هذا يا أليوشا • الحياة ممتعة ، و بى لأحيا ولو على خلاف كل منطق • أنا لا أؤمن بقيمة النظام الذى يحكم العالم • لنسلم بهذا •

ولكنني أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع في الربيع * ، وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدري لماذا ــ هل تصدق ذلك ؟ ــ أحب أيضا بعض البشر وتهزني الحماسة لأعمال من أعمال البطولة الانسانية التي انقطعت مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل، ولكنني ما زلت أقدسها بحكم عادة عزيزة على نفسي أثيرة في قلبي . جاءوك بحساء السمك . كُلْه وتذوقه . انهم يحسنون اعداده هنا . أنوي أن أسافر الى الخارج يا أليوشا . سأسافر الى الخارج من هنا رأساً. واني لأعلم مع ذلك انني لن أجد هنالك الا مقبرة ، ولكنني شديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى . ان كل حجر يذكرني بسورة جامحة من سورات الايمان بالحياة ، وبقيمة العمل ، وبالحقيقة ، وبالكفاح ، وبالعلم أيضا . أوه ! أنا أعلم سلفاً أنني سأرتمي على ركبتيّ جاثياً أمام هذه الذكريات الكثيرة ، وأنني سأبكي على أحجار القبور هذه ، وأغمرها بالقبل ، مع شعوري في قرارة قلبي بأن ذلك ماض تصرّم وان يعود . على أنني لن أبكي من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعي . سيسكرني حزني وحناني . انني أحب البراعم في الربيع ، أحب السماء الزرقاء . ليس الأمر أمر عقل ومنطق . ان حب الحياة ينبجس من أرحامي ، وان قوى شبابي التي لم تضعف ولم تهن ولم يمسسها سوء هي التي أحبها هذا الحب . أأنت تفهم شيئا من هذه المعمّيات يا صغيري أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك . فأجابه أليوشا بقوله :

ــ أفهمها جدا يا ايفان ، أفهمها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام انما ينبع حب الحياة ؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة . واني لأبتهج لك كثيرا حين أراك راغبا في الحياة رغبة قوية هذه القوة .

كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

ـ وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة قبل كل شيء ٠

ـ حب الحياة لا محاولة فهمها ؟

ـ نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت ٠ وبهذا وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة ٠ أنا من جهتى أفكر فى هذا منذ زمن طويل ٠ لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تحيا ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخـــر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة ٠

ـ أأنت تهتم بخلاصى وسلامتى ؟ ماكنت أحسب أننى بسبيل الضياع والهلاك ٠ وما هو النصف التانى فى رأيك ؟

ـ النصف الثانى هو بعث أولئك المـــوتى الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة ٠ اعطنى الشاى ٠ اننى سعيد جدا بحديثنا هذا يا ايفان ٠

ـ ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلا ٠ ما أكثر ما أحب « اعترافات الصدق » هـــذه التى يقولها ٠٠٠ رهبـــان مبتدئون ! انك رجل ثابت يا أليوشا ٠ هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

ـ صحيح ! ان شيخى أمرنى بالذهاب الى العالم ٠

ـ سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هـــذا العالم قبل حلول الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس ٠ أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين ، ولعله يحلم أن يعيش ثمانين عاما ، كما يقول ذلك هو نفسه ٠ انه جاد فى هذا كل الجد ، مهما يكن مهرجاً ٠ انه يتهالك على اللذة ، ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة ٠٠٠ صحيح أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة ٠٠٠ ولكن الحياة على

على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت . فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين . وبذلك يستطيع أن يحافظ على « مظهر نبلٍ » في أقل تقدير ، كاذباً على نفسه . هل رأيت دمترى اليوم ؟

ـ لا ... ولكنني رأيت سمردياكوف .

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعةٍ تفاصيل لقائه بالخادم . فكان ايفان يصغي اليه وقد اكتسى وجهه تعبيرا عن الهمّ والقلق على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بعض النقاط .

وأضاف أليوشا قوله :

ـ وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمترى شيئا مما أسرّ به اليّ .

فقطب ايفان حاجبيه ، ووجم يفكر لحظة .

سأله أليوشا :

ـ أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

ـ نعم ، بسببه . شيطان يأخذه على كل حال !...

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

ـ حقاً لقد كنت أرغب في أن أرى دمترى ، ولكن لم تبق بي حاجة الى ذلك الآن .

ـ هل تنوى أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

ـ نعم .

فسأله أليوشا قلقاً :

ـ ما عسى يصير اليه حال دمترى والأب ؟ ترى كيف ينتهى هـذا الأمر كله ؟

ـ انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعنينى نزاعهما ؟ أأنا حارس لأخيك ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حانقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

ـ ذلك جواب قابيل لله عن الأخ الذى قتله قابيل، أليس هذا ماخطر ببالك فى هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! ... أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأراقبهما ! لقد أنهيت أعمالى ، وسأسافر . أتراك تتخيل أننى غيور من دمترى ، واننى حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترين ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لى أنا شئونى وأعمالى . وقد أنجزتها فسأسافر . أنجزتها فى هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

ـ هل تعنى ذلك الحديث الذى جرى بينك وبين كاترين ايفانوفنا ؟

ـ نعم . لقد قطعت صلتى بها دفعة واحدة . أليس هذا طبيعيا جدا ؟ فيم يهمنى دمترى ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، ولا دخل له فيه. كانت علاقاتى بكاترين ايفانوفنا شأناً خاصاً بى . ثم انك تعـرف أنت نفسك أن دمترى فد تصرف فى هذا الأمر كله تصرف متواطىء معى . أنا لم أطلب منه شيئاً ، وانما هو تركها لى من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكأنها تمثيلية . أف ... ليتك تعـلم يا أليوشا مدى شعورى بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائى منذ قليل هنا ، اشتهيت أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتى التى عادت الىّ . حين أفكر فى هذا الأمر ... آه ... لقد دام ستة أشـهر ، وهأناذا

أتحرر دفعةً واحدة • حتى أمس ، ما كنت لأتخيل أننى سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

ـ أعن حبك تتكلم يا ايفان ؟

ـ عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير • لقد عشقت آنسة من الآنسات ، فتاةً هى طالبة فى مدرسة داخلية ؛ فتألمت ، وجعلتنى هى أتألم • وكنت أحسب أننى مشدود اليها ••• ثم اذا بكل شيء يتبدد فى طرفة عين • فى هذا الصباح كنت أكلمها مستهاماً ، حتى اذا صرت فى الشارع انطلقت أضحك ضحكا مجلجلا ، هل تصدق هذا ؟ تلك هى الحقيقة بعينها مع ذلك •

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه أخيه الهادىء المطمئن :

ـ أنت حتى فى هذه اللحظة تتكلم فى الأمر بمرح وحبور •

ـ كيف كان يمكننى أن أحزر أننى لا أحبها البتة ؟ هأهأ ! ••• ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • أنا لا أحبها • وضح هذا الآن • ولكن ما أكثر ما كانت تعجبنى ! فى هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الاعجاب بها ! وحتى فى هذه اللحظة تعجبنى كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها علىَّ ! أتحسبنى أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً ؟

ـ لا ••• ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال ايفان ضاحكا :

ـ يا صغيرى أليوشا ، لا تندفع فى اصدار آراء فى الحب ! ذلك لا يناسب حالتك • اننى أفكر فى اندفاعك هذا الصباح يا بنى ! أى •• كان ينبغى لى أن أقبلك عندئذ ! ومع ذلك ما أشد ما آلمتنى وعذبتنى ! •••

لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات • أوه ! كانت تعلم حق العلم أننى أحبها • وكانت تحبنى أنا لا دمترى (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمترى الا عذراً لها وتعلةً في سبيل أن تعذب نفسها • ان كل ماقلته لهـا هو الحق ، هو الحق اطلاقاً • ولكن من المؤسف أنهـا تحتـاج الى خمسة عشر عاما أو الى عشرين عاما أخرى ـ وهذا هو الشيء الأساسى ـ من أجل أن تدرك أخيرا أنها لا تحب دمترى البتة ، ولا تحب أحداً سواى رغم أنها تؤلمنى وتعذبنى • وقد لا تدرك هذه الحقيقة فى يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! بالمناسبة ، ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافى ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التى ألمت بهـــا ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها فى أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذى •

ـ لعل هوخلاكوفا قد بالغت ؟

ـ لا أظن •

ـ يجب أن أذهب أستطلع أنباءها • على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصـــبية !••• ولقد يحسن اليها هذا •• قد ينفعها ولا يضرها ••• ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية• لا ••• لن أذهب اليها ! فيم استئناف الامر ؟

ـ زعمتَ لها منذ قليل أنها لم تحبك يوماً •

ـ زعمت ذلك عامدا يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالا باستردادى حريتى • ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !

أجابه أليوشا بحرارة قائلا :

ـ أخى ، الأفضل أن لا تشرب • اننى أحس بحزن شديد • ثم ان •••

ـ أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا .

ـ أأنت مصر" على أن تسافر غدا فى الصباح ؟

ـ لماذا فى الصباح ؟ أنا لم أقل اننى مسافر فى الصباح ... على أننى قد أفعل . هأنت ذا ترى أننى أصبت غدائى هنـا حتى لا أخلو الى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد ينير العجوز اشمئزازى ... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده . ولكن لمـاذا يقلقك سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أمامنا وقت طويل ، ما يزال أمامنا أبد" تقريبا ...

ـ أيكون أمامنا أبد" وأنت مسافر غدا ؟

قال ايفان ضاحكاً :

ـ فيم يهمنا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحـدث عما يهمنا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا فى هذا المكان . لمـاذا تنظر الى" بهذه الدهشة ؟ ما هو الأمر بالنسبة الينا ؟ أجب ! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن الحب ، وعن كاترين والعجـوز ودمترى ، وعن ظروف الحياة فى الخارج ، وعن أحوال روسيا المتردية وعن الامبراطور نابوليون ؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث فى هذه الأمور ؟

ـ لا ... طبعا ...

ـ هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا . هناك أناس آخرون يتناقشون فى شئون هذا العالم ، أما نحن ، نحن الأغرار البسطاء ، فنريد أن نحل" أولاً" مشكلات الحياة الميتافيزيقية . ذلك هو همنا نحن شباب روسيا . ان جميع شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة . وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التى قرر الشيوخ

فيها أن يدرسوا المسائل العملية • ما الذى كان يدفعك طـوال هـذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الىّ نظرةً فيها ذلك التعبير عن الانتظار ؟ كنت تريد أن تعرف أأنا مؤمن أم ملحـد ••• ذلك ما كان يثوى فى أعمـاق نظرتك منـذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صـحيحا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسما :

ـ جائز جدا • ولكننى أرجو أن لا تكون فى هذه اللحظة بسبيل السخر منى والضحك على يا أخى •

ـ أأنا أسخر ، أنا ؟ ألا اننى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة • أليوشا، انظر الىّ جيداً • ألست ، أنا أيضا ، فتى صغيرا مثلك ، مع فارق واحد هو اننى لست راهبا مبتدئاً ؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفـوح فيها رائحة كريهـة كهذه الحجرة ، ويجلسـون الى مائدة ••• لقد عاشـوا دون أن يتعـارفوا حتى الآن ، وسينكر بعضهم بعضا من جديد ، بعد اربعين عاما ، متى خرجوا من الخمارة ! ••• فمـا الذى يتناقشـون فيه أثناء هـذه اللحظـات القصار التى تتيحها لم المصادفة فى كاباريه ؟ يتناقشون فى الكون وسرّ الكون حتماً • هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل النفس خالدة بعـد الموت ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجـود الله ، يتنـاقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى اعادة بناء الانسانية بناءً كاملاً على أسس جديدة ؟ والفريقان كلاهما سواء • فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضـة• ان عددهم لا يُحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشبان الروس ، الذين يفيضون

أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل الأبدية • ألست متفقاً معى فى هذا الرأى !

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر اليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة ، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيدا من الافصاح:

ـ حتماً • ان المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التى تعالج من الجهة المعارضة كما قلت ، هى فى نظر الروسى الحق ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جدا أن تكون كذلك •

ـ اعلم يا أليوشا أن الروسى لا يلمع دائماً بالذكاء والعقل ، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التى تشغل بال الشبان فى روسيا هى أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور • غير أن بين هؤلاء المراهقين واحدا أحبه كثيرا يا أليوشا •

قال أليوشا ضاحكا :

ـ هذه نتيجة بلغت فى استخلاصها غاية اللطف •

ـ بماذا تريد أن نبدأ ؟ اننى أترك لك الخيار • هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل •••

ـ ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المسائل التى وصفتها بأنها تعالج من « الجهة المعارضة » • ألم تؤكد أمس ، فى منزل أبينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق اليه متفرساً فيه •

ـ تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك ، ورأيت لهيباً ينبجس فى عينيك • أما الآن فأنا أشعر بأننى على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الامر معك ، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً •

اننى أحب كثيرا أن أتفاهم معك يا أليوشا ، لأننى لس لى أصدقاء • اننى أحاول أن أقترب منك •

قال ايفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكا :

ــ هل تتصور أننى ربما سلـّمت بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ••• اللهم الا أن تكون مازحاً من جديد ؟

ــ مازحاً ؟ لقد أخذوا علىّ ذلك بالأمس ، عند شيخك ، ولكنهم أخطأوا • اسمع يا عزيزى : ان عجوزاً آثماً عاش فى القرن الثامن عشر قد قال : « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه »* . والحق ان الانسان قد اخترع الله • وليس أغربَ ما فى الأمر ولا أبرزَه أن الله لا وجود له فى الواقع ، بل أن هذه الفكرة ، فكرة وجود الله بالضرورة ، قد أمكن أن تنبت فى دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وخبث وشر، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر فى لقلب ، وهى فى الوقت نفسه ذكية عاقلة • الحق أن هذه الفكرة تشرّف الانسان • أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذى تصور الانسان ، أم الانسان هو الذى تخيـّل الله • فسأعفى نفسى اذن من فحص البديهيات التى يستند اليها شبابنا الروس فى هذه الأيام والتى يستمدونها فى حقيقة الامر كما هى من الافتراضات التى يفترضها الناس فى البلاد الأوروبية الأخرى • ذلك أن ما هو افتراض" لا أكثر ، فى نظـر العلماء الأجانب ، سرعان ما يصبح بديهية فى نظر مراهقينا ، بل وفى نظر أساتذتهم الذين لايفضلون المراهقين سدادَ رأى وصدق حكم فى كثير من الأحيان • فسأترك جانبا جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هى غايتنا الآن على وجه الدقة ؟

أما أنا فانما يهمنى أن أشرح لك طبيعتى بأقصى سرعة ممكنة ، يهمنى أن أفهمك أى انسان أنا ، وما هو ايمانى ، وأين أضع آمالى ؟ لذلك سأقول لك فوراً اننى أسلم بوجود الله دون مناقشة أخرى . ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسانى الا فكرة مكانٍ ذى ثلاثة أبعاد . ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعمّ ، مستنداً الى قوانين هندسة اقليدس وحدها؛ حتى ليقررون أن الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض ، يمكن فى الواقع أن يتقاربا ويتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية* . ولقد قلت لنفسى ياعزيزى: اذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة ، فلن أستطيع أن أعرف أى شىء عن مسألة الله ! اننى أعترف فى كثير من التواضع أننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هذا النوع ، لأن عقلى اقليدسى قد خُلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم . وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ، واذا أنت لم تتساءل خاصةً هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأن عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد . ذلك هو السبب فى اننى أسلم بوجود الله . ولست أسلم بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضا بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات . اننى أؤمن بوجود نظام كونى شامل يضفى على الحياة معنى ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعا ذات يوم فيما يبدو . أؤمن « بالكلمة » التى

يتجه اليها الكون ، « الكلمة التى هى الله » ، وهلمّ جرا الى غير نهـاية.
لقد قيل فى هذا المجال كلام كثير مسرف فى الكثرة . ولكننى على طريق الصواب ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ماقلته ، أننى لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، ولا أستطيع الموافقة على قبوله ، رغم علمى بوجوده . لست أرفض الله ... افهمنى جيداً ... وانما أنا أرفض العالم الذى خلقه ولا أريده . وهأناذا أشرح لك ما أريد قوله : اننى أؤمن ايماناً جازماً ، كايمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئا بعد شىء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات الانسانية ستتبدد تبدد سراب باطل ، تبددَ شىء تافه اخترعه كائن ضعيف صغير ، وأنها ستتبدد تبدد الذرة فى ذهن اقليدس . أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق فى خاتمة المطاف من هذه الحياة ، حين يتأكد الانسجام الأبدى ، فاذا هى تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب ، وتسكن جميع أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الانســـانية ، وتفدى كل الدم الذى سُفح على الأرض. وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الانسانية فحسب ، كائنةً ما كانت تلك الأخطاء ، وانما هى ستسوّغها فوق ذلك . لنسلّم بهذا كله ! ولكن حتى فى هذه الحالة ، فاننى لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله ! ألا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتــوازية ولأرها ، فاعترفَ بأنها التقت ، ولكننى لن أقبـــل ذلك . تلك طبيعتى يا أليوشا ، وذلك احساسى بالعالم . لقد حدثتك حديثاً جاداً كل الجد فى هذه المرة . تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن ، ولكننى قدته الى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهمك . ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه منى ، وانما كنت تريد أن تسمعنى متحدثاً عن نفسى ، بغية أن تعرف ما يدور فى نفس أخٍ تحبه .
فهأنت ذا عرفت ذلك الان .

أنهى ايفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه •

سأل أليوشا أخاه وهو يلقى عليه نظرة شاردة :

ـ قل لى : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا « على أغبى نحو ممكن » ؟

فأجابه ايفان بقوله :

ـ أولاً لأننى أحببت أن أجارى عادات الناس : فان الأحاديث حول هذا الموضوع فى روسيا غبية دائما • وثانيا لأن المرء يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غبياً • ان الغباء يمضى نحو الهدف رأساً ، دون لف ودوران غامضين • الغباء بساطة وايجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة • ان الفكر الذكى فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف • لقد شرحت لك يأسى ، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً ، يكون الأمر أفضل فى نظرى •

سأله أليوشا مرة أخرى :

ـ أتقول لى لماذا ترفض « قبول الخليقة » ؟

ـ طبعاً أقول لك • ليس هذا بسر • وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك •

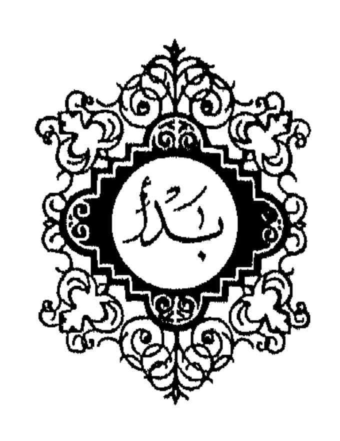
بهذا أجابه ايفان ، ثم أردف يقول وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول :

ـ يا أخىّ الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أصرفك عن ايمانك ، وأن أحوّلك عن اعتقاداتك ••• بالعكس ••• اننى أتمنى أنا نفسى أن أُشفى وأبرأ بالاتصال بك •

لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة فى يوم من الايام •

٤

التمرد



ايفان كلامه يقول :
يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : اننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه • ففى رأيى أن أقرب الناس الينا يصعب علينا أن نحبهم أكثر مما يصعب علينا أن نحب غيرهم • ان الانسان لا يحب الا من بعد • لقد قرأت فى موضع ما أن رجلاً اسمه « يوحنا الرحيم » * (هو قديس من القديسين) قد تضرع اليه فى ذات يوم متشرد جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه • فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه ونفخ فى فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب • اننى أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعة ، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه ، وانما هو يلزم نفسه به الزاماً باسم حب لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه ، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة • اننا لا نستطيع أن نحب انساناً الا اذا ظل مختفيا عن نظرنا • فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب •

قال أليوشا :

ــ هذه ملاحظة طالما ردّدها الشيخ زوسيما • كان يقول ان وجه الانسان يخلق فى كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا • ومع ذلك فان فى الانسانية كثيرا من

المحبة ؟ ان هناك محبة تكاد تشـــبه محبة المسيح ••• أنا أعــرف ذلك بتجربة يا ايفان •••

ــ جائز • أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما أكثر الناس الذين يشبهوننى من هذه الناحية ! وانما السؤال هو : هل يرجع هذا الى خبث القلب الانسانى أم هو قانون طبيعى • وانى لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض • ان المسيح اله ونحن بشر • لنفرض مثلاً اننى قادر على أن أتألم كثيراً • ان من الصعب على شخص آخر غيرى أن يعرف عمق الألم الذى أعانيــه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخـــر • ثم انه يعزّ على المرء دائماً أن يسلّم بألم غيره (كما لو كان ذلك عزةً واباءً !) • فهل تعلم لماذا يعزّ عليه أن يسلّم بألمى ؟ ربما لأن رائحة فمى كريهة ، أو لأن وجهى غبى ، أو لأننى دست على قدمه فى يوم من لأيام ! على أن الآلام أنواع : فهنــاك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا ، كالجـــوع مثلاً ؛ فالناس تحب أن تصدقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، ليجعلوا من أنفسهم محسنين الينا بعد ذلك • أما اذا كان الألم أرفع من ذلك درجةً أو درجتين ، اذا كان ألماً نحتمله فى النضال من أجل فكرةٍ مثلاً ، فان الناس يرفضون أن يصدّقوه ، باستثناء قلةٍ قليلة • وهم لا يصدقونه لأنهم حين نظروا الى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذى لا بد أن يكون فى نظرهم رأسَ من يتألم فى سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها• وهم عندئذ يأبون أن يتعاطفوا معه أى تعاطف، دون أن يكون فى موقفهم هذا شيء من روح الشر على كل حال• ان على الشحاذين المستعطين، ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار ، وأن لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها فى الجرائد • ان من الممكن أن يحب لانســان الانســان حباً مجرداً ، وأن يحبه فى بعض الأحيان

فعلاً ، ولكن من بعد . أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً .
لو كانت الأمور تجرى كما تجرى على المسرح ، فى باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون ، اذا ظهروا ، لا بسين اسمالاً من حرير ومغطَّين بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة ، فقد نعجب بهم عندئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم . حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع . لقد كان فى نيتى ان أحدثك عن آلام الانسانية عامةً ، ولكننى أحسب أن من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم . ولئن كانت حجتى ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها ، فاننى أظل أحسب أن هذا أفضل. لسوف تكون المناقشة أقل مواتاةً لى بطبيعة الحال. ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب ، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعتقد أن وجه طفلٍ لا يمكن أبداً أن يكون دميماً) ؟ ثم اننى لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لا لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب ، بل لأنهم ينمتعون من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا « شبيهين بالآلهة ». وما يزالون يأكلون منها ... أما الأطفال فانهم لمَّا يذوقوا تلك الثمرة ، فبراءتهم ما تزال سليمة لم يمسسها سوء . هل تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أحسب أننى أعلم أنك تحبهم ، ولسوف تفهم اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم . اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً فى هذا العالم ، فذلك لا يمكن الا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة ، ومن أجل أن يكفِّروا عن تلك الخطيئة . ألا ان هذا فهم ليس من هذا العالم ، وسيظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه. ان من الظلم أن يُعذَّب أبرياء — أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة — لذنب اقترفه غيرهم . أنا أيضا أُحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا ... سجِّل هذا ! ان القساة الضوارى أصحاب الأهواء الجامحة ، من

أمثال آل كارامازوف ، كثيرا ما يحبون الأطفال • فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكأنهم ينتمون الى نوع آخـــر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا • انني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون • لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أسراً بكاملها فى المنازل التى تسلل اليهـا ليلاً ليسرقها ، فلم يوفر الأطفال ••• ومع ذلك استبدت بهذا الرجـل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحـــو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلهون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيرا أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجىء يتحـدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة ••• لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة •

قال أليوشا قلقاً :

ـ انك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله •

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

ـ بالمناسبة ••• لقد قص علىّ بلغارى فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بغية ارهاب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة• فهم يحرقون القرى ، وينهبون الأرزاق، ويذبحون السكان، وينتهكون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون اليهم فى الصباح ليشنقوهم • أمور تفوق الخيال • يقال أحيانا ان الانسان « حيوان كاسر » • ألا ان فى هذا القول اهانة للحيوانات لا داعى اليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى

القسوة أبداً ، وهى لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانســان . النمر يكتفى بتمزيق فريسته والتهامها . انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمـّر أحداً من أذنيه بسياج ، ولو قدر على ذلك . وأولئك الأتراك يتسلـّون خاصةً بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً . انهم ينتزعــون بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم فى الفناء أتراك آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدُ حضورهن أهمّ عنصر من عناصر هذه المتعة . ولقد حفظت ذاكرتى على الخصوص مشهداً وُصف لى : أمٌ ترتجف جزعاً وهلعــاً وفى يديهــا طفل صغير ؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبةً صغيرة . انهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلـّونه ويضحكونه . والطفل سعيد فها هو ذا يمد اليهم ذراعيه . وفى تلك اللحظة يصوّب اليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبى ... أليس هذا فناً فى الواقع ؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلاوى ...

ـ أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

ـ أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجودا ، واذا كان الانسان قــد خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو .

ـ كما خلق الله اذن ؟

ـ انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى « هملت » .

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

ـ هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها . ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل الهك اذا كان الانسان قد خلقه على صورته . لقد سألتنى الى أين أريد

أن أنتهي ؟ انني امرؤ يجمع وقائع شتى يقتطفها مصادفةً من الجرائد أو من أحاديث الناس ثم يدونها على الفور • تخيل هذا • لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع • والأتراك يحتلون في هذه الوقائع مكانا كبيرا بطبيعة الحال ، ولكن الأتراك أجانب • وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى وقائع البلاد الأخرى • في بلادنا روسيا انما يُعمد خاصةً الى السوط والعصا ••• هذا اختصاص قومي لنا ان صح التعبير • نحن لا نسمّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شيء • ولكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصي ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا • يظهر أن الناس في البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب • فاما أن العادات هنالك أصبحت أقرب الى اللين ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للانسان أن يجلد أخاه الانسان • على أن الانسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومي خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا • على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التي تنتشر في الآفاق العليا من مجتمعنا • ان عندي نشرة شائقة* مترجمة عن الفرنسية تروي قصة اعدام مجرم في مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار في الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة • ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالي خمس سنين • وريشار هذا زنيم كان أبواه قد « أهدياه » وهو في السادسة من عمره الى رعاة جبليين ربّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك • شبّ الصبي كحيوان صغير متوحش • والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك في

جميع الفصول والأجواء • وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأن عذاب ، لأن الصبي كان قد « أُهدى » اليهم كما يُهدى شيء من الأشياء ، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه كما يجب أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل • وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يتفق له خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الانجيل) أن يشتهي أن يأكل ثمار الخروب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع • ولكن لم يكن يُسمح له بذلك ، وكان يُضرب اذا سرق بعضها من المذود • هكذا عاش ريشار سني طفولته وشبابه الى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً ، فترك الرعاة وأخذ يسرق • وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بأجر يومي ، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة • وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه • وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام • ان الناس ليسوا عاطفيين في البلاد الأجنبية • وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسيس بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية ، الخ ؟ فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة ويفسَّر له الانجيل ويوعظ ، ويُردُّ الى الصواب ، ويُلام ويقرَّع ، ويؤنب ويوبخ ، وتُشرح له العقيدة ويُلقنّ تعاليم المسيحية ، فاذا هو يعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب • وقد وجه الى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً ، وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه الى الحق وأتم عليه نعمته • وقد اهتزت المدينة كلها للأمر ، فاذا جنيف الفاضلة العاقلة الحكيمة تغلي وتفور ، واذا جميع الناس في المجتمع الراقي ، اذا جميع « الأخيار » يريدون أن يزوروه في سجنه : حضنوه وعانقوه وقبَّلوه ، وقالوا له :

« أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله » ، فكان ريشار يبكي حنانا ويكرر قوله : « نعم لقد أدركتني نعمة الله • كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها ، وها هو ذا الرب يرسل الىّ الآن نعمته • سأموت في صلح مع الله » ؛ فيجيبه الآخرون : « نعمَ ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب • لقد سفحت دماً فيجب أن تموت • صحيح أنك لم تكن مذنباً اذ جهلت الله أيامَ كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب اذا أنت سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطىء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت•» • وحان اليوم الأخير • فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : « هذا أسعد يوم في حياتي ، فانني ذاهب الى ملكوت الرب » ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين : « نعم نعم ••• هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب الى ملكوت الرب ! » • وقد رافق هذا الجمهور ريشار الى المقصلة ، فبعضهم يتبع عـــربة العار التي تقل الجـاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً • ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخـــذ الصياح يتعالى من كل مكان قائلاً : « مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أُدركتك • » • ودُفع ريشار الى المقصلة تغمره القبـلات ، وأُضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخويا جدا لأن نعمة الله قد أدركته • أليس هذا شيئا يتميز بطابع خاص ؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية ••• ترجمها أشخاص ينتمون الى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي ، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة الى جميع الصحف لتوزع مجانا في سبيل تثقيف شعبنا •

» ان حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي • فنحن في بلادنا ، والحق يقـال ، لا نقطع رأس رجل* لأنه أصبح أخانا ولأن

نعمه الله قد أدركته • ولكن عندنا شيئاً لا بأس به هو أيضاً • نحن فى روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً ، وقد أصبح هذا نوعا من تقليد تاريخى ومتعة مألوفة طبيعية مشروعه • لقد صـــوّر نكراسـوف ، فى احدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين ، على «عينيه الوديعتين» * •• من ذا الذى لم يشهد فى يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيرا ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذى كان يجر عربة منقلة بأحمال فوق طاقته قد سقط فى الوحل ثم لم يســـتطع أن يتخلص منــه • فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه ••• وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه فى الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصـــبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشى بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً : « أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك ••• سأجبرك على ذلك اجبارا أيها الحيوان القذر • مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة ! » • وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة ••• على « عينيه الوديعتين » العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى • واستطاع الحيوان بوثبة مستميتة قصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزى والعار ، لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة فى القلب • ان أشعار نكراســوف هذه تحـدث فى النفس أثراً رهيباً • والأمر مع ذلك أمر حيوان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الحيوانات لنضربها ، أو هذا على الأقل ماتعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم • ولكن البشر يُضربون أيضاً • اننى أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته فى ضرب ابنته الصغيرة وهى

طفلة فى السابعة من عمرها *. لقد دوّنت الواقعة بجميع تفاصيلها . كان للعصيّ أشواك ، فسُرّ الأب من ذلك أعظم السرور . قال : « لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى » ... وأخذ يضرب ابنته . هناك أشخاص ـ وأنا أعلم ذلك علم اليقين ـ يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، ويبلغون من النشـــوة بها حدّ اللذة الجســـدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً . ضُربت الصبية دقيقة ، فخمس دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة . والصبية تصرخ وتبكى ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها : « بابا ، بابا ، بابا الحبيب ! » . وبمصادفة شيطانية غير لائقة ، رُفعت القضية الى المحكمة . واستعان الأبوان بمحام . ان الشعب يقول منذ زمن طويل : « المحامى ضمير يؤجر نفسه » . وأخذ المحـامى يصيح قائلاً أمام المحكمة : « أب أدّب ابنته . فما هذا الا حادث مبتذل شائع من حوادث الحياة العائلية . ومن عار هذا العصر الذى نعيش فيه أنه ظُن أن هـــذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة ! » . وقـــد تأثر المحلّفون أشد التأثر بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة . وضجّ الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد . اننى لم أشهد المحاكمة ، والا لاقترحت انشاء صـــندوق اعانة ، تكريماً لهذا الأب الجلاد ! هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصةً بالأطفال من الروس . اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها، وهم « أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأةً كريمة وأُحسنت تربيتهم » . أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم . ان هؤلاء الجلادين يبرهنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة ، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين متنورين . ولكنهم فى مقابل ذلك يجـدون

لذة كبيرة فى تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة • ان منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التى لا تحسن الدفاع عن نفسها ، ولا تعرف كيف تشتكى ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم ، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية فى نفوس أولئك الناس • لا شك أن فى قرارة كل انسان وحشاً نائماً ، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضـــحيته ، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التى ضاعفها الفجور وضـاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك • ولنعد الى أهل تلك البنية • لقد أنزل الأبوان المثقفان فى ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال • كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أى سبب ، حتى انهد جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء • وشيئاً فشيئاً توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن • من ذلك أنهما أثنـاء الليالى الباردة كانا يحبسـان الطفلة فى المرحاض ، بحجة أنهـا كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها فى حينها (كأن طفلاً فى الخامسة من عمـره يسـتطيع دائما أن يسـتيقظ من نومه الهادىء العميق فى الوقت المناسب للذهاب الى المرحاض) ؛ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه « لتعليمها » ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ، هى التى تكرهها على ذلك • وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة فى ذلك المكان الموبوء ! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذى ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجرى له ، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين فى غياهب الظلام والبرد ضارعاً الى « الرب الرحيم » بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف ، باطل هذا البطلان ، مستحيل هذه الاستحالة ••

قل لى يا صديقى ويا أخي ... هل تستطيع أن تدرك علة وجود هـذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لايمكن تصـوره خاليا من الألم ومن الظلم للذين يستطيعان وحدهما أن يهبا للانسان معرفة الخير والشر ! ألا بئست تلك المعرفة اذا كان ثمنهـا هـذا الثمن ! ان كل ما فى العالم من علم لا يكفى للتكفير عن دموع تلك الطفلة التى تتوسل الى « الرب الرحيم » أن ينجدها . لن أقول شيئاً عن الآلام التى يعانيها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعا اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهتم بأمرهم ... أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألاحظ أننى أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان فى وجهك حزناً وشقاء . سأمسك عن الكلام ان شئت » .

تمتم أليوشا يقول :

ـ لا ... اننى أحب أن أتألم أنا أيضا .

ـ لن أقصَّ عليك الا قصة واحدة أخـرى ، لأنها شائقة جـدا ، ولأنها تتسم بطابع مميَّز حقا . لقـد قرأتها منذ زمن قصـير فى مجلة « السجل الروسى » أو مجلة « الماضى الروسى » * ، لا أدرى على وجه الدقة ... يجب التحقق من ذلك ... لقد وقعت هذه القصة فى أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب* ! كان يعيش فى ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيانا واسعة . هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهـم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقرانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال

هؤلاء الرجال فى الماضى • كان ذلك الجنرال يعيش فى أراضيه التى يعمرها ألفان من الأقنان • وكان يصطنع الأبهة والعظمة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهرا بأنه يعدهم مهرّجين أو طفيليين • وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم ، لابسين زياً واحدا • ففى ذات يوم كان قن صغير هو صبى فى الثامنة من عمره يتسلى برمى الأحجار • فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة • وسأل الجنرال مستطلعاً : « لماذا يعرج هذا الكلب الذى هو خير كلابى ؟ » فقيل له انه قد جُرح بحصى رماها ذلك الصبى • قال الجنرال وهو يتفرس فى الصبى : « أأنت السبب اذن ؟ » • ثم أضاف : « احبسوه ! » • انتُزع الصبى من أمه ، وألقى فى زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل • وفى ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد فى احتفال عظيم • انه يمتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعا • وأمر الجنرال بجمع الخدم فى الحوش لتلقينهم درساً ، وجُعلت أم الصبى الجانى فى أول صف من صفوفهم • وأُخرج الصبى من زنزانته • كان ذلك فى صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف ، صباحٍ يبشر بصيد وافر • وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عاريا كل العرى • ان الصبى يرتعش مصفراً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه ••• قال الجنرال آمرا : «اجعلوه يركض» ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبى قائلين له : « اركض ، اركض » ، فأطاع الصبى أمرهم وأخذ يركض ، فاذا بالجنرال يعول صائحاً : « عليه ! » مهيباً بكلابه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبى على مرأى من أمه ••• أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ •

فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعـــدم رمياً بالرصاص ؟ ألم يكن من الضروری اعدامه تهدئةً للضمير الأخلاقی ؟ هلاّ أجبت يا أليوشا !

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة :

ـ نعم كان يجب رميه بالرصاص .

فصاح ايفان يقول بنوع من الحماسة :

ـ مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد ... هاه ... يا لرسول المحبة ! ذلك هو الشيطان الذی تؤويه فی قلبك يا أليـــوشا كارامازوف !

قال أليوشا :

ـ لقد قلتُ سخافة ، ولكن ...

صاح ايفان :

ـ ولكن ... هذا هو الأمر : « ولكن » ... أليس كذلك ؟ ألا فاعلم أيها الراهب المبتدیء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم . ان الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شیء وقد لا يحدث شیء . نحن نعلم ما نعلم !

ـ ماذا تعلم ؟

ـ لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً فی هذيان)، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئا . أريد أن أكتفی بالوقائع وأن أقتصر عليها . لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها . فلو حاولت أن أفهم اذن لشوّهت الوقائع فورا ، وأنا أحرص على أن أبقى فی الواقع لا أخرج منه ...

صاح أليوشا يقول بمرارة :

ـ لماذا تعذبني هذا التعذيب ؟ هلاّ قلت لى أخيراً ...

ـ سأقول لك . ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية . أنت عزيز فى نفسى يا أليوشا ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما بدون كفاح .

قال ايفان ذلك وصمت لحظةً مظلمَ الوجه ، ثم أردف يقول :

ـ اصغ الىّ الآن . لقد اخترت لأمثلتى أطفالاً حتى يكون برهانى أكثر اقناعاً . ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التى تتبلل بها الأرض ، اننى أضيِّق موضوع مناقشتنا عامداً . ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات . وانى لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزى عن فهم نظام هذا العالم . هل يجب أن نؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهبت لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم واختطفوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعى اذنْ الى أن نشفق عليهم ونرثى لحالهم . ولكن عقلى ، عقلى المسكين الاقليدسى الأرضى يؤكد لى ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شىء ينقضى آخر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه . ذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلى الاقليدسى ، أعرف هذا ... وأنا لا أقبل أن أحيا فى عالم كهذا العالم . فيم يهمنى أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ اننى فى حاجة الى عدل ، والا دمرت نفسى . وهذا العدل الذى أطالب به ، أنا لا أريده فى « لا نهاية » لا يمكن الوصول اليها ، وفى « أبدية » تفوقنى ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعينى . لقد آمنت ، وأريد أن

أشهد انتصار الحقيقة ! فاذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً !
لسوف يسيء الي كثيراً أن يتحقق هذا المجد للانسان في غيابي . هل
تألمت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن
ينتفع به الا آخرون ؟ انني أريد أن أرى الوعلة بعيني مستلقية أمام
الأسد في هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق
قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سر هذا العالم للجميع .
ان هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ
مؤمن . ولكن الأطفال ... ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوغ عذاب
الاطفال ؟ تلك مشكلة لا أجد الى حلها سبيلا . أعود فأقول لك للمرة
المائة : ان هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكنني اخترت هذه
المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لانها تتيح لي أن أعبر عما يشغل بالي ويقض
مضجعي تعبيراً أوضح . قل لي : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل
أن يمهدوا بألمهم للانسجام الكلي ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضا ؟
لماذا حُبس الأطفال في هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن
يساهموا في الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً. ماذا
جنوا حتى يُجرُّوا في هذه الزوبعة ؟ قد أُسلم عند الاقتضاء بتضامن
البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا في
الخطيئة فان قيل انهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وانهم
متضامنون اذن مع آبائهم في هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من
هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! رُبَّ مازح خبيث
يعترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان
الوقت ولكنني أقول ان ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره
لما يشتد ساعده بعدُ وقد مزقته الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون في
نيتي أن أجدف . انني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوي

أصوات السماء والأرض جميعا منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : « أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك ! » • سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذى أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان أنت على حق يا رب • ستنجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة • ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أقبل هذا الحل للغز وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم • قد يحدث يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائى للحقيقة وحين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصبح أنا أيضا مع الجميع اذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون : « أنت على حق يا رب ! » • ولكننى لا أريد أن أفعل ذلك وأحرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلا حاسما عن الانسجام الأعلى• ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأيى دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شىء • نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ ما الذى يمكن أن يمحوها ؟ أهو القصاص الذى سينزل بالجانى ؟ فما قيمة هذا القصاص ؟ فيم يهمنى هذا القصاص ؟ اننى لا أريده ! اننى لا أطالب بتعذيب الجلادين فى الجحيم• ان جهنم لن تغير من الامر شيئاً ولن تنفى أن الطفل قد عذب • وأين عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفر وأن أصالح • اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عذاب • فاذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بد منه ولا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون دية للحقيقة فاننى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظا

الى هذا الحد اننى لا أريد أن تصالح الأم الجلاد الذى أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها • ليس من حقها أن تغفر له• لها أن تتغاضى عن ألمها هى ، عن عذاب الأم العظيم الذى قاسته ، لها أن لا تحقـــد على الجانى اذا شاءت ولكن ليس لهـا أن تعفو عن التعذيب الذى نال ابنها حتى ولو عفا عنـه ابنها • فاذا كان الامر كذلك ، اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين أين الانسجام ؟ قل لى : أين الانسجام ؟ هل فى الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر ؟ اننى لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية• اننى أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير • اننى أؤثر أن يظلل ألمى بغير فدية وأن يظل استيائى متأججاً بغـير ارتواء ولو كنت على خطأ • ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن ان بطاقة الدخول غالية مسرفة فى الغلاء • لذلك أسارع فأردُّ بطاقتى• اننى أشعر بأن علىّ أنأردها بأقصى سرعة لأننى انسان شريف وذلك ما أفعله• اننى لا أجحد الرب يا أليوشا وانما أقتصر على أن أعيد اليه بطاقتى بكثير من الاحترام •

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

ـ هذا عصيان •

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة :

ـ عصيان ؟ لا أحب أن تحكم علىّ هذا الحكم• ان من المستحيل على المرء أن يحيا فى العصيان ، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا • أجبنى عن سؤال أليوشا ولكن أجبنى بصراحة • فاننى أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسـانية وأحببت أن تبنى عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيرا أفتشرع فى هـذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا

عذاب انسان واحد صغير برىء هو مثلاً تلك الطفـلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كن البناء لا يمكن أن يقـوم الا على تلك الدموع التى لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت جازم :

ـ لا ••• لا أوافق •

ـ وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل برىء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

ـ لا ••• لا أستطيع أن أسلم بهذا •

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه :

ـ أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفـــر كل شىء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البرىء للانسانية بأسرها لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى يقع عليـه أن يصيح : « أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقك » •

ـ آه ••• انك تتكلم عن « ذلك المبرأ وحده من الخطيئـة وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشـهد به فأمثالك فى العـادة يبرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة ، اسمع يا اليوشا هل تعـلم أننى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقـد فعلت ذلك منــذ سنة فاذا وافقت على أن تضيع فى صحبتى بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة •

ـ كتبت قصيدة ؟

ـ لا لم أكتبها (كذلك أجاب ايفان ضاحكاً) ولا كنت قادرا فى يوم من الأيام على أن أُسطر بيتين من الشعر ولكننى تخيلت هذه القصيدة وحفظتها فى فكرى لقد تصورتها وأنا فى نوع من سورة النفس وستكون أنت أوّلَ قرائى أو قل أول المستمعين الىّ • ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذى يملك أن يتــلو عليه ما ألف (كذلك أضاف ايفان مبتسماً) أأقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

ـ اننى أُصغى اليك باهتمام وشوق •

ـ عنوان القصيدة « المفتش الكبير » • هى قصة خيالية ولكن يسرنى أن أقصها عليك •

٥

المفتش الكبير

بدأ ايفان كلامه يقول :

ـ لا بد من مقدمة . هذا من التقاليد الأدبية (قال ايفان ذلك ضاحكاً) . ألست مؤلفاً أنا أيضا ؟ ان الأحداث تجرى فى القرن السادس عشر . ولقد كان رائجاً فى ذلك الزمان ادخال القوى السماوية فى القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك فى المدرسة . يكفى أن أذكّرك، حتى دون أن أستشهد بمثال دانتى ، بأن رجال الدين والرهبان كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيها المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه . تمثيليات ساذجة . وقد وصف فكتور هوجو فى روايته « أحدب نوتردام » * تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب فى قاعة « الأوتيل دوفيل » فى عهد لويس السادس عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو « الرأى الصائب للعذراء مريم المقدسة المنعمة » ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار رأيها الصائب وحكمها السديد . وعندنا فى موسكو* ، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت أسرار من هذا النوع تُمثَّل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة . وعدا هذه التمثيليات ، فقد انتشرت فى العالم طائفة من الأقاصيص أو القصائد يظهر فيها القديسون وتظهر فيها الملائكة والقوى السماوية الأخرى ، تبعاً للحاجات . وفى أديرتنا كانت تُترجم

وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلف قصائد في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التترى . فكذلك على سبيل المثال ، احتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : « نزول العذراء الى الجحيم » * ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ فى جرأتها وجسارتها لوحات دانتي . ففي تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذبين فى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل ، فتراهم وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطاة تتخبط فى بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون فى هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم « ان الله قد نسيهم » ، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة ؛ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبى الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعا بغير تمييز . ان حديثها مع الرب شائق جدا ، فهى تضرع اليه وتلح وتأبى أن تنصرف ، فاذا أومأ الرب الى قدمى ويدى ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : « كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين » ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغير استثناء. واستطاعت أخيرا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كل سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين ، وأن يسارع المعذبون عندئذ الى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : « أنت على حق يارب، وعادل حكمك . » .

ان قصيدتى أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أننى عشت فى ذلك العصر . ان الرب يظهر فى قصتى ، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : « سأعود قريبا * . أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما

أبى الذى فى السموات » ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالارض • ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تتغـــير ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمســـة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل ضمانات للبشر •

صدق صوت قلبك ايها الانسان

ان السموات لا تبذل ضمانات * •

فلا قيمة بعـد الآن الا ليقين القلب دليـــلا وبرهانا • صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر • فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجـــزات فوق الطبيعة ، واذا صـدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فان ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها • ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هـــذه المعجزات • وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة فى شـمال ألمانيا * فاذا بكوكب كبير « شبيه بشعلة (هو الكنيسة طبعا) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة » • لقد كان أولئك المجدّفون الهراطقة ينكرون المعجزات • فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماستهم • وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعـــة الى الرب منتظرةً مجيئه ، محبةً اياه بقلب حار ، مؤمّلةً فيه ، ظامئة الى التألم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى ••• ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارةً منذ قرون طويلة قائلةً له : « تفضل بالمجىء الينـا يا رب » ، لذلك أراد الرب برحمتـه الواسـعة ، أن يعـود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة • لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم • وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تيوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايمانا عميقا بما يقول) :

أيتها الأرض التى ولد فيك ملك السموات *
لقد طاف فى كل جهة من جهاتك فى صورة عبد ،
منحنيا تحت ثقل صليبه ،
يهب لك بركته الواسعة •

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك • لقد قرر الرب أن يظهر فى هذه المرة لا لافراد من القديسين ، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون فى خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلب ساذج كقلب الاطفال • الأحداث تجرى فى اسبانيا ، بمدينة اشبيلية ، فى أحلك عهود « التفتيش » ، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لاحراق المتهمين كل يوم فى جميع أرجاء اسبانيا تمجيدا للرب* :

فى نيران رائعة *

كان يحرق الزنادقة الأشرار •

لم يكن يقصد فى هذه المرة أن يرجع الى الارض ذلك الرجوع الذى بشّرت به الكتب الدينية حين قالت انه سيرجع فى آخر الدهور ، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوى « كبرقٍ يسطع من الشرق الى الغرب*• فكل ما كان يريده هو أن يقضى بضع لحظات عابرة بين أبنائه فى تلك الأماكن نفسها التى تزفر فيها النيران الموقدة لاحراق الهراطقة • لقد أراد بفعلٍ من أفعال محبته الالهية أن يظهر للناس مرةً أخرى فى الصورة الانسانية التى اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا أثناء حياته الأرضية التى دامت ثلاثة وثلاثين عاما • فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التى تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الكبير، احراقُ مائة من الزنادقة ، تمجيداً لله ، بمعاونة الأهالى وحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات وسائر

من يعدون ألمع أبناء المجتمع فى اشبيلية • وقد ظهر الرب خفيةً بدون ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه • وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعا ؟ لقد انجذب اليه الجمهـــور بقوة لا تقاوَم ، وأحاط به ، واحتشـــد حوله ، وتابع خطواته • فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لانهاية له • ان شمس المحبة تتقد فى قلبه ، ومن عينيه يشع الضياء وتشع القوة فينتشران فى المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم • وهـــو يمد ذراعيه نحـــو الشعب ليباركه • ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على ابراء المرضى • فهذا شيخ من الجمهور ، أعمى منذ طفولته ، يهتف قائلا على حين فجأة : « ردَّ الىّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك » فما هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب • وبكى الشعب تأثراً ، وأغرق بالقبلات الأرض التى مشى عليها • وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين : « رحماك أنقذنا » • وتعالت الصيحات من كل جانب تقول فى حماسة : « انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون اياه • » • ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أشبيلية لحظةً كان يؤتى الى المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنيةٍ فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عيون ســـكان المدينة • ان الميتة مغطاة بالأزهار • صاح الجمهور يقول للأم المحزونة : « سيحيى لك ابنتك » • وكان كاهن الكنيسة قد تقـــدم نحو التابوت ، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه • فأجهشت أم البنيـــة الميتة باكيةً وارتمت على قدمى المسيح وضرعت اليه وهى تمد نحوه ذراعيها قائلة : « اذا كنت أنت هـــو حقاً ، فأحى ابنتى ! » • توقف الموكب ، ووضـــع التابوت على البلاطات عند قدميـــه • فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف ، وتحركت شفتاه فى رفق تقولان مرة أخرى : « قومى أيتهـــا

البنية » * فما ان نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت ، وجلست مبتسمة ، ونظرت حولها بعينين محملقتين مدهوشتين . انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها. اضطرب الجمهور وصاح وبكى . وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال كبير المفتشين في الساحة أمام الكاتدرائية . انه شيخ في نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن في عينيه شعلة تسطع. انه لايرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذى ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى الىالنيران أعداء الكنيسة الرومانية . وانما هو يلبس في هذه المرة ثوب الكاهن ، المصنوع من خشن الصوف . وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وخدمه وحرس القداس الاحتفالى . وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد . لقد رأى كل شيء ، رأى التابوت عند قدمى المسيح ، ورأى البنية تُبعث حية ، فأظلم وجهه واكفهر . انه يقطب حاجبيه الكثيفين الأبيضين ، وان بريقاً متوحشاً كاسراً يومض في عينيه . وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه . ان هذا الرجل الذى عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الزبانية ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذى خيّم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه . وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذى بارك الجمهور صامتا وانصرف . أُخذ السجين الى المبنى العتيق الذى يقام فيه القداس ، وحُبس في زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة. انقضى النهار، وهبط الليل . هى ليلة من ليالى اشبيلية تلك الثقيلة الحالكة الخانقة الحارة . « الهواء معطر بعبق أشجار الرّند والليمون* » . وفجأة ، في الظلمات ، فُتح الباب الحديدى ، وتقدم المفتش العجوز يسير في الممر

ببطء حاملا بيده شعلة • وقف لحظةً على عتبة الزنزانه وتفرس في وجه السجين طويلا • ثم اقترب منه آخر الامر بخطى صامتة ، ووضع الشعلة على المنضدة وقال له :

« ـ أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟ (ولكنه حين لم يتلق جوابا أسرع يضيف :) اسكت ! لا تقل شيئاً ! وما عساك تعلمنى على كل حال ؟ اننى أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لى • وبأى حق تريد من جهة أخرى أن تضيف أى شىء الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجىء اليوم تزرع الاضطراب فى حياتنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتبث فينا الاضطراب ما فى ذلك ريب ، وأنت لا تجهل ذلك • فهـــل تعلم مع هذا ما الذى ســـيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك • أأنت هو حقا ، أم لست الا طيفه ؟ سيان ••• لأننى سأحكم عليك بالاعـــدام وسآمر باحـــراقك مثلما آمر باحراق أسوأ الزنادقة • ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غدا ، باشارة بسيطة منى ، فيورى لهيب النار، هل تعلم ذلك ؟

ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة :

« ـ لا شك أنك تعلم ذلك !

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصغى الى أخيه صامتا ، قال وهو يبتسم :

ـ لست أفهم جيدا يا ايفان • أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم ، أم أنت تريد أن تقول ان الشيخ قد خدعه ظنه ، وان لُبْسةً ما قد أضلَّته ؟

قال ايفان ضاحكاً :

ـ لنسلّم بأن هناك لُبْسةً ما ، ما دامت واقعية هـذا العصر قد دمغتك أنت أيضا الى حدٍ لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أن هناك لبسةً ما ، اذا كنت تحرص على ذلك .

ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

ـ يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو فى التسعين من عمره ، وأن من الجائز أن يكون قد جُنّ منذ زمن طويل فى عزلته المتكبرة المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه . ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا فى الليـلة البارحة ، أو أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التى تسبق الموت فى بعض الأحيان . وانه ليستوى على كل حال أن يكون الامر أمر تهاويل خيالية أو أمر لُبْسة ، فانهما المهم أن هذا الشيخ سيقول فى هذه المرة ، وهـو فى التسعين من العمر ، سيقول ما فى قلبه وما فكّر فيه صامتا طـوال حياته .

ـ والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة ؟

قال ايفان شارحا وهو ما يزال يضحك :

ـ على هذا النحو انما يجب أن تجرى الأمور . ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئا الى ما سبق أن قاله فى الماضى؟ بل ان هذا فى رأيى سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية : « لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن. فلا تأت الينا لبث القلق والاضطراب فى حياتنا بغير طائل ، لا تأت الآن ، لا تأت قبل الساعة المحدّدة على كل حال ! » . فهـذا ما يقوله صانعو الكنيسة الرومانية ، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل . لقـد قرأت

هذا بنفسى فى كتب لاهوتييهم • ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال : « هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سرٍ واحد من أسرار العالم الذى جئت منه ؟ » ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فورا : « لا •• ليس من حقك أن تفعل ••• ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت فى الماضى ، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها قدراً عظيما حين عشت على الأرض • ان كل كشف جديد قد تأتى به سيسىء الى حرية الايمان ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وأنت قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الايمان أمر أساسى • ألم تكن تردد على مسامعهم بغير كلال ولا ملال : « لقد جئتكم بالحريه » ؟• وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكِّرة على حين فجأة : ولقد رأيتهم بعينيك ، هؤلاء البشر « الأحـــرار » ••• ان هذه الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهودا لا نهاية لها (كذلك أضاف العجوز وهو يلقى على المسيح نظرة قاسية) ، ولكننا أتممنا عملنا أخيرا باسمك • لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرنا أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماما ! ألا تظن أنه انتهى الى الأبد ؟ انك تنظر الىَّ بوداعة ولين ورفق ، فلا شك أنك تقدِّر أنك ان أظهرت استياءك كنت تشرفنى تشريفا لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعا منهم فى أى وقت مضى بحريتهم الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها فى أيدينا بكثير من المذلة ! ذلك هو عملنا ! أهذه هى الحرية التى كنت تنشدها لهم ؟

قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلاً :

ـ مرةً أخرى أصبحت لا أفهم • أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟

ـ كلا ••• انه لا يسخر ولا يتهكم البتة ! بالعكس : انه يتباهى، لنفسه ولصحبه ، بأنهم أوقفوا نمو الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس

بذلك سعداء • « ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعا باسم محاكم التفتيش) • ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد • ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء ؟ لقد نُبهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة • ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت الينا بمهمة اتمام رسالتك • لقد كلفتنا بأن نوجّه الانسانية وأن نرشدها • بذلت لنا وعدك ، وأقمت سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن تستطيع طبعا أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن • فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟

قال أليوشا سائلاً :

ـ ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوزه ؟

وأجاب ايفان :

ـ ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن يعرب عنه •

ـ تابع العجوز يقول : ان الروح الرهيب العميق ، روح الدمار والعدم ،قد خاطبك فى الصحراء ؟ وتروى الكتب المقدسة أنه أغواك ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق اكبر من الحقائق التى عرضها لك فى أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها « غوايات » • ومع ذلك ، لئن وُجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، وفى تلك الغوايات الثلاث • لقد كانت تلك الاسئلة معجزةً من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت• لنتصور،

على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التى ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً فى الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة . لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض ـ رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء ـ وقلنا لهم : « أوجدوا لنا ، تخيلوا لنا ثلاثة أسـئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، فى ثلاث جمل انسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والانسانية» . فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة فى هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ، ولو من بعيد ، شيئاً يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التى ألقاها عليك فى الصحراء ذلك الروح القوى العميق ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجـزة ، أعنى كون الأسئلة قد ألقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انسانى عادى، بل أمر فكر خالد مطلق . ذلك أنها تضم فى ذاتها ، تشتمل فى ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التى لا سبيل الى حلّها . ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذى تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفا ؛ أما الآن ، بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ، فاننا نرى أن كل شىء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسـئلة الثلاثة ، وأنها قد تحققت تحققاً يبلغ من الكمال والتمام أننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم .

» فاحكم فى الأمر بنفسك : من ذا الذى كان على حق ، أأنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نصّه بل معناه العام : « تريد أن تمضى الى الناس ، وأنت تمضى اليهم خالى اليدين الا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن

يفهموها ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية • هل ترى هـذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حوّلها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصبح شاكرة لك مطيعة ً اياك ، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يديك وأن تُحرم هى من الخبز » • غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز • لقد أجبت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان • أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضى نفسه ، وأنه سيقاتلك ويغلبك ؟ وأن الجمهور سيهرع عندئذ نحوه قائلاً : « من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟ » • لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية وينادى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب • « أطعمهم تجعلهم فاضلين ! » • بهذه الصيحة انما سيحملون الراية ضدّك وسيقوّضون معبدك • وسيقيمون فى مكانه مبنى آخر ، هو « برج بابل » ثانٍ مهدّد • صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة • ذلك أن البشر انما سيتجون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة عشرة قرون ! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقبية التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنُضطهد وسنعذّب من جديد) ، سيجيئون قائلين لنا : « أطعمونا ، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا » • وسننهى عندئذ بناء البرج ، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى

النهاية • وسوف نطعمهم ، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نفعل ذلك باسمك ، كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك • بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا فى هذا العالم ، وسيظلون دوماً جائعين ساغبين • لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سينتهون الى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين : « استعبدونا ولكن أطعمونا » • سيدركون هم أنفسهم أن الحريه لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل فى يوم من الأيام • وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارا ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان • لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكننى أسألك مرةً أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض فى نظر الكثرة التى ستظل الى الأبد فاسدة عاقة ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدةً لأن تتبعك فى سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التى لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض فى سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التى لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضا ، أن لا يكونوا الا مادةً مسخرة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأى ، وان الضعاف أعزة على قلوبنا • انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون فى آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعا • سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادةً لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة فى نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم انما يطيعونك أنت وبأننا

نحكمهم باسمك • سوف نكذب عليهم فى هذه النقطة أيضا ، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا•وسيكون هذا الكذب الضرورى عذابنا • ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها على كل شىء • ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سرّ هذا العالم • فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبّيت ما تنتظره الانسانية انتظارا أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدّأت القلق الذى يعذب الفرد ويعذب الجماعة كليهما : « من نطيع ؟ » فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الانسان الذى أصبح حراً من همِّ العثور على سيدٍ يحكم بأقصى سرعة • ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد ، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى • ان حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ، ويمكن أن ينحنى لها « الناس كافة » • فهذه الحاجة الى « الاشتراك » هى بعينها الهمُّ الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملةً ، منذ أقدم عهود التاريخ • فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة انما أفنت الشعوب بعضها بعضا خلال الأحقاب • كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم : « اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا • والا فالموت لكم ولآلهتكم ! » • وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة • ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق والتى قدّمت لك للتأدى بجميع البشر الى الانحناء أمامك بغير تردد ــ أعنى راية الخبز الأرضى • لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم

الخبز السماوى • فانظر الآن فيما صنعت ! انظر فيما فعلت باسم الحرية !
أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاجه الى
العثور على من يستطيع أن يضحى له سريعا بالحرية التى وُهبت له ، هو
المخلوق التعيس ، منذ ولد • ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر
الا بتهدئة ضـــميرهم • ولقد كان فى وســعك أن تتخـذ الخبز رايةً
لا تخطىء • اطعم الانسان يُطعْك ، فلا شىء فى هذا العالم أعـزّ على
الجحود من الحاجة الى الأكل • ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير
البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أخضع
نفوسهم • فى ذلك كان رأيك صـحيحا • ان سرّ الوجـــود الانسانى
ومبرّره ليسا فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة الى معرفة السبب الذى
يدعو الانسان الى الحياة • فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته،
لا يقبل أن يؤثر فى العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه ، ولو ملك الخبز
وافراً كل الوفرة • تلك هى الطبيعة الانسانية • ولكن ما الذى حدث ؟
حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيدا من
النمو • فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر المـوت
على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر ؟ لا شىء
يخلب اللب فى الوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير ، ولكن لا شىء فى
الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية • فبدلاً من أن تحمل
للانسانية الأسس الراســخة الثابتة الباقية للهـــدوء النفسى والطمأنينة
الروحية ، وبدلاً من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها
ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية،
وكنت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر ، أنت الذى انمـــا جئت مع
ذلك لتهب لهم الحياة ! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانســانية
وسّعتها ، وبذلك ضاعفت ، الى غير نهاية ، الآلام التى تولّدها هــذه

الحرية فى نفوس البشر • أردتَ من البشر أن يمنحوك حبهم أحرارا، وأن يتبعوك بارادتهم ، مفتونين بشخصك • ألغيت القانون القديم الذى كان قاسياً ولكنه كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميّز الخير والشر بنفسه ، مستلهماً حكم قلبه ، غيرَ مسترشد فى تردده الا صورتك أمام عينيه • أفلم تتنبأ اذن بأن البشر سينوءون بهـــذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخرَ الأمر ينبـــذون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى تعاليمك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هــذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لاسبيل الى حلّها. لقد زودتهم أنت نفسك بالأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها • فهل هذا ما عـُرض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف قرونا ، وأن تخضعه فى سبيل سعادته نفسها ، ألا وهى: المعجزة، والسر ، والسلطة • ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعا وعلمت البشر بقدوتك أن يحتقروها • فحين نقلك الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك : « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتســـنده فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمـانك بأبيـك » * ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء • صحيح أنك تصرفت فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تتصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضـــاء كان ستعنى اغراء الرب ، فلو قمت بها

لكنت بطلب المعجزة تبرهن على قلة ايمانك ، فاذا حُرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التى جئت لتخلصها وتنقذها ، وتهلل الروح المحتال جذلا وطرباً • ولكننى أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراءٍ من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده فى الساعات العصيبة من الحياة ، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولى سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور ، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات • ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمردا وكافرا وملحداً ، الى خرافات سخيفة ، تنطلى عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم • انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء : « انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت » • انك لم تنزل ، لأنك مرةً أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب • كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحرارا لا أن ينصاعوا لك عبيدا أذهلتهم قوتك • هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد ، رغم انهم مفطورون على التمرد • انظر فيما حولك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ! هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ،

لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحببته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً . ان الانسان ضعيف وجبان . لا يهمنى أن يكون الآن قد ثار فى كل مكان على سلطتنا ، وانه يرى فى عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به . ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ . ان البشر يشبهون تلامذة صغاراً ثاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم . ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظاً . سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والعصيان . وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد غرّر بهم وسخر منهم . سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضا ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولابد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر . القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته فى الماضى من أجل أن تهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير★ يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشتركين فى البعث الاول ، فرأى اثنى عشر ألفا من كل سبط . لقد كانوا ، مهما يكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر : قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجذور . صحيح أن فى وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحرارا ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا فى سبيلك بأنفسهم فى سورة رائعة . ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر . والآخرون ؟ ما ذنب

الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لاتعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفه الى هذا الحد ؟ أتراك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها ؟ أأنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سرٌ يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ؟ ومن حقنا في هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسى ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريرا حراً ، وانما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته ، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم فى ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه . أصلحنا خطأك الذى ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولى عن المعجزة ، فبنينا عملك على ما هو « فوق الطبيعة » ، بنيناه على « السر » ، بنيناه على « المعجزة » . وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشئومة التى وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها . قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقا أننا لم نحب الانسانية حباً كافياً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها فى كثير من الاذعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل فى كثير من الالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعفها الروحى ، شريطة أن تستأذننا فى ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجىء الآن لتبث الفوضى فى عملنا ؟ مالك تحدّق الىّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين ؟ أحرى بك أن تغضب . اننى لا أريد محبتك ، لأننى أنا نفسى لا أحبك . ولست أحاول أن أخفى عنك ذلك ، لأننى أعلم من ذا الذى أخاطب ، أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينيك . ففيم المواربة والحالة هذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنك ، فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد

ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه « هو » • ذلك هو سرنا • اننا منذ زمان طويل قد كففنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له «هو» • فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً ، أعنى الهبة الأخيرة التى عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض* : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا • ولكن من المذنب فى هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال فى أوله ، ولكنه بُدىء • ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة فى هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون • وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر فى سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية • لقد كان فى وسعك أن تقبل السيف من قيصر فى الماضى ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التى نصحك بهـا الروح القوى ، اذن لكان فى وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية ، وهو أن تعـرف : من تطيع ، والى من تعهد بقيادة ضميرها ، وبأى وسيلة توحِّد جميع البشر فى مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبـير منظم • ذلك أن الحاجة الى الوحـدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وهو فى الوقت نفسه أقوى هذه الهموم طراً • ان الانسانية قد حاولت فى جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل • ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيرا على مقدار نبلها ، لأنها أحست أكثر من غـيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشرى • ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا على الأرض مرور اعصـار مخرب وعاصفة مدمرة ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره، ولكن شوقاً عميقاً واحدا الى توحيد جميع الشعوب كان يحرِّكهم دون أن يشعروا بذلك • فلو أنك قبلت قانون القاصرة ومقامهم ، لكان فى

وسعك أن تبنى الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للانسانية الى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون الأغذية الأرضية ؟ لقد أخذنا السيف اذن من قيصر ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه «هو» • ستنقضى قرون طويلة فى فوضى التحلل الفكرى والعلم الباطل وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا فى بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر • ولكن « الوحش » سيجىء بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلعق أرجلنا التى سيبللها بدموعه الدامية • وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة : « السر » • ويومئذ انما ستدق ساعة السلام والسعادة للانسانية • انك فخور بصفوتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس • وحتى بين أبناء هـــذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هـــذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفـــوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية صرفة ، وانتهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألست أنت الذى أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن الذين نهش على البشر بعصانا ، فان البشر ســيكونون ســعداء معنـا ، وسيعزفون عن التمرد علينا • ولن يبيد بعضهم بعضـاً كما يفعلون الآن فى كل مكان بفضل الحرية التى تركتها لهم • وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن اســتعمال حريتهم ، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه • هل ما نقوله لهم هو الحقيقــة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقــة ، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التى قادتهم اليها حريتك • ان التحلل، وحق حرية النقد ، والعلم ، ان كل ذلك ســـيؤدى بهم الى طريق غير

نافذة ، لأنه سيلقيهم فى اضطراب لا مخرج منه ملىء بالألفاظ التى لا سبيل الى حلها ، زاخر بالمعجزات المحيرة • فأما العصاه العنيفون منهم فسيدمرون أنفسهم من شدة الكرب ، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً • ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف ، وهم أشقى من أن يتمردوا ويعصوا ، فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : « أنتم على حق • اننا نعترف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره • نحن نعود اليكم • انقذونا من أنفسنا ! » • وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أنتجوه بعملهم ، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة • سيفهمون أننا لم نقلب حجارةً الى خبز ، ولكنهم سيغتبطون بأنهم طعموا ، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان ، بدوننا ، يتحول فى أيديهم الى حجارة ، حتى اذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم• سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك • فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرّب تلاحم القطيع وبعثره فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسيعود الى طواعيته ، الى الأبد فى هذه المرة • وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة الجبانة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم • سنعلمهم أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين • سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ولا شجاعة ، وأنهم أطفال يرثى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هى أعذب سعادة • سوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها • سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يبلغون

هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هــذا القطيع من البشر الذى لا تهدأ حركته ولا يحصى عدده • سوف يرتعشون خوفا أمام غضبنا ••• ســـوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنســـاء والأطفال • ولكنهم ، باشارة منا ، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة ، ضـــاحكين بهناءة ، مغنين كالصـــبية الصغار • وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيىء لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغانٍ وجوفات وحتى رقصات بريئة • أوه ! وسنسمح لهم أيضا بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا • سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا • سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم ، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنـا ، لا بأس ••• لســوف يحبوننا على أننا مخلّصون لهم ، لأننا سوف نقبـل أن نكون مســـئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب • ولن يكتموا عنا سراً • سنبيح لهم أو نحظر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشـــوا مع نسائهم أو خليـــلاتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينســلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين • سيفضـــون الينا بأخفى ما يعانون من آلام ، وأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب • وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون حلولنا سعداء، لانها ستحررهم من القلق الذى يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قرارا حراً • وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر • سيكون فى هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر • وسوف يموت أولئك موتاً غامضاً، ينطفئون باسمك وادعين مســالمين ، فلا يجدون فى الحيــاة الآخرة الا

العدم • ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت ؛ ومن أجل سعادتهم ستلألىء أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية • لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء الضعاف ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى • ان النبوءات تزعم أنك ستعود فى يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً على الشر ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم • لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة • يقل ان الزانية الدنيئة التى تركب « الوحش » * وتحمل بيديها « كأس السر » ، سيجللها الخزى والعار ذات يوم وان الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها الدينى الكاذب ويعرُون جسدها « النجس »• ولكننى سأنهض عندئذ فأشير لك الى تلك المليارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ؛ ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : « احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ ! » • ألا فاعلم اننى لا أخشاك • ألا فاعلم اننى عشت أنا أيضا فى الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر • وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة ، وأن أكون واحدا من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير ، وكنت أحترق شوقاً الى أن «أكمل عددهم»• ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المناسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة • لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت الى صف أولئك الذين يعملون فى « اصلاح ما قمت أنت به » • تركت صفوف المتكبرين ، وانضممت الى المساكين لأعاون فى تحقيق سعادتهم • ان ما أعلنه لك اليوم سيتحقق ، وان مملكتنا ستُبنى فى هذا العالم • أعود فأكرر لك : انك سترى غدا هذا الجمهور المطيع ، هذا القطيع الطيّع

يسرع باشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيدا من الاضرام باضافة فحمٍ متقد الى النار • ذلك أننى سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تدخل البلبلة فيما نقوم به من عمل • لئن وجد زنديق يستحق أن يهلك فى النار ، فهذا الزنديق هو أنت • غداً ستُحرق • انتهى كلامى • • » •

صمت ايفان • كان قد تحمس أثناء الكلام ، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامح • حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفتيه ابتسامة على حين فجأة •

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقاطع أخاه • ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية • وها هو ذا الآن يدع لاستيائه أن ينفجر ، ويكاد يثب عن مقعده • صاح وقد احمر وجهه احمرارا شديدا :

ـ ولكن ••• ولكن ••• ان قصيدتك تمدح المسيح فى الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو • من ذا الذى يقبل تأويلك هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه ••• انك تعرض تصور الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع الكاثوليكيين ـ ذلك خطأ ! ـ وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! ••• ثم ان صاحبك كبير المفتشين رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها • ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب

فى سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وُجد هؤلاء ؟ انما نعرف اليسوعيين . لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقا الصورة التى ترسمها لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة ... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا فى المستقبل امبراطورية الأرض التى سيرأسها حبر روما برتبة امبراطور ... ذلك هو مثلهم الأعلى ، وهو لا يشتمل على سرٍ ولا على ذلك الحزن النبيل الذى لا يُفهم ... انه الظمأ الى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة ؛ انه الرغبة فى استعباد الناس ... انهم يحلمون بالعودة الى نوع من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين ... ذلك هو طموحهم كله ! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله ... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه النبيل الا خيالاً محضاً ...

قال ايفان ضاحكاً :

ــ لحظة ، لحظه ... لماذا تتحمس ؟ ثمرة من ثمرات خيالى ؟ لا أعارض فى هذا . ذلك كله خيال طبعاً . ولكننى أرجو أن تسمح لى بالقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية فى القرون الأخيرة لم تستلهم الا الظمأ الى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسى هو الذى قال لك هذا الكلام !

ــ بالعكس ! ان الأب بائيسى قد قال لى فى يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريبا ...

كذلك قال أليوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً :

ــ أعنى ... انه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة ...

قال ايفان :

ــ اسمع اسمع . هذا اعتراف له شأنه رغم قولك « بالعكس » !

كيف تستطيع أن تصـــدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء الا امتلاك الخيرات المادية الحقيرة ؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم فى يوم من الايام ولو انسان واحد من الصفوة المختارة يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم ، فى عداد هؤلاء الطامعين الطامئين الى المباهج الارضيه السافله رجل واحد ، رجل واحد شبيه بصاحبى كبير المفتشين عاش فى الصحراء مثله واقتات بالجراد وجـذور النبات وأضنى جســـده وأماته فى سبيل الوصول الى الحـــريه والى الكمال . تخيل أن هـــذا الرجل قد أحب الانسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفســـية التى يقال ان السمو الروحى يحققها انما هى وهم باطل ما دام ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الهية مثله ، ما يزالون غارقين فى أقـذار الفحش ، وأن حريتهم المزعومة ليست الا ســـخرية لاذعة مرة ، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج ... أى أنهم لن يصـــلوا فى يوم من الايام الى حـــريتهم ، وأن حلم الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهـذا النوع من الأوز ! ... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صـوابه ، وانضم الى الناس الأذكياء ... أهذا فى رأيك افتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الغضب :

ـ الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم البتة ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هـــؤلاء زنادقة ... ذلك سرُّهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله ... الأمر بسيط !

ـ لنسلم بهذا . لقد فهمتَ أخيرا . صحيح ، انه أصبح لا يؤمن بالله ، ذلك كل سرّه . ولكن أليس هذا عذابا بالنسبة الى رجل مثـله

أفسد مستقبله بحياة التقشف فى الصحراء ثم لم يستطع أن يتحرر من حبه الانسانية ؟ لقد رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التى أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه « المخلوقات الناقصة التى كانت للخالق تجربة ، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة » • فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذى نصح به الروح العميق ، الروح الرهيب ، روح الموت والعدم • واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بغية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين يُسار بهم • فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء • لاحظ أنه يرى نفسه مضطرا الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذى آمن به ايمانا مشبوبا طوال حياته • أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف « الجيش الظامىء الى السيطرة والى اللذات المادية الدنيئة » ، لكان فى هذا ما تُخلق منه مأساة حقة ! أكثر من ذلك : يكفى أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجِّهة فى فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها ، فكرةٌ عليا • أقول لك بصراحة : اننى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا فى جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين البابوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العجوز اللعين الذى يصرّ ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد فى أيامنا هذه ، مع عدد من أمثاله ، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك • لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً • هذا لا مناص منه •ويبدو لى من جهة أخرى أن الماسونيين الأحرار لا بد أن يكون لهم هم أيضا سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم • ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطيع واحد وراعٍ واحد ••• ولكننى ألاحظ اننى فى دفاعى عن فكرتى أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك• كفى هذا •••

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله فى تلك اللحظة :

ـ أتراك تنتمى الى الماسونيين الأحرار ؟

ثم أضاف يقول :

ـ أنت لا تؤمن بالله •

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق فى هذه المرة• حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح فى وجهه السخر •

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

ـ كيف تنتهى قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

ـ خطر ببالى أن أختمها على النحو التالى : صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً • ان صمت السجين قد ثقل على نفسه • لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل فى مناقشة معه • كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة • ولكن السجين لم

ينطق بكلمة واحدة . وهذا هو يقترب من العجـــوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتى من بلغ من عمـره التسعين . كان ذلك كل جوابه . ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة ، واختلج شيء ما في طرفي فمه . واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : « اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبدا ، أبدا ! » . وأومأ له بيده الى « الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة » . وانصرف السجين .

– والعجوز ؟

– حرقت القبلة قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته .

– التى هى فكرتك أيضا ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول فى مرارة . فأخذ ايفان يضحك . وقال :

– ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجد . هى قصيدة سخيفة ألّفها طالب غبى لم يكن فى يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر . فلماذا تهتم بها هذا الاهتمام كله ، ولماذا توليها هذا الشأن كله ؟ أتراك ســـتظن أننى ذاهب الى الخارج لأنضم الى هـــؤلاء اليســوعيين ولأنخرط فى صفوف أولئك الذين يدعون « اصلاح ما قام به المسيح » ؟ فيم يعنينى هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعنينى هو أن أديم ابتهاجى الى الثلاثين من العمر ثم أرمى الكأس !

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة :

– وبراعم الربيع الغضة ، ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور العـزيزة عليك ، والسماء الزرقاء ، والمرأة التى تحب ؟ كيف ستعيش اذن ، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب ؟ انك بهذه الأفكار الجهنمية فى رأسك وفى قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى ... انك مسافر الى الخارج لتنضم اليهم ، والا فستقتل نفسك ... انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة :

ـ فى نفسى قوة ستتيح لى أن أصمد مع ذلك .

ـ أية قوة ؟

ـ قـوة آل كارامازوف ... قـوة الحطـة والخسـة فى آل كارامازوف !

ـ ماذا اذن ؟ أتغرق فى العهر والفجور والفحش ، أتخنق الروح فى حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟

ـ ربمـا ... ولكننى سأعرف كيف أتحاشاه حتى الـثلاثين من العمر . وبعدئذ ...

ـ ستعرف كيف تتحاشاه ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هى هذه الأفكار ...

ـ بل سأعرف كيف أتحاشاه ، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً .

ـ على طريقة آل ... أيكون ذلك باستيحائك النظرية القائلة ان « كل شىء مشروع » متى كان متفقاً والمصلحة ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا . وقال :

ـ آه ! أأنت تُلمع الى الفكرة التى عبَّرتُ عنها أمس عند شيخك، فكان أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف ... تلك الفكرة التى تلقفها دمترى فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة فى السذاجة ؟ (أضاف ايفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة) ... ليكن ! هو كذلك على وجه الاجمال ! كل شىء مباح . قلت ذلك ولن أنقضه . أما صياغة ميتيا فليست رديئة هى الأخرى ...

نظر اليه أليوشا صامتا .

واستأنف ايفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

ـ كنت أحدث نفسى يا أخي بأننى سأحتفظ حين أســـافر بانسان واحد يحبنى على الأقل ، ولكننى ألاحظ الآن أن ليس لى فى قلبك مكان يا عزيزى المعتزل • أنا لن أنكر فكرتى القائله بأن « كل شيء مباح » ؛ ولكنك أنت ستنكرنى بسبب هـــذه الفكرة ، اذا صدق فهمى ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلةً رقيقة دون أن يقول شيئاً •

هتف ايفان يقول فى حماسة :

ـ هذا سطو أدبى • لقد سرقتَ الفكرة من قصيدتى • شكراً شكراً على كل حال • انهض يا أليوشـا • آن أوان الانصراف ، لى ولك على السواء •

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الكاباريه •

قال ايفان بصوت جازم :

ـ اسمع يا أليوشا ••• اذا بقى فى نفسى من الحياة ما يكفى لأن أحب براعم الربيع النضرة ، فسيكون هذا بفضل ذكراك • سوف يكفينى فى ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا فى مكانٍ ما حتى أسترد حب الحياة فوراً • هل يرضيك هـذا ؟ عُدَّه تصريح حب ان شئت • والآن ••• ان طريقينا يفترقان • ستمضى أنت يمنةً ، وسأمضى أنا يسرة • كفى ثرثرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد اننى سأسافر) ، فالتقينا مرةً أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التى ناقشناها اليوم ، أرجوك • حذار من كلمة واحدة فى هذا الموضوع ! ولا تكلمنى أيضا عن دمترى فى المستقبل ، اننى أطلب منك هذا جازماً

قاطعاً . والأفضل أن لا تكلمنى بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغته) . لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله ، أليس هذا صحيحا ؟ وفى مقابل ذلك فاننى أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر فى الثلاثين من العمر أن « أرمى الكأس » ، فسوف أجىء لأراك مرةً أخرى ، حيثما كنت أعيش فى ذلك الحين .. ولو كنت أعيش فى أمريكا ... سأجىء اليك فنتناقش من جديد ... فى وسعك أن تعوّل على هـــذا . سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض . سيشوقنى أن أراك عنـــدئذ وأن أعرف ما الذى صرت اليه . ذلك عهد أقطعه على نفسى . وقد لا نلتقى قبـل انقضاء سبع سنين أو عشر ســــنين . اذهب الآن ، أسرع الى صاحبك «الأب سيرافيكوس» ، لأنه يحتضر . فاذا مات فى غيابك فقد تحقد علىّ لأننى أخّرتك . الى اللقـــاء . قبلنى أيضـــا ... هكذا ... والآن فاذهب ...

تركه ايفان وسار فى طريقه دون أن يلتفت . ان هذا الانصراف المباغت يذكر بالطريقة التى ترك بها دمترى أخاه أليوشا أمس ، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف . مسّ هـــذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً ، فشـــعر فجأة بحـــزن وارهاق . لبث فى مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذى كان يبتعد. لاحظ ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك فى تلك اللحظة ، أن مشية ايفان كانت متمايلة بعض التمـــايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهـــر أخفض من الكتف الأخرى . انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل . وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً. كان الظلام قد هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه . لقـــد نبت فى نفســـه احساس لم يستطع أن يستبين طبيعته . هبّت الريح كما هبت فى الليلة البارحة . وغمرته أشجار الصنوبر التى تبلغ السنة المائة من أعمـــارها ، غمـــرته

بحفيف شجى حزين حين دخل غابة المنسك • كان يركض • « الأب سيرافيكوس» ، أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تساءل أليوشا •

ـ ايفان ، أخى المسكين ، متى عسى أراك ؟ ••• هذا هو المنسك ! آه ••• يارب ! نعم نعم ، سوف ينقذنى « الأب سيرافيكوس » * ••• سوف ينقذنى منه الى الأبد •

سوف يتساءل أليوشا مرارا أثناء حياته ، فى دهشة عميقة ، كيف أمكنه فى ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمترى ، مع أنه كان قد عزم عزماً أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر فى سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير فى تلك الليلة •

٦

حيث لا سبيل الى الفهم بعد

اتجه ايفان فيدوروفتش ، بعد أن ودّع أليوشا ، الى مسكنه أى الى منزل أبيه فيدور بافلوفتش • ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته • وليس القلق والحزن اللذان يشعر بهما هما اللذان يدهشانه، وانما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد لهما سببا • لقد سبق له كثيرا فى الماضى أن أحس بحزن يستولى على نفسه ، ولا غرابة فى أن يكون حزيناً فى هذه اللحظة التى يتهيأ فيها للسفر بعد أن قطع صلته بكل ما يشده الى هده المدينة ، والتى يهمّ فيها أن يسير فى اتجاه جديد مايزال يجهله • سوف يكون وحيدا من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، لأنه ينتظر من الحياة أشياء كثيرة ، لعلها مسرفة فى الكثرة ، دون أن يعرف ما هى هذه الأشياء من جهة أخرى • وهو يشعر بأنه عاجز عن أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة • غير أن الشيء الذى يعذبه فى هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة فى نفسه • تساءل قائلا : « أتراه هو الاشمئزاز الذى يوقظه فى نفسى منزل أبى ؟ لكأننى قد بلغت من كره هذا المنزل أننى لا أستطيع التغلب على

التقزز من الذهاب اليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة ••• ولكن لا ••• لا ••• ليس هذا سبب الارهاق الذى أشعر به الآن • أهو اذن وداع أليوشا والحديث الذى جرى بيني وبينه ؟ لقد أصررت على الصمت سنين طويلة ، لا أتنزل أن أفتح فمي بكلمة لانسان ، ثم هأناذا أخرج جميع تلك السخافات دفعة واحدة • » صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبّر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبر، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه فى قرارة نفسه أشياء كثيرة • لا شك أن فى نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لابد منه •• ولكن ليس هذا ما يثقل على صدره الآن ويخنقه خنقاً ••• هناك شيء آخر ••• ولكن ما هو ؟ « ان غماً يملأ جوانب نفسي حتى ليكاد يثير غثياني ، ولست أصل الى معرفة ما يعوزني ومعرفة ما أريد • لعل الأفضل أن لا أفكر فى هذا الأمر ••• » •

حاول ايفان فيدوروفتش أن « لا يفكر فى هذا الأمر » ، ولكنه لم يفلح • ان الغم الذى يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة • ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً • ان الأمر أمر شيء أو شخص ـ لا يدرى ايفان على وجه الدقة ـ لايطاق وجوده فى نظر ايفان • ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذى يثيره فى النفس أحيانا ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجودُ شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعية بعد ، ولكنه يغتاظ منه غيظاً يحاصره ويسد عليه الأبواب الى أن يخطر بباله أخيرا أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذى كثيرا ما يكون سبباً تافهاً : شيئا ليس فى مكانه ، منديلا ساقطا على الأرض، كتابا نُسي وضعه فى المكتبة ، الخ •

بلغ ايفان منزل أبيه أخيرا ، معتكر المزاج جدا ، مهتاج الأعصاب

اهتياجا شديدا • وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدى ألقى نظرة على مدخل المنزل فأدرك على حين فجأة ما كان يحنقه ويعذبه طوال الطريق •

كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكة قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة الجو • فما ان لمحه ايفان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خياله على غير علم منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها • لقد اتضح كل شيء • فحين كان أليوشا يحدثه، فى الكاباريه، عن اجتماعه بالخادم ، شعر ايفان بانزعاج شديد ونفور قوى لم يلبثا أن استحالا الى غضب وحنق • ولقد انقطع عن التفكير فى سمردياكوف أثناء الحديث الذى أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى فى قلبه ، فلما ترك أليوشا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله • تساءل ايفان محتداً : « كيف يمكن أن يقلقنى هذا الجرو الغبى مثل هذا الاقلاق ؟ » •

والواقع أن ايفان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن، ولا سيما فى الأيام الأخيرة • وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التى يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً • ولعل عداوته له قد استفحلت واحتدت لأن موقف ايفان فيدوروفتش من الخادم كان عند وصوله الى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف • لقد أظهر ايفان فى ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام بالخادم ، حتى لقد عدّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجّعه على أن يتحدث اليه ، دون أن يفوته مع ذلك ما كان فى أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك ، أو قل من بعض القلق ، وكان ايفان يتساءل : تُرى ما الذى يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا النحو بغير انقطاع ؟ لقد عالجا موضوعات فلسفية ، وناقشا ، فيما ناقشا ، مسألة الضياء من أين جاء فى أول يوم من أيام خلق

العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تاويل هذه الآيه من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالكواكب كثيرا وأن مسائل علم النجوم لا تعنيه كثيرا وان تكن جذابة. كان واضحا أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماماً . وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولّدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشكلات العائلية المعقدة بظهور جروشنكا وقيام المنازعات بين دمترى وأبيه ، أتيح لايفان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقول ، وما هو الشيء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمحه المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيراً ، ويلقى بعض الأسئلة مواربا ، لغرض فى نفسه من غير شك ، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخر فى وسط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحنقه خاصةً أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تحرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكراهية قاطعة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس: لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً

مضمراً سرياً ، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما • ولقد لبث ايفان مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقى الذى يثير حنقه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام •

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف • ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فسرعان ما أدرك ايفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً • نظر اليه ايفان وتوقف • وما أشد ما أحنقه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه الممصوص الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس • وكانت عين سمردياكوف اليسرى التى تغضن حاجبها ، تغمز غمزة ماكرة ، فكأنه يقول : « قف ، لن أدعك تمر • ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء ؟ » •

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلا : « امض أيها الجرو ! أأنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟ » • فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف !

ـ أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه ؟ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضا ، رأى نفسه يجلس على الدكة •

وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه فى اللحظة الأولى • كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها قسوة • وقال دون تعجل :

ـ انه ما يزال يرتاح .

قال ايفان يخاطب نفسه: «آها ! هو الذى يبادرنى بالكلام الآن !».
وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت ، وهو يغض عينيه فى تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأس حذائه الملمَّع :
ـ هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ، قائلا :

ـ ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمئزاز وتقزز ، أن فى نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه .

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلا وهو يرفع عينيه ، ويبتسم فى ألفة :

ـ لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا ★ ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : « ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى » .

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :
ـ لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟
فأجابه سمردياكوف أخيرا :
ـ لقد رجاك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الالحاح.

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام. فكأنه يقول له : « اننى أجيبك بأى شيء ، بأول جواب يخطر على بالى ، لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما » .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول غاضباً ، منتقـلاً من الاذعان الى الحنق بدون تدرج :

ـ ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية ؟ هلاّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه ، وظل يبتسم •

ـ ليس هناك أى شيء هام ••• وانما تكلمت بغير هدف محدد أو غاية معينة •••

وساد صمت • صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة • أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب • وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقـول له : « سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب » • ذلك ما شعر به ايفان على الأقل • وهمّ ايفان أخيرا أن ينهض • ففتح سمردياكوف عندئذ فمـه كأنه قد انتظر هـذه اللحظة ليتكلم •

قال فى بطء ، بصوت جازم ، وهو يقطّع كلامه :

ـ اننى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، وأنا أتسـاءل كيف يمكننى أن أخرج من المأزق •

ثم تنهد تنهدة كبيرة • عاد ايفان يجلس • واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ لكأنهما فقدا كلاهمـا العقل • انهمـا يتصرفان تصرف أطفـال صغار • اننى أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش • سـوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبنى بأسئلته متى نهض من فراشه ، سـوف يسألنى فى كل لحظة : « هيه ؟ ألم تجىء ؟ لماذا لم تجىء ؟ » • وسـوف

تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل • واذا لم تجىء آجرافين الكسندروفنا (وفى رأيى أنها لا تنوى أن تجىء أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته فى صباح الغد متهجماً علىّ : « لماذا لم تجىء ؟ متى تجىء ؟ » ، كأننى أنا المذنب • والقصة هى نفسها فى الجانب الآخر • فمتى هبـــط الغسق ، بل وقبل هبـــوط الغسق ، يأخذ أخوك دمترى بالاستعداد فيكمن فى مكان قريب مسلّحاً ، ويقول لى: «انتبه أيها الوغد! حذار أيها الوغد ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئنى ، لأقتلنك أنت أول من أقتل ! » • حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأبيك : « ألم تجىء بعد ؟ هل تجىء قريبا ؟ » • لكأنه يعدنى ، هو أيضا ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، وغضبهما كلبهما يزداد من ساعة الى ساعة • والخوف يحاصرنى حتى لأفكر فى قتل نفسى تخلصاً من هذا المأزق • اننى لا أتوقع منهما أى خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

ــ ما كان ينبغى لك أن تحشر نفسك فى هذا الأمر ! لماذا ارتضيت أن تكون لدمترى فيدوروفتش مُخْبِراً ؟

ــ كيف كان يمكننى أن أبقى بعيـــدا ؟ اننى لم أحشر نفسى فى الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك • كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهنى على أن أكون له فى هذه القضية خادماً • وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مســـامعى قوله : « لأقتلنك يها الوغد ، لأقتلنك اذا تركتها تمر ! » . أنا على يقين من أننى سأصاب غداً بنوبة طويلة •

ــ أية نوبة ؟

ــ نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جدا • ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد • لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام •

سقطت من الشونة • وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الاغماء • يحدث لى هذا فجأة • وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى ثلجاً على الجبين ودواء آخر •• وكدت أموت •

ـ يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها • فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ • فقال سمردياكوف :

ـ صحيح ••• لا يمكن التنبؤ بها •

ـ ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة •

ـ ذلك أننى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائز جداً أن أسقط منه فى الغد أيضا • واذا لم أسقط من طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم للقيام بالخدمة •

تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلا •

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شىء من التهديد :

ـ يبدو أنك تدبر أمراً • ما الذى تريد أن تصل اليه ؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غض عينيه ، وعاد يهزّ رأس حذائه • وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

ـ هبنى دبرت لهم « مقلباً » من هذا النوع : ان هناك أسبابا وجيهة تدفعنى الى أن أفعل ذلك • لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماما أن ألجأ الى هذه

الوسيلة انقاذاً لحياتي • فاذا حدث أن فررت أجـــرافين الكسندروفنا أن تجيء الى أبيك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضا : « لماذا لم تبلغني ؟ » • سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضباً :

ــ شيطان يأخذك ! لماذا تخـاف على جلدك أيهـا الجبان ؟ ليست تهديدات دمتري الا كلاماً في الهواء ! انه لن يقتلك • قد يقتل ، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال •

ــ بلى ! سيقتلني كذبابة ، وسيقتلني قبل أن يقتل أي انسان آخر! هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذا أيضا : هو أن أُتهم بالتواطؤ معه اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك •

ــ علام تُتهم في هذه الحالة ؟

ــ سيُظن انني شريك لأنني أطلعته على تلك الاشارات السرية •

ــ أي اشارات تعني ؟ سحقاً لأساليبك المخاتلة هذه! هلاّ قلت كلاماً واضحا آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يقول مقطعاً كلامه كانما ليضفي على نفسه قيمة وشأناً :

ــ يجب أن أعترف لك بأن هناك سرا بيني وبين فيدور بافلوفتش • فمنذ بضعة ايام ، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال !) ، تعوّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفســـه بالمفتاح ، منذ يهبط الليل ، ومنذ يهبط الغسق أحياناً • انك في الآونة الأخـيرة تصـعد الى جناحك في ساعة مبكرة ، وامس مثلا لم تخرج قط ؛ لذلك فلعلك لم تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها •

انه لايفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلفتش اذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين • ولكن جريجورى فاسيلفتش لا يجىء ، لذلك فأنا وحدى أخدمه فى غرفته • هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع أجرافين ألكسندروفنا • وتنفيذاً لأوامره • فاننى أترك المنزل أنا أيضا متى حلّ الظلام ، وأمضى أقضى الليل فى الملحقات ، ملزَماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بغية أن أرى ألم تجىء أجرافين الكسندروفنا • ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون • انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجىء فى الليل مارةً من الفناء • وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل • قال لى : « متى ظهرتْ كان عليك أن تسرع الىّ ، فتقرع بابى أو نافذة الحديقة قرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جــــدا ، هكذا : طق ، طق ؛ ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فاعلمَ عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء • » • ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحــدث شىء استثنائى : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع قرعةً ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجىء وأننى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأروى له ما وقع • هذا اذا لم تجىء أجرافين ألكسندروفنا وانما أوفدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فبذلك أستطيع ابلاغه الأمر فوراً • انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن علىّ ، اذا حدث أن كانت أجرافين ايفانوفنا فى المنزل مختليةً به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فورا بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات • لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس

قرعات ، ومعناها أن أجرافين ألكسندروفنا جاءت ، والثانية تتألف من ثلاث قـرعات ومعنـاها أننى أريد أن أكلمه حالاً • وقد جرّب هاتين الاشارتين أمامى مرارا لا تعلمهما • واذ أن أحداً فى العـالم لا يعرف هاتين الاشارتين ، الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فورا بلا تردد ، وبدون أن يلقى أى سؤال (لأنه يخاف أن يُسمع صوته) • والمشكلة الآن هى أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين•

ـ من أين عرفهما ؟ أأنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

ـ كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعى فى كل يوم قوله : « أنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً • لأحطمن ساقيك ! » وعندئذ أطلعته على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أننى أخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية •

ـ اذا كنت تقدّر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فما عليك الا أن تمنعه من الدخول ••• الأمر بسيط •••

ـ فاذا اتفق أن كنت فى تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه فى تلك الحالة من ضراوة وعنف !

ـ سحقاً لك ولنوبة الصرع التى تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أنه نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك علىّ ؟

ـ وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبةً

فى الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سيحدث لى هذه النوبة •

ـ طيب ••• اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتـــولى الحراسة جريجورى ، وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال •

ـ ولكننى ممنـــوع من اطلاع جريجـــورى فاسيلفتش على هاتين الاشارتين الا باذنٍ من السيد • أما عن امكان أن يســـمع جريجـــورى مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك ان جريجورى مريض منذ أمس ، وان مارفا اجناتفنا تنوى أن تداويه فى الغد • على هذا اتفقا اليوم • وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف مزيجاً من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل قوى جداً تعرف سرّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها فى الماء وتداوى به زوجها ثلاث مرات فى العام تقريبا حين يلح عليه مرض اللمباجو ويصبح شبه مشلول • انها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش تأخذ تدلك بها ظهره على طوله خـلال نصف سـاعة الى أن ينتفخ الجـلد ويحمر ، حتى اذا فرغت من ذلك جرّعته ما يبقى فى الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو دعاءً معيناً ؛ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقدارا قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة • ويجب أن أقول لك أيضا انهما ، بسبب عدم تعودهما الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا السـائل حتى يســـقطا كلاهما حيث يكونان ، فينـــاما نوماً عميقاً خـــلال مدة طويلة • فاذا اســـتيقظا شعر جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شُفى من مرضه ، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يصيبها صداع • فاذا نفذا فى الغد عزمهما على استعمال هـذا الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما ســـيناما ، ولن يمنعـــا دمترى فيدوروفتش من دخول المنزل •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

ـ عجيب ! كل شيء يحـــدث فى آن واحـد . أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما ينامان نوما عميقا ! أمر لا يُصدَّق !

ثم أضاف يسأله مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد :

ـ أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

ـ علام أفعل ؟ اننى لا شأن لى فى كل ما يحدث ! كل شيء رهن بارادة دمترى فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره . فاذا كان ينوى أن يوقع مصيبة فسيفعل ؛ واذا لم يكن ينوى فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى ذلك دفعاً ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدوروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضباً :

ـ لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمترى الى هنا ، وأن يتسلل تسللاً ، اذا كانت أجرافين الكسندروفنا لا تفكر فى المجيء الى أبى ، كما قلت هذا بنفسك . لقد أكدتَ لى أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تجيء اليه فى يوم من الأيام . فهلاَّ قلت لى ما هى الغاية التى يمكن أن يتسلل دمترى الى هنا فى سبيلها والحالة هذه ؟ تكلم ... اننى أريد أن أعرف حقيقة ما يجول فى خاطرك .

ـ انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول فى خاطرى شأن فيها البتة . سوف يقتحم أخوك منزل أبيه حباً بالشر وحده أو من فرط سوء الظن . سوف يتساءل عما يجـــرى فى المنزل ، وسيحب من فرط نفاد صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنهـا ليست مختبئة فى احـــداها . وهو يعـلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدَّ ظرفاً كبيرا يحوى ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود ، وكتب عليه بخط يده : « الى ملاكى

جروشنكا ، اذا هى رضيت أن تجىء » ، وأضـــاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : « الى حمامتى الغالية » •

صرخ ايفان يقول خارجاً عن طوره :

ــ هذا سخف • لن يسرق دمترى مالاً ، ولن يقتل أباه لهـــذا السبب ! لقـــد كان يمكن أن يقتـــله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجىء الى هنا ليسرق •

ــ انه الآن فى حاجة ملحة الى المال ، انه فى ضيق شديد ، صدقنى يا ايفان فيدوروفتش • لا تستطيع أن تتصور مدى رغبتـه فى الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير) • أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له • لقد أكد لى ذلك أمس • قال : « ان أبى ما يزال مديناً لى بثلاثة آلاف روبل تماما » • ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن أجـرافين ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت فى ذلك أيسر رغبة • ومن الجائز جدا أن تراودها هذه الرغبة • يجب أن نقول هذا • لقد أسرفتُ أنا فى التعجل حين أكدت أنها لن تجىء الى هنا ، مع أنها قادرة جدا على ان تسدّد الى هدفٍ بعيد وأن تداور فى سبيل أن تصبح سيدة حقة • لقد قال لها صاحبها التاجـر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هـذا الكلام • ليست جروشنكا امرأة غبية ، ثق من ذلك ! لن تبـــلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمترى فيدوروفتش • فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعـــلك تقدر أن دمترى فـــدوروفتش ، اذا أصبحت أجرافين الكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هـو ولا أنت ولا أخـــوك ألكسى • ذلك أن أجـرافين

الكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج الا فى سبيل أن تنقل الى اسمها جميع ثروة أبيك ، جميع أملاكه العقارية ورءوس أمواله السـائلة • أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتمام والكمال • ان دمترى سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته ••• وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش •••

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ؛ وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلا :

ـ قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشنيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هـذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروية ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

ـ هذا صحيح تماما •

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظـه ويسيطر على نفسه :

ـ صحيح تماما ؟ ما معنى هذا ؟

ـ لئن قلت هذا الكلام ، فلأننى أشفق عليك وأرثى لحالك • اسمح لى أن أقول لك : لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع •••

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شىء من تحرج، دون أ نيحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عينـاه تقدحان شرراً •

وأعقب ذلك صمت •

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض عن الدكة :

ـ لا بد أنك أبله ... أضف الى ذلك أنك وغد !

وكان يهمّ أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف . وحدث عندئذ شىء غريب : لقد عض ايفان على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكأنه يهم أن يهجم على الخادم . فأدرك سمردياكوف ذلك ، فارتجف ، وتراجع خطوة الى وراء. وانقضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى . واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة . ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى، مقطّعاً ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حنقاً :

ـ سأسافر غدا الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك. هذا كل شىء !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر .

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفان بهذا السر :

ـ هذه فكرة عظيمة ! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية اذا حدث هنا شىء .

فتوقف ايفان مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة قوية . فاذا بوضع سمردياكوف يتغير فجأة بمثل لمح البصر سرعةً . تبددت الألفة التى كان يصطنعها وتبدد الاهمال الذى كان يظهره ، تبددا بما يشبه السحر ... وعبّر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع ، وكأن عينيه المحدّقتان الى ايفان فيدوروفتش بالحاح غريب تسألانه : « ألن تقول شيئاً آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟ » .

فوعوع ايفان يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر :

ـ اذا حدث شيء فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضا ...

فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاح :

ـ طبعاً ... اذا حدث شيء ... فستستدعى ... من تشرماشنيا..

ـ الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهى قريبة من هنا كل القرب . هل النفقات التى لا داعى اليها هى التى تقلقك ، أم أنت تحب أن توفر علىّ رحلة طويلة فتنصحنى بأن أسافر الى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟

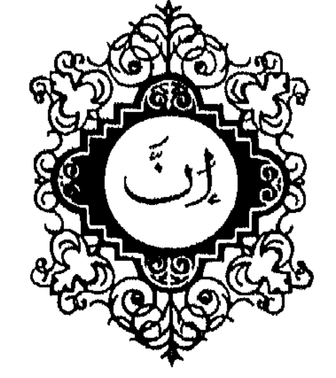
ـ هو كذلك تماما !

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يبتسم ابتسامةً خبيثة .

وكان يستعد لأن يتقهقر الى وراء . فما كان أشد دهشته حين رأى ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك . ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه فى تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح . ثم انه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذى كان يشعر به حينذاك . وكانت مشيته متقطعة ، وكان فى حركاته شيء يشبه أن يكون حركات آلة .

٧

يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي



الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها ايفان قد ظهرت في أقواله أيضاً . فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده :

ـ أنا صاعد الى غرفتي رأساً . لن آتي اليك .

ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه .

لعل مشهد الشيخ كان في نظره عندئذ لا يطاق ، ولكن اظهاره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه . وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه . ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من ايفان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى .

وظهر سمردياكوف للعجوز في تلك اللحظة ، فسأله العجوز :

ـ ماذا به اليوم ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

ـ انه معتكر المزاج جدا !

ـ شيطان يأخذه اذن ! ألا فليعتكر مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف . أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان منذ قليل . انه يلقى عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها . ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا . وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكم اقفاله بالمفتاح ، وخلا العجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طولاً وعرضاً ، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها اشارةً الى أن جروشنكا قد وصلت ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام .

انقضى شطر من الليل ، ولكن ايفان فيدوروفتش لم ينم بعد . كان يفكر ويتأمل. ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية. لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعتمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد . ثم ان وصف ما كان يجيش فى قرارة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأن خواطره كانت غامضة ، وكانت مضطربة مسرفة فى الاضطراب خاصة . وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره . هذا عدا رغبات غريبة كانت تعذبه فى بعض اللحظات . من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً . لماذا ؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب على وجه الدقة ، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديدا ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة . ثم انه قد اتفق له فى أثناء تلك الليلة أن وافته نوبات خوف مذل لا تفسير له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل مفاجىء فى قواه الجسمية.

وكان يشـــعر فى الوقت نفسه بصداع ودوار • واستولى عليـه بغض غامض ، كما استولت عليه حاجة الى الانتقام لم تتضح ولم تتحدد • انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذى جرى بينه وبينه فى النهار • وكان يبدو له فى لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها • أما كاترين ايفانوفنا فكأنه نسيها ، فلم تخطر على باله فى تلك الليلة الا مرة أو مرتين • وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان فى الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً الى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم فى قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلا له : « كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السـهولة التى تتباهى بها الآن ! » • ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صـغيرة ستظل تنبجس فى خياله كثيرا أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه اشـمئزازاً وتقززاً • لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته مراراً ففتح الباب بدون ضوضاء ، كأنه يخشى أن يُسمع ، وخرج الى فسـحة السلم ، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذى كان يمشى فى غرف الطابق الأرضى • كان يتنصت على حركاته بفضول غريب منحبسَ الأنفاس خافق القلب ، لا يدرى هـــو نفسه لماذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيخ بسمعه اليه دقائق طويلة • لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك فى تلك الليلة بأنه « سلوك حقير » ، معتقداً فى دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغـــريب الذى كان يحـــركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر اليها فى حياته كلها • كان لا يشعر فى تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب ، محاولا أن يتصور ، بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه فى غرفته محموما من نفاد الصبر ، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك فى وسـط

الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الاشارة المتفق عليها . لقد خرج ايفان الى فسحة السلّم على هذا النحو مرتين . فلما عاد الهدوء يخيّم على كل شيء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرقد هو أيضا ، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى . وسرعان ما غرق فعلاً فى نوم عميق لم تتخلله أحلام . واستيقظ فى الصباح مبكراً ، فى نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع . فما ان فتح عينيه حتى أحس فى نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيرا . وما هى الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة ، ولبس ثيابه ، وأخرج حقيبته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة . وكانت الغسّالة قد جاءته بغسيله أمس . ابتسم ايفان فيدوروفتش راضيا حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجىء لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة . ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً ؛ فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترين ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض فى الصباح هى أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل . وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر . فلما أزفت الساعة التاسعة جاءته مرفا اجناتفنا تلقى عليه سؤالها المألوف : « أين تريد أن تتناول الشاى ، أهنا أم تحت ؟ » . فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضى . كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجل العصبى كان باديا فى حركاته وفى أقواله . وبعد أن سلّم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصةً ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله ، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل . لم يظهر العجوز أية دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبّر عما اصطلح

الناس على التعبير عنه فى مثل هذه الأحوال من أسف ، فكان ذلك لايخلو من قلة اللباقة • وفى مقابل ذلك لم يفته أن يقلق فجأة على أمر من أموره الخاصة ، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلمه فيه • قال :

ـ أوه ! كان ينبغى أن تبلغنى أمس • لا بأس على كل حال ••• سيتسع الوقت لحل هذه المسألة • أرجو أن تقدم لى هذه الخدمة يا بنى الشهم : توقف فى تشرماشنيا عابراً • لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولفيا ، الا أن تعرج شمالا مسافة اثنى عشر فرسخاً فى أكثر تقدير ، فاذا أنت فى تشرماشنيا •

ـ مستحيل • صدقنى • ان المسافة من هنا الى محطة القطار أربعة وعشرون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر فى الساعة السابعة مساء ، فلا يكاد يتسع وقتى لادراكه •

ـ تسافر فى قطار الغد أو غداة الغد•أما اليوم فاذهب الى تشرماشنيا. أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا اننى مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل • الأمر مستعجل وهام جدا ، ولكننى لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن ••• ان لى فى تشرماشنيا غابة من حصتين فى أراضى بيجتشوفو ودياتشيكنيو • والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان على الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ، على حين أن مشترياً آخر كان مستعدا فى العام الماضى لأن يدفع لى اثنى عشر ألف روبل بكل سرور • لم يكن ذلك المشترى من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل الى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون• انهم «كولاك» ★ ومامن أحد يجرؤ أن يقف فى وجههم وأن يصمد لهم • ولكن القس يلنسكى كتب لى يوم الخميس

الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار. والرجل تاجر هو أيضا ، وأنا أعرفه . انه من مدينة بوجريبونو ، وهو لا يخشى آل ماسلوف، لأنه ليس من سكان المنطقة. انه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيبارحها بعد أسبوع . عليك أن تذهب اليه لتناقش الأمر معه .

ــ ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

ــ انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، ذلك هو المزعج . ان هـذا القس رجل أعمى فى الشئون العملية. ان له قلباً من ذهب ، واننى لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل . ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه صوص . ما هو من هذه الناحية برجل . وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى قميصاً أزرق ، لكنه وغـد كبير من سوء حظنـا جميعا ! انه يكذب كما يتنفس . حتى لقـد يراكم الكذب بعضـه فوق بعض لا لشىء الا لذة الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن امرأته ماتت ، وأنه تزوج أخرى . فهل تتصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب . حتى أن امرأته لم يخطر ببالها أن تموت . وهى ما تزال حية وما تزال تضربه كل يوم . فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عـرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار .

ــ انك لتعلم جيدا أننى أنا أيضا لا أفهم فى هذه الأمور شيئا . ففيم يمكننى أن أنفعك ؟

ــ لحظة . انتظر . يمكنك أن تنفعنى ، لأننى سأطلعك على العلائم التى تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين. اننى أعرفه منذ عهد بعيـد . عليك أن تنظـر الى لحيته فتنفذ الى خفايا

سريرته • ان له لحية صغيرة حمراء مبعثرة ، فاذا أخذت هـــذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؛ أما اذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغش • لا تحاول أن تقرأ فى عينيه • فليس فى وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئا • انه وغد لئيم ، وما عيناه الا ماء عكر • وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته • ســوف أعطيــك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تنــاوله الرسالة • وليس اسمه الحقيقى جورستكين وانما اســمه فى الواقع لياجافى * • ولكن اياك أن تخــاطبه باسم لياجافى ، والا استاء استياء رهيبا • ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجرى مجرى حسناً ، فأبلغنى ذلك فورا : يكفى أن تكتب الىّ فى هذه الحالة هذه العبارة : « ليس يكذب » • حاول أن تصر على الثمن الذى ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل • ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك • هذا مال يهبط علىّ من السماء لأن المشترين نادرون فى هذه الأيام • وأنا فى حاجة ماسة الى هذا المبلغ • انك لا تســتطيع أن تتصور مدى حاجتى الشديدة اليه • فمتى أبلغتنى أن الامر جد" ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسى • سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعا من الوقت • أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعنى هذا فى شىء ، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله • هيه ؟ اتفقنا ؟ أتذهب أم لا ؟

ــ لا يتسع وقتى ، فلا تحرجنى !

ــ أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حييت • أأنتم جميعا اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوى أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم فى هــذه

الأمور شيئا • ولئن تجهت اليك فلأنك ذكى ، أنا أعرف ذلك • ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة • المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد • أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فاذا ارتعشت كان يقول صدقا •

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة :

ـ سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة •

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية فى كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الصيحة على الفور فقال :

ـ اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشـــنيا • سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً •

ـ لا أدرى بعد أأذهب أم لا أذهب • سأقرر ذلك أثناء الطريق •

ـ لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرةً طيبةً يا عزيزى ! فاذا سُوِّى الأمر وتمت الصفقة ، كتبت الىّ سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الىّ بغير ابطاء • ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك • وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته •••

تهلل العجوز فرحاً • وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة • ثم أمر باعداد العربة • وجىء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجىء لهمـا بكونياك • ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه • وقد تحاشى أيضا أن يجىء على ذكر دمترى فيدوروفتش • ولم يكن يلوح عليه من جهـة أخـــرى أنه متأثر لفـــراق ابنه ، وكان

صامتا كأنه أصبح لا يجد ما يقوله • فوجىء ايفان بذلك ، وقال يحدث نفسه : « لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن » • ومع ذلك فان العجوز حين شيَّع ابنه الى درجات الباب بدا متأثرا بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبِّله • ولكن ايفان أسرع يمد اليه يده ، راغبا فى تحاشى القبلات رغبة واضحة لا تخفى على الناظر • أدرك أبوه ذلك ، فلجم اندفاعته وأمسك عن تقبيله ؛ وأخذ يقول مردداً من على درجات الباب :

ـ كان الله فى رعايتك ، كان الله فى رعايتك • سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً • اذهب ، وليكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتش العربة • وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة :

ـ فى أمان الله يا ايفان • لا تؤاخذ أباك !

وكان الخدم قد خرجوا للوداع • كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى • أعطى ايفان كلاً منهم عشرة روبلات • وحين استقر ايفان فى العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية • فقال له ايفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة :

ـ أرأيت ؟ هأناذا ذاهب الى تشرماشنيا أخيراً !

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل •

ـ صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس •

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت قاطع جازم وهو يغرس فى ايفان فيدوروفتش نظرة نافذة •

تحركت العربة ، وانطلقت تعدو • كان المسافر فى البداية فى حالة نفسية مضطربة ، وكان ينظـــر الى ما حوله بشراهة ، متــأملاً الحقول والروابى والأشجار • ومرّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلقاً فى السماء الصافية • فاذا بايفان يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة • فخاطب الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه ، وانه لم يدرك ما أراد هذا الموجيك أن يقول له • ولكنه صمت راضياً • الهواء نقى طرى ، نشيط بعض النشاط ، والسماء صافية لا غيوم فيها • وفى لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترين • ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ، وتنهد على الطيفين العــزيزين اللذين غــابا ، وحدث نفســه قائلاً : ســــوف أراهما » • ولم يلبث أن وصل الى محطة العربات• فأبدلت خيله ، واستأنف طريقه الى فولوفيا • سأل ايفان نفسه فجأة : « لماذا قال لى انه يلذ للمرء أحيانا ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟ » • واستغرق هذا السؤال فكره استغراقاً كاملاً • « ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه اننى ذاهب الى تشرماشنيا ؟ » • ووصـــلت العربة أخيراً الى فولوفيا ، فنزل ايفان • أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وســاومهم ، وانتهى الى تحديد أجر ايصاله بخيول ممتازة الى تشرماشنيا التى تبعد مسافة اثنى عشر فرسخاً فى طريق زراعى • أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى المحطة ، فألقى نظرة على القاعة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات الباب ويقول :

ــ لن أذهب الى تشرماشنيا • قولوا لى يا شباب : هل يمكننى أن أدرك قطار الساعة السابعة ؟

ـ ستدركه • هل نقرن الخيل ؟

ـ اقرنوها فوراً • هل منكم أحد يذهب الى المدينه غداً ؟

ـ طبعاً • مترى ذاهب اليها •

ـ هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وقل له اننى لم أذهب الى تشرماشنيا• هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟

ـ لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل •

ـ خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً •

قال ايفان ذلك وهو يضحك فرحاً • فأجابه مترى وهو يضحك أيضاً :

ـ طبعا • أنا أعرف أنه لن يعطينى شيئاً • شكراً يا سيدى • سأذهب اليه حتماً •

فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فى حافلة القطار الذى أقله سريعاً الى موسكو • « ألا فليبتعد عنى الماضى ! لقد قطعت صلتى الى الأبد والعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره ! ألا فليختف هذا الماضى من نفسى ! ألا فلينقطع عن الوصول الى مسمعى أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شىء ولا التفت الى وراء ! هيّا الى مستقبل جديد ، الى أمكنة مجهولة ! » بهذا كان ايفان يحدث نفسه • ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمضض شديد يقبض صدره ، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل• ظل طوال الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرقعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة• وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من

خدره فجأة ، ودمدم يقول :

ـ أنا انسان تعيس !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه ، وظل خلال ساعتين فى حالة قريبة من الهناءة والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة • غير أن حادثاً أليماً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فاذا هو يبدل الحالة النفسية التى كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً ، واذا هو يغرقه فى اضطراب شديد • ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبو قد سقط من على أُول درجة ، وتدحرج الى أسفل الدرج • ومن حسن الحظ أن مارفا اجناتفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت هذه النازلة التى وقعت • انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، أعنى الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة • لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج الذى نشأ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع • المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع الكهف تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد • وقد ظُن فى أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبيَّن أن « الله قد سلَّمه » على حد تعبير مارفا اجناتفنا ، فلم يُصب بأى أذى • ومع ذلك كان نقله من القبو الى الهواء الطلق شاقاً • وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذى هرعوا يساعدون • وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم •

ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه • وكانت التشنجات تنقطع أحياناً

ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل • وأجمع الرأى على أن الأمور ستجرى فى هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة • وتذكروا أن الدكتور هرتسنشتوبه قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فتولت مارفا اجناتفنا أمر العناية بالمريض، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث الدكتـور أن جاء ، فبعـد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية ، كما أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيرا) ، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن « تعرض الحياة للخطر » ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيرا بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواءً جديدا اذا اتضـح أن الاجـراءات السابقه لم تجـد المريض نفعاً • وأُرقد سمردياكوف فى ملحقات المنزل، فى غرفة تتاخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتفنا • وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة غير منقطعة من المكدرات والمنغصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتفنا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيرا « ماء الغسيل » ، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ؛ وحين لام رب المنزل مارفا اجناتفنا على ذلك لوماً مراً وان يكن مسوّغاً ، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز ، كما أنها هى مارفا لم توظف فى منزل رب البيت طباخة ! وفى المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدّر جديد : أُبلغ أنّ جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريره وأن مرض اللمباجو الذى يعانى منه قد جمّده تماما • وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسى شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيدا • انه فى حالة ترقب مهموم مغموم ، وانه لمضطرب اضـطرابا شديدا • فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهـو يكاد يكون من ذلك على

يقين ، لأن سمردياكوف قد أكد له فى ساعة مبكرة من الصباح « أنهـا وعدت بالمجىء هذه المرة » كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشى بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيخاً بسمعه الى كل ركن من الأركان ؛ ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة ، لأن من الجائز أن يرقب دمترى فيـدوروفتش مرور المرأة الشـابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكّد لفيدور بافلوفتش ، منـذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيّع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر فى غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف فى الظلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيـدور بافلوفتش قلقا اذن ، ولكن نفسه لم يهدهدها فى يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن فى وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتى أخيراً فى ذلك اليوم ؟!

الباب السادس: الراهب الروسي

١

الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا غرفة الشيخ قلقاً قد هدّ قلبه الألم ، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدت به دهشة قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذى لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً فى مقعد . صحيح أن وجه الشيخ مرهق من التعب ، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح . وقد تحلق حول الشيخ زوار كان الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً . والحق أنه لم ينهض الا قبل وصول أليوشا بربع ساعة . أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الحجرة منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث آخر مرة الى أحبة قلبه، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح . » . ان الأب بائيسى يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ من قوة ايمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدّق أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودعه ، أو لتوقع أن يرتد الشيخ الى الحياة براً بوعده . وقد صرّح له الشيخ زوسيما بوضوح كبير فى الصباح ، قبل أن ينام « انه لن يموت الا بعد أن

يسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعزته ، وبعد أن يرى من جديد تلك الوجوه التى أحبها، وبعد أن يفتح قلبه لهؤلاء جميعا آخر مرة». والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له. انهم أربعة : الراهبان الكاهنان جوزيف وبائيسى ، والأب ميشيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؛ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً وخجلاً . أما الزائر الرابع فهو الأخ آنتيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت يندر أن يكلم أحداً . وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعته الى الأبد . لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب المرتعد الخائف حباً كثيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع . ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة . حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مظلم فقير فى مقاطعة كوستروما . فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن كثير ، كُلِّف بأن يرافق الأخ آنتيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير .

كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجعاً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقة جداً ، تبلغ

من الضـــيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذى ظل واقفاً) ولم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم. لقد جاءوا بكراسيّهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ . كان الغسق يهبط ، وكانت تضيء الغرفه مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات . فلما لمح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفا على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ اليه يده قائلاً له :

ـ طاب يومك يا بنى الطيب ، ياعزيزى أليوشا الوديع . أجئت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجيء!

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً . كان شيء ما يتمزق فى قلبه ، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً ، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً .

قال الشيخ مبتسما وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

ـ ما بك ؟ لمّا يحن حين البكاء علىّ بعد . هأنت ذا ترانى أتحدث فى هدوء . ومن يدرى ؟ فقد أعيش عشرين عاما أخرى كما تمنت لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريا وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها اليزابث . اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ اشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) . هل حملت قرشها يا بورفير الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها « لمن هو أفقر منها » . ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر ينذرونه أحرارا فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم. وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفير هذا المبلغ الزهيد الى

امرأة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها فى الآونة الأخيرة فأصبحت منـــذ ذلك الحين تستعطى لتعيش • أسرع بروفير يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من « محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها » •

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

ـ انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً • هل ذهبت الى ذويك ، وهل رأيت أخاك ؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الالحاح• ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ انما أرسله الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

ـ رأيت أحد أخوى ؟

ـ أقصـد أخاك الأكبر ، أخـاك ذاك الرهيب الذى سجـدتُ له أمس •

ـ ذاك لم أره الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم •

ـ حاول ن تهتدى اليه بسرعة • عد الى المدينة من الغد لرؤيته • دع كل شىء ، ولكن رتب أمورك لادراكه • ربما كان لا يزال فى الوقت متسع لتجنب مصيبة • لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تنتظره •

وصمت الشيخ فجأة ، وشرد فكره كأنه يحلم • لقد كانت أقواله غريبة • وهذا هو الأب جوزيف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى يبادل الأب بائيسى نظرة • ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصـاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

ـ أبى ومعلمى ! ان ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً فى الغموض ••• ما هى المحن التى تنتظره ؟

ـ لا تحاول أن تعرف ذلك • لقد تراءى لى بالأمس أننى أدرك شيئاً رهيباً ••• لقد قرأت مصيره فى نظرته • رأيت فى لحظة معينة تعبيراً خاصاً فى عينيه ••• تعبيراً أرعشنى بسبب المصير الذى يهىء هذا الانسان له نفسه • سبق لى مرةً أو مرتين فى الماضى أن لاحظت ذلك التعبير فى نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذاك المصير وا أسفاه ! ولقد أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمةٌ أخوية أن تساعده بعض المساعدة• ولكن مصيرنا جميعا هو بين يدى الرب• « ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمتْ فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير » * احفظ هذه الحقيقة • أما أنت يا أليوشا فكثيراً ما باركتك فى فكرى بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة) • اليك رأيى فيك : سوف تترك الدير ، وسوف تعيش فى العالم كراهب • سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك هم أيضا • ان الحياة تخبىء لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود • وستحمل الآخرين أيضا على أن يباركوه ، وذلك هو الشىء الأساسى • ذلك هو رأيى فيك وحكمى عليك •

ثم التفت الشيخ الى زواره فقال يخاطبهم وهو يبتسم ابتسامة ودوداً :

ـ يا آبائى ومعلمىّ ، اننى لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لماذا يستعذب قلبى وجهه • فسأسر اليكم الآن بهذا • كنت أرى فى قسماته ذكرى الماضى ونذير المستقبل • ففى فجر حياتى ، حين كنت لا أزال فى سن الطفولة ، كان لى أخ أكبر مات أمام عينى فى ريعان شبابه ولمّا يكمل

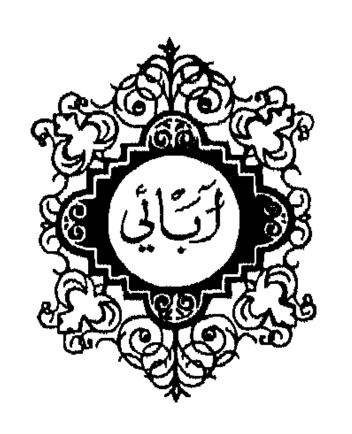
السنة السابعة عشرة من عمره • ولقد رسخ في اعتقادى أثناء حياتى ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان له في تحديد مصيرى دور حاسم ، وأنه كان لى نذيراً واشارة من الملأ الأعلى ، ويقيني أننى لولاه لما سرت في طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذى قادنى الى السعادة • ان هذا التجلى الأول للعناية الالهية قد حدث في فجر أيامى، وهأناذا أرى تكرره في خاتمة المطاف من طريقى • انه لشيء بارز ، يا آبائى ومعلمىّ ، أن ألكسى الذى لا يشبه أخى ذاك كثيرا بوجهه ـ فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية ـ قد بدا لى شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحية وياطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذى كان لى في الماضى وقد آب الىّ الآن أوبةً سرية في أواخر أيامى ذكرى من الماضى ونداءً الى التأمل ، حتى لقد دُهشت أنا نفسى في بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذى كان يغرقنى فيه • هل تسمعنى يا بروفير ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدىء المكلف بخدمته) • كم من مرةٍ لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأننى أحب ألكسى أكثر مما أحبك • فهأنت ذا تعرف سبب ذلك الآن • ولكن اعلم أننى أحبك كثيرا أنت أيضا ، وطالما أحزننى حزنك • يا ضيوفى الأعزاء ، اسمحوا لى أن أحدثكم عن أخى الفتى ذاك ، لأننى لم أعرف في حياتى طيفاً أحب من طيفه الى قلبى ، ولا أشد تأثيراً في نفسى ، ولا أصدق نبوءةً في كل شأن من شئونى • ان قلبى ممتلىء به في هذه اللحظة ، لأننى أرى فيه حياتى مرة أخرى رؤية كاملة كأننى أعيشها من جديد •••

يجب أن أنبه القارىء هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذى أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله في آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً • ذلك أن ألكسى فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل • لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه

ألكسى هو نص ذلك الحديث تماما ، وأن ألكسى لم يضف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقه لمعلمه . ويجب أن نلاحظ من جهه أخرى أن ما سجله الكسى يوهم بأن الشيخ قد ألقى خطابا متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء . فالحديث قد كان عاما ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيرا ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارّات عن حياتهم هم . ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تتقطع دائما ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مرارا أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يبارحوها . ولقد تخللت الحديث ، مرةً أو مرتين ، قراءة آيات فى الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً . ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؛ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه . كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاءً قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة على حين فجأة . وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال. أما الآن فحسبى أن أقول اننى آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ ، معتمدا على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . فذلك أقرب الى الايجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمّن مادوّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ .

٢

حياة الشيخ زوسيما ، مستمدة من المذكرات التي جمعها ودونها ألكسي فيدوروفتش كارامازوف



(أ) أخو الشيخ زوسيما

ومعلميّ الأحبة ! ولدت بمـــدينة ف ... فى مقاطعة نائية بشمال روسيا . كان أبى من طبقة النبلاء ، ولكنه من صغار النبلاء ، ولم يكن يحتل رتبة عالية فى سلم رتب الدولة . وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمرى ، فليس فى ذهنى أية ذكرى عنه . وقد ترك لأمى منزلاً من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً، ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها فى منجى من العوز . كنا ولدين . أخى الأكبر ، مارسيل، وأنا ، زينوفى. كان أخى أكبر منى بثمانية أعوام . وكان جامح الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ، أى معى ومع أمى ومع الخدم . وكان فى المدرسة مجداً مجتهداً يبرهن على أنه ينعم بذكاء قوى . ومع ذلك كان لا يألف رفاقه فى المدرسة كثيراً، ولكنه لا يشاجرهم أيضا . تلك هى على الأقل الذكرى التى حفظتها أمى عنه . وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من عمره ، توثقت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش فى مدينتنا حياة اعتزال،

رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً ، لأنه أُجبر على أن يغادر موسكو بأمر سامٍ ، وأن يحدّد اقامته فى مدينتنا بسبب آرائه اللبرالية • كان هـذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفا تقدره الأوساط الجامعية قدراً كبيراً • وقد شعر بشعور الصداقه نحو أخى مارسيل ، لا أدرى لماذا ، فكان يستقبله كثيراً فى منزله • فقضى أخى عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل الشتاء كله ، الى أن استُدعى الرجل الى سان بطرسبرج بطلبٍ منه ، ليُعهد اليه بمنصب رسمى ، لأنه كان ذا صلات عالية • كان هذا فى وقت الصيام الكبير ، وقد رفض أخى أن يصوم ، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليهـا مستخفاً بها محقّرا لهـا ، حتى لقـد قال « هذه سخافات وأباطيل وترهات ، لأن الله لا وجود له » ، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هـــذا الكلام ، أنا وأمى والخدم ! لقـــد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب ، رغم أننى لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمرى فى ذلك الحين • وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أقناناً اشتريناهم من رجل من مالكى الأطيان كنا على صلة به • وما زلت أتذكر اليوم الذى باعت أمى فيه احدى خادماتنا ، وهى الطباخة العجوز العرجاء أوفيميا ، بسبعين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان • وها هو ذا أخى يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير• لقد كان أخى ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للاصابة بالسل • انه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه• تُرى هل أصـابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذى كان يعالجه قد أسرّ الى أمى خفيةً أن مارسيل مصاب بسلٍ يتفاقم تفاقماً سريعا وأنه لن يعيش الى آخر الربيع • فأخذت أمى تبكى وتضرعت الى مارســـيل محاذِرةً (حتى لا تروّعه خاصةً) أن يتناول القربان المقدس فى عيد الفصح • ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ الى ملازمة الفراش • فأجابها أخى غاضبا

وحقّر الكنيسة وأهانها وشتمها ثم أطرق يفكر سارد اللب • لقد أدرك خطورة حالته حين رأى الحاج أمي عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك • ثم انه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض ، حتى لقد قال لنا منذ مايقرب من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي : « انني لن أعيش زمناً طويلاً ، وقد لا أكون معكم بعد سنة » • وها قد تحقق ما كان يوجسه • انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس • فاذا بأخي يذهب الى الكنيسه منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي : « انني أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه ، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً • » • فبكت أمي ، فرحاً في أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك • وحدثت نفسها قائلة : « لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذ التبدل فيه » • ولم يتح له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف ويتناول في المنزل • لقد جاء الفصح متأخراً في ذلك العام • الأيام صافية مضيئة ، والهواء عبق معطّر • أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي ، ولا يكاد ينام • حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة • وفي هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، وديعاً ، رقيقا ، مبتسما ، مريضا جدا ولكنه مرح جداً ، سعيد جدا في الظاهر • لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيرا ، فبدا لي هذا التبدل خارقاً • قالت له الخادم العجوز يوما : « اسمح لي يا بني العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة في غرفتك » • ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل ، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها • ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : « اشعلي يا عزيزتي ، اشعلي ! ألا ما كان أشد شذوذي حين كنت أمنعك من ذلك ! أنت تصلين أمام الأيقونة ، وأنا أيضا أصلّي لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبي ، ونحن كلانا نصلي اذن لاله واحد • » • بدت لنا تلك الأقوال غريبةً

حينذاك . وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية ، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة . فكان يقول لها في بعض الأحيان : « لا تبكي يا أماه ، يا ملاكي الصغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلاً ، ولسوف أبتهج معكم ، فجميلة هي الحياة ، وزاخرة بالسعادة والفرح ! » وكانت أمي تقول له عندئذ محتجة : « أين السعادة ، وأنت تصاب بالحمى في كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟ » ، فيعود يقول لها : « لا تبكي يا أماه ، فالحياة جنة نحن فيها جميعا ، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم » . كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً عجيبا . وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فتترقرق في أعيننا الدموع . وكان يزورنا بعض الأصحاب فاذا هو يقول لهم : « يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟». وكان يكرر للخدم دائما قوله : « لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني ؟ اذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً ، فلأخدمنّكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضا في هذه الحياة الدنيا . » . فكانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو ، فتقول له : «ان المرض هو الذي يوحي اليك بهذه الأفكار يابني» ، فيجيبها قائلا : « أماه ، يا فرحة حياتي ! أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادة وخدم ، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي ، وأن أخدمهم كما يخدمونني ؟ وأحب أن تعلمي أيضا ، ان كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسئول عن جميع آلامهم . وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس ! » . لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا

الكلام • وكانت تبكي وتضحك في آن واحد • سألته : « هلاّ قلت لى كيف تكون أكبر ذنبا من سائر الناس ! ان العالم ملىء باللصوص والقتلة، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة اثم ! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟ » • قال أخي: « أماه! ياحملى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتي الكبيرة ، يا حمامتي اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان في هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، في حق جميع الناس ! لا أدرى كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكنني أحسه ، أحسه احساسا قويا عنيفا الى حدّ العذاب • كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع، لا نفهم من الحياة شيئا ؟ » • وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحنانا ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة • وكان الطبيب العجوز آيسنشمدت، يعوده أحيانا • فسأله أخي ذات يوم ضاحكا : « هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟ » فأجابه الطبيب : « ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياما وأشهراً بل وسنين • » ، فهتف عندئذ يقول : « ما خير أن يعيش المرء أشهرا وسنين ؟ ان يوما واحدا لكاف من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم • يا أصدقائي الأعزاء ! نحن مجانين اذ نتشاجر ونتباهي ويحقد بعضنا على بعض لاساءة نالته • ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة ! » • قال الطبيب لأمي حين شيعته الى درج الباب : « لن يعيش ابنك طويلا • لقد اختل من المرض عقله • » • وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار الكبيرة التي نبتت على فروعها البراعم؛ وكانت أوائل عصافير الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلا ويعجب بها كثيرا ، حتى لقد أخذ في ذات يوم يستغفرها هي أيضا قائلا لها : «أيتها العصافير التي خلقها الله ،

أيتها الطيور الصغيرة ، اغفرى لى أنت أيضا ، لأننى أذنبت فى حقك ! »•
وبدا لنا هذا أمرا لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً •
وقال شارحا : « نعم ، لقد كانت عظمة الله مبســـوطة أمامى : الطيور
والأشجار والمراعى والسماوات • كان كل شىء يتغنى بعظمة الله ويسبح
بحمده • الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف
الخليقة ، لأننى لم أكن أرى جمال الحياة وسناءها • » • فكانت أمى
تقول له باكية : « انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة » ، فيقول لها : « أماه
يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى • وددت لو أكون
مذنباً فى حق العصـــافير الصغيرة ! لا أســـتطيع أن أشرح لك هذا ،
لا أعرف كيف أشرح لك حبى اياها • ألا فلأكن مذنبـــاً فى حقـكم
جميعـــا ، فتغفروا لى عندئذ جميعا • تلك هى الجنـــة • ألست الآن فى
الجنة ؟ » •

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها • دخلت ذات يوم
الى غرفته وكان وحده • كان ذلك فى المساء ،والجو صـــاح مضىء ،
والشمس الغاربة تغرق الغرفه بأشعتها المائلة • فلما رآنى أشار الىّ أن
اقترب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملنى طويلاً متفرساً فى عينى ، وقد
بدا فى وجهه حب وحنان• وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة
ثم أسبل يديه وقال لى : « هيّا العب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا
عنى ! » • خرجت ومضيت ألعب ؛ ولكننى كثيرا ما فكرت أثناء حياتى ،
والدموع فى عينى ، فى هذا الامر الذى أصدره الىّ ، وهو أن أحل
محلّه فى هذا العالم • وفى مرات كثيرة بعـــد ذلك عبّر عن عواطف
رائعة سامية رفيعة ، لم نكن نفهمها كثيرا فى ذلك الحين • وانطفأ فى
الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحيا كل الصحو؛
ورغم أنه أصبح لا يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى

النهاية ، ينتظر الينا سعيدا فرحا مبتسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينيه . وقد تكلم الناس عن موته كثيرا فى مدينتنا . وأثر هذا الحادث فى نفسى ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعا سخينة يوم الجنازة . لقد كنت صغيرا جدا ، كنت طفلا ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة فى أعماق قلبى ، لتنتصب أمامى متى آن الأوان ، نداء من الملأ الأعلى . هكذا جرت الأمور فعلا .

ب ـ أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيما *

بقيت وحيدا مع أمى . ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من الموارد ، أن ترسل هذا الابن الى سان بطرسبرج للدراسة ، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى ؛ وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرّضه للحرمان من مستقبل لامع . وأقنعوا أمى أخيرا بأن تسجلنى فى « مدرسة المرشحين » ببطرسبرج ، لأكون فى المستقبل ضابطا من ضباط الحرس الامبراطورى . وقد ترددت أمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الاخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيرا وهى تبكى ، معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتى . وقادتنى الى سان بطرسبرج فألحقتنى بمدرسة الاعداد العسكرى هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ؛ وهى فى أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقى . وقد احتفظ خيالى بذكريات مضيئة عن المنزل الذى عشت فيه مع أمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد أحسها فى سنى طفولته . الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق

مسيطرين على حياة الأسرة • ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى فى الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجنى من عناصر الوجود ما هو طيب نبيـــل • ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتى ، لأننى كنت أهتم بها أثناء طفولتى فى المنزل اهتماما كبيرا • كنت أملك كتابا فيه صور جميلة عنوانه : « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » * ، وفى هذا الكتـاب انما تعلمت القراءة • وما يزال هذا الكتاب عندى حتى الآن • هو هنـاك على الرف ، وأنا أحافظ عليه محافظتى على أثر ثمين جدا من آثار الماضى • على اننى أتذكر أن الانفعال الدينى الأول الذى شعرت به * انما كان قبل تعلمى القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمرى حينذاك • لقد قادتنى أمى الى الكنيسة للصلاة فى «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدرى الآن أين كان أخى حينـذاك) ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاثنين • النهار صحو ، والشمس ساطعة ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنـة البخور تتصاعد بطيئة نحـو القبة ؛ وفى أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطةً نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة، ثم تنصهر فى الضـــياء الذهبى أخيرا • كنت أتأمل هذا المشهد معجباً ، وأحسست أن بذرة « كلمة الرب » تغرس فى نفسى • وتقدم مراهق الى وسط المعبد • كان يحمل كتـاباً كبيرا يبلغ من الثقـل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله • وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ؛ ثم فتحه وأخذ يقرأ • فهمت فى ذلك اليوم ، لأول مرة فى حياتى ، ما يُقرأ فى الكنيسة : كان يعيش فى أرض عوص رجل تقى صالح يملك ثروات طائلة ، ونوقاً لا حصر لعددها ، وقطعان خراف وحمير • وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيرا ، ويصلى من أجلهم للرب • هـل

ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مثل يوما أمام الرب وقال له انه طاف الارض كلهـا وما تحت الارض . فسأله الرب : « هل رأيت عبدى أيوب ؟ » . وتباهى الرب أمام ابليس بقداسة عبده العظيم أيوب . ولكن ابليس ضحك وأجاب : « مكّنى منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك » . فمكّن الرب ابليس من عبده الأمين الذى كان يحبه الرب كثيراً ؛ فضرب لشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره . مزّق أيوب ثيابه ، وارتمى على الارض صائحاً : « لقد خرجت من بطن أمى عاريا ، وعاريا سأعود الى الارض . وهب الرب لى كل شىء ، والرب يسترد ما وهب . تبارك اسم الرب ، الآن وفى كل حين » . يا آبائى ومعلمىّ ، سامحونى اذا رأيتمونى أسكب العبرات فى هذه اللحظة . ان طفولتى تنبثق الآن أمامى ، حتى ليخيل الى أننى أتنفس كما كنت أتنفس فى طفولتى بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذى لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره . ان ذلك الانفعال نفسه الذى أحسست به يومذاك يغزونى فى هـذه اللحظة ، فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشا مفتونا فى ذلك اليوم البعيد بالكنيسة . لقد أحدثت تلك النوق تأثيرا قوياً فى خيالى ، وأذهلتنى قصة الشيطان الذى كلم الرب ، وشدهنى قرار الرب أن يمكّن الشيطانَ من عبده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : « تبارك اسمك ، رغم أنك تعاقبنى » . ثم تصاعدت فى الكنيسة أغنية رقيقة جـدا : « سمع الله لصلاتى » . وارتفعت أدخنة البخور ، وركع المصلون . ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة ـ وقد حدث لى هذا أمس أيضا ـ الا وتنسكب الدموع من عينى . ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لى أن سمعت نقـداً

لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويلبونه ، أناس أعماهم غرورهم وصلفهم ، فهم يسخرون مما لا يفهمون ؟ قالوا : « كيف يمكّن الربُ الشيطانَ من قديسه الأثير ، فيستهزىء الشيطان بالقديس ، ويخطف أولاده ، ويرسل اليه الأمراض ، ويغطى جسمه بالجروح ، حتى صار يزاح القيح عن قروحه بشقفه من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً : « انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائى الصالحين فى سبيل محبتى ! » ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة انما هى فى هذا السرّ الذى يتأكد فيها ! ان المظاهر العرضية للحياة الارضية تلامس فى هذه القصـــة الحقيقة الأبديه التى لا ندركها • فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض ، يتجلى فعـل قوة أبديه تفوق هذا الواقع • ان الخالق فى هذه القصـــة يتصرف كما تصرف فى الايام الاولى من الخلق حين قال انه أبدع فيما صنع • انه ينظر الى أيوب فيبهجه أنه خلقه • وأيوب الذى يمجد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضا ، من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فذلك هو ما يُسّر له • رباه ما أروعه سفراً ، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتب المقدسة ، وما أكبر تلك القوة المعجـــزة التى توقظها فى الانسان ! لكأنها صورة الكون والانسان نفسه • كل شىء قد قيل فيها وأعلن لقرون • ما أعظم الأسرار التى تكشف عنها وتحلها ! ان الرب يرد السعادة الى أيوب ، ويهب له ثروات جديدة ؛ وتنقضى أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضا • رباه ! قد يتساءل متســـائل : « فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غير رجعة ؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد ، مهما يكونوا أحبة فى قلبه ، اذا هو تذكر أولئك الذين غابوا الى الأبد ؟ » • الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة ، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن ، ويطامنهـا

سرّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية • ان العدم الذى يغلى فى سن الشباب يفسح المجال فى الشيخوخة لهدوء ساكن • اننى أبارك فى جميع الأيام طلوع الشمس ، وان قلبى ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به فى الماضى ، ولكننى أوثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التى توقظ فى نفسى ذكريات بعيدة عذبة ، وتحيى أطياف الماضى الحبيبة من حياة طويلة سعيدة • ففوق هذه الذكريات تحلق الحقيقة الالهية التى تهدىء وتصالح وتبرىء ! سوف أموت ، أنا أعرف ذلك وأفهمه ، ولكننى أحس فى كل يوم بأن الحياة ما تزال توهب لى ، وأن حياتى الأرضية تندفع نحو حياة جديدة ، أبدية ، مجهولة، هى منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسى فرحاً ، ويهز قلبى هزاً قوياً• يا أصدقائى ومعلمىّ ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك مرارا وأسمعه الآن أكثر من أى وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة ، قائلين بل كاتبين ـ وقد قرأت ذلك بعينىّ ـ أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم • « اذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا ، فليفعلوا ذلك ، لأننا لا نجنى من الرزق ما يكفينا » • هكذا يقولون • يا عدالة السماء ! ألا اننى لأسأل الرب أن يربى راتبهم هذا الذى يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكننى أقول مخلصاً : من المسئول عن هذا الوضع ان لم نكن نحن المسئولين عنه الى حد ما ؟ اننى أسلم بأن القس فى الريف مثقل بأعباء العمل ، وليس فى وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب • ولكننى أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذى يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعةً من وقته فى الأسبوع• ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع • ألا فليجمع فى داره ، مرةً فى

الاسبوع ، والأفضل أن يكون ذلك فى المساء ، ألا فليجمع الأطفال فى أول الأمر ، فإذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا • لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع • ما على القس الا أن يجمع الناس فى منزله الفقير نفسه • وليس له أن يخاف ، فانهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعة فى الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفيهق ! فليقرأ قراءة بسيطة طبيعية ، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه ، ممتلئاً بحب النص المقدس • وفى وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب • وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسيه تحس الحقيقة احساسا سريعا • ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وربيكا ، ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان ، وقال بعد أن اصطرع مع الرب فى الحلم : « هذا مكان رهيب » ، ان هذه القصص ستمضى قدماً الى القلب النقى ، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد • يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصة ، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف ، النبى الكبير ، مفسّر الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه تدليلاً على صدق قولهم ؟ وكيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب : « اننى أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم » • ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذى باعه فيه اخوته لأناس من تجار العبيد ، فى سهل مقفر ، قرب بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكيا عاقفاً ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية فى أرض غريبة • فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحس بحبه لهم ينبعث فى

قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيرا وانصرف، لأنه لم يعد قادرا على أن يحتمل الشكاة التي تصدر عن قلبه هو نفسه . وارتمى على سريره وأجهش باكيا ؛ ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادىء النفس مشرق المحيا وقال لهم : « يا اخـــوتي ، أنا يوسف أخوكم » . وليقرأ القس للناس تتمة القصة : كيف سُرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت ، وكيف سافر هو أيضا الى مصر ، هاجراً الارض التي وُلد فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً في وصـــيته أكبر وعد سيتحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذي كتمه طول حياته في قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذي يبشر الانسانية بأنه سيولد في يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مخلّصها وفاديها ! يا آبائي ومعلميَّ ! اغفروا لي أنني أذكركم ، كتلميذ صغير ، بأشـياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلّمونيها بأحسن ممـا أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة . واغفروا لي دموعي، لأنني أحب هذا السفر . واذا استطاع الكاهن أن يبكي هو أيضا أثنـاء القـراءة ، فلسوف يرى مدى أثر ذلك في نفوس سامعيه قوة انفعال وعمقَ عاطفة. ألا ان بذرة لتكفي مهما تكن يسيرة . فاذا بُذرت في قلب البسطاء ، لم تفن بعد ذلك يوماً ، وانما هي تعيش في نفوســـهم وتظل تثمر طوال حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم ، نبعاً من ضـــياء ومن حقيقة أبدية ، ذكرى خفية ونداءً مستسراً . لا حاجة الى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه في شعابها الفكر . ان أبنـــاء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة . أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعـة وفاستي المتكبرة ، أو اقرأوا لهم تلك المغـامرة المعجزة ، مغامرة يونس في جوف الحوت . ولا تنســـوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز

الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا (وذلك ماكنت أفعله دائما)، واقرأوا لهم فى كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية . فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطه فى قلوبهم ! تكفى ساعة فى الأسبوع ، ساعه واحدة ، رغم قلة الراتب. فاذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لشعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل . لسوف يرد اليه الفلاح معـروفه مضاعفاً مائة مرة . لسوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة ، فاذا هو يهب من تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل . ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً ؛ وهذه المزايا ، مجتمعةً ، تساوى زيادة فى الدخل ، ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحيانا أن يقترحه، مخافة أن يُضحَك عليه . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً . ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوما قبل ذلك . ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أنبتتهم ، لن ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستتأكد قوته الروحية فى يوم من الأيام . ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسـندها قوة القـدوة ؟ ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الالهيـة ، لأن الشعب ظامىء الى حقيقة دينية ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع . فى أثناء شبابى ، منذ أكثر من أربعين عاما ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنتيم نجمـع المعونات لديرنا الفقير . ففى ذات يوم ، توقفنا ليلا عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصـيادين . فجلس الى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية . كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصـافيتين الحلوتين . الليلة سـاجية حارة ، هى ليلة

مشرقه مضيئه من ليالى سهر تموز • ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل الينا طراوة منعشة • وتنبجس سمكه الى سطح الماء من حين الى حين ، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفا • سكتت العصافير ، فكأن الطبيعه كلها تصلى لله صامتة في هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض والسماء • ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى • تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل ، عن جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعا فى هذا العالم ، دون أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بعظمه صنع الله وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا للخالق • فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحمياً • وأسر الى بأنه يحب الغابات وطيورها ، لأنه كان هو نفسه يربى الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها • قال لى : « لا شىء أروع من الغابة ، وكل شىء فى الطبيعة جميل على كل حال » فأجبته قائلاً : « هذا صحيح• كل شىء فى خليقة الله رائع ومؤثر ، لأن كل شىء فيها حق • انظر الى الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالانسان ذلك التعلق كله ، أو انظر الى البقرة الخاضعة المطرقة التى تطعمه وتعمل من أجله • ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن نتذكر أن هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برىء كامل الا الانسان • لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يجىء ليخلصنا » • فسألنى هذا الفتى : « هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا ؟ » فأجبته قائلا: « وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع • ان كل

مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده • ان كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير سعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهي أنه بغير خطيئة • انظر في الغابة الى الدب ، المخيف الضاري دون أن يكون مسئولاً عن ذلك ! ••• » قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة • فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبّ الى لقائه بغير وجل ، ومدّ اليه قطعه من خبز قائلاً له : « كُلْ في سلام ، وليكن المسيح معك » ، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق بالقديس أي أذى • تأثر الفتى تأثراً شديدا من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه • وصاح يقول : « ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن في خلق الله ! » • وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة • رأيت أنه فهمني • ثم استلقى قريبا مني ونام نوما بريئاً هادئاً • بارك الرب في الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضا • ربّ ابعث السلام والأمن والضياء الى جميع مخلوقاتك !

ج ـ ذكريات سني الشباب التي عاشها الشيخ زوسيما في العالم • المبارزة

لبثت في « مدرسة المرشحين » بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين • ان التربية التي تلقيتها في تلك المدرسة قد كبتت في نفسي كثيرا من مشاعر الطفولة ، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً • وفي مقابل ذلك أكسبتني هذه التربية أفكارا وعادات جديدة جعلت مني انسانا يكاد يكون متوحشا ، انساناً قاسيا غبياً • وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة • أما الجنود الذين كانوا

يخدموننا فقد كنا جميعا ، وأنا أيضا ، نعدّهم بهائم ؛ ولعلني كنت أسبق من غيري في ذلك ، لأنني كنت في كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقي • ولما أصبحنا ضباطا كنا مستعدين لأن نبذل دمنا في سبيل شرف كتيبتنا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً • ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافا واحتقاراً • وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون ، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار ، ونكاد نعده مجداً من الأمجاد • ليس معنى هذا أننا كنا في قرارة أنفسنا أشراراً • فلقد كان في هؤلاء الشباب خير طبيعي فطري ، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا في ذلك شراً من سائر رفاقي • وفي تلك الفترة استلمت ثروتي ، فأخذت أعيش على ما يريد لي هواي وخيالي وعلى ما تشاء لي نزواتي وبدواتي ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أي تحفظ أو قصد • لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتي • ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ في كثير من الأحيان ، حتى لقد كنت أجد في القراءة لذة ومتعة • ومع ذلك لم أفتح التوراة يوما غير أنني لم أفارقها ، وانما كنت أحتفظ بها قريبةً مني في تنقلاتي ، كأنما أنا أنوي أن أقرأها « في يوم من الأيام وساعة من الساعات ، في شهر من الأشهر وسنة من السنين في المستقبل» • وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسي في مدينة ك ••• التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها • ان المجتمع في هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ • وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة • وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي • يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدونني ثرياً ، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً • وهنا انما حدث لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري • فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم ينعمون بالثراء ، ولهم

صلات عالية • وقد أحسن أهلها وفادتي • وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودى ، فالتهب خيالى من ذلك التهابا شديدا • ولقد أدركت فيما بعد أننى لم أكن أحبها فعلاً ، وانما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها الا أن تؤثر فى نفسى • وقد منعتنى أنانيتى من خطبتها ، اذ صعب علىّ أن أتنازل فى مثل تلك السن من ريعان الشباب عمّا فى حياة العازب الحرة المتحللة ، من اغراءات • لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد • وفى أثناء ذلك تلقيت أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى مقاطعة أخرى • فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت فى غيابى • لقد تزوجت رجلاً غنيا من أصحاب الأملاك فى منطقة مجاورة ، وهو أكبر منى سناً ولكنه ما يزال شاباً ، كما أن له صلات فى العاصمة وفى المجتمع الراقى ، وذلك ما لم يكن لى مثله • ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتى أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً • وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلنى أتصور أننى فاقد بسببه صوابى • وكان أنكى ما آلمنى اننى علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل • ولقد حدث أن قابلته فعلاً فى منزل أهلها مرارا كثيرة دون أن يخطر ببالى شىء ، من شدة ما أعمانى غرورى • وقد أحنقنى هذا الأمر وأغاظنى أكثر من أى شىء عداه • تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد • لقد شعرت بالدم يصعد الى جبهتى حين تذكرت تصريحات الحب التى أوشكت أن أقولها لها مرارا • ان الفتاة لم توقفنى بل تركتنى أتكلم دون أن تنبئنى بأنها مخطوبة • فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر منى وتضحك علىّ • وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعنى فى كل مرة مازحةً ، وتغير موضوع

الحديث ، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً صحيحا ، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام .

واني لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسى ، لأن خفة طبعى كانت لا تتيح لى أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة . فصرت أحرِّض استيائى وحنقى تحريضا مصطنعا من أجل أن أصل أخيرا الى اندفاع أحمق غير انسانى . ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسى ، واستطعت فى ذات مساء ، بينما كنا فى مجتمع غفير ، أن أهين «غريبى» فى أمر لاعلاقة له فى الظاهر بشخصى . سخرت من رأيه فى موضوع حدثٍ كان قد وقع وهزَّ أفكار الناس كثيراً فى ذلك العهد* ـ كنا فى عام١٨٢٦ ـ وكانت سخرياتى ـ فى رأى الحضور ـ مُحكمة حاذقه فكهه ـ ثم طلبت منه أن يصفى حسابه معى بمبارزتى ، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدى رغم كل ما بينى وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانيا ضابط صغير لا قيمة له فى حين أنه يحتل هو مركزا اجتماعيا عالياً جداً . وقد علمت فيما بعد أن شيئا من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدى . فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازمتى لخطيبته ؟ وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتى دون أن يبارزنى ، أن تحتقره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له . ولم ألبث أن عثرت على شاهدٍ لى بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقى كان ملازماً فى كتيبتى نفسها . ولقد كانت المبارزات رائجة جدا بين الضباط فى ذلك الزمان ، رغم أنها محظورة محرَّمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة فى النفس الانسانية . كنا فى أواخر شهر حزيران (يونيو) ، وحُدِّد الغد موعدا للقاء ، فى الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة

خارج المدينة • ووقع لى فى ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده تدخلاً من القدر • فحين عدت الى مسكنى فى ساعة متأخرة من الليل مهتاجا اهتياجا شديدا ، ثرت على الجندى الذى يخدمنى ، واسمه آتانازى، ثورة شديدة ، وصفعته بكل قوتى مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه • ان آتانازى يخدمنى منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته من قبل ، ولكننى لم أضربه بوحشيه حيوانية كهذه المرة • صدقونى يا أصدقائى الأعزاء اذا قلت لكم : اننى ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكى حينذاك الا وأشعر بخزى وعار وألم عميق • وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات • فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس • فأسرعت أرتدى ملابسى لأن النوم قد طار من عينى ، واقتربت من النافذة ففتحتها • ان النافذة تطل على الحديقة • وقد أخذت الشمس تطلع فى الأفق • والجو جميل طرى ، والعصافير تغرد • سألت نفسى : « لماذا هذا الاحساس الغريب فى نفسى بالخزى والعار والاشمئزاز ؟ ألأننى سأسفح دم انسان ؟ لا ••• يبدو أن هذا ليس هو السبب • أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أُقتل ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا ••• » وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذى كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب فى ضميرى لأننى ضربت آتانازى فى الليلة البارحة • تراءى لى المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة : كان آتانازى واقفاً أمامى ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، جاعلاً يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوى على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة • وكان هو يحدّق أمامه كأنه فى استعراض عسكرى ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمى وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة • انظروا الى أى حالة يمكن أن يُردّ الكائن الانسانى ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها

من جريمة ! شعرت كأن ابرة تنفذ فى جسمى . اننى أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشـــدوهاً مصعوقاً . كانت الشمس فى الخارج تتلألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحةً بحمد الرب ... وهأنذا أخفى وجهى بيدىَّ على حين فجأة ، وأرتمى على سريرى ناشجاً منتحباً . لقد عاودتنى فى تلك اللحظة ذكرى أخى مارسيل ، وخطـرت ببالى الكلمات التى قالها للخدم قبل موته بقليل : « يا أصدقائى الطيبين ، ماذا فعلت حتى أســتحق أن تخدمونى ؟ ما الذى يجعلنى جـديرا بعاطفتكم ؟ » . وقلت لنفسى : « ما الذى يجعلنى أنا أيضا جديرا بأن يخدمنى قرينى الانسان ؟ » . وحاصرت هذه الفكرة عقلى فجأة . فأخذت أتساءل : « لماذا يجب على انسان شبيه بى ، انسانٍ خُلق مثلى على صورة الله ، أن يكون خادمى ؟ ما الذى جعلنى جديرا بذلك ؟ » . لقد طرحت على نفسى هذا السؤال لأول مرةٍ فى حياتى . « أماه ، يا حَمَلى الوديع، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع النـاس ... البشر لا يعرفون هذا ... ولو ارتضـوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنةً منذ الآن » . تساءلت من خلال دموعى : « أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر النـــاس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً ! » . وتراءت لى الحقيقة فجأة فى ضياء باهر ! ما الذى كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انسانا طيبا ذكيا نبيل الخلق لم يمسسنى بسوء ولم يلحق بى أذى ، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد فى الوقت نفســه ، فأسلمها للعذاب وأدمِّر روحها ! وكنت أثناء استسلامى لهذه التـأملات راقداً على سريرى ، دافناً وجهى فى الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضى . وها هو ذا رفيقى الملازم يظهـــر فى غرفتى فجأة حاملاً الىَّ المسدسات . قال لى :

ـ أنهضت من نومك ؟ أحسنت ••• ما يزال فى الوقت متسع • هيَّا بنا !

اضطربت ، وزاغ لبى ، لكننى تبعته ؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التى كانت تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت لرفيقى شارحاً :

ـ انتظرنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجيء بمحفظه نقودى التى تركتها فيه •

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى • قلت له :

ـ آتانازى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس • سامحنى !

ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف • وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافيا ، وأن بادرتى لا تتناسب والأذى الذى ألحقته به ، فاذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى لامست جبهتى الأرض ، وأقول له صائحاً :

ـ سامحنى يا آتانازى

بدا آتانازى مصعوقاً ، وأخذ يقول :

ـ يا صاحب النباله ••• يا أبتاه ••• يا مولاى ••• كيف يمكنك أن ••• أنا لست جديراً بهذا ! •••

وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافناً وجهه فى يديه • واستدار نحو النافذة ، مرتعشاً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، غارقاً بدموعه • وهرعت ألحق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى العربة • صحت أقول للحوذى :

ـ بِسرْ ...

وأضفت مخاطباً رفيقى :

ـ هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !

كنت أشعر بحماسة شديدة ، وظللت أضـــحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخبط فى الكلام خبط عشواء ... لا أدرى ماذا قلت ! وكان رفيقى ينظر الىّ راضياً مرتاحاً . قال لى :

ـ أرى انك شجاع ! لسوف تشرّف بزّتنا العسكرية .

ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا ننتظر . وضعنا أنا وخصمى على بعد اثنتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشـــعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة خدى خدشاً خفيفاً ، ولامست أذنى ملامسة .

صحت أقول :

ـ الحمد لله ! انك لم تقتل أخاك .

ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة .

قلت :

ـ هذا ما أفعله بالمسدس .

ثم التفت نحو خصمى وقلت له :

ـ سيدى ! اغفر لى اننى أسـأت اليك بغير سبب لطيشى وخفتى ، ثم أجبرتك على أن تطلق علىّ النار . أننى لا أســـاويك ولا أعدلك ،

فأنت خيرٌ منى عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك . قل هذا عن لسانى للانسان الذى تقدره أكثر من أى انسان آخر فى هذا العالم .

فما ان نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون .

قال خصمى وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب :

ـ ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغى أن تزعجنى اذا لم تكن تنوى أن تقاتل .

فأجبته قائلاً بمرح :

ـ لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمق ، ولكننى صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك .

فقال :

ـ أما انك كنت بالأمس غبياً أحمق ، فهذا أمر أسلّم به ؛ وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً اذا نحن نظرنا الى سلوكك .

قلت وأنا أصفق بيدىّ :

ـ مرحى ! انى أوافقك على ما تقول . لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام .

قال ملحاً :

ـ أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدى أم لا ؟

فأجبته :

ـ لن أفعل . ولك أن تطلق مرةً ثانية اذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق .

اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبى .

ـ كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار ؟ آتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة ؟ آه ••• ليتنى تنبأت بهذا ! •••

كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى أعينهم :

ـ سادتى ! أعجيبٌ الى هذا الحد حقا أن يوجد فى أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟

فصاح صاحبى يقول من جديد :

ـ لا ••• ولكن هذا لا يكون على أرض القتال •

فاستأنفت كلامى قائلاً :

ـ أهذا ما يدهشكم اذن ؟ لقد كان يجب علىّ فى الواقع أن أعتذر اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق علىّ النار ، وذلك لأجنبه ارتكاب خطيئة قاتلة • ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل علىّ أن أفعل ذلك ان صح التعبير ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أُفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق علىّ النار من على بعد اثنتى عشرة قدما ؟ والا لكان يمكن أن تعدونى جبانا غير جدير بأن يُسمع كلامى اذا أنا اعتذرت اليه منذ وصولى قبل أن يطلق •

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى :

ـ أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ، والهواء النقى ، والعشب الطرى ، والطيور المغردة ! ان الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة • ونحن وحدنا ، معشر الأغبياء الأدنياء ، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة • يكفى أن نعقد النية على أن نعرف

هذه الحقيقه حتى يبدو لنا العالم فورا بكل سنائه وبهائه وجماله • ألا فلنتعانق ولنبك •••

كنت أوشك أن أبكى ، ولكننى أمسكت وقد انقطعت أنفاسى • شعرت بانفعال شديد لذيذ ، وكان قلبى يفيض سعادةً لا عهد لى بمثلها من قبل •

قال خصمى :

ـ كلامك فيه عقل وشرف ••• لا شك فى أنك انسان طريف جدا •••

فأجبته ضاحكا :

ـ اسخر منى الآن ، ولكنك ستطرينى فى المستقبل •

قال :

ـ بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن • اسمح لى أن أمد اليك يدى ، لأنك فيما يبدو لى انسان صادق جدا •

قلت :

ـ لا ••• لا تمدد لى يدك الآن ••• وانما تمدها لى فى المستقبل ، بعد أن أصلح نفسى وأستحق تقديرك ••• يومئذ تصافحنى وتكون على حق اذا صافحتنى •

وعدنا الى المنزل • كان شاهدى حانقاً فهو لا ينفك يقرعنى فى العربة • أما أنا فكنت أقبّله • وما أن علم رفاقى بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا علىّ • قال بعضهم :

ـ لقد لطخ شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل •

ودافع بعضهم الآخر عنى قائلاً :

ـ ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج •

فقال الآخرون :

ـ غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص ، فاعتذر على أرض المعركة •

فأجاب المدافعون عنى قائلين :

ـ لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتـــذر ، أما وأنه رمى مسدسه فى الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ، وانما هو شىء آخر جديد طريف •

وكنت أصغى اليهم ، فتملؤنى أقوالهم فرحاً ، ثم قلت لهم آخـر الأمر :

ـ يا أصدقائى ورفاقى الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتى ، فقـــد أرسلتها الى المكتب منذ هـــذا الصباح ، وسأدخـــل الدير متى قُبلت الاستقالة •

فما ان ســـمعوا هذه الكلمـات حتى انفجـروا يضحكون ضحكاً صاخباً •

ـ كان ينبغى أن تقول هذا من قبل • الآن اتضح كل شىء • ليس يحاكم راهب •

كان رفاقى يضـــحكون ولكن بغـــير خبث ؛ انهم يضحكون وهم يشعرون نحوى بشىء من العطف والحنان • ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعا يظهرون لى المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لى وأقساهم حكماً علىّ • واحتفلوا بى فى الكتيبة طوال الشهر الذى انقضى بين تقديمى

الاستقالة واحالتى على التقاعد • كانوا يقولون :

ــ هذا راهبنا •

وأصبح كل واحد منهم يخاطبنى بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفنى عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً علىّ راثياً لحالى •

ــ لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟

ــ لا بل انه شجاع • لقد جابه اطلاق النار عليه وكان فى وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى فى منامه حلماً أثناء الليلة التى سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير •

وكان الامر كذلك فى المدينة أيضا • لقد كان الناس فى الماضى يحسنون استقبالى وكفى • أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بى جميعا • انهمرت علىّ دعواتهم الى ولائم يقيمونها لى • صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قرارى ، ولكنهم يحبوننى • ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغمضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمى يمت الى جنرالنا بقربى قريبة • ثم انه ما من دمٍ قد سفح ، وقد استقلت ••• لذلك عُدَّت المغامرة أشبه بمزاحة • وقد تجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائى بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقى التى لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة ••• وكانت تجرى تلك الأحاديث عادةً فى المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بى كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامى ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا الىّ كما يصغين هنّ •

كنت أُسأل بلهجة ساخرة :

ـ كيف تزعم أننى مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع الناس ؟ أأنا الذى اقترف أخطاءك مثلاً ؟

فكنت أجيبهم بقولى :

ـ لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد سار منذ زمان بعيد في طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات مشئومة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام . هذا أنا مثلاً : لقد أردت مرةً فى حياتى أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فاذا أنا أصبح فى نظركم رجلاً ملتاث العقل . ومهما تحبونى ، فانكم تظلون تسخرون منى .

قالت سيدة المنزل ضاحكة :

ـ كيف يمكن أن لا يُحَبَّ فتى مثلك ؟

كان الجمع غفيراً جداً فى ذلك المساء ، ولمحت فجأةً ، بين السيدات الحاضرات ، تلك المرأة التى أردت بسببها أن أبارز ، والتى كنت أحلم أن تكون خطيبتى قبل ذلك بقليل . لم أكن قد لاحظت وصولها . وها هى ذى تنهض وتدنو منى وتمد الىَّ يدها وتقول لى :

ـ اسمح لى أن أقول لك اننى ، أنا ، لا يخطر ببالى لحظةً أن أسخر منك . بالعكس : اننى لأحرص على أن أعرب لك عن شكرى متأثرة أصدق التأثر ، أن أعبِّر لك عن تقديرى واحترامى للسلوك الذى سلكته فى ذلك الظرف .

وجاء الىَّ زوجها أيضا ، وتبعه سائر المدعوين . كادوا يقبلوننى جميعا . اجتاح الفرح نفسى . ولاحظت خاصةً ، بين الأشخاص الذين أظهروا لى مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدما فى السن بعض الشىء ، كنت أعرف اسمه منذ زمن ، ولكننى لم أُقدَّم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة .

د ـ الزائر العجيب

كان يشغل منصبا هاما في مدينتنا منذ سنين كثيرة • انه شخص مرموق ، غنى ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الأيتام مبالغ ضخمة • وكان عدا ذلك يساعد عددا كبيراً من الفقراء ، متخفيا متكتماً ، حتى أن ذلك لم يُعرف الا بعد موته• انه في نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون قاسيا • وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامرأته ماتزال شابه ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغارا في ذلك الحين •

في غد ذلك المساء الذى جرى فيه الحديث ، كنت في منزلي ، فاذا بالباب يُفتح فجأة ، واذ بي أرى هذا السيد يدخل عليّ •

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيّرت مسكني • فانني بعد احالتي على التقاعد قد استأجرت غرفة في دار امرأة عجوز هي أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي • والحق انني تركت منزلي القديم في يوم المبارزة نفسه ، فما ان رجعت الى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفت آتانازي وأرسلته الى الثكنة ، لأنني أصبحت لا أجرؤ أن أنظر اليه بعد الذى حدث بيننا • انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحياة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام •

قال لي هذا السيد :

ــ لقد أتيح لي أن أسمعك عدة مرات في منازل صديقة كثيرة ، فكنت أصغى الى كلامك باهتمام عظيم في كل مرة • وانني لأحب أن

أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل . فهل تمنّ عليّ بهذا الفضل ؟

أجبته قائلاً :

ـ ذلك يسرني أعظم السرور ، وهو لي شرف كبير .

ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف . لقد أوحى اليّ هذا الرجل خوفاً عميقا . صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير من الأحيان يصغون الى كلامي باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهني حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله . أضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتي بنفسه .

قال لي بعد أن جلس :

ـ لقد تبينت فيك قوة خلقية كبيرة ، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة في ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع .

فأجبته :

ـ لعلك تقدرني فوق قدري في هذه القضية .

فقال :

ـ لا ... فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن .

وتابع يقول :

ـ لقد أثر سلوكك في نفسي تأثيرا قويا ، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني الى زيارتك . أحب لو أسألك أن تصف لي ـ ما لم تر ذلك فضولاً مني في غير محله ـ ما شعرتَ به لحظةَ قررت أن تعتذر اليه على أرض القتال ، اذا كنت تتذكر مشاعرك . أرجو أن لا تعزو سؤالي هذا الى طيش مني ، فهناك أسباب خفية تدفعني الى القاء هذا السؤال عليك ، وسأشرح لك هذه الأسباب اذا شاء الله أن يقرب بيننا .

كانت أثناء استرساله فى هـــذا الكلام أنظر اليه بانتباه ، فشعرت فجأة باطمئنان اليه وثقة به ؛ حتى لقـــد أحسست أنا أيضا باســتطلاع قوى ، لأننى قدرت أن فى حياته سراً . قلت له :

ـ قبل أن أذكر لك ما شعرت به أثناء اعتذارى الى خصمى على أرض المعــركة ، أحسب أن من المفيـــد أن أروى لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسلسلاً لا يعرفه أحد الى الآن .

وأطلعته على ما وقع لى مع آتانازى ، ورويت له كيف أننى سجدت أمامه ، وقلت أختم كلامى :

ـ تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ، لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ، فلما سرت فى هذا الطريق لم يكن علىّ الا أن أتابع المضىّ فيه ؛ وسلوكى بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عنـــاء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوبا باحساس بالسعادة والفرح .

أصغى الرجل الى كلامى بانتباه ، وكان فى نظرته الىّ مودة كبيرة وحب عظيم . قال :

ـ هذا كله شائق جدا ، وسأعود اليك لأتحدث معك مرارا .

وأصبح يجىء الىّ كل مساء تقريبا . وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضا . ولكنه لم يكد يفضى الىّ بشىء عن حياته ، وكان لا يزيد على أن يسألنى عن حياتى أنا . ومع ذلك فقد أحببته كثيرا ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير حاجة البتة الى معرفة سرّه ، وحسبى أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم . وأرضانى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلا يبلغ هذا المبلغ من الجد ،

ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلي ، بل يجيء اليه في منزله ... وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء .

قال لي فجأة ذات يوم :

ـ أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكّر فيه منذ زمان طويل .

وسرعان ما أضاف قوله :

ـ بل انني لا أفكر الا في هذا .

ونظر اليّ مبتسماً .

ـ حتى انني أشد اقتناعا بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد . كذلك أضاف يقول بعد قليل .

وقدّرت وأنا أصغي اليه انه ربما كان يريد أن يفضي اليّ ببعض أسراره .

واستأنف كلامه قائلاً :

ـ ان كلاً منا يحمل في نفسه جنةً مدفونةً . ان هذه الجنة قائمة في نفسي وان تكن مختبئة . وحسبي أن أريد ، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتي .

كان يتكلم بشيء من الحماسة ؛ وفي نظـــرته المنصبة عليّ رأيت ما يشبه أن يكون سؤالاً مستسراً عجيبا . وتابع كلامه يقول :

ـ انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب في حق كل الناس ، هذا عدا خطاياه الخاصة . تلك حقيقة كبرى عبّرت عنها ، ولا يسعني الا أن يدهشني أنك استطعت أن تكتشـــفها كاملةً ،

دفعةً واحدة • ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلماً فحسب ، فى اليوم الذى تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة •

فهتفت أقول بمرارة :

ـ متى يحدث هذا ؟ هل يجيء ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً لا أكثر ؟

ـ أأنت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة • كن من ذلك على ثقة ! على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته فى الزمان بحكم قوانين صارمة • لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسيا وأخلاقيا • لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحا جديدة ، وما لم يتجهوا فى طريق جديد • لن يكون على الارض أخوة ما لم يشعر البشر بأنهم اخوة حقاً • لن يستطيع البشر فى يوم من الايام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل اذا هم لم يستوحوا الا العلم ومصالحهم • ان كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ؟ وان الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر الى أن يفنى بعضهم بعضا • تسألنى متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض • فاعلم أن ملكوت السموات سيتحقق على الارض فى يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء « عهد العزلة » •

ـ أية عزلة تعنى ؟

ـ العزلة التى يعيش فيها البشر ، وتتجلى فى جميع الميادين ، ولا سيما فى عصرنا هذا • ان عهد العزلة هذا لم ينته ، حتى انه لم يصل الى ذروته • ان كل انسان فى هذا العصر يجهد فى سبيل أن يتذوق الحياة كاملةً ، مبتعداً عن أقرانه ، ساعياً الى السعادة الفردية • ولكن هيهات

أن تؤدى هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملةً ، فهى لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملا ، ولا تقود الا الى نوع من الانتحار الروحى بعـــزله خانقـة . لقـد انحـل المجتمع فى عصرنا الى أفراد يعيش كل منهم فى جحره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا فى أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض . وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضا ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضا . ان الانسان يكدّس الخيرات فوق الخيرات فى العـزلة ، وتسره القـوة التى يحسب أنه يملكهـا بذلك ، قائلاً لنفســه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمّنـة مضمونة ؛ انه لا يرى ، لحمـــاقته ، أنه كلما أوغل فى التـكديس كان يغوص فى عجز قاتل . ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى فى عزلته القوانين التى تحكم الانسانيه حقـا ، وينتهى من ذلك الى أن يرتعد فى كل يوم خوفا على ماله الذى أصبح فقدانه يحرمه من كل شىء . لقد غاب عن البشر تماما فى أيامنا هـذه أن الأمن الحقيقى فى الحياة لا يتحقق بالعزلة ، وانما ينحقق باتحـاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية . ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهى حتما فى يوم من الايام ، وسيفهم البشر فجـــأة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية يومئذ نفحة جديدة ، وستتساءل الانسانية مدهوشـة يومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هـذه المدة فى ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ سوف تظهر علامه ابن الانسان فى السموات ... وانما المهم أن نحافظ على عَلَمه الى أن يجىء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقدوة الفـــردية ، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء . ما ينبغى أن ندع لهذا الأمل العظيم أن يموت ...

هكذا كانت تنقضى ليالينا فى أحاديث مشبوبة متحمسة . وأصبحت

أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء ، وأصبحت لا ألبي دعوات الناس الا لماماً • ثم أن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول • لقد عمت « موضتي » • ولست أقول ذلك لائما ولا عاتبا ، لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي • ولكن يجب أن نعترف بأن « الموضة » تلعب في المجتمع دورا كبيرا • أما زائري العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن اعجابا شديدا • كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم، وكنت أحس أنه ينضج مشروعا سرياً أو يتهيأ لعمل كبير • ولعله قدّر فيّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولا ، فانني لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه الى حيث يُسرّ اليّ بشيء من أمره• ولكنني لاحظت أخيرا أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقاً الى أن يفتح لي قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحا كل الوضوح بعد شهر • قال لي يوما :

ـ هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيرا عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فان كل شيء سيتضح قريبا •

وكان يتفق له في بعض الأحيان أن ينتابه اضطراب شديد ، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف • وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق اليّ ، ويلقي عليّ نظرات نافذة ، فأقول لنفسي عندئذ : « ها ••• سيتكلم » ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق الى موضوعات لا قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة • وكان يشكو من صداع في كثير من الاحيان • وفي يوم من الايام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيته يصفرّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيته يتفرس فيّ تفرساً غريباً • قلت له قلقاً :

ـ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل .

فقال :

ـ أنا ... هل تعلم ؟ أنا ... أنا قاتل ! ...

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد اصطبغ بزرقة ضاربة الى سواد . « ما هذه الابتسامة ؟ » . برق هذا السؤال فى ذهنى ونفذ الى قلبى ، قبل أن يتسع وقتى لأن أرد بشيء . ولكننى شحبت أنا أيضا .

صحت أسأله :

ـ ماذا تعنى ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ هأنت ذا ترى كم كلفنى هذا الاعتراف الاول من عناء ! ولقد تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعته أسهل وأيسر ... فهيّا أتابع ...

لبثت زمناً طويلا لا أصدق ما كان يقوله لى ؛ ولم أستطع أن أصل الى التصديق الا شيئا فشيئاً ، بعد أن رجع الىّ ثلاث أمسيات متتاليات، فروى لى القصة بجميع تفاصيلها . ظننته فى أول الامر مجنونا ، ثم أدركت الحقيقة أخيرا بمرارة قوية ودهشة عميقه . لقد ارتكب هذا الرجل فعلا جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاما : قتل امرأة شابة غنية ، جميلة جدا ، كانت أرملة رجل من مالكى الاطيان ، وكان لها فى مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين . لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديدا ، وتوله بها تولهاً مشبوبا ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن يقنعها بزواجه . ولكنها كانت تحب رجلا آخر هو ضابط فى الجيش عالى الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ فى الريف وكان عليها أن تلحق

به قريبا • لذلك رفضت عرض صاحبى ، ورجته أن لا يجيء اليها بعد ذلك اليوم أبدا • فلما صرفته بهذه الخشونة ، وأصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلل ذات ليله الى منزلهـا الذى كان يعـرف ترتيبه ، مارا بالحديقة والسطح ، متهورا أشد التهور ، معرضا نفسه لأن يُكتشف • ولكن الحظ واتاه ، كما يحدث هذا كثيرا فى الجرائم الجريئة ، فنفـذ الى دارها من كوة فى السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة • كان يعلم أن الباب الذى يوجد فى أسفل هذا السلم يظل مفتوحا فى كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم • وعلى هذا انمـا كان يعوّل صاحبى ، فصدق حسابه • فلما صار فى الشقة اتجه فى الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التى كان يشتعل فيها سراج • وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا فى ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفله صغيرة تقيمها صـــديقة لهما تحتفل بعيـد ميلادها وتسكن غير بعيد • أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون فى الملحقات بالحديقة ، أو فى المطبخ بالطابق الأدنى • فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هـــواه واستعر ، فاذا بغيرة حانقة ظامئـة الى الانتقام تشب فى قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويغمـــد فى قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل • لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة • ورتب الرجل أموره بمكر شيطانى وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على ساكنى المنزل • لم يرض أن يستولى على محفظة القتيل ، وانما فتح أدراج صندوقها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها ، فاختـار من محتويات هذه الأدراج أشياء هى ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل • لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التى لها قيمة كبيرة ، وانمـا سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشدا بحجمها ووزنها، محتقراً التحف التى يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية كثيرا • وسرق كذلك

بعض الاشياء التذكاريه التى سنتحدث عنها فيما بعـــد • حتى اذا أتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول • ولم يخطر ببـال أحـد على الاطلاق ، لا فى الغـد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يكون هـو الجانى • وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يُسرّ اليهم بشئونه • كان الناس يعدونه أحد أصدقاء القتيل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من أصدقائها الحميمين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الأسابيع التى سبقت المأساة • وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بطرس ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه • كان هـذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة ــ التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه ــ تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولا لأنه عازب ، وثانيا لأنه سىء السلوك • وقد سمعه الناس فى احدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحنـق قوى • وفى غداة الجريمة ، وُجد على الطريق ، غيرَ بعيد عن الضيعة، فاقدَ الوعى من شدة السكر ، فى جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم• وقد فسَّـر هو ذلك بأن أنفــه رعف ، ولكنه لم يُصدَّق • واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرّتا بأنهما تركتا باب الدار مفتوحاً عن سهو وغفلة • وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البرىء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات فى المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته • وأغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله •••
وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع فى المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحـــد غير الخادم المتوفى • وعندئذ انما بدأ العقاب •

وقد أسر الى الزائر العجيب ، بعد أن أصبح صديقى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير فى الاونه الاولى • صحيح أنه تألم زمنا طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد كل أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه • أما أنه سفح دماً وقتل انسانا فذلك أمر لم يزعجه كثيراً ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادرا • كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف • وقد هزَّه اعتقال الخادم فيأول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردَّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هــروبه ، حين بات ليلةً بكاملها على الأرض الرطبة فاقدَ الوعى من السكر • أما المال والأشياء المسروقة فانه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفســه أيضا) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً • ثم ان قيمة هــذه الأشياء المسروقة لم تكن كبـيرة جـدا ، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذى أنشىء فى المدينة فى الآونة الأخيرة مبلغاً يســاوى قيمة الأشــياء المسروقة بل يفـوقه كثيراً • وقد فعل ذلك ليهدىء ضميره فى موضوع السرقة ، ومن الغريب أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خــلال مدة طويلة من الزمن كمــا أسرَّ هو الىَّ بذلك • واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق فى هذا النشــاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة مضنية شغلته خلال سنتين ؛ واذ كان رجلا جمَّ النشاط فائض القوة فقد أمكنه أن ينسى الجريمــة التى ارتكبها نسيانا يشبه أن يكون كاملا • وكان اذا راودته ذكراها يبادر الى طرد هذه الذكرى • وقــد انصرف أيضا الى البر والاحسان فدعم

وأنشأ أعمالا خيرية فى مدينتنا ، وذاع صيته فى العواصم ، فانتخب عضوا فى الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج • غير أن قلقا أليما قد استيقظ فى نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضى تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد الحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه فى العمل • وتعرف فى تلك الفترة الى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه • كان يقول لنفسه انه اذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض، فى همة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده الذين سينجبهم منها ، فانه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضى الذى يحاصره تخلصا تاما • ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، وانما تحقق نقيضه • فانه منذ الشهر الاول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : « صحيح أن زوجتى تحبنى • ولكن كيف عساها تتصرف اذا هى عرفت الحقيقة ؟ » • وحين أسرّت اليه أول مرة أنها ستصبح أماً اضطرب وقال لنفسه : « أأهب الحياة أنا الذى قتلت ؟ » • ثم لما كبر أولاده ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : « كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأننى أستاذ يعلم الفضيلة، فى حين اننى ارتكبت جريمة قتل ؟ » • وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال ، ولكنه كان اذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : « لست جديرا بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التى تتلألأ فيها براءة نفوسهم • • » • وأخيرا انبجس أمام ضميره طيف المرأة التى قتلها ، انبجس وعيداً غامضاً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب الى الانتقام ! وأصبحت توافيه فى الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة • ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه انه سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته • ولكن أمله هذا قد خاب• فان القلق الداخلى ما انفك يزداد ويتفاقم • والناس فى المجتمع يحترمونه

تقديرا لبره واحسانه ، مع تهيبهم قسوة طبعه وانغلاق نفسه • ولكنه كان يزداد شعورا بالارهاق كلما ازداد شعورا باحترام الناس له• وقد اعترف لى بأنه فكر فى الانتحار غير مرة • غير ان قرارا اخر قد أخذ ينضج فى نفسه ، قرارا بدا فى أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولى على وجدانه ويترسخ فى ضميره حتى اصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره • كان يقول لنفسه : « يجب أن أسلم نفسى للقضاء ، يجب أن أعترف بجريمتى ، يجب أن أتهم نفسى أمام جميع الناس بأننى قاتل • » • وظل ثلاث سنين يحمل فى خياله هذا الحلم الذى يعاوده فى صور جديدة بغير انقطاع • وانتهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه وسيسترد أمنه الداخلى الى الأبد ، اذا هو اعترف بجريمته • ولكن ما ان تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : «كيف أفعل مثل هذا ؟ » • وفى ذلك الحين انما وقعت المبارزة بينى وبين ذلك الرجل •

قال لى الزائر العجيب :

ـ حين نظرت اليك وجدت فى نفسى القوة على أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى •

فهتفت أسأله وأنا أضمُّ يدىَّ احداهما الى الأخرى :

ـ هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولَّد فى نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابنى قائلا :

ـ ان هذا القرار قد نضج فى نفسى خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجته الى النور • اننى ازاء المثل الذى ضربته أنت قد استحييت من ضعفى وحسدتك •

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية • قلت :

ـ لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً •••

ـ عندى براهين ، براهين رهيبة ، لا يمكن دحضها ••• سأقدم هذه البراهين •

بكيت وعانقته •

وقال لى بعد ذلك كأنه يخاطب انسانا يتعلق به مصيره :

ـ أجبنى مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذى سيحدث فى هذه الحالة لزوجتى وأولادى ؟ قد تموت زوجتى حزنا • أما أولادى فانهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة • وأية ذكرى سيحفظونها عنى ؟

صمت فلم أقل شيئاً •

وأردف يقول :

ـ سيكون علىّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد !

لم أجب بشىء ، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت • ونهضت أخيراً وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعا • سألنى وهو ينظر الىّ :

ـ هيه ؟

قلت :

ـ سلّم نفسك للقضاء ! كل شىء سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها• وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسموِ روحى فى سبيل اتخاذ هذا القرار •

تركني في ذلك المساء وقد بدا عليه واضحا أنه قرر أن يعترف بجريمته • ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجيء الىّ كلّ مساء تقريبا ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن في آخـــر لحظة عن تحقيق عزمه • وكان تردده يقلقنى ويعذبنى • انه يبدو فى بعض الأحيان ثابت الجنان صـــلب العزيمة ، فها هو ذا يقول فى رقة وحنان :

ـ أنا أدرى أننى سأعرف الجنة متى اعترفت بجريمتى • لقد عشت أربعة عشر عاماً فى الجحيم • أريد أن أتألم • سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة • الكذب لا يؤدى الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجـــرؤ أن أحب حتى أولادى فكيف بالناس ! سيفهم أولادى ••• آه يا رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينونى !

ـ سيفهمون القرار الذى اتخذته ، وسيستحسنونه جميعا ، ان لم يكن فورا ففى المستقبل حتما • انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضى •

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزره ، ولكننى رأيتـه فى الغد عائدا الىّ وقد شحب وجهه وتشعثت هيئته ، فقال لى بلهجة فيها سخرية :

ـ كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فىّ كمن يقول لنفسه: « لم يقرر بعد ! » • صبرك ولا تتسرع فى احتقارى : ان انفاذ هـــذا الأمر أصعب مما تظن • ومن يدرى ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أُحسب أنك لن تمضى تشى بى !

والحق أننى لم أكن أتفرس فيه مستطلعا ، فلقـــد كنت لا أكاد

أجرؤ أن أنظر اليه • كانت هذه المأساة الداخلية تُمرضني ، وكدت أهم أن أبكي في كل حين ، حتى لأوشك أن أُحرم النوم •

قال يوما حين وصل اليّ :

ـ تركت امرأتي منذ هنيهة • هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة : امرأتي ؟ ••• لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل : « عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في كتاب الحكايات » • لا ••• انك لا تستطيع أن تفهم هذا • ان شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفا •

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه • وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربةً بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها أخذت تهتز • أن هذه البادرة تبدو أمرا خارقا من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة في العادة •

هتف يقول :

ـ أهذا ضروري فعلا ؟ أهو مفيد حقا أن أشي بنفسي ؟ ما الداعي الى هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحدٍ بسبب جريمتي ، ولم يرسل بريء الى السجن بدلا عني ، وقد مات ذلك الخادم من مرض ؟ أما الدم المسفوح فانني أكفر عنه بآلامي وعذابي • ثم انهم لن يصدّقوني ، وسيبعدون الأدلة التي يمكن أن أقدمها • ففيم أشي بنفسي ؟ هلاّ قلت لي فيم أشي بنفسي ! انني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي ، شريطة أن لا أجر زوجتي وأولادي معي الى الشقاء • هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب ؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد ؟ أين الحقيقة ؟ وهل هؤلاء الناس جميعا قادرون حقا على أن يدركوا الحقيقة ، وعلى أن يقدروها ويحترموها كما يجب أن تقدّر وأن تحترم ؟

قلت أخاطب نفسى : « رباه ! انه يهتم بتقدير الناس فى مثل هذه هذه اللحظة ! » • واجتاحت نفسى عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لى أننى مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه • لقد انقلبت سحنته انقلابا رهيبا • وما كان أشد انصعاقى حين أدركت لا بعقلى فى هذه المرة ، بل بروحى وقلبى ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ !

هتف يقول :

ـ قرِّرْ مصيرى •

فأجبته هامساً :

ـ سلِّم نفسك للقضاء !

كان صوتى واهناً ضعيفا ، غير أن فيه حزماً وصلابة • ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة ـ فى ترجمته الروسية ـ ودللته على هذه الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية ٢٤ : « الحقَّ الحقَّ أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها • ولكن ان ماتت فهى تأتى بثمر كثير » • وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات • قرأ الآية وقال :

ـ هذه هى الحقيقة •

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

ـ ما أكثر ما يجد المرء فى هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذى كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً ؟

قلت :

ـ نعم • ولكنهم كتبوه بوحى من الروح القدس •

عاد يقول مبتسما مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد يكون فيها كره :

ـ مهما تتكلم !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح ١٠ ، « الرسالة الى العبرانيين » • فقرأ : « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » •

فرمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد • قال :

ـ هذه آية رهيبة • يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة •

ونهض قائلا :

ـ الوداع • أغلب الظن أننى لن أجىء اليك بعد اليوم • سنلتقى فى الجنة • لقد « وقعت اذن فى يدى الرب الحى » مدة أربعة عشر عاما• يظهر أن علىّ أن أسمّى هذه الفترة من حياتى هكذا • غدا سأضرع الى تينك اليدين أن تتركانى •••

وددت لو أقبله ، ولكننى لم أجرؤ • كانت قسمات وجهه متقبضة وكانت نظرته ثقيلة • خرج • تساءلت : « الى أين يمضى هذا الانسان الآن يا رب ! » ، وارتميت جاثيا على ركبتى أمام أيقونة العذراء • صليت باكيا لأم الرب التى تخف الى الشفاعة والحماية • انقضى نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء • أوشك الليل أن ينتصف • هذا باب الغرفة يُفتح فجأة ، وهذا صاحبى يظهر من جديد • أذهلتنى رؤيته •

سألته :

ـ من أين جئت ؟

ـ نسيت ... أظن أننى نسيت عنـــدك شيئا ... هو منديل فى أغلب الظن . وهبنى لم أنس شيئا ، فان هذا لا يمنعنا من أن نتحدث ...

جلس . بقيت واقفا أمامه . قال لى :

ـ اجلس أنت أيضا .

أطعته . لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم . كان يحدّق الىّ . وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة ... أتذكر ذلك ... ثم نهض ، واقترب منى ، وعانقنى بحرارة ... وقال يخاطبنى فى هذه المرة بصيغة المفرد :

ـ تذكّر أننى جئت اليك هذه الليلة . لا تنس ذلك . فهمت ؟

تلك أول مرة يخاطبنى فيها بصيغة المفرد. ثم خرج . قلت لنفسى: « انه فاعل غدا » .

لم يخطىء ظنى . كنت أجهل فى ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده . اننى لا أخرج منذ حين الا لماماً ، فلم يذكر لى أحد ذلك . كان يقيم فى كل سنة حفلة كبيرة فى منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع الراقى من أهل المدينة . وكذلك فعل فى هذه السنة . حتى اذا انتهى العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقةً كتب عليها اعترافاته موجهةً الى رؤسائه . كان رؤساؤه حاضرين الحفلة . قرأ تصريحه بصوت عالٍ ، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التى ارتكبها منذ أربعة عشر عاما . وختم قراءته قائلا :

ـ أنا شيطان رجيم . وقد قررت أن أبعد نفسى عن المجتمع . لقد مستنى النعمة الالهية . أريد أن أتألم .

ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التى احتفظ بها خلال تلك السنين ، والتى يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة القتيل ، التى سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات ، والصليب والنيشان (الذى يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفترا ورسالتين ؛ فأما الرسالة الأولى فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ قريبا ، وأما الثانية فهى جوابٌ لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد . ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التى تتهمه وتعرّضه للخطر بدلا من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ماحدث: ذُهل الحضور من اعترافاته ، وانتابهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى انسان مريض . وبعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعةً على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن فى وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد ارتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان كانت تبعث على التفكير ، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام ، حتى ولو ثبت أنها للقتيل ، فمن الممكن أن تكون القتيل قد عهدت اليه بها كصديق . وقد علمتُ فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تُحرّك رغم هذا ، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته فى خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث الناس عن اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فان الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضا ، وذلك بالحاحٍ من امرأته ، فانتهوا الى أنه مصاب ببداية جنون . ولم أكشف عن اعترافاته لى طبعا ، رغم أن جميع الناس قد

حاصرونى بالأسـئله • وحين أردت أن أزوره مع ذلك أُغلق دونى بابه ، وكانت امرانه خاصة هى التى حالت بينى وبينه • قالت لى : «أنت الذى أدخلت الاضطراب والاختـلال الى عقله ! لقـد كان دائماً قاتم المزاج ؛ وأصبح ضطرابه النفسى وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فجئت أنت فأجهزت على عقله ! أنت الذى حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها ••• هل تصدقون هذا ؟ لقـد هاجمتنى المدينة كلها عندئذ وأغرقتنى لوماً وتقريعاً •

ـ هذه خطيئتك !

هذا ما كان يقوله لى الناس فى كل مكان •

وكنت أصمت فلا أجيب ، وكنت فى قرارة نفسى سعيداً • ذلك أننى أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذى أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه • أما جنونه المزعوم ، فما كان لى أن أصدقه • وسُمح لى أخيرا بأن أراه ، لأنه أعـرب هو نفسه عن هـذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعنى • فحين دخلت عليه أدركت منـذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات • كان واهناً ضعيفا أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء • ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء وثبات الجنان • قال لى :

ـ انتصرت الحقيقة ! اننى انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت فى المجىء ؟

أخفيت عنه أننى مُنعت من مقاربته •

ـ لقد أشفق علىّ الرب فنادانى اليه • أنا أعـلم أننى سأموت ، ولكن روحى قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيرا ، لأول مرة

بعد تلك السنين الطويلة كلها • لقد وجدت الجنة فى نفسى منذ تكلمت مستوحياً ضميرى • أصبحت لا أُخشى أن أحب أولادى وأن ألاطفهم وألاعبهم • ان الناس ترفض أن تصدقنى ؟ ما من احد يريد أن يسلم بأننى قاتل ، لا زوجتى ولا قضاتى • وأولادى لن يصدقوا هـــذا ، هم أيضا • سوف أموت ، ولكن اسمى سيظل فى نظرهم طاهرا لم يدنَّس ولم يُلطَّخ • أوه ؟ اننى أشعر بالله الآن ، وان قلبى لمبتهج كأننى فى الجنة ••• لقد قمت بواجبى •••

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدَّ على يدى بحرارة ، ونظر الىَّ صامتا ، وقد سطعت عيناه بلهيب • لم نتمكن من اطالة حديثنا ، لأن امرأته قد نفــد صبرها ، فهى تشق البـــاب بغير انقطاع • واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلا :

ـ هل تتذكر أننى جئت اليك فى ذلك المساء ، عند منتصف الليل؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك ••• فهل تعلم ماذا كان هدفى حين جئت اليك فى تلك الساعة ؟ كان هدفى أن أقتلك !

ارتعشت •

ـ فبعد أن تركتك ، لبثت أطوف فى الشوارع على غير هدى زمناً طويلا أصارع نفسى ، فاذا أنا أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أننى أحسست أن قلبى يوشك أن ينفجر • قلت لنفسى : « بسببه وحده انما أنا مضطر الى الاعتراف الآن • لقـــد أصبح قاضىَّ ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غدا لأنه يعلم كل شىء » • ليس معنى هذا أننى كنت أخشى أن تشى بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات) ولكننى كنت أقول لنفسى اننى لن أستطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا أنا لم أسلم نفسى للسلطات • وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون فى أقصى الأرض • أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكانٍ ما

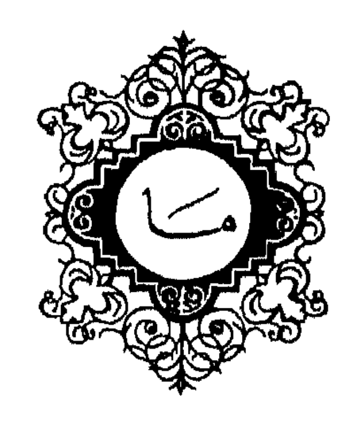
عالماً بأمرى حاكما علىّ مُدينا اياى. فأخذت أكرهك ، كما لو كنتَ علة شقائى ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجرا . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضا ، ولبثت دقيقة طويله أفكر وأنا أحدّق اليك . بديهى أن حياتى كانت ستتحطم على أى حال لو قتلتك ، وأننى كنت سأنتهى نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لم أعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالى فى تلك اللحظة ، لأننى لم أكن أهتم بالعواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقنى رغبة قوية فى أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب . أما ما عدا ذلك فكان لا يعنينى . ثم انتصر الرب فى تلك الدقيقة على الشيطان فى قلبى . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك فى يوم من الأيام كما اقترب منك فى تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة. وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المنتحبون حزناً عليه ، واشتكوا مرّ الشكوى من المرض الذى أماته . وبعد الجنازة قاموا علىّ . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعوننى الى منازلهم . غير أن عددا من الأشخاص ، كانوا قلةً فى أول الأمر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصدق اعترافاته ، فكانوا يجيئون الىّ فى كثير من الأحيان يزعجوننى بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوسهم فضولا شديدا وخبثاً خفياً . ان الانسان يحلو له يرى رجلاً صالحا يسقط ويتلطخ شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر منّ علىّ الرب فوجهنى فى طريق اليقين والنور ؛ بوركت اليد الخفية التى قادت خطاى نحو الهدف . أما صاحبى ذاك ميشيل ، خادم الرب ، الذى كان عاثر الحظ ، فقد ذكرته فى صلواتى كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة .

٣

بعض التعاليم التي عبر عنها الأب زوسيما في أحاديثه

هـ ـ حديث عن الراهب الروسى والدور الذى يمكن أن يقوم به •



ما الراهب يا اخوتى ومعلمىّ ؟ ان بعض النـــاس فى الأوساط المثقفة ينطلقون بهـــذه الكلمة فى أيامنا هذه ساخرين ، وان بعضهم لآخر يعدها مسبة واهانة • وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم بمرور الزمن • صحيح أن بين الرهبان ـ يجب علىّ أن أعترف بهـذه الحقيقة وا أسفاه ! ـ كسالى وفجرةً وفاســقين • فأولئك أناس أفاقون أشقياء ارتموا فى الأديرة • والمتنورون من أبناء المجتمع يدلُّون علينـا بهذا ليعدونا رجالاً وانين ، لا خير فيهم ولا نفع منهم ، وليعاملونا كما يعامَل طفيليون ومتســولون لا شرف لهم • ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لايطمحون الا الى أن يصلوا للرب صلاة حارة فى عزلتهم الهادئة ! ان الناس لايلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لايأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة • ألا ما أشد الدهشة التى سيشعر بها أولئك الثالبــون المشنّعون اذا هم

علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرةً أخــــرى فى يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون الى العزله والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستعدون صامتين « لليوم والساعة ، للشهر والسنة » التى سيحين حينها. هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثير من التقى والخشوع فى حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشــــون فى الحقيقة الالهية وفقاً لتعــــاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء . حتى اذا دقت الساعة ذكروا البشر برسالته الى الانســانية المترنحة . ان هناك فكرة عظيمة هى قاعدة حياتهم . انها النجمه التى ستطلع يوما من المشرق .

ذلكم هو رأيى فى الرهبان . أأكون على ضلال ، أيكون حكمى قائما على عجب وغرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهيــــة ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس . أما الكون الروحى ، أما العنصر الأسمى فى الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه ونبذوه، واطرحوه وأدانوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره والبغض . ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما فى أيامنا هـــذه ، ولكن ما الذى تؤدى اليه هذه الحرية ، وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحار الأخــــلاقى ... يقول النـاس : « ان لك حاجات ، فعليك أن تسعى الى ارضائها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار . لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها . » . تلكم هى عقيدة هذه الأيام . هكذا يتصور الناس الحرية فى هـــذا العصر . فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكثار المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى العزلة والموت النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد

والقتل . ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقا ، ولكنهم لم يُعلموا بعدُ وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل ارضاء حاجاتهم . يزعم بعضهم أن التطور الطبيعى يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فازالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، وانتشار الفكر فى الهواء ينميان الاحساس بالأخوة والتضامن . واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام أن تخدعكم ! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع . اننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكثار حاجاته وارضائها بسرعة ، كنا نشوّه طبيعة الانسان ، ونثير فيه حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها ، ونخلق له عادات حمقاء وأحلاماً مجنونة . ان الناس لا يعيشون اليوم الا فى الحسد اشباعا لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم . ان اقامة الحفلات ، والخروج فى النزهات ، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفاخرة ، والظهور بالمظاهر الخلابة وامتلاك الخدم الأقنان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجةً لا يبالون فى سبيلها أن يضحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثرون أن ينتحروا على أن يتنازلوا عنها . وهذا يصدق أيضا على من لا يملكون ثراءً طائلاً . أما الفقراء فانهم يخنقون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم . ولكن سيأتى يومٌ يسكرون فيه بدمٍ لا بخمر . فالى هذا انما يُدفعون . انى لألقى عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت فى الماضى مثقفاً كان « يناضل فى سبيل فكرة » . وقد أسرَّ الىَّ هذا الرجل فى ذات يوم أنه حين حُرم من التدخين فى السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون « فكرته » فى سبيل التدخين . وكان يزعم أنه يريد أن « يناضل فى سبيل الانسانية » . هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضى بعيدا فى بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفاعات

مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما . فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبوديه ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانيه وأن يوحّدوها قد سقطوا الى « العزلة » ، كما قال لى فى شبابى زائرى العجيب ومعلمى ذاك ؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات هى ابتسامات من أصبح لا يؤمن بالأوهام ... وأنّى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبدته حاجاته ، اذا كنا قد علمناه أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انسانا هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية . وهل تعنيه الجماعه فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر: جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم .

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب . كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع السبيل الوحيدة الى بلوغ الحريه الحقيقيه : اننى حين أضحى بحاجاتى الزائده ، وحين أسيطر بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحريه الروحيه التى تهب لى الفرح النفسى . أيّهما أكثر تأهباً للنضال فى سبيل فكرة عظيمة ، ألغنى الذى يعيش فى عزلته الروحية أم الراهب الذى تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون ، فهم يقولون لهم : « لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية » . لسوف نرى من الذى سيخدم قضية الأخوة الانسانيه خيرا من غيره . ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك . ومن

بيننا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا في سبيل سعادة الشعب • فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، لسوف يُرون في يوم من الايام يهبون للقيام بعظائم الأعمال • ان الشعب هو الذي سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبنا اتحادا قوياً في جميع الأزمان • اذا كان الشعب في العزلة فنحن في العزلة أيضا • ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن • أما مثقفونا الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شيء في روسيا ، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبقري • تذكروا هذا : ان الشعب سيقوم أخيرا على الملحدين وسيغلبهم • سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية في الأرثوذكسية • اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه • ربوه في صمت • تلكم هي رسالتنا أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل في نفسه الله •

و ـ حديث عن السادة والخدم
هل يمكن أن يصبحوا اخوة في الروح ؟

انه لصحيح ، وا أسفاه ، أن الشعب يعيش في الخطيئة هو أيضا • ان عوامل الانحلال والتفسخ تتابع عملها ، وان الشر ينتشر ساعة بعد ساعة ، لأن عدواه تأتي من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يقعون في العزلة هم أيضا • اننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين • والتجار يزدادون ظمأً الى مظاهر المجد • انهم يريدون أن يُعدّوا مثقفين ، مع أنهم لا يملكون أية ثقافة في الواقع • وهم يحسبون أنهم يصلون الى ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة ، ويبلغون في هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم • انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ،

مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين • ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع التحرر منه • ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الاطفال فى الاسر الفقيرة ! ان الاسراف فى شرب الخمرة هو سبب ذلك • لقد رأيت أطفالا يعملون فى المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن • القاعات الخانقة الموبوء هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخا صالحا لنفس الطفل• ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب، والقدوة الحسنة ، وحد أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة • ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شىء • ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا لا يرضى الرب ، وأنه يخطىء اذ ينقاد للشر• ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير • انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياه بدموع صادقة • وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقى وا أسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستلهمين تعاليم العلم مستغنين عن المسيح بعد اليوم • حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة • ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة ؟ وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقة الدماء قائلة لها ان غضبها حق وعدل • ألا ان « الغضب ملعون لأنه قاس » • ان روسيا سيخلّصها الرب ، كما سبق أن خلّصها الرب مرارا فى

الماضى • وسيأتى الخلاص من الشعب ، سيأتى الخـــلاص مما يملـكه الشعب من روح الاذعان لمشيئه الله ، ومن ايمان بوجود الله • فيا أبائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا ، لان ما ابشركم به الآن ليس حلماً من الاحلام • لطالمـا شدهت أثناء حيـاتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبـــير • لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهدا عليه ، وفى وسعى أن أؤكده لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها • ان الفقراء والصـــغار لم يصبحوا عبيدا فى بلادنا ، بعد قرنين من الرق ، بل حافظوا على مسلك الحريه ، دون أية غطرسة مع ذلك ؛ ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام • لسان حالهم يقول : « أنت غنى ، وأنت فى مرتبه عاليه ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب موهبة• اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يحميك ! اننى أحترمك، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضا انسان • واذا احترمتك دون أن أحسدك، فاننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية » • لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هــــذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم • رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه • صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوســـهم بالحقيقة النبيلة على قـــدر ما يكونون فقــراء صـغارا • ذلك أن الذين اغتنـوا منهم قد أصـبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن، وهذا أمر نُسأل عنه نحن انفسنا بعض الشيء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا• ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشيئة الله • اننى أحـلم بمستقبلنا ، فيبـــدو لى أحيانا أننى أراه : سـيأتى يوم يشعر فيه أفســد أغنيائنا أخيرا بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؛ وسيبرهن الفقـير يومذاك ، بعد أن يرى ندم الغنى ومذلته ، على حسن الفهم هو أيضا ، فيترك له خيراته فرحا ، مستجيبا بالحب للتوبة النبيلة يتوبها ذاك الذى

أنعم عليه القدر • صدقونى أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا اليه التطور • لن يكون هناك مساواة الا فى الشعور بكرامة الانسان الروحية ، وهذه حقيقة غير مفهومة الا فى بلادنا • لسوف تسود الأخوه متى أصبح البشر اخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوه لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة • ألا فلنحتفظ فى أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق على العالم فى يوم من الأيام درةً تشع ضياء • آمين ، آمين !

يا آبائى ومعلمىّ ، لقد اتفق لى فى الماضى أن عانيت تجربةً تهز النفس هزاً قوياً • حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت فى مدينة ك •••، وهى مركز مقاطعة ، بخادمى الجندى آتانازى الذى لم أكن قد رأيته منذ ثمانى سنين ، أى منذ اليوم الذى صرفته فيه الى الثكنة • لقد لمحنى مصادفةً فى السوق فعرفنى فهرع الىّ وقد استخفه الفرح :

ـ أهذا أنت يا مولاى ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقا أن تكون أنت ؟

وقادنى الى منزله • كان قد تحرر من الجندية وتزوج وأنجب طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة • ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضىء • فلما أجلسنى ، سخّن السماور واستدعى امرأته ، كأن زيارتى عيد له • وقدم الىّ ولديه قائلا :

ـ باركهما يا أبانا •

فأجبته :

ـ أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع • سأدعو الله لهما• أما أنت يا آتانازى بافلوفتش ، فانى ما كففت عن الدعاء لك كل يوم ، منذ ذلك الحادث الذى وقع بيننا ، لأن كل شىء قد بدأ يومذاك •

شرحت له ما وسعنى أن أشرح • فكان ينظر الىّ مدهوشا ،

لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القـديم ، الضابط ، موجـــود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط • حتى لقد أخذ يبكى • سألته :

ـ لماذا تبكى يا من لم أنسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تُسر وتفرح يا عزيزى لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضىء •

كان لا يتكلم وانما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوى وتأثر شديد • وسألنى :

ـ ماذا صنعت بثروتك ؟

فأجبته :

ـ وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة •

وودعتهم بعد أن شربنا الشاى ، فاذا هـــو يعطينى خمسين كوبكا للدير ؛ واذا هو يدسُّ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلسةً ، وهو يقول :

ـ هذه لك أنت • فما دمت راهبا تضرب فى الأرض فقـد تنفعك فى الطريق •

قبلت صدقته ، وحييته وحييت امرأته ، وانصرفت مبتهج القلب ، أحدث نفسى قائلاً : « لا شك أنه مثلى فى هـــذه اللحظة ، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى ، هازاً رأسه متســـائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد » • ولم أره منذ ذلك الحين • لقـــد كنت سيده وكان خادمى ، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان قد أعدنا اقامة الاخوة الانسانية الكبرى بيننا • لطالما فكرت فى هـــذا الأمر بعد ذلك ، وانى لأتساءل اليوم : « لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الآوان؟» • انى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت •

وانى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين

الأولى من شبابى أن أغضب على الخدم : « سكبت الطباخه الحساء ساخناً مفرطا فى السخونه ؟ الخادم لم ينطف يابى بالفرشاة » • ولكن ذكرى أخى العزيز قد بعث فى نفسى نورا ، لان اقواله كانت تعاودنى دائما : « أأنا جدير بأن يخدمنى الانسان ؟ هل يحق لى أن أعده أدنى منى لانه فقير جاهل ؟ » • وقد أدهشنى بعد ذلك أن معانى بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متاخرة • ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم • فلا أقلّ من أن نجعل سلوكنا يُشعر خدمنا بأن خدمتهم ايانا لا تُنقص حريتهم • لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أى تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا• لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم فى أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدةً للاتحاد العظيم الذى سيتحقق للانسانية فى المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس فى حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم يحاول أن لا يرد أقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل • أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل فى أن نرى البشر أخيرا ينشدون السعادة فى السمو النفسى وممارسة المحبة ، بدلا من السعى الى الملذات المتوحشة فى النهم والفجور وحب الظهور وفى ذلك الظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فاننى أؤمن ايمانا راسخا بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذى سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب • ان الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين : « متى يأتى هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن فى العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟ » • اننى أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح • ما أكثر الأفكار التى بدت فى الماضى مستحيلة التحقيق ، والتى عُدت قبل عشر سنين أفكارا

حمقاء طائشة ، ثم اذا هى تنتصر فجاة على الارض وتنتشر فى كل مكان، لأن ساعة تحققها قد دقت وكانت خافية مستسرة ! ذلكم ما سيكون فى بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : « ان الحجر الذى رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية فى البناء » • أما الساخرون المستهزئون فاننا نستطيع أن نلقى عليهم بدورنا هذا السؤال : « اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاّ قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟ » • قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى ليمكن أن يدهش المرء من بساطة هؤلاء • الحق أن فى أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس فى أفكارنا نحن • انهم يأملون أن يقيموا العدل فى هذا العالم ، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهى بهم الأمر الى اشعال الحريق وسفك الدم فى كل مكان ، لأن العنف يستدعى العنف ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف • ما لم نؤمن بوعد المسيح ، فان البشر سيبيد بعضهم بعضاً ، الى أن لايبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثانى آخر الأمر ثم يقتل نفسه • ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالضعفاء والمسالمين الوديعين • حين كنت ما أزال أرتدى البزة العسكرية بعد المبارزة ، تحدثت فى المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يُدهشون من كلامى ويسألون :

ـ هل علينا أن ندعوا خدمنا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاى •

وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولى (ننى أتذكر هذا) :

ـ لم لا ، ولو من حين الى حين ؟

فسخر الحضور منى • الا أن سؤالهم يدل على خفه عقـــولهم • ان اجابتى لم تكن واضحة جداً ••• أنا أسلّم بهذا ••• ولكن يخيل الىّ اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة •

ز ـ حديث عن المحبة والصلاة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلى أيها الشاب • فاذا كانت صلاتك صادقة صاحبها فى كل مرة شعور جديد ، وولّد هذا الشعور الجديد فكرةً جديدة كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرةً ستشد أزرك وتقوى عزيمتك بعد ذلك • وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس • تذكر أيضاً أن تردّد كلّ مساء وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً : « هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن » • ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض فى كل ساعة ، فى كل دقيقة ، وتمضى أرواحهم تمثل أمام الخالق • ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم فى العزلة ، بعيدين عن نظر أى صديق، ممتلئى القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد • لن يعلم أحد غـداً أنهم عاشوا • فاذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم انك لم تعرف هذه الروح ، ولا هى تعرف من أنت • لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثل جزعةً أمام الاله العلى القدير • سوف تعلم أن أحداً يصلى لله من أجلها هى أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحـــداً على الأقل يتشفع لها ويحبها • وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمةً به ، لأن

حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك • وسيعفو الله عنه بسببك •

يا اخوتى ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحبوهم رغم خطاياهم ، فبذلك تعرفون المحبة العظمى التى هى على صورة محبة الرب • أحبوا خلق الله جملةً ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا كل موجود • انكم حين تحبون الخليقة تنفذون الى السر الالهى الذى تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك ، ثم ما تنفك تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملا • أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحاً بريئاً • لا تعكروا هناءها ، لا تعذبوها ، لا تبئسوها ، لا تخالفوا ارادة الخالق • أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً نجساً حيث تمر • ذلك شأننا جميعا وا أسفاه ! ذلك شأننا جميعا ، بغير استثناء تقريبا — أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة ، لأنهم أشبه بالملائكة ؛ انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى جانبنا • ويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آنتيم أن أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشترى بالكوبكات التى توهب لنا أثناء طوافنا ، يشترى حلوى يوزعها على الأطفال • كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازا عميقا • كذلك كان هذا الانسان •

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ : « أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع ؟ » • عليك دائماً بالرفق واللين • فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على

الأرض بأسرها • ان الحب المتواضع قوة هائله ، أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل فى العالم • راقب سلوكك فى كل ساعة وفى كل دقيقة من اليوم ، حتى تشع الطهارة منك • قد تمر قرب طفل وقد عصف بك الغضب ، فتفلت من لسانك كلمة سيئة : لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ، ولكن الطفل رآك ، والصورة النجسة الخبيثة التى تركتها له ستبقى فى قرارة قلبه البرىء • أنت لم يخطر ببالك شىء ، ولكنك قد بذرت بذور الشر فى هذا الكائن الصغير ، ولا شك أن البذرة السيئة ستطلع يوما فتجلب له الشقاء • كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال فى نفسك • الحب يا اخوتى معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه • انه لا يكتسب بسهولة ؛ وانما يحصل عليه الانسان بثمن باهظ ، بجهد متصل طويل • ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب موقتاً ومصادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً مطّرداً • ان أى انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشعر بحب طارىء عابر • لقد كان أخى يستغفر العصافير ، وقد يبدو هذا سخيفا من أول نظرة ، ومع ذلك كان أخى على حق ، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج • ان ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها فى أقصى الطرف الآخر من الأرض • هل استغفار العصافير أحمق الى هذا الحد ؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن ، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة فى قربك • ان الطفل وكل كائن حى آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافرت فى قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة • أعود فأقول : ان الكون أشبه بأوقيانوسٍ جميعُ أجزائه متواصلة • فمتى أدركتَ هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضا • اذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب واسع يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل العصافير ، أن

تغفر لك خطاياك • فتعهد بالتنميه والاذكاء هده الحماسة الروحية وهذا الوجد ، دون أن تخشى أن تعد مجنوناً فى نظر الناس •

يا أصدقائى اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح • كونوا فرحين كالأطفال ، كالعصافير الصغيرة فى السماء • لا تدعوا للاضطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم ؛ لا تخشوا من ضلالاتهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور • لا تقولوا قط « ان الشر فى هذا العالم قوى ، وان الظلم منتصر ، وان الأشرار مسيطرون ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان ، وان القوة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح » • لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائى أن يستولى عليكم • وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء فى حماية نفسه منه ، ألا وهى أن يعد نفسه مسئولاً عن جميع خطايا البشر • وتلك هى الحقيقة يا أصدقائى • فمتى اعترفتم بأنكم مسئولون عن كل شىء تجاه جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقا ، وأن ذنبكم ليس وهماً صوّره لكم الخيال • أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو فى الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى السقوط فى هوة التكبر الشيطانى ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله • سأقول لكم رأيى فى التكبر الشيطانى : انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع فى الخطأ ، فاذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانّين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب • ان المعنى الحقيقى لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال • فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوّغاً • على ان « القاضى الأعلى » سيحاسبكم عما كان فى وسعكم أن تعرفوه ، لا عمّا يفوق عقولكم • ستدركون هذا فى حينه ،

وستكفون عندئذ عن المناقشه بحضور الحقيقة التى ستعرفونها • لقد كتب علينا أن نضرب فى الأرض ، وما لم لكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك لنوع الانسانى قبل الطوفان • هنـاك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا فى هـــذا العالم ، ولكننا فى مقابل ذلك فـد أوتينا معرفة الحياة الآخرة والصـــلات التى نربطنا بعالم أعلى وأفضل ؛ والجذور العميقة لعواطفنا وأفكارنا انما تمتد فى السماء لا فى الأرض على كل حال • لذلك يعلّم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكهـا فى هذه الحياة الدنيا • لقد أخذ الرب بذوراً من عالم الغيب فنثرها على الأرض ليزرع حـــديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولـكن الموجودات التى نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التى تربطها بالعالم الآخر السرى • حتى اذا ضعف هذا الوعى أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة ، أو هى تكره الحياة • ذلكم هو رأيى على الأقل •

ح ـ هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه ؟

الايمان الذى لا يتزعزع

تذكر خاصة أنه ليس من حقـــك أن تحكم على قرينك كائناً من كان • ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضيا على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضى ، لا يقل اجراما عن الجانى الماثل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل • حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم • فد يبدو هذا الرأى باطلا ، ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • فلو قد استطعت أن أكون عادلا على الدوام ، لكان من الجائز

أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته • فاذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جنايه الجانى الماثل أمامك ، وأن تجعل حكمك فى قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه • أما الجانى فدعه ينصرف دون أن توجه اليه لوماً • استلهم هذه القاعدة فى السلوك ما وسعك ذلك ، ولو نصبك القانون قاضيا له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه ادانة أقسى من ادانتك اياه • واذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به ، واذا ردّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستحين فى المستقبل • وهبها لن تحين أبدا، فلا تهتم كثيرا بذلك ، لأن شخصا آخر سيعترف يوما بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فاذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء • صدّق ما أقوله لك ، صدّقه تصديقا جازما قاطعا ، لأن هذا هو الأساس الحق الذى يقوم عليه الأمل ويقوم عليه ايمان القديسين •

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر • فاذا تذكرت ، بعد أن رقدت فى سريرك لتنام ، أنك أغفلت القيام بوجب من الواجبات ، فانهض فورا لتدارك هذا النسيان • واذا رأيت نفسك محاطا بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوا لك ، فارتم على أقدامهم واستغفرهم، لأنك أنت الذى تحمل ذنب عنادهم فى الحقيقة • واذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتا متواضعا دون أن تيأس قط • واذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة ، فاسجد على الارض حين تصبح وحيدا واغمرها بقبلاتك • اسق الارض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثمارا ، ولو لم يرك أو يسمعك فى عزلتك أحد • حافظ على ايمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يحافظ عليه • اذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم ، فثابر أنت على المضى فى طريق التضحية واستمرّ فى تمجيد الله يا آخر مؤمن ، فقد يلقاك مؤمن

آخر ، فتصبحا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فاذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما الا اثنين .

اذا اتفق أن أثمت فأخذ الندم على ارتكابك الأخطاء يعذبك ويرهقك ارهاقا شديدا ، فليبهجك أن تتذكر أن هناك انسانا صالحا لم يرتكب اثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيدا : لئن وقعت أنا فى الشر ، ان ثمة انسانا غيرى قد ظل طاهرا لم يتلوث .

واذا ملأك خبث البشر استياء وألما عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس . اقبل هذه الآلام وتحملها . فذلك يهدىء قلبك ويطمئن نفسك . سوف تدرك أنك آثم فعلا ، لأنك كنت تستطيع أن تهدىء هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل ... فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسانَ الذى تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفا طاهرا . قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك ، ولا يراودنك شك فى أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر . اعلم أن البشر سيُنقَذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم . واذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقَذ أبناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم . قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول . ثم ان الناس لا يقبلون الخلاص الا بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم . ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم

بل يقلتونهم ، ولكن البشر فى مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم • ففى المستقبل وفى الانسانية بمجموعها انما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهودك لا تنتظر ثوابا على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هذا الثواب : لسوف تعرف نفسك الفرح الحق الذى لا يوهب الا للصالحين • لا تخش العظماء ولا الأقوياء • كن عاقلا حكيما كريما على نفسك فى كل ظرف • التزم القصد والاعتدال • اعلم أن هناك آجالا تفرض نفسها على تشوقنا الى العمل ، وتقيد بهذه الآجال • لُذْ بالصلاة فى العزلة • تعلم كيف تحب الارتماء على الارض وتقبيلها • قبِّل الأرض بغير كلال • وأحبَّها بكل نفسك • انشر حبك على كل ما يوجد • اندفع فى الحب واسعَ الى حماسة القلب • اسق الأرض بدموع فرحك ، واحبَّ هذه الدموع • لا يخجلنك وجدك • قدِّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا الا للمصطفين •

ط ــ حديث عن الجحيم والنار الابدية

تامل صوفى

يا آبائى ومعلمىَّ ، لقد تساءلت : « ما الجحيم » ، فأجبت : « هو عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب » • ففى المكان والزمان اللانهائيين ، تتاح للكائن الروحى الذى يظهر على الارض ، لحظةٌ وحيدة يمكنه فيها أن يقول : « أنا موجود وأنا أحب » • مرةً واحدة ، مرةً واحدة توهب لهذا الكائن الحى القدرة على أن يختار طريق الحب الفعال الحى ، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان

وآجال . وهذا الكائن الذى أُغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التى لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بهـا وآثر أن تخلو نفسه من الحس . ان هـــذا الكائن يرى ابراهيم بعــــد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع رب العائلة ، كما ورد فى رمز لازار والفتى الشرير . انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ؟ واذا كان يعذبه شيء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها . ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : « أنا الآن أعلم ، ورغم اننى اليوم ظامىء الى الحب فلن يكون لحبى قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتى الأرضيه قد انتهت ، ولن يأتى ابراهيم فيهدىء بقطرة من ماء الحياة (أى باعطائى حياةً أرضية جديدة فعالة شبيهه بالسابقة) ظمئى الى الحب الروحى لذى يحرق الآن نفسى بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم وقت ! اننى أتمنى الآن أن أضحى بوجودى فى سبيل غيرى ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التى كان يمكن أن أضحى بهـا قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بينى وبينها الى الأبد » . كثـيرا ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادى . اننى لا أريد أن أبحث هذا السرّ الذى يملأ نفسى رعباً وهولاً ، ولكننى أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المعذبون ، لأن الألم الجسمى يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظةً قصيرة ، العذاب الروحى الرهيب . ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلى لا خارجى ، فلا يمكن أن يناله تأثير الآخرين. وهبنا استطعنا أن نجرّدهم من هذا العذاب ، فان شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيـــل الىّ . هب العادلين فى السماء غفـروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهـم بحب لا نهاية له ؟ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقظون فيهـم

مزيدا من الظمأ الحار الى الحب المتبادل والعرفان والنبل ، في وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد • على أنني أتصور، خاشع النفس ذليلا ، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف، واليكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله ، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون في ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذي ازدروه على الأرض، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكّر بفعل النفس المحبة.. يؤسفني ، يا آبائي ومعلميّ ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسي بمزيد من الوضوح • ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ، ويل للمنتحرين ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاءً ! يقال انه اثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، وواضح أن الكنيسة تطرد من حضنها ذلك الذي قتل نفسه بارادته • ولكنني أشعر مع ذلك ، في سريرة نفسي ، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين ، لأن المسيح لن يسوءه افراط في الحب • لقد دعوت طوال حياتي للمنتحرين ، أعترف لكم بهذا الآن يا آبائي ومعلميّ ، وما زلت أدعو لهم كل يوم •

لا شك أن في الجحيم أيضا معذَّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع • ان بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا بالشيطان وانضموا الى عصيانه • انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه • أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا • فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم اذ لعنوا الله والحياة • انهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين في الصحراء بدمائهم يمتصونها • ان غليلهم لن يشفى يوما ، وهم يرفضون المغفرة الى الأبد ، لاعنين الرب الذي يناديهم • انهم لا يستطيعون الا أن

يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها . هؤلاء سيظلون يحترقون الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم في غير طائل . ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا ...

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف. وأعود فأقول: هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة . فالاشارات التى تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ . وان شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارىء ذلك واضحا . والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تُنقل نقلاً كاملاً وانما عُرضت عرضا موجزا فيما يظهر ، بحيث تؤدى روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيدا من الابراز بمعونة أقوال أخرى استمدها الكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة . وقد وافت الشيخَ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً . فرغم أن جميع الأشخاص الذين اجتمعوا حوله في ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة، فان أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت . وكما سبق أن قلت فان أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته ستتحسن تحسناً ملحوظاً وان يكن عابراً موقتاً ؛ ولا شيء كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق (كما رُوى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة . ولكن بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد

يده شداً قوياً على قلبه • نهض جميع الحضور وهرعوا اليه • وظل هو رغم الألم ينظر الى أصدقائه مبتسما • وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيه ، فجثا على ركبتيه ، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوعٍ من الوجد الجذل• وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه فى تعاليمه ، مصلياً فى اندفاعة عظمى من فرح هادىء مطمئن • انتشر نبأ وفاته فورا فى الصومعة والدير • وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجبه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة فى الكنيسة • وقد عُرف موت الشيخ فى المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد • ومهما يكن من أمر، فقد تحدث الملأ عن موته فى كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح، وازدحم فى الدير جمع غفير من المواطنين • سنعود الى الكلام عن هذا فى الباب التالى ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستبقين تتمة هذه القصة ، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث فى نفوس سكان الدير وفى نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الاقلاق ومن العنف أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حية فى أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة •••

الجزء الثالث

الباب السابع: اليوشا

١

رائحة الجثة

أُعِدَّ جثمان الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة ، كما تعلمون ، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك • يقول كتاب الطقوس فى هذا الصدد : « اذا نادى الرب راهبا اليه ، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلكه بماء فاتر ، بعد أن يرسم اشارة الصليب باسفنجه على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه ، وهذا كل شىء • » • وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه وفقاً للطقوس• فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة ، وكفنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها فى صورة صليب ، كما تأمر الطقوس بذلك• ووضع على رأسه بعدئذ طاقية مزينة بصليب ذى ثمانية أفرعٍ ، تاركاً الطاقية تسفر عن الوجه ، مغطياً الوجه ببرقع أسود ؛ ووضع صورة المخلِّص بين يدى المتوفى • حتى اذا انتهى تكفينُ الجثمان على هذا النحو سُجِّى عند الصباح فى تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل • وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار فى حجرة الشيخ (الحجرة الكبيرة التى اعتاد الشيخ أن يستقبل فيها الرهبان والزوار العلمانيين) • واذ أن المتوفى فى رتبة « هيروشيموناكوس » ، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الانجيل لا المزامير • فشرع الأب

جوزيف فى القراءة بعد قداس الجنازة فورا • أما الأب بائيسى الذى حل محلّه ، باصرار منه ، أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان فى تلك الآونة مهموما جدا (مثلما كان كبير النساك) من ذلك الاضطراب الشديد ، الخارق ، « غير اللائق » ، المشوب بنوع من انتظار محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التى هرعت من المدينه ومن الفنادق المجاورة للدير • كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى وكبير النساك الى بذل جميع جهودهما فى سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة • وما ان طلع النهار تماماً حتى أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء التى لا بد فى اعتقادهم من أن تصدر عن جثمان الشيخ • فى تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً • ولم يكن جميع المؤمنين الوافدين من المدينة ينتمون الى الأوساط الشعبية • وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب ، بدا للأب بائيسى أن هذا التوقع فيه شيء من مجافاة الأدب والحشمة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذا التوقع منذ زمن طويل ، فان القوة التى يتجلى بها هذا التوقع الآن قد تجاوزت جميع تنبؤات الأب بائيسى • فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم « ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يُفهم صدورها عن علمانيين ولكنها لا تليق برهبان » • وكان هؤلاء لايسمعون له كثيرا ، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسى قلقاً • ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها اذا أردنا الصدق) ،

رغم استيائه الشديد من مظـاهر نفاد الصبر هـــذه التى يرى فيها خفة وطيشاً ، كان هو نفسه يحس فى قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذى يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك. على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيرا ، لأن وجودهم قد أيقظ فى نفسه شكوكا غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمة . من ذلك أنه شعر بنفور داخلى شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد فى حجرة الشيخ ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك الذى طالت اقامته فى الدير . لقـد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين فى نظر الأب بائيسى ، رغم أن هنـاك أشخاصا آخرين كانوا مشبوهين مثلهم أيضـــا . وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وايابه . فهو يُرى فى كل مكان مستطلعاً سائلاً أو مصغياً أو مدمدماً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً يوشك أن يستحيل فى بعض اللحظات الى اهتياج وحنق ، لأن الحادث الذى يتوقع الناس فى كثير من الاندفاع والحماسة والحميًّا أن يحدث قـد تأخر حدوثه . أما راكيتين فقـد عُلم فيما بعد أنه ان جاء الى الصومعة فى ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة هوخلاكوفا هى التى طلبت منه ذلك صراحة . ان هذه المرأة التى تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وبلغت من شدة الفضول أنهـا لمعرفتها بأن مجيئهـا الى الصـــومعة لن يكون مقبولاً قد أسرعت توفد راكيتين موصيةً اياه بأن يلاحظ كل شىء وأن ينبئهـا حالاً ، فى رسالة يبعث بها اليها كلَّ نصف ساعة ، بكلِّ ما قد يحدث . كانت السـيدة هوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد

كان راكيتين بارعا في الحظوة برضى الناس حاذقا في اتخاذ المظاهر التي تطابق رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحةً له •

بدأ النهار صاحيا مضيئا مشمسا • والحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور ، ولكن بعضـــهم قد تفرقوا في جوار الدير • وحين طاف الأب بائيسي في الصومعه ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويله ، منذ الليل على كل حال • فما ان خطر بباله هذا حتى لمحه في ركن ناءٍ قرب السياج جالساً على الحجر من قبر راهبٍ مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدة تعبده وقسوة كفاراته • كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه برأسه نحو السياج، وكأنه يختبيء وراء شاهدة القبر • فلما اقترب الأب بائيسي رأى أليوشا قد وضع وجهه في يديه وأخذ يبكي بكاءً مراً وان يكن صامتاً ، وأن جسمه كان يهزه الانتحاب • لبث الأب بائيسي واقفاً قربه بضع لحظات • وقال له أخـيرا بصوت متأثر :

ـ هدىء روعك يا بني • ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكي • أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التي وُهب له أن يعرفها ؟ أنسيت أين هو في هذه اللحظة ؟ هلاَّ فكرت في هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسي وجهه محتقناً بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه في يديه من جديد • قال الأب بائيسي مطرقاً مفكراً :

ـ قد تكون على حق مع ذلك ! ابك في سلام يا بني لأن المسيح هو الذي يرسل اليك هذه الدموع •

ثم أضاف يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ـ ستساهم انتحاباتك المؤثرة في تهدئة روعك ، وستبعث الفـرح في قلبك النبيل •

ثم ابتعد ممتلىء النفس عطفاً على أليوشا وحبا له • والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر الى الفتى •

كان الوقت ينقضى ، وكانت صلوات الجنازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر • ولمح الأب بائيسى الأب جوزيف قرب التابوت ، فحل محله فى قراءة الانجيل • ولكن ما ان دقت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق • وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفا مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل التافهة التى رافقته قد ظلت حيةً الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت • وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بى : انه ليشق على نفسى أن أتكلم عن هذا الحادث المقلق الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الامر طبيعى ويمكن فهمه جدا ؟ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتما لولا أنه قد أحدث تأثيرا قوياً جدا — فى اتجاه محدد تحديدا واضحا — فى نفس وقلب البطل الرئيسى (وان يكن البطل المقبل) الذى تدور عليه أحداث هذه القصة، أعنى أليوشا • لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطرابا رهيبا ، والى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى أوشك أن يهزه الحادث ، قد خرج من الأزمة منتصرا ، ثابتا منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد •

وهأناذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشيخ — وهى حجرة الاستقبال — فان أحد الأشخاص الحاضرين سأل ألا يُستحسن فتح النوافذ • ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسؤال

عابر وهو يشعر بما يشبه الخجل ، قد ظل بغير جواب ولم يكد ينتبه اليه أحد • والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق فى أبعد تقـدير أكثر من أن يرفعوا أكتافهم مشفقين (أو أن يبتسموا محتقرين) ازاء مايتصف به الذهن الذى أمكن أن تخطر له من قلة الايمان وشدة الطيش وفرط الغباوة • أليس ما يُنتظر من قداسة الشيخ هو نقيض هذا تماما ؟ ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداءً من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها فيأول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين شعورا لا يكادون يصدقونه؟ غير أن الظاهرة التى أُدركت ادراكا غامضا فى البداية قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضـــوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى الصومعة على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه تقريبا فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة وحزن مبرّح • وانتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضـطرابا فى النـــاس ، المؤمنين منهم والملحدين على السواء • لقد انتصر الملحدون • وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضا ، لأن الانسان « يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار » كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه • وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفةً فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؛ فمـا حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فتئت تشتد بعد ذلك • عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصوره فى أى ظرف آخر من

الظروف • وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، والفوضى التى أطاشت العقول ، وما نشأ عن ذلك لدى رهبان الدير من موقف غير لائق • كثيرا ما حدث فى الماضى أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن رجالاً يعظمهم جميع الناس ويخافون الله ، قد ماتوا أتقياء أنقياء ، ثم لوحظت مع ذلك حول جثمانهم المسكين بعض الافرازات ، كما يحدث هذا لجميع الموتى فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً • صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضا بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك فى نفوس الرهبان أثرا عظيما ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التى تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدّرون أن مزيدا من المجد سيتحقق فى المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين فى الساعة التى يشاء فيها الله ذلك • فهكذا كان شأن القديس يعقوب مثلاً ، الذى عاش مائة وخمس سنين والذى بقيت ذكراه حية فى ديرنا • لقد كان يعقوب ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التى كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الى زيارته قبل سائر القبور ، مشيرين بكلام يحمل معانى السر والاعجاب الى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما لمح الأب بائيسى ، فى الصباح ، أليوشا) • وعدا ذلك الراهب الذى توفى منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيرا ، وخلّف فى الدير ذكرى كهذه الذكرى • انه الشيخ العظيم

فارسونوف الذى خلفه الأب زوسيما ، والذى كان يعده جميع الحجاج الذين يزورون الدير « يوروديفوى » . ان الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ، وأنه دُفن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه . حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته كان ينشر روائح عطرة . ومع ذلك ، رغم هـذه الذكريات الموحيه ، فان من العسير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الرهبان فى ذلك اليوم الى أن يقفوا موقفا يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسيما . أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة ، ولكنها تعمل جميعا فى اتجاه واحد . ويحسن أن نذكر ، من بين هذه الأسباب ، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد بدعة مشئومة ، وهى عداوة قد ترسخت عميقةً فى نفوس عدد كبير من الرهبان . وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت تثيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها . فلئن أيقظ الشيخ تعلقا عميقا به ، ولئن عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ، رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حُسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألدّاء شيئاً بعد شىء ، فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها . ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف رهبان الدير فحسب ، بل بين غير رجال الدين أيضا . انه لم يسىء يوما الى أحد ، ولكن الناس كانوا يتساءلون : « لماذا يُعدُّ قديساً عظيماً ؟ » . وكان هذا السؤال كافياً بترديده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفىء جذوته . ذلكم فى رأيى هو السبب الذى جعل كثيرا من الرهبان يبتهجون ابتهاجا

شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هـذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم. أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدسونه الى ذلك الحين ، فقد أحسوا بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالتهم هم أنفسهم، واهانة لحقت بهم شخصيا . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة : منذ اللحظة التي ظهرت فيها أولى علائم التفسخ ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون حجرة المتوفى ، الهدف الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب ؛ فبعض هؤلاء يهزون رءوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون نفسهم حتى عناء اخفاء الفرح الخبيث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شيء . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هـذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الحجرة رجال علمانيون ينتمي أكثرهم الى الأوساط المثقفة ، فاما أن الفضول هو الذى يدفعهم الى ذلك ، واما أن أصدقاءهم قد أرسلوهم يستطلعون الخبر اليقين . أما أبناء الشعب فقد كانوا أميل الى النأى والابتعاد ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار موظفى الدولة . يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين

الفضوليين لمَّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحـــين ، فما زال الأب بائيسى يستطيع أن يتلو آيات الانجيل جهراً بلهجة ثابتة وهيئـة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئا ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئا خارقا يحدث • ولكن ها هى ذى ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه • ان أصحابها يبدونها خجلة وجلة أول الأمر ، فهم يهمسون بها همساً ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجرأ فاذا هو يسمع هـذه الملاحظة بوضوح : « يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائما حكم البشر » • ان الذى جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علمانى متقدم فى السن موظف فى البلدية يعد على جانب كبير من التقى والورع • على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الآذان منذ وهلة طويلة • ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلا من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الأوهام ، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يفصحون عن هذه الفكرة وقـد بدت فى وجوههم امارات النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحا من دقيقة الى دقيقة • وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن • « كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ » كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن فكان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : « لقـد كان جسمه نحيلا هزيلا معروقا ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الرائحة ؟ » ـ « معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عـــدم رضاه » • وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغـــير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائما بعد وفاة خاطئ فانها لا تحدث فى العـادة الا بعد أربع وعشرين ســـاعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة •

أما وأن تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعه فلا بد أن نرى فى ذلك عملاً من أعمال الله واشارة آتية من السماء • ذلك برهان كان يبدو مفحماً • ولقد حاول الراهب الكاهن جوزيف ، أمين مكتبة الدير الذى كان صفى الشيخ وأثيره وكان رجلا دمثاً لطيفا رقيق الحاشية ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جوابا على تلك الأقوال المسيئة • قال فيما قال : « ان هذه الآراء لا يؤخذ بها فى كل مكان وان ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وانما هو مجرد ظن • ففى مراكز الاورثوذكسية الصافية النقية مثل مونت آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثه ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائيه على مجد القديس وانما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوى الأجساد زمنا طويلا فى الارض وبعد أن تكون قد تفسخت فى التراب تفسخاً تاماً فاذا صارت العظام بمضى الزمن الى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلا قاطعا على أن الرب قد مجد المتوفى أما اذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذى يُبنى عليه الرأى فى مونت آثوس وهو مكان مقدس جدا حافظت فيه الأورثوذكسية فى كل الأزمان على صفائها ونقائها » • بذلك ختم الأب جوزيف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت فى أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : « تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها » • وأضاف آخرون : « سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة فى زماننا هذه أفينبغى لنا أن نقلدها جميعا » • وقالت طائفة ثالثة فى استهزاء : لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان مونت آثوس وقد نسى هؤلاء كل شيء ابان الحكم التركى وفسدت الاورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل • يضاف الى ذلك أنهم

لا يملكون حتى نواقيس » • انصرف الأب جوزيف حزينا • ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه • وما كان أشد اضطرابه اذ ثبت له أن ريح عداوة قد هبت على الرهبان وأن روح التمرد على نظام المشايخ قد عاد الى الظهور • وصمتت جميع الاصوات الرزينة المعتدلة شيئا بعد شيء على أثر هزيمة الأب جوزيف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا زوسيما وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بحماسة شديدة ، ذعروا على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى• أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهيا وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً : « عند موت الأب فارسونوف لم تلاحظ علائم تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة • على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخا وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلا صالحاً » • وانطلقت الألسن من عقالها فهى لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون : « كانت تعاليمه خطأ • كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا مصدر حزن وينبوع دموع » • وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء : « كان رجلا عصريا • كان لا يؤمن بنار جهنم » وهؤلاء حساد يقولون : « لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً • كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاى مربب الكرز • كان يتلذذ بذلك • كثيرا ما كانت سيدات ترسل اليه حلوى ومربباً • أيليق بناسك أن يشرب شاياً ؟ وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حانقين : « كان متكبراً • كان يظن نفسه قديسا • كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجبا له على الآخرين » • وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة

شرسة : كان يمتهن حرمة سر الاعتراف» ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت • كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الاذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم أعنتها وذلك يثير القلق كثيرا لأن لآراءهم تأثيرا قوياً فى الرهبان الشبان الذين ظلت أفكارهم فى هذا المجال رجراجة • كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من سان سيلفستر ، يصيخ بسمعه الى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً سديداً متنهدا تنهدا عميقا ، هازاً رأسه ، قائلا لنفسه : « يبدو أن الأب تيرابونت كان على حق أمس » • وهدا هو الأب تيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار •

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً حجرته الخشبية الواقعة قرب خلية النحل وانه كان يغيب عن الكنيسه فترات طويلة • ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجه أنه انسان ساذج برىء والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقيا ان صح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضى أياما كامله وليالى طويلة فى الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان : « انه أقدس منا جميعا وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيرا مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك• ان له فرائضه الخاصة التى يوجبها على نفسه•لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تحاشيا لاحتجاجات الرهبان ودمدماتهم وكان معروفا لدى الناس أن الأب

تيرابونت يكره الشيخ زوسيما • ولم تلبث الشائعة التى تقول : « ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبيعه فى تفسخ جنمان الشيخ » ، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت الى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذى زاره البارحه وخرج من عنده مذعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ • وقد ذكرت أيضا أن الأب بائيسى الذى ظل يتابع قراءة الانجيـــل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذى كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ماكان يجرى خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك فى قرارة نفسه الشىء الأساسى مما كان يجرى خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها • لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما أوتى من بصيرة نافذة وفكر سديد غير أن ضجه خارقة آتية من الممر قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهى ضجة لا يخفى فى هذه المرة أنها تنافى اللياقة • انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب تيرابونت فى العتبـة • ان عددا كبيرا من الرهبـان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب تيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا فى أسفل درجات المدخل فهم يُرون من الغرفة • لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب تيرابونت وما سيفعله • ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب تيرابونت لم يجىء عبثاً وانهم ليشعرون بشىء من الارتياع رغم جرأتهم وجسارتهم • توقف الأب تيرابونت فى العتبة ورفع ذراعيه فرئيت عندئذ العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغير الذى لم يستطع مقاومة الاغراء وجازف وحده فاجتاز درجات المدخل وراء الاب تيرابونت ليرى ما سيحدث من كثب ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجىء حين انفتح الباب مقرقعاً • صرخ الأب تيرابونت بقوة وهو رافع ذراعاً قائلاً :

ـ اخرجوا من هنا يا شياطين •

وأسرع يرسم اشارات الصليب كبيرةً وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار • ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب تيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً فى أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقـــول كلمة أو أن يجلس فى قاعة قبـــل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

ـ ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! غوروا أيها الأبالسة لأننى أطردكم •

هكذا كان يزأر الشيخ تيرابونت •

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزنره حبل وكان صدره الأشيب الشـــعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أما قدمـــاه فكانتا حافيتين تماماً واذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه • توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب تيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيرا وهو يلقى عليه نظرة قاسية :

ـ ماذا جئت تصنع هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ فيم بث الفوضى فى الرعية المسكينة ؟

صرخ الأب تيرابونت يقول منقلب السحنة :

ـ لماذا جئت ؟ تريد أن تعرف لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت لأطرد ضيوفكم ، لأطرد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة فى غيابى • سأطردهم جميعا بالسياط •

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون انفعال :

ـ تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه !من ذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه قديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟

قال الأب تيرابونت مرعداً :

ـ أنا لست بقديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكننى أنا لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتى كاله • ان الناس فى أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس ويجحدونه • ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الرهبان المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت فى زوايا الجدران ؟ أما قديسك فانه يتفسخ الآن وتلك فى نظرنا اشارة من السماء •

والحق أن فى حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فان راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان فى منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره فى اليقظة أيضا ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام • فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواء" ونصحه فى الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الاكثار من التعبد • وقد شُده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازين رءوسهم استياء" واستنكاراً • وكان الأب تيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد « خارقا » فى حالة من هذا النوع •

قال الشيخ بائيسى بلهجة صارمة :

ـ ابتعد أيها الأب ! ان الحكم لله لا للبشر وان « الاشارة الآتية الينا من السماء » يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها • ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً •

واستأنف الراهب المندفع يقـــول وكأنه فقد كل سـيطرة له على نفسه :

ــ كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته • ذلك هو معنى الاشارة السماويه ، هذا واضح وضوح النهـار ومن الاثم أن نحاول انكاره • كان يتنعم بالحلوى التى كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتى يزرنه • كان يملأ بطنه بالشاى ويحشوه بالعصائد• أما روحه فقد كانت تفيض كبرياءً وزهوا • ذلك هو السبب فى أن الرب قد أرسل اليه هذا العار •

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

ــ أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقـاك ولكنك ترسل الكلام جـزافا بغير روية كشاب علمـــانى يعوزه النضج والتأمل والتدبر •

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل :

ــ اخرج من هنا •

قال الأب تيرابونت مرتبكاً بعض الارتباك ولكن دون أن يهـــدأ غضبه :

ــ سأمضى ! طيب ••• أنتم رجال علماء • أنتم بكبرياء عقلـكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتى • لقد جئت الى الديرأمياً • والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين • لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصوننى أنا الضعيف من دنس عقلكم •••

ظل الأب بائيسى هادئا ينتظر التتمة بصلابة وثبات •

صمت الأب تيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على حين فجأة و ذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول بصوت ضعيف وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

ـ غداً ينشدون له النشــيد العظيم « ربنا هب انا من لدنك عونا واحمنا » أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة * •

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع وتستثير الشفقة • ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

ـ ضيَّعتكم الكبرياء والثقة ! ما هذا المكان الا عدم !

واستدار على عقبيه فجأة وهو يحرك ذراعيه وهرول يهبط درجات السلم الصغير • ظهر التردد على الجمهــور الذى كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فورا وتوقف آخرون اذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحا وأن الأب بائيسى الذى شــيع الأب تيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتا ولكن العجوز المنــدفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته :

ـ انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس •

كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الكوكب •

ثم جعل وجهه الى الأرض وأخذ يبكى بكاء طفــل مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض • هرع الجميع اليه وسُمع صراخ وسمع بكاء عطف فكأن حمياه قد انتقلت الى الجمهور • وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفظ ولا اعتدال :

ـ هذا هو القديس الحق • هذا هو الصالح الحق •

وأضاف آخرون يقولون بغضب شديد :

ـ اليه انما يجب أن تسند المشيخة •

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

ـ لن يقبل أن يصبح شيخا • سيرفض هو نفسه • لن يرضى أن ينضم الى هذه البدعة اللعينة • ما هو بمن سيقلد هذا الجنون •

لا يدرى أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصواته فى تلك اللحظة منادية الرهبان الى القداس • رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب تيرابونت ورسم اشارة الصليب كبيرةً عريضة ليحمى نفسه من الشر الخفى واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة لا اتساق فيها • تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة • وعهد الأب بائيسى الى الأب جوزيف باتمام القراءة وابتعد هو أيضاً • ان الصرخات المحمومة التى أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيرا ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش من هذا ووقف يتساءل : « ما مصدر هذا العناء الذى يرهقنى » • فما كان أشدّ استغرابه حين أدرك فورا أن سبب ذلك انما هو حادث يبدو فى الظاهر تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا الذى كان يبدو مضطربا اضطرابا شديدا منفعلا انفعالا قويا (انه يتذكر هذا الآن) فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه • تساءل الأب بائيسى مدهوشا دهشة قوية : « هل يمكن حقا أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟ » • وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه • كان يغذ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة •

التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الراهب العجوز من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى فى نفسه من تبدل .

هتف الأب بائيسى يسأله :

ـ أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

ـ أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق الى الأرض من جديد . لقد وقف موارباً ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه . وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه .

قال الأب بائيسى :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداس .

ولكن أليوشا ظل لا يجيب . وتابع الأب بائيسى أسئلته :

ـ ألعلك تترك الدير ؟ أبدون أن تنبئنا ! أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشا يطلق على حين فجأة ضحكة صغيرة مصنوعة ، ويشخص ببصره الى الراهب الذى كان يسأله . ان هناك شيئاً غريبا بل غريبا جدا فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد به اليه أثناء موته مرشده الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه المحبوب . ها هو ذا يحرك يده فجأة ، دون أن يجيب ، باشارة تنم عن أنه أصبح لا يهمه أن يرعاه أحد . ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة .

دمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة :

ـ ستعود .

٢

دقيقة كهذه الدقيقة

لاشكّ في أن الأب بائيسى لم يخطىء حين قدر أن « ابنه العزيز » سيعود ؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التى كان عليها أليوشا . ولكن يجب علىّ أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيرا والذى ما يزال فى ريعان الشباب ، لكان ذلك صعبا علىّ كل الصعوبة . اننى أستطيع طبعا أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذى ألقاه عليه الأب بائيسى «أتراك أصبحت فى صف من يشكون؟»، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : « لا ، انه لم يكن يشك ! » . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقيض هذا تماما : لئن شعر بقلق فذلك لأن ايمانه كان كبيرا . لقد قلق أليوشا قلقا شديدا ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعدّ ذلك اليوم المشئوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو سئلت : « هل يمكن حقا أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشىء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟ » ، لأجبت بغير تردد : « نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه » . ولكننى أرجو القارىء مع ذلك أن لا يتسرع

كثيرا فيستهزىء بصفاء قلب بطلى • لست أميل من جهتى الى أن ألتمس له سماحة القارىء ، أو أن أنتحل لايمانه الساذج عذرا من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصّل من تقدم فى العلوم فى المدرسه ، بل أقف الموقف المضاد بغير تردد فأقول : اننى أشعر نحو بساطته باحترام كبير• صحيح أن شبابا غيره ، شبابا أكثر تعقلاً وأشد حذرا فى اندفاعات روحهم ، شبابا يحبون حبا حاراً ولا شك ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابا يحسنون التحكم بحركات قلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعا لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابا كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى • ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع قد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأيى أنبل وأكرم من أن يكون عاجزا عن الشعور بمثل هذه العواطف • وهذا يصدق خاصةً على الشباب ، لأن الشاب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة • ذلك رأيى أنا على الأقل • رب أناس رصينين يعترضون قائلين : « فالى أين نصير اذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء ؟ ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة » • وانى لأجيب هؤلاء قائلاً : « لقد كان أليوشا يؤمن بحرارة وحماسة ، كان يؤمن ايمانا مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر ببالى أن ألتمس له بسبب ذلك أعذارا • • •

ومع ذلك ••• مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلى أو أن ألتمس له الأعذار ، فاننى أرانى مضطرا ، رغم كل شىء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى • اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب • ان أليوشا لم ينتظر ، نافد

الصبر ، ظهور ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش . انه لم يكن فى حاجة الى ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوتا مظفرا (لا هذا على كل حال)، ولا ليتاح لفكرة قائمة فى ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها . أبدا ! ان ما كان يعنيه فى هذا الأمر قبل كل شىء آخر ، بل ودون كل شىء آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده، أعنى شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويبجله . ان ما فى قلبه الفتى من قدرة على الحب ، وان ما كان يشعر به نحو « جميع الأشياء وجميع الناس » من مودة وعاطفة وحنان ، قد تركز فى تلك الفترة ، أعنى أثناء تلك السنة ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن ولكنه كان قد أصبح - ربما بشىء من الافراط - القطب الوحيد الذى يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسِّد فى نظره أرفع مثل أعلى انسانى ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشواق نفسه كان لابد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتنسيه فى بعض الأحيان « جميع الأشياء وجميع الناس » (سوف يتذكر فيما بعد أنه فى ذلك اليوم الحزين قد نسى نسيانا تاما أخاه دمترى الذى كان يرغب أمس فى رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد المائتى روبل الى والد ايليوشا ، قد غاب عن ذهنه تماما) . ولكننى أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هى ما كان أليوشا فى حاجة اليه ، وانما كان أليوشا فى حاجة الى « عدالة عليا » ، وهذه العدالة العليا قد أوذيت فى نظره ايذاءً شديدا . فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا . لقد كان هذا طعنةً موجعة رهيبة . ليس بالأمر المهم أن تكون هذه « العدالة » قد ترجمت فى ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعى ، توقعاً لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب

جثمان القائد الروحي الذي كان يبكيه . ألم تكن هذه المعجزة هي ما يأمله جميع الناس في الدير ، وفي طليعتهم أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه ، كالأب بائيسي مثلاً ؟ لذلك لم يتردد أليوشا في أن يعبِّر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات . وقد نضج هذا التوقع في نفسه خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة . ولكن ظمأه كان الى عدالة لا الى معجزات ! وهذا هو الانسان الذي كان في عاطفة أليوشا فوق جميع البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزى بدلاً من أن ينال المجد الذي يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقا ؟ تلكم هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب . كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيرا . كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أي شيء خارق للطبيعة ، تلبيةً لما يتوقعه جميع الناس . ولكن لماذا يجلَّل الشيخ بالخزى والعار ، لماذا هذا التفسخ الذي يحدث قبل الأوان ، و « يسبق الطبيعة » كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ هل كان ضروريا أن تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا في هذا التفسخ « اشارة » يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب تيرابونت ؟ ومن ذا الذي خوَّلهم الحق في أن يعمدوا الى استدلالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية في هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل في اللحظة التي كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون (في رأي أليوشا)

حتى لكأنه استسلم هـــو نفسه أمام قوى الطبيعة المـــاديه العمياء التى لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا • كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه في العالم ، وهـــذا الانسان هو من جُلِّل بالخــزى والعار الآن ، وغُضَّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل • انني أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يدمدم هذه الدمدمة ، على أنه طائش العقل مخطىء الرأى ، ولكنني أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شئتم) : انني ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه القصد والاعتدال فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مبكر لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتىً مراهق ، فمتى عساه ينتصر فى هـــذا لعالم ؟ على أننى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابرا فى تلك الدقيقة القلقة الأليمة من حياته • ولعل كلمة « عاطفة » ليست هى الكلمة المناسبة • هو « شيء » كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحـــديث الذى قام أمس بينه وبين ايفان والذى يعاود فكره فى هذه اللحظة الحرجة بالحاح محاصر • لست أُعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أُصـــابها أى تزعزع ••• لا ••• انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالهه وان كان يدمدم متذمراً فى بعض اللحظات • ولكن ذلك الاحساس المقلق السيء الذى شعر به بعد ذلك الحديث رأساً قـد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ، وأخذ يحاول الخــروج الى ســطح شعوره بقوة ما تنفك تتزايد •

هبط المساء أثناء ذلك ، وخيَّم الظلام • وهذا راكيتين الذى كان

يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من الصومعة الى الدير يلمح أليوشا على فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لا ي فكأنه نائم . اقترب ر كيتين منه وناداه :

ــ أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقا أن ...

كذلك قال راكيتين مدهوشا ؛ ولكنه أمسك فجأة عن الكلا أن يتم جملته .

كان يريد أن يقول : « أيمكن حقا أن تصير من ذلك الى ه الحال ؟ » .

لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين، ولكن راكيتين أدرك من يسيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه . استأنف ر يقول وقد أخذت الدهشة التى يعبر عنها وجهه تستحيل شيئا فشي ابتسامة ساخرة :

ــ ماذا بك ؟ ماذ دهاك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عنك ساعتين فى كل مكان . لقد اختفيتَ من هناك بغتةً . فماذا تصنع أهى سخافة جديدة ؟ أنظر الىّ على الأقل ...

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة . لم يبكى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسمات وجهه ، وكان فى عينيه على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وانما هو يحدّق الى شىء فى - قال راكيتين :

ــ هل تعلم أن وجهك قد تغير تمـــاما ؟ لم يبق فيه أثر من الودعة التى كنت توصف بها ؟ أتراك غاضبا من أحد ؟ هل أساء أحد ؟

قال أليوشا دون أن ينظر اليه أيضا ، قال وهو يحرك يده باشارة تعبر عن التململ والتبرم :

ـ انصرف !

قال راكيتين :

ـ أوه ! أوه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا الملاك ؟ طيب يا أليوشا ... فى وسعك أن تعتز بأنك أدهشتنى ... أقول لك هذا صادقا كل الصدق . لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أدهش من شيء هنا . على أننى كنت أظنك انسانا مثقفا ...

أخيرا رفع أليوشا اليه عينيه ، غير أن فى هيئته الآن ذهولاً فكأنه لم يفهم جيدا ما قاله صاحبه . وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به دهشة شديدة من جديد :

ـ أكلّ هذا لأن صاحبك العجوز قد مات ؟ أكنت تظن حقاً اذن أنه كان سيحقق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت حانق :

ـ كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن ! ... أيكفيك هذا الآن ؟

ـ ولكننى لا أريد شيئا يا عزيزى ! عجيب ! ان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه . لك ما تشاء على كل حال ... هأنت ذا اذن غاضب من الله ، ثائر عليه ثورة معلنة ! كموظف مستاء من أنه نسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال! هذا أنتم ! ...

تفرس أليوشا فى راكيتين طـــويلاً ، وهو مغمض عينيــه نصف اغماض ، وومض فى عينيه برق ••• غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظا من راكيتين • ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ــ لست ثائرا على الهى ، ولكننى « أرفض قبول الخليقة » • ذلك كل شىء •

فكر راكيتين لحظة فى هذا الجواب ثم سأله :

ــ ترفض ؟ ماذا تعنى ؟ ما هذا الكلام المضحك أيضا !

لم يجب أليوشا • قال راكيتين :

ــ كفانا كلاما فى ترهات • لنفكر فى الأمور الهامة : هــل أكلت اليوم ؟

ــ لا أتذكر ••• يبدو أننى أكلت •••

ــ تدل هيئتك على أنك فى حاجة الى استرداد قواك • ان منظــرك يثير الشفقة عليك • قيل لى انك لم تنم طول الليل • يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعا كبيرا • ثم حـــدث ذلك الهرج كله ، وقامت تلك الاحتفالات والطقوس كلها ••• ان فى جيبى بعض المقـــانق ، حملته احتياطا حين جئت الى هنا • ولكن أظن أنك لا تأكل المقانق ، أليس كذلك ؟

ــ هات المقانق •

ــ هيه هيه ••• هذا أمر جديد ••• هذه ثورة أصولية ، ثورة بمتاريس ! هيمْ ••• ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب ••• تعال معى الى بيتى ••• أنا أيضا فى حاجة الى قليل من الخمرة ••• اننى مرهق ••• أنت لا تشرب خمرة ، أليس كذلك ؟ اللهم الا أن ••

ـ سأشرب خمرة •

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

ـ هه ؟ ••• هذا كثير ••• المقانق سلمنا بها ••• ولكن أخمرة أيضا ؟ هذه أمور عظيمه حقا • يجب أن لا تفوت الفرصة • هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين •

ـ لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش هو • بالمناسبة : لقد سافر ايفان فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكتراث :

ـ أعرفه •

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا لحظة قصيرة • لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أى ابطاء ، هو الزام أخلاقى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خدره ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته • ومع ذلك فان هذه الواقعة التفصيلية ستعاود ذاكرته كثيرا فيما بعد •

ـ لقد نعتنى أخوك المهذب اللطيف ايفان ذات مرة بقوله « تافه لبرالى لا موهبة له » • أما أنت فقد أسمعتنى فى يوم من الأيام أننى أفتقر الى « الاستقامة » • طيب ! سنرى قريبا ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) •

ثم أردف يقول بصوت عالٍ :

ـ لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأسا الى المدينة مجتازين الممر

الضيق ... هيم ! وسأثب لحظةً الى منزل السـيدة هوخلاكوفا أثناء الطريق . تصور أننى قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فاذا هى تجيبنى منذ قليل فى بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هـذه السـيدة تعشق كتابه البطاقات) : « انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجّـل كالشيخ زوسيما ... أن يصدر عنه ... مثل هذا السلوك ! ... » . هذا ما كتبته بالحرف : « السلوك » ! هى أيضا حاقدة عليه شخصيا بسبب ما وقع . هذا أنتم !

قال راكيتين ذلك ثم صاح فجأة يقـول وقد توقف عن السـير ، وامسك أليوشا من كتفه ، وحدّق اليه بعينين متفرستين :

ـ هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين فى تلك اللحظة فكرة جـديدة انبثقت فى ذهنه ؛ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصـدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هى فى نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد غير مطمئن :

ـ أليوشا ، عزيزى ! هل تعلم أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً ؟

ـ نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شىء .

فقال راكيتين وهو يرتجف لهفه وخشية :

ـ لنذهب الى جروشنكا ! هل توافق ؟

فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد :

ـ لنذهب الى جروشنكا اذا أردت !

كاد راكيتين أن يثب الى وراء من فرط ما بدت له هـــذه الموافقة السريعة مستغربة . وصاح يقول مذهولا :

ـ هكذا ؟ عظيم ! ...

ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفســـه ، فأمسك أليوشا من ذراعه ، وأسرع يجره نحو الممر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره. وسارا صامتين ، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكّر ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول . غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلا :

ـ ما أعظم ما ستشعر به جـــروشنكا من سرور برؤيتك ! أوه ! لسوف تكون سعيدة !

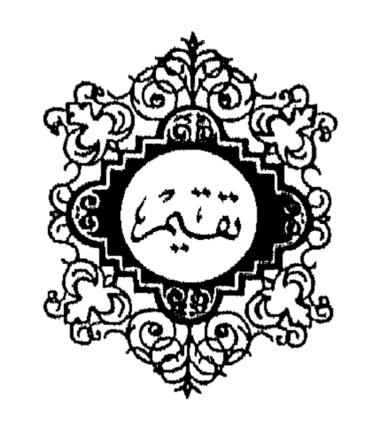
ولكنه سرعان ما صمت .

على أن راكيتين لم يحاول أن يجذب أليوشا الى منزل جروشنكا ليسر جروشنكا . ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له . ولقد كان فى تلك اللحظه يخضع لباعثين اثنين . فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم : انه يريد أن يشـــهد « تدنس الرجل الصالح » ، انه يريد أن يرى « سقوط » أليوشا من « القداسة الى الاثم » ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن . وأما الباعث الثانى فهو هدف مادى سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسنأتى على ذكره فيما بعد .

قال راكيتين فى سره وهو يشعر بفرح خفى خبيث : « اذن لقـــد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة فى حياته . ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ، لأنها تعدنا بمنافع كثيرة وفوائد جمة » .

٣

البصلة



جروشنكا فى قلب المدينة قرب «ميدان الكنيسة» فى منزل المرأة موروسوفا ، وهى أرملة تاجر أجَّرت جروشنكا جناحا مبنيا من خشب فى فناء منزلها ؛ والمنزل من حجر ، وهو واسع له طابق فوق الطابق الأرضى ، لكنه متسخ ليس فى مظهره كثير من رواء . وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين فى السن هما أيضا ؛ وهى تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء ، والناس فى المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكنى جروشنكا فى منزلها (منذ أربع سنين) الا ارضاءً لقريبها التاجر سامسونوف الذى يميل الى الشابة ويرعاها ويحميها . والناس فى المدينه يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة ، انما أراد فى أول الأمر حين أسكن أثيرته فى منزل موروسوفا ، أن يجعلها تحت اشراف العجوز اليقظة التى كلفها بأن تراقب سلوكها . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس فى حاجة الى أن يراقَب ، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا ، ولا تراها الا نادرا ، ولا تزعجها بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصى والتفتيش . ولقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذى جاء فيه التاجر العجوز الى هذا المنزل بالصبية الخجول التى لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ، والتى لقيها فى مركز الاقليم وكانت عنـــدئذ نحيلة الجسم ضعيفة البنية

كثيرة الوجوم حزينه النفس • ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم • وكان الناس فى مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضى الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة ويعوزه الوضوح ، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيرا ، حتى فى العهد الذى أصبح فيه أمر « الحسناء الرائعة » ، أجرافين ألكسندروفنا ، يهم عدداً كبيراً من الاشخاص عندنا • كان يقال ان ضابطا مجهولاً قد أغراها وأغواها فى السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس • وكان يزعم أيضا أن جروشنكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمى الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت قسيس كان محالاً على الاستيداع ، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل • المهم ان اليتيمة الحساسة المذلة المسكينة قد استحالت فى غضون أربع سنين الى حسناء روسيه بضه التجسم ، زاهيه الألوان ، جمة النشاط ، جريئة جسور ، لا تخلو من وقاحه ، حاذقة فى شئون الأعمال ، شرهة الى المال، بخيلة حذرة فى آن واحد • وكان يقال أيضا انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيرا ، بوسائل ليست شريفة أمينة دائما • على أن هناك أمرا يجمع الناس عليه : هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى منها بشىء خلال تلك السنين الأربع • والأمر محقق لا ريب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا الى الحظوة بنعمها ، ولا سيما فى السنتين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطائل ، وباءت جميع محاولاتهم بالاخفاق ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به السيدة من عزيمة صلبة وروح ساخرة • وقد عُرف أيضا أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ

سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» • ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشـــترى بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملة ، أى تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت • وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت ساقاه وأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ عام ، رجـــلاً أرمل يضطهد أبناءه ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمن عليها فى أول الأمر الا بما « يسد الرمق » أو بما يوجبه « الصيام الكبير » على حد تعبير الساخرين المستهزئين ، الى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضـــل ما أوحته اليه من ثقـة عظيمة بوفائها له • ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُّ ملامحه البخل والقسوة الشديدة • فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه ــ حتى أصـبح لا يستطيع الاستغناء عنها ــ فانه لم يترك لها مالاً كثيرا ؛ ولو قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه فى هذا المجال • على أنه قـد أعطاها أثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينـة بذلك دُهشوا جميعا • قال لها وهو يعطيها ثمـــانية آلاف روبل « أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هـذا المبلغ باستثماره • ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقه عليك لا عالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشىء فى وصيتى بعد مماتى »• وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنـــائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم ، معاملة الخدم • أما جروشنكا فقد أبى حتى

أن يأتى على ذكرها فى وصيته • هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد• ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا فى مقابل ذلك بنصائحه فى استثمار رأس مالها الشخصى الصغير » ، ودلّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة • فلما تولّه فيدور بافلوفتش بحب جروشنكا التى عرفها بمناسبة صفقة طارئة ، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن فى حسبانه هو نفسه الى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً ، فان العجوز سامسونوف الذى كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته ، لم يزد على أن ضحك من ذلك • ان من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؟ ويبدو أن العجوز كان هو الانسان الوحيد الذى تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة • ولكن حين توله دمترى فيدوروفتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا ، انقطع حاميها العجوز عن الضحك ؟ بل لقد اعتقد أن من واجبه أن ينبه المرأة الشابة ناصحاً محذرا ، فقال لها بلهجة جادة قاسية : « اذا كان عليك أن تختارى بين الاثنين ، الأب وابنه ، فاختارى الأب ، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسبا منذ البداية • أما الكابتن ، فدعيه ، لأنه لا يناسبك • » • بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحس بوشك نهايته ، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر • ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن ، رغم أن أشخاصا كثيرين كانوا فى ذلك الوقت على علم بالمنافسة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة • أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا فى الدعوى (بعد الكارثة التى سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافين ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمترى فيدوروفتش الا خوفاً ، لأنه كان قد « هدّد بقتلها » • ان لجروشنكا خادمتين : احداهما

طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمنابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة العجوز • وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا • انها تشغل فى الجناح ثلاث غرف أثاثها من خشب الأكاجو ، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضا ، وهو من طراز أثاث عام ١٨٢٠ •

حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيم ، ولكن الغرف لم تشعل فيها الأضواء بعد • كانت جروشنكا مضطجعة فى الصالون على أريكة طويلة ثقيلة لها مسند من خشب الأكاجو ، قد غطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتقبت فى عدة مواضع • ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت شعرها، مرتدية ثوبا من حرير أسود ـ كأنها تنتظر زيارة أحد ـ ملفعة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضا قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب • واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر نفاداً محموما • وكان وجهها يبدو شاحبا ، وكانت عيناها تسطعان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدمها يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار • فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد • لقد سمعاها ، وهما فى الممشى ، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع :

ــ من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تهرع الى سيدتها على الفور لتقول لها :

ـ ليس هو • هما شخصان آخران •

دمدم راكيتين يقـــول وهو يمسك أليوشـا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

ـ ماذا دهاها ؟

كانت جروشنكا واقفه قرب الأريكة وهى ما تزال مذعورة بعض الشىء • ن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستناوى قـــد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشنكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم ترفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتهما •

قالت جروشنكا :

ـ هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روّعتنى ! ومن هذا الذى جئتنى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك صاحت جروشنكا حين رأت أليوشا •

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصـــدر الأوامر نيابةً عنها :

ـ هلا أمرت باشعال الشموع •

ـ طبعا طبعا ••• الشموع ••• الشموع ! فينيا * ، ائته بشمعة !•• لقد أخترتَ اللحظة المناسبة لتجيئنى به !

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرةً أخرى وهى تومىء برأسها الى أليوشا •

ثم التفتت نحو المـرآة ، فتناولت الضـــفيرة المتهدلة بكلتا يديها ،

وأسرعت تثبتها على رأسها • كان يبدو عليها أنها غير راضية • قال راكيتين مستاءً :

ــ لعلنى جئت فى غير الأوان المناسب ؟

فقالت جروشنكا وهى تبتسم لأليوشا :

ــ كلا ••• ولكنك روّعتنى يا راكيتا ، هذا كل شىء • لا تخف منى يا عزيزى الطيب أليوشا • ليتك تعرف مدى سعادتى برؤيتك ، أنا التى لم أكن أتوقع مجيئك • أما أنت يا راكيتا فقد روعتنى منذ هنيهة ، لأننى ظننت أن ميتيا هو الذى كان يريد أن يقتحم بابى • لقد خدعته فى هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لى بأنه يصدقنى ، بينما كنت أكذب عليه • ذلك أننى زعمت له أننى سأقضى السهرة كلها عند عجوزى كوزمتش أساعده فى اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل • انه يعلم أننى أذهب الى كوزما كوزمتش مرةً كل أسبوع لتنظيم دفاتره ، نغلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بعداد ، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه علىّ من أرقام ، لأننى الانسان الوحيد الذى يوليه ثقته• ان ميتيا يعتقد بأننى الآن عند العجوز، على حين أننى مضطجعة هنا فى انتظار رسالة • اننى لأتساءل لماذا سمحت لكم فينيا بالدخول • فينيا ! فينيا ! أسرعى الى الباب الكبير ، وألقى نظرة على الخارج لتتأكدى من أن الكابتن لا يحوم حول المنزل • جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس علىّ • اننى أخاف منه خوفا قاتلاً !

ــ ليس هناك أحد يا أجرافين ألكسندروفنا ، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأننى أرتعد من الخوف أنا أيضا •

ــ هل خشب النوافذ مغلق يا فينيا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدلت الستائر الكثيفة بنفسها الى النصف) حتى لا يلاحظ نوراً فى النوافذ • اننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا •

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عالٍ رغم قلقها وخوفها ، وكان يُلاحظ فيها شيء من حماسة •

سألها راكيتين :

ـ لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجلةً معه ، فانما أنت تسيِّرينه بعصا فى العادة •

ـ قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغى أن يجيء ميتيا الآن • ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزمتش ، لقد أحسست بذلك • لا بد أنه أختبأ فى مكان ما وراء حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدنى • هذا أفضل • فهو فى هذه الحالة لن يجيء الى هنا • أما كوزما كوزمتش فقد ذهبت اليه فعلاً ، وقد رافقنى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له أننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحةً أن يجيء ليصحبنى فى العودة الى بيتى • عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راكضة • أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

ـ لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقبعة رائعة هذه القبعة التى أرى •••

ـ غريب أمرك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لا يؤخرنى أن أتحدث معكم • لقد تزينت استعدادا للحظة المناسبة •

ـ الى أين تذهبين ؟

ـ تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

ـ ياه ! أنت فرحة جدا . ما رأيتك على هذه الحال فى يوم من الأيام . لقد تجملت وتزينت كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !

كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشنكا .

قالت له :

ـ ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

ـ وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

ـ أنا ؟ شهدت حفلة رقصٍ مرةً واحدة فى حياتى . حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوّج كوزما كوزمنش ابنه . كنت أُشاهد الحفلة من أعلى الشرفة . على أننى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه الندرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا ملاكى الصغير ، اننى لا أصدق عينىّ ! كيف أمكن أن يجىء الى بيتى ؟ الحق اننى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدّق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئنى ، أعترف لك بذلك ! انك لم تختر اللحظة المناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة .. يا عزيزى ، يا شمس مضيئة ! اننى مذهولة ... ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئنى به أمس ، أو أمس الأول ... لا بأس على كل حال ... أنا سعيدة رغم كل شىء ! ... بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيراً من المجىء بالأمس ...

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة، وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد . كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك . كانت عيناها تسطعان ، وكانت تضحك،

ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكياسة • لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى فى وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبه ••• انه لم يرها حتى الآن الا نادراً ، وكان رأيها فيهـــا رأياً فظيعاً • كانت ثورتها المتوحشة على كاترين ايفانوفنا بالأمس قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، لذلك أدهشـه الآن أشدّ الدهشه أن يرى فيها انسانا مختلفا كل الاختلاف • انه رغـم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والتفرس فيها • كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسنا ملحـــوظا : ليس فى صـوتها الآن تلك النبرات الرخوة التى أصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة • هى الآن تشع طيبة وتنطلق على سجيتها طبيعية بلا تعمل ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطرابا شديدا •

قالت مدمدمة :

ـ رباه ! يا لها من مغامرات كثيرة فى يوم واحد ! اننى أتسـاءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هـــذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة •

قال راكيتين متدخلاً وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ أأنت تجهلينه الى هـــذا الحد من الجهل ؟ لا شك فى أنك لم تلحّى طوال هذه المدة فى طلب الاتيان به ، دون باعث يدفعك الى ذلك• لقد نقرت أذنىّ من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون لك فى ذلك هدف •

ـ كان لى هدف حقا ، ولكن لم يبق لى هدف الآن • فات الأوان• ماذا أقدم اليكما من طعام أو شراب ؟ لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل تعلم ذلك ؟ هلاّ جلست يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها •• أأنت جلست

اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى قبالتنا يا أليوشا ، مستاءً من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت . انه سريع التأذى ، هل تعرف هذا ؟ انه رهيب فى سرعة تأذيه ! (هذا ما أضافته ضاحكة) . لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعلنى أخيفك ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبتسم ابتسامة لاهية .

قال راكيتين :

ـ هو حزين لأنه أُغفل فى الترقيات .

ـ أية ترقيات ؟

ـ انتشرت من شيخه رائحة تفسخ .

ـ انتشرت ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن تغمز وتلمز ... أنا أعرفك ! اسكت أيها الأبله .

ثم قالت لأليوشا :

ـ هل تسمح لى يا أليوشا بأن أقعد على ركبتيك .. هكذا ؟

قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة .

ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى فى عطف وحنان . وأردفت تقول :

ـ سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتاى الصغير التقى . حقاً ... هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتيك ؟ ألا تغضب ؟ اذا شئتَ قمتُ .

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحـــرك • لقد سمع قولها : « اذا شئتَ قمتُ » ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول • ومع ذلك لم يحس بما يمكن أن يتخيله رجل مثـــل راكيتين الذى كان يتأمله بطرا • ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمَّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضـــحة لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصنا تحصينا قويا من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة • ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهيبة» لاتخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة فى المناسبات النادرة التى كان يمكن أن تخطر بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسةً على ركبتيه ، توقظ فى نفســـه شعورا مختلفا عن ذلك الشـــعور كل الاختـلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى يُحسن الى حالته الروحية حقاء انه ، خاصةً ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه •

هتف راكيتين يقول :

ـ كفاكِ كلاماً فى ترهات • خير من هـــذا أن تسقينا شيئا من الشمبانيا • لقدَ وعدتنى بذلك ، هل تتذكرين ؟

ـ صحيح • وعدتك بذلك• لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لأسقينَّه شمبانيا يومَ يجيئنى بك ، هل تفهم ؟ هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شمبانيا • فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجة التى تركهـــا ميتيا ،

اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك يا راكيتا ، فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر . أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً ، وهو يبذل جهـــدا كبيرا فى سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :

ـ ماذا حدث لك اليوم ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرينها ؟ هل الأمر سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :

ـ ليس الأمر سراً ، ثم انك على علم به .

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن أليوشا مع بقـائها قاعدةً على ركبتيه محيطةً بذراعها عنقه ، وقالت :

ـ سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى الجميل !

ـ أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا .

ـ هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الىَّ من هناك رســولاً . ذكر لى ذلك فى رسالة تلقيتها أمس . فأنا أنتظر الآن هذا الرسول .

ـ غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

ـ شرح هذا يطول . يكفيك الآن ما علمت .

ـ وذلك الشجاع ميتيا ؟ هل يعلم بالامر ؟

ـ لا يعلمه طبعا . وهو لا يشتبه فى شىء . لو علم لقتلنى . ولكننى أصبحت لا أخاف منه . اننى لا أعبأ بخنجـــره . اسكت يا راكيتا .

لا تحدثني بعد الآن عن دمتري فيدوروفتش . لقـــد أساء الىّ كثيرا . لا أحب أن أفكر في هذه الأشياء بعد اليوم . أوثر أن أهتم بأليوشا . انني أنظر اليه ، فيبتهج بذلك قلبي ... هلاّ ضحكت قليلاً يا ملاكي . كن أكثر فرحاً ، شاركني سعادتي ، اهزأ بحماقتي ... آ ... ها هو ذا يبتسم أخير ... لقد ابتسم لي ! ما أجمل هذه الوداعة في نظرته . هل تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت أخشى أن تزعل مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة . لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث ! هذا صحيح . ولكنني مسرورة رغم كل شيء بما حدث . كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية . (أضافت ذلك ضاحكة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة) . روى لي ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافي : « هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس » . لقد أرادت أن تعرفني أملاً في أن تسيطر عليّ . كانت تظن أنها ستغريني وستفتنني بفنجان من الشوكولاته ... لا ... لا ... لقد أحسنتُ صنعاً اذ تصرفت كما تصرفت . كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت مني ...

بهذا ختمت كلامها وهي تضحك ضحكة خفيفة .

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

ــ يبدو أنها تخشى رأيك حقا يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من دجاجة مثلك !

ــ هو في نظرك دجاجة لأنك ... لا ضمير لك ! هذا كل شيء . أما أنا فأحبه بكل نفسي ، هل فهمت ؟ هل تصدقني يا أليوشا اذا قلت لك انني أحبك صادقة مخلصة ؟

ـ يا لخالعة العذار ! هذا تصريح بحبٍ يا أليوشا ، تصريح بحبٍ لك أنت !

ـ لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

ـ وصاحبك الضابط ؟ والرسول الآتى من موكرويه ؟

ـ هذان أمران مختلفان •

ـ ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة •

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

ـ لا تحنقنى يا راكيتا • هذان أمران مختلفان • أنا أحب أليوشا حباً آخر • صحيح أننى قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحطة عنيفة قاسية • ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعدك بمثابة ضميرٍ لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلة : « لا بد أنه يحتقرنى بسبب سلوكى • » ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة • لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا • ان ميتيا يعلم هذا • لقد ذكرته له • وهو يفهمنى • هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى ••• كيف استطعت أن تدخل الى قلبى على هذا النحو ؟ لقد نفذت الى قلبى • أما منذ متى ، فلا أدرى فى الواقع •••

دخلت فينيا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كئوس ملأى •

هتف راكيتين يقول :

ـ وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا فى هذا المساء يا أجرافين ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك • ومتى أفرغت

هذه الكأس فسوف ترقصين ، ترالالا ! ••• ولكننى ألاحظ أن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول • ان الزجاجة فاترة ، والسدادة منزوعة ، والخادم قد ملأت الكئوس فى المطبخ • لا بأس ••• سنشربها على كل حال •

واقترب راكيتين من المائدة ، فتناول كأساً، وأفرغها فى جوفه دفعةً واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه :

ـ لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم • جاء دورك يا أليوشا • ألا فلنر مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

ـ أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟

وتناولت جروشنكا كأسا ؛ وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامةً عذبة :

ـ أوثر أن لا أشرب •

فصاح راكيتين قائلاً :

ـ فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشنكا :

ـ لن أشرب أنا اذن • ثم اننى ليست بى رغبة فى الشراب • تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك اذا شئت يا راكيتا • واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا •

قال راكيتين ساخرا :

ـ يا للعواطف الرقيقة ! انها بهذا تجثو على ركبتيها • ان له هو عذراً على الاقل ، فهو حزين النفس ، أما أنت فأى عذر يمكن آن تنتحلى؟ لقد تمرد هو على الهه وأراد أن يأكل مقانق •

ـ ماذا وقع له ؟

ـ مات شيخه هذه الليلة ••• الأب زوسيما ••• ذلك القديس •

ـ ماذا ؟ الشيخ زوسيما مات ؟ لم أكن أعرف ذلك •

قالت جروشنكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب بتقى وورع • وأردفت تقول منفعلةً على حين فجأة كالمذعورة :

ـ آه ••• يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعت تنهض ، ومضت تجلس على الأريكة • حدّق اليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً ، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

ـ لا يضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين • اننى لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضا • لقد فقدتُ كنزاً لم تملكه أنت فى يوم من الايام ، لذلك لن تستطيع أن تفهمنى • خير لك أن تقتدى بها : هل رأيت كم دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئتُ الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة جبانا شريرا • ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهرة ثمينة ، نفساً صافية محبة ••• دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية • عنك أتكلم يا أجرافين ألكسندروفنا • لقد وهبتِ لى الجرأة على أن أحيا •

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقا •

قال راكيتين وهو يضحك ساخرا :

ـ لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تنوى أن تبلعك !

قالت جروشنكا مندفعة :

ـ كفى يا راكيتين • واسكتا كلاكما الآن • لا تقل شيئا يا أليوشا ، لأن أقوالك تشعرنى بالخزى والعار • أنا فى الحق خبيثة لا طيبة كما تظن • أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب • جائز أننى نويت فى السابق تلك النية الجبانة وهى أن أبلعه لقمة واحدة ، ولكنك مع ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن ••• لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا !

كانت جروشنكا تتكلم مضطربة اضطرابا شديدا •

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

ـ لقد فقدا كلاهما العقل • لكأنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفيين ، وما هى الا لحظة حتى يطفقا باكيين •

قاطعته جروشنكا تقول :

ـ سوف أبكى ، نعم سوف أبكى • لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا ما حييت ! اعلم يا راكيتا أننى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة * •

ـ أية بصلة ؟ حقا لقد فقدا العقل •

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الانسانين على نحو من شأنه أن يبث فى نفسيهما الاضطراب • ولكن راكيتين ، السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجد عناء فى فهم عواطف الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه على جانب عظيم من الأنانية •

التفتت جروشنكا نحـــو أليوشا وهى تضـــحك ضحكة عصـــبية وقالت له :

ـ ها قد رأيت يا أليوشا أننى تباهيت أمام راكيتا بأننى قدمت بصلة. ولكننى سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر . الأمر أمر أسطورة : هى قصة جميلة قصتها علىّ فى طفولتى ماترين التى تعمل عندى اليـــوم طباخة . اليك القصة : كان هناك فى الماضى امرأة عجوز شريرة جداً ؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة يمكن أن تشفع لها فى يوم الحساب ، فقد أمسكتها الشياطين وألقتها فى بحيرة من نار . وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر . تساءل : « ما الذى يستطيع أن أفعله لانقاذها ؟ ألا يمكننى أن أكتشف فضيلةً أذكرها عنها للرب ! » ، فاذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة فى حياتها ، فقال للرب : « لقـــد انتزعت من حديقتها بصلة فى ذات يوم ووهبتها لشحاذ . » فقال الرب للملاك الحارس : « خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة فى بحـيرة النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب . فاذا استطعت أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هى » . أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : « تمسكى بهذه البصلة فأخرجك من النار » . وأخذ يشد بكل ما أوتى من قوة ، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها . ولكن العجوز كانت شريرة جدا ، فركلتهم بقدميها وهى تصرخ : « انما يراد انقاذى أنا لا انقاذكم أنتم . هذه البصلة بصلتى أنا لا بصلتكم أنتم » . فما ان نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة العجوز فى البحيرة من جديد . وما تزال تحترق فى النار حتى الآن . أما الملاك فقد انصرف باكيا . اننى أحفظ هذه الاسطورة على ظهر القلب؛

احتفظت بها لأننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة • لقد تباهيت أمام راكيتا بأننى وهبت بصلة • أما لك أنت فأقول متواضعة اننى ان كنت قد وهبت بصلة مرةً فى حياتى فذلك كل ما فعلته ، وليست تتعدى طيبتى هذه الحدود • فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة • أنا شريرة ، شريرة جدا ، واننى لأمتلىء بشعور الخزى والعار حين أسمعك تكيل لى المديح • وهأناذا أعترف لك بكل شىء يا أليوشا : لقد بلغت من فرط الرغبة فى أن أراك عندى أننى كنت لا أعرف ما عساى فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئنى بك • ووعدته أخيرا بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى • لحظةً يا راكيتا !

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة ، ففتحت درجاً ، وتناولت محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً •

هتف راكيتين يقول مرتبكا ارتباكا شديدا :

ـ ما هذا السخف ؟ كان ذلك هزلاً لا جداً •

ـ خذ المال يا راكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت علىّ لأعطيك هذا المبلغ •

ورمت اليه الورقة •

قال راكيتين بصوت أجش وهو يحاول أن يسيطر على اضطرابه وارتباكه وخجله :

ـ لأكونن حماراً اذا أنا رفضت • انما وجد الأغبياء فى هذا العالم لمصلحة الأذكياء •

قالت جروشنكا :

ـ والآن أسعدنى بسكوتك يا راكيتا • ان ما سأقوله الآن لا يصلح

لأذنيك . اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً . أنت لا تحبنا فما عليك الا أن تلزم الصمت .

قال راكيتين بلهجة معاديه دون أن يحاول اخفاء غضبه :

ـ وفيم أحبكما ؟

ودسّ الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد أمام أليوشا . كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علمٍ من أليوشا ، فاذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً . كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يستفز جروشنكا ، ولكنه بدأ يغضب الآن . قال :

ـ لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان حبى ؟

ـ أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

ـ من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك ؟ قليلاً من الفهم على الأقل ! ...

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسةً بصوت تداخله فى بعض اللحظات نبرات هسترية .

ـ اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً . ثم اننى لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبنى بصيغة المفرد. اننى أمنعك أن تفعل هذا فى المستقبل . من أجاز لك أن ترفع الكلفة الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى. والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملةً ، لتعلم اننى انسانة شريرة سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردتُ ضياعك

يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أننى حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئنى بك . ما هو السبب الذى دفعنى الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شيء ، وكنت تشيح بوجهك عنى . كنت اذا لقيتنى تغض طرفك . أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت جميع أصدقائى عنك . انطبعت ملامح وجهك فى قلبى . كنت أقول لنفسى : « انه يحتقرنى . انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الىّ » . وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أننى دُهشت أنا نفسى . قلت : « لماذا الخوف من هذا الصبى الغر ؟ لآكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا . » . ان نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم فى نفسى غضبا منك وحقدا عليك . هل تصدق هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ شيئاً فى هذه المدينة ، لن يجرؤ أحد أن يشتبه فىأجرافين ألكسندروفنا فيسيء فيها الظن اذا هى استقبلت رجلا فى بيتها . ليس فى حياتى الا ذلك العجوز الذى ارتبطت به وبعته نفسى . لقد جمع الشيطان بيننا . غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذى حظى بى . ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك . كنت أتهيأ لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك . فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التى دعوتنى أختك . وهذا صاحبى الذى غشنى وأغوانى يبلغنى أنه قادم ، وأنا أنتظر رسالةً منه . هل تعلم ماذا كان هذا الرجل فى حياتى ؟ لقد جاء بى كوزما الى هنا منذ خمس سنين . كنت أعيش فى أول الأمر هاربةً من الناس أخشى أن يرانى أحد وأن يسمعنى أحد . كنت هزيلة الجسم غبية العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء فى ليل ولا نهار . كنت أبقى مؤرقة مسهّدة ليالى برمتها أحدث نفسى قائلة : « أين هو فى هذه الساعة،

الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىّ ويسخر منى مع امرأة أخرى • آه ••• ليتنى أستطيع أن ألقـــاه يوما ! ليدفعنّ عندئذ ثمـــن ما جنت يداه ! » • وكنت أبكى على وسادتى فى الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام • كنت أســـتثير ألمى عامدةً لأملأ نفسى كرهاً وحقداً • كنت أخرج فى الليل قائلة : « لســوف يرى ! لســوف يرى ! ليندمنّ على ما فعل ! » • ثم أدركت فجأة عجزى • وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر منى ويضحك علىّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسينى نسيانا تاما ــ وهــذا أنكى ــ أسقط عن سريرى على الارض وأظل أتدحرج منتحبةً مرتجفة بكل جسمى حتى مطلع الفجر • فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشــد ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أوذى أول انسان يقـع عليه بصرى • وانقضت السنون ، وأخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة، وسمنت • ماذا تظن ؟ هل تظن أننى غــدوت بذلك أهدأ بالاً وأكثر تعقلاً ؟ لا ••• ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره يتصور ما أقاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحــدث لى منذ خمس ســـنين ، حين كنت صــبية يافعة ، أن أشد على أسنانى فى سريرى ليلاً ، وأن أستمر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : «ليدفعنّ ثمن ما جنت يداه ! » • هل تسمعنى ؟ فاحكم علىّ الآن : لقد وصلتنى منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمل ، وانه يريد أن يرانى ، وانه يأمل أن يصل قريبا • صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمنى الانفعال • ثم قلت لنفسى فجأة : « سيعود ، ولن يكون عليه الا أن يصـــفر حتى أهرول اليه ككلب ، مجلّلة بالخزى ، مطعونة القلب ، طالبةً الصفح والغفران ! » •وتســـاءلت عندئذ : « أأكون جبانة وضـــيعة الى هذه الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هـــذا الاذلال ؟ » • وقد اســـتبد بى من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ، خشية أن أسقط فى مثل ذلك

الجبن ومثل تلك الخطه ، ما جعلنى أصبح أخبث نفساً وأميل الى الشر مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات. هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنف ؟ اننى أذكر لك الحقيقة كلها . لقد اتخذت دمترى سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر . اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم عليّ ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أتهيأ لمواجهة قدرى ، ولن تعرف قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للآنسة يا أليوشا أن لا تأخذ عليّ المشهد الذى وقع أمس الأول ... ما من أحد فى العالم يستطيع أن يفهم الحالة النفسية التى أعانيها منذ شهر ، ما من أحد يستطيع أن يتصور هذه الحالة النفسية ... ذلك أن من الممكن أن أحمل خنجرى فى هذا المساء لأذهب الى الموعد ... اننى لم أعزم أمرى بعد ...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى « يُرثى له » ، لم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاذا هى تنقطع عن الكلام ، وتغطى وجهها بيديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير .

نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

ـ لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغى لك أن تغضب منها . على المرء أن يعامل الطبيعة الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن يشارك الناس عذابهم وآلامهم ...

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان يشعر بحاجته الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؛ ولئن خاطب بهذا الكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين هناك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن الكلام . قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة :

ـ شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الأفكار ، فتريد أن تقدمها الىّ بدورك الآن يا أليوشا ، يا راهباً صغيراً !

ـ لا تستهزىء يا راكيتين ، دع السخريات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض.

كذلك قال أليوشا والدموع فى صوته . ثم تابع كلامه يقول :

ـ لا أقول لك هذا الكلام قاضيا بل متّهَماً هو شر المتهمين طراً. ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتى على الضياع ، قائلاً لنفسى فى جبن وصغار وحطة « لا ضير ... لا ضير ... » ، فاذا هى، هى التى تألمت خلال خمس سنين ، تغفر كل شىء ، وتنسى كل شىء ، وتبكى بعد أقل من خمس دقائق ، لا لشىء الا لأن رجلاً مجهولاً قال لها كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ، وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأومأ اليها ، فاذا هى تغفر له على الفور ، فرحةً سعيدة مستعجلةً لقاءه . أما الخنجر فثق أنها لن تحمله! لا ... لا ... أنا لا أساويها ، أنا لا أعدلها . لا أدرى يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبها ونبلها ، أما أنا فلست كذلك بحال من الاحوال . هذا درس تلقنته اليوم ... ان هذه المرأة أعظم منا بالحب ... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً . والا لأدركت كل شىء منذ زمن طويل ... وتلك الأخرى التى آذتها هى أمس الأول ، يجب عليها أن تغفر لها هى أيضا ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم ... ان هذه النفس لمّا تستردّ هدوءها وطمأنينتها بعد ، فينبغى أن تدارى وأن تراعى ... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال ...

صمت أليوشا منقطع الأنفاس . وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشا

رغم حنقه . ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب المبتدىء البسيط !

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

ـ يا للمحامى البارع ! أتراك وقعت فى حبها ؟ يا أجرافين ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بحبك ، وهام غراما بك . هنيئاً لك بالنصر !

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظرة حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة .

ـ لا تكترث له يا أليوشا ، يا ملاكى . أنت ترى ما هو ، فلا داعى الى مناقشته .

كذلك قالت جروشنكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

ـ كنت أنوى يا ميشيل أوسيبوفتش أن أعتذر اليك عن الكلمات الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن .

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

ـ أليوشا ، اجلس هنا ، بجانبى ، هكذا ، قريبا منى . قل لى يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى ... لقد كنت قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولةً أن أقرأ فى أعماق قلبى : أمازلت أحبه ؟ أضىء طريقى يا أليوشا . هذه ساعة اتخاذ القرار . اننى أكل أمرى اليك . هل يجب علىّ أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ ولكنك غفرت له وانتهى الأمر !

فدمدمت جروشنكا تقول واجمة مفكرة :

ـ صحيح • لقد غفرت له • ما أجبن قلبى !

ثم هتفت تقول :

ـ اننى أشرب نخب هذا الجبان الكبير ، قلبى !

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته فى جوفها دفعةً واحدة، ثم ألقته طائراً على الأرض • تحطم الكرستال ، ورنت شظاياه • ومرةً أخرى ظهر فى طرفى فمها شىء من قسوة • قالت بصوت أجش متقل بتهديدات غامضة ، قالت وهى تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها :

ـ لعلنى لم أغفر له بعد • ان قلبى يتهيأ للمغفرة ، وسأحاول أن أقاومه • آه يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذى بالدموع التى سكبتها طوال خمس سنين • ان عذابى هو ما أحب • اننى أحب ألمى ، ولا أحبه هو !

قال راكيتين متهكماً :

ـ لست أتمنى أن أكون اياه !

ـ لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبدا ••• اعلم هذا • أنت ستنظف لى حذاءى • ذلك ما تصلح له أنت فى أكثر تقدير • النساء اللواتى هنَّ من نوعى لم يخلقن لك ، ولا له أيضا على كل حال •••

ـ ولا له أيضا ؟ فلمن تزينت اذن ؟

ـ لا تأخذ علىَّ تزينى يا راكيتا ! أنت لا تعرفنى ! سأنزع ثوبى وزينتى اذا عنَّ لى هذا ، سأرميهما فورا ، هل تفهمنى ؟ (كذلك صرخت بصوت حاد) • أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذى من أجله تزينت •

من يدرى ؟ ربما ذهبت اليه فقلت له : « انظر ! انظر ماذا أصبحت ! » . لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلةً مصدورةً بكآءة . سأجلس قربه ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له : « هيه ! ألست اليوم جميلة ؟ أأنت تعجب بى الآن ؟ اكتف اذن بالاعجاب ، لأن المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين ! » . ربما كان هذا هو السبب فى أننى تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهى تضحك ضحكة خبيثة) . أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة . سوف أنزع ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخدده بطعنات موسى لأدمر جمالى ثم أمضى أتسول . ليس يتوقف الا علىّ أنا أن أبقى هنا فى هذا المساء ، فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك . واذا شئت رددتُ منذ الغد الى كوزما كوزمتش جميع الهدايا التى أهداها الىّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى أعمل طوالى حياتى لأجنى رزقى عاملةً بسيطة . هل تظن أننى لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ، سأفعله ؛ لا تُهجنى والا فعلته فورا ! ... أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد له لسانى استهزاءً ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هستريّاً ، ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة . فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال :

ـ آن أوان الانصراف . لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير .

فانتفضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

ـ أتمضى الآن يا أليوشا ؟ أتعبث بى اذن هـذا العبث ؟ لقـد بثثت الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم تتركنى لأبقى وحيدة ، وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الظلمات !

قال راكيتين بصوت ساخر :

ـ لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغبا فى ذلك حريصا عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى .

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

ـ اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعـــرف فى يوم من الأيام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم .

فقال راكيتين يسألها حانقاً :

ـ فما هى الأشياء الخارقة التى قالها لك ؟

ـ نسيت ، لا أعرف ، لا أتذكر كلماته ، ولكن كلماته مضت الى قلبى رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً ... لقد أخذته بى شفقة ورحمة ، فكان أول انسان يرثى لحالى ، كان الانسان الوحيد الذى رثى لحالى ! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد) . لقد انتظرتك طوال حياتى . كنت أعلم ، كنت أحس أننى سألتقى فى يوم من ايام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لى . كنت واثقة من أن أحدا سيحبنى آخر الامر أنا أيضا ، لغرض آخر غير عارى ...

سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقة ، ويميـــل عليها ويتناول يدها :

ـ ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ، بصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء ...

وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى .

وفى تلك اللحظة سُمعت ضجة فى الممر . ان أحداً قد دخل الى

البيت • نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شـــديداً • وأسرعت فينيا الى الغرفة تهتف فرحةً لاهثة :

ـ آنستى ، عزيزتى ، آنستى الطيبة، وصل الرسول ! لقد أُرسلت من موكرويه عربة تستقلينها ، ومضى الحوذى تيمـوتى يبدل الخيل • هناك رسالة لك يا آنستى ، رسالة ، رسالة ••• هذه هى !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم• انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة • هى بطاقة قصيرة جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين • ثم صـاحت تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض وجهها بابتسامة أليمة :

ـ لقد صفر لى • لقد صفر لى • ازحف أيها الكلب الصغير !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيهـا فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول :

ـ سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى • وداعاً وداعاً ! وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا • لقد تقرر مصيرى • اذهبوا ، انصرفوا الآن جميعا ، ولتغيبوا عن عينى الى الأبد ! ••• ان جروشنكا تبدأ حياة جديدة • لا تحمل لى حقداً ، أنت أيضا يا راكيتا • من يدرى ؟ قد أكون ذاهبة الى الموت ! آه ••• أحس بأننى سكرى على حين فجأة •••

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها •

جمجم راكيتين يقول :

ـ لقد طردتنا ••• فلننصرف ••• ضقت ذرعا بهذا الصراخ تطلقه امرأة هسترية • فلنمض قبل أن يُستأنف الصراخ •••

انقاد أليوشا انقياداً آلياً • كانت العربة فى فناء المنزل • خيـــول

تُحل ، وأناس منهمكون على ضوء مصباح . وأمام الباب أفراس جديدة . وما ان هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فتحت نافذة غرفة النوم ، فاذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان :

ـ عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمترى تحيتى ، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة ، أنا . كرر على مسامعه هذه الكلمات عن لسانى : « وهبت جروشنكا نفسها لرجل بائس ، لا لك أنت النبيل » ؛ قل له أيضا اننى أحببته ساعة ، ساعة واحدة ، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان جروشنكا هى التى تأمره بذلك .

ختمت جروشنكا كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة .

غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً :

ـ هم ... هم ... تغمد سكينا فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتيا ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة . يا للسادية !

لم يجب أليوشا . وكان يبدو عليه أنه لم يسمع .انه يسير الى جانب رفيقه بخطى حثيثة . ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة . شعر راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم . ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشنكا . لقد جرى كل شىء على غير ما كان يتنبأ ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق . قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

ـ صاحبها الضابط بولندى . على أنه ليس الآن بضابط . لقد عمل زمناً فى ادارة الجمارك على الحدود الصينية . هو طِرح حقير ما فى ذلك ريب . يُقال انه طرد من وظيفته . وأغلب الظن أنه علم أن جروشنكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود ... هذه هى المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا • ولم يطق راكيتين صبراً ، فقال وهو يضحك ضحكا ساخرا خبيثا :

ـ هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها ، هه ؟ هذه هي المعجزة التي انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح ••• لقد تحققت !

قال أليوشا متألماً :

ـ اسكت يا راكيتين !

ـ أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحتقرني الآن ؟ أتراني بعت صديقا ؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا بيهوذا الأسخريوطي !

ـ أؤكد لك انني لم أكن أفكر في هذا الامر • أنت الذي تذكرني به الآن •

كذلك قال أليوشا ، فغضب راكيتين في هذه المرة غضبا كاملا ، وأعول يقول :

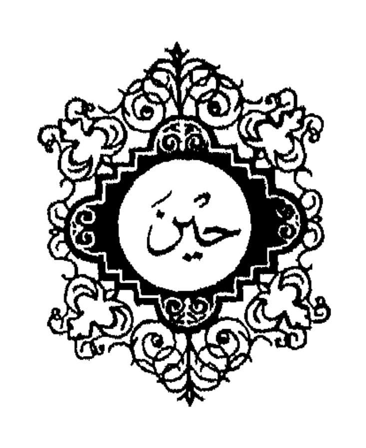
ـ شيطان يأخذكم جميعا ! اني لأتساءل ما كانت حاجتي الى الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن • امض في سبيلك وحدك !

ومال فجأة فسار في شارع آخر وترك أليوشا وحيدا في الليل •

خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول •

٤

عرس قانا



وصل أليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً جدا بالنسبة الى الأنظمة المتبعة فى الدير . وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر خفى . كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان كل شىء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله . تسلل أليوشا وجلاً الى الغرفة التى سُجِّى فيها تابوت الشيخ . كان الأب بائيسى وحيدا فى الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل . وكان الراهب المبتدىء بروفير الذى أتعبه الحديث الطويل فى الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار ، ينام فى الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيحه له شبابه. ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا . اتجه أليوشا الى الركن الذى يقع على يمين الباب ، وجثا على ركبتيه ، وأخذ يصلى. كانت نفسه طافحة ، غير أن المشاعر المختلفة التى عاناها أثناء النهار تختلط الآن فى نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هى تتعاقب ويطرد بعضها بعضا فى حركة مطردة هادئة . وشعر أليوشا بانفعال رفيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب فى الامر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال . انه يرى أمامه التابوت الذى يضم جثمان الراحل

المحبوب ، يراه من جديد ، ولكن الألم الثقيل الذى كان يجثم على صدره طوال الصباح قد حلت محله الآن عاطفة هادئة وادعة • انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه • كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل الى الغرفة هواء طرى منعش • قال أليوشا يحدث نفسه : « لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة • » • غير أن فكرة رائحة التفسخ التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك التمرد كله ، والتى كانت تبدو له رهيبة فظيعة مهينة للقدْر مخلة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشىء من الحرج • أخذ أليوشا يصلى صامتا • ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آلية• ان نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفىء ليحل محلها غيرها • وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحرارة وحماسة ، شاعرا بحاجة قوية عنيفة الى أن يشكر وأن يحب ••• ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شىء آخر ، فاذا هو يغرق فى أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة• أصاخ بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائيسى ، ثم أدركه التعب ، فاذا هو ينحدر شيئا فشيئا الى وسنٍ هادىء رفيق •

« وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك •• » *

« عرس ؟ ما العرس ؟ وثارت فى فكره زوبعة من الخواطر • هى أيضا سعيدة ••• ذهبت الى احتفال ••• لم تحمل الخنجر ••• ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً ••• يجب أن نغفر الأقوال الطائشة ، لأنها تهدىء النفس ••• وبدونها يصبح ألم الانسان أشد من أن يطاق •••

غاب راكيتين فى شارع صغير ••• لسوف يغيب فى شوارع صغيرة ما ظل لا يفكر الا فى الاهانات التى تناله هو ••• أما الطـــريق فهى عريضة لاحبة مشرقة مضيئة ••• مستقيمة طاهرة ••• نقية نقـــاء البلور ••• والشمس هى التى تسطع فى نهايتها ••• ماذا يقرأ الآن ؟ » •

« ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ••• »

« ها ••• نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أننى كنت لا أحب أن تفوتنى هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى ••• كانت تلك معجزة ، معجزة الهبة ••• لم يجىء يسوع للحزن ، بل للفرح ••• أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى ••• « الذى يحب البشر ، يحب فرحهم أيضا • » ••• ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغـير انقطاع ••• ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية ••• لا يستطيع الانسان أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميتيا ••• نعم يا ميتيا ••• كل ما هو عظيم وجميل يشيع منه الغفران الشامل ••• انه هو الذى كان يقول هذا أيضا ••• »

« ••• قال يسوع :

« قال لها يســوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تأت ســـاعتى بعد • قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ! »

« افعلوا ••• كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء مغمورين ، فقرا جدا ، جدا ••• لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمـــر قد أعوزهم حتى لعـــرس ••• يؤكد المؤرخـــون أن الأهالى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة

لها كانوا أفقر الناس فى هذا العالم ••• هـــذه امرأة عليـــا كانت فى العرس ، هى أم يسوع، تشعر فى قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيته الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك فى الفرح البسيط الساذج الذى يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذى لا تألق فيه • قال لها يسوع وهو يبتسم ابتسامة رقيقة : « لم تأت ساعتى بعد » (لا شـك أنه ابتسم فى تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها) ••• أجاء اذن الى الارض ليزيد الخمر فى أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد، ولبى رجاءها ••• »

« قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء ، فملأوها الى فوق • ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا الى رئيس السقاة فقدموا ، فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هى بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة أولا فمتى سكروا وضـــع الرديئة ، أما أنت فقـــد ابقيت الخمر الجيـدة الى الآن • » •

« ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ ••• آ•• حقاً ••• هو الزواج ••• هذا عرس ••• طبعا •• هؤلاء هم المدعوون ••• وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح •• ولكن أين هو اذن ذلك الســاقى الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغـرفة تتسع مزيدا من الاتساع ••• من ذا الذى ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أيكون هو أيضا هنا ؟••• كنت أحسب أنه فى تابوته •• بلى ! انه هو بعينه ••• نهض ••• رآنى ••• ها هو ذا يقبل علىّ ••• رباه ! » •

واقترب فعلاً من أليوشا ، الشيخ الناحل المخدّد وجهــه بغضون

صغيرة • كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً • لقد اختفى التابوت • والشيخ يرتدى الملابس التى كان يرتديها أمس أثنـاء ذلك الحديث الاخير مع أصدقائه • ان وجهه يشرق مودة ومحبة ، وان عينيه تلتمعان • « كيف أمكن أن يكون هنا ، فى هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى عرس قانا ؟ » • كذلك تساءل أليوشا • فسمع صوتا لطيفا يقول له من فوقه ، صوتا ألف أليوشا أن يسمعه :

ـ نعم يا بنى ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت • لماذا تختبىء فى ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد • تعال ، وكن منا •••

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيما ••• لا شك أنه الشيخ ، مادام يناديه • ومدّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا • وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلا :

ـ ألا فلنبتهج ! لنشرب الخمر الجديد ••• انه خمر فرح جديد، فرح عظيم جدا ••• هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب، وهذه هى الخطيبة ، وهذا هو الساقى الحكيم جدا ، يذوق الخمـــر المدهشة • لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت فى هذه الحفلة• كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا ••• كيف الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بنى الطيب الوادع ، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة • ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صـــغيرى اللطيف ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

دمدم أليوشا يقول :

ـ أنا خائف ••• لا أجرؤ أن أنظر اليه •

ـ لا تخف منه • هو مخيف بعظمته التى ترفعه فوقنا ، هو مخيف

بالعلو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهايه له • لقد جعل نفسه شبيهاً بنا ، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف • وهو ينتظر مدعوين آخرين ، وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الأبد • انظر • ها هم يجيئون بالخمر الجديد ، ها هم يحملون الأوانى •••

كان قلب أليوشا يحترق احتراقا وقد امتلأ بفرح شديد يصاقب الألم ، وانبجست من عينيه دموع حماسة ••• ومدّ ذراعيه ، وأطلق صرخة ، واستيقظ من نومه •••

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنافذة ما تزال مفتوحة ؛ وصوت الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقورا هادئا وهو يقرأ الانجيل ببطء • ولكن أليوشا لم يصغ اليه • كان قد نام على ركبتيه • والغريب أنه الآن واقف على قدميه • وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً ، فاذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة ، حتى لقد لامس كتف الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك • رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن الفتى كان فى حالة غريبة • وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة : تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غُطى وجهه ببرقع، ووُضعت بين يديه أيقونة ، ولُفّع رأسه بقبعة يزينها صليب ذو ثمانية أفرع • لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى أذنيه • ان أليوشا يصغى وينتظر ••• أتراه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ، استدار أليوشا وخرج من الغرفة •

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا • كانت نفسه التى تطفح حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية • هذه قبة السماء تعلوه ممتدة

فى جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمة بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً هادئاً . ان المجرة ، التى لا تكاد ترى بعد ، تمتد من السمت الى الأفق. وان ليلة طرية هادئة صامتة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها . والأبراج لبيضاء والقبب المذهبة من الكنائس تبرز على قاع لازوردى. وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة فى أحواضها التى تحف بالمنزل . ان سكينة الارض تتحد بسكينة السماء ، وان سر الحياة والنجوم يرفرف على العالم ... تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هـو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه .

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الارض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة الى أن يغمرها بالقبل . كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبنّها على الدوام ، ليحبنها أبد الدهر ... « اسق الأرض دموع الفرح ، وأحبب دموعك » ، كذلك قال له صوت فى أعماق نفسه. لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكى من الحماسة ، حتى لقد كان يبكى لهذه النجوم التى تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم « يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذى ملأ نفسه » . ان الصلات الخفية التى تشده الى هذه العوالم البعيدة ، كانت تهتز عندئذ فى قلبه ، وكان يطير فرحاً من شعوره بنشوء « هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى » فى نفسه . كان يشتهى أن يغفر كل شىء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضا لا لنفسه وحدها بل لجميع الناس ، وعن كل شىء . ومرة أخرى قال صوت فى أعماق نفسه : « ان آخرين سيسألون لى اللطف » . وشعر فى الوقت نفسه باحساس واضح جدا ، احساس يشبه أن يكون جسميا ، أن نفحة قوية خالدة كانت تهبط من قبة السماء ، وتجتاح كيانه كله شيئاً بعد ، شىء ، كفكرة تبزغ فى روحه لتحكمها الى الأبد . كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه

مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة • واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجىء الذى وقع له ، اختلط بحماســته ، فاذا هو فى حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام • وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق « أن أحداً قد زار نفسه فى تلك اللحظة» •

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعــاً وصــية الشــيخ الراحل الذى « أرسله الى العالم » •

الباب الثامن : ميتيا

١

كوزما سامسونوف

إن دمترى فيدوروفتش الذى « أمرت » جروشنكا ، وهى تطير نحو حياة جديدة ، بأن يُبلغ سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له ، كان يجتاز هو أيضا ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب • انه يعيش منذ يومين فى حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان فى الدماغ على حد التعبير الذى استعمله هو فيما بعد • لم يستطع أليوشا أن يهتدى اليه وأن يعثر عليه حين بحث عنه فى الصباح ؛ ولا هو جاء بعد ذلك بقليل الى الموعد الذى كان قد ضربه لأخيه ايفان فى الكاباريه • وقد صمت أصحاب الدار التى كان يقيم فيها ، نزولاً على ارادته وتنفيذا لأوامره • وظل هو خلال يومين يضرب فى الارض على غير هدى وبغير راحة « مصارعاً قدره ساعيا الى خلاصه » ، كما صرّح بذلك فيما بعد • حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان يرى أن الابتعاد فى مثل هذه اللحظة وترك جروشنكا بلا رقابة أمر

رهيب • سوف نذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل ، وحسبى الآن أن أسرد أهم وقائع هـــذين اليومين الرهيبين ، هـــذين اليومين الأخيرين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القـاسى المفاجىء •

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً، ولكنها فى مقابل ذلك قد عذبته مرارا بقسوة لا رحمة فيها • وأنكى ما فى الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحا • ولم يكن له أى أمل فى أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة• ولو قد حاول ذلك لعاندته فى جميع الاحوال ولتركته غاضبة حانقة • كان هو يشعر بذلك شعورا كاملا • وكان يدرك أنها تجتاز هى نفسها فى تلك الساعة أزمة عصبية وأنها تتخبط فى حيرة شديدة ، فهى توشك أن تعزم أمرها دائما ثم تتردد كلَّ مرة فى آخر لحظة ؛ وكان يقدِّر ـ وليس يخلو تقديره هذا من حق ـ أنها كانت فى بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها • لعله لم يكن مخطئاً فى هذا ، ولكن السبب الحقيقى للقلق الذى تعانيه جروشنكا كان يفوته• وكانت المسألة التى تعذبه انما ترتد فى الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : « اما هو ميتيا ، واما فيدور بافلوفتش » • وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية: كان ميتيا مقتنعا اقتناعا مطلقا بأن فيدور بافلوفتش مســتعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيـــل فى لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه دون أن يضحى بشىء الا ثلاثة آلاف روبل • هكذا كان يفكر دمترى على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا • لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنهـا لا تدرى من تختار منهما ، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها • أما

أن يعود فى القريب ذلك « الضابط » ، ذلك الرجل المشئوم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشنكا والذى كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من نفاد الصبر وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الامر مرة واحدة خلال تلك الأيام ، مهما يبد ذلك غريبا . صحيح أن جروشنكا أصبحت منذ زمن طويل لا تكلمه فى هذا الامر ، ولكن دمترى كان يعلم أن صاحب جروشنكا قد كتب اليها ، لأنها أطلعته على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر ، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة . لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أى اهتمام فى أول الامر ، ولا اكترث لها . انه لمن العسير أن نشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيرا . لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاء أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل . أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصة أن يعود قريبا . هذا الى أن رسالة « الضابط » لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أمورا عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية . يجب أن نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبة بشىء من الوضوح . وكان دمترى يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعته على الرسالة ، قد أظهرت على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من أقاصى سيبريا . ولم تفض جروشنكا الى دمترى بعد ذلك بأى شىء عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك الرجل ، الى أن نسى دمترى

وجوده شيئاً بعد شيء • فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصراع الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل • وكان ينتظر على أحر من الجمر قلقاً ، أن تتخذ جروشنكا قرارها من دقيقة الى دقيقة ، وكان يقدر انها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحى أو الالهام ، فتقول له ذات يوم : « خذنى ، أنا لك الى الأبد » ، وينتهى كل شيء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم • نعم ••• ليأخذنَّها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؟ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولين لا يعرفهما أحد ، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك • ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمترى لاينى يحلم متحمساً بالحياة الجديدة ، الحياة « الفاضلة » (الفاضلة خاصة) • لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحمأة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؟ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن • كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة • ذلك كان أمله ، والى هذه الغاية انما كانت تتجه أحلامه نافدَ الصبر •

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشنكا القرار الأول ، القرار السعيد التى تختاره فيه من دون أبيه • وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : « اغرب عنى الآن ، فلقد اتفقت مع فيدور بافلوفتش اتفاقا نهائيا وقررت أن أتزوجه،

فلا حاجة بى اليك بعد اليوم . » . ففى هذه الحالة ... فى هذه الحالة ... لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة ... علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له . انه لم يعقد نيته على شيء ، ولم يفكر فى ارتكاب جريمة . كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويتربص ويتجسس ، ويتعذب بغير انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول ، ولا يتنبأ الا بالخاتمة السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى . على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله قلقاً مهموما مغموما ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة فى طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبةٌ خارجية طبعا ، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال .

هب جروشنكا قالت له : « أنا لك ، خذنى » ، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها ؟ أين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التى هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش قد نفدت نفاداً تاما . صحيح أن جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ فى نفسه ، كبرياء عنيفة لا تنثنى ولا تلين . لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عالةً عليها . كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه . لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحلّلها ، وحسبى أن أقرر ان هذه كانت عاطفته ، وان هذا كان شعوره . جائز جدا ن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفى منذ أن استولى على المبلغ الذى ائتمنته عليه كاترين ايفانوفنا . لقد كان دمترى يقول لنفسه فى بعض الأحيان ، كما اعترف بهذا فيما بعد : « أنا وغد حقير فى نظر

الأولى ، وسأصبح وغداً حقيرا في نظر الثانية . اذا علمت جروشنكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلي » . ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذي يحتاج اليه هذا الاحتياج الفاجع كله ، والذي بدونه سيتعرض كل شيء للخطر ، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أي هدف ؟ « أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة ؟ آه ... يا للشقاء ! » .

سأستبق الآن القصة فأشير الى أن متري ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل في أي مكان يوجد هذا المبلغ. ولن أدخل الآن في سرد التفاصيل التي ستعرض في حينها . غير أنني سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافيا (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى في نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ في مكان ما ، حتى يكون « من حقه » أن يستولي على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولا أن يردّ الثلاثة آلاف روبل التي يدين بها لكاترين ايفانوفنا . « والا لم أكن الا سارقا صغيراً، الا لصاً حقيراً ، وسيستحيل عليّ عندئذ أن أبدأ حياة جديدة » . كذلك كان يقول مبتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردّ المبلغ الى كاترين ايفانوفنا . وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التي أعقبت لقاءه أليوشا في الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التي ألحقتها جروشنكا بكاترين ايفانوفنا ، فهتف يقول : «قل هذا عن لساني لكاترين ايفانوفنا اذا كان ذلك يمكن أن يهدىء روعها » . ولقد شعر أثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، « بأنه يحسن صنعاً اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد الى كاتيا مالها » . قال يخاطب عندئذ نفسه : « ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً في نظر ضحيتي وفي

نظر جميع الناس ، ألا فلأُرسَل الى سجون الأشغال الشاقة بسيبريا ، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عنى اننى لم أخنها فحسب ، وانما سرقتها أيضا وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بدلك حياة حديدة . لا أطيق أن تقول عنىّ كاتيا هــذا الكلام ! » . ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكز أسنانه ، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان فى دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح ...

والامر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهـدف الذى يسعى اليه لا يمكن تحققه وانه لم يبق له الا أن يياس ، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو يتخبط منذ الان فى فقر مدقع وبؤس أسود . ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقاً من أنه سعيثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا فى حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمترى ، والذين يجهلون كل شيء عن طريقه جنى الرزق وتحصـــيل المال . ان مشاريع خيالية عجيبة تغلى وتفور فى ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت فى عقله أبسط المعانى واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع هو أسخف ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذا وأكثرها اغرابا وأعمقها ايغالاً فى عالم الأوهام هى التى تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه فى ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمترى أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامى جروشنكا ، ليعـــرض عليه « صفقةً » ويحصل منه فورا على الثلاثة آلاف روبل سلفةً على الربح. كان دمترى لا يخامره شك فى قيمة مشروعه من الناحيـــة التجارية ،

وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبله العجوز • وكان دمترى يعرف العجوز وجهاً ، ولكنه لم يكلمه يوما حتى ذلك الحين • وكان مقتنعا منذ زمن طويل ، على كل حال ، سواء أكان اقتناعه هذا خطأ أم صوابا ، بأن هذا العجوز الفاسق الذى وضع احدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة» • كان يقول لنفسه : « أغلب الظن أن العجوز لن يرى أى ضير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة • » • وكان يعتقد أيضا ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل • ربمـــا كان بعض قــرائى يرون أن حسابا كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدى حاميها ان صح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفتقر الى رقة الشعور وأناقة السلوك افتقارا شديدا ، وأنه امرؤ تخلو نفسه من وساوس الضمير خلواً عجيباً • ولكننى أجيب على هذا بقولى ان ميتيا كان يرى أن ماضى جروشنكا قد دُفن الى الأبد • لقد كان شقاؤه وسـقوطه يوقظان فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها • لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديدا وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هـو نفسه بعثاً جديدا ، فيكون فى وسعهما كليهما أن يبدءا حياة مبرأة من كل اثم ، حياةً كلُّها فضيلة : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه ، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة • أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشنكا ابان صباها دوراً مشئوماً و لاشك ، وأنه لم يحبها على كل حال ، ولكن دمترى كان يرى أيضا أن كوزما ـ وهذا هو الأمر الأساسى ـ قد « انقضى » هو أيضا ، فلا يُحسب بعد الآن •

أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كبيراً فى اللحظة الراهنة أن يرى فى هذا العجوز رجلاً ، فلقد كان معلوما فى المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقة بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام • صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه • فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؟ وأن جروشنكا ليس لها فى هذا العالم فى هذه اللحظة صديق أشد اخلاصاً وأكثر تنزها من هذا العجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى •

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وأعلن عن نفسه • المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، له طابق فوق الطابق الأرضى ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء • ان الطابق الأرضى يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته الطاعنة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج • أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة • ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته • ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم مرض الربو الذى تشكو منه منذ زمن طويل • ان الطابق الأعلى الذى يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤثثة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد

متشابهة ثقيـــلة من خشب الأكاجو ، وعُلّقت فى سـقوفها ثريات من الكرستال مجللة بأغطية ، ووضعت فى زواياها مرايا قاتمه • ان هـذه الحجرات خاليه من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لايغادر غرفة نومه الصغيرة التى تقع فى آخر البيت والتى تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل ، و « صبى » ينـــام على دكه فى الدهليز • وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشى ، فهو يكتفى بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادم العجوز من حين الى حين ليسير بضع خطوات فى الغرفه • وهو قاسى الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلاً حتى مع هذه الخادم •

فلما أُبلغ زيارة « الكابتن » ، رفض أن يستقبله فى أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألحّ أن يراه ، فسأل العجوزُ الصبىَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة • فقال الغلام :

ـ لا ••• ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف •

فرفض العجوز مرة أخرى أن يُفتح بابه • ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه ولم يذهب صبره ، لأنه كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفاً بقـلم وورقة • فها هو ذا يكتب على الورقة « أن القضـــية قضية مستعجلة تتصل بأجرافين ألكسندروفنا من كثب » ، ويرسل الورقة الى التاجر العجوز • فكّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبى بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز فى الوقت نفسه الى ابنه الأصغر آمراً اياه أن يصعد اليه فورا ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة • انه رجل طـــويل القامة عريض الجسم قـــوى قوة هرقلية ، حليق اللحية يرتدى الزى الألمانى (أما سامســـونوف نفسه فكان يرتدى قفطانا وكانت له لحية) • ان جميع أفراد الأسرة يرتعدون

خوفا أمام الأب • ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هـــدا لا خوفاً من الكابتن ، فانه لا تعوزه الشجاعه ، ولكن ليكون هنالك ساعد ذا لزم أن يكون هناك شاهد • وها هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبى فيظهر أخيرا فى عتبة الصالون كتله مائجه • وربما كان ينبغى أن نســلم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول •

ان الصالون الذى كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحه ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصــدر ويهيء النفس للحزن ، وهى مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلله بأغطية ، وسماط من اللوحات تصطف فى القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلد المــرمر • كان ميتيا جالساً على كرسى قرب الباب ينتظــر أن ينقرر مصيره وهــو فى حالة عصبية شديدة• فلما ظهر العجوز فى الباب المقابل له على مسافة عشرين مترا ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هى خطى جندى • لقد كان حسن الهندام ، يرتدى ردنجوتاً معقود الأزرار ، ويحمل بيديه قبعة مدورة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماما كما كان قبل ثلاثة أيام فى الدير عنــد الشيخ أثناء لقائه بفيــدور بافلوفتش وأخويه • انتظره العجوز واقفاً ، رصين المظهر وقور الهيئة ، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويفحصه بانتباه • وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورم شديد منذ زمن • ان شفة كوزما السفلى، وهى شفة سميكة ، تتدلى الآن تدلبــاً • انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتا رصينا ، وأشار له الى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطىء مستندا الى ابنه مطلقا من صدره بعض الأنين • فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التى يبذلها العجوز ، بعذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة •

قال العجوز أخيرا بعد أن استقر على الكنبة :

ـ ماذا تريد يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطىء قاس ، مجزئاً مقاطع كلماته، ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة •

ارتعش ميتيا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فورا ، وبدأ شروحه متكلما بسرعة كبيرة وعصبية سديدة ، مكثرا من الحـــركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة اهتياج عظيم • فمن رآه أحس أنه أمام رجل اندفع الى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق • ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل باردا هادئا رصينا مغلقا كأنه وجه تمثال •

ـ لا شك أن كوزما كوزمتش المحترم جدا قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيـــدور بافلوفتش كارامازوف الذى ســـلبنى ميراثى من أمى المرحومة ••• ان المدينة كلها تلغط فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهى أن يهتموا بما لا يعنيهم •• ولا شك أنك علمت من جروشنكا ـ معذرةً ، أردت أن أقول أجرافين ألكسندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد •••

بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه ، ثم لم يلبث أن اضـطرب . على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمـــة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى • اليكم ما ذكره دمترى : لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محاميا من البندر (كان ميتيا يتعمد أن يستعمل فى شروحه تعابير رائجة فى البيئة التى ينتمى اليها سامسونوف) • قال :

ـ ذهبت الى بافل بافلوفتش كورنيلودوف الشـــهير الذى لعـلك

تعرفه يا كوزما كوزمتش ... هو انسان عريض الجبهة ... له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة ... انه يعرفك أيضا ... وقد أثنى عليه ثناءً عظيما ...

هنا اضطرب ميتيا من جديد وأرتج عليه . ولكنه كان يثوب الى نفسه فى كل مرة ، منتقلاً الى فكرة جديدة بدون تدرج . عاد يقول ان كورنيبلودوف هذا ، بعد أن أصغى الى شروح ميتيا ، ونظر فى الأوراق التى وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ، وانما هو مرَّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهى القرية التى كان يجب أن تئول اليه مع اننى لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسى الا سبعة عشر ألف على العجوز النذل ،وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز فى مأزق صعب ... « لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التى تؤدى الى الهدف » ؛ أى أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى عشرة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوى فى الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً .

ـ ثلاثون ألف روبل ، ثلاثون ألف روبل يا كوزما كوزمتش ، مع اننى لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسى الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكننى آثرت أن لا أرفع دعوى، لأننى لا أفهم فى شئون المخاصمات شيئاً ... فلما وصلت الى هذه المدينة رأيتنى ألاحَق وأطارَد (هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز الى موضوع آخر) ... هل تقبل ، فى هذه الشروط ، يا كوزما كوزمتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقى عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لى فى مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ ... انك لا تجازف بشىء على

الاطـــلاق ، أؤكد لك ذلك صـــادقاً ، وأحلف لك عليه بشرفى ••• بالعكس : لسوف تُردُّ اليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعه ••• وانما المهم أن تتم هذه الصفقة كلهـا « اليوم » • اننى مســتعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القبيل ••• أى اننى مستعد لكل شيء ••• أعطيك الأوراق التى ستحتاج اليها ، وأتنازل لك عن جميع الحقوق التى تريدها ••• نبرم العقـد فوراً ، فى هذا الصـباح ان أمكن ، اذا كنت تستطيع ذلك ••• ثم تعطينى الثلاثة آلاف روبل ••• أنت الذى تعد أغنى رجـــل فى هذه المدينة ••• وبذلك تنقذنى وتهب لى فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيل جـــداً فى الواقع ••• فاننى أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته ؛ وما كان لى أن أجيء اليك لولا علمى بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً • واذا شـئنا الدقة فى التعبير وجب أن نقول ان رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزمتش • فلنكن واقعيين يا كوزما كوزمتش ، لنكن واقعيين ! واذ انك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب فى عداد المتصادمين ، فلم يبق هنا لك الا خصمان يتنازعان • اننى أعبر عما بنفسى تعبيراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى لست بأديب • المهم أنه لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى • فاختر الآن : أتختـــارنى أنا أم تختار ذلك الشيطان ؟ كل شيء متـوقف عليك منـــذ الآن • انك تملك فى يديك مصائر ثلاثة أشخاص ، وعليك أنت أن ترمى النرد فتفصل فى الأمر •• اعذرنى اذا رأيتنى أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمنى ولا شك• اننى أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمنى ، فان لم تفهمنى فلن يبقى لى الا أن ألقى نفسى فى الماء ، هذا هو الأمر •••

قطع ميتيا حديثه الغـــريب المدهش فجأة بعــــد أن نطق بجملته

السخيفة تلك : « هذا هو الأمر » ، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردّ على عرضه المضحك • لقد أحس على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شيء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى • قال يحدث نفسه مضطرباً مرتبكاً متحيراً « غريب ! كنت حين وصولى أحسُ أن الفكرة رائعة ، فاذا هى لا تسفر فى النهاية الا عن غباء » وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا فى الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح فى عينيه تعبير بارد برودة الثلج • فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة موئسة :

ـ متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالا من هذا النوع •

أحس ميتيا بساقيه تنثنيان ! وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يرثى لهـا :

ـ ولكن يا كوزما كوزمتش ، ما عسى أصير اليه فى مثل هـذه الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟

ـ آسف •••

لبث ميتيا جامداً ساكن النظـرة ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئا من الانفراج فى عضلات وجه سامسونوف ، فارتعش وعاوده الأمل فجأة • قال العجوز :

ـ أنا يا سيدى لم أتعود تعاطى أعمال كهذه ، فاننى أكره الدعاوى وأمقت المحامين ••• ومع ذلك فى وسعى أن أدلك ، اذا شئت ، على شخص يمكنك أن تتجه اليه وتتكل عليه •••

فدمدم ميتيا يقول :

ـ من هـو ؟ آه ••• يا رب ! انك تردُّ الىّ الحيـاة يا كوزما كوزمتش !

ـ ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هده المدينة أيضاء انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب • اسمه لياجافى • وهو يتفاوض منـذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الأشجار التى آن قطعها فى قريتك تلك نفسها تشرماشنيا ، ولكنهما لم يتفقا على التمن كما لعلك تعلم ذلك • وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس ايلنسكى فى قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفيا • وقد كتب الىّ فى موضوع الأشجار هذه مستنصحاً • وأحسب من جهة أخرى أن فيـدور بافلوفتش يعتزم الذهاب اليه • فاذا أنذرت فيـدور بافلوفتش وعرضت على لياجافى ما عرضته علىّ الآن ، فمن الجائز أن •••

فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة :

ـ ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة اليه ؛ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوم على السعر ، ويُطلب منه مبـلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكاً للمنطقة بأسرها ! هاهاها ! •••

انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى حسبان العجوز ، فلم يملك العجوز الا أن يرتعش قليلا •

واستأنف ميتيا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور أملاً :

ـ كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش ؟

فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :

ـ لا داعى الى الشكر •

ـ أوه ! انك لا تعلم ••• لقد أنقذتنى من اليأس ••• قلبى هو الذى هدانى اليك ••• والآن ، الى ذلك القس !

ـ لا داعى الى الشكر •

ـ اننى ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضاً ! لقد أسرفت فى الاستفادة من لطفك وذوقك وكياستك ، بينما أنت مريض موجع•• أوه ! لن أنسى جميلك ما حييت • ان روسياً هـــو الذى يعدك بذلك ، رو •• سياً •••

ـ طيب •

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شـاكراً ممتناً ، ولكنه لاحظ وميضا خبيثا فى عينى العجوز فى تلك اللحظة ، فأمسك فـورا ، وأرخى يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه : « لا بد أن يكون متعبا ••• » ، وهتف يقول بصوت مدوٍ :

ـ هذا من أجلها يا كوزما كوزمتش ، هذا فى سبيلها !

ثم حيَّا العجوزَ بانحناء ، واستدار ، واتجه نحـــو الباب بخطى واسعة دون أن يلتفت بعد ذلك • كان ينبض حماسة • قال لنفســـه : « ظننت أن كل شيء قد ضاع • ولكن ملاكى الحارس أنقذنى • فحين يدلنى رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه ، وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أننى ربحت القضية ••• ما ينبغى أن أضيع دقيقة واحدة • سأذهب الى هناك حالاً • ثم أعود قبل الليل ••• نعم قبل الليل • آه ••• أصبح الأمر فى جيبى ! ذلك أن العجوز لايمكن أن يكون قد سخر منى على كل حال ! » • بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه الى بيته • ولم يكن يمكنه فى الواقع أن يتصـــور الا أحـد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن المسألة مسألة حل مضمون يوصى به رجل

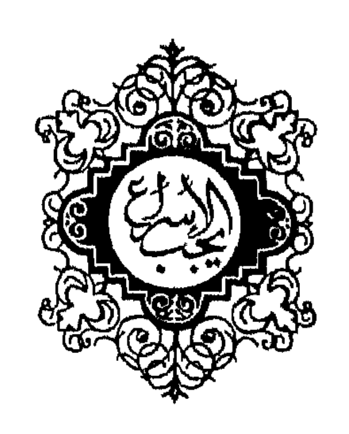
له خبرة سامسونوف الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا ـ يا له من اسم غريب ! ـ واما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه ! والحق أن هذا الافتراض الثانى كان هو الصحيح • لقد ظل العجوز سامسونوف زمناً طويلا بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبّر مكيدة لهذا « الكابتن » • ان سامسونوف انسان سيء الطوية قاسى القلب ساخر النفس ، كثيرا ما يخالط الكره في نفسه مرض • ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تنطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن رأس محموم و « سلة متقوبة » من هذا النوع ؟ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التى جاء هذا « الولد الطائش الفاجر » يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدرى أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعرا بانثناء ساقيه هاتفا فى غباء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه في تلك اللحظه نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه •

وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرث أن يظهر فى منزله مرة أخرى فى المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء ، والا •••

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفا ، رغم أنه سبق أن رآه غاضبا مرات كثيرة • وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسة حنق شديد يرتعش منه جسمه كله • حتى اذا جاء المساء أحسّ بألم ووهن ، فنادى الممرّض الذى يجرعه أدويته •

٢

ليساجاني



كذلك كان يردد ميتيا على نفسه . ولكنه لم يكن قد بقى معه مال لاستئجار خيول . ان فى جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقى له من سنى الثراء التى عاشها ! لكنه تذكر أن عنده فى البيت ساعة قديمة من فضه ، متعطلة منذ زمن طويل . فحملها الى تاجر ساعات يهودى ، له دكان قرب السوق ، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات . هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا : «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله ! » (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعاً ، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التى يقيم فيها . ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم فى عسر ، وذلك لأنهم يحبونه كثيرا . وأبلغهم ميتيا ، وهو على ما هو عليه من فرح طافح ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، ببضع كلمات سريعة جداً ، « الخطة » التى عرضها على سامسونوف والقرار الذى اتخذه سامسونوف ، والآمال التى أشرقت فى نفسه ، الخ . وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره ، وهذا هو السبب فى أنهم كانوا يعدونه واحدا منهم ، فهو « سيد » لا يتكبر ولا يتعالى . فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول

للسفر الى فولوفيا • ولكن هذا ألتّف واقعة ثابتة ستُذكر فيما بعد :
« فى عشية الحادثة ، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً ، حتى لقد اضطر ، من أجل الحصول على شىء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود • » •

اننى أذكر هنا هذا الظرف الذى لن تظهر خطورة شأنه الا فيما بعد •

كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق الآمال متهلل النفس • كان يتنبأ فرحاً بأن « جميع هذه الشئون » ستسوّى أخيرا • ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفا فى بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنكا أثناء غيابه • هبها قررت فى ذلك المساء نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا الافتراض انما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذى سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك • «يجب أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر » • كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به الى فولوفيا مسرعة وتهزه هزاً قوياً • وكان يحدث نفسه أثناء تعجله المحموم هذا قائلاً : « أما لياجافى هذا ، فسوف أعود به معى ، لابرام العقد » • ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من « خطط » وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخراً ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ، طريقا من الطرق التى تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثنى عشر فرسخاً بل ثمانية عشر • ثم ان القس ايلنسكى لم يكن فى بيته لأنه كان قد ذهب الى ضيعة مجاورة • فلما عثر عليه ميتيا أخيرا فى تلك الضيعة التى تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهوكة ، كان الليل قد أوشك أن يهبط • وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول

المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً فى أول الأمر ، ولكنه يقيم الآن في سوخوى بوزيبولوك ، وأنه سيبيت هذه الليلة فى عزبة حارس الحراج لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك • فتوسل اليه ميتيا أن يصحبه فورا الى لياجافى وأن « ينقذه » بذلك ، فتردد القس فى أول الأمر ، لكنه وافق أخيرا على أن يرافقه حتى سوخوى بوزيبولوك ، وكان واضحا أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة • ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الأقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو « أكثر قليلاً » • وكان طبيعيا أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته فى السير ، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً الى أن يماشيه راكضاً أو شبه راكض • ان هذا الكاهن رجل ما يزال غض الاهاب ، وهو فى أحاديثه شديد التروى والتعقل والحذر • وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح فى أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق • فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر فى الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : « لا أعلم ، مع لأسف • أنّى لى أن أعلم ! » • ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه فى موضوع الميراث ، ذعر القس ، لأنه كان مرتبطاً بفيدور بافلوفتش من بعض النواحى فيما يبدو ؟ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جور سكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء استياء شديداً من مناداته بهذا الاسم ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين « والا فلن تفلح معه فى شىء ، بل ولن يسمع لك » • بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلاً ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه• فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيّر الحديث•

ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذي راوده والشبهة التي خطرت بباله : لئن أرسله سامسونوف الى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافي ، فمن الجائز جدا أن يكون قد فعل ذلك سخراً به وضحكاً عليه ؛ ولا بد أن يكون في الأمر شيء « يعرج » على كل حال . ولكن ميتيا لم يكن في وقته متسع للتلبث على « مثل هذه السفاسف » .فهو يغذ السير ويمشي بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التي قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوزيولوك . ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه . ودخل الرجلان العزبة التي كان حارس الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثاني الذي يفضل لأول عناية وصيانة والذي يفصله عن النصف الأول دهليز ، موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؛ ومضى الرجلان الى جورسكين رأساً بعد أن أشعلا شمعة . كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة ، وعلى مائدة من خشب السنديان يُرى سماور منطفىء وصينية وفناجين وزجاجة « روم » فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا خمر ، وكسرات خبز . أما لياجافي فكان مستلقيا على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً . نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال في قلق :

ــ يجب ايقاظه طبعا ! ان القضية التي جئت من أجلها ملحة ، وأنا في عجلة من أمري ، لأن عليّ أن أرجع في هذا اليوم نفسه .

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما . واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزاً قوياً ، ولكنه لم يظفر بشيء ؛ ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران ، فقال :

ــ هو سكران ، فماذا عساى أصنع ؟ ما عساى أصير ؟ يا رب !

واذ بلغ الذروة من نفاد الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده

من ساقيه ، ثم انهض رأسه ، ثم أجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها •

قال القس أخيراً :

ـ خير لك أن تنتظر ، فما هو فى حالة تمكنه من المناقشة •

وقال الحارس :

ـ لقد ظل يشرب طول النهار •

فصاح ميتيا يقول :

ـ آه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتى اليه ، وفى أى ظرف أنا ! •••

قال القس :

ـ لا حيلة فى الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد •

ـ الى غد ؟ انك لا تفكر فى الأمر ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه • وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً ؟ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة •

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

ـ الحياة تهىء للانسان فى بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكية من هذا النوع !

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه • وانتهز القس لحظة هدنة وهدوء فأوضح كيف أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شىء ، لأنه لن يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد • وختم القس كلامه قائلا :

ــ وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه الى الصباح •

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبراً عن العجز• قال :

ــ طيب يا أبى • سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ، فمتى استيقظ كلمته •

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس :

ــ وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة هنا • سوف تتذكر دمترى كارامازوف •

ثم عاد يخاطب القس فسأله :

ــ ولكن أين تنام أنت يا أبى ؟

فأجابه القس بقوله :

ــ الأمر بسيط • أعود الى بيتى •

وأضاف يقول مومئاً الى الحارس :

ــ سيعيرنى فرسه • والآن نعمت مساءً • أرجو لك التوفيق كله•

وذلك ما كان • عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه من ميتيا • وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق ، متسائلا

ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه : « انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته . » . أما الحارس فقد حكّ رأسه وعاد الى غرفته دون أن ينطق بكلمة .

جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف . وأراد أن يفكر وهو على ماهو عليه من ارهاق شديد وكرب لا حدود له ، ولكن أفكاره كانت تتهرب.

ان الشمعة تذوب ببطء ؛ وهذا جدجد يغني في مكانٍ ما ؛ والهواء قد أصبح خانقاً في الغرفة المدفأة تدفئة زائدة . وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه ، والممر الذي يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح خلسةً في المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب ... فاذا هو يثب عن الدكة واقفاً ! ...

دمدم يقول وهو يصرف بأسنانه :

ـ يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس في وجهه . انه فلاح نحيل ما يزال شابا ، شديد استطالة الوجه ، مضفور الشعر ، لذقنه لحية طويلة رقيقة ، يرتدي قميصا هنديا وصديرة سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة . تأمل ميتيا وجهه ، فشعر بكره شديد لهذا الرجل ، وأحنقته ضفائره خاصةً ، لا يدري لماذا ! وبدا له أنه أمر لا يطاق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هام ضحى في سبيله بكل شيء ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزّق القلب هماً ، بينما هذا الكسلان « الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم كأن شيئا لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر . »

صاح ميتيا يقول فجأة :

ــ آه ... يا لسخريه القدر !

وطاس صوابه فهجم على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه . انه الآن حافد عليه فها هـــو ذا يهزه بكل ما أوتى من قوة ، وها هو ذا يصدمه ، بل ها هو ذا يضربه . ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله :

ــ يا للسخف ! يا للغباء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

ــ يا للذل أيضا ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب فى رأسه . وتساءل لحظة : « أأعدل ؟ أأرجع ؟ » ولكنه أجاب يقـــول : « بل سأنتظر الى الصـــباح . سأبقى خصيصا ، خصيصا ! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت الى هنا ... ثم ما عساى أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! ... » .

وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك . وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذى كان يستولى عليه شيئا بعد شيء ، ونام آخر الأمر جالساً . لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين ، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع فى الرأس ، ألم لا يطاق ، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ . كان صدغاه يطنان طنينا ، وكان يحس بوجع فى القذال . فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك على حين فجأة أن الغرفة المـــدفأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هى رائحة فحـــم محترق ، وأنه كاد يموت اختنـــاقا . وكان السكران ما يزال يغـــط فى نومه على الدكة .

وكانت الشمعة التى انصهرت انصهارا تاما تهم أن تنطفىء • صرخ ميتيا وأسرع الى غرفة الحارس مترنح الخطى • فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعل كثيرا حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث ، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضبا • وصاح يقول مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ لقد مات ، مات •••

فتُح الباب ، وفتحت نافذة ، ودخل الهـواء الى الغرفة ،ونظفت مدخنة المدفأة المسدودة • ومضى ميتيا فجـاء بقادوس ماء فأغطس فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبين لياجافى • فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئاً هدوءاً يوشك أن يشتمل على احتقار ؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة :

ـ هذا كافٍ •

ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً • ظل ميتيا يتحرك قرابة نصف ساعة الى جانب السكران الذى يوشك أن يكون مختنقاً ، وظل يجدّد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح • ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً •

فلما استيقظ كان الوقت ضحى • لقد دقت الساعة التاسعة ، والشمس تسطع من خلال نافذتى الغرفة الصغيرتين ؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التى كان عليها سماور جديد وابريق خمر جديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميتيا بوثبة واحدة ، وأدرك

منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جـــديد ، وأن سكره سيكون فى هذه المرة عميقا لا برء منه ولا علاج له • ظل ميتيا يحدِّق الى الفلاح دقيقةً محملق العينين • أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشىء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل والى ثقة مستخفة محتقرة، فيما بدا لميتيا • قال له ميتيا :

ـ معذرة •• أعتقد •• لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك ••• أنا الليوتنان دمترى كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه فى أمر ثمن أشجار الغابة •••

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادىء وثقة كاملة مقطعا كلامه :

ـ أنت تكذب ! هذا غير صحيح !

ـ كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !

فقال الفلاح رخوَ الفم :

ـ أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

ـ كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة التى ستقطع • هلاَّ استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشـدك ! ان الأب بولس ايلنسـكى هو الذى جاء بى الى هنا • تذكر ••• ولقد كتبت أنت الى سامسونوف، فأرسلنى سامسونوف اليك •

كذلك قال ميتيا لاهثاً مختنقاً • فعاد لياجافى يقول له :

ـ أنت ••• تك ••• ذب •

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره •

ـ أرجوك ! ليس الأمر مزاحاً • لعلك سكران قليلا • حاول أن تتكلم جاداً ••• افهمنى •• أو •• أو •• أصبحت لا أفهم !

ـ أنت صبّاغ ! هذه هى مهنتك !

ـ أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى كارامازوف ، وقد جئت أعرض عليك صفقة ••• صفقة رابحة ••• رابحة جدا لك ••• صفقة تتعلق بهذه الأشجار نفسها التى ستقطع •••

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة • ثم قال :

ـ هـــذا كذب ! لا شك أنك قد تواطأت على جـريمة وتريد أن تدحرجنى • أنت نذل ، نعم نذل •

قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً :

ـ أؤكد لك أنك مخطىء !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض ماكرا ، وهو ما يزال يلاعب لحيته • ثم قال :

ـ تاتاتا ••• انى لأوثر أن تقول لى ما هــو القــانون الذى يجيز للناس أن يقترفوا النذالات • هل تسمعنى يا نذل ؟ أنت نذل ، هــل تفهم ؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفســه اظلاماً شــديدا • وعندئذ برقت فى ذهنه فكرة مفاجئة ، « كأن أحداً ضربه على جبينه » ، كما روى هــو ذلك فيما بعد • لقد اتضح كل شيء فى فكره الآن • « كان ذلك الهاماً مباغتاً ، فأدركت كل شيء » • تساءل ميتيا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن يُساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شيء ، كيف أمكن أن يُساق الى وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة ••• « انه سكران ، سكران

سكراً فظيعاً ، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله ••• فعلام أنتظر مزيدا من الانتظار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد سخر منى وضحك علىّ بارسالى الى هنا ؟ وماذا اذا هى ••• أثناء هذه المدة ••• قد •• آه •• يا رب ! ماذا صنعت بنفسى ؟! •• » •

كان الفلاح ينظر اليه هادئا ضاحكا • فلو قد كان ميتيا فى ظرف غير هذا الظرف اذن لانقض على هذا الأبله حانقاً فصرعه ، ولكنه كان يشعر فى تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل • فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة ، فيرتدى معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يجد حارس الحراج فى الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه خمسين كوبكا فوضعها على المنضدة ثمنا للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضا عن الازعاج • وخرج من العزبة ، فوجد نفسه فى قلب الغابة دون أن يكون هناك شىء يمكن أن يستهديه فى معرفه طريقه ؛ فسار على غير هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التى جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يمنةً أم يتجه يسرة حين يخرج من منزل الحارس • انه لم يلاحظ الطريق فى الليلة البارحة من شدة تعجله • وهو الآن لا يشعر بأية رغبة فى الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف • انه يسير فى ممر الغابة الضيق ، خاوى الرأس زائغ النظرة ، كأنه يبحث عن « فكرة ضائعة » ، ولا يهمه أن يعرف الى أين كان ذاهبا ! ان فى وسع طفل صغير أن يقلبه على الأرض فى تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعانى من ارهاق جسمى ونفسى معاً • ومع ذلك خرج أخيرا من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر • قال فى نفسه وهو مايزال يسير قدماً دون أن يلوى على شىء : « كأن اليأس والموت قد مرَّا بهذا المكان ! » •

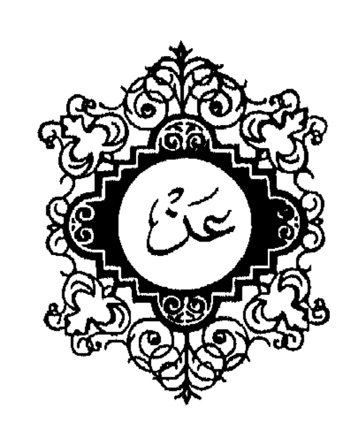
وأنقذه فلاحون • ان عربة تنقل تاجراً عجوزاً كانت تسير على

طول الطريق الذى يصـــل بين قرى صغيرة • فلما بلغتــه العربة سأل حوذيَّها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا • وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب ميتيا الى جانب المسافر العجوز • وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة الى محطة فولوفيا ، فلاحظ ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيلٍ تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت جوعاً ؛ فبينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً ، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا • حتى اذا استرد بذلك قواه ، شـــعر بتجدد شجاعته ، واستعاد صحو ذهنه •

الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحـــوذى على مزيد من السرعة ، ويهىء فى الوقت نفسه « خطة » جديدة ، خطةً « لا تخطىء » فى هذه المرة ، من أجل الحصول على « هذا المبلغ اللعين » قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً اشمئزازاً عميقا : « كيف يمكن أن يهـــوى مصـــير انسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ • لأجدنَّها فى هذا اليوم نفسه ! » • وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيدا ، لولا أن التفكير فى جروشنكا كان يحاصره • « ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث لها ؟»• كان هذا السؤال يطعنه فى كل لحظة كشفرة مسنونة • ووصلت العربة أخيرا ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأساً •

٣

مناجم الذهب



هذه الزيارة انما تحدثت جروشنكا الى راكيتين مذعورة . كان قد سرَّها ، وهى تنتظر الرسالة التى يعرف القارىء أمرها ، أن ميتيا لم يظهر منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لايجىء قبل رحيلها باذن الله . ولكنه ظهر على حين فجأة . والقارىء يعرف التتمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما كوزمتش حالاً، «لاجراء بعض الحسابات» ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجىء فى منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها . وقد سعد ميتيا بهذه التسوية ، قال لنفسه : « ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما كوزمتش ، فلن تذهب الى فيدور بافلوفتش » ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً : « اللهم الا أن تكون كاذبة . » ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة . انه ينتمى الى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور « خيانتها » لهم أثناء غيابهم . ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً يائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته ، لا يلبث أن يسترد شجاعته حين يرى

وجهها الضـــاحك الرقيق المرح ، فاذا هو يطرد من فكره كل شيء ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه على قلة الثقة .

بعد أن قام ميتيا بمرافقه جروشــكا الى منزل سامســونوف أسرع يعود الى بيته . ان هناك مسائل كثيرة بقى عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. غير أنه لم يلبث أن قال لنفســــه : « ينبغى لى أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعه ممكنة ، هل حدث شيء فى الليلة البـــارحة ، هل ذهبت جروشنكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟ » . هكذا اشتعلت الغــيرة فى قلبه المعذب من جديد ،قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته .

الغيرة ! « ليس عطيل غيوراً ، انه واثق » ، كذلك قال بوشكين . ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا القومى . ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشيء عن انه « فقد ايمانه بمثله الأعلى » . ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة فى مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب : انه أكثر ثقة من أن يفعل ذلك . بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصـــور الخيانة . ولا كـــذلك الغيور الحق . لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأى خجل من ذلك . وليس معنى هذا أن الغيـــورين أناس يتصفون بحقـــارة النفس حتماً . لا ... رب رجل نبيل القلب نقيّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضى مع ذلك أن يختبيء تحت السرر ، وأن يرشى أناساً قذرين ، وأن يســـتخدم أحط أنواع التجسس ! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة ـ أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها ـ رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير . ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شيء الا ويمكن أن يذعن له

الغيور وما من شيء الا ويمكن أن يغفره عنـــد الحاجه • ان الغيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون ملاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البدايه طبعاً) ، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم ، شريطة أن يستطيعوا أن يقولوا لأنفسهم ان « هذه آخر مرة » وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد في آخـر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم الى منطقه نائيه لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوما • ثم لا تدوم المصـالحة أكثر من ساعة طبعاً ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلبثـــون أن يكتشـفوا خصما جديدا منذ الغد ، فاذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هــذه « الخيانة » الجديدة • رب متسائل يتساءل : ما هي في نظرهم قيمــة حب يقتضي هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل المرأة التي يتصورون خيانتها تستحق منهم هذا الحب كله • ألا ان هذا السؤال بعينه هو مالا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم ، مع أن منهم أناساً لهم نفوس سامية رفيعة • وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضا : ان ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون ، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والمباغتة ، يستطيعون أن يفهموا تماما ، « لنبل قلوبهم » ، أنهم ينحدرون الى الخزي والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل •

ما ان رأى متيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى أصبح واثقا كريما سمحا خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى في هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيرا مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية والتعلق الجسدي اللذين حدث عنهما أخاه

أليوشا ، ليسا جوهر ذلك الحب • ولكن ما ان غابت جروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير •

استبدت به الغيرة اذن من جديد • وكان عليه أن يستعجل على كل حال • كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلا من المال لسدّ حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفدت فى تلك الرحلة ؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً حين لايكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس • ولقد فكّر ميتيا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا ابطاء • انه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا شديدا • وكان قد تعرف منذ زمن ، فى كاباريه «العاصمة الكبرى » ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهو يشترى مسدسات وبندقيات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها والاعجاب بها ، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ • ذهب ميتيا الى هذا الموظف الشاب دون تفكير كثير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرض قدره عشرة روبلات ، فسرّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتيا رفض التخلى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلاً انه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال • وافترق الرجلان صديقين • وأسرع ميتيا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى سمردياكوف • وبهذا أثبت ميتيا واقعة جديدة هى أنه « قبل حدوث الحادث الذى

سنتحدث عنه طويلاً فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن فى جيبه كوبك واحـــد ، فقرر أن يرهن فى سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات ... » ولكننى أسبق بهذا تتمة القصة ، فلأعد الى حيث وصلت منها .

علم ميتيا فى منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيـدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطرابا شديدا وقلق قلقـا عظيما . أصغى الى قصة سقوطه فى القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، ومبادرة فيدور بافلوفتش . وأُبلغ أيضا نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو فى مطلع الصباح ، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدث نفسه : « لا بد أن ايفـــان قد مرّ بفولوفيا قبلى » . غـير أن مرض سمردياكوف قد أحدث فى نفسه قلقاً كبيرا ومخاوف خطيرة . فأخذ يسائل المرأتين قائلا : « فما العمل الآن ؟ من عساى أكلف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟ ألم تلاحظا شيئا فى مســـاء أمس ؟ » . وأدركت المرأتان فوراً ما الذى يحـاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئنـاه . قالتـا له مؤكدتين : « لم يجىء أحـد . وقد أمضى ايفـان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، وجرى كل شىء على ما يجب ». وجم ميتيا مفكرا . لا بد من حراسة فى هذه الليلة أيضا . الأمر واضح. ولكن أين يرابط ؟ أيرابط هنـا فى الحـــديقة ، أم يرابط أمام منزل سامســونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهمـا ، وفقاً لما توجبه الظروف ، ولكن المهم قبل كل شىء ، قبل كل شىء ، هو أن ...

وقد آن فعلاً أوان تنفيذ « الخطه » الجديدة ، الجدية فى هـــذه المرة ، التى رسمها فى العربة . ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله . فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن و قال يحدث نفســه :

« بعد ساعة واحـــدة أكون قـد سوّيت كل شيء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فورا لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة ، وبعـــد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها » • على هذا النحو حل ميتيا الصعوبة •

وأسرع الى بيته فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة ، وارتدى ملابسـه وذهب الى السيدة هوخلاكوفا • فهناك كانت « خطته » ، واحزناه ! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة • حتى لقد راوده على حين فجأة يقين عجيب خارق من أنها لن تمتنع عنه هذا المبلغ• رب متسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هده المرأة التى تنتمي الى بيئته على الأقل ، ولماذا آثر أن يتجه الى سامسونوف الذى يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأى لغة يخاطبه ! يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التى كان لا يعرفها كثيرا على كل حال • وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية فى الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترين ايفانوفنا • لقـــد كانت تتمنى أن تقطع كاترين صـلتها به لتتزوج ايفـــان فيدوروفتش «الشاب المثقف ، اللطيف ، المحبب ، الذى يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية » ، على حين أن آداب ميتيا كريهة مقيتة • ثم ان ميتيا قـد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها « انها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هى قليلة الثقافة » • ولكن فكرة قد ومضت فى ذهنه وميض البرق فى الصباح ، فقـال لنفسـه : « ما دامت تكره أن أتزوج كاترين ايفانوفنـا وما دام هذا الزواج يثير حنقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة هوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضى هذه الثلاثة آلاف روبل التى ستتيح لى ان

أفصم علاقتي بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد • » • وكان ميتيا يقول لنفسه أيضا : « ان نساء المجتمع هاته ، وهن صاحبات نزوات دللتهن الأقدار ، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية في سبيل هوى غريب من أهوائهن العجيبة ! » • ان « الخطة » التي وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة هوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه في قرية تشرماشنيا ، ولكنه لا ينوى في هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل ؛ وانما يكون التنازل عن الحقوق ، في هذه الخطة الجديدة ، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذى سيُتفق عليه • وكان كلما ازداد تفكيرا في هذا المشروع ازداد حماسةً له ، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قرارا جديدا • انه يتحمس في البداية لكل مشروع من مشاريعه • ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل هوخلاكوف ، بقشعريرة في ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد : لقد أدرك في تلك اللحظة ، بيقين رياضي ، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها ، فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك ، « اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا مخرج لى ••• » • كذلك قال ميتيا لنفسه • وكانت الساعة هي السابعة والنصف حين شدّ الجرس •

بدا كل شيء يجرى على ما يحب ويشتهى في أول الأمر : فما ان أُبلغت السيدة هوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بادخاله • فدُهش ميتيا من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : « لكأنها كانت تنتظرنى » • وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره •••

ــ كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شيء كان يسمح لى بأن أتنبأ

بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة . ومع هـــذا كنت أنتظرك . فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى .

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

ـ حقاً ان هذا يثير الدهشة ، يثير أكبر الدهشة ... ولكننى جئت من أجل قضـــية خطيرة ، خطـيرة خطـورة رهيبة ... بالنسبة الىّ .. طبعا .. يا سيدتى ... بالنسبة الىّ وحدى ... لذلك أسارع ف ...

ـ أعرف أن السبب الذى دفعك الى المجىء سبب خطير يا دمترى فيدوروفتش . وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات أتنبـؤها ، لأننى أكره ذلك الايمـان الرجعى بما هو فوق الطبيعـة (لعلك على علمٍ بمغـامرة الشيخ زوسيما) ... وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجىء الىّ حتما بعد كل ما جرى مع كاترين ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن لا تجىء . هذه رياضيات ...

ـ أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى . لنكن واقعيين ... اسمحى لى أن أبسط لك بايجاز ...

ـ الواقعيـــة ... قلتها يا دمترى فيـــدوروفتش ! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم ! آه ... لقد شُفيت من مرض الايمان بالمعجـزات ، صدقنى ! أنت لا تجهل طبعا أن الشيخ زوسيما قد مات !

قال ميتيا بشىء من الدهشة :

ـ لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك .

وطافت بخياله صورة أليوشا . قالت السيدة هوخلاكوفا :

ـ مات هذه الليلة ... تصور أن ...

قاطعها ميتيا قائلاً :

ـ سيدتي ، أنا لا أعرف الا شيئاً واحدا : هو أنني في وضع عصيب وأن كل شيء سينهار اذا أنت لم تساعديني ، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفري لي خشونة لغتي ، ولكنني في قلق محموم ؟ ان بي حمى حقا ..

ـ أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة على كل شيء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي اليوم. كل ما قد تقوله لي الآن ، أنا أعرفه سلفاً . انني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا دمتري فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها.. هه ! أنا طبيبة نفوس ، خبيرة جدا ... صدقني يا دمتري فيدوروفتش!

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهدا من أجل أن يبدو لطيفا محببا :

ـ سيدتي ، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة . ولكنني أنا أيضا مريض خبير . انني مقتنع اقتناعا قويا بأنك ستساعدينني في اتقاء هلاك كبير ، ما دمت قد قد اهتممت بمصيري ذلك الاهتمام كله . فاسمحي لي لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك .. وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها انني آمل منك ... لقد جئت ياسيدتي من أجل أن ...

ـ لا تشرح ... هذا أمر ثانوي ! لن تكون أول شخص أساعده يا دمتري فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا. كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار انهيارا على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهارا عظيما . هل تفهم في شئون تربية الخيول يا دمتري فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب ، حتى لقد همّ أن ينهض :

ـ لا يا سيدتى ، أبدا ... لا أفهم فى هذا المجال شيئا ! أتوسل اليك يا سيدتى أن تصغى الىّ لحظة . دعينى أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعى . ثم اننى لا أملك الا وقتا قصيرا جدا ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هسترى ، اذ حزر أنها ستقاطعه ، وأمّل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت اليك لأننى قد بلغت ذروة الكرب واليأس ، وأردت آن أرجوك أن تسلفينى ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتى ، بشروط موثوقة تماما . وهأنذا أشرح لك الموضوع ...

قالت السيدة هوخلاكوفا وهى تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التى همّ بها ميتيا :

ـ تشرح فيما بعد ، فيما بعد ... ستقول لى هذا كله فيما بعد . ثم اننى أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لى ، سبق أن قلت لك هذا . أنت فى حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكننى سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيرا ، لأننى أريد أن أنقذك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أطالبك فى مقابل ذلك بأن تطيعنى .

وثب ميتيا من مقعده من جديد ، قائلاً بانفعال شديد :

ـ آه ! سيدتى ! هل يمكن أن تكونى طيبة الى هذا الحد ؟ آه ! لقد أنقذتنى ! يا رب ! لقد انتزعت انسانا من ميتة عنيفة يا سيدتى ، من ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس ... لسوف أظل شاكراً لك الى الأبد ...

عادت السدة هوخلاكوفا تقول ، وهى تنظر بابتسامة مشرقة الى وجه ميتيا المتحمس :

ـ لأعطينك أكثر كثيرا من ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أكثر كثيرا ؟ لست فى حاجة الى كل هذا . ليس بى حاجة الا

الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتى أن أعطيك ضمانة لهـذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له . ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو ...

فقاطعته السيدة هوخـلاكوفا التى كان وجههـا يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

ـ كفى ! أنا لا أنكث عهداً . لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل . سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا . ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ مناجم الذهب يا سـيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوماً حتى الآن ...

ـ أما أنا فقد فكرت فيـه من أجلك ! لقـد وزنت جميع جوانب المسألة . اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض . ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : « هذا رجل نشيط فعّال يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب » ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشيتك ، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة .

لم يملك ميتيا الا أن يسأل السيدة هوخلاكوفا مبتسماً :

ـ استنتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة هوخلاكوفا :

ـ نعم ، من مشـيتك أيضا . هل تسـتطيع أن تنكر يا دمترى فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا . آه ... ما أكثر ما أصبحت واقعيه الآن ! فمنذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزاً قوياً ،

أصبحت لا أؤمن الا بالواقعيه ، بالوا .. قعيه ، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي . لقد شفيت من الغيبية الى الأبد . « كفى ! » ، كما قال تورجنيف * .

ـ ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها كريمة سخية !

قالت السيدة خلاكوفا بقوة وحرارة :

ـ ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها في جيبك منذ الآن . لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمتري فيدوروفتش ! اليك المشروع الذي أقترحه عليك : تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين ؛ ثم تعود الينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل ، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس ، تنقذنا من خدرنا وكسلنا ، وتقودنا نحو الخير . هل يجب أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود ؟ ستبني عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات ... اننا نعيش في عصر السكك الحديدية يا دمتري فيدوروفتش . وستعلم وزارة الخزانة ، التي تتخبط في مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك فتناديك وتعتمد عليك . ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم ! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً ...

قاطعها ميتيا قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً :

ـ سيدتي ! سيدتي ! من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك ، وهي نصيحة سديدة جدا في الواقع ... سأتبع هـذه النصـيحة حتما فيما بعد ... سـأذهب الى مناجم الذهب هـذه ... وسأعود مرة أخرى لنتحدث في أمرها ... أما الآن ... فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت ف ... آه ! ان هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب !

ليتنى أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم ••• ذلك أننى ، كما ترين ، لا أملك وقتاً أضيِّعه ••• لا يوما ، ولا ساعة •••

قاطعته السيدة هوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة :

ـ كفى ، كفى ! أجبنى : أتذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل عزمت أمرك ؟ أريد جوابا واضحا دقيقا !

ـ سأذهب يا سيدتى فيما بعد • سأذهب الى حيث تريدين ياسيدتى ! أما الآن •••

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ انتظر !

وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكبيرة ، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شيء ما •

قال ميتيا محدثا نفسه وقد كاد ينشق قلبه : « الثلاثة آلاف ! وبدون ضمانة ، بدون رهن ، بدون وصل ، ما أنبلها امرأة ! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة ••• » •

وهتفت السيدة هوخلاكوفا تقول عائدة اليه :

ـ هاك ••• هاك ما كنت أبحث عنه •

هو أيقونة صغيرة جدا من فضة ، ذات حبل ، كالأيقونات التى تحمل أحيانا تحت القميص مع الصليب •

وشرحت السيدة هوخلاكوفا قائلة برصانة :

ـ هذه الأيقونة من كييف • لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة بارب ، الشهيدة العظيمة • فاسمح لى أن أعلّقها لك بنفسى ، لتباركك فى حياتك الجديدة ، ومشاريعك المقبلة •

قالت له ذلك ، ووضعت الأيقونة حول عنقه ، وجهدت أن تعدلها. أحنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيرا فى أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة هوخلاكوفا بلهجة فيها أبهة :

ـ والآن هلمّ الى مناجم الذهب .

وعادت تجلس .

قال ميتيا :

ـ سيدتى ! أنا متأثر جدا ... لا أدرى كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة ... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالى ! ... ان ذلك المبلغ الذى انتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل يا سيدتى ... آه ... ما أطيبك ، ما أعظم عطفك علىّ ! (بهذا هتف ميتيا فى سورة صادقة) ... اسمحى لى أن أعترف لك .. بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال ... اننى أحب امرأة فى هذه المدينة ... لقد خنت كاتيا .. أقصد كاترين ايفانوفنا . وا أسفاه ! كان سلوكى معها خالياً من الخلق والشرف ... تولهت هنا بامرأة أخرى ... امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر ، أعرف ذلك ... ولكن يستحيل علىّ أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل ...

قاطعته السيدة هوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

ـ دعك من هذا . دع النساء خاصةً ! مناجم لذهب ، ذلك هو هدفك بعد اليوم ، ولا شأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً مجللاً بالمجد ، تختار حليلةً من بنات أرقى مجتمع : فتاةً عصرية ،

منقفة ، متحررة من الآراء الشـــائعة . وفى ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التى يتحدث النـــاس عنها كثيراً فى هذه الأيام ، ستكون قد حُلَّت ، وستظهر فى روسيا امرأة جديدة ...

قال ميتيا وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى فى هيئة المتوسل :

ـ ولكن ليس هذا ، ليس هذا ما ...

ـ بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شيء سواه ! هنالك السعادة التى تنشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك . اننى مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة .ان تحرر المرأة ، وحتى وصولها الى الحيـــاة السـياسية ، هو مثلى الأعلى . ان لى ابنةً يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفوننى كثيراً فى هـــذا المجال . لقد كتبت فى هذا الى شتيدرين* . ان هذا الكاتب قد كشف لى أموراً كثيرة ، كثيرة جداً ، أموراً لا تخطر على البال ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه فى العام الماضى كتــاباً لم أذكر فيه اســمى ، كتــاباً من سطرين : « أقبلك بحرارة ، يا عزيزى المفكر الكبير ، باسم المرأة العصرية . استمر ! » وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : «أم» . خطر ببالى أن أوقّع : «أم عصرية» ، ولكننى اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يادمترى فيدوروفتش ؟ هذا عدا أن كلمة « عصرية » كان يمكن أن تذكره بمجلته « المعاصر » ، وأن توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن ... ولكن ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده . وها هو ذا يضم يديه احداهما الى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة :

ـ سيدتى ! لسوف تبكيننى اذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتنى به ...

ـ ابكِ يا دمترى فيدوروفتش ، لا تخش أن تبكى ! ان هـذه العواطف تشرّفك ... ما يزال طـريقك طويلاً ! ستحسن الدموع اليك . سوف تعـود يوماً وسوف تكون سعيدا . ستجيئنى من أعماق سيبريا خصيصا لأشاركك فرحتك ...

أعول ميتيا فى هذه المرة يقول :

ـ اسمحى لى أخيراً أن أقـول كلمة . أرجـوك مرةً أخيرة أن تجيبينى : هل يمكننى أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم تأمرين أن أجىء لأخذه ؟

ـ عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ عن الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فوعـدتنى بها ... منذ قليل ...

ـ ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه ... لا ... أنا لا أملك هـذا المبلغ .

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا بدهشة هادئة .

صعق ميتيا . وقال :

ـ كيف هذا ؟ لقد وعدتنى منذ برهة ... منذ هنيهة قصيرة ... حتى لقد قلت اننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجودا فى جيبى .

ـ آه .. لا ... لا شك أنك أسأت فهمى يا دمترى فيدوروفتش. لا ، لا ، انك لم تفهمنى . لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب . صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هـذا الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب .

صاح ميتيا يقول بغباء :

ــ والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

ــ اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك اننى لا أملك مالاً . اننى الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش. حتى اننى فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام . لا ، لا ، لا أستطيع أن أسلفك شيئاً . واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش أننى لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضا ، أولا لأننى لا أقرض أحداً قط ، فالدين خصام دائماً ؛ واذا أقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شىء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

ــ شيطان يأخذ المناجم !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة .

ــ آى ... آى ...

كذلك أنّت السيدة هوخلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخر الصالون .

بصق ميتيا من فرط حنقه . وبخطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم . انه يسير الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه فى الشارع ساعة الغسق . لماذا يلطم صدره هذا اللطم ، « على هذا الموضع نفسه » ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟

ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا • هـذا سره فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم أنه ، لأسباب يكتمها ، انما يسـير الى هاوية العار ، الى انهيار حياته ، الى الانتحار • ذلك ما سيحدث حتماً اذا هـو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، « عن هذا الموضع بعينه من صدره » ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق • ان هذا كله سيتضح مزيدا من الاتضاح فيما بعد • والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة هوخلاكوفا ، حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير • وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتى يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب • وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها •

ـ يا رب ! كاد يقتلنى ! هلاّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام ؟

ـ كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة •

سألته العجوز بصوت أصبح لطيفا على حين فجأة :

ـ ومن أنت يا بنى ؟

ـ أنت فى خدمة كوزما كوزمتش ، أليس كذلك ؟

ـ هـذا صحيح يابنى ، وأنا ذاهبة الآن الى بروخورتش ••• لا أستطيع أن أميِّزك فى هذا الظلام •••

قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً :

ــ قولى لى يا أماه : هل أجرافين الكسندروفنا عندكم الآن • لقد أوصلتها الى منزلكم منذ قليل •

ــ لقد جاءت يا بنى فمكثت لحظة ثم انصرفت •

فصرخ ميتيا :

ــ انصرفت ؟ كيف هذا ؟ الى أين ذهبت ؟

ــ لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصَّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت •

زأر ميتيا يقول :

ــ أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة •

فصاحت المرأة تقول مذعورة :

ــ آى ••• آى •••

ولكن ميتيا كان قد غاب •

أسرع ميتيا يركض بخطى كبيرة نحو منزل آل موروسوف• كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ســــاعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى المطبخ مع جدتها ماترين الطباخة ، حين ظهر « الكابتن » فجأة فى المنزل• فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع •

أعول ميتيا يسألها :

ــ ها ••• تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى شحب لونها شحوبا شديدا من الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

ـ فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ، لست على علم بشيء أيهـا العزيز دمترى فيدوروفتش • ولو قتلتنى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا • ثم انك قد خرجت معها منذ قليل •

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها •

قال ميتيا :

ـ ولكنها عادت •

ـ لا ، لا ، يا عزيزى دمترى، فيدوروفتش ، لم تعد ، أحلف لك بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

ـ تكذبين ! وانى لأحزر من ذعرك وحده الى أن ذهبت ؟

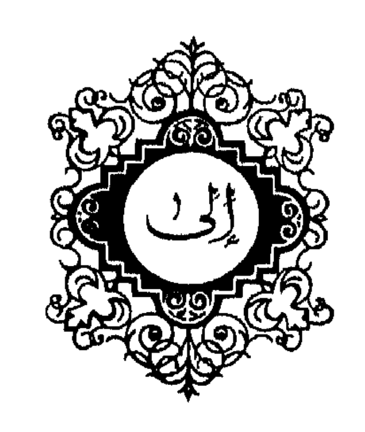
وأسرع يركض فى الشارع من جديد • فما كان أسعد فينيا بأنها تخلصت منه بمثل هذه السـهولة ! فلقد أدركت حق الادراك أنه كان سيسومها سوء العذاب خلال ربع سـاعة ، لولا استعجاله الشـديد • على أنه قد فاجأ فينيا وماترين العجوز ، حين انصرافه ، بحـركة لم تكن فى الحسبان : كان هناك على المائدة هاون ومدق من نحاس ، ولكن المدق ليس كبيراً • فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسّه فى جيب سترته •

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ رباه ! سيقتل أحدا •

٤

في الظلام



اين كان يركض ؟ ذلك سؤال يُحزر جوابه: « أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف . الحيلة واضحة ، والكذب مفضوح ! » . كانت هذه الأفكار تغلي في رأس ميتيا .

تحاشى ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندراتيفنا . قال لنفسه : « يجب أن لا تراني ماريا بحال من الأحوال !... يجب أن لا أنبهها... والا وشت بي فوراً ، وأبلغت أنني هنا ... لسوف تخونني حتماً . لا شك في أنها متواطئة معهم . وكذلك سمردياكوف . لقد اشتُروا جميعاً ! » . لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرّ بالشارع الصغير الذي يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع دمتريفسكا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال غير مأهول يقع وراء الفناء . ان هذا المكان يحُدّه سياج بستان مجاور من جهة ، ويحده من الجهة لأخرى السور العالي الذي يحيط بمنزل فيدور بافلوفتش . واختار ميتيا لتخطي ذلك السور الموضع الذي يُروى أن البزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه في الماضي . قال ميتيا لنفسه :

« اذا استطاعت تلك أن تتخطاه ـ لا يدرى الا الله لماذا ـ فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟ » • واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية ، فاذا هو يصبح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان • ان حمامات المنزل قريبة جدا من ذلك المكان ، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة • قال ميتيا يحدث نفسه : « طبعا !••• ان فى غرفة نوم العجوز نوراً • معنى هذا أنها عنده ! » • ووثب بعد ذلك الى الحديقة • ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضا ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لطا متجمعا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه • ان صمتا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله • لا نأمة ، ولا نسمة ••• هدوء مطلق ، كأنما عن قصد وعمد •••

« الصمت وحده يهمهم » • خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا • وقال يحدث نفسه : « آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت ! ولكن يظهر أننى لم أُسمع » • وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة ، سائرا على العشب حتى يخنق كل ضجة • كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئا ، ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيخ بسمعه الى أيسر صوت • فلم يصل الى النافذة المضاءة الا بعد خمس دقائق • وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباطٍ كثيفة تمتد أغصانها الى علو كافٍ • وكان الباب الذى يفضى من الحديقة الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً ، فانتبه ميتيا الى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره • ووصل أخيرا الى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه • قال لنفسه : « يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتى ، فأخذوا

يصيخون بأسماعهم للتأكد ... أرجو أن لا أسعل أو أعطس ... » .

وانتظر دقيقتين ، خافق القلب خفقاناً شديداً ، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه . ثم قال لنفسه : « لا ... لا أستطيع أن أبقى هنا . ان دقات قلبى لن تهدأ ، فلا يمكننى أن أنتظر مزيداً من الانتظار » . كان ميتيا مختبئاً فى ظل مجموعة الأشجار التى ينيز الضوء لآتى من النافذة جانبها الخلفى . ورأى نفسه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا : « ما أشد الاحمرار فى أثمار أشجار الرباط هذه ! » . ثم أخذ يدنو من النافذة بخطى كخطى الذئب ، حتى اذا بلغها انتصب واقفاً على رءوس الأصابع . بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها . انها غرفة صغيرة ، تنقسم قسمين بحاجزين أحمرين ، كان فيدور بافلوفتش يسميهما « الصينيين » . قال ميتيا لنفسه : « الحاجزان الصينيان .. لا شك أن جروشنكا تختبىء وراءهما » . وأخذ ميتيا ينعم النظر فى أبيه . كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهى بعقد ؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب ؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذى سبق أن رآه أليوشا . قال ميتيا لنفسه : « لقد تجمل وتزين » . وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب . وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت ؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصبّ نصف قدح من الكونياك وأفرغه فى جوفه ، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه . وفكّر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذى يخفى جبينه ، وأخذ ينعم النظر فى الندبات والبقع الزرق التى لم تختف بعد . قال ميتيا لنفسه : « أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد » . وفى تلك اللحظة

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة ، والتفت فجأة نحو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخارج • فما كان من ميتيا الا أن ارتمى فى الظلام بوثبة واحدة •

وقال ميتيا لنفسه : « من الجائز أيضاً أن تكون مختبئة وراء الحاجزين ،وربما كانت نائمة • » • فما ان تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ فى قلبه • وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة • « لا شك انه يترقبها هى اذ ينظر من النافذة الى الخارج • فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً » • وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه • كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس • ووضع كوعيه أخيراً على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى • فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم !

وقال بصوت خافت جداً : « وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجهاً آخر » • ومن عجائب قلب الانسان ما شعر به ميتيا حينذاك : لقد أحسّ فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك ، نوع من خيبة الأمل عجيبٍ لا يُفهم ! فقال يشرح لنفسه : « لا ••• ان ما أُحسه من اهتياج لا يرجع الى اننى لا أراها ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه » • وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره فى تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء ، فلا تفوته شاردة ولا واردة ، حتى ليدرك أُدق تفاصيل الموقف • ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، لأنه ليس من أمره على يقين ، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع •

تساءل : « أهى هنا أم لا ؟ » • واشــتعل حنقه • وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد ذراعه ، وينقر على الزجاج نقرات الاشـارة المتفق عليها مع ســمرديا كوف وهى : نقــرتان متباعدتان ، فثلاث نقرات متقـاربة ، دلالةً على أن « جروشــنكا قد وصلت » • فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة • فارتمى ميتيا فى الظلام •

دمدم فيدور بافلوفتش يسأل بصوت مرتجف :

ـ أهذا أنت يا جروشــنكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا حبى ؟ أين أنت ؟

وكان يختنق من فرط الانفعال •

قال ميتيا لنفسه : « انه وحيد » •

واستأنف العجوز يسأل :

ـ أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً الى جميع الجهات • وها هو ذا يضيف قوله :

ـ تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة • تعالى فأريك المفاجأة •

قال ميتيا فى سره : « هى الظرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل » •

ـ ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب •

وكاد يسقط من النافذة من شدة ميله عليها ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين • ولو قد اتسع الوقت لحظة أخـرى اذن لأسرع الى البـاب حتماً دون أن ينتظر جواب

جروشنكا . كان ميتيا يرقبه من قرارة مخبئه بغير حركة . كان يراه من جانب . فكان وجهه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقه ، وكان أنفه الأقنى ، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظار شبق ، كان ذلك كله يبرز فى ضوء ساطع يسقط عليه مواربا من المصباح الموجود فى الجهة اليسرى من الغرفة . فاذا بكره عنيف فظيع يغلى فى قلب ميتيا فجأة ، فيقول فى نفسه : « هذا هو ، هذا هو غريمى ، هذا هو خصمى ، هذا هو جلاّدى ، هذا هو عدو حياتى ! » . انها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامىء الى الانتقام ، الذى تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما فى الجناح قبل أربعة أيام جوابا على سؤال أليوشا له : « كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك ؟ » . لقد أجابه يومئذ قائلا : « لا أدرى ، أصبحت لا أدرى . قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل . أخشى أن يصبح فى نظرى كريها على حين فجأة بوجهه المقيت فى تلك اللحظة . اننى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينيه ، وضحكته الصغيرة المستهترة . انه يثير فىّ تقززا جسميا . ذلك هو ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسى » .

وكان التقزز الجسمى الذى يحس به ميتيا لا حدود له . فاذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبه مِدقّ الهاون على حين فجأة ...

سوف يقول فيما بعد ان الله كان ساهرا عليه فى تلك الدقيقة . ففى تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش فى سريره الذى كان قد اضطجع عليه مريضا . كان جريجورى قد لجأ فى المساء الى استعمال الدواء الذى ذكره سمردياكوف فى حديثه مع ايفان فيدوروفتش ، أى دلّك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الخمر ومغلىّ أعشاب قوى

ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت • ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده • أما جريجورى فقد استيقظ من نومه فى وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحقوية • فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع يرتدى ثيابه • من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه « فى فترة خطرة الى هذا الحد » • وكان سمردياكوف الذى صرعته النوبة ، راقداً بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة • ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى لنفسه وهو يلقى نظرةً عليها : « انها لم تتحمل الدواء » ثم خرج الى درجات الباب وهو يئن • كان لايستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج ، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الكليتين والساق اليمنى • ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدى فى المساء • ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين • وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم ، ويتجه الى الحديقة • وكان باب الحديقة الحديدى مفتوحاً حقاً • أتراه لاحظ شيئا يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يُتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة فى غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؛ فتساءل : « كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا فى فصل الصيف ؟ » ، ولمح فى تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك فى الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه • كان هناك رجل يهرب فى الظلام • صاح جريجورى يقول : « رباه ! » ، ثم نسى فجأة

ألمه ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلك أقصر طريق ، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذى يطارده • لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط • وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره، فوصل الى السور فى اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ،ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه •

لم يخطئه حدسه ؛ عرف الرجل : انه ذلك الشيطان الرجيم « قاتل أبيه » •

زأر العجوز يقول :

ـ يا قاتل أبيه ! •

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فها هو ذا يهوى على الأرض مجندلاً •

قفز ميتيا الى الحديقة من جديد ومال على الخادم الذى جندل له • وكان ميتيا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلاً • سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل فى الممر، أى فى أبرز موضع يُرى • ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامى رأسه ، ومدّ يده يجس الرأس • لقد تذكر ميتيا فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أنه شعر فى تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى « التأكد تأكداً كاملاً » : هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمى عليه بسبب الضربة التى أصابت صدغه • ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة • وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به

حين ذهب الى السيدة هوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه . فسرعان ما ابتل المنديل بالدم خلال بضع ثوانٍ . فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد ثاب الى رشده : « ما بقائى هنا ؟ » ثم أضاف يقول يائساً : « وكيف يمكننى أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا ؟ وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع فقد وقع ... ولقد كان العجوز متهوراً فنال ما يستحق ! » . بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ ، ثم اندفع نحو السور ، فتسلقه ، وقفز الى الشارع الضيق ، وانصرف راكضاً . وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم ، فدسَّه فى جيب سترته دون أن يهدىء سرعة ركضه . كان يعدو عدوا شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولسوف يتذكر عدة مارة صادفوه فى الشوارع أنهم رأوا فى تلك الليلة رجلا يهرب فى الظلام طائش العقل .

اتجه ميتيا من جديد الى منزل آل موروسوف . كانت فينيا قد أسرعت ، بعد انصرافه ، الى بيت البواب نازير ايفانوفتش فتوسلت اليه «باسم يسوع المسيح أن لايدع «للكابتن» أن يدخل المنزل مرة أخرى ، لا فى هذا المساء ولا فى الغد » ، فوعدها نازير ايفانوفتش بأن يلبى رجاءها ، ولكنه اذ اضطر أن يذهب الى مالكة المنزل فى الطابق الأعلى ، عهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن الكابتن ، فلما وصل دمترى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه ، لأن ميتيا كان قد أعطاه « بقاشيش » كبيرة مرات كثيرة ، وتركه يدخل ، حتى لقد أسرع يبلغه ، وهو يبتسم ابتسامة تودد ، أن « أجرافين الكسندروفنا ليست فى بيتها » . فسأله ميتيا بحرارة :

ــ فاين هى يا بروخور ؟

فقال له الشاب :

ـ سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموتى قيادة الخيل •

صاح ميتيا يسأله :

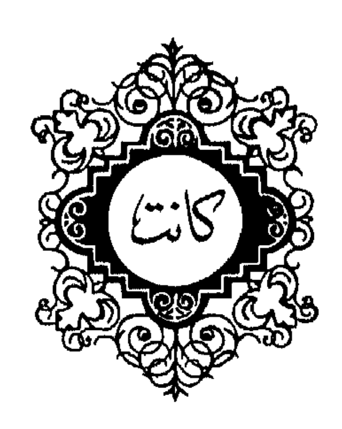
ـ ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ! ضابط استدعاها وأرسل اليها عربة تقلها •

كان ميتيا قد انقطع عن الاصغاء اليه • فلقد أسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا •

٥

قدر مفاجئ



فينيا في المطبخ مع جدتها ، وكانت المرأتان تستعدان للنوم • وقد اعتمدتا على بقظة نازير ايفانوفتش ، فأهملتا مرة أخرى اقفال الباب بالمفتاح • اقتحم ميتيا الغرفة ، وارتمى على فينيا، فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجاً عن طوره :

ـ قولي لي حالاً ، مع من هي في موكرويه الآن ؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة • وجمجمت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب :

ـ سأقول كل شيء يا دمتري فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن أخفي شيئاً • لقد ذهبت جروشنكا الى لقاء ضابطها في موكرويه •

صرخ ميتيا يسألها :

ـ أي ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

ـ الضابط الذي عرفته في الماضي ، منذ خمس سنين ••• الضابط الذي تركها وسافر •

أعتق ميتيا عنق فينيا . ولبث أمامهـا لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبّرت نظرته عن أنه أدرك الحقيقة الآن على حين فجأة ، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها . لقد ظلت جالسة على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبثت ترتعش جامدة على ذلك الوضع نفسه مادّة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها . وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان الى ميتيا الذى كانت يداه حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذى كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى . وشعرت فينيا أنها توشك أن تصاب بنوبة عصبية . وكانت العجوز الطباخة التى وثبت عن مكانها تنظر الى المشهد مذعورة النظرات ، نصف مجنونة من شدة الهلع . وبعد دقيقة من صمت تهالك ميتيا على كرسى قرب فينيا .

كان ميتيا لا يفكر . انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا مذهولاً . كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط . وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشنكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها . فخلال شهر اذن ، خلال شهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكترث له أو قلق منه . كيف أمكنه أن لا يفكر فى هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن رأى رسالته ؟ كان هذا السؤال يعذب ميتيا كأمر عجيب غريب ، ويبعث فى نفسه خوفاً ورعباً .

وهاهوذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة ولطف وكياسة ،

كطفل طيب خجول ، دون أن يتذكر كيف داهمها وقسا عليها منذ لحظات • أخذ يلقى عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل فى مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفى عنه شيئاً • ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة فى أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد ايلامه ، بل عن رغبة صادقة منها فى أن تكون نافعة له • قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشنكا ، وردّدت على مسامعه التحيات التى حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها اليه ، بغية « أن يتذكر على مدى حياته الساعة التى أحبته فيها » • فلما وصلت فينيا الى هذه النقطة من حديثها ابتسم دمترى ، واحمر خداه الشاحبان بضع ثوان• وتجرأت فينيا عندئذ فسألته دون خوف فى هذه المرة :

ـ لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً :

ـ آ ••• نعم ••• صحيح •

وألقى على يديه نظرة ذاهلة •

ولكنه سرعان ما نسى السؤال الذى أُلقى عليه ، وغرق فى الصمت • لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا • ان الرعب الذى اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلّ محل ذلك الرعب • وها هوذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة ذاهل اللب شارد الفكر •

سألته فينيا وهى تشير الى يديه :

ـ ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقه ، كأن ميتيـــا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها .

نظر ميتيا مرة أخـــرى الى يديه . ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

ـ هو دمٌ يا فينيـا ... دم انســـانى ... الله وحده يعــرف لماذا سُفح هذا الدم ... ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظه نظرة من يلقى عليها «فزورة»)، سور رهيب ... وغداً ، عند الفجر ، حين تبدأ الشمس مسيرتهـــا ، سيقفز ميتيا ذلك السور ... انك لا تفهمين يا ميتيا أى سور أعنى ... لا ضير ... ســـتعرفين ذلك غداً ، وســـتفهمين عندئذ كل شىء ... أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبةً فى طريق سعادتها ، ســأعرف كيف أمحى ... عيشى واسعدى يا فرحتى ، يا ضـــيائى ... لقد أحببتنى ساعة ، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك ... تعلمين أنها كانت تنادينى ميتنكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها .

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدسين رهنـــاً . كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بطرس ايلتش قد احتسى الشاى ، وارتدى ردنجوته ليمضى يلعب البليـــاردو قليلاً فى كاباريه

« العاصمه الكبرى » ... وصل اليه ميتيا فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يخرج . فما ان رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ مدهوشاً .

ـ ماذا وقع لك ؟

ـ لا شىء ! جئت أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين . لقد قدمت لى خدمة كبيرة أنا مستعجل جداً يا بطرس ايلتش ، فلا نضيعن الوقت.

كانت دهشة بطرس ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدى ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التى يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها . وقد صرّح الخادم الشاب الذى يعمل فى منزل الموظف ، صرّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهى أوراق من فئة المائة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة .

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدماة . وقد ذكر بطرس ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت سميكة جداً . أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التى أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، « فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح فى الوصول اليه . وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان يجيب بأجوبة مباغتة ، وجمل قصيرة ، غريبة . وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين » .

صاح بطرس ايلتش يســـأل من جديد وهو يتفرس فى زائره مذهولاً :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله ؟ أتراك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك فى المرآة •

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة •فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه • ودمدم يقول حانقاً :

ـ هه ! لم يكن ينقص الا هذا •••

وأسرع ينقـل الأوراق الماليـة من يدها اليمنى الى يده اليسرى ، وأخرج منديله من جيبه بحـركة متشنجة • كان هذا المنديل (الذى استعمله ميتيا فى مسح وجه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتيا فى فضها ، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بطرس ايلتش قائلاً :

ـ أليس عندك خرقة ••• أمسح بها ؟

ـ تمسح ؟ أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب ؟ ألست جريحاً اذن ؟ اذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل • سأعطيك طشت ماء •

ـ شكراً •• ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، ســـائلاً بطرس ايلتش بنظراته كأن بطرس ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله • قال بطرس ايلتش :

ـ ضع المال فى جيبك ••• أو ضـــعه على المائدة هنا ••• فلن يأخذه أحد •

ـ فى جيبى ؟ طبعا فى جيبى ••• عظيم •••

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

ـ هذا كله سخيف ! ... لا ... يجب أن نسوّى تلك المسألة أولاً ... هات المسدسين ... اليك المال ... اننى فى حاجة ماسة الى المسدسين ... وأنا مستعجل جداً ... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها .

قال ذلك ومدّ الى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة . فقال له بطرس ايلتش :

ـ لا أستطيع أن أبدلّها لك ... أليس معك نقود صغيرة ؟

فأجابه ميتيا :

ـ لا ...

ولكنه جس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

ـ لا ... ليس عندى أوراق صغيرة ... هى جميعاً واحدة .

قال ذلك ونظر الى بطرس ايلتش مرتبكاً .

سأله الموظف الشاب :

ـ من أين جاءتك هذه الثروة كلها ؟

ثم أضاف يقول :

ـ انتظر ! سأرسل الصبى الى مخزن آل بلوتنيكوف . انهم يغلقون متجرهم فى ساعة متأخرة ، وسيبدلون لنا هذه الورقة . هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبىَّ وهو يفتح الباب .

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الالهام المباغت :

ـ مخزن آل بلوتنيكوف ؟ فكرة رائعة •••

ثم قال يخاطب الصبى الذى دخل العرفة فى تلك اللحظة :

ـ ميشا ؟ أركض الى متجر آل بلوتنيكوف * ، وقل لهم ان دمترى فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجىء اليكم بنفسه بعد قليل ••• وقل لهم أيضاً هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولى اليهم • نعم ••• ثلاث دستات شمبانيا ••• وليحزموها كما فعلوا فى المرة الأخيرة حين سافرت الى موكرويه ••• لقد طلبت يومئذ أربع دستات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بطرس ايلتش) • وهم يعلمون على كل حال ، يا ميشا ••• لا تهتم بشىء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبى) ••• ها نعم ! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً ، وفطائر من ستراسبورج ، وأسماكاً مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ، أى شيئاً من كل ما عندهم فى مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما فى المرة السابقة ••• وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبس والسكاكر الذوابة والكمثرى ، وبطيختين أو ثلاثاً ••• لا بل تكفى بطيخة واحدة ••• ولكن لا بد فى مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير ، وفاكهة مربية وكارامل لين ، تماماً كالمرة الماضية ؟ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل ••• تماماً كالمرة السابقة ••• هل ستتذكر ياميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجّه هذا السؤال الى بطرس ايلتش) •

قال بطرس ايلتش الذى كان يصغى اليه ويلاحظه قلقاً :

ـ لحظة ! ••• أليس الأفضل أن تأمرهم أنت باعداد الأشياء ؟ لا شك أن الصبى سيخطىء •

ـ سيخطىء ، سيرتبك ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبّلك منذ

الآن شكراً لك ••• اسمع : اذا لم تخطىء فى تنفيذ المهمة ، فلك منى عشر روبلات • هيا أسرع ••• لا تنس الشمبانيا خاصــــةً ، يجب أن يحضّروا كثيراً من الشـــمبانيا ••• وكذلك من الكونيـاك ••• أبيض وأحمر ••• تماماً كالمرة الســـابقة • هم يعرفون ما طلبته فى المرة السابقة •

قاطعه بطرس ايلتش قائلاً وقد نفد صبره :

ــ هلاّ تركتنى أتكلم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسبُ الصبى أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك • وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك • اعطنى هذه الورقة ••• والآن هيّا يا ميشا ، وأسرع ••• فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع فى صرف ميشا الذى كان ينظر محملق العينين الى الزائر الذى تلطخت يداه وتلطخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية • كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له •

فلما انصرف الغلام قال بطرس ايلتش بلهجة جافة :

ــ والآن تعال اغتسل • ضع المال على المائدة أو ضعه فى جيبك ••• هكذا ••• اقترب ••• اخلع عنك هذا الردنجوت !

وساعده فى خلع الردنجوت ، فاذا هو يصيح فجـأة من جديد قائلا :

ــ أنظر ••• الردنجوت أيضاً ملوث بالدم •

ــ ليس هو ••• ليس هو الردنجوت ••• الكمُّ وحده اتســـخ قليلاً فى هذا الموضع ••• وهنا أيضاً ••• ذلك لأننى هنا انما دسست

المنديل ، فنضح الدم ••• ولا بد أننى قعدت عليه عند فينيا ، فرشح الدم من الجيب •

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة • فقطب بطرس ايلتش حاجبيه • وقال متذمراً :

ـ هأنت ذا دبرت أمرك ! أتراك اقتتلت مع أحد ؟

وابتدأ التنظيف • تناول بطرس ايلتش جرة وأخذ يسكب الماء• فكان ميتيـــا من فرط تعجله لا يحسن « تصبين » يديه (كانت يداه ترتعشان ؛ تذكر بطرس ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيصبّن يديه من جديد • كان الموظف فى تلك اللحظـة يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئا بعد شىء • يحسن أن نشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع •

ـ أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر • وادلك وجهك الآن • أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الأذن أيضاً ••• هل تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى اين تريد أن تذهب ؟ ألا ترى أن الكم اليمنى ملأى بالدم ؟

فقال ميتيا وهو يفحص الكم :

ـ حقا ! انها ملطخة •

ـ بدّل اذن ملابسك الداخلية •

ـ لا يتسع وقتى • ســأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو الداخل ، فلا يُرى الدم ••• هكذا •••

كذلك أجاب ميتيا بتلك الثقة نفسـها ، وهو يجفف وجهـه ويديه ويرتدى ردنجوته •

ـ قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل اقتتلت مع أحد ؟ مع من اقتتلت ؟ أفى الكاباريه ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك الكابتن نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً؟ (ذكر بطرس ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمه) . من ذا ضربت اليوم ... أم تراك قتلت أحداً ؟

ـ سخافات !

ـ سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

ـ دعك من هذا الأمر .

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب الى نفسه :

ـ دست امرأة عجوزاً فى الميدان .

ـ دست امرأة عجوزاً .

ـ بل رجلاً عجوزاً .

كذلك صحّح ميتيا أجابته ضـــاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش . وكان يسدد نظراته الى عينى بطرس ايلتش .

ـ رجل عجوز ... امرأة عجوز ! ... أصبحت لا أفهم ! ... أتراك قتلت أحداً ؟

ـ لا بل تصالحنا . تضاربنا فى أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك . حدث ذلك هناك . وافترقنا صديقين . ثم انه غبى أبله ... أوه ! لقد غفر لى وعفا عنى ... لابد أن يكون قد صفح عنى فى هذه الساعة ... ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى ... هه ... فليذهب الأبله الى

الشيطان ! هل تسمعنى يا بطرس ايلتش ؟ فليذهب الى الشيطان ! لا أريد أن أهتم به بعد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة . قال بطرس ايلتش :

ـ لا أحب أن أكون كثير الفضول ... ولكن أية لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ ... وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك الكابتن ؟ تقتتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقاً ! ثلاث دستات شمبانيا ! أين تقدر أن تشرب هذا كله ؟

ـ أعطنى المسدسين بسرعة . أنا مستعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع . ثم فيم الثرثرة ؟ لقد فات أوان الكلام الآن . آه !... ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر .

ـ أموالك على المائدة ... هناك ... وضعتها على المائدة بنفسك. هل نسيت ؟ لكأن المال ليس له أى شأن عندك حقاً ! أما مسدساك فهاكهما . انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر ، ثم اذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف . كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

ـ ثلاثة آلاف .

ودس الحزمة فى جيب سرواله .

ـ سوف تضيعها هكذا ؟ أتراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صـــاح ميتيـــا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل :

ـ مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهمك المنـــاجم يا عزيزى الشهم برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم • لقد أعطتنى أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ أعرفها بالنظر ، وبالسمعة أيضاً • أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق زعم صاحبه •

ـ اذا كنت لا تصدق ما أقول فاذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعة يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحاً بحمد الرب ممجداً عظمته بشـــبابه الخالد • اذهب اليها فاسألها ألم تعطنى ثلاثة آلاف روبل ، وســـوف تعلم •

ـ لا أتدخل فى علاقاتك • وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يـكون صحيحاً ••• ولكنـك ما ان استلمت المبلغ حتى أخـذت تلهو وتقصف وتبدد ، بدلاً من أن تذهب الى سيبيريا ! ••• الى أين تنوى أن تذهب فى هذه الساعة ؟

ـ الى موكرويه •

ـ الى موكرويه ؟ ايلاً ؟
قال ميتيا فجأة :

ـ كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً !

ـ لا تملك شيئاً ؟ وهذه الثلاثه آلاف روبل ؟

ـ لا قيمة لها عندى ! ألا فليذهب المال الى الشيطان ••• وانما أنا أتكلم عن طبع النساء •••

فكر النساء سريع التصديق *
وقلبهن كثير التقلب فاسد

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافقه فى الرأى كل الموافقة•

ـ لا أفهمك •

ـ أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟

ـ لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك •

ـ أنا ثمل بالمعنى المجازى يا بطرس ايلتش ، لأن روحى هى السكرى • ولكن كفى هذا الآن •••

ـ ماذا تفعل ؟ أتحشو مسدسك ؟

ـ نعم أحشوه •

كان مينيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعد أن سكب بارودا فى خرطوشة ، دس الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة فى السبطانة ، أمسكها بين اصبعين وأخذ ينعم النظر اليها فى ضوء الشمعة •

سأله بطرس ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :

ـ لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

ـ هى نزوة لا أكثر ••• لو كنت تنوى أن تسكن هذه الرصاصة فى دماغك ، أفما كنت تنظر اليها حين تحشو المسدس ؟

ـ أنظر اليها ؟ لماذا ؟

ـ ما دامت ستنفذ فى جمجمتى أنا ، فانه ليهمنى أن أرى هيئتها قليلاً ! ••• هذه سخافات أقولها على كل حال ، لا أدرى ماذا أصابنى•

ثم أضاف يقول بحرارة وهو يدخل الرصاصة ويرسخها بالمشاقة :

ـ انتهى ! ما هذا كله الا سخافات يا عزيزى بطرس ايلتش ، سخافات لا أكثر ••• ليتك تعلم مدى ما فى هذا كله من غباء • أعطنى ورقة بسرعة !

ـ هذه ورقة •

ـ بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه • هذا يصلح على كل حال •

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وطوى الورقة أربعة أرباع ، ودسَّها فى أحد جيوب صديرته • وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بها فى يده • ثم راح ينظر الى بطرس ايلتش ملياً ، وهو يبتسم ابتسامة حالمة • وقال :

ـ والآن أمضى ؟

ـ الى أين ؟ قف ! ألعلك تفكر فعلاً فى ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش متدخلاً ، وقد اشتد قلقه •

ـ هذه الرصاصة ؟ يا للغباء ! ألا فاعلم أننى أريد أن أحيا ، لأننى أحب الحياة ! اننى أعظم حباً لفيبوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن

يخطر ببالى الانتحار ... قل لى يا عزيزى بطرس ايلتش : هل تستطيع أنت أن تمحّى ؟

ــ أن أمحى ؟ ماذا تعنى ؟

ــ نعم أن تمحّى ، أن تزول من الدرب . أن تخلى الساحة للانسان الذى تحبه والانسان الذى تكرهه ؟ وأن تحب حتى ذلك الذى كان عليك أن تكرهه ... أن تبتعد عن طريقهما قائلاً : « هيئا اسعدا ، وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف ...

ــ سوف .. ماذا ؟

ــ لا شىء ! فلأمض ...

ــ أحسب أننى سأبلغ أقرباءك ليمنعوك من السفر . ماذا عساك فاعلاً فى موكرويه ؟

كذلك قال بطرس ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا . فأجابه ميتيا :

ــ فى موكرويه امرأة ... امرأة ... هأنت ذا عرفت الآن مافيه الكفاية يا بطرس ايلتش ! حسبك هذا !

ــ اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائماً محبباً الى قلبى . فأنا الآن شديد القلق عليك ...

ــ شكراً يا أخى ! أتقول اننى متوحش ؟ هذا صحيح ! ذلك ما كنت أدعيه دائماً : متوحشون ، متوحشون ... آ ... هذا ميشا قد عاد . كنت قد نسيته .

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود . فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون ويعملون » ، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاى ، وأن كل شىء سيكون قد تم اعداده بعد بضع دقائق .

تناول ميتيا ورقة ماليه بعشرة روبلات ، فمدّها الى بطرس ايلتش ، ورمى للصبي ورقة أخرى بتلك القيمه نفسها .

ـ مستحيل ! لا أسمح لك بأن تعطيه « بقاسيش » في داري . فان ذلك سيفسده . أعد هذا المال الى جيبك ولا تبدده . قد تحتاج اليه في القريب . انني لأتنبأ بأن تعود اليّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات ... ولكن لا ... لا تدسّ جميع هـــذه الأوراق في جيب السروال ، والا ضاعت منك !

ـ هيه يا صديقي ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً . ما رأيك ؟
ـ ما ذهابي أنا الى هناك ؟

ـ اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيــداً للحيــاة . انني في حاجه الى شرب شيء من الشمبانيا . فلنشرب معاً ! أظن أننا لم نشرب معاً في يوم من الأيام ! وأنا أحرص على هذا وأصر عليه !

ـ لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الكاباريه . لقد كنت أنوي أن أذهب الى هناك .

ـ لا الى الكاباريه ! ليس في وقتي متســـع . سنشرب عند آل بلوتنيكوف ، في الحجرة التي وراء الدكان . سألقي عليك « فزورة » ، هل توافق ؟

ـ ألقها .

أخرج ميتيا من جيب صديريته الورقة التي كان قد طواها ووضعها فيها ، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب . فقرأ هذا الجملة التالية التي كتبها عليها ميتيـــا بأحرف كبيرة : « انني أعاقب نفسي مكفّراً عن حياتي كلها ، وأقبل هذا العقاب » .

قال بطرس ايلتش بعد أن قرأ الجملة :

ـ أحسب حقاً أن عليّ أن أبلغ أقاربك ! سأقوم بهذا !

ـ لن يتسع وقتك يا عزيزى ! هلمّ نشرب ! ذلك أفضل !

يقع متجر آل بلوتنيكوف فى ناصية الشارع قريباً جداً من دار بطرس ايلتش • انه أكبر « بقالية » فى المدينة ، وهو مشروع تجارى مزدهر ناجح يحسن أصحابه ادارته ؛ وفى هذا المتجر يباع كل شىء ، كما فى المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من « أقبية الاخوة السييف » ، فاكهة ، سيجار ، شاى ، سكر ، بن ، الخ • وفيه يعمل ثلاثة مستخدمون مقيمون ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن • لقد أصيب اقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى ليمكن القول انها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة : ان السلع التى من هذا النوع لا تعدم من يشتريها فى كل زمان •

كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التى اشتراها • وقد رُوى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه « حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشنكا ، قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه

تماماً » • ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات ، ومن أجل أن يمنحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات ، مستغلين سكره • وقد روى الناس أيضاً ، في معرض السخر من ميتيا ، أنه قدم شمبانيا لفلاحي موكرويه ، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى • وكان الناس يتندرون أيضاً ، ولا سيما في الكاباربه (ولكن لا بحضور ميتيا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، كانوا يتندرون بتلك الواقعة التي ذكرها هو نفسه على رءوس الأشهاد ، وهي أنه لم يحظ من جروشنكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا بقبلة من قدمها ، ولا شيء غير ذلك » •

حين اقترب ميتيا وبطرس ايلتش من البقاليه وجدا على بابها مركبة ترويكا مجهزة تماماً ، مزينة العدة بأجراس ومفارش ، وعربة مزودة بغطاء مريح • وكان الحوذي آندره ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملىء تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة •

دهش بطرس ايلتش ، فسأل ميتيا :

ـ من أين جاءت مركبة الترويكا هذه ؟

فأجابه ميتيا :

ـ لقد التقيت بآندره حين كنت آتياً اليك ، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية • فلقد كان علي أن لا أضيع وقتاً • ان تيمودي هو الذي قادني في المرة السابقة ، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة ، دون أن يحفل بي ••• ترالالا ••• هل سنتأخر كثيراً يا آندره ؟

أسرع آندره يجيب :

ـ لن يسبقونا الا ساعة واحدة فى أكثر تقدير .. بل أقل من ذلك ! ... ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيمودى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها . لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا ؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة .

كذلك قال آندره مؤكداً بحرارة ، وهو رجل ما يزال شاباً ، أحمر الشعر ، جاف الجلد ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه .

ـ لك منى خمسون روبلاً « بقشيشاً » اذا لم تتأخر أكثر من ساعة !

ـ اعتمد علىَّ يا دمترى فيدوروفتش. ساعة ؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا اذا هم سبقونا بنصف ساعة ؟

أخذ ميتيا يتحرك فى المتجر فى فوضى مضطربة ، متنقلاً من طلب الى طلب آخر قبل انهاء الطلب الأول . فرأى بطرس ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدَّ من جنونه .

قال ميتيا آمراً :

ـ أريد أن يكون الثمن اربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرة السابقة . أربع دستات شمبانيا ، هل تسمعون ؟ لا أُريد أن تنقص زجاجة واحدة !

ـ صرخ بطرس ايلتش :

ـ قف ! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبى ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه اربعمائة روبل .

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجه متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوى الا ست زجاجات من الشمبانيا ، وانه يحتوى كذلك « الأشياء الضرورية جداً » كالمقبلات ، والملبس ، والحلوى ، الخ ••• أما « الغلات » الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمرة السابقه على ترويكا أخرى تصل بعد « دمترى فيدوروفتش بأقل من ساعة » •

قال ميتيا ملحاً :

ـ بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك • وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الجاتو والكارامل • ان البنات هناك يعشقن الجاتو والكارامل •

كذلك أضاف يقول بحرارة :

قاطعه بطرس ايلتش يقول شبه غاضب :

ـ أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد !

وأخذ بطرس ايلتش يساوم ،وطلب أن يرى الفاتورة ، وتحرك كثيراً ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فتقرر أن لايزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل •

ثم صاح بطرس ايلتش يقول وقد نفد صبره وضاق ذرعاً :

ـ شيطان يأخذكم ! ما أغبانى اذ أتدخل فى هذه الأمور ، وأقحم نفسى فيها ! بدّد مالك كما تشاء ، وارمه من النافذة اذا حلا لك ذلك ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التى تقع خلف الدكان :

ـ هدىء روعك يا معلمى ! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا !

قل لى يا بطرس ايلتش : لماذا لا تسافر معى ؟ أنت شاب شهم ، واننى أحب أمثالك من الرجال .

جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة مغطاة بمفرش غير نظيف . وجلس بطرس ايلتش قبالته ، وجيئا بالشمبانيا . واقترحت عليهما محارات « من نوع فاخر وصلت مؤخراً » ، فقال بطرس ايلتش رافضاً الاقتراح فى غضب :

ـ دعونى من محاراتكم ، فاننى لا أحب المحار .

وقال ميتيا :

ـ لا يتسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اننى لا أشتهى أن آكل الآن محاراً .

ثم التفت يقول لبطرس ايلتش وقد تحمس على حين فجأة :

ـ اسمع يا صديقى ، اننى اكره كل هذه الفوضى .

ـ ومن ذا الذى لا يشمئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا ... ولمن ؟ لفلاحين ؟ ألا ان هذا ليثير التقزز ويبعث الغثيان !

ـ ليس هذا ما أعنيه . فانما أنا أقصد الفوضى التى تشوش النظام الأعلى ، نظام النفس ، نظام الروح ! لقد أعوزنى دائما ذلك النظام ... ليس فى نفسى انسجام ... ولكن انتهى الآن كل شىء ، فعلام الندم والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! ... لم تكن حياتى كلها الا فوضى طويلة ، وقد آن لى أن أدخل عليها شيئاً من النظام . اننى أستعمل استعارات وكنايات رديئة ، هه ؟

ـ بل قل انك تخرف ! ...

قال ميتيا :

المجد للخالق فى الخلق

المجد للخالق فى نفسى *

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة ••• أوه ! لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه الكابتن من لحيته !

ــ لماذا تتكلم عن ذلك الكابتن ؟ انه ! •••

ــ لماذا ؟ لماذا ؟ آه ••• ما كل شىء الا دخان ! كل شىء يتبدد ! كل شىء يزول آخر الأمر !

ــ اسمع ! ان مسدسيك يقلقانى •••

ــ ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفّ عن قول هذه السخافات! اننى أحب الحياة ••• اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأخجل من ذلك! كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى شرير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبنى أن أحب نفسى هذا الحب رغم صغارى ودناءتى ! اننى أبارك الخليقة ، واننى مستعد لأن أسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بعظمته ، ولكن ••• يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين ••• هيه يا أخى ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شىء أفضل من الحياة ؟ لا شىء أفضل من الحياة ، لا شىء ! المجد للحياة ، والمجد الملكتى ، ملكة الملكات !

ــ لك ما تشاء ! فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك.

وأفرغ كل من الرجلين كأساً . كان ميتيا ، الحذر المهذار فى آن واحد ، يبدو حزيناً ، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده .

ـ ها ••• هاهوذا ميشا ، ها هوذا غلامك ميشا قد دخل ! تعال الى هنا أيها الصبى الطيب ! اشرب كأساً معنا ، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً •••

قال بطرس ايلتش محتجاً حانقاً :

ـ أأنت مجنون ؟ أتسقيه هو شمبانيا ؟

فقال ميتيا :

ـ اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة ! لسوف يسرنى هذا •

ـ ولكن ••• الخلاصة ••• ما دمت تصر ! •••

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلّم ثم انصرف •

قال ميتيا :

ـ هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأقل ••• اننى أحب المرأة ، أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض •• أوه ! اننى أحس بحزن يا بطرس ايلتش ، أحس بحزن رهيب • هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت : « أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد ••• وا أسفاه ! مسكين يوريك ذاك ! » • لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه اللحظة بعينها يوريك • وبعد ذلك سأكون الجمجمة •

كان بطرس ايلتش يصغى اليه صامتاً • وصمت ميتيا أيضاً •

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى الركن كلباً صغيراً طويل الشعر متدلى الأذنين أسود العينين :

ـ لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

ـ هو لفارفارا ألكسييفنا ، صاحبه المتجر • نسيته هنا منذ قليل • سيكون علينا أن نذهب به اليها •

قال ميتيا حالماً :

ـ رأيت فى الماضى كلباً يشبهه كل الشبه ••• كان ذلك فى الكتيبة ••• ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق ••• بالمناسبة يا بطرس ايلتش ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً : هل اتفق لك أن سرقت فى حياتك ؟

ـ يالها من فكرة !

ـ افهمنى ! أقصد السرقة الحقيقية ••• أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون الدولة ••• هذا شىء معروف ، وأنت أيضاً تسرق الدولة ، لاشك عندى فى ذلك •••

ـ سحقاً لك •••

ـ هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ •••

ـ سرقت فى طفولتى قطعة نقدية بعشرين كوبكاً من أمى • كان عمرى تسع سنين • أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يرانى أحد ، وأخفيتها فى قبضة يدى •

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شىء • احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ، فرددتها معترفاً بالسرقة •

ـ ثم ؟

ـ جُلدت كما أستحق • ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أتراك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة :

ـ سرقت !

فسأله بطرس ايلتش قلقاً :

ـ ماذا سرقت ؟

ـ سرقت عشرين كوبكاً من أبى . كان عمرى تسع سنين . ثم رددتها .

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة .

صرخ الحوذى آندره يقول من باب المتجر :

ـ آن أوان السفر يا دمترى فيدوروفتش .

ـ هل كل شىء جاهز ؟ هيَّا بنا !

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يتحرك هنا وهناك . وأضاف يقول :

ـ بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة ! كأساً من الخمر لأندره ! بسرعة ! واعطوه أيضاً كأس كونياك ! ... أما العلبة (علبة المسدسات) ، فضعوها تحت المخدات . استودعك الله يا بطرس ايلتش ، ما ينبغى لك أن تؤاخذنى .

ـ ولكنك ستعود غداً ؟

ـ نعم نعم ، سأعود .

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

ـ اسمح لى أن أقدم اليك الحساب .

ـ آ ... نعم ... الحساب ... طبعاً !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسلّ منها ثلاث ورقات من فئه المائه روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب ، فرافقه جميع مستخدمى المتجر ، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون لها انحناءً كبيراً . وكان آندره قد أفرغ كأساً من الكونياك، فهاهوذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر فى العربة ، انبجست فينيا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وجثت على ركبتيها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

ـ سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب الآنسة بسوء ، لا تنلها بأذى ! ألا ما كان أغبانى حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسيء اليه هو أيضاً ، القديم ... لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافين ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض ... سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما ، لا تسفح دم أخيك الانسان !

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه : « آ ... هذا بيت القصيد فى الحكاية كلها ... ستحدث مشاجرة هناك . استبان الآن كل شيء . أصبح كل شيء واضحاً . » . ثم هتف يقول بصوت عالٍ :

ـ دمترى فيدوروفتش ! أعد الىّ هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمع يا دمترى ؟

فأجابه ميتيا :

ـ المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى ... سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانهضى أنت يا فينيا . لا تركعى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الصبى الغبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم أردف يقول بعد أن استقر في المركبة :

ــ اسمعى يا فينيا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفرى لى . اغفرى لهذا الشقى البائس ... على أنه يستوى أن تغفرى وأن لا تغفرى ... لم يبق لهذا قيمة ... هيًّا يا آندره ، ولتجر المركبة بأقصى سرعة .

رفع آندره سوطه ، فجلجلت الأجراس .

ــ استودعك الله يا بطرس ايلتش ، لك منى آخر دمعة ! ...

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التى أخذت تبتعد : « ليس بسكران ، ولكن ما أشد الاضطراب فى أقواله » . وقد أراد بطرس ايلتش أن يبقى فى المتجر ليراقب شحن الخمور والمئونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيغشون ميتيا . ولكنه شعر بحنق على نفسه فجأة ، لاهتمامه بهذه التفاصيل ، وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوى ذلك .

وقال فى نفسه أثناء الطريق : « انه رجل أبله ، ولكنه طيب » . أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشنكا « القديم » ذاك ، فقد سبق أن سمعت عنه . هل عاد اذن ؟ ... ولكن ما القول فى المسدسين ، المسدسين ... ألا فليحل الرجلان نزاعهما ... ولن يحدث شىء على كل حال . سيصرخان كثيراً ، وسيسكران ، وسيقتتلان ، ثم يتصالحان . ليسوا جادين ، لا هؤلاء ولا أولئك ... كلمات جوفاء ! « سوف أتنحى عن طريقهما ... » « اننى أعاقب نفسى ... » ... دعنا من هذا ! لن يفعل من ذلك شيئاً . لقد ردّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة فى الكاباريه حين كان ثملاً . وهو فى هذه المرة لم يشرب « نفسى سكرى ... » ؟

ان جميع أمثاله من القاصمين يحبون العبارات الرنانة الطنانه • أأنا مربيه أخيراً ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمي وجهه • ولكن من ذا الذى تشاجر معه ؟ سأعرف هدا فى الكاباريه حتماً • وذلك المنديل المدمَّى ؟ ••• لقد تركه في غرفتى ••• ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال ! ما لى ولهذا كله ! » •

وصـــل بطرس ايلتش الى الكاباريه معتكر المزاج جـداً ، وأخذ يلعب البلياردو فوراً • وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء ، وشرع فى اللعب مرة أخـرى ، وأخذ يقص على أحد ملاعبيـــــه أن دمترى كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل • وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة أيضاً الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا • أصغى السامعون الى هذه الأنباء بفضول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب • حتى لقد انقطع لعب البلياردو •

ـ ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بطرس ايلتش بوابل من الأسـئله • ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها السيدة هوخلاكوفا •

ـ أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

ـ ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

ـ لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز ، وسمعه جميع الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل ••

كان بطرس ايلتش يصغى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة ، حتى لكأنه يتهرب من الكلام • ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن

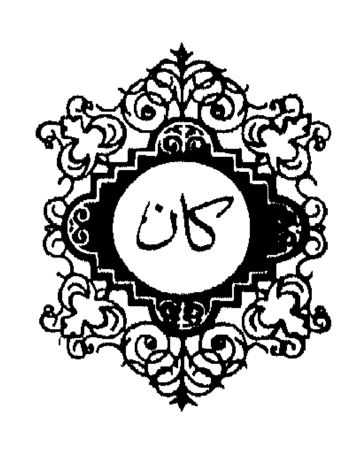
ذلك حين ذهب الى الكاباريه . وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف الحديث عن ميتيا .

حتى اذا انتهت اللعبة الثالثة ، أعلن بطرس ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب . ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن يتعشى ، خلافاً لما كان ينتويه . فلما وصل الى الميـــدان توقف لحظة ، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء . « يا للحماقة ! سأوقظ جميع الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأني أنا ؟ أأنا خادمهم ؟ » .

وعاد الى منزله حانقاً مزيداً من الحنق . وفجأة خطرت بباله فينيا. قال لنفسه في حسرة : « ما أغباني ! ان فينيا هي الشخص الذى كان يجب أن أسأله ، ولو فعلتُ لقالت لى كل شيء ! ». وشعر عندئذ برغبة قوية فى أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انعطف فجأة ، وهو فى منتصف الطريق الى داره ، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذى تقيم فيه جروشنكا . فلما وصل الى الباب طرقه ، فاذا بالطرقات التى ترجّعت فى صمت الليل ترده فجأة الى الواقع ، واذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بمسعى غير لائق. قال فى نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة » . ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل ما أوتى من قوة فى هذه المرة . دوّت طرقات الباب فى الشارع كله . فردّد يقول : « لا ضير ! لسوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا ! » ، بينما كان سخطه على نفســـه يزداد لدى كل طرقة جديدة . لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة .

٦

هــأنــاذا



دمترى فيـــدوروفتش يتجـــه نحـــو موك
بسرعة عظيمة . ان المســافة تزيد قليــلا
عشرين فرسخاً . ومن الممكن ، بفضــل
عدو خيول آندره ، قطع هذه المســـــافة
وربع ساعة . وأنعشت سرعة الجرى فكر ميتيا . كان الهواء قوياً ، و
نجوم كبيرة تتلألأ فى سماء بلا سحب . فى تلك الليلة ، وربما فى
الساعة ، انما تهالك اليوشا على الأرض ، « حالفاً بحـرارة ليحبنّـو
الأبد » . كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل ال
التى تعذبها ، كانت لا تنصرف فى تلك اللحظة الا الى المرأة الحبيبة
ملكته التى يتعجل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة . حسبى أن أقرر ما
كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة . وسواء أص
كلامى أم كذبتموه ، فان الحقيقة تجبرنى أن أقول ان هذا الغيور لم
يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجـــديد ، نحو
الخصم الذى لم يكن فى حســـبانه ، نحو هذا « الضـابط » الذى
حيـاته بهذه القسوة الشــديدة . لو حاول أى انسان آخـــر أن
محل ميتيا لدى جروشنكا ، لأسرع ميتيا يرد بحنق غيـــور مسع
ولتلطخت يداه بالدم من جديد . أما تجاه هذا الانسان الذى هو «

رجل » في حياة جروسنكا فان ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة ، ولا بأيه عداوة ، أثناء ما كانت مركبه الترويكا تقله الى موكرويه • ولم يكن قد رآى ذلك الرجل بعد • « الأمر واضح • انها على حق • هو أول حب في حياتها ، هو الرجل الذى لم تستطع أن تنســـاه يوماً خلال خمس سنين • معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة • أما أنا ، فماذا جئت أعمل في حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنحّ عن طريقها ! ثم ما قيمة هذا كله اليـــوم ، ما دام مصيرى قد تقرر ، ما دام كل شيء سينتهى بالنسبة الى ، حتى ولو يكن هو هناك ، حتى ولو لم يجيء ذلك الضابط ؟ •• » •

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التى كانت تجيش فى نفسه ، لو كان قادراً على التفكير فى تلك الآونة• ولكن ميتيـا لم يكن يفكر • ان القـرار الذى اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أى تفكير ، فاذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتـــائج التى تترتب عليه ، أثناء انفعاله ذاك الذى أيقظه فى نفسه ما كشفت له عنه فينيا من أمور • ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق ، وما يزال يشعر باضطراب أليم : ان قراره لم يردّ السكينة والطمأنينة والسلام الى نفسه • ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضى •

كان يقول لنفسه فى بعض اللحظات : « ما أغرب هذا ! »

كان ميتيا قد نطق بحكم نهائى على مصيره ، كان قد كتب على ورقةٍ قـوله : « انني أعـاقب نفسى ، وأنا أقبـل هـذا العقاب » ، وان هـذه الورقة موجودة الآن فى جيبه ، معدّة لأن تستعمل ؛ وان مسدسه محشو، وهو يعلم حق العلم ما الذى سيفعله فى صباح الغد ، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية » فيدفىء الأرض من جديد بأولى أشعته • ومع ذلك ••• لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التى تلازمه وتحاصره

وتعذبه • فكان يقول متألماً : لا سبيل الى النسيان ؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمداً ويأساً • ولقد أوشك في لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر آندره بالتوقف ، وأن يفرغ من الأمر كله ؛ يخرج من العربة ، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد • ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفىء شرارة طائرة • وكانت مركبة الترويكا « تنهب به الأرض نهباً » ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة ، طاردةً جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه • « أوه ! أريد أن ألمحها مرة أخيرة ، ولو من بعيد ، عابرةً ••• انها في هذه الساعة معه ، وسأراهما كليهما ، هي وحبيبها الأول ، وسأتأملهما ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن ! » لم يشعر نحو هذه المرأة في يوم من الأيام بمثـــل الحب الذي يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة حنون لا حدود لها ، من عاطفة الخضوع والمذلة التي تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه في سبيلها •

هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هذياناً :

ـ سأتنحى من طريقهما •

العربة تعدو منذ قرابة ساعة • ميتيا صامت • وآندره ، وهو فلاح مهذار في العادة ، لا يتكلم أيضاً ، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت • فهو لا يزيد على أن يحرِّض بصوته أحصنته الكمت النحاف على عصبية • وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

ـ آندره ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

في تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمـــال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك •

ـ جائز جداً أن يكونوا فى هذه الســــــاعه راقدين يا دمترى فيدوروفتش •

قطب ميتيا حاجبيه مغتاظاً حانقاً• ماذا ؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف ••• ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً ••• هى أيضاً ••• ربما الى جانبه ! وغلى الغضب فى قلب ميتيا •

صرخ يقول خارجاً عن طوره :

ـ اجلد يا آندره ! مزيداً من الاسراع ، مزيداً من الاسراع أيضاً•
قال آندره بعد صمت :

ـ ما أحسب أنهم ناموا • لقد أسرّ لى تيموتى أن جمعاً غفيراً قد اجتمع هذا المساء فى موكرويه ؟

ـ فى محطة العربات ؟

ـ بل فى نزل آل بلاسنونوف ، وهو محطة عربات أيضاً •

ـ أعرف • أتقول انهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من أين جاءوا ؟

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذى وقد شدهه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه •

ـ يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون على ما قال تيموتى : اثنان منهم جاءا من المديـــــنة ولا أدرى من هما ، فان تيموتى لم يذكر لى ذلك ؛ واثنان من هنا ، ثم اثنان آخران هما مســـافران عابران فيما يظهر ، ثم شخص آخر أيضاً اذا صح فهمى • وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى تيموتى •

ـ بالورق ؟

ـ نعم . وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا . ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن .

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية :

ـ اسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع .

واستأنف آندره كلامه بعد صمت فقال :

ـ قل لى يا سيدى . هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك .

ـ ما هو هذا الأمر ؟

ـ ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر ... فياسيدى ، ما دمت أنا أقودك الى هناك ، فان ضميرى ... لا تؤاخذنى يا سيدى ... اذا كنت غبياً فيما أقول ...

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

ـ أنت حوذى ، أليس كذلك ؟ أنت حوذى .

ـ نعم ، حوذى ...

ـ فأنت تعلم اذن ما معنى التنحى عن الطريق ، واخلائه . هل يستطيع حوذى أن يمضى الى أمام ، رافضاً أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ليس لحوذى أن يدوس المارة ... لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً ، لايحق لأحد أن يحطم حياة غيره . ومن يدمّر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه

بنفسه بعد ذلك ... اذا هو دمّر حيـــاة أحد ، فلمض ... فلينل العقاب !

تكلم ميتيا جيّاش النفس ، شديد الاندفاع ، ورغم أن آندره دُهش من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

ـ صحيح جداً ما تقوله يا سيدى دمترى فيدوروفتش . أنت على حق ، ما ينبغى لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؟ وما ينبغى له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التى تتنفس ! أنظر الى الخيول مثلاً : ان من الناس من يضربونها بغير طائل ، ويستحثونها أكثر مما يجب . ان بعض الحوذيين فى بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدرى الى أين وكيف ؟

قاطعه ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة :

ـ لعلهم يفعلون هذا ليصـــلوا الى جهنم بسرعة أكبر . قل لى يا آندره : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمترى فيدوروفتش كارامازوف ســـيذهب الى جهنم ؟

ـ لا أدرى يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت ... اسمع يا سيدى : حين مات ابن الله على الصليب ، نزل رأساً الى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير . وقد تشـــكى الجحيم عندئذ ، مخافة أن لا يســتقبل خاطئين بعد ذلك . فقــال الرب للجحيم : « اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء ، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم » . ان هذا الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله ...

ـ هذه اسطورة شعبية جميلة • أجلد الحصان الأيسر يا آندره !

استأنف آندره كلامه وهو يصفق بسوطه فوق الحصان الأيسر ؛ قال :

ـ أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم • أما أنت يا سـيدى فنحن نعدك طفلاً ••• ذلك هو رأينا نحن ••• مهما تكن عنيفاً غضوبا ••• وانك لعنيف غضوب ما فى ذلك ريب ••• فان الرب سيغفر لك لأنك انسان بسيط •

ـ وأنت يا آندره ، هل تغفر لى ؟

ـ ليس هناك ما أغفره لك يا سيدى ، فانك لم تسىء الىّ •

ـ اننى أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟ أجبنى يا ابن الشعب !

ـ سيدى ! لقد بدأت أخاف ••• انك تتكلم كلاماً غريباً جداً •••

كان ميتيا قد أصبح لا يصغى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

ـ يارب ! اقبلنى رغم حطتى ، ولكن لا تحكم علىّ • اللهم اسمح لى أن أجىء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك ••• لا تحكم علىّ ، مادمت قد حكمت على نفسى بنفسى ••• لا تحكم علىّ ، لأننى أحبك يا رب ! اللهم اننى خبيث دنىء ، ولـكنى أحبك • وحتى فى الجحيم ، اذا أنت أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لك بحبى الى الأبد، ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية •••• اسمح لى أن أظل أحب ، فى هذه الحياة الدنيا ، خمس سـاعات أخرى ، الى أن تطلع

شمسك الدافئه ••• انني أحب ملكة قلبي ، ولا أملك أن امتنع عن حبها اللهم انك ترانى كلى فى هذه اللحظة • سوف أهرع اليها ، فأرتمى عند قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتني ، وداعاً ••• انسى ضحيتك ، ولا تدعى لذكراى أن تعذبك يوماً ! » •

صاح آندره يقول وهو يومىء الى القرية بسوطه الممدود فى آخر ذراعه :

ـ هذه موكرويه !

فمن خلال ليل شاحب ، كانت تُرى رؤية ضعيفة ، كتلة مظلمة ، هى كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة• ان سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفى نسمة • ولكن كل شىء كان غارقاً فى النوم • وليس يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك •

صرخ ميتيا يقول محموماً :

ـ أسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

فقال آندره وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذى يقع عند مدخل القرية ، والذى كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة اضاءة قوية :

ـ لم يناموا بعد •

فكرر ميتيا كلام الحوذى فرحاً :

ـ لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندره ، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولى ضجة وجلبة • ألا فليعلم الجميع من الواصل ! هو أنا ••• هأناذا وصلت !

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج •

استحث آندره حصانيه المكدودين ، فوصلت العربة الى باب النزل مفرقعة فرقعة قوية ، وهنالك استوقف الحوذى الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً . وثب ميتيا من العربة فى اللحظة التى كان فيها صاحب النزل يهم أن يرقد فى فراشه فلما سمع فرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة . هتف ميتيا يسأله :

ـ أهذا أنت يا تريفون بوريستتش ؟

مال صاحب النزل الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة مجاملة ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟ أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستتش هذا فلاح قوى البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ، ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً . انه يرتدى ثياباً على الزى الروسى ، فقميصه مقلوب الياقة ، وصديرته مطرزة . ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال ، فلقد كان لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع . ان أكثر من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شباكه ، خاضعون لتسلطه . كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشترى بعض هذه الأراضى أيضاً ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً . وهو أرمل له أربع بنات

كبيرات ، احداهن مات عنهـا زوجها فهى تعيش عنـــد أبيها مع طفلين صـغيرين ، ويعاملها أبوها معامله خادمه ؛ والثـــانيه زوجة موظف من الموظفين ، فالداخل الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فونوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمى الذى يزدان كنفاه بشارات القصب * • أما البنتان الأخريان ، فهما فى أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر « موضه » ، ولكنهما تنهضان فى الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لتكنسا الغرف وتصبا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها • وكان تريفون بوريستش ، رغم المال المخبأ الكثير الذى جمعه ، يبتهج كثيراً لكل فرصه تمكنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين • وهو يتذكر انه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شـــهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف ويتلف ماله مع جروشنكا • لذلك استـــقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقـة وصـول المركبة الى البـاب على هذا النحو الصاخب ، أن الفريسة ستكون سهلة •

ـ عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأنت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

ـ لحظة يا تريفون بوريستش • قل لى الأمر الأساسى أولاً : أهى هنا ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق اليه بنظرة نافذة :

ـ أجرافين الكسندروفنا ؟ هى هنا ••• أيضاً !

ـ مع من ؟ مع من ؟

ـ مع نزلاء عابرين ••• موظف لا شك أنه من أصل بولندى ••• يظهر هذا من لهجته ••• انه هو الذى أرسل خيلاً لتجيء بها الى هنا ••• وشخص آخر هو صاحب البولنـــدى ، أو رفيق رحلته فحسب ، لا أدرى ••• وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية •••

ـ هل يقصفون ؟ هل يملكون مالاً ؟

ـ يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم أناس عاديون •••

ـ عاديون ؟ والآخرون ؟

ـ هناك سيدان من المدينـة ••• كانا عائدين من تشرنايا ، فتلبثا هنا لقضاء الليل • أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو ، ولكننى نسيت اسمه ••• أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضـــاً : انه الملاك ماكسيموف الذى ذهب يحج الى دير كنيستكم فيما يدعى ، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق •••

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء •

ـ اسكت يا تريفــون بوريستش • شيء واحـد يهمنى : ماذا تفعل هى الآن ؟

ـ وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم •

ـ أهى مرحة ؟ أهى تضحك ؟

ـ لا ••• انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت • حتى لقد بدا لى أنها حزينة • وكانت تلاعب شعر الشاب •

ـ شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

ـ دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط • أنا لم أقصد البولندى ، بل الشاب ••• قريب ميوسوف ؟ مالى نسيت اسمه ؟

ـ لعل اسمه كالجانوف ؟

ـ تماماً ، كالجانوف •

ـ طيب ، سوف أرى • قلت أنهم يلعبون بالورق ، أليس كذلك ؟

ـ كفوا عن اللعب • لقد تناولوا الشاى ، وأمر الضابط بخمور •

ـ لحظة يا تريفون بوريستش ! هذه كلها أمور ثانوية ، وسأحكم على الموقف بنفسى • أجبنى الآن عن الشىء الأساسى : هل فى القرية غجر ؟

ـ لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات • غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان • هم الآن فى رودجستفنسكا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً •

ـ استدعهم حالاً • ويجب كذلك ايقاظ البنات ، كما فى المرة السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستيبانيد وايرين • سأدفع للجوقة مائتى روبل •

ـ بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملها ، ولو كانوا نائمين كالأموات • ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ ؟ هؤلاء رعاع لا يستحقون هذه الملاطفات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمتَ لهم سيجاراً• هؤلاء أناس نتنون • أما النساء فهن جميعاً قذرات وسخات • انى لأوثر أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله•ان بناتى نائمات الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً بقدمى اذا اقتضى

الأمر ، وسأجبرهن على أن يغنين لك . لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

ـ تريفون بوريستش ! ألا تتذكر أننى انفقت هنا أكثر من ألف روبل فى المرة الماضية ؟

ـ كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفى العزيز .

ـ اذن فاعلم أننى أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه . أنظر !

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل . ثم أضاف قوله :

ـ اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر . فاحمل هذا كله فوراً الى فوق . أما ذلك الصندوق الخشبى الموجود تحت مقعد آندره فيجب أن تنقله الى هناك أيضاً ، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً . ولكن لا تنس أن الأمر الأساسى هو البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجىء مارى تلك ! ...

واتجه ميتيا الى العربة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين .

ـ سأدفع لك دينك علىّ يا آندره . اليك خمسة عشر روبلاً ، أجرَ العربة ، واليك خمسين أخرى « بقشيشاً » ... مكافأة لك على اخلاصك ، وتقديراً لصداقتك ... تذكر البارين كارامازوف !

قال آندره بلهجة مترددة :

ـ لا أجرؤ يا بارين * ... اننى أقبل خمسة روبلات مكافأة ، لا أكثر من ذلك . مستحيل ... هذا تريفون بوريستش شاهد علىّ .. اغفر لى حماقتى ...

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره :

ـ ممّ تخاف !

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقى اليه خمسة روبلات :

ـ أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريسنتش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يرونى . أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

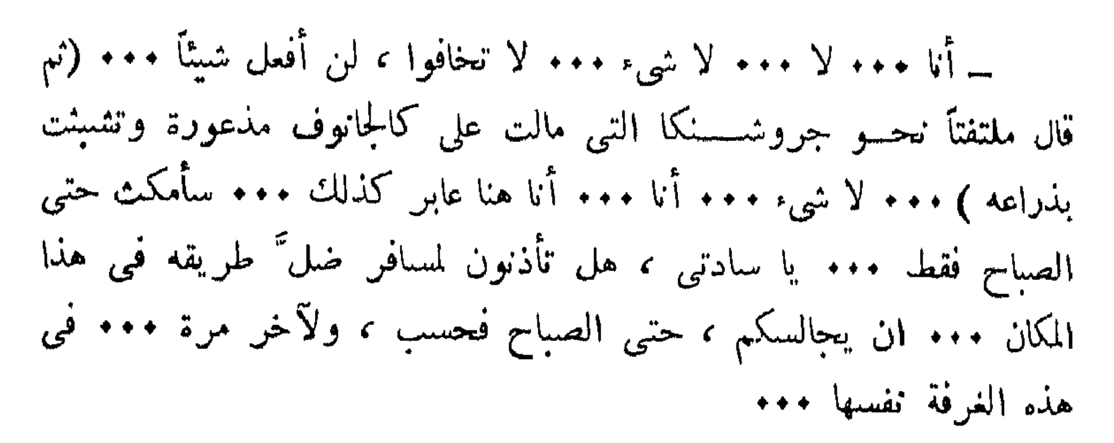
ألقى تريفون بوريستتش على ميتيا نظرة فلقة ، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تتاخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ؛ ثم أدخل ميتيا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وأجلسه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى . غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى . كانت جالسة على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريبـــاً منها على الكنبة ، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة . كانت جروشنكا ممسكة يده وكأنها تضحك ، بينما كان هو ينافس ماكسيموف ممتعض الوجه ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا أما « هو » فقد كان جالساً على الـــكنبة نصف مضطجع ، وكان يدخّن غليوناً . وفى جانب ، على كرسى مستند الى الجدار ، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه . ان الشخص المسترخى على الكنبة يبدو رجلاً بدين

الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن ، أما الثانى فهو طويل جداً . على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك . لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول ، فوضع العلبة على المنضدة ، ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره . رأته جروشنكا أول من رآه ، فصاحت تقول :

ـ آى ...

٧

الصديق القديم الذى لا يمكن جحوده



ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة لا يلوى على شىء • وبدأ كلامه يقول بصـــوت قوى جداً ، بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولـكنه يتلعثم عند كل كلمة :

ــ أنا ••• لا ••• لا شىء ••• لا تخافوا ، لن أفعل شيئاً ••• (ثم قال ملتفتاً نحــو جروشـــنكا التى مالت على كالجانوف مذعورة وتشبثت بذراعه) ••• لا شىء ••• أنا ••• أنا هنا عابر كذلك ••• سأمكث حتى الصباح فقط ••• يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه فى هذا المكان ••• ان يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة ••• فى هذه الغرفة نفسها •••

وجّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخّن على الكنبة • فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شـــفتيه بوقار ، وأجاب بصوت قاس :

ــ « يا سيد » ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزل حجرات أُخرى•

فتدخل كالجانوف فجأة يقول :

ـ أهذا أنت يا دمترى فيدورفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ...
اجلس ... أهلاً بك !

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً :

ـ يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذى لا نظير له . لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام .

ومدّ اليه يده من فوق المائدة .

قال كالجانوف ضاحكاً :

ـ أوه ! يالها من قبضة قويه ! لقد أوشك أن يحطّم أصابعى .

فقالت جروشنكا مرحةً وهى تبتسم خجلى :

ـ هذه طريقته فى المصافحة دائماً ...

لقد أدركت جروشنكا من النظر فى هيئته أنه لن يعمد الى شىء من العنف . وكانت تتفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق . ان شيئا ما فى تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً .

وانبرى الملاّك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعاذب :

ـ يومك سعيد يا دمترى فيدوروفتش !

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً . قال له متدفقاً فى كلامه:

ـ أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها الســادة ! أنا ... (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخن الغليون ، وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص فى هذا الجمع) ... أنا قد أسرعت الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة،

في هذه الغرفه نفسها ••• التى أتيح لى فيها ، أنا أيضاً ، أن أعبد ملكتى! (ثم هتف يقول بحماسه) اغفر لى يا سيدى • لقد آليت حين جئت الى هنا ••• أوه ! لا نخش شيئا ، لأن هذه الليلة هى ليلتى الأخيرة ! فلنشرب أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر • ولقد حملت معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق الماليه ، لا يدرى أحد لماذا !) ••• اسمح لى أيها السيد ••• اننى أريد موسيقى ، أريد صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرة الماضية • ان دودة الأرض ، ان دودة الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض ••• لسوف تختفى وتزول ••• أريد أن استحضر فى ليلتى الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! •••

كان ميتيا يختنق اختناقا • أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة • لبث البولندى جامداً لا يتحرك ، منقّلا بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة • قال :

ـ اذا وافقت ملكتى •••

قالت جروشنكا مقاطعة :

ـ ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أ أنا ملكة ؟ انكما لتضحكانى ! اجلس هنا يا ميتيا • ماذا كنت تعنى حين قلت ان هذه الليلة هى آخر لياليك ؟ لا تروّعنى ، أرجوك • لن تروّعنى ، أليس كذلك ؟ اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك •••

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

ـ أنا ؟ أنا أروّعك ؟ أوه ••• اعبرى ••• اعبرى ••• لن أكون عقبةً فى طريقك •••

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسى وأجهش يبكى ، محولاً رأسه ، شاداً بيديه ظهر الكرسى كأنه يعانقه . ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه .

سألته جروشنكا بلهجة العتب :

ـ ما هذا ؟ ما هذا؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتى الىّ . يأخذ يقول أشياء لاتُفهم على حين فجأة ، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً فى ذات مرة ... وها هو ذا يعيد الآن الكرة . ألا تستحى ؟ لماذا البكاء؟

ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة ، وهى تشدد كلماتها بشىء من الحنق :

ـ لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل ...

قال ميتيا :

ـ أنا ... أنا لا أبكى ... هيه ! يومكم سعيد جميعاً !

واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً . ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله .

قالت جروشنكا ملحة :

ـ أيضاً ؟ هلاّ كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! اننى سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعنى ؟

ثم قالت بلهجة آمرة وهى تتجه بكلامها الى جميع الحضور فى ظاهر الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الكنبة فى الواقع :

ـ أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فاذا كان عليه أن نصرف ، انصرفت أنا أيضاً .

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً .

قال « السيد » وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة :

ـ رغبات ملكتى هى عندى قوانين .

ثم التفت الى ميتيا متحبباً متودداً وقال :

ـ تفضل فاجلس معنا يا سيدى !

وهمّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقى خطاباً جديداً كما ظهر ذلك فى هيئته ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا ، واكتفى بأن قال :

ـ لنشرب أيها السيد !

وأخذ الجميع يضحكون .

هتفت جروشنكا تقول بعصبية :

ـ يارب السماء ! ما كان أضلنى حين تصورت أنه سيلقى علينا خطاباً آخر ...

ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

ـ اسمع يا ميتيا ، كفّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك هادئاً . أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جئت بها . سيحلو لى أن أشرب شمبانيا ، لأننى أكره الخمور الأخرى . واننى ليهمنى خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتى ، فلقد كنا هنا فى ضجر رهيب خانق ... أرى أنك تنوى أن تقصف وأن تبدد ... خبىء أوراقك المالية هذه فى جيبك . من أين جئت بكل هذا المال ؟

وها هو ذا مينيا الذى كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التى تجعدت والتى كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما « السيدين » البولنديين ، ها هو ذا مينيا يسرع فيدس الكدسة فى جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه • وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجةً شمبانيا مفتوحة وأقداحاً • فأمسك ميتيا الزجاجة ، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبَّ كالجانوف الى نجدته ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح •

قال ميتيا يأمر صاحب النزل :

ـ هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يقرع كأسه بكأس « السيد » بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كئوسهم •

وسرعان ما تغير تعبير وجهه • ان الهيئة التراجيدية الفخمة التى كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامةً تشبه أن تكون ابتسامة طفل • فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكرّ بالكلب الصغير المذنب الذى يحس بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد • لكأنه نسى كل شىء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد ، بنوع من الحماسة ، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً • أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها • وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً ، فأما « السيد » الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغليونه خاصة • قال ميتيا لنفسه : « هل من ضير فى أن يدخن ؟ ان من حقه تماماً أن يحب

الغليون ! » • ولم يصدمه فى أول الامر ما لاحظه فى وجه هذا «السيد» الذى يقارب عمره الاربعين ، من غضون واخاديد ، ولا ضـــايقه انفه الصغير الذى يمتد تحته شـاربان رفيقـان نحيلان مشمّعان يضفيان على وجهه لا أدرى أى نوع من الاســـتخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة فى سيبريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف الى أمام على الصدغين • قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهنـاءة : « باروكة ؟ لِمَ لا ؟ » • وأما البولندى الآخر الذى يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من « السيد » ذى الغليون ، فقد كان ينظر الى الجمع بوقاحة مستفِزّة ، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفســـه بصمت فيه ازدراء واحتقار • ان الشىء الوحيد الذى خطف بصرَ ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذى يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه : « لو نهض لكان طوله قريباً من مترين ! » • وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن « السيد » الطويل لابد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده ، فالقصير هو الذى يأمر العملاق فى أغلب الظن• وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة • لم يبق فى قلبه الصـغير أثر من خصومة أو تنـــافس • ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقى لموقف جروشنكا ، وللهجة الملغزة التى كانت تقول بها بعض عباراتها • فكل ما عرفه متأثراً فى قرارة قلبه أشد التأثر ، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها • وقد أصبح لا يملك نفسه اعجاباً بها وهى تحسو بضع جرعات من الشمبانيا • ولكن الصمت الذى كان يخيّم على النزلاء لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكأن عينيه تقولان : « ما بالنا لا نفعل شيئاً ؟ ما الذى يمنعنا من أن نلهو ونتسلى ؟ »

قال كالجانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره، قال مشيراً الى ماكسيموف :

ـ انظروا الى هذا ! انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيراً .

فحدق ميتيا الى الرجلين واحداً بعد آخر . وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً :

ـ يكذب ؟ هأ هأ ...

ـ نعم . تصور أنه يدعى أن جميع ضباطنا فى سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ؛ هذا سخف ، أليس كذلك ؟

قال ميتيا بالغاً أوج السرور :

ـ بولنديات ؟

كان كالجانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا ، وكان يحزر أيضاً دور « السيد » البولندى ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً ، لاستغراقه فى جداله مع ماكسيموف خاصة ، أو قل لانشغاله بهذا الجدال وحده دون ما عداه . لقد قادته المصادفة الى صحبة ماكسيموف فى هذا النزل الذى التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن . أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك؛ ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً . وقد ظل لا يبالى بها فى ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه وتلامسه قبل وصول ميتيا . انه فتى فى العشرين من عمره على أكثر تقدير ، شديد الأناقة ، جميل الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان آخاذتان

تعبران عن ذكاء ، وتعبران فى بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتفق ذلك مع سنه الغضه ، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أفواله تُشعر فى كثير من الأحيان بأنه طفل • على أن هذا لم يكن يضـايقه قط ، رغم شعوره القوى به • كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربمـا بدا فى بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته • وكان تعبير وجهه يتجمد فى بعض الأحيان فيكتسى شيئا يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصغى اليه ، ولكنه يكون غارقاً فى أفكاره هو ، يتابعها فى اصرار لا يحيد عنه • وهو تارة رخو متوانٍ ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب •

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة :

ــ تصور أننى أطوّف هذا الرجل معى منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التى دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تتذكر ذلك حتماً • لقد اهتممت بأمره عندئذ ، وأخذته معى الى الريف • ولكنه لا ينقطع عن الكذب • انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقنى ويزعجنى• وانى أنوى أن أعيده الى داره •••

قال البولندى ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية :

ــ ان هذا الرجل لم يعرف فى حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة •

كان البولندى ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه • ولكنه يصرُّ على أن

ينطق بها نطقاً رديئاً ، فهو يشوّه الألفاظ ، ويدس فى جمله كلمات بولندية .

أجاب ماكسيموف يقول بلهجة ساخرة :

ـ ولكننى تزوجت أنا نفسى امرأة بولندية .

فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً :

ـ ليست هذه هى المسألة . هل خدمت فى سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحاً ، وكان يصغى الى الحديث بنهم وشراهة :

ـ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! يا للفارس الجميل الذى كان يمكن أن يُرى فى سلاح الفرسان ! ...

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدرى الا الله ما هى !

قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

ـ لا ... لقد أسأت فهمى . فانما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات ... وهنّ فتانات فى الواقع ... ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رقصة بازوركا مع أحد فرساننا الرمّاحين ... يكفى أن ترقص احداهن مع الفارس رقصة مازوركا ، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه ، كقطة صغيرة بيضاء ... ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين ، فلا يجدان فى ذلك بأساً ولا يحتجان ... بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان ... وفى الغد يمضى الفارس يطلب يد الفتاة ... هل فهمتم ؟ يمضى يخطب الحسناء ... أليس هذا صحيحاً ؟ هأ هأ ...

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً •

ـ سيد مسكين !

هكذا جمجم يقول البـــولندى الطويل ، الجالس على كرسى قرب الحائط ، وأنزل احدى ســـاقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبهما فى الاتجاه المعاكس من جديد •

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً • يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة :

ـ لماذا يكون مسكيناً ؟ أنا لا أحب الاهانات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا :

ـ سيدتى أجريبينا ! لابد أن هذا السيد قد عاشر فى بولنده بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة !

فأمَّن الرجل العملاق على كلامها صاحبه قائلاً :

ـ تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين •

قالت جروشنكا متجهمة الأسارير :

ـ كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب « السيد » البولندى ذو الباروكة ، أجاب يقول بوقار :

ـ لست أمنعه من الكلام يا سيدتى •

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا ، ثم صمت ، ونشق نفسـاً من غليونه برصانة ورزانة .

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

ـ معذرة ! أحسب أن « السيد » على حق . مادام ماكسيموف لم يعش في بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البـلاد ؟ انك لم تتزوج في بولنده مع ذلك ، هه ؟

قال ماكسيموف شارحاً :

ـ لا ... وانما تزوجت في اقليم سمولنسك . ان أحد الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى ... أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد ... جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها السيدة أمها ، وخالة من خالاتها ، وقريبة أخرى لها ابن كبير . لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهنّ بولنديات حقاً ... وقد تنازل لى الفارس عنها . كان هذا الفارس فتى أخاذاً ... كان في نيته أن يتزوجها هو نفسـه في أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء .

هتف كالجانوف يسأله :

ـ كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

ـ نعم ، كانت تعرج . وقد تآمرا كلاهما على خداعى . كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها ...

ـ الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولى .

ـ نعم ، الى فرحتها بتزوجى . ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن

كذلك البتة • فبعد زواجنا ، بل في مساء الحفلة نفسه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فانكسرت عندئذ ساقها ! هأ هأ !

انطلق كالجانوف عندئذ فى ضحك كضحك الأطفال تماماً ، وكاد ينقلب على الكنبة • وضحكت جروشنكا أيضاً • أما ميتيا فقد شعر أنه فى ذروة الغبطة والهناءة والسعادة •

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا :

ـ هل تدرى أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب فى هذه المرة ! اعلموا أنه تزوج مرتين ••• وهو عن زوجته الأولى انما تحدث الآن ، أما الثانية فقد هربت ••• هل تعلمون هذا ؟ وهى ما تزال حية • أكنتم تجهلون ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

ـ غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع :

ـ بل لقد هربت فعلاً • نعم ••• حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى • وأسوأ ما فى الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضى التى تتبعها • قالت لى : « أنت رجل مثقف ، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك » • على هذا النحو انما تركتنى • وقد نبهنى أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتىّ كانت ساقها عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة ••• هأ هأ ! •••

صاح كالجانوف يقول فى حماسة :

ـ هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب ـ وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة ــ فهو لا يكذب الا ليسلينا • ليس فى هذا شىء من حطة ، ليس فيه شىء من حطه ! انه يعجبنى أحياناً ، هل تعلمون ؟ هو دنىء جداً، ولكن دناءته طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً فى منفعة ، أو سعياً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعاً اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض • تصوروا مثلاً أنه يدعى أن جوجول انما وصفه هو فى كتابه « النفوس الميتة » *• لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق • انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريف ، فحوكم هذا الرجل « بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، فى حالة سكر ، الى الملاك ماكسيموف • » • ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذى جلد بالسياط ذلك الجلد الذى يحدثنا عنه كتاب جوجول، فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلاً ! ان تشتشيكوف قد سافر سنة ١٨٢٠ ، فالتاريخ اذن غير مطابق أبداً • انه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماكسيموفُنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد • يستحيل ، أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولى هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن ! وتحيز له ميتيا باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً :

ــ ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد •••

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

ــ الحق أن ما وقع لى لم يكن هو الجلد تماماً ، بل كان شيئاً من هذا القبيل •

ـ كيف هذا ؟ شيء من هذا القبيل ؟ اما أنك جُلدت واما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل « السيد » البولندى ذو الغليون ، سأل صاحبه البولندى الطويل ، متململاً متذمراً :

ـ كم الساعة الآن ؟

فرفع البولندى الطويل كتفيه • لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية :

ـ هل أضجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ، فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة • أجاب « السيد » البولندى بشىء من العصبية ، أجاب يقول باللغة البولندية :

ـ سيدتى ! أنا لم أقل شيئاً ، ولا أنوى أن أزعج أحداً •

فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

ـ طيب • اقصص الآن • مالى أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه يقول وقد سرَّه الاهتمام به ، وأخذ يصطنع اللطف :

ـ ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد موَّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية • من ذلك

أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف*، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف ، والاسمان مختلفان كل الاختلاف . أما فيناردي فكان اسمه فعلاً فيناردي ، ولكنه كان روسياً لا ايطالياً : فيناردي بتروف . وكانت الآنسة فيناردي فتاة أخاذة فتانة ... ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدين في سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة ! ... وما كان أروع دورانها ! ... ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات . لقد فتنت ألبابنا جميعاً يومئذ ...

زأر كالجانوف يسأله :

ـ ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاّ قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذي يعنينا !

أجاب ماكسيموف :

ـ جلدوني بسبب بيرون .

فسأله ميتيا :

ـ اي بيرون ؟

ـ الكاتب الفرنسي الشهير بيرون . كنا جماعةً كبيرة في كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر . حدث ذلك في أثناء تلك السوق نفسها . دعوْني ، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة . قالوا لي : « أهذا أنت ... الشاعر بوالو ؟ يا للزي الغريب المضحك! »* فأجابهم بوالو بأنه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات ... هأ هأ ! ... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم . وعندئذ

أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة فى الأوساط المثقفة ، وكانت فى الحق كاوية :

أنت سافو وأنا فاوون ـ ذلك أمر مر
ولكن أكبر مصائبى
انك تجهلين طريق البحر * .

فازداد اســتياؤهم وأخذوا يهينوننى اهانات ليست لائقة . فاردت عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خراقة ؛ ومن أجل أن أسوّى الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا المثقفون جداً . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ، فقال :

هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئا ذا بال
حتى ولا عضوا فى الاكاديمية

فما كان منهم الا أن هجموا علىّ فجلدونى .

ـ عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

ـ ليعاقبونى على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة التعمق والحكمة، قائلا :

ـ ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

ــ كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضــــجرة ! لا أريد أن أسمعها بعد الآن • لقد توقعت شيئاً أدعى الى البهجة وأبعث على الضحك!

فسرعان ما وجم ميتيا وكفّ عن الضحك • ونهض « الســـيد » البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقعتــه المقــادير فى صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم •

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

ــ ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن « السيد » الجالس على الســكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه • فصاح ميتيـــــا يقول :

ــ فلنشرب أيها السيد • (ثم التفت الى البــــولندى الآخر وتابع كلامه) • وأنت أيضاً ••• فلنشرب ، فلنشرب أيها السادة !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شمبانيا • وهتف يقول :

ــ فلنشرب نخب بولنده ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب نخب الأرض البولندية !

فأجابه « الســــــيد » ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه :

ــ بكل سرور يا سيدى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

ـ والسيد الآخر أيضاً . هلا قلتم لى اسمه ! خذ كأساً يا سيدى .

قال السيد ذو الغليون :

ـ اسمه السيد فروبلفسكى .

واقترب السيد فروبلفسكى من المائدة متمايلاً ، وتناول كأساً ، ولكنه ظل واقفاً .

هتف ميتيا وهو يرفع كأسه :

ـ فلنشرب نخب بولنده يا سادتى !

وقرع الثلاثة كئوسهم بعضها ببعض . ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكئوس الثلاث من جديد . وقال :

ـ والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتآخى !

قالت جروشنكا :

ـ املأ لى أنا أيضاً كأساً . أريد أن أشرب كأس روسيا .

وقال كالجانوف :

ـ وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال :

ـ وأنا أيضاً ! اننى احرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا . هىء هىء ! ...

هتف ميتيا يقول :

ـ فلنشرب جميعاً ! فلنشرب جميعاً ! هات زجاجات أخرى يا ريّس !

جيء بالزجاجات الثلاث الباقية . وملأ ميتيا الكئوس . وصاح يقول من جديد :

ـ نخب روسيا !

فشرب الجميع الا البولنديين . أفرغت جروشنكا كأسها دفعةً واحدة . أما البولنديان فلم يمسّا كاسيهما .

قال ميتيا فى دهشة :

ـ ماذا ؟ أهكذا أنتم ؟

فتناول « السيد » فروبلفسكى كأسه ، ورفعه ، وقال بصوت أخفض :

ـ اننى اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ ! *

فهتف « السيد » الآخر قائلاً باللغة البولندية :

ـ عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما . فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

ـ ما أغباكما !

فانتصب « السيدان » أمام ميتيا كديكين ، وقالا له بلهجة التهديد :

ـ أيها ... السيد !

وكان يبدو على فروبلفسكى أنه خارج عن طوره؟ وها هو ذا يصرخ قائلاً فى استياء (باللغة البولندية) :

ـ هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشنكا تقول بصوت صارم وهى تقرع الأرض بقدمها :

ـ سكوت ! كفاكم شجاراً ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها • كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها • خاف ميتيا • وأسرع يقول :

ـ معذرة أيها السيدان ! أنا المذنب • لن أكرر • يا فروبلفسكى ، يا سيد فروبلفسكى ، سأجلس ساكناً هادئاً بعد الآن •

فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج :

ـ ليتك تسكت أنت على الأقل ؟ أبله !

جلس جميع الحضور ، وخيمّ الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فى حرج •

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنكا ، فاستأنف يقول :

ـ أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا •• ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً ••• فنسترد مرحنا وانطلاقنا ؟ •••

قال كالجانوف باهمال ودون اكتراث :

ـ حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً •

فقال ماكسيموف مقترحاً :

ـ ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هىء هىء !

فقال ميتيا مؤيداً مستحسناً :

ـ لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان •••

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج ، قال باللغة البولندية :

ـ بوزنو (الوقت متأخر) •

فقال فروبلفسكى مؤمنا :

ـ هو على حق •

فسألت جروشنكا :

ـ بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنبة :

ـ معناها : الوقت متأخر •

فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها :

ـ الوقت دائماً متأخر فى نظر هذين السيدين ، وكل شيء مستحيل فى نظر هذين السيدين • انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة • انهما ، الى أن جئت يا ميتيا ، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت ، متخذين هيئة التعالى تجاهى •

فهتف « السيد » الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية :

ـ الهتى ! ما قلته صحيح تماماً • لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية •

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

ـ أنا مستعد •

فأجابه ميتيا :

ـ افتح اللعب يا سيدى •

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلّ منها ورقتين بمائتى روبل ووضعهما على المائدة • وقال :

ــ أريد يا سيدى أن أخسر مالاً كثيراً معك • خذ الورق ، وكن أنت الخازن •

قال « السيد » القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته :

ــ يجب أن نلعب بورق صاحب النزل •

فقال السيد فروبلفسكى مؤيداً :

ــ ذلك أفضل حقاً !

قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما :

ــ تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! سنأخذ ورق صاحب النزل • أنتم على حق •

وقال يأمر صاحب النزل :

ــ هات ورقاً •

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمعّن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد هنيهة ، ولكن العربة التى تحمل المؤن قد تأخرت • فنهض ميتيا فجأة ، وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة • لم يكن فى الغرفة الا ثلاث بنات • ولم تكن ماربا قد ظهرت بعد • وكان ميتيا لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى لقد تساءل ماذا جاء يعمل في هذه الغرفة • ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر ، وأن يوزّع

على البنات كارامل . وأضاف يقول متعجلاً : « وقدّموا فودكا لآندره لأنني جرحت شعوره منذ قليل » .وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضـــع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذي كان قد تبعه الى الغرفة .

همس الملاك يقول له :

ـ هل تستطيع أن تسلفني خمسة روبلات ؟ انني أحب أن ألعب أيضاً ! هيء هيء ...

ـ عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

ـ وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد . ســـأعطيك غيرها أيضاً ...

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح :

ـ هذا يدبر أمري !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى .

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغيبه . وكان البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله . وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة . وها هوذا « السيد » القصـير ، الذي أشعل غليوناً جديداً ، يستعد لخلط الورق بوقار . هتف فروبلفسكي يقول :

ـ مكانكم يا سادتي !

فقال كالجانوف :

ـ أنا لن ألعب • فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا •

فقال السيد ذو الغليون :

ـ ان سيدى لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته •••

سأل ميتيا متحمساً :

ـ كم الخزنة ؟

ـ يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك متوقف على المبلغ الذى تحطه •

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ مليون !

ـ لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكى * ؟

ـ أى بودفيزوكى ؟

ـ حدث فى ذات مســاء فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال المحطوطة عند الخازن • فأقبل بودفيزوكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية، فحطّ مبلغاً • سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف • فقال بودفيزوكى : « بل اعتماداً على عهد الشرف » ، فقــال الخــازن « حسناً » ، وقطـــع ، فلمّ بودفيزوكى القطع الذهبية • فاذا بالخازن يقول له : « لحظة أيهــا السيد » • وفتح الدرج وناول بودفيزوكى مليوناً وهو يقول له : « خذ • هذا ما ربحته• لقد كانت الخزنة مليوناً • قال بودفيزوكى متردداً : « كنت أجهل هذا »، فقال له الخازن : « يا سيد بودفيزوكى ، أنت لعبت بالاعتماد على عهـد

الشرف ... وأنا كذلك . فأخذ بودفيزوكى المليون ودسَّه فى جيبه .

هتف كالجانوف يقول :

ـ هذا غير صحيح !

فقال السيد ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولنديه :

ـ يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء فى صحبة أناس محترمين !

فصاح ميتيا قائلاً :

ـ لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاستدرك يقول :

ـ معذرة يا سيدى ! ها أنا ذا أخطىء من جديد ! ان البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لعهد الشرف ، صوناً للشرف البولندى ... أنا أسلم بهذا ! ... أرى أننى سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر ! هأ هأ هأ ! أحط عشرة روبلات على الأعرج (الفاليه) .

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام) :

ـ وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، البنت البستونية ، على « الست » ، هىء هىء ...

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً ، كأنه يريد أن يخفى ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب .

ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضاً .

قال ميتيا :

ـ أضاعف .

وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل :

ـ وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل شهم صغير !

صرخ ميتيا :

ـ خسرت ! أضاعف حطتي على السبعة .

وخسرت السبعة أيضاً .

قال كالجانوف فجأة :

ـ كفوا عن اللعب .

فعاد ميتيا يقول دون أن يضطرب :

ـ أضاعف .

وظل ميتيا يضاعف ، وظل يخسر في كل مرة ، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح .

صرخ ميتيا حانقاً :

ـ أضاعف أيضاً .

ـ فقال له « السيد » ذو الغليون :

ـ خسرت حتى الآن مائتي روبل . فهل تريد أن تقامر بمائتي روبل دفعة واحدة ؟

ـ كيف ؟ خسرت مائتي روبل ؟ لا بأس ! أضاعف مع ذلك ! ألعب بمائتي روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتي روبل ، وهمّ أن يلقيهما على البنت (الدام) ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليهما فيغطيها . قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان :

ـ يكفي هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

ـ ماذا بك ؟

ـ يكفي هذا . لن أدعك تستمر .

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ! دعهما وامض . هذا أفضل . صدقني . سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب .

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم .

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها :

ـ دع اللعب يا ميتيا . ربمـــا كان على حق . ثم انك قد خسرت ما فيه الكفاية .

قلق « السيد » القصير فقال يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدق اليه تحديقاً قاسياً :

ـ أتراك تمزح ؟

وصرخ « السيد » الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد !

ـ كيف تجرؤ أن ...

فغضبت جروشنكا وقالت :

ـ لا أسمح بالصراخ هنا • لكأنكم ديكة حانقه !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد • وفجأة لفت انتباهه فى هيئة جروشنكا تعبير غريب • وفى تلك اللحظة نفسها ومضت فى ذهنه فكرة عجيبة •

بدأ « السيد » القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً :

ـ سيدتى أجريبينا •••

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه • فقد اقترب منه ، ووضع يده على كتفه وقال له :

ـ كلمتين أيها السيد النبيل !

فسأله هذا بالبولندية :

ـ ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

ـ تعال معى الى الغرفة المجـــاورة • أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً • سترى أن ما سأقوله لك يرضيك •

بدت الدهشه على « السيد » القصير ، ونظر الى ميتيا فى خشيه • ومع ذلك رضى أن يتبعه ، ولـــكنه اشترط أن يصـــحبه « الســـيد » فروبلفسكى •

هتف ميتيا قائلاً :

ـ حارسك ؟ فليأت هو أيضاً ••• ثم ان حضوره ضرورى • هيـا بنا أيها السيدان !

سألته جروشنكا قلقة :

ـ الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميتيا :

ـ سنعود بعد لحظة .

من رأى ميتيا فى تلك اللحظة أحسّ أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة، وأحسّ أنه واثق من نفسه ثقةً لا تُنتظر منه . ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله .

قاد ميتيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد . وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة. جلس « السيد » ذو الغليون وميتيا متقابلين ، ووقف « السيد » العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعاً يديه وراء ظهره . ان الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين ، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله .

تمتم « السيد » ذو الغليون يقول بالبولندية :

ـ ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها لك ؟

ـ اسمع أيها السيد . لن أراوغ وأخاتل . خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال ... هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق « السيد » الى ميتيا بنظرة فاحصة ، مغرقا عينيه فى عينيه . وسأله بالبولندية :

ـ ثلاثة آلاف روبل أيها السيد ؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة ٠

قال له ميتيا :

ـ نعم ، ثلاثة آلاف ! اسمع أيها السيد : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل ٠ خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد ٠ الى الأبد ، فهمت ؟ تخرج من هذا الباب ، هل ترى ؟ ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراء ؟ سأجيئك به ٠ وسآمر باعداد عربه ترويكا لك فوراً ٠٠٠ وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد ٠ هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلىء ثقة ٠ كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض ٠ واتخذ وجه « السيد » ذى الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم ٠ وقال يسأل ميتيا :

ـ أين المال يا سيدى ؟

ـ اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفة ونفقات سفر ٠ أما الباقى ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدينة ، أحلف لك بشرفى ٠ سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) ٠

تبادل البولنديان نظرة ٠ وأصبح وجه « السيد » ذى الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل ٠ قال ميتيا :

ـ بل أعطيك سبعمائة، سبعمائة روبل ، لا خمسمائة، كدفعة أولى ٠٠ أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى

لاحظ أن الأمور أخذت تجرى مجرى لا يبعث على الامل) • ما بك أيها السيد ؟ ألا تصدقنى ؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال • ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود اليها غداً ••• ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تمتم يقول أليوشا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ •••

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجهَ « السيد » ذى الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتيا فى سخرية (باللغة البولندية) :

ـ أهذا كل ما تريده ؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة •

وبصق فروبلفسكى أيضاً •

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه ، وأدرك أن كل شىء قد ضاع ، قال :

ـ أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر! ألا انكما كليكما لمضحكان !

فقال « السيد » ذو الغليون ، وقد احمر احمراراً شـــديداً (قال باللغة البولندية أيضاً) :

ـ انك تهيننى الى أقصى حدود الاهانة •

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام • وسار فروبلفسكى وراءه متمايلاً • وتبعهما ميتيـــا مضطرباً حائراً وقد أسقط فى يده • كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه

أوجس أن البولندى سيفضح الأمر • وذلك ما حدث فعلاً • فقد دخل « السيد » ذو الغليون القاعة ، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحيـــة ، وهتف يقول لها باللغة البولندية :

ـ لقد أُهنت الى أقصى حدود الاهانة •

فاذا بجروشنكا تصيح فى وجهه حانقة مسعورة :

ـ باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروســية ! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروســـية فى الماضى ، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشنكا محمرّة الوجه غضباً •

ـ سيدتى أجريبينا •••

ـ اسمى أجرافين ••• أنا جروشنكا ••• تكلم بالروسية اذا كنت تريد أن أسمع لك !

جُرحت كبرياء «السيد» ، فاحمر وجهه ، وأسرع يقول فى تنفخ وفخفخة ، متعمداً تشويه الكلمات :

ـ أيها السيدة أجرافين ! لقد جئت وأنا أنوى أن أنسى الماضى وأن أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم •••

فقاطعته جروشنكا قائلة وهى تثب من مكانها :

ـ جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

ـ نعم يا سيدتى ، كنت أريد أن أغفر لك • ان لى نفساً رحبة وقلباً سمحاً • ولكن سلوك خلاّنك قد أدهشنى • فمنذ هنيهة ، فى الغـــرفة المجاورة ، أراد « السيد » ميتيا أن يعطينى ثلاثه آلاف روبل لأسافر • فبصقت فى وجهه •

صرخت جروشنكا تسأله بصوت حاد :

ـ ماذا ؟ هل تجرأ أن يقدم لك مالاً من أجلى ؟ أصحيح هـــذا يا ميتيا ؟ كيف جرؤت ؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى ؟

قال ميتيا فى أنين :

ـ أيها السيد ، أيها السيد ، انها طاهرة كملاك ، ولم أكن خليلها فى يوم من الأيام . لقد كذبتَ فى هذا الأمر ...

زأرت جروشنكا تقول :

ـ كيف تجرؤ أن تدافع عنى أمامه ؟ لئن حافظتُ على طهارتى ، فاننى لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة ، بل ليكون من حقى أن أصرخ فى وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقى تعس ! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذى عرضته عليه ؟

فصاح ميتيا يقول :

ـ رفض ؟ انه لم يرفض ... لقد رضى ... ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمائة روبل .

قالت جروشنكا :

ـ اتضح الآن كل شىء : لقـــد علم اننى أملك مالاً ، فأراد أن يتزوجنى !

صرخ « السيد » يقول :

ـ يا سيدة أجريبينا ، أنا فارس ، أنا بولندى نبيل ، لا شقى تعيس . لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لى ، ولـــكننى أرى الآن أمامى امرأة

تختلف كل الاختلاف عن المرأة التى عرفتها ، أرى أمامى الآن امرأة راكبةً رأسها خالعةً عذارها ...

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

ـ اذهب ! عد من حيث جئت ! لآمرنّ بطردك ، فيضعوك على الباب ! ألا ما كان أشد بلاهتى حين عذبت نفسى خلال هذه السنين الخمس بسببه ! ... لا ... اننى لم اعذب نفسى هذا التعذيب بسببه ، وانما عذبت نفسى غضباً وحنقاً ! ليس هذا هو الرجل الذى أحببته ! أوه ! انه لم يكن هكذا ! ليس هذا الرجل هو من أحببت ! أغلب الظن أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة ؟ لقد كان ذاك صقراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكنى وينشدنى الأغانى .. الا ما كان أغبانى اذ لبثت أبكى طوال خمس سنين ، وما كان أحطنى ، وما كان أجبننى !

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد ، وغطت وجهها بيديها . وفى تلك اللحظة ، ترجعت فى الغرفة التى تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتى اجتمع شملهن أخيراً . لقد أخذن يغنين رقصة شيطانية .

فصاح فروبلفسكى على حين فجأة يقول :

ـ هذا محل دعارة ! يا ريّس ، اطرد هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزل يلقى على القاعة نظرات استطلاع من حين الى حين ، فلما سمع الصراخ وأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع اليهم . وقال يسأل فروبلفسكى بلهجة فظة :

ـ هيه ! أنت ! مالك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله ؟

فزأر « السيد » فروبلفسكى يقول له :

ـ وغد !

ـ وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاّ قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئتك بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مغشوش ! هل تعلم أننى أستطيع أن أرسلك الى سيبريا بسبب هذا الغش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة ...

واقترب صـــاحب النزل من الكنبة ، فأغطس يده بين الوســـادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

ـ هذا ورقى ، لم يمسّ !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

ـ لقد رأيته من ركنى لحظة دسّ هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! أنت وبش لا « سيد » ...

وقال عندئذ كالجانوف :

ـ وأنا فاجأت « السيد » يغش مرتين .

صاحت جروشنكا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ يا للعار ! آه ... يا للعار ! ... رباه ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟...

وكانت جروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شـــديدة من فرط شعورها بالذل والخجل .

قال ميتيا :

ـ لقد اشتبهت فى أنهما يغشان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت « السيد » فروبلفسكى الى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

ـ مومس !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفعه ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات . وسرعان ما عاد الى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال ، فقال للقوم :

ـ رميته على الأرض ! المسكين يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع .

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحاً ، واتجه الى « السيد » ذى الغليون يسأله :

ـ هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك ؟ برزبرازنام ! (معذرة !) .

فهتف تريفون بوريسيتش يقول :

ـ ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استردّ منه المال الذى خسرته فى اللعب ، على الأقل ... لقد سرقاك !

قال كالجانوف :

ـ أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

ـ وأنا أتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن استردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما !

ـ مرحى ميتيا •

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شيء من الشر •

فاتجه « السيد » ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق ، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته • ومع ذلك فانه قبل أن يخرج من القاعة ، التفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية) :

ـ سيدتى ، اذا كنت تريدين أن تتبعينى ، فتعـــالى ! والا ••• فوداعاً •••

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزياً •

ذلك انسان لا يهزه شيء • فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه « السيدة » ، لأنه يقدر نفسه قدراً عظيماً •

أغلقت جروشنكا الباب عليهما •

وقال لها كالجانوف ناصحاً :

ـ أقفلى الباب عليهما بالمفتاح •

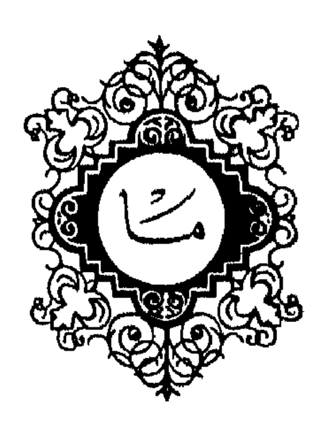
ولكن القفل صرّ من داخل الغرفة • لقد سارعا هما الى اقفال الباب المفتاح •

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة :

ـ عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

٨

هذيان



ان مضى البولنديان حتى سمل القاعة مرحٌ عام، وحتى بدأ احتفال سببه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر . قالت :

ـ أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً، كالمرة السابقة ، هل تتذكرياميتيا ، يومَ تعارفنا ؟

وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان ، لأنه كان يتنبأ « بسعادته » . وكانت جروشنكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه فى كل لحظة ، قائلةً له :

ـ اذهب اليهم ، سرِّ عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح . أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرة السابقة ، كالمرة السابقة تماماً .

كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس . وكان ميتيا يتحرك هنا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها . تجمع أفراد الجوقة فى الغرفة المجاورة. ان هذه القاعة التى تجمعوا فيها صغيرة مسرفة فى الصغر ، تقسمها الى قسمين ستارةٌ من نسيج هندى تخفى وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف كبير فوقه كدسة من وسائد . وان فى سائر الغرف الأربع الأخرى « النظيفة » سرراً على كل حال . استقرت جروشنكا أمام الباب ، حيث

أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه • ذلك هو المكان الذى شغلته « فى ذلك اليوم» ، أثناء احتفالها الأول فى الليل ، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء• ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن• ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان • وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضاً تحمل المؤن •

شُغل ميتيا كثيراً ، وراح يتحرك هنا وهناك • كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة • لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل ، وأسرعوا يرتدون ثيابهم ، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى • ان ميتيا يحيى الوافدين الجدد ، ويعانق الأصحاب القدامى ، ويبير ذكريات سابقة ، ويفتح الزجاجات ، ويقدم الشراب لكل قادم • والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا ، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك ، ويفضلون « البنش » خاصة • أصدر ميتيا أوامره باعداد شوكولاتة للبنات ، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاى والبنش • يجب أن يكون هنالك شراب للجميع • يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر • الخلاصة : قامت الدنيا وقعدت ، وأخذ الناس يشربون فوضى لا يلجمهم شىء • ولكن ميتيا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح ، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة • فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً فى تلك اللحظة ، اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزّع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عد • ولعل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن • وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام فى هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلا جداً (اكتفى بكأس بنش واحد) ،

ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه ، ولو على طريقته الخاصـــة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذبة لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الجفاة سيجاراً وملبساً «كما فعل فى المرة الماضية» ، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خاصة ،لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقضم ملبساً ، فيقول : « وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين ، ولأحملهن على أن يشكرن لى هـــذا الشرف . ذلك ما هن به جديرات ! » . وتذكر ميتيا الحوذى آندره من جديد ،فأرسل اليه شيئاً من البنش . وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع : « لقـــد أسأت اليه منــذ قليل » . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوقة البنات .ولكن مرحه اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يسـير فى خلال الغرفة ضاحكاً مطرياً كل شىء ، الأغانى والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنكا ، التى ثملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومىء الى كالجانوف « ما ألطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه ! » ، فكان ميتيـــا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة ؛ وكان يقبّل ماكسيموف فى هذه المناسبة. آه .. ماكان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشىء بعد ، وأنها كانت تبدو راغبـــة فى تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر اليه خلسةً من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وها هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه اليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت فى أول الاحتفال :

ــ ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! أوه ! لقد خفت

عندئذ خوفاً شديداً . كيف خطر ببالك أن تتنازل عنى لذلك الرجل ؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :

ـ لم أشأ أن أفسد سعادتك .

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه . وصرفته عنهـا من جديد قائلة له :

ـ اذهب ، اذهب ، سرِّ عن نفسك لاهيـاً معهم . وليس لك أن تتشكى ، فسأناديك بعد قليل .

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصغاء الى الأغنيات . فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها . قالت :

ـ اجلس بجانبى الآن ، واقصص علىَّ كيف علمت أمس اننى هنا . من أولُ من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس فى سرده تسلسل كثير . والشيء الغريب أنه كان فى بعض الأحيـان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه . قالت اه جروشنكا :

ـ ما بك ؟

فأجابها :

ـ لا شيء ... لقد تركت فى المدينة مريضاً . أرجو أن يشفى ... انى لأهب من عمرى عشرة أعوام فى سبيل أن يشفى !

ـ لا تفكر بعد الآن فى ذلك المريض . قل لى : هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر فى غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً :

ـ أحب أمثالك ، المجانين قليلاً • أأنت مستعد اذن لأن تجازف بكل شيء في سبيلي ؟ أكان في نيتك اذن أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزي الطبيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك أن تنتظر ••• قد أقول لك في الغد كلمه صغيرة ••• لا اليوم ••• بل غداً ! آ ••• لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا ••• لا أريد أن أقولها اليوم ••• اذهب ، اذهب الآن ، سلّ نفسك !

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسألته :

ـ مالي أراك حزيناً هذا الحزن كله ؟ انني ألاحظ أنك مهموم •

وسدّدت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

ـ نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً • مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فانني أدرك أن هناك شيئاً يعذبك • كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فعليك أن تفرح أنت أيضاً ••• تصور أنني أحب أحداً هنا ••• أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتاي الصغير ••• انه ثمل ، عزيزي !

كانت تعني كالجانوف • لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول • على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفي أن تغرقه في النوم• وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معيّن واضح ، وذلك ما عبّر عنه بقوله انه « ضجر » • وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز ، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبّيْن ، وأخذت ستيبانيد ، وهي امرأة قوية الجسم خلبة البال ، « تعرضهما » وفي يدها هراوة ، قائلةً في صراخ :

ـ بعنف يا مارى ، والا هويت عليك بالهراوة !

وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهـــور الفلاحين والفلاحات الذى يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل !

قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة :

ـ دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة . ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فلينتهزوها !

وكان كالجانوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتعد وهو يقول :

ـ ما أكثر الابتذال فى هذا الفرح الشعبى ! أهكذا يتسلون اذن هم الذين يعيشون فى قلب الطبيعة ؟

وكانت قد آذته أغنية « جديدة » ايذاء خاصاً . هى أغنية تتردد فيها لازمة تُمثَّل بايماء وتُرقص على ايقاع جرىء ؛ وهى تروى قصة بارين (سيد) مسافر يسبى قلوب البنات .

سأل البارين البنات : *
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً .

سيضربنى البارين
ولن أحبه

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سأل الغجرى البنات :
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من البارين :

سيكون الغجرى لصا
ولن تكون هذه هى السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندى :

سأل الجندى البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار :

سيحمل الجندى الكيس
أما أنا فسوف ...

وكان البيت الثانى بذيئاً بذاءة صريحة ، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً ، فتثير فى الجمهور حماسة عظيمة . وتقدم أخيراً تاجر :

سال التاجر البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

فأحبته البنات ، لأن :

التاجر سيجنى ثروة كبيرة
ويجعلنى أميرة ...

نفذ صبر كالجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ :

ـ هذه أغنية حديثة جداً . تُرى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها فى الواقع الا متعهدو سكك حديدية ويهود . فلو وجدوا لأحرزوا النصر !

كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً ، وقال فجأة انه ضجر ، واضطجع على الكنبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً، ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشنكا وهى تجذب ميتيا اليها :

ـ أنظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أسلّى نفسى بملاعبة شعره . ان شعره غزير كثيف ، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومة ...

ومالت جروشنكا على كالجانوف فى حنان ، وقبلت جبينه . ففتح كالجانوف عينيه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال :

ـ أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشنكا ضاحكة :

ـ انظروا عمن يسأل . ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاّ بقيت معى بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به .

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يبتعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر . وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاتة . وتلوّن خداه ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفة وحنان . وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على « لحنٍ موسيقى معروف » . وقال شارحاً :

ـ لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة .

فهتف كالجانوف يقول ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشنكا وهى أن ينفرد بها :

ـ سأمضى أنا أيضاً . اننى أريد أن اراه عن كثب حتماً .

وتبعوا ماكسيموف . وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة

أحد الا مينيا • هي رقصه قوامها قفزات وتلويات ، ورفع السيقان الى فوق وجعل النعال عالية في الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة •

معط كالجانوف سفتيه استياء ، ولكن ميتيا وثب الى عنق الراقص قائلا له :

ـ شكراً لك ياصاحبي الطيب الشهم • يخيل الى أنك تعبت • أأنت تنظر الى السكاكر ؟ أتريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً ؟

ـ بل سيجارة •

ـ ألا تريد أن تشرب شيئاً ؟

ـ شربت خموراً • أليس عندكم سكاكر بالشوكولاتة ؟

ـ ما أكثر ما عندنا منها على المائدة • اختر ما يحلو لك يا حمامتي !

ـ لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة ••• أريد سكاكر الشيوخ العجائز تلك ! هيء هيء ! •••

ـ ليس عندنا منها يا أخي !

ومال العجوز القصير فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً :

ـ قل لي : أما من سبيل ••• أليس هناك وسيلة ••• أنظر الى هذه البنية ، الى ماري اللطيفة هذه ، هيء هيء ، كم أود لو أتعرف عليها •• اذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن •••

ـ أوه ! أوه ! أرجو أن تكون هازلاً لا جاداً !

ـ لا أريد بها شراً

كذلك دمدم يقول ماكسيموف مفحماً • فقال له ميتيا :

ـ طيب ••• طيب ••• هذا يا أخي غناء ورقص ، ولكن ذلك هو كل شيء • على كل حال ••• اذا كنت تحرص هذا الحرص كله••• عجيب ! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح • ألعلك في حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

ـ ربما احتاج الى شيء من المال • فيما بعد •

ـ طيب •••

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة • خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء • أحسن اليه الهواء الطرى• توقف في ركن مظلم ، واذ أحس أنه وحيد ، أخذ يفكر • فما هي الا بضع لحظات ، حتى وضع رأسه بين يديه فجأة • ان خواطره المتفرقة المتبعثرة ، وان احساساته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! تساءل : « اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي ، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً ؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه ، في هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟ » ولبث يتردد دقيقة طويلة • انه منذ ساعات قليلة ، حين كانت عربة الترويكا تقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم ••• ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار اسهل منه الآن ، أسهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قد تنازل عنها ••• أصبحت لا وجود لها •• وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه هيناً يسيراً • لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له ،

لقضاء أعلى لا اعتراض عليه . ماكان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقى شىء يشده الى هذا العالم ويربطه به . أما الآن فقد اختلفت الحال . ان احدى حلقات القدر ، ان أحد أشباح الخوف ، قد تبدد الآن دخاناً !ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده أو التنكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكا . لقد أخرج من الغرفة كطفل ، وأقفل عليه الباب بالمفتاح ! انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؛ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ فى عينيها من ذا تحب فى الواقع . الآن انما يمكن أن تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً ... ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! « اللهم ردّ الحياة الى ذلك الذى صرعتُه قرب السور ! اللهم اجعل الكارثة تمر قربى دون أن تمسنى ! اللهم انك قد صنعت معجزات لأناس غيرى كانوا مذنبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! ... ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يمت ! لأمحونّ عندئذ عار الاثم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض ... لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار ... الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد . لا ، لا ، هذا مستحيل . هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها.. يا للعذاب ! » .

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل . انتزع نفسه من تأمله القاتم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأرضى ، اسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد . تساءل : « ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها ، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً . » استولت هذه الفكرة على ميتيا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل . قال

يحدث نفسه : « أراها ، أراها أيضاً ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير فى أى شيء ، أنسى كل ماعداها ، ولو ليلةً واحدة ، دقيقة واحدة ! » . وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوريستتش عند مدخل الدهليز . كان تريفون بوريستتش حزين الهيئة منزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه.

ـ أتبحث عنى أنا يا تريفون بوريستتش ؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه :

ـ لا ... لا أنت ... ثم علام أبحث عنك ؟ ولـــكن ... أين كنت ؟

ـ مالى أراك مظلم الوجه ؟ أتراك غاضـــباً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تنام هادىء البال . كم الساعة الآن ؟

ـ هى الثالثة أو تزيد .

ـ سننصرف .

ـلا ، لا ... فى وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا ...

تساءل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التى كانت ترقص فيها البنات : « ما ذا حدث له ؟ » . ولكن جروشنكا لم تكن هنـــاك . لا ولا كانت فى الغرفة الزرقاء . وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً . ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فاذا هو يجدها هناك . كانت جالسةً فى ركن ، على صـــندوق ، مســندةً رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكى بكاءً مراً ، محاولة أن تخنق نشـــيجها ، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها . لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده ، فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً . وقالت هامسة :

ـ أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك ! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أأحببته أم كنت أحب حقدي ؟ لا بل أحببته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكذب اذا زعمت انني ما أحببت الا حقدي ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمري حينذاك الا سبعة عشر عاما ، وكان يُظهر لي كثيرا من اللطف والأنس والوداعة ، وكان يغني لي أغنيات ... أم تراه لم يظهر لي فتاناً الى ذلك الحد الا لأنني كنت غبية ، لا لأنني كنت طفلة غرة ؟ ... أما اليوم ... رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أيضا ، فهو لا يشبهه البتة . أنكرته حين رأيته أول وهلة . لقد كنت أتساءل طوال الطريق ، وأنا آتيه الى هنا مع تيموتي : « كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ ... » . وانهارت نفسي ... لقد صب على رأسي سطلاً من قاذورات . تكلم كما يتكلم معلم مدرسة . اتخذ أوضاع التعالم ، واصطنع هيئة لوقار ، فأرتج عليَّ وخرست ! لم يتح لي أن أقول كلمة واحدة . حسبت في البداية أن وجود ذلك البولندي الطويل يحرجه . كنت جالسة هناك ، أمامه ، أتساءل لماذا أصبحتُ على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له . ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هي التي أثرت فيه تأثيراً سيئاً ... تلك المرأة التي من أجلها تركني ثم تزوجها بعد ذلك ... لقد بدلته تبديلاً كاملاً ... يا للعار يا ميتيا ! اني لأشعر الآن بالعار من حياتي كلها ! لُعنت تلك السنون الخمس ، الى الأبد .

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضغطتها في يدها مزيدا من الضغط .

ـ ميتيا ، حمامتي ، لا تذهب ، انتظر لحظة (ثم دمدمت تقول وهي ترفع اليه بصرها) سأقول لك كلمة صغيرة . اسمع . قل لي أنت : من

هو الرجل الذى أحبه ؟ أننى أحب رجلاً هنا . فمن هو ذلك الرجل ؟ قل لى هذا أنت !

وأضاءت ابتسامة" فى وجهها المحتقن من الدموع ، والتمعت عيناها فى الظلام . وتابعت تقول :

ـ منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان . وقال لى قلبى : « أيتها الغبية ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين ! » لقد دخلت أنت فاتضح لى كل شىء على حين فجأة . تساءلت : « ولكن مم هو خائف ؟ » . ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم . قلت فى سرى : « ليس خائفاً منهم مع ذلك » . أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، اننى أعرف ذلك حق المعرفة . وقلت لنفسى عندئذ : « انه خائف منى ، منى أنا وحدى » : اذ لا شك أن فينيا قد روت لك ـ أليس كذلك أيها الأحمق ؟ ـ كيف أننى هتفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، اننى قد أحببت ميتنكا مدة ساعة، واننى ذاهبة الآن ... لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتيا ، ميتيا ، كيف أمكننى أن أصدق أننى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان أغبانى ! اغفر لى يا ميتيا ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه . أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ، ووجهها ، وابتسامتها ... ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات .

ـ هل ستغفر لى أننى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعا ، من فرط غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبى... هل تتذكر كيف حطمت فى بيتى قدحاً ، فى ذات يوم ، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة ، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب « نخب

قلبي الجبان ! » • ميتيا ، صقري ، لماذا لا تقبّلني ؟ لقد قبلتني مرةً ثم أمسكت • انك تنظر اليّ ، وتصغي اليّ ••• ما قيمة الاصغاء اليّ ؟ قبلني ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبني ! ••• لأكونن بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة ••• قبلني أيضا ! اضربني ! عذبني ! افعل بي ما شئت ••• لأنني أستحق أن تعذبني ••• لا ••• انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن •

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة • وأردفت تقول :

ــ اذهب يا ميتيا ، سأشرب الآن خمراً ، أريد أن أسكر ، وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر • تبعها ميتيا • كان كالسكران • « ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله » • بهذا حدّث ميتيا نفسه • شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها• جلست على المقعد ، في مكانها السابق ، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة • احمرّت خداها ، احترقت شفتاها ، اضطرب نظرها • وفي عينيها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامح • كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك ، كأن شيئاً قد لسع قلبه ، فاقترب منها • سألته :

ــ هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً • أوه ! أحس أني سكرى ••• وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتيا ؟ ميتيا ، يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب •

ــ أنا ؟ أنا سكران بغير شراب • سكران بك ••• ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضا •

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأساً آخر ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكئوس السابقه لم تحدث أثراً ... شيء غريب ! أخذ كل شيء يدور فى رأسه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان . انه الآن يمشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه، خارجاً عن طوره . وفى بعض اللحظات كانت تستيقظ فى قلبه عاطفة حارة ثابتة « تحرقه حرقاً كجمرة » كما قال فيما بعد . وكان يقترب من جروشنكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامها ... أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تنادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منها أخذت تقبلها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لتوشك أن تجهش باكية . وكان يفرحها ويضحكها « العجوز الصغير » خاصةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) . انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبّل يدها ، لاثماً كل اصبع من « أصابعها الصغيرة العزيزة » ، واحدةً بعد أخرى . وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته. وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كريو ـ كريو
العجل الصغير ، مو ــ مو
البطة الصغيرة ، قوا ــ قوا
الأوزة الصغيرة ، جا ــ جا
والدجاجة الصغيرة تركن فى الغرفة
منادية صغارها : تيوريو ــ ريو ــ ريو

قالت جروشنكا :

ــ هلاّ أعطته شيئا يا ميتيا ! اهد اليه هدية . انه فقير . أوه ! رباه!

يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً ، يالهؤلاء المذلّين جميعاً ! ••• هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم • لقد كلمنى اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت ، لن أنساها ماحييت • أما الآن فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف يغفر لى الرب • أى ضير فى أن نتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : « يا أعزائى الخاطئين ، قد عفوت عنكم منذ اليوم • » • ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم : « أيها الناس الطيبون ، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية ! »• ذلك ما سأقوله لهم • أنا وحش مفترس نعم • ولكننى أريد أن أصلّى • لقد وهبت بصلة أنا أيضاً • اننى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلّى ! دعهم يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم بغير استثناء ! آه ! ما أحلى أن يحيا المرء فى هذا العالم ! نحن شريرون ، ولكن الحياة جميلة جداً ••• فينا الخير والشر ، الخير والشر فى آن واحد••• قولوا لى أنتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى : لماذا أناطيبة الى هذه الدرجة ؟ اننى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا ، مغرقة فى الهـذر المضطرب مزيداً من الاغراق سيئا بعد سىء ، الى أن أعلنت أخيراً أنهـا تريد أن ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة •

ـ ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت • اذا طلبت خمراً فلا تعطنى ! يحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء • ان كل شىء يدور الآن أمامى ، الغرفة والمدفأة ! أريد أن أرقص ••• فلينظر الىّ الجميع ، وليعجبوا برقصى •••

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيداً وقـراراً حاسماً • أخـرجت

منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيـــدها اليمنى لتلوّح به أثناء الرقص • تحرك ميتيا هنا وهناك • صمتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول اشارة• وحين علم ماكسيموف بأن جروشـــنكا سترقص ، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته ، وأخذ يتواثب أمامها ، وطفق يدندن :

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران
ولكن ذيلها كالبوق

أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها ، قائلة :

ــ شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً •• لرؤيتى ••• ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين ••• لمـــاذا حبستهما ؟ قل لهما اننى أريد أن أرقص • فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح ، مترنح الخطى من السكر ، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين •

ــ هيه ! أنتما ••• اخرجا ••• انها سترقص وهى تناديكما •

فصاح أحد « السيدين » البولنديين يجيبه بالبولندية :

ــ لا جداك (شقى) !

فأجابه ميتيا :

ــ وما أنت الا « لا جداك » حقير صغير ••• ذلك أنت !

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الوقار :

ــ هلا كففتم عن اهانة بولندة ؟

ــ اسكت ايها الفتى الصغير ! اننى اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن

بولندة كلها . ليس مختال" تافه كل" بولندة . صمتاً أيها الطفل اللطيف، لسوف أعطيك ملبسة .

قالت جروشنكا مدهوشة وهى تتقدم الى أمام لترقص :

ـ يا للأشرار ! أليس فيهم شيء من انسانية ؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً . رفعت جروشنكا رأسها ، وفتحت شفتيها، وابتسمت ، ولوّحت بمنديلها ، ثم توقفت فجأة وهى تتمايل تمايلاً قوياً فى وسط الغرفة ، وتشعر بارتباك شديد . وأنّت تقول بصوت أليم :

ـ أحس بوهن . معذرة . اننى ضعيفة جداً ... لا أستطيع ... أوه ... هى غلطتى .

وحيّت الجوقة ، ثم حيّت جميع الحضور وهى تلتفت الى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة ، وتردد قولها :

ـ لا تؤاخذونى ... لا تؤاخذونى !

قالت بعض الأصوات فى الجمهور :

ـ أسرفت فى الشراب ، السيدة الشابة ! .. هى سكرى ، السيدة اللطيفة ...

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

ـ السيدة ثملة قليلاً .

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفىء :

ـ ميتيا ... خذنى من هنا ... انقلنى من هنا .

فهرع ميتيا اليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر . قال كالجانوف لنفسه : « فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف » ، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه . وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد . وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير ، وقبلّها قبلة محمومة على الفم . دمدمت تقول بصوت ضارع :

ـ لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعـــد ... قلتُ اننى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى ... ارحمنى ، اشفق علىّ ... لا تفعل شيئا الآن ، بينما هم لا يزالون هنا . ما ينبغى هذا ... انه هناك ، على بعد خطوتين ... أوه ! هذا فظيع هنا ..

قال ميتيا متعثراً فى كلامه :

ـ اننى أطيعك ... لم يخطر ببالى هذا ... أنا أمامك فى نشوة ووجد . نعم ، هذا فظيع هنا . يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير .

قالت جروشنكا بصوت رخو :

ـ أنا واثقة بك . أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة . يجب أن يجرى كل شىء بشرف بعد الآن ... أريد أن يكون كل شىء طاهراً ... وأن نكون شرفاء أيضا ... لا بهائم ، بل بشراً طيبين انقياء طاهرين ... خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ، هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا ... أريد أن أسافر الى مكان بعيد ... بعيد جداً .

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها الى قلبه :

ـ نعم ، سنسافر ... سآخذك ... سأطير بك ! ... اننى مستعد

لأن أهب حياتى كلها فى سبيل سنة واحدة من سعادة ، شريطه أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم •••

سألته جروشنكا مندهشه :

ـ أى دم ؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه :

ـ لا شيء ••• انك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء ، ولكننى أنا لص • لقد سرقت مال كاتنكا ! ••• يا للعار ! ••• يا للعار !

ـ كاتنكا ؟ الآنسه ؟ لا ••• لم تسرق شيئاً ! ردّ اليها مالها • خذ مالى أنا ••• ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك • ما حاجتنا الى المـــال ؟ ســوف نبدده على كل حال فى القصف واللهو • ان أمثـــالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال • اننى لأوثر أن نحرث الأرض معاً • أريد أنا أن أعمل فى الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما • ان من واجبنـــا أن نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذى شرح لى ذلك • لن أكون خليلتك ، بل حليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك لمخلصة ••• سأتعب وأجهد فى سبيلك ••• سوف نذهب الى الآنسة ، فننحنى لها بتحيـــة عظيمـــة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا • واذا لم تغفر ، فسنرحل مع ذلك • أما المال فسترده اليها • ان عليـــك أن تحبنى أنا ••• لا أريد أن تحبهـــا هى ! ••• اننى أمنعك من أن تحبها ••• والا فلأخنقنّها ••• لأفقأنّ عينيها بابرة طويلة •••

ـ أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك من آخر سيبريا • *

ـ لماذا تتكلم عن سيبريا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سيبريا اذا كنت ترغب فى ذلك ••• ان فى وسعنا أن نعمل هناك كما فى أى مكان آخر

••• ان فى تلك البلاد ثلجاً كثيراً ••• وأنا أعشـــق الثلج ، وأعشق الزلاجات التى تنزلق عليه سريعه مجلجلة أجراسُها • هل تسمع ؟ لكأن جرساً يرن فى مكان ما • من أين يأتى رنين هذا الجرس ••• لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا الى النزل ••• انقطع الصوت الآن •

وأغمضت جروشنكا عينيها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت بضع لحظات • كان جرس قد رنَّ فعلاً فى بعيد ثم صمت • مال ميتيـا برأسه على صدر جروشنكا • لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى انقطـــاع رنينه فجأة ؛ لا ولا لاحظ أن الأغانى قد توقفت وأن الصخب الذى كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محله فجأة صمت كصمت الموت • وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة • قالت :

ـ ماذا يجرى ؟ أأنا نمت ؟ نعم ••• ذلك الجرس ••• لقد نمت وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج ••• كان الجرس يرن ، وكنت أنا نائمة • كنت راكبة عربة ترويكا ، مع رجل عزيز فى قلبى ، معك أنت •وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً ••• وكنت أقبلك ، وأشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو ••• وكان الثلج يسطع ••• ما كان أعجبه من احســـاس ! الثلج الباهر ، وضـياء القمر ••• لكأن ذلك لم يكن على الأرض ••• واســـتيقظت ، فاذا أنا أراك ، يا حبيبى ، قريباً منى ••• ما أحلى هذا ! •••

ردَّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها ، وعنقها :

ـ نعم ، قريباً منك كل القرب •

وأحس فجأة باحســـاس غريب : خيِّل اليه أنها تنظر الى أمام ، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه ، تتطلعان الى ما وراء رأسه،

فى جمود عجيب . عبرّت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً ، ثم عن الخوف .

ودمدمت تقول :

ـ ميتيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟

التفت ميتيا فاذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛ حتى لقد أحسّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك . فنهض من مكانه بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى . فاذا هو يسمع صوتاً يقول :

ـ هل تتفضل فتجيء الى هنا يا سيد .

كان المنادى المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع .

خرج ميتيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه . كانت القاعة ملأى بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل . لقد احتل الغرفة أشخاص جدد . شعر ميتيا برعدة تسرى فى ظهره كله . ان ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة . ان الرجل العجوز السمين الطويل الذى يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات ترس وشارات ، هو رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش . وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائماً انما هو وكيل النيابة . « انه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمائة روبل . لقد أرانيها فى ذات يوم لأعجب بها » . أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذى يضع على عينيه نظارتين ... فلم يتذكر ميتيا اسمه ، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه : انه قاضى التحقيق الذى تخرج من « مدرسة الحقوق » منذ مدة غير طويلة . وهذا موظف الشرطة موريس ماكريفتش

الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد . ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صـــدورهم صفائح معدنية * ؟ وهـــذان الفلاحان ؟ .. وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجانوف وتريفون بوريستش ...

قال ميتيا :

ـ ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنماتدفعه الى ذلك قوة سبيل الى مقاومتها :

ـ ف ...همت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة :

ـ كنا نريد ... الخلاصــة ... أرجـــوك أن تجلس هنا ، على الكنبة ... ان علينا أن نلقى عليك بعض الأسئلة .

قال ميتيا خارجاً عن طوره :

ـ العجوز ... والدم المسفوح ... ف ... همت !

وكأنما انهـارت قواه على حين فجـأة ، فتهـالك على كرسيٍ كان هناك .

فاذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا :

ـ آ ... فهمت ؟ فهمت ؟ يا قاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم أبيك يتهمك !

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه كله يرتجف .

فصاح الشاب القصير القامة :

ـ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش . يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ... ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك .

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ـ هذا هذيان ... هذا مشهد هذيان . انظروا اليه ... تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ... هذا هذيان ، هذا هذيان ...

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ـ أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ..

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ـ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة ...

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاء واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ... ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين ...

فصاح الشاب القصير القامة :

ـ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش . يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ... ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك .

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ـ هذا هذيان ... هذا مشهد هديان . انظروا اليه ... تضرج بدم أبيه ثم هو يقضي السهرة لاهياً عابثاً ماجناً في صحبة بنت من بنات الهوى ... هذا هذيان ، هذا هذيان ...

أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ـ أرجوك وألح في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ..

ولكن قاضي التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ـ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذي قُتل في هذه الليلة ...

وأضاف قاضي التحقيق بضع كلمات أيضاء واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ... ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغي ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين ...

الباب التاسع: التحقيق التمهيدي

١

البدايات الموفقة للموظف برخوتين

إن بطرس ايلتش برخوتين الذي تركناه يطرق طرقات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب السميك من منزل آل موروسوف ، قد توصل طبعا الى أن يحملهم على أن يفتحوا له . وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما تفق بعد من الذعر الذي أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمت أمرها على أن تنام ، من شدة اضطرابها ، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا) . لقد قالت فينيا لنفسها : « أى انسان غيره يمكن أن يطرق الباب بمثل هذا العنف ؟ » . وهرعت الى البواب الذى أيقظته الضجة وهم أن يفتح الباب ، فتوسلت اليه أن لا يسمح لأحد بالدخول . ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام جدا ، قرر أن يفتح له .

مضى بطرس ايلتش رأساً الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرّت ، من باب الحفاظ على الشكل ، أن يحضر البواب المقابلة . أخذ الموظف يلقى الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسى : هو أن دمترى

فيدوروفتش حين مضى يسعى الى جروشنكا قد أخذ مدقّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه •

ـ كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض •

كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلى الرهيب اختراعا على غير شعور منها • وكان بطرس ايلتش قد رأى الدم فى يدى ميتيا بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه • ولم يكن يهمّ بطرس ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه، وعلى أى شىء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك ألحّ بطرس ايلتش على هذه النقطة الحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن « شيئاً ما » لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً •

أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر :

ـ حين رجع ، قصصت عليه كل شىء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين ، فأجاب بأن هذا دم انسانى ، وبأنه قد قتل انسانا منذ برهة• اعترف لى بذلك فى هذا المكان نفسه ، فى هذا المطبخ ، ثم ولّى هارباً كمجنون• وأخذت أفكر بعد انصرافه : « الى أين يركض هذا الركض؟ لا شك أنه ينوى أن يسافر الى موكرويه ليقتل مولاتى » ، فاندفعت ألاحقه ، لأتوسل اليه أن لا يسىء الى الآنسة المسكينة ؛ وكنت آمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن

يسافر ، وكانت يداه عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلى وحفظته) .

وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل . وبعد أن ألقى بطرس ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطرابا وقلقا مما كان عند وصوله اليه .

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بطرس ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعا هل حدث له شيء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطه الا بعد ذلك ، مستنداً الى معلومات ثابتة . وهـــذا ما خطر ببال بطرس ايلتش فى أول الأمر فعلاً . ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وأن يحدث ضجة وصخباً ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا قليلا جدا . فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، ان شيئاً لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروى للمدينة كلهـا فى الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذى ليس بيه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد . ليكونن هذا فضيحة ! وبطرس ايلتش لا يرهب شيئاً فى هذا العالم كما يرهب الفضيحة ! غـــير أن العاطفة التى كانت تدفعه الى العمل والحركة قد بلغت من القـــوة أنه بعـــد أن قرع الأرض بقـــدمه غاضـــبا وشـــتم نفســـه ، أسرع يتخذ قراراً جـــديدا : هو أن يذهب لا الى دار فيـــدور بافلوفتش بل الى الســـيدة هوخلاكوفا . ســـوف يسألها هل صـــحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فاذا أجابته بالنفى دهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شيء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؛ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بينه . واضـــح أن بطرس ايلتش حين يذهب فى الساعة الحادية عشرة من الليل الى

سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها ، وقد يحملها على النهـــوض من سريرها ليلقى عليها سؤالا قد يبدو فى مثل هذه الظروف سخيفا مضحكا انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحه ذهابه الى فيدور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الظرف ، أشخاص هم أكثر الناس بروده نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بطرس ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يطـل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريبا . والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف « ليسيرنّ الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر » ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برّ بيمينه ، فمضى الى آخـر الشـوط فعلاً .

كانت الساعة هى الحـــادية عشرة تماما حين دخـل منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادةً فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول له :

ـ اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شاءت استقبلتك ، فكل شيء رهن بارادتها .

صعد بطرس ايلتش الى الطابق الأول . وهنـــالك أخـذت تتعقد الأمور . رفض الخادم أن يبـلغ السيدة هوخـــلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاها بطرس ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة هوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له

أن يزعجها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقا !

ـ انقلى اليها هذه الكلمات نقلاً دقيقا !

بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها .

انتظر بطرس ايلتش فى الدهليز . وكانت السيدة هوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد . لقد هزتها زيارة ميتيا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداع الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفعالات من هذا النوع . فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حانقة ، أن تصرف هذا الزائر الذى يجىء فى غير أوان الزيارة ، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجىء « الموظف برخوتين » اليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً . ولكن بطرس ايلتش عَنَدَ فى هذه المرة عناد بغل . فلما علم أن السيدة هوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلحّ من جديد الحاحاً شديدا على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء « لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله . » . وقد روى فيما بعد أنه أحسّ فى تلك الدقيقة أنه « يسقط فى هاوية » . تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرعت تقوم بالواجب الذى عهد اليها أن تقوم به . ذُهلت السيدة هوخلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه « حسن الهندام ، شاب ، مهذب جدا » . يجب أن نذكر هنا عابرين أن بطرس ايلتش فتى جميل جدا ، وانه كان شاعراً بذلك . عندئذ قررت السيدة هوخلاكوفا أن تسمع له . واذ كانت بثوب المنزل والخفين ، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود . وأُدخل الموظف الى الصالون ، حيث استُقبل

دمترى فيدوروفتش قبل بضع ساعات • تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه متجهم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس :

ـ ماذا تريد منى أيها السيد ؟

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

ـ لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصديقنا المشترك دمترى فيدوروفتش •••

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة هوخلاكوفا حنق شديد ، فهمّت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفه هائجة :

ـ الى متى ، الى متى أظل أُعذّب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف تجرأت أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ، أن تجيء تضايقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة ••• متحدثا اليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان نفسه ، أن يقتلها ••• وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أننى سأشكوك الى رؤسائك ••• أننى لن أسكت لك عن هذه الوقاحة ••• وأرجوك أن تخرج من مسكنى فورا •• أنا أم •• وأنا •• أنا •••

ـ أراد أن يقتلك ؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضا ؟

ـ هل قتل اذن أحداً ؟

كذلك سألت السيدة هوخلاكوفا بحرارة • فأجابها برخوتين بصلابة :

ـ اذا وافقت على أن تسمعى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ،

شرحت لك كل شيء في بضـــع كلمات . فى هـــذا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الىّ السيد كارامازوف ورجانى رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات . وأنا أعلم علم اليقين أنه كان فى تلك اللحظة خالى الوفاض ؛ وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة التاسعة ، رجع الىّ ممسكا بيديه حزمةً من أوراق مالية تقـــدر بألفى روبل أو بثلاثة آلاف روبل . وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون . فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابنى اجابةً واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم ...

ظهرت على وجه السيدة هوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم . وصاحت تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز ... أنا لم أعطه مالاً قط ، لم أعطه مالاً قط ... آه ... أركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضيع الوقت ! انقذ أباه ، أسرع الى نجدته ، أنقذه !

ـ اغفرى لى الحاحى يا سيدتى . أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالاً ، فهل ذكرياتك واضحة فى هذه النقطة ؟

ـ لم أعطه شيئاً ، لم أعطه كوبكا واحدا . رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر نواياى حق قدرها . وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه . وقد هجم علىّ ، فلم يكد يتسع وقتى للاحتماء منه ... وانى لأسر اليك أيضا ، لأننى قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن ، أنه قـــد بصق علىّ ، هل تستطيع أن تتخيـــل هذا ؟ اجلس ... أرجـــوك ... معذرة ... أنا ... لا بل اركض ، اركض بسرعـــة . واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعه .

ـ ولكن ما دام قد قتله وانتهى الأمر •••

ـ آ ••• نعم ••• رباه ! هذا صحيح ••• نسيت ••• فماذا نفعل الآن ؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلست بطرس ايلتش وجلست أمامه • بسط لها بطرس ايلتش ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبّ القضية ، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل• وروى لها أيضا أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدق الهاون • فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزّت السيدة الطيبة هزاً عنيفا فلم تستطع أن تحبس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياع والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات •••

ـ فظيع ••• رهيب ! تصور مع ذلك أنني أوجست بالنبوءة كلّ شيء • لقد أُوتيت موهبة عجيبة في التنبؤ • وما أتنبأ به يتحقق لا محاله• كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : « سيقتلني هذا الرجل أخيرا في ذات يوم•»• وذلك ما وقع ••• أقصد أنه اذا كان لم يقتلني بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى تدخل العناية الالهية • لا شك أن الله قد حماني ونجاني في ذلك الحين • أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علقت في عنقه ، هنا في هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة ••• ولم يكن يخطر ببالي عندئذ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة • اقتربت منه ، ومسسته تقريبا ، فمدّ لي عنقه ••• يجب أن أقول لك يا بطرس ايلتش (معذرة ، أليس اسمك بطرس ايلتش ؟) ، يجب أن أقول لك انني كنت لا أومن بالمعجزات حتى الآن ، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة ! آه ••• رباه ! ••• انني أحس بأنني متأهبة للايمان من جديد بكل شيء ••• لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيما تلك ، أليس

كذلك ؟ أراني أتيه ، فلا أعرف ماذا أقول ... تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق عليّ ... بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلني ... أهـــذا اذن ما مضى يفعله بعـد ذلك ؟ ماذا يجب أن نقرر الآن ، ما الذي يجب أن نعمله ، قل لي ؟

نهض بطرس ايلتش معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله .

ـ تذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه . انني أثق بسداد رأيه وصواب حكمه . ميشيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب ابلاغه الأمر . فكرتك رائعة ، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا ، لو كنت في مكانك .

قال بطرس ايلتش ، وهو ما يزال واقفا ، محاولا أن يضـع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحـدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

ـ لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضا معرفة شخصية .

تابعت السيدة هوخلاكوفا تقول دون أن تيأس :

ـ اسمع ، اسمع ، يجب أن تجيء اليّ حتماً لتطلعني على ما تكون قد علمته ... على الوقائع التي أمكن أن تعرف ... وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها . أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال اليّ حتما ، ولو في الساعة الثالثة من الصـــباح ، أو في الساعة الرابعة ، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف . اطلب ايقاظي ، وليجروني من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصررت على النوم ... انني أقول ســـخافات على كل حال . أنّى لي أن أرقد بعـد كل هذا ؟ تراودني فكرة : ما رأيك في أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

ـ لا ... لا داعى الى هذا يا سيدتى . ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، أن تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحا فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدوروفتش مالاً قط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا ... عند الاقتضاء .

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

ـ طبعا ! طبعا ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، ونفاذ بصيرتك ؟ صدّقنى اذا قلت لك اننى معجبة أشد الاعجاب بما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أأنت تعمل موظفاً فى ادارة مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أن سلطاتنا تملك معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك !

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تتكلم ، خطّت بسرعه ، على ورقة ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

« لم أقرض دمترى فيدوروفتش ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) . لم أقرضه كوبكا واحدا ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبدا أبدا . أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم » .

هوخلاكوفا

ثم التفتت بقوة نحو بطرس ايلتش فقالت له :

ـ اليك تصريحى . فاسرع الآن . يجب انقاذ هذا الرجل . هذا عمل نبيل تقوم به .

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز .

ـ ما أعظم شكرى لك ! لا تستطيع أن تتصور مدى امتنانى منــك لأنك جئت الىّ أولاً ! خسارة أننى لم أعرفك قبل الآن ! لسوف يسعدنى فى المستقبل أن أستقبلك فى منزلى . انه لمما يعزى النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا فى شخصك موظفا له مثل كفاءتك وقيمتك ... موظف دقيق هذه الدقة ، حصيف هذه الحصافة خاصةً ... أنا على يقين من أن رؤساءك يقدرونك حق قدرك . صدّقنى اذا قلت لك انهم سيفهمونك آخر الأمر ... واعلم على كل حال أننى مستعدة من جهتى لأن أقــول كلمة طيبة فى حقك كلما لزم ذلك ... أوه ! اننى أحب الشـــباب ، اننى مغرمة بالشباب حقا ! الشبيبة فى أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمـــة الشقية روسيا ! أنتم أملنا ... أنتم معقـــد رجائنا ... هيَّا ، هيَّــا ، أسرع ...

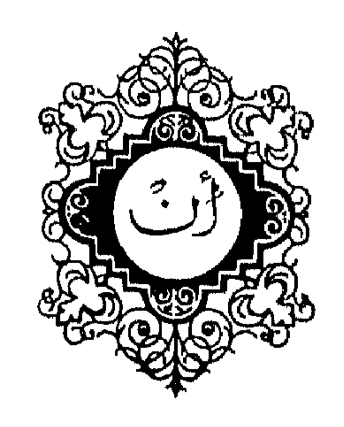
ولكن بطرس ايلتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لحبسته زمناً آخر . يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة هو خلاكوفا قد أحدثت فى نفسه أثراً ممتعاً خفّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله فى قضية مزعجة . انكم تعلمون ان الأذواق فى هذا العــالم مختلفة متنوعة . قال بطرس ايلتش لنفسه راضياً مسروراً : « ليست متقدمة فى السن كثيراً . كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها » .

أما السيده هوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتانا . « ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة فى شاب ، ذلك عدا آدابه الكيِّسة ومظهره اللطيف الجذاب ! تلك مزايا نادرة فى هذه الأيام ! يدعون أن شبابنا اليـــوم لا قيمة له . فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون ، الخ ، الخ » . وقد انتهت السيدة هوخلاكوفا من ذلك الى نسيان « الحادث الفظيع » ، ولم تتذكر الا على سريرها أنها « لامست الموت ملامسة قريبة » . فدمدمت تقول : « شىء رهيب ، شىء رهيب » ، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقا هادئا . على أننى

ما كان لى أن أسهب فى ذكر هذه التفاصيل الثانوية ، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو هذا اللقاء الذى وصفته الآن ، انما كان نقطة انطلاق فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم • ان الناس فى مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصة الطويلة التى نكتبها عن الاخوة كارامازوف •

٢

التبليغ



أن رئيس شرطتنا ميشـيل ماكاروفتش ماكاروف ، وهو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ويحمل رتبة « مستشار قضائى » ، رجل أرمل يمتـاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبه . لقد استطاع منذ ثلاث سنين فى مدينتنا ، أن يكسب مودة جميع الناس له ، ولا سيما لما أوتى من موهبة فذة فى « جمع وجوه المدينة بمنزله » . يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوما واحدا دون أن يستقبل فى داره عددا من الأصدقاء . كان لا يخلو بيته يوما من ضيف على العشاء ، ولو كان عدد الضيف شخصا أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد الى المائدة فى منزله بغير مدعوين . وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة ، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة ، حججٍ قد لا تخطر بالبال . ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة . ومع ذلك كان لفطائر السمك التى تقدّم فى بيته شهرة ذائعة . وقد لا تكون أنواع الخمـور أجود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال .

ان الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو ، وأُثِّثت تأثيثاً أنيقا ، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق انجليزية ، وتلكم هى

كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيِّن كلَّ قاعة بلياردو فى منزل رجل عازب • وكان يُلعب بالورق كلَّ مساء فى منزل ميشيل ماكاروفتش ، وان يكن عدد اللاعبين محدوداً فى كثير من الأحيان • على أن الاستقبالات التى تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا فى منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها • وكان ميشيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، فى صحبة ابنته التى ترملت هى أيضا منذ مدة طويلة ، وفى صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما • لم تكن الفتاتان دميمتين البتة ، وكانتا بما تنعمان بها من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا ، رغم أنه كان معروفا أنهما لا تملكان مهراً • ولم يكن ميشيل ماكاروفتش لامع الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر • واذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التى تقف عندها صلاحياته الادارية • كان معنى بعض الاصلاحات * التى تحققت فى النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيرا ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث ، فانه لم يكن يجد فى وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة • وكان يحب أن يقول عن نفسه : « ان لى روح رجل عسكرى لا رجل مدنى » • ورغم أنه كان من ملاَّكى الأراضى ، فان ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعى قد ظلت غامضة مبهمة ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هى تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية •

كان بطرس ايلتش يعلم أنه سيلتقى عند رئيس الشرطة فى ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء

الضيوف . ومن المصادفات أن ميشيل ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكي الذي وصل من سان بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجي مدرسة الطب) . فأما النائب العام هيبوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من قبيل المجامله ، لأنه لم يكن في الواقع الا وكيل نيابة - فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للاصابة بمرض السل ، متزوج امرأةً سمينة عاقراً . انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحنق ، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب . يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ في تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه في نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر . وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتز خاصة بمقدرته في علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصةً في النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفي اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين . وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن الناس لم يقدروه حق قدره ، أو أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه في وظيفته . وكان في ساعات حزنه ويأسه يمضي الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محاميا أمام المحاكم الجنائية . وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته ، فحدّث نفسه قائلاً : « هذه قضية ستشتهر غداً في روسيا كلها . » . ولكن أراني أستبق تتمة القصة .

وفي الغرفة المجاورة كان قاضي التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نلبودوف ، الذي وصل الى مدينتنا منذ شهرين ، يثرثر مع الفتاتين . لقد دُهش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين في مساء وقوع « الجريمة » نفسه ، في منزل أحد ممثلي السلطة

التنفيديه ، كأنما هم اتفقوا على ذلك . والحق أن تعليل هذه المصادفه طبيعي جدا : ان زوجه هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا في الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها . فالى أين يمكن أن يذهب اذا هو لم يذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ أما الطبيب فانه ، بحكم مهنته ، كان لا يستطيع أن يقضي سهراته الا لاعباً بالورق ، لذلك كان وجوده في منزل رئيس لشرطه أمراً لا بد منه ولا محيد عنه . وأما نيقولا بارفينوفتش نليودوف ، فلقد كان ينوى منذ ثلاثة أيام أن يزور ميشيل ماكاروفتش فى ذلك المساء ، وأن يجيء اليه « بما يشبه المصادفة » ، بغية أن يفاجيء بعد ذلك كبرى الفناتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرّها : وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقصٍ في منزلها . وكان نيقولا بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها فى تلك المناسبة ، ويتلذذ سلفاً بهذه الأمازيح : كالاشارة الى أنها تخشى أن تعلن عن سنها ، وكالتهديد باذاعة الأمر فى المدينة كلها غداً ، الخ . ان هذا الشاب الفتان « عفريت » كبير ، حتى ان سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو . وكان ينتمى من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ، وكان جمّ الكياسة رفيع المشاعر . ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات ، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخل بالمواضعات المقررة ولا يسيء الى الآداب الاجتماعية . وهو قصير القامة ، ضعيف البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة . وكان فى قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوى الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه . وكان يمتاز خاصةً بمهارته فى أن يحيّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ، كثيرا ما كان ثير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام .

حين وصل بطرس ايلتش الى منزل رئيس الشرطة صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر • كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون فى الحادث بحرارة، وقوفاً • لقد هرع نيقولا بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم • وما كان أشدَّ ذهول بطرس ايلتش حين علم بالنبأ لرهيب : وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قتل فى منزله فعلاً هذا المساء ••• قُتل وسُرق • وقد عرفت الجريمة فى الظروف التالية :

لا شك فى أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجورى ، كانت نائمة نوماً عميقا فى اللحظة التى ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور • وكان يمكن أن تستمر فى نومها زمناً طويلاً أيضا • ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التى أطلقها سمردياكوف الذى يرقد فى الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه • انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فبهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف • وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلّفت فى نفسها أثراً مرضيا ، ولم تستطع أن تعتادها فى يوم من الأيام • نهضت مارفا منتفضة وهى ما تزال نصف نائمة وأسرعت الى الغرفة التى يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريبا • كان الظلام حالكاً ، فلا يُرى شىء ، وانما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذى يتخبط • أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هى أيضا ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها فى السرير حين استيقظت من نومها ، فأسرعت الى السرير وأخذت تجس الغطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد • تساءلت فالى أين ذهب ؟ هل خرج ؟ ولماذا خرج ؟ وهرعت الى درجات المدخل

وأخذت تناديه فى الظلام وجلى ، ولكنها لم تلق جوابا . وفجأة خيل اليها أنها تدرك فى حلكة الليل أنات مخنوقة كأنها آتيه من الحديقه . فأصاخت بسمعها ، فتكررت الأنات . دمدمت تقول مضطربة « رباه ! يشبه هذا ما حدث فى الماضى يوم موت اليزابث سمردياستشايا ! » . وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح ، فقالت لنفسها : « لا شك أن زوجى الطيب هناك » ، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت فى هده المرة زوجها جريجورى نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروع : « مارفا ، مارفا ! » . فقالت مارفا متلعثمة « نجنا من الشر يا رب ! » واندفعت فى الاتجاه الذى كان يصدر عنه النداء . وهكذا اكتشفت جريجورى . ومع ذلك لم تجده قرب السور ، فى المكان الذى صرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان . وقد عرف فيما بعد أن جريجورى ، حين أفاق من اغمائه وثاب الى رشده ، جر نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه . وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ . وكان جريجورى يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها ، قائلاً : « قتل ... قتل أباه ... لماذا تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! أركضى ! نادى !» . ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن اطلاق صرخاتها الوحشية . فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة ، أسرعت الى هناك تنادى فيدور بافلوفتش . واذ لم تسمع جوابا نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ مشهداً فظيعا : رأت فيدور بافلوفتش راقدا على الأرض جثة هامدة . بلغت مارفا اجناتفنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ الى خارج الحديقة ، ففتحت الباب الكبير ، وهرعت الى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا . كانت المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة

على مصراعى الباب ، ولشـــدة الصرخات الحادة التى كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة • فقصت عليهما العجوز المسكينة ما نزل بدارهم من شقاء ، فصت عليهما ذلك بأقوال مضـــطربة مشوشة تقطعها أنات • ومن المصادفات أن توماس الذى يسكن مستأجراً فى منزلهما ، والذى يتنقل عادة فى البرارى ، كان يبيت فى المنزل فى تلك الليـــلة • فسرعان ما أوقظ من نومه ، وخفّ الجميـع الى مكان الجريمة • وتذكرت مارى كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها • لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةَ أمسك بيديه احدى ساقى ميتيا الراكب السور ، قائلا : « يا قاتل أبيه » •

قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً : « ان أحداً قد صرخ عندئذ صراخاً قويا جداً ثم صمت فجأة» • ووصل الثلاثة الى قرب جريجورى ، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس ، ونقلوه الى الملحقات • وأشعلوا شمعه • وحين مروا أمام الغرفه التى يرقد فيها سمرდياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جحظت عيناه وخـــرج الزبد من فمه • غسلوا رأس جريجورى بمـــاء ممـــزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : « أقُتل مولاه أم لا ؟ » • وأرادت الجـارتان عندئذ أن تصحبا توماس الى غرفة فيدور بافلوفتش • فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحا أيضا ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم اقفال البـاب بالمفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأى عذر من الأعذار • فلما رأت المرأتان وتوماس هـــذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى الملحقـات ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطه بالحادث

فورا . فتولت ماريا كوندراتفنا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميشيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأقعدهم . لقد وصلت ماريا الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بطرس ايلتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مثل بطرس ايلتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واستدلالاته ، بل متـــول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التى ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بطرس ايلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة يشك فى أن يكون ميتيا هو القاتل) .

وتقررت المبادرة الى العمل فورا . وأُبلغ مفوض الشرطة المساعد، وتم القيام بالتحريات الأولى فى مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقا للأصول القضائيه التى لا داعى لى وصـــفها هنا . وقد أصر طبيب زمستفو ، وهو طبيب مبتدىء ممتلىء همةً وحماسة ونشاطاً ، أصرَّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضى التحقيق . وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صُرع فيدور بافلوفتش ، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل فى قتله ؟ لعـــله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك فى ضرب جريجورى . واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحـــو متسق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التى تتطلبها حالته . استكشف رجال الشرطة الأرضَ التى تجاور الســـور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا عناءً فى العثور على مدق الهاون النحاسى . وجدوه ملقىً وسط الممر الذى يشق الحديقة ، فى موضع يلفت الأنظار على الفور . ولم تكن الغرفة التى يرقد فيها فيـــدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قـــرب السرير . وكان ظرفاً كبـــيراً مصنوعا من ورق ســـميك ، وقد كتب عليه ما يلى :

« هديه صغيرة من ثلاثه آلاف روبل أهديها الى ملاكى جروشنكا اذا هى رضيت أن تجىء » وفى أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : « الى حمامتى » • وكان الظرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثه أختام كبيرة قد فضّ وأفرغ مما فيه : لقد سُرق المال الذى كان يضمه الظرف • واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردى اللون الذى كان يلف الظرف •
وقد أحدثت أقوال بطرس ايلتش أثراً عميقا فى وكيل النيابه وقاضى التحقيق وهزتهما هزاً قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذى يدعوه الى الانتحار ودسَّها فى جيبه ، الخ ، حتى اذا قال له بطرس ايلتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره انه سيبلغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من انفاذه ، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة : « لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزى » • معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع فى العمل ، والوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ماعقد النية عليه •

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ القضية واضحة وضوح ماء الصخر • ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون فى الجريمة • غداً أنتحر ، أما الليلة فألهو وأتسلى •

وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى •

ـ هل تتذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التاجر

أولسوفيف ليسلبه ماله ؟ انه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحينه ، فكثر قبل كل شىء فى أن يصفف شعره منموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه بيديه تقريبا ، مثل هذا القاتل الجديد تماما .

على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والاجراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتا ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، على جناح السرعة ، موظف الشرطة موريس مافريكيفتش شمرستوف الذى جاء الى المدينة فى الليلة البارحة لقبض مرتبه . أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، منتحلاً عذراً من الأعذار ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم فى الخفاء دون أن يغيب عن بصره، الى حين وصول لسلطات . وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون فى عداد الخفراء الذين سيقتادون المتهم . نفّذ موريس مافريكيفتش الأوامر التى تلقاها ، ولزم التخفى ، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذى يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه . وفى ذلك الوقت انما التقى ميتيا بصاحب النزل فى أسفل السلم المفضى الى الشرفة ، فلاحظ تغيراً غريبا فى تعبير وجهه وطريقة كلامه . وعلى هذا النحو لم يستطع أحد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون . أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها فى مكان مأمون على الفور . ولم تصل السلطات الى موكرويه الا فى الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر . استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضى التحقيق ، وحاشيتهم ، عربتى تروىكاء ومكث الطبيب فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح . ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردياكوف .

ـ ان نوبات الصرع التى تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل

هذه المدة مستمرة يومين ، هى حالات نادرة كل الندرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها •

كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتى من فرصة مواتية وحظ نادر •

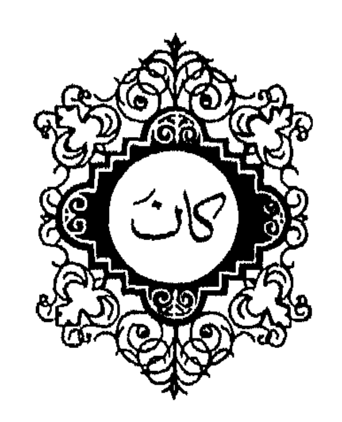
وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما زعمه الطبيب الشاب •

بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت لا بد منها ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قضيتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق •

٣

محن نفس

المحنة الأولى



ميتيا يتصفح وجوه محدثيه ، مجنون العينين ، ولا يفهم ما يقال له . وها هو ذا ينهض فجأة، فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلا بصوت قوى :

ـ لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى ... كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل . لست أنا القاتل !

فما ان قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصوت ممزّق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

ـ أنا المذنبة ، أنا الشقية المذنبة . بسببى انما قتل ! أنا التى قدته الى ذلك من كثرة ما عذبته ... ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً ، بدافع الشر الذى فى نفسى ... أنا سبب كل شىء ، أنا ، أنا وحدى . أنا القاتلة فى حقيقة الأمر .

ـ أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ، أيتها المرأة الضالة الفاسقة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة .

كذلك صاح يقول رئيس الشرطه وهو يلوّح بقبضه يده مهدداً •
ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطه على السـكوت ، حتى أن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً :

ـ لقد أحدثت فوضى يا ميتيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء •

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره :

ـ يجب اتخاذ اجراءات ••• حالاً ••• يجب اتخاذ اجراءات •

واستأنفت جروسنكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهي ما تزال جاثيه على ركبتيها :

ـ احكموا علينا معا ، أعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة القصوى !

فهتف ميتيا يقول وهو يرتمي على الأرض فيجثو الى جانب جروشنكا ويعانقها :

ـ جروشا ، حياتي ، روحي ، دمي ، قديستي ! لا تصدقوا ماتقوله، انها ليست مذنبة في شيء ، انها لا تشارك أية مشاركه في المسئولية عن هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التي أقصيت عن الغرفه ، وأنه في اللحظة التي ثاب فيها الى وعيه ، وجد نفسه جالساً أمام المائدة • وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن • وفي الجهة الأخرى من المائدة ، كان قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة ، يلح عليه أن يشرب قليلاً

من الماء مشيراً الى الكأس الموضوعة على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهـذبة جداً :

ـ اشرب ، الماء ينعشك ويهدئك . لا تخش شيئاً .

خطفت انتباهَ ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتمُ الكبيرة التى كانت فى أصابع قاضى التحقيق . أن أحد هذه الخـواتم يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع . سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من افتتان حتى أنه طوال الساعات الرهيبة التى استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم ينقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة . والى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السـهرة ، كان يجلس وكيـل النيابة ؛ والى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشـنكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى سترة عتيقة جدا مما يلبسه الصيادون ، وأمامه محبرة وورقة . ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق . أما رئيس الشرطة فقد كان واقفا قرب النافذة، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجانوف الذى كان جالسا على كرسى .

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

ـ اشرب ماء .

فصاح ميتيا يقول ، وهو يثبت على قاضى التحقيق نظرته الجامدة جمودا رهيبا فى عينيه الجاحظتين :

ـ شربت يا سادتى شربت ... والآن فاسحـقونى ، اعدمونى ، قرروا مصيرى !

سأله القاضى بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح :

ـ أأنت تصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

ـ برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم العجوز الآخر ، ولكننى لم أسفح دم أبى . آه ... لشد ما يؤسفنى ما فعلت . لقد قتلت ذلك العجوز المسكين ، صرعته . غير أنه يشق على أن أصبح بسبب هذه الجناية مسئولاً عن جريمة أخرى ، جريمة فظيعة لم أرتكبها ... ذلك اتهام رهيب يسقط علىّ سقوط الصاعقة ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟ من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هذا جنون ...

بدأ قاضى التحقيق يقول :

ـ أتسأل من هو القاتل ؟ سأقول لك ذلك ...

ولكن وكيل النيابة هيبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه ، ثم قال مخاطبا ميتيا :

ـ تخطىء اذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف . اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه . حتى أن الطبيب يرى أنه ليس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها .

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً) :

ـ أهو حى ؟ اللهم انى أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التى تهبها لى ، لى أنا الخاطىء المجرم ؟ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت لدعائى ... ذلك أن دعائى هو الذى قُبل ... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت .

ورسم ميتيا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالاً .

استأنف وكيل النيابه كلامه قائلاً :

– من جريجورى هذا نفسه نما حصلنا على معلومات خطيرة جدا فى شأنك ...

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

– دقيقة واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقه واحدة ، دقيقة واحدة ، أناشدكم الله ... أريد أن أكلمها هى ...

فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضا عن مقعده على حين فجأة هو أيضا :

– آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن .

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ، أمسكوا ميتيا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

– هذ يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها الا لحظة قصيرة ... لأبلغها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، واننى لست قاتلاً ! انها خطيبتى أيها السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة وهو ينقل بصره على محدثيه جازماً) . أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة بهذه الكلمة وحدها : حى ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها السادة ، وكان يغسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى وتركنى الجميع . كان لى بمثابة أب !

همَّ القاضى أن يتكلم قائلاً :

– وهكذا ، فأنت ...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطى وجهه بيديه:

ـ اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة • دعونى أتنفس لحظة ، وأحاول أن أرى رؤية واضحة • ان هذا الأمر قد هزنى هزاً قوياً وقلب نفسى رأساً على عقب ، هذا فظيع ••• ليس يُقرع انسان كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول له :

ـ عليك أن تشرب جرعه أخرى من الماء •

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخـــذ يضحك • ان فى نظرته الآن لفة ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفة عين • وتغير موقفه كذلك ، فهـو يتكلم بلهجه غير اللهجه التى كان يتكلم بها من قبل • هو يحس الآن أنه عاد نداً لهؤلاء لرجال الدين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ، البارحه ، فى سهرة تضم عليه الموم ، فكأن شيئاً لم يكن • يحسن أن نشير هنا الى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة ، فى بداية اقامته بمدينتنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هـــذا المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير • وأصبح رئيس الشرطة، منذ زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته الا من باب الأدب ، وقد لاحظ ميتيا هذا• أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن ميتيا قد زار زوجته ، وهى امرأة عصبية ذات هواجس ، عدة زيارات شكلية تماما ؛ كان يذهب اليها دون أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله حتى هـذه الأسابيع الأخيرة بكثير من البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شـــيئا من الاهتمام به • وأما قاضى التحقيق ، فلم تكن بينه وبين ميتيا علاقات اجتماعية ، واقتصر كل شىء بينهما على حديث أو حـــديثين تبادلا خـلالهما كلاما غامضا عن جنس النساء •

قال ميتيا مرحاً :

ـ أرى يا نيقولا بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جدا ، ولكن أحسب مع ذلك أن عليّ أن أساعدك . أوه ! لقد تنفست أيها السادة ... لا تؤاخذونى اذا أنا كلمتكم بغير كلفة . ثم اننى ثمل قليلاً ، أعترف لكم بذلك صراحة . أظن يا نيقولا بارفينوفتش أننى قد سبق لى أن سُررت وسرفت بلقائك ، عند ميوسوف ، قريبى ... معذرة أيها السادة ! لست أدعى المساواة بكم الآن ، فأنا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة... هناك تهمة رهيبة تجثم عليّ... طبعا... اذا كان جريجورى قد شهد عليّ ... فلا بد أن تكون القرائن قوية فى الظاهر ... نعم ... أنا موضع شبهة خطيرة ! فظيع ! فظيع ! اننى أفهم هذا حق الفهم ، ثقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوقائع أيهــا السادة ! اننى مستعد ... وسنوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ما دمت بريئاً ... اصغوا الىّ ، اصغوا الىّ ! ما دمت أعلم أننى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف نبدد سوء التفاهم فى طرفه عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجــلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنــوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه .

قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة :

ـ سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكارا قاطعا التهمة الموجهه اليك .

ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت خلاصة انكارات ميتيا .

ـ آ ... أأنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب ... اكتبوا اذا شئتم ... أوافق على هذا ... لا أرى فى هذا ضيراً أيهــا السادة ... ولكن ... لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى :

« ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجوزا مسكينا ، وهـو يعترف بذلك » ثم اننى فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى ••• ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً الى الكاتب) ••• تلك حياتى الخاصـة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى ••• أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تلكم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف ••• سأبرهن لكم على هذا ، فتقتنعون اقتناعا تاما • ســوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون أنتم أنفسـكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين •

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب :

ـ هدىء نفسك يا دمترى فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك ، قبـل أن نتابع الاستجواب ، أن تؤكد لى ـ اذا كنت توافق على ذلك ـ أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيرا ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما • لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم يخطىء ظنى ، أنك كنت تنوى أن تقتله • لقد صحت تقول : « كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله • » •

ـ أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جائز أيها السادة ! نعم ••• وا أسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا ••• وا أسـفاه ! وا أسفاه !

ـ كنت تنوى اذن أن تقتله • فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه :

ـ ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة

كلها تعرفها ، حتى أن الناس يتحدثون عنها فى الكاباريه . ومنذ بضعه أيام لا أكثر ، عبرت عنها فى الدير ، فى حجرة الشـيخ زوسيما ... وفى مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبى وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنّ فأجهز عليه . آوه ! فى وسعكم أن تجدوا ألف شـاهد علىّ ، بغير عناء . انى لم أزد على أن هدأت كرهى له خلال هذا الشهر ... النـاس جميعاً يشـهدون ... الوقائع متوفرة ... الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هى تصرخ ... أما عواطفى أيها السـادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الىّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تسـألونى عن عواطفى . ان وظائفكم تخـولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفى هى من شأنى أنا ؛ هى تتصل بحياتى النفسية ، الحميمة ... على كل حال ، ما دمت لم أكتمها حتى الآن ... لم أكتمها فى الكاباريه مثلاً ، وكنت أكاشف بها أول قادم ، فليكن ما تريدون ! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً . أيها السادة ، اننى أدرك حق الادراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أننى سأقتله ، وها هو ذا يُقتل . فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هأهأ ! اننى أعذركم أيها السـادة ، أعذركم كل العذر . أنا نفسى قد أذهلنى هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول :) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطالبكم بأن تقولوا لى الحقيقة : أين وُجد مقتولاً ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفى أية ظروف ؟ قولوا لى هذه الأمور ! (كذلك ردّد بقوة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضى التحقيق واحداً بعد آخر) .

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

ــ وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة ، مكسور الجمجمة .

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضـــع كوعيه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

ـ هذا فظيع أيها السادة !

وتدخل نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ لنتابع لاستجواب • لأى سبب كنت تكره أباك ؟ لقد صرحت على رءوس الأشهاد ، فيما أظن اننى أعلم ، أن لغيرة هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟

ـ هى الغيرة ان شئتم • ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفى منه •

ـ لعل هناك خصومات على مال ؟

ـ نعم ، نعم ، مسائل مالية •

ـ كان الخلاف يدور، اذا لم يخطىء ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل هى من حقك فى الميراث ولم يدفعها لك •

قال ميتيا مستاءً :

ـ ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيراً • كان مديناً لى بأكثر من ســـتة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف • قلت هذا لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تســـاهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهيبة الى هذا المبلغ ••• فكان ذلك الظرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدّه هو لجروشنكا ، كان فى نظرى مالاً سُرق منى • هل تفهمون أيها السادة ؟ كنت أعد ذلك المبلغ حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى •

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمزه بعينــه غمزة خفيفة •

أسرع القاضي يقول :

ـ سنعود الى هذه المســـألة . واسمح لى أن أسجل هده النقطة بعينها : وهى أن ذلك المبلـــغ المودع فى الظرف كان فى رأيك حقاً مشروعا لك .

ـ اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هــــذا قرينة جديدة علىَّ ، ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى . سوف أمدكم أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون فىَّ رجلاً مختلفا كل الاختلاف عمَّا أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول حزينا مظـــلم الوجه) . ان أمامكم أيها السادة انســـانا صادقا مستقيما لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة ، ان أمامكم انسانا ــ لا يغب هذا عن بالكم ــ ان يكن قد ارتكب حقارات كثـــيرة ، فانه ظل دائما فى قرارة نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهرا ... الخلاصة ... اننى لا أحسن الافصاح عما بنفسى ... لقد تألمت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانســـانية بحث ديوجين عـــه ان صح التعبير ، حاملاً مصـــباحا ... ورغم ذلك قارفت دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما نقارف جميعا هذه الدناءات أيها السادة ... أقصد ... لا ... لا كما نقارفها جميعا ، بل كما أقارفها أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى ... نعم ، كما أقارفها أنا وحدى ... ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قســـمات وجهه على ألم) ... نعم يا سادتى ... كنت أكره مظهره ؛ كان فى جسمه شىء يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس ، كان فيه سخريه وكفر ! أوه ! كان هـــذا دنيئاً ، دنيئاً جداً ! ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود .

ـ غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

ـ لا غير هـــذا التفكير ، ولكنني آسف لأني كرهته ذلك الكره الشديد كله .

ـ أأنت نادم اذن ؟

ـ لا ، لا يعني ذلك انني نادم ، لا تكتبوا هـــذا ! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها السادة ! أنا لست مثال جمال النفس ، فلم يكن من حقي اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله ... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه .

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد خارت قواه جدا على حين فجأة . وكان وجهه قبل ذلك ببضـــع دقائق قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تتابع الاستجوب . وهذا مشهد لم يكن في الحسبان يقع بغتةً في تلك اللحظة نفسها . كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان ناءٍ ، وانما أودعوها في الغرفة الثالثة ، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي الا القاعة التي قام فيها الرقص وتم فيها القصف أثناء الليل . هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذي روّعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة . وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن . كانت جروشنكا تبكي ، وها هي ذي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها ، فاذا هي تنهض وتضم يديها احداهما الى الأخرى ، وتصيح قائلة : « يا للشقاء ! » ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى عزيزها ميتيا ؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدّها . وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ، وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طائش العقل ، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه . لم يُترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما قد التقت . أُمسك ميتيا بقوة ، فأخذ يصارع حانقاً مسعوراً ، ولم تمكن

السيطرة عليه الا بنعاون ثلاثه رجال أو أربعة • وأمسكت هى أيضاً ، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعيها فى لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها • حتى اذا رجع كل شيء الى الهدوء وجد ميتيا نفسه مرة أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائده ، قبالة القاضى ، فصاح يسأل القاضى قائلاً له :

ــ ماذا فعلت لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع شيئاً •••

فحاول وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن يهدئاه • وانقضت على هذه الحال عشر دقائق • وأخيراً عاد الى الغرفه ميشيل ماكاروفتش الذى كان قد غاب ؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد :

ــ ابعدناها من هنا • هى الآن تحت • هل تأذنون لى أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الانسان العاثر الحظ ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم أيها السادة ، بحضوركم •••

فأجابه القاضى :

ــ لك ما تشـــاء يا ميشيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى بأس ، فى هذه الحالة الخاصة •

فبدأ ميشيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا :

ــ دمترى فيدوروفتش ، بنىّ المسكين ، أصغ الىّ •••

كان وجهه ، المحمرُ من الانفعال ، يعبرّ عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب • وتابع كلامه قائلاً :

ــ لقد توليت بنفسى أخذ أجرافين الكسندروفنا الى الطابق الأرضى ، وعهدت بها الى بنات صاحب النزل ؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف

أصـــبح لا يتركها • وقد كلمتها ، وطمأنتها ، هل تسمعنى ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرىء نفسك ، فما ينبغى لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك ، والا فقد تدلى من شـــدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمنى ؟ الخلاصة ••• أقنعتها فقالت انى على حق • انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبّل يدىّ لأننى شيخ عجوز ، وتضرعت الىّ من أجلك ؛ وطالبتنى ملحةً بأن أجىء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها • يجب أن تطمئن يا عزيزى ، وأريد أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنـــك لا تخشى عليها من شىء • هدىء نفسك يا عزيزى ، ذلك واجبك • أنا أحس بأننى مذنب فى حقها • ان لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة • هـــل أستطيع أن أبلغها يا دمترى فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجـــل الطيب يخبــط فى كلامه خبط عشـــواء • ان ألم جروشـــنكا ، هذا الألم الانســانى ، قد نفذ الى قلبه رأســاً ، فكان فى عينيه دموع • نهض ميتيا واندفع نحوه ، وصاح يقول :

ــ باذنكم يا سادتى ، باذنكم • انك يا ميشيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير • شكراً لك من أجلها • نعم ، أنا هادىء ، قل لها هــذا ، وسأكون مرحاً ••• قل لها ، بما لك من طيبة وأريحية ، اننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأشتهى أن أضـــحك ، لعلمى بأنها فى حماية ملاك حارس مثلك • سأنهى هذا الالتباس بسرعة ، حتى اذا انتهيت ، خففت اليهــا • فلتعتمد علىّ ولتنتظرنى واثقــة • أيهــا الســـادة (كذلك قال يخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرُّ اليكم بكل شىء ، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننـــا سنضحك جميعا فى النهـــاية ، أليس كذلك يا سادتى ؟ ••• ان هذه المرأة هى ملكة قلبى ! أوه ! اسمحوا لى أن

أقول لكم اننى أشعر بالحاجه الى أن أفضى اليكم بما فى قلبى ••• لأننى أرى أن أمامى أناساً لهم نفوس نبيلة • انها ضيائى وحياتى أيها السادة ! آه ••• ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : « سأشاركك العقوبة القصوى ! » ؟ فماذا أعطيتها أنا الذى لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديرا بهذا الحب ، أنا الانسان السىء ، بوجهى المنفّر ، وسلوكى الأخرق ، ومظهرى الثقيل • أأنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت فى سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعنى الى سجون الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة فى سبيلى ، هى الشماء التى لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه • فكيف لا أعبدها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لى أيها السادة ! ولكننى قد تأسيت الآن •••

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسى ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكى ناشجاً منتحباً • ولكن دموعه فى هذه المرة كانت دموع التخفف والسكينة والطمأنينة • كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه • وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلى القضاء أيضا : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة • ورجع ميتيا اليهما بعد أن شيّع رئيس الشرطة ، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان • وقال :

ـ والآن أيها السادة ، أضع نفسى تحت تصرفكم • ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة • انتى أتيه فى تلك التفاصيل • أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها فى مثل هذه الحالة • يجب أن تصدقونى كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبدا الى

النهاية . أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم . فهيّا بنا أيها السادة ، هيا بنا الى الوقائع ! ولكن كفوا خاصة عن النبش فى نفسى ، ولا تعذبوننى فى سبيل سفاسف وترهات ؛ ألقوا علىّ أسئلةً تتصل بالقضية وحدها دون غيرها. اطلبوا وقائع ، وقائع ، ولأجيبنكم بما يرضيكم كل الارضاء . دعونا من التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب .

٤

المحنة الثانية

بدأ نيقولا بارفينوفتش كلامه قائلاً :
— لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه ...

كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهباوين الواضحتين الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين حين بدأ كلامه . وتابع يقول :

— ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صادق كل لصدق صحيح كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يكون فى امكانه أن يبرىء نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هذا الاستجواب ... أنت توافقنى على هذا يا هيبوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف هذا مخاطبا وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف ، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :
— بدون شك .

ولنذكر مرةً واحدة أن نيقولا بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا

منذ زمن قصير والذى هو فى بدايه عهده بمهنته ، قد شعر دفعه واحده باحترام عظيم لشخص وكيل النيابه عدنا هيبوليت كيريلوفتش ، فانعقدت بين الرجلين صدافة قويه • وكان على كل حال هو الانسان الوحيـــد المؤمن حقا بالموهب السيكولوجية والخطابيه الفذة التى ينعم بها هيبوليت كيريلوفتش « الذى لم يقدر حق قدره » • وكان يعتقد هو أيضا ، اعتقادا جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذى سمع عنه فى سان بطرسبرج قبل أن يجيء الى مدينتنا • وكان نيقولا بارفينوفتش ، الشاب جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذى شعر نحوه صاحبنا « المجهـــول القدر » بعاطفة صادقة • وقد اتسع وقتهما فى طريقهما الى موكرويه ، لأن تتفق آراؤهما فى هذه القضية ، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرهف الذى ينعم به نيقولا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التى تجول فى ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها بنصف كلمـــة ، باشارة خاطفة ، بحركة فى عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه •

استأنف ميتيا كلامه متحمساً :

ــ دعونى أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل تافهة ؟ وسأبسط لكم القضية كلها بسرعة •

ــ موافق • شكراً لك • على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً ، هى مسألة تلك الروبلات العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامســـة ، من صديقك بطرس ايلتش ، وأودعته مسدسيك رهناً •

ــ صحيح أيها السادة ، نعم ••• رهنتهما ! أى شىء خارق فى هذا ؟ اننى ما ان عـــدت الى المـــدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهنت المسدسين ••• الأمر بسيط جدا •

ـ بعد تلك الرحله ؟ هل تغيبت اذن ؟

ـ طبعا ! سافرت الى خارج المدينة ، علىَ مسافة أربعين فرسخاً من هنا . أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟ تبادل وكيل النيابة وقاضي التحقيق النظرات .

ـ لعلك تحسن صنعاً اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح . اسمح لى أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تغيبك ، ومتى سافرت ، وفى أية ساعة رجعت . ان جميع هذه الوقائع ...

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ كان ينبغى أن تسألنى عن ذلك فوراً . بل اننى لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفى منها ، وما هى الظروف التى أحاطت بها . فى صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن اقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماما . ذلك اننى احتجت الى هذا المبلغ احتياجا مستعجلا على حين فجأة ، احتياجا مستعجلا جدا أيها السادة ...

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

ـ اسمح لى أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأى غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

ـ ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لماذا ومتى وكيف وأين ... ما فائدة هذا كله فى الواقع ؟ لأن أحتاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أى مبلغ آخر ... لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تهنا

فى هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! ...

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة رغم التململ ، لهجة انسان يريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

ـ لا تؤاخذونى أيها السادة على هذه الخشونة . ثقوا أننى أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم علىّ ، واننى مدرك موقفى تمـــام الادراك . وهأنذا أكرر ما سبق ان قلته : لا تظنوا كذلك أننى ثمل . فقد صحوت من سكرى كل الصحو . ولكن حتى لو كنت ثملاً ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكون له أى تأثير فيما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

انا ان صحوت رايتنى غبيا
فاذا سكرت غدوت عبقريا !

هأ هأ هأ ! ولكننى ألاحظ أيهـــا السادة أنه لا يليـــق بى الآن أن أنكّت ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمحوا لى اذن أن أحافظ على وقارى . اننى أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فأنا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيهات أن أكون لكم نداً . ان مهمتكم هى أن تراقبونى . ولا شك أنكم لن تلاطفـــونى وتلاعبـــوا بأيديكم شـــعرى وتهنئونى على الحـــادث الذى وقع لى مع جريجورى . فليس من الجـــائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم علىّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبةً لى على هذا الفعل الذى اجترحته ، ولـــكن دون سقوط مدنى . أنا لست معرّضاً للحرمان من حقوقى المدنية ، أليس

كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة اننى أدرك حق الادراك الفرق بين موقفى وموقفكم ••• ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذ النوع : كم خطوة مشيت ، فى أى لحظه رفعت قدمك اليسرى ، فى أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ، على أى شىء سرت ؟ اذا أخذتم تلقون علىّ مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذى سأقع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل الى شىء • وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمر فى الكذب ، وستغفرون لى كذبى ، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية• أحب فى الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية فى الاستجواب ، أعنى البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد « تنويم يقظة المجرم » على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهـــذا السؤال : « أين قتلت القتيل وسلبته ماله ؟ » • هأ هأ ! ••• ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو علمكم كله ، تلكم هى الحيلة الكبرى فى أسلوبكم ! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلى علىّ أنا ! أنا نفسى خبير فى هذه الشئون ، لقد عملت أنا أيضا فى هذا المجال ... هأ هأ هأ ! لا تزعلوا يا سادتى ، واغفروا لى هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر اليهما ببراءة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذى يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكى ، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذى يقوله ! هأ هأ ! •••

كان نيقولا بارفينوفتش يضحك أيضا وهو يصغى الى ميتيا ، ولكنه كان يلاحظه بالحاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يسـجل

كل كلمة من كلماته بل وأيسر حـــركة من حـــركاته ، وحتى أخف لاختلاجات فى عضلات وجهه •

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

ـ يجب أن تنصفنا هذا الانصاف على الأقل ، فتعترف بأنا لم نستعمل معك هذا الأسلوب • اننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من ومك فى الصـــباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأســـاسى دفعة واحدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضا •

ـ اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره • وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم • اننا جميعا ، نحـن لثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشـــاعر • فليجر كل شىء بيننا كما ينبغى أن تجرى الأمور بين أصحاب يثق بعضهم ببعض ، وتربطهم روابط النبالة والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعدكم أصدقاء فى هـذه الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الاذلال ! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولا بارفينوفتش مؤيداً :

ـ بالعكس ! لقد عبَّرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات !

صاح ميتيا يقول بحماسة :

ـ أما التفاصيل ، أما تلك التفاصـــيل الزخرفية السـخيفة كلها ، فلندعها وشأنها ، والا لم نعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

ـ أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى

لن أستطيع مع ذلك أن أعـــدل عن سؤالى • فانه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل •

ـ لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليـــه لأسباب عدة ••• الخلاصة : لأردّ ديناً علىّ •

ـ ديناً لمن ؟

ـ ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لأننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لأن الأمر فى الواقع هو من السفاسف التى لا قيمة لها البتة • ولئن صمتُ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمح لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة • لا ••• هنا لا تسامح ولا تنازل ! ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردّ له هذا الدين •

قال وكيل النيابة :

ـ اسمح لنا بتسجيل تصريحك •

ـ سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحـال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلالاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة :

ـ أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد ، اذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقك طبعا أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك ، وأننا لا نملك أن نجبرك على الاجابه ذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط • ولكن من واجبنا أيضا أن نلفت نظرك الى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك اذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة •

دمدم ميتيا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة :

ـ ولكنني يا سادتي لم أغضب •• أنا •• أنا •• ان سامسونوف ذاك الذي ذهبت اليه حينذاك •• يا سادتي ••

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتيا ، فان القارىء يعرفها. لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملا ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعجل انجاز هذا العرض • لذلك كان يتكلم متسرعاً • غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائما من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام وهو يدمدم متململاً ، ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته • كان يتفق له أن يصيح قائلاً في بعض الأحيان : « أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف ! » أو « لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو ! »، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذي كان عندئذ منطلقاً ودوداً • روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) • وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن

الحاحهما على هذه النقطه أن أخرجا ميتيا عن طوره ، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هده الوافعة ، دليلاً جديدا على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من التجهم شيئاً بعد شيء . وبعد أن روى قصة سفره سعياً الى لياجافى ، وقضائه ليلةً فى الكوخ الذى يملؤه الدخان ، وصف عودته الى المدينة ، وأخذ يصوِّر ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، دون أن يُطلب منه ذلك ، جميع تباريح غيرته على جروشنكا . فكان القاضيان يصغيان اليه بانتباه صامتين . وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل ، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش فى حديقة ماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك ، وأن سمر دياكوف كان ينقل اليه أخباراً ويطلعه على ما يجرى فى منزل أبيه . هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتيا عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسى الذى شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه تعريةً تسىء الى شرفه أمام الناس ، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصا منه على أن يقول الحقيقة صادقا . غير أن النظرات القاسية الباردة التى كان يصبها عليه قاضى التحقيق ووكيل النيابة محدِّقين اليه متفرسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال فى سرِّه حزيناً : « ان هذا الصبى الغر نيقولا بارفينوفتش الذى بادلته منذ مدة أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضى اليهما به من اعترافات نفسى . يا للعار ! » . ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذى يقول : « قلبى اعتصمْ بالصبر والاذعان » . وتابع يروى قصته مجاهداً متجلداً . فلما وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة هوخلاكوفا انبسطت

أساريره من جديد وشاع فى نفسه المرح ، وأوشك أن يروى نكتة عن هذه السيدة كانت تشيع فى صالونات المدينه ، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً، لدلك اسوقفه القاضى عن الكلام بلطف وكياسه ، راجيا منه أن ينتقل الى وقائع أهم • وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الدى اجتاح نفسه فى الشارع ، لم يسقط من حدينه تلك الواقعة ، وهى أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب « أنه لم يبق له الا أن يذبح أحدا ويسلبه ماله بأقصى سرعه للحصول على ذلك المبلغ • » • عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه « قد خطر بباله أن يذبح أحداً » ، وأسرعا يسجلان ذلك • وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج • فلما وصل من حديثه أخيرا الى اللحظة التى علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزمتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً :

ــ لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ ، فان السبب الوحيد يا سادتى هو أننى قد أعوزنى الوقت •

سُجّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام • فكان ميتيا ينتظر ، عابسَ الوجه مكفهر الأسارير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته ؛ وهمّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقة أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

ــ هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ هذا ؟ آ ••• نعم ••• طبعا أعرفها ! أرنيها ••• بل لا داعى لأن أراها ••• ما فائدة ذلك ؟

ـ نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا •

ـ صحيح • كان ينبغى أن أذكر هذه الواقعة ، فلولا هذا المدق لما وقع شيء ، ولكن الأمر كان قد خرج من ذهنى •

ـ هلاّ ذكرت لنا الظروف التى تسلحت فيها بهذا المدق !

ـ بكل سرور يا سادتى •

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون من مطبخ فينيا عرضاً •

ـ ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟

ـ ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وانما أخذته هكذا •••

ـ ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟

غلى ميتيا حنقاً • كان يتفرس فى « الفتى الغر » مبتسما ابتسامة عداء وكره • ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزى والعار ، شيئاً بعد شيء ، من أنه ارتضى أن يصف « لأناس مثلهم » ، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعرَ الغيرة التى كانت تعذبه •

ـ مالنا ولهذا المدق اللعين ؟

ـ ولكن •••

ـ ولكن •• ولكن •• طيب •• كنت أريد أن أدافع عن نفسى من كلاب الشارع •• فى الظلام •• احتياطا للمفاجأة ••

ـ هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلا ، أن تتسلح خوفا من الظلام ؟

ـ هوه ! حقاً انه ليستحيل الحديث معكم أيها السادة •••

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق •

ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :

ـ اكتب ••• اكتب حالاً « انني أخذت المدق على نية الذهاب فورا الى أبي فيدور بافلوفتش •• لقتله •• لتحطيم جمجمته •• » •

ثم هتف يقول مخاطبا قاضي التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :

ـ أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :

ـ نرى انك قد أعطيت هـذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تظن أنها تافهة • ولكننا مضطرون الى القاء هذه الأسئلة عليك لأنها في الواقع هامة جدا •

ـ أرجوكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق ••• طيب ! ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون في يده شيء ••• الحق انني أجهل لماذا أخـذته • لقد أخذته راكضـاً ، هذا كل شيء • ألا تخجلون أيهـا السادة ؟ دعونا من هذا ، والا فيميناً لن أحكي شيئاً بعد الآن !

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة ، وجعل رأسه في يده • كان جالسـاً الى جانب بالنسـبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه •وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة « ولو سيق الى الموت » •

قال فجأة وهو يجاهد في سبيل أن لا ينفجر :

ـ أتعرفون أيها السادة ؟ انني ، وأنا أصغي اليكم ، أشعر باحساس غريب ... يذكرني هذا الاحســـاس بحلم ... بحلم ما ... يعاودني في كثير من الأحيان أثناء النوم ... أحلم أن أحداً يطاردني في الليل ، في الظلام ... أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً ... انه يبحث عني ،وأحاول أنا أن أختبيء منه ، أن أغيب عن بصره ... فألوذ جباناً وراء باب أو وراء خزانة ، فألطو هناك جامداً لا أتحرك ... والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئي ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابي ... وليتمتع بهلعي زمناً أطول ... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم في هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

ـ أتراودك اذن أحلام فيها خوف وقلق ؟

ـ أي نعم ... ألا تريدون أن تسجلواهذا أيضاً ؟

ـ لا ... لن نسجله . ولكنه اشارة هامة في الواقع . الحق انك ترى أحلاماً غريبة ...

ـ غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة الرهيب ! أنا ذئب وأنتم الصيادون . فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضي التحقيق قائلا له برقة ولطف :

ـ تخطيء أن ترى الأمور هذه الرؤية . لماذا هذا التشبيه ؟

فقال ميتيا غاضباً :

ـ بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهدأ قليلاً ، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

ـ من حقكم أن تشكوا فى مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ، ولكن حين يكون أمامكم انسان مستقيم نبيل أيها السادة ، وحين يكلمكم هذا الانسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه ، فما ينبغى لكم عندئذ أيها السادة أن تشكوا فى كلامه ... لا يحق لكم أن لا تصدقوه ... لا يحق لكم ذلك حينذاك ...

... عليك بالصمت قلبى*

اصبر وأذعن ، وصمتا !

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

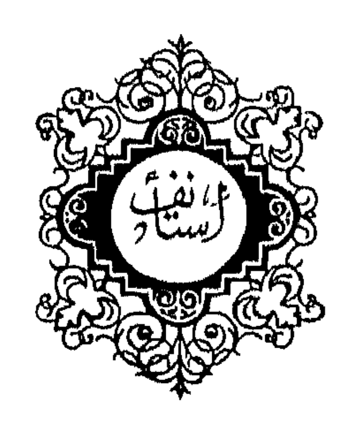
ـ أأستأنف سرد قصتى ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش :

ـ طبعا ! لقد هممت أن أرجوك أن تفعل .

٥

المحنة الثالثة



ميتيا سرد قصته بصوت كالح ، ولكنه يحاول الآن ، أكثر مما كان يحاول قبل ذلك ، أن لا يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية . روى كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ، ووصف مشيته الصامتة للاقتراب من النافذة ، وعرض عرضا دقيقا ماجرى أثناء اللحظات التى ظل فيها متربصا مراقبا وراء الشجيرات ، وصور تصويرا واضحا ـ وهو يفصّل كلماته ـ العواطف التى هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا . ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضى التحقيق يصغيان اليه فى هذه المرة وقد ظهرت فى وجهيهما قسوة ، واصطنعا الجد والكلفة ، أصبحا لا يسألانه عن شيء . كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه . قال فى نفسه : « لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؟ فليكن ما يكون !» . حتى اذا وصل من حديثه الى « الاشارة » التى قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصلت فيفتح النافذة ، لاحظ أن قاضى التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أى انتباه ، فكأنهما لايدركان خطورته ولا يفهمان ما هى تلك « الاشارة » التى يتحدث عنها ، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب . فلما وصل أخيرا الى اللحظة التى رأى فيها

أباه يميل من على النافذة ، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك ، وأخــذ يحدق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد . قال وكيــل النيابة :

ـ هيه ، أخرجت السلاح من جيبك ... ثم ... ثم ... ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ؟ قتلته ... ضربته على صدغه وكسرت جمجمته ... هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً . لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بعنف متزايد .

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ ذلك فى زعمنا نحن . طيب . فماذا فى زعمك أنت ؟

حفض ميتيا عينيه . وخيّم صمت طويل .

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادىء :

ـ فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة . لا أدرى أبتهلت أمى الى الله فى تلك اللحظة ، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدى ملاك لا يُرى ؟ المهم أن الشيطان قد غُلب . ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجهاً نحو السور ... ذعر أبى ، وعرفنى فجأة، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة ... أتذكر هذا تذكراً واضحاً . اجتزت الحديقة ، وأسرعت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهــر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور .

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه . فلاح له أنهما كانا

ينظران اليه بغير اكتراث . فألمت به رعدة من غضب . وقال لهما :

ـ ألاحظ يا سادتى أنكم تسخرون منى !

فسأله نيقولا بارفينوفتش :

ـ ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

ـ انكم لا تصدّقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا . أوه ! فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية . العجوز يرقد الآن جثة هامدة محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن أقتله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبى لهذا الغرض ، أصرّح لكم فجأة بأننى لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! ... هذه قصيدة حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغى أن يقال هذا الكلام كله شعراً ! كيف يمكن أن يُصدّق رجل مثلى ؟ آه ... ألا أنكم لتعرفون كيف تسخرون وتضحكون دون أن يظهر عليكم ذلك .

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلا على كرسيه فقرقع الكرسى .

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا :

ـ هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضى الى الحديقة فى الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟

ـ كان مغلقا .

ـ مغلقا ؟ أأنت متأكد ؟

ـ كل التأكد . كان ذلك الباب مغلقاً . ثم انه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه .. هذا .. هذا الباب .. لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول

مرتعشاً ، كأن فكرةً قد ومضت فى ذهنه فجأة) • ألعلكم وجدتم ذلك الباب مفتوحا ؟

ـ نعم ، كان مفتوحا •

ـ فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أنتم أيها السادة •

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش •

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء ، مقطعا كلماته :

ـ كان الباب مفتوحا ، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضا • تلك نقطة نعدها مفروغاً منها • فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته فى الغرفة لا من خلال النافذة • ان هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى • لم يبق أى شك من هذه الناحية •

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة • وصاح يقول زائغ الوجه :

ـ ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة • أنا ••• أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقا أثناء وجودى فى الحديقة ، وأنه كان مغلقا أيضا حين هربت • اننى لم أتحرك من مخبئى ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت ••• من النافذة وحدها ••• اننى أتذكر جميع التفاصيل • وهبنى لا أتذكرها ، فاننى على يقين من أن الباب كان مغلقا ، لأن أحداً لم يكن يعرف « الاشارات » الا أنا وسمردياكوف ، والمتوفى طبعا ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب •

ـ الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة

والوقار فى لحظه • كان فى نبرة سؤاله شيء من مذلة ، شيء من ضراعة، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها •

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ماكرة :

ـ آ ••• أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك فى هذه الحالة ؟ ذلك أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى• ان أحداً لم يُطْلَع على السر ، فليس يعرفه ، عدانا ، الا الله ••• ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؟ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف الا الشيطان جميع النتائج التى يسمح بالوصول اليها • هأ هأ هأ ، مخاوفكم حمقاء ! انكم لا تعرفون الانسان الذى تخاطبونه • ان أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التى تشهد عليه ! آ ••• نعم يا سادتى ! ذلك أننى أنا فارس شرف ، ولكننى لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم !

بلع وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة برفق ولطف ، لأنه كان يحترق رغبةً فى معرفة الواقعة الجديدة • تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل ما يتصل بالاشارات التى تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سمر دياكوف ، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة فى قرع النافذة ، ومثّلها هو نفسه بالضرب على المائدة • فسأله نيقولا بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشارة المتفق عليها لينبىء فيدور بافلوفتش بأن « جروشنكا وصلت » ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول السيدة الشابة • وختم ميتيا كلامه قائلاً :

ـ فهأنتم أولاء اطلعتم على الأمر • هلموا اجمعوا القرائن فوق القرائن ، وتابعوا استدلالاتكم واستخرجوا نتائجكم •

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار .

سأله نيقولا بارفينوفتش مرة أخرى :

ـ أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك والخادم سمر دياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة ؟

ـ لم يطلع عليها أحد غيرنا ، أنا وسمر دياكوف والله . لا تنسوا أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر . قد يكون العون الالهى ضرورياً لكم أنتم أيضاً فى هذه القضية .

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل . ولكن بينما كان الكاتب يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن فتراضا جديدا قد ومض فى ذهنه على حين بغتة :

ـ ولكن اذا كان سمردياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضا ، واذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك الى فتح الباب ، ثم ... ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد؛ وظل يحدّق اليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن عينى وكيل النيابة أخذتا تطرفان . ثم انفجر ميتيا يسأله أخيرا :

ـ أتريد أن تقبض على الثعلب من جديد بهـذا السؤال المغرى ؟ ولكن الثعلب قد هرب .. هأهأهأ ! ...لقد أدركت لعبتـك يا وكيل النيابة ! خيّل اليك أننى سأثب على هذا « الطُّعم » الذى تمده الىّ ، وأننى سأتبنى هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لاشك أنك كنت تتـوقع أن أصـيح ملء حنجـرتى قائلاً : « نعم نعم ، هو

سمردياكوف ؟ سمردياكوف هو القاتل ؟ » اعترف" بأن هذه هى فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتى •

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا • قال ميتيا :

ـ خطأ ! لن أتهم سمردياكوف •

ـ لا ولا يساورك أى شك فيه ؟

ـ وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشتبه فيه ؟

ـ لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا •

أطرق ميتيا الى الأرض • ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

ـ كفى مزاحاً • واليكم ما أريد أن أقـــوله لكم اذا شـــئتم الجد لا الهزل • اننى منذ البداية ، وفى اللحظة التى أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم ، فى تلك اللحظة تقريبا ، ومضت فى ذهنى هذه الفكرة « أيكون هو سمردياكوف ؟ ••• » • ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصيح قائلاً اننى لم أسفح دم أبى ، كنت أقدر فى قرارة نفسى أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هذا الافتراض ذهنى بعد ذلك • وفى هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنتَ تلقى علىّ هذا السؤال ، قلت لنفسى مرة أخرى : « انه ســـمردياكوف ! » ، ولكننى سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلا فى سرى : « لا ••• ليس هو سمردياكوف ! » • ليست هذه الجريمة من صنعه •

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذرا :

ـ هل تشتبه اذن فى شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

ـ لا أدرى من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن

يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر ••• ولكن لا يمكن أن يكون سمرد ياكوف هو القاتل •

ـ ما الذى يدفعك الى أن تؤكد جازماً هذا الجزم ، ملحاً هـــذا الالحاح ، أن القاتل ليس سمرد ياكوف ؟

ـ هو اقتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة • اننى أعتقد أنه ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جدا ، ولأنه رعديد فوق كل شيء • ليس سمرد ياكوف رجلا جبانا بل هو جميع أنواع الجبن فىهذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى ؛ ان هذا الانسان هو الخوف نفسـه متحسدا أيها السادة • لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ، يرتجف خوفا من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدى عليـــه • كان يرتمى على قدمىّ باكياً ويقبل حذاءىّ ضارعاً الىّ أن لا « أخيفه » • هل تسمعون ؟ « أن لا أخيفه ! » ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفا معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا • هذا فرخ ممروض مصـاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره • أهذا رجل ؟ لا يا سادتى ، ليس لسمرد ياكوف ضلع فى هذا الأمر • ثم انه لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهبها له • وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز ؟ ربما كان سمرد ياكوف ابن العجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

ـ نعرف هذه الشائعة • ولكنك أنت أيضا ابن فيدور بافلوفتش ، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله •

ـ وهذا حجر آخر فى حديقتى ! انه لصغار وحطة منكم أن تأخذوا علىّ هذا ! هيّا أيها السادة ، أنا لا أخشى غمـــزاتكم ولمزاتكم ! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقا أن ترموا وجهى بما أسررت به اليكم أنا نفسى ؟ هيه ••• طيب ••• أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل

كان فى وسعى أن أفعــل ، وقد اتهمت نفسى أمامكم بأننى أوشكت أن أصرعه ذات يوم • غير أنى لم أقتله ، فان ملاكى الحارس قد حمانى من ارتكاب هذه الجريمة ••• ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزنا لهذا الكلام • ذلك هو الشر فى موقفكم ، ذلك هو فى موقفكم مايستحق الاحتقار ! اننى لم أقتله ، اننى لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع ياوكيل النيابة • أنا لم أقتله !

كان ميتيا يوشك أن يختنق • انه لم يضطرب هــذا الاضطراب الشديد كله فى أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب • وسأل بعد صمت :

ـ فما الذى قاله لكم صاحبنا ســمردياكوف ؟ هل يجوز لى أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجه قاسية جافه :

ـ من حقك أن تلقى علينا ما تشاء من أسئلة • اننى أسمع لجميع الأسئلة التى تتصل بالظروف الماديه للقضية • أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التى قد تنيرها • لقد وجدنا هذا الخادم سمر دياكوف الذى سألت عنه الآن راقداً على سريره مغشياً عليه يعانى من نوبة صرع شديدة ، هى النــوبة العاشرة فيما أظــن ، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرّح الطبيب الذى رافقنا صرّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة •

ـ فالشيطان هو الذى قتل أبى اذن !

بهذا هتف ميتيا ، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة : « أهو سمردياكوف أم لا ؟ » •

قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

ـ سنعود الى هذه المسألة فيما بعــد • هل يمكننى أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ، فوافق وكيـــل النيابة على ذلك بلطف وكياسة • وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصـير ، ولكن كان واضحا أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أرهقه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة • ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه فى كل لحظة بأسئلة تتناول أمورا تافهة لا قيمة لها • من ذلك مثلا أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحـديقة بعد ذلك ويميـــل على الضحية ، حتى استوقفه وكيل النيابة راجيا منه أن يوضح طريقة جلوسه على الســور • فدهش ميتيا من هذا الالحاح ، وقال يجيبه :

ـ جلست •• هكذا •• راكبا •• كركوبى على حصان ••• فى كل جهة ساق •

ـ ومدق الهاون ؟

ـ مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدى •

ـ لا فى جيبك ؟ هل تتذكر هذا تذكرآ تاما ؟ هل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه ؟

ـ لا بد ••• ما دمت قد ضربت ضربة قوية • لماذا هذا السؤال ؟

ـ هل لك أن تجلس على هذا الكرسى بالطريقة التى جلست بهـا على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاعة التى اندفعتها بذراعك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادةً فى الايضاح ؟

سأل ميتيا محدِّثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

ـ أتراك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه • فاستدار ميتيا فوق كرسـيه

بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ، وقال :

ـ انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتلته ! أأنتم راضون الآن ؟ ماذا تريدون أيضا ؟

ـ شكراً . هلاّ شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ، وماذا كان هدفك من هذا ؟ ما هو الدافع الذى خضعت له حين تلبثت هذا التلبث قرب ضحيتك ؟

ـ عجيب ... هل أعرف لماذا ؟ ملت عليه وكفى ، لست أعرف السبب الذى دفعنى الى ذلك .

ـ لقد قفلتَ راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعانى انفعالاً شديدا وكنت تريد أن تهرب . فهلاّ شرحت لنا هذا ؟

ـ نعم ، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب .

ـ فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟

ـ لا ... على كل حال ، لا أدرى . لعلنى أشفقت عليه ، لا أتذكر الآن .

ـ لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟

ـ بل كنت واعيا كل الوعي ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل . دعونا من ذلك الكلام ! لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن أمسح دمه بمنديلى .

ـ عثرنا على المنديل . هل كنت تأمل انقاذ حياة الانسان الذى صرعته ؟

ـ لا أدرى هل كنت آمل ذلك . لقد أردت ، بكل بساطة ، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟

ــ ها ؟ أردت أن تعـــرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

ــ لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيبا • ثم هربت معـــتقدا أننى قتلته • وها هو ذا صحا من اغمائه •••

قال وكيل النيابة أخيرا :

ــ عظيم • شكراً • ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه . هلاّ تفضلت فتابعت سرد الوقائع ؟

وا أسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا ــ رغم أنه يتذكر تذكراً واضحا ــ أن يذكر أنه انما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على العجوز جريجورى قد نطق بكلمات تعبِّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذى آلمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان • ان كل ما حفظه وكيـــل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور « فى لحظة كتلك اللحظة ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعانيه » ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد « الوحيد » على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات • وحدّث وكيل النيابة نفسه قائلاً : « ان هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل »، ثم أضاف يقول لنفسه : « وأخيرا ! لقد استطعت أن أنهك قواه بهـــذه السفاسف ، فاذا هو يفضح نفسه • • •

وتابع ميتيا سرد قصته فى عناء ومشقة ، ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد • سأله :

ــ كيف ذهبت الى الخادمة فيـــدوسا ماركوفنـــا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

ــ لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجا بالدم •

قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

ـ انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة فى مسل هذه الحالة .

فقال ميتيا مؤيدا كلامه بحرارة :

ـ لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن « يتنحى عن الطريق » ، وأن « يخلى الدرب للحبيبين السعيدين » . ولكنه أحس أنه لا يملك الآن ، كما كان يملك فى بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ، وأن يتحدث عن « مليكة قلبه » حديثا طلقاً حراً . ان شعورا بالاشمئزاز أمام هذين الانسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، بل يغرسانها فى لحمه غرساً كحشرات تمص دمه ، أقول ان شعورا بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق فى الكلام . فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة .

ـ نعم قررت أن أنتحر . لم يبق ثمة ما يربطنى بالحياة ويشدنى اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه . ان صديقها القديم الشرعى الذى هجرها فى الماضى قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً ، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى ألحقه بها . أدركت عندئذ أن كل شىء قد انتهى ... وعدا هذا كان يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا ... ففيم الحياة بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق فى رأسى رصاصة منذ الفجر ...

ـ وبانتظار ذلك ، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل ؟

ـ نعم نعم ، قررت ذلك ! هلاّ انتهينا من هذا أيها السادة ! لقد

عزمت عزماً أكيدا على أن أنتحر هناك ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغى أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح • وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب ، كلمة كنتم ستجدونها فى جيبى • لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسى • اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم •

وأضاف يقول فجأةً باحتقار :

ـ ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم •

ثم سلّ من جيبه ورقة ورماها على المائدة • قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمّاها الى الملف وفقاً للأصول •

ـ ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقظ شبهات وشكوكاً ؟

ـ شبهات وشكوكا ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة • وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم• فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا • ذلك من صنع الشيطان ، هل تعلمون ؟ ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا بعد وقوع الجريمة بزمن قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدّق !

ـ ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك •• بيديك الداميتين •• أوراقا مالية •• مبلغا ضخما •• حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل ؟ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا •

ـ صحيح • فعلا • أظن أننى أتذكر هذا •

قال نيقولا بارفينوفتش بصوت رفيق جدا :

ـ هنا ينبثق سؤال صغير . ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال ، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتســـع وقتك حتى للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليـــلاً حين سمع هـذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المفاجئة ، ولكنه لم يقاطع قاضى التحقيق .

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقاً الى الأرض :

ـ لم أمرّ ببيتى فعلاً !

فعاد نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامز :

ـ فاسمح لى اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ مادام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت ...

ولكن ميتيا قاطعه بعصبية قائلاً :

ـ فى الساعة الخامسة ؟ كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ، فرهنت مسدسىّ عند برخوتين ، ثم ذهبت الى السيدة هوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا ... أعرف القصة (كذلك أضاف ميتيا يقول بلهجة هجومية) . كنت لا أملك قرشاً واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفا من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب ... أنا أرفض ، نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال . لقد حزرتم . لن أتكلم ، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة .

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة .

وساد صمت .

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان:

ـ اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال ٠

ـ أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئاً ٠

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هـذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثـل هذه الخطورة ٠٠٠

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة :

ـ وهلمّ جرا أيها السادة ، وهلمّ جرا ! كفى ! لقـد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة ! ثم اننى أدرك أنا نفسى خطورة هذا السؤال الذى تلقونه علىّ ، وأعلم أنه النقطة الرئيسـية فى القضـية ، ولكننى مع ذلك لن أتكلم ٠

فقال نيقولا بارفينوفتش بلهجة عصبية :

ـ هى مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصا على ذلك !

رفع ميتيا عينيه ، ونظر اليهما بصلابة وثبات قائلاً :

ـ اسمعوا أيها السادة ٠ سأكون صريحا ٠ لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة ٠ ولكن حين بدأت قصتى هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لى فى مكان بعيد غائم ، كأنه غارق فى الضـباب ، حتى لقد بلغت من السـذاجة فى تلك اللحظة اننى اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة ٠ وانى لأدرك الآن أن هـذه الثقة كانت مسـتحيلة ، لأننا كنا سنصطدم بهـذا الجدار عاجلاً أو آجلاً ٠٠٠ وها نحن أولاء نصطدم به ٠٠٠ فمن المستحيل أن نستمر ٠

هذا كل شيء • ولست ألومكم على كل حال ، فانني أفهم حق الفهم أنكم ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف •

قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه •

ـ ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تتزحزح عمّا عزمت عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو باشارة يسيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة الى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابتسم ميتيا حزينا واجما مفكرا •

ـ أنا خير مما تتصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! انني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار • ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة اليّ على دناءة اذا قيست بها جريمة قتل أبي وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم • ذلكم هو سبب اضطراري الى الصمت • ان الشعور بالعار يخنقني • ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

تمتم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ نعم سنسجلها •

ـ ما ينبغي لكم أن تسجلوا ما قلته عن « الدناءة » • لقد فتحت لكم قلبي من قبيل المجاراة • كان بمكنني أن أمنع عنكم هذا الايضاح • لقد قدمت البكم هذا الايضاح بغير داعٍ الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضاً ؟ ليكن أيها السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطأطيء رأسي أمامكم •

بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يسأله :

ـ هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التى تعنيها ؟

ـ انتهى ! لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفاية ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ ... كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة .

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيبوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد .

ـ قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيديك حين وصلت الى السيد برخوتين . كم روبلاً كان المبلغ ؟

ـ لا أستطيع أن أقول .

ـ ألم تتحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك أقترضتها من السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل . كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة .

ـ أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه !

ـ ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا . على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا .

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارىء جميع تفاصيلها . وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصراً على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة . ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب « ظروف جديدة » . ولم يتحدث عن حالاته

النفسية ، بل اقتصر على الوقائع المادية وحدها . ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً فى نظر وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا .

قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

ـ سنتحقق من صدق أقوالك ، وسنعود اليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعاً . أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى معك ، ولا سيما الأموال ... جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن .

ـ المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب ... أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل اننى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن . وما كان لى أن أتهرب طبعاً ، ما دمتم ترافبوننى . اليكم المال . عدّوه . خذوا . أحسب أن هذا كل شىء ...

أفرغ ميتيا جيوبه افراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات ، أخرجها من جيب صديرته . وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً .

سأله القاضى :

ـ أهذا كل شىء ؟

ـ نعم .

ـ لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بولتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضعنا اليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الحوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم ...

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً ، وكان ميتيا يساعده راضياً ، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل ، فقال :

ـ فاذا حسبنا الثمانمائة روبل التى بقيت لك ، كان معنى هذا انك كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

ـ ممكن

ـ فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك •

ـ لهم أن يقولوا ما يشاءون •

ـ لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا •

ـ لعلنى أكدت ذلك •

ـ سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين • أما المال فلا تخش عليه • سنحتفظ به فى مكان مأمون ، وسيُردّ اليك فى نهاية ••• هذا التحقيق ••• اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك •••

قال نيقولا بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه « مضطراً » الى أن « يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً » •

ـ افعلوا أيها السادة • سأقلب جيوبى ان شئتم •

وأخذ يقلب جيوبه •

ـ لا هكذا • لا بد من أن تخلع ملابسك •

ـ ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ عجيب ••• ألا يكون نبش جيوبى أسهل من ذلك ؟

ـ بل لا بد من خلع ثيابك يا دمترى فيدوروفتش • يجب أن تخلع ثيابك •

قال ميتيا عابساً مذعناً :

ـ كما تشاءون • ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر ••• أرجوكم ••• من يتولى التفتيش ؟

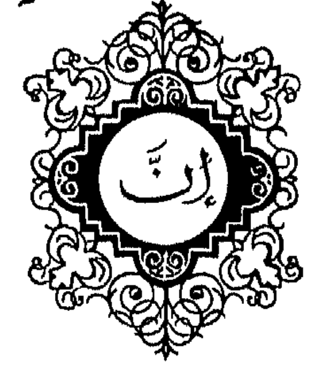
قال قاضى التحقيق وهو يحنى رأسه موافقاً :

ـ طبعاً وراء الستائر •

وطاف بقسمات وجهه الدقيقة عندئذ تعبير عن وقار خاص •

٦

وكيل النيابة يشوش ميتيا



ما حدث عندئذ لم يكن فى حسبان ميتيا أبداً . ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دمترى كارامازوف ! ان فى هـذا « اذلالاً » له ، « وازدراء متعالياً » منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا ردنجوته ! لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها ... بل لم يكن هذا منهم رجاءً ، وانما كان فى الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضـع للأمر دون تذمر ، كبرياءً واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة وقاضى التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضاً ، فقال ميتيا يحدث نفسه : « لقد دخل هؤلاء للمساعدة فى اجبارى على خلع ملابسى ، وربما لبواعث أخرى كذلك » .

سأل ميتيا بصوت يصطنع الحزم :

ــ هيه ! هل أخلع القميص أيضاً ؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة . لقد كان مشغولاً مع وكيـل النيـابة بتفتيش الردنجوت والسروال والصـديرة والقبعة . وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد . قال ميتيا

في نفســـه : « أصبحا لا يتحرجان من شيء ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللباقة ! » وقال يسألهما :

ـ أسألكم مرة أخرى : أيجب أن أخلع القميص أم لا ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا احساس ميتيا على الأقل) :

ـ لا تقلق ، سنقول لك ذلك فى حينه .

كان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يتبادلان الرأى بصوت خافت . ان هنــاك بقع دم ، غير متخثرة تخثراً كاملاً ، تظهر على الردنجوت ، ولا سيما فى الظهر وفى الحافة اليسرى . وان هناك بقع دم أخرى تُرى فى السروال أيضــاً . وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش ، بحضـــور الفلاحين المكلفين ، يجس الياقة وطيات الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه يقدّر أن يكتشف فيها شيئاً ... هو المال طبعاً ... وأخطر ما فى الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق فى بطانات الثياب . فجمجم ميتيا يقول :

ـ اننى أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط .

لقد كانا يتبادلان الآراء بصـــوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده . من ذلك مثلاً أن الكاتب ، الذى كان كثير الحركة هو أيضاً ، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش الى القبعة التى أخذ يجسها أيضـــاً ، قائلا له:

ـ تذكروا المستخدم جريدنكا . لقد أوفد فى هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفى الدائرة ، فلما عاد صرّح بأنه فقد المال وهو فى حالة سكر . فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه فى شريط قبعته ! لقد صنع

من أوراق المائة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ، ثم خاط الشريط .

لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضـــيه جريدنكا ، فوضعا قبعة ميتيا فى جانب وفى نيتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً

ورأى نيقولا بارفينوفتش قبضة الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخة بالدم ومقلوبة ، فهتف يقول فجأة :

ـ هل تسمح ؟ هذا دم أيضاً ان لم يخطىء ظنى .

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

ـ نعم ، هو دم .

ـ دم ؟ أى دم ؟ ... ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد شمره عند برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضاً .

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ سيجب أن تنزع قميصك أيضاً ... هذا أمر هام جداً لاستكمال المشاهدات المادية .

فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً :

ـ أأصبح عارياً الآن ؟

ـ اطمئن ... سنرتب هذا . وبانتظار ذلك ، أنزع جوربيك من فضلك .

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه حنق :

ـ أأنتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

ـ ما نحن فى موقف المزاح فنمزح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

ـ ليكن ... ما دام هذا ضرورياً ... أنا ...

كان يشعر بخزى لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظللون مرتدين ثيابهم . شيء غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مجرم . كاد يسلّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً على حين بغتة ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه . قال يحدّث نفسه : « حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدى عارياً فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات من هذا النوع » . وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً ، ففى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن . ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصابعهما بشعة ، ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التى كان أحد أظافرها مسطحاً تاماً فلا ينحنى الا فى نهايته . سوف يراه الجميع الآن . اجتاحه الشعور بالخزى والعار ، ففارت نفسه ، وأصبح فظاً عن عمد . قال :

ـ ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء لا يصدكم ؟

ـ لا ، لا داعى الى ذلك الآن .

وسأل ميتيا بلهجة حانقة :

ـ هل علىّ أن أنتظر عارياً ؟

ـ لابد من ذلك . تفضل فاجلس هنا . فى امكانك أن تتدثر بغطاء السرير ... وسأحاول أن أتدبر الأمر .

أُظهر الفلاحون على ملابسه ليكونوا شهوداً . حتى اذا انتهى تحرير المحضر خرج نقولا بارفينوفتش . وأُخذت الملابس ، وانصرف

وكيل النيابة أيضاً • لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم • تدثر مينيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أن يحمى قدميه العاريتين على أى نحو تلفف • وتأخر نيقـولا بارفينوفتش عن العـــودة ، كأنه يريد « اطالة تعذيبه » •

وجمجم ميتيا يقول وهو يكز بأسنانه :

ـ يحسبنى صـــبياً ! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك ••• احتقاراً فى أغلب الظن ••• واشمئزازاً من رؤية رجل عار •

وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبت جديد • فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود اليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه •

قال له القاضى بلهجة ودود طلقة :

ـ اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيراً •

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

ـ ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الظرف الغريب ، فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقيبته من حسن الحظ • أما ملابسك الداخلية وجوربك ففى امكانك أن تحتفظ بها •

انفجر ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد :

ـ لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى • ردوا الىّ ردائى •

ـ مستحيل •

ـ أريد ردائى أنا • شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

ولم يمكن ردّه الى الصواب الا بكثير من العناء ولكنه هدأ آخر الأمر بعد أن شرحوا له ضرورة « ضمّ الثياب الى وثائق الاثبات » مادامت ملطخة بالدم • وقد حرص قاضى التحقيق على أن يقول له « انه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة ، فليس يدرى أحد ما هو المجرى الذى قد تجرى فيه القضـــية » • اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ يرتدى الثياب الجديدة ، مع محافظته على صمت متجهم عابس • واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه ، وانه يكره أن « يستفيد » منه ؟ وأضاف يقول :

ـ ثم انه ضيِّق علىّ فهو يجعلنى مضحكاً • هل علىّ أن أظهر للناس مضحكاً ••• لتتسلوا أنتم ؟

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول • ولكن اتضح ان الســترة مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد :

ـ يستحيل عقد أزرارها • أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أننى لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأننى أُكرهت على ارتدائها كمهرِّج !

فدمدم قاضى التحقيق يقول :

ـ هو يفهم هذا ، وهو يأسف ••• لا يأسف على حرمانه من ثيابه ••• لا ••• بل يأسف لمـا وقع لك •

ـ لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطر الى البقاء هنا ؟

ـ أرجو أن ننتقل الى « الغرفة الأخرى » من جديد •

دخل ميتيا الى هناك متقبضَ الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى

أحد . كان يحس وهو فى ثيابه المستعارة أنه مذل حتى فى نظر الفلاحين، وفى نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسةً من خلال بابٍ شقه ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا فى نفسه : « أراد أن يتأملنى وأنا فى هذا الزى المضحك ». وجلس على الكرسى الذى كان يشغله منذ قليل. كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً، أنه يعيش كابوساً، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين :

ـ هيه، والآن، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم الا هذا !

لم يشأ أن يخاطب نيقولا بارفينوفتش، لأنه أصبح يعده غير جدير بانتباهه بعد الآن . وقال يحدث نفسه : « لقد تلذذ بتأمل جوربى زمنا طويلا جدا، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً ـ يا للشقى ! ـ بغية أن يُظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية قذرة جدا ! » .

قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله :

ـ سنبدأ الآن استجواب الشهود .

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

ـ نعم نعم .

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمرٍ ما . وتابع القاضى كلامه فقال :

ـ لقد بذلنا قصارانا يا دمترى فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك . ولكن بعد أن رفضت رفضا خشنا أن تلبى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك، فاننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن ..

قاطعه ميتيا سائلاً :

ـ من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم ؟

كان ميتيا يتكلم كمن هو فى حلم ، مشيراً الى واحد من الخواتم الثلاثة التى تزين يد القاضى الصغيرة • فسأله القاضى فى دهشة :

ـ خاتمى أنا ؟

ـ نعم ، هذا الخاتم ••• ذلك الذى يزين الاصبع الوسطى ••• ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل عنيد ذى نزوات • فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه ف •••

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب الى رشده ، واضطرب وخجل وثار على نفسه :

ـ لا •• لا تنزعه •• ليس يعنينى هذا •• آه •• لقد دنستم نفسى أيها السادة ! هل تظنون اذن أننى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أننى قتلت أبى فعلاً ، هل تظنـــون اننى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هوان الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لاتعرفون دمترى فيدوروفتش ! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يمينا ، لو كنت مجرما لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حيا الى الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فورا ! لقــد تعلمت فى هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاما من الحياة ! أكان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ، أكنت أجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الاشارات ، أكنت أستطيع أن أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أنتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقا ؟ على أن مجرد تصورى أننى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضا قد ظل يعذبنى طوال الليـــل ، لا خوفا •• أبدا ••• لا خشية من عقابكم !

••• يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك ، أيها العابثون الهازلون ، تريدون أن أفضى الى أناس مثلكم ، أناس لا يصدقون شيئا ولا يرون شيئا ، تريدون أن أحكى لكم ، أيها المناجذ المعى ، دناءة أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عارى؟ أبدا ••• لن أفعل ذلك ولو أدى الى تبرئتى من اتهاماتكم ••• أبدا ، أبدا ••• انى لأوثر على هذا سجون الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح البـاب ودخل الى بيت أبى من ذلك الباب ••• انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص؟ اننى أتيه فى مجاهل الظن والتخمين ، وألقى عنـــاء كبيرا فى محـاولة حزره • ولكن ذلك الشـــخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا ••• ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم ••• وهـو كاف ، فلا تلحوا ••• اصنعوا بى ما شئتم ، أرسلونى الى سيبريا ، أو نفذوا فى الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حنقى وغيظى بعد الآن • هأناذا أسكت • أدخلوا شهودكم •

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزما مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة • وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما ان ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد ، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جدا بسيطة جدا •

ـ فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئت على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك ـ وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن ـ على واقعة من أغـرب الوقائع ومن أخطــرها شأنا كذلك ، بالنسبة اليك وبالنســبة الينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقـوال العجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته • لقد صرح هذا العجوز ، بعد أن أفاق من اغمائه وثاب اليه وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع

ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة مارآ ببابها الحديدى الذى لم يكن مغلقا ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقه أثناء هروبك فى الظلام مبتعدا عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضاً ، من مكان أقرب اليه كثيرا ،لاحظ أيضا ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقا طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحا على مصراعيه خلافا لدعواك .ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازما أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وانما لمحك حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافه ما ، وسط الحديقة ، راكضاً نحو السور ...

وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يتم كلامه ، وأعول يقول خارجا عن طوره :

ـ هذا كذب . هذا كذب دنىء ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحا ، لأن الباب كان مغلقا فى تلك اللحظة ... انه يكذب !

ـ من واجبى أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جدا فى هذه النقطه ، وان شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصراً عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مرارا كثيرة .

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكدا كلام زميله بشىء من الحماسة :

ـ أنا نفسى استجوبته .

فاستأنف ميتيا كلامه صارخا :

ـ هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية تستهدف الايقاع بى، أو أن يكون أوهام رجل يهذى. لا بد أن العجوز قد رأى حلما أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه ... فقصَّ عليكم ما رآه فى الحلم حين صحا من اغمائه ... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

ـ أتمنى لو أصدِّق ما تقول ، ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحا

بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظه قبل أن يُجرح ، لحظـــة دخوله الحديقة •

ــ هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكره هو الذى يدفعه الى اتهامى ••• لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب ••• أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميتيا مختنقا •

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :

ــ أره الظرف •

فاذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيرا من ورق قوى ، تُرى عليه ثلاثة أختام من شـــمع لم تمس ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ قل القاضى يسأل ميتيا :

ــ هل تعرف هذا ؟

فدمدم ميتيا يقول :

ــ لا شك انه الظرف الذى كان عند أبى ••• الظرف الذى كان يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتـابة ••• هل تسـمح لى بأن أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : « الى حمـــامتى » ، وهنا : « ثلاثة آلاف روبل » •

وصاح ميتيا :

ــ ثلاثة آلاف روبل ••• أرأيتم ؟

ــ طبعا رأينا ••• ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ • كان الظرف ممزقا ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز •

لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق • ثم صاح يقول بغتةً بكل ما أوتى من قوة :

ـ هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق . انه الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه العجوز الظرف . انه هو ، كل شيء واضح الآن !

ـ ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الظرف ، وتعرف انه موضوع تحت الوسادة .

ـ بل كنت أجهل ذلك كل الجهل . لم أر هذا الظرف حتى الآن ، ولم أكن أعلم بوجـوده الا من مسـارات سمردياكـوف ... كان سمر دياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف ... أما أنا فكنت لا أعرف ..

كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس .

ـ عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجودا تحت وسادة المتوفى أبيك . لقد حدّدت بنفسك أنه كان مخبأً تحت الوسادة . معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمّن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

ـ لقد سُجّلت تصريحاتك فى محضر الاستجواب .

ـ سخف ... جنون ! ... لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة .. ولعله كان فى موضع آخر . لقد ذكرت الوسادة مصادفة ... ماذا قال لكم سمر دياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟ تلكم هى النقطه الرئيسـية ! ... أما أنا فقد كذبت عامداً ... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة ، وهأنتم أولاء سوف ... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً ... يخطر بباله أن يقولها ... لقد كان سـمردياكوف وحـده عـارفاً بالأمر ، ولم يكن

يعرفه أحد سواه ! رفض أن يكشف لى عن المخبأ ، حتى أنا رفض أن يكشف لى عن المخبأ • انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار •

كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت عباراته مفككةً غير متماسكة ولا منسجمة من فرط الانفعال •

ـ افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة ! ••• لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً فى الحديقة بلا حراك • أصبح كل شيء واضحاً ••• قرع الباب بالاشارة المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب ••• ذلك أنه الشخص الوحيد الذى كان على علمٍ بالاشارات التى ما كان لأبى أن يفتح الباب لولا أن سمعها

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونه نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته :

ـ يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى اليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحا من قبل ، بينما كنت أنت ما تزال فى المكان ، أعنى فى الحديقة •••

قال ميتيا متلعثماً :

ـ الباب •• الباب •••

وسكت ، وحدّق الى وكيل النيابة بنظرة متجهمة • ثم تهالك على الكرسى كالمنهار • وساد صمت • ثم هتف يقول زائغ الوجه :

ـ نعم •• الباب ! •• كان هذا شبحاً ! الله ضدى ! •••

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

ـ أرأيت ؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمترى فيدوروفتش • هناك من

جهــة أولى هذه الشــهادة القوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرنا ، أعنى الشــهادة بأن الباب كان مفتوحا وأنك هربت منه • وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يُفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات • فماذا نصدق وعلى أى شىء نستند ؟ هلاّ قلت لى ••• فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدوانا ، أننا أناس مستهزئون باردون مستهترون ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفســك فى مكاننا ••• وحاول أن تفهمنا أنت أيضا •••

كان ميتيا مضطربا • وشحب لونه • ثم هتف يقول فجأة :

ـ طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلعكم على مصدر المال ••• سأكشف عن عارى ، حتى لاألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل •

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

ـ ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد •••

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب • وكان ميتيا لا يصغى اليه على كل حال •

٧

السر الكبير الذي يحتفظ به ميتيا يتحطم هزاءة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلاً أشد الانفعال :

ـ أيهـــا السادة ••• أريد أن أعترف بالحقيقة كلها ••• كان هذا المبلغ لى أنا •••

استطال وجها وكيل النيـــابة وقاضى التحقيق • لقد خاب فألهما وأخفق انتظارهما ، لأنهما كانا يتوقعان اعترافا يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك نفسها انك فى الساعة الخامسة بعد الظهر •••

ـ سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتى ! ليس هذا هو الموضـــوع الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا ••• أقصد أننى استوليت عليه ، سرقته ، نعم سرقته • هـــو مبلغ ألف وخمسمائة روبل ••• كنت أحملها دائما معى ، معى •••

ـ من أين أخذتها ؟

ـ من صدرى أيها السادة ، من هذا الصدر الذى ترون ••• كنت أخبئها هنا ، معلقة بعنقى ، مخيطة فى خـــرقة ••• هكذا كنت أحمل عارى منذ زمن طويل ، منذ أكثر من شهر •••

ـ ولكن من عند من ••• استوليت ••• على هذا المبلغ ؟

ـ تريدون أن تقولوا من عند من « سرقته » ، أليس كذلك ؟ سمّوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلاً أننى سرقت هذا المال ، أننى « استوليت » عليه اذا كنتم تؤثرون هذا التعبير • وأنا أرى أنه سرقة • وأمس مساء ، اكتملت السرقة •

ـ أمس مساء ؟ ولكنك قلت انك ••• حصلت على هذا المـــال منذ شهر •

ـ نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمئنوا ! لم أسرقه من عنـــد أبى ، بل من عنـــدها • دعونى أروى لـــكم الوقائع دون أن تقاطعونى • انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم ، هل تفهمون ؟ منذ شهر ، نعم منذ شهر استدعتنى كاترين ايفانوفنا فرخوفتزيفا ، خطيبتى السابقة •• هل تعرفونها ؟

ـ كيف لا ؟

ـ أعلم أنكم تعرفونها • هذه انسانة ذات نفس نبيلة ، لا تضارعها فى نبلها أحد ••• ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل ••• طويل جداً ••• وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال ••• هناك أسباب تحملها على كرهى •

سأله القاضى مندهشاً :

ـ كاترين ايفانوفنا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً •

قال ميتيا :

ـ أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقانى حين ذكرت اسمها هنا ••• نعم ، كنت أعلم انهـــا تكرهنى ••• منـذ زمن طويل ••• منذ اليوم الأول ، فى مسكنها هناك ••• ولكن كفى ! كفى حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء ، ولا داعى الى ذكر هذه الأشياء على كل حال •• يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتنى منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتنى بأن أرسلها الى أختها والى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟) •• وأنا ••• كانت تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ، كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى •• الخلاصة •• هى اللحظة التى كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها قد أحببتها «هى» •• امرأة هذا اليوم •• تعلمون ••• تلك التى أودعت تحت ، جروشنكا •• فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال يومين من الاحتفـال والقصف ، نصف ذلك المبـلغ اللعين ، أعنى ألفاً وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر • فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنقى مخيطا فى كيس • وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى القصف هنا • وان الثمانمائة روبل التى وضعتها فى مكان مأمون يا نيقولا بارفينوفتش هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخـرجتها من الكيس أمس •

ـ اسمح لى ! هناك شىء ليس واضحا • فى المرة الماضية ، أعنى فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة • ذلك أمر يعرفه جميع الناس •

ـ من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على ذلك أحداً •

ـ كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل •
ـ صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيته للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه فى كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأننى أنفقت ثلاثة آلاف روبل • وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا • ولكننى، مع ذلك ، لم أنفق فى الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خطت باقى المبلغ فى كيس • تلكم هى الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكثير الذى كان فى حوزتى أمس •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ يشبه هذا أن يكون من المعجزات •

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا :

ـ اسمح لى أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم ••• أعنى : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

ـ لم أفض بذلك الى أحد •

ـ غريب ••• لم تذكره لأحد فى العالم كله ؟

ـ فى العالم كله • لم أذكره لأحد البتة • أؤكد لك ذلك •

ـ فلماذا هذا السكوت ؟ ما هى الأسباب التى دفعتك الى الاحتفاظ به سراً لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله • لقد كشفت لنا أخيرا عن سرّك الذى تراه « مخزياً » الى هذا الحد فى نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس فى الواقع ـ اذا قيس بغيره طبعا ـ الا هفوة صغيرة • ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التى عهد بها اليك واؤتمنت عليها فاحتفظت بها لنفسك •• مؤقتاً ••• أنا متأكد من هذا ••• انما ينبغى أن يُعد طيشاً ، انما ينبغى أن يُعد خطأ مرده الى الخفة ، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبعك

••• فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له •• وأنا أسلم بذلك •••
ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك ••• واعلم على كل
حال أن كثيرا من الناس ، في هذه المدينة ، قد حزروا ، أثناء هذا الشهر ،
أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيفا •
لقد اشتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال ، رغم أنه لا أدلة على ذلك ،
حتى لقد وصلت هذه الشائعة الى أسماعنا ، وعلم بها ميشيل ماكاروفتش
أيضا ، فليس الأمر أمر سر اذن ، وانما هو كلام يقال ويردد في كل
مكان ••• ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات
مرة ، أثناء حديث خاص ، اذا لم يخطىء ظني ، بأن ذلك المبلغ مصدره
الآنسة فرخوفتزيفا ••• لذلك استغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى
هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعي ، اهتماما
خارقا وتضفي عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لا تتكلم
عنه ، سراً مصحوبا بنوع من الهلع الأخلاقي ••• ليس من المعقول أن
يسبب لك سر من هذا النوع عذابا كهذا العذاب ، وأن يبدو لك
الاعتراف به صعبا الى هذا الحد ••• ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر
السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة • وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه
استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ،
ودون كثير من التسلسل أيضا ، وانما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً
في جمل مقطعة •

قال ميتيا بصوت جازم :

ـ ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل ، بل العار
في أنني ادخرت نصف هذا المبلغ ، أي ألفا وخمسمائة روبل !

فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتياظ :

ـ حقا ؟ هلاّ قلت لى أين العار فى أن تحتفظ بنصف المبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزيا ان كنت تؤثر أن تصمه بهذه الصفة ؟ ان الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كبير من الأمانة ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لى لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميتيا يقول :

ـ ذلك بعينه هو الدراما كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب . ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة فى مثل هذه الحالة ... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره !

ـ كلام لا يُفهم !

ـ أستغرب هذا منكم . ولكننى سأشرح ما أريد قوله . اننى أسلّم بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يُفهم . فاصغوا الىّ وتابعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف روبل اؤتمنت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها . ان فى امكانى أن أذهب الى آنستى فى الغد وأن أقول لها : « كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتنى عليها » . ليس هذا خيراً بطبيعة الحال ، وانما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؛ هو سلوك انسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته . ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارقاً ، لن أكون لصاً . لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى اؤتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه . فلنفرض الآن فرضاً ثانياً ، فرضا أفضل من الأول أيضا . تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد . أن رأسى يدور قليلا ... اليكم الفرض الثانى : لنفرض أننى

أنفقت فى القصف نصف المبـــلغ فقط ، أى ألفاً وخمســمائة روبل ، ولنفرض أننى ذهبت اليها فى الغد حاملاً ما بقى من مال ، وقلت لها : « استردى منى المال يا كاتيا لأننى لست الا انسانا تـــافها طائش العقل محموم الرأس . استردى نصف المبلغ الذى ائتمنتنى عليه ، والا فقـد أبدده كما بددت نصفه الأول . اننى لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية! ». فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئتم ، أكون شيطانا وأكون شقيا ، ولكننى لن أكون لصا ، لن أكون قد أصبحت لصا حقيقيا . لأننى لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وانما كنت أحتفظ بها لنفسى . كانت ستدرك هى عندئذ أننى ما دمت أرد اليها نصف المبلغ ، فسأرد اليها النصف الثانى آخر الأمر ، فى يوم من الأيام وأننى قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتى مدخراً قرشا فوق قرش لأجمع المـال الذى أنفقته فى القصف فأرده اليها فى ذات يوم . صحيح أننى أكون فى هذه الحالة رجلا جبانا ، ولكننى لا أكون لصـــا ؛ أكون ما شئتم ، ولكننى لا أكون سارقا على الأقل .

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

ـ لنسلّم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً . اننى أظل أستغرب أن تضفى على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !

ـ بالعكس . ليس هذا الفرق زهيداً بل هو فرق رئيسى . ان أى انسان يمكن أن يكون جبانا ، ولا شك أننا جميعا جبناء بدرجات متفاوتة. ولكن ليس كل انسان لصاً . لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المــرء لصاً . أحسب أننى لا أجيد التعبير لأننى تعوزنى الرهافة ... ولــكن اللص أحقر الحقراء وأدنأ الأوغاد . تلكم هى قناعتى العميقة ! اصــغوا الىّ . لقد حملت هذا المال فى عنقى مدة أربعة أسابيع ، وكنت أســتطيع

فى كل لحظة أن أذهب فأرد اليها هذا المال ، فلو فعلت لمـــا كنت وغداً حقيرا ، أما وأننى لم أستطع أن أتخذ هـــذا القرار ، فذلك هو الأمر الخطير ! كنت كلّ يوم أفكر فأقول لنفسى : « فرد أيها الشفى ، يجب أن ترد المال » • ولكن القرار لم يجىء ، وطالت القضية شهراً بأكمله • فما رأيكم ؟ ألعلكم ترون هذا جميلا ؟

أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

ــ أعترف بأن ذلك شر • أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى أن أجحده • ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هـــذه الفروق ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى جوهر القضية • لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن سؤالى ، السبب الذى دفعك الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه فى القصف وتحتفظ بالنصف الثانى معك • ماذا كان هدفك من ذلك ، وعلى أى غرض وقفت هـــذه الألف وخمسمائة روبل التى احتفظت بها ؟ اننى أصرّ على هذا السؤال يا دمترى فيدوروفتش !

صاح ميتيا وهو يلطم جبينه :

ــ ها •• ولكن •• هذا صحيح •• معذرة •• اننى أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر • لقد نسيت أن أفعل ! سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون • ذلك أن العار كله يكمن هنا • اسمعوا : لقد كان العجوز ، المتوفى ، يلاحق أجـــرافين ألكسندروفنا بالحاحه ولجاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة • وكنت أتخيل فى ذلك الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أتختارنى أم تختاره ، فكنت أتساءل كل يوم : « ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن تعذيبى وصارحتنى قائلة : أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر ••• خذنى الى مكان بعيد ، الى أبعد مكان تســـتطيع أن تأخذنى اليه ! » • كنت

أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبى الا بضعه كوبكات !
أين لنا المال الذى نسافر به ؟ ما عساى فاعلاً حينذاك ؟ كان ذلك هو الهوة ، هو اليأس ! لاحظوا أننى لم أكن قد عرفتها حق معرفتها فى ذلك الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى .
ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، جبانا ، أن أحتفظ بنصف الثلاثه آلاف روبل ، وأن أخيط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلته ببرود ، بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن طويت الكيس وخطته، انما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى . لا ...
لا ... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟

انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضحك صاخب . وقال نيقولا بارفينوفتش ساخرا :

ــ فى رأيى أن قرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعة واحده . أين فى هذا ما يثير السخط ؟

ــ أننى سرقت ، هنا الحقارة ! آه ... يا رب ! ان عجزكم عن الفهم يروعنى ! كنت أثناء حملى هذه الألف وخمسمائة روبل فى عنقى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : « أنت لص ، أنت لص ! ». وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأننى سارق ، انما كنت شرسا تلك الشراسة كلها عنيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير . ذلكم هو السبب فى أننى تشاجرت واقتتلت فى الكاباريه ، وأننى ضربت أبى . وحتى أليوشا أخى لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة فى موضوع الألف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة ! ولاحظوا أيضا اننى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس سليما لا أمسه ، كنت أستطيع أن أقول لنفسى كل يوم وكل ساعة :

« لا يا دمترى فيدوروفنش ، ربما لم تكن لصا ! » • لماذا ؟ لأننى كنت استطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد اليها هذا المال • وأمس فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت أن أفضّ الكيس • أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى • ولكننى منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصا لا يمكن انكار انه لص ؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة • لأننى حين مزقت الكيس قد مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : « أنا جبان ••• هذا صحيح ••• ولكننى لست لصاً » • هل تفهموننى الآن أيها السادة ؟

ــ فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

ــ لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر • قلت لنفسى : « ما قيمة أن اموت شريفا أو وغداً بعد الآن ؟ » • ولكننى أدركت أن الأمرين لا يستويان•• صدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عانيته فى هــذه الليلة الرهيبة لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى اننى سأُحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة • لا ••• صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل الى السجن فى اللحظة التى أخذ فيها حبى ينتصر ، فى اللحظة التى انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى ••• ولكن ذلك لم يكن عذابى الأكبر ••• ولا كان يساوى ، على الأقل ، عذابى من تصور أننى فتحت ذلك الكيس اللعين ، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس ، وأصبحت بهذا لصاً الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقدتهدمت الى أعمق أعماق كيانى ، أعود فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة • لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء جبانا ، وانما تعلمت أيضا أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً ••• لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو

يشعر انه انسان شريف ! ...

كان ميتيا شاحب اللون ، مشدود العضلات ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام .

قال وكيل النيابة بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف ، قال ببطء :

ــ بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أعتقد أنك تبالغ قليلا ، وأن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك.. هيم ... فمثلا : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسانة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعمد الى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟ لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافا مليئـــا بالنبل ، كان فى وسعك أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؛ وانى لعلى يقين ، لمعرفتى بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض اقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى ... خاصة وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة هوخلاكوفا أيضا ! أظن طبعا أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماما .

احمر وجه ميتيا فجأة . ثم هتف يقول مستاء وهو يحدق الى عينى وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع :

ــ هل يعقل أن تتصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضا ، وانبرى يقول له :

ـ أؤكد لك انني جاد كل الجد . لماذا تشك في ذلك ؟

ـ عجيب ! لو قد فعلت ذلك لكان حطةً ما بعدها حطة ! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني تعذيبا رهيبا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شيء ، انني أذعن لارادتكم فأقول لكم كل شيء . سأتيح لكم أن تروا الحقيقة لجهنمية ؛ فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزى ، الى أى جبن يمكن أن ينحدر ضمير انسان . ان هذا الحل الذى ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالى . نعم يا سادتى ! لقد فكرت فى هذا الحل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى كاتيا من فرط حطنى وصغارى ، أذهب اليها فأعترف لها بخيانتى ، ثم أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضنى مالاً لأنفذ هذه الخيانة ، لأسدد النفقات التى كانت ستقتضيها هذه الخيانة . أطلب مالاً منها هى ، كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع غريمتها ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهانتها . ألا انك لمجنون يا سيادة وكيل النيابة !

ـ أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكننى أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالى عنصر الغيرة النسوية هذا اذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة فى هذه الحالة كما تقول ... والحق أن من واجب المرء أن لا يغفل عن عاطفة من هذا النوع ...

كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة .

زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

ـ ان عملاً كهذا العمل يكون فيه من الصغار والحطة والدناءة ، ويبلغ من شدة ما يبعثه فى النفس من اشمئزاز ، أننى قد تراجعت عنه أنا نفسى ! هل تعلمون أنه كان يمكن جدا أن تعطينى ذلك المال ؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطينى ذلك المال ، بدافع الانتقام ، لتتلذذ بالثأر،

لتظهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت سآخذ منها المال ، هذا أكيد ، فأظل طول حياتى ••• أوه ••• رباه ! معذرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هـذه الفكرة الكريهة قد ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافى ••• وعاودتنى أمس مرة أخـرى •• نعم •• اننى أتذكر هـذا •• وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث •

ـ أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله نيقولا بارفينوفتش مستطلعاً ، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله • وختم ميتيا كلامه يقول مظلم الوجه :

ـ لقد قدمت اليكم اعترافاً رهيباً ، فاقدروه حق قدره أيها السادة ، بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغى لكم أن تعترفوا بقيمته ••• والا ••• اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضمرون لى أى احترام ، انكم تحتقروننى ؟ ولأموتن عندئذ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى لأناس مثلكم • لأطلقن عندئذ رصاصة فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً ؟

هكذا صاح ميتيا مروعاً جداً • فأجاب نيقولا بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا :

ـ لن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن ••• سنسجل انك كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى الآنسة فرخوفتزيفا لتقترض منها هذا المبلغ ••• تلك واقعة هامة جداً بالنسبة الينا يا دمترى فيدوروفتش ••• صدقنى ••• هذه التفاصيل كلها هامة ••• ولا سيما بالنسبة اليك ، اليك أنت •

هنف ميتيا يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى متوسلاً :
ـ أضرع اليكم يا سادتى ! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن ، اعدلوا عنه من باب الحياء والخفر على الأقل ! لقد فتحت لكم نفسى ، فاذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامى . آه ... رباه !
قال ذلك وأخفى وجهه بيديه كمداً وكرباً وقنوطاً !
فتدخل وكيل النيابة يقول :
ـ اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيُقرأ عليك بعد ذلك ، وسنعدّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين بما تذكره . ولكن يجب علىّ الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : هل يُعقل فعلاً أن لا يكون أحد ، أن لا يكون أحد على الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيطة فى الكيس ؟ اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً ...
ـ قلت ان أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد . اذن لم تفهموا شيئاً البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .
ـ طيب . لن ألح . سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروى أنت نفسك ، حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً من فوق سطوح المنازل ، أنك قد أنفقت فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة وحتى فى هذه المرة ، قلتَ لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً ...
صاح ميتيا يقول :
ـ الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيجىء مائتا شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود ما تشاءون .

ـ هأنت ذا ترى اذن ٠لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام ٠ وهم جميعاً يؤكدونه اليوم ٠ هل تفهم ماذا تعنى كلمة « جميع الناس » هذه ؟

ـ لا تعنى شيئاً ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى ...

ـ فلماذا « كذبت » ؟ على حد تعبيرك ...

لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً ... أو لأسباب أخرى ... لألمع بالكلام عن قصف بلغ ذلك المبلغ من البذخ ... أو لأنسى ذلك المال المخيط فى الكيس ... نعم ، ذلك هو ، ذلك هو الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب ... أنا أحس هذا ! ... الى الشيطان على كل حال ! انكم تعودون فتلقون علىّ نفس الأسئلة ٠ لقد كذبت وكفى ! هذا كل شىء ٠ هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين :

ـ حقاً ان من الصعب ان يعرف المرء ما قد يدفع الانسان الى الكذب ٠ ولكن قل لى : ماذا كانت ابعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقاً برقبتك ؟ هل كان كبيراً !

ـ لا ، لم يكن كبيرا البتة ٠

ـ ماذا كانت أبعاده تعريباً ؟

ـ أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين ٠

ـ هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

ـ قطع الكيس ؟ أتريد أن تضحك ؟ اننى لا أدرى ما الذى صارت اليه ٠

ـ عجيب ! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك ؟ لقد صرّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع الى منزلك ٠

ـ نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب الى برخوتين •
نزعته عن عنقى وأخرجت منه المال •
ـ فى الظلام ؟
ـ هل كان علىَّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس فى مثل لمح البصر •
ـ فى الشارع ؟ بدون مقص ؟
ـ نعم • تمَّ ذلك فى الميدان اذا لم يخطىء ظنى • ما الداعى الى مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها •
ـ ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟
ـ رميتها •
ـ أين ؟
ـ عجيب ! فى الميدان ! أنَّى لى أن أتذكر المكان الذى رميت فيه الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هذه الأسئلة ؟
ـ ذلك هام جدا يا دمترى فيدوروفتش • ألا تفهم أن هذه الخرقة يمن أن يكون وثيقة اثبات لصالحك ؟ من ساعدك فى خياطة الكيس على المال ، منذ شهر ؟
ـ لم يساعدنى أحد • قمت بذلك وحدى •
ـ أأنت تعرف اذن أن تخيط ؟
ـ لا بد أن يعرف الجندى كيف يخيط • ثم ان هذا لا يحتاج الى أية براعة •
ـ أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على المال ؟
ـ أأنتم تسخرون منى ؟
ـ أبدا • ثق أننا لا نرغب فى الضحك أية رغبة يا دمترى فيدوروفتش !

ـ لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة • لا بد أننى لمتهـا من مكان ما •

ـ كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

ـ أحلف لكم أننى لا أعرف • لعلنى قد مزقت أحد الملابس •

ـ هذا شىء هام • قد نعثر غدا فى منزلك على ذلك اللباس الممزق الذى انتزعت منه قطعة ، وربما كان قميصا من قمصانك ••• ما نوع نسيج تلك الخرقة ؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن ؟

ـ أأنا أعرف ؟ لحظة •• لا ••• لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس •• كانت الخرقه من قماش خاص •• أظن أننى خطت المال فى طاقية لصاحبة المنزل الذى أقيم فيه •

ـ لصاحبة المنزل الذى تقيم فيه •

ـ نعم ، اختلست هذه الطاقيه من عندها ؟

ـ اختلستها ؟

ـ أظن أننى أتذكر فعـلاً أننى فى ذات يوم أخـذت طاقية من عندها • كنت فى حاجة الى خرقة ، ربمـا لأمسح قلمى ، فأخذت تلك الخرقه دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقية لا قيمة لها ••• طاقية عتيقـة من قماش قطنى غُسل وأعيد غسله مائة مرة ••• وظلت الطاقية ملقاة فى غرفتى منـذ ذلك الحين ••• فلمـا أردت أن أخبىء تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الطاقية وخطتها على المال •••

ـ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً ؟

ـ لا أدرى هل هذه الذكرى واضحة جداً • يخيـَّل الىّ انها الطاقية ••• ولكن ما قيمة هذا !

ـ فى هذه الحالة ستستطيع صـاحبة المنزل أن تذكر انها افتقدت طاقية ، أليس كذلك ؟

ـ لا ... أبداً . انها لم تلاحظ غياب الطاقيه . تلك خرقة عتيقة غير ذات فائدة ...

ـ والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخيط ؟

ـ أتوقف عن الكلام . أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة . كفى !

كذلك حسم ميتيا المناقشة وقد نفد صبره .

ـ انه لغريب حقاً أن تنسى فى أى مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس فى الميدان !

ـ ليس عليكم الا أن تأمروا بكنس الميـــدان غداً ، فربما عثرتم عليه .

بهذا أجاب ميتيا ساخراً . ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :

ـ هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد . اننى لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقوننى ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول . وذلك خطئى أنا لا خطؤكم أنتم : كان علىّ أن أصمت بدلاً من أن أفضى بذات نفسى أمامكم فى غباء وبلاهة . آه ... لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف فكشفت لكم عن سرّى ؟ انكم لا تزيدون على أن تضحكوا من ذلك ، أنا أقرأ هذا فى نظراتكم . أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة . أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتيا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه فى يديه . وصمت وكيل النيابة وقاضى التحقيق . وبعد دقيقة ،رفع ميتيا رأسه ونظر اليهما فارغ العينين . ان قسمات وجهه تعبر فى هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه ؛ وظل جامداً على كرســـيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه . وكان لوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمـكن تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير . لقد دقت السـاعة الثامنة من

الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل • وهذا ميشيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن العرفه مراراً أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد • وان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يبدوان متبعين هما أيضاً الى أقصى حدود التعب • والصباح كالح مكفهر ، والسماء تغطيها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة • وميتيا ينظر من خلال النافذة كالآلة •

قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش :

ـ هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

ـ ما شئت أن تنظر •••

فنهض ميتيا واقترب من النافذة • المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً • وأمام المنزل يُرى طريق قذر ؛ وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تُلمح الكتل السوداء البائسة ، كتل الأكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والحزن • فكر ميتيا فجأة فى « فيبوس ذى الضفائر الذهبية » ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر • فقال فى نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : « هذا صباح كان يناسب مشروعى جداً » ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى جلاديه وصاح :

ـ أيها السادة ، أرى أننى ضعت • ولكن ماذا عنها هى ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معى • انها لا شأن لها بالأمر ؛ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أمس بأنها « مسئولة عن كل شىء » • هى لم ترتكب أى خطيئة ، هى غريبة عن هذه الدرامة كل الغرابة • لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى•• ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

ـ اطمئن عنها يا دمترى فيدوروفتش • ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعونا الى اقلاق الانسانه التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق فى خارج القضية نهائيا ••• وسنعمل من جهتنا كل ما فى وسعنا فى سبيلها • فلا تخش عليها شيئا !

ـ شكراً ياسادتى • كنت أعلم حق العلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء • لقد أزحتم عن صدرى عبئاً ثقيلاً ••• ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد •

ـ لم يبق لنا وقت نضيعه • يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالا، وهذا لا يكون الا بحضورك • لذلك ••

قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ ألا يكون من الأفضل أن نحتسى فنجانا من الشاى أولاً • أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاى !

وتقرر احتساء شىء من الشاى اذا وجد شاى ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميشيل ماكاروفتش الا لطلب الشاى ؟)• وبعد الشاى يُستأنف الاستجواب ويتابَع بلا كلال • أما الافطار بمعنى كلمة الافطار ، أما الافطار مع « الزاكوسكى » * فيؤجل الى ما بعد • واتضح أن هناك شاياً مهيأً بالفعل تحت ، فجىء بالشاى الى الغرفة • رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتناول الكأس التى مدّها اليه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاى بشراهة • كان يبدو مرهقا ارهاقا غريباً• ما كان لليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه • ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الأشياء الموجودة فى الغرفة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات • قال يحدث نفسه : « لحظات ثم أهذى » •

٨

أقوال الشهود. الصبي

بدأ استجواب الشهود . ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتيا . لن نحكي اذن كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة ، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؟ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التي ألقيت على مختلف الأشخاص انما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل : لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمتري فيدوروفتش ، في موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، في الشهر الماضي ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب ، وهل كان معه في الليلة البارحة ، في أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له . حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه .

وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداتهم . تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أي خجل ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من

الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيهـــا كثير من الكرامة والمهابة والوقار • وكان موجزاً فى كلامه ، متحفظا فى أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يســتبقها ، ولكنه أجاب عن كل ســـؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل • وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذى أُنفق فى الشـــهر الماضى لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه « دمترى فيدوروفتش » بلسانه نفسه، وانه يكفى أن يُسألوا عن ذلك • وختم صاحب النزل كلامه بقوله :

ـ لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير •

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :

ـ لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل • من المؤسف أننى لم أحسب، لأننى كنت ثملاً ، ولولا ذلك •••

كان ميتيا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلما مذعنا بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : « هيًّا ••• قولوا ماشئتم •• يستوى عندى كل شىء بعد الآن ! » •

ردّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

ـ لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمترى فيدوروفتش • كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلتقطونه من الأرض • ان هؤلاء الغجر أوغاد ••• ذلك معروف •• هم لصوص خيل ••• وقد طُردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة • لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيديك • ولئن لم أعدّ الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتح لى ذلك، فاننى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيرا من ألف وخمسمائة روبل ، اذا

صدق النظر .. أكثر كثيرا على كل حال ! أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة في حياتنا ... اننا نستطيع نحن أيضا أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق المالية ...

أما عن المبلغ الذى جاء به ميتيا فى الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجـــدل بأن ميتيا ما ان نزل من عربة الترويكا حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل .

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً :

ـ ما هذا يا تريفـون بوريستش ؟ أأنا زعمت بمثل هـــذا القطع والجزم ان معى ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندره. وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه . وبعد ذلك بقليل صحت تقول فى القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، انك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى فى حسابك طبعا . ولقـد سمع كلامك ستيفان وسيمون ، وسمعه بطرس فومتش الذى كان الى جانبك عندئذ ، فلعله يتذكره هو أيضا ...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شـديداً . ان هذه المعـادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف فى المرة الأولى + ثلاثة آلاف فى هذه المرة = ستة آلاف فعلاً .

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفـون بوريستش ، وهمـا ستيفان وسيمون ، واستجوب الحوذى آندره ، واستجوب كذلك بطرس فومتش كالجانوف . فأما الفلاحان والحوذى فقد أيَّدا تصريحات صاحب النزل بلا تردد . وقد سُجِّلت ، بوجه خاص ، التفاصيل التى أوردهـا آندره عن الحديث الذى جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا : « هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، الى جهنم أم الى الجنة ،

وهل سيُغفر له فى السماء أم لا » • وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش فى هذه المناسبة مواهبه الرفيعة فى « النفاذ السيكولوجى » ، فاستقبل ما رواه آندره بابتسامة مفهومة ، وأمر بضم هذا التصريح الى ملف القضية •

واستُدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا فى وجهه التململ والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب • تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنهما التقى بهما مرارا فى المجتمع • وقد بدأ كلامه بقوله « انه يجهل كل شىء عن هذه القضية ، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها » • ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا فى موضوع الألف السادس من الروبلات ، وأنه كان الى جانبه فى تلك اللحظة • فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال : « لا أعرف عن هذا شيئاً » • وأكَّد فى مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشَّا أثناء اللعب بالورق • وذكر كذلك ، بعد الحاح القضاة عليه الحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظى، بعد طرد البولنديين، برضى أجرافين ألكسندروفنا ، وأن أجرافين الكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه • وقد تكلم كالجانوف عن أجـــرافين ألكســندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «جروشنكا».
ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطراره الى الادلاء بشهادته ، فان هيبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل « رواية » ميتيا• وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصُرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاضه •

واستجوب البولنديان أيضا • كانا قد استقرا للنوم فى الغرفة التى حُبسا فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كان يقدِّران أنهما سيستدعيان

للادلاء بشهادتهما . تقدما نحو القضاة برصانة ووقار ، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك . وعُرف عندئذ أن « السيد » الصغير الذى كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظفٌ محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيبريا طبيبا بيطريا . وأن اسمه موزيالوفكتش . أما « السيد » فروبلفسكى فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر » ، وهذا اصطلاح يعنى فى الروسية أنه « خالع أسنان » .
منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميشيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة كان يلقيها عليهما نيقولا بارفينوفتش. كان واضحا أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة ، المنتحى قليلاً ، هو أرفع الشخصيات الموجودة فى الغرفة رتبةً ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : « سيادة الكولونيل » . ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما الى نيقولا بارفينوفتش الا بعد احتجاجات كثيرة من ميشيل ماكاروفتش، مصحوبة بايضاحات وتعليمات. وقد تبيَّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق . عرض «السيد» موزيالوفكتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا ، متكلما بلهجة مسرحية ، مظهرا كثيرا من الحرارة والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هـذا النحو أمامه . فسرعان ما ألحَّ «السيد» موزيالوفكتش على أن يُسجَّل فى المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير» . فصاح ميتيا يقول :

ـ حقير ... نعم ... حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا أننى لا أعبأ بالمحضر . ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك مرة أخرى قائلاً : أنت حقير !

أمر نيقولا بارفينوفتش بتسجيل الاهانة ، ولكنه عرف بعـد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة . دعا

ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة قاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائي من القضيه . وعلى وجه الاجمال ، كان في أقوال «السيدين» البولنديين نقطه لفتت انتباه القاضيين لفتاً خاصاً ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالوفكتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقي وهو ألفان وثلاثمائه روبل ، يدفعه له « منذ صباح الغد في المدينة » . وقد ذكر «السيد» البولندى أن ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملا في موكرويه ، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة . احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح في المدينة. غير أن «السيد» فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه . ففكّر ميتيا قليلاً ، ثم وافق ، مقطباً ، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذى يذكره «السيدان» البولنديان ، وقال انه كان مهتاجا أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام. وهكذا بدا ثابتا الآن (وذلك ما لم يفتهم الاستناد اليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التى صارت الى يدى ميتيا انما هو مخبأ في المدينة ، وربما في موكرويه نفسها . بذلك تبدد ذلك الظرف الذى كان يعرقل الاتهام ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله ، وان تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة . هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التى كان يمكن أن تدافع عن ميتيا . فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع «للسيد» البولندى ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ في الغد ، أجاب ميتيا

جازماً بأنه كان لا ينوى أن يعطى البولندى المبلغ مالاً سائلا ، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه في أراضى تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة هوخلاكوفا . فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص» .

ـ هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلا عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقدا ؟

أجاب ميتيا قائلا بحرارة :

ـ طبعا كان سيقبل . ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل. ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما قبض ستة آلاف . كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو البولنديين، فيجبر العجوز على التخلى لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا !

سُجِّلت أقوال «السيد» موزيالوفكتش طبعا ، بجميع تفاصيلها ، ثم صُرف البولنديان . ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش فى اللعب بالورق . لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكرا لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدّعهما بسفاسف وترهات ، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شىء خلافا فى اللعب بين قاصفين سكارى . ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكا حلالا «للسيدين» البولنديين .

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف . بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شديد الارتباك . كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشنكا ، لاطياً بها كأنما لتحميه . وكان فى كل لحظة ينفجر باكيا ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذى مربعات ، كما روى ذلك ميشيل ماكاروفتش فيما بعد . وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن المرأة الشابة اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه

مرارا . اعترف العجوز دفعةً واحدة ، والدموع في صوته ، أنه يعد نفسه مذنبا لأنه افترض من دمتري فيدوروفتش عشرة روبلات « بسبب شدة فقره » ، وأنه مستعد لردِّها ... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان في يدي ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أي شخص آخر أن ينعم النظر في الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع : « كان في الحزمة نحو عشرين ألف روبل » .

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟

ـ هل رأيت ؟ طبعا رأيت ، ولكنني لم أر عشرين ألفا بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنت زوجتي قريتنا الصغيرة . لقد تباهت أمامي بالمبلغ الذي أُعطيته ، وأذنت لي أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد . كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التي كانت مع دمتري فيدوروفتش .

ولم يطيلوا استجوابه . واستدعيت أخيرا جروشنكا . كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصح . ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلا ، كأنه يريد أن يقول : « لن يحدث اضطراب ! » .

ان ميشيل ما كاروفتش هو الذي أدخل جروشنكا . وقد دخلت عابسةً مقطبة ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسي أشار لها اليه نيقولا بارفينوفتش أمامه . وكانت شاحبة الوجه جدا ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع . والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هي بداية ذلك المرض الطويل الذي أُصيبت به منذ تلك الليلة . وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادىء أن أحدثت في نفوس الجميع أثراً

عظيما • حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشىء • فقد روى فيما بعد ، حين وصف مشاعره فى ندوة من ندوات المجتمع ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك • وقال انه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا « غانية ريفية » • وقد صاح يقول ذات مرة فى مجتمع نسوى : « ان لها أداباً عظيمة ، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً فى نفوس سامعاته ، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق»، فسُرَّ هو بهذا الوصف سرورا عظيما •

حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقا ، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه • سألها نيقولا بارفينوفتش، بعد الاجراءات الشكلية وبعد بضع كلمات تشجيعية ، سألها مترددا بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب « ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمترى فيدوروفتش كارامازوف » ، فأجابته جروشنكا بصـــوت حازم رقيق عذب :

ـ كان أحداً من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله فى بيتى أثناء الشهر الأخير •

وأُلقيت عليهـــا أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب فى كل مرة بصراحة تامة • وهكذا اعترفت بأن ميتيـــا كان قد أعجبها « فى بعض الساعات » ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبته ، وانما كانت تلعب به لعبا « بدافع الخبث المنحط وحـــده » ، كما كانت تلعب « بالعجوز » من جهة أخرى ؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلى والضحك • أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره فى يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت • وأضافت تقول :

ـ ثم اننى قد كانت لى خلال هـــذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف • فقد كنت لا أفكر فيهما ، لأننى كنت أنتظر وصول رجل أعده آثماً فى حقى •• ومهما يكن من أمر ، فاننى أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا فى هذا الشأن ، وليس علىّ أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة •

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هـــذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشنكا عن العناصر الروائية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل • فأيدت جروشنكا أن المال الذى أُنفق في موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل • فلئن لم تعدّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم •

سألها وكيل النيابة :

ـ هل أسرّ اليك بهـــذا الرقم على انفراد أم بحضـــور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضا ، على انفراد وبحضور آخرين •

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

ـ هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟

فأجابت :

ـ بل عدة مرات •

رضى هيبوليت كيريلوفتش عن هـذه التصريحات رضىً عظيما • وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يُعرف ، عدا ذلك ، أن جروشنكا كانت

على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترين ايفانوفنا .

ـ ألم تسمعى أبدا أن المبلغ الذى أُنفق فى القصف فى الشهر الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

ـ لا ، أبدا . لم أسمع هذا فى يوم من الأيام .

واذ طلبوا الى جروشنكا أن تزيد هذه النقطة وضوحا ودقة ، فقد تأدوا بها الى أن تصرح بأن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد . وختمت جروشنكا كلامها قائلة :

ـ وكان يأمل دائما أن يأخذ مالاً من أبيه .

هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها :

ـ هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا متنهدة :

ـ قال ذلك وا أسفاه !

ـ أقاله مرةً واحدة أم قاله مرارا ؟

ـ قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما .

ـ هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

ـ لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل خلقه .

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة .

فصاح ميتيا يقول فجأة :

ـ اسمحوا لى أيها السادة ! هل أستطيع أن أقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافين ألكسندروفنا ؟

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه :

ـ أجرافين الكسندروفنا ، صدقينى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه . فنهضت جروشنكا ، ورسمت اشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى أيقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

ـ الحمد لله !

ثم أضافت تقول مخاطبة نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود تجلس :

ـ ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعباً أو عناداً ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره. سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين !

قال ميتيا بصوت يهدجه الانفعال :

ـ شكراً أجرافين ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى .

وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشنكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحدها ، بأنه « سرقه » من

كاترين ايفانوفنا ، وانها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ الغد . فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترين ايفانوفنا ـ أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى ـ أجابت بأن ميتيا قد تكلم من الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشهر الماضى ، وأن هذا ما فهمته هى من كلامه .

هنا انتهى استجواب جروشنكا . وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيىء لها خفراً ، فانه سوف يسعده أن ...

فقاطعته جروشنكا تقول وهى تنحنى انحناءة توديع يسيرة :

ـ أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى البقاء فى صحبة هذا العجوز المسكين ، هذا الملاك الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت ، اذا أذنتم بذلك ، ريثما تقرروا مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشنكا من الغرفة . كان ميتيا هادئاً ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسميا شديدا كان يغزوه شيئا بعد شىء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؟ ولم يكن قد بقى شهود يستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة . فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فيرى فى منامه حلماً غريبا لا يتفق مع هذه الظروف فى شىء من الأشياء ـ رأى نفسه فى عربة

تجتاز سهوباً فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطا ، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذيا • ان ميتيا يشعر ببرد • هــذه أوائل شهر تشرين الأول (نوفمبر) • الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما ان تلامس الأرض حتى تذوب • الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوّحاً بسوطه • ان له لحية حمراء طويلة جدا • ما هو بالعجوز • قد يكون فى الخمسين من عمره • انه فلاح بسيط يرتدى قفطانا فقيرا أشهب • وهذه ضيعة صغيرة تتراءى فى مكان قريب • ان الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها الا هياكل محترقة • وعند مخرج الضيعة تصطف نساء ، تصطف كثرة من النساء • انهن هزيلات هزالا رهيبا • وجوههن بلون التراب • بينهن واحــدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطـــريق • هى امرأة بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين • وجهها مستطيل جاف• وعلى ذراعيها طفل يبكى• لا شك أن ثدييها قد نضبا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن • الطفل يبكى، وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، ماداً ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتــين البائستين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد •

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة :

ـ لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوذى :

ـ الصبى هو الذى يبكى •

فوجىء ميتيا من قول الفلاح : « الصبى » ، بدلا من أن يقول : « الطفل » • أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية • ان فى كلمة « الصبى » من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة « الطفل » •

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله :

ـ ولكن لماذا يبكى ؟ لماذا ذراعاه عاريتان ؟ لماذا لا يغطون ذراعيه؟
قال الفلاح :
ـ الصبى قد تخدر من البرد ؟ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه .
عَنَّدَ ميتيا فظل يسأل فى غباء :
ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟
ـ هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ، فهن يستجدين .
قال ميتيا وكأنه لا يفلح فى أن يفهم :
ـ لا ، لا . قل لى : لماذا هن هنا ، تلك الأمهات اللواتى احترقت دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبى يبكى ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العرى ؟ نعم ، لماذا لا يتعانقن جميعا ، لماذا لا يرتمى بعضهن فى أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن الطفل ؟

ان ميتيا يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية الى القائها ، ويعلم أنها يجب أن تلقى . وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تشب فى قلبه ، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل ، وهو يريد أن يبكى ، ويتمنى أن يفعل شيئاً ليساعدهن جميعا ، حتى يكف الصبى عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر ، وحتى لا يبكى أحد فى هذا العالم بعد اليوم . انه يريد أن يعمل شيئاً على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أنْ يحسب حساب أى شىء ، مندفعا ذلك الاندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف .

ـ سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى الحياة .

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر .
اشتعل قلبه مندفعا نحو ضياء بعيد . انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ، أن يمشى ، أن يمشى بلا توقف نحو ذلك الضياء الذى يناديه ، أن يسافر حالا ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !

هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة ، كأنه يصحو من غيبوبة :

ـ أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضىء وجهه .

كان نيقولا بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه . أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر . ولم ينتبه أى انتباه الى كلام نيقولا بارفينوفتش ، لأنه لاحظ أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الحقيبة مهدود القوى .
هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفى صوته دموع ، كأنه قد مُنّ عليه بفضل عظيم :

ـ من وضع وسادة تحت رأسى ؟ من عطف علىّ هذا العطف النبيل ؟

غير أن الانسان الذى قام بمبادرة العطف النبيلة هذه قد ظل مجهولا . لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار الوسادة . أحس ميتيا بتأثر شديد يرقرق الدموع فى العينين . واقترب من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاءون أن يضع توقيعه عليه .

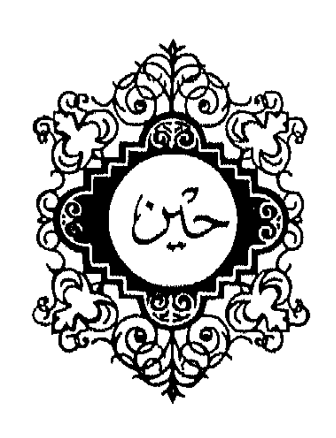
وقال بصوت غريب :

ـ رأيت حلماً جميلا يا سادتى .

ان قسمات وجهه لا تعبر الآن عما كانت تعبر عنه أثناء الليل . لكأنه قد بدّل انسانا آخر . ان محيّاه غارق فى ضياء مشرق .

٩

اقتياد ميتيا



حين تمَّ توقيع المحضر التفت نيقولا بارفينوفتش نحو ميتيا فى أبهة ، وقرأ عليه نص « قرار » يتضمن أنه في يوم كذا ، سنة كذا ، وفى مكان كذا ، استجوب قاضى التحقيــق فلانا (أى ميتيا) ؛ وحيث أن المتهم ، رغم انكاره التهمة المنسوبة اليه ، لم يكن قادرا على أن يبرىء نفسه ؛ ونظراً للتهم المنسوبة اليه من الشــهود (وُتليت قائمــة بأسماء الشهود) ، ونظرا لظروف القضية ، فقد قرر قاضى التحقيــق ، بالاستناد الى مواد القانون (وُتليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن.. حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة ، الخ .

الخلاصة : أُعلم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن فى مكان ليست الاقامة فيه بالممتعة . وقد أصغى ميتيا الى قراءة هــذه الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلا :

ــ ليكن ما تشاءون يا سادتى ... لست أؤاخذكم ، أنا مستعد ... اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان فى وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم.

فشرح له نيقــولا بارفينوفتش ، فى لين ورفــق ، أن موريس مافريكيفتش الذى كان فى المكان بما يشبه المصادفة، هو الذى سيقتاده .

هتف ميتيا يقول فجأة فى سورة جامحة لا تقاوم ، متجهاً بكلامه الى جميع الحضور فى القاعة :

ـ لحظة يا سادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مفترسة، نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضّع ، ولكننى أنا ـ أقول هذا جهارا على رءوس الأشهاد هنا ـ أنذل الناس ، وأدنأهم طراً . اننى أسلّم بهذا . وما من يوم انقضى فى حياتى الا وحلفت فيه ، وأنا ألطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولأقومن عوجى ، ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ الغد . اننى أدرك اليوم أن رجالاً مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن يضربهم القدر ضربة تدمّر كيانهم وتوقظ فى أنفسهم قوى الحقيقة العليا . ما كان لى أبداً ، أبداً ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصاعقة قد نزلت علىّ . وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تلطخ به شرفى أمام الناس . أريد أن أتألم ، وأن أتطهر بالألم . لأننى سأفدى نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحا أيها السادة ؟ ولكننى أؤكد لكم آخر مرة : أننى لم أسفح دم أبى ! اننى أقبل العقاب لا على قتله، بل على أننى أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية ... ولكننى سأكافح لدفع التهمة عن نفسى ، فاعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر الرب مصيرى . الى اللقاء أيها السادة . واغفروا لى ما ظهر منى من غضب أثناء الاستجواب . آه .. ما كان أغبانى عندئذ ! بعد بضع ثوان لن أكون الا سجينا ؛ ولآخر مرة انما يمد دمترى فيدوروفتش كارامازوف يده اليكم مصافحا مصافحة رجل حر طليق . وانى اذ أودعكم انما أودّع العالم ..

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن نيقولا بارفينوفتش الذى

كان أقرب الحضور اليه ، سحب يده فجأة بحـــركة تشـبه أن تكون متشنجة • فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجا :

ـ لم ينته التحقيق • وسنستأنفه في المدينة • وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك • لقد كنت أميـــل دائما يا دمتري فيدوروفتش الى أن أعدك انسانا عاثر الحظ ان صح التعبير ، لا انسانا مجرما ••• ونحن جميعا مستعدون ـ اذا جاز لي أن أنطـق بلسان الآخرين أيضا ـ لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه ، وا أسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه افراط •

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضـئيل وضع مهابة قصوى ووقار عظيم • وأحس ميتيا فجأة أن هـــذا « الولد الصغير » سيمسكه من ذراعه فينتحي به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير عن « النساء الصغيرات »• هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تومض في ذهن الانسان ، ولو كان هذا الانسان مجرما يُساق الى التعذيب ؟

سأل ميتيا :

ـ سادتي ، أنتم أناس طيبون انسانيون • فهل تسمحون لي بأن أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

ـ طبعا ••• ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة ••• أقصد •• لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود •

ـ لا أرى أي ضير في أن تحضروا اللقاء •

مضى بعضهم يحضر جروشنكا • ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش • انحنت جروشنكا تحيي ميتيا تحيـــة عميقة • وقالت له :

ـ قلتُ انني سأكون لك الى الأبد • سأصــــحبك حيثما تذهب ، مهما يكن مصيرك • استودعك الله ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنبا •

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها •

ـ اغفرى لى يا جروشنكا ، اغفرى لى أننى أحببتك • فسببت لك الضياع بهذا الحب •

أراد ميتيا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجـأة وخرج من الغرفة • وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم يغب عن أنظارهم • وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندره محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان • ان موريس مافريكيفتش ، وهو رجل سمين قصير مغضَّن الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارىء ما ، فهو يغضب ويصيح • وها هو ذا يدعو ميتيا الى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة فى الخشونة . قال ميتيا يحدث نفسه : « حين كنت أسقيه خمراً فى الكاباريه ، كان يبدى غير ما يبدى الآن • » • وظهر تريفون بوريسيتش فى أسفل درجات الباب أيضا • واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس فى ميتيا •

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه :

ـ استودعكم الله أيها الناس الطيبون ! سامحونى !

فترجّعت أصوات تقول له :

ـ اغفر لنا نحن أيضا .

ـ أستودعك الله أنت أيضا يا تريفون بوريستش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت . لعله كان مشغولا جدا، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربة الثانية التى يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد . كان الفلاح القصير الذى كلف بسوق العربة يصرّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدى قفطانه ، أن الدور دور آكيم ، لا دوره هو ، فى القيام بهذه المهمة . ولكن أين آكيم ؟ ان أحداً لم يستطع العثور عليه . لقد بحثوا عنه فى كل مكان . والفلاح القصير ما يزال يصرّ ويتوسل أن ينتظروه مزيدا من الانتظار .

هتف تريفون بوريستش يقول :

ـ ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا موريس مافريكيفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

ـ لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت بها خمرا ، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك .

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكيفتش :

ـ يدهشنى يا موريس مافريكيفتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله .

تدخل ميتيا قائلا :

ـ لماذا هذه العربة الثانية ؟ تكفينا عربة واحـــدة ، ألا تظن ذلك يا موريس مافريكيفتش ؟ اننى لن أتمرد ولن أزعجك فى شىء ! لاحاجة الى خفر من أجلى !

فأجابه موريس مافريكيفتش قائلاً بشراسة :

ـ تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف ذلك بعد • أنا لست رفيقك ، واننى أمنعك من مخاطبتى بصيغة المفــرد• مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمتنع عن اسدائها الىّ فى المستقبل•

كان واضحا أنه يسعده أن يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه •

صمت ميتيا • وكان قد احمر احمرارا شديداً • وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد • لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشهباء مغطاة بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه • تســاءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنج : « أهــذه رعدة حمى ؟ » • وركب موريس مافريكيفتش العربة أخيرا • جلس فى مكانه ثقيلا ، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك• الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التى عهد اليه بها •

ـ استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى انتزع منه هذه الصيحة انتزاعا بغير ارادته •

ظل تريفون بوريستش ساكنا لا يهتز ، واضعا يديه وراء ظهره•

وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظراً اليه نظرة منقلة بالكبرياء و لتعالى زاخرةً بالاستنكار والاستياء .

ودوّى صوت كالتجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدرى أحد من أين :

ـ الوداع يا دمترى فيدوروفتش ، الوداع !

كان كالتجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، ماداً يده الى ميتيا ، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه ، قائلا له :

ـ الوداع أيها الصديق الشهم . لن أنسى كرمك ما حييت ! ولكن العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنت الجلاجل . اقتيد ميتيا .

انسحب كالتجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعا رأسه فى يديه ، وأخذ يبكى . وظل يبكى زمنا طويلا ، كصبى صغير ، لا كشاب فى العشرين من عمره . لقد كان شبه مقتنع ، وا أسفاه ! ، بأن ميتيا قد قتل أباه . فكان يهتف بغير انقطاع ، وهو يشعر بحسرة مرة ولوعة شديدة : « ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد الآن » . وبدا له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهو يتساءل قانطاً : « فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟ » .

حواش

٦ ★ « Sosna Kak So Sna» : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين So Sna بمعنى : « فى الحلم » ٠

٢٤ ★ « أنا الآن فى موقف فاموسوف » : اشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » ، ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية ٠ فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجىء فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل ٠

٢٨ ★ « بقوة عظيمة انجذب » : أغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبهـا سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل أربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم ٠ (وسوف تذكر أيضا فى الصفحة ٣٣ من هذا المجلد) ٠

٣٠ ★ «لأن أمى امرأة نتنة» : اشارة الىمعنى اسم أمه «سمردياشتيايا» (راجع حاشية الصفحة ٢٣٦ من المجلد السابق) ٠

٣١ ★ « نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول هو عم نابوليون الثالث الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠

٤٢ ★ «وريقات الاشجار الطريات النديات» : استعمل دوستويفسكى هذه العبارة مرارا ، وهى مستمدة من قصيدة للشاعر بوشكين فى وصف الربيع ٠

٥١ ★ « اذا كان الله غـير موجود فيجب اختراعه » : هنا استشهاد بعبارة للكاتب الفرنسى فولتير فى « رسـالة الى صانع الخدع

صفحة

السلاث » ، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل : « اذا لم يكن اله ... » .

٥٢ ★ يجب أن نتذكر أن العالم الروسى نيقولاى لوباتشفسكى قد عرض سنة ١٨٢٦ مذهبا جديدا فى «هندسة غير اقليدسية» ، فسبق بذلك أنيشتاين ومهد له .

٥٥ ★ « يوحنا الرحيم » : يخطىء دوستويفسكى هنا ، فلا شك أن المقصود هو « جوليان الرحيم » الذى اتخذه الكاتب الفرنسى فلوبير موضوعا لاحدى قصصه ، وقد قام تورجنيف بترجمة هذه القصة الى اللغة الروسية سنة ١٨٧٧ .

٦٠ ★ ينقل دوستويفسكى هنا نقلا أمينا مضمون وأسلوب النشرة التى أصدرتها « لجنة توزيع الكتب الدينية فى اقليم « فو » بسويسرة ، وعنوان النشرة « جذوة جديدة تنتزع من النار ، أو القصة الحقيقية التى تروى اهتداء وموت لويس فردريك ريشار الذى أعدم بمدينة جنيف فى ١١حزيران يونية ١٨٥٠» . وان تنفيذ عقوبة الاعدام هذه التى أنزلت فى ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات أخرى، منها النشرة التى أصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة ١٨٥٠ ، وعنوانها : «قصة اللحظات الاخيرة التى عاشها لويس فردريك ريشار » .

٦٢ ★ يجب أن نتذكر أن الليوتنان ايلنسكى لم يحكم عليه ، بتهمة قتل أبيه ، عام ١٨٤٨ ، الا بالسجن مع الاشغال الشاقة عشرين سنة .

٦٣ ★ ان الشاعر ن.آ. نكراسوف قد صور هذا المشهد فى قصيدته «تأملات فى هذا الزمان» (١٨٥٩) ، وتحت تأثير هذه القصيدة انا ألف دوستويفسكى حلم راسكولينكوف فى الفصل الخامس من الجزء الاول من روايته « الجريمة والعقاب » .

٦٤ ★ هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج، الذى أحيل الى المحكمة لسوء معاملته ابنته ، ثم برأته هيئة المحلفين بفضل المرافعة الداهية التى ألقاها المحامى فلادبمير سباسوفكتش . وقد وقف

صفحة

دوستويفسكي على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب» (شباط فبراير ١٨٧٦) ٠

٦٦ ★ هما مجلتـــان كانتا تصدران بانتظـــام منـــذ ١٨٦٣ ، وكان دوستويفسكي يقرؤهما فى كثير من الاحيان ٠ غير أن الواقعة التى يذكرها هنـــا مأخوذة عن « مذكرات قن » التى كتبهـــا كاتكوف ، وهو من أنصار السلافية ، ونشرتها مجلة «الرسول الروسى» سنة ١٨٧٧ ٠

٦٦ ★ « محرر الشعب » : هو اللقب الذى أصبح يلقب به الاسكندر الثانى بعد الغاء نظام القنانة فى ١٩ شباط فبراير سنة ١٨٦١

٧٥ ★ وصف دوستويفسكي كتاب فكتور هوجو «أحدب نوتردام» بأنه عمل عبقرى قوى ، وقد نشر فى مجلته «الزمان» أول ترجمة روسية لهذا الكتاب ، سنة ١٨٦٢

٧٥ ★ « وعندنا فى موســـكو » : نظم القسيس جريجـورى عروضا مسرحية فى موسكو منذ سنة ١٦٧٢ ، لبلاط القيصر ألكسى ٠ وقد بدأها بمسرحيتين اقتبستا عن اللغة الالمانية وهما «استير» و « توبى » ٠

٧٦ ★ « نزول العذراء الى الجحيم » : هى قصيدة بيزنطية منـــحولة حظيت برواج كبير فى روسيا ، ولعلها أثرت فى كتاب دانتى « الكوميديا الالهية » ٠

٧٦ ★ « سأعود قريبا » : قول المســـيح فى رؤيا يوحنا الرسول ، (الاصحاح الثانى والعشرون ، ١٢)

٧٧ ★ بيتان من قصـــيدة شيللر « الرغبة » ، نظمها الشاعر سنة ١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف٠جوكوفسكى

٧٧ ★ « ظهرت هرطقة » : اشارة الى حركة «الاصلاح» ٠

٧٨ ★ « أيتها الارض التى ولد فيك ملك السماوات » ، الخ : آخر رباعية من قصيدة للشاعر ف٠اى٠ تيوتشيف عنوانها : «هذه القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة » ، وقـــد كتبها الشاعر

صفحة

سنة ١٨٥٥ ، وان قوله « فى صورة عبد » تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى أهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦)٠

٧٨ ★ « فى نيران رائعة » الخ : بيتان مستمدان من قصيدة للشاعر ألكسندر بوليجايف (١٨٠٤ ــ ١٨٣٨) ٠

٧٨ ★ « تمجيدا للرب » : هو شعار اليسوعيين ٠

٧٨ ★ « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب » : هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : « كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب ، هكذا يكون أيضا مجىء ابن الانسان ») ٠

٨٠ ★ من معجزات المسيح فيما أورده انجيل متى (الاصحاح التاسع، ٢٥) وانجيل مرقص (الاصحاح الخامس ، ٤١) ٠

٨٠ ★ « الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون » : هكذا يصف الشاعر بوشكين مدينة اشبيلية فى قصيدته عن دون جوان ٠

٩٠ ★ « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب ٠٠٠ » : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ ــ ٦) : «ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك » ٠ ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩ــ١١) ٠

٩٢ ★ « ان رسولك الكبير يروى ٠٠٠ » : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ ــ ٨) ٠ يذكر فلاديمير سولوفييف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكى المفضل فى السنين الاخيرة من حياته ٠

٩٤ ★ « فمنذ ثمانية قرون ٠٠ » : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦

٩٨ ★ صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية ٠

١٠٨ ★ « الاب سيرافيكوس » : أطلق هذا الاسم من أسماء القرون

صفحة

الوسطى على القديس بونافانتورا ، وهو يظهر في المشهد الاخير من الجزء الثاني من « فاوست » جوته ٠

١١٤ ★ «تشرماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكي ٠ وقد زار دوستويفسكي هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧

١٣١ ★ « كولاك » : كان اسم « كولاك » يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد ٠

١٣٣ ★ «لياجافي» : نعت معناه «كلب راقد» ٠

١٤٥ ★ « اذا لم تفن حبة القمح ٠٠٠ » : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت ، كما ورد في انجيل يوحنا (الاصحاح الثاني عشر ، ٢٤ ــ ٢٥) ٠ وبهذا القول صدر دوستويفسكي روايته هذه ٠

١٥٤ ★ « أثر الكتب المقدسة في حيـاة الاب زوسيما » : في رسالة تاريخها ٧ آب (أغسطس) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن٠ ليوبيمنوف ، وهو نائب محرر مجـلة « الرسـول الروسي » ، يقـول دوستويفسكي حين بعث اليه بالنص : « ان في هـذا الفصل حماسة وشاعرية ، مثله كمثل بعض تعاليم تيخون زادونسكي، وسذاجة التعبير فيه مستوحاة من الكتاب الذي عنوانه «أسفار الراهب بارثين» ٠

١٥٥ ★ « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » : قالت أرملة دوستويفسكي : « في هـذا الكتاب انمـا تعلم فيدور ميخائيلوفتش القـراءة » ٠ وهو موجـود الآن في متـحف دوستويفسكي بموسكو ٠

١٥٥ ★ « على انى أذكر أن الانفعال الديني الاول٠٠٠ » : تقول أرملة دوستويفسكي: هنا يروي فيدور ميخائيلوفتش ذكريات طفولته الشخصية ، فقد سمعته يتكلم عنها مرارا ٠

١٥٥ ★ « كان يعيش في أرض عوص ٠٠٠ » : اشارة الى الفصل الاول من سفر أيوب ٠

صفحة

١٦٦ ★ « ... فى موضوع حدث كان قد وقع ... » اشارة الى ثورة الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .

٢٤٢ ★ « كانت حياته هادئة وادعة » . يضيف دوستويفسكى هنا حاشية الشرح التالية : « حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الحجرة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية: كانت حياته هادئة وادعة، أما اذا كان الراهب من أصحاب النذور ، من المرتبة الثانية ، فانه يرتل له النشيد « ربنا هب لنا من لدنك عونا وارحمنا » .

٢٦١ ★ « فينيا » : تصغير اسم فيدوسيا .

٢٧٣ ★ فى رسالة تاريخها ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن . ليوبيموف ، كتب دوستويفسكى يقول : « أرجو أن تعننى بتصحيح أسطورة «البصلة» . لقد أخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة ، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة . أنا على الاقل ، لم يسبق لى أن رأيته » .

٢٨٩ ★ « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ... » : من انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ ــ ٩

٣٣٩ ★ « كفى ! » اشارة الى قصة تورجنيف التى تحمل هذا العنوان والتى ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراءه .

٣٤٢ ★ « ستيدرين » : أحد محررى مجلة « المعاصر » ، وهى مجلة لبرالية ، أوقفتها الرقابة عن الصدور سنة ١٨٦٦ .

٣٦٥ ★ « متجر آل بلوتنيكوف » : ذكرت أرملة دوستويفسكى أن زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية ب.ج. بلوتينكوف ، فى مدينة ستارايا روسا ، ليشترى منها مقبلات وحلاوى .

٣٧١ ★ بيتان من الشعر يقولهما أوليس فى المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها « عيد النصر » ، وهى تصور معسكر اليونان بعد أخذ طروادة ، وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة الروسية ف.ج. تيوتشيف سنة ١٨٥١ .

صفحة

٣٨٠ ★ شطران ألفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ورودهما فى الصفحة ٢٥١ من الجزء الاول من هذه الرواية .

٣٩٧ ★ كان موظفو دوائر الدولة فى روسيا يرتدون زيا رسميا .

٤٠٠ ★ « بارين » : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم فى روسيا قبل الثورة (١٩١٧) .

٤٠٣ ★ يا « سيد » : قال البولندى السمين كلمة «سيد» هذه باللغة البولندية . والبولنديان كلاهما سيدور أكسر كلامهما بهذه اللغة البولندية ممزوجة بالفاظ روسية . وكان ينبغى أن نميز البولندى من كلامهما فى هذه الترجمة العربية بأحرف طباعة خاصة لو لم يتعذر ذلك .

٤١٦ ★ « النفوس الميتة » هى رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التى كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكى . أما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية .

٤١٨ ★ «نوزدريف كان اسمه الحقيقى نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظى بكلمتى mozdri ومعناها « المنخران » و moss ومعناها « الأنف » .

٤١٨ ★ « أهذا أنت ... اساعر بوالو ؟... » : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى. آ . كريلوف تستهزىء بما فعله الكونت د . ج. خفوستوف ، وهو شاعر ضعيف ، حين ترجم كتاب بوالو «فن الشعر» ترجمة رديئة .

٤١٩ ★ أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها « قصيدة الى سافو جديدة » ، وفيها يتهكم بالشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا ، آسفا على أنها لم تغرق كما غرقت الاديبة اليونانية الشهيرة سافو .

٤٢٢ ★ « روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ » : ابتداء من سنة ١٧٧٢ انما استردت روسيا بعض الاقاليم ، بعد اقتسام بولنده ثلاث مرات ، وهذه الاقاليم التى سبق أن احتلها اللتوانيون كانت أحد مطالب الثوريين البولنديين .

صفحة

٤٢٧ ★ « قصة السيد بودفيزوكي » : في رسالة الى محرر مجلة « الرسول الروسي » ، كتب دوستويفسكي يقول : «سمعت هذه القصة ثلاث مرات في حياتي ، في أمكنة مختلفة ومن بولنديين مختلفين » ٠

٤٤٦ ★ في رسالة تاريخها ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن٠آ٠ ليوبيموف ، كتب دوستويفسكي يقول: «هذه الاغنية، التقطتها بنفسي ، وهي مثال على الفن القروي الحالي » ٠

٤٦١ ★ « من آخر سيبيريا » : في سيبيريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة ٠

٤٦٤ ★ كانت السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى تحمل على صدورها صفائح معدنية تشير الى رتبها أثناء ممارستها عملها ، وهي تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائي٠

٤٨٠ ★ « معنى بعض الاصلاحات » : اشارة الى اصلاحات الكسندر الثاني في سنوات ١٨٦١ ـ ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائي ، الخ) ٠

٥١٩ ★ « عليك بالصمت قلبي ٠٠٠ » : من قصيدة «الصمت» للشاعر الفيلسوف ف٠ج٠ نيوتشيف (١٨٣٣) ٠

٥٧٤ ★ « الزاكوسكي » : مائدة مقبلات باردة ، مع فودكا ، يصيبها الطاعمون عادة في حجرة مجاورة لقاعة الطعام ، ويمضون اليها قبل الوجبة ٠

فهرس

الصفحة

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

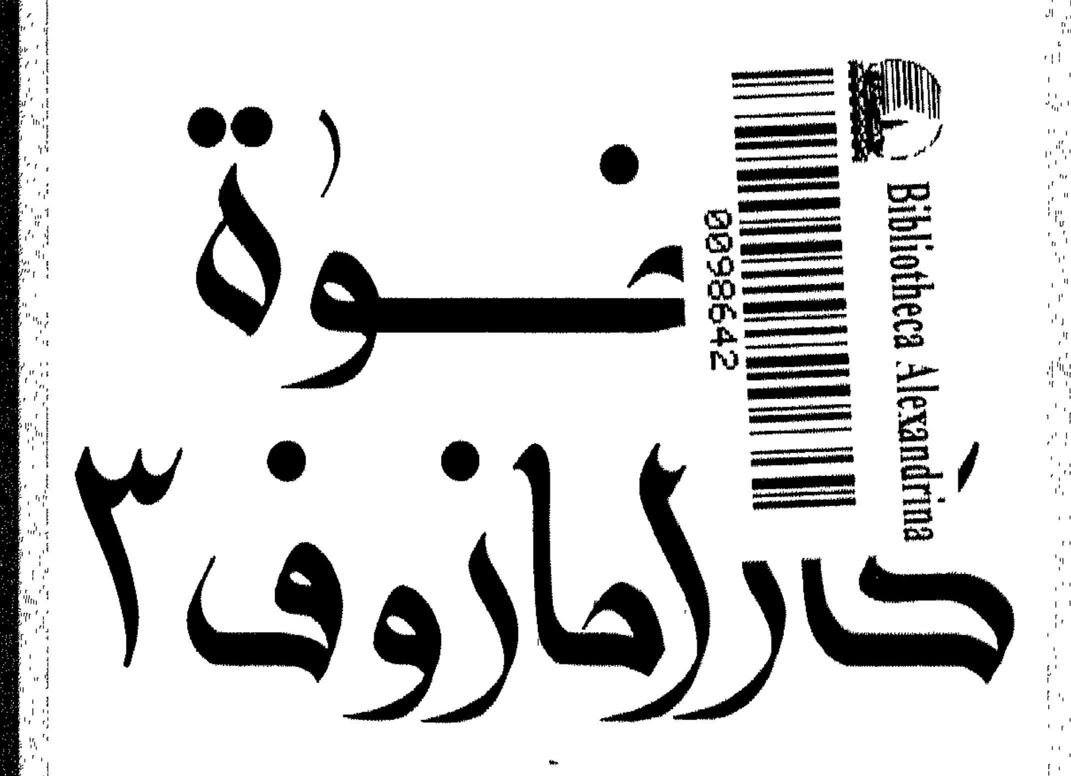
"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٨

ترجمة الدكتور سامي الدروبي







الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثامن عشر

دوستويفسكي : الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية : د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية : دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص. ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف : عماد حليم

طبعت بإشراف : نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

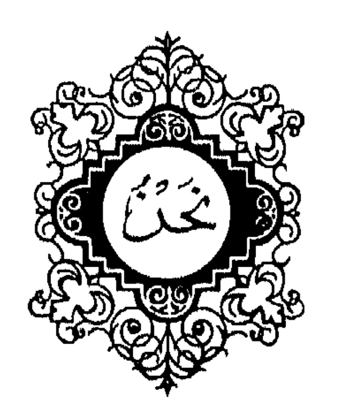
Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الإخوة كارامازوف
٣

الجزء الرابع

الباب العاشر: الصبيان

١
كوليا كراسوتكين



في أول شهر تشرين الثاني (نوفمبر) • درجة البرودة احدى عشرة • المياه تتجمد • وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناعم • فهذه هي الريح الجافة الحادة تسفعه الآن في الشوارع الكالحة من مدينتنا الصغيرة ، فتثيره أكداساً كبيرة على ميدان « السوق » • الصباح يملؤه الضباب ، ولكن الثلج انقطع عن الهطول •

انك ترى ، غير بعيد من الميدان ، قرب متجر آل بلوتنيكوف ، منزلاً صغيراً ، نظيفاً في الداخل والخارج على السواء ، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين • ان الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً (*) قد مات منذ زمن طويل ••• فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة ؛ ولكن زوجته ، وهي امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة ، في نحو الثلاثين من عمرها ، ما تزال تعيش من ايراداتها ، في منزلها النظيف • وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة ، لأن لها طبعاً متواضعاً رقيقاً حنوناً ، وان تكن على شيء من المرح • لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها ، وهي لم تعش معه الا سنة

واحدة ، أى الزمن لذى كان لازماً لانجاب ابنها . ومنذ ذلك الحين ، منذ اليوم الدى ترملت فيه ، لم تعش الا من أجل هذا الصغير ، فوقفت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده . ولكنها ، على حبها ابنها ، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر ، حباً حنوناً لا حدود له ، قد عانت من العذاب ، كما تتصورون ذلك ، أكثر كثيرا مما ذاقت من الفرح ، فهى كل يوم ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد ، أو أن يمرض ، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه ، فيتسلق كرسياً فيسقط ، الخ ... وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية ، ثم حين قُبل بعد ذلك فى المدرسة الثانوية بمدينتنا ، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه فى مذاكرة دروسه . وأسرعت تتعرف كذلك بمدرسيه ، بل وبنسائهم أيضاً ، وتعلقت برفاق صفه ، فهى تدللهم وتتفانى فى بذل جميع الملاطفات لهم ، حتى لا يلحقوا بابنها أية اساءة ، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه . وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً الى السخرية منه بسببها ، فأخذوا يناكدونه ، مطلقين عليه اسم « حبيب أمه » . ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه . انه طفل شجاع ، « قوى قوة هائلة » ، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت فى نفوسهم . وكان حاذقاً بارعاً ، قوى الطبع صلب الارادة جريئاً مغامراً جسوراً . وكان الى الى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق فى الرياضيات وفى التاريخ العام على الأستاذ داردينالوف نفسه. ولكنه رغم أنه ينظر الى الآخرين من علٍ ، يعرف كيف يحافظ ، فى وضعه ، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق . ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه ، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة فى معاملتهم . وكان يعرف خاصةً كيف يحافظ على القصد والاعتدال ، كان قادراً على ضبط

نفسه عند الاقتضـاء ، فهو لا يتجاوز قط ، في علاقاته برؤسائه ، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها ، ولا يُعدّ تخطيها الا تمرداً وترديا في الفوضوية وخروجاً على المشروعية . على أنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر ، ولا يعدم أبداً فرصـة تحقيق هذه الرغبـة ، فينطلق في افعال مرحة طائشة ، كسائر الصبية الصغار ، لا بدافع « الشيطنة » والحق يقال ، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما ، واحداث أثر في النفوس ، ولفت الأنظار اليه ، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة ، والقيام بدور من الأدوار . وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه ، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة ، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغيـاناً واسـتبداداً . وقد خضعت الأم وأذعنت منذ زمن طويل ، وانما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها « لا يحبها كثيراً » ، وكانت لا تطيق هذه الفكرة ولا تسـتطيع احتمالها . كان يتراءى لهـا دائماً أن كوليا « فاتر العاطفة » تجاهها ، وكان يتفق لها أن تبكي بكاء هستريا ، آخذةً عليه هذا الفتور ؛ وكان الفتى يكره هذه « المشاهد » ، فكلما طالبته أمه بمزيد من العاطفة ، ثبت هو مزيداً من الثبات على جمود احساسه وبرود عاطفته . والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً ، وانما كان يفعله على غير ارادة منه ، فتلك كانت طبيعته : كان يحب أمه كثيراً ، ولكنه كان يكره هذا الافراط السخيف في اظهار المشاعر ، كان يكره تلك « العواطف التي تشبه عواطف العجول » ، كما كان يقول بلغته ، لغة التلميذ .

وكان أبوه قد خلّف مكتبة خاصة . وكان كوليا يحب القراءة ، فقرأ عدداً من الكتب المودعة فيالخزانة ذات الزجاج. لم يُقلق هذا أمّه ، غير أنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتـاب بدلاً من أن ينصرف الى اللعب . هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنه هذه . على أن الفتى الذي كان لا يحب أن يتخطى

بعض الحدود في حيله ومكره ، قد أخذ منذ زمن يثرثر ثرثرات ترعب أمه • لم يكن فى سلوكه شيء يجافى الأخلاق ، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشة • من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها فى هذا الصيف نفسه ، أثناء عطلة تموز (يوليو) الى قريبة من قريباتها تسكن فى مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخاً من مدينتنا ، لقضاء أسبوع عندها • ان زوج هذه المرأة موظف فى السكة الحديدية ، فهو يعمل فى محطة القطار بالمنطقة (وهى تلك المحطة نفسها التى سافر منها ايفان فيدوروفتش الى موسكو منذ شهر) • قضى كوليا الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام ، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه فى المدرسة عند عودته• وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين فى المنطقة كان بعضهم يسكن فيما حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن فى منازل تبعد قليلاً عن المحطة • هكذا تألفت منهم عصبة" عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وبينهم اثنان من مدينتنا • وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً ، وتخيلوا انواعاً من العبث والهزل ، ثم اذا بهذه العصبة المرحة تخترع فى اليوم الرابع أو الخامس رهاناً بروبلين على مغامرة عجيبة فظيعة • ان كوليا ، وهو أصغر أفراد العصبة ، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب ، قد اقترح فى ذات يوم ، من قبيل حب الظهور أو من قبيل ابراز الجسارة ، أن يرقد فى احدى الليالى بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار بسرعة عند الساعة الحادية عشرة • لا شك أن كوليا كان قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً وخلص الى هذه النتيجة ، وهى أن فى وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه • ولكن ما أشد ما تحتاج اليه

هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش ! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك ، فهزىء منه الفتيان فى أول الأمر ، ونعتوه بأنه كذاب وبأنه متبجج ، فما زاده ذلك الا اغتياظاً وعناداً ؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر اليه هؤلاء الفتيان الذين هم فى الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية ، وأن يرفضوا أن يعدوه نداً لهم ، وأن يصفوه بأنه « صغير » ، وتلك فى نظره اهانة لا تطاق ! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل الى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ ، ليقوموا بهذه التجربة هنالك ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المدينة قد أخذ يجرى سريعاً . تواعد الفتيان اذن أن يلتقوا فى ذلك المكان . كانت الليلة غير مقمرة ، وكان الظلام دامساً . وفى الساعة المتفق عليها رقد كوليا بين خطى السكة الحديدية . واختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار فى أسفل المنحدر قرب الطريق ، وهم يشعرون بشىء من الانفعال فى أول الأمر ، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك . وسُمعت أخيراً همهمة القطار الذى غادر المحطة . وسطع ضوءان أحمران فى الليل ، وأقبل القطار العملاق يجرى مسرعاً بضجة كدوى الرعد . صاح الصبيان وقد شلّهم الذعر فى مخبئهم ، صاحوا يقولون لكوليا : « أركض ، أركض ، أهرب » ، ولكن كان قد فات الأوان . ووصل القطار ومرّ فوق كوليا . ظل كوليا متمدداً بلا حراك . وهرع اليه الصبيان يحاولون انهاضه . فاذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة ، ثم يمضى يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة . حتى اذا وصل الى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالاغماء ليرعبهم . ولكن الحقيقة هى أنه قد أغمى عليه فعلاً ، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة . ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم « الجسور » . وقد عاد الصبى الى المنزل فى تلك الليلة أصفر الوجه ، وانتابته فى الغد حمى خفيفة . ولكنه كان يشعر بالسعادة ، وكان يضحك ويمزح . ولم يذع

أمر هذا الحادث فوراً ، وانما ذاع بعد عودة كوليا الى مدينتنا ، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً ؛ وتدخلت أم كوليا لدى الادارة ضارعة اليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى ، وظلت تبذل مساعيها ، الى أن تولى المعلم داردانيلوف ، وهو رجل محترم مسموع الكلمة ، أمر الدفاع عن الصبى ، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث . ان داردينالوف هذا ، وهو رجل عازب ما يزال شاباً ، كان قد أُخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل ، وعرض عليها الزواج فى السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً . ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً ، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها . ومع ذلك ظل داردينالوف يقدّر ، على أساس بعض العلائم الخفية ، أن عليه أن لا يفقد الأمل ، وأن الأرملة الشابة الفتانة ، ولكن المبالغة فى عفتها ووسواسها ، لا تخلومن الميل اليه والاعجاب به . وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التى قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة ، وقد أُفهم داردانيلوف ، حين شكر له توسطه فى الأمر ، أنه ليس محظوراً عليه أن يراوده أى أمل . صحيح أن ذلك قد قيل الماعاً بعيداً غامضاً ، ولكن داردانيلوف ، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً ، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة . وكان يحب كوليا ، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف اليه ، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة . ولسنا نبتعد عن الانصاف اذا قلنا ان كوليا نفسه كان يجافيه . لقد كان كوليا يحضّر واجباته المدرسية بكثير من العناية ، وكان ثانى التلاميذ ترتيباً فى صفه ، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه المعلم . وكان جميع رفاقه ، من جهة أخرى ، مقتنعين بأنه يستطيع فى مادة التاريخ العام أن ينافس أستاذه . وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا استاذه فى ذات يوم : « من بنى مدينة طروادة ؟ » ، فاقتصر

داردانيلوف فى الاجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير ، ولم يقل شيئا عمن بنى مدينة طروادة ، وعدّ هذا الســؤال تافهاً لا داعى اليه . وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم بانى طروادة . وكان كوليـا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينـة طروادة من كتاب سماراجدوف * الذى كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه . وأراد التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بنى طروادة ، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سِّره ، وظل محاطاً فى علمه الذى لا سبيل الى معرفته ، بهالةٍ من المهابة والاحترام .

وقد حدث تغير فى موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية . ان السيدة آنا فيدوروفنا (وهذا هو اسم السيدة كراسوتكينا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التى قام بها ابنها ، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة .

وارتاع كوليا من الحالة التى صارت اليها أمه . فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنّ بعد الآن عن هذه الأعمال ، وليمتنعنّ فى المستقبل عن مغامرات من هذا النوع . حلف على ذلك أمام الأيقونة ، وحلف على ذلك أيضا بذكرى أبيه ، كما طلبت أمه . وقد انفجر كوليا « الجسور » عندئذ باكياً بكاء طفل فى السادسة من عمره ، واستسلم لنوبة من « العاطفية » ، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين . ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح « فاتر الشعور » ، « بارد العاطفة » ، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً ، وأكثر تواضعاً ، وأكبر قوة ، وأطول روية . ولكن ما ان انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليـا فى مغامرة جديدة ، فوصل اسمه حتى الى أسماع قاضى الصلح . على أن القضية فى هذه المرة لم تكن أكثر من « شيطنة » مضحكة ليست بذات خطر ، ولم يكن هو نفســه الفاعل

فيها ، وانما جرفه اليها غيره • وسنشير اليها فيما بعد على كل حال• وعاشت أمه مرة أخرى فى مخاوف مستمرة ، وأحس داردانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة • يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يحزر الأحلام الخفية التى تراود استاذه ، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه « العواطف الكاذبة السخيفة » ؛ حتى لقد اتفق له فى الماضى أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون أية مداراة ، ملمعاً الى أنه يعرف كل المعرفة الهدف الذى يريد أن ينتهى اليه داردانيلوف • غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه فى هذه الناحية أيضا • فأصبح لا يسمح لنفسه بشىء من الغمز ولو كان غمزاً مستسراً ، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام ؛ واذ أدركت أمه ، باحساس قلبها المرهف ، الأسباب التى تدفعه الى اتخاذ هذا الموقف الجديد ، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان • ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسمَ داردانيلوف بحضور كوليا عَرَضاً • وكان كوليا فى تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهم الوجه ، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر الى حذاءيه فاحصاً حالتها ، أو ينادى كلبه « برزفونه » غاضباً حانقاً ، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر ، لكنه يخفيه فى غرفته عن رفاقه لا يدرى أحد لماذا ! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب من أجل أن يعلمه أنواعاً شتى من الحيل ؛ واستطاع أخيراً أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً ويكلفه كلفاً قوياً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً الى المدرسة ، ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا الى المنزل ، فمتى رأى « برزفونه » صاحبه أخذ ينط ويتواثب طرباً ، وأخذ يتقرب منه ويتحبب اليه ، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت ، أى طفق يجرى الحركات

التى عُلـِّمها ، وطفق ينفـذها ، ولكنه لا ينفـذها فى هـذه المرة بأمر ، بل ينفذها من تلقاء نفسه ، فى اندفاعة انفعاله وشكرانه .

بالمناسبة : لقد أغفلت أن أقول ان كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك الفتى الذى طعنه بموسى فى وركه الصبىُّ ايليوشا الذى يعرفه القارىء (هو ابن الضابط المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يتكلمون عنه باحتقار .

٢
الأولاد

في ذلك الصباح الذى يملؤه الجليد والضباب من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ، كان كوليا كراسوتكين فى المنزل . اليومُ يومُ أحد ، فلا مدرسة . ودقت الساعة الحادية عشرة . ان كوليا يريد أن يخرج من المنزل حتماً «لأمر هامٍ جداً» . ولكن كوليا كان فى البيت عندئذ وحيداً ، وقد عُهد اليه بحراسة البيت ان صح التعبير ، لأن جميع الكبار قد اضطروا الى الغياب عن المنزل لظروف طارئة لم تكن فى الحسبان . ان منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين ، يفصلها عن الشقة التى تشغلها صاحبة الدار دهليز . وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب ، فهى تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً . وقد توثقت بين المرأتين ، وهما فى سن واحدة ، عرى صداقة قوية . أما الطبيب فكان قد سافر الى أورنبورج منذ أكثر من سنة ، ثم سافر من هناك الى طشقند ، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر ، فلولا الصداقة التى قامت بين الزوجة وبين السيدة كراسوتكينا التى خففت حزنها ، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها فى البكاء . ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب ، كاترين ، غاية سوء الحظ ، ألم يكن من الضرورى أن تبلغها

خادمتها الوحيدة ، فى لحظة مباغتة لم تكن فى الحسبان ، ليلة الأحد ، أنها تتأهب لأن تضع مولوداً ؟ ذلك ما حدث . أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها ، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة . اضطربت زوجة الطبيب للحادث اضطراباً شديداً ، وقررت أن تنقل كاترين ، ما دام فى الوقت متسع ، الى قابلة فى مدينتنا كانت تستقبل فى منزلها سكاناً يبيتون ويطعمون. ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة ، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ ، فمضت بها الى القابلة ومكثت قربها . وفى الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التى تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شيء من الحماية للخادم التى توشك أن تلد . هكذا غابت السيدتان عن المنزل . ومن جهة أخرى ، كانت آجاتى ، خادمة السيدة كراسوتكينا ، قد ذهبت الى السوق . فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً ، الى حين ، بحراسة الدار ومراقبة طفلى زوجة الطبيب ، الصبى والبنت ، اللذين بقيا وحدهما معه فى المنزل . لم يكن دور الحارس يرعب كوليا ، لا سيما وأن الكلب « برزفونه » الى جانبه . ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة فى الدهليز ، وأن يظل «ساكناً» لا يتحرك . وكان كوليا يذهب ويجيء بين الغرف ، فكلما خرج الى الدهليز ، انتفض الحيوان الشهم ، وأدار وجهه الى جهة سيده ، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين ضارعتين ؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً واأسفاه ، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية ، فيسرع الكلب الى التجمد على سكونه المطلوب . والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً الا بالطفلين . صحيح أن حادث كاترين قد أيقظ فى نفسه احتقاراً عميقاً ، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً ، وكان قد جاءهما بكتاب مسل . ان ناستيا * ، وهى الكبرى ، تبلغ من عمرها ثمانى سنين ، وتعرف القراءة . وان أخاها ، وهو أصغر منها

يسنة ، يجد لذة عظيمة فى الاستماع الى القصص التى تقرؤها له • واضح أن فى وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى الى الضحك ، كأن يضعهما فى صف ويلعب معهما لعبة الجنود ، أو لعبة الاختباء ، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بغضاضة ، حتى لقد شاع فى المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان ، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه ، ولكن كوليا قد فنّد هذه التهم ، وقال ان لعبة الحصان تخل بالكرامة حقاً « فى هذا العصر » اذا هو لعبها مع رفاق مثله فى الثالثة عشرة من أعمارهم ، ولكنه انما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً ، وليس من حق أحد أن يسأله حساباً عن عواطفه • لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة • على أن كوليا لم يكن فى هذه المرة منشرح النفس للعب • لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً ، بل وسرية بعض الشيء • والزمن يمضى • وآجاتى التى كان يمكن أن يكل اليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد • لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات ، ففتح باب شقة زوجة الطبيب ، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين فى القراءة تنفيذاً لأمره • فكان الطفلان يبتسمان ابتسامة عريضة صامتة كلما ظهر لهما ، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك • ولكن هموم كوليا فى ذلك النهار كانت أخطر وأكثر من أن يفكر فى تسليتهما واضحاكهما • فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيراً عزم عزماً حازماً جازماً على أن يخرج دون أن ينتظر آجاتى المنحوسة ، اذا هى لم تعد خلال عشر دقائق ، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابه عاقلين هادئين ، وأن لا يخافا ولا يبكيا • وعلى هذا ، ارتدى معطفه الشتوى الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب ، ووضع كيسه المدرسى على كتفه • ورغم التوصيات الملحة التى تسديها اليه أمه بأن لا يخرج فى « مثل هذا البرد » دون أن ينتعل

خفّى المطّاط ، فانه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الخفين بنظرة ازدراء واحتقار • فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج ، ضرب الأرض بذيله ضربتين ، واضطرب وتحرك ، وتقلقل وتدحرج ، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً • ولكن كوليا رأى أن هذا الافراط فى الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط ، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة ، ولم يصفر له منادياً الا حين فتح الباب ، فوثب الحيوان الشهم وقد جُنّ فرحاً ، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا • اجتاز الفتى الدهليز ، ودخل غرفة الطفلين • انهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل ، ولكنهما كفّا عن القراءة ، وكأنهما منهمكان فى مناقشة حامية جداً • كثيراً ما كان يتفق لهما أن تختلف آراؤهما فى تقدير أحداث الحياة اليومية ، وكانت ناستيا هى التى تنتصر فى هذه الخصومات دائماً ، من حيث أنها الكبرى• فاذا لم يشأ كوستيا * أن يعترف بالهزيمة ، احتكم الى كوليا كراسوتكين ، فسرعان ما يكون الرأى الذى يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل فى نظر المتخاصمين كليهما• وبدا على كوليا فى هذه المرة أن الموضوع الذى يدور عليه النقاش بين « الصغيرين » يشد انتباهه ويثير اهتمامه ، فقد وقف فى عتبة الباب يصغى اليهما • فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما فى المناقشة •

قالت ناستيا مزقزقة :

ـ مستحيل ، مستحيل أن أصدّق أن القابلات يجدن الصغار فى حقول الخضار تحت الكرنب ؟ الآن شتاء ، فلا تنبت خضار ، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً الى كاترين ؟

دمدم كوليا يقول لنفسه :

ـ عجيب !

ـ وعلى كل حال ، اذا كانت القابلات تأخذ هؤلاء الأطفال من مكان ما ، فانهن لا يأتين بهن الا الى النساء المتزوجات .

كان كوستيا يحدق الى أخته ، ويصغى بانتباه ، ويبدو عليه التأمل والتفكير . وقال أخيراً بصوت جازم على هدوء :

ـ ما أنت الا غبية يا ناستيا ! كيف يمكن أن يكون لكاترين طفل وهى غير متزوجة ؟

فقالت ناستيا متململة نافدة الصبر :

ـ أنت لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً ! لعل لها زوجاً ولكنه فى السجن . ولذلك كان لها طفل .

سألها كوستيا بهدوء ووقار :

ـ أأنت واثقة من أن زوجها فى السجن ؟

فقاطعته ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول :

ـ أنا أعرف كيف حدث هذا . ليس لها زوج . أنت على حق . ولكنها كانت ترغب فى أن تتزوج ، فأخذت تفكر فى زواجها المقبل ، ففكرت ثم فكرت ، ومن كثرة ما فكرت حصلت على زوج بل على طفل !

قال كوستيا وقد اقتنع كل الاقتناع :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فهذا مختلف كل الاختلاف . ولكن كان ينبغى أن تذكريه لى من قبل ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أحزره .

تدخل كوليا قائلاً :

ـ هيه يا أولاد ! انكم أخطر مما كنت أتصور !

صاح كوستيا يقول :

ـ هه ! هذا « برزفونه » أيضاً !

ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه •

بدأ كوليا يقول وقد بدا فى وجهه الاهتمام الشديد :

ـ اسمعوا يا أولاد ! يجب أن تساعدونى • لا بد أن آجاتى قد كُسرت ساقها ، لأنها لم تعد حتى الآن • ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها • ويجب علىّ حتماً أن أخرج • فهل تأذنون لى أن أنصرف ؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة ، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك الحين باشين باسمين • وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما •

ـ ألن ترتكبوا حماقات أثناء غيابى ؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا أرجلكم ؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة ؟ •

ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق •

ـ اذا وعدتمونى بأن تبقوا عقلاء ، فسوف أريكم شيئاً ، سوف أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقى •

فسرعان ما اطمأن وجها الطفلين • وصاح كوستيا مشرق المحيا :

ـ أرنى هذا المدفع !

دسّ كراسوتكين يده فى كيس المدرسة وسلّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز فوضعه على المائدة •

ـ ها •• ها •• هذا يهمكم ! أنظروا : انه محمول على عجلات !

قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائدة • وأضاف :

ـ ويمكن اطلاق النار منه • يُحشى خردقاً ، فتخرج الطلقة •

ـ هل يمكن القتل به أيضاً ؟

ـ طبعاً ! بهذا المدفع يمكن قتل أى نسان ، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً •

أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود ، وكيف يمكن ادخال الخردق • أراهما فتحة صغيرة فى البرونز تسمى الضوء ، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يندفع الى وراء عند الاطلاق • أصغى اليه الصغيران بفضول شديد ، وأثار خيالهما خاصةً ذلك الاندفاعُ الى وراء •

سألته ناستيا :

ـ هل عندك بارود أيضاً ؟

ـ عندى •

قالت وهى تبتسم ابتسامة ضارعة وتجر كلماتها جراً :

ـ أرنا البارود أيضاً •

فدسّ كراسوتكين يده فى كيسه مرةً أخرى ، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقى ، وورقة لُفّ بها بعض الخردق • حتى لقد مضى فى الملاطفة الى حد فتح القارورة وسكب شىء من البارود فى راحة يده •

ـ انظروا ! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار ، والا حدث انفجار يدمرنا جميعاً •

كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الاثارة •

وأخذ الطفلان يتفحصان البارود فى خشية واحترام يزيدان لذتهما• ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفاً الى الخردق خاصة • قال يسأل :

ـ ألا يحترق الخردق ؟

ـ لا ، لا يمكن أن يشتعل الخردق •

قال كوستيا متوسلاً :

ـ اعطنى بضع حبات من الخردق •

ـ سأعطيك • هاك هذه الحبات • خذها • ولكن لا ترها ل « ماما » ما لم أعد أنا ؛ والا ظنتها باروداً ، فماتت هلعاً ، وجلدتكما كليكما •

أسرعت ناستيا تقول مصححة :

ـ ماما لا تجلدنا قط •

ـ أعرف • ولكننى قلت هذا لجمال الصورة • يجب أن لا تكذبوا أبداً على أمكم ، الا هذه المرة ، بانتظار عودتى • والآن ، يا أولاد ، هل أستطيع أن أنصرف ؟ ألن تبكوا جزعاً أثناء غيابى ؟

قال كوستيا بصوت رخو ، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن :

ـ سـ ••• ـنـ ••• ـبكى ! •••

وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة :

ـ طبعاً سنبكى •

ـ ما أخطركم فى هذه السن يا أولاد ! يا عصافيرى الصغيرة ! سيكون علىّ أن أبقى معكم لا أدرى الى متى ؛ والوقت يمر ملحاً الحاحاً رهيباً وا أسفاه !

قال كوستيا :

ـ أصدر أمرك الى « برزفونه » بالتظاهر بالموت •

ـ لا منـاص • لا بد من التهـرب الى « برزفونه » ! برزفونه : تعال هنا •

أصدر كوليا أوامره الى السكلب ، فأخذ السكلب ينفذ الحركات التي تعلمها • ان برزفونه كلب كثيف الشعر ضخم القامة لا تستطيع أن تحدد لونه ، فهو أشهب أغبر معا ، وهو أعور العين ، مصـلوم الأذن اليسرى ، لا يدرى أحد لماذا• أخذ الكلب يصيت ويثب فرحاً ، ويتبختر ، ويمشي على قائمتيه الخلفيتين ، ويستلقى على ظهره ويتظاهر بالموت • وانه ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة اذا بالباب يُفتح واذا بآجاتى ، الخادمة السمينة الضخمة التي تعمل عند السـيدة كراسـوتكينا ، وهى امرأة مجـدورة الوجه ، فى نحو الأربعين من عمـرها ، اذا بها تظهر فى العتبـة حاملة بيدها شبكة المؤن التى اشترتها من السوق• وقفت آجاتى ونظرت الى الكلب معجبة بينما الشبكة تتدلى من طرف ذراعها اليسرى • ورغم أن كوليا كان ينتظر وصـولها نافد الصبر ، فانه لم يقطع ما كان بسبيله من تمثيل حين رآها ، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له ، فما ان سمع الكلب الصفير حتى وثب واقفاً على قوائمه ، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه •

قالت آجاتى منتشية :

ـ هذا كلب حقاً !

فسألها كوليا بقسوة :

ـ لماذا تأخرت يا مخلوقة نسوية ؟

ـ أنا مخلوقة نسوية ؟ انظروا الى هذا الولد الخايب ؟

ـ خايب ؟

ـ طبعا خايب ! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أو أن لا أتأخر • ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً •••

كذلك قالت آجاتى متذمرة وهى تنهمك قرب الموقد • على أنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ • بالعكس : كان يبدو أنها تجد لذة فى مشاجرة سيدها الفتى المرح •

قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة :

ـ اسمعى يا من عقلك كعقل العصافير • هل تحلفين لى بأقدس ما تقدسين فى هذا العالم ، وبشىء آخر أيضاً ، على أنك ستعتنين بالأولاد أثناء غيابى ، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم ؟ ان علىّ ان أخرج •

فقالت آجاتى مدهوشة ضاحكة :

ـ وعلام أحلف ؟ لسوف أهتم بهم دون يمين أحلفها •

ـ بل يجب أن تحلفى على ذلك بخلاص روحك ! والا لم أخرج•

ـ اذن لا تخرج • هل يضيرنى أن لا تخرج ؟ ثم ان الأفضل أن تمكث فى الدار ، فالبرد فى الخارج شديد يجمّد المياه •

قال كوليا يخاطب الطفلين :

ـ اسمعوا ياأولاد ! ستبقى هذه المرأة معكم الى أن أعود ، أو الى أن تعود أمكم التى كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هى أيضاً • وسوف تهيىء لكم فطوركم • ستطعمينهم ، أليس كذلك يا آجاتى ؟

ـ جائز •

ـ الى اللقاء يا طيورى الصغيرة • اننى أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير •

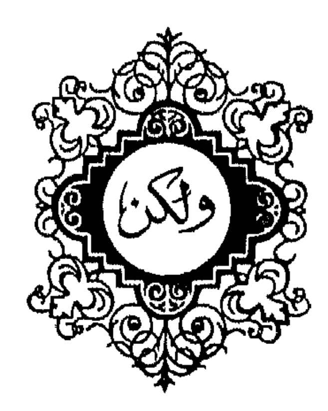
ثم أضاف يقول لآجاتى بصوت خافت وهيئة رزينة وهو يمر أمامها :

ـ أما أنت أيتها المرأة الطيبة فأرجو أن لا تقصى عليهم ، بصدد كاترين ، تلك القصص السخيفة التى تعودتن أن تخترعنها فى مثل هذه الأحوال • فما ينبغى افساد نفوسهم • تعال هنا يا برزفونه !

قالت آجاتى متذمرة وقد فقدت فى هذه المرة صبرها :

ـ اذهب الى الشيطان ! انك تضحكنى بهذه الأوضاع التى تصطنعها ! يحسن أن تتجلد حتى تتعلم كيف تتكلم !

٣
التلميذ



كوليا كان قد كف عن الاصغاء . ها هو ذا يستطيع الخروج أخيراً . وبعد أن اجتاز الباب الكبير ، التفت الى وراء ، وشد كتفيه ، ودمدم يقول : « اف ... ما أشد هذا البرد ! » ، وسار فى أول الأمر قُدُماً على طول الشارع ؛ ثم مال بعد قليل الى زقاق عرضانى يؤدى الى ميدان «السوق» ، ووقف أخيراً أمام الدار التى تقع قبل آخر دار ، فأخرج من جيبه صفارة ، فصفر بها صفيراً قوياً ، كاشارة متفق عليها. ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة ، فها هو ذا صبى أحمر اللون فى الحادية عشرة من عمره ، يهرع نحوه . ان هذا الصبى يرتدى هو أيضاً معطفاً دافئاً ، نظيفاً جداً ، بل وأنيقاً. انه الفتى سموروف ، تلميذ الصف التحضيرى (ان كوليا يسبقه صفين) ، وهو ابن موظف ذى يسار كان أهله قد حظروا عليه أن يعاشر كراسوتكين الذى اشتهر بأنه صبى متهور عنيد مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة . واضح أن سموروف قد تسلل الى الشارع على غير علمٍ من أهله . ان سموروف هذا ـ ولعل القارىء يتذكر ذلك ـ كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا ايليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين . وهو الذى كلم الكسى كارامازوف عن ايليوشا فى تلك المناسبة .

قال سموروف وقد لاح فى وجهه العزم :

ـ اننى أنتظرك منذ ساعة يا كراسكوتين •

واتجه الفتيان نحو ميدان السوق •

قال كوليا :

ـ تأخرت حقاً • والذنب فى تأخرى ذنب بعض الظروف • قل لى : ألن تُجلد لأنك جئت معى ؟

ـ دعك من هـذا الـكلام ! أتظن أننى أُجلد فى البيت ؟ هـل « برزفونه » معك ؟

ـ كما ترى •

ـ هل تنوى اصطحابه أيضاً ؟

ـ طبعاً •

ـ آه ••• ليته « يوتشكا » !

ـ هذا مستحيل • « يوتشكا » لم يبق له وجود • لقد اختفى دون أن يخلف أثراً •

قال سموروف فجأة وهو يتوقف :

ـ خطرت لى فكرة • ما دام ايليوشا يزعم أن « يوتشكا » كان كلباً طويل الشعر ، مثل « برزفونه » هذا ، وكان أشهب اللون أيضاً ، أفلا نستطيع أن نقول له ان هذا « يوتشكا » ؟ لعله يصدق •

ـ اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغى للمرء أن يكذب ، ولو فى سبيل الخير • هذه واحدة • أما الثانية فهى أننى أرجو خاصة أن لا تكون قد تكلمت هناك عن زيارتى •

قال سموروف :

ــ أبداً • ما هذا الكلام ؟ أأنا غبى الى هذه الدرجة من الغباء ؟

ثم أضاف يقول متنهداً :

ــ ولكن « برزفونه » لن يعزّيه • ان أباه ، الكابتن ، هذه الخرفة الرثة البالية ، قد قال لنا انه سيجيئه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً ، وهو يعتقد أن ايليوشا سيتعزى بهذا الكلب • ولكننى أشك فى ذلك •

ــ وكيف حال ايليوشا ؟

ــ حاله سيئة جداً • أظن أنه مصاب بالسل • انه لم يفقد وعيه ، ولكن تنفسه صعب ••• أوه ! ما أشد ما يلقى من عناء فى التنفس ! طلب منذ مدة أن يخرج فى نزهة ، فألبسوه ثيابه وحذاءيه ، فما سار بضع خطوات حتى تهالك • فهتف يقول لأبيه : « قلت لك مراراً يا بابا ان هذين الحذاءين غير صالحين • لقد كنت أجد مشقة فى المشى بهما حتى فى الماضى » • ظن أنه سقط بسبب الحذاءين ، مع أنه سقط بسبب ضعفه• لن يعيش أكثر من أسبوع • ان الدكتور هرتسنشتوبه يراه من حين الى حين • لقد أصبحوا أغنياء من جديد • ان معهم مالاً كثيراً •

ــ أوغاد !

ــ من هم الأوغاد ؟

ــ الأطباء أوغاد ، هم وعلمهم كله • اننى أتكلم على وجه العموم ، ولكننى أخصص أيضاً • أنا لا أؤمن بالطب • الطب لا حاجة اليه • على اننى أريد أن أدرس هذه المشكلة دراسةً أدق • قل لى بانتظار

ذلك : لماذا أنتم حاذقون جميعاً فى العواطف المزعومة المسرفة ؟ يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون اليه ، أليس كذلك ؟

ــ لا ، لا جميع تلاميذ الصف . نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم . ليس لهذا كبير شأن .

ان ألكسى كارامازوف هو الذى يدهشنى أمره خاصةً فى هذه القصة . سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة ، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ فى اصطناع العواطف !

ــ ليس هذا عواطف مزعومة. أنت نفسك تذهب الآن الى ايليوشا ، تذهب اليه لتصالحه ؟

ــ لأصالحه ؟ تضحكنى هذه الكلمة ! ثم اننى لا أسمح لأحد بأن يحلّل أفعالى .

هتف سموروف يقول بحرارة :

ــ ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك ! انه لا يتوقع زيارتك البتة . لماذا رفضت أن تجىء اليه طوال هذه المدة ؟

ــ يا عزيزى الفتى الطيب ، هذا شأنى أنا لا شأنك أنت . أنا أذهب اليه بارادتى ، لأن ذلك يحلو لى . أما أنتم فتذهبون اليه مدفوعين دفعاً من الكسى كارامازوف . ذلك هو الفرق . ثم من قال لك ان فى نيتى أن أصالحه ؟ أنا لا أحب هذه الكلمة .

ــ كلا . نحن لا نذهب اليه بسبب كارامازوف ! لقد ذهب التلاميذ اليه من تلقاء أنفسهم ؛ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف فى أول الأمر فذلك أمر طبيعىّ . ليس فى سلوكنا هذا شىء من حماقة أو من عاطفية مصطنعة ! ذهب اليه واحد منا فى البداية ، ثم فعل ذلك واحد آخر ، وهكذا دواليك . وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا ! لسوف يُجنّ

أبو ايليوشا اذا مات ايليوشا • هو يدرك أن ابنه لن يعيش • وقد سعد سعادة كبيرة بتصالحنا معه • سألنا ايليوشا عن أحوالك ، ولكنه لم يضف الى ذلك شيئاً • سألنا عنك ثم صمت • أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه • ثم ان سلوكه كان دائماً سلوك انسان مختل العقل • ولكنه رجل نبيل جداً ، ولقد أخطأنا في الحكم عليه • ان الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذى ضربه فى ذات يوم ، أقصد ذلك الرجل الذى قتل بعد ذلك أباه •

ـ مهما يكن من أمر فان كارامازوف هذا يظل لغزاً في نظرى • كان في وسعى أن أتعرف عليه منذ زمن طويل ، غير أننى أحب فى بعض الحالات أن أظهر كبريائى • على كل حال ، لقد كونت لنفسى رأياً فيه ، وما زلت فى حاجة الى التثبت من هذا الرأى والى اكماله •

قال كوليـا هذا وصمت وقوراً رصيناً • ولزم سـموروف الصمت أيضاً • واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين باعجاب شـديد ، وما كان له قط أن يعامله معاملة الند للند • وهو الآن يحس بفضول قوى، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة « بارادته » ، فلا بد أن يكون فى الأمر اذن سر • لماذا اتخذ كوليـا هذا القـرار فجـأة ؟ ولماذا يذهب الى ايليوشا فى هذا اليوم على وجه التحديد ؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ميدان السـوق حيث تزدحم فى هذه السـاعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع • هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهن عارضات خبزاً صغيراً وبسكويتاً وخيطاناً • ان الناس فى مدينتنا يطلقون ، بسذاجة ، اسم « المعارض » على أسواق الأحد هذه التى تقام بضع مرات فى السنة • وكان « كاريون » يجرى فى جميع الجهات ، ويسرح ويمرح ، راكضـاً الى اليســار تارة ، والى اليمين تارة أخرى ، متجهاً الى كل موضع فيه شىء يشمه • فاذا لقى كلاباً أخرى بادلها ، بسرور واضح ، حركات التودد

المألوفة ، بوزاً الى بوز ، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب ...

قال كوليا فجأة :

ـ أحب أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية ياسموروف . هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضاً ؟ لا شك فى أنها اذ تفعل ذلك انما تخضع لقانون من قوانين الطبيعة .

ـ نعم ، لقانون مضحك جداً فى رأيى .

ـ كلا ، ما هو بمضحك ، أنت مخطىء ، ليس فى الطبيعة مايضحك ، رغم كل ما قد يظنه الانسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء ! لو كان فى وسع الكلاب أن تفكر وأن تعبِّر لوجدت حتماً فى السلوك الاجتماعى لدى البشر ، سادتهم ، لوجدت فى هذا السلوك من الأمور المضحكة فى نظرها مثل مانجد نحن فى سلوكها ، وربما وجدت أكثر من ذلك أيضاً ! أكرر : لسوف تجد لدينا من المضحكات أكثر مما نجد لديها ، لأننى مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب الحيوانات. تلك فكرة من راكيتين ، وهى فكرة ممتازة . أنا اشتراكى يا سموروف .

سأله سموروف :

ـ ما الاشتراكى ؟

ـ الاشتراكى من يؤمن بأن يصبح جميع البشر متساوين ، وأن تصبح آراؤهم واحدة فى كل شىء ، وأن يلغى الزواج ، وأن يتغير الدين وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد ، وهلّم جرا ... انك لم تبلغ من النضج فى سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور . ما أشد البرد مع ذلك !

ـ صحيح . تبلغ البرودة اثنتى عشرة درجة اليوم . لقد نظر أبى فى الترمومتر منذ قليل .

ـ هل لاحظت يا سموروف أن المرء ، حين تهبط الحرارة فى وسط الشتاء الى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى الى ثمانى عشرة درجة ، لا يتألم من البرد مثلما يتألم منه فى نهاية الخريف حين تتجمد المياه عرضاً ولا تهبط الحرارة الى أكثر من اثنتى عشرة درجة تحت الصفر ، ولا يكون هنالك الا ثلج قليل ، كما هى الحال اليوم ؟ ذلك أن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد . كل شيء فى الانسانية عادة ، والأمر كذلك فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية . ان العادة هى المحرك الكبير للحياة الانسانية . انظر الى هذا الفلاح كم هو مضحك ؟

قال كوليا ذلك وهو يومىء الى فلاح طويل القامة يرتدى معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة . كان الفلاح مدثر اليدين بقفازين قصيرين ، وهو يضرب يديه احداهما بالأخرى نشداناً للدفء ، وقد غشت حبيبات الجليد لحيته الطويلة الحمراء .

قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح :

ـ تجلدت لحيته .

فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة :

ـ لست الوحيد الذى تجلدت لحيته .

قال سموروف قلقاً :

ـ لا تسع الى مشاكسته ومشاجرته .

ـ ليس فى هذا بأس . لن يزعل . هو رجل طيب شهم . الى اللقاء يا متا !

ـ الى اللقاء !

ـ هل اسمك اذن متا فعلاً ؟

ـ طبعاً . أكنت تجهل ذلك ؟

ـ لم أكن أعرف ذلك • وانما سميتك بهذا الاسم مصادفة •

ـ غريب • أأنت تلميذ فى المدرسة ؟

ـ نعم •

ـ ها ••• وهل يجلدونك فى المدرسة ؟

ـ أحياناً •

ـ هل الجلد مؤلم ؟

ـ تقريباً •

ـ كذلك هى الحياة •

بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً •

ـ استودعك الله يا متا !

ـ استودعك الله • أنت غلام طيب !

وتابع الفتيان طريقهما • قال كوليا :

ـ هذا الفلاح لطيف محبب • اننى أحب الحديث مع أفراد الشعب ، ويحلو لى أن أنصفهم •

ـ لماذا كذبت عليه فزعمت له أننا نُجلد فى المدرسة ؟

ـ كان لا بد من مواساته قليلاً •

ـ مواساته ؟ لم أفهم •

ـ اسمع يا سموروف • أنا لا أحب كثيراً أن أُسأل حين لا يُفهم عنى فوراً • هناك أمور يصعب شرحها • ان هذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون فى المدرسة ، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك • ما تلميذ" لا يُجلد ؟ فلو قلت له بفظاظة اننا لا نُجلد فى المدرسة لما فهم

شـيئاً ولأحزنه ذلك • على أنك لا تفهم هؤلاء النـاس • يجب أن تتعلم مخاطبة الشعب •

ـ ولكنني أتوسل اليك أن لا تناكدهم ، والا فقد تقع لنا قصة كالتي وقعت لنا في ذلك اليوم ، مع ذلك الغبي !

ـ هل يخيفك هذا ؟

ـ لا تمزح يا كوليا • هناك أسباب تدفعني الى الخوف • لسـوف يغضب أبي غضباً رهيباً • لقد حظروا عليّ حظراً قاسياً أن أخرج معك•

ـ اطمئن • لن يقع شيء هذه المرة • صباح الخير يا ناتاشا !

كذلك صاح كوليا يحيي بائعة كانت تقف تحت افريز حانوتها • فأجابت المرأة التي تبدو شابة ، أجابت تقول بصوت حاد :

ـ ناتاشا ؟ أتريد أن تضحك ؟ أنا اسمي ماريا •

ـ ماريا ؟ هذا أحسن • استودعك الله •

ـ شوفوا الولد الوقح ! طوله طول البطاطسة ، ثم هو يتعاظم !

قال كوليـا وهو يحـرك يده باشارة عريضـة كأن المرأة هي التي تزعجه :

ـ طيب طيب ••• ستقصين عليّ هذا في يوم الأحد القادم • أنا الآن مشغول !

ـ ليس عندي ما أقصـه عليك يا متبجح ! شوفوا هذا الولد ! أنت الذي ناديتني متحرشا بي ، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح ! ان السـوط هو ما تستحقه أيها الولد البطال ! نحن نعرفك •••

كذلك صرخت ماريا تقول غاضبـة • فانفجـرت البائعات اللواتي

كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها ، انفجرت تضحك • وفجأة ، انبجس من رواق المخازن فى الميدان رجل غاضب حانق • ان هيئته تدل على أنه مستخدم فى محل تجارى ، حتى انه ليس من مدينتنا ، وانما هو مارٌّ بها عرضاً • هو شـاب يرتدى قفطاناً ازرق طويلاً ، وعلى رأسـه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوى ، ووجهه شاحب مجدور • انه يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً ، وها هو ذا يتجه رأساً نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده • قال له صارخاً :

ـ أنا أعرفك ، أنا أعرفك من زمن •••

نظر اليه كوليـا متفرسـاً فيه ، فلم يفلح فى أن يتذكر متى وأين احتك بهذا الرجل • ان مصادماته فى الشـارع مع النـاس أكثر من أن يستطيع تذكرها جميعاً •

سأله كوليا بلهجة ساخرة :

ـ ها ••• تعرفنى ؟

ـ نعم نعم ، أعرفك أعرفك •••

كذلك ردّد الرجل فى غباء •

ـ فى هذا خير لك • أنا مستعجل الآن • استودعك الله •

فصاح المستخدم يقول :

ـ تعـود الى وقاحاتك ؟ تعـــود ؟ أنا أعـرفك يا وقح ! أتعــــود الى وقاحاتك ؟ •

قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس فى الرجل :

ـ ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو أن لا أكون • ليس هذا من شأنك !

ـ كيف ؟ ليس من شأني ؟

ـ ليس من شأنك أنت على كل حال !

ـ من شأن مَنْ اذن ؟ ألا قلت لي !

ـ هو الآن من شأن تريفون نيكيتتش .

ـ اي تريفون نيكيتتش تعني ؟

كذلك سأل الرجل البسيط وقد بدت في وجهه علامات دهشة بلهاء ، ولكن صوته ما يزال غاضباً . نظر اليه كوليا بوقار ، ثم سأله على حين فجأة بقسوة :

ـ هل ذهبت الى « كنيسة الصعود » ؟

ـ أية كنيسة ؟ ولماذا يجب عليّ أن أذهب اليها ؟

هكذا سأل المستخدم متحيراً مرتبكاً . فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة أيضاً :

ـ هل تعرف سابانايف ؟

ـ أي سابانايف ؟ كلا ... لا أعرفه .

قال كوليا يحسم الحوار :

ـ فليأخذك الشيطان اذن !

ثم مال فجأة الى يمين ، وانصرف بخطى سريعة ، كأنه يرفض أن ينزل الى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانايف .

صاح المستخدم يسأله وقد ثاب الى نفسه واضطرب من جديد :

ـ انتظر ، اسمع ، اي سابانايف تعني ؟

ثم التفت فجأة الى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء :

ـ لماذا كلمني عن سابانايف ؟

فانفجرت النساء تضحك •

قالت احداهن :

ـ هذا الولد ماكر •

فكرر المستخدم يسأل ملحاً وهو يحرك يده اليمنى باشارات عريضة :

ـ أى سابانايف ؟ من هذا ؟

قالت احدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة :

ـ أغلب الظن أنه سابانايف الذى كان مستخدماً عند آل كوزمتشيف ••• لا يمكن الا أن يكون هو •••

حدّق اليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة •

وعادت امرأة ثانية تقول :

ـ عند آل كو ••• ز ••• متشيف ؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون !

كان اسمه كوزما وليس تريفون • والتلميذ انما ذكر اسم تريفون نيكيتتش • فليس المقصود اذن سابانايف ذاك نفسه •

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل فى المناقشة فتقول بعد أن ظلت طول الوقت صامتة تصغى بانتباه شديد :

ـ بل أنت مخطئة • لم يكن اسمه تريفون ولا سابانايف ، بل كان اسمه تشيبوف ، ألكسى ايفانوفتش ، أتذكر ذلك جيداً : ألكسى ايفانوفتش تشيبوف •

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة :

ـ هذا صحيح . المقصود هو تشييوف فعلاً .

كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدةً واحدة ، وقد بدت في وجهه أمائر الحيرة والذهول . قال الشاب مهموماً :

ـ ولكن لماذا ، لماذا ألقى عليّ هذا السؤال : « هل تعرف سابانايف ؟ » ؟ هلاّ قلتن لى لماذا ألقى عليّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات ! لا يعلم الا الشيطان ما الذى كان يدور فى رأسه حين كلمنى عن سابانايف ...

فأجابته احداهن بصوت صارم :

ـ ما أنت الا أحمق ! ألم نقل لك ان المقصود ليس سابانايف بل تشييوف ، ألكسى ايفانوفتش تشييوف ؟

ـ تشييوف ؟ أى تشييوف ؟ قولى لى ما دمت تعلمين !

ـ هو رجل طويل القامة طويل الشعر ، كانت له دكته فى السوق هذا الصيف .

ـ ما شأنى أنا بصاحبك تشييوف هذا ؟ هه ؟ قولوا لى أيتها النساء الطيبات !

ـ هل عليّ أنا أن أعرف ما شأنك به ؟

وقالت امرأة أخرى :

ـ هل نعرف نحن ؟ يجب أن تعرف أنت ما الذى يريده منك ، ما دمت تصرخ هذا الصراخ ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن ، يا أهبل ! أم تراك لا تعرف الرجل ؟

ـ أى رجل ؟

ـ تشييوف طبعاً !

ـ شيطان يأخذ تشييوف ، ويأخذك أنت أيضاً معه ! سوف أضربه ، ذلك كل ما أقوله لكُنّ ، لأنه سخر منى .

ـ أأنت تضرب تشييوف ؟

ـ لا ، لا ، ليس تشييوف من سأضربه ، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق ، وانما سأضرب الصبى . أئتيننى به الى هنا ، أئتيننى به حالاً ، حالاً ...

ضجت النساء تضحك ضحكاً صاخباً . أما كوليا فكان قد ابتعد ، وهو يسير الآن مختالاً اختيال المنتصرين ؛ وأما سموروف الذى يسير الى جانبه فانه يلتفت من حين الى حين نحو عصبة البائعات اللواتى كن يلوحن بأيديهن صائحات . ان سموروف مبتهج هو أيضاً ابتهاجاً كبيراً ، ولكنه يخشى أن يجره كوليا الى قصة لا تحمد عقباها .

سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب :

ـ عن أى سابانايف كلمته ؟

ـ أأنا أدرى ؟ سوف يظلون يتشاجرون فى هذا الأمر حتى المساء . لشد ما أحب أن أحيّر وأن أربك الأغبياء من جميع طبقات المجتمع . أنظر ! هذا بليد آخر هناك ، ذلك الفلاح ، هل تراه ؟ كثيراً ما يقال : « أغبى الاغبياء غبى فرنسى » . أما أنا فأرى أن وجوه الروس تكشف أحياناً عن غباوة يحسدون عليها . أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد ؟ اننى أقصد ذلك الفلاح نفسه . ما رأيك ؟

ـ دعه وشأنه يا كوليا . امض بنا !

ـ لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال ! اننى اشعر باندفاع لا سبيل الى مقاومته . هيه ! أنت ... هناك ! صباح الخير أيها الفلاح الطيب !

ها هو ذا الرجل المنـادى ، وهو فلاح قوى البنيـة يزدان وجهه المدوّر الخالى من المكر بلحية متناثرة ، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر الى الفتى •

ـ طيب ، ليكن ، صباح الخير ، اذا كنت لا تعبث !

ـ واذا كنت أعبث ؟

ـ لك ما تشـاء عندئذ ، اعبث قليلاً أيها الفتى • مباح للمـرء أن يتسلى فى هذا العالم • ليس يسىء ذلك الى أحد •

ـ معذرة أيها الطيب ، لقد أردت أن أمزح •

ـ سيغفر الله لك •

ـ وهل تغفر لى أنت ؟

ـ من كل قلبى • امض فى سبيلك !

ـ يبدو لى أنك فلاح ذكى •

ـ أذكى منك على كل حال •

كذلك قال الرجل على غير توقع ، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته •

فأجابه مرتبكاً :

ـ أشك فى ذلك •

ـ بلى بلى ! أنا أذكى منك •

ـ قد يكون هذا حقاً •

ـ أرأيت ؟

ـ استودعك الله أيها الفلاح •

ـ استودعك الله ٠

قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات من صمت :

ـ الفلاحون أنواع ٠ لم أكن أتوقع فى هذه المرة أن أقع على فلاح ذكى ٠ اننى أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاءً لدى أبناء الشعب ٠

وفى بعيد ، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف ٠ فغذّ الفتيان الخطى ، وقطعا بسرعة ، دون كلام تقريباً ، المسافة الكبيرة التى كانت ما تزال تفصلهما عن منزل الكابتن سنيجيريف ٠ حتى اذا صارا على بعد عشرين خطوة منه ، توقف كوليا وأمر سموروف أن يدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج الى الشارع ٠ وقال لسموروف شارحاً :

ـ أريد أولاً أن أتعرف به وأن أتشمم جو المكان ٠

فاعترض سموروف قائلاً :

ـ علام نأتى به الى هنا ؟ الأفضل أن تدخل رأساً ، وسوف يسعدهم كثيراً أن يروك ٠ ما أغرب هذه الفكرة ، أن تتعرف بالرجل على قارعة الطريق فى هذا البرد الشديد !

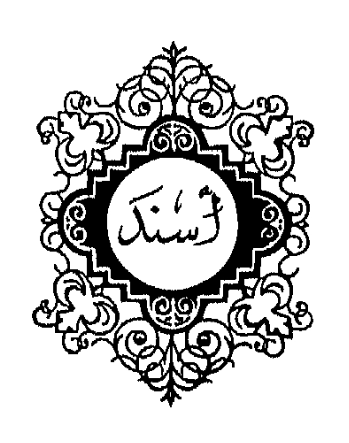
قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع أوضاع السيطرة والتسلط فى معاملة « الصغار ») :

ـ هناك أسباب تدفعنى الى استدعائه الى هنا ، وأنا أعرف ماذا أفعل٠

فأسرع سموروف يطيع الأمر راكضاً الى المنزل ٠

٤

« يوشكا »



كوليا ظهره الى السياج ، مصطنعاً هيئة الوقار ، منتظراً وصول أليوشا . انه يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف الى أليوشا . لطالما سمع التلاميذ يتكلمون عنه ، ولكنه كان حتى الآن ، حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا ، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشيء من الازدراء ، حتى أنه لم يفته ، فى بعض المناسبات ، أن « ينتقد » سلوك أليوشا . الواقع أنه كان فى قرارة نفسه يرغب رغبة قوية فى أن يلقاه : ان شيئا ما ، فى التفاصيل التى تُنقل اليه دائماً عن أليوشا ، كان يحببه به ويجذبه اليه . لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة : ان عليه قبل كل شيء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله . فهو يقول لنفسه : « والا فقد يعدنى صبياً فى الثالثة عشرة ، فيكلمنى كما يكلم سائر هؤلاء الصبية الصغار . لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء ؟ سوف ألقى عليه هذا السؤال فى أول فرصة . ان ما يضايقنى خاصةً هو أننى قصير القامة الى هذا الحد من القصر . ان توزيكوف أصغر منى سناً وأطول منى قامةً . ولكن محياى ينم عن ذكاء . أنا دميم ، أعرف ذلك ؛ ان وجهى ليس وسيماً ، ولكنه يعبّر عن ذكاء . ينبغى لى ، من جهة أخرى ، أن أحرص على أن

لا أسرف فى الافصاح عن نفسى والاعراب عن مشاعرى • لو وثبت الى عنقه ، فمن عسى يظنني ؟ أوه ! يا للخزى ؟ انني لا أجرؤ أن أفكر فى هذا ! ••• » •

كذلك كان يتأمل كوليا ، وهو فريسة اضطراب شديد ، رغم كل ما كان يبذله من جهود فى سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة • وكان قصر قامته خاصةً هو الذى يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه « المحروم من الوسامة » • نعم ، قصر قامته• لقد رسم منذ العام الماضى ، على الجدار ، فى بيته ، خطاً بقلم الرصاص ، يشير الى طول قامته ؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن ، يقف تحت هذا الخط كل شهرين ، مهموم القلب ، قلق البال ، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد • ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد الا ببطء • فكان ذلك يملأ نفسه فى بعض اللحظات كمداً ويأساً . والحق أن قسمات وجهه لم تكن « محرومة من الوسامة » ، بل لقد كانت لطيفة محببة • ان وجهه أبيض شاحب ، فيه بقع احمرار • وان عينيه الشهباوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً ، وتنظران نظرات جريئة ، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة فى بعض الأحيان • وان وجنتيه عريضتان ، وشفتيه صغيرتان دقيقتان ، ولكنهما فى مقابل ذلك حمراوان جداً • أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك ، وكان أقنى • فكان كوليا اذا نظر الى وجهه فى المرآة ، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم : « أنف أفطس ، أفطس تماماً » • وكان يتساءل فى بعض الأحيان ، وقد راوده الشك حتى فى هذا : « هل لى حقاً وجه ذكى ؟ » • يجب أن لا نظن مع ذلك أن همّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره • فان الأمر لم يكن كذلك قط • فمهما تكن اللحظات التى كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية ، فقد كان ينساها بسرعة ، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة « وانما تشغله

عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً كاملاً » ، على حد التعبير الذى كان يحلو له أن يعرّف به نشاطه وعمله .

لم يلبث أليوشا أن ظهر ، فاتجه كوليا بخطى سريعة . فلاحظ كوليا ، من بعد ، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير . تساءل مغتبطاً : « هل يبهجه الى هذه الدرجة أن يرانى ؟ » . يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه فى اللحظة التى تركناه فيها . هو لا يرتدى الآن مسوح الدير ، بل يرتدى بدلةً أنيقة ، ويضع على رأسه لبادة رمادية ، وقد قصّ شعره قصيراً ، وكان هذا الزى يناسبه كثيراً ، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً . وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً ، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً . وكأنه متجمع على نفسه . وقد دُهش كوليا حين رأى أليوشا يخرج الى الشارع بلا معطف ، ولا شك أن أليوشا قد نسى من تعجله أن يرتدى معطفه .

مدّ اليوشا يده الى كوليا بغير تكلف قائلاً له :

ــ هأنت ذا أخيراً ! لقد انتظرنا أن نراك ، بصبر نافد .

ــ أعلم أننى قد تأخرت ، وسأشرح لك أسباب ذلك . على كل حال ، يسعدنى أن أتعرف اليك . لطالما تمنيت أن تتاح لى هذه الفرصة ، لأننى سمعت عنك كثيراً .

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب ، لأن الانفعال قد قطّع أنفاسه .

ــ كنا سنتعارف على كل حال . أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً . ولكنك أسرفت فى التأخر عن المجىء الى هنا ، أسرفت اسرافاً شديداً .

ــ قل لى : كيف هو الآن ؟

ــ حالة ايليوشا سيئة جداً . سيموت لا محالة .

هتف كوليا يقول بحرارة :

ـ كيف هذا ؟ هلاّ اعترفت أن الطب كريه مقيت يا كارامازوف !

ـ هل تعلم أن ايليوشا قد نطق باسمك مراراً ؟ حتى لقد كان فى بعض الأحيان يتكلم عنك فى أحلامه ، وفى لحظات هذيانه أيضاً • واضح جداً أنه كان متعلقاً بك أشد التعلق فى السابق ••• قبل ذلك الحادث ••• حادث الموسى • يبدو أن لهذا سبباً آخر ••• قل لى : أهذا كلبك ؟

ـ نعم ، هو « برزفونه » •

ـ آ ••• أليس هو « يوتشكا » اذن ؟ فهل فُقد « يوتشكا » الى الأبد ؟

كذلك قال أليوشا وهو ينظر الى عينى أليوشا حزيناً •

فقال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة :

ـ أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون فى « يوتشكا » وتحلمون به • انى مطلع على هذا الأمر • اسمع يا كارامازوف ، سأشرح لك هذه القصة• اذا كنت قد جئت الى هنا ، واستدعيتك ، فانما فعلت ذلك لأبسط لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت •

وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة :

ـ فى هذا الربيع انما دخل ايليوشا الصف التحضيرى • وأنت تعلم ما هو الصف التحضيرى : صبية ، أولاد صغار • فسرعان ما أخذوا يعاكسون ايليوشا • وأنا أتقدمه بصفين ، فكنت أرقب تلك المشاهد ، من بُعد طبعاً • رأيت أن الطفل صغير ، هزيل ، ولكنه لا يخضع

ولا يستكين ، حتى لقد يمضى الى حد مقاتلتهم ضرباً بالأيدى • لقد كان ذا انفه وكبرياء ، وكانت عيناه تقدحان شررا • اننى احب الصبيان الذى هم على هذه الشاكلة • وكان الاخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسة بسبب هذه الكبرياء ! وكانت ثيابه خاصه هى التى تحتمل الاستهزاء به حينذاك : سروال مشمور ، حداءان متثائبان ••• كان الصبية يندفعون الى التهكم عليه فرحين ، وكانوا يحاولون اذلاله • أخذ ذلك يسوءنى ، فسرعان ما تدخلت فأدبتهم • اننى أضربهم متى وجب أن أضربهم ، وهم مع ذلك يعبدوننى عبادة ، هل تعرف ذلك يا كارامازوف ؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخراً) • وأنا أعبد الأطفال على كل حال • وأعلم أن عندى فى البيت ، فى هذه اللحظة نفسها ، طفلين أعنى بهما ، وهما اللذان أخرّانى • هكذا كفّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشا ، وأصبحت أحميه • ولقد كان الولد شديد الكبرياء ، صدّقنى ، شديد الكبرياء جداً ، ولكنه أذعن لى أخيراً اذعان عبد ، فهو ينفذ أوامرى ، ويصغى الىّ اصغاءه الى اله ، ويحاول أن يقلدنى فى كل شىء • كان فى أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع الىّ فوراً ، فنمضى نتروض معاً • وكذلك فى أيام الآحاد • والتلاميذ فى مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير ، ولكن تلك آراء سخيفة • لقد كانت معاشرته تسرنى ، أفليس هذا سبباً كافياً ؟ وحاولت أن أعلمه ، أن أنمى ثقافته ، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً الى نفسى ! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار • فأنت تريد اذن أن تحدث أثراً فى الجيل الجديد ، أن تغيره ، أن تكون نافعاً له • اننى اعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التى عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هى التى شاقتنى فيك أكثر من أى شىء آخر • ولكن فلنعد الى الوقائع : لقد أدركت أن الصبى أخذ يصير الى الافراط فى الحساسية ، فى العاطفية • وأنا أكره

أشـد الكره هذه « العواطف التى تشـبه عواطف العجول » ، أكرهها وأمقتها منـذ ولدت ، فاعلم هـذا ! وقد لاحظت عـدا ذلك شـيئاً من التناقض فى وضعه : فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء ، وهو من جهة ثانية مخلص لى اخلاص عبد • كان يطيعنى فى كل أمر خاضعاً ، ثم اذا بعينيه تقدحان على حين فجأة شرراً ، فلا يريد أن يوافقنى ، بل هو يناقش ويماحك ويغضب • كان يتفق لى أن أعرض له بعض الآراء • لن أقول انه كان يعارض عندئذ هذه الآراء ، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفنى أنا شخصياً ، وأنه كان يتمرد ويعصى لأننى كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود • عندئذ قررت ، حتى أربيه ،أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوِّى تحفظى تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بى • كان ذلك من جانبى موقفاً مقصوداً محسوباً ، يتفق ومبادئى • لقد أردت أن أنشىء طبعه ، أن أقوى عزيمته ، أن أُصلِّب ارادته ، أن أخلق منه رجلاً ••• الخلاصة ••• لا شك أنك تفهمنى بنصف كلمة • وفى ذات يوم ، لاحظت فيه اضطراباً غريباً • كان يبدو منهاراً مصعوقاً • وظل على هذه الحال أياماً • أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردُّه الى قلة عاطفتى وحدها ، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأرفع • تساءلت ما عسى تكون الدرامة التى تجرى فى نفسه • ولاحقته بالأسئلة ، فاذا أنا أعرف الحقيقة : لقد تعـرّف ، لا أدرى كيف ، الى سـمردياكوف خادم المرحوم أبيك (الذى كان ما يزال حيـاً فى تلك الآونة) • فعمد سمردياكوف الى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية ، بل قل مزحةً وحشية حقيرة هى أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً الى كلب تائه ، الى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التى تبلع ، دون مضغ ، كل ما يقع تحت أسـنانها ••• وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك • هكذا أعدّا لقمة من خبز ، وألقياها الى « يوتشكا » ذاك

الكلب الضخم الطويل الشعر الذى كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين . هو كلب من تلك الكلاب التى ينسى الناس أن يطعموها ، والتى تقضى النهار كله نابحة على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبى يا كارامازوف ؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله) . انقض الكلب المسكين على لقمة الخبز ، فبلعها ، فسرعان ما أخذ يعول متلوياً من الألم ، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوى على شىء ، آناً متوجعاً . هكذا اختفى ذلك الكلب ، على حسب الرواية التى رواها لى ايليوشا نفسه . لقد اعترف لى ايليوشا بفعلته وهو يبكى ، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقنى متشنجاً ، وما ينفك يكرر قوله : « كان الكلب يركض ويئن ، يركض ويئن .. »، فالى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر !... لاحظت أن عذاب الضمير يضنيه ، وأن الندم يهده هداً . أخذت الأمر مأخذ الجد . كنت حريصاً خاصة على أن أعاقبه على سلوكه السابق ، فعمدت الى الحيلة والمكر ... أعترف لك بذلك . تظاهرت باستياء شديد من فعلته ، استياء أشد كثيراً من استيائى فى الواقع . قلت له : « لقد ارتكبت عملاً حقيراً ، عملاً جباناً ... أنت نذل ... لن أشى بك طبعاً ، ولكننى أنهى الآن علاقات الصداقة بيننا . وسأفكر فى الأمر ، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبى الذى صحبنى الى هنا ، وكان مخلصاً لى على الدوام) هل قررت أن أعيد الصلة بينى وبينك ، أم قررت أن أهجرك الى الأبد فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام » . أحدثت هذه الأقوال فى نفسه أثراً رهيباً . وسرعان ما أحسست — أعترف لك بذلك — أننى أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو واسراف . ولكن ما العمل ؟ لقد كنت أعمل بوحى من اقتناعاتى . وفى الغد ، أرسلت اليه سموروف لأبلغه أننى « لن أكلمه بعد اليوم قط » . تلك هى الاصطلاحات التى نستعملها فى المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين . والحقيقة أننى كنت أريد أن أهجره

بضعة أيام فقط ، ثم أمد اليه يدى حين أرى ندامته . تلك كانت نيتى الجازمة على كل حال . ولكن ماذا تظن أنه حدث ؟ اصغى الى الرسالة التى بلغه اياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً : « أبلغ كراسوتكين أننى سألقى بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس الى جميع الكلاب ، الى جميع الكلاب ! » . قلت لنفسى عندئذ : « ها ... ها ... لقد استيقظت فيه روح التمرد ، فيجب أن تُقمع وتُقهر » . وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً ، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة . وفى تلك الآونة انما وقعت لأبيه تلك الحادثة ، حكايةُ الليفة كما تعلم . انك لتقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف . واذ رأى التلاميذ أننى هجرته فقد هاجموه من جديد ، صائحين له من أجل اغاظته واخراجه عن طوره : « الليفة ، الليفة ، الخ » . كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً ، ذلك أننى أعتقد أنه قد كيلت له الضربات فى ذات مرة . وفى يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها . وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأرقبه . أحلف لك أننى لم أكن قد سخرت منه. بالعكس : لقد أيقظ فى نفسى عندئذ شفقةً كبيرة ، شفقة كبيرة جداً . وكنت أوشك أن أهب الى نجدته . ولكن نظرته التقت بنظرتى فجأة . ولست أدرى ما الذى ظن أنه يقرؤه فى عينىّ ، ولكنه استل موساه بغتةً ، وهجم علىّ ، فأغمد الموسى فى وركى ، هنا ، فوق الساق اليمنى قليلاً . لم أتحرك . أعترف لك يا كارامازوف أننى أبرهن فى بعض الظروف على شجاعة . لم أزد على نظرت اليه باحتقار ، وكانت نظرتى تقول بوضوح : « أهذا كل شيء ؟ ألا تريد أن تضربنى أيضاً ، عرفاناً منك بالصداقة التى حملتها لك ؟ هيّا ، افعل بى ما تشاء ! » . ولكنه أخفى موساه ، وفقد شجاعته فجأة ، وخاف ، ثم لم

يملك زمام نفسه ، فاذا هو ينفجر باكياً ناشجاً • ثم ولى هارباً • لم أش به طبعا • حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بان يكتموا ما وقع بغية ان لا يصل الامر الى مسمع الادارة • ولم أقل لامى شيئاً كذلك ، ولم أقصص عليها الواقعة الا بعد أن التأم الجرح التئاماً تاماً • وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال • وقد علمت بعدئذ أنه فى ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه ، ورماهم بالحجارة ، وعض احدى أصابعك • لا شك أنك تدرك الآن الحالة النفسية التى كان عليها حينذاك • ما العمل ؟ انه ليؤسفنى أننى تصرفت تصرفاً أحمق • فحين مرض لم أزره لأغفر له... أقصد ••• لأتصالح معه ••• وأنا الآن نادم على ذلك • ولكن ينبغى لى أن أقول مع ذلك أن هناك ، فى هذه القضية ، أسباباً دفعتنى الى أن أتصرف كما تصرفت • الخلاصة ••• هذه هى القصة كلها ••• ولكن واضح أننى تصرفت تصرفاً أحمق •••

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد :

ـ أوه ! خسارة أننى لم أعرف قصة علاقاتك بايليوشا ••• والا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبنى اليه • تصور أنه كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه • كنت أجهل أنك عزيز على نفسه الى ذلك الحد • هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على « يوتشكا » ؟ ألم تجده حقاً ؟ ان أبا ايليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب فى المدينة كلها • هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضورى ، قال له مريضاً باكياً : « لئن كنت أتألم يا بابا ، فلأننى قتلت يوتشكا ••• ان الله يعاقبنى » • لا سبيل الى اخراج هذه الفكرة من رأسه ! لو استطعنا على الأقل أن نهتدى الى يوتشكا وأن نريه اياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت ، اذن لبعث حياً من شدة الفرح • ولقد كنا جميعاً نعوّل عليك فى هذا •

سأل كوليا بفضول شديد :

ـ لماذا قدرتم أننى سأعثر على « يوتشكا » ؟ لماذا كنتم تعوّلون علىّ أنا ولا تعولون على أحد غيرى ؟

ـ شاع أنك تبحث عن الكلب وأنك ستجيء به الى ايليوشا متى وجدته • أسمعنا سموروف فى ذات مرة شيئاً من هذا القبيل • ونحن جميعاً نجهد فى أن نقنع ايليوشا بأن « يوتشكا » حى ، بأنه رُئى فى مكان ما • وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدرى من أين حملوه ، فنظر ايليوشا الى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة ، وطلب أن ترد الى الأرنب حريته • فعلنا ذلك • وفى تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً كلباً صغيراً غير مفطوم من كلاب الحراسة • كان الأب يظن أن هذا سيواسى ابنه • ولكننى أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك •••

ـ قل لى أيضاً يا كارامازوف : الى أى نوع من الرجال ينتمى أبوه ؟ اننى لا أعرفه الا بالنظر • فما هو فى رأيك ؟ أهو مهرِّج ؟

ـ لا !••• ان هناك أناساً أوتوا حساسية عميقة ، ولكن القدر قد صعقهم وسحقهم • وما تهريجهم عندئذ الا نوع من الانتقام المرّ الساخر ازاء أولئك الذين لا يجرؤون أن يواجهوهم ولا يجسرون ، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل ، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه • ثق يا كوليا أن هذا التهريج يمكن أن يكون له ، فى بعض الحالات ، أساس تراجيدى جداً • ان أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على ايليوشا • يكفى أن يموت ايليوشا حتى يُجنّ حزناً أو ينتحر • اننى لا أنظر اليه مرة الا وأصبح على مثل اليقين من ذلك •

قال كوليا بلهجة قاطعة :

ـ أفهمك يا كارامازوف • ألاحظ الآن أنك خبير فى معرفة النفس الانسانية •

ـ لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بيوتشكا .

ـ صبراً يا كارامازوف . قد نعثر على ذلك الكلب . أما هذا فهو «برزفونه» . سأتركه فى غرفة ايليوشا ، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذى أتاه به أبوه . اسمع يا كارامازوف . سأذكر لك بعض الأمور . آه ... رباه ! ماذا أفعل ؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً) ... أؤخرك فى هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف ! هأنت ذا ترى مدى أنانيتى ... نحن جميعاً أنانيون ، وا أسفاه !

ـ لا تقلق . صحيح أن الجو بارد . ولكننى لا أصاب بالزكام بسهولة . على أننا نحسن صنعاً اذا نحن دخلنا البيت . بالمناسبة : ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا ، ولكن كوليا ماذا ؟

ـ اسمى نيقولا ، نيقولا ايفانوف كراسوتكين ، أو نيقولا ايفانوف بن كراسوتكين ، اذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين .

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة . ثم أسرع يضيف :

ـ لعلك تقدِّر اننى أكره اسم نيقولا هذا الذى أحمله ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنه مبتذل ، تافه ...

ـ أأنت فى السنة الثالثة عشرة من عمرك ؟

ـ بل فى الرابعة عشرة . سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين . وأحب أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفى يا كارامازوف حتى تعرف

طبعى معرفة جيدة منذ البداية : اننى أكره أن أُسأل عن عمرى ، بل أمقت ذلك أشد المقت ... ثم ... يجب أن أقول لك ... هناك نميمة فى حقى تجرى الآن وتشيع ... انهم يدعون أننى لعبت فى الأسبوع الماضى مع تلاميذ الصف التحضيرى لعبة اللصوص ... صحيح أننى لعبت هذه اللعبة ... لست أنكر ذلك ... أما أن يُقال اننى لعبتها لنفسى ، لمسرتى أنا ، فذلك تشنيع كريه . هناك أسباب تدفعنى الى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك . فاعلم اذن أننى لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصى ، وانما لعبتها لأسرّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدونى . ان الناس فى هذه المدينة يحبون الأقاويل . ان هذه المدينة لا تعيش الا على الثرثرات ، أؤكد لك ذلك .

ـ هبك لعبت لمسرتك الخاصة ، فأى ضير فى هذا ؟

ـ لمسرتى الخاصة ؟ ما هذا الكلام ؟ أترتضى أنت أن تلعب لعبة الحصان مثلاً ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ فكرّ قليلاً : فى المسرح تُمثّل التمثيليات للكبار ، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال ، ومعارك حروب ، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع الطرق فى بعض الأحيان . أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه فى حقيقة الأمر ، وانما اكتسى صورة أخرى ؟ اعلم أن الصبيان الصغار ، حين يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق ، اثناء فترات الاستراحة بين الدروس ، انما يقومون بعمل فنى أيضاً على طريقتهم الخاصة . هذا فن ناشىء ، هذه تطلعات فنية تتجلى فى نفوس الصغار . وان هذه الألعاب لتكون فى بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح . الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون الى المسرح ليروا الممثلين ، على حين

أن الأطفال فى ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون فى آن واحد • هذه سلوى مشروعة تماماً •

سأل كوليا وهو ينظر الى أليوشا باتنباه شديد :

ـ أتعتقد بذلك حقاً ؟ أهذه قناعتك ؟ انك تعبّر عن فكرة شائقة جداً ، هل تعلم ذلك ؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود الى منزلى بعد قليل• لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة ، أعترف لك بذلك • أننى أحب أن أتعلم منك يا كارامازوف •

بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة • فأجابه أليوشا وهو يبتسم له ويصافحه :

ـ وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك •

كان كوليا مفتوناً بأليوشا • ولقد أرضاه خاصة أن يعامله أليوشا معاملة الند للند ، كما يعامل « شخص كبير » •

قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية صغيرة :

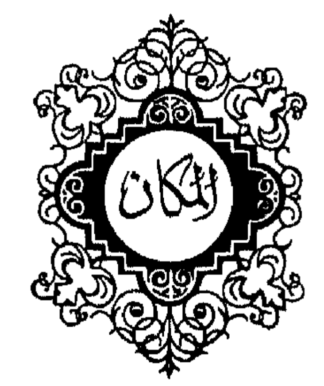
ـ سأريك حيلة يا كارامازوف ، هى نوع من التمثيل المسرحى • لهذه الغاية انما جئت الى هنا •

ـ لندخل أولاً الى عند أصحاب الدار ، فى اليمين • لقد خلع جميع رفاقك معاطفهم ، لأن جو الغرفة خانق ، والمكان ضيق •

ـ لن أمكث مدة طويلة ، فلا حاجة الى خلع معطفى • وسيبقى «برزفونه» فى الدهليز ، ويتظاهر بالموت • تعال يا « برزفونه » • أرقد ومت • ها هو ذا قد مات • سأدخل أولاً ، فأرى ما يجرى ، ثم أصفر فى اللحظة المناسبة منادياً : تعال يا «برزفونه» • فيسرع الكلب وقد جُنّ فرحاً • ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب فى اللحظة المناسبة • سألقى اليه التعليمات اللازمة ، فترى هذا الفصل •

٥

على سرير ايليوشا



ضيق والجو حار فى الغرفة التى تسكنها أسرة الكابتن المتقاعد سنيجريف ، والتى كان يتكدس فيها فى تلك الساعة زوار كثيرون جداً • ان عدداً كبيراً من الصبيان يقفون قرب سرير ايليوشا • ورغم أنهم مستعدون جميعاً ، مثل سموروف نفسه ، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع ايليوشا هو من صنع أليوشا ، فلقد كان الأمر كذلك فى الواقع • ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم الى غرفة أليوشا واحداً بعد واحد ، متحاشياً الاندفاعات العاطفية ، متحاشياً ما كانوا يسمونه « عواطف العجول » ، حريصاً على أن يضفى على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة • وقد أحسنت هذه الزيارات الى ايليوشا ، وواسته كثيراً • ان هذه الصداقة القوية وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية ، اعداؤه القدامى ، قد أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً • ليس ينقصه الآن الا كراسوتكين • ان غياب كراسوتكين يثقل على صدره كثيراً • ان سوء التفاهم الذى نشب بينه وبين كراسوتكين ، صديقه الوحيد وحاميه ، هو بين ذكرياته المرة آلمها جميعاً •

وذلك ما أدركه سموروف حق الادراك (وهو فتى ذكى جداً كان أول من جاء يصالح ايليوشا) • ولكنه حين أبلغ كراسوتكين ، بكلمات مغطاة ، أن أليوشا يحب أن يراه « لأمر من الأمور » ، فان كوليا قد أسرع يقطع حديثه معه ، وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف انه يعرف بنفسه ما الذى يجب عليه أن يعمله وانه ليس فى حاجة الى نصائح أحد • وأضاف الى ذلك أنه اذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك فى الوقت الذى يراه مناسباً ، لأن له «آراءه الخاصة» بهذا الصدد • حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً • وذلك هو السبب فى أن أليوشا لم يزره كما كان ينوى أن يفعل• وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف الى كراسوتكين مرتين ، ولكن كوليا أجاب فى المرتين كلتيهما بخشونه وتذمر ، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا الى الأبد اذا ارتأى أليوشا أن يجيء اليه ؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن • وكان سموروف نفسه يجهل الى آخر يوم أن كوليا قد قرر أن يجيء الى ايليوشا فى هذا الصباح • وفى عشية ذلك الأحد ، حين ودّع كوليا صاحبه سموروف ، انما أمره بأن ينتظره فى صباح الغد ليذهبا معاً الى أسرة سنيجيريف • وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبىء أحداً بأمر هذه الزيارة ، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار • وأطاعه سموروف • كان سموروف يرجو فى سرّه أن يجيء كوليا بالكلب « يوتشكا » ، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه فى ذات مرة ، بحضور سموروف ، كلمات مفادها « أنهم جميعاً حمير ، لأنهم لمّا يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب ، اذا كان الكلب ما يزال حياً » • ومع ذلك ، حين سمح سموروف لنفسه فى ذات يوم ، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية ، بأن يشير اشارة غامضة الى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين ، فان كراسوتكين غضب وصرخ يقول : « أأنا حمار حتى أضيّع وقتى

فى البحث فى أرجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين ، بينما أنا أملك كلبى «برزفونه» ؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حدّ الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً ؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه ! » .

لقد أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع فى زاوية الغرفة تحت الأيقونات . وهو لم يرجع الى المدرسة منذ اليوم الذى التقى فيه بأليوشا وعضّ له اصبعه . لقد رقد فى سريره فى ذلك المساء نفسه ، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض فى بعض الأحيان ليسير بضع خطوات فى الغــرفة أو الدهليز . غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه . وكان الأب يرتعد خوفاً على حيـاة ابنه ، حتى لقد كف عن الشراب ، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون . وكثيراً ما كان يتفق له ، بعد أن يروّض صغيره فى الغرفة ممسكاً به من ذراعه ، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانيةً فى سريره ، أن يهرب الى ركن مظلم من الدهليز ، فيضع جبينه على الجدار ويأخذ يبكى بكاءً متشنجاً ، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها ايليوشا . فاذا عاد الى الغرفة حاول أن يســلّى عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه ، قاصاً عليه حكايات هزلية أو راوياً له نكتاً مضحكة أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص لقيهم، أو محاكياً له أصوات حيوانات مختلفة . وكان ايليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرّج أمامه . كان يحاول أن يخفى الضيق الذى يحسه ، ولكنه كان يدرك حق الادراك فى قرارة قلبه المحطم المسحوق ، أن أباه قد أذلّه المجتمع ، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب فى الكاباريه تحاصره ولا تبارحه لحظة . وكانت نينا الكسيحة ، أخت ايليوشا ، المهيضة الوديعة ، تكره هى أيضاً أن ترى مايقوم به أبوها

من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت الى سان بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها) • ولا كذلك الأم البلهـاء ، فقد كانت تجد في ذلك لذة كبيرة ، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقـوم بحـركاته الهزلية • كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرّي عنها • وهي في كل ما عدا ذلك من وقت ، لا تكف عن الشكوى والبكاء ، قائلةً ان الجميع قد نسوها ، وان أحداً لا يحترمها ، وان الاسـاءات والاهـانات تنصب عليها ، الخ • غير أن تبدلاً لم يكن في الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام • أصبح يتفق في كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً الى ايليوشا في ركنه ، فاذا هي تطرق وتغرق في التفكير • لقد أصبحت أقرب الى الصمت ، وبدا عليهـا شيء من هدوء ، فاذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكاؤها • وقد لاحظ الكابتن هذا التبدل فشعر بدهشة أليمـة • ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضـايق الأم الخرفة في أول الأمر ، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحنقها • ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخـذت بعدئذ تسرّي عنهـا ، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد ، وبلغت من ذلك أخيراً أن وجودهم غدا ضرورة لا غنى لها عنهـا ، فاذا غابوا هوت الى حـزن مرهق • كانت اذا قصَّ التلاميذ حكايات أو أخـذوا يلعبون ، تضحك أو تصفق بيديها ، وتنـاديهم اليها في بعض الأحيان فتقبلهم • وكان الفتى سـموروف يحظى بايثارها اياه على غيره • أما الـكابتن فكان مجيء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً في كل مرة ، وكان يأمل في تلك اللحظات أن يسرّي وجودهم عن ايليوشا ، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن • كان لا يشـك لحظة ، رغم جميع المخاوف التي توقظها في نفسه حالة ابنه ، في أن ابنه سيسترد عافيته ، وكان هذا الاقتنـاع هو الذي شـد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة • انه يستقبل هؤلاء الزوّار الصغار باحترام وتأثر ، وينهمك حولهم ، ويضع

نفسه فى خدمتهم ، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره ، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا • لذلك كفوا أخيراً عن هذه الألعاب • غير أن الأب قد عوّض الأولاد عن هذا ، فأصبح يشترى لهم سكاكر وفطائر وجوزاً ، ويعد لهم شاياً وحلوى بالفاكهة • يحسن أن نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه فى هذه الفترة • فقد قبل أن يأخذ المائتى روبل التى أرسلتها اليه كاترين ايفانوفنا بعد رفضه الأول ، قبلها فى هذه المرة بغير عناء ، كما أن ما تنبأ به أليوشا فى هذا الصدد قد ثبت صدقه ، فقد جاءت اليهم كاترين ايفانوفنا بنفسها لتتعرف اليهم ، واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء ، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم ، ونسى الكابتن كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه • وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض كل يومين بطلب من كاترين ايفانوفنا ، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج طبية كثيرة رغم الأدوية الكثيرة التى حشا بها المريض • غير أنهم ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو ، حيث ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع • لقد طلبته كاترين ايفانوفنا خصيصاً ، لقاء أجور باهظة • صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا ، وانما هى استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد ، ولكنها انتهزت فرصة وجوده فى مدينتنا ، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً ، وأبلغت الكابتن ذلك فى الوقت المناسب • ولكن الكابتن ، فى مقابل ذلك ، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين ، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجىء هذا الفتى الذى تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين ، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً •

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة ، كان الكابتن والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير ، ويتأملون كلب الحراسة الرضيع الذى وُلد

البارحة . كان أبو ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع ، آملاً أن يسرّى به عن ابنه الذى لم يستطع أن ينسى اختفاء «سكارابه» . وكان ايليوشا الذى يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير ، كلب أصيل ، كلب من أرقى أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام) كان يتظاهر ، لباقةً ، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية . ومع ذلك كان جميع الحضور ، الأب والأولاد على السواء ، قد أدركوا حق الادراك أن هذا الكلب الجديد لم يزد على أن أذكى فى قلب المريض تلك الذكرى الأليمة ، ذكرى الآلام التى سببّها للكلب المسكين « يوتشكا » . كان الكلب الصغير مضطجعاً قرب ايليوشا يتحرك . وكن ايليوشا يبتسم ابتسامة ضعيفة واهنة ، وهو يلاعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة . كان واضحاً أن ايليوشا معجب بالحيوان الصغير ... ولكن هذا الحيوان الصغير ليس « يوتشكا » ؟ ان « يوتشكا » ما يزال غائباً ! آه ... يا ليت أن الجمع بين « يوتشكا » وهذا الكلب الصغير ممكن ، اذن لكان ذلك سعادة كبرى !...

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا :

ـ كراسوتكين !

حدث اضطراب خلال لحظة ، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبى السرير كاشفين بذلك عن ايليوشا ، وهرع الكابتن يستقبل كوليا ، متمتما :

ـ أدخل ، تفضل ... أيها الضيف العزيز ! يا صغيرى ايليوشا ، هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك .

أسرع كوليا يمد يده اليه ، مبرهناً بذلك على معرفته التامة بالآداب الاجتماعية . والتفت أولاً نحو زوجة الكابتن ، الجالسة على مقعد

(وكانت فى تلك اللحظة مستاءة جداً ، فهى تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير ايليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الصغير) ، فانحنى يحييها بكثير من الاحترام ، ثم التفت نحو نينا فحيَّاها كما تُحيَّا سيدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً ؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً فى نفس البلهاء . فانبرت تقول بصوت عال وهى تباعد ذراعيها :

ــ يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب . شتان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض !

تمتم الكابتن يقول بحنان يخالطه قلق على حالة امرأته :

ــ كيف هذا يا عزيزتى ؟ يركب بعضهم فوق بعض ؟ ماذا تقصدين ؟

ــ طبعاً ... هكذا يصلون جميعاً . فى الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر ، ويتواقحون فيدخلون راكبين الى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا ... أهؤلاء زوار محترمون ؟

ــ ولكن من دخل على النحو يا عزيزتى ، من ؟

ــ هذا واحد ركب على ذاك ، اليوم . وهذا ركب على الآخر أيضاً ...

كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير ايليوشا . وقد شحب لون ايليوشا شحوباً شديداً ، ونهض على مرقده وحدّق الى كراسوتكين . ان كراسوتكين لم يره منذ شهرين فها هو ذا يتوقف على حين فجأة مبهوتاً من منظر رفيقه القديم الصغير : كان لا يتوقع أن يراه بوجهٍ نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان

قد اتسعتا هذا الاتساع • وخطف بصره هزال يديه أيضاً • انه يتأمله الآن في دهشة أليمة ، بينما ايليوشا ، المتيبس الشفتين ، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً • تقدم كوليا خطوة نحوه ، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد اليه يده :

ـ هيه يا عزيزى ••• كيف حالك ؟

واختنق صوته ، واضطرب اضطراباً تاماً • تقبضت قسمات وجهه ، واختلجت أطراف شفتيه • وكان ايليوشا ، الذى ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة ، يبتسم له ابتسامة ضعيفة • رفع كوليا يده فجأة ، وأجراها فى شعر ايليوشا لا يدرى لماذا ، وقال له متمتماً :

ـ الأمر بسيط ، اطمئن •••

قال له ذلك ليشجعه ، ولكنه كان يتكلم كآلة • صمتا كلاهما لحظة• ثم سأل كوليا بصوت كابٍ :

ـ أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر ؟

فأجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول :

ـ ن ••• عـ ••• م •

قال كوليا برصانة ، كأن للملاحظة التى يقولها خطورة خاصة :

ـ ان بوزه أسود ، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً •

والحق أن كوليا كان عاجزاً عن السيطرة على انفعاله ، رغم جميع الجهود التى يبذلها ، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل « طفل » •

ـ سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر • أنا أعرف هذا •

هتف أحد الفتيان يقول :

ــ سيكون ضخماً •

فقالت أصوات أخرى :

ــ حتماً ••• ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة • سيكون حجمه كحجم عجل •

وأسرع الكابتن يقول مؤيداً :

ــ سيكون ضخماً ضخامة عجل ، ضخامة عجل حقاً • لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً ••• انه من نوع شرس جداً ••• أبواه أيضاً ضخمان شرسان ••• يصل طولهما الى هنا ••• اجلس ، تفضل اجلس ••• اجلس على سرير ايليوشا ، أو اجلس هنا على هذه الدكة • أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذى انتظرناه زمناً طويلاً ••• هل جئت فى صحبة ألكسى فيدوروفتش ؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا • لا شك أنه قد أعدّ أثناء الطريق كل ما كان ينوى أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث ، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام ••• فها هو ذا يجيب عن سؤال الكابتن قائلاً :

ــ بل جئت ••• جئت ••• مع « برزفونه » ••• عندى الآن كلب يسمى هكذا ••• هو اسم روسى تماماً • انه ينتظر هناك ••• فمتى صفرت له أسرع يجيء •

والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له :

ــ أنا أيضاً عندى كلب •

ثم اذا هو يسأل ايليوشا بغتة :

ـ هل تتذكر « يوتشكا » يا عزيزى ؟

فما أن سمع ايليوشا السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً ، وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة . وكان أليوشا واقفاً قرب الباب ، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجيء على ذكر « يوتشكا » ، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً .

سأل ايليوشا بصوت محطّم :

ـ أين هو « يوتشكا » ؟

ـ دعك من « يوتشكا » يا عزيزى ... « يوتشكا » لا يساوى شيئاً ... يوتشكا ضاع ...

صمت ايليوشا وحدّق الى كوليا من جديد . واستطاع أليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بالحاح ، مهيباً به أن لا يستمر ، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً .

ـ « يوتشكا » اختفى ولم يترك أثراً . وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة بالفاكهة كتلك الفطيرة ؟

كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة ، بصوت أصبح لا هثاً لا يدرى أحد لماذا . ثم أردف يقول :

ـ ولكننى اصطحبت « برزفونه » ... هذا اسم جميل ... لقد جئت بهذا الكلب .

فقال ايليوشا فجأة :

ـ لا أريده !

ـ بلى بلى . أحب أن تراه ، يجب أن تراه . سوف يسليك . لقد جئت به خصيصاً ... ان له شعراً طويلاً كالآخر ... هل تأذنين لى يا سيدتى بادخال كلبى ؟

كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سينجيريفا ، متكلماً بانفعال لا سبيل الى فهمه •

فصاح ايليوشا يقول بصوت محطم من الألم :

ـ لا ، لا أريد •

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب •

عندئذ تدخل الكابتن الذى كان جالساً على سحارة قرب الجدار ، تدخل يقول :

ـ ربما كان الأفضل ••• ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر •••

ولكن كوليا أصرّ ، والتفت الى سموروف وقال يأمره :

ـ افتح الباب !

فما أن نفذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا ، فاذا « برزفونه » يهرع فيصير فى الغرفة •

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه :

ـ اقفز يا « برزفونه » ، تبختر ! •••

فاذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، قرب سرير ايليوشا • فحدث عندئذ شيء لم يكن فى الحسبان قط : ارتعش المريض الصغير ، ونهض بكثير من الجهد والعناء ، ومال على « برزفونه » يتفحصه وقد اصفر من شدة الانفعال ، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً :

ـ ولكن هذا « يوتشكا » !

فصرخ كراسوتكين هو أيضاً يقول بصوتٍ مجلجل سعيد :

ـ فماذا كنت تظن اذن ؟

وانحنى على الكلب ، فأحاطه بذراعيه ، وقرّبه من وجه ايليوشا ، وهو يقول له :

ـ أنظر يا عزيزى ، انظر ••• هأنت ذا ترى : انه أعور ومصلوم الاذن • تلك هى بعينها العلامات التى ذكرتها حين وصفت لى «يوتشكا» • وبفضل هذه العلامات انما استطعت أن أجده • ولم أحتج من أجل ذلك الى زمن طويل • كان كلباً لا صاحب له ، لا صاحب له ! (هكذا أضاف يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من ايليوشا الى الكابتن فالى زوجة الكابتن ، فالى أليوشا ، ثم يعود الى ايليوشا) • كان هذا الكلب يعيش فى الحوش الخلفى من منزل آل فيدوتوف ، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنـالك مأوى يأوى اليـه ، ولكنهـم كانوا لا يطعمـونه ، فكان يضرب فى البرية على غير هدى ••• ووجدته آخر الأمر ••• أرأيت يا صاحبى؟ ان هذا الكلب لم يبلع لقمتك والا لمات من ذلك حتماً • لقد لفظها دون أن يبلعها ، لذلك ما يزال حياً • أنت لم تلاحظ أنه لم يبلع الدبوس • لقد لفظه • ولكن الدبوس قد وخز له لسانه • ولهذا السبب أخذ يعوى ، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة • ولا بد أنه لبث يعوى زمناً طويلاً ، لأن للكلاب فى فمها أغشية حساسة جداً ••• أشدّ حساسية من أغشية أفواه البشر ••• أشد كثيراً •••

كذلك صاح يقول كوليا وقد احمر وجهه وأشرق حماسه •

أما ايليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وهو يكتفي بأن ينظر الى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون • لو أن كراسوتكين الذى لم يدر فى خلده شىء ، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التى يمكن أن يعانيها ايليوشا فى هذه الدقيقة ، ومدى الضرر الذى يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض ، اذن لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحى •

ولعل أليوشا كان بين جميع الحضـور الشخص الوحيد الذى ربما خطر بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر • أما الكابتن فقد كان يتصرف تصرف طفل صغير • فهو يهتف بصوت فرح سعيد :

ـ هذا « يوتشكا » ! هـذا « يوتشكا » اذن ! ايليوشـا ، عزيزى ايليوشـا ، انه هنا ، اليك هو ، صـاحبك « يوتشكا » ! ماما ! ماما ! هذا « يوتشكا » !

وكان الكابتن كمن يبكى •

قال سموروف بمرارة :

ـ ما أغبانى حين لم يخطر ببالى شىء ! ألم أقل لكم ان كراسوتكين سيجد « يوتشكا » ؟ فها هو ذا قد وجده •

وقال صوت آخر فرح :

ـ وجده !

ودوى صوت طفل ثالث يقول :

ـ مرحى كراسوتكين !

وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم :

ـ مرحى ! مرحى !

قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة :

ـ لحظة •• اصغوا الىّ • سأروى لكم كيف تم ذلك • الأمر كله هنا • لقد عثرت عليـه ، فقدته الى بيتى ، وخبـأته فى غرفتى ، دون أن أظهر عليه أحداً حتى هذا اليوم • سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندى كلباً ، ولكننى أوهمته أن الكلب هو «برزفونه» فصدّق ما قلته له• وفى أثناء هذا الوقت علمت « يوتشكا » أنواعاً من الحيل • سـوف ترون

كيف أصبح « يوتشكا » عالماً • لقد روّضته من أجل أن آتيك به مهذباً كل التهـذيب مربى كل التربية يا عزيزى ! ســـوف ترى كيف أصبح صاحبك « يوتشكا » • هل عندكم قطعة لحم ؟ ســوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك • قليلاً من اللحم ، أليس عندكم قليل من اللحم ؟

أسرع الكابتن الى الدهليز ، وذهب الى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها• ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين ، أسرع كوليا يأمر «برزفونه» قائلاً له : « مت » • فاذا بالكلب يأخذ يدور ، ثم يستلقى على ظهره ، ويسكن سكوناً تاماً ، رافعاً قوائمه الأربع فى الهواء • طفق الأولاد يضحكون • واستمر ايليوشا ينظر الى الكلب بابتسامة اليمة • ولكن الأم خاصةً هى التى كان يبـدو أنها تجـد مسرة كبيرة فى رؤية «برزفونه» متظاهراً بالموت ، فهى تضحك ضحكاً صاخباً ، وتنادى الكلب صافقةً بأصابعها : « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا باعتزاز مشروع :

ـ لن ينهضه شىء فى الدنيا كلها ! مهما تنادوه جميعاً ، فلن يتحرك• ولكن يكفى أن آمره أنا حتى ينهض فوراً • تعال يا « برزفونه » !

فما ان سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط فرحاً • وهرع الكابتن فى تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق •

أسر كوليا يسأله بوقار :

ـ أليس اللحم ساخناً جداً ؟

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه ، وأضاف يقول :

ـ لا ، ليس ساخناً جداً ، والا أضرّت السخونة بالكلب • انظروا

الآن جميعاً ! أنظر يا ايليوشا • هلاّ نظرت ! لماذا لا تنظر ؟ أأجيئك به ، ثم ترفض حتى أن تهتم ؟

ان المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم فى طرف بوزه الممدود ، على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك • ان على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع ، واللحم فى متناول فمه ، ما ظل سيده يطلب منه ذلك ، فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة • غير أن الكلب لم يُحمل على الانتظار الا دقيقة قصيرة • صاح كوليا يقول :

ــ هيَّا !

فاذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم « برزفونه » بسرعة البرق • وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً •

هتف أليوشا يقول متعجباً بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه :

ــ هل يُعقل أن تكون قد تأخرت عن المجىء هذا التأخر كله لا لهدف غير ترويض الكلب ؟

ــ طبعاً ••• هذا هو الهدف الوحيد • أردت أن أعرضه بكل روعته •

هكذا أجاب كوليا بسذاجة •

وقال ايليوشا ينادى الكلب وهو يصفق باصابعه النحيلة ليلفت انتباهه اليه :

ــ « برزفونه ، برزفونه ! » •

قال كوليا :

ــ لا حاجة بك الى أن تناديه • سوف يقفز الى سريرك من تلقاء نفسه •

ثم أمر الكلب قائلاً له ، وهو يضرب السرير بيده :

ـ هنا يا برزفونه !

فاذا بالكلب يثب الى قرب ايليوشا .

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه ، فلعق الحيوان وجه ايليوشا عرفاناً بالجميل . وشد ايليوشا نفسه الى الكلب ، وتمدد على سريره ، وأخفى وجهه فى جزائز شعره الكثيفة .

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا ، وقال له :

ـ ايليوشا ! أستطيع أن أريك شيئاً آخر أيضاً ... لقد جئتك بمدفع صغير . سبق أن حدثتك عنه ، هل تتذكر ؟ لقد قلت لى عندئذ : « لشد ما أحب أن أراه ! » . فهأناذا جئتك به اليوم .

قال ايليوشا ذلك ، وسلّ المدفع البرونزى الصغير من كيسه بسرعة . كان كوليا يُسرع ، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة . ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذى أحدثه ظهور «برزفونه». ولكنه كان فى هذه المرة يتعجل اظهارهم على اللعبة غير عابىء بأى رزانة ، ولسان حاله يقول : « هأنتم أولاء سعداء ، فلأهبن لكم مزيداً من السعادة ! » . كان كوليا يشعر بافتتان قوى .

ـ لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل. فتمنيت الحصول عليها ، ولكن من أجلك أنت يا عزيزى ، من أجلك أنت . كان موروزوف قد أخذها من أخيه ، وكان لا يستعملها . ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه « قريب محمد أو الجنون النافع » * . انه كتاب فاسق ظهر فى موسكو منذ مائة عام، أيامَ لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد . وموروزوف من عشاق هذه الأمور ، حتى لقد شكر لى هذه المقايضة ...

كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده امساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به . ونهض ايليوشا على سريره ، وأخذ يتأمل اللعبة منتشياً مع استمراره على معانقة « كاريون » بيده اليمنى . وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً ، وأن فى وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع ، « هذا اذا كانت السيدات لا ترى فى ذلك بأساً » . فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر فى اللعبة من قرب ، فلُبِّى طلبها فوراً . أعجبها المدفع البرونزى الصغير المركب على عجلات اعجاباً شديداً ، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها . ولم تتردد فى أن تأذن باطلاق النار من المدفع ، دون أن تفهم الموضوع جيداً فى الواقع . وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهر عليهما الحضور . وتولى الكابتن ، بصفته عسكرياً قديماً، تولى حشو المدفع ، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح . أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة . وُضع المدفع على أرض الغرفة ، ووُجِّهت فوهته نحو فضاء خالٍ ، وأشعل البارود بعود ثقاب . فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق . ارتعشت « ماما » فى اللحظة الأولى ، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة . وكان الصبيان ينظرون الى اللعبة باعجاب صامت. غير أن الكابتن كان أسعدهم طراً ، وكان لا يحول بصره عن ايليوشا . وتناول كوليا المدفع ، فأهداه فوراً الى المريض الصغير ، كما أهدى اليه البارود والخردق ، قائلاً له وهو فى قمة الغبطة والسعادة :

ــ هذا لك ، هذا لك ، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه اليك .

فانبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل :

ــ بل أعطنيه أنا .

كان وجهها يعبر عن المرارة ، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها. فاضطرب كوليا ؛ واهتز الكابتن ، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها :

ـ عزيزتى ، عزيزتى ، هـذا المدفع لك ، لك أنت . فليحتفظ به ايليوشا الى حين ، ما دام قد أهدى اليه ، ولكنه لك أنت طبعاً . سيسمح لك ايليوشـا بأن تلعبى به كلما أردت ذلك . هو لكما كليكما ، لكما كليكما ...

فقالت الأم وهى توشك أن تبكى :

ـ لا ، لا أريد أن يكون لنا كلينـا . أريد أن يكون لى وحدى ، ولا أريد أن يكون منه شىء لايليوشا .

صاح ايليوشا يقول فجأة :

ـ ماما ، خذيه ، اننى أهديه اليك .

وكأنما خشى أن يسىء الى كوليا اذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر ، فسأله ضارعاً :

ـ هل أستطيع أن أهديه الى ماما ياكراسوتكين ؟

فأسرع كوليا يقول موافقاً :

ـ لم لا ؟

وتناول المدفع من بين يدى ايليوشـا ، فمدّه بنفسـه الى الأم وهو يحييها أرق تحية . (لقد بكت الأم من شدة التأثر) .

صاحت الأم تقول بانفعال :

ـ ايليوشا ، بنىّ الصغير ، أنت تحبنى حقاً ، أنت على الأقل .

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها .

قال زوجها وقد أدرك رغبتها فوراً :

ـ عزيزتى ، هلاّ أذنت لى أن أقبّل يدك ؟

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهى تومىء الى كراسوتكين •

ـ هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان •

وقال كوليا :

ـ أما البارود يا ايليوشا ، فسأجيئك منه بالقدر التى تشاء • اننا نصنعه بأنفسنا • لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة : أربعة وعشرون جزءاً من النطرون ، وعشرة أجزاء من الكبريت ، وستة من فحم الحطب • يطحن هذا كله معاً ، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينةً تُمرّ بعد ذلك من خلال جلد حمار • هكذا يتم الحصول على البارود •

قال ايليوشا :

ـ حدثنى سموروف عن بارودك ، ولكن بابا يقول ان هذا ليس هو البارود الحقيقى •

فقال كوليا محتجاً وقد احمر وجهه :

ـ ليس هو البارود الحقيقى ؟ كيف ذلك؟ على كل حال ، لا أدرى••

أسرع الكابتن يصحح مُحرجاً :

ـ لا •• أنا لم أقل شيئاً • ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقى يُصنع بطريقة أخرى ، ولكن ليس لهذا أية قيمة ••• ان من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً •

ـ أنت أعلم منا على كل حال • لقد أشعلنا بارودنا فى وعاء مرهم ، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلّف الا قليلاً من السناج • وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها الا امرارها من خلال جلد •• ومهما يكن من أمر ، فأنت أدرى بهذه الأمور منى ••• بالمناسبة : لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا ، جلده أبوه ، هل بلغك هذا ؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا على حين فجأة. فأجابه ايليوشا.

ـ بلغني .

وكان ايليوشا يصغي الى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية .

ـ كنا قد حضّرنا زجاجة من بارود ، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال : « قد تحدث انفجاراً » وجلد ابنه على الفور . حتى لقد كان فى نيته أن يشكونى الى ادارة المدرسة . وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يرانى . أصبحوا لا يسمحون لأحد بمعاشرتى . حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد ترسخت سمعتى ، فهم يقولون اننى «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يبتسم ابتسامة ازدراء) . يرجع هذا الى زمان قصة السكة الحديدية تلك ...

صاح الكابتن يقول :

ـ لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه . كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيبين ؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك ؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً !.

كان الكابتن يتفنن فى تملق كوليا .

أجاب كوليا بلهجة فيها اهمال :

ـ خفت ؟ لا ... لم أخف كثيراً ... ولكن تلك الأوزة اللعينة هى التى جاءتنى بسمعة التهور هذه .

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا من جديد .

كان كوليا يحاول أن يصطنع فى كلامه هيئة عدم المبالاة ، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود فى هذا السبيل ، لم يتمكن من العودة الى السيطرة على نفسه ، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة .

قال ايليوشا مشرق الأسارير :

ــ سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه ! حكوها لى • ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً • هل صحيح أنهم قادوك الى القاضى ؟

قال كوليا يشرح منطلقاً :

ــ تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة فى هذه المدينة على عادة الناس هنا • كنت اجتــاز ميدان « السوق » حين كان يؤتى اليه بأوز ، فوقفت أنظر الى الأوز • فاذا بفتى من هنا ، فتى اسمه فشيناكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً فى متجر آل بلوتنيكوف ، اذا هو يأخذ يتفرس فىّ ويسألنى : « مالك تنظر الى الأوز هكذا ؟ » • رفعت بصرى نحوه • انه شاب فى نحو العشرين من عمره ، له وجه مدوّر غبى• اننى لا أحتقر الشعب أبداً ، اعلموا هذا • اننى أحب البسطاء من النــاس ••• نحن متخلفون كثيراً عن الشعب ، تلك بديهية أؤمن بها ••• يُخيّل الىّ أنك تضحك يا كارامازوف ، أليس كذلك ؟

ــ بتاتاً ! بالعكس : أنا أصغى اليك بكثير من الانتباه •

هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة ، فسرعان ما استرد كوليــا الأذىُ شجاعته ، وراح يكمل كلامه بفرح فقال :

ــ نظريتى الخاصــة بســيطة واضحة ياكارامازوف • اننى أؤمن بالشعب ، واننى لأشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه ، ولكن بدون أن أتملقــه طبعاً ، هذا شرط لا بد منه • ها ••• نعم ••• كنت أتكلم عن تلك الأوزة • التفت نحو ذلك الأبله فأجبته : « اننى أتســاءل عما لعل الأوزة تفكر فيه الآن » فحملق بغباء ، ثم استأنف يسألنى : « وما الذى تفكر فيه هذه الأوزة ، فى رأيك ؟ » قلت : « هل ترى تلك العربة المحمّلة شوفاناً ؟ ان الشوفان يتساقط من الكيس ، وقد مدت الأوزة رقبتها لتنقر

الشـوفان ، واقفةً تحت العجلة تمـاماً ، هل لاحظت ذلك ؟ » ، قال : « طبعاً لاحظته ! » قلت : « فاذا دفعنا العربة الآن قليلاً ، قطعت العجلة رقبـة الأوزة ، أصحيح أم لا ؟ » • قال : « طبعاً ستقطع العجلة رقبـة الأوزة ! » قال ذلك فاتحاً فاه من السرور ، فالى هذا الحـد أفرحته تلك الفكرة• قلت : « فهيَّا بنا اذن أيها الشجاع! » فردَّد يقول : « هيَّا بنا ! »• ولم يطل الأمر • وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد ، ورابطت أنا الى جانب لأوجِّه الأوزة • أما صاحب العربة فلم ينتبه الينا ، لانه كان يتحدث مع أحد النـاس • ولم أحتج الى التدخل من أجـل أن أوجـه الاوزة ، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان ، وأومأتُ الى الفتى ، فشـد اللجام ، فما هى الا لحظة حتى كانت رقبـة الأوزة قد قُطعت • وشـاءت المصـادفة أن يرانا فى تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين فى الميدان ، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له : « فعلت هذا عمداً » فقال لهم : « لا ، لم أفعله عمـداً » فقالوا : « بل فعلته عمداً » ؛ وازداد صراخهم ، وقالوا : « قودوه الى قاضى الصلح ! »• واقتادونى أنا أيضاً قائلين : « كنت أنت حاضراً ، فأنت الذى حرضته ، ان جميع النـاس يعرفونك فى السـوق » • والواقع أننى معروف جداً فى السـوق ، لا أدرى لماذا (كذلك أضاف كوليـا قائلاً باعتزاز) • وذهبنا الى قاضى الصلح • وجىء بالأوزة أيضاً • خاف صاحبى الفتى وأخذ ينتحب • حقـاً ، كان يبكى كامرأة • أما صاحب العـربة فكان يصرخ قائلاً : « على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوز • » • وكان ثمـة شهود كثيرون • وفصل قاضى الصلح فى القضية بسرعة : حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة ، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة ، وختم قاضى الصلح كلامه قائلاً : فلا مزاح من هذا النوع فى المسـتقبل ! » ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكى ويتشكى قائلاً وهو يشير الىَّ :

« لسـت أنا ••• هـو الذى علـّمنى » ، فأجبت ، دون أن أفقد هـدوء أعصابى ، بأننى لم أعلـّمه شيئاً البتة ، وانما عبـّرت عن فكرة هذه المزاحة فى صـورة عامة ، كمشروع لا أكثر • فابتسم قاضى الصلح نيفيدوف ، ثم أسرع يندم على أنه تبسم ، وقال لى : « سأرسل تقريراً عنك الى ادارة المدرسة فى الحال ، حتى لا تندفع بعد الآن فى مشاريع من هذا النوع بدلاً من الاكباب على التحصيل واعداد دروسك » • والواقع أنه لم يش بى الى ادارة المدرسـة ، وانما كان ذلك منه تهـديداً • غير أن القضـية ذاعت فى المدينة حتى وصلت الى آذان السـلطات المدرسية • انكم تعلمون أن للمسئولين فى المدرسة آذاناً طويلة ! استاء الاستاذ كولباسنيكوف استياءً شديداً ، ولكن داردانيلوف دافع عنى من جديد• وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حنق كلب مسعور • ولا شك أنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة • أخـذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً ، عدا خطيبته التى هى آية من آيات الدمامة • وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة فى هذه المناسبة ، قالوا :

بلوعة وأسف شديد
علم تلاميذ الصف الثالث
أن الاستاذ كولباسنيكوف
أخطأه التوفيق فتزوج

وهلم جرا ••• هى قصيدة فكهة ، سآتيك بها فى مرة أخرى • أما داردانيلوف فلن أقول فيه سـوءاً : انه رجل واسع المعرفة ، واسع المعرفة حقاً • اننى أحترم أمثاله من الناس ، ولكن ليس لأنه دافع عنى •

هنا انبرى سموروف الذى كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين ، فقال :

— ومع ذلك غلبته أنت فى السؤال عن انشاء مدينة طروادة •

كانت حكاية الأوزة قد فتنت سموروف .

وعاد الكابتن يقول بلهجة المديح والتملق :

ـ غلبته حقاً ؟ كان ذلك فى موضوع انشاء مدينة طروادة ، أليس كذلك ؟ لقد قيل لنا فعلاً انك كنت أقوى منه فى هذه النقطة . حدثنى ايليوشا عن هذا فى ذلك اليوم نفسه ..

قال ايليوشا :

ـ انه يعرف كل شى يا بابا ، انه يعرف أكثر منا جميعاً ! هو يتواضع ، ولكنه أول التلاميذ فى جميع العلوم ...

كان ايليوشا ينظر الى كوليا بسعادة لا نهاية لها .

أجاب كوليا باعتزاز متواضع :

ـ أما حكاية طروادة هذه فهى فى الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها .

لقد توصل كوليا أخيراً الى ايجاد اللهجة المناسبة ، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً : كان يحس انه مهتاج قليلاً ، وأنه قد روى حادث الاوزة بحرارة مفرطة . لقد كان أليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة ، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة . فها هو ذا كوليا الحساس الأذىُ يتعذب الآن اذ يتساءل : « أتراه قد صمت احتقاراً لى ، لاعتقاده بأننى استجدى المديح والثناء ؟ ان كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك ، فسوف أعرف كيف ... » . وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الثقة أيضاً :

ـ فى رأيى أن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية .

ـ أنا أعرف من أنشأ طروادة ، أنا أعرف من بنى طروادة !

كذلك قال فجأة ، على غير توقع ، فتى لم يكن قد فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين . انه تلميذ صموت خجول ، جميل الوجه جداً ، فى نحو

الحادية عشرة من عمره • ان اسمه كارتاشوف ، وكان جالساً قرب الباب•
دهش كوليا دهشة شديدة ، وتفرس في الطفل مصطنعاً هيئة الوقار •
الواقع أن ذلك السؤال ، وهو : « من أنشأ مدينة طروادة ؟ » ، كان قد
أصبح سراً يناقش فى جميع صفوف المدرسة ، وكان لا بد لمعرفة ذلك
السر من الرجوع الى كتاب سماراجدوف • وكان كوليا هو التلميذ
الوحيد الذى يملك ذلك الكتاب • ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز
فى ذات يوم لحظة غفلة من كوليا ، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذى
كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية ، فوقع عرضاً على الصفحة التى يتكلم
فيها الكتاب عن انشاء مدينة طروادة • وحدث ذلك منذ مدة طويلة ،
ولكن الفتى كان شديد الخجل ، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على
مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة • كان يخشى أن
يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج ، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه
فى العلم • غير أنه لم يستطع فى هذه المرة أن يكبح جماح نفسه ، فانطلق
يتكلم ، مرضياً بذلك حاجةً فى نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع •

قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح :

ـ قل لنا اذن من أنشأ مدينة طروادة !

لقد أدرك كوليا ، من تعبير وجه الفتى ، أن الفتى يعرف السرّ ،
فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج • وحدث شىء من الكدر فى مزاج
الحضور •

قال الفتى بسرعة :

ـ بنى مدينة طروادة : توسر ، وداردانوس ، وايليوس ، وتروس•

واحمر وجهه فوراً ؛ وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير الألم
فى النفس • حدّق اليه الفتيان الآخرون ، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة ،

ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليـا بحـركة واحـدة • ظل كوليـا يرمق المنافس الجرىء باحتقار دون أن يفقد هدوءه ، ثم تنازل فقال له :

ـ قل لنا اذن كيف بنوها ؟ قل لنا ماذا يعنى على وجه العموم بنـاء مدينة أو دولة ؟ هل وضع كل منهم آجرةً مثلاً ؟

ضج الجميع يضحكون • واصطبغ لون الصبى المذنب بلون كلون القرمز فى هذه المرة • وصمت ، وأوشـك أن يبكى • وتركه كوليـا جالساً على كرسى الاتهام دقيقة أخرى • ثم أنشأ يقول له بقسوة ، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً :

ـ ما ينبغى للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية من هذا النوع ، الا اذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال • على أننى من جهتى لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه •

وأضاف يقول باهمال ، مخاطباً جميع الحضور :

ـ ثم اننى لا أقدر التاريخ العام كثيراً •

سأله الكابتن بنوع من الذعر :

ـ لا تقدر التاريخ العام ؟

ـ نعم ، لا أقدر التـاريخ العام • انه دراسـة الحماقات البشرية ، لا أكثر •

وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً الى أليوشا ، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذى يتهيب كوليا رأيه :

ـ أنا لا احترم الا الرياضيات والعلوم الطبيعية •

ولكن اليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ورزانته • فلو أبدى رأيا فى تلك اللحظة اذن لاختتمت المناقشة • غير أنه لم يفتح فمه ، ومن الجائز

« أن يكون صمته احتقاراً » ، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً ، وأردف يقول :

ـ وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة * جنون محض ... ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفنى فى الرأى من جديد ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة :

ـ حقاً ، لست أوافقك على رأيك .

قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً :

ـ اذا شئت أن تعرف رأيى ، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو فى نظرى اجراء بوليسى للقمع والاضطهاد . تلك هى الغاية الوحيدة التى استهدفت من تعليم اللغات القديمة . انهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبّل العقل . كانت الحياة حزينة غبية ، فأرادوا لها مزيداً من الجهامة والبلادة والغباء . كان السخف يحكم العالم ، فرأوا أن يفاقموا ذلك اذا أمكن . هذا هو السبب فى أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية . ذلك رأيى أنا على كل حال ، وانى لآمل أن لا أغيّره وأن لا أحيد عنه فى يوم من الأيام .

بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً .

قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد ، وكان قد أصغى الى كلام رفيقه بانتباه :

ـ هذه هى الحقيقة .

فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة :

ـ هو مع ذلك أول التلاميذ فى اللغة اللاتينية !

فقال ايليوشا مؤيداً :

ـ نعم يا بابا ، انه يقـول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف فى اللغة اللاتينية .

اعتقد كوليا أن عليه أن يسـوّغ ذلك ، رغم أنه سُرّ كثيراً بهذا المدح ، فقال :

ـ لا يبرهن هذا على شيء ! اننى أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك ، ولأننى وعدت أمى بأن أتم دراستى . وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه . ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أحتقر ، فى قرارة نفسى ، كل الكلاسيكيين ، وكل هذه الدناءة... أغير موافق أيضاً ياكارامازوف؟

قال أليوشا وهو يبتسم من جديد :

ـ ولكن أين الدناءة التى تتحدث عنها ؟

ـ أين ؟ ألا تفهم ؟ لقـد ترجمت مؤلفـات الكلاسيكيين الى جميع اللغات . فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية اذن هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات ، وانما هنالك أسباب بوليسية ، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس هذا دناءة ؟

فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً :

ـ ولكن من ذا الذى دسّ هذه الأفكار فى رأسك ؟

ـ أولاً ، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسى دون أن يدسـها أحد فى رأسى ؛ ثانياً ، اعلم أن الأسـتاذ كولباسنيكوف هو الذى شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن .

ـ وصل الطبيب !

كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة ، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة .

ان مركبةً خاصة تملكها السيدة هوخلاكوفا قد وقفت فعلاً أمام المنزل . هبَّ الكابتن الى لقاء الطبيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح . وأصلحت ماما زينتها واصطنعت وضع الوقار . واقترب أليوشا من سرير ايليوشا وأخذ يرتِّب وسادة المريض ، فكانت نينا تنظر اليه من قرارة مقعدها قلقة . أما الفتيان فقد أسرعوا يودّعون ، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء . ونادى كوليا « برزفونه » ، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير . وقال كوليا لايليوشا مسرعاً :

ـ على أنني لن أنصرف . سأنتظر في الدهليز ثم أعود متى ذهب الطبيب . سأعود مع « برزفونه » .

وكان الدكتور قد دخل الغرفة . انه شخص مهيب المظهر ، يرتدي معطفاً من فراء ، وعلى عارضيه لحيتان قاتمتان ، وذقنه محلوقة بكثير من العناية . فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً : لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل .

ـ ما هذا ؟ أين أنا ؟

كذلك دمدم يقول دون يخلع معطفه ، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء ، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً . ان هؤلاء الناس ، وهذا المسكن الفقير ، وهذا الغسيل المنشور على حبل في ركن الغرفة ، ان ذلك كله قد حيَّره .

انحنى الكابتن أمامه انحناءة كبيرة ، وتمتم يقول مفرطاً في الترحيب والمراعاة والاكرام :

ـ أنت هنا يا سيدى ، هنا ، عندى ، أنت آتٍ الىّ •••

قال الطبيب بصوت عال أجش :

ـ هل أنت سني ••• جير ••• يف ؟ اذن أنت السيد سنيجيريف ؟

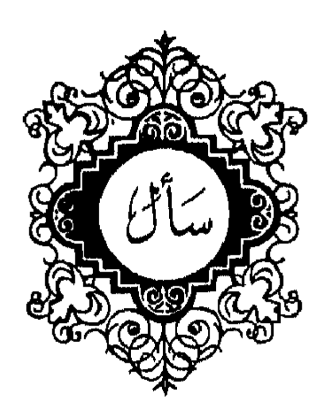
ـ نعم ، أنا •••

ـ آ !•••

ـ ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى ، وخلع معطفه • فظهر فى عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار • تناول الكابتن المعطف طيراناً ، وتنازل الطبيب فخلع قبعته • وقال يسأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر :

ـ أين هو المريض ؟

٦
نضج مبكر



كوليا متعجلاً :

ـ ما الذى سيقوله الطبيب فى رأيك ؟ يا له من وجه كريه ! ألا ترى ذلك ؟ اننى أكره الطب.

فأجابه أليوشا بحزن :

ـ ايليوشا هالك . أظن أن لا شك فى هذا ، وأن نهايته قريبة .

ـ يا للسفلة ! الطب سفالة ! على أننى سعيد بأن قد أتيحت لى فرصة معرفتك يا كارامازوف . لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل . ولكن يؤسفنى أن لقاءنا قد تم فى ظروف أليمة كهذه .

ودّ كوليا لو يقول شيئا فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال ، ولكنه شعر بشىء من الحرج . وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً .

نمتم ايليوشا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً :

ـ لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك انساناً ذا مزايا أخلاقية نادرة . قيل لى انك صوفى وانك عشت فى الدير . واننى لأسلم بأن تكون صوفياً ، ولكن ... هذا لا يصدمنى ولم يمنعنى من أن أشعر نحوك

بعاطفة ومودة . ان الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك ... ذلك مايحدث دائماً فى الطبائع التى تشبه طبيعتك .

سأله أليوشا بشىء من الدهشة :

ـ ماذا تعنى بقولك « صوفى » ؟ ومن أى شىء تريد لى أن أشفى ؟

ـ من أفكارك عن الله ، وهلم جرا ...

ـ كيف ؟ أأنت لا تؤمن بالله أنت ؟

ـ الحق أننى لا اعتراض لى على الله . اطمئن . صحيح أن فكرة الله ليست الا افتراضاً ... ولكننى أعترف بأن الله ضرورى ، بل ولا غنى عنه للمحافظة على النظام ... والحياة الاجتماعية ، وهلم جرا ...

ثم أضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة :

ـ اذا كان الله غير موجود ، فيجب أن نخترعه .

ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يحب أن يُظهره على معلوماته ، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش « كشخص كبير » . فقال كوليا لنفسه متضايقاً : « أنا لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتى أمامه » . وشعر فجأة بحسرة شديدة . وقال يحسم الأمر :

ـ أعترف لك بأننى أكره المناقشات فى هذا الموضوع . ألا يمكن أن يحب المرء الانسانية دون أن يؤمن بالله ؟ ما رأيك ؟ لقد كان فولتير مثلا ، لا يؤمن بالله ، ومع ذلك كان يحب الانسانية .

وقال لنفسه باستياء : « أيضا ، أيضا ! » .

قال اليوشا فى رفق ، بصوت هادىء طبيعى ، كما لو كان يحادث رفيقاً من سنه ، أو شخصاً أكبر منه سنا :

ـ لقد كان فولتير يؤمن بالله ، ولكن يبدو أن ايمانه كان ضعيفاً ، وكان كذلك لا يحب الانسانية كثيراً •

دُهش كوليا كثيراً من تردد أليوشـا هذا النوع من التردد فى الافصاح عن رأيه فى فولتير ، ومن هذه الطريقة فى مخاطبته متكلاً على رأيه هو الصغير كوليا •

سأله أليوشا •

ـ بالمناسبة ، هل قرأت فولتير ؟

ـ لا ، لم أقرأه بالذات ••• بلى ••• بلى ••• قرأت « كانديد » فى ترجمة روسية ، ترجمة قديمة ، كريهـة ، فظيعة (« أيضـاً ! أيضاً ! ») •

ـ وهل فهمته ؟

ـ طبعاً ••• فهمت كل شىء ••• أقصد ••• لماذا تقدّر أننى قد لا أكون فهمته ؟ هناك فقرات صعبة طبعاً ••• أنا قادر على أن أفهم أن هذه رواية فلسفية ترمى الى البرهان على فكرة •

كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً • ثم قال فجأة ، لا يدرى المرء لماذا :

ـ أنا اشتراكى يا كارامازوف ، أنا اشتراكى عنيد •

ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً :

ـ اشتراكى ؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً ؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك ، أليس كذلك ؟

شعر كوليا بامتعاض شديد ، وقال يحتج بقوة :

ـ أولاً : ليس عمرى ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة • ثانياً : لست أفهم ما شأن عمرى هنا • الأمر الآن أمر آرائى لا عدد سنى عمرى ، أليس كذلك ؟

ـ حين تتقدم فى السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر فى آرائنا • ثم اننى أحس أنك تردد آراء سمعتها ••••

هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة ، ولكن كوليا لم يدع له أن يتم كلامه ، لأنه صاح يقول متحمساً :

ـ من فضلك ! انك من انصار الخضوع والصوفية ! • ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع الا الأغنياء والأقوياء ، اذ سمحت لهم بابقاء الطبقات الاجتماعية على حالة العبودية • هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

هتف اليوشا يقول :

ـ لحظة ! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة • لا شك أنهم قد أدخلوك فى هذه العقيدة •

ـ دعك من هذا الكلام ! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام فى موضع ما ؟ ثم ان أحداً لم يدخلنى فى عقيدة من العقائد • أنا قادر على أن أفكر بنفسى ••• واعلم من جهة أخرى أننى لا آخذ على المسيح شيئاً * • ان المسيح انسان له آراء واسعة كريمة ، ولو عاش فى عصرنا لانضم الى الحركة الثورية ، ولربما قام فيها بدور مرموق ••• بل هذا مؤكد •

صاح أليوشا يسأله :

ـ من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله ؟ من هو ذلك الغبى الذى ارتبطت به ؟

ـ الحقيقة لا تخفى . أعترف لك بأننى كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين فى قضية من القضايا ، ولكن يقال أن بيلنسكى العجوز كان يؤمن بهذه الأفكار نفسها .

ـ بيلنسكى ؟ لا أتذكر ذلك . وهو على كل حال لم ينشرها .

ـ اذا لم يكن قد نشرها ، فقد عبَّر عنها فى أحاديثه ، على مايقال. سمعت ذلك من ... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذى سمعت منه هذا الكلام !

ـ هل قرأت بيلنسكى ؟

ـ الحق ... لا ... لم أقرأه كله ... ولكنى قرأت كلامه عن تاتيانا * وكيف رفضت أن تسافر مع أونيجين .

ـ لماذا رفضت أن تسافر ؟ أأنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء ؟

قال كوليا محتجاً وهو يبتسم ابتسامة غاضبة :

ـ أرجوك ... كأنك تظن أننى صبى صغير من نوع سموروف. لا يذهبنَّ بك الظن ، على كل حال ، الى اننى ثورى متطرف. اننى كثيراً ما أختلف فى الرأى مع راكيتين . واذا ذكرتُ تاتيانا ، فلا تحسب أننى من أنصار تحرر المرأة . اننى أعترف بأن المرأة مرءوسة وأن وظيفتها الخضوع .

وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر :

ـ « النساء تحيك » ، كما قال نابوليون . ففى هذه النقطة على الأقل ، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً . واننى لأرى كذلك ، من جهتى ، أن الهجرة الى أمريكا هروباً من الوطن خسة ودناءة وصغار ، بل هى أكثر من ذلك أيضاً : هى حماقة وغباوة وبلاهة ! علام

نذهب الى أمريكا فى حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها فى بلادنا لنخدم الانسانية فى عصرنا هذا خاصة ؟ ليس يعوزنا العمل . هنالك عمل خصب يجب القيام به . ذلك ما أجبت به .

ـ ذلك ما أجبت به ؟ أجبت به مَنْ ؟ هل عرض عليك أحد آن تسافر الى أمريكا ؟

ـ أعترف بأنهم حاولوا جرى الى ذلك ، ولكننى رفضت . يجب أن يبقى هذا سراً بيننا بطبيعة الحال . لا تقل عنه كلمة لأحد . مفهوم يا كارامازوف ؟ اننى لا أفضى بهذا السر الى أحد غيرك . لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد « الشعبة الثالثة » * ، وأن أتلقى دروساً فى « جسر الجنازير » :

ستذكر المبنى الكبير

بقرب جسر الجنازير

هل تتذكر هذا البيت من الشعر ؟ انه رائع . لماذا تضحك ؟ أتراك تظن أننى كذبت عليك تباهياً وافتخاراً ؟ (قال كوليا ذلك ، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق : « ماذا لو علم أننى لم أقرأ الا هذا العدد من مجلة « الناقوس » ، الذى وجدته فى مكتبة أبى ، وأننى لا أعرف شيئاً آخر غيره فى ميدان الأدب الثورى ؟ ») .

قال أليوشا :

ـ لا ، لا ، لست أضحك ، ولم يخطر ببالى قط أنك كذبت علىّ . المصيبة هى أنك لا تكذب . قل لى الآن : هل قرأت بوشكين ؟ هل قرأت قصة « أوجين أونيجين » ، أنت الذى تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة ؟

ـ لا ، لم أقرأه بعد ، ولكننى أنوى أن أفعل . واعلم يا كارامازوف

أننى لا أحمل أفكاراً سابقة وآراء ميتة ، وأننى أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً . لماذا ذلك السؤال ؟

ـ لا لشىء !

هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع :

ـ قل لى يا كارامازوف : لابد أنك تحتقرنى احتقاراً رهيباً !

وانتصب واقفاً أمام أليوشا كأنه يتخذ الوضع العسكرى وتابع كلامه يقول :

ـ هيَّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران !

سأله أليوشا وهو ينظر اليه بدهشة :

ـ أحتقرك ؟ لماذا عساى احتقرك ؟ كل ما هنالك أنه يحزننى أن تفسد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك فى فجر حياتها .

قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشىء من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته :

ـ دعك من طبيعتى الآن . الواقع أننى سريع التأذى ، أنا أعرف هذا . اننى سريع التأذى بغباوة ، ببلاهة . لقد ابتسمت أنت منذ لحظة ، فتخيلت أنا أن ...

ـ ابتسمت لأسباب أخرى . سأشرح لك الأمر . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبى ، ألمانى ، عاش فى روسيا وعبَّر عن رأيه فى شبيبة مدارسنا على النحو التالى : « لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم ، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل ، لأعادها اليك منذ الغد مصحَّحةً » : نقص كبير فى المعرفة وغرور شديد لا حدَّ له ، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا فى رأى هذا الألمانى .

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً :

ـ ولكن هذا صحيح كل الصحة ! هأهأهأ ! هذه هي الحقيقه صافية لقد أدرك عين الصواب • مرحى للألمانى ! ولكن هذا الرأس المربع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا • اننى أسلّم بأن فينا غروراً ؛ ولكن هذه آفة من آفات سنّ الشباب يُصلحها الزمن بمقـــدار ما يجب أن يصلحها • ونحن نملك فى مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريبا، هى ميزة استقلال الفكر • نحن نملك جرأة التصور والاقتناع ، على حين أنهم ، هم ، لا يعرفون تجاه أى سلطة الا عبودية كعبودية البقالين ••• ورغم كل شىء ، فان ذلك الألمانى قد رأى صواباً • مرحى للألمانى ! على أننى أظن أن من الواجب أن يُردّ الألمان الى الرشد • انهم فى حاجة الى أن يلقّنوا درساً ، مهما يكونوا أقوياء فى العلوم •

سأل أليوشا مبتسماً :

ـ لماذا تريد لهم أن يُردّوا الى الرشد ؟

ـ لعلنى قلت هراءً ، اعترف لك بذلك • انه ليتفق لى فى بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع ، وحين ابتهج أفقد سيطرتى على نفسى ، فأقول أنواعاً من السخافات • ولكننى ألاحظ أننا نثرثر هنا فى فى سفاسف بينما يبدو أن الطبيب تأخر هنـــاك • على أنه ربما انتهز الفرصة ليفحص الأم فى الوقت نفسه ، وكذلك نينـــا الكسيحة • لقد أعجبتنى نينا هذه كثيراً ، هل تعلم ؟ حين خرجتُ دمدمتْ تقول لى بصوت خافت جداً : « لماذا لم تجىء قبل الآن ؟ » • قالت ذلك بلهجـــة تزخر عتباً • يخيّل الى أنها طيبة جداً ، وأنها كذلك شقية جداً جداً •

قال أليوشا بكثير من الحرارة :

ـ نعم نعم ، سوف ترى حين تعود اليهم أنها انسانة رائعة • انه

ليفيدك كثيراً أن تتردد الى أناس مثلهما ، فتتعلم أشياء كثيرة ما زلت تجهلها في هذه الحياة ، أشياء ستظهر لك وتتجلى لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل .

هتف كوليا يقول بحرارة :

ـ لشدما يؤسفني أنني لم أجيء قبل هذا الوقت ! انني ألوم نفسي على ذلك .

ـ شيء مؤسف حقاً . لابد أنك لاحظت كم سعد هذا الصغير المسكين بزيارتك . لشدما عذبه انتظارك سُدى !

ـ لا تذكرني بهذا . ذلك يعذب نفسي تعذيباً شديداً . هذه خطيئتي على كل حال . لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات ، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التي لا أفلح في التخلص منها ، رغم الجهود التي بذلتها طوال حياتي . انني أدرك الآن ياكارامازوف أنني تافه في أمور كثيرة .

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً :

ـ بالعكس : ان لك طبيعة رائعة ، وان تكن قد أصابها شيء من الزيف . انني أفهم الآن كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير في ذلك الصغير المسكين الذي يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية .

هتف كوليا يقول :

ـ أأنت تقول هذا الكلام ؟ تصور أنني ظننت غير مرة ، منذ جئت الى هنا ، أنك تحتقرني ! آه ... ليتك تعلم مدى اهتمامي برأيك وحرصي عليه !

ـ أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية سريع التأذي الى هذه

الدرجة ؟ أفي مثل سنك ؟ آ ••• لقد تصورت فيك هذا • منذ قليل ، في الغرفة ، حين كنت أصغى الى الحكايات التى قصصتها ، قلت لنفسى : لابد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذى •

ـ أحزرت اذن ؟ يا لنفاذ بصيرتك ! يا لقوة حدسك ! اننى معجب بك • أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أنا حـــكاية الأوزة • لقد أحسست في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخرى بالمكر • وقد أخذت أكرهك عندئذ ، وأخذت أطنب في الحديث عامداً • وبعد ذلك ـ ونحن في هذا المكان ـ أحسست بعد أن قلت عبارتى : « اذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه » ، أحسست أننى تسرعت كثيراً فى عرض معرفتى واظهار علمى ، لاسيما وأننى كنت قد قرأت هذه العبـــارة فى كتاب • ولكننى أحلف لك على أننى ان سارعت الى اظهار معرفتى فما كان ذلك منى حباً بالظهور ، وانما صدر هكذا عفو الخاطر ، لا أدرى لماذا ، ولعله صدر عن فرح ، بل انه قد صدر عن فرح حتماً ••• على أننى أعلم حق العلم أن من الغباء جداً ومن العار جداً أن يرتمى المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح • ولكننى مقتنع الآن بأنك لا تحتقرنى ، وأن الأمر كله كان من تصور خيالى وحده • آه ••• لو علمت مدى شقائى ياكارامازوف! اننى أتخيل أحياناً ، لا يدرى الا الله لماذا ، أن جميع الناس يسخرون منى ، وانى لأشعر فى مثل تلك اللحظات بأننى مستعد لتحطيم كل ما هو موجود •

قال أليوشا مبتسماً :

ـ وأنت تعذب أهلك طبعاً •

ـ نعم ، ولا سيما أمى • قل يا كارامازوف : هل تجدنى مضحكاً جداً ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ ما أغربها فكرة ! دعك من هذه التصورات ! وما هو المضحك على كل حال ؟ جميع الناس يكونون أو يبدون مضحكين فى بعض المناسبات. على أى شىء يدل هذا ؟ ان الأفراد الذين يملكون مواهب عالية ، فى هذا العصر ، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدهم النـــاس مضحكين ، وهم أشقياء لهذا السبب ولكن الشىء الذى يدهشنى هو أنك عانيت هذا الشعور فى هذه السن المبكـرة ، وان كنت قد أتيح لى أن ألاحظ هذه الأشـياء نفسها لدى أشخاص آخـرين . فالأطفال أنفســهم قد أخذوا فى أيامنا هذه يقاسون من هذا الخوف الغبى . يوشك ذلك أن يكون جنوناً . ان فى هذا افراطاً فى حب الذات ، ولا شك أن الشيطان قد استقر فيه ... نعم ... الشيطان ...

كذلك ردّد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذى كان ينظر اليه محدقاً .

وتابع يقول :

ـ استقر الشيطان فيه ... لقد استولى الشيطان على الجيل الحاضر كله .

وختم أليوشا كلامه قائلاً :

ـ أنت تشبه الآخرين فى هذه النقطة . أريد أن أقول انك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه . صدقنى مع ذلك : ما ينبغى أن يشبه الانسان جمهرة الناس .

ـ هل ينبغى للانسان اذن أن يختلف عن سائر الناس ؟

ـ نعم . يجب أن لا أكون على هذه الشاكلة ، ولو أصبح جميع الناس كذلك . كن مختلفاً ولو صرت وحيداً . الواقع أنك لا تشبه

الآخرين : فانك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة . فأى الناس يملك هذه الجرأة اليوم ؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة الى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً . فلا تتردد اذن فى أن تتميز عن جمهرة الناس . لا تكن كسائر أولئك الملأ ، ولو أمسيت وحيداً فى نوعك .

ـ ما أروع هذا الكلام الذى تقوله لى ! اننى لأدرك الآن أن ظنى فيك لم يخطىء . انك قادر على أن تعزى وتواسى . آه يا كارامازوف ، لطالما انتظرت التعرف اليك . لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً . هل صحيح أنك أردت أن تتعرف الىَّ أيضاً ؟ لقد قلتَ منذ قليل انك فكّرتَ فىَّ .

ـ نعم ، سمعت عنك وفكّرت فيك ... هب حبَّ الذات هو الذى أوحى اليك بذلك السؤال ، فأى ضير فى هذا ؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال اضعافاً غريباً وكأن فيه حياء :

ـ هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام . أليس هذا مضحكاً ، مضحكاً جداً ؟

أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

ـ البتة ! وهبه مضحكاً ، فأى بأس فى ذلك ، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة ، عذباً هذه العذوبة ؟

ـ اعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معى ... اننى أقرأ هذا فى عينيك .

كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة .

ـ ممَّ عسانى أخجل ؟

ـ اذن لماذا احمر وجهك ؟

صاح أليوشا يقول ضاحكاً :

ـ أنت تجعل وجهي يحمر •

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة • ثم تمتم يقول شبه مضطرب :

ـ طيب ••• أشعر ببعض الخجل ، لا يدرى الا الله لماذا • أنا نفسى لا أعرف السبب •

هتف كوليا يقول في سورة من حماسة ، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه :

ـ ما أعظم ما أحبك وأحترمك في هذه اللحظة ، لأنك تشعر بخجل معى ! ذلك أنك تشبهنى •••

قال أليوشا فجأة دون أن يدرى لماذا :

ـ اصغ الىّ يا كوليا : لا شك أنك ستشقى كثيراً فى هذه الحياة •

فقال كوليا يؤيد كلامه :

ـ أعرف ذلك • ما أصدق تنبؤك بالمستقبل !

ـ مع ذلك سوف تحب الحياة •

ـ صحيح ، صحيح ! مرحى ! انك نبى ! نحن متفاهمان يا كارامازوف • وما يعجبنى خاصةً فيك هو أنك تخاطبنى مخاطبة الند للند ، مع أننا لسنا ندين متكافئين ، لا ، لا ، فأنت أعلى منى ! ولكننا سنتفاهم • طوال الشهر الماضى ، ظللت أقول لنفسى : « اما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى والى الأبد ، واما أننا سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات ! »

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة :

ـ منذ قلت لنفسك هذا الكلام ، كنتَ تحبنى ، هذا أكيد .

ـ كنت أحبك ، كنت أحبك حباً رهيباً ، آه ... نعم ... وكنت أحلم بك ! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم ؟ هه ... هذا هو الطبيب ... ترى ما الذى سيقوله لنا ؟ هل ترى الى تعبير وجهه ؟

٧

اليوشا

في تلك اللحظة خرج الطبيب من الغـرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه • كان وجهه يعبر عن الامتعاض والاحتقار ، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ذلك المسـكين الحقير • ألقى على الدهليز نظرة خاطفة ، ثم حدّق الى أليوشا وكوليا بقسوة • أشار أليوشا للحوذى من الباب ، فاقتربت العربة التى أقلت الطبيب ، اقتربت من مدخل البيت • ولكن فى تلك اللحظة هرع الكابتن ليدرك الطبيب ، فانحنى له انحناءة كبيرة ، ثم رجاه متذللاً معتذراً ، أن يسمح له بحديث أخير معه •

بدأ فقال :

ـ يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة ••• أهذا ممكن ؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، واكتفى بأن عقف يديه يأساً ، وهو يلقى على الطبيب نظرة ضراعة قصوى ، كأن الأقوال التى سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين •

أجاب الطبيب يقول فى اهمال ، بصوتٍ تخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه :

ـ لا حيلة لى فى الأمر • أنا لست الهاً •••

ـ دكتور ••• صاحب السعادة ••• هل هذا وشيك ، هل هو وشيك ؟

أجاب الطبيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً :

ـ كونوا مستعدين لكل شيء •

ثم خفض عينيه وسار خطوة فى اتجاه العربة •

قال الكابتن مروّعاً :

ـ صاحب السعادة ، ناشدتك يسوع المسيح ••• هل يمكن حقا أن لا يكون هناك أى شيء ، أن لا يكون هناك أى شيء يستطيع انقاذه بعد الآن ؟

أجاب الطبيب يقول نافدَ الصبر :

ـ هذا لا يتوقف علىَّ الآن •

ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة :

ـ هِمْ ••• ومع ذلك ••• اذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا مريضكم ، فوراً ، دون ابطاء (وقد نطق الطبيب قوله « فوراً ، دون ابطاء » لا بقسوة فحسب ، بل بما يشبه الغضب أيضاً ، حتى ان الكابتن ارتعش) ، الى سيراكوز ••• فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغيير ، ولكن •••

هتف الكابتن يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم •

ـ الى سيراكوز ؟

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر :

ـ سيراكوز هى فى جزيرة صقلية •

فصاح الكابتن يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً :

ـ فى جزيرة صقلية ؟

ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير الى فقر مسكنه :

ـ أما رأيت اذن ؟ وامرأتى ، وأسرتى ؟ ما الذى يصيرون اليه ؟

ـ لا ، لا ، لن يكون على الأسرة أن تذهب الى صقلية • أرسل أسرتك الى القفقاس فى بداية الربيع ••• يجب أن تقيم ابنتك زمناً فى منطقة القفقاس ••• أما زوجتك فلن تعالج هنالك الا مدة قصيرة فى مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم ••• ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً الى باريس ، عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية • وفى امكانى أن أزودك بكلمة اليه ••• ان من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن فى هذه الحالة •

عاد الكابتن يقول وهو يلوّح بذراعيه يائساً ، ويشير الى ألواح الخشب التى تتألف منها جدران مسكنه :

ـ دكتور ، دكتور ، رأيت بعينيك !

فقال الطبيب وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ هه ••• ليس هذا شأنى أنا • أنا لم أزد على أن ذكرت لك ، فى الاجابة عن سؤالك ، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولةً أخيرة بعد اليأس ••• أما فيما عدا ذلك ••• فأنا آسف ••• ولكن •••

ـ لا تخف أيها « المداوى » لن يعضك كلبى •

كذلك قال كوليا فى صخب وقد لاحظ النظرة القلقة التى ألقاها الطبيب على « برزفونه » المرابط فى العتبة .

كان صـــوت كوليا يرتعش غضباً ، وقد تعمد أن يسميه باســـم « المداوى » بدلاً من اســـم « الطبيب » ، اهانةً له ، كما شرح ذلك فيما بعد .

قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق الى أليوشا مدهوشاً :

ــ كيف ؟

ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة ، كأنه يطلب منه تفسيراً لقلة الأدب هذه :

ــ من ؟ ماذا ؟ عمن يتكلم !

فقال كوليا من جديد ، مشدداً على كلماته :

ــ أنا صاحب « برزفونه » . لا تهتم بشخصى أيها المداوى .

قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذى يسمى بهذا الاسم :

ــ « برزفونه » ؟ أى « برزفونه » ؟

ــ « برزفونه » ، « برزفونه » ، أى غـرابة فى هـذا ؟ الى اللقـاء أيها المداوى ، سوف نلتقى مرة أخرى فى سيراكوز .

استشاط الطبيب غيظاً ، فانفجر يقول على حين فجأة :

ــ من هذا الـ ... من هذا .. الوقح ؟

فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه :

ــ هو تلميذ من هنا يا دكتور . انه هازل ، فلا تلق اليه بالاً .

وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له :

ـ اسكت يا كوليا .

ثم عاد يخاطب الطبيب بشىء من نفاد الصبر فى هذه المرة :

ـ لا تلق اليه بالاً يا دكتور .

فأعول الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً :

ـ انه يستحق السوط ، ال ... سـ ... وط ! يجب تأديبه !

اصفر وجه كوليا ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال للطبيب بصوت مرتعش :

ـ هل تعلم أيها المداوى أن كلبى « برزفونه » يستطيع أن يعض ؟ تعال يا « برزفونه » !

فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة :

ـ اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فهذا فراق بينى وبينك !

ـ اعلم أيها المداوى أن هناك شخصاً واحداً فى هذا العالم يستطيع أن يأمر نيقولا كراسوتكين . هو هذا الرجل .

قال كوليا ذلك وهو يومىء الى أليوشا . ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة . واندفع « برزفونه » وراءه .

لبث الدكتور جامداً زهاء خمس ثوانٍ ، كأنما قد استبد به ذهول ، وهو ما يزال شاخصاً ببصره الى أليوشا . ثم بصق على الأرض ، وتقدم الى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عال :

ـ عجيب ، عجيب ، عجيب ، عجيب !

أسرع الكابتن يساعده فى ركوب العربة . أما أليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة . كان كوليا قد وصل الى سرير ايليوشا ووقف

عنده ، فتناول ايليوشا يده ، ونادى أباه ، فما هى الا دقيقة حتى عاد الأب •

ـ بابا ، بابا ، تعال الى هنا •

كذلك تمتم يقول ايليوشا فى اضطراب شديد •

ثم لم يقوَ على اتمـام كلامه ، فدفع ذراعيـه الناحلتين الى أمام ، وطوق بهما أباه وكوليا معاً فى حركة متشنجة ، وضم أحدهما الى الآخر بعناق واحد ، شاداً جسمه اليهما شداً قوياً • فأخذ الكابتن عندئذ ينشج نشيجاً صامتاً • أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش •

أنَّ ايليوشا يقول بلهجة مرة :

ـ بابا ، بابا ، ما أشد ألمى عليك !

قال الكابتن متمتماً :

ـ بنىَّ ايليوشا ••• ملاكى ••• قال الطبيب انك ••• ستشفى ••• وسنسعد جميعاً •••

صاح ايليوشا قائلاً :

ـ بابا ، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عنى ! ••• فهمته من النظر اليه !

وشدَّ اليه أباه وكوليا من جديد ، بكل قواه ، مسنداً وجهه الى كتف الكابتن •

ـ بابا ، بابا ، لا تبك ••• حين سأموت ستأخذ صبياً آخر ، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان ، وتسميه باسم ايليوشا مثلى ، وتحبه كما تحبنى •••

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت يشبه أن يكون خانقاً :

ـ لا تقل سخافات يا عزيزى !

وتابع ايليوشا كلامه فقال :

ـ أما أنا يا بابا ، فلا تنسنى أبداً ، تعال الى قبرى زائراً • اسمع يا بابا : أريد أن تدفننى قرب تلك الصخرة الكبيرة التى كنا نتجه اليها أثناء نزهاتنا • وزرنى هنالك مساءً فى صحبة كراسوتكين ••• ومع « برزفونه » أيضاً ••• سأنتظركم هنالك ••• بابا ، بابا !

اختنق صوت ايليوشا • ظل الثلاثة متعانقين صامتين • وفى مقعدها ، كانت نينا تبكى بكاء رفيقاً • واذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع ، انفجرت تبكى هى أيضاً ، وصاحت تنادى :

ـ صغيرى ايليوشا ، صغيرى ايليوشا !

انسل كراسوتكين من عناق ايليوشا بغتةً ، وقال يشرح بسرعة :

ـ الى اللقاء يا عزيزى • أمى تنتظرنى على الغداء • من المؤسف أننى لم أنبئها • لسوف تقلق الآن ••• على أننى سأجىء اليك بعد الغداء ، وسأمكث معك طول النهار ، وطول المساء أيضاً • سأقص عليك حكايات كثيرة • سأرجع مع « برزفونه » • أما الآن فسأصطحبه ، والا أخذ ينبح فأزعجك • الى اللقاء !

وهرول الى الدهليز • كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكى • ولكن دموعه تفجرت فى الدهليز • وعلى هذه الحال انما وجده أليوشا • قال له أليوشا ملحاً :

ـ كوليا ، عليك أن تفى بعهدك قطعاً ، وأن تعود كما وعدته ، والا حزن حزناً شديداً •

ـ سأرجع حتماً• آه ••• لشدّ مايحزننى أننى لم أجىء قبل الآن•

كذلك تمتم يقول كوليا باكياً ، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة .

وفي تلك اللحظة خرج الكابتن من الغرفة كالمجنون ، وأغلق الباب وراءه بسرعة . كان في وجهه تعبير غريب ، وكانت شفتاه تختلجان . وقف أمام الشابين ، ورفع ذراعيه في الهواء ، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً بأسنانه :

ـ لا أريد صبياً صغيراً طيباً ... لا أريد صبياً آخر ! ألا فليعقل لساني اذا نسيتك يا أورشليم * ...

وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال ، وتهاوى على الأرض راكعاً ، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً أنات مشوشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد في الغرفة.

هرع كوليا الى الشارع . وصاح يقول لأليوشا بصوت جاف كالملح:

ـ الى اللقاء يا كارامازوف ! هل تأتي أنت أيضاً ؟

ـ سأجيء هذا المساء حتماً .

ـ ماذا أراد أن يقول حين تكلم عن أورشليم ؟ ما معنى هذا ؟

ـ هذه آية من التوراة « اذا نسيتك يا أورشليم » ، معنى هذا : اذا نسيت ما هو عندي أعز شيء وأغلى شيء ، اذا خنت من ذكرياتي أقدسها ، فلتنزل علي عندئذ ...

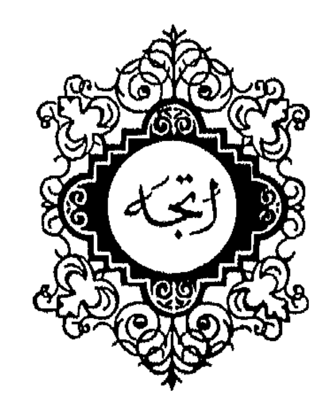
ـ كفى ! فهمت ! لا تنس أن تجيء أنت أيضاً. تعال يا «برزفونه» !

كذلك صاح كوليا ينادي الكلب بصوت حانق ، واتجه نحو بيته بخطى واسعة .

الباب الحادي عشر: الأخ إيفان فيدوروفتش

١

عند جروشنكا



أليوشا نحو ميدان الكاتدرائية حيث يقع منزل التاجرة موروزوفا . كان أليوشا ذاهباً الى عند جروشنكا . لقد أرسلت اليه جروشنكا ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، خادمتها فينيا ، ترجوه ملحةً أن يجيء اليها . وقد علم من سؤال فينيا أن المرأة الشابة تعانى منذ الليلة البارحة قلقاً جديداً قوياً . وكان أليوشا ، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال ميتيا ، قد زارها مراراً ، تارةً من تلقاء نفسه ، وتارةً بطلب من دمترى . وكانت جروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد حبس ميتيا بثلاثة أيام ، وظلت تعانى من المرض خمسة أسابيع ؛ حتى لقد لبثت فى الأسبوع الأول فاقدةً وعيها . وقد تبدلت ملامح وجهها تبدلاً كبيراً أثناء ذلك الوقت ، فاصفرت ونحلت ، وان تكن قد أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً . على أنها أصبحت فى نظر أليوشا أعظم جمالاً وفتنةً ، وكان أليوشا يحب كثيراً أن يلتقى بنظرتها حين يجيء اليها . ان شيئاً ما فى تعبير عينيها قد أصبح أقوى ثباتاً وأكثر تروياً وتأملاً . ان المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحى ، ونوعاً من عزيمة راسخة ، وان تكن هذه العزيمة تشتمل على اذعان وهدوء . ان

غضناً قصيراً عمودياً يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ على وجهها معنى التأمل العميق ، ويضفى عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوةً فى الوهلة الأولى . لم يبق هنالك ، فى الظاهر ، أثرٌ لما كان يُرى فيها من خفة وطيش . ومع ذلك كان يُدهش أليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتى رغم النازلة التى ألمت بها ، رغم اعتقال الرجل الذى تحبه ، رغم حبس هذا الرجل فى اللحظة التى أوشكت أن تصبح فيها خطيبته ، رغم اتهامه بجريمة خطيرة ، وكذلك رغم مرضها الذى أعقب ذلك ، ورغم قرب مثول الرجل أمام المحكمة . وان عينيها اللتين كانا فيهما كثير من الكبرياء فى الماضى ، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادىء ، وان كان يتفق من حين الى حين أن يسطع فى نظرتها لهيب مقلق ، ولا سيما فى اللحظات التى يراودها فيها ذلك العذاب القديم الذى لم يهدأ فى قلبها أثناء تلك المدة ، بل كان يشتد ويقوى بغير انقطاع . ان موضوع هذا القلق الأليم ما يزال هو نفسه : انه كاترين ايفانوفنا التى كثيراً ما ذكرت جروشنكا اسمها فى هذيانها أثناء المرض . كان أليوشا يدرك أن جروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة ، رغم أن كاترين ايفانوفنا لم تزر ميتيا فى السجن مرة واحدة ، كما كان فى وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء فى كل آن . وكان ذلك كله يضع أمام أليوشا مهمة صعبة ، لأن جروشنكا لا تفضى بآلامها وتباريحها الا اليه ، وما تنفك تسأله المشورة والنصح ، وهو فى بعض الحالات لا يدرى بم يجيبها ، وماذا يقول لها .

لذلك كان أليوشا مهموماً مغموماً حين دخل مسكن المرأة الشابة . كانت جروشنكا فى بيتها ، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة . وأدرك أليوشا ، من الحركة السريعة التى قامت بها لتنهض عن مقعدها وتهب الى لقائه ، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر . وكان هنالك على المائدة ورق لعب أُعدَّ لشخصين . ان أريكة الجلد التى كانت فى الجهة الأخرى

من المائدة قد أحيلت الآن سريراً ، وها هو ذا العجوز ماكسيموف ، الضعيف المريض ، ولكن على تبسم متكلف وتلطف متصنع ، يرقد على هذا السرير نصف رقاد ، مرتدياً ثوب المنزل ، واضعاً على رأسه طاقية . ان هذا العجوز الذى ليس له مأوى لم يترك جروشنكا منذ عودتها من موكرويه قبل شهرين ، وهو يعيش فى بيتها منذ ذلك الحين . لقد رجعا من موكرويه معاً فى المطر والوحل ، فلما وصلا الى مسكنها كان البرد قد نفذ فى جسمه حتى العظام ، وكان يقاسى هلعاً شديداً ورعباً رهيباً ، فما ان دخلا المسكن حتى جلس على الديوان وأخذ يحدّق الى المرأة الشابة صامتاً ، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة. وكانت جروشنكا عندئذ مصعوقة من المصيبة التى نزلت بها ، وكانت ترتعد من الحمى منذ تلك اللحظة ، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى ، مشغولة باصدار أوامرها الى خدمها . ثم ألقت عليه بصرها مدهوشة ، فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقة وتبعث على الرحمة ، ونظر الى عينيها دون أن ينطق بكلمة . فنادت عندئذ فينيا ، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعاماً . وظل العجوز طوال ذلك النهار لا يتحرك من مكانه ، حتى اذا هبط الليل ، وأغلقت النوافذ ، سألت فينيا مولاتها :

ـ هل سيبيت الليلة هنا يا آنستى ؟

فأجابتها جروشنكا قائلة :

ـ نعم ، اعدى الأريكة سريرا له .

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذلك ، علمت أنه أصبح لا يعرف الآن الى أين يأوى ، لأن « السيد كالجانوف ، المحسن اليه ، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن فى بيته ، وأعطاه خمسة روبلات زاداً » .

فقالت له جروشنكا بحزن وهى تبتسم ابتسامة شــفقة وعطف : « اذن فابق هنا والله يرعاك » • فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال ، واختجلت شفتاه فى نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل • ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها • لقد وجد الطفيلى التائه مأوى • ولم تطرده فينيا وجدتُها طباخة جروشنكا ، بل ظلتا تطعمـانه وترتبـان له سريره على الأريكة • حتى ان جروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك واعتادته ، فكانت اذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تبل من مرضها تماماً) ، جلست الى جانب «ماكسيموشكا» ، وأخذت تثرثر معه فى سـفاسف وترهات ، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر فى شقائها • وقد اتفق أن كان العجـوز يحسن قصّ الحكايات المضحكة فى المناسبات ، فاذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها • وكانت جروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا أليوشا الذى كان مع ذلك لا يزورها كل يوم ، ولايمكث عندها الا قليـلاً • أما صاحبها التـاجر العجوز فقد كان فى تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً ، وكان ملازماً فراشه • كان « بسبيل أن يرحل » ، على حد تعبير سكان المدينة ، وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بثمانية أيام• واذ أحسّ بقرب نهايته ، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد اليه ابناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره ؟ وفى الوقت نفسه أصدر أوامره الى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا فى بيته ، وأن يبلغوها مايلى اذا هى جاءت : « ان مولانا يأمر بأن تعيشى فى السعادة والفرح زمناً طويلاً ، وأن تنسيه نسياناً تاماً » • ومع ذلك كانت جروشنكا ترسل من يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً •

حين دخل أليوشا على جروشنكا ، رمت ورق اللعب ، ومدت اليه يدها فرحةً وهى تصيح :

ـ هأنت ذا أخيراً ! ان « ماكسيموشكا » هذا المسكين كان يتسلى

بتخويفى زاعماً أنك لن تجىء • ليتك تعرف مدى حاجتى اليك ! اجلس الى المائدة • ماذا تريد ؟ قهوة ؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة :

ـ بسرور • بدأت اشعر بجوع شديد •

ـ عظيم ! فينيا ، هاتى قهوة بسرعة ! ان الماء يغلى منذ مدة طويلة • أمرت باعداده خصيصاً لك • فينيا ، هاتى فطائر باللحم أيضاً ، ولتكن ساخنة جداً • هل تعلم يا أليوشا ان قد وقعت لى اليوم قصة رهيبة مع هذه الفطائر ؟ حملتها له الى السجن ، فردّها الىّ بخشونة ، ورفض أن يمسّها ، هل تصدق ؟ حتى لقد رمى احداها على الأرض ثم داسها بقدمه • قلت له : « سأتركها عند الحارس ، فاذا لم تأكلها حتى هذا المساء ، كان معنى ذلك أنك تؤجج فى نفسك الشر والغضب » ، قلت له ذلك وانصرفت • فهأنت ذا ترى أننا تشاجرنا مرةً أخرى • كلما زرته انتهينا بمشاجرة •

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهى فريسة انفعال شديد • وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضّاً بصره • سألها أليوشا :

ـ ولأى سبب تشاجرتما اليوم ؟

ـ لسبب ما كان لى حقاً أن أتوقعه • تصور أنه أصبح يغار من « القديم » • لقد سألنى : « لماذا تعطينه مالاً ؟ أأخذت اذن تعيلينه ؟ » • هى الغيرة ، الغيرة دائماً • انه يغار حين يأكل ، حين ينام • حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها فى الاسبوع الماضى ، بصدد العجوز كوزما •

ـ ولكنه كان يعلم بوجود « القديم » !

ـ طبعاً كان يعلم بوجوده • افهم اذا كنت تستطيع أن تفهم ! كان على علم بهذه العلاقة منذ البداية ، وها هو ذا يأخذ يهيننى اليوم فجأة لهذا

السبب • اننى لأستحى أن أردد على مسمعك ما قاله لى صارخاً • يا له من أحمق ! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت • من يدرى ؟ لعل راكيتين هذا هو الذى يثيره علىّ •

ثم أضافت تقول ذاهلة :

ــ ما رأيك ؟

ــ رأيى أنه يحبك ، يحبك كثيراً • ولكن أعصابه ثائرة الآن •

ــ من حقه أن تكون أعصــابه ثائرة ، ما دام سيُحكم عليه غداً • وذلك بعينه هو السبب الذى من أجله أردت أن أزوره اليوم ، لأحدّثه عن يوم الغد هذا • تقول لى انه ثائر الأعصاب • أفليس من حقى أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً ؟ ثم هو يحدثنى عن ذلك البولندى ••• يا له من أحمق ! الحمد لله على أنه لا يغار من ماكسيموشكا أيضاً !

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً :

ــ كانت زوجتى تغار علىّ كثيراً •

فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم ارادتها :

ــ عليك أنت ؟ دعك من هذا الكلام ! ممن يمكن أن تغار عليك ؟

ــ من الخادمات •

ــ اسكت ياماكسيموف ، لست اليوم فى مزاج يمكننى من الضحك• ان غضباً شديداً قد استحوذ على نفسى • أما الفطائر ، فليس يجديك أن تنظر اليها هكذا ••• لن تصيب منها شــيئاً • ان أكلتها آذتك • ولن أعطيك خمراً كذلك • هأنا ذى مضطرة الى العناية بهذا الرجل أيضاً • ألا يمكن أن يقال ان بيتى أصبح ملجأ خيرياً للبر والاحسان ؟

كذلك قالت جروشنكا ضاحكة •

فقال ماكسيموف بصوت واهن متباك :

ـ أنا لست أهلاً لاحسانك • أنا انسان تافه لا قيمة لى • الأولى أن تغدقى مساعداتك على من قد يكونون أحوج اليها منى •

ـ ما من أحد ليس بنافع فى هذا العالم يا ماكسيموف • هل يعلم المرء فى الواقع الى من يحتاج أو لا يحتاج • ان ذلك البولندى يقع الآن على عاتقى كذلك يا أليوشا• تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً • وقد زرته• نعم ، سأرسل اليه الفطائر عامدةً ، عامدةً • لم يكن يخطر ببالى أن أفعل • ولكن ميتيا اتهمنى باننى أرسلت اليه فطائر • لذلك سأرسل اليه منها اليوم قصداً ، قصداً • هه ! هذه فينيا تجىء برسالة • هى رسالة من البولندى • لا شك أنه يطلب مالاً من جديد !

صدق ظن جروشنكا • ان « السيد » موزيالوفكتش يرسل اليها رسالةً تبلغ مبلغاً عظيماً من الطول والتصنع على عادته ، وفيها يرجو ان تقرضه ثلاثة روبلات ، ضاماً الى الرسالة سنداً بالمبلغ يتعهد فيه بردّ المال فى غضون ثلاثة أشهر ، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع «السيد» فروبلفسكى أيضاً • وكانت جروشنكا قد تلقت قبل ذلك من صاحبها « القديم » عدداً كبيراً من مثل هذه الرسائل مع مثل هذه السندات • بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين ، ولكن جروشنكا علمت أن « السيدين » قد جاءا يسألان عن صحتها مراراً • كانت الرسالة الأولى التى أرسلها البولندى طويلة ، قد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب أسرته • وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعاً جداً ، فلم تستطع جروشنكا أن تقرأ الا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً • ثم انها كانت فى تلك الآونة لا تعبأ كثيراً بما قد يُكتب اليها ! وفى الغد أُتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها « السيد » موزيالوفكتش بأن تسلفه ألفى روبل ، متعهداً بالسداد بعد فترة وجيزة • ولم تردّ جروشنكا لا على

الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية • ثم تتالت رسائله كل يوم ، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال ، ولكن المبلغ الذى يلمتس ان تقرضه اياه ينخفض شيئاً بعد شيء ، فيهبط الى مائة روبل ، ثم يهبط الى خمسة وعشرين روبلاً ، ثم الى عشرة روبلات • واخيرا تلقت جروشنكا رسالةً جديدة يرجوها فيها « السيدان » أن تسلفهما روبلاً واحدا ، وقد ضمَّا الى الرسالة سنداً وقّعاه كلاهما • عندئذ شعرت جروشنكا بشيء من الشفقة • ومضت تزور « السيد عند الغسق ، فاذا هى تجد البولنديين فى عوز يشبه أن يكون تاماً ، فلا طعام ، ولا تدفئة ، ولا سجائر ، وهما فوق ذلك مدينان لصاحبة البيت التى يسكنان عندها • ان المائتى روبل التى ربحاها فى موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة • وما كان أشد دهشة جروشنكا حين رأت « السيدين » يستقبلانها استقبالا فيه كثير من التعاظم والادعاء ، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية ، مسترسلين فى كلام متفخم متنفخ • لم تزد جروشنكا عندئذ على أن ضحكت من تكلفهما ، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات• وقد قصت هذا المشهد على ميتيا فى ذلك اليوم نفسه ضاحكة ، فلم يخطر ببال ميتيا يومئذ أن يستاء أو أن يمتعض • غير أن « السيدين » قد تشبثا منذ ذلك الحين بجروشنكا ، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يضرعون اليها فيها أن تمدهم بمعونة مالية • فكانت ترسل اليهما فى كل مرة مساعدات ضئيلة • ولكن ها هو ذا ميتيا يُظهر اليوم غيرة ضارية •

قالت جروشنكا مضطربة بعض الاضطراب :

ـ شاءت غباوتى أن أزوره اليوم عابرةً ، بضع دقائق ، قبل أن أذهب الى ميتيا ، لأنه مرض هو أيضاً ، وقد قصصت ذلك على ميتيا ضاحكة • قلت له : « تصور أن صاحبى البولندى قد أخذ يغنى لى أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة ، آملاً أن يؤثر فى نفسى وأن يردّنى اليه »•

فاذا بميتيا يثب فجأة ، ويأخذ يرشقني باهانات فظيعـة • يميناً لأرسلن للبولنديين فطائر ! يا فينيا ، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد ، أليس كذلك ؟ فاعطيها ثلاثة روبلات لهما ، وحمّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق • أما أنت يا أليوشا ، فأريد حتماً أن تروى لميتيا أننى أرسلت اليهما فطائر •

قال أليوشا مبتسماً :

ـ لا ، لن أروى له ذلك بحال من الأحوال •

قالت جروشنكا بمرارة :

ـ دعك من هذا الكلام ! أتتخيل أنه يهتم بأمرى ويتعذب من أجلى، بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهراً لا أكثر ؟

قال أليوشا :

ـ يتظاهر تظاهراً ؟ ماذا تريدين أن تقولى ؟

ـ ما أغباك يا صغيرى أليوشا ! ألا انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك • ان ما يغضبنى ، أنا المسـكينة ، ليس هو أنه يغار علىّ • بالعكس : ان عدم غيرته هو ما يعذبنى • هكذا أنا • لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً ، فأنا نفسى مسمومة القلب شديدة الغيرة • ولكننى شقية لأنه لا يحبنى البتة ، وانما هو يتظاهر اليوم بالغيرة على • ذلك كل شيء • ما أنا بالعمياء • اننى أرى كل شيء رؤية واضحة • لقد أخذ يكلمنى فجأة عن الأخـرى ، عن كاتيا تلك ، ممتدحاً ما صنعته فى سبيله ، مثنيـاً على ما قامت به من أجله • قال لى : « لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك فى المناقشات أمام المحكمة انقاذاً لى • واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم ، وأعلمهم فى الوقت نفسه » • هو اذن يحبها ولا يحبنى ، يحبها هى ، ولا يحبنى أنا ، ما دام قد طفق يتغنى بمدائحها

أمامى ناظراً الىّ بعينيه الوقحتين ! انه مذنب فى حقى ، ثم هو يسعى الى مشاجرتى ليلقى الذنب على عاتقى ، على عاتقى وحدى ، كأنه يريد أن يقول : « لقد كنت على صلةٍ بذلك البولندى قبلى ، فمن حقى اذن أن أهجرك فى سبيل كاتيا » . انه يريد أن يلقى الذنب كله علىّ وحدى . انه يتعمد أن يشاجرنى ، يتعمد ذلك تعمداً ... ولكننى سوف ...

لم تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوى أن تفعله . وانما أخفت عينيها بمنديل ، وطفقت تبكى فى نشيج يثير الشفقة .

قال أليوشا بصوت جازم :

ـ انه لا يحب كاترين ايفانوفنا .

فقالت جروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهى تزيح المنديل عن عينيها :

ـ سوف أعرف بنفسى أهو يحبها أم لا .

لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب . ولاحظ أليوشا ، على حزن وحسرة ، أن ما كان يشيع فى وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح ساجٍ قد حل محلّه الآن عنف وشر .

قالت فجأة تحسم الأمر :

ـ كفى سخافات ! اننى لم استدعك لأكلمك فى هذا ، يا أليوشا ، يا ملاكى ! قل لى : ما الذى سيحدث غداً ، ما الذى سيحدث غداً ؟ ذلك ما يعذبنى . أنا وحدى أفكر فى هذا وأقاسى منه . اننى أنظر الى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث . هل فكرت فى الأمر أنت على الأقل ؟ غداً سيُحكم عليه مع ذلك ! قل لى كيف ستجرى الأمور أمام المحكمة ! ان الخادم هو الذى قتل ، ان الخادم هو الذى قتل ! يارب ! هل يُعقل

أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم ، دون أن يتدخل أحد لانصافه ؟ انهم لم يعمدوا حتى الى ازعاج هذا الخادم بشيء ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا مطرقاً مفكراً :

ـ استجوبوه استجواباً محكماً • ولكنهم خلصوا جميعاً الى أنه ليس مجرماً • وهو الآن مريض جداً • انه منذ وقوع ذلك الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع •

وأضاف أليوشا يقول :

ـ انه مريض جداً •

ـ آه ••• يا رب ! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامي ، وأن تشرح له القضية بنفسك • يقال انه استقدم من بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل •

ـ دبرنا المبلغ نحن الثلاثة : كاترين ايفانوفنا وأخي ايفان ، وأنا • وضع كل منا ألفاً • أما الطبيب فان كاترين ايفانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو • ان المحامي فيتوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها ، وكتبت عنها جميع الصحف ، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر ، لا طمعاً في المال ، بل سعياً الى المجد • ستظل هذه القضية شهيرة ، وسيبقى اسمه مقترناً بها • ولقد كلمته أمس •

سألته جروشنكا متعجلة :

ـ كلمته ؟ فماذا قال لك ؟

ـ أصغى الى كلامي ، ولكنه امتنع عن ابداء أية ملاحظة • قال انه قد كوّن رأياً شخصياً في الموضوع ، ووعدني مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح •

ـ بحسب حساب ما قدمت له من شروح ؟ ما معنى هذا الكلام ؟ ألا أنهم جميعاً سواسية ! هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد ! لسوف يضيعونه أخيراً • والطبيب ، لماذا استقدموا الطبيب ؟

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة :

ـ استقدموه خبيراً • يريدون أن يقرروا أن أخى مجنون ، وأنه قد ارتكب جريمة القتل فى نوبة جنون لا يدرى ماذا يفعل • ولكن أخى لن يوافق على ذلك أبداً •

هتفت جروشنكا تقول :

ـ ولكن هذا حق اذا كان قد قتل • لا شك فى أنه كان فاقداً عقله ، فاقداً عقله تماماً ، ولا شك أننى مسئولة عن ذلك أنا الشقية • ولكنه لم يقتل ، لم يقتل ! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل • المدينـة كلها تعتقد بذلك • وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن أن يُسـتخرج منها الا أنه قاتل • وجميع الأشخاص الذين كانوا فى المتجر ، وذلك الموظف أيضاً ! وهناك زبائن الكاباريه الذين ينقلون كل كلمة من كلماته ، وكل قول من أقواله • انهم جميعاً يشهدون عليه ، ويتبارون فى اغراقه •

قال أليوشا بلهجة فيها يأس :

ـ نعم ، تكاثرت الشهادات تكاثراً يدعو الى القلق •

ـ ثم جريجورى ، جريجورى فاسيلتش الذى يصر على أن الباب كان مفتـوحاً • انه لم يتزحزح عن هذه الشـهادة • هو يدعى أنه رأى الباب بعينـه مفتوحاً • يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك • لقد ذهبت اليه وتكلمت معه • كاد يشتمنى •

قال أليوشا :

ـ لشهادته شأن كبير ، وهو أخطر الشهود على أخي .

قالت جروشنكا بلهجة غريبه وهيئة قلقة :

ـ أما عن جنون ميتيا ، فيخيّل اليّ أنه لا يملك كل عقله ، وحتى هذه الساعة . هل تعلم أنني أردت أن أكلمك في هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا ؟ انني اذهب اليه كل يوم ، فما ينفك يزداد عجبي من سلوكه . قل لي رأيك : ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التي يحدثني بها في غير انقطاع ؟ انه يتكلم ، ويتكلم ، فلا أتوصل الى فهم ما يقوله لي . قدّرت في البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج الى ذكاء عظيم وعلم واسع ، فلا أستطيع أن أدركها . ولكنه أخذ يحدثني فجأة عن صبي ، عن ولد صغير لا أعرفه . سألني : « لماذا يجب أن يتألم الصبي ؟ انني أرتضي أن أذهب الى سيبيريا بسبب هذا الصبي . صحيح أنني لم أقتل ، ولكن يجب أن أذهب الى سيبيريا » . أي صبي يعني ؟ انني لا أفهم من هذا الكلام شيئاً . ومع ذلك طفقت أبكي وأنا أسمع له ، لأنه أجاد الكلام اجادة رائعة . كان في عينيه دموع ، فانفجرت أنا منتحبة . عندئذ قبلني على حين فجأة ، ورسم عليّ اشارة الصليب . ما معنى هذا كله يا أليوشا ؟ قل لي . أيّ ولد يعني ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ اني لأتساءل أليس في هذا مكيدة يدبرها راكيتين . لقد أخذ يتردد اليه في السجن . ولكن لا ... ليس هذا من راكيتين . أنا لم أزر ميتيا أمس ، ولكنني سأذهب اليه اليوم .

قالت جروشنكا وقد اضطربت على حين فجأة :

ـ لا ، ليس هو راكيتكا ! ان أخاه ايفان فيدوروفتش هو الذي يبلبل له عقله . انه هو الذي يزوره في السجن .

تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال :

ـ ايفن ؟ ماذا تقولين ؟ ايفان يزوره ؟ لقد أكد لى ميتيا أن ايفان لم يزره مرةً واحدة .

هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقد احمر وجهها احمراراً شديداً .

ـ آ ... ذلك ... ما أكثر ثرثرتى ! لقد أسرفت في الكلام ! لحظة ... اسكت يا أليوشا ! ما دمت قد زلّ لسانى ببعض الحقيقة ، فسأقول لك الحقيقة كلها : لقد زاره مرتين . مرةً منذ وصل ، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث ، ولم أكن قد مرضت بعد . ومرةً منذ أسبوع . وقد طلب من ميتيا أن لا يقول لأحد شيئاً عن هاتين الزيارتين . حظر عليه أن يذيع أمرهما لأى مخلوق . لقد زاره سراً .

كان أليوشا يفكر تفكيراً عميقاً . ان شيئاً ما يشغل باله الآن . لقد صعقه هذا النبأ .

قال ببطء :

ـ ان أخى ايفان لا يحدثنى أبداً فى قضية ميتيا . ثم انه لم يكد يكلمنى أبداً خلال هذين الشهرين . وكان يبدو ممتعضاً من زيارتى كلما زرته . لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع . هم ... اذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع ، فذلك غريب حقاً ... لقد حدث فى ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة .

أسرعت جروشنكا تقول :

ـ حدث فيه تغير ، حدث فيه تغير ، هذا صحيح . ان بينهما سراً . قال لى ميتيا نفسه ذلك ، قال ان الأمر سر . وهو سر يعذبه تعذيباً شديداً ، هل تعلم ؟ ان ميتيا ما يزال مرحاً فى بعض اللحظات : ولكن

حين يهز رأسه ، ويأخذ يسير فى زنزانته ، ويحك شعر صدغه بابهامه الأيمن ، أدرك أن هناك شيئاً فى قلبه . أنا أعرف هذا . كان قبل ذلك مرحاً جداً . وما يزال مرحاً حتى الآن فى الواقع ، ولكن ...

ـ ولكنك قلت لى انه ثائر الأعصاب جداً .

ـ نعم ، هو مرح وثائر الاعصاب فى آن واحد . تثور أعصابه فجأة ، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة ، ثم يهتاج من جديد . انه يدهشنى مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا . ان ما ينتظره رهيب ، ومع ذلك يتفق له أن يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل .

ـ هل صحيح أنه أراد أن لا تكلمينى عن ايفان ؟ هل قال لك : « لا تحدثيه فى هذا الأمر » ؟

ـ ذلك بعينه هو ما قاله لى : « لا تحدثيه فى هذا الأمر ! » هو خائف منك أنت خاصة . ذلك أن هناك سراً . وهو نفسه يعترف بذلك . هناك سر يا أليوشا ، يا عزيزى ، فامض اليه ، وحاول أن تعرف الحقيقة : ما ذلك السر الذى بينهما ؟

وأضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعاً على حين فجأة :

ـ ثم عد الىّ وأخبرنى . خلصنى من قلقى وهمى ، أنا المخلوقة التى تستحق الرثاء ، فعسى أن أعرف مصيرى المنحوس ! من أجل هذا انما استدعيتك .

ـ هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك ؟ لو كان كذلك ، لما كلمك فيه البتة .

ـ هل أدرى ؟ لعله أراد أن يحدثنى فى الأمر ، ولكنه لم يجرؤ ، فاكتفى بالتنبيه . لقد أسمعنى أن هناك سراً ولكنه لم يوضح .

ـ ماذا تفترضين ؟

ـ ماذا افترض ؟ افترض أن الأمر أمر ضياعى أنا • لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعى ، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة • ان كاتيـا هى التى أعدت كل شيء• لقد أطرى مزايا هذه المرأة ، قال : «هى كيت وكيت»• معنى ذلك أننى لست مثلها • انه يمهد ••• انه ينبهى • ذلك أنه قرر أن يتركنى • هذا هو السر كله • لقد تآمروا هم الثلاثة : ميتيا وكاتيـا وايفان فيدوروفتش • اسمع يا أليوشا : هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة : لقد أعلن لى فجأة فى الأسـبوع الماضى أن ايفان يحب كاترين ايفانوفنا • فهل هذا صحيح ؟ أجبنى بصدق واخلاص ، دون أن تحاول مداراتى ومراعاتى •

ـ لا أحب أن أكذب عليك • ان ايفان لا يحب كاترين ايفانوفنا• ذلك رأيى أنا على الأقل •

ـ هذا ما قدّرته أنا أيضاً • لقد كذب علىّ • ياله من وقح ! واضح أنه كذب علىّ ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة ، ليستطيع بعد ذلك أن يلقى الذنب كله علىّ • ألا انه لغبى • انه لا يجيد حتى التمثيل • انه بطبيعته صريح مسرف فى الصراحة ••• ولكننى سألقنه درساً ، سألقنه درساً ! لقد صرخ يقولى لى : « أنت تؤمنين باننى قاتل » • صرخ يقول هذا الكلام لى أنا • انه يأخذ هذا علىّ أنا • طيب • أما كاتيا تلك ، فويل لهـا • سأعرف كيف « أدبرها » أمام المحكمة • سوف أروى لهم قصة صغيرة ••• سوف أقول كل ما أعرف !

وأخذت جروشنكا تبكى بكاءً مراً •

قال أليوشا وهو ينهض :

ـ اليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين : أولاً : هو يحبك ،

يحبك أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، ولا يحب أحداً غيرك على الاطلاق ، تستطيعين أن تصدقينى . أنا أعلم هذا . أنا من هذا على يقين تام . ثانياً : أحب أن تعرفى أننى لن أحاول استخرج منه سرّه . واذا أفضى الىّ به اليوم من تلقاء نفسه ، فسوف أنبّهه فوراً الى أننى قد وعدتك بابلاغك هذا السر . وسوف أعود اليك فى هذا اليوم نفسه ، فأقول لك كل ما أكون قد علمته . على أننى ... يخيل الى ... أن كاترين ايفانوفنا لا شأن لها بهذا الأمر ، وأن السر يتعلق بشىء آخر غير هذا تماماً . بل اننى لواثق من ذلك . يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترين ايفانوفنا . أنا من ذلك على قناعة راسخة . والآن الى اللقاء .

صافحها أليوشا . كانت جروشنكا ما تزال تبكى . أدرك أنها لم تصدّق ما قدم لها من شروح مواسية . ولكن جروشنكا كانت قد تخففت من حزنها بعض التخفف لأنها عبّرت عنه . شعر أليوشا بشفقة عليها ، وأسف لاضطراره الى تركها وهى فيما هى فيه من كرب . ولكن كان عليه أن يسرع ، لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها فى ذلك اليوم.

٢

القدم الصغيرة المريضة

إن الأمر الأول الذى كان على أليوشا أن يهتم به ، يناديه الى منزل السيدة هوخلاكوفا ؛ وهو يغذ الخطى للوصول الى هذا المنزل ، حتى يفرغ من ذلك الأمر بأقصى سرعة ، فما يصل بعد ذلك الى ميتيا متأخراً . كانت السيدة هوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع . لقد تورمت احدى قدميها لسبب مجهول ، فهى تقضى أيامها فى مقصورتها متمددةً على كنبة ، مرتديةً غلالةً جذابة لكنها محتشمة ، لأنها لم تضطر الى ملازمة فراشها . كان أليوشا قد عبَّر بينه وبين نفسه ، فى يوم من الأيام ، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة ، وهى أن السيدة هوخلاكوفا قد أخذت تتغندر منذ زمن : فهى تتزين بعقد صغيرة وأشرطة جميلة ، وهى تتفنن فى التجمل . ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه بملابسها ، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه ، ويعدها عبثاً لا طائل تحته . والواقع أن السيدة هوخلاكوفا قد أخذت ، منذ شهرين ، تستقبل بين من تستقبل من معارف وأصحاب ، أخذت تستقبل الموظف الشاب برخوتين فى أحيان كثيرة .

حين وصل أليوشا الذى لم يزر السيدة هوخلاكوفا منذ أربعة أيام ،

حين وصل الى منزلها الآن ، أسرع يتجه رأساً الى غرفة ليزا . فمع ليزا انما كان عليه أن يبحث الأمر الهام الذى أشرنا اليه ، لأن الفتاة قد أوفدت اليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحةً أن يجيء اليهـا بأقصى سرعه ممكنة ، « لأمر خطير جداً » ، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة . ولكن حين ذهبت الخادمة الى ليزا لتبلغها وصول أليوشـــا ، علمت الســـيدة هوخلاكوفا بحضوره مصادفةً ، فأرسلت تطلب اليه فوراً أن يجيء اليها « دقيقة واحدة » . فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبى رغبة الأم أولاً، والا فمن الممكن أن ترســل اليه من يســتدعيه من عند ليزا كل خمس دقائق ، أثناء انصرافه الى الحديث مع ليزا .

كانت السيدة هوخلاكوفا متمددة على كنبتها ، مهتمةً بحسن ملبسها اهتماماً خاصاً ، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبياً شديداً . فلما دخل عليها أليوشا استقبلته بصيحات حماسة .

ــ منذ قرون ، منذ قرون ما رأيتك ! اسبوع كامل ، كيف يمكن هذا ؟ ولكن لا ! ... لقد جئت منذ أربعة أيام ، جئت يوم الاربعاء الماضى. أأنت ذاهب الى ليزا ؟ لاشك أنك كنت تريد أن تمضى اليها سائراً على رءوس الأصابع حتى لا أسمعك . يا صديقى العزيز ، يا صديقى العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، ليتك تعلم مدى القلق الذى تسبِّبه لى حالة ابنتى ! ولكننى سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد . ان تلك المسألة تشغل بالى أكثر من سائر المسائل ، ولكن فيما بعد ، فيما بعد ! عزيزى ألكسى فيدروفتش ، انى أعهد اليك بابنتى ليزا . انى منذ موت الشيخ زوسيماء رحمه الله (وهنا رسمت السيدة اشارة الصليب) ، أعدُّك ناسكاً ، رغم أنك ترتدى رداءك الجديد على أجمل زى . أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة ؟ ولكن لندع هذا الآن ، ليس هذا أهم شيء ، سنتحدث عن هذا فيما بعد . سامحنى اذا ناديتك احياناً باسم أليوشا فقط . أنا امرأة

عجوز ، فكل شيء جائز لي (قالت السيدة هوخلاكوفا هذا وهي تبتسم في دلال وغنج) • ولكن لندع هذا الآن • سنتحدث عنه فيما بعد • ان الشيء الأساسي هو أن لا أنسى المسألة الهامة • ذكرني بذلك عند اللزوم ، فاذا ثرثرت فابتعدت كثيراً عن الموضوع ، فعليك أن تقاطعني سائلاً : « والأمر الأساسي ؟ » • ولكن أين لي أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسي ! منذ نقضت ليزا العهد الذي قطعته لك ـ ولم يكن ذلك الا لغو طفلة يا ألكسي فيدوروفتش ، أعني عهدها بأن تتزوجك في يوم من الأيام ـ فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن الا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك • الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشي الآن ! ان ذلك الطبيب الجديد الذي استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذي سوف يحاكم غداً ••• ولكن فيم الكلام على الغد ! انني متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت جزعاً • ذلك من الفضول خاصة • المهم أن هذا الطبيب قد جاء الينا أمس وفحص ليزا ••• ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً • ولكن لا ، هأناذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى ••• ليس هذا ما كنت أريد أن ••• لقد فقدت تسلسل أفكاري تماماً كما ترى • ذلك أنني متعجلة • لماذا أتعجل هذا التعجل ؟ لا أدري • أصبحت لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً • لقد اختلط كل شيء في ذهني أخيراً ، حتى صار أشبه بغيوم • انني أخشى أن تفر من لحظة الى أخرى ضجراً وسأمة مما أقول، مع أنني لم أكد أراك• رباه ! ما لي نسيت ! نحن نثرثر هنا ، بينما ••• ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً • يا جوليا ، يا جرافير ، هاتوا القهوة ، هاتوا القهوة حالاً •

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً انه قد شرب قهوة منذ قليل •

ـ عند من ؟

ـ عند أجرافين الكسندروفنا •

ـ عند تلك ••• تلك المرأة ؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً • لست أدرى على كل حال • يقال انها أصبحت أشبه بقديسة ، وان جاء هذا متأخراً فى رأيى ••• كان ينبغى ان يخطر ببالها ذلك من قبل ، يوم كان ذلك ضرورياً ومفيداً • أما الآن ، فما فائدة قداستها ؟ اسكت ، اسكت يا ألكسى فيدوروفتش ، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ، اشياء تبلغ من الكثرة أننى أخشى أن أفقد تسلسل أفكارى • وتلك المحاكمة أيضاً ••• سوف أحضرها مهما كلف الأمر ••• اننى استعد لحضورها، سوف يأخذوننى الى المحكمة على كرسى • ثم اننى أستطيع جداً أن أبقى جالسة • وسيكون بقربى أناس يسندوننى • لا شك أنك تعلم أننى دُعيت الى الشهادة • ماذا أقول لهم ، ماذا أقول لهم ؟ اننى لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم • سوف يكون علىّ أن أحلف يميناً ، أليس كذلك ؟ قل لى •••

ـ نعم ، ولكننى أظن أنك فى حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة •

ـ أستطيع أن أبقى قاعدة • أوه ••• ولكنك تفقدنى تسلسل أفكارى • تلك المحاكمة ، تلك الجريمة البشعة ، ثم ذلك الرحيل الى سيبريا التى سيذهبون اليها جميعاً • سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك ! ما أسرع ما تمضى الحياة ! كل شىء يجرى ، كل شىء يتغير ، ثم لا يبقى أخيراً شىء ، لا يبقى الا عجائز يتربص بهم الموت • ليكن ، ليكن ••• اننى أشعر باعياء • ان كاتيا هذه ـ هذه الانسانة الفتانة ـ قد حطمت جميع آمالى : انها تنوى الآن أن تلحق بأحد أخويك الى سيبريا • وسيلحق بها الثانى الى هناك ، فيعيش فى مدينة مجاورة • وبذلك لا يزيدون على أن

يضرب بعضهم بعضاً • ان ذلك يفقدنى صوابى ، أؤكد لك ••• ولا سيما بسبب ما نشر فى الصحف عن هذه القضية • ان جرائد سان بطرسبرج وموسكو مليئة بأخبارها منذ أسابيع • آه ••• نعم ••• تخيل أنهم تكلموا فى هذه الصحف عنى أنا أيضاً ، زاعمين أننى كنت « الصديقه العزيزة جداً » لأخيك ! اننى لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية • هل تستطيع أن تتخيل أمراً كهذا الأمر ، قل لى ، هل تستطيع أن تتصوره ؟

ـ مستحيل • أين قرأت هذا الكلام ؟

ـ سأريك ما نُشر • لقد نشر فى جريدة «الشائعات» * التى تصدر فى سان بطرسبرج ، وقد وصلتنى الجريدة أمس ، فأسرعت أقرؤها • ان هذه الجريدة قد بدأت صدورها فى هذا السنة وأنا أحب الأقاويل حباً شديداً ، لذلك اشتركت فى الجريدة • هل كان فى وسعى أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولنى أنا ؟ اقرأ ، اقرأ ، الكلام هنا ، فى هذا العمود •

قالت السيدة هوخلاكوفا ذلك ومدّت الى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها •

كانت السيدة هوخلاكوفا فى حالة انهيار نفسى شديد • ليس الأمر فى هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج ، وانما هو هزة قوية أصابت كيانها كله ، ولعل أفكارها قد بلغت فى هذه الساعة من الاضطراب والبلبلة والتشويش أنها أصبحت فى رأسها أشبه بغيوم متكاثفة • ان الشائعة التى نشرت فى الجريدة المذكورة تتضمن غمزاً واضحاً وتعريضاً ساخراً لا بد أن يحدث فى نفسها أثراً أليماً جداً • ومن حسن حظها ، مع ذلك ، أنها كانت فى تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على موضوع واحد • فبفضل ذلك انما كانت تستطيع أن تنسى المقالة الفاضحة بعد دقيقة ، وأن تنتقل الى موضوعات أخرى يجرى عليها الحديث • ولا شك

أن أليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نُشر فى صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء التى تفتق عنها خيال المتخيلين والتى لا تمت الى الواقع بصلة (الى جانب المعلومات الصحيحة) عن أخيه ، وعن آل كارامازوف جملةً ، وعنه هو أيضاً . من ذلك مثلاً ما نشرته احدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر فى أعقاب الجريمة الرهيبة التى اقترفها أخوه أنه اعتصم بدير من الأديرة ، ليعيش حياة الرهبان . وقد أيدت جريدة أخرى هذا النبأ ، ولكنها أضافت اليه أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع شيخه زوسيما ، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً . أما الشائعة التى نشرت فى جريدة « الشائعات » فقد كان عنوانها ما يلى : « مراسلنا فى سكوتوبريجو نيفسك يكتب الينا عن قضية كارامازوف » (ذلك هو فعلاً اسم مدينتنا الصغيرة التى لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن) . ان المقالة قصيرة ، ولم تُذكر فيها السيدة هوخلاكوفا اسماً . ولقد أُغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص، واقتُصر على الاشارة الى أن المجرم الذى أحدثت جريمته ضجة كبرى ، والذى سيحاكم قريباً ، هو ضابط محال على التقاعد برتبة كابتن ، متغطرس كسول عنيف رجعى التفكير ، هذا الى أنه زير نساء مستهتر ، كان له بعض التأثير فى «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة»، فمن هذه السيدات « أرملة عاطلة » كانت تتصابى وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة ، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنىء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين فى أكثر تقدير ، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل ، ليوافق على اختطافها والسفر معها الى مناجم الذهب فوراً . ولكن الشقى آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل ، آملاً أن لا تُكشف جريمته ، أو مؤثراً فى كل حال أن يتعرض لهذا الخطر على أن يرحل الى سيبيريا فى صحبة السيدة العاطلة التى تنعم بمفاتن

سن الاربعين • واختتمت المقالة التى أرادت أن تكون فكهة ، اختتمت على نحو مايجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التى ارتكبها قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ، ولم تنس فى الوقت نفسه أن تدين نظام الرق القديم •

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع ، ثم طوى ورقة الجريدة وردّها الى السيدة هوخلاكوفا •

تمتمت تقول من جديد :

ــ هذا عنى أنا ، عنى أنا ، أليس كذلك ؟ لا شك أبداً فى أنه عنى أنا • لقد نصحته فعلاً ، قبل وقوع الجريمة بساعة ، أن يذهب الى مناجم الذهب • فانظر ماذا خرج من ذلك فجأة : « مفاتن سن الأربعين » ! هل كان ذلك غرضى ؟ هل خطر ببالى هذا ؟ أسأل الله أن يغفر له هذه التخرصات مثلما أغفرها له أنا • ذلك أن كاتب هذه المقالة هو ••• لا بد أنك تعرف من هو ••• انه صديقك راكيتين •

قال أليوشا :

ــ هذا جائز جداً • ولكننى كنت أجهل ذلك •

ــ انه هو ، انه هو ، ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب اننى طردته من منزلى • أظن أنك علمت بهذا الحادث •

ــ أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد الى بيتك • أما السبب الذى دفعك الى هذا القرار ، فأعترف ••• أننى لم أعلم به ••• لم أعلم به منك على الأقل •

ــ اذن علمت به منه هو • أهو حاقد علىّ كثيراً ، أهو غاضب منى جداً ؟

ـ نعم ، هو غاضب ، ولكنه غاضب من جميع الناس . أما السبب الذى من أجله أغلقت بابك دونه ، فانه لم يذكره لى . وأنا على وجه العموم لا أراه الا نادراً . ليس هو صديقى .

ـ طيب . سأقول لك الحقيقة كلها . لا ضير . ثم اننى نادمة على شيء من الأشياء فى هذه المسألة ، ان هناك عنصراً صغيراً أنا مسئولة عنه . هو أمر بسيط ، بسيط جداً ، أمر تافه لا قيمة له ، حتى لقد لا يكون له وجود الا فى خيالى. اسمع يابنى العزيز (هنا بشّ وجه السيدة هوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وان تكن لا تفهم فكأنها لغز) ... اسمع ... اننى أشتبه فى أنه ... سامحنى يا أليوشا ، فانما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها ... أقصد ... لا ... ان عكس هذا هو ما أردت أن أقوله ... اننى أخاطبك كمايخاطَب كاهن ... اذ لا مجال للحديث هنا عن أم ... لا قيمة لهذا على كل حال ... المهم اننى أكلمك كما كان يمكن أن أكلم الأب زوسيما معترفة . ذلك هو أحسن تشبيه هنا . ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك ؟ ... فاسمع اذن : ان هذا الشاب الشقى ، صاحبك راكيتين ... أوه ... رباه ! اننى لا أستطيع أن أغضب منه حقاً ! أنا مستاءة كثيراً بل وحانقة جداً ... ولكن على ضعف ... الخلاصة : ان هذا الشاب الطائش السطحى قد أولع بى فجأة ... تصور ! أنا لم ألاحظ ذلك الا فيما بعد . فى البداية ، أى منذ شهر ، أصبح يكثر من زيارتى ، وأصبح يجيء الىّ كل يوم تقريباً ، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل . لم أشتبه فى شيء . لم يخطر ببالى شيء . ولكن هأنا ذا ألاحظ قبساً من نور على حين فجأة ، وهأنا ذا آخذ أنتبه الى بعض الأشياء مدهوشة كل الدهشة . أنت تعلم أننى أصبحت منذ شهرين أستقبل فى كثير من الأحيان ذلك الشـــاب الطيب الرائع المتواضع الرصـــين ، بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف فى مدينتنـــا .

لقد التقيت أنت به عندي مراراً على كل حال • انه شاب جاد كل الجد ، لائق كل اللياقة ، ألا ترى ذلك ؟ انه يجيء الى بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع ، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام ، ولست أجد أي ضير في أن يجيء كل يوم على كل حال • هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام • وأنت لا تجهل يا أليوشا أنني أحب الشباب • انني أحب الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة ، من أمثالك أنت مثلاً يا أليوشا • ان لهذا الشاب ذكاءً يجعله مساوياً لرجل دولة • وما أجمل حديثه ! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا ، نعم ، نعم ، سوف أتوسط له حتماً • سيكون في المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول • وقد أنقذ حياتي تقريباً في ذلك اليوم الرهيب • أنقذني من موتٍ محقق حين جاء اليّ في الليل • أما صديقك راكيتين ، فانه يجيء دائماً بحداءيه الضخمين يجرهما على السجاد جراً • الخلاصة : أخذ راكيتين يسمعني تلميحات مستخفية في أول الأمر ، وفي ذات يوم شد على يدي شداً قوياً حين انصرف • فما ان شدّ على يدي ذلك الشدّ حتى شعرت بألم في ساقي • وقد التقى عندي بيطرس ايلتش ، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب • واقتصرت أنا على أن ألاحظهما كليهما ، فكان يسليني أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر وكيف يتصرف كل منهما ازاء الآخر • واني لوحدي في ذات مرة (وكنت في تلك الآونة قد أصبحت مضطرة الى الاضطجاع) اذا بمشيل ايفانوفتش يجيئني حاملاً اليّ أشعاراً ••• تصور ! ••• هي قصيدة صغيرة أوحت اليه بها ساقي المريضة • انتظر • سأنشدك الأبيات :

كيف للساق الجميلة
كيف للساق اللذيذة
أن تعاني المًا
يا لهمي !

نسيت التتمـــه • يصعب عليّ دائمـاً حفظ الشـــعر • لا بأس على كل حال • لقد خبأت القصيدة فى مكان قريب جداً • سوف أطلعك عليها فى ذات مرة • ولكنها أشعار رائعة ، حقاً • هى لا تتحدث عن قدمى فحسب ، بل تتحدث عن أكثر من ذلك ، لانها تتضمن فكرة أخلاقية هامةً جداً • يؤسفنى أننى لا أتذكر الآن تلك الفكرة • أستطيع أن أجمل رأيى فأقول ان هذه القصيدة تستحق أن تحفظ فى ألبوم • وقد شكرته طبعاً ، فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً • وفى تلك اللحظة نفسها دخل بطرس ايلتش ، فسرعان ما تجهم وجه ميشيل ايفانوفتش • أدركت أن وصول بطرس ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه • ذلك أنه كان ينوى ، ولا شك ، أن يقول لى شيئاً بعد قراءة القصـــيدة • لقد أحسست أنا بذلك ، ولكن ها هو ذا بطرس ايلتش يدخل فى تلك اللحظة نفسها • أطلعت بطرس ايلتش على القصيدة طبعاً ، ولكن دون أن أقول له من الذى نظمها • على أننى واثقة ، واثقة كل الثقة ، من أنه سرعان ما حزر الحقيقة ، وان كان ينكر ذلك حتى الآن • هو يدعى أنه لم يحزر شيئاً • ولـكنه يزعم ذلك عامداً • انفجر بطرس ايلتش ضـــاحكاً حين قرأ القصيدة ، ثم نقدها نقداً لاذعاً ، فقال : « هى أشعار تافهة ،جديرة بطالب من طلاب اللاهوت فى أكثر تقدير » • لقد ثار على رداءة القصـــيدة الصغيرة • وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة ، بدلاً من أن يضحك • قلت لنفسى : « آه ••• يارب ! لسوف يتضاربان ! » • قال راكيتين : « أنا ناظم القصـــيدة • لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح ، لأننى أرى أنه لا يليق برجل أن يضيِّع وقته فى النظم • ولكن أشعارى جميلة مع ذلك• ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين * الذى الذى تغنى بجمال أقدام النساء • وان لأشـعارى أنا اتجاهاً أخلاقياً • أما أنت (قال ذلك مخاطباً بطرس ايلتش) ، فما أنت الا رجل رجعى

عاجز عجزاً تاماً عن فهم الصبوات العميقة للانسانية .لقد ظللت غريباً عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن . ان التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك ، لأنك لست الا موظفاً مرتشياً ! » أخذت أصرخ أنا أيضاً ، ضارعة اليهما أن يسكتا ويهدءا . وليس بطرس ايلتش هذا بالرجل الهيّاب ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة ، فبعد أن أصغى الى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً : « كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات ، ولو عرفت ذلك لما قلت الكلام الذى قلته ، بل لانبريت أطرى الأبيات . يقال ان الشعراء شديدو الحساسية سريعو التأذى ... » . الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه ، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة . لقد شرح لى هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً ، لأننى كنت ظننت فى أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً . ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعةً كاضطجاعى الآن أمامك ، وكنت أتساءل هل يليق بى أو لا يليق أن أطرد ميشيل ايفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ فى بيتى وأن يهين ضيفي . فهل تصدق ما سأقوله لك ؟ كنت مضطجعة وقد أغمضت عينى وأخذت أفكر : « أمن اللياقة أن أطرده أم لا ؟ أأصرخ طالبةً اليه أن ينصرف أم لا ؟ » . كان هناك صوت يهيب بى : « اصرخى ! » ، وكان هناك صوت آخر ينصحنى بأن لا أصرخ . فما ان سمعت هذا الصوت الثاني الذى ينصحنى بأن لا أصرخ حتى أخذت أصرخ ، وسقطت مغشياً علىّ فوراً . وقام البيت وقعد كما تقدّر . ونهضت بعد لحظات فقلت لميشيل ايفانوفتش : « يؤسفنى أن أقول لك اننى لا أحب أن أراك بعد اليوم فى منزلى . » . هكذا طردته من بيتى . آه يا ألكسى فيدوروفتش ، انى لأعلم حق العلم أننى أسأت التصرف .ولقد كذبت من جهة أخرى ، لأننى لم أكن غاضبة منه فى الواقع . ولكننى أحسست أن تدخلى هذا

سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز ، فاستسلمت لاغراء ما فى ذلك المشهد من جمال • على أن وضعى كان طبيعياً ، فقد طفقت أبكى ، وظللت أبكى عدم أيام • ومع ذلك كنت قد نسيت بعد الغداء كل شيء • وقد انقطع راكيتين عن زيارتى منذ أسبوعين ، فكنت أتساءل : « هل يُعقل حقاً أن لا يأتى بعد الآن قط ؟ » • وظللت ألقى على نفسى هذا السؤال حتى أمس ، حين جاءونى عند المساء بجريدة « الشائعات » هذه ، فلما قرأت المقالة أوشكت أن انقلب على ظهرى • من ذا الذى يمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة الا راكيتين نفسه ؟ لقد عاد الى مسكنه غاضباً حانقاً ، فلا بد أنه جلس الى مكتبه فوراً ليدبج هذه الرسالة الصحفية ، ثم أرسلها الى الجريدة التى سارعت تنشرها • حدث هذا منذ أسبوعين تماماً • ولكننى ألاحظ يا أليوشا أننى اتخبط فى الحديث هنا وهناك ، ناسيةً الأمر الأساسى الذى كنت أريد أن أكلمك فيه • ماذا تريد ؟ ذلك أقوى منى !

حاول أليوشا أن يدسّ كلمة فقال فى خرافة :

ــ أنا اليوم مستعجل جداً لأصل الى عند أخى فى الساعة المحددة •

ــ صحيح ، صحيح • لقد ذكرتنى بالأمر • قل لى : ما هو المس ؟

سألها أليوشا مدهوشا :

ــ أى مس ؟

ــ المس القضائى • المس الذى من أجله يُغفر كل شىء • فمهما يقترف المرء من جرم ، يغفر له على الفور •

ــ بأية مناسبة تسألين هذا السؤال ؟

ـ اليك الأمر : ان كاتيا هذه ••• آه ••• ما أروعها من مخلوقة ! ما أجملها من انسانة ، ولكننى لم استطع أن أعرف أيهما تحب • لقد كانت عندى منذ مدة ، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً • جهد ضائع ، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت منى على حين فجأة وضعاً سخيفاً جداً • انها لا تتحدث معى الا عن صحتى ، ولا شىء غير ذلك • لقد اصطنعت فى مخاطبتى لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أننى قلت لنفسى : « لا بأس ، لا بأس ، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتى ! ••• » آ ••• نعم ••• كنت أسألك عن المس • وذلك بمناسبة وصول الطبيب ••• هل تعلم أن فى مدينتنا الآن طبيباً جديداً ؟ ولكن لا بد أنك تعلم ذلك ، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية ، وأنت الذى استقدمته ••• أقصد ••• لا أنت ، بل كاتيا ••• كاتيا أيضاً ! اليك المسألة اذن : هذا رجل ليس بمجنون ، ولكنه يُصاب فجأة بمس • لقد احتفظ بوعيه ، وهو يعلم ماذا يفعل ، ولكنه مع ذلك ممسوس • لعل هذا ما جرى فى حالة دمترى فيدوروفتش ••• لا بد أن مساً قد ألم به • هذه نظرية حديثة أكتُشفت منذ اعادة تنظيم محاكمنا • ان اعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت الينا جميعاً ، ولولاها لم نعرف المس • لقد زارنى الطبيب الجديد ، وسألنى عما حدث فى تلك الأمسية ، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك : كان يريد أن أصف له الحالة التى كان عليها أخوك • حقاً لقد كان أخوك فى حالة مس واضحة • جاء الىّ صارخاً : « أريد مالاً ، أريد مالاً ، أنا فى حاجة الى ثلاثة آلاف روبل ، فأعطنى ثلاثة آلاف روبل » ، ثم مضى ، وأصبح قاتلاً على حين فجأة • كان يقول : « لا أريد أن أقتل ، لا أريد أن أقتل » • ولكنه قتل • فلهذا السبب انما سيغفرون له ، لأنه قاوم المس ، ثم قتل بعد ذلك •

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شىء من الضيق :

ـ ولكنه لم يقتل •

وأحس بتبرم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شيء •

قالت السيدة هوخلاكوفا :

ـ أعرف أنه لم يقتل • ان العجوز جريجوري هو الذي •••

صاح أليوشا :

ـ جريجوري ؟ كيف ؟

ـ نعم، نعم، هو جريجوري • فبعد أن صرعه دمتري فيدوروفتش، لبث مغمى عليه مدة من الوقت، ثم نهض فرأى الباب مفتوحاً، فهرع ليقتل فيدور بافلوفتش •

ـ ولكن لماذا، لماذا، لأى هدف ؟

ـ انتابه مس • لقد ضربه دمتري فيدوروفتش على رأسه، فلما أفاق من غيبوبته، كان المس قد استحوذ على عقله، فمضى يقتل • ولئن كان ينكر أنه القاتل، فان ذلك لا يبرهن على شيء، لأن من الجائز جداً أنه أصبح لا يتذكر • ولكن صدقني اذا قلت لك ان من الأفضل، من الأفضل كثيراً أن يكون دمتري فيدوروفتش هو الذي ارتكب الجريمة • ثم انه هو الذي قتل • ان القاتل هو دمتري فيدوروفتش في الواقع، رغم انني أؤكد أنه جريجوري، وذلك أفضل، أفضل كثيراً • لا تسيء فهمي • أنا لا أدعي أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه • لست أثني على قتل الابن أباه • هيهات أن أفعل ذلك • بالعكس : أناأؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم • ولكن من الأفضل مع ذلك أن يكون هو القاتل • ولن تكون في حاجة الى أن تشكو وتندب وتستنكر، ما دام قد قتل بغير وعي • أقصد أنه كان واعياً، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل • لا، لا، يجب أن يغفروا له • أنا أؤيد تبرئته • لسوف تكون تبرئته مثلاً

انسانياً جميلاً ، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات اعادة تنظيم القضاء .
كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذى يقال انه وجد منذ زمن .
فما ان علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بشعور بلغ من القوة أننى
أردت استدعاءك فوراً . وفى المستقبل ، متى بُرِّئ أخوك ، سيجب
عليه حتماً أن يجيء الى الغداء عندى منذ خروجه من المحكمة . سأدعو
جميع معارفى وأصحابى ، وسنشرب نخب اعادة تنظيم القضاء . لا أظن
أن أخاك خطر جداً . ثم اننى سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين
كبيراً ، فاذا حدث شيء كان فى الامكان اخراجه من البيت . وبعد ذلك
يستطيع أن يستقر فى مدينة أخرى قاضِيَ صلح ، أو أن يُعيَّن
لوظائف من هذا القبيل ، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير
القضاة . وأى انسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من
المس . اننا جميعاً مصابون بالمس ، أنت وأنا وسائر الناس . ليست تعوزنا
الأمثلة على ذلك : هذا رجل يبدو فى الظاهر هادئاً ويغنى أغنية
عاطفية . وفيما هو كذلك اذا بشيء من الأشياء لا يرضيه ، فيخرج
مسدساً ويقتل أول قادم ثم يشفى . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة قصة
من هذا النوع ، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة . ان الأطباء فى
أيامنا هذه يؤكدون دائماً ، يؤكدون كل شيء . تصور أن ابنتى ليزا
مصابة بمس . أمس اضطرتنى الى البكاء ،وأمس الأول أيضاً . واليوم
انما اكتشفت الحقيقة ، وهى أنها قد اعتراها مس . آه ... ليتك تعلم
كم تسبب لى ليزا من عناء ! انى لأتساءل أحياناً : ألم تفقد عقلها ؟ تُرى
ماذا استدعتك ؟ أهى استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك ؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم :

ــ بل هى استدعتنى ، وأنا ذاهب اليها .

فصاحت السيدة هوخلاكوفا تقول وهى تبكى :

ـ ولكن يا صديقي العزيز ، يا صديقي العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، الآن انما وصلنا الى الأمر الأساسى • شهد الله أننى أكل اليك ليزا صادقة في ذلك كل الصدق• لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها ، فليس هذا بالأمر الخطير جداً • وما كان لى أكل ابنتى بمثل هذه الطمأنينة الى أخيك ايفان فيدوروفيتش ، سامحنى اذا قلت هذا ، رغم أننى أعده ، حتى اليوم ، شاباً تفيض نفسه فروسية • هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا ، من غير أن أعلم أنا شيئاً ؟

قال أليوشا مدهوشاً كل الدهشة :

ـ ماذا ؟ كيف ؟ متى زارها ؟

ومع ذلك لم يعد الى الجلوس ، بل استمع الى شروح السيدة هوخلاكوفا واقفاً •

ـ سأقص عليك كل شيء• ومن أجل هذا انما استدعيتك فيما أظن• على أننى أصبحت لا أعرف أنا نفسى لماذا استدعيتك • اليك الأمر : لقد زارنى ايفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو • فأما في المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر • وأما في المرة الثانية ، وهى حديثة جداً ، فقد كانت كاتيا عندى ، فعلم بذلك ، فجاء هو أيضا • لست أطمع طبعاً في أن يشرفنى بالمجيء الى منزلى كثيراً ، لأننى أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة ••• بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعة ••• ولكن هأنا ذا أعلم على حين فجأة أنه عاد الى منزلى لا ليزورنى أنا ، بل ليزور ليزا • حدث ذلك منذ ستة أيام • حضر اليها، ومكث خمس دقائق ، ثم ما لبث أن انصرف • لم أعلم بهذا الا بعد ثلاثة أيام • علمت من جرافير ، فدهشت دهشة شديدة • أسرعت أنادى ليزا ، ولكنها لم تزد على أن ضحكت • وقالت تشرح لى : « كان يظن

يا ماما أنك نائمة ، فجاء الىّ يسأل عن صحتك » . أغلب الظن أن هذا صحيح . ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لى ليزا من قلق ! آه ... يا رب !... تصـور أنها فى ذات ليلة ـ حدث هذا منذ أربعـة أيام ، عقب زيارتك الأخيرة فوراً ـ قد انتابتها نوبة عصـبية على حين فجـأة : فكانت تصرخ وتئن كأنها مصـابة بهسـتريا . لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية ؟ ان فى وسعى أنا أيضاً أن أنعم بهذا الترف . وتكرر ذلك فى الغد ، وتكرر أيضاً فى اليوم الذى تلاه ؟ وأمس حدث فصـل جديد ، وفى نحو المساء بدأت تظهر عليها أعراض المس . صرخت تقول لى بغتةً : « أنا أمقت ايفان فيدوروفتش. يجب أن لا تستقبليه ياماما ، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا ! » . ذُهلت ، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة ، شقياً هذا الشقاء كله فوق ذلك . ذلك أن هذه القصص كلها انما هى شقاء لا سعادة ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فلم يكن من بنتى الا أن أجابت على كلامى بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها اهانة جارحةً لى . ومع ذلك قلت لنفسى : « لا بأس ، ما دمت قد استطعت أن أفرحها ، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن » . وكنت أنوى أنا نفسى ، من جهة أخرى ، أن أطرد ايفـان فيدوروفتش بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتى بدون اذنى . حتى لقد كنت أريد أن أطلب منـه شرحاً لذلك . ولكن ها هى ذى ليزا تثور على جوليا ثورة عنيفة فى هذا الصباح منذ استيقظت ، حتى لقد بلغت من ذلك أنها صفعتها ، هل تتصـور هذا ؟ أليس هذا شذوذاً غريباً ؟ لاحظ أننى أنا لا أخاطب خدمى أبداً بصيغة المفرد. وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق جوليا وتقبل قدميها . وفى مقابل ذلك بعثت تبلغنى أنها لن تجىء الىّ ، لن تجىء الىّ قط ، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا ؟ فلما جررت نفسى الى غرفتها يائسة ، ارتمت علىّ وغمرتنى بقبلاتها وهى تبكى ؟ وفيما هى

تقبلني دفعتني الى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلم أعرف آخر الأمر شيئاً . انني أضع الآن جميع آمالي فيك ، يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش ، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أضرع اليك أن تذهب الى ليزا ، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها . ثم عُدْ الىّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها ، ولتقص عليّ كل شيء ، أنا أمها . ذلك أنني سأموت ، نعم سأموت اذا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً ، والا فسأهرب من هذا البيت تاركةً كل شيء . لقد نفدت قدرتي على الاحتمال ، وخارت قوتي . صحيح أن صبري واسع ، ولكن لهذا الصبر حدوداً ، فاذا بلغت هذه الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة ... آه ... يا رب !...

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تقول هذا الكلام ، اذا هي تلمح الموظف برخوتين داخلاً الى الغرفة ، فصاحت تقول وقد أشرقت أساريرها على حين فجأة :

ـ هذا بطرس ايلتش يصل أخيراً ! لقد تأخرت عن المجيء . انتظرتك طويلاً . هيه ! اجلس ، تكلم ، قرر مصيري . ماذا قال المحامي ؟ الى أين تذهب يا ألكسي فيدوروفتش ؟

ـ أنا ؟ الى ليزا ...

ـ ها ... نعم ... صحيح ... لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك ، أليس كذلك ؟ على هذا يتوقف مصيري ، نعم مصيري ...

دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج :

ـ لن أنسى ، هذا اذا وفقت الى أن ...

ـ لا ، لا ... ان عليك أن تعود الى حتماً . لا أريد كلمة « قد » ... والا مت !...

كذلك صاحت تقول السيدة هوخلاكوفا ، ولكن أليوشا كان قد خرج .

٣

شيطان صغير

حين دخل أليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة مضطجعة نصف اضطجاع على الكرسى المتحرك التى كانوا ينقلونها عليه فى السابق حين لم تكن تستطيع أن تمشى بعد . لم تقم ليزا بحركة من أجل أن تهب الى لقائه ، وانما حدقت اليه بنظرة ثاقبة نافذة . كانت عيناها مشتعلتين قليلاً ، وكان وجهه الشاحب يبدو مصفراً بعض الاصفرار . دُهش أليوشا من التغير الذى طرأ على مظهرها فى غضون ثلاثة أيام . حتى لقد لاحظ أنها نحلت بعض النحول . لم يمدد اليها يده ، بل اقتصر على ملامسة أصابعها الطويلة التى كانت جامدةً على ثوبها . ثم جلس قدامها دون أن يقول كلمة .

قالت ليزا بصوت جاف :

ـ أعلم أنك تستعجل الذهاب الى أخيك فى السجن . لقد احتجزتك ماما ساعتين ، ولم تزد على أن كلمتك عنى وعن جوليا أثناء تلك المدة كلها .

سألها أليوشا :

ـ كيف عرفت هذا ؟

فأجابته :

ـ تنصت على البـاب ••• لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ انه ليحلو لى أن أتجسس على أحاديث أمى ، وسأظل أفعل ذلك كلما شاء لى هواى أن أفعله• لست أرى فى هذا أى بأس ، ولا يخطر ببالى أبداً أن أعتذر عنه•

ـ ما الذى جعل مزاجك معتكراً هذا الاعتكار ؟

ـ أنا ؟ بالعكس : اننى مسرورة جـداً • لقد قلت لنفسى فى هذه اللحظة نفسـها ، للمرة الثلاثين ، اننى قد أُلهمت حقـاً حين نكلت عن وعدى ورفضت أن أصبح زوجتك• أنت زوج لايطاق• هبنى تزوجتك، ثم كلفتك بأن تحمل رسالة الى عشيقى : لسـوف تقـوم بهذه المهمة ، ولن تقتصر على حمل الرسالة اليه بل ستجيئنى بالرد أيضاً • وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك•

وأخذت ليزا تضحك • فقال أليوشا مبتسماً :

ـ ان فيك مزيجاً من طفل طيب وطفل خبيث فى آن واحد •

ـ هل تجدنى ساذجة ؟ اننى ساذجة ، وبفضل هذا لا أخجل منك• أنا لا أتحـرج أمامك ، اننى أرفض أن أخجل منـك ، نعم منـك أنت بالذات • قل لى يا أليوشـا : لماذا أنا لا أحترمك ؟ اننى أحبـك كثيراً ، ولكننى لا أحترمك • والا لما استطعت أن أقول لك هذا فى وجهك دون أن احمر ، أليس كذلك ؟

ـ هو كذلك •

ـ هل تعتقد أننى لا أحترمك ؟

ـ لا ، لا أعتقد بذلك •

ضحكت ليزا ضحكة عصـبية مرة أخـرى • كانت تتكلم بسرعـة ، فى نوع من تعجل قلق مهموم •

ـ أرسلت سكاكر الى أخيك دمترى فيدوروفتش فى سجنه •
أليوشا ، ليتك تعلم كم أنت لطيف ! سوف أحبك كثيراً لأننى أبحث لنفسى أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة •

ـ لماذا استدعيتنى اليوم يا ليزا ؟

ـ أردت أن أنقل اليك رغبة • اننى أتمنى أن أعذَّب • اتمنى أن يتزوجنى أحد ، وأن يعذب روحى بعد ذلك : يخوننى ويهجرنى ويسافر • لا أريد أن أكون سعيدة •

ـ أتحبين الفوضى اذن ؟

ـ نعم ، أحب أن أعيش فى الفوضى • أحلم دائماً باحراق المنزل • أتخيل كيف سأقترب من العمارة ، وأشعل فيها النار دون أن يرانى أحد • يجب أن يتم هذا بالسر حتماً • ويهب الآخرون يسعون هنا وهناك محاولين اطفاء اللهب ، ولكن اللهب ما ينفك يشتد • وأكون هناك ، أرى كل شىء ، ولا أنطق بكلمة • هوه ! تلك سخافات ! اننى ضجرة ، ضجرة ضجراً رهيباً •

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة باشارة اشمئزاز •

قال أليوشا فى رفق ولين :

ـ انك تعيشين فى الثراء •

ـ أيكون من الأفضل أن أعيش فى الفقر ؟

ـ نعم ، ذلك أفضل •

ـ ان صاحبك الراهب الراحل هو الذى دسّ فى رأسك هذه الأفكار • ذلك خطأ • فليبق الآخرون فقراء ؛ أما أنا فأريد أن أكون

غنية . آكل سكاكر ، واشرب قشدة ، ولا أعطى من ذلك شيئاً لأحد .
لا ، لا ، لا تقل لى شيئاً (قالت ليزا ذلك وهى تحرك يدها بايماءة تصد اليوشا عن الكلام ، مع أن أليوشا لم يفتح فمه) . لقد سبق أن قصصت علىّ تلك الحكايات. انها مضجرة. لو كنت فقيرة لقتلت أحداً . ولو كنت غنية لقتلت أيضاً . لماذا أبقى دون أن أعمل شيئاً ؟ أريد أن أحصد ، هل تعلم ! أريد أن أجنى محصول القمح . سوف أتزوجك ، وسوف تصبح أنت فلاحاً ، لا فلاحاً حقيقياً ، وسيكون عندنا مُهر ، مهر صغير جميل ، هل تريد هذا ؟ بالمناسبة : هل تعرف كالجانوف ؟

ـ أعرفه .

ـ انه يسير حالماً طول الوقت . يقول : « لماذا أحيا ؟ الأوْلى أن أحلم » . ان الانسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية ، أما الحياة فهى مضجرة دائماً . على أنه سيتزوج قريباً . لقد صارحنى بحبه ، هل تتصور ؟ صارحنى أنا أيضاً . هل تعرف كيف تدوِّم خذروفاً ؟

ـ نعم .

ـ هو أشبه بخذروف : يكفى أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور بضربات سوط . الخذروف يُضرب بسوط صغير ، فاذا هو يدور ، ثم يدور . ذلك ما سأفعله . سأتزوجه ثم أظل أدوّمه طوال حياته كخذروف . ألا تشعر بخجل من الثرثرة معى !

ـ لا .

ـ لا بد أنك حانق من سماع ما اقوله من ترهاتٍ سخيفة الى هذا الحد . أنا لا أحب أن أكون قديسة ، هل تعلم ؟ ما هو العقاب الذى سأعاقب به فى الحياة الآخرة على الخطيئة الكبرى ؟ لا بد أن تكون عالماً بهذه الأمور .

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه الفتاة بانتباه :

ــ سوف يحكم الله عليك •

ــ سوف يُحكم علىّ • ذلك بعينه ما أتمناه • أمثل أمام المحكمة ، فيحكم علىّ ، فأنفجر ضاحكةً وأنا أحدق الى أعين الجميع • آه ••• ما أعظم شوقى الى احراق المنزل ، الى احراق منزلنا يا اليوشا ! أنت لا تصدق ، أليس كذلك ؟

ــ لم لا ؟ انه ليتفق حتى لأطفال فى الثانية عشرة من أعمارهم أن يتمنوا احراق شىء ما ، ثم اذا هم يفعلون ذلك • هذا نوع من المرض•

ــ خطأ ، خطأ ! أعلم أن هناك أطفالاً ••• ولكننى أتكلم عن شىء آخر •

ــ أنت تعدين الشر خيراً • هذه نوبة طارئة لن تدوم ، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم •

ــ لا بد أنك تحتقرنى كثيراً حتى تقول هذا الكلام • الحقيقة أبسط من ذلك • أنا لا أحب عمل الخير ، وأوثر عليه الشر • ذلك كل ما فى الأمر ، وليس فى هذا أى مرض •

ــ لماذا تحبين عمل الشر ؟

ــ لأدمر كل شىء ، فلا يبقى شىء • آه ••• ما أجمل أن أفتح عينى ، فأرى أن كل شىء قد زال ! اعلم يا أليوشا أننى أحلم دائماً بأن اقترف سيئات كثيرة رهيبة • أظل أعمل زمناً طويلاً فى الظلام والسر ، ثم يكتشفون الحقيقة على حين فجأة • سيهبّون عندئذ جميعاً ضدى ، وسيشيرون الىّ بالأصابع • فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل

الهدوء • ما أمتع هذا ! لماذا يكون هذا ممتعاً يا أليوشا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا ؟

ـ لا أدرى ، ولكننى أعرف أن الأمر كذلك • هذه هى الحاجة الى تحطيم شىء ما ، أو الى اشعال النار فى المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة • هذه العواطف توجد فى نفوسنا أحياناً •

ـ أنا لم أقل كلاماً عابثاً ، لسوف أفعل ما قلت •

ـ أصدّق •

ـ آه ••• ما أعظم ما أحبك لأنك قلت انك تصدقنى • أنت لا تكذب البتة ، البتة ، أليس كذلك ؟ أم لعلك ظننت مع هذا اننى قلت ما قلت عامدةً لأغيظك ؟

ـ لا ، لا أظن ذلك ••• وان كان من الممكن أن يكون فيك الى جانب هذا شىء من حب الاغاظة •

ـ صحيح • هنالك قليل من الاغاظة فى هذا • أعترف لك بذلك•

ثم هتفت تقول فجأة وقد قدحت فى نظرتها شرارة :

ـ لن أكذب أمامك أبداً •

دُهش أليوشا خاصةً مما كان فى الفتاة من جد• لم يكن فى وجهها أثر لسخرية أو « شيطنة » ، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى فى « أخطر » اللحظات •

قال أليوشا مفكراً :

ـ ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة •

ـ صحيح • هذا هو تماماً • لقد عبرت عن تفكيرى نفسه • البشر يحبون الجريمة • جميع البشر يحبون الجريمة • يحبونها دائماً ، لا فى بعض « الساعات » فحسب • وكأن هناك اتفاقاً عاماً بين الناس على الكذب فى هذا الأمر • ما من أحد يحب أن يكون صادقاً مخلصاً فى هذه النقطة • هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشر ، مع أنهم يحبونه فى سريرة أنفسهم•

ـ أما تزالين تقرئين كتباً سيئة ؟

ـ نعم ، وماما تحب هذه الكتب حب العبادة ، وتخفيها تحت وسادتها • ومن هناك أسرقها •

ـ ألا تستحين أن تدمِّرى روحك هذا التدمير ؟

ـ أحب أن أدمر نفسى • فى هذه المدينة فتى تمدد تحت خطَّى السكة الحديدية ومرّ القطار فوقه • اننى أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته • أنظر مثلاً : سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه ، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله •

ـ الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه ؟

ـ هم مفتونون بذلك ، مفتونون ! صحيح أنهم يصيحون قائلين ان ذلك فظيع ، ولكنهم فى قرارة أنفسهم مفتونون • وأنا نفسى مفتونة ، أنا أول المفتونين •

قال أليوشا فى رفق :

ـ هناك جانب من حق فيما ذكرته عن مشاعر الناس وعواطفهم •

فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة :

ـ يا سلام ! ما هذه الفكرة ؟ من ذا الذى يصدق أن راهباً هو الذى يقول هذا الكلام ؟ لا تستطيع أن تتصور يا أليوشا مدى ما أكنه لك من

احترام لانك لا تكذب أبدا • اسمع : يجب أن أقص عليك حلماً مضحكا أراه في بعض الاحيان • يتفق لى ان أرى في الحلم شياطين • أكون في الليل وحدي مع شمعة في الغرفة ، وفجأةً تنبجس الشياطين من جميع الأركان • انهم في كل مكان ، حتى تحت المائدة • ها هم اولاء يفتحون الباب ، وهأنا ذا أرى أن في الخارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً • انهم يريدون أن يدخلوا ليقبضوا عليّ • لقد اقتربوا ومدّوا مخالبهم• وأرسم اشارة الصليب فاذا هم يتراجعون جميعاً وقد استولى عليهم الخوف • ولكنهم لا ينصرفون تماماً ، بل يتلبثون قرب الأبواب وفي أركان الغرفة، كأنهم ينتظرون • وأشعر عندئذ برغبة قوية في أن أسب الله بصوت عالٍ • وآخذ أشتم الرب ، فاذا بالشياطين يتجهون نحوى جمهرةً من جديد ، فرحين كل الفرح ، جذلين كل الجذل ، يهمّون أن يقبضوا عليّ ••• ولكن ••• قف ! وأرسم اشارة الصليب مرة أخرى ، فيتراجعون مذعورين • ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفاسي تتقطع في بعض الأحيان •

قال أليوشا فجأة :

ـ أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً •

صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية :

ـ أهذا ممكن ؟ لا تمزح يا أليوشا ، أرجوك ، لأن ما أقوله جد لا هزل • هل يمكن أن يرى شخصان اثنان حلماً واحداً بعينه ؟

ـ يمكن جداً •

عادت ليزا تقول وقد استبدت بها دهشة تبدو شديدة :

ـ أليوشا ، أكرر قولي : هذا أمر هام جداً • ليس الحلم نفسه هو الذي يدهشني هذا الادهاش كله ، وانما يدهشني أن ترى أنت في الحلم

عين ما أرى أنا. أنت لا تكذب عليّ قط ، فقل لى الحقيقة هذه المرة أيضاً : أصحيح ما أفضيت به الىّ الآن ؟ ألم تكن مازحاً ؟

ـ هى الحقيقة بعينها .

قالت ليزا فجأة بصوت متوسل :

ـ أليوشا ، زرنى كثيراً ، زرنى أكثر مما تزورنى الآن .

قال أليوشا بلهجة جازمة :

ـ سأزورك دائماً ، سأزورك طوال حياتى .

عادت ليزا تقول :

ـ أنت الانسان الوحيد الذى أفتح له قلبى هكذا . أنا لا أتكلم بصدق الا معك . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به واركن اليه فى هذا العالم . وانى لأحب أن أتحدث اليك أكثر مما أحب أن أتحدث الى نفسى أيضاً . زد على ذلك أننى لا أخجل منك البتة يا أليوشا . لماذا لا أخجل البتة ؟ هل صحيح يا أليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم فى عيد الفصح ؟

ـ لا أدرى .

ـ عندى كتاب يصف محاكمة يهودى يقال انه قطع أصابع يدى طفل صغير فى الرابعة من عمره ، ثم صلبه على جدار ، صلبه بمسامير . وقد أكد أمام المحكمة أن الصبى الصغير مات بسرعة ، بعد أربع ساعات ... هذا سريع حقاً ! ويقال ان الصبى ظل يئن بغير انقطاع، وان اليهودى كان ينظر اليه مستمتعاً بالمشهد . ما أحسن هذا !

ـ أهذا حسن ؟

ـ نعم ، حسن . أقول لنفسى فى بعض الأحيان اننى أنا التى صلبت هذا الطفل . أراه معلقاً يئن ، وأرى نفسى جالسةً أمامه آكل مطبوخ

الأناناس بالسكر • اننى أحب مطبوخ الأناناس كثيراً • وأنت ؟

كان أليوشا ينظر اليها صامتاً • وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة ، وهذا لهب يطوف بعينيها •

ـ حين قرأت تلك القصة عن اليهودى ، ظللت أبكى طوال الليل، هل تعلم ؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأناته (ان طفلاً فى الرابعة من عمره ليدرك ما يقع له) ، ثم لا أزيد أنا على أن أحلم بمطبوخ الأناناس. فلما طلع الصبح بعثت برسالة الى أحدهم طالبة اليه أن يجيئنى حتماً • جاء • قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس • قلت له كل شىء ، كل شىء ، وأضفت : « هذا حسن » • فانفجر فى قهقهة كبيرة ، وأعلن أن هذا حسن جداً فى الواقع ، ثم نهض وانصرف • لم يمكث عندى الا خمس دقائق • احتقرنى ، هه ؟ قل لى يا أليوشا : أهو احتقرنى أم لا ؟

هكذا هتفت ليزا وهى تنتصب على كرسيها المتحرك ، وقد ومضت عيناها ببريق ساطع •

قاطعها أليوشا يسألها وقد اضطرب اضطراباً شديداً :

ـ قولى : أأنت التى استدعيته ؟

ـ أنا التى استدعيته •

ـ برسالة ؟

ـ نعم ، برسالة •

ـ أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذلك الطفل ؟

ـ لا ، لا من أجل هذا ، لا من أجل هذا أبداً • ولكن حين دخل غرفتى أسرعت ألقى عليه سؤالاً عن موضوع الطفل • فأجابنى ضاحكاً، ثم نهض وخرج •

قال أليوشا فى رفق :

ـ لقد أحسن التصرف معك •

ـ ولكنه احتقرنى ، أليس كذلك ؟ سخر منى ؟

ـ لا ... لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا مطبوخ الأناناس . انه مريض جداً يا ليزا ، هو أيضاً .

هتفت ليزا تقول وقد التمعت عيناها :

ـ نعم نعم ، هو مقتنع بذلك .

وتابع أليوشا كلامه فقال :

ـ انه لا يحتقر أحداً ، ولكنه لا يؤمن بأحد أيضاً . ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر فى آخر الأمر حتماً .

ـ وأن يحتقرنى أنا اذن أيضاً ؟ أيحتقرنى أنا أيضاً ؟

ـ أنت أيضاً .

قالت ليزا فى حنق شديد :

ـ طيب ، طيب . حين خرج من عندى ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر. ان الطفل المقطوع الأصابع شىء رائع؟ وجميل جداً أن يُحتقر المرء ...

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهى تحدق الى أليوشا فى عينيه . وصاحت تقول فجأة وهى تنتصب على كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة :

ـ هل تعلم يا أليوشا ؟ هل تعلم ؟ أود لو ... انقذنى يا أليوشا !

ثم كررت تقول بصوت يشبه فى هذه المرة أن يكون أنيناً :

ـ أنقذنى يا أليوشا . من ذا الذى كان يمكننى أن أفضى اليه بما قلته لك اليوم ؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك ، كان هو الحقيقة صافية . أوه ! سوف أقتل نفسى ، لأننى أشمئز من كل شىء.

أصبحت لا أريد أن أحيا ، لأني سئمت كل شيء . لقد مللت . لقد ضجرت . كل شيء يثير في نفسي الكره . أليوشا ، لماذا لا تحبني البتة ؟ انك لا تحبني قط ...

بهذا ختمت ليزا كلامها جائشة النفس . فقال أليوشا محتجاً بحرارة .

ـ بل أنا أحبك .

ـ أفسوف تبكي عليّ ؟

ـ سوف أبكي عليك .

ـ لا أريد أن تبكي عليّ لأنني رفضت أن أتزوجك ، ولكنني أريد أن تبكي عليّ لغير سبب ، هكذا ، هل تفهم ؟

ـ سوف أفعل ، أعدك بذلك .

ـ شكراً . أنا ظمأى الى أقوالك . أما الآخرون فليحكموا عليّ ، وليدينوني ، ليسحقوني جميعاً ، جميعاً ، دون استثناء أحد . لأنني لا أحب أحداً . هل سمعت ؟ لا أحب أحداً ، لا أحب أحداً البتة . انني أكرههم كلهم .

ثم أضافت وهي تتركه فجأة :

واذهب الآن يا أليوشا . لقد آن أن تمضي الى أخيك .

سألها أليوشا شبه مذعور :

ـ كيف أتركك وأنت في هذه الحالة ؟

ـ اذهب الى أخيك . سوف يغلقون السجن بعد قليل . أسرع . اليك قبعتك . قبّل ميتيا . انصرف . انصرف الآن .

قالت ليزا ذلك ودفعته الىخارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون اخراجاً

بالقوة • فكان أليوشا ينظر اليها مدهوشاً دهشة أليمة ، ثم اذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع فى يده اليمنى • انها رسالة مغلقة صغيرة المساحة • ألقى نظرة على العنوان فقرأ : « الى ايفان فيدوروفتش كارامازوف » • فشخص ببصره الى ليزا بقوة ، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون هو التهديد • وأمرته بصوت مندفع ، وهى ترتعش من رأسها الى قدمها :

ـ اعطه هذه الرسالة ، اعطه اياها حتماً ، أعطه اياها اليوم ، فوراً• والا شربتُ سماً • من أجل هذا انما استدعيتك •

واغلقت الباب وراءه فجأة • وسمع صوت المزلاج يُدفع •

وضع أليوشا الرسالة فى جيبه ، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة هوخلاكوفا التى كان قد نسى وجودها • فما ان ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج من جديد ، وشقت الباب قليلاً ، فأدخلت اصبعها فى الشق ، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة • انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها اصبعها واتجهت تجلس على مقعد من المقاعد بخطى بطيئة • جلست على المقعد منتصبة القامة تماماً ، وأخذت تتفرس فى اصبعها التى اسودت وفى الدم الذى تفجر تحت ظفرها • كانت شفتاها تختلجان ، ودمدمت تقول مراراً بسرعة :

ـ شريرة ، شريرة ، شريرة ، شريرة !

٤

النشيد والسد

كان الوقت متأخراً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا فى تشرين الثانى، نوفمبر) • لقد هبط الليل • ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات فى سبيل دخوله على ميتيا• كان كل شيء ، فى مدينتنا الصغيرة ، يجرى كما تجرى الأمور فى أى مكان آخر • فبعد الآونة الأولى التى أعقبت الاعتقال ، وبعد التحقيق التمهيدى ، كان الوصول الى السجن صعباً ، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون فى رؤية السجين أن يقوموا ببعض الاجراءات الرسمية • ولئن لم تهمل هذه الأنظمة بعد ذلك ، فقد استثنى منها عدد من الأشخاص • حتى لقد أصبح يسمح لميتيا فى بعض الأحيان أن يكلم زواره فى غرفة المقابلات دون رقيب • على أن عدد هؤلاء المستثنين كان محدوداً • انهم : جروشنكا ، وأليوشا ، وراكيتين • فأما جروشنكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش بعطف خاص• كان هذا العجوز يريد اصلاح خطئه الذى ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم فى موكرويه • انه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد ، قد غيّر رأيه فى المرة الشابة تغييراً تاماً • ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة ، قد رقّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله ، وكان

يقول لنفسه : « انه رجل طيب تفيض نفسه خيراً ، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أورداه موارد الهلاك ! » • ان نوعاً من الشفقة قد حلّ في نفس رئيس الشرطة محل الكره الذي شعر به في أول الأمر • وأما أليوشا ، الذي يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً • وأما راكيتين الذي أخذ يزور ميتيا في سجنه كثيراً منذ زمن ، فقد كان على علاقات طيبة متصلة « بآنسات رئيس الشرطة » ، كما كان يسميهن ، وكان يُرى في منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً• زد على ذلك أنه كان يعطى دروساً لأولاد مفتش السجن ، وهو عجوز طيب لطيف ، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له في ذلك قناة • وكان أليوشا ، هو أيضاً ، على صلة وثيقة بهذا المفتش ، فهو يعرفه منذ مدة طويلة ، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه في « شئون مقدسة » • أما ايفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه ، ويهاب قوة فكره خاصة ، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفاً ، ويتباهى بأنه « يفكر تفكيراً حراً » • وفي مقابل ذلك ، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبة لاسبيل الى مقاومتها • لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة في دراسة الأناجيل المزيفة ، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول في ذهنه من أفكار • حتى لقد كان في الماضي يسعى اليه في الدير ، ويظل يناقش الكهنة من الرهبان ساعات •

جملة القول انه لم يكن على أليوشا حين يصل الى السجن متأخراً الا أن يذهب الى مفتش السجن ، فاذا بكل شيء يجرى هيناً ليناً • أضف الى ذلك أن جميع موظفي السجن حتى أصغر حارس ، كانوا قد ألفوا أليوشا • والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها •

وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودى ، وينزل الى القاعة التى تتخذ مكاناً للمقابلة .

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة ، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذى يتهيأ للانصراف . كان راكيتين يتحدث بصوت عالٍ الى ميتيا الذى يشيّعه ضاحكاً ضحكاً قوياً جداً بينما راكيتين يتذمر . ان راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا ، ويتجنب أن يكلمه ، ولا يحييه الا على مضض ، فلما لمح أليوشا فى هذه المرة ، قطب حاجبيه وأشاح عينيه ، وتظاهر بانهماكه فى عقد أزرار معطفه الشتوى ذى الياقة الفرائية ، ثم انهمك بعد ذلك فى البحث عن مظلته ؟ ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما :

ـ أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخصنى .

فأجابه ميتيا مازحاً :

ـ واياك أن تنسى خاصةً ما يخص غيرك !

وأسرع يضحك من كلمته هو .

فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً :

ـ خير لك أن تسدى هذه النصيحة الى ذويك آل كارامازوف ، لا الى راكيتين ، أيها المستغلون !

فأجابه ميتيا قائلاً :

ـ ماذا دهاك ؟ انا انما كنت مازحاً . شيطان يأخذك .

ثم أضاف يخاطب أليوشا ، مشيراً برأسه الى راكيتين الذى كان يبتعد مسرعاً :

ـ هم جميعاً كذلك . لقد كان هنا مرحاً صافى المزاج ، فاذا هو يغضب الآن على حين فجأة . لقد أبى أن يحييك حتى بايماءة . أأنتما

متخاصمان تماماً ؟ لقد تأخرت اليـوم ، وأنا أنتظرك نافذَ الصبر منذ الصباح . لا بأس ، سنتدارك ما فات .

سأله أليوشا وهو يشير بعينه الى الجهة التي خرج منها راكيتين :

ـ لماذا يزورك هذا كثيراً ؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه ؟

ـ أأنا تتوثق الصداقة بيني وبين ميشيل ؟ لا ... هذا وغد كبير. هو يظن انني ... شقي مسكين . ثم انه لا يفهم المزاح ، ذلك مايغيظني منه أكثر من أي شيء آخر . انه لا يملك روح الفكاهة . نفسه واحدة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتُها حين وصلتُ الى هنا . ولـكنه في مقابل ذلك رجل ذكي . هيه يا ألكسي ، هأنا ذا قد هلكت الآن !

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس اليوشا الى جانبه . قال أليوشا خجلاً :

ـ نعم ، سيُحكم عليك غـداً . ولكن ألم يبق لك أي أمل فعلاً يا أخي ؟

قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة :

ـ ماذا تقصد ؟ آ ... فهمت ... تقصد تلك المحاكمة ! ولـكن هذه القصة لا تعنيني . اننا لم نتحدث حتى الآن الا في سفاسف ، كهذه المحاكمة التي تبدأ غداً ، وقد سكتُ أمامك عن المسـائل الأساسية حتى الآن . صحيح أنني سيُحكم عليّ غداً ، ولكن ليس هذا ما جعلني أقول انني هلكت . ليس رأسي هو الذي يتهدده الخطر حتى الآن ، بل ما في داخل رأسي . لماذا تنظر اليّ هذه النظرة التي تدل على الاستياء ؟

ـ انني لا أفهم ما تقصد يا ميتيا .

ـ أقصد أفكاري ... أقصد «الايطيقا» * . ماذا تعني هذه الكلمة : « الايطيقا » ؟

سأله أليوشا مدهوشاً :

ـ نعم . ذلك ضرب من العلم فيما يبدو .

ـ نعم ، هناك علم يسمى بهذا الاسم ... ولكن ... أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم .

ـ أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم . ان راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة . شيطان يأخذه . انه لن يصبح راهباً . انه يفكر فى الذهاب الى سان بطرسبرج ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد ، ولكن فى اتجاه أخلاقى رفيع . على كل حال ، قد يكون نافعاً فى هذا المجال ، وقد يصبح شخصاً مرموقاً فى الوقت نفسه . انه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره ... وبئست « الايطيقا » ! هل تعلم أننى هلكت يا ألكسى ، يا رجلاً تقياً من رجال الله ! اننى أحبك أكثر مما أحب سائر الناس . ان قلبى ليدمى حين أفكر فيك. من ذلك العالم الذى يسمى شارل برنار ؟

سأله أليوشا مدهوشاً من جديد :

ـ شارل برنار ؟

ـ لا ، لا شارل ، لقد أخطأت . لحظة . أقصد كلود برنار* . من كلود برنار هذا ؟ لعله كيميائى ؟

قال أليوشا :

ـ هو عالم من العلماء . ولكن أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أقول لك أشياء كثيرة عنه . لقد سمعت أنه عالم ، ولكن لا أدرى فى أى ميدان من ميادين العلم .

استأنف ميتيا كلامه قائلا :

ـ طيب ... شيطان يأخذه ... أنا أيضاً لا أدرى ... لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم فى أيامنا هذه. أما راكيتين فسيعرف

كيف يشق طريقه وينجح • انه يحسن التسلل الى كل مكان • هو فى نوعه برنار آخـر • أوه ! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار فى هذا العالم الآن !

سأله أليوشا ملحاً :

ـ هلاّ قلت لى ماذا دهاك ؟

ـ انه ينوى أن يكتب شيئاً عنى ، عن فضيتى ، ويأمل أن يكون ذلك بداية نشـاطه الأدبى • ولهـذا الغرض انما يزورنى • لقد شرح لى هو نفسه ذلك • انه يرجو أن يكتب مقالةً تتيح له أن يبسـط بعض الآراء الأخلاقية ، كأن يقول ، اذا صدق فهمى : « ما كان يمكنه الا أن يقتل ، لأن بيئته قد أفسدته » • وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل ، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكى فيما يقول • شيطان يأخذه • وليقل ما يشاء ، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به • فذلك كله لا يعنينى فى شىء • انه لا يحب أخانا ايفان • انه يكرهه • وليست عاطفته نحوك خيراً من عاطفته نحو ايفان • أما أنا فاننى أحتمل زياراته لأنه رجل ذكى • ولكننى أعده مع ذلك مغروراً بعض الغرور • قلت له منذ لحظات : « ليس آل كارامازوف أشقياء ، بل هم فلاسفة ، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة • أما أنت فانك لم تصبح فيلسـوفاً رغم جميع دراسـاتك ، لأنك لست الا فلاحاً » • وقد ضحك ضحكاً خبيثاً حين سمعنى أقول هذا الكلام • فأضفت عنـدئذ قولى : « لا جدال فى الآراء » * نكتـة حلوة ، هه ؟ أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً اذا أردت •

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة • قاطعه أليوشا سائلاً :

ـ لماذا تقدّر أنك هالك ؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة ؟

ـ لماذا أنا هالك ؟ هـم ... الواقع ... اذا أردت أن أقول الحقيقة ... اننى آسف على الله ! هذا هو الأمر ...

ـ آسف على الله ؟ كيف ؟

ـ تخيل ما يلى : ان هناك أعصاباً فى موضع من الرأس ... أقصد فى الدماغ ... شيطان يأخذ الاعصاب ... والأعصاب ألياف ، فحين تأخذ هذه الأليـاف بالاهتزاز ... أقصـــد يكفى أن أنظر الى شىء من الأشياء بعينى حتى تأخذ هذه الآليف بالاهتزاز حالاً .. ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة ، لا على الفور ، بل بعد لحظة ... تنقضى دقيقـــة فتحدث لحظة ... لا ، لا لحظة ... شيطان يأخذ اللحظة ... أقصـد تحدث صورة ، أى يحدث شىء أو فعل ... شـــيطان يأخذهما ! ... فذلك هو السبب فى أننى أدرك ثم أفكر . ليس السبب أن لى نفساً ،وأننى خلقت على صورة الله . سخافات هذه الأفكار كلها ! لقد شرح لى ميشيل كل شىء أمس ، فشـــعرت بما يشبه الحرق فى قلبى . العلم شىء رائع يا أليوشا ! هى انسانية جديدة ستولد . اننى أدرك الآن هذا ادراكاً تاماً ... ولكننى مع ذلك آسف على الله .

قال أليوشا :

ـ أنت آسف على الأقل . هذا وحده شىء ذو بال .

ـ أن أكون آسفاً على الله ؟ هى الكيمياء يا أخى ، الكيمياء ! لا حيلة لك يا صاحب القداسة ، الكيمياء تتقدم ، تنحوا ، أفسحوا المكان ، أفسحوا المكان ! أما راكيتين هذا فانه لا يحب الله ! هو لا يحبـه . ذلك ضعفهم جميعاً على كل حال . ولكنهم يكتمونه . انهم يكذبون . انهم يمثلون . سألته : «هل ستبسط هذه الأفكار فى مقالات نقدية ؟» ، فأجابنى ضاحكاً : « لن يُسمح لى بذلك ، هذا مؤكد » ، فسألته بعد ذلك : « ولكن ما الذى

سيصير اليه الانسـان فى هذا كله ، بغير اله ، وبغير حيـاة آخرة ؟ هل نستنتج من هذا أن كل شيء سيكون مبـاحاً بعد الآن ، وأن فى وسع الانسـان أن يفعل ما يشـاء ؟ » ، فأجابنى ضاحكاً من جديد : « أكنت لا تعرف هـذا اذن ؟ » ثم أضاف قائلاً : « ان الانسـان الذكى يمكنه أن يبيح لنفسـه كل شيء ، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه ، أما أنت فقد قتلت ثم سـمحت لهم بأن يقبضـوا عليـك . ولذلك تتعفن الآن فى زنزانة » . ذلك ما قاله لى ، لى أنا . هذا خنزير قذر حقاً ! هؤلاء الأوغاد ، كنت فيما مضى أطردهم . أما الآن ، فأنا أصغى اليه ، أسمع له . ان فى ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة . وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً . فى الأسبوع الماضى ، قرأ علىّ احدى مقالاته . فسجلت ثلاثة أسطر منها عامداً . لحظة . اليك ما سجلته .

وأسرع ميتيا فاستل من جيب صديرته ورقة وقرأ :

« من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة ، يجب عليه أولاً أن يضع شخصـه فى تعارض مع واقع حيـاته . . » . هل تفهم ما معنى هذا ؟

قال أليوشا الذى كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع :

ــ لا ، لا أفهم .

ــ وأنا أيضاً لا أفهم . ان هذه الجملة غامضة ،ولكنها تبدو لى عميقة جداً . وقد أسرّ الىّ « أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقـه . فالبيئة هى التى تفرضها ... » . انهم يخافون البيئة . وهو ينظم اشعاراً ، هذا الوغد . لقد تغنى بقدم هوخلاكوفا ، هأ هأ هأ .

قال أليوشا :

ـ أعرف ذلك .

ـ ها ... ذكر لك هذا ؟ هل قرئت لك تلك الأبيات ؟

ـ لا .

ـ هي عندى . سأقرؤها لك . هذه حكاية طويلة ، هل تعلم ؟ سأقصها عليك . يا للوغد ! منذ ثلاثة أسابيع قام فى رأسه أن يغيظنى . قال لى : « ما أغباك ! أنت ضيعت نفسك ، وضيعت نفسك فى سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط . أما أنا فسأجنى مائة وخمسين ألف روبل ، بتزوج أرملة غنية . وبعد ذلك أشترى منزلاً جميلاً فى سان بطرسبرج . » . وأسرّ الىّ عندئذ أنه يغازل السيدة هوخلاكوفا ، التى لم تكن ذكية حتى فى ريعان صباها ، ثم لم يبق لها شىء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها . وأضاف قوله : « وهى فوق ذلك حساسة عاطفية ، ومن هنا سآتيها . سوف أتزوجها ، وآخذها الى سان بطرسبرج ، فانشىء هنالك جريدة . » . وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة شبقة وهو يقول لى هذا الكلام ، ولكن لا بسبب هوخلاكوفا طبعاً ، لأن خيال المائة وخمسين ألفا روبل هو الذى كان يُسيل لعابه . ومنذ ذلك الحين أصبح يسرّ الىّ كل يوم بأشياء جديدة ، قائلاً : « ان الأمور تجرى مجرى حسناً » ، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك . ولكن ها هو ذا يُطرد فجأة من منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد غلبه بطرس ايلتش وانتصر عليه . مرحى ! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها . فى فترة حماسته انما نظم تلك القصيدة . وقد اعترف لى قائلاً : « تلك أول مرة أغض فيها من قيمتى فأرضى أن أنظم شعراً . لقد ارتضيت ذلك لأغوى امرأة حمقاء غبية فى سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه . فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز ، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع » .

ان هؤلاء الناس يجدون فى جميع الأحيان عذراً يسوّغون به حقاراتهم ودناءتهم ، هو عذر المنفعة الاجتماعية . وقد قال لى : « ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبكم بوشكين ، لاننى استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً فى بضعة أبيات شعرية صغيرة هى فى ظاهرها سارة مرحة » . على أن ما يقوله عن يوشكين يبدو لى معقولاً . فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً ، فانه ما كان له أن يقتصر على التغنى بأقدام صغيرة جميلة ! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التى نظمها ! ان فهم غروراً ، هؤلاء الشعراء جميعاً ! ان العنوان الذى تخيله هذا «الفيلسوف الوضيعى» لقصيدته هو التالى : « لشفاء قدم المحبوب الصغيرة » .

ياللقدم الفتانة
المتورمة الآن
الأطباء حولها منهمكون
ليضمدوها بحب وحنان
لست أندب القدم ،
فانى أترك هذا لبوشكين .
لكننى أشكو الراس
لأنه لا يفكر كما ينبغى أن يفكر .
كانت قد بدأت تفهمنى
حين تمردت القدم !
هلموا فاشفوا القدم الرقيقة
حتى تستطيع الأفكار أن تحلق .

انه وغد ، وغد حقاً ، ولكن أشعاره مرحة . ثم ان فيها « فكرة وطنية » ، كما يقول . لقد استشاط غيظاً حين طُرد . كان يصرف بأسنانه من شدة الحنق .

قال أليوشا :

ـ لقد انتقم منذ الآن . نشر مقالة عن السيدة هوخلاكوفا .

وقص أليوشا على ميتيا بسرعة ، قصة المقالة الواشية المتجنية التى ظهرت فى جريدة « الشائعات » . فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه :

ـ انه هو ، انه هو ... هو كاتب المقالة . ليس فى ذلك شك ! آه من تلك الأقاويل والنمائم ! أنا على علم ... ما أكثر ما نشروا من تخرصات لئيمة حقيرة حتى الآن ، عن جروشنكا مثلاً ! وعن الاخرى أيضاً ، عن كاتيا ... هِم ...

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يمشى فى الغرفة مهموم البال .

استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت :

ـ لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخى . ان غداً ليوم عظيم رهيب بالنسبة اليك : غداً تتم ارادة الله ... يدهشنى مع ذلك أنك فى عشية ذلك الغد تضيع وقتك فى الكلام عن سفاسف ...

قاطعه ميتيا يقول بحرارة :

ـ لا يدهشنك هذا . أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقى العفن النتن ، عن القاتل ؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه ، وأسرفنا فى الكلام . لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف ، النتن ابن النتنة ، لسوف يعاقبه الله ... سوف ترى ... لعاقبنَّه الله لا محالة ...

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد ، وقبّله فجأة . كانت عيناه تسطعان . وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره :

ـ لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا ، أما أنت فسوف تفهمه • ومن أجل ذلك انما كنت في ظمأ شديد الى أن أراك • هل تعلم أننى ، منذ زمن طويل ، أريد أن أكلمك فى أشياء كثيرة ، هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة ، ولكننى لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن ؟ يبدو أنه لم يكن قد آن لى أن أسرّ اليك بما في نفسي بعد • لقد انتظرت ، انتظرت الى آخر دقيقة ، لأفتح لك قلبى• أخى ، أخى ، اننى فى أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، قد أصبحت انساناً آخر • لقد وُلد فىّ كائن جديد • الحق أنه كان موجـوداً فىّ منـذ الأزل ، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة • شيء رهيب ! اننى لا أخشى أن أعمل بيدى فى المناجم عشرين عاماً • ذلك لا يهمنى • هناك شيء آخر هو الذى اخشاه الآن• اننى أخشى أن يزول، من جديد، الانسانُ الذى بُعث حياً فى نفسى. ان المرء يستطيع أن يجد حتى فى سجون الأشغال الشاقة ، حتى فى جحيم غياهب المناجم، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب انسانى وان يكن رجلاً قاتلاً • يستطيع المرء أن يصادقه ، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يحيا وأن يحب وأن يتألم ! يستطيع المرء أن ينذر نفســـه لذلك السجين ، ليشعل فى قلبه مرةً أخرى شعلة الحب التى اطفأها الظلم ، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سـنين ، الى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفسٌ أحياها الألم وطهّرها ونقّاها وأسبغ عليها حلة النبل والكرم ، فاذا هى تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء • ان فى وسعنا أن نحيى الملاك فى الشيطان ، وأن نبعث البطل فى الجبان • انهم كُثْرٌ هنالك ، أولئك الذين سقطوا ؟ انهم مئات ومئات ، ونحن جميعـاً مسئولون عن مصيرهم • لماذا رأيت فى حلمى.« الطفل » ، وأنا اجتاز من حياتى مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأسـاة ؟ « لماذا يجب أن يتألم الطفل » ؟ تلك اشارة من السماء نزلت علىّ فى ساعة المحنة

العظمى . سأمضى الى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الطفل . ان جميع البشر متضامنون فى أخطائهم ، وكل انسان مسئول عن آثام سائر الناس . « الطفل الصغير » يتعذب فى سبيل الآخرين ، لأن فى هذا العالم اطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار . «الطفل الصغير» موجود فى كل مكان. سأمضى فى سبيل الآخرين ، لأنه لابد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم . أنا لم أقتل أبى ، ولكن من واجبى أن أضحى بنفسى . اننى أقبل ما كُتب علىّ ! هنا ، فى هذا السجن ، انما فهمت هذه الأشياء كلها ... هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة .. انهم كثيرون هنـــاك ، تحت الأرض ، يحفرون فى المنجم . صحيح أننا ســـنكون مكبلين بالأغلال ، وصحيح أن ارادتنا ستكون محطمة . ولـــكن ، هناك ، فى ذلك الألم الكبير ، سنبعث الى الفرح ، الى الفرح الذى لا يمكن بدونه أن يحيـــا الانسان ، الى الفرح الذى بدونه لا يوجد الله ، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هى الخاصة التى ينفرد بها الله . رباه ! ألا فليفن الانسان نفسه فى الصلاة والدعاء ! كيف يمكننى أن أعيش تحت الأرض بدون الله ؟ ان راكيتين يكذب ! وحين ســـيطرد البشرُ الله من على ســطح الأرض ، سنهتدى اليه نحن فى جوف الأرض ، ونرتد اليه . ان السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يستطيع أن يحيا بدون الله ، وهو أعجز عن ذلك من الانسان الحر الطليق ! فمن غياهب الليل ، سنغنى نحن الذين نعيش تحت الأرض ، سنغنى نشـــيداً حزينـاً يمجد الخالقَ ينبوعَ الســـعادة والضياء . تبارك الرب ، وتبارك فرحه ! اننى أُحب الله !

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات . كان قد اصفر وجهه ، وتقبضت شفتاه تقبضاً عصبياً ، وسالت من عينيه دموع. واستأنف كلامه يقول :

ــ لا يأخى ، ان الحيـــاة غنيـــة ، فى وســع المرء أن يحيـــا تحت

الأرض أيضاً . لا تستطيع أن تصدق يا أليوشا الى أى حد أحب الآن أن أحيا ، ولا تستطيع أن تتصور رغبتى المحمومة القوية فى أن أوجد وأن أعرف ، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التى استولت على وأنا بين هذه الجدران المتقشرة ! ان راكيتين لن يفهم هذا فى يوم من الأيام ، لأنه لا يفكر الا فى تحصيل ثروة ، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام . لذلك انتظرتك نافد الصبر . ليس يهمنى الألم . لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيراً . كنت أخافه فى الماضى ، ولكننى أصبحت لا أخافه . هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الاجابة أمام المحكمة ؟ يخيّل الىّ فى بعض الأحيان أن بى من القوة ما سوف يمكننى من تذليل جميع المصاعب ، والانتصار على جميع المحن ، لا لشىء الا أن أقول لنفسى فى كل لحظه سعيدا : « أنا كائن ، أنا موجود » . لسوف أردد وانا فى العذاب الذى لا نهاية له : «أنا موجود» . لسوف أهتف حين يشنجنى الألم : « أنا كائن » . لسوف أشعر اذا رُبطت بالعمود وشددت اليه ، بأننى ما زلت أحيا ، وسوف أرى الشمس . وهبنى لم أرها ، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتلألأ . لأن أعرف أن الشمس تتلألأ فذلك وحده حياة كاملة . أليوشا ، طفلى الحبيب ، أن أفكارهم الفلسفية تقتلنى قتلاً ، تعساً لهم ! ان أخانا ايفان ...

قاطعه اليوشا سائلاً :

ـ هيه ... ما له ، ايفان ؟

ولكن ميتيا لم يسمع .

ـ كنت فى الماضى أجهل جميع هذه الشكوك ، ولكنها كانت تضطرب فى نفسى على غير علم منى . ولعلنى لم أندفع فى الشراب ، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف الا لأن تلك المعانى كانت تغلى فى داخلى.

فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها انما كنت أتخبط ذلك التخبط.
ان أخانا ايفان ليس مثل راكيتين . انه يخفى فى نفسه فكرة يكتمها
سراً . ان أخانا ايفان يشبه أبا الهول . انه يصمت ، يصمت دائماً .
أما أنا فان فكرة الله تعذبنى ، وهى عذابى الوحيد الحق . ما عسى أن
يحدث اذا لم يوجد الله؟ لنفرض أن راكيتين على حق ، لنفرض أن الدين
من صنع خيال الانسان . اذا لم يوجد الله كان الانسان هو سيد الأرض،
ورئيس الكون ! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الانسان فاضلاً بدون الله؟
ذلك هو السؤال ، وأنا لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال . من الذى
سيحبه الانسان اذا لم يوجد الله ؟ قل لى : الى من سيندفع الانسان
بشكران روحه ، ولمن سنغنى أنشودة فرح ؟ ان راكيتين يسخر من هذا
كله . هو يرى أن الانسان يستطيع أن يحب الانسانية مستغنياً عن الله .
لا يستطيع الا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام . أما أنا فلن أفهمه فى
يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلةً لراكيتين. قال لى اليوم : « الأولى بك
أن تهتم الآن بزيادة الحرية فى العالم ، موسعاً حرية المواطن السياسية .
فاذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد
الجزارون أسعار اللحم . فبذلك تخدم الانسانية خدمةً أصدق وأجدى
مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها . » . أجبته قائلاً : « انك اذا أنكرت
الله ، تنتهى الى زيادة سعر اللحم أنت نفسك ، فتربح بالكوبك روبلاً ».
عندئذ غضب راكيتين . ما هى الفضيلة ؟ اشرح لى الفضيلة يا ألكسى . أنا
فى ذهنى فكرة عن الخير ، ولكن الصينى فى ذهنه فكرة أخرى مختلفة
عن فكرتى أنا . فالخير فكرة نسبية ، أليس كذلك ؟ أليس الخير فكرة
نسبية ؟ هذه مشكلة مقلقة . لن تسخر منى ، أنت على الأقل ، اذا قلت
لك ان هذه المشكلة قد أرقتنى ليلتين ، فلم أستطع النوم . اننى أتساءل
اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا فى هذه المشكلة .

باطل ! ان ايفان لا يؤمن بالله • انه لا يؤمن الا بالأفكار • ذلك يفوق مستواى • ولكنه يصمت • أحسب أنه ما سونى؟ • سألته فلم أظفر منه بجواب • ملت عليه ميلى على نبع حقيقة لأروى ظمئى ، ولكنه لم يجبنى • مرةً واحدة ، افلتت منه كلمة •

سأل أليوشا معجلاً :

ـ ماذا قال ؟

ـ سألته : « أكلُّ شىء مباح اذن ؟ » ، فقطب حاجبيه وقال : « كان أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً خالع العذار ، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً » • ذلك كل ما قاله لى • لم يقل شيئاً آخر • على الأقل ، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين •

قال أليوشا بمرارة :

ـ حقاً ؟ متى جاء اليك ؟

ـ سأحدثك عن هذا فى مرة أخرى • أما الآن ، فما حان الحين بعد • أنا لم أكد أكلمك عن ايفان حتى هذه الساعة • أرجأت الحديث عنه الى النهاية • فمتى خُتمت القضية وصدر الحكم ، سأقص عليك شيئاً • سأقول لك عندئذ كل شىء • هناك حكاية رهيبة • ستكون حكَماً علىَّ فى هذه المسألة • أما الآن فلا أريد أن نعالج هذا الموضوع • اعرف كيف تصمت بانتظار ذلك • كنت تكلمنى منذ هنيهة عن يوم الغد ، عن المحاكمة ، فهل تصدِّق أننى لا أعلم شيئاً ؟

ـ هل تكلمت مع ذلك المحامى ؟

ـ المحامى ؟ دعك من هذا ! لقد قصصت عليه كل شىء • انه وغد لطيف من أوغاد العاصمة ، انه برنار ! هو لا يصدِّق كلمة واحدة مما

أقوله له • تصور أنه مقتنع بانني أنا القاتل ! أرى ذلك في نظرته الىّ • سألته : « فلماذا توليت اذن مهمة الدفاع عني ؟ » • انني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً • وقد استدعوا كذلك طبيبـــاً ، بغية أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون ! ألا انني لن أطيق ذلك ، ولن أقبله ! ان كاترين ايفانوفنا هي التي تظن أنها بذلك تقوم « بواجبها » حتى النهاية • على أنها تجبر نفسها على ذلك اجباراً ، وتحمل نفسها عليه حملاً (قال ميتيا هذا وهو يبتســـم ابتســـامة مرة) • انها قطة ، قاســـية القلب ! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه ، وتعرف أنني وصفتها بأنهـــا امرأة « ذات غضب شديد » • لقد نُقل اليها هذا الكلام • نعم ، لقد تكاثرت الشهادات علىّ حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى • ما يزال جريجوري يتهمني • هو رجل شريف ، لكنه غبي • ما أكثر الشرفاء عن غبـاوة ! هذه فكرة عبّر عنها راكيتين • لقد أصبح جريجوري يناصبني العداء • أصبح عدوّي • وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه • أقول هذا وأنا أقصد كاترين ايفانوفنا • أخشى ••• آه ••• أخشى خاصةً أن تقصّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل • انهـــا لن تعفيني من قصّ هذه الحكاية ، معتقدةً أنها بذلك تبرىء ذمتها تجاهي ! آه ••• لسوف تمضي الى نهاية الشوط ••• أنا أعرفها • ولكنني لا أريد تضحيتها هذه ! سوف أشعر من ذلك بالخزي والعار أمام قضاتي • كيف يكون في امكاني أن أحتمل هذا ؟ اذهب اليها يا أليوشا لترجوها أن لاتقص هذه الحكاية على الناس • أتظن أن هذا مستحيل ؟ لا ضير اذن • سيان عندي أن تقصّها وأن لا تقصّها • سأرتضي مذعناً • أما هي فلست أشفق عليها ولا أرثي لها • هي التي أرادت ذلك • لن تنال الا ما تستحقه • وأما أنا يا ألكسي، فسوف ألقي فيهم خطاباً ••• اعلم هذا ••• (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم

ابتسامة مرة من جديد) • ولكن ، ولكن ••• هناك جروشا ، جروشا ••• آه ••• رباه ! ••• لماذا ينبغى لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب ؟ (كذلك صاح ميتيا فجأة وفى صوته دموع) • ان صورة جروشا تقتلنى، تقتلنى قتلاً ، تقتلنى قتلاً ! لقد زارتنى جروشا فى هذا اليوم •

ـ حكت لى كل شىء • لقد أهنتها اهانة شديدة •

ـ أعرف هذا • تباً لطبعى ما أرداه ! لقد عذبتها بالغيرة • وحين ودّعتها ندمت وقبلتها ولكننى لم استغفرها •

صاح أليوشا يسأله :

ـ لماذا لم تستغفرها ؟

ـ حماك الله يا فتاى الصغير من استغفار امرأة تحبها ، على خطيئة ارتكبتَها فعلاً ••• لا سيما المرأة التى تحبها ، التى تحبها ، مهما تكن اخطاؤك فى حقهـا ، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف الا الشيطان ما فى نفسها • أنا خبير فى هذا على الأقل • حاول مرة أن تعترف لهـا بأنك أذنبت فى حقها ، وأن تقول لها : « أنا مذنب ، فاغفرى لى ، اغفرى لى »• لتسمعنّ منهـا عندئذ سيلاً من ملامات • لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة ، بل ستأخذ تذلُّك وتخفضك الى الأرض ، معدّدة جميع أخطائك ، حتى تلك التى لم تقترفها • لن تنسى شيئاً ، وستضخم كل شىء ، وستختلق اخطاء جديدة عند الحاجة ، وبعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك • وخير النساء هنّ اللواتى يغفرن على هذا النحو • ولكنها ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك • تلك هى قسوتهن الكاسرة المفترسة • هن جميعاً كذلك • اعلم هذا • كذلك خُلقن ، من أولاهن الى آخرهن ، هاته الملائكة اللواتى لا نستطيع أن نحيا بدونهن • سأطلعك بغير تكلف ولا تحرج على حقيقة كبرى

يا صغيرى الطيب : ان كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امراة . ذلك هو اقتناعى العميق . بل هو اكثر من اقتناع : هو شعور عميق وعاطفة حميمة . ان على الرجل ان يكون كريما ، وهذا لن يغض من قيمته أبدا ، ولو كان قيصر . أما أن يستغفر ، فكلا ثم كلا! يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الاحوال . تذكر دائماً هذه القاعدة التى علمك اياها اليوم أخوك ميتيا ، أخوك ميتيا التى أوردته النساء موارد الهلاك . لا، لا ، اننى أوثر أن أصلح اخطائى فى حق جروشنكا بطريقة أخرى ، دون استغفار . اننى أعظمها وأقدسها حقاً يا ألكسى ، اننى أشعر نحوها باعجاب لا حدود له . وهى تدرك ذلك وا أسفاه ، ثم ترى اننى لا أمحضها حباً كافياً . انها تعذبنى بحبها . لم يكن هذا أمراً ذا بال فى الماضى . كنت فى الماضى لا أحبها الا بسبب منحنيات وخطوط جسمها الجهنمية . أما الآن فان روحها هى التى نفذت فى نفسى فصرنا روحاً واحدة . بها انما أصبحت رجلاً . هل يزوجوننا فى السجن ؟ ان لم يزوجونا فلأموتن غيرة . اننى لا أزيد كل يوم على أن أحلم بأمور رهيبة فظيعة ... ماذا قالت لك عنى ؟

ردد له أليوشا أقوال جروشنكا . أصغى ميتيا بانتباه شديد ، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة ،وظل راضياً مغتبطاً ، وهتف يقول :

ــ هى اذن لا تحقد على لأننى غيور . تلك امرأة حقاً . قالت لك : « أنا نفسى قاسية » ، أليس كذلك ؟ آه ... اننى أحبهن ، هاته النساء القاسيات ، رغم أننى لا أطيق أن يعذبننى بالغيرة . اننى لا أحتمل هذا . سيكون بيننا شجار كثير ، أنا وهى ، ولكننى سأحبها حباً أبدياً لا نهاية له . هل سيزوجوننا ؟ هل يزوجون السجناء ؟ تلك هى المسألة كلها . لسوف يستحيل على أن أحيا بدونها ...

سار ميتيا فى الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه . وكان الظلام

قد خيمّ أثناء ذلك • وفجأةً ظهر على ميتيا القلق ، كأن فــكرة ثقيلة قد هاجمته وجثمت على صدره •

ــ آه ! ••• قالت لك ان هناك سراً بيننا ، أليس كذلك ؟ قالت اننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا ؟ لا يا عزيزتي جروشنكا ! ••• لقد أخطأت الظن ••• أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه الا النساء ، هاته الحمقاوات ! لا بأس يا أليوشا ، يا بني العزيز ، سأكشف لك عن سرّنا •

نظر ميتيا الى جميع الجهات محاذراً ، ثم اقترب من أليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس في أذنه وقد بدت في وجهه معاني السر ، رغم أن أحداً لا يستطيع في الواقع أن يسمعهما : فالعجوز غاف على دكة في ركن من القاعة ، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا مباغتتهما أثناء الحديث • قال ميتيا بهمس سريع :

ــ سأكشف لك عن سرنا • لقد كنت أنوى أن أطلعك على هذا السر فيما بعد ، ولكن كيف يمكنني أن أتخذ قراري بدونك ؟ أنت كل شيء في نظري • ومهما أقل ان ايفان يفوقنا ، فأنت في نظري ملاك • ولقــرارك وحــده قيمــة في الواقع • من يدري ؟ لعلك أنت المتفــوق لا ايفان • اسمع : ان المسألة مسألة ضمير ، مسألة ضمير أخلاقي • هذا سر خطير جداً ، يبلغ من الخطورة أنني لا أستطيع أن أحمله وحدي ، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه • فأنا أعتمد عليك • على أن اتخاذ القرار لم يحن حينه بعد • وانما يجب انتظار صدور الحكم • فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، كان عليك أن تقطع برأي في الأمر فتقرر مصيري • أما الآن فلا تقل شيئاً • سأشرح لك الموضوع ، فتصغي الى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأي • عليك أن تصمت • لن أقول لك كل شيء اليوم • سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل • عليك خاصةً

أن لا تقول شيئاً ، أن لا تنطق بكلمة : لا سؤال ، ولا حركة ! اتفقنا ؟ ولكننى نسيت : هناك عيناك ، فما عسانى صانعاً بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك ؟ آه من عينيك ! اننى أخشى أن تقولا لى رأيك ولو سكت . اسمع يا أليوشا : لقد اقترح علىّ ايفان « أن أهرب » . لن أقصّ عليك التفاصيل : لقد تصورنا كل شيء ، وسيُدبّر كل شيء . اسكت ، لا تنطق بكلمة . سأسافر الى أمريكا مع جروشنكا . هل أستطيع أن أعيش بدونها ؟ انهم لن يستطيعوا أن يمنعوها من اللحاق بى . هل يزوّجون السجناء ؟ ايفان يؤكد أنهم لا يفعلون . فما عساى أفعل بدون جروشنكا ، تحت الأرض ، فى المناجم ، مع المطرقة ؟ ولكن من جهة أخرى هناك الضمير . سأكون قد فررت من الألم . لقد تلقيت اشارة من السماء ، فاذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة ، وأُعرض عن طريق التطهر الذى فُتح أمامى . ايفان يؤكد أننى سأستطيع أن أصبح فى أمريكا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع منى فى المناجم تحت الأرض . طيب ! ولكن أين يصبح النشيد الذى سننشده من تحت الأرض ، اذا أنا سافرت الى أمريكا ؟ أمريكا ... ان أمريكا هى العودة الى هذا العالم الباطل . لا بد أن أمريكا ملأى بأنواع الدناءة . أعتقد أن الأمر هنالك كذلك . هل أفرّ من التكفير عن ذنوبى ؟ هل أهرب من طريق الصليب ؟ اننى أفضى اليك بما فى نفسى يا ألكسى ، لأنك الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى . أما الآخرون فان ما قلته لك فى هذه اللحظة ليس فى نظرهم الا حماقة وغباوة وسخفاً . لسوف يظنون أن لوثةً خالطت عقلى فجننت ، أو أننى أبله . لا ، أنا لم أفقد عقلى ، ولا أنا معتوه . ان ايفان يدرك ، هو على الأقل ، ماذا يعنى ذلك النشيد ، ولكنه يجيبنى ، بل يلزم الصمت . انه لا يؤمن بالنشيد . لا تقل شيئاً ! اسكت ! قرأت جوابك فى عينيك . لقد انتهيتَ

الى قرار منذ الآن . لا تعلن هذا القـرار ، ارحمنى ، لأننى لا أستطيع أن أحيا بدون جروشنكا . انتظر صدور الحكم !

أنهى ميتيا كلامه منقلبَ السحنة . كان يمسك أليوشا من كتفه بقوة ، ويغرس فى عينى أخيه نظرة ملتهبة مثقلةً بمساءلة قلقة . وعاد يردد مرةً ثالثة قوله :

ـ هل يزوِّجون السجناء ؟

أصغى اليه أليوشا بدهشـة عميقة ، وأحس باضطراب شديد . وسأله :

ـ قل لى : هل يلح ايفان على مشروع الهرب هذا ؟ ومن ذا الذى فكَّر فى هذا المشروع أولَ من فكَّر فيه ؟

ـ هو الذى فكَّر فيه . وانه ليلح كثيراً . لم يكن قد زارنى قبل ذلك . ثم اذا به يجىء الىَّ فجأة منذ اسبوع ، فيأخذ يتحدث فى مشروع الهرب هذا على الفور . انه يلحُّ الحاحاً رهيباً . هو لا يرجونى رجاء ، لا يتوسل الىَّ توسلاً ، بل يأمرنى أمراً . انه لا يشك فى أننى سأطيعه ، رغم أننى فتحت له قلبى كما فتحته لك الآن ، وحدثته عن النشيد . شرح لى خطته تفصيلاً . لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية . سأبسط لك هذا فيما بعد . انه يلح الحاحاً حانقاً . وهو يعرض علىَّ المال خاصـة : عشرة آلاف روبل للهرب ، وعشرين ألفا للاستقرار فى أمريكا . يقول اننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين الى النجاح كل الاطمئنان .

سأله أليوشا :

ـ وهل طلب منك أن لا تحدثنى فى هذا الأمر ؟

ـ أمرنى بأن لا أقول كلمة واحدة لأى انسـان ، وخاصةً لك

أنت ، خاصةً لك أنت ، بأية حال من الأحوال ! أغلب الظن أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقى . لا تذكر له أننى أفضيت اليك بهذا السر . لا تقل له كلمةً واحدة فى هـــذا الأمر ، أرجوك ، أضرع اليك !

قال أليوشا :

ـ أنت على حق . لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم . فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، عرفتَ أنت نفسك ما الذى يجب عليك أن تفعله. سيكون قد وُلد فيك انسان جديد ، وهذا الانسان الجديد هو الذى سيقرر .

ـ انسان جديد أو برنارٌ يقرر كما يمكن أن يقرر برنار . لعلنى أنا نفسى واحد من أمثال برنار .

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم ابتسامة مرة . قال أليوشا يسأل أخاه :

ـ أخى ، هل يمكن حقاً أن لا يكون لك أى أمل فى تبرئة نفسك؟

فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة ، وحـّرك رأسه ، وقال متعجلاً :

ـ أليوشا ، ملاكى ، آن لك أن تنصرف . لقد سمعت الآن صوت المفتش فى الفناء ، وسـيكون هنا بين لحظة وأخـرى . تأخرنا كثيراً ، وهذا يخالف النظام . قبّلنى بسرعة ، وارسـم علىّ اشـــارة الصليب يا ملاكى . ارسم علىّ اشارة الصليب لنازلة الغد .

تعانق الأخوان وقبل كل منهما الآخر .

قال ميتيا فجأة :

ـ ان ايفان يقترح علىّ الهرب ، ولكنه مقتنع بأننى القاتل .

وطافت بشفتيه ابتسامة حزينة •

سأله أليوشا :

ــ هل سألته أهو يعتقد أنك القاتل ؟

ــ لا ، لم أسأله عن هذا • أردت أن أسأله ، ولكننى لم أجسر • على أنه لا داعى الى سـؤاله ، لأننى أقرأ رأيه فى عينيـه • والآن استودعك الله !

تعانق الأخـوان وقبّل كل منهما الآخـر مرةً ثانيـة • وأسرع أليوشا ينصرف • ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة ، لحظةَ همّ أن يخرج من الحجرة ، وقال له وهو يمسكه من كتفيه :

ــ أليوشا ، أنعم النظر الى وجهى ، هكذا !•••

كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مروّعاً فى الظلام• وتقبضت شفتاه ، وغارت نظرته فى عينى أليوشا :

ــ أليوشا ، قل لى الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك فى هذه اللحظة • أتعتقد أننى قتلت ؟ أتعتقد أنت ، نعم أنت ، أننى قتلت ؟ أريد أن أعرف الحقيقة ، لا تكذب ، لا تكذب •••

كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره •

فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة :

ــ ما هذا الكلام ؟ ما هذا الكلام ؟ ماذا أصابك ؟•••

فعاد ميتيا يقول مردداً :

ــ قل الحقيقة ، أريد الحقيقة ، لا تكذب •

فهتف أليوشا يقول بصوت متهدج مرتجف :

ـ أنا لم يخطر على بالى لحظةً أنك قاتل •

كان الانفعال يخنقه ، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف يميناً • فأشرق فى وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة • وقال ببطء كأنه يثوب الى نفسه بعد اغماء :

ـ شكراً ، شكراً • لقد رددت الىّ الحياة • تصور أننى كنت أخشى حتى الآن أن ألقى عليك هذا السؤال • كنت أخاف أن أسألك ، أن أسألك أنت ، أنت خاصة ! امض الآن • انك قد امددتنى بقوى ليوم الغد ، بارك الله فيك ! انصرف الآن • حان أن تنصرف •

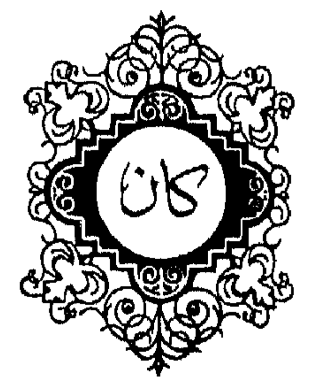
وأضاف يقول بغتة :

ـ أحِبّ ايفان !

خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه • ان هذا الشك الذى يعذّب ميتيا ، ان اساءة الظن هذه التى تساور ميتيا ، حتى فيه هو أليوشا ، قد بصّرت أليوشا بهوة اليأس السحيقة التى هوى اليها أخوه الشقى ، والتى لم يكن أليوشا يظنها عميقة هذا العمق كله • وشعر أليوشا من جديد بذلك الألم الحاد الذى يكاد يكون جسمياً ، ذلك الألم الذى شعر به قبل لحظات • وعادت الى ذهنه تلك العبارة التى هتف بها أخوه ميتيا : « أحبّ ايفان » • وكان أليوشا ذاهباً الى ايفان على كل حال ، فلقد كان يحب أن يراه منذ هذا الصباح • ان التفكير فى ايفان يعذبه كما يعذبه التفكير فى ميتيا • والآن ، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا ، أصبحت حاجته الى التحدث مع ايفان أقوى منها فى أى وقت مضى •

٥

ما أنت ، ما أنت !



كان على أليوشا ، حتى يذهب الى ايفان ، أن يمر أمام المنزل الذى تسكنه كاترين ايفانوفنا . ان نوافذ شقة السيدة الشابة مضاءة. توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد . انه لم ير كاترين ايفانوفنا منذ أكثر من أسبوع ، وخطر على باله فجأة أن ايفان يمكن أن يكون عندها الآن ، ولا سيما فى عشية يوم حاسم كيوم الغد. فبينما هو يصعد السلَّم الذى يضيئه مصباح صينى بنور ضعيف ، إذ هو يلمح رجلاً يهبط السلَّم ، فما ان وصل هذا الرجل اليه حتى عرف أنه أخوه. اذن لقد كان ايفان عند المرأة الشابة ثم هو تركها فى هذه اللحظة.

قال ايفان فيدوروفتش بلهجة جافة خشنة :

ـ آ ... أهذا أنت اذن ؟ طاب يومك ، والى اللقاء . أأنت ذاهب اليها ؟

ـ نعم .

ـ لا أنصحك بذلك ، لأنها مضطربة اليوم اضطراباً شديداً ، ولن نستطيع زيارتك الا أن تفاقم اضطرابها .

صاح صوت يقول من أعلى ، من خلال باب فُتح على حين فجأة :

ـ بل اصعد ، اصعد • أأنت آت من عنده يا ألكسى فيدوروفتش ؟

ـ نعم ، رأيته منذ برهة •

ـ هل حمّلك رسالةً الىّ ؟ ادخل يا أليوشا • وأنت أيضاً يا ايفان ، تعال ، آمرك بهذا ••• هل سمعت ؟

كان صوت كاترين ايفانوفنا يبلغ فى تلك اللحظة من صرامة الأمر أن ايفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد ، أن يصعد ثانيةً فى صحبة أليوشا •

ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقاً :

ـ لقد تجسست علينا •

ولكن أليوشا سمع دمدمته •

قال ايفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون :

ـ اسمحى لى أن لا أخلع معطفى • ثم اننى لن أجلس ، لأننى لا أنوى أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة •

قالت كاترين ايفانوفنا :

ـ اجلس يا ألكسى فيدوروفتش •

وظلت هى نفسها واقفة •

انها لم تتغير كثيراً منذ شهرين ، ولكن وميضاً خبيثاً يسطع الآن فى عينيها القاتمتين • سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له فى تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً •

ـ ما الذى كلفك بأن تقوله لى ؟

قال أليوشا وهو يحدّق الى عينيها :

ـ كلفني بأن أقول لك شيئاً واحداً . انه يرجوك أن تراعى نفسك ، وأن لا تذكرى أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً) ... أن لا تذكرى أمام المحكمة ... ما جرى بينكما ... أثناء أول لقاء ... فى تلك المدينة الصغيرة ... مدينة المعسكر ...

قاطعته كاترين ايفانوفنا وهى تضحك ضحكة مرة :

ـ آ ... يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال ؟ أهو خائف على نفسه أم عليّ ؟ قل لى ! من ذا أراعى فى هذا الأمر ؟ أأراعى نفسى أم أراعيه هو ؟ تكلم يا الكسى فيدوروفتش !

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور فى فكرها .

قال بصوت رقيق عذب :

ـ هو يرجوك أن تراعى نفسك وأن تراعيه أيضاً .

فقالت بلهجة مسعورة وهى تحمر احمراراً شديداً على الفور :

ـ هكذا .

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض :

ـ انك لا تعرفنى بعد يا ألكسى فيدوروفتش ! وربما كنت لا أعرف نفسى أنا أيضاً . من يدرى ؟ قد تتمنى أن تسحقنى سحقاً فى الغد بعد ادلائى بشهادتى أمام المحكمة .

قال أليوشا :

ـ قولى ما يمليه عليك الشرف . لا حاجة الى أكثر من ذلك .

فأجابت بقسوة :

ـ ليست المرأة شريفة دائماً . لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أننى سأتقزز من الكلام عن هذا المسخ ، عن هذا الشخص الكريه ... ولكن لا ! انه ما يزال فى نظرى انساناً .

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستريا وهى تلتفت بغتةً نحو ايفان فيدوروفتش :

ـ ولكن هل مؤكدٌ أنه قتل ؟ أهو هو القاتل ؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على ايفان منذ دقائق قليلة قبل وصوله ، وأن المناقشة التى دارت حول هذه النقطة، للمرة المائة فى أغلب الظن ، قد انتهت بمشاجرة .

وتابعت تقول مخاطبةً ايفان أيضاً بصيغة المفرد :

ـ لقد ذهبتُ الى سمردياكوف ... أنت أوهمتنى أن ميتيا قتل أباه ! بسببك انما صدقت أنا ذلك .

ضحك ايفان ضحكةً حمل نفسه عليها حملاً . وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد . لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة الى هذا الحد .

قال ايفان بجفاف وخشونة :

ـ كفى هذا اليوم . أنا ذاهب . سأرجع غداً .

ودار على عقبيه فجأة ، وخرج من البيت . فأسرعت كاترين ايفانوفنا تمسك يدى أليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة :

ـ اتبعه ، أدركه ! لا تدعه وحده لحظةً واحدة . انه مجنون .

ألا تدرى أنه فقد عقله ؟ لقد أصيب بحمى حارة ، صدقنى ! طبيبى هو الذى قال لى ذلك • هيّا ، اسرع ! أركض لتدركه •••

وثب أليوشا من مكانه واندفع فى اثر ايفان فيدوروفتش • لم يكن ايفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة •

ـ ماذا تريد منى ؟

كذلك هتف يقول ايفان ملتفتاً فجأة الى وراء منذ لمح أن أخاه يريد اللحاق به • وتابع كلامه يقول بلهجة حانقة :

ـ لا شك أنها أمرتك بأن تتبعنى لاننى مجنون ، أليس كذلك ؟ لقد حفظتُ هذه القصة على ظهر القلب •

ـ واضح أنها مخطئة فى هذا • ولكنها على حق حين تقول انك مريض • لقد تفرستُ فى وجهك منذ قليل ، فلاحظت أنك مريض ، مريض جداً ، يا ايفان !

كان ايفان يسير دون أن يتوقف ، وكان أليوشا يتبعه •

سأله ايفان بصوت أصبح هادئاً على حين فجأة ، وزايله كل أثر من آثار الحنق :

ـ هل تعرف يا ألكسى فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً ؟

وكان يبدو على ايفان أن نوعاً طيباً كريماً من حب الاستطلاع هو الذى يحرك نفسه الآن •

أجابه أليوشا قائلاً :

ـ لا ، لا أعرف • ولكن يخيّل الىّ أن الجنون أشكال شتى •

ـ هل تعتقد أن فى وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد جُنّ ؟

فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة :

ـ أحسب أن المرء لا يقدر فى مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه .

صمت ايفان نصف دقيقة . ثم قال فجأة :

ـ اذا كنت تحب أن تكلمنى فأرجوك أن تغير موضوع الحديث .

فقال أليوشا فى خجل :

ـ صحيح . كدت أنسى . معى رسالة لك .

وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدّها الى أخيه ...

كانا فى تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع ، فسرعان ما عرف ايفان خط صاحبة الرسالة .

قال وهو يضحك ضحكة خبيثة :

ـ ها ... رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة .

ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها في الهواء دون أن يفض الظرف ، فتناثرت أجزاؤها . وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره :

ـ لم تبلغ السادسة عشرة ثم هى تعرض نفسها .

فهتف أليوشا قائلاً :

ـ كيف هذا ؟

ـ كيف ؟ كأية امرأة فاسقة .

فقال أليوشا يحتج فى ألم :

ـ ما هذا الذى تقوله يا ايفان ؟ انها طفلة ! أنت تهين طفلة . هى مريضة ، مريضة جداً . لعلها جُنّت هى أيضاً ... ما كان يمكننى أن أرفض حمل رسالتها اليك ... وكنت أحب أن أعرف جلية الأمر منك أنت ... حتى يمكن انقاذها .

ـ لن تعلم منى شيئاً • اذا كانت هى طفلة فلست أنا حاضنتها • اسكت يا ألكسيى • كفى ! اننى لا أفكر فيها ، حتى ولا تخطر على بالى •

وصمتا كلاهما بضع لحظات • ثم قال ايفان فجأة بصوت حانق قاطع :

ـ سوف تقضى الليل كله مصليةً مبتهلةً الى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً فى المحكمة •

ـ هل تقصد ••• كاترين ايفانوفنا ؟

ـ نعم ••• انها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيعه • سوف تصلى من أجل أن تهتدى الى الرأى السديد • انها لا تعرف هى نفسها حتى الآن ما الذى ستقوله ، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتهيأ للأمر • هى أيضاً تعدنى حاضنةً لها ، وتريد لى أن أهدهدها !

قال أليوشا بحزن :

ـ كاترين ايفانوفنا تحبك يا أخى •

ـ جائز • ولكن هذا لا يعنينى •

ـ انها تتألم • لماذا قلت لها اذن ••• فى بعض المرات ••• كلاماً يمكن أن يبعث فى نفسها أملاً ؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل •

كذلك قال أليوشا بصوت فيه شىء من لوم خجل • وأضاف :

ـ سامحنى اذا قلت لك هذا الكلام !

فقال ايفان متضايقاً منزعجاً :

ـ لا أستطع أن أتصرف كما ينبغى أن أتصرف ، أى أن أقطع صلتى بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة • يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً • لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام • ذلك أنها تكرهه ، وهي تعلم أنها تكرهه • كل شيء هنا كذب• ليس بها أى صدق ! هى الآن ، والى أن أقطع صلتى بها ، ستظل تأمل ، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان ، لعلمها باننى أحاول أن أخرجه من المأزق • فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين ؟

لقد ترجَّعت كلمتا « القاتل » و « الشيطان » فى قلب أليوشا ترجعاً أليماً موجعاً •

وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ الى معنى أقوال ايفان :

ـ كيف يكون فى وسعها أن تضيِّع أخانا ؟ ما هى الأشياء التى يمكن أن تقولها فى شهادتها فتنزل بدمترى كارثة ؟

ـ أنت تجهل هذا حتى الآن • انها تملك ورقة مكتوبة بخط دمترى نفسه ، ورقة تثبت اثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور بافلوفتش •

صاح أليوشا يقول :

ـ مستحيل !

ـ لماذا ؟ لقد قرأت الورقة بنفسى •

أجاب أليوشا بقوة :

ـ لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع • ذلك مستحيل استحالة مطلقة ، لأن دمترى لم يقتل • ليس هو قاتل أبينا ، ليس هو قاتله •••

توقف ايفان فيدوروفتش عن المشى . وسأل أخاه بلهجة فيها شىء من الاستعلاء :

ــ فمن عسى يكون القاتل فى رأيك ؟

قال أليوشا بصوت خافت نافذ :

ــ من ؟ أنت تعرفه .

ــ ماذا ؟ أيظل يتصور ذلك الاتهام الغبى لرجل أبله مصاب بالصرع ؟ أتقصد سمردياكوف ؟

شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله . وقال :

ــ أنت تعلم حق العلم أنه هو القاتل .

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير ارادة ، وكان يختنق اختناقاً.

فقال ايفان يصرخ فى هذه المرة صراخاً وقد ألمّ به ما يشبه أن يكون غضباً مسعوراً :

ــ من تعنى ؟ من تعنى ؟ تكلم !

لقد فقد ايفان كل سيطرة له على نفسه .

عاد أليوشا يقول بهمس مختنق :

ــ أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت . لا ... ما أنت ، ما أنت !...

سأله ايفان مذهولاً :

ــ « ما أنت » ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

فكرر أليوشا قوله :

ـ ما أنت قاتل أبينا ، ما أنت !

وخيم الصمت لحظة • ثم قال ايفان وهو يبتسم ابتسـامة لا يكاد يكون فيها من التبسم الا انفراج الشفتين :

ـ أعلمُ أن القاتل ليس أنا طبعاً •

وغرس نظراته فى عينى أليوشا • وكان الأخوان قد وصـلا الى أحد مصابيح الشارع من جديد •

ـ اسمع يا ايفان : لقد اتهمت نفسـك بنفسـك غير مرة ، اتهمت نفسك بأنك أنت القاتل •

تمتم ايفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة :

ـ متى قلت أنا هذا ؟ متى ؟ لقد كنت بموسكو فى ذلك الأوان • متى قلت أنا هذا الكلام ؟

ـ قلته لنفسك مراراً فى الساعات التى خلوت فيها الى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين •

كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت ، ولكنه كان ينطق كل كلمـة من كلمـاته واضحة • كان يتكلم كمن تدفعه الى الـكلام قوة لا تغالب ، قوة غريبة عن ارادته ان صح التعبير :

ـ اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً ان القـاتل الحقيقى هو أنت • ولكنك لست القاتل يا ايفان • أنت مخطىء • لست أنت القاتل • هل تسمعنى ؟ ما أنت ، ما أنت ! الله قد أرسلنى لأقول لك هذا •

سكت الأخوان • وامتد صمت ثقيل خلال دقيقة كاملة • ان كلاً منهما يحـدّق الى عينى أخيـه منكفىء اللون شـاحب الوجه • وفجأة أخذت اعضاء ايفان كلها ترتعش ، وأمسك أليوشـا من كتفه ، ودمدم يقول كازاً أسنانه :

ـ جئت الى بيتى اذن فى السر ، فى الخفاء ... جئت ليلاً بينما كان هو عندى ، هو ... هيّا اعترف ! رأيتَه ، رأيته ، أليس كذلك ؟

سأله أليوشا مذهولاً :

ـ من تعنى ؟ أتعنى ميتيا ؟

زأر ايفان يقول خارجاً عن طوره :

ـ لا ، لا ميتيا . شيطان يأخذ ميتيا . قل : من أين عرفت «أنه» جاء الىّ ؟ كيف علمت بذلك ؟ تكلم !

قال أليوشا مروّعاً مذعوراً :

ـ من تقصد ؟ من ذا الذى تعنيــه بقــولك انه جاء اليك ؟ من هو هذا ؟ اننى لا أعرف من الذى تشير اليه بهذا الكلام .

ـ بل تعرف ، تعرف ... ولولا ذلك ما استطعت أن .. يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر ...

وسكت ايفان فجأة فى وسط الجملة ، وأمسك عن الكلام . بدا أنه يفكر فى شىء ما . وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة .

عاد أليوشا يقول بصوت مختلج :

ـ أخى ، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدقنى دائماً . قلت لك ماقلت لتتذكر قولى الى الأبد : لست أنت القاتل . تذكر هذا طوال حياتك ، هل تسمع ؟ لقد أمرنى الله بأن أقول لك هذا الكلام ، ولو جعلك ذلك تكرهنى بعد اليوم ...

ولكن ايفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه بسلوكه . فبدأ يقول بسخرية باردة :

ـ اسمع يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا أطيق الأنبيــاء ولا المرضى

بداء الصرع • أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم مقتاً شـديداً ••• تعلم ذلك حق العلم • اننى أقطع منذ الآن كل علاقة لى بك ، أقطع كل علاقة لى بك الى الأبد فيما يخيّل الىّ • أرجوك أن تتركنى فوراً ، عند هذا المفترق • وليس لك على كل حال الا أن تمضى فى هذا الشارع الصغير الذى يفضى بك الى مسـكنك • وحاذر خاصةً أن تجىء الىّ اليوم • هل سمعت ؟

ودار على عقبيه ، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر الى وراء •

صاح أليوشا يقول له :

ـ أخى ، اذا حـدث لك شىء فى النهار ، فاذكرنى أنا قبل كل شىء !•••

لم يجب ايفـان • وانتظر أليوشـا ، عنـد مفترق الطرق ، قرب المصباح ، غياب شبح أخيه فى الظلام • وعندئذ ابتعد هو أيضاً يتجه الى مسكنه بخطى بطيئة • كان الأخوان يسكنان منفصلين فى منزلين مختلفين • لم يشأ أحد منهما أن يقيم فى المنزل الخالى الذى خلفه فيدور بافلوفتش • كان أليوشا يسكن فى غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سـكان المدينة • وكان ايفان يقيم فى شقة واسعة بعيدة عن مسكن أخيه استأجرها من دار امرأة ثرية هى أرملة أحد الموظفين • لم يكن يخدمه هنالك الا عجوز صغيرة صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم فى السـاعة السـادسة من المساء ، وتنهض من نومها كل يوم فى السـاعة السـادسة من الصباح • ولكن ايفان كان قد أصبح قليل المطالب فى شـئون الخدمة أثنـاء هذين الشهرين الأخيرين ، وأصبح يميل الى الوحـدة والاعتزال فى بيتـه ، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التى ينام فيها ، ولا يدخل سائر غرف شقته الا نادراً • فلما وصل الى باب منزله وضع يده على الجرس

ولكنه أمسك عن قرعه فجأة . كان ما يزال يشعر بغضب شديد يُرعش جسمه كله . فما هى الا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً ، واستدار على عقبيه ، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة ، وذهب الى منزل صغير من خشب ، يوشك أن يكون متداعياً ويقع على بعد فرسخين ، وهو منزل تسكنه ماريا كوندراتيفنا ، تلك المرأة التى كانت فى الماضى جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتمس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء ، وكان سمرდياكوف ينشدها أغانيه عازفاً على القيثارة . لقد باعت هذه المرأة دارها الصغير التى كانت تقطنها فى الماضى ، وأصبحت تساكن الآن أمها فى كوخ حقير ، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش ، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً . فالى عند سمردياكوف انما كان يتجه الآن ايفان فيدوروفتش ، تدفعه الى ذلك فكرة مباغتة قاهرة .

٦

أول اجتماع بسمردياكوف

هذه ثالث مرة يزور فيها ايفان الخادم سمردياكوف، بعد عودته من موسكو ، ليتحدث معه . كان قد اجتمع به مرة أولى بعد وقوع الكارثة فوراً ، يوم وصوله من موسكو ، وزاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين ؛ ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية ، ولم يكد يسمع عنه شيئاً منذ شهر . ان ايفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو الا بعد موت أبيه بخمسة أيام ، وكان أبوه قد دفن عشية رجوعه هو من موسكو . ويرجع سبب هذا التأخر الى أن أليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترين ايفانوفنا أن تتولى ابلاغه نبأ الوفاة ببرقية ؛ وكانت المرأة الشابة تجهل هي أيضاً أين كان عنوان ايفان على وجه الدقة ، فأبرقت الى عمتها والى أختها وفي تقديرها ان ايفان فيدوروفتش سيزورهما منذ يصل الى موسكو . وقد حدث أن ايفان لم يزرهما الا في اليوم الرابع ، فلما قرأ البرقية أسرع يعود الى مدينتنا . وكان أليوشا أول شخص تحدث معه ايفان عن الفاجعة ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه أليوشا يرفض رفضاً مطلقاً أن يشتبه في دمتري ، وانما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً بأنه هو القاتل ، على خلاف الرأي الذي أجمع عليه الناس في مدينتنا. فلما تحدث ايفان بعد ذلك مع رئيس

الشرطة ووكيل النيابة واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق ، ازدادت دهشته من موقف أليوشا ، فنسب هذا الموقف الى عاطفة الأخوة القوية ، والى العطف والشفقة على شقى مسكين ، ذلك أن ايفان كان لا يجهل فى الواقع ان أليوشا يحب دمترى كثيراً• ولنقل فى هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف ايفان نحو أخيه دمترى فيدوروفتش : لقد كان ايفان يكره أخاه دمترى كرهاً حقيقياً ، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة الا فى القليل النادر ، وهى شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز• لقد شعر ايفان دائماً بنفور من ميتيا ، وكان ينفر حتى من شكله ، ويسوءه ما تحمله كاترين ايفانوفنا لهذا الشاب من حب • وقد زار ميتيا فى السجن يوم وصوله نفسه ، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل ، بل عززت هذا الاقتناع ورسخته • لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجيشان مرضى • كان ميتيا يتكلم كثيراً ، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً ، وكان يعبّر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة • كان يتهم سمردياكوف ، وما ينفك يخبط فى كلامه خبط عشواء ، عائداً على حين فجأة الى مسألة الثلاثة آلاف روبل التى « سرقها » منه المتوفى ، قائلاً من حين الى حين : « كان هذا المال مالى أنا ، هَبْنى سرقته فلا جناح علىّ » • أما القرائن التى تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها ، حتى اذا عرض الوقائع التى كان يرى أنها دليل على براءته ، اضطرب كلامه واختلطت الأمور فى حديثه بكثير من الخراقة ، وكأنه كان لا يحب أن يبرىء نفسه فى نظر أخيه أو فى نظر أى انسان آخر ؟ فهو يغضب ويثور ، ويحتقر الاتهامات مستعلياً ، ويرد عليها بمسبات وشتائم ، ويتهكم باحتقار على شهادة جريجورى بشأن الباب المفتوح ، مؤكداً أن « الشيطان هو الذى كان قد فتح الباب » ، دون أن يحاول البحث عن أى تعليل ممكن لهذه الواقعة • حتى لقد وجد السبيل ، أثناء هذا الاجتماع

الأول بأخيه ايفان فيدوروفتش ، الى أن يهينه ويجرح شعوره ، مردداً في جفاء وخشونة أن الذين يدعون « أن كل شيء مباح » ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه • وجملة القول أنه لم يظهر لايفان شيئاً من مودة ، بل خاشنه وأغلظ له القول • وبعد هذا الاجتماع فوراً انما ذهب ايفان فيدوروفتش الى سمردياكوف •

كان ايفان ، حين غادر موسكو ، قد فكر في سمردياكوف طويلاً في القطار ، وفكّر في الحديث الذي جرى بينه وبينه عشية رحيله • ان عدداً من التفاصيل كان يوقظ في نفسه الشبهات ويقلقه اقلاقاً شديداً . ولكن ايفان ، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق ، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف . كان ايفان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف . وكان سمردياكوف يومئذ في مستشفى المدينة • وقد صرّح الدكتور هرتسنشتوبه لايفان ، وكذلك الطبيب فارفنسكي الذي لقيه ايفان في المستشفى ، صرّحا له جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً ، حتى لقد استغربا هذا السؤال : « ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل؟ » • وقد أفهما ايفان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة خطورة خاصة شديدة ، لأنها امتدت عدة أيام ، وتكررت مرات كثيرة ، حتى كادت تودي بحياته ؛ وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدماها والاجراءات التي عمدا الى اتخاذها انما أصبح من الممكن أن يقال الآن ان المريض لن يموت من هذه النوبة الرهيبة التي ألمت به • وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله : « على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل » • واذ كان ايفان يسأل بشيء من نفاد الصبر

« هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً » ، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون ، وانما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ • فقرر ايفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة • وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل •

كان سمردياكوف راقداً على سريره فى حجرة ذات سريرين • أما السرير الثانى فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء ، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف ، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين آخرين ، فلا يمكن أن يكون وجوده فى الغرفة حائلاً دون الحديث •

ابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة مرتابة حين رأى ايفان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه فى أول الأمر شيء من الوجل ؛ أو هذا ما شعر به ايفان على الأقل • ولكن ذلك الوجل سرعان ما تبدد ، حتى لقد دُهش ايفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك • واستطاع ايفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً • لقد كان سمردياكوف ضعيفاً أشد الضعف ، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناءً فى تحريك لسانه ، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالغاً ، واصفر لونه اصفراراً شديداً • ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التى استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام فى رأسه وأوجاع فى جميع أعضاء جسمه • وكان وجهه الجاف الذى يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضؤل وصغر ، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً ، ولم يبق من ذؤابته الا خصلة متناثرة فى قمة الرأس • ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضّن قليلاً ، والتى تغمز من حين الى حين لتوحى بمعان ماكرة ، تشهد بأن سمردياكوف ما يزال سمردياكوف • وتذكر ايفان جملته

التى سبق أن قالها له ذات يوم : « يحلو للمرء احيـــاناً أن يتحـدث مع انسان ذكى » •

جلس ايفـــــان على اسكملة من جهـــة قدمى المريض • فانقلب سمرديا كوف على فراشه متألماً ، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم ، كأنه لا يريد أن يكون البادىء بالكلام • ولم يكن فى نظرته شىء يدل على الاستطلاع•
سأله ايفان :

ــ هل تستطيع أن تتحدث معى ؟ ألا يتعبك ذلك ؟

فتمتم سمرديا كوف يقول بصوت واهن :

ــ طبعاً أستطيع أن أتكلم •

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك :

ــ هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

ــ وصلت اليوم ••• جئت لأجلو الموقف •

تنهد سمرديا كوف • فأسرع ايفان يسأله فجأة :

ــ لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر •

صمت سمرديا كوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر • ثم قال :

ــ كيف كان يمكن أن لا أعلم ؟ لقد كان سهلاً حزر ما سيقع • ولكننى لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهى الأمر •

ــ تتنبأ بماذا ؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران ••• ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل الى القبو ؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك الى القبو !

سأله سمرديا كوف بهدوء :

ـ هل ذكرت هذا فى الشهادة التى أدليت بها ؟

غضب ايفان فيدوروفتش وأجابه بقوله :

ـ لم أذكره بعد ، ولكننى سأذكره حتماً • هناك نقاط كثيرة عليك أن توضّحها لى ، واعلم اننى لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معى !

ـ علام أمثّل دور الماكر ما دام أملى كله معقــوداً عليك ، وعلى الرب !

كذلك قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه ، مكتفياً باغمــاض عينيه لحظة •

بدأ ايفان يقول :

ـ أولاً ، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع • لقد سألت عن هذا الأمر ، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل ، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ • يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التى يُصاب بها بنوبة من هذا النوع • فكيف أمكنك اذن أن تحدّد لى سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة ، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعيّن المكان الذى ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول انه القبو ؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك فى القبو ، اذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعاً ، وتظاهرت بها تظاهراً ؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل ، جاراً كلماته جراً :

ـ كان علىّ أن أنزل الى القبو فى كل حال ، بل كان علىّ أن أنزل اليه عدة مرات فى اليوم • وفى ظروف كهذه الظروف انما سقطت من الشونة فى العام الماضى • صحيح أن المرء لا يســتطيع أن يتنبــأ باليوم

والساعة التى توافيه فيها نوبة صرع ، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه •

ـ نعم ، ولكنك تنبأت باليوم والساعة •

ـ خير لك ، ياسيدى ، فيما يتعلق بمرضى ، أن تسأل أطباء هذا المستشفى • سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا ! أما أنا فلا أرى أن عليّ أن أزيد على ما قلت شيئاً •

ـ والقبو ، القبو ؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك فى القبو ؟

ـ لا يقلقنْك أمر القبو ! المسألة بسيطة : حين كنت نازلاً الى القبو ألمّ بى ذعر وخوف وقلق ، ألمّ بى ذعر خاصة ، لأنك كنت غائباً فلم يبق لى أحد يحمينى • نزلت الى ذلك القبو وأنا أقول لنفسى : « الآن ستجيئنى النوبة ، الآن ! ••• هل سأقع ؟ هل سأسقط ؟ » وبسبب ذلك القلق الذى شعرت به عندئذ انما أحسست فجأة بذلك التشنج اللعين فى حلقى ، بذلك التشنج الذى لا حيلة لى فى دفعه ••• ثم ترنحت ••• وتدحرجت ! ••• هذه التفاصيل كلها ، وذلك الحديث الذى جرى بينى وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل ، حين أطلعتك على مخاوفى وقلقى بشأن القبو ، ذلك كله قصصته بأمانة على الدكتور هرتسنشتوبه ، وعلى قاضى التحقيق نيقولا بارفينوفتش ، فسجّلا جميع تصريحاتى فى المحضر • أما الدكتور فارفنسكى فقد ألحّ عندئذ على أن الأمور لابد أن تكون قد جرت هذا المجرى ، وعلى أن نوبة الصرع التى أصابتنى انما كان مردّها حتماً الى خوفى منها ، وتوقعى لها : « أسوف أسقط أم سوف لا أسقط ؟ » ، فاذا بالنوبة توافينى فى تلك اللحظة بعينها• ذلك ما دوّنوه فى المحضر ، وأضافوا اليه أن الأمور لابد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف الذى هجس فى نفسى •

قدم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس تنفساً عميقاً شاقاً ، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب والعناء •

سأله ايفان فيدوروفتش مبلبلاً بعض البلبلة :

ـ أأنت ذكرت هذه التفاصيل اذن في شهادتك ؟

ذلك أن ايفان كان ينوى أن يخيف الخادم بتهديده بافشاء أمر الحديث الذى جرى بينهما عشية الجريمة ، فاذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه الى ذكر جميع التفاصيل •

وقال سمردياكوف بصوت صار ثابتاً على حين فجأة :

ـ ماذا كنت أخشى ؟ بالعكس : اننى أحرص على أن تُسجّل الحقيقة كلها فى المحضر •

ـ هل ذكرت الحديث الذى جرى بيننا كلمة كلمة ؟

ـ لا ، لم أذكره كلمة كلمة •

ـ هل قلت لهم أيضاً انك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامى ؟

ـ لا ، لم أقل لهم ذلك •

ـ قل لى الآن لماذا كنت حريصاً ذلك الحرص كله على أن أسافر الى تشرماشنايا ؟

ـ كنت اخشى أن تسافر الى موسكو • ان تشرماشنايا أقل بعداً من موسكو على كل حال •

ـ كاذب ! كنت تريد أن أبتعد عن هنا • « سافر ، أهرب من الاثم » • ذلك ما كنت تقوله لى •

ـ لئن أســـديت اليك هذه النصـيحة ، فانما فعلت ذلك من باب الصداقة لك ، والاخلاص لشـــخصك ، لأننى كنت أتوقع النازلة التى كانت ستحل بهذه الدار ، فكنت أشفق عليك وأرثى لك• غير أن اهتمامى بسلامتى غلب علىّ ، فقلت لك « اهرب من الاثم » ، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار ، فأحملك على البقاء هنا لتحمى أباك •

هتف ايفان يقول غاضباً على حين فجأة :

ـ كان عليك أن تقول لى ذلك ببساطة دون لف ودوران !

ـ كيف كان يمكننى أن أكلمك بصراحة ؟ كان الخوف قد شلّنى شلاً ، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك • صحيح أن هناك ما كان يحملنى على أن أخاف أن يرتكب دمترى فيدوروفتش حماقة ما ، وأن يستولى على ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له ، ولكن كيف كان فى وسعى أن أتنبأ بأن الأمر سينتهى الى جريمة قتل ؟ كنت أظن أنه سيكتفى بأخذ الثلاثة آلاف روبل التى كان سيدى يخبئها فى ظرف تحت الفراش • ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك • أكان فى وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع ؟

قال ايفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر :

ـ اذا كنت تقول أنت نفسك ان التنبؤ بذلك كان مستحيلاً ، فكيف كان يمكننى أن أتنبأ أنا به ، فأبقى هنا ؟ انك تخلط الأمور وتتخبط فى الكلام •

ـ كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأننى كنت ألحُ عليك أن تســـافر الى تشرماشنيا لا الى موسكو •

ـ كيف كان يمكننى أن أتنبأ ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد ، فصمت بضع لحظات من جديد، ثم قال :

ـ كان يمكنك أن تتنبأ بذلك ، حين لاحظت أننى كنت أوثر أن أعلم أنك فى تشرماشنيا لا فى موسكو لأن موسكو بعيدة جداً . فاذا عرف دمترى فيدوروفتش أنك قريب من هنا ، فلعله كان سيتردد ؛ وكان فى وسعك اذا كنت فى تشرماشنايا أن تسارع فتجىء لتحمينى عند الحاجة لأننى قد حدثتك عن مرض جريجورى فاسيلتش وعن توجسى لنوبة الصرع التى ستوافينى . وقد أطلعتك ، عدا ذلك ، على الاشارات التى يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب . وحين أسررت اليك أن دمترى فيدوروفتش كان على علم بهذه الاشارات لأننى أطلعته عليها ، كنت أقدّر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر ، وأنك ستعدل حتى عن السفر الى تشرماشنيا ، وأنك ستبقى هنا .

حدث ايفان نفسه قائلاً : « انه يحسن التفكير ، رغم أنه يسىء نطق الكلمات . فأين هى اذن تلك الاضطرابات العقلية التى تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه ؟ » .

هتف ايفان يقول غاضباً :

ـ أتراك تمكر بى ؟ يا لك من قاطع طريق ! ...

فأجابه سمردياكوف وقد لاح فى وجهه أقصى البراءة :

ـ أنا ؟ أعترف لك بأننى كنت قد أيقنت أنك فهمتنى حق الفهم أثناء ذلك الحديث .

فصاح ايفان يقول غاضباً من جديد :

ـ لو قد فهمت لبقيت .

ـ وأنا ظننت أنك فهمت كل شيء ، وحزرت كل شيء ، وأنك أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الاثم ، والنأى عما يتهيأ هنا من شر ، بالهرب الى مكان بعيد ، من باب الخوف ان صح التعبير .

ـ ها ؟ أتراك تتخيل أن جميع الناس جبناء مثلك ؟

ـ معذرة يا سيدى . كنت أظن أنك مثلى !

عاد ايفان يقول مضطرباً :

ـ لنسلّم أنه كان فى امكانى أن أحزر ... لقد كنت أقدّر حقاً أنك تهيىء شراً من الشرور ...

ولكن ايفان صاح يقول فجأة وقد تذكر نقطة معينة من الحديث الذى جرى بينهما قبل رحيله :

ـ لكنك تكذب ! تكذب ! هل تتذكر أنك اقتربتَ من عربتى لحظةَ رحيلى لتقول لى : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى » ؟ . اذن لقد سرّك أن ترانى راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لى المديح !

قال سمردياكوف وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد أنفاسه :

ـ لئن سُررت ، ان سرورى لم يكن له من سبب الا اننى رأيتك لا تسافر الى موسكو بل الى تشرماشنيا التى هى أقرب من موسكو على الأقل . أما الأقوال التى تعدها مديحاً ، فانك قد أسأت فهمها . ذلك أننى قد قصدت بها الى لومك فى حقيقة الأمر .

ـ الى لومى ؟ لومى على ماذا ؟

ـ على أنك رغم توجسك الشر ، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا

لحمايتنا • ذلك أننى كنت أنا أيضاً معرّضاً لأن أُقحم فى القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التى كان يمكن أن يُظن أننى سرقتها •

قال ايفان غاضباً من جديد :

ــ شيطان يأخذك ! لحظة ••• هل حدثت قاضى التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الاشارات ، عن تلك الضربات على النافذة ؟

ــ حدثتهما عنها • قلت لهما كل شىء •

دُهش ايفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد • ثم استأنف كلامه قائلاً :

اذا كنتُ قد ارتبت فى شىء من الأشياء أثناء ذلك الحديث ، فقد دار ارتيابى على أن من الممكن أن ترتكب أنت حقارةً ما • صحيح أن دمترى كان يمكن أن يقتل ، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلّم به حينذاك • ولا كذلك أنت ، فاننى كنت أتوقع منك كل شىء • ألم تسرّ الىّ أنت نفسك أن فى وسعك أن تصطنع نوبة صرع ؟

ــ قلته عن بساطة • اننى لم أتظاهر بنوبة صرع فى يوم من الأيام • وانما أردت أن أتباهى أمامك وأتفاخر • كان ذلك غباوة منى • كنت أحبك كثيراً ، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة •

ــ ان أخى يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت •

أجابه سمردياكوف يقول بابتسامة مرة :

ــ ماذا بقى له أن يقول ؟ من ذا الذى سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلة ؟ الباب الذى رآه جريجورى فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال ••• كيف يمكنه أن يتهمنى بعد هذا ؟ سامحه الله ! انه يحاول انقاذ نفسه بأية طريقة ! •••

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم أردف يقول :

ــ هو الأمر نفسه ... انه يريد أن يلقى الجرم على عاتقى مدعياً أننى أنا الذى قمت بالضربة ... أعرف القصة ... ولكن فكّر قليلاً : لقد ذكرت لك مازحاً أننى أحسن التظاهر بنوبة الصرع . أفكان يمكن أن أقول لك اننى قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوى قتل أبيك ؟ هل يتخيل أحد أن انســـاناً يبيِّت جريمة كهذه الجريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدّ فضح نفسه سلفاً ، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة ، بالتحدث فى هذا الأمر الى ابن الضــحية نفسه ؟ ذلك شىء لا يمكن تصـــديقه اطلاقاً . ما من أحد يسمعنا فى هذه اللحظة ، ما من أحد يسمعنا الا الله . ولكنك ، حتى لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضى التحقيق ، لن تزيد على أن تخدمنى : هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة كلها ؟ ذلك ما سيقوله جميع الناس .

قال ايفان فيدوروفتش وقد أدهشه ما تشتمل عليه هذه الملاحظة الأخيرة من منطق :

ــ اسمع ، اننى لا أشتبه أبداً فى انك ارتكبت هذه الجريمة ، بل اننى لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك .

نطق ايفان بهذه الكلمات وهو ينهض . وأردف يقول :

ــ وانى لأشكر لك أنك طمأنتنى فى هذا الموضوع . اننى أتركك الآن ، ولكننى سأزورك مرة أخرى . الى اللقاء . أتمنى لك شفاء سريعاً . أأنت فى حاجة الى شىء ؟

ــ شكراً يا سيدى ! شكراً لك على كل شىء . ان مارفا اجناتفنا تهتم بأمرى ، وتجعلنى فى غير حاجة الى شىء البتــة ، على عادتها فى الشـــهامة والأريحية . لا شىء يعوزنى . وهناك اناس طيبون يزوروننى كل يوم .

ـ الى اللقاء • ثم اننى لن أكشف شيئاً مما ذكرته لى عن حذقك فى اصطناع الصرع والتظاهر به •

ثم أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا :

ـ وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا فى شهادتك أنت أيضاً •

ـ أنا أفهمك كل الفهم • ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت ، فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذلك الحديث الذى جرى بيننا حينذاك أمام المنزل •

خرج ايفان فيدوروفتش من غرفة المريض مسرعاً ، ولم يدرك فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التى قالها سمردياكوف من اهانة له ، الا بعد أن قطع نحو عشر خطوات فى الممر ، فأوشك عندئذ أن يقفل راجعاً الى المريض ، ولكن هذه النية التى هجست فى نفسه نصف ثانية ، لم تلبث أن تبددت ، واكتفى ايفان بأن دمدم قائلاً : « ذلك كله سخافات ! » ، ثم أسرع يغادر المستشفى • كان الأمر الأساسى فى نظره هو أنه تأكد من أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف ، رغم أنه كان يتوقع عكس ذلك • لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب ؟ كان ايفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته ، حتى لقد كان ينفر بعض النفور من تحليل نفسه فى هذه النقطة • كان يحاول ، فيما يبدو ، أن ينسى شيئاً ما • وقد اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن ميتيا هو الجانى ، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التى تجمعت على أخيه • وكان عدد من الشهادات يدينه ادانة خاصة ، رغم صدور هذه الشهادات عن أشخاص غرباء عن الدرامة وضيعى الظروف الاجتماعية ، من ذلك شهادة فينيا وجدتها • أما تصريحات برخوتين وروّاد الكباريه ومستخدمى متجر بلوتنيكوف وأهل موكرويه ، فقد كانت خطورتها

واضحة وضوحاً يخطف البصر • وكانت التفاصيل خاصـــة تدعو الى القلق • ان المعلومات التى تتعلق بالاشارات السرية قد اثرت فى قاضى التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شـــهادة جريجورى عن الباب المفتوح ان لم يزد عليها • وقد أجابت امرأة جريجورى ، مارفا اجنانفنا ، أجابت عن ســـؤال ألقاه عليها ايفان فيدوروفتش فقالت ان سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقدا على حصيرة « تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه » ، وانها رغم أنها نامت نوماً عميقاً ، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنّات المريض • وأضافت تقول : « انه لم ينقطـع عن الأنين ، لم ينقطـع عن الأنين » • وأما الدكتـور هرتسنشتوبه الذى أطلعه ايفان على انطباعاته عن سمردياكوف ، قائلاً انه لا يصدق قط أن سمردياكوف مجنون ، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة : « هل تعرف ما الذى يشغله الآن ؟ تصور أنه يقضى وقته فى حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب • انه يخفى تحت وسادته دفتراً سجّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية • هىءهىء ! » • هكذا عدل ايفان أخيراً عن شـــكوكه ، وأصـــبح لا يفكر فى أخيه دمترى الا ويشعر باشمئزاز • ومع ذلك بقى هنالك شىء يبدو له غريباً : ان أليوشـــا ما يزال يدّعى ، فى اصرار وعناد ، أن الجريمة لم يرتكبها دمترى ، وأن « أغلب الظن » أن سمردياكوف هو الجانى • ولقد كان ايفان يحترم دائماً ، فى قرارة نفسه ، آراء أليوشا ، لذلك كان موقف أليوشا فى هذه القضية يدهشه كثيراً • ومن الغريب أيضاً أن أليوشا لم يسع يوماً الى انتهاز فرصة يتحدث فيها اليه عن ميتيا ، لا ولا كان البادىء فى الكلام عن هذا الموضوع قط ، وانما كان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى يلقيها عليه أخوه • ذلك أمر أدهش ايفان كذلك • يحســـن أن نلاحظ على كل حال أن ايفان كان فى تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً فى

مشاغل غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه • انه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترين ايفانوفنا • ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذى استبد بايفان فيدوروفتش والذى سيؤثر فى مجرى مصيره كله • فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى ، موضوع رواية أخرى لا أدرى بعد هل أكتبها فى يوم من الأيام • ولكننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن : وهى أن ايفان حين رجع من عند كاترين ايفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا ، فصرّح لأخيه بأن هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها ، انما كان يكذب كذباً لا حياء فيه • فالحق أنه كان يحبها حباً جنونياً ، رغم أنه صدق حين قال انه يكرهها فى بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن يريد قتلها • ولهذا أسباب كثيرة : منها أن كاترين ايفانوفنا التى هزتها الدرامة وهزها اعتقال ميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت ايفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلّص • لقد كانت تشعر بأن الأحداث التى جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها ، وها هو ذا رجل كانت تحبه منذ زمن طويل ـ آ ••• نعم ، هى تعرف أنها تحبه منذ زمن طويل ـ رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال ، ها هو ذا يعود اليها • ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها من عنف عارم مضطرب ـ وهو واحد من آل كارامازوف فى هذه الناحية ـ ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة • وكانت فى الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع ، لأنها خانت ميتيا ، وكانت فى اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع ايفان (وهى مشاجرات كانت تتكرر كثيراً فى ذلك الأوان) ، لا تتردد عن أن تصرخ فى وجهه غاضبةً غضباً شديداً • وبسبب هذا الموقف الذى كانت تقفه انما اتهمها ايفان ، فى حديثه مع

أليوشا ، بأنها تتلذذ بالكذب ويحلو لها أن تسترسل فيه . والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب اللاشعورى ، وذلك ما كان يُحنق ايفان فيدوروفتش خاصةً ... ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد . وحسبنا أن نقول الآن أن ايفان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت . غير أن الخواطر الغريبة التى سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف . فاذا هو يعود يلقى على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع : لماذا نزل الى الطابق الأدنى من منزل أبيه صامتاً كسارق فى الليلة الأخيرة التى قضاها فى المنزل قبل رحيله الى موسكو ؟ لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر ، ولماذا اجتاحت نفسَه فجأة عند وصوله الى موسكو كآبة عميقة ، حتى صرخ ذات مرة قائلاً : « أنا شقى ! » ؟ انه ليبدو له الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة أنه ينسيه حتى كاترين ايفانوفنا . وفيما هو يجيل هذا الخاطر فى رأسه ذات يوم ، التقى باليوشا فى الشارع ، فاستوقفه ثم اذا هو يسأله على حين فجأة :

— هل تذكر أننى فى عصر اليوم الذى اقتحم فيه دمترى منزل أبينا بعد الغداء ، وضربه ، قد قلت لك بعد ذلك اننى أحتفظ لنفسى « بحق الرغبة والتمنى » ؟ هل قدَّرت فى ذلك اليوم أننى كنت أتمنى موت أبينا ؟ هه ؟ أجب !

قال أليوشا بصوت خافت :

— نعم قدَّرت ذلك .

— كان ذلك هو الحقيقة على كل حال ، ولا حاجة بالمرء الى كبير مكرٍ حتى يحزر هذه الحقيقة . ولكن ألم تشعر فى ذلك اليوم أننى كنت

أتمنى فعلاً أن أرى « السراطين يلتهم بعضها بعضاً » ، أى أن يقتل دمترى أبانا ، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة ... وأننى ما كان يسوءنى أن أسهم من جهتى فى هذا الحادث ؟ قل ! ...

اصفر لون أليوشا قليلاً وحدّق الى عينى أخيه صامتاً .

صاح ايفان يقول :

ــ هلاّ تكلمت أخيراً ؟ اننى أريد أن أعرف ، بأى ثمن ، ما فكرت فيه يومذاك . أريد أن أعرف الحقيقة ، الحقيقة ، هل سمعت ؟

وتنفس ايفان تنفساً شاقاً ، ونظر الى أخيه أليوشا بنوع من غضب مستبق .

فدمدم أليوشا يقول :

ــ سامحنى ... لقد قدّرت ذلك أيضاً .

ولكن أليوشا لم يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أى « ظرف مخفف » .

قال له ايفان بجفاف :

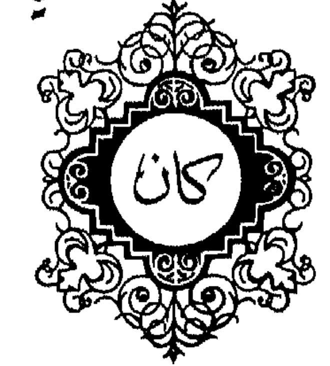
ــ شكراً .

ثم تركه هناك وابتعد بخطى سريعة .

أحسّ أليوشا منذ ذلك اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه ، بل وأنه يشعر نحوه بشىء من الكره ، لذلك كفّ هو نفسه عن زيارته . وبعد ذلك اللقـــاء الذى تحدثنا عنه مضى ايفان فيدوروفتش الى عنـد سمردياكوف رأساً ، دون أن يعرّج على مسكنه .

٧

ثاني اجتماع بسمردياكوف



سمردياكوف قد غادر المستشفى . ان ايفان يعرف عنوانه الجديد ، ويعرف أن الخادم قد أقام فى البيت الخشبى الصغير الذى تداعى جزء منه منذ الآن ، والذى يتألف من حجرتين اثنتين لا ثالث لهما ، يفصل بينهما ممر . اما ماريا كوندراتيفنا تشغل احدى الغرفتين مع أمها ، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية . ما من أحد يعرف بأى صفة كان سمردياكوف يعيش عند هاتين السيدتين : أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً ؟ ولقد دعت أسباب ، فيما بعد ، الى افتراض ان سمردياكوف انما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان لا يدفع أجراً . وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيراً وتعدانه رجلاً متفوقاً .

قرع ايفان فيدوروفيتش الباب ، ثم دخل الممر ؛ ودلّته ماريا على « الغرفة الجميلة » التى يسكنها سمردياكوف ، فاتجه اليها قدماً لا يلوى على شىء . الغرفة مدفأة تدفئة شديدة بموقد من خزف . والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً كثيراً فى مواضع عدة ، وفى شقوق الورق ترتع حشرات لحركاتها أصوات لا تنقطع . والأثاث بائس : دكتان على طول الجدارين ، وكرسيان قرب مائدة من خشب ، بسيطة جداً ، لكنها

مغطاة بغطاء مشجّر وردى اللون . والنافذتان الصغيرتان تزدان كل منهما بأصص أزهار . وفى أحد الأركان تُرى أيقونات . وعلى المائدة سماور من نحاس ، صغير الحجم ، كثير التقعر ، مع صينية وفنجانين .

كان سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاى ، فالسماور قد أطفىء . ان سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة ، عاكف على كتابة شىء فى دفتر . هذه محبرة صغيرة موضوعة فى متناول يده ، وهذه شمعة فى شمعدان من البرونز تلقى ضوءاً ضعيفاً على مائدته . أدرك ايفان فيدوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبلّ من مرضه ابلالاً تاماً . أصبح لونه أكثر نضارة ، وأصبح خداه أقل خسوفاً ، واسترد ذؤابة رأسه ، وعاد يدهن شعره من جديد . انه يرتدى الآن معطفاً للمنزل زاهى الألوان مبطناً بقطن ، لكنه مهترىء جداً . وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لايفان أن رآهما من قبل ، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن أورى حنق ايفان فجأة . قال ايفان لنفسه : « أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين ؟ » .

رفع سمردياكوف رأسه ببطء ، وشخص ببصره الى الزائر من خلال النظارتين محدقاً . ثم خلعهما بغير تعجل ، ونهض متوانياً متكاسلاً ، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام ، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التى لا يملك أن يستغنى عنها . سرعان ما أدرك ايفان معنى هذا الوضع ، وقد لاحظ خاصةً نظرة سمردياكوف التى كانت تعبّر عن الاستياء وتعبّر عن عداوة وقحة ، فكأنه يقول له : « ما الذى يحملك على ازعاجى هنا وقد سبق أن تكلمنا عن كل شىء ؟ » . كبح ايفان جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً . وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه :

ـ الحر فى غرفتك شديد •

فأجابه سمردياكوف متلطفاً :

ـ فاخلع اذن معطفك •

خلع ايفان معطفه ورماه على الدكة ، ثم تناول كرسياً بيد ترتعش غضباً ، فادناه من المائدة بحركة عنيفة وجلس عليه • وكان سمردياكوف قد استطاع أن يسبقه الى الجلوس •

سأله ايفان بلهجة قاسية ملحاح :

ـ قبل كل شيء : هل نحن هنا وحيدان ؟ ألا يسمعنا أحد فى الجهة الأخرى ؟

ـ لا ••• انك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر !

ـ اسمع يا صديقى : ماذا أردت أن تقول غامزاً فى المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى ؟ لماذا قلت لى انك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذى جرى بيننا أمام المنزل اذا أنا لم أتكلم عن حذقك فى اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها ؟ ما هى تلك « التفاصيل » التى أردت أن تشير اليها ؟ الى ماذا أردت أن تلمع ؟ أتراك أردت أن تهددنى ؟ أتراك تريد أن تزعم أننى كنت متواطئا معك وأننى اليوم خائف ؟

كان ايفان يتكلم بغيظ مكظوم وحنق مكبوح ، وكأنه كان يريد أن يبرهن بالقاء هذه الأسئلة مباشرةً على أنه يكره المراوغة واللف والدوران ، وأنه يحب أن يلعب بالورق مكشوفاً على المائدة • ومض التماعٌ خبيث فى نظرة سمردياكوف ، وأخذت عينه اليسرى تطرف ، وأسرع يجيب قائلاً (على لزومه ما عُهد فيه من تحفظ واعتدال وقصد ، وكانت هيئة تشبه أن تقول : « أتريد الحقيقة ؟ اذن سأقولها لك ») :

ــ ما أردت أن أقوله ؟ ان ما أردت أن أقوله هو التالى تماما : أنك تركت أباك بغير حماية ، مع علمك سلفاً بمشروع قتله • لقد وعدتك بأن أسكت عن هذهالنقطة، وأن لا أقول للسلطات شيئاً ، حتى لا تستخرج منها نتائج سيئة فى موضوع عواطف الكره التى لعلهـا كانت تجيش فى نفسك ، وربما فى موضوع أمر آخر أيضاً •

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل ، مسيطراً على نفسه كل السيطرة فيما يبدو ، ولكن لهجته كانت قد تغيرت ، كما أن صوته أصبح فيه شىء من ثبات واصرار ، وشىء من شر وتحد فى الوقت ذاته• وحدّق بوقاحة الى ايفان فيدوروفتش الذى أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه فى الوهلة الأولى • قال ايفان صائحاً :

ــ ماذا ؟ كيف ؟ أأنت تملك كل عقلك ؟

ــ ثق أننى أملك عقلى كاملاً •

قال ايفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة:

ــ ولكن لم يكن فى وسعى أن أتنبأ بجريمة القتل • وماذا تعنى بهذه الكلمات : « وربما فى موضوع أمر آخر أيضاً » ؟ هلاّ أجبت أيها الوغد ؟

كان سمردياكوف صامتاً ، مصراً علىالتفرس فى ايفان فيدوروفتش بنظرة وقحة •

زأر ايفان فيدوروفتش يقول له :

ــ تكلم أيها الوغد العفن ! ما الذى تعنيه بالأمر « الآخر » ؟

ــ الأمر الآخر الذى أردت الالماع اليه هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك •

وثب ايفان فيدوروفتش من مكانه ، ولطم الخادم على كتفه لطمة قوية عنيفة ، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار ، وغرق وجهه بالدموع ، ودمدم يقول :

ـ ألا تستحى يا سيدى أن تضرب انساناً لا يملك دفاعاً عن نفسه.

ثم غطى عينيه بمنديل قذر ذى مربعات زرقاء ، وأخذ يبكى بكاء صامتاً . وانقضت على ذلك دقيقة .

قال له ايفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود الى الجلوس:

ـ كفى ! كفَّ عن البكاء الآن . خيرٌ لك أن لا تُفقدنى صبرى!

أزاح سمردياكوف المنديل عن عينيه . ان جميع قسمات وجهه الرث تعبر الآن عن الاهانة التى أُلحقت به .

ـ أتخيلتَ اذن أيها الشقى أننى كنت اتمنى موت أبى ، متفقاً مع دمترى ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة :

ـ لم يكن فى وسعى أن أحزر أفكارك حينذاك . لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبرك فى هذه النقطه بعينها .

ـ لتسبرنى ؟ ماذا تعنى ؟

ـ أردت أن أعرف أأنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا ؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التى يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق ايفان فيدوروفتش اثارة خاصة .

صاح يقول له فجأة :

ـ أنت الذى قتلته !

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة ، وقال :

ـ أنت نفسك تعلم تمام العلم أننى لست القـاتل • كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من اكثار الكلام فى هذا الموضوع •

عاد ايفان يسأله :

ـ ولكن لماذا ، لماذا قامت فى ذهنك شبهة كتلك الشـبهة عنى ؟ قل لى : لماذا ؟

ـ أنت تعرف جيداً لماذا • هو الخوف وحـده • كنت فى ظرف يحملنى الخوف فيه على الاشتباه فى كل انسان• لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً ، قائلاً لنفسى : اذا صدق أن ايفان فيدوروفتش يتمنى مايتمناه أخوه ، فقد سوِّى الأمر اذن ، وسـأهلك أنا فى هذه المغـامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً •

ـ اسمع : انك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين •

ـ أردت أن أُفهمـك هـذا كله أثنـاء الحـديث الذى دار بيننا فى المستشفى ، ولكننى افترضت أنك فاهم عنى بلا أقوال زائدة ، وأنك وأنت الرجل الذكى لا تحب أن أواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة•

ـ عجيب • ولكن أجبنى ، أجبنى ، اننى أصرُّ على سماع جوابك: كيف أمكن أن تنبت فى نفسـك الدنيئة تلك الشـبهة الحقيرة ؟ على ماذا أقمت ذلك الاشتباه ؟

ـ أما أن تقتل أباك بنفسك ، فذلك ما لم تكن تستطيعه ولا تريده• وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تمنيتَ ذلك !

هتف ايفان متعجباً :

ـ ويقول هذا الكلام بهدوء ، بهدوء ••• يا للشقى ! لأى غرض كان يمكننى أن أتمنى ذلك ؟ ما الذى كنت أرجوه من مقتل أبى ؟

أجاب سمرد ياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية :

ـ لأى غرض ؟ ما هذا السؤال ؟ هو الميراث طبعاً ••• كان كل واحد منكم ، أنتم الثلاثة ، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل فى أقل تقدير ، وربما ورث أكثر من ذلك • ولكن لو تزوج فيدور بافلوفتش تلك المرأة ، أقصد أجرافين ألكسندروفنا ، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف ، ولما نلتم منها أنتم الاخوة الثلاثة حتى ولا ألفى روبل • معنى ذلك أن هذا الزواج لو تمّ لشنقكم من أنوفكم شنقاً • ولقد كان تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة : كان يكفى أن ترفع تلك المرأة اصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم الى الكنيسة صاغراً طائعاً •

استطاع ايفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء • وقال له أخيراً :

ـ طيب • هأنت ذا ترى أننى لم أثب من مكانى لأضربك ، وأننى لم أقتلك بسبب أقوالك هذه • أتمم كلامك : أنت تتصور اذن أننى تركت لأخى دمترى مهمة ارتكاب الجريمة ، واننى فى قرارة نفسى قد عوّلت عليه ، أليس كذلك ؟

ـ وكيف لا تعوّل عليه ؟ المسألة واضحة : حين يقتل أخوك أباه ، فانه يفقد امتيازات النبالة ، ويفقد رتبته وثروته ويُرحّل الى سيبيريا • وبذلك يئول اليك والى أخيك ألكسى فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه ، ويقسّم بينكما هذا النصيب ، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً • لا شك أبداً فى أنك عوّلت على دمترى فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف والوصول الى هذه النتيجة !

ـ عجيب أنني احتمل أقوالك ، وأدعك تتابع شروحك ! اعلم أيها الشقي أنني لو عوّلت على أحد لعوّلت عليك أنت لا على دمتري ! ويميناً لقد أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... انني أتذكر ذلك الاحساس الذي هجس في قلبي تذكراً واضحاً !

أجاب سمردياكوف ساخراً :

ـ أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوّل عليّ كذلك ... خطر هذا على بالي لحظة قصيرة ... ولكن ما كان لهذا الأمر الا أن يزيدني اقتناعاً برغبتك في وقوع الجريمة . فما دمت قد قدّرت أنني أبيّت جريمة ، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعني الا أنك تقول لي : « اقتل أبي ان شئت ، فلست أعارض في هذا » .

ـ يا لك من وغد حقير ! أهكذا أوّلت سلوكي اذن ؟

ـ السبب هو ذلك السفر الى تشرماشنيا يا سيدي . فكرّ قليلاً : كنتَ قد قررت أن تسافر الى موسكو ، ورفضت رغم الحاح أبيك أن تذهب الى تشرماشنيا ؟ ثم اذا بك تقبل فجأة أن تذهب الى تشرماشنيا استجابةً لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا ، فلماذا قبلت السفر الى تشرماشنيا لا الى موسكو ؟ ما دمت قد غيرّت قرارك بدون سبب ذي بال الا ما أوحيت به أنا اليك ، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً مني أنا .

زأر ايفان يقول كازاً أسنانه :

ـ لا ، لا ، أحلف لك أن لا ...

ـ كيف لا ؟ لقد كان من واجبك ، خلافاً لما حدث ، أن تستدعي الشرطة وتأمرها باعتقالي فوراً لأنني قلت تلك الأقوال لك انت ، ابن فيدور بافلوفتش ! كان من واجبك على الأقل أن تقتلني في مكاني !

ولكنك بدلاً من ذلك ، ودون أن تغضب البتة ... غيرّت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التى أسديتها اليك ... اتبعتها بحذافيرها • ثم ان ذلك السفر الى تشرماشنيا كان سخيفاً ، فانما كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه ... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج ؟

ظل ايفان جالساً ، مكفهر الوجه ، قابضاً كفيه على ركبتيه • وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مرة :

ـ خسارة حقاً أننى لم أضربك حينذاك • أما أن تعتقلك الشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً : لم يكن فى امكانى أن أتهمك بأى شىء معيّن ، ولو قد اتهمتك لما صدقونى• ولكن كان يجب علىّ أن أضربك ، نعم كان يجب علىّ أن أضربك • وكان فى وسعى أن أهشم وجهك راضياً مسروراً ، رغم أن ذلك محظور •

كان سمردياكوف ينظر الى ايفان وقد لاح فى وجهه ما يشبه الافتتان •

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التى كان يصطنعها فى الماضى أثناء مناقشاته عن الايمان مع جريجورى فاسيلتش حين كان يحاول أن يناكده وأن يشاكسه فى خلافات لاهوتية واقفاً قرب مائدة فيدور بافلوفتش ، قال بتلك اللهجة :

ـ صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون ، وأن الناس قد عدلوا عن هذا فى أيامنا هذه • ذلك فى الأحوال العادية• أما فى الأحوال الاستثنائية فان الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر ، تماماً كما كانوا يفعلون فى عهد آدم وحواء • وهذا لا يجرى فى بلادنا وحدها ، بل يجرى فى العالم بأسره ، ويجرى حتى فى أجمل الجمهوريات ،

كالجمهورية الفرنسية ، وسيظل الأمر كذلك أبد الآبدين • وأنت لم تجرؤ أن تضربني في تلك الحالة الاستثنائية التي نحن بصددها •

سأله ايفان وهو يومىء الى الدفتر الموضوع الى المائدة :

ـ ماذا عندك هناك ؟ أتتعلم كلمات فرنسية ؟

ـ ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية ؟ انني أريد اتمام تحصيلي ، فربما قادتني الظروف الى أن أعيش ذات يوم ، أنا أيضاً ، في تلك البلاد السعيدة ، بلاد أوروبا •

صاح ايفان يقول وقد سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً :

ـ أسمع أيها الشيطان ! أنا لا أخشى اتهاماتك ، وفي وسعك أن تشهد عليّ كما تشاء • ولئن لم أضربك حتى الموت في هذه اللحظة نفسها ، فان السبب الوحيد الذي يجعلني أمسك عن ذلك هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني ، ولست أريد أن أنقذك من العدالة • سأعرف كيف أكشف عنك القناع ، صدقني !

ـ في رأيي أن الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً • ما الذي يمكنك أن تستند اليه وتعتمد عليه لاتهام بريء ، ومن ذا الذي يمكن أن يحمل كلامك محمل الجد ؟ على أنني أنبهك وأحذرك منذ الآن : اذا أنت تصرفت هذا التصرف ، فلأقولنّ من جهتي كل شيء ، اذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي •

ـ أتظن الآن أنني أخاف منك ؟

ـ هب المحكمة لم تقم أي وزن لأقوالي ولم تهتم أي اهتمام بشيء مما قلته لك في هذه اللحظة : ان الناس سيصدقون كلامي ، فيُطعن من هذا شرفك ، وتسوء سمعتك •

سأله ايفان وهو يصرف بأسنانه :

ـ هو الأمر نفسه دائماً : « يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى » • أهذا ما تعنيه بتلك العبارة اذن ؟ هه ؟

ـ هو بعينه • ستتصرف تصرف رجل ذكى •

نهض ايفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياء وغضباً ، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردّ على سمردياكوف ، وحتى دون أن يلقى نظرة الى وراء • وقد أحسن اليه الهواء الطرى الذى يشيع فى جو المساء • كان القمر يضىء السماء • وكان ايفان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والاحساسات المضطربة التى تغلى وتجيش فى نفسه : « أأمضى أشى بسمردياكوف فوراً ؟ ولكن ما الذى أستطيع أن أقوله ضدّه ؟ ليس هو القاتل على كل حال ••• بالعكس : هو الآن يتهمنى أنا ••• حقا ، لماذا سافرت الى تشرماشنيا ؟ لأى غرض ، لأى هدف ؟ نعم نعم ••• هذا صحيح ، هذا واضح ، لقد كنت أتوقع شيئاً ••• ان ذلك الوغد على حق فيما قال••• » • بهذا كان ايفان يحدث نفسه• وتذكر ، ربما للمرة المائة ، أنه تجسس على حركات أبيه وسكناته، متسللاً على السلم أثناء الليلة الأخيرة التى قضاها عنده ، ولكن هذه الذكرى بلغت من ايلامه على حين فجأة أنه جمد فى مكانه كأن طعنةً نفذت فى قلبه ، وقال يخاطب نفسه : « هذا صحيح ، لقد تمنيت ذلك ••• لقد توقعته ••• هذا حق ! نعم ، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه ، كنت أريد وقوعها ! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً ، أكنت أتمناها حقاً أم لا ؟ ••• يجب قتل سمردياكوف ••• اذا لم تسعفنى الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف ، فان الحياة لن تستحق منى أن أحياها ••• » •

لم يرجع ايفان الى مسكنه ، بل اتجه رأساً الى بيت كاترين ايفانوفنا

التى روّعها ظهوره المباغت : كان زائغ النظرة تائه الهيئة ، فاذا رآه الرائى أحس أنه قد جُن • قصّ على كاترين ايفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف ، لم يُسقط منها كلمة واحدة • ولم يفلح فى تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة ، وكان لا ينفك يسير فى الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة مفككة • ومع ذلك جلس آخر الأمر ، واضعاً كوعيه على المائدة ، جاعلاً رأسه فى يديه ، وقال هذه العبارة المذهلة :

ــ اذا صدق أن القاتل ليس دمترى بل سمردياكوف فاننى أكون عندئذ شريكه فى هذه الجريمة ••• حتماً ••• لأننى أنا الذى حرضته على القتل • الواقع اننى لا أعرف أنا نفسى بعدُ هل دفعته الى الجريمة أم لا • ولكن اذا كان هو الذى قتل ، لا دمترى ، فعندئذ أكون أنا القاتل الحقيقى •

حين سمعت كاترين ايفانوفنا هذه الكلمات ، نهضت دون أن تقول شيئاً ، فاقتربت من مكتبها ، ففتحت درجاً صغيراً فأخرجت منه ورقة وضعتها أمام ايفان • هذه هى بعينها الوثيقة التى سيقول ايفان فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد انها تثبت بيقين رياضى أن دمترى هو الذى ارتكب جريمة قتل أبيهما • انها رسالة كتبها ميتيا الى كاترين ايفانوفنا وهو فى حالة سكر ، مساءَ التقائه بأليوشا فى الحقول حين كان أليوشا عائداً الى الدير بعد المشهد الذى أهانت فيه جروشنكا غريمتها كاترين ايفانوفنا • فان ميتيا ، بعد أن ترك أليوشا فى ذلك اليوم ، قد أسرع يذهب الى جروشنكا • لا ندرى هل وجدها فى بيتها • ولكنه شوهد تلك الليلة فى كاباريه « العاصمة الكبرى » يسرف فى الشراب ، حتى اذا أخذ منه السكر مأخذه ، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة ، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه • هى رسالة ملتهبة مهذارة ، هى سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكران حقاً ، تذكِّرُ قليلاً بالخطب التى يلقيها السكارى حين يرجعون

الى منازلهم فيقصون على زوجاتهم بحرارة مستعرة وحماسة شـديدة أنهم قد أهينوا اهانات خطيرة ، وان الذى أهانهم انسان حقير ، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذى اعتدى عليهم • كتب ميتيا هذه الرسالة مطنباً مفيضاً ، وهو فى حالة هياج شـديد ، فكان يرصف جملاً لا ترابط بينهـا ، ويخبط المائدة بقبضـة يده من حين الى حين ، ويبلل الورقـة بدموع من بلغ به الثمل أشـــده • وكانت الورقة التى أُعطيها فى الكاباريه رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات ، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة ، ملأ ميتيا هوامشها ، حتى أن العبارات الأخيرة التى انطلقت تعبر عن عواطفه فى اطنـاب السـكارى قد خُطّت عرضاً لا طولاً • واليكم مضمون تلك الرسالة :

« كاتيا ! سوف أجد المال غداً، وسوف أرد اليكالثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك ، يا امرأة شديدة الغضب ! لننته من هذا الأمر ! سـأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع النـاس ، فان لم أوفق ، فلك علىّ عهـد الشرف أن اذهب الى أبى فاهشـّم جمجمتـه ، واستولى على المال الذى يخبئه تحت وسادته ••• شريطة أن يكون ايفان غائباً ! اننى أقبل أن يُحكم علىّ بالسجن مع الأشغال الشـاقة ، ولكننى سـأرد اليك الثـلاثة آلاف روبل • أما أنت ، فوداعاً !••• اننى أنحنى أمامك حتى الأرض ، لأن الذى يحبك انســـان شـقى ! سـامحينى • بل لا ••• لا تسامحينى ! ذلك أسهل ، علىّ وعليك ! اننى أوثر السجن على حبك ، لاننى أحب امرأة أخرى ، تعرفينها أنت حق المعرفة • لقد استطعت أن تعرفيها اليوم ، فكيف يمكنك أن تغفرى لى بعد هذا ؟ سأقتل الرجل الذى سرقنى ! سـأبتعد عنكم جميعاً ، سـأذهب الى المشرق حتى لا أراكم بعدئذ قط ! أصبحت لا أريد أن أراها « هى » أيضاً ••• ما أنت بالانسانة الوحيدة التى عذبتنى • لقد عذبتنى هى كذلك • وداعاً •

« حاشية : اننى ألعنك ، ومع ذلك أعبدك ! أشعر بقلبى يخفق فى صدرى ! ما يزال هنالك وتر يهتز لك • أوثر أن يتحطم هذا القلب• سأقتل نفسى ، ولكننى سأقتل ذلك الشيطان الرجيم أولاً • سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل ، فأرميها اليك • ان الذى يكتب اليك الآن انسان شقى ، ولكنه ليس سارقاً ! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل • المبلغ مخبأ عند ذلك الشيطان الرجيم تحت الوسادة ، يلفه شريط وردى اللون• أنا لست لصاً ، لأننى سأقتل ذلك الذى نهب أموالى • لا تحتقرينى يا كاتيا : ليس دمترى لصاً بل هو قاتل • قتل أباه وضيّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس ، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر ، وأيضاً حتى يكف عن حبك •

حاشية : أقبّل قدميك • وداعاً •

حاشية : كاتيا ! صلّى واضرعى الى الله أن يقرضونى المبلغ ، فما اضطر الى أن أسفح دماً • أما اذا لم يقرضونى فسوف يجرى الدم ! اقتلينى !

خادمك وعدوك

د• كارامازوف

أقنعت قراءة هذه « الوثيقة » ايفان. • لقد اتضح له الآن أن القاتل هو أخوه دمترى وليس سمردياكوف• وما دام الخادم بريئاً ، فليس عليه هو ايفان ، أن يتهم نفسه بشىء • ومنذ تلك اللحظة أصبح ايفان يحمّل هذه الرسالة دلالة يقين رياضى ، وأصبح لا يساوره أى شك فى أن ميتيا هو هو القاتل • يحسن أن نذكر هنا أنه لم يخطر ببال ايفان فى لحظة من اللحظات أن يفترض أن جريمة القتل الذى ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف • ثم ان مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع •

خلاصة القول ان هذه الرسالة قد حملت الى ايفان طمأنينة تامة ، فلما أصبح فى الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر الا باحتقار ، حتى انه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم كله من الغمزات المهينة التى وجهها اليه سمردياكوف • وقرر أن يتجاهله فى المستقبل وأن ينساه نسياناً تاماً • ثم لم يسأل عن سمردياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذلك ، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمردياكوف مريض جداً وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله ؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكى فى ذات يوم انه « سيهوى الى الجنون » ، فحفظ ايفان هذه العبارة • وفى أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ ايفان يحس هو نفسه بأنه مريض ، فقرر أن يستشير الطبيب الذى استقدمته كاترين ايفانوفنا من موسكو • وفى تلك الفترة بعينها انما كانت علاقاته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر ، فهما يتعاملان تعامل عدوين يحب كل منهما الآخر • كانت رجعات كاترين ايفانوفنا الى الهيام الشديد بميتيا ، وهى رجعات طارئة لكنها عنيفة قوية، كانت تُخرج ايفان عن طوره وتخنقه أشد الخنق • شىء غريب : ان ايفان ، الى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذى وصفناه والذى جرى فى منزل كاترين ايفانوفنا حين زارها أليوشا بعيد زيارته ميتيا ، لم يسمع كاترين ايفانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر ، تعبِّر عن أى شك فى أن ميتيا هو القاتل ، رغم « رجعاتها » الى هيامها به من حين الى حين ، وهى رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس ايفان • ومن الأمور البارزة أن ايفان ، رغم احساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم ، كان يدرك ادراكاً تاماً أن كرهه لأخيه لم يكن سببه « رجعات كاتيا » هذه الى التوله به ، بل كان سببه أن « أخاه قد قتل الأب » • كان ايفان يعى ذلك وعياً قوياً ، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا فى السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام ، عارضاً عليه خطةً للهرب ، وهى خطة كان واضحاً

أنه أعدها منذ مدة طويلة • وانما قرر ايفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحنق الشديد الذى أثاره فى نفسه قول سمردياكوف ، غامزاً ، انه ، هو ايفان ، يجنى نفعاً من اتهام أخيه ديمترى بالقتل ، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين الفاً الى ستين ألفاً • ان الجرح الصغير الذى أصاب قلبه من هذا الكلام الذى قاله سمردياكوف لم يمكن أن يندمل • لذلك قرر أن يضحى وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا • وحين عاد ايفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه ، أحس بحزن رهيب واضطراب فظيع يستوليان عليه : لقد تراءى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له أن يضحى بثلاثين ألف روبل وأن يشفى جرح قلبه ، لا لهذا فحسب ، بل لسبب آخر أيضاً • لقد تساءل : « ترى ألست أتمنى ذلك لأننى فى قرارة نفسى قاتل كأخى سواء بسواء ؟ » • وهذا ألم غامض بعيد ، ولكنه لاذع كاو ، يستيقظ فى قلبه • وكانت كبرياؤه خاصة هى التى قاست كثيراً خلال هذا الشهر ، غير أننا سنعود الى ذلك فيما بعد •

حين أمسك ايفان جرس بيته بعد أن ترك أليوشا ، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب الى سمردياكوف • انه حين قرر ذلك انما خضع لغضب مفاجىء مرده الى سبب خاص • ذلك أنه تذكر فى تلك اللحظة أن كاترين ايفانوفنا قد صرخت تقول له أمام أليوشا منذ دقائق انه هو وحده الذى حاول اقناعها بأن ميتيا هو الجانى • فحين تذكر ايفان هذا الكلام أصيب بذهول شديد : انه لم يحاول أن يقنعها فى يوم من الأيام بأن القاتل ميتيا • بالعكس : لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف • وهى ، هى التى وضعت أمام عينيه عندئذ « وثيقة » الاتهام تلك التى أرادت أن تبرهن بها على أن الجانى ميتيا • وها هى ذى تصرح له منذ لحظات أنها ذهبت هى نفسها الى سمردياكوف ! متى رأت

سمردياكوف اذن ؟ ان ايفان لا يعرف عن ذلك شيئاً • هل معنى هذا أنها لم تكن مقتنعة بأن ميتيا هو القاتل ؟ ما الذى يمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها ؟ ما الذى قاله لها على وجه الدقة ؟ استولى الحنق على ايفان ، واستغرب كيف لم ينتبه الى تلك الكلمات قبل نصف ساعة ، ولماذا لم ينفجر حينذاك ؟ وفيما كان على هذه الحال انما أرخى جرس بيته ، وأسرع يمضى الى سمردياكوف • وقد قال محدثاً نفسه أثناء الطريق : « قد أقتله فى هذه المرة ! » •

٨
ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف

قطع ايفان نصف الطريق هبَّت ريح جافة شديدة تشبه الريح التى هبت فى الصباح . وأخذ يهطل ثلج ناعم كثيف يغطى الأرض دون أن يلتصق بها . فالريح تحمل الثلج وتدور به فى الفضاء ، وسرعان ما صار ذلك الى إعصار . ان الحىّ الذى يقيم فيه سمردياكوف من المدينة سىء الاضاءة ، ومصابيح الشوارع فيه قليلة نادرة . فكان ايفان يمشى فى الظلام غير عابىء بزوبعة الثلج ، متبعاً طريقه على هدى غريزته . كان فى رأسه صداع ، وكان صدغاه يدندنان ، فكان يشعر من ذلك باحساس أليم . وقد بلغت نبضات عروقه من القوة أنه خيِّل اليه أن قبضتى يديه تتشنجان . وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقير الذى تسكنه ماريا كوندراتيفنا التقى ايفان فيدوروفتش فجأةً بفلاح صغير سكران ، يلبس قفطاناً مرقعاً ، ويسير مترنحاً ، ويدمدم شاتماً ، ويقطع سبابه من حين الى حين فيأخذ فى الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى :

سافر فاليا الى بيتر *
لكننى لن انتظره

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل الى البيت الثانى من الأغنية ، فيستأنف شتم أحد الناس ، ثم يرتد فجأة الى لازمته الأبدية .

كان ايفان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بكره عنيف لاشعورى حتى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب حنقه بغتة، فود لو يصرع الرجل بضربة يهوى بها على رأسه . وبينا هو كذلك اذ أصبح الاثنان جنباً الى جنب ، وكان الفلاح الصغير يترجح فى مشيته ويترنح فصدم ايفان صدمة قوية ، فما كان من ايفان الا أن دفعه حانقاً ، فهوى السكران على الأرض المتجلدة كتلة واحدة بعد أن أطلق من صدره أنة أليمة ثم لبث صامتاً . مال ايفان على الرجل ، فرآه راقداً على ظهره مغشياً عليه . فقال فى نفسه : « سيتجمد من البرد » ، ثم تابع طريقه .

وفى ممر البيت الصغير الذى يسكنه سمردياكوف ، قالت له ماريا كوندراتيفنا التى أسرعت تستقبل ايفان حاملة بيدها شمعداناً ، قالت له فى همس ان بافل فيدوروفتش (أى سمردياكوف) مريض جداً ، وانه ان لم يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً ، فانه لا يبدو مالكاً كل عقله ، حتى لقد رفض شرب الشاى الذى قُدِّم اليه وأمر برفعه .

سألها ايفان بلهجة شرسة :

ــ أهو يحاول جرسة اذن ؟

فقالت ماريا كوندراتيفنا :

ــ بالعكس : انه هادىء كل الهدوء ، ولكنك تحسن صنعاً اذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه .

فتح ايفان الباب ، ودخل غرفة الخادم .

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة ، كما فى الزيارة الأولى ، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث : أُبعدت احدى الدكتين ووُضعت فى مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد ، لها مسند من خشب يحاكى خشب الأكاجو ؛ ولقد جُعلت هذه الكنبة سريراً عليه وسائد نظيفة .

كان سمردياكوف جالساً على تلك الكنبة مرتدياً معطف المنزل ذاك الذى كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين • وقد دفعت المائدة نحو الكنبة ، فأصبح المكان فى الغرفة ضيقاً • وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر ، غير أن سمردياكوف لم يكن يقرأ ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأى عمل البتة • استقبل ايفان بنظرة طويلة صامتة ، ولم يظهر عليه أى استغراب لهذه الزيارة • وكانت قسمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة • كان وجهه ناحلاً أصفر ، وكانت عيناه غائرتين ، وكانت جفناه السفليين مزرقتين •

قال ايفان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه :

ـ انك لتبدو مريضاً حقاً ! لن أمكث مدة طويلة ، ولن أخلع معطفى • هل من كرسى لى ؟

ودار حول المائدة ، وتناول كرسياً فدفعه نحو الكنبة وجلس •

قال ايفان مبتدئاً كلامه :

ـ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لقد جئت لألقى عليك سؤالاً واحداً فى هذه المرة • ولكننى أحلف لك أننى لن أنصرف قبل أن تجيبنى • هل جاءت اليك كاترين ايفانوفنا ؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس فى ايفان بهدوء • ثم حرك يده باشارة تململ على حين فجأة ، وأشاح وجهه •

هتف ايفان يسأله :

ـ ما بك ؟

ـ لا شىء !

ـ كيف لا شىء ؟

ـ نعم جاءت ! فيم يعنيك هذا ؟ دعنى وشأنى !

ـ لا ، لن أدعك . متى جاءت ؟ أجب !

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار :

ـ نسيت .

ثم التفت نحو ايفان بحركة مفاجئة ، وألقى عليه نظرة مثقلة بكره هو ذلك الكره الشديد نفسه الذى سبق لايفان أن رآه فى عينيه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر .

قال سمردياكوف :

ـ يبدو أنك مريض أنت نفسك . عجيب ! ان خديك خاسفتان ، وان قسمات وجهك منقلبة .

ـ دعك من صحتى وأجب عن سؤالى .

ـ ولماذا اصفرت عيناك ؟ لقد اصفر بياض عينيك يا سيدى . لعل ذلك يرجع الى أنك تتعذب كثيراً .

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد ، ثم أخذ يقهقه صراحةً .

هتف ايفان يقول وقد بلغ أوج الغضب والحنق :

ـ أكرر ما قلته : لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبنى .

فقال سمردياكوف بلهجة أليمة :

ـ لماذا تعذبنى ؟ ماذا تريد منى ؟

ـ شيطان يأخذك . أنا لست أهتم بك أنت . أجبنى فأتركك حالاً .

قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد :

ـ لن أجيبك !

ـ سأعرف كيف أجبرك على أن تجيبنى . صدقنى !

سأله سمردياكوف وهو يحدّق اليه على حين فجأة ، معبراً فى هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً :

ـ لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب ؟ أبسبب تلك المحاكمة التى تبدأ غداً ؟ ولكن لا خوف عليك أنت ، اطمئن أخيراً . ارجع الى منزلك، وارقد هادىء البال ، ونم مرتاحاً لا يساورك أى جزع !

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول ... ما الذى يمكن أن اخشاه أنا من الغد ؟

كذلك قال ايفان مدهوشاً ، ثم لم يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً فى ظهره .

ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، ثم قال له بلهجة بطيئة مليئة بالعتب :

ـ أ.. لا .. تف ... هم ؟ أية لذة يجد الرجل الذكى فى تمثيل مهزلة كهذه ؟

نظر اليه ايفان صامتاً . ان هذه اللهجة غير المتوقعة ، المليئة بتعال غير معهود ، التى كلمه بها خادمه القديم ، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه ، لأن سمردياكوف لم يسمح لنفسه يوماً الى الآن ، حتى أثناء اجتماعيهما السابقين ، أن يصطنع هذا الوضع .

وتابع سمردياكوف كلامه :

ـ أكرر أنك لا خوف عليك ، فلا تخش شيئاً ! لن أشهد ضدّك ، وليس هناك أى برهان يمكن الاستناد اليه لاتهامك أنت . ما هذا ؟ ما ليديك ترتجفان ؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج ؟ ارجع الى منزلك . لست أنت القاتل !

ارتعش ايفان متذكراً كلمات أليوشا • وتمتم يقول :

ـ أعرف هذا • لست أنا •••

فكرر سمردياكوف يقول :

ـ تعرف هذا ؟

فوثب ايفان وأمسك سمردياكوف من كتفه وقال :

ـ تكلم ، قل الحقيقة أيها الثعبان ! قل كل ما تعرفه •

لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أى خوف ، واكتفى بأن ألقى على ايفان نظرة مثقلةً بكره شديد • ثم انطلق قائلاً بصوت صافر مسموم :

ـ آ ••• أهكذا ؟ اعلم اذن أنك أنت الذى قتلته •

فتهالك ايفان على كرسيه ، وبدا عليه الغرق فى خواطره وأفكاره • ثم ابتسم ابتسامة خبيثة •

ـ أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها ؟ بصدد تلك الاستنتاجات والاستدلالات الغبية التى حدثتنى فيها المرة الماضية ؟

ـ تماماً • ثم انك قد فهمتنى فى المرة الماضية حق الفهم ، وأنت تفهمنى اليوم كل الفهم •

ـ كل ما أفهمه هو أنك مجنون •

ـ ألم تكتف بعد ؟ نحن هنا وحيدان ، وليس ثمة شهود • فلماذا هذه المراوغة ، لماذا يخادع أحدنا الآخر ؟ اللهم الا أن تكون ما تزال تنوى أن تلقى التبعة كلها علىّ ، علىّ وحدى ! ألا تشعر بخجل منى ؟ انك أنت الجانى الرئيسى ، انك أنت القاتل الحقيقى ، أما أنا فلم أكن الا مساعدك ، لم أكن الا خادمك « لتشاردا » * الوفى الأمين • لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وايحاءاتك •

سأله ايفان وهو يشعر بأنه قد تجمد من شدة الهلع :

ـ قمت بما قمت به ؟ أأنت الذى قتلته اذن ؟

أحسّ ايفان بتزلزل نفسى ، وسرت فى جسمه كله رعدات صغيرة باردة . فنظر اليه سمردياكوف عندئذ مدهوشاً بعض الدهشة . لكأن صدق الجزع الذى أصاب ايفان قد خطف بصره أخيراً .

دمدم سمردياكوف يسأل ايفان بشىء من الشك وهو ما يزال ينظر اليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة :

ـ هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً ؟

ظل ايفان يتفرس فى الخادم ، وكأنه أصبح أبكم لا يستطيع الكلام . وترجّعت فى رأسه هذه اللازمة على حين فجأة :

سافر فانيا الى بيتر
لكننى لن انتظره

ثم قال أخيراً :

ـ انى لأتساءل أأنا فى حلم ؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لى ؟

ـ لا شبح هنا . لا أحد الا نحن الاثنين ، وثالثاً أيضاً . وهو الآن هنا ذلك الثالث ، هو حاضر بيننا حتماً فى هذه اللحظة .

ـ من هو ؟ من ؟ من هنا ؟ عن أى ثالث تتكلم ؟

كذلك سأله ايفان فيدوروفتش مذعوراً ، وهو ينظر حواليه ، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحد فى زوايا الغرفة .

قال سمردياكوف :

ـ الثالث هو الله . ان الله حاضر بيننا الآن . ولكن لا تبحث عنه ، لأنك لن تراه .

انفجر ايفان فجأة وزأر يقول :

ـ كذبت حين زعمت أنك أنت الذى قتلته . أمران لا ثالث لهما : فاما انك مجنون ، واما أنك تسخر منى كما فعلت فى المرة الماضية !

ظل سمردياكوف هادئاً . ولم يحفل بغضب ايفان ، وانما كان يتفرس فيه بانتباه واستطلاع . انه لم يستطع أن يتغلب على شكه وارتيابه، لأنه كان يتصور ، حتى فى هذه اللحظة ، ان ايفان « يعرف كل شيء » ، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً ، « بغيـة أن يلقى التبعة كلها عليـه ، هو سمردياكوف ، وأن يجبره على قبول هذا الوضع » .

وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن :

ـ انتظر قليلاً .

وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة ، وأخذ يشمر سرواله .

ظهرت قدمه فى حـذاء المنزل ، ثم ظهر جـورب طويل أبيض . وبدون تعجل ، حلّ حمالة الجورب ، وأغطس يده الى القاع . كان ايفان فيدوروفتش ينظر اليه وهو يفعل ذلك ، فاذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة ، واذا بذعر متشنج يستولى عليه . وهتف يقول :

ـ جُنّ عقله ، جنّ عقله .

ثم وثب عن مكانه ، وتراجع الى الوراء بحركة بلغت من القوة أنه صدم الجدار بظهره ، ثم لبث لاصقاً بالجدار ، متصلباً كعصا .

كان يتـأمل سـمردياكوف بهلع لا حـدود له . لم يضطرب سمزدياكوف من ذعر ايفان ، واستمر ينبش قاع جوربه ، محـاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك . وظفر بهذا الشيء أخيراً ، فأخرجه. رأى ايفـان أن هذا الشيء هو أوراق أو حـزمة من أوراق . ووضـع سمردياكوف الحزمة على المائدة . وقال بصوت خافت :

ـ هو ذا ...

فسأله ايفان الذى كان يرتعش :

ـ ما هذا ؟

فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً :

ـ أنظر فترى .

دنا ايفان من المائدة ، وتناول الحزمة ، وأخذ يفضها . فاذا هو يسحب أصابعه فجأة ، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً .

قال سمردياكوف :

ـ أصابعك ترتجف يا سيدى !

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل . فظهرت تحت الورقة التى تلف الحزمة ، ظهرت ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل .

وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومىء الى المبلغ :

ـ المال كله هنا . ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال . لا داعى الى العد .

تهاوى ايفان على الكرسى ، وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً . ثم دمدم يقول بضحكة غريبة :

ـ روّعتنى ... بسبب جوربك ...

عاد سمردياكوف يسأله :

ـ هل يُعقل ، هل يمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن ؟

ـ كنت أجهل كل شيء . كنت أظن أن دمترى هو القاتل .

ثم صاح ايفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه :

ـ أخى ! أخى ! آه ••• رباه ! ••• اسمع : هل قتلته وحدك ؟ هل قتلت بمساعدة أخى أم بدون مساعدته ؟

ـ لم يكن لى شريك فى الجريمة سواك • أنا انما قتلت بالتواطؤ معك • أما دمترى فيدوروفتش فهو برىء براءة كاملة •

ـ طيب ، طيب ، سنتحدث عنى أنا فيما بعد• ما لى ارتجف هكذا ؟ اننى لا أتوصل الى أن أحسن الكلام •••

قال سمردياكوف مدهوشاً :

ـ كنتَ فى الماضى أكثر جرأة وأعظم جسارة حين كنتَ تقول : « كل شىء مباح » • وهأنت ذا اليوم مذعور أشد الذعر • هل تقبل أن تشرب كأساً من شراب الليمون ؟ سآمر لك بكأس من شراب الليمون ، فانه يحسن اليك • ولكن يجب أولاً اخفاء هذا •

قال سمردياكوف ذلك وهو يومىء الى حزمة الأوراق المالية •

واتجه نحو الباب على نية استدعاء ماريا كوندراتيفنا ليأمرها باعداد شراب الليمون واحضاره • ولكن عدل عن ذلك فجأة ، وحاول أن يبحث شىء يمكنه أن يخفى به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة ، فأخرج فى أول الأمر منديله • ولكنه لاحظ أن المنديل وسخ جداً فأعاده الى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذى لاحظه ايفان على المائدة حين دخل ؛ فجعله غطاءً يخفى تحته الحزمة • واستطاع ايفان فيدوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية : « مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى » * •

وقال ايفان بعد ذلك :

ـ لا أريد شيئاً من شراب الليمون • سنتحدث عنى أنا فيما بعد • اجلس الآن واقصص علىّ : ماذا فعلت لتقتله ؟ قل الحقيقة كلها •

ـ يجب أن تخلع معطفك والا شعرت بحر شديد ونضح منك العرق .

خلع ايفان معطفه بسرعة ، كأنه لم يخطر بباله ذلك الا فى تلك اللحظة ، ورمى المعطف على الدكة دون أن ينهض من مكانه .

ـ تكلم الآن ، أرجوك ، تكلم .

كان قد هدأ روعه ، فهو ينتظر واثقاً أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة « كلها » .

بدأ سمردياكوف كلامه وهو يتنهد :

ـ ماذا فعلت ؟ الأمر بسيط جداً . استوحيت أقوالك أنت ، ف ...

قاطعه ايفان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من قبل ، ولكنه ينطق الآن بكلماته واضحةً كل الوضوح ، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً :

ـ سنتحدث عن أقوالى أنا فيما بعد . أما الآن فأشرح لى بالتفصيل كيف تدبرت الأمر . ابسط الوقائع مرتبةً ولا تسقط أى تفصيل من التفاصيل . أريد أن تذكر التفاصيل ، التفاصيل خاصة . أنا مصغ اليك .

ـ بعد سفرك سقطت فى القبو ...

ـ أسقطت بنوبة صرع صادقة أم سقطت متظاهراً بنوبة صرع ؟

ـ متظاهراً طبعاً . تظاهرت بنوبة الصرع الى النهاية . هبطت سلّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته ، ثم استلقيت على الأرض بهدوء أيضاً . حتى اذا صرت راقداً على الأرض أخذت أعول ، وظللت أتخبط حين نقلونى .

ـ لحظة . اذن كنت تتظاهر طول الوقت ، أليس كذلك ؟ وفى المستشفى بعدئذ أيضاً ؟

ـ لا . ففى صباح الغد ، قبل نقلى الى المستشفى أُصبت بنوبة صرع صادقة ، وكانت نوبة عنيفة جداً لم أعان مثلها منذ سنين . ولبثت يومين كاملين مغشياً علىّ .

ـ طيب . طيب . أكمل كلامك .

ـ أرقدونى على مضجع وراء حاجز غرفة جريجورى فاسيلتش . كنت أتوقع ذلك ، لأن مارفا اجناتفنا قد اعتادت أن ترقدنى هناك ، على مقربة منها ، حين أمرض . لقد أحاطتنى دائماً بكثير من الحنان منذ ولدت . وفى الليلة التالية كنت أئن ، ولكن أنيناً ضعيفاً ، بانتظار دمترى فيدوروفتش .

ـ كيف ؟ هل كنت تنتظر مجيئه اليك فى غرفتك ؟

ـ لا ... علام يجىء الى غرفتى ؟ كنت أنتظر وصوله الى الدار . ذلك أننى كنت واثقاً كل الثقة بأنه سيجىء فى تلك الليلة. كان لا بد له، وقد حُرم من معونتى وانقطعت عنه الأنباء التى أزوده بها ، كان لا بد له حتماً من أن يتسلل الى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذلك ، ليعرف من ذا أتى ، وليتصرف على ضوء ذلك .

ـ فماذا لو لم يجىء ؟

ـ لو لم يجىء لما وقع شىء . لولا أنه جاء لما عزمت أمرى .

ـ طيب ، طيب .. تكلم بمزيد من الدقة ، ولا تتعجل . وخاصةً لا تسقط أى تفصيل من التفاصيل !

ـ كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش . ذلك أمر ما كان يمكن أن لا يحدث . كنت قد أثرته اثارة شديدة فى الأيام الأخيرة ... ثم لقد كان يعرف الاشارات السرية ... فلم يكن يمكنه ، وهو فيما هو فيه من شك قوى وحنق مسعور ، الا أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل . كان هذا مرتباً من قبل . لذلك كنت انتظره موقناً أنه آتٍ لا محالة .

قاطعه ايفان قائلاً :

ـ لحظة ! لو قتل لاستولى هو على المال • أما كان ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو ؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها في هذه الحالة ؟ لست أفهم •

ـ دعك من هذا الكلام ! ما كان له أن يعثر على الظرف المودع فيه المال • أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش • ولكن ذلك كان كذباً مني • كان فيدور بافلوفتش يخفي المبلغ قبل ذلك في صندوق صغير • ولما كنت الانسان الوحيد الذي يثق به ويركن اليه فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الأيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها ، ولا سيما اذا كان سارقاً يتعجل الهروب • فهناك ، وراء الايقونات ، انما كان المال مخبأً لحظة وقوع الجريمة • أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش ، فهو فكرة غبية بليدة أفضلُ منها أن يوضع المبلغ في الصندوق الصغير • لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش• ذلك تفكير أبله• نعود الى دمتري: لو قتل دمتري أباه لما عثر على المال ، ولأسرع يهرب متحاشياً أن يحدث ضجة • هكذا يتصرف القتلة دائماً • والا لضُبط واعتُقل • وكيف دار الأمر ، فانني أستطيع في الغد أو حتى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضي آخذ المال من خلف الأيقونات ، فأحمله الى مسكني • وكانت السرقة ستُنسب عندئذ الى دمتري فيدوروفتش• يحق لي أن أتوقع ذلك•

ـ فاذا لم يقتل دمتري أباه ، ولم يزد على أن يصرعه ؟

ـ اذا لم يقتله ، لا أجرؤ أن آخذ المال طبعاً • هذا بديهي• وتكون خطتي قد اخفقت • على أنني كنت افترض ، فيما اجريته من حسابات ، أن دمتري كان سيبلغ من صرعه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط

مغشياً عليه . وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال ، ثم أوهم فيدور باقلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع دمترى ، وأن دمترى قد سطا على المال بعد أن ضربه .

ـ لحظة أخرى ... اننى لا أفهم بوضـوح ... هل دمترى هو الذى قتل اذن ، ثم لم تزد أنت على أن سرقت المال ؟

ـ لا ، ليس هو الذى قتل . لقد كان سهلاً علىّ ، حتى فى هذه اللحظة ، أن أزعم أنه هو القاتل ... ولكننى لا أريد أن أكذب عليك، لأننى ... لأننى أدرك الآن أنك لم تفهم شيئاً البتة حتى هذه اللحظة ، وأنك لم تكن تمثل تمثيلاً لتلقى التبعة كلها علىّ ، ولتجعلنى أقبل هذا الوضع . ومع ذلك فانك أنت الجانى الأكبر فى هذه القضية ، لأنك كنت على علم بما كان يتهيأ ، وقد كلفتنى بأن أقتل أباك . وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث . لهذا أصرّ على أن أؤكد لك جازماً ، فى هذا المسـاء ، أن القـاتل الرئيسى هو أنت ، أنت وحـدك ! أما أنا فلست الا معاون قاتل ، معاوناً ثانوياً ، رغم أن القتل قد تم بيدى . أنت القـاتل شرعاً ، أنت ، أنت !...

هتف ايفان أخيراً يقول وقد نفد صبره ، ناسياً أنه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه الى ما بعد :

ـ كيف أكون أنا القاتل ؟ آه ... يا رب !... أبسبب سفرى الى تشرماشنيا أيضاً ؟ قل لى اذن : لماذا كنت تحرص ذلك الحرص كله على موافقتى اذا كنت تؤول سفرى وحده على أنه موافقة ؟ هل لك أن تشرح لى هذا التناقض ؟

ـ حين أثق بأنك موافق، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عند عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل ، اذا اشتبهت فىّ السلطات بدلاً من أن

تعتقل دمتري فيدوروفتش ، أو اذا هي عدتني شريكاً له في الجريمــة ، حتى لقد تدافع عني في هذه الحالة • ثم انك بعد تنال نصيبك من الميراث قد تكافئني أثناء حياتك • ألم تنل هذا الميراث بفضلي أنا ؟ فلو قد تزوج أبوك أجرافين ألكسندروفنا ، لما آل اليك كوبك واحد من تلك الثروة كلها !•

دمدم ايفان يقول كازاً أسنانه :

ـ ها ••• كنت تنوي اذن أن تضطهدني طوال حيــاتي ! ولكن ما الذي كان يحدث لو أنني أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر ؟

ـ لا تملك دليــلاً ضــدي • ليس يكفي لاتهــامي أن أكون قد حضضتك على السفر الى تشرماشنيا • وهذا كله سخافات على كل حال ! هناك أمران لا ثالث لهما : اما أن تســافر بعد الحديث الذي دار بيننا ، واما أن تبقى هنا • فلو بقيت لما حدث شيء البتة ، لأنني أفهم عندئذ أنك لا تريد وقوع جريمة القتــل ، فأمتنع عندئذ عن الشروع في العمل • أما اذا ســافرت فانك تجعلني أوقن أنك لن تشي بي الى القضــاء وأنك ستغفر لي سرقة الثلاثة آلاف روبل • ومن جهة أخرى ، فانك لم تكن تســتطيع ملاحقتي ، لأن من الممكن أن اكشف أمام المحكمــة عن كل شيء ، وأن أذكر لا أنني سرقت وقتلت ـ فذلك ما لم أكن لأقوله بداهة ـ وانما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل ، وأنني رفضت ذلك • لقــد كنتُ اذن في حاجة الى موافقتك بغيــة أن لا تزعجني بعد ذلك ، فما هي الأدلة التي تملكها ضدي ؟ ولا كذلك أنا ، فانني أستطيع أن أزعجك في كل لحظة ، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة في موت أبيك • ويميناً ان جميع الناس كانوا سيصــدقون كلامي ، وان سمعتك كانت ستسوء الى الأبد ، وان شرفك كان سيلطخ مدى الحياة •

سأله ايفان غاضباً غضباً شديداً :

ـ أنت تزعم اذن أنني أتمنى بحرارة وقوة أن يموت أبي . فهل صحيح أنني تمنيت ذلك ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدق الى ايفان :

ـ لا شك اطلاقاً في أنك تمنيت ذلك ، ولقد كلفتني ضمناً بارتكاب هذه الجريمة ، دون أن تطلب مني هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح .

كان سمردياكوف ضعيفاً جداً ، وكان يتكلم بصوت أجش متعب، ولكن نوعاً من هوى متأجج سري كان يجيش في نفسه ويحرك لسانه . كان واضحاً أنه يهدف الى غاية ما . وقد أحس ايفان بذلك .

قال له ايفان آمراً :

ـ كمّل . اقصص تفاصيل وقائع تلك الليلة .

ـ ماذا أقصُّ أيضاً ؟ كنت راقداً على مضجعي ، فاذا أنا يتراءى لي انني أسمع صوتاً يطلقه أبوك . كان جريجوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات ، وسُمع يُعول على حين فجأة ، ثم ارتد كل شيء الى صمت مطبق . كنت انتظر في الظلمات راقداً ، وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً يكاد ينشق له صدري . لم أطق صبراً ، فنهضت أخيراً وخرجت . في اليسار ، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة . سرت بضع خطوات أيضاً لأتجسس على أبيك ، ولأعرف أهو ميت أم حي . سمعته يضطرب ويتنهد. قلت لنفسي : « اذن مايزال حياً ! اذن أخفقت الخطة ». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً : « هذا أنا ، لا تخف! ». فأجابني: « لقد جاء ، جاء ثم هرب ! » . كان يقصد دمتري فيدوروفتش .

وأضاف يقول : « لقد قتل جريجوري فاسيلتش » • سألته هامساً : « أين وقع هذا ؟ » فأجابني بهمس أيضاً : « هناك ، فى الركن » • قلت له : « انتظر لحظة » • واتجهت نحـو الركن الذى دلنى عليـه ، فاكتشـفت جريجورى فاسيلتش عند أسفل السـور راقداً على الأرض ، مضرجاً بالدم ، مغشياً عليه • « صحيح اذن ان دمترى فيدوروفتش قد جاء » • هاجمتنى هذه الفـكرة فوراً ، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسى اكمـال المهمة واتمام الأمر ، لأن جريجورى فاسيلتش ، حتى ولو كان مايزال حياً ، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو فيما هو فيه من اغماء • والخطر الوحيد هو أن تسـتيقظ مارفا اجناتفنا فجأة • شـعرت شعوراً واضحاً ، فى تلك اللحظة، بالخطر الذى أتعرض له اذا استيقظت مارفا اجناتفنـا ، ولكن الاغـراء كان أقوى من أن أتراجع ، وشـعرت باندفاع مسعور يقطّع أنفاسى • عدت الى النـافذة التى كان أبوك واقفاً عندها وقلت له : « جاءت ، جاءت أجرافين الكسـندروفنا • هى هنـا ، وتطلب أن تدخل » • فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير ، وطفق يسألنى : « أين ؟ أين هى ؟ » • كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج ، ومع ذلك لم يصدّق بعد تصديقاً تاماً • قلت أجيبه : « هى هنا • انها تنظر • هلاّ فتحت البـاب ! » • كان ينظر الىّ من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة ، متسائلاً أيجب عليه أن يصدقنى أم لا ، ولكنه تردد فى فتح الباب • قلت فى نفسى : « هو الآن خائف منى أنا » • أمر غريب مضحك : خطر ببالى فى تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالاشـارات المتفق عليها ايذاناً بوصول جروشنكا • فعلت ذلك ، فاذا به ، هو الذى لم يصدّق أقوالى ، اذا به يقتنع فجأة باشاراتى فيسرع يفتح الباب فوراً • فتح الباب ، فاردت أن أدخل ، ولكنه وقف أمامى يمنعنى من العبور ويسألنى مرتعشاً : « أين هى ؟ أين ؟ أين ؟ » •

قلت لنفسى : « اذا كان خائفاً منى هذا الخوف ، فمعنى ذلك أن الأمور تجرى مجرى سيئاً » . وفى تلك اللحظة . أحسست بساقىّ تخوران اذ تصورت أنه لن يدع لى أن أدخل غرفته ، أو أنه سيأخذ يصرخ ، أو أن مارفا اجنانفنا ستجىء مسرعة ، أو ما لا أدرى أيضاً . لا أتذكر الآن تذكراً جيداً ما حدث فى نفسى عندئذ . لا بد أن وجهى كان قد اصفر اصفراراً شديداً . دمدمت أقول : « هى هناك ، أمام النافذة ، كيف لا تراها ؟ » . قال : « ائت بها الى هنا ، ائت بها الى هنا » . قلت : « لقد خافت . روّعتها الصرخة التى أطلقها جزيجورى فاسيلتش ، فاختبأت وراء الأشجار . هيّا ، نادها أنت من النافذة » . عاد يدخل البيت ، ومضى الى غرفته ، ودنا من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة ، وصاح ينادى : « جروشنكا ! جروشنكا ! أأنت هنا ؟ » . ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عنى ، وذلك بسبب خوفه . كان يخشانى فى تلك اللحظة خشيةً رهيبة ، لذلك لم يبتعد عنى قيد انملة. قلت له وأنا اقترب من النافذة وأميل بنفسى الى الخارج : « ها هى ذى ! وراء تلك الأشجار . هل رأيتها ؟ انها تبتسم لك . انظر ! » . صدقنى فجأة ، وأخذ يرتعش ، لأنه كان مغرماً بها أشد الغرام ! عندئذ انما مال من على النافذة تماماً . لم أضيّع ثانية واحدة ، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التى كانت موضوعة على المنضدة ، لا شك أنك تتذكرها . انها تزن ثلاثة أرطال تقريباً . رفعتها ، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة . فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة . كل ما حدث أنه تهاوى . وضربته مرة ثانية ، فمرة ثالثة ؛ وفى المرة الثالثة شعرت أننى حطمت جمجمته. سقط على الأرض منقلباً، مضرجاً بدمه . نظرت الى نفسى لأرى هل تلطخت ، فلاحظت أن ثيابى نظيفة لم ينبجس عليها شىء من الدم . مسحت ضاغطة الورق ، وأرجعتها

الى مكانها • ثم اتجهت نحو الايقـونات ، فأخرجت المال من الظرف ، ورميت الظرف على الارض ، وحرصت على أن اضع جانبا ، الشريط الوردى الذى كان يلف الظرف • وبعـد ذلك نزلت الى الحديقـة وأنا ارتعش ارتعاشاً شديدا ، فمضيت رأسا الى الشجرة المجوفة الساق ، تلك التى تعرفها ••• كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة ، حتى لقد وضعت فيها ورقاً وخرقة استعداداً لذلك اليوم • لففت الاوراق الماليـة بالورقـة ، ثم غلفت الورقـة بالخـرقة ، ودسست الرزمة فى بطن الشجرة الجوفاء • بقيت الرزمة هناك أسبوعين • ولم أخرجها الا بعدة مدة ، عقب خـروجى من المستشـفى • عـدت الى بيتى ، فرقدت على مضجعى ، وأخذت أفكر عندئذ مذعوراً : « اذا كان جريجورى ميتاً ، فقد فسد كل شىء ودارت علىّ الدوائر ، أما اذا كان حياً فصحا من اغمائه فسوف يجرى كل شىء على خير وجه ، لأنه سيشهد بأن دمترى قد جاء فعلاً ، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذى قتل وسرق المال » • وبينا أنا فى هذا القلق وهذا الاضطراب ، أخـذت أئن لأوقظ مارفا اجناتفنا بأقصى سرعة • فاستيقظ مارفا أخيراً وهرعت الى • ولاحظت فجأة أن جريجورى فاسيلتش غائب ، فأسرعت الى الحديقـة وأخذت تعـول • وأنت تعرف التتمة ، وتعرف ما حدث بعد وقوع الجريمة • ومنذ ذلك الحين شعرت باطمئنان كامل •

هنـا توقف سـمردياكوف عن الكلام • وكان ايفان يصغى اليـه صامتاً كصمت ميت ، لا يتحرك ولا يحول عنـه بصره لحظة واحـدة • وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر اليه الا نادراً ، واذا نظر اليه نظر اليه خلسةً • لقد كان واضحاً أن سمردياكوف يؤثر أن يتحاشى نظرة ايفان فيدوروفتش ويحاول اتقاءها • فلما فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً ، وأصبح يتنفس تنفساً ثقيـلاً ، وظهرت على جبينـه

قطرات عرق . ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر بندم أم لا .

وكان ايفان يفكر ، فعاد يقول له :

ـ لحظة . والباب ؟ اذا كان أبى لم يفتح الباب الا لك وحدك ، فكيف رآه جريجورى مفتوحاً قبل ذلك ؟ ان جريجورى يؤكد أنه رأى الباب مفتوحاً .

شيء غريب : ان ايفان يلقى الآن أسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء ، دون أى اهتياج أو حنق ، فلو دخل شخص الى الغرفة فى تلك اللحظة ، وألقى من العتبة نظرة على المتحادثين ، لأحس أنه يشهد حديثاً هادئاً ودياً صداقياً يدور بين الرجلين على أمور عادية وان تكن هذه الأمور تعنيهما بعض العناية .

أجاب سمردياكوف يقول مبتسماً ابتسامة فيها مكر وسخرية :

ـ أما حكاية الباب الذى يزعم جريجورى فاسيلتش أنه رآه مفتوحاً ، فذلك وهم منه لا أكثر . أؤكد لك أن جريجورى ليس رجلاً ، بل هو خروف عنيد . انه لم ير شيئاً البتة ، ولكنه يتخيل أنه رأى الباب مفتوحاً ، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا . من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة في رأسه ، لأن هذه الواقعة تدين دمترى فيدوروفتش ادانة حاسمة .

قال ايفان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد ، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما :

ـ اسمع أيضاً ... أردت أن ألقى عليك أسئلة أخرى ...

ولكننى نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه ... لقد تاه عقلى تماما ... ها ... نعم ! اشرح لى هذه النقطة على الأقل : لماذا فضضت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة ؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال ؟ ... لقد تراءى لى ، أثناء حديثك ، أنك قد فعلت ذلك عامداً ، وأن ذلك كان أمراً ضروريا ... ولكننى لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة ...

ـ فعلت ذلك لسبب معيّن . لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك ، مثلى أنا ، شخص لعله سبق أن رأى المال ، ولعله شهد صرّه أو حتى ساهم فى صرّه ، فان ذلك الشخص ما كان ليحتاج الى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة ، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعاً ، ذلك أنه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال . لو كان القاتل واحداً من أهل الدار ، مثلى أنا ، لاكتفى بدسّ الظرف فى جيبه دون أن يفضّه ، ولولّى هارباً بأقصى سرعة . ولا كذلك شأن أخيك دمترى فيدوروفتش : فلقد كان لا يعلم بوجود هذا الظرف الا عن طريق السماع ، ولم يره بعينيه فى يوم من الأيام . فاذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش ، كان عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه ، ثم كان لا بد أن يلقى الظرف على الأرض متعجلاً ، دون أن يتسع وقته للتفكير فى أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادةً عليه . ان هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين ، فهم لا يفكرون فى الأمور ولا يتبصرون بالعواقب . يجب أن لا ننسى ان دمترى فيدوروفتش نبيل المحتد ، وأنه لم يسرق فى يوم من الأيام حتى ذلك الحين . واذا قرر أن يسرق فى هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة ، وانما هو استردادٌ لمالٍ يخصه شرعاً . كان دمترى فيدوروفتش قد أعلن ذلك فى المدينة كلها سلفاً ، حتى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضى يسترد حقه من فيدور بافلوفتش . اننى لم أفصح عن

هذا التفكير صراحةً فى شهادتى أمام وكيل النيابة ، ولكننى جعلته يدركه باشارات وتلميحات ، دون أن يبدو علىّ أننى أفهم أنا نفسى ما أقول ، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه الى هذه الأفكار التى أوحيتها اليه . ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره وافتتانه عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل قطرات من شفتيه .

هتف ايفان يقول وقد بلغ من الدهشة أوجها :

ـ هل يمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كله فى لحظة الجريمة نفسها ؟

ونظر الى سمردياكوف مرتاعاً من جديد .

ـ طبعاً لا ... ما كان يمكن أن يخطر هذا كله ببالى فى لحظة كتلك اللحظة . وانما رُتّب كل شىء من قبل .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول متعجباً :

ـ اذن ... اذن لقد ساعدك الشيطان نفسه ! لا ، لا ، لستَ غبياً . بل انك لأذكى كثيراً مما كنت أظن ...

ونهض ايفان ينوى أن يمشى بضع خطوات فى الغرفة . كان يشعر بانهيار نفسى شديد . ولكن المائدة كانت تسد الطريق ، والمكان الخالى بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشى فيه على مايحب. لذلك اضطر ايفان أن يقتصر على أن يدور فى مكانه ، ثم عاد فجلس . ولعل عدم تمكنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه ، فاذا هو يعود الى الكلام بلهجة مهتاجة كالتى تكلم بها حين وصوله . قال :

ـ اسمع أيها الشقى، أيها الانسان الدنىء الحقير ! ألم تفهم حتى الآن أننى ان امتنعت عن قتلك منذ بضع دقائق فما ذلك الا لأستطيع أن أسلمك

الى المحكمة غداً ؟ ألا فليشهد الله عليّ (قال ذلك وهو يَرفع يده كمن يحلف يميناً) ••• ربما كنت أنا نفسي جانياً ••• لعلني كنت أشعر سراً برغبة في ••• أن يموت أبي ••• من يدري ؟ ولكنني أحلف لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتصور ، وانني لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة فيما يخيَّل اليَّ • لا ، لا ، لم أحرِّضك ! على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام ! لسوف أتهم نفسي غداً ، أيةً كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي ، فانني أقبلها منذ الآن ، ولا أخشاك • بالعكس : سأؤيد كل ما تقوله • ولكن يجب عليك أن تعترف في الغد أنت أيضاً • هذا واجب يقع على عاتقك • يجب عليك ان تعترف ، يجب عليك ، سنذهب معاً • تَقرَّر هذا !

قال ايفان هذه الكلمات بلهجة قوية حازمة ، وكان واضحاً في سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه •

قال سمردياكوف ، ولكن دون سخرية في هذه المرة ، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف :

ـ أرى أنك مريض ، مريض جداً • ان عيناك صفراوان تماماً •

واستأنف ايفان كلامه فقال :

ـ سنذهب معاً • فان رفضت ، فلا ضير ••• سأذهب وحدي !

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم قال أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً :

ـ لن يكون شيء من هذا • لن نذهب الى المحكمة • ولن تذهب أنت •

هتف ايفان يقول بلهجة عتب :

ـ أنت لا تفهمنى .

ـ ستستحى من اتهام نفسك هذا الاتهام ، ولن يكون لهذا أى فائدة على كل حال ، لأننى سأصرّح عندئذ تصريحاً قاطعاً بأننى لم أُجر معك أحاديث من هذا النوع فى يوم من الأيام ، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله اختراعاً بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامى لما يبدو عليك من مرض) ؛ أو أقول أيضاً انك قلتَ ما قلت اشفاقاً على أخيك ورأفةً به ، مؤثراً اتهام نفسك فى سبيل انقاذه ، وانك ألقيت الذنب علىّ لأنك لم تحسبنى فى يوم من الأيام انساناً كسائر البشر ، وانما عاملتنى طوال حياتى كما يعامَل مخلوق حقير لا قيمة له . فمن ذا الذى سيصدق كلامك بعد هذا ؟ فكّر قليلاً : أين الأدلة ؟

قال ايفان :

ـ قل لى : أنت أريتنى هذا المال الذى كنت تخبئه عندك ، لتقنعنى بصدق ما رويته لى ، أليس كذلك ؟

فنحّى سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذى كان يغطى حزمة الأوراق المالية ، وقال متنهداً :

ـ خذ المال واحمله معك .

ـ سأحمله طبعاً ! ولكن لماذا ترده الىّ الآن وأنت انما قتلت لتحصل عليه ؟

كذلك سأله ايفان وهو ينظر اليه بدهشة كبيرة .

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم :

ـ أصبحت لا أريد هذا المال ! لقد قدّرت خلال مدةٍ ما أن أبدأ

بهذا المال حياة جديدة فى موسكو ، أو قل أيضاً أن أسافر الى الخارج • كان لى هذا الأمل ، ولا سيما أنك كنت تقول « ان كل شيء مباح » • أنت علمتنى أن أفكر هذا التفكير ، وأن أقضى فى الأمور على هذا النحو • كنت تقول لى دائماً : « اذا لم يوجد الاله الذى لا نهاية له ، فالفضيلة اذن باطل لا جدوى منه ولا داعى اليه » • هكذا كنت تفكر أنت ، ولقد استندت أنا الى أقوالك واعتمدت عليها •

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك فى هذه الجريمة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، مستوحياً آراءك •

ـ والآن هل عدت الى الايمان بالله ، ما دمت ترد الىّ المال ؟

دمدم سمردياكوف يقول :

ـ لا ، أنا لا أؤمن بالله •

ـ فلماذا ترد الىّ المال اذن ؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم من جديد :

ـ كفى ! فيم يهمك هذا ؟ أما كنت تقول عندئذ ان كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كله ، حتى لتنوى أى تشى بنفسك ؟ على أنك لن تفعل ذلك ، لا ، لن تشى بنفسك ، لن تشى بنفسك •

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل •

فأجابه ايفان بقوله :

ـ سترى !

ـ هذا مستبعد استبعاداً مطلقاً • أنت أذكى من أن تفعل ذلك • أنت تحب المال ، أعرفُ هـذا ؛ وأنت تحـرص كثيراً على أن يحترمك الناس ، لأنك مزهو متكبر • ثم انك عدا ذلك تتأثر تأثراً شديداً بمفاتن الجنس اللطيف ، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشـاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد • أنت تحرص على هذا أكثر مماتحرص على أى شىء آخر • ولن تريد أن تفسـد حياتك هذا الافسـاد بتلطيخ شرفك الى الأبد أمام المحكمة • أنت تشبه فيدور بافلوفتش • أنت بين سائر ابنائه أكثرهم شبهاً به ، لأنك قد ورثت عنه نفسه •

قال ايفـان وقد ظهر عليـه الاعجاب بملاحظات سـمردياكوف ، وتدفق الدم الى وجهه :

ـ لستَ بالغبى • كنتُ أظنك فى الماضى أبله •

ثم أضاف يقول وهو يتفرس فى الخادم باستطلاع وفضول :

ـ أرى أنك تتكلم الآن فى جد •

ـ بسبب زهوك وكبريائك انما كنتَ تعدنى غبيـاً • خذ المال • هلاَّ أخذته !

لمّ ايفان رزم الأوراق المالية الثـلاث ، ودسَّها فى جيبه ، حتى دون أن يهتم بلفِّها • وقال :

ـ غداً سأُظهر عليها المحكمة •

ـ لن يصـدقك أحد ، لأنك الآن غنى ، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت •

نهض ايفان وقال :

ـ لئن لم أقتلك اليوم ، فما ذلك الا لأننى سـأحتاج اليك غداً • تذكر هذا !

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقى على ايفان نظرة عجيبة:

ــ اقتلنى اذا شئت ، اقتلنى فى هذه اللحظة ...

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ــ ولكنك لن تجرؤ . انك لن تجرؤ على شىء بعد اليوم ، يا من كنت فى الماضى رجلاً جسوراً .

قال ايفان :

ــ الى اللقاء .

وتقدم خطوة نحو الباب .

ــ لحظة ! ... أرنيه مرة أخرى ، هذا المال ...

أخرج ايفان الأوراق المالية من جيبه ، وأراه اياها . فتأملها سمردياكوف بضع ثوان ، ثم قال وهو يحرك يده بتلك الحركة التى تنم عن الملل والسأم :

ــ طيب . اذهب الآن !

فلما همّ ايفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين فجأة :

ــ ايفان فيدوروفتشف !

فالتفت ايفان وسأله :

ــ ماذا تريد ؟

فقال له الخادم :

ــ وداعاً !

فاجابه ايفان :

ــ بل الى اللقاء ، الى الغد !

وخرج من البيت •

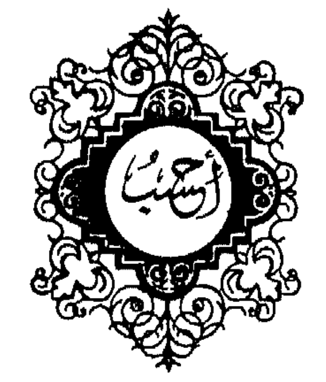
كانت زوبعة الثلج فى الخارج ما تزال تعصف مسعورة • أخذ ايفان يسير بخطى ثابتة ، ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح • فقال لنفسه وهو يبتسم : « هذه لحظة تعب جسمى » • واستولى عليه نوع من فرح • كان يحس فى نفسه ثباتاً لا يتزعزع : هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التى كانت تعذبه منذ زمن طويل • قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسى كبير : « قررت • ولن يتغير قرارى » • وفى تلك اللحظة صدم شيئا على الأرض ، فكاد يتعثر ويقع • توقف عن السير ، فاذا هو يرى الفلاح الصغير الذى كان قد صرعه قبل وقت قصير ، راقداً على الأرض ، جامداً على ذلك الوضع نفسه ، مغشياً عليه • كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً • رفعه ايفان وحمله على كتفيه • واذ رأى نافذة مضاءة فى منزل على يمينه ، اقترب من النافذة وقرعها ، فأجابه صاحب البيت ، فعرض عليه ايفان ثلاثة روبلات ليساعده فى نقل الرجل الى أقرب قسم من أقسام الشرطة • قبل صاحب البيت • سأصرف النظر عن التفاصيل ، فلا أذكر الا أن ايفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً ، بتوزيع بقاشيش كبيرة ، أن يضع الفلاح الصغير فى مقر الشرطة ، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور • وحسبى أن أشير الى أن هذه القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت ايفان • ولكن ايفان كان يحس برضى عن نفسه • كان فكره يعمل بعنف ، رغم أن خواطره مشتتة • قال يحدث نفسه مسروراً : « لولا أن كان قرارى فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً ، لما أنفقت ساعة كاملة فى الاهتمام بهذا الفلاح السكران ، ولمررت به دون أن اكترث لمصيره ، ودون أن أفعل شيئاً فى سبيل أن لا يتجلد من البرد ••• » ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح : « ولكن كيف امكن أن أكون قادراً على

تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق ••• ألا ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدعون انني بسبيل أن أجن ! » • حتى اذا وصل الى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة • فقال لنفسه : « أليس الافضل ان أذهب الى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شيء ؟ » • ولكنه أبعد هذه الفكرة ، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلا : « غداً ، غداً يتم هذا كله » • شيء غريب : بينما كان ايفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة ، اذا بالفرح الذى كان يملأ نفسه منذ قليل ، يتبدد فى غمضة عين • وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة ببرد فى قلبه ، كأنه تذكر شيئاً مقززاً معذباً موجوداً فى هذه الغرفة بعينها ، فى هذه اللحظة نفسها ، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن • وترامى على أريكته متعباً مكدوداً • وجاءته الخادمة العجوز بالسماور • فصنع لنفسه شيئاً من الشاى ، ولكنه لم يشربه ، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده الى الغد • كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار • كان يشعر بأنه مريض خائر القوى • حاول أن ينام • ولكنه نهض ثانية وهو فى حالة قلق شديد ، وأخذ يمشى فى غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس • وخيل اليه فى بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذى • على أن المرض ليس هو الذى كان يهمه ويشغل باله فى تلك الساعة • وعاد يجلس ، ونظر الى جميع الجهات كأنه يراقب المكان • وأجال بصره حوله عدة مرات • وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معين ، وأخذتا تحدقان الى نقطة بعينها فى أقصى الغرفة • وابتسم ايفان • ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً• ولبث جامداً خلال مدة طويلة ، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً ، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان الى تلك النقطة نفسها فى جهة الكنبة الموضوعة حذاء الحائط أمامه • واضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه •

٩

الشيطان

كابوس ايفان فيدوروفتش



أنه قد آن لى ، رغم أننى لست طبيباً ، أن أقدم للقارىء بعض الايضاحات عن طبيعة مرض ايفان فيدوروفتش . ولا أريد أن أستبق تتمة القصة ، سأقتصر على أن أقول هنا انه كان فى ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حمى حارة . لقد تغلب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذى كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة . وعلى أننى أجهل الطب ، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع ، بفضل توتر ارادته توتراً شديداً ، أن ينحّى ، الى حين ، ذلك المرض الذى كان يدمّره ، آملاً أن يقضى عليه فيما بعد . كان يعرف أنه مريض ، ولكنه يكره أن يكون مريضاً فى هذه الآونة التى يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه ، ليتكلم بحرية ، ليتكلم بوضوح ، « ليبرر نفسه أمام نفسه » . على أنه قد ذهب الى الطبيب الذى وصل من موسكو منذ مدة قصيرة ، والذى استدعته كاترين ايفانوفنا بدافع النزوة وحدها ، كما سبق أن قلت من قبل . فبعد أن أصغى الطبيب الى كلام ايفان ، وبعد أن فحصه ، انتهى الى أنه مصاب باضطراب دماغى ، ولم يستغرب

أيّ استغراب الاعترافَ الذى اعترفه له ايفان على مضض . قال الطبيب: « من الممكن جداً ، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغى ، من الممكن جداً أن توافيك هلوسات ، رغم أن الأمر يحتاج الى مزيد من التثبت والتحقق ... وكيف كان الحال ، فيجب عليك أن تشرع فى معالجة نفسك بغير ابطاء ، والا كان يُخشى حدوث أسوأ العواقب » .
ولكن ايفان فيدوروفتش ، حين خرج من عيادة الطبيب ، قرر أن لا يلقى الى هذه النصيحة بالاً وأن لا يقيم لها وزناً ، ثم أهمل التداوى. قال يحدث نفسه : « ما أزال قادراً على أن أمشى ، وما أزال أملك من القوة ما يمكننى من أن أسعى مهتماً بشئونى . ويومَ أنهار وأسقط فليصنعوا بى ما يشاءون ، وليعاملونى كما يحلو لهم أن يعاملونى » .
بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده باشارة الملل والسأم .

جلس ايفان اذن ، وكان يدرك هو نفسه فى تلك اللحظة أنه فى حالة هذيان . كان كما قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قوياً الى شىء موجود قرب الجدار المقابل من الغرفة . ذلك أنه على الكنبة المستندة الى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لايدرى الا الله كيف ، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين ولج ايفان فيدوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف . ان هذا الشخص سيد روسى ، أو هو يشبه أن يكون كذلك ، متقدم فى السن قليلاً ، يناهز الخمسين من العمر ، كما يقول الفرنسيون . شعره قاتم طويل كثيف ، أشيب فى بعض المواضع ، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة . وهو يرتدى صدرة بنية اللون ، رائعة التفصيل ، ولكنها عتيقة قليلاً ، قد بليت « موضتها » . لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين ، وما من أحد بين رجال المجتمع الثرى يرتدى مثل هذه الثياب فى هذا الزمان . ان القميص والكرافتة الطويلة التى تشبه أن تكون منديلاً ، أنيقان أيضاً كل الأناقة ، فهما مما يلبسه

في العادة سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية ، ولكنك تشك في نظافتهما اذا أنت أنعمت فيهما النظر من قرب • والكرافتة تبدو مهترئة كذلك • والرجل يرتدي سروالاً ذا مربعات ، يناسبه كثيراً ، رغم أن لونه فاقع جداً ، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته • ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة • خلاصة القول أن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك الا موارد محدودة • فلا شك أنه ينتمي الى فئة ملاكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرة في عهد القنانة • وهو يجيد الآداب الاجتماعية ، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقي ، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات • غير أن هذا السيد ، وقد صار شيئاً بعد شيء الى فقرٍ سببَّه تبذيره في ابان شبابه ، وفاقمه الغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة ، قد تردَّى الآن الى حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة ؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاهاً ، شريطة أن يُعيَّن له مكان متواضع بطبيعة الحال • وان الطفيليين الذين هم من هذا النوع ، الطفيليين الذين يرجعون الى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر ، ويجيدون المشاركة في لعبةٍ بالورق ، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يُرجون أن يقوموا بمثل ذلك ، ان هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين• وقد يكون لهم أولاد ، لكن أولادهم يعيشون دائماً في بعيد، تربّيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه القرابة• وبمضي الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم

تقريباً ، ويتلقون منهم فى أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد ، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون .

كان زائر ايفان فيدووفتش لطيف الهيئة ، ان لم نقل محبب الوجه، يشعر المرء أنه يهم فى كل لحظة أن يهش ويبش . ولم يكن يحمل ساعة ، ولكنه فى مقابل ذلك يضع على عينه نظارةً لها حمالة من صدف، مربوطةً بشريط أسود . وكانت اصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب ، له فص من حجر بخس الثمن . تأمل ايفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة ، ورفض أن يبدأ الحديث . كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر ، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذى يلتزمه طفيلى هبط من الغرفة المخصصة له فى الطابق الأول ليحسو الشاى مع رب الدار وليسليه بصحبته ، حتى اذا رأى رب الدار غارقاً فى تأملاته معتكر المزاج ، أمسك عن الكلام ما لم يبادره بالخطاب رب الدار . ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع فى حديث لطيف كيِّس حلو متى أتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم ، وقال يخاطب ايفان فيدوروفتش :

ـ اسمع . اعذرنى اذا أنا ذكّرتك بهذه النقطة : لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترين ايفانوفنا له ، ولكنك تركته دون أن تطلع على شىء . أغلب الظن أنك نسيت ...

هتف ايفان يقول وقد أظلم وجهه :

ـ صحيح ، صحيح ، لقد نسيت ...

ثم دمدم يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ لا بأس الآن ، سيتم هذا كله غداً .

ثم استأنف يقول فى حنق وهو يلتفت الى زائره :

ـ أما أنت فاعلم أننى أدركت بنفسى هذا النسيان الذى كانت روحى بسببه قلقة معذبة . ما تدخلك أنت فى الأمر ؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذى ذكّرتنى مع أننى تذكرت من تلقاء نفسى ؟

قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً :

ـ يستوى أن أكون أنا الذى ذكرتك ، وأن لا أكون أنا الذى ذكرتك . لا قيمة لهذا . ولك أن تعتقد بما تشاء . ان الايمان التى يتم بقسر واكراه لا قيمة له . ثم ان البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان ، ولا سيما البراهين المادية . ان القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث ، بل لأنه كان ظامئاً الى الايمان قبل ذلك . انظر مثلاً الى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح ... أنا من جهتى أحبهم كثيراً ... تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين الى حين . هم يقولون : « ذلك برهان ، مادى فى أقل تقدير ، على وجود العالم الآخر » . فانظر الى هذا التفكير : يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية. ثم ... هبهم برهنوا على وجود الشيطان ، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً ؟ فى نيتى أن أنتسب الى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشىء فيها حزباً معارضاً . سأقول لهم : « أنا واقعى ، لا مادى » . هأ هأ !...

قال ايفان وهو ينهض فجأة بقوة :

ـ اسمع . يخيّل الىّ أننى الآن أهذى ... أنا أهذى يقيناً ... فتكلم واكذب ما شاء لك هواك أن تتكلم وأن تكذب ... سيان عندى ... لن تفلح فى اثارة غضبى وغيظى كما فعلت فى المرة الماضية . ولكننى أشعر بخجل وعار ... لا أدرى لماذا ... أتمنى أن أمشى فى الغرفة ... هناك لحظات تغيب فيها عنى ، فلا أراك ولا أسمع صوتك ، تماماً كما فى المرة الماضية ، ولكننى أحزر دائماً ما ستقوله لى ، « لأننى

أنا ، أنا وحدى ، الذى أنطق بهذه الأقوال ، لا أنت » ! وانى لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت فى المرة الماضــية فرأيتك فى الحلم ، أم أنت ظهرت لى فى الواقع أثنــاء اليقظة ؟ ســأغطس هذه الخرقة فى الماء البارد فأضعها على رأسى • فلعلك تختفى عندئذ •

اتجه ايفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة ، وتناول فوطة بللهـا بالماء ووضعها على جبينــه • وأخــذ يمشى بعد ذلك فى الغــرفة طولاً وعرضاً •

قال الزائر :

ــ انه ليسرنى حقاً أن نتخاطب الآن بصيغة المفــرد فى غير كلفــة ولا حرج •

فأجابه ايفان ضاحكاً :

ــ ألا انك لغبى ! أتراك تتخيــل أننى سأســتعمل الآن ميم الجمع فى مخاطبتك ؟ أنا فى هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج ، غير أننى أشعر بأوجاع فى صدغىّ ••• وأشــعر بصــداع فى رأسى ••• فأرجوك ••• لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت فى ذلك اليوم • اذا لم يكن فى وسعك أن تغيب ، فتكلم فى أمور فرحة • قصّ علىّ نمائم وشائعات• ذلك يناســبك ويليق بك ما دمت طفيليــاً • يا له من كابوس فظيع أن لا أســتطيع التخلص من هذا الشخص ! ولكننى لا أخشــاك • سأنتصر عليك آخر الأمر • لن أُقاد الى مستشفى المجانين •

ــ أنا طفيلى ؟ أنا ؟ كلام جميل ! حقــاً ، ذلك هو دورى فى هذا العالم • هل أنا فى الواقع الا طفيلى ؟ بالمناسبة : لقد شعرتُ حين أُصغيت الى كلامك بشىء من الدهشــة والاســتغراب • لكأنك أخذت تعدنى شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت فى المرة الماضية بعناد شديد واصرار قوى •••

هتف ايفان يقول حانقاً :

ـ ما عددتك شيئاً واقعاً في لحظة من اللحظات . أنت تكذب . انك مرضي . ما أنت الا شبح . ولكنني لا أعرف كيف أتحرر منك ، وألاحظ أن عليّ أن احتمل حضورك زمناً . أنت هلوسة في دماغي المتعب المكدود . أنت تجسُّدُ ذاتي ، ولكنك تجسُّد جانب واحد من جوانب طبيعتي ... انك تمثل من أفكاري وعواطفي أحطها وأغباها . وكان يمكن ، من هذه الناحية ولهذا السبب ، أن يعنيني أمرك قليلاً ، وأن أهتم بك بعض الاهتمام ، لو كان في وقتي متسع ...

ـ لحظة ... سوف أربكك وأفضحك اذا سمحت : منذ قليل ، قرب مصباح الشارع ، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً : « هل علمت هذا منه هو ؟ فمن أين علمت أنه يزورني ؟ » . لقد كنت تقصدني أنا اذن . معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودي ، وتعدني شخصاً موجوداً في الواقع .

قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة

ـ نعم وا أسفاه ! كانت تلك لحظةً من ضعفٍ طبيعيٍ جداً ... ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم . انى لأتساءل أأنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية . فلعلني لم أرك عندئذ الا في الحلم لا في الواقع .

ـ هلاّ قلت لي لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا منذ قليل ؟ انه فتى لطيف غاية اللطف ! واني لأشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك .

هتف ايفان يقول ضاحكاً :

ـ أمنعك من ذكر اسم أليوشا • كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الدنيء !

ـ تشتمني وتضحك في آن واحد • تلك علامة حسنة • ثم أني ألاحظ أنك اليوم أرق في معاملتي كثيراً مما كنت في المرة السابقة • انني افهم سبب هذا : هو ذلك القرار العظيم النبيل الذي اتخذته •

زأر ايفان يقول وقد عصف به الحنق من جديد :

ـ حذار أن تقول كلمة واحدة عن قراري •

ـ أفهم ، أفهم كل الفهم • هذا عمل نبيل ، هذا عمل رائع • انك تنوي أن تدافع عن أخيك ، وأن تضحي بنفسك في سبيله ••• هذه فروسية !•••

ـ اسكت والا هويت عليك ركلاً بالقدم !

ـ ركلاً بالقدم ؟ هذا يناسبني من ناحية من النواحي ، وبه يتحقق هدفي • ذلك أن لجوءك الى استعمال العنف معي سيكون برهاناً على أنك أصبحت تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً • هل يركل أحد شبحاً ؟ ولكن دعنا من هذه الأمازيح • اشتمني اذا كان يحلو لك ذلك ••• سيان عندي ••• ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى في معاملتي أنا • لقد وصفتني بأنني غبي وبأنني دنيء ! فما هذه التعابير ! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ !

عاد يقول ايفان ضاحكاً :

ـ حين أهينك فانما أهين نفسي • ما أنت الا أنا ••• أنت نفسي ، أنت روحي ، ولكن في وجه غير وجهي • أنت لا تزيد طول الوقت على أن تعبر عن أفكاري وتفصح عن خواطري في نفس اللحظة التي توافيني

فيها هذه الأفكار والخواطر ••• أما أن تقول لى شيئاً جديداً لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز !

ردّ عليه السيد بوقار يفيض رقة ورهافة :

ـ اذا كانت الأفكار التى أعبّر عنها هى أفكارك أنت أيضاً ، فلا يسعنى الا أن أعتز بهذا التوافق بيننا •

ـ المؤسف أنك لا تختار من أفكارى الا أردأها ، والا أغباها على وجه الخصوص • أنت غبى ودنىء • أنت غبى غباءً رهيباً فى الواقع • لا ، لا ، لا أطيق أن أحتمل حضورك ! ما العمل ؟ ما العمل ؟

كذلك هتف ايفان حانقاً •

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلى ، الى مسكنةٍ واستعدادٍ لما يجب من تنازلات :

ـ أما أنا ياصديقى فأحرص علىأن أبقى رجلاً مهذباً وأن أُعرف بذلك • صحيح أننى فقير ، ولكن ••• دون أن أزعم أننى أشرف من غيرى ••• أستطيع أن أقول ان من المسلّم به فى المجتمع عامةً ، كبديهية من البديهيات ، أننى ملاك سقط • شهد الله اننى لا أستطيع أن اتخيل كيف أمكن أن أكون فى الماضى ملاكاً • وهبنى كنت فى الماضى ملاكاً ، فان ذلك يرجع الى عهد يبلغ من البعد أننى أُعذر اذا أنا نسيته • وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عنى اننى رجل لائق محترم ، ثم أن أعيش كما يمكننى أن أعيش محاولاً أن أسرّ أقرانى البشر • آه ••• اننى لأحب الناس حباً صادقاً ، وطالما رُوّجت فى حقى النمائم من هذه الناحية • حين أجد نفسى بينكم وحين أقيم عَرَضاً عند واحدٍ من أمثالكم ، فان وجودى يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية ، وذلك ما يحلو لى أكثر من أى شىء آخر فى الأمر كله • ذلك أننى أنا ايضاً

مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل ، ولهذا اقدر واقعيتكم الأرضية السليمة حق قدرها . ان كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً ، وان كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة ، فالهندسة هي الظافرة المنتصرة . أما عندنا !... أما نحن ... فاننا نظل نتيه الى الأبد في معادلات غير محددة . أنا هنا أحلم وأتنزه . ما أكثر ما أحب أن أحلم. ثم انني متى وجدت على الأرض أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام . لا تسخر مني ، أرجوك : لشد ما يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام . انني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا . لقد أصبحت أحب الاختلاف الى الحمامات العامة ، وأصبح يحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والقسس . ان أخفى رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) في تاجرة سمينة بدينة تزن مائة كيلوغرام ، وأن آخذ أؤمن بكل ما تؤمن به : وسيكون مثلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من القلب . سيكون ذلك خاتمة آلامي وتباريحي . واني لأجد لذة كبيرة كذلك في أن أُداوى كما تُداوَوْن . في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري ، فذهبت التمس أن أُلقَّح كسائر الناس . لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم . حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة اخوتنا السلافيين المضطهدين !... ولكني ألاحظ أنك لا تصغى الى كلامي .

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت :

ـ انك تبدو لي مريضاً جداً ، هل تعلم ؟ وأنا أعرف أنك ذهبت الى الطبيب امس ... فماذا قال لك الطبيب ؟ كيف حال صحتك ؟

فقطع ايفان أسئلته قائلاً :

ـ أبله !

ـ أما أنت فذكى جداً ، لقد عدتَ الى الفظاظة : أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك والمودة لك ، وانما لأقول أى شىء . لا تجبنى ان شئت . لقد أصبحت أوجاع الروماتزم موضة ...

كرر ايفان يقول :

ـ أبله !

ـ أبله اذا شئت . ولكن هذا لا ينفى أننى أُصبت فى السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم .

ـ دعك من هذا الكلام ! هل يمكن أن يعانى شيطان آلام روماتزم؟

ـ لِمَ لا يمكن ذلك ، ما دمت أتجسد أحياناً ؟ اننى اقبل جميع نتائج تجسداتى . « أنا شيطان ، ولا شىء مما هو انسانى غريبٌ عنى » * .

ـ كيف ؟ ما هذا الذى تقول ؟ « انا انسان ولا شىء مما هو انسانى ... » ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان !

ـ يسعدنى أن أحظى أخيراً برضاك عنى واكرامك لى .

قال ايفان فجأة وقد توقفَ عن المشى ، كأنما دهش وذُهل :

ـ ولكنك لم تستعر هذه العبارة منى أنا ! ان هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالى فى يوم من الأيام ! هذا عجيب مع ذلك ...

ـ كلام فيه جدة وطرافة ، أليس كذلك ؟ على أننى سأكون أميناً شريفاً فى هذه المرة ، فاشرح لك هذا اللغز ... كثيراً ما يحدث فى الأحلام ، ولا سيما فى الكوابيس ـ كتلك الكوابيس التى تنشأ عن اضطراب فى المعدة مثلاً ، أو عن أى سبب آخر ـ أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً ، أن تخطر أمام البصر قطعٌ حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركباً معقداً ، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط

بينها وتشد بعضَها الى بعض فكرة موجِّهه ، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الانسانى كما تقولون ، وبين أحقر السفاسف التافهة ، كزر كمٍ مثلاً • ان القصص التى يعيشها المرء على هذا النحو فى الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوى نفسه لا يستطيع أن يتخيلها• ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع ، وانما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادى جداً ، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحفيين أو قسس ••• والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقى سؤالاً : لقد صرَّح لى وزير فى ذات يوم أن أخصب الأفكار انما توافيه عادةً وهو نائم • ذلك بعينه هو ما يحدث لك فى هذه الساعة • مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك ، فهذا لا ينفى أننى أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة ، كما يقع ذلك فى كابوس • فأنا لا أردد اذن أفكارك أنت ، ومع ذلك لست الا كابوسك لا أكثر •

ـ كذبت ! ان هدفك هو أن تقنعنى بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكرى • ثم هأنت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست الا حلماً •

ـ اعلم يا صديقى أننى قد اصطنعت اليوم اسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة • سأشرح لك هذا فى المستقبل اذا واتت فرصة • لحظة ••• الى أين وصلت من حديثى ؟ ها ••• نعم ••• قلت لك اننى أصبت ببرد • ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض ، وانما حدث هناك أيضاً ••

ـ هناك ؟ أين ؟ قل لى : هل تنوى أن تمكث عندى زمناً طويلاً أيضاً ؟ ألا تركتنى أخيراً ؟

كذلك هتف يقول ايفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس •

وكفَّ عن المشى وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة ، ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً . ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة : لم تنفعه هذه الوسيلة فى شىء .

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة :

ـ أعصابك مهدودة . تثور علىَّ لأننى أصبت ببرد ، مع أن هذا قد حدث لى على نحو طبيعى جداً . كنت قد وصلت الى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان بطرسبرج تستقبل شخصيات كثيرة ذات نفوذ ، وتكاد ترى أنها لاتقل خطورة شأن وعلوّ منزلة ورفعة جاه عن وزير من الوزراء . كنت مرتدياً اذن ثياباً رسمية مع كرافتة بيضاء وقفازين . ولكننى كنت قد تأخرت ، لأننى اضطررت أن أذهب قبل ذلك الى مكان ما ، فكان علىَّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاوات واسعة بين الكواكب ... المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً ... ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثمانى دقائق حتى تصل الى الأرض . كنتُ اذن ـ لا تنس هذا ـ ارتدى ثياباً رسمية مع صديرة مفتوحة جداً . ان الأرواح لا تتجلد من البرد ، هذا معروف . غير أن تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة . الخلاصة أننى ارتكبت فى ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت فى طريقى الى الأرض مرتدياً تلك الثياب . وليتك تعلم ما أشد البرد فى تلك الفضاوات ، فى الأثير ، هذا السائل ... انه برد فظيع ، بردٌ لا يكفى أن نقارنه بالصقيع هنا . الصقيع ؟ هه ... تصور أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر ! ان بنات قراكم قد تخيلن مزاحة شائعة جداً . فحين يشير الترمومتر الى الثلاثين تحت الصفر ، يطلبن من فتى ساذج غير ذى خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس ، فاذا بلسانه يتجلد فوراً ، واذا بالغبى يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد . هذا اذا كانت

درجة البرودة ثلاثين فحسب • أما اذا بلغت مائة وخمسين ، فأحسب أنه يكفى أن تقترب الاصبع من الفأس حتى تزول ••• شريطة أن يكون فى الأثير فأس طبعاً •••

سأله ايفان ذاهلاً بلهجة متقززة :

ـ هل يمكن أن يكون فى الفضاء فأس ؟

كان ايفان يشد جميع قواه فى سبيل أن لا يصدق أنه يهذى ، وذلك حتى لا يتردى الى الجنون نهائياً •

سأله الزائر مدهوشاً :

ـ فأس ؟

فهتف ايفان يقول فجأة بعناد غاضب :

ـ نعم نعم ، ما عسى يحدث للفأس هناك ؟

ـ ما عسى يحدث للفأس فى الفضاء ؟ يا لها من فكرة عجيبة • لو رميت الفأس الى مسافة بعيدة جداً عن الأرض ، فأظن أنها ستأخذ تدور حول سيارتكم هذه دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر ، كما يحدث لتابع من التوابع ، كما يحدث لقمر من الأقمار ؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً ؛ وسيدوّن جاتسوك ذلك فى التقاويم * ، وهذا كل شىء •

قال ايفان مغتاظاً :

ـ أنت غبى ، غبى غباءً فظيعاً • حاول أن تكذب كذباً ذكياً على الأقل ، والا كففت عن الاستماع لك • انك تحاول أن تقنعنى عن طريق الواقعية فى كلامك ، وأن تجعلنى بذلك أسلم بوجودك • ألا فاعلم أننى لا أريد أن أسلّم بهذا ، اننى أرفض أن أصدقه ! لن أصدقه !

ـ أنا مع ذلك لا أكذب • ان كل ما أقوله حق • من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة في يوم من الأيام • أنت مثلاً تتوقع مني ، فيما ألاحظ ، أفكاراً خارقة ، وربما رائعة • يؤسفني هذا كثيراً ، لأنني لا أستطيع أن أعطي الا ما أملك •••

ـ دعك من التفلسف يا حماراً أبله !

ـ أفتظن اذن أنني اشتهي أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمي يكاد يكون مشلولاً ؟ ألا انى لأتمنى ، بدلاً من ذلك ، أن أئن وأتوجع ! لقد استشرت عدداً كبيراً من الأطباء : انهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض ، ويشرحونه بأدق التفاصيل ••• أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه • حتى لقد أتيحت لى فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب ، فقال لى فرحاً : « هبك مت من هذا المرض ••• لسوف يتيح لك ذلك فى أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذى أماتك » • وانظر بعد ذلك الى طريقتهم تلك فى ارسالك الى اخصائيين حين يقولون لك : « مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض • بقى عليك الآن أن تذهب الى الاخصائى فلان أو فلان ، فهو الذى سيشفيك » • واحسرتاه ! ان الطبيب الجيد القديم الذى عرفناه فى الزمان الماضى وكان يداوى من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً ، تماماً ، أؤكد لك !•• لم يبق اليوم الا الاخصائيون ، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم • اذا شعرت بآلام فى الأنف ، أرسلوك الى باريس : يظهر ان فى باريس اخصائياً له شهرة فى أوروبا كلها ، يعرف معرفة رائعة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف • وتذهب الى باريس فيفحص الاخصائى أنفك ، فيقول لك : « أنا لا أستطيع أن أشفى الا منخرك الأيمن ، لأننى لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر ، فهو لا يدخل فى دائرة اختصاصى • فعليك بعد اتباع معالجتى أن تذهب الى فيينا حيث يوجد اخصائى حاذق جداً

سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر » • ما العمل فى هذه الحالة ؟ لجأت عندئذ الى استعمال الأدوية التى تنصح بها النساء العجائز • وصف لى طبيب أن أدلك جسمى بعد الحمام بمزيج من عسل وملح • ذهبت الى الحمامات العامة لا لشىء الا لاستمتع بوجودى مرة فى حجرة البخار ، وهنالك وسخت جسمى بذلك المزيج اللزج الذى لم يجدنى نفعاً • فلما يئست كتبت الى الكونت ماتيئى فى ميلانو : فأرسل الى نشرة وقطرة • غفر الله له ! تخيل أن مستحلب الشعير الذى ينتجه هوف هو الذى شفانى تقريباً • كنت قد اشتريته عرضاً ، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأسى شفيت ، حتى لقد اشتهيت أن أرقص • زالت أوجاعى كلها • فحلفت لأنشرن فى الصحف رسالة شكر أطرى فيها مزايا هذا الانتاج • كان يدفعنى الى ذلك شعور صادق بالامتنان ، ولكن لهذا قصة جميلة جداً ! تخيل أننى لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثرى ••• قالوا لى : « ان تصريحك هذا يتصف بشىء من الرجعية • ثم ان أحداً لن يصدقك • فالشيطان لا وجود له » • ونصحت بأن أنشر شكرى فى رسالة لا تحمل اسم صاحبها • ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه ؟ مازحت موظفى مكاتب تلك الجرائد ، فقلت لهم : « ان الايمان بالله هو الذى يمكن أن يعد شيئاً رجعياً فى زماننا هذا • أما أنا الشيطان ، فانه مباح تماماً أن أصدق » • فأجابونى بقولهم : « اننا نفهمك حق الفهم • فمن ذا الذى لا يؤمن بالشيطان ؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك ، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذى تلتزمه جريدتنا • اللهم الا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل ! » • قلت لنفسى : « لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة اذا هو جعل هزلاً » • وهكذا لم يكتب لشكرى أن يظهر فى الصحف • هل تصدق ؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبى • ان أنبل عواطفى ، كعاطفة الشكران مثلاً ،

قد حُكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها ، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي •

قاطعه ايفان مغتاظاً يقول :

ـ هأنت ذا تسترسل في التفلسف من جديد !

ـ وقانا الله شر التفلسف • أنا لا أتفلسف البتة ، وانما ينبغي أن يجوز للمرء أن يشتكي من حين الى حين • أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة • لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي • هذا موقف يقفه شاب • اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمّ شيء • لقد ُولدتُ طيب السريرة مرح الطبع • « وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية » * • يبدو أنك تعدني هلستاكوفاً دبّ فيه الهرم ، مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك كثيراً • انني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه ، لأنه كُتب عليّ قبل خلق هذا العالم ، أن أظلّ « أجحد » بغير انقطاع ، أن أجحد كل شيء ، مع مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الانكار المنظم المذهبي • « لا مفر • يجب عليك أن تنكر وأن تجحد رغم كل شيء • فبدون انكار لا يكون نقد ، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من زاوية موقوفة على النقد• ان الكون لن يكون بغير النقد الا تسبيحاً متصلاً مستمراً • ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسبيح الله فقط ، وعلى تمجيد خلقه فحسب • لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك * ، وهلم جراً ••• » على أنني لا أطمع في أن أقضي برأي في هذا النظام ، فلست أنا من تخيله ووضعه ، ولست مسئولاً عنه البتة • كل ما هنالك أنني جُعلت كبش فداء ، وُأمرت أن أقوم بوظيفة ناقدٍ أبدي • على هذا النحو انما نشأت الحياة الأرضية • اننا نحن أيضاً نشعر شعوراً كاملاً بدناءة هذه المهزلة التي أُريد لنا أن نمثلها • واني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد الى العدم • فأُجاب : « بل يجب

عليك أن تحيا ، فبدونك لن يجرى أمر • اذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً ، لما حدث ما فى الأرض شىء البتة • بدونك لن يكون ثمة أحداث ، وهل عن الأحداث غنى ؟ » • أنا اذن أقوم بوظيفتى وأحقق مهمتى محطّم القلب مهدود النفس ، من أجل أن يكون ثمة أحداث ، وأشيع الضلال فى هذا العالم بأمرٍ أعلى • والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد ، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم • وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً ، وحياتهم أليمة • انهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له ••• هذا صحيح ••• ولكنهم فى مقابل ذلك يحيون ••• يحيون حياة واقعية ، لا وهمية • لأن العذاب هو الحياة • ما عسى تصير اليه الفرحة بالحياة فى هذا العالم اذا لم يوجد الألم ؟ لن يكون هنالك عندئذ الا نشيد متصل ولطف لا ينتهى • وذلك شىء نبيل جداً ، مقدس جداً ، ولكنه باعث على أشد الملل وأعمق السأم • وأنا ؟ أنا أيضاً أتألم ، ومع ذلك لا أحيا • أنا حرف «س» فى معادلة غير ذات حدود • أنا شبح ، أنا طيف أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى الى نسيان اسمه الحقيقى • أتضحك ؟ لا ••• أنت لا تضحك ••• وانما تغضب من جديد • انك تغضب دائماً • انك لا تريد أن تسمع الا أشياء فيها ذكاء • ولكننى أعود فأقول لك : اننى مستعد لأن أتنازل ، راضياً ، عن حياتى السماوية فى الفضاءات فوق الكواكب ، وعن جميع امتيازاتى العالية وألقابى الرفيعة، فى سبيل أن أستطيع التجسد فى نفسِ بائعةٍ تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسذاجة وبراءة •

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة كره :

ـ هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً ؟

ـ بم أجيبك ؟ اذا كنت تلقى علىّ هذا السؤال جاداً •••

صاح ايفان يسأله بعناد حانق :

ـ هل الله موجود أم هو غير موجود ؟

ـ ها ... أنت جاد اذن ؟ يشهد الله يا بني العزيز أنني أنا نفسى لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً . وتلك قولة كبيرة أفلتت منى ...

ـ كيف لا تعرف عن هذا الأمر شيئاً مع أنك ترى الله بعينيك ؟ لا ، لا ، ليس لك وجود واقعى ؟ أنت أنا ... ما أنت الا أنا ، ما أنت الا أنا ... أنت دخان لا أكثر ، أنت ثمرة خيالى أنا ...

ـ بل قل ان فلسفتى هى فلسفتك . ذلك أصوب . « أنا أفكر ، فأنا اذن موجود »*، تلك هى القضية الوحيدة اليقينية . أما كل ما عداى، أما كل ماحولى، أما جميع تلك العوالم البعيدة ، أما الله ، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وقائع موجودة بذاتها ، أم هى صادرة عن فكرى تحققاً مادياً تدريجياً للأنا ، لهذه الأنا التى لا يكون عندئذ وجود لسواها ، والتى تكون قد وُجدت منذ الأبد ... جملة القول ... ولكنى أمسك عن الكلام ، أمسك عن الكلام ، لأننى أرى أنك تهمُّ أن ترتمى علىَّ لتشبعنى ضرباً .

قال ايفان بلهجة فيها ألم :

ـ خير من هذا الكلام كله أن تروى لى نادرة فكهة أو نكتة مسلية .

ـ أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا . والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلى ، بل هى الى الأسطورة أقرب . انك تأخذ علىَّ امتناعى على التصديق ، ويدهشك أن ترانى لا أؤمن بالأسرار التى أبصرها بعينىَّ . فاعلم اذن أن هذه الحالة ليست حالتى وحدى ، وأننا جميعاً ، نحن معشر الذين نعيش فى المناطق السماوية ، تهزنا روح الاضطراب

والقلق ، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة . انكم حين تقتصرون على تعليل العالم بالجواهر الفردة ، والحواس الخمس ، والعناصر الأربعة ، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء . ثم ان الاقدمين كانوا يعرفون الجواهر الفردة . ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التى تقول انكم قد اكتشفتم الذرة الكيمـاوية ، والبروتوبلازما ، وما لا أدرى أيضـاً ، فان أصحابنا قد شدوا على أذنابهم بسيقانهم ، وحدث فى صفوفنا اضطراب نفسى شديد ، وأصبحنا فى فوضى شاملة وسديم كامل ، وانتشرت فى بيئتنا الخـرافات والأوهام ، وازدهرت الأقاويل والنمائم . لاحظ أن عندنا نمائم بقـدر ما عندكم وأكثر . ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات والسعايات تعيث فساداً فى أرجائنا السماوية . يجب أن تعلم ، فى هذه المناسبة ، أن عندنا نحن أيضاً « شعبة خاصة » ، أن عندنا نحن أيضاً « مخابرات » تجمع بعض « المعلومات » ... والأسطورة التى سأرويها لك يرجع عهدها الى قروننا الوسطى ــ أقول قروننا الوسـطى نحن ، لا قرونكم الوسـطى أنتم ــ وهى أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن ، باستثناء البائعات السمينات اللواتى يزنّ مائة كيلو ، لا البائعات السمينات اللواتى عندكم أنتم ، بل اللواتى عندنا نحن . ان كل ما يوجد فى الأرض يوجد أيضاً فى عالمنا . ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة ، رغم أن هذا محظور علينا . والأسطورة التى سأرويها لك تتعلق بالجنة : يُقال انه كان يعيش على أرضكم فى ذات زمان فيلسوف « ينكر كل شيء ، ينكر القوانين والشعور والايمان » * ، ويرفض خاصةً أن يسلّم بوجود الحياة الآخرة . وقد مات هذا الفيلسـوف وهو على يقين من أنه يغيب فى غياهب العدم ، فاذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة . كانت دهشته من ذلك عظيمة ، وأعظمَ منها كان استياؤه . صاح يقول : « لست أريد الحياة الآخرة هذه ، لأنهـا تخالف عقيـدتى » . فحوكم

وحكم عليه بسبب هذه القولة الطائشة ... معذرةً اذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليَّ ... وما هذه الا أسطورة على كل حال ... ما هذه الا أسطورة على كل حال ... حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات ، سيراً على الأقدام ، مسافة كادريون كيلومتر (ان كل شيء يعدُّ عندنا الآن بالكيلومترات) ، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة ، ويُغفر له كل شيء ...

قاطعه ايفان سائلاً بانتعاش قوى وحرارة شديدة :

ـ ما هى أنواع العذاب التى يمكن أن يتحملها الانسان فى الحياة الآخرة ، عدا هذا الكادريون من الكيلومترات ؟

ـ ما هى أنواع العذاب ؟ آه ... اننى لا أحدث نفسى بهذا !... فى الماضى كان الأمر ما يزال معقولاً ، وكنا نعرف أنواعاً من العذاب . أما الآن فقد اعتقدوا أن عليهم أن يلغوها وأن يستبدلوا بها تباريح روحية ، أن يستبدلوا بها « آلام الضمير » ، وخزعبلات من هذا النوع . لقد استوردنا هذا من عندكم ، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت اليه عاداتكم وأخلاقكم من « لطف ورقة » . فمن ذا الذى جنى من هذا النظام فائدة ، فى رأيك ؟ ان الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه . أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا « آلام الضمير » وليس لهم ضمير ؟ وفى مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التى احتفظت بشىء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم ! ذلك ما يحدث حين يراد ادخال اصلاحات فى تربة لم تتهيأ لقبولها ، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى . أمر يستحق الرثاء ! ألا ان نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا . ولنعد الى فيلسوفكم الذى حُكم عليه بأن يقطع مسافة كادريون كيلومتر : انه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلاً : « أرفض أن أمشى ،

حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ ! » • خذ نفس ملحد روسى مثقف ، وامزجها بنفس النبى يونس الذى لبث فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه ، تخرج من ذلك الحالة النفسية لصاحبنا المفكر هذا الذى رقد على الطريق بالعرض مصراً معانداً •

ـ على أى شىء رقد ؟

ـ لا بد أنه كان هنالك شىء رقد عليه • أأصبحت لا تضحك الآن؟

هتف ايفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغى الآن بنهم غير متوقع) :

ـ مرحى لذلك المفكر ! مرحى ! ألا يزال راقداً على الطريق بالعرض حتى الآن ؟

ـ لا • لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة ، ثم عاد ينهض وأخذ يمشى •

صاح ايفان بضحكة عصبية :

ـ يا له من حمار !

ثم بدا على ايفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ ولكن أليس يستوى ، على كل حال ، أن يبقى راقداً الى الأبد وأن يقطع مسافة كارديون كيلومتر ؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك الى بليون سنة ، أليس كذلك ؟

ـ أكثر أكثر ! لو كان معى قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة • على كل حال ، لا قيمة لهذا ، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل • وعند ذلك انما تبدأ النادرة أو النكتة •

ـ انتهى من قطع المسافة ؟ كيف هذا ؟ من أين جاء ببليون سنة ؟

ـ أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم . والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالى . وهى فى كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت فى كل اتجاه ثم تحللت وارتدت الى عناصرها الأولى ، فساد ملكوت المياه من جديد ، ثم ظهر مذنَّب جديد فشمس جديدة ولَّدت بدورها أرضاً . وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل ذاتها . ذلك ضجر قاتل بغير حياء ...

ـ طيب ، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكادريون كيلومتر ؟

ـ لم يحدث أى شىء خارق . فتحت له أبواب الجنة فدخلها ، فما ان انقضت على دخوله ثانيتان ـ ثانيتان عدَّهما والساعة فى يده ، نعم والساعة فى يده ، ألح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون فى رأيى قد فسدت فى جيبه أثناء رحلته) ـ أقول ما ان انقضت على ذلك ثانيتان حتى هتف قائلاً ان هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادريون كيلومتر فحسب ، بل تعدل قيمتهما كادريون الكادريونيات مرفوعةً الى أسٍّ الكادريون أيضاً . الخلاصة أنه قد أخذ يرتل تسبيحته ، وبلغ من الغلوِّ فى التسبيح والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً ، قد رفضوا فى الآونة الأولى أن يصافحوه ، لاعتقادهم بأنه قد بالغ فى الانحدار الى حضيض النزعة المحافظة . تلك هى طبيعة الروس . ولكننى أعود فأكرر لك أن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علاَّتها . تلك هى المفاهيم السائدة عندنا اليوم فى هذه الشئون .

هتف ايفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل ، كأنه قد تذكر فى هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة :

ـ ضبطتك ! ان هذه النكتة التى ترويها عن الكادريون من السنين انما اخترعتها أنا نفسى • كنت حينئذ فى السابعة عشرة من عمرى ، وكنت فى المدرسة التانويه ••• تخيلت هذه النكتة وقصصتها فى تلك الآونة على رفيق من رفاقى اسمه كوروفكين • كان ذلك فى موسكو •• ان هذه النكتة تبلغ من تميز أفكارى بها أننى ما كان لى أن أستمدها من غير أفكارى هذه ••• ولكننى نسيتها بعد ذلك الزمان ••• وقد عاودت ذاكرتى الآن على غير شعور منى • فأنا الذى تذكرتها اذن ، ولم تقصصها علىّ أنت ! انه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفةٌ من الأشياء بغتةً عند الانسان حين يُقاد الى التعذيب أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد فى سريره • فما أنت اذن الا حلم ، ما أنت الا صورة فكرى وليس لك وجود واقعى •

قال السيد الراقى وهو يضحك مشرق المزاج :

ـ اننى ألاحظ من جموحك العاطفى فى انكار وجودى أنك تؤمن بى مع ذلك •

ـ أنا ؟ أؤمن بك ؟ أبداً ••• أنا لا أؤمن بك البتة ، أنا لا أؤمن بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الايمان !

ـ ولكن ربما آمنت بى جزءاً من ألف جزء ! ان المقادير الصغيرة فى الأدويه التى تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هى الأقوى أثراً • هلاّ اعترفت ، هلاّ اعترفت بأنك تؤمن بى ، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً !•••

هتف ايفان يقول :

ـ ولا لحظة من اللحظات !

ثم أضاف بعد ذلك بصوت ترقق ترققاً غريباً :

ـ لكننى أود لو أؤمن بك •

ـ عظيم، هذا اعتراف له قيمة كبيرة ! اعلمْ اننى طيب القلب واننى أريد أن أهبّ الى نجدتك • اسمع : أنا الذى ضبطتك ، لا أنت الذى ضبطتنى • لقد تعمدت أنا أن أروى لك نكتتك التى كنت قد نسيتها ، وانما فعلتُ ذلك بغية أن أقودك الى أن تشك فىّ شكاً نهائياً •

ـ كاذب ! أنت انما ظهرت لى لتقنعنى بوجودك •

ـ صحيح • ولكن اعلمْ أن الشكوك والقلق الذى تحدثه هذه الشكوك ، اعلمْ أن الصراع بين الايمان وعدم التصديق يمكن أن يورثا الانسان الذى يملك شعوراً مرهفاً مثلك عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها • ولما كنتُ أعلم أنك تؤمن بى قليلاً ، فقد زرعت الشك فى نفسك برواية تلك النادرة لك • فبذلك أقودك من الايمان الى الشك ومن الشك الى الايمان مرة بعد مرة على التناوب • وحين أفعل ذلك فانما أهدف الى غاية • وأنا أطبّق هنا منهجاً جديداً : فمتى شككت فى وجودى شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لى على اننى است الا حلماً وعلى أننى غير موجود فى الواقع • ذلك اننى أعرفك • فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفى ، وهو فى الحقيقة هدف نبيل جداً • فأنا انما أرمى فى الواقع الى أن أضع فى نفسك بذرة ايمان متواضعة فاذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة فى المستقبل ، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش فى حماها حياة ناسك وقديس • والحقيقة أن هذه هى رغبتك الخفية المستسرة المكتومة منذ زمن طويل • ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً، فتتغذى بالجراد ساعياً الى الخلاص فى الصحراء•

ـ يا لك من شقى ! أفى سبيل خلاص روحى انما حمّلت نفسك اذن هذا العناء كله ؟

ـ لا بد لى ، أنا أيضاً ، من أن أقوم بعمل خير من حين الى حين. ولكننى أرى أنك تغضب ، تغضب غضباً يا له من غضب !...

ـ مهرج ! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون فى الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم الطحالب ؟

ـ ذلك هو عملى الرئيسى يا صديقى العزيز . ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التى لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال ، لأنهم فى نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً . ان نفساً واحدة من هذا النوع تعدل فى بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه . لدينا فى هذا الشأن جدول أسعار . ان نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو فى نظرنا ذو قيمة عظيمة . أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاء ، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا ، أنا أعرف ذلك ... وهم قادرون على أن يسبروا ، فى لحظة واحدة بعينها ، أعماقاً من الشك والايمان ، حتى ليحسب المرء فى مثل تلك الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا « وأرجلهم فى الفضاء » على حد التعبير الذى يحبه جوربونوف * .

ـ طيب ؟ وفى كل مرة تعود الى نقطة البداية شاعراً بالخزى من أنك طويل الأنف فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ :

ـ ياصديقى لأن ينصرف المرء طويلَ الأنف خير" فى بعض الأحيان من أن ينصرف بغير أنف البتة ، كما قال ذلك فى الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعى (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه الى عناية اخصائى). هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره : « ردّ

الىّ أنفى » ، فقال له الكاهن الطيب هامساً : « يا بنى ، ان أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً . فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وان لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً . لئن شاء حظ قاسٍ أن يحرمك من أنفك ، ان فى ذلك لميزةً واحدة على الأقل ، هى أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرّك من طرف أنفك » ، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً : « ذلك عزاء هزيل ! . لسوف يسرنى ويسعدنى ويفرحنى أن أُجرّ كل يوم من طرف أنفى ، شريطة أن يكون أنفى فى مكانه » ، فأجابه الكاهن متنهداً : « يا بنى ، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات فى آن واحد ؛ وان الأمنية التى أفصحت عنها الآن لهى فى حد ذاتها معصية لله الذى ما نسيك فى هذه الحالة ، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرّ كل يوم من طرف أنفك ، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة ، فانما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر : انك اذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك ، بالمعنى المجازى ... » .

صاح ايفان قائلاً :

ــ ما أغبى هذا الكلام !

ــ يا صديقى ، انما كانت غايتى الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هى أن أسلّيك وأضحكك . ولكننى أحلف لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتى الذى يمارسه اليسوعيون . ان هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً ، كلمة كلمة . وهو حالة وقعت فى الآونة الأخيرة وأحدثت لى متاعب جمة وأورثتنى هموماً كثيرة . ان ذلك الشاب المسكين الذى حدثتك عنه قد انتحر فى تلك الليلة نفسها حين عودته الى البيت بعد الاعتراف . وقد لبثت بقربه الى آخر لحظة ... أما كراسى الاعتراف لدى اليسوعيين فاننى اختلف اليها كثيراً ، وتلك فى الواقع

تسلية من تسلياتى المفضلة ، حين يوافينى ضجر ويلم بى سأم وحزن •
وسأقص عليك الآن حالةً أخرى يرجع عهدها الى بضعة أيام خلت •
استقبل كاهن يسوعى عجوز على كرسى الاعتراف فتاة شقراء ،
نورماندية ، صبية فى العشرين من عمرها ، جميلة يفتن جمالها العقل •••
أما جسمها فان لعابى ليسيل حين أتصوره • ولها عدا هذا طبيعة من تلك
الطبائع ••• ما شاء الله ••• جثت على ركبتيها ، ودمدمت تعترف
بخطيئتها من خلال القضبان • هتف الكاهن الصارم يقول : « هل يمكن
حقاً ، يا ابنتى ، أن تكونى قد سقطت من جديد ؟ أوه ! يا مريم العذراء !
ماذا أسمع ؟ مع رجل آخر ؟ الى أين تمضين يا بنيتى ؟ ألا تستحين ؟ » ،
فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها فى الدموع ندماً وحسرة : « آه
يا ابتاه ! ان ذلك يحدث له هو لذة عظيمة ، ولا يحدث لى أنا الا ألماً
قليلاً ! » • جواب عظيم ، هه ؟ ما رأيك ؟ لقد دُهشت أنا نفسى من هذا
الجواب • كانت تلك صيحة الطبيعة ••• بدا لى ذلك أطهر من البراءة
نفسها • غفرت لها خطيئتها فوراً ، وبينما كنت أهم أن أنصرف ، رأيتنى
اضطر الى أن أعود أدراجى : فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من
خلال القضبان على أن يلتقيا فى المساء • وكان الكاهن مع ذلك شيخاً
صارماً شديد العبوس • لقد سقط فى مدى لحظة • لقد ظهر أن الطبيعة
هى الأقوى • مالك تكشر ؟ أغضبت من جديد ؟ حقاً لقد أصبحت
لا أدرى ما الذى يجب علىّ أن اخترعه حتى أسرك •••

صاح ايفان يقول بصوت موجع فيه أنين ، لأنه كان يحس أنه
عاجز عن التخلص من هلوسته :

ـ دعنى ! انك تحدث فى دماغى جلبة كابوس • ان حضورك
يضجرنى ضجراً قاتلاً • لقد أصبحت لا أطيق احتمالك • اننى مستعد
لأن أعطى كثيراً فى سبيل أن أتخلص منك !

ـ أكرر أن عليك أن تخفف من غلوائك ، وأن تعتدل في مطالبك . كف عن توقع أفكار « رفيعة عظيمة » مني ، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك . الواقع أنك حانق علي لأنني لم أمثل أمامك في اطار أكثر مهابة ، تحف بي هالة حمراء ، وتحيطني بروق ، وتصحبني رعود . كنت تود لو تراني بجناحين كبيرين محمرين بنار جهنم ، ولا تغفر لي أنني جئت اليك بثياب متواضعة هذا التواضع . انك تشعر بأنك أوذيت، أوذيت في مشاعرك الجمالية الفنية أولا ، وفي كبريائك وعزتك ثانيا : كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة ـ أليس كذلك ؟ ـ كيف يستقبل مثل هذا الرجل زيارة شيطان مسكين هذه المسكنة التي تستحق الرثاء ؟ صحيح ! أنا لا أنكر ذلك ! ان هذه السمة الرومانسية التي طالما ندد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك . ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيب ؟ منذ قليل ، حين كنت آتيا اليك ، خطر ببالي أن أرتدي ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم في القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام « الأسد » و « الشمس » * . وكانت هذه الفكرة محببة الى النفس ، ولكنني لم أجرؤ أن أنفذها ، فلو قد فعلت لضربتني حتما لأنني وضعت على صدري وسام « الأسد » و « الشمس » بدلا من أن أضع « نجمة القطب » و « نجمة الأبرق » . وأنت الى هذا لا تكف عن تذكيري بأنني غبي . شهد الله مع ذلك أنني لم يخطر ببالي أن أنافسك في الذكاء . حين جاء مفستوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل الا الخير * . ذلك شأنه هو . أما أنا فعلى نقيض هذا . ربما كنت في الكون بأسره الانسان الوحيد الذي يحب الحقيقة مخلصا ويصبو الى الخير صادقا . لقد كنت حاضرا حين صعدت « الكلمة » الى السماء ، بعد موتها على الصليب ، حاملة على صدرها روح لص اليمين المصلوب * . وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكروبيين

مسبحين بحمد الله ، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيين الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها • فيمناً بكل ما أقدس فى هذا العالم ، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ الى جوقة المنشدين مسبحاً بحمد الله أنا أيضاً • كان صدرى يرتفع ، وكانت كلمات الحمد والثناء تندفع الى شفتى ••• ذلك أننى ــ اعلمْ هذا ــ حساس جداً ، وأننى قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة • ولكن العقل ــ هذه الملكة اللعينة فى طبيعتى ــ قد صدتنى فى تلك المرة أيضاً ، واضطرتنى الى القصد والاعتدال ، فأفلتت منى اللحظة الرائعة ، أفلتت منى الفرصة الوحيدة • تساءلت عندئذ : « ما عسى يحدث بعد أن أغنى نشيد تمجيد الرب ؟ سوف ينطفىء حينذاك كل شىء فى هذا العالم ، فلا تحدث بعد ذلك أحداث » • فبسبب وظائفى وحدها ومن أجل وضعى الاجتماعى وحده انما خنقت اذن فى نفسى ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم ، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة • ان شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد ، ولم تُترك لى أنا الا حطة الشر • ولكننى لا أحسد أولئك الذين يعيشون فى السهولة واليسر ، فما أنا بالطماع • ولكنى أتساءل مع ذلك : لماذا كُتب علىّ وحدى ، من دون سائر مخلوقات الكون ، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس، بل وأن احتمل ركلات أرجلهم فى بعض الأحيان ، لأن علىّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد • أنا أعلم أن فى هذا سراً ، ولكنهم يأبون أن يطلعونى على هذا السر • ربما كانوا يعرفون أننى ، يومَ أعرف السر ، سأسبح أنا أيضاً بحمد الله ، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما فى هذا العالم من عيوب ضرورية ، وسرعان ما ينتصر الرشاد ، فيكون ذلك نهاية كل شىء ، حتى الجرائد والمجلات ، اذ من ذا الذى يخطر بباله عندئذ أن يشترك فى الجرائد والمجلات اذا هى أصبحت خاضعة لسلطان العقل

والرشاد • لست أجهل طبعاً أننى سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة ، وأننى بعد أن أقطع ما يجب علىّ أن أقطعه من مسافة تبلغ كادريون كيلومتر ، سأعرف السرّ الذى يخفونه عنى • ولكن الى أن يتحقق ذلك ، سأظل فى صف المعارضة ، فأقوم بعملى على مضض ، وأنهض بأعباء مهمتى متألماً أشد الألم : "أهلك ألوفاً لأنقذ واحداً • كم من نفس وجب اهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها ، من أجل الوصول الى رجل صالح واحد مثل أيوب ، باستخدامى أنا ؟ لا ••• ما ظل السر مكتوماً عنى خافياً علىّ ، فسيبقى هنالك حقيقتان فى نظرى : حقيقة السماء التى أجهلها الآن جهلاً تاماً ، وحقيقتى أنا • ولا يدرى أحد حتى الآن أى الحقيقتين أشرف ••• ولكنك نمت فيما أرى ؟

قال ايفان فى أنين وغضب مكظوم :

ـ وكيف لا أنام ؟ ان أغبى ما فى طبيعتى من أمور ، ان أسخف ما كان فى ذهنى من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات ، تأتى أنت الآن فتقدمها لى كما لو كانت شيئاً جديداً •

ـ حظى سىء ! كنت آمل أن أفتنك بما فى كلامى من جمال أدبى• أحسب مع ذلك أننى أجدت وصف التسبيح الذى غنته الأصوات فى السماء • ما رأيك فى هذه اللهجة الساخرة التى تقتفى آثار هاينى ؟ يخيل الىّ أنها تناسبنى ••• ألا ترى ذلك ؟

ـ لا ، أنا لم أكن فى يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز ! كيف أمكن أن تلد نفسى خادماً مثلك ؟

ـ يا صديقى ، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة ، فتى أحلف لك أنه رائع : هو فيلسوف ، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن • وقد ألّف

قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن ، عنوانها : « المفتش الكبير »• وفيه وحده انما كنت أفكّر •

صاح ايفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً :

ـ أمنعك من الكلام عن « المفتش الكبير » !•

ـ و « التحول الجيولوجى » ؟ ألا يزال يتذكره ؟ تلك قصيدة !

ـ اسكت والا قتلتك !

ـ تقتلنى أنا ؟ دعنى أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك • فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة انما جئت • اننى أعبد أحلام أصدقائى الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة • كنت تقول لنفسك فى الربيع الماضى وأنت تستعد للمجىء الى هذه المدينة : « سأجد هنالك أناساً جدداً • انهم ينوون أن يحطموا كل شىء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية ، أى من أكل لحوم البشر ! يا لهم من حمقى ! لماذا لم يستشيرونى ؟ لا حاجة الى التحطيم فى رأيى ، وانما يكفى أن نطرد من أذهان البشر فكرة الاله • بهذا انما ينبغى لنا أن نبدأ مهمتنا • ذلك هو المنطق الحقيقى الذى يجب أن ننطلق منه فى عملنا ، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً • فمتى نبذت الانسانية الايمان بالله دفعةً واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آتٍ لا ريب فيه ، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التى تعاقبت حتى الآن) ، فان المفاهيم القديمة عن الكون ستختفى من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضرورى أن نرتد الى عهد أكل لحوم البشر • وستزول الأخلاق القديمة خاصةً ، وسيُبنى عالم جديد بعد أن يمحى الماضى • سوف يتحد البشر ليردوا الى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة ، ولكن فى هذا العالم وحده • وسيشعر الانسان بعزة عظيمة

وكبرياء جبارة تحركه وتحمله ، لأنه يكون قد أصبح « الهاً ــ انساناً ».
ان ما سيحققه الانسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها ، بفضل ارادته المتحالفة مع العلم ، ستغمر نفسه فى كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به فى الماضى من ثواب سماوى . سيعرف كل انسانٍ أنه فانٍ ، وأنه لا بعث بعد الموت ، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم ، كأنهم آلهة . سيعدل الانسان يومئذ ، من شدة أنفته وكبريائه ، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الانسان أخاه الانسان حباً مبرأً من المنفعة ، لا يرجو أن ينال على حبه مثوبة فيما بعد . صحيح أن الحب لن يتفتح الا لحظات قصاراً ، ولكن قِصَره نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف ، بينما كان فى الماضى يضيع فى صبوات غامضة الى حب أبدى ولو من خلف القبر » ... وهلمَّ جرا . شيء جميل .

كان ايفان قد سدَّ أذنيه بيديه ، وأطرق الى الأرض وهو جالس على الديوان ، وأخذ جسمه كله يرتجف .

تابع الصوت كلامه يقول :

ــ « ان المسألة المطروحة الآن ــ هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب ــ هى : هل سيأتى عصر من هذا النوع أم لا ؟ فاذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم ، فسوف تحل المشكلة ، وسوف تنتظم الانسانية على أسس جديدة . ولكن لما كان من المستحيل ، بسبب حماقة البشر ، بحكم حماقتهم ، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى ، فانه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد ، وقد وعى الحقيقة منذ الآن ، أن يبنى حياته على النحو الذى يناسبه دون أن يعبأ بالمفاهيم البالية أو أن يكترث لها . وبهذا المعنى انما يمكن أن يقال « ان كل شيء مباح » .

وهب أن ذلك العصر الجـــديد لن يأتى فى يوم من الأيام ، فانه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للاله ، ولا خلود للنفس ، فمن المباح اذن للانسان الجديد أن يصبح « الهاً انساناً » ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله • وواضح أنه سيستطيع ، فى دوره الجديد ، أن يتحرر فَرِحاً من الضغوط الأخلاقية التى كان يخضع لهـا « الانسـان العبد » فى الماضى ، وسـيكون عليه أن يتحـرر هذا التحـرر كلما بدا له ذلك ضرورياً • فلا قوانين تُفرض على اله ، لأن الاله على حق دائماً ؛ فأى شيء يفعله الاله فهو الصواب ، وأى مكان يكون فيه الاله فهو مكانه • ان كل ما سأفعله بعد اليوم فهو خير ، وسأحتل المكان الأول ••• كل شيء مباح ، وكفى ! » ـ هذا كله جميل جداً ، ولكننى أتساءل لماذا يكون الانسان فى حاجة الى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يعيش وأن يخادع ؟ فيم هذا التأييد للحقيقة ؟ هذا هو انساننا الروسى المعاصر : انه فى حاجة الى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش ••• فالى هذا الحـد يبلغ حبه الحقيقة •••

كان الزائر يبـدو مسروراً ببلاغته وفصاحته • فهو يرفع صـوته أكثر فأكثر ، وينظر الى صاحب البيت فاحصاً فى مكر • ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه ، فان ايفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة ، فرمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتى من قوة •

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً ويمسح بأصابعه قطرات الشاى التى تناثرت على ثيابه :

ـ آ ••• ألا ان هذا لغبـاء أخـيراً ! لقد تذكر محبرة لوثر * • هو يدعى أننى لست الا حلماً ، فيقذف الأقداح الى رأس الخيال الذى ظهر له فى هلوسته ! لكأنه امرأة حقاً ••• يا لهذا المنطق ما أغربه !••

لقد كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت فى الواقع تسمعنى وتصغى الىّ ...

وفى تلك اللحظة سُمعت طرقات ملحة على زجاج النافذة ، فنهض ايفان عن ديوانه واثباً .

هتف الزائر يقول :

ــ هل سمعت ؟ خير لك أن تفتح ، فهو أخوك أليوشا يطرق النافذة حاملاً اليك نبأً لست تتوقعه البتة ، نبأً هاماً جداً ، صدقنى ...

قال ايفان وهو فى حالة حميا شديدة :

ــ اسكت أيها الدجال ! لقد عرفتُ قبلك أنه أخى أليوشا . وكنت أحس أنه سيأتى ، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجىء . انه يحمل الىّ « أنباء » ، هذا بديهى .

ــ فافتح اذن ، افتح له . ان فى الخارج زوبعة ثلج ... وهو أخوك ... هل تعرف يا سيدى رداءة الجو فى الخارج ؟ ان الجو يبلغ من الرداءة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك !...

واستمر الطرق على النافذة . أراد ايفان أن يهرع فيفتح الباب ، لكنه أحس فجأة كأنه مشلول ، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه . بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد ، وأن يحطم هذه الحبال التى تشده ، ولكنه لم يفلح . وأصبحت الطرقات على النافذة أقوى وأصرم . فشعر ايفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه ، فنهض منتفضاً ، ونظر حواليه حائراً زائغ البصر . كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا ، وكانت الكأس التى رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال فى مكانها على المائدة . وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته حذو الجدار .

ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بالحاح ، فان الطرقات بدت لايفان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه ، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة :

ـ لم يكن ذلك حلماً ! لا ••• لم يكن حلماً ••• أحلف أنه لم يكن حلماً ••• أنا لم أحلم ••• ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً •

وفتح فرجة النافذة ، وصرخ يقول لأخيه حانقاً :

ـ أليوشا ! ألم أحظر عليك أن تجيء الىّ ؟ قل بكلمتين لا ثالث لهما : ماذا تريد منى ؟ أجب ••• ولكن أوجز ، هل تسمع ؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً :

ـ شنق سمردياكوف نفسه من ساعة •

فقال له ايفان :

ـ تعال الى المدخل •

ومضى يفتح الباب •

١٠
« هو الذي قال ذلك »

دخل أليوشا ، وذكر لايفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندراتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة ، فأبلغته انتحار سمردياكوف ، قالت له : « دخلت الى غرفته لآخذ السماور ، فاذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط » ، فلما سألها أليوشا هل أبلغت من يجب ابلاغه ، أجابت بأنها لم تحدث أحداً فى هذا الأمر بعد . قالت : « وانما أسرعت اليك على الفور ، لكى تكون أول من يطلع على الحادث ، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق » هذا ما أضافته ماريا كوندراتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة ، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة فى مهب الريح . وقد صحبها أليوشا بعد ذلك الى بيتها ، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذى وصفته ؟ ووجد على المائدة ورقة مكتوباً عليها ما يلى : « أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً » . ترك أليوشا الورقة على المائدة ، ومضى فوراً الى رئيس الشرطة ، فأطلعه على الحادث . وختم أليوشا كلامه لأخيه ايفان قائلاً : « ومن هناك جئت اليك رأساً » ، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه الى ملامح وجهه التى أدهشه تعبيرها . ثم هتف يقول له فجأة :

ـ أخى ! لا بد أنك مريض ، مريض جداً ، جداً ! فأنت تنظر الىّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم ما أقوله لك •

فقال له ايفان واجماً مفكراً ، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه :

ـ أحسنت صنعاً اذ جئت • على أننى كنت أعلم أنه شنق نفسه •

ـ ممن علمت ذلك ؟

ـ لا أدرى ممن ، ولكننى كنت أعلم • أكنت أعلم أم لا ؟ بل كنت أعلم • هو قال لى ذلك ، قاله لى منذ لحظة قصيرة •

كان ايفان واقفاً فى وسط الغرفة ، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً ، وهو يحدّق الى الأرض •

سأله أليوشا وهو ينظر حواليه على غير ارادة منه :

ـ من « هو » ؟•

ـ اختفى •

قال ايفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة • ثم أردف يقول :

ـ خاف منك ، خاف منك ، نعم خاف منك أنت يا حمامتى • أنت « كروبى طاهر جداً » • دمترى يرى أنك كروبى • كروبى •• رعود أغانى الحماسة التى يغنيها الساروفيون ••• ما الساروفى ؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله فى آخر الأمر الا ذرة كميائية بسيطة ••• هناك برج « الأسد » وبرج « الشمس » ، هل تعلم ذلك ؟

قاطعه أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر :

ـ اجلس يا أخى ، اجلس على الديوان ، أرجوك ••• أنت تهذى• اضطجع هنا ، ضع رأسك على المخدة ، هكذا • هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة ؟ قد يفيدك هذا •

ـ ناولنى الفوطة الموجودة على ذلك الكرسى من فضلك • لقد ألقيتها عليه منذ قليل •

ـ ليس على الكرسى فوطة • لا تهتم • سأعرف أين أجد فوطة • هذه فوطة •••

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة ، حيث أبصر ، قرب الحوض ، فوطة نظيفة لم تمس وما تزال مطوية •

نظر ايفان الى الفوطة وفى وجهه تعبير غريب • كأن الذاكرة أخذت تعود اليه فجأة •

قال وهو ينهض عن الديوان :

ـ لحظة • اننى منذ ساعة ـ أتذكر ذلك ـ قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد ، ثم وضعتها على جبينى ، ثم رميتها الى هناك بعد مدة • فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية ؟ لم يكن فى غرفتى فوطة أخرى •

سأله أليوشا :

ـ أتقول انك وضعت هذه الفوطة على جبينك ؟

ـ نعم ، ومشيت فى الغرفة منذ ساعة والفوطة على جبينى ••• لماذا ذابت الشموع ؟ كم الساعة الآن ؟

ـ قاربت منتصف الليل •

فصاح ايفان يقول فجأة :

ـ لا ، لا ، لا ، لم يكن ذلك حلماً ! كان هو هناك ، كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، أمامى • فلما طرقت أنت زجاج النافذة ، رميت رأسه بكأس ••• هو هذا الكأس نفسه ••• لحظة ! فى المرة الماضية أيضاً ، كنت قد نمت ، ولكن الحلم فى هذه المرة ليس حلماً • الأمر

فى هذه المرة كما فى المرة الماضية • هل تعلم يا أليوشا أننى أرى الآن أحلاماً ؟••• ولكنها ليست بالأحلام ••• أنا يقظ ، أنا أمشى وأتكلم وأرى ••• ومع ذلك فأنا نائم ••• ولكنه كان هناك ، كان هناك ، نعم ، على تلك الكنبة • انه غبى غباءً فظيعاً ، يا أليوشا ، غباءً فظيعاً •

كذلك أضاف ايفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة ، وطفق يمشى فى الغرفة •

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً :

ــ من هو الغبى ؟ عمَّن تتكلم ؟

ــ عن الشيطان • لقد أخذ يختلف الىَّ • جاءنى مرتين ، مرتين ، ان لم يكن ثلاث مرات • قال لى ليزعجنى ويغيظنى اننى أغضب لأنه شيطان عامى لا ابليس محمرُّ الجناحين بنار جهنم ، معتاد أن يظهر محاطاً ببروق ساطعة ورعود مدوِّية • ولكنه ليس ابليس اذن • لقد كذب علىَّ • انه دجال • هو شيطان عادى تماماً ، شيطان حقير ، من طبقة دنيئة • انه يرتاد الحمامات العامة ! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذى لا بد أن يكون طويلاً جداً ، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر ••• ذنب أشقر أملس ••• ذنب غير مهيب ، كذنب كلب خسيس ••• أليوشا ، أرى أنك متجلد من شدة البرد ! لقد مشيت فى الثلج مدة طويلة • هل تريد شيئاً من الشاى ؟ ما رأيك ؟ الجو البارد ، أليس كذلك ؟ هل تريد أن آمر باعداد شىء من الشاى لك ؟ الجو بارد جداً ، يبلغ من البرودة أن المرء لا يرضى أن يدع فى الخارج كلباً •••

أسرع أليوشا الى الحوض ، فبلل الفوطة بالماء البارد ، ثم حمل ايفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه ، ثم جلس الى جانبه •

استأنف ايفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر :

ـ ماذا قلت لى أمس عن ليزا ؟ انها تعجبنى ، ليزا هذه ! أحسب أننى قلت لك سوءاً فى حقها . لم أكن صادقاً . انها تعجبنى ... أنا خائف من الغد ، خائف على كاتيا قبل كل شىء ، وفوق كل شىء . وخائف على المستقبل أيضاً . ستهجرنى فى الغد هجراً نهائياً ، وتركلنى بقدميها. هى تتخيل أننى أريد هلاك ميتيا بسببها ! نعم ، ذلك ماتتصوره. ولكن لا ، هذا خطأ . غداً يكون الصليب ، ولكن لن يكون الشنق . لأننى لن أشنق نفسى . هل تعلم يا أليوشا أننى عاجز عن أن أشنق نفسى ؟ لعلك تظن أن هذا جبن منى ، أليس كذلك ؟ ولكن لا ، أنا لست جباناً . فلأننى أحب الحياة حباً قوياً انما أعجز عن الانتحار ! من أين علمتُ أن سمردياكوف شنق نفسه ؟ آ ... نعم ... « هو » الذى قال لى ذلك ...

سأله أليوشا :

ـ أأنت مقتنع اذن ، أأنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك .

ـ طبعاً . كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، فى زاوية الغرفة . لا شك فى أنك طردته . أنت الذى حملته على الهرب قطعاً . لقد غاب فى اللحظة التى وصلت فيها أنت . اننى أحب وجهك يا أليوشا . هل كنت تعلم أننى أحب وجهك ؟ أما « هو » فانه أنا يا أليوشا ، أنا وحدى. هو كل ما فىّ أنا من دناءة وخسة وحقارة ! صحيح أننى «روماسى» ، وقد لاحظ هو ذلك ... ولكن هذه نميمة كاذبة . انه غبى غباءً فظيعاً، وبهذا انما هو قوى . هو ماكر ، ماكر كحيوان . كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبى وغيظى . زعم ليحنقنى أننى أؤمن به ، وبهذه الوسيلة حملنى على أن أسمع له وأصغى اليه . ولكنه ذكر لى أيضاً

حقـائق كثيرة عنى ، ذكر أشـياء ما كان لى أن أعترف بها فى يوم من الأيام •

ثم أضاف ايفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجأة كثير من الجد والنجوى :

ــ هل تعلم يا أليوشا أننى أتمنى كثيراً أن يكون « هو » لا أنا ؟

قال أليوشا وهو ينظر الى أخيه فى شفقة وعطف :

ــ لقد أتعبك •

ــ أرهقنى بسخرياته • وما كان أبرعه وأحذقه ! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً : « الضمير ؟ ما هو الضـمير ؟ هو ثمـرة دماغى • لماذا يشعر الانسان بعذاب الضمير ؟ يشعر بعذاب الضـمير من قبيل العادة ، نتيجةً لطريقة فى التفكير تكونت فى الانسانية خلال سبعة آلاف سنة ، فمتى تحررنا من هذه العـادة ، أصبحنا آلهة » • هو الذى قال ذلك ، هو الذى قال ذلك !

لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدّق اليه تحديقاً قوياً :

ــ هو ؟ ألا يمكن أن تكون أنت الذى قلت ذلك ؟ أنت بالأحرى؟ دعه الآن ، لا تفكر فيه ، انسـه • فليـأخذ معـه كل ما تستنكره اليوم وتدينه ، ولا يعودنّ بعد الآن أبداً •

قال ايفان بلهجة المتألم المهان •

ــ ليكن ذلك • ولكنه خبيث شرير • لقد ازدرانى جهاراً • كان وقحاً ، صدقنى يا أليوشـا • ولكنـه افترى علىّ ، افترى علىّ فى أمور كثيرة • قال : « أنت تنوى أن تقوم بعمل نبيل فاضل ! هأ ! أنت تنوى

أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك ، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك ... » .

قاطعه أليوشا قائلا :

ـ قف يا أخى ! لست أنت القاتل . هذا خطأ !

ـ هو الذى قال ذلك ، ولا بد أنه على علم به « أنت تنوى أن تقوم بعمل فاضل ، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة ؟ ذلك ما يهيجك ويعذبك ، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك » . هكذا تكلم ، وهو يعرف ما يقول ...

هتف أليوشا يقول بمرارة :

ـ هذه أقوالك أنت لا أقواله هو . انك مريض ، انك تهذى ، وتعذب نفسك فى هذيانك !

ـ لا ... انه يعرف ما يقول . قال لى مؤكداً : « أنت تصدر عن زهو وخيلاء ، تريد أن تمثُل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء : « أنا القاتل ، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروّعة ؟ ألا انكم لكاذبون . اننى اسخر من ذعركم هذا ! » . تلك هى الخواطر التى نسبها الىّ ، ثم أضاف يقول : « هل تعرف ماذا تتمنى ؟ أنت تتمنى أن يغمروك بالمديح قائلين : « هو مجرم ، نعم ، هو قاتل ، ولكنه تحركه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة ! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه ! »» . أما هذا يا أليوشا فهو كذب (كذلك هتف ايفان فجأة وقد سطعت عيناه) . أنا لا أتمنى أبداً أن يُعجب بى بُلهاء ! لقد كذب فى هذا يا أليوشا ، كذب فى هذا ، أحلف لك ! وبسبب ذلك انما قذفته بكأس ، فتحطم الكأس على وجهه القذر !

توسل اليه أليوشا قائلاً :

ـ هدىء روعك يا أخى ، اكفف عن الكلام هكذا !

أردف ايفان يقول دون أن يصغي الى أخيه :

ـ لا ، انه يجيد التعذيب ، انه قاس شديد العتو . كنت أوجس دائماً الغرض الذي يجيء من أجله . كان يقول : « ليكن ! ان الزهو هو الذي يحركك ويدفعك . ولكنك تأمل رغم كل شيء أن يفتضح أمر سمردياكوف ، فيرسل الى السجن ، ويُبرّأ ميتيا ، ولا يُحكم عليك أنت الا حكماً « أخلاقياً » (وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة ، هل فهمت ؟) ، بينما يُكبر آخرون عظمة نفسك ونبل روحك . ولكن هاهو ذا سمردياكوف قد مات ! لقد شنق نفسه، فمن ذا الذي سيصدقك أمام المحكمة ، من ذا الذي سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً ؟ ومع ذلك ستذهب الى المحكمة ، وتقف أمام القضاة . لقد قررت ذلك ، وستفعل . فلأي هدف تريد أن تذهب الى المحكمة بعد الآن ؟ » . شيء فظيع يا أليوشا ! انني لا أطيق احتمال هذه الأسئلة . من ذا الذي يحق له أن يستجوبني بهذه الطريقة ؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر ، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد ايفان الى الواقع :

ـ أخي ، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولي ، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث ، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه ؟.

قال ايفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك :

ـ لقد قال لي ذلك ، بل ظل يكلمني في هذا طول الوقت اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، ولم يكلمني الا في هذا . كان يقول لي : « ويا ليتك تؤمن بالفضيلة ! ... ان احداً لن يصدقني ، ولكن ذلك لايهمني ، فانما أنا أصدر عن مبدأ . ألا أنك لتسخر من الفضيلة ، لأنك

خنزير ، مثل فيدور بافلوفتش ! فعلام ذهابك الى المحكمة ، ما دامت تضحيتك لن تجدى ؟ ... الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدرى لماذا تريد أن تذهب الى المحكمة ! آه ... أنك لمستعد أن تهب كثيراً فى سبيل أن تعرف ذلك . أتظن أن هذا ما قررته ؟ ألا انك لم تقرر شيئاً بعد . ستقضى الليل كله مفكراً متسائلاً أتذهب أم لا تذهب . وانك لتعلم حق العلم ، مهما يكن قرارك ، أن الحل النهائى أصبح لا يتوقف عليك . سوف تذهب لأنك لا تجرؤ الا أن تذهب . أما لماذا لا تجرؤ ، فذلك سؤال أدع لك أنت أن تحزر جوابه . هذا لغز حاول أن تتسلى بحله ! » . قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف . وصلت أنت ، فغاب هو . ولقد وصفنى بأننى جبان يا أليوشا ! ان ذلك اللغز هو أننى جبان . لقد أضاف قائلاً : « لستَ من تلك النسور التى تحلق عالياً فى السماء » . نعم ، أضاف هذه الجملة . وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه . يجب قتله . ان كاتيا تحتقرنى . لاحظتُ أنا ذلك . وسوف تحتقرنى ليزا أيضاً . «ستذهب الى المحكمة لتحظى بالاعجاب» . هذا كذب دنىء . أنت أيضاً تحتقرنى يا أليوشا . سوف أكرهك الآن من جديد . والمسخ أيضاً ، اننى أكره المسخ كذلك . لا أريد أن أنقذ المسخ . ألا فليعفن فى السجن ! لقد غنى نشيد فرح . أوه ! سأذهب ، سأذهب غداً . سأمثُل أمامهم ، وسأبصق فى وجوههم جميعاً !

ونهض ايفان فجأة وقد استبدت به حمىًّا شديدة ، فنزع الفوطة عن جبينه وطفق يمشى فى الغرفة . تذكر أليوشا أقواله : « أنام وأنا أحس بأننى يقظان ... أمشى وأتكلم وأرى ، وأنا مع ذلك أحلم » . ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن . لم يشأ أليوشا أن يترك أخاه . وخطر بباله أن يمضى ليستقدم طبيباً ، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن يترك ايفان وحيداً . كان من جهة أخرى لا يدرى الى من يعهد به .

وأخيراً أخـذ ايفـان يفقد الذاكرة • كان ما يزال يتكلم بغير توقف ، وكانت أقواله مفككة كل التفكك ، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء في النطق بالكلمات • وترنح على حين فجأة ، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب ، ومضى به نحو السرير ، فانقاد ايفان دون مقاومة ؛ وبعد أن نضا أليوشـا عن أخيه ثيـابه كيفما اتفق ، أرقده على السرير ، ثم جلس قربه ، ولبث سـاهراً عليـه سـاعتين أخريين • نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك ، وكان تنفسه منتظماً • فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة ورقد على الديوان دون أن يخلع ثيابه • وقبل أن ينام ، دعا الله لميتيا وايفـان • لقـد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض ايفان : « هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء ، هذا قلق صادر عن ضـمير قوى ! » • ان الله الذي كان ايفـان يرفض أن يؤمن به يفرض نفســه الآن على وجدان ايفان ، وان الحقيقة الالهية تشق طريقها على هونٍ الى قلبه الذي ما يزال عصياً • حدث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان : « نعم ، لقد مات سمردياكوف ، ولن يصدق أحد الشهادة التي سيدلي بها ايفان• ولكن سيذهب الى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك » • وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال في ذهنه هذا الخاطر ، ودمدم يقول أيضاً: « سينتصر الله ! » • ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة : « اما أن يُبعث ايفان بعثاً جديداً بنور الحقيقـة ، واما ••• أن يهـوى الى الكره منتقمـاً من نفسه ومن الآخـرين لأنه خدم قضـية لم يكن مؤمناً بها • » • وعاد أليوشا يصلي من أجل ايفان •

الباب الثاني عشر: خطأ قضائي

١

اليوم الحاسم

غداة الأحداث التي فرغت من وصفها الآن ، افتتحت في الساعة العاشرة من الصباح ، جلسة محكمة مقاطعتنا ، وبدىء النظر في قضية دمتري كارامازوف •

وانى لأحب أن أقول فوراً بالحاح اننى أعد نفسى عاجزاً عن أن أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة ، وأن أروى جميع الوقائع لا من حيث الكمال والتمام فحسب، بل من حيث التسلسل الزمنى أيضاً• وأحسب أننى لو كان علىّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها شرحاً مناسباً ، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله ، كتاباً أكبر حجماً من هذا الكتاب • لذلك آمل أن يتفضل القارىء فيعذرنى اذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التى أثارت اهتمامى شخصياً فبقيت فى ذاكرتى لهذا السبب • ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب الأمور الأساسية ، وربما أكون قد أسقطت كذلك اسقاطاً كاملاً بعض الوقائع الهامة ••• على أننى أعدل الآن عن تسويغ نفسى • فلسوف أبذل قصاراى ، وسوف يدرك القارىء أننى أعطيته كل ما استطعت أن أعطى •

وانى لأحرص أولاً وقبل الدخول الى قاعة المحكمــة ، أن أذكر ما أثار دهشتى أكثر من أى شىء آخر فى ذلك النهار • على أن دهشتى هذه قد شاركنى فيها عدد كبير من الأشخاص، كما علمت ذلك فيما بعد• واليكم الأمر : كان من المعلوم طبعاً أن قضــية هذه الجريمــة قد أثارت اهتمــام عدد لا حصر له من البشر ، وأنهــا قد آثارت اهتمــامهم اثارة شديدة ؛ وأن جميع الناس كانوا يحترقون شوقاً الى أن يبدأ النظر فى هذه القضــية ؛ وأن مجتمع المدينــة كان منذ شــهرين لا يفعل شــيئاً غير التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها • وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت فى روسيا كلها • الا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذىأثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هز هزاً عميقاً لا سكان مدينتنا فحسب ، بل سـكان مناطق أخرى أيضاً • وقد أدركنا هذه الحقيقة فى ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة • لقد هرع المستطلعون الفضوليون لا من مركز اقليمنا وحده ، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً ، وهرعوا حتى من موسكو ومن سان بطرسبرج• كان بينهم أناس من رجال القانون ، وشخصيات معروفة مشــهورة ، ونســاء من المجتمع الراقى • وقد اختُطفت تذاكر حضــور المحاكمة فى طرفة عين • واعتقد القائمون على الأمر ، فى هذه المناسبة ، أن من الواجب ، على خلاف ما جرت به العادة ، حجز أماكن خاصــة وراء منصة المحكمة ، يُخص بها بعض الزائرين الذكور من أصحاب الرتب العليا • هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة ، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبــل قط • وكانت النســاء كثيرات كثرة خاصة ، سواء أكن من سيدات مجتمعنا المحلى أم كن من سيدات الطبقة العليا فى مدن أخرى • أما رجال القــانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا

أين يضعونهم لأن الأماكن المتوفرة كانت قد وزعت فأعطيت أو وعد بها منذ مدة طويلة . وقد رأيت بعيني قيام العمال على عجل ببناء حاجز موقت فى آخر القاعة وراء المنصة ، فبذلك حدد مكان خص به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة وقوفاً ، لأن الكراسى كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر . فهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفاً طوال مدة المحاكمة كتفاً الى كتف . وقد جاءت بعض السيدات ، ولا سيما السيدات اللواتى وفدن من خارج مدينتنا ، جاءت الى قاعة المحكمة فى أبهى حلة وأجمل زينة ، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن . وكان يقرأ فى وجوههن فضول قوى شره يشبه أن يكون مرضياً . ومن خصائص هذا الجمهور المحتشد فى قاعة المحكمة ، من خصائصه التى تستحق أن تذكر أن الكثرة الغالبة من النساء (كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد) كن متحزبات لميتيا ، وكن يتمنين أن تبرئه المحكمة . وربما كان السبب الأساسى فى هذا ما اشتهر به من أنه شاب يفتن المرأة ويخلب لبها ويغويها ؛ ولقد كان معروفاً عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستتجابهان فى سبيله أثناء المحاكمة . فأما أولاهما وهى كاترين ايفانوفنا ، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها . كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن تولهها بميتيا تولهاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة . وكانت تذكر عن هذا الموضوع تفاصيل مذهلة . وكانت كبرياء كاترين ايفانوفنا هى التى تثير اهتمام الناس خاصة (ان كاترين ايفانوفنا لم تكد تزور أحداً) ، وكان الناس يتحدثون عن صلاتها الارستقراطية ، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة اذناً بأن تصحب الجانى الى السجن ، وأن تتزوجه فى مكان ما بالمناجم تحت الأرض . وأما المرأة الثانية ، وهى جروشنكا،منافسة كاترين ايفانوفنا ، فقد

كان الناس يتلهفون الى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن هذا الاهتمام . وكانت المجابهة التى ستتم بين المرأتين ــ الفتاة الارستقراطية المتكبرة و « الهيتائير » ــ تثير فى الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعاً . ثم ان سيدات مدينتنا كنّ يعرفن جروشنكا أكثر مما يعرفن كاترين ايفانوفنا . لقد رأين مراراً « تلك المخلوقة التى كانت سبب هلاك فيدور بافلوفتش وابنه المسكين » ، وكان يدهشن أشد الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه « البورجوازية الروسية الصغيرة التى هى امرأة عادية جداً ، حتى انها ليست جميلة » . خلاصة القول أن التعليقات كانت قائمة قاعدة . وانى لأعرف من مصادر مطلعة موثوقاً بها ان انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت فى مدينتنا بسبب ميتيا . ان عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد اشتجرن فى ذلك الوقت مع أزواجهن اشتجاراً عنيفاً ، لاختلاف رأيهن فى هذه القضية المؤلمة عن رأى أزواجهن . فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجىء ازواج هاته السيدات الى المحكمة متحيزين ضدّ المتهم ، بل ومعادين له صراحةً ؛ حتى ليمكننا أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة ، على نقيض العنصر النسائى فى ذلك الجمهور ، كانوا قد تحيزوا ضدّ المتهم ، فبعضهم عابس الوجه قاسى النظرة مكفهر الأسارير ، وبعضهم الآخر ، وهو الأكثرية الغالبة ، كان يظهر الكره والعداوة بمزيد من الوضوح والصراحة . والحق أن ميتيا ، أثناء اقامته فى مدينتنا ، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال . وكان هنالك ، فى مقابل ذلك ، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح ، فهم لا يكترثون بمصير ميتيا ، وانما تهمهم النتيجة التى ستنتهى اليها المحاكمة ، ولا يفكرون الا فى الحكم الذى سيصدر ، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجانى تمنياً قوياً صارماً ، باستثناء رجال القانون مع ذلك ، فلقد كان هؤلاء لايعنيهم الجانب الأخلاقى

من القضية ، وانما تعنيهم الجوانب القضـائية وحدها دون غيرها • وقد أحدث وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش هزةً عنيفة فى النفوس • فقد كانت موهبتـه الخطابية معروفة مشـهورة فى كل مكان ، وقد سـبق أن ترافع فى الاقاليم مراراً فى قضايا كان لها دوى عظيم • وكانت الدعاوى التى يترافع فيها تصبح ذائعـة الصيت فى روسـيا كلها ، وكان النـاس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً • وكانت تُروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة • كان يقال مثلاً ان وكيل النيابة فى مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه ، وان بينه وبينه عداوةً يرجع تاريخها الى أول عهده بالوظيفة ، الى الفترة التى كان فيها هيبوليت كيريلوفتش المندفع ، وهو بمدينة سان بطرسبرج ، يشعر دائماً بجراح فى كبريائه لأن كفاءاته لم تكن تقدر حق قدرها • ولقد ردَّت اليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً ، فيما يقال ، حتى لقد كان يحلم فى أن يستعيد فى هذه المناسبة شـهرته الخطابية التى انطفأ سـناؤها وبهت ريقها ، ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث فى قلبه هماً وغماً• على أن الحقيقة هى أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصـوروا أن وكيـل النيابة كان يخشى لقاء المحامى الشهير هذه الخشية كلها • ان وكيل النيابة فى مدينتنا لاينتمى الى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل لقد كان ، على نقيض ذلك تمـاماً ، من أولئك الرجـال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيداً من الالتهاب وتشتعل مزيداً من الاشتعال على قدر قوة العقبـات التى تعترض طريقهم والحـواجز التى تقف فى وجههم • يحسن أن نضيف الى ذلك أن هيبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة ومزاج جياش ، وأنه كان شديد التأثر الى درجة المرض • كان يضع نفسه كلها فى بعض مطالبات النيابة التى يعدها ، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيرة الشخصى وتتوقف ثروته على

النتيجة التى ستنتهى اليها الدعوى . وكان الناس فى الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه ، التى جلبت له شهرة ان لم تكن واسعة كثيراً فهى أكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذى كان يحتله فى محكمتنا . وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا . وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين فى هذه النقطة . فلقد كان وكيل النيابة فى مدينتنا يملك فكراً أقرب الى الجد كثيراً مما كان يتخيل الناس عندنا عامة . ولكن هذا الرجل الذى يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح فى اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق فى أول عهده بالمهنة ، فامتد هذا الخطأ الذى ارتكبه منذ البدء ، امتد على حياته كلها .

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه انه مثقف ، وانسانى ، وانه كان يعرف مهنته ويجيدها ، ويشارك فى آراء العصر المتقدمة المتطورة . انه قوى الشعور بنفسه ، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته ، فان أكبر طموح يهزه هو أن يعرف عنه أنه رجل تقدمى . وكانت له صلات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة . وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بدعوى كارامازوف ، كما أدركنا ذلك فيما بعد ، ولكنه لم ينظر الى هذه القضية الا من زاوية عامة تماماً ، فهو يرى فيها ، على وجه الخصوص ، ثمرة من ثمرات ظروفنا الاجتماعية ، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية ، أى ظاهرة من الظاهرات عليه أن يحكم عليها وأن يصنفها تصنيفاً مناسباً . أما الجانب الشخصى من الدرامة ، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التى تتألف منها هذه الدرامة ، وأما المصير الفردى الذى ينتظر الأشخاص الرئيسيين فى هذه الدرامة ، وعلى رأسهم المتهم ، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيراً ، ولا ينظر اليها الا من أفق مجرد . وربما كان ذلك مطلوباً ومستحسناً فى مركزه ووضعه .

غصت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل . انها أحسن قاعة فى مدينتنا : فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً .

على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة ، قد وضعت منضدة ووضع صفّان من المقاعد للمحلّفين . وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه . وعلى منضدة أخرى فى وسط القاعة ، غير بعيد عن المنصة ، قد جُمعت ثبوتيات الاتهام ، فمن بينها التوب الأبيض الذى كان يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله فى منزله وكان ملطخاً بالدم ؛ ومدقّ الهاون النحاسى المشئوم، وهو السلاح الذى يُعتقد أنه استعمل فى ارتكاب الجريمة ؛ وقميص ميتيا الذى كان على أحد كميه بقع دماء ؛ وصدرته الملطخة بدم كثير من خلف ، فى موضع الجيب الذى دسّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دماً ؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر ؛ ومن بينها أيضاً المسدس الذى كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار ، وقد جرّده منه تريفون بوريستش خلسةً فى قرية موكرويه ، والظرف الذى كان قد ضمّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنكا ، وعليه كتابة بخط المجنى عليه ، والشريط الوردى الدقيق الذى رُبط به ذلك الظرف ، وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن . وعلى مسافة من هناك ، فى قرارة القاعة ، يبدأ المكان المخصص للجمهور . غير أن عدداً من المقاعد قد صُفّ أمام المنصة ، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا فى القاعة بعد ادلائهم بشهاداتهم .

دخل أعضاء المحكمة فى الساعة العاشرة . انهم رئيس ، وقاض، وقاضى صلح شرفى . وطبيعى أن وكيل النيابة ظهر فى الوقت نفسه تقريباً . الرئيس رجل قوى البنية متورد اللون ، قامته أقصر من

متوسط قامة الرجال ، فى نحو الخمسين من عمره ، له وجه محتقن ، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً فى بعض المواضع وقُص قصيراً • وهو يتوشح بشريط طويل لوسامٍ نسيت اسمه الآن • أما وكيل النيابة فقد بدا لى شاحباً فى ذلك اليوم شحوباً خاصاً ، كما بدا كذلك لكثير آخرين • كان لون وجهه يبدو ضارباً الى زرقة بل والى خضرة ، وكأنه قد نحل فجأة فى ليلة واحدة ، لأننى كنت قد رأيته أمس الأول معافى تماماً •

بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلفين ••• ولكننى ألاحظ أنه يستحيل علىّ أن استمر فى سرد الوقائع سرداً مفصلاً هذا التفصيل كله ، لأن هناك أموراً لم أحسن سماعها ، وأموراً أخرى لم أنتبه اليها انتباهاً كافياً ، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتى اختفاء تاماً منذ ذلك الحين • ثم اننى ـ وتلك هى الصعوبة الكبرى ـ لا يتوفر لى الزمان والمكان الكافيان لأن أقص هنا كل ما جرى فى أثناء ذلك اليوم ، وهذا ما سبق أن قلته • ولكننى أعلم أن عدد المحلّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين ، أعنى وكيل النيابة والمحامى ، كان ضئيلاً جداً • وقد حفظت من جهة أخرى تشكيل هيئة المحلّفين : كانت هيئة المحلّفين تضم أربعة موظفين من مدينتنا ، وتاجرين ، وستة فلاحين وبورجوازيين صغار من البلدة • وانى لأتذكر أن الناس فى مجتمعنا الصغير ، ولا سيما السيدات ، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بمدة طويلة ، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال : « كيف يمكن أن يُعهد بالفصل فى مثل هذه القضية الى بضعة موظفين مغمورين والى قبضة من الفلاحين ؟ ما الذى يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف ، ناهيك عن فلاح ؟ » • والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين فى هيئة المحلّفين كانوا أناسا صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية ، وكانوا جميعاً

متقدمين في السن بيض الشعور ، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم • وكانوا مجهولين في مجتمع مديننا ، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة حياة مغمورة ، وأنهم قد كان لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع • ولا بد انهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن ، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين الى حين • وطبيعي أن أحداً منهم لم يكن قد قرأ كتاباً في يوم من الأيام • صحيح أن اثنين من المحلَّفين ، وهما تاجران ، قد كان في هيئتهما شيء من مهابة ، ولكنهما ظلا صامتين صمتاً غريباً ، ولبثا جامدين لا يحركان ساكناً • فأما أحدهما فكان حليقاً وكان يرتدي ثياباً على الطراز الأوروبي ؛ وأما الثاني ، وهو ذو لحية شائبة ، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علّق به وسام • وأما الفلاحون والبورجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلفين ، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم • ان البورجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم • كان اثنان من هؤلاء البورجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتوبريجونيفسك يلبسون ثياباً على الزي الأوروبي ، وكان هذا يضفي على هيئتهم ، فيما يبدو ، مزيداً من الوساخة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيراً من زملائهم الأربعة • فمن الطبيعي اذن أن يكون اشخاص كثيرون ، أنا واحد منهم ، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلَّفين : « ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين ؟ » • ومع ذلك بدا لنا في تعبير وجوههم جميعاً شيء من سلطة ، وشيء يشبه أن يكون تهديداً • لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين •

وأخيراً طلب الرئيس النظر في قضية الموظف المتقاعد فيدور

بافلوفتش كارامازوف ـ وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التى استعملها عندئذ • وأمر الحاجب بادخال المتهم فظهر ميتيا فى القاعة ، فاذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها • لا أدرى ما الذى دار فى خواطر الحضور ، ولكننى أستطيع أن أقول ان المتهم قد أحدث فى نفسى شعوراً سيئاً كل السوء • والأمر الذى ساءنى منه خاصة هو افراطه فى السعى الى أناقة هندامه • لقد ظهر أمام المحكمة يومئذ ببدلة جديدة مفرطة فى التأنق • وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد ، أوصى بها خياطه بموسكو الذى كان يحتفظ بمقاسه • وكان المتهم يلبس قفازين جديدين كل الجدة ، مصنوعين من جلد ملمّع ، وقميصاً بالغ الرهافة والبذخ • وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة ، ناظراً الى أمام بجمود غريب ، جلس فى مكانه بكثير من الثقة • وفى الوقت نفسه ، ظهر محاميه ، فيتوكوفتش الشهير ، فاذا بهمهمة مستخفية تطوف فى أرجاء القاعة من أولها الى آخرها • ان هذا المحامى اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر ، له ساقان طويلتان نحيلتان ، وأصابع ضاوية كابية ، وشعر قصير قد صفّف بغير كبير عناية • وشفتاه الرقيقتان تلتويان فى بعض اللحظات ، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن مكر أم هما تبتسمان • وكان يبدو فى نحو الأربعين من عمره • ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير ، ولكنهما متقاربتان احداهما من الأخرى تقارباً شديداً ، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما الا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل ، لولا عيناه هاتان لكان يمكن أن يُعدّ وجهه لطيفاً محبباً • الخلاصة أن سحنته كان فيها شىء من سحنة عصفور ، وهى بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر • وكان يرتدى رداء رسمياً مع كرافتة بيضاء •

أننى أتذكر تذكراً واضحاً الأسئلة الأولى التى ألقاها الرئيس على

ميتيا ، وهي تتناول هويته ، ورتبته ، وما الى ذلك • وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بجفاف وخشونة ، ولكن بصوت قوى يثير الاستغراب حتى ان الرئيس هزّ رأسه ونظر اليه في دهشة • وبعد ذلك قرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين الىالادلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء• وكانت القائمة طويلة جداً • واتضح أن أربعة من الشهود غائبون ، وهم : ميوسوف الذي كان قد سافر الى باريس ، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدى؛ والسيدة هوخلاكوفا ، والمالك ماكسيموف ، وكلاهما معذور بسبب المرض ؛ وأخيراً سمردياكوف الذى مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُرِّرت وفاته بشهادة من الشرطة قُدِّمت الى المحكمة • وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات فى القاعة • ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد• ولكن الشيء الذى أدهش الناس خاصةً هو أن ميتيا قد انفجر صائحاً على حين فجأة : فانه ما ان علم بالنهاية التى انتهى اليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوّى فى القاعة كلها :

ــ كان كلباً فمات ميتة كلب •

أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ ، وأن رئيس المحكمة قد وجه اليه تحذيراً قاسياً ، وهدّده باتخاذ اجراءات صارمة فى حقه اذا هو كرر فعلته هذه • وقد كرر ميتيا لمحاميه ، عدة مرات ، بصوت هامس ، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً ، ولكن دون أن يبدو عليه انه آسف لصرخته نادم عليها :

ــ لن أعيدها ، أعدك بذلك ! لقد افلتت منى ! طيب ••• لن أعيدها !

بديهى أن هذا الحادث الطارىء لم يخدم ميتيا فى ذهن المحلفين وفى ذهن الجمهور • فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف فى هذه الفعلة

عن طبعه . وبذلك أساء هذا الانفجار الى الصورة القائمة فى الأذهان عنه . وفى هذا الجو السيء انما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام ، وهو نص مقتضب رغم اشتماله على وقائع القضية ، يقتصر على عرض الأسباب الداعية الى الاتهام ، الباعثة على الادانة ، الخ . وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً فى نفسى أيضاً . كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلى بيِّن رنان . فانبعثت صورة الدرامة فى أذهان الحضور مرةً أخرى ببروز يأسر اللب ، كأنما انصبت عليها والتقت عندها أضواء ساطعة صادرة من عدة جهات . وانى لأذكر أنه ما ان فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوى نافذ :

ـ المتهم ... هل تعترف بارتكابك هذه الجريمة ؟

فنهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وصاح يقول بحرارة لم تكن فى الحسبان :

ـ اعترف بارتكابى جرائم السكر والعربدة والفسق والفجور ، اعترف بأننى امرؤ كسول سيء الخلق والسلوك . ولقد كنت أنوى أن أصلح أمرى وأن أصبح الى الأبد انساناً شريفاً ، فى اللحظة التى حطمنى فيها القدر . ولكننى بريء من مقتل العجوز ، عدوى وأبى . أنا لم أسرقه ، لا ، لا ! ... لم أفعل ذلك ، ولا كان لى أن أفعل ذلك : ان دمترى كارامازوف انسان شقى ولكنه ليس لصاً .

أطلق دمترى هذه الصيحات ثم عاد يجلس وهو يرتعش بكل جسمه . فاتجه اليه الرئيس من جديد يطلب منه بايجاز ولكن بالحاح صارم أن يقتصر على الأسئلة التى تُلقى عليه ، دون أن يندفع فى خطب وصيحات لا فائدة منها ولا طائل تحتها . وبعد ذلك أمر الرئيس بسماع

أقوال الشهود • فأُدخل الشهود ليحلفوا اليمين ، فرأيتهم عندئذ جميعاً على أن أخوى المتهم قد أعفوا من هذا الاجراء وسُمح لهما أن يدليا بشهادتيهما دون قسم • وبعد النصائح والمواعظ التى قالها الرئيس وقالها كاهن ، أُخرج الشهود ، وعُزل بعضهم عن بعض • ثم نودوا الى القاعة واحداً بعد واحد •

٢

شهود خطرون

لا أدرى هل وزّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفـاع الى فئتين متميزتين ، ولا أدرى ما هـو الترتيب الذى اتبعه فى استدعائهم • أغلب الظن أنه اتخذ الاجراءات الضرورية • ولكننى أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا الى الادلاء بأقوالهم أول من دُعى• أعود فأكرر أننى لا أنوى أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة • ثم ان عرضاً يبلغ ذلك المبلغ من التمام والكمـال سيكون زيادة لا داعى اليها ، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود فى ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامى تلخيصه وايضاحه فى آن واحد ، وذلك فى مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع فى آخر المناقشات • وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين ، وأخذت منهما أجـزاء برمتها سـأعرضها حين يجىء الأوان • وسأذكر كذلك حادثاً وقع أثنـاء المحاكمة على غير توقع ، وقع فى البداية وكان له تأثير كبير على النهاية المشئومة • أما الآن فسأقتصر على الاشارة الى وجه خاص من وجوه هذه « القضية » تكشّف دفعةً واحدة وخطف أبصار الجميع ، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخـرى • لقد بدا منـذ الوهلة الأولى أنه ليس هنـاك تكافؤ بين الاتهـام

والدفاع ، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيداً من التجمع والتركز شيئاً بعد شيء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود مزيداً من الاتضاح ، وكلما تجلى هول الجريمة بارزا مزيداً من البروز • ثم ان جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة ، وأنه لا مجال لأى شك ، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعى اليها ، وأنها لن تجرى الا من باب التقيد بالشكل ، اذ كان واضحاً أن المتهم هو الجانى ، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا مشاحة فيه ولا سبيل الى انكاره • وأحسب أن السيدات اللواتى شهدن المحاكمة وكنّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق ، أحسب أن هاته السيدات كنّ مقتنعات جميعاً ، دون استثناء ، اقتناعاً مطلقاً بأن المتهم هو القاتل • وأكثر من ذلك أنهن كنّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك ، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل اثارة للمشاعر ، ولأن تبرئة الجانى تكون عندئذ أضعف أثراً وأقلّ بهاءً • ومن الأمور العجيبة أن هؤلاء السيدات جميعاً قد ظللن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سيُبَرَّأ : « صحيح أنه هو الجانى ، ولكنه سيُبرَّأ باسم الانسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن » ، الخ ، الخ • وعلى هذا الأمل انما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت الى حضور المحاكمة ، وكنّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات • أما الرجال فكان يهمهم ، خاصةً ، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير • كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذى سيعمد اليه المحامى ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدماً ، وما الذى سيتوصل الى الظفر به فيها• لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته واشاراته وأوضاعه بانتباه شديد • ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته ، الى أن حان حين المرافعة • وكان أهل الخبرة

والتجربة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه ، وأنه يسعى الى هدف معيَّن ، ولكن يستحيل عليهم أن يعرفوا ماهو ذلك الهدف • وفى أثناء ذلك كانت ثقته وطمأنينته واضحتين تخطفان البصر • يضاف الى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التى قضاها فى مدينتنا ، وهى لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام ، لأن يدرس القضية دراسة عميقة ، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها » • وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام فى اللحظة المناسبة ، وكيف استطاع خاصةً أن يدمِّر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق ، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التى أدلوا بها • على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب فى الدرجة الأولى ، حباً بالفن ، وشغفاً بالمهنة ، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية • ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوِّل على جنى أية فائدة ذات بال من تلك « التشهيرات » ، وأنه لا بد أن يكون عارفاً بهذا أكثر من أى انسان آخر ، فلعله كان يدّخر فكرة من الأفكار ، لعله كان يخبىء سلاحاً خفياً آخر ، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد ، ولكنه سيخرجها فجأة فى اللحظة المناسبة • وبانتظار ذلك كان يبدو شاعراً بقوته ، وكان يجد لذة فى التلاعب بالشهود • كان من يراه يحس أنه يتسلى • من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور جريجورى فاسيليتش ، خادم فيدور بافلوفتش ، الذى أدلى بشهادة خطيرة فى موضوع « الباب المفتوح » المطل على الحديقة ، أمسك المحامى بتلابيبه ان صح التعبير ، منذ أتيح له أن يلقى عليه بعض الأسئلة • يحسن أن نذكر هنا أن جريجورى مَثَل أمام المحكمة دون أن يضطرب أى اضطراب ، دون أن يبدو عليه أى تهيب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذى يصغى اليه • كان هادىء المظهر ، بل كان فيه شىء من مهابة ووقار ، وقد

أدلى بشهادته بثقة مطمئنــة كتلك الثقــة التى يخاطب بهــا امرأته مارفا اجناتفنا فيما يجرى بينه وبينها من أحاديث ، ولكن باحترام وتوقير • كان يبدو أن ارباكه مستحيل • ســأله وكيل النيــابة أولاً عن تفاصيل الحياة العائلية التى تحياها أسرة كارامازوف ، فرسم جريجورى لهــذه الحياة صورة حية جداً • وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد انسان ساذج أمين غير متحيز • فان ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عــادلاً نحو ميتيــا ، وأنه « لم يحسن تنشــئة أولاده » • وحين تحدث عن ســنى طفولة ميتيــا ذكر أن الطفل « كان ســيأكله القمل لولا أن عُنى هو به » ، وأضاف الى ذلك أنه « ما كان ينبغى للأب أن يحرم ابنه من حقه فى ميراث أمه » • فلما سأله وكيــل النيابة عن الوقائع التى تسمح له بأن يقول ان فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب ، عجز جريجورى عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع) ، ولكنه أصرّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن « ميتيا كان من حقه فعــلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات » • أحب أن أضيف أن هذا الســؤال ـ أعنى الســؤال عن الغبن الذى لحق ميتيا ـ قد طرحه وكيل النيــابة بالحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمــة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول هذا الموضوع ، ولم يستثن من هؤلاء الشــهود أليوشــا وايفــان فيدوروفتش ، ومع ذلك لم يســتطع أحد من الشــهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة فى هذه النقطة • لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يجىء ببرهان قاطع• وحين وصف جريجورى المشــهد الذى جرى فى غــرفة الطعــام لحظة اقتحمها دمترى وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد ، خرج من سرده لهذه الوقائع شعور بادانة المتهم ، لا سيما وأن الخادم العجوز كان

يتكلم بهدوء ، لا يسترسل فى عبارات لا فائدة منها ، وانما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده ، المعهودة فيه ، فكان بذلك بليغاً كل البلاغة دون أن يقصد الى البلاغة • أما فيما يتعلق بالاهانة التى ناله بها ميتيا (كان ميتيا قد لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة) فقد قال جريجورى انه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وأنه غفر له هذه الاساءة منذ مدة طويلة • ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف ، رسم اشارة الصليب أولاً ، ثم قال ان الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا ، لكنه كان غبياً ، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله ؛ وأخذ عليه خاصةً أنه كان ملحداً ، دون أن ينسى ان يقول ان فيدور بافلوفتش وايفان بافلوفتش هما اللذان لقّناه الالحاد • وفى مقابل ذلك ألحّ بشىء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أميناً ، وروى كيف أن هذا الخادم ، حين عثر بالأوراق المالية التى أضاعها مولاه فى فناء المنزل ، لم يخطر بباله أن يستولى عليها ، وانما ردّها الى فيدور بافلوفتش الذى كافأه على أمانته بدينار ذهبى ، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة • وأكد جريجورى من جهة أخرى ، بعنادٍ لا سبيل الى زحزحته عنه ، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحاً • هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل علىّ أن آتى على ذكرها كلها •

وأخيراً جاء دور المحامى لاستجواب الشاهد ، قبل كل شىء ، عن الظرف الذى « يُزعم » أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل « لشخص ما » : « هل رأيت هذا الظرف بعينيك ، أنت الذى تعيش فى صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها ، وكنت قريباً منه ذلك القرب كله ؟ » • فأجابه جريجورى بأنه لم يرَ ذلك الظرف ، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ « الى اللحظة التى أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه » • وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن

الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يجيبوا عن هذه النقطة ، وألح في ذلك الحاحاً كالحاح وكيل النيابة في السؤال عن اقتسام الميراث. فأجاب جميع الشهود ، في هذه المرة أيضاً ، واحداً بعد واحد ، بأنهم لم يروا الظرف ، وان يكن بعضهم قد سمع عنه. وقد لوحظ أن المحامي يولي هذه النقطة اهتماماً كبيراً ويقيم لها وزناً عظيماً ، ويرى أن لها شأناً خطيراً .

قال فيتوكوفتش فجأة على نحو غير متوقع :

ـ أحب الآن أن ألقي عليك سؤالاً ... اذا سمحت . هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم ، أو ان شئت عن تركيب ذلك السائل المغلي الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام ، كما يظهر من التحقيق الأولى ، في تدليك كليتيك الموجعتين ، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة !

نظر جريجوري الى المحامي نظرة بلهاء ، وصمت بضع ثوان ، ثم قال :

ـ يدخل في تركيبه نبات القويسة .

ـ لا شيء الا نبات القويسة ؟ لا شيء الا القويسة بتاتاً ؟ تذكر...

ـ ويدخل فيه نبات لسان الحَمَل أيضاً .

ـ وربما قليل من الفلفل ؟

ـ وفيه فلفل كذلك .

ـ عظيم . وهذه النباتات كلها غليت في خمرة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، في كحول .

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة .

ـ عظيم ، عظيم ، في كحول . وبعد أن دلكت ظهرك شربت مابقي

فى الزجاجة من هذا السائل ، وأنت تتلو صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصّها الا زوجتك ، أليس كذلك ؟

ــ نعم شربته •

ــ هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل ؟ كم شربت ، مثلاً ؟ أقدحاً واحداً أم ربما قدحين ؟

ــ قدحاً ملآن تقريباً •

ــ هه ؟ قدحاً كاملاً ؟ أم قدحاً ونصف قدح مثلاً ؟

صمت جريجورى • لكأن ضياءً قد بزغ فى ذهنه •

قال المحامى :

ــ قدح ونصف قدح من كحول صاف • ليس هذا قليلاً ، هه ؟ ان الانسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب ، بل أن يرى كذلك « أبواب الجنة » كلها مفتوحة •

ظل جريجورى صامتاً • وسُمعت فى القاعة ضحكات صغيرة مكظومة من جديد • فاضطرب الرئيس •

عاد فيتوكوفتش يسأل بالحاح وهو يحدّق الى فريسته :

ــ أما كنت فى حالة وسنٍ حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحاً •

ــ كنت واقفاً على قدمى •

ــ هذا لا ينفى أن تكون فى حالة وسن (ضحكات مكظومة) • هل كان فى وسعك عندئذ أن تجيب فى تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم ، كأن يسألك مثلاً فى أى سنة نحن ؟

ــ لا أدرى !

ــ طيب ••• فى أية سنة من العصر المسيحى نحن الآن ؟ هل تعرف ؟

بدت الحيرة على جريجورى الذى كان لايحوّل بصره عن جلاده. ومن الغريب أنه كان يجهل فعلاً فى أى سنة نحن .

ــ هل تستطيع أن تقول لى ما عدد أصابع يديك ؟

فقال جريجورى فجأة بصوت قوى واضح :

ــ انا امرؤ احترم السلطة ، وقد تعودت أن أطيع ، فاذا حلا لمن هم أعلى منى مقاماً أن يسخروا منى ، فمن واجبى أن أتحمل ذلك .

بدا على فيتوكوفتش شىء من الغيظ ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل فطلب من المحامى أن يلقى أسئلةً تتعلق بالدعوى تعلقاً مباشراً. فلما سمع المحامى طلب الرئاسة انحنى بوقار ، وأعلن أنه ليس لديه سؤال آخر يلقيه. واضح أن شكاً خفيفاً قد زُرع الآن فى أذهان الجمهور وفى أذهان المحلفين ، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلى بها رجل يمكن أن « يرى أبواب الجنة » بتأثير دواء ، عدا انه يجهل السنة التى نحن فيها من العصر المسيحى . فى وسعنا أن نقول اذن ان المحامى قد حقق هدفه على كل حال . وقبل أن ينصرف جريجورى وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه الى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة ، فصاح ميتيا يقول بصوت قوى :

ــ باستثناء ما قاله عن الباب ، فان كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذنى من القمل ، وأنا أشكر له ذلك . ولقد غفر لى اللطمات ، فأنا أشكر له ذلك أيضاً . ان هذا العجوز كان رجلاً شريفاً أميناً صادقاً طوال حياته ، وكان وفياً لأبى وفاء سبعمائة كلب .

قال الرئيس بلهجة قاسية :

ــ المتهم ! ... عليك أن تراقب ألفاظك .

وقال جريجورى متذمراً بدوره :

ـ أنا لست كلباً •

فهتف ميتيا يقول :

ـ اذن أنا الكلب • اذا كان اهانةً أن يكون المرء كلباً فانني أصف نفسي بهذه الصفة ، وأطلب منه الصفح والعفو • لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه • ومع ايزوب أيضاً •

فتدخل الرئيس قائلاً بقسوة :

ـ أي ايزوب تعني ؟ عمَّن تتكلم ؟

ـ أتكلم عن بييرو ••• أبي ••• أبي ••• فيدور بافلوفتش •

فأنَّب الرئيس ميتيـا وقرَّعـه ، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن ، وقال له :

ـ انك تسيء الى نفسك بنفسك في أذهان قضاتك •

وبتلك البراعة نفسها عرف المحامي كيف يعبث بالشـاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام ، والذي كان وكيل النيابة يعوِّل عليه كثيراً • لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء ، وأنه مطلع على الأمور اطلاعاً غريباً ، وأنه اختلف الى جميع الأشخاص ، وأنه رأى كل شيء ، وتحدث مع كل واحد ، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور بافلوفتش ، كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً • صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثـلاثة آلاف روبل ، لم يكن قد سمع شـيئاً عن هذا الأمر ، هو أيضاً ، الا من ميتيـا • ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في كاباريه « العاصمة الكبرى » وصفاً دقيقاً، ونقـل أقواله وذكر اشـاراته وحـركاته ، وروى حادثتـه مع الكابتن سنيجيريف • أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مديناً لميتيا ببعض

المال تصفيةً لحساب الميراث ، فان راكيتين نفسه لم يستطع أن يذكر شيئاً دقيقاً واضحاً ، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار : « من ذا الذى يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً فى حق الآخر ، وأنّى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما فى ظل هذا النظام المنزلى العجيب الذى تعيشه أسرة كارامازوف ، وفى ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً البتة ! » . لقد صوّر راكيتين الدرامة التى أدت الى الجريمة على أنها ثمرة عاداتنا وأخلاقنا المتخلفة ، وثمرة نظام القنانة ، وثمرة الفوضى التى تسيطر على بلادنا روسيا التى تعانى شقاء كبيراً وتفتقر الى أنظمة لا غنى لها عنها . خلاصة القول أنه سُمح لراكيتين أن يلقى خطاباً مسهباً . وبمناسبة هذه الدعوى انما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة . كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوى أن ينشر مقالاً عن القضية فى جريدة من الجرائد ، حتى لقد أورد فى مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الأفكار التى يعبر عنها ذلك المقال ، فكان اذن مطلعاً على مضمون المقال . كانت الصورة التى رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يخرج منها شعور يعزز « الاتهام » تعزيزاً قوياً . ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال ان العرض الذى قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأى وحرية التفكير ، وبما أكده من نبل العواطف وسمو المشاعر . حتى لقد سُمعت فى القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها ، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة ، وعن روسيا الشقية التى ترين عليها الفوضى . ولكن راكيتين ، الذى لم يكن الا شاباً على كل حال ، لم يستطع أن يتجنب خراقةً سرعان ما استغلها المحامى استغلالاً يدل على مقدرة فائقة فى انتهاز الفرص المناسبة . لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشنكا ، فاذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة

منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه ، ومنتشياً بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى اليه ، اذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجرافين الكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف» ، فسرعان ما استولى المحامي على هذه العبارة الشقية التي زلّ بها لسان راكيتين والتي أصبح راكيتين مستعداً بعد ذلك لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يسحبها . وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامي قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور .

قال المحامي حين جاء دوره لاستجواب الشاهد ، قال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة والاحترام .

ـ اسمح لي أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيباً عنوانه « سيرة الأب السعيد الشيخ زوسيما » ، وهو كتيب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة ، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة الى صاحب العظمة سيادة البطريق ؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخراً بكثير من الاهتمام .

تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزي :

ـ أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر ، وانما نشرت بعد ذلك دون علمي .

ـ ها ... عظيم !! ان مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر الى الأمور ، ازاء جميع جوانب الحياة الاجتماعية . وقد قُيِّض لكتيبك الممتاز ، بفضل حماية صاحب العظمة البطريق ، أن ينتشر انتشاراً واسعاً وأن يكون ذا فائدة ... ولكنني

أحب من جهتي ، دون أن أكون مسرفاً في الفضـول ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : لقد ذكرتَ منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (ليلاحظ القارىء أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة جروشـنكا هو سفيتلوفا • ولقد سـمعت هذا الاسم في هـذه المناسبة لأول مرة) •

هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

ـ لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتي بجميع من أعرف من النـاس ••• أنا شاب ••• ومن ذا الذي يتحمل تبعـة جميع ما يعرض له من لقاءات ؟

فهتف فيتوكوفتش هو أيضاً يقول متظاهراً بالخجل حريصـاً على المبادرة الى الاعتذار :

ـ طبعاً ، طبعاً ، مفهوم ! أنا أفهم هذا حق الفهم • انه لمن الطبيعي جداً أن تجتذبك ، كما تجتذب أيّ انســان آخر غيرك ، متعةُ امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل في بيتها زهرة شبان المدينة••• ولكنني ••• أريد أن توضح لي نقطة واحدة : نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شـهرين ، بكثير من الالحاح ، أن تتعرف الى الكسى فيدوروفتش ، أصغر الاخوة كارامازوف ، وأنها رجتك أن تجيئها به ، وأن تجيئها به مرتدياً ثوب الرهبان الذي يرتديه ، وقد وعدتك اذا أنت أفلحت في أن تجيئها به ، وعدتك بمكافأة مقدارها خمسـة وعشرون روبلاً • ونحن نعلم أنك لبيت طلبها ، وأن الزيارة تمت في تلك السـهرة نفسـها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى• لقد قدت ألكسى فيدوروفتش الى بيت السيدةسفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذى وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، هل هذا كله صحيح ؟ ذلك ما أحب أن توضحه لنا الآن •

ـ كانت تلك مزحة لا أكثر ••• ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر ••• وقد أخذت المبلغ من باب اللعب والعبث ••• وعلى نية ردّه اليها بعد ذلك •••

ـ ولكنك قبلت المبلغ ، ولم تردّه حتى الآن ••• أم تراك رددته ؟

تمتم راكيتين يقول :

ـ هذه سفاسف • وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع ••• طبيعى أننى سأرد هذا المال •

همّ الرئيس أن يتدخل فى تلك اللحظة ، ولكن المحامى أسرع يعلن نه لم يبق لديه سؤال اخر يلقيه على راكيتين • وانصرف راكيتين منكسراً مهزوماً • لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بانه انسان نبيل النفس، فسد هذا الشعور فساداً لا صلاح له بعده•••• وكأن فيتوكوفتش الذى لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له: « انظروا الى شهود الاتهام هؤلاء ، ما قيمتهم ! » وانى لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً فى هذه المناسبة أيضاً • فانه وقد احنقته اللهجة التى تكلم بها راكيتين عن جروشنكا ، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب : « برنار » ، وحين اتجه الرئيس ، بعد استجواب راكيتين ، حين اتجه الى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد ابداءها ، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل :

ـ لقد اقترض منى مالاً عدة مرات • هذا برنار حقير ، لا يؤمن بالله ، وقد ضلل صاحب العظمة البطريق وغرّر به •

طبيعى أن ميتيا قد أُمر من جديد بالتزام النظام ، واجتناب الألفاظ النابية ، ولكن السيد راكيتين كان قد فقد مهابته وتجلل بالخزى •

ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالى ، وهو الكابتن سنيجيريف،

أكبر من حظه مع الشـاهدين السـابقين ، ولكن لسبب آخر • لقد جاء سنيجيريف الى المحكمة مشعث الثيـاب وسخ الهيئـة موحّل الحذاءين ، وسرعان ما أدرك الناس أن المسـكين سكران سـكراً تاماً ، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم « تقرير الخبير » • فلما سئل عن الاهانة التى ألحقها به ميتيا رفض باصرار عنيد أن يجيب • وقال :

ـ سامحه الله • ان صغيرى ايليوشـا لا يريد هذا • سينصفنى الله فى الآخرة •

ـ من الذى لا يريد ؟ من يمنعك من الكلام ؟

ـ ايليوشـا ، ابنى الصـغير : « بابا ••• حبيبى بابا ••• ما أكثر ما أذلك ! » • هكذا كلمنى قرب الصخرة • وهو الآن يموت •

قال الكابتن ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً على حين فجأة ، وسجد أمام قدمى الرئيس • فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم ، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين •

واستمر المحامى يسـتعمل جميع أسـاليب فنه ، واستمر النـاس يدهشون مزيداً من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها• هكذا احدثت الشهادة التى أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً فى أول الأمر ، وكانت هذه الشـهادة تُدين ميتيا طبعـاً • من ذلك خاصـة أنه حسب ، قرشاً قرشاً ، النفقات التى أنفقها ميتيا أثناء رحلتـه الأولى الى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر ، فبيّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل ، أو ما يقرب من ذلك • ما أكثر ما رمى للغجريات من مال ! « أما فلاحونا المقمّلون فانه لم يكتف بأن ينفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبك بل

كان يوزع عليهم أوراقاً مالية لا تقل واحـدة منها عن خمسـة وعشرين روبلاً ! ناهيكم عما سُرق منه فى تلك الليلة !! ان اللصوص لم يتركوا بطاقات زيارة ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال أحد أن يبحث عنهم ويعثر عليهم بينما كان ميتيا نفسه يتلف المال اتلافاً ويبدده تبديداً . ان فلاحينا لصوص لا ضـمير لهم ولا وجدان . والبنـات ! بنات قريتنـا ! انه لم ينسهن ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين ، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة » . الخلاصـة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات ، وبدا أنه يجرى حساباً دقيقاً . وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق الا ألفاً وخمسمائة روبل ، وانه خاط باقى المبلغ فى كيس صغير ، بذلك يكون ذلك الافتراض مردوداً مرفوضاً . « رايت الثلاثة آلاف روبل بعينىّ ، ما أنا بمن يُخدع فى مثل هذه الأمور ! » . كذلك كان يصيح تريفون بوريستش ، وكان واضحاً أنه انما يفعل ذلك حباً بارضاء السـلطات ؛ ولكن حين جاء دور المحامى لالقـاء الأسئلة على الشاهد ، اكتفى المحامى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن فى شهادة صاحب الفندق ، قال : ان الحوذى تيموتى وفلاحاً آخر اسمه آكيم قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو فى حالة سكر ، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها تريفون بوريستش الذى كافأ كلاً منهما بروبل ، « فهل أرجعت المائة روبل هذه الى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها ؟ أجب ! » . فحـاول تريفون بوريستش أن يتملص من الجواب ، ولكنه بعد سـؤال الفلاحين اللذين عثراً بالورقة المالية ، اضطر أن يعترف بالواقعة ، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة الماليـة الى دمترى فيدوروفتش فوراً ، وأنه فعـل ذلك بدافع الأمانة والشرف ، ولكن المتهم كان قد بلغ منه السـكر كل مبلغ حينذاك ، فمن الجائز أن يكون قد نسى ان المال أعيد اليه فى حينه » .

ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل الى حين مثول الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على ارض الدهليز أصلاً ، فان ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت الى ميتيا الثمل ، أصبح مطعوناً فيه • هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعاً قوياً •

وكذلك كان شأن « السيدين » البولنديين • لقد أظهرا فى البداية كبرياءً وغروراً ، وأكد بصوت قوى انهما « خدما التاج » * بأمانة واخلاص وأن « السيد » ميتيا عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمناً لشرفهما ، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ فى يديه بأعينهما • وقد استعمل « السيد » موزيالوفكتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية فى جمله ، فلما لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته فى نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة ، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية • ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه : فرغم أن تريفون بوريستش ، الذى استدعى الى القاعة مرة أخرى ، قد حاول الانكار ، فانه اضطر أخيراً أن يعترف بأن « السيد » فروبلفسكى قد استبدل بورق اللعب الذى أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسةً ، وأن «السيد» موزيالوفكتش قد غش فى اللعب أثناء استلامه دور «البنك» • وقد جاءت أقوال كالجانوف الذى أدلى بشهادته بعد ذلك ، جاءت مؤيدةً لصحة هذه « التفاصيل » ، فخرج « السيدان » البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور •

وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين • فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية ، فانصرفوا وهم فى حالة يرثى لها • وقد أُعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامى هذه ، ولكنهم كانوا يتساءلون

ما الذى يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية ؟ ذلك لأنهم ـ أكرر هذا ـ كانوا يشعرون جميعاً بأن الاتهام قوى قوة لا تقاوم ولا تغالب ؛ ولأن الأدلة ضد المتهم كانت تتكاثر ويتراكم بعضها فوق بعض ، وما تنفك تزداد تهديداً باقتراب المتهم من الادانة مزيداً من الاقتراب . ومع ذلك كان الناس يدركون ، من ملاحظة الثقة البادية فى هيئة «المجوسى الكبير» ، أنه كان هادئاً مطمئناً ، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق . ليس عبثاً أن يزعج « مثل هذا الأستاذ » نفسه بالمجىء الى بلدتنا من سان بطرسبرج ، فما هو حتماً بالرجل الذى يرجع خائباً دون ثمرة يجنيها .

٣

الشهادة الطبية ورطل من بندق

كذلك لم يبد أن شهادة الطب تنفع المتهم • وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيراً عليها ، فيما يبدو ، كما ظهر ذلك من بعد • وانما عُمد الى استخدامها بسبب الحاح كاترين ايفانوفنا التى استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو • كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدام شهادة الطب شيئاً ، حتى لقد يجنى بعض النفع اذا واتت الظروف • على أن شهادة الطب هذه قد صحبتها مشاهد مضحكة جداً ، وذلك بسبب اختلاف الأطباء فى الرأى• كان الأطباء الذين عُيِّنوا خبراء للادلاء بآرائهم فى هذه القضية هم أولاً الاخصائى الشهير الذى استُقدم من موسكو ، ثم طبيبنا الطبيب الدكتور هرتسننشتوبه ، وأخيراً الطبيب الممارس الشاب فارفنسكى • على أن هذين الطبيبين الأخيرين قد مثَلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدَين أيضاً ، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك • فأما الخبير الأول الذى استدعى للادلاء برأيه فهو الدكتور هرتسننشتوبه • انه عجوز فى السبعين منَ عمره ، أشيب أصلع ، مربوع القامة قوى البنية ، كان الناس فى مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً • كانوا يعلمون أنه صاحب ذمة وضمير ، وأنه طيب القلب عالى الأخلاق • حتى لقد كانوا يزعمون أنه ينتمى الى ملة دينية هى ملة « الاخوان

المورافين » * اذا لم يخطىء ظنى • وهو يقيم فى مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة • وكان رجلاً انسانياً كريماً ، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجاناً ، ويعـودهم فى أكواخهم ويترك لهم مالاً لشراء الأدوية • ولكنه كان فى الوقت نفسه عنيداً عناد بغـل • كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأى قلم فى ذهنه • ومهما يكن من أمر ، فلقد كان جميع النـاس يعلمون ان الاخصـائى الشـهير الآتى من موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى قضـاها فى مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن فى كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطبيـة طعناً بالغاً جارحاً • ورغم أن هذا الاخصائى قد تقاضى خمسـة وعشرين روبلاً على الأقل عن كل كشف طبى أجـراه ، فمـا كان أكثر الذين ابتهجوا فى مدينتنا لقدومه ، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشـارته غير ضانين بالمال • وطبيعى أن جميع هـؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتـور هرتسنشتوبه قبل ذلك ، فكان الاخصائى الشهير ينتقد المعالجة التى وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً ، حتى لقد صار آخر الأمر يبـادر المرضى الوافدين اليه بهذا السـؤال : « هيـه ! أليس الدكتور هرتسنشتوبه هو الذى صيـرك الى هذه الحال ؟ قه قه قه !•••» وقد أنبىء الدكتور هرتسنشـتوبه طبعاً بما كان يقـوله عنه هذا الطبيب الاخصائى • وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد واحد كخبراء ! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعـةً واحـدة ان « المتهم لا يملك كامل قواه العقليـة ، وأن هذا يُرى من أول نظرة » • وحين بسط آراءه فى هذا الموضوع (وهى آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول ان الشذوذ النفسى الذى يعانى منه المتهم يتجلى لا فى طائفـة كبيرة من الأعمال التى سبق أن ارتكبها فحسب ، بل يمكن أن يلاحظ أيضاً ـ وهذا أهم ـ فى سلوكه فى جلسة المحاكمة هذه نفسها• فلما طلب الى الدكتور

هرتسننشتوبه أن يقـول أين هو الشـذوذ في وضع المتهم الآن ، أجاب الطبيب العجوز قائلاً بالسذاجة المعهودة فيه ان المتهم حين دخل القـاعة « كان يمشى مشية غريبة لا تلائم الظروف التى هو فيهـا ، فهو يسـير قدماً لا يلوى على شيء ، كما يسير جندى ، وهو يحدّق بعينيه تحديقا ثابتاً لا ينظر يمنةً ولا يسرة ، مع أن الشيء الطبيعى السوى بالنسبة اليه هو أن ينظر يسرةً ، حيث توجد النساء من الحضور ، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حبا عظيما ، فلابد أن يقيم وزنا كبيرا لرأى السيدات ، لما عسى أن يكون رأى السيدات فيه حينذاك » • وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغـة أصيلة خاصـة به • يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغـة الروسـية بانطلاق وتدفق ، ولكن كل جمـلة من جمله كان فيها شيء ألمانى لا أدرى ما هو ، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة ، لأنه تعود طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقاناً كاملاً ، وأن روسيته « خير من روسية الروس أنفسهم » • وكان يحب كثيراً أن يروى أمثالاً روسية ، وكان يؤكد فى كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب• يجب أن أضيف الى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث ـ عن ذهـول فى أغلب الظن ـ أن ينسى ألفـاظاً هى أكثر الألفـاظ استعمالاً ، ألفاظاً يعرفها حتماً ، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة• على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضـاً • وهو فى اللحظات التى يحدث له فيها ذلك ، يأخذ يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التى طارت ، وما من أحـدٍ يسـتطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدى الى اللفظة الضائعة •

أثارت الملاحظة التى ذكرها عن المتهم حين قال انه كان عليه أن ينظر الى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة ، أثارت هذه الملاحظة فى جمهور الحضور دمدمات ضاحكة • لقد كان العجوز يؤثر النساء على

الرجال • وكانت النساء تعرف أنه ـ على كونه عازباً ـ قد عاش طوال حياته عفاً طاهراً ، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية • ولذلك بدت ملاحظته هذه التى لم تكن تُتوقع منه ، بدت لجميع النـاس مثيرةً للدهشة والاستغراب •

وجاء دور سؤال الاخصائى القادم من موسـكو ، فصرّح بلهجة قاطعة والحاح حاسم ان حالة المتهم العقلية هى فى رأيه حالة غير سويه ، بل هى « غير سوية الى أقصى حد » • وتكلم فى اسهاب وتفقه عن مرض «الحصار» وعن مرض «المانيا» ، وبرهن بالاستناد الى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبلاعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة حصار ؛ فاذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعراً بما يفعل ، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير ارادة تقريباً ، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضى الذى كان قد سيطر عليه واسـتبد به • كذلك قال الاخصـائى شـارحاً • ثم أضاف يقول : على أن المريض كان مصـاباً ، عدا مرض الحصار ، بداء « المانيا » ، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدى به الى الجنون الكامل (ملاحظة: اننى أنقل هنا بلغتى أنا ، أقوال ذلك الطبيبالاخصائى فى الأمراض العقليـة الذى اسـتعمل عندئذ لغة تكنيكيـة فيها كثير من التفقـه) • وتابع الطبيب كلامه فقـال : « لقـد كان يتصرف فى جميع الأحـوال تصرفاً يخالف العقل والمنطق • لن أقول شـيئاً عمـا لم أره بنفسى ، أعنى الجريمة وتلك الدرامة كلها ؛ ولكن يجب علىّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته ، أمس الأول ، أثنـاء حديث جـرى بينى وبينـه ، كان فيها جمود غريب ليس له تفسير • يضاف الى هذا أنه كان يضحك بدون أى سبب يدعو الى الضحك • وقد لاحظت لديه حنقاً مستمراً غير مفهـوم ، كما لاحظت أنه يسـتعمل كلمـات غريبـة مثل « برنار » ، « ايطيقا » ، وغير ذلك من الفـاظ لا محل لهـا اطلاقاً » • على أن أبرز

شيء يتميز به مرض « المانيا » لدى المتهم ، فى نظر الطبيب ، هو أن المتهم كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التى يعتقد أن أباه حرمه منها ، والا يُصاب بحالة شـديدة من الاندفاع ، بينما يكون قبل ذلك هادئاً كل الهدوء أثناء كلامه عن اخفاقات أخرى أو اهانات أخرى تحملها أثناء حياته وهو يتذكرها الآن دون أى اضطراب ظاهر . هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه كلما ذُكرت هذه الثلاثة آلاف روبل ، رغم أنه ، على ما يشـهد به الشهود ، لا يعد متهافتاً على المنفعـة ولا يعد طمـاعاً . ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتمـاً كلامه : « أما عن رأى زميلى العالم الذى يذهب الى أن المتهم كان ينبغى له عند دخوله القاعة أن ينظر الى جهة السيدات لا أن ينظر الى أمام ، فاننى أعتقد أن من واجبى أن أؤكد ، بصرف النظر عما تتسم به هـذه الملاحظة من طابع الملاحـة الفكهة ، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش . فاننى على موافقتى لرأى زميلى المحترم فى أن المتهم ما كان ينبغى له أن ينظر الى أمام ، أثناء دخوله قاعة المحكمة التى سيتقرر فيها مصـيره ، وعلى موافقتى لرأى زميلى المحترم فى أن فعلة المتهم هـذه يجب ان تعد عرضاً من اعراض حالتـه العقليـة المختلة ، أقول اننى من جهتى أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً الى جهة السيدات ، بل أن ينظر يمنةً الى جهة محاميه باحثاً عنه فى تلك اللحظة بعينيه ، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد ، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامى . » . أعرب الطبيب الاخصائى عن رأيه هذا بلهجة قاطعة جازمة لا تُرد . غير أن الخلاف المضحك الذى قام بين الأطباء الخبراء انما وصـل الى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور الدكتور فارفنسكى الذى سئل عن رأيه آخرَ من سـئل من الأطبـاء ، فأخذ يدلى بآرائه ويقدم شروحه . قال هذا الطبيب ان المتهم هو ، الآن

وفى الماضى على السواء ، رجلٌ حالته النفسية سليمة كل السلامة ؟ ولئن كان قبل اعتقاله فى حالة عصبية ، وكان مضطرباً اضطراباً شديداً ، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً ، كالغيرة ، والغضب ، والاسراف المستمر فى الشراب وما الى ذلك . فهذه العصبية ليس فيها أى شىء من الاختلالات التى تنتمى الى مرض «الحصار» الذى جىء على ذكره ؟ أما فيما يتعلق بالمسألة التى أثيرت حول الجهة التى كان ينبغى للمتهم أن ينظر اليها لحظة دخل القاعة ، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم « بحسب رأيه المتواضع » أن ينظر الى أمام ، كما فعل تماماً ، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها ، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره ، كانوا قبالته فى تلك اللحظة . « وهو ، اذ نظر الى أمام فعلاً ، قد برهن على أنه فى حالة نفسية سليمة بريئة من المرض » . بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب « رأيه » المتواضع .

فصرخ ميتيا من مكانه يقول :

ـ مرحى يا حكيم ! هذا صحيح كل الصحة !

وأُسكت ميتيا طبعاً ، ولكن رأى الطبيب الشاب أحدث أثراً حاسماً فى أعضاء المحكمة وفى جمهرة الحضور على السواء ، لأن جميع الناس فى مدينتنا قد انحازوا الى رأيه ، كما ظهر ذلك فيما بعد. ثم ان الدكتور هرتسنشتوبه ، حين استُجوب كشاهد ، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة . ان الدكتور هرتسنشتوبه ، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل ، قدّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً ، ولكنه أضاف يقول وكأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة :

ـ ومع ذلك فان هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل ، لأنه كان فى طفولته طيب القلب ، وكان طيب القلب بعد ذلك

أيضاً ، أنا أعرف هذا • على أن هناك مثلاً روسياً يقول : « حسن أن يكون المرء ذا عقل ، ولكنْ أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل ، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد ••• » •

ــ تريد أن تقول ان فى اتحاد العقول قوة لها •••

كذلك تدخل الرئيس متململاً وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز فى بطء الكلام وجرّ الألفاظ دون أن يعبأ بأثر ذلك فى مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء اليه (حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة ، ويستعملها مبتهجاً ابتهاجاً واضحاً • وكان الى ذلك يحب الأقوال الحلوة حباً عظيماً) •

استأنف الطبيب العجوز كلامه فقال معانداً :

ــ نعم ، ذلك هو ما قلته • عقلان اثنان خير من عقل واحد• ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر ، فمضى عقله هو ••• مضى يـ ••• مضى يعمل ماذا ؟ ••• نسيت الكلمة ••• الكلمة التى تعبِّر عما مضى يعمله عقله • نسيت تلك الكلمة (كذلك ردّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آ ••• نعم ••• تذكرت ••• مضى عقله يتنزه •

ــ مضى عقله يتنزه ؟

ــ نعم يتنزه • ذلك ما قلته أيضاً • مضى عقله يتنزه ، فوصل الى مكان بعيد تائه لايستطيع فيه أن يهتدى الى نفسه ويجد ذاته• ولكنه كان فتى نبلاً حساساً • أوه ••• اننى أتذكره يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجرى فى فناء المنزل حافى القدمين لا يكاد يمسك سرواله الا زر واحد •••

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق • فارتعش فيتوكوفتش اذ أوجس مواتاة الفرصة الحسنة ، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد •

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال :

ـ نعم ، نعم ، كنت ما أزال شاباً في ذلك الوقت ... كان عمري ... نعم ... كان عمري خمسة وثلاثين عاماً . وكنت قد استقررت في هذه المدينة منذ فترة قصيرة . لقد أشفقت على الصبي وتساءلت : « لماذا لا أشتري له رطلاً من ... » نعم ، رطلاً من ... ولكن رطلاً مماذا ؟ نسيت الكلمة ... ما اسم ذلك النوع ؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيراً ... هوه ! كيف نسيت ؟ ... كيف نسيت ؟ ... (وحرّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد) ... هو ينبت على الأشجار ، على الشجيرات فيقطف ويوزّع على الجميع ...

ـ من تفاح ، ربما ؟

ـ أوه ! لا ، لا ! رطلاً ، قلت رطلاً . التفاح يباع بالدسته لا بالرطل ... عجيب !... هو وافر جداً ، وهو صغير ... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق ...

ـ بندق ؟

ـ نعم ، بندق ، ذلك بعينه ما قلته أنا ...

كذلك وصل الطبيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئاً كل الهدوء ، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة ، فتابع يقول :

ـ جئت الصبي برطل من البندق ، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشيء منه قبل ذلك . رفعت اصبعي وقلت له : « اسمع أيها الصبي الصغير العزيز ، باسم الاله الأب ... » فضحك وردّد : « باسم الاله الأب » ، فقلت : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فردّد ضاحكاً مزقزقاً من جديد : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن » ، فقلت :

« باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القـدس » ، فضحك وطفق يردد عدة مرات « باسم الاله روح القدس » * • ثم انصرفت • ومررت قرب الصبى غداة غدٍ • فصرخ يقـول : « سـيدى ! باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ! » ولكنـه نسى روح القـدس • فذكرته بها ، ورثيت لحاله وأشـفقت عليه من جديد • ولكنهم نقلوه من هذه المدينـة فلم أره بعد ذلك • وانقضت ثلاثة وعشرون عاماً ، ففيما أنا فى عيادتى ذات صباح ، وكان شعرى قد ابيضّ ، اذا بى أرى شاباً مزهر الوجه زاهى المحيا يدخل علىّ • ما كان لى أن أعرف من هو هذا الشاب • وها هو ذا يرفع يده ويقول : « باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس • لقد وصلت الى هذه المدينة منذ قليل ، وأحب أن أشكر لك رطل البندق الذى أهديته الىّ فى الماضى • ما كان أحدٌ قد أهدى الىّ شيئاً منه قبلئذٍ • أنت وحدك أهديت الى رطلاً من بندق » • تذكرت عندئذ شبابى الغابر السعيد ، وتذكرت الصبى الصغير الذى كان يجرى فى فنـاء الدار حافى القدمين • وتأثر قلبى فقلت له : « أنت شاب نبيل النفس كريم القلب ، لأنك لم تنس رطل البندق الذى جئتـك به فى طفولتك » • وقبّلته ، وباركته باكيـاً • فكان يضحك ، ويبكى أيضـاً ••• ان الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء • ولكنـه بكى ، أنا متـأكد من ذلك ، رأيته يبكى • والآن ••• واحسرتاه ! هو ذا •••

صاح ميتيا من مكانه يقول :

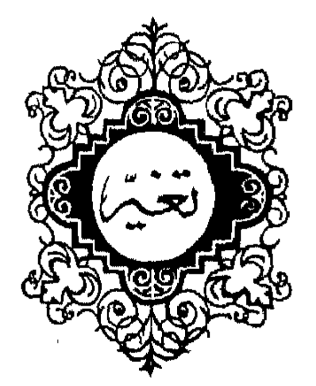
ـ والآن أبكى أيها الألمانى الشهم ! نعم أبكى••• أنت انسان شهم•

مهما يكن من أمر ، فان هذه القصة الصغيرة قد أحدثت فى الحضور

أثراً طيباً • غير أن الأقوال التى أدلت بها كاترين ايفانوفنا والتى سأتحدث عنها بعد قليل ، هى التى خدمت قضية ميتيا خاصة • وفى وسعنا أن نقول على وجه العموم ان الحظ أخذ يبتسم فعلاً لميتيا منذ بدأ توافد شهود النفى ، لأسباب لم يكن يتوقعها المحامى نفسه ، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أى شىء آخر • على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترين ايفانوفنا• وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعة يبدو أنها يمكن أن تكون برهاناً وضعياً يفيد ميتيا ، ويدمّر نقطة من أهم النقاط التى يرتكز عليها الاتهام •

٤

الحظ يبتسم لميتيا



الحظ كأنما بمصادفة ، دون أن يكون أليوشا قد سعى الى هذه النتيجة . لم يُحلَّف أليوشا اليمين . وانى لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الاولى من شهادته . ولعل القارىء يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته الى قاعة المحكمة . تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البائس من عاطفة حارة قد تدفق فى أقواله . قال فى الجواب عن سؤال ألقى عليه ان أخاه ان يكن عنيفاً شديد الاندفاع فى أهوائه ، فانه فى الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخى جواد قادر على التضحية حين تجب التضحية . ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروشنكا ، وتنافسه مع أبيه ، قد جعلاه فى الأيام الأخيرة صعب المراس ، ووضعاه فى حالة لا تطاق . وفى مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديداً من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع فى المال ، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولَّدت فى نفس ميتيا شيئاً يشبه أن يكون مساً ، فهو دائب التفكير فيها ، وهو يعدها جزءاً من ميراثه الذى حرمه أبوه منه زوراً واختلاساً ، وهو على كونه زاهداً فى الربح قليل الاهتمام بالمنفعة ، لا يستطيع أن

يتكلم فى أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به حنق شديد وغضب ملتهب • أما التنافس الذى أشار اليه وكيل النيابة بين «المرأتين» ، أى بين جروشنكا وكاترين ايفانوفنا ، فقد تكلم عنه أليوشا متهرباً متملصاً ، ورفض أن يجيب عن بعض النقاط •

سأله وكيل النيابة :

ـ ألم يذكر لك أخوك ، على الأقل ، أنه كان ينوى أن يقتل أباه ؟

ثم أضاف :

ـ تستطيع الامتناع عن الاجابة اذا كنت تؤثر الامتناع •

قال أليوشا :

ـ لم يقل لى ذلك على نحو مباشر •

ـ أقاله اذن على نحو غير مباشر ؟ كيف قاله ؟

ـ حدثنى عن الكره الذى يحمله لأبينا ، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمسك عن قتله ••• ذات يوم ••• فى لحظة اندفاع شديد ••• اذا استبد به تقزز لا سبيل الى التغلب عليه •

ـ هل صدّقته حين سمعته يقول هذا الكلام ؟

ـ لا أجرؤ أن اقول اننى صدقته • ولكننى كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه فى اللحظة الحاسمة ، وقد انقذته فعلاً لأنه ليس هو الذى قتل أبى •

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوى ترجّع الى آخر القاعة•

ارتعش وكيل النيابة كحصان فى ساحة القتال سمع صوت البوق ؛ وقال :

ـ ثق اننى مقتنع بصدقك ، واننى لا أنسب اقتناعك هذا الى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب . وقد اطلعنا من التحقيق الأولى على نظرتك الخاصة الى الأحداث المفجعة التى جرت فى أسرتك ؛ ولكننى لا أكتمك أن رأيك يبدو لنا غريباً الى أبعد حدود الغرابة ، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التى جمعها الاتهام . ذلك هو السبب فى اننى أرى من واجبى أن أطلب اليك ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذى تبنى عليك رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك برىء ، وحين تسند هذه الجريمة الى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو غير مباشر فى التحقيق التمهيدى .

قال أليوشا بصوت هادىء عذب :

ـ فى التحقيق التمهيدى ، اقتصرتُ على الاجابة عن الأسئلة التى أُلقيت علىّ ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسى .

ـ ولكنك أسميته ، أليس كذلك ؟

ـ ذكرتُه مستنداً الى أقوال دمترى . لقد ذُكر لى ، قبل ذلك الاستجواب ، ما قد حدث عند اعتقال أخى ، وقيل لى ان أخى اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك . اننى مقتنع اقتناعاً كاملاً ببراءة أخى . واذا لم يكن هو القاتل ، فقد لا يكون القاتل الا ...

ـ الا سمردياكوف ؟ لماذا سمردياكوف بالذات ؟ وما الذى يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك ؟

ـ لا أملك أن أشك فى صدق أقواله . أنا أعلم أنه لن يكذبنى بحال من الأحوال . ثم اننى رأيت فى عينيه أنه كان يقول الحقيقة .

ـ فى عينيه فقط ؟ أليس لديك براهين أخرى ؟

ـ ليس لدىّ براهين أخرى .

ـ وبالنسبة الى اتهام سمردياكوف ، أليس عندك من البراهين أيضاً الا أقوال أخيك وتعبير وجهه ؟

ـ لا ، ليس لدىَّ براهين أخرى .

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار فى استجواب أليوشا . وقد أثارت أجوبة أليوشا كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور . كان الناس فى مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة . وكان هناك أشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور ، قد ألقوا فى روع الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجانى . فاذا بكل شىء يتبدد الآن . ان أليوشا لم يأت بأى عنصر حاسم ، ولم يجىء الا باقتناع نفسى وهو أمر طبيعى عند أخى المتهم .

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد . بدأ المحامى بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله ، وهل أفضى اليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة ؟.

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال ، اذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما فى تلك اللحظة نفسها .

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش ، كأن فكرة مفاجئة قد ومضت فى ذهنه ، كيف أن أخاه ، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة فى المساء ، قد لطم صدره عدة مرات ، قد لطم «أعلى صدره» عدة مرات ، مردداً بالحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه ؟ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا ، فى هذا الموضع ، على الصدر ... « ظننتُ عندئذ أنه حين لطم صدره على ذلك النحو كان يشير الى قلبه » . قدَّرت أنه كان يرى أن قلبه يملك من القوة ما يكفيه لاتقاء عارٍ رهيب يهدده ،

عار لا يجرؤ أن يعترف لى به • أعترف أننى افترضت أنه كان يُلمع الى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل والخزى من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف • ولكننى أتذكر الآن أنه انما كان يشير الى شيء ما على صدره ، حتى اننى خطر ببالى فى تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه ، فانما يوجد القلب تحت ذلك ، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب ؛ كان يلطم هنا ، تحت العنق ، ويظل يشير الى ذلك الموضع نفسه دائماً • لقد بدا لى هذا غباء حينذاك فلم أعبأ به ، ولكننى أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لى الى الكيس الصغير الذى خاطه على الألف وخمسمائة روبل ؟ ••• »

صاح ميتيا من مكانه يقول :

ــ هو ذاك تماماً ! لقد حزرتَ يا أليوشا • هو ذاك • كنتُ ألطم الكيس الصغير فى تلك اللحظة •

أسرع فيتوكوفتش يهدىء ميتيا متوسلاً اليه أن يسكن ويطمئن ؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع الى شهادته متشبثاً بها تشبثاً قوياً •

تحمس أليوشا لذكراه هذه ، فعرض فكرته بحرارة ، قائلاً ان العار الذى حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا ، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل ، أى نصف المبلغ الذى يدين به لكاترين ايفانوفنا ، ورغم أن فى وسعه أن يردّ اليها هذا الجزء من دينها عليه ، قد آثر أن لا يرد المبلغ ، وذلك ليستخدمه فى غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنكا متى وافقت جروشنكا على أن تتبعه •

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة :

ـ نعم نعم ، هو ذاك ، هو ذاك . لقد ذكر لى أخى فى ذلك المساء أن فى وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار ، نعم من نصفه ، نصفه ، لقد قال لى ذلك (ردّد أليوشا كلمة « نصفه » مراراً) ، ولكن ضعف ارادته يمنعه من الاقدام ... كان يعلم مقدما أنه لن يستطيع الاقدام ، أنه لا يملك القوة اللازمة لذلك !

سأله فيتوكوفتش بنهم :

ـ أنت تتذكر تذكراً واضحاً جلياً أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً ؟

ـ أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جلياً ، لأننى تساءلت عندئذ : « لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالى مع ان القلب يقع تحت هذا الموضع ؟ » . وأتذكر أن هذا التساؤل بدا لى غبياً ... أتذكر ذلك تذكرا واضحا جداً . كان هذا خاطرا خاطفاً ومض فى ذهنى ومضا . وبسبب ذلك التساؤل انما تذكرت الآن هذه الواقعة . واننى لأتساءل كيف أمكن أن أنساها حتى الآن ؟ واضح أنه كان يشير عندئذ الى الكيس الصغير برهاناً على أن فى وسعه أن يردّ الألف وخمسمائة روبل ، ولكنه لن يفعل . وبعد ذلك ، حين قُبض عليه فى موكرويه ، صرخ يقول ـ أنا أعلم هذا فقد ذُكر لى ـ صرخ يقول انه يرى أن أكبر عار فى حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردّ الى كاترين ايفانوفنا نصف دينها (نعم ، ذكر كلمة النصف) ،فلا يكون فى نظرها بعد ذلك لصاً ، لم يعزم أمره على ردّ المبلغ ، مؤثراً أن يُعدّ لصاً فى نظرها على أن يتنازل عن المال . ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا المال ! أوه ! ما أشدّ ما كان يعذبه !

بهذا ختم أليوشا كلامه .

وقد تدخل وكيل النيابة طبعاً ، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً الى شيءٍ موجود على صدره حين لطم صدره . لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضباً ؟

هتف أليوشا يقول :

ـ لا ، لا ، انه لم يضرب صدره بقبضة يده . وانما كان يشير الى الموضع بأصابعه ، بأصابعه ، وكان يريني الموضع ، هنا ، فوق ، عالياً جداً ... كيف أمكن أن أنسى هذا ، وأن لا أتذكره الا في هذه اللحظة ؟

عندئذ سأل الرئيس ميتيا هل لديه ملاحظات يبديها في أمر هذه الشهادة ، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، وأنه قد أشار بيده الى الألف وخمسمائة روبل التي كان يحملها معلقةً في صدره ، تحت الرقبة بقليل . وصرحّ بأن هذا كان في نظره هو العار . وهتف يقول : « ذلك عار لا يخطر ببالي أن أنكره ، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي ! كان في امكاني أن أردّ المال ، ولكنني لم أفعل ، آثرت أن تعدني لصاً ، ولم أرجع المال . وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدماً أنني لن أردّ المال . صدق أليوشا . شكراً يا أليوشا ! » .

هنا انتهى استجواب أليوشا . ان أهمّ وأبلغ عنصر في شهادة أليوشا هو أنه اكتُشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو شبه برهان ، ولو بداية برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمائة روبل التي يضمها . فمن المحتمل اذن أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء

التحقيق الأولى حين صرخ ، فى موكرويه ، أن هذه الألف وخمسمائة روبل « هى له » .

شعر أليوشا بسعادة . ومضى يجلس فى المكان الذى دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال ، ولبث بضع دقائق يدمدم بصوت خافت : « كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة ؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسى ؟ ما أغرب أن لا أتذكرها الا الآن ! » .

ودُعيت كاترين ايفانوفنا الى الادلاء بشهادتها بعد أليوشا . فلما ظهرت فى القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوى . فالسيدات وجهن نحوها نظاراتهن ، والرجال اضطربوا فى أماكنهم ؛ ونهض بعض الحضور ليحسنوا النظر اليها ، وليجيدوا رؤيتها . وقد رُوى فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه فى تلك اللحظة فجأة ، وشحب شحوباً شديداً .

كانت ملابس كاترين ايفانوفنا سوداء كلها ؛ وتقدمت الى المكان الذى دُلَّت عليه ، تقدمت بتواضع وبما يشبه الخجل . ظلت قسمات وجهها هادئة ساكنة ، فلا شىء مما تشعر به قد ظهر للعيان . غير أن عزيمةً لا تنثنى كانت تسطع فى عينيها الدكناوين المهيبتين . وقد أكدَّ أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جمالاً خاصاً فى تلك اللحظة . كانت تتكلم بصوت خافت ، ولكنه صوت واضح متميز ، فكان الناس يسمعونها فى آخر القاعة . وكانت تتحدث هادئة ، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة . استجوبها الرئيس بكثير من التأنى وأظهر لها كثيراً من المداراة ، كأنه كان يخشى أن يمس « أوتاراً معينة » ، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة ، وبلية كبيرة . ولكن كاترين ايفانوفنا أسرعت تؤكد بقوة ، منذ البداية ، جواباً عن سؤال أُلقى عليها ، أنها كانت خطيبة المتهم « الى اللحظة التى هجرنى فيها

من تلقاء نفسه » (كذلك أضافت تقول) • فلما سئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت الى ميتيا أن يرسلها الى قريباتها بالبريد ، أجابت بحزم وثبات قائلة : « أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فورا • لقد أدركت أنه كان في حاجة ماسة الى المال ••• في ذلك الأوان ••• فأعطيته تلك الثلاثة آلاف روبل ورجوته أن يرسلها في غضون شهر اذا شاء • ولقد أخطأ اذن حين عذّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا المبلغ ••• » •

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسـئلة التي أُلقيت عليها ، وجميع الأجوبة التي أجابت بها ، وانما سأقتصر على اجمال الأمور الأساسية في شهادتها • واصلت كاترين ايفانوفنا كلامها فقالت :

ــ كنت مقتنعةً اقتناعاً جازماً بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه • أنا لم يساورني أي شك في نزاهته وأمانته يوماً ••• لم يساورني أي شك في شدة نزاهته وفرط أمانته•• في شئون المال ••• لقد كان واثقاً ثقة مطلقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثـلاثة آلاف روبل ، وقد حدثني في ذلك مراراً وتـكراراً • كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات ، وكنت مقتنعةً وما أزال أن اباه قد حـرمه من حقـه • على أنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه • بحضوري على الأقل لم يتكلم بهذه الطريقة مرةً واحدة • انني لم أسمعه يهدّد ويتوعد في يوم من الأيام • ولو قد جاءني في تلك الآونة اذن لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مديناً بها لي • ولكنه لم يعد الي منذ ذلك الحين ••• ورأيتني أنا نفسي في وضعٍ لا يمكنني من أن أبادر الى استدعائه •

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوّت في صوتها عندئذ نبرة قوية :

ــ ثم انني ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضـــوع هذا الدين • فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغاً أكبر

كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل ، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم اننى لم أكن أستطيع أن أتنبأ فى ذلك الحين أننى سأصبح فى يوم من الأيام قادرة على أن أردّه اليه ...

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وقد ألمت بصوتها نبرة حسرة وأسف ولوعة . وفى تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته .

قال فيتوكوفتش بحذر المحامى ، وهو يوجس مقدماً الفائدة التى سيجنيها من هذه الشهادة :

ـ لم يحدث ذلك فى هذه المدينة ، اذا صدق فهمى ، وانما حدث فى بداية علاقاتكما ، أليس كذلك ؟ (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلى : رغم أن المحامى قد استدعى من بطرسبرج بمبادرة كاترين ايفانوفنا تقريباً ، فلقد كان يجهل كل شىء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التى أعطاها ميتيا للمرأة الشابة فى المدينة التى كانت ترابط فيها كتيبته ، وكان يجهل كل شىء عن « التحية الساجدة » التى حيّاها بها عندئذ . ان كاترين ايفانوفنا لم تحدث المحامى عن هذا الأمر ، واعتقدت أن من واجبها أن تخفى عنه تلك الوقائع حتى ذلك الحين . وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً . ولكن من الممكن أن نقدّر مع ذلك أنها كانت هى نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن وقائع تلك الفترة أم لا تكشف عنها ، وأنها كانت تنتظر نوعاً من الالهام أو ضرباً من الوحى لتعزم أمرها وتتخذ قرارها) .

لا ، لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر ! لقد بدأت كاترين ايفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شىء ، كشفت عن جميع التفاصيل التى أفضى بها ميتيا الى أخيه أليوشا بصدد « التحية الساجدة » والأسباب والدوافع التى قادت خطاها ، والحالة التى كان

عليها أبوها ، ومجيئها الى بيت ميتيا • ولكنها في مقابل ذلك ، لم تذكر أن ميتيا كان قد أوحى الى أختها بأن ترسل اليه كاترين ايفانوفنا لتأخذ المال • • » • لم تقل عن هذا كلمةً واحدة ، وصمتت صمتاً كريماً عن سلوك ميتيا نحوها قبل ذلك • لم تخجل أن تؤكد أنها هي التي هرعت من تلقاء نفسها الى بيت ضابط شاب آملةً لا أدرى ماذا ••• للحصول منه على مال • كانت تلك لحظات رهيبة • شعرتُ ببرد يسرى فى ظهرى وأخذت أرتعش وأنا أصغى الى كلام كاترين ايفانوفنا • وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شرباً • كان فى وضع هذه المرأة الشـــابة شىء لا عهد لأحد بمثله من قبل ، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسـلط والازدراء ، أن تدلى بشـهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة ، تضحيةً وفداءً • ولماذا تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل من تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل انقاذ رجلٍ خانها وأهانها ، فى سبيل أن تساهم فى انقاذه على قدر طاقتها الضعيفة ، وذلك بأن ترسم له صـورة جميلة تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً حسناً • وذلك ما حدث فعلاً : فان الصورةَ التى رسمتها ، صورةَ ضابط يهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها ــ أى كل ما تبقى له من ثروة ــ يهبها لفتاة بريئة ثم ينحنى لها احتراماً الى درجة السجود ، أقول ان هذه الصورة قد أعجبت الجميـع وفتنتهم ! وقد أحســست عندئذ أنها بذلك تعرّض نفسها للأقاويل والنمـائم ، وأن تخرصات كثيرة ستسعى بين النـاس فى حقها • وذلك ما حـدث كما لعلكم تتوقعون • فقـد أخذ أهل مدينتنا يومئون فى أحاديثهم بعد ذلك ، وهم يبتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة ، الى أن القصة التى روتها المرأة الشـــابة لم تكن كاملة جداً ، ولا سيما فى الموضع الذى يتضمن أن الضابط تركها تنصرف « مكتفياً » ــ

فيما ادعت ــ بأن حيّاها ساجداً » • فأغلب الظن أنها « أسقطت » هنا جزءاً مما جرى • وقالت السيدات المحترمات فى مجتمع مدينتنا : « هبها لم تُسقط من القصة شيئاً ، هبها قالت الحقيقة كلها كاملة ، فان هذا لا يمنع من التساؤل : هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك ، ولو لانقاذ أبيها ؟ » • كيف يمكن أن يصدّق المرء أن كاترين ايفانوفنا ، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة ، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس فى حقها ؟ لا شك فى أنها تنبأت بذلك حتماً ، ومع ذلك قررت أن تقول كل شىء ! وطبيعى أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد الا فيما بعد• أما أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا بشهادتها فان جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوى حاد • فأعضاء المحكمة أصغوا الى كلام كاترين ايفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون • ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بالقاء أى سؤال فى هذا الشأن • وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها انحناء شديداً • أوه ! انتصر المحامى ! ان هذه الشهادة رصيد كبير له : هل يتصور عقل أن الرجل الذى وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها ، فى وثبة كريمة من قلبه ، هل يتصور عقل أن يكون من الممكن أن يقتل هذا الرجل أباه ، ليلاً ، فى سبيل أن يجرّده من ثلاثة آلاف روبل ؟ ان فى سلوك كهذا السلوك لتناقضاً لا سبيل الى فهمه • وأحسّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة فى أقل تقدير • لقد اكتسبت « القضية » وجهاً جديداً ، وظهر ميتيا على حين فجأة انساناً محبباً • أما عن سلوكه هو أثناء ادلاء كاترين ايفانوفنا من كلامها فقد هتف يسألها بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه :

ــ كاتيا ، لماذا سببت هلاكى ؟

ثم أخذ ينتحب انتحاباً قوياً جداً ، لكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه ، وصاح يقول :

ـ الآن ضعت !

ثم سكن جامداً ، كازاً أسنانه ، مصالباً ذراعيه على صدره . وطُلب من كاترين ايفانوفنا أن تبقى فى القاعة ، فجلست على الكرسى الذى عُيِّن لها . كانت شاحبة اللون غاضة طرفها . وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل جسمها ، كأن بها حمّى . واستُدعى الشاهد التالى ، جروشنكا .

اننى اقترب هنا من لحظة الكارثة التى سقطت على ميتيا فجأة ، وكانت سبب ضياعه فعلاً ، فيما يبدو . وأنا من جهتى مقتنع بأنه لولا ذلك الحادث الذى وقع ـ وذلك رأى يشاركنى فيه الجميع ، ويشاركنى فيه رجال القانون خاصة ـ لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخففة على الأقل . سأعود الى ذكر هذا الحادث بعد قليل ، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشنكا أولاً .

لقد دخلت جروشنكا ، هى أيضاً ، بثياب سوداء ، واضعةً شالها الأسود الرائع على كتفيها . تقدمت الى المكان الذى يقف فيه الشاهد ماشيةً مشيتها الصامتة الرفيقة الهادئة ، مع شىء من ذلك الاهتزاز الذى نراه احياناً فى النساء البدينات بعض البدانة ، محدّقة الى الرئيس تحديقاً ثابتاً ، لا تنظر يمنةً ولا يسرة . فى رأيى أنها كانت فى تلك اللحظة جميلة جداً ، ولم تكن شاحبة اللون البتة ، كما زعمت ، فيما بعد ، السيدات اللواتى شهدن جلسة المحاكمة . وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلص يعبر عن خبث وشر . ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب ، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول

التى كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التواق الى الفضيحة. ان جروشنكا ذات شمم وكبرياء وأنفة ، فهى لا تطيق الاحتقار . وان فيها كذلك لخجلاً مع شعور خفي بالخزى من هذا الخجل فى الوقت نفسه ، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء ادلائها بشهادتها ، وانما تكلمت بغضب تارة ، وباحتقار تارة أخرى ، مصطنعةً فى الحالتين لهجة خشنة قاسية ؛ ثم اذا هى بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقى اللوم على نفسها . كانت فى بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط فى هوة ولا يبالى العواقب ، وكأنها تقول لنفسها : « ليكن ما يكون ! ليحدث ما يحدث ! فسأقولها ... » صرّحت تقول فيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش ، صرّحت تقول بلهجة قاطعة : « هذه كلها سفاسف ! هل ذنبى أنا أنه تعلق بى ؟ » ثم ما انقضت على ذلك دقيقة واحدة حتى أخذت تقول : « أنا الآثمة ، أنا المسئولة عن كل شيء . لقد عبثت بهما كليهما ــ عبثت بالعجوز وعبثت بهذا ــ فدفعتهما بذلك دفعاً الى الكارثة . الذنب ذنبى أنا فى كل ما حدث . » ولما ذُكر اسم سامسونوف ، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة : « ليس لأحد أن يتدخل فى هذا . انه الرجل المحسن الىّ . لقد انتشلنى من وهدة البؤس حين طردنى أهلى » . فذكّرها الرئيس ، ولكن بلهجة مهذبة جداً ، بأن عليها أن تقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى تلقى عليها دون الخوض فى تفاصيل لا داعى اليها . فاحمرت جروشنكا ، والتمعت عيناها .

صرحت جروشنكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه ، وانما هى علمت من ذلك « الوغد » أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ لها ثلاثة آلاف روبل . ثم أضافت تقول :

ـ على أن هذه كلهـا سخافات ، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد ، وما كان لى أن أذهب اليه بحال من الأحوال ، هذا مؤكد ...

سألها وكيل النيابة :

ـ من هذا الذى وصفته بأنه « وغد » ؟

فأجابت :

ـ هو ذلك الخادم ، هو ذلك السمردياكوف الذى قتل مولاه ، ثم شنق نفسه أمس .

طبيعى أنها سئلت فوراً عن الأســاس الذى تبنى عليــه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح ، ولكن اتضح أنها هى أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة . قالت :

ـ دمترى فيدوروفتش نفســه هو الذى قال لى ذلك وليس عليكم الا أن تصدّقوه !

ثم أضافت تقول وهى ترتعد كرها وحقـداً ، ويختلج فى صــوتها شر وخبث :

ـ ان تلك المرأة هى التى ضيعته ، هذه هى الحقيقــة كلها ! انها هى سبب كل شيء ، هى وحدها ! ذلكم واضح !

سئلت جروشنكا من جديد أن تعيّن الشخص الذى تعنيه بكلامها ، فقالت :

ـ أعنى الآنسة ، أعنى هذه الكاترين ايفانوفنا الحاضرة هنا ! لقد دعتنى الى منزلهـا ، وقدمت لى شــوكولاته ، آملةً أن تغــرينى وأن تفتننى . ليس فيها حياء ، هذه المرأة ...

تدخل الرئيس ليوقفها عن هذا الكلام ، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها . ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلي من الغيرة ، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي الى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب ...

وتدخل وكيل النيابة فقال :

ـ حين قبض على المتهم في قرية موكرويه ، فان الناس منذ هرعت مسرعة من الغرفة المجاورة ، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلة انك أنت سبب كل شيء وانك تريدين أن تصحبيه الى السجن . فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنة منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا قائلة :

ـ لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك . كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه ، فأدركت أن الذنب ذنبي ، وأنه انما قتل أباه بسببي . ولكن حين أكد لي أنه بريء ، صدقته فوراً ، وما زلت أصدقه ، وسأظل أصدقه الى الأبد ، لأنه ليس بالرجل الذي يكذب .

وجاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته .

أذكر أنه أشار عندئذ ، بين أمور أخرى ، الى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته اياه ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، مكافأة له على أنه أتاها بألكسي فيدوروفتش كارامازوف الى منزلها . فقالت جروشنكا وهي تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار :

ـ لا عجب أن أخذ المبلغ . لقد كان يجيء الي دائماً ليستعطيني بعض المال ، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالي ثلاثين روبلاً

فى الشهر ينفقها على سلياته خاصه ، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له.

سألها فيتوكوفتش ، غير عابىء بالرئيس الذى أخذ يتحرك ويضطرب :

ـ ما هو السبب الذى جعلك سخية ذلك السخاء كله مع السيد راكيتين ؟

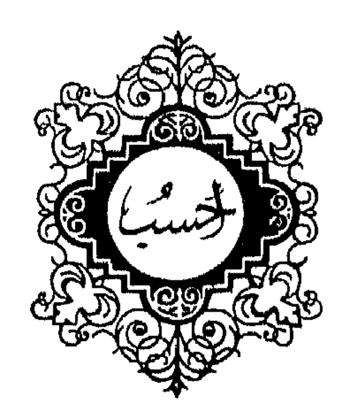
ـ السبب بسيط ، هو أن راكيتين ابن خالتى . أمى وأمه اختان. صحيح أنه رجانى أن لا أقول هنا كلمة واحدة عن هذه القرابة ، اذ يبدو أنه يشعر بعار كبير من كونه يمت الىّ بقربى !

بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودُهشوا منها ، لأنها كانت مجهولة فى مدينتنا حتى ذلك الحين ، وكانت مجهولة حتى فى الدير . وكان ميتيا نفسه لا يعرفها . وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر احمراراً شديداً على كرسيه حينذاك . وكانت جروشنكا قد علمت ، قبل دخولها الى القاعة ، أن راكيتين أدلى بشهادة تسىء الى ميتيا ، فأغضبها ذلك وأحنقها . وها هو ذا الخطاب الجميل الذى كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً فى كلام نبيل ، ثائراً على نظام القنانة ، منتقداً لما يسيطر على روسيا من فوضى ، ها هو ذا الخطاب يتحطم تحطماً لا قيام له بعده ، فلا يبقى منه فى أذهان الحضور أى أثر . وغبط فيتوكوفتش نفسه : لقد أسعفته السماء . ولم يطل استجواب جروشنكا كثيراً على وجه الاجمال ، لا سيما وأنها لم تجىء بمعلومات جديدة كثيرة . وقد تركت شهادتها فى النفوس أثراً هو الى السوء أقرب منه الى الحسن . وتابعتها مئات نظرات الاحتقار حين انتهت من الادلاء بشهادتها. فمضت تجلس فى القاعة بعيداً عن كاترين ايفانوفنا . وفى أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً كأنه متجمد ، وكان غاضاً بصره ، مطرقاً بعينيه الى الأرض .

واستدعى الشاهد التالى : ايفان فيدوروفتش .

٥

نازلة مباغتة



أن من المفيد أن أذكر أنه كان قد استدعى مرةً قبل أليوشا • غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن ، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباغتة ، وانه مستعد للمثول متى أريد له أن يمثل بعد أن تتحسن حالته • ولم ينتبه أحد الى هذا الأمر ، ولم يعلم به أحد الا فيما بعد • ولم يكن الحضور ، على كل حال ، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماماً كبيراً ، فان الأشخاص الرئيسيين فى هذه الدرامة ، ولا سيما المرأتين المتنافستين ، كانت قد سُمعت أقوالهم ، فارتوى فضول الناس بذلك الى حين • حتى لقد لوحظ شىء من التعب أصاب الجمهور • وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها ، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتى بأشياء جديدة كثيرة ، لأن الأمور الأساسية قد قيلت • وكان الوقت يمضى •

اقترب ايفان بخطى بطيئة بطئاً غريباً ، دون أن ينظر الى أحد ، غاضاً بصره مطرقاً الى الأرض ، كأنه يبذل جهوداً شاقة فى سبيل أن يجمع شتات أفكاره • كان ملبسه سليماً لا مأخذ عليه ، ولكن تعبير وجهه قد أحدث فى النفوس أثراً أليماً ، أو أحدث هذا الشعور الأليم فى نفسى

أنا على كل حال : كان وجهه يبدو بلون التراب كأنه وجه انسان يحتضر . وكانت نظرته زائغة تائهة مضطربة . رفع عينيه ، وأجال بصره في القاعة ببطء . انتفض أليوشا ، وأنّ أنةً صغيرة . انني اتذكر هذا تذكراً واضحاً ، رغم أن أحداً لم يكد ينتبه اليه .

بدأ الرئيس بأن قال له انه لن يُحلّف اليمين ، وان في وسعه أن يتكلم أو أن يسكت ، على ما يحب ، وانما ينبغي له أن يقتصر طبعاً على ذكر الحقيقة وحدها فيما يقول ، الخ . فكان ايفان يصغي محدقاً اليه بنظرة غامضة مبهمة . غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً بعد شيء ، فما ان فرغ الرئيس الذي كان يراقبه مدهوشاً ، ما ان فرغ الرئيس من كلامه ، حتى انفجر ايفان ضاحكاً مقهقهاً ، وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان :

ـ وماذا أيضاً ؟

خيّم على القاعة صمت مطبق ، وأحس الناس بأن درامة ستقع . واضطرب الرئيس . وسأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب :

ـ أتراك ما تزال مريضاً ؟

فأجابه ايفان بصوت هادىء فيه احترام وتوقير :

ـ اطمئن يا صاحب السعادة ، فانني بخير تماماً ، وانني قادر على أن أذكر لكم أشياء هامة .

فعاد الرئيس يسأله وهو ما يزال في شك من أمره :

ـ أعندك أشياء هامة تريد أن تنقلها الينا ؟

فخفض ايفان فيدوروفتش عينيه ، وانتظر بضع ثوان ، ثم رفع رأسه وأجاب في تردد :

ـ لا ... لا شيء ، ليس عندي شيء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة ، فكان يجيب عنها على مضض ، مقتضباً اقتضاباً مخلاً ، متضايقاً تضايقاً ما ينفك يزداد • ولكن اجاباته كانت متزنة معقولة • وأعلن عدة مرات أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه • من ذلك أنه قال انه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمترى • وأضاف يقول : « وكان ذلك لا يهمنى على كل حال » • واعترف بأنه سمع المتهم يهدّد بقتل أبيه • أما الظرف الذى كان يضم المال فانما علم بوجوده من سمردياكوف •

وصاح ايفان يقول فى ملل وضجر وسأم :

ـ لا جديد ••• ليس لدىّ شيء خاص أقوله لكم •

وبدأ الرئيس يتكلم فقال :

ـ أنا أدرك أنك مريض ، وأفهم أن •••

ثم اتجه الى وكيل النيابة والمحامى يدعوهما الى استجواب الشاهد اذا كانا يريان فى ذلك فائدة •

فاذا بايفان يتضرع على حين فجأة قائلاً بصوت منطفىء :

ـ اسمح لى بالانصراف يا صاحب السعادة ، فاننى أشعر بضعف شديد •

وما ان قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، واتجه نحو باب الخروج • ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر فى شيء ما ، وابتسم صامتاً ، وعاد الى حيث كان من مكان الشهود ، وقال :

ـ أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التى كانت ••• كما تعلمون••• تقول : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم اذهب » • كانوا

قد جاءوها بثوب الزفاف ليقـودوها الى الهيكل ، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع : « ان شئت ذهبت ، وان شئت لم أذهب • » •

هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية •

قاطعه الرئيس قائلاً بلهجة قاسية :

ـ ما الذى تريد أن تخلص اليه من هذا الكلام ؟

فأجاب ايفان فيدوروفتش وهو يسل من جيبه حزمة الأوراق المالية فجأة :

ـ ما الذى أريد أن أخلص اليه ؟ اليك ما الذى أريد أن أخلص اليه •••• ان هذا المال هو الذى كان موجوداً فى هذا الظرف (وأومأ الى المائدة التى جُمعت عليها وثائق الاتهام) ، والذى بسببه قُتل أبى • أين تريدون أن أضعه ؟ ياسيدى حاجب المحكمة ، انقل هذا المال الى من يجب نقله اليه •

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومدّها الى الرئيس •

سأله الرئيس مدهوشاً :

ـ كيف وُجد هذا المال معك ؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً ؟•••

ـ أخذته أمس من سمردياكوف ، من القاتل • زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة • انه هو الذى قتل أبى • ليس أخى القاتل • سمردياكوف هو الذى قتل ، وأنا الذى حرضته على ذلك ودفعته اليه • من ذا الذى لا يتمنى موت أبيه ؟

صاح الرئيس يقول على غير ارادة منه :

ـ أأنت تملك عقلك كاملاً ؟

ـ المصيبة كلها هي انني أملك عقلي كاملاً ••• وهو عقل قذر من جهة أخرى ، لا يقل قذارةً عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء •••

قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور • وأضاف يقول صارفاً بأسنانه معبراً عن احتقار مبغضٍ كاره :

ـ هم جميعاً قتلوا آباءهم ، ثم يتظاهرون بالهول والروع ! انهم يمثّلون أيها السادة ، يضحك بعضهم على بعض ••• كاذبون ! انهم جميعاً يتمنون موت آبائهم • السراطين يأكل بعضها بعضاً • اذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم ، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين ••• انهم في حاجة الى مشهد يتسلون بالنظر اليه ! خبزاً ومشاهد سيرك * • ولست أنا خيراً منهم على كل حال • هل عندكم ماء ؟ اسقوني ماء ناشدتكم الله !

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه •

أسرع الحاجب يقترب منه • ووثب أليوشا من مكانه صائحاً :

ـ انه مريض ، لا تصدّقوه ، انه مصاب بنوبة حمى حارة !

وانتصبت كاترين ايفانوفنا واقفةً وقد جمّدها الخوف ، وحدّقت الى ايفان فيدوروفتش • ونهض ميتيا أيضاً ، فتأمل أخاه وهو يبتسم ابتسامة أليمة بينما كان يصغي اليه في نهم وشراهة •

واستأنف ايفان كلامه فقال :

ـ اطمئنوا • ما أنا بمجنون • أنا قاتل فحسب •

ثم أضاف يقول لا يدري أحد لماذا :

ـ ليس يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً •

وضحك مقهقهاً ساخراً •

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً اضطراباً واضحاً؛ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون • كان فيتوكوفتش يصغي بانتباه شديد • وصمت الجمهور ينتظر متجمداً • وبدا على الرئيس فجأة أنه ثاب الى نفسه واسترد ثبات جنانه ، فقال :

ـ أيها الشاهد • ان أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة فى هذا المكان• هدىء روعك اذا استطعت ، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلاً ••• قل لنا ما هى الأدلة التى تقيم عليها مثل هذا الاعتراف ••• اذا كنت لا تهذى فحسب !

ـ ليس عندى شهود • ان ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل اليكم اعترافه من السماء ••• فى ظرف • وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف • فلو أرسل اليكم سمردياكوف ظرفاً لكان هذا الظرف كافياً • لا ، ليس عندى شهود •

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة :

ـ اللهم الا شاهداً واحداً •

ـ من هو هذا الشاهد ؟

ـ ان له ذيلاً يا صاحب السعادة ، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا • الشيطان لا وجود له البتة !

وواصل ايفان كلامه ، دون أن يضحك فى هذه المرة ، وانما هو يصطنع لهجة المسارة والنجوى :

ـ لا تلقوا اليه بالاً ، انه شيطان تعيس حقير• لا شك فى أنه مختبىء بمكان ما هنا ، ربما تحت مائدة وثائق الاثبات • أين عساه يختبىء ان لم يختبىء هناك • اسمعوا ، اصغوا الى : لقد قلت له اننى لن أستطيع أن أسكت ، وكان هو لا ينفك يحدثنى عن ذلك التحول الجيولوجى •••

سخافات ! هيه ! ماذا تنتظرون لتفكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا سراحه ؟ ... لقد غنى نشيده لأنه كان فرح القلب ! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانيا المسافر الى بيتر ! أنا من جهتى مستعد لأن أهب كادريوناً من الكادريونات فى سبيل ثانيتين من فرح ! أوه ! انكم لا تعرفوننى ! ما أغبى هذا كله ! خذونى أنا بدلاً عنه ! لا بد أننى جئت لأمرٍ ما ... لماذا ، لماذا كل هذا الغباء ؟ ...

وأجال ايفان على القاعة نظرة بطيئة ، وهو واجم مفكر . اضطرب جميع الناس . اندفع أليوشا نحو أخيه ، ولكن الحاجب كان قد أمسك ايفان من ذراعه .

صرخ ايفان وهو يتفرس فى الحاجب :

ـ ما هذا أيضاً ؟

ثم قبض على كتفيه فجأة ، ورماه على أرض القاعة .

هرع الحرس وسيطروا على ايفان . فأطلق عندئذ من صدره عويلاً حاداً ، وظل يعول هذا الاعوال راشقاً عبارات مفككة ، بينما كان يُقاد الى خارج القاعة .

نشب اضطراب شديد ، وقامت بلبلة كبرى . لا أتذكر جميع التفاصيل ، لاننى كنت أنا نفسى منفعلاً أشد الانفعال فى تلك اللحظة ، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة . لكننى أعلم أنه حين عاد النظام الى نصابه ، قُرِّع الحاجب تقريعاً قاسياً ، رغم أنه أفاض فى الشرح قائلاً ان الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض ، وان الطبيب الذى فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى . وأضاف الحاجب يقول : ثم انه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً ، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له .

هذا الى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلى بشهادته ، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر .

ولم يكن الانفعال الذى أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً ، حين حدث حادث أليم آخر . لقد أصيبت كاترين ايفانوفنا بنوبة عصبية ، فأخذت تنشج نشيجاً قوياً ، وتطلق صرخات حادة ، ولكنها رفضت أن تنصرف ، وظلت تتخبط ضارعةً متوسلة أن لا يبعدوها. ثم صرخت تقول للرئيس فجأة :

ـ عندى تصريح آخر أريد أن أفضى به . يجب عليّ أن أذكر الحقيقة فوراً ... فوراً ! اليكم هذه الورقة ، انها رسالة ... خذوها فاقرأوها ، بسرعة ! هى رسالة أرسلها الىّ هذا الانسان الأشوه ، هذا ، نعم ، هذا (وأومأت الى ميتيا) . انه هو الذى قتل أباه ، سترون ، لقد ذكر لى ذلك كتابةً . كتب الىّ أنه سيقتل أباه ! أما الآخر فهو مريض ، مريض ، انه مصاب بحمى حارة ! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض .

كانت تصرخ وهى نهب اضطراب شديد . تناول الحاجب الرسالة ومدّها الى الرئيس . وتهاوت كاترين ايفانوفنا على كرسيها وهى تغطى وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجى صامت . وكانت تحاول مع ذلك أن تخنق نشيجها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة . ان الورقة التى تناولها الحاجب من كاترين ايفانوفنا هى بعينها الرسالة التى كتبها ميتيا فى كاباريه « العاصمة الكبرى » ، والتى كان يصفها ايفان فيدوروفتش بأنها برهان رياضى على الجريمة . واحسرتاه ! لقد عُدّت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضى فعلاً ، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا ، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على الأقل . أعود فأقول : لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شىء تفصيلاً ، وما تزال ذكرياتى الى الآن تختلط فى شعورٍ بفوضى شاملة.

لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامى والمحلفين على تلك الرسالة فوراً . لا أدرى . ولكننى أتذكر أن كاترين ايفانوفنا قد أعيد استجوابها . سألها الرئيس فى رفق ولطف أهى تشعر بأنها هادئة هدوءاً كافياً لتستطيع الاجابة ، فهتفت تقول بقوة :

ـ أنا مستعدة ، مستعدة كل الاستعداد .

وأضافت وهى تخشى خشية رهيبة ، فيما يبدو ، أن يرفضوا الاستماع اليها :

ـ أنا قادرة على الاجابة كل القدرة ، كل القدرة !

سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها اليها . فقالت :

ـ وصلتنى عشية وقوع الجريمة ، وقد كتبها هو فى اليوم السابق ، أى قبل ارتكابه الجريمة بيومين . انظروا : ان هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هى نوع من فاتورة حساب (كذلك صاحت تقول لاهثة) . كان يكرهنى فى تلك الآونة ، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة ... ولأنه كان مديناً لى بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً ... أوه ! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته ! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاليكم كيف جرت الأمور . أرجوكم أن تستمعوا الىّ ، أضرع اليكم أن تستمعوا الىّ : قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء الىّ فى ذات صباح . كنت أعلم أنه فى حاجة الى مال ، وكنت لا أجهل سرّ حاجته الى المال . كان يريد ، نعم ، كان يريد أن يغرى هذه المخلوقة وأن يرحل بها . وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خاننى وأنه يفكر فى تركى . وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسى . أعطيته ذلك المبلغ بحجة أننى أريد منه أن يرسله الى أختى فى موسكو .

وحين سلمته المال أعلنت له ، وعيني في عينيه ، أنه يستطيع أن يرسله « بعد شهر » اذا كان ذلك يناسبه • فكيف ، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له : « أأنت في حاجة الى أن تخونني مع تلك المخلوقة ؟ اذن خذ المال ، انني أعطيك المال من تلقاء نفسي • خذه ، اذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال مني » • كنت أريد أن أُخجله • فماذا تظنون أنه فعل ؟ لقد أخذ المال ، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك في ليلة واحدة ، هنالك ، مع هذه المخلوقة • وقد فهم مع ذلك ، فهم في تلك اللحظة أنني كنت على علمٍ بكل شيء • صدقوني أنه فهم أنني كنت أريد أن أمتحنه حين عهدت اليه بهذا المال ، وانني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ مني هذا المال • كنت أحدّق الى عينيه ، وكان يحدّق الى عيني هو أيضاً ، لأنه كان يفهمني حق الفهم ، وكان يفهم كل شيء• ورغم ذلك أخذ المال ، أخذه ومضى به •

زأر ميتيا يقول فجأة :

ـ هذه هي الحقيقة بعينها يا كاتيا ، كنت أحدّق الى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار • ومع ذلك أخذت المال • احتقريني• انا انسان شقي ، وعليكم جميعاً أن تحتقروني • انني استحق هذا الاحتقار !

هتف الرئيس يخاطبه :

ـ يا متهم ! اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فلأخرجنك من القاعة•

وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية :

ـ كان يعذبه هذا المبلغ • كان يريد أن يردّه اليّ ، هذا صحيح، كان يحرص على أن يردّه ، ولكنه كان في حاجة الى مال من أجل هذه

المخلوقة • لذلك قرر أن يقتل أباه ، ولكنــه لم يردّ الىّ دينى ، وانما ذهب مع هذه المرأة الى تلك القرية ، فتم القبض عليه هناك • لقد بدّد فى تلك القرية ، مرةً أخرى ، المال الذى سرقه من أبيه بعد أن قتله • وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب الىّ الرسالة • كتبها وهو سكران ، أدركتُ ذلك فوراً • وكتبها عن خبث وشر ، لعلمــه علمَ اليقين بأننى لن أطلع عليها أحداً ، ولو ارتكب هذه الجريمــة ، والا لما كتبها • كان يقدّر أننى لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه • هلاّ قرأتم الرسالة ! اقرأوا بمزيد من الامعان ، أرجوكم ، لتعلموا انه قد وصف فى هذه الرسالة كل شىء سلفاً ، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه ، وذكر أين يوجد المال مخبأً ، ذكر ذلك كله ســلفاً • وأحب أن ألفت انتباهكم الى احدى عباراته خاصةً ، راجيــةً أن تقفوا عندها ، وتتلبثوا عليها : « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل رأيتم ؟ لقد قتل عن سابق تصــور وتصــميم ، وفكّر فى جميع التفــاصيل (كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بخبث وشر وسوء ، كأنما لتؤثر فى عقول القضاة تأثيراً أقوى وأضمن • (واضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشئومة دراســة دقيقة ، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر القلب) • ولولا أنه كان عندئذ فى حالة ســكر لما كتب الىّ بهذه الطريقــة • انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفاً كل شىء ، كل شىء ، حتى أدق التفاصيل • لقد عرض لى خطة قتل حقيقية !

هكذا كانت تصيح غضبى ؛ وواضح أنهــا كانت لا تبــالى فى تلك اللحظة عواقب شهادتها • ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل ، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهى ترتعش استياءً : « أيجب علىّ أن أقرأ هذه الرسالة فى جلســة المحاكمة ؟ » • أما وأنها عزمت أمرها ، فانها لا تأسف الآن على شىء ، ولا تبالى شيئاً •

أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ ، فأحدثت فى الجميع شعوراً بالادانة •

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة ، فصاح ميتيا يقول :

ــ هى رسالتى ، نعم ، رسالتى • وما كنت لأكتبها لولا السكر !•• يا كاتيا ، ان كلاً منا يكره الآخر لأسباب كثيرة • ولكننى أحلف لك ، أحلف لك على أننى ، حتى حين كرهتك ، كنت لا أزال أحبك • أما أنت فلا !•••

قال ميتيا ذلك ، وتهالك على كرسيه وهو يلوى يديه كرباً ويأساً • وتناوب وكيل النيابة والمحامى القاء الأسئلة على كاترين ايفانوفنا ، ملحّين خاصةً على الأسباب « التى دفعتها الى أن تسكت فى بداية شهادتها عن وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن ، وأن تدلى بتصريحات تختلف فى لهجتها وروحها عن أقوالها الآن » • فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً :

ــ صحيح ، نعم ، كذبتُ منذ قليل • كذبت عن عمد وقصد ، على خلاف ما توجبه أمانتى ويوجبه ضميرى • ولكننى أردت أن أنقذه فى تلك اللحظة ، لأنه كان يكرهنى ويحتقرنى • أوه ! كان يحتقرنى احتقاراً فظيعاً ؟ واعلموا أنه كان يحتقرنى دائماً ! احتقرنى منذ اللحظة التى انحنيت فيها أمامه ساجدةً فى سبيل ذلك المال • رأيتُ ذلك ••• أحسست به فوراً ، ولكننى لبثت زمناً طويلاً أتردد فى تصديقه • كم من مرة قرأت فى عينيه أنه يقول لى : « مع ذلك ، أنت التى جئت الىّ فى الماضى » • آه ••• انه لم يفهمنى ، انه لم يفهم شيئاً من سلوكى فى يوم من الأيام ، انه لم يدرك سبب مجيئى اليه ، لأنه لا يستطيع أن

يتخيل الا أحقر الدوافع وأدنأ البواعث • لقد حكم عليّ من خلال نفسه هو •

وأضافت كاترين ايفانوفنا تقول وهى تصرف بأسنانها غضباً ، لأنها كانت فى حالة اندفاع شديد :

ـ ظن أن جميع الناس مثله • ولم يخطر بباله أن يتزوجنى بعد ذلك الا لأننى ورثت ثروة • ذلك هو السبب ، ذلك هو السبب ! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقى ! آه ••• هذا شيطان رجيم • ظن أننى سأظل طول حياتى أرتعش أمامه خجلاً من أننى ذهبت اليه فى الماضى ، وأنه سيستطيع أن يحتقرنى لهذا وأن يتسلط عليّ• ذلكم هو السبب فى أنه أراد أن يتزوجنى ، ذلكم هو السبب ! هذا ما حدث ، أؤكد لكم أن هذا ما حدث ! حاولت أن آخذه بالحب ، بحبٍ لا نهاية له ، حتى لقد كنت مستعدةً لأن أغفر له خيانته • ولكنه لم يفهم شيئاً ، لم يفهم شيئاً البتة ، البتة ! وهل هو قادر على أن يفهم أى شىء ؟ هذا مخلوق أشوه ! وصلتنى منه هذه الرسالة فى صباح الغد ، جاءونى بها من الكاباريه ، بينما كنت فى ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شىء ، حتى خيانته !

حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدّئاها طبعاً • وانى لعلى يقين من أنهم جميعاً كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال ، ومن الاستماع الى اعترافاتها • أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها : « نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم ، وثقى أننا نشاطرك هذا الألم » الخ ، الخ• ولكن هذا لا ينفى أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت فى حالة قريبة من الهستريا ، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها • ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح ــ وهذا ما يتجلى فى كثير من

الأحيان ، « ولو على نحو عابر » ، فى لحظات التوتر النفسى الشديد الذى من هذا النوع ـ كيف ان ايفان فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التى حاصرته واستبدت به ، وهى أن عليه أن ينقذ أخاه ، « هذا الشيطان ، هذا القاتل » •

وهتفت تقول :

ـ كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ • وكان يريد أن يطفف ذنب أخيه قائلاً لى انه كان هو نفسه لا يحب أباه ، وانه ربما كان يتمنى موته • آه ••• هذا انسان ذو ضمير حى ووجدان رفيع ! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير • قال لى كل شيء ، كل شيء اطلاقاً ! كان يجيء الىّ كل يوم فيتحدث الىّ حديثه مع صديقته الوحيدة ! (هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدى وقد التمعت عيناها) لقد ذهب الى سمردياكوف مرتين • وفى ذات يوم جاء الىّ فقال لى : « اذا لم يكن القاتل أخى بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، كانت قد أُطلقت فى الناس) ، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً ، لأن سمردياكوف كان يعلم اننى لا أحب أبى وأننى أتمنى موته » • وعندئذ انما أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها • فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل ، فاذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً • لم يطق أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه • وقد لاحظت ، منذ أسبوع ، أن ذلك أمرضه فعلاً • كان يتفق له فى الأيام الأخيرة أن يأخذ يهذى أثناء زيارته لى • وأدركت أنه فى الطريق الى الجنون • كان يهذى وهو يسير ، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه فى شوارع مدينتنا • وحين فحصه ، أمس الأول ، تلبيةً لطلبى ، الطبيبُ الاخصائى الذى وفد الى مدينتنا ، قال لى انه على وشك أن يُصاب بالحمى الحارة • ذلك كله بسببه ، بسبب هذا الشيطان

الرجيم • وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمرودياكوف قد انتحر ، فأحدث هذا النبأ فى نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله ••• وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم ، بسبب رغبته فى انقاذ هذا الشيطان الرجيم •

أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلى باعترافات من هذا النوع الا مرةً واحدة طوال حياته ، فى اللحظات التى تسبق الموت مثلاً ، أو حين يصعد درجات المشنقة • ولقد كانت كاتيا فى حالة من هذا النوع نفسه ، وهى حالة تتفق وطبعها على كل حال • انها فى الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التى هرعت فى الماضى الى بيت الضابط الفاسق انقاذاً لأبيها ، انها كاتيا تلك نفسها التى ارتضت منذ قليل أن تضحى على رءوس الأشهاد بحيائها وخفرها ، هى العفة الطاهرة ذات الأنفة والكبرياء ، فقصت قصة « السلوك النبيل الذى سلكه ميتيا » ، لا لشىء الا أن تخفف المصير الذى ينتظره بعض التخفيف • وهى بهذه الطريقة نفسها ، وعلى هذا النحو نفسه ، انما تضحى بنفسها الآن ، ولكن فى سبيل رجل آخر ، فى سبيل رجل لعلها أدركت لأول مرةً فى تلك اللحظة مدى ما تضمر له من محبة • تضحى بنفسها فى سبيله مخافة أن يكون قد أساء الى شرفه والى سمعته حين قال انه هو القاتل • لقد بدا لها فجأةً أنه بشهادته قد ضيّع نفسه ، فهى تضحى بنفسها لتنقذه هو ، لتنقذ اسمه وسمعته ومهابته ! على أن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه : هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا ، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها ؟ لا ، لا ، لا••• انها لم تندد به عامدةً حين صرخت تقول انه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التى حيته بها فى الماضى ! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة ، لقد كانت مقتنعة ، ربما منذ حيته بتلك التحية ، أن ميتيا ، هذا الطفل البسيط الطيب الذى كان يحبها حب العبادة فى ذلك الأوان ، قد احتقرها وسخر منها

واستهزأ بها. وهى ماتعلقت به ذلك التعلق، ولا أحبته ذلك الحب الهسترى المصطنع المغالى الا من قبيل الكبرياء وحدها • ان ذلك الحب ، الذى نشأ عن زهو جريح ، كان أقرب الى الانتقام منه الى الحنان • صحيح أن هذه العاطفة المجلوبة كان يمكن أن تستحيل الى حب حقيقى ، ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال ، ولكن ميتيا أساء اليها بخيانته اساءة عميقة ، وأهانها اهانةً بالغة ، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتغطرسة أن تغفر له • وحلَّت ساعة الانتقام فجأة ، على نحو لم تكن تتوقعه هى نفسها ، فاذا بالأحقاد التى تراكمت فى قلب المرأة المهانة تراكماً أليماً خلال هذه المدة الطويلة كلها ، اذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة على حين بغتة • ان كاتيا تخون ميتيا الآن ، ولكنها تخونه بخيانة نفسها ! وطبيعى أن التوتر العصبى قد زال منذ أفصحت عما يعتلج فى قلبها فأخذ يستولى عليها الشعور بالخزى والعار • لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة ، فتهاوت على مقعدها وهى تنشج وتئن • فاضطروا الى نقلها من القاعة • وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها :

ــ ميتيا ! ان هذه الأفعى قد ضيعتك !

وأضافت تقول وهى ترتعش غضباً وتتجه بكلامها الى أعضاء المحكمة :

ــ ها هى ذى الآن تظهر على حقيقتها •

وبأمرٍ من رئيس المحكمة ، أُمسكت جروشنكا واقتيدت الى خارج القاعة • كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا • فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً ، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها • فأمسكوه وسيطروا عليه •

افترض أن سيداتنا اللواتى جئن الى جلسة المحاكمة كمشاهدات ، قد أرضاهن ما رأين : ان هذا المشـــهد يستحق منهن ما لقين من عنـاء فى سبيل أن يرينه • وأتذكر أن الطبيب الاخصائى الوافد من موسكو قد ظهر فى تلك اللحظة • يبدو أن رئيس المحكمـة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لاسعاف ايفان فيدوروفتش • قال الطبيب للمحكمة ان ايفـان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات حمى حارة ، وان من الواجب صرفه فوراً • وجـواباً عن أسـئلة ألقاها عليه وكيل النيـابة والمحـامى ، صرّح بأن المريض قد جاء يستشـيره فى أمر مرضه منذ يومين ، وبأنه قد تنبـأ له بنـوبة حمى حارة وشـيكة ، ولكن ايفـان فيدوروفتش رفض أن يُعالَج • قال الطبيب راوياً : « لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً • واعترف لى هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له ، فتارةً يرى فى الشـارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد ، وتارة يزوره فى المساء ابليس » •

وانصرف طبيب الأمراض العقلية بعد أن فرغ من عرض آرائه •

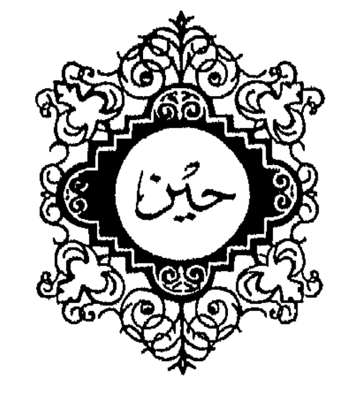
وضُمّت الرسـالة التى قدمتهـا كاترين ايفانوفنـا ، ضُمّت الى وثائق الاثبات• وتشاور أعضاء المحكمة ، فقرروا أن يواصلوا المناقشات ، ودُوِّنت الشـهادتان اللتـان لم تكونا متوقعتين (أعنى أقوال كاترين ايفانوفنا وايفان فيدوروفتش) فى محاضر المحاكمة •

أحسب أنه لا داعى الى سرد تتمـة وقائع المناقشـات • فان أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشىء جديد ، ولم تزد على تكرار ما عـرفه القـارىء حتى الآن ، مع بعض الفـروق الطفيفـة الشخصية • وأقول مرةً أخرى : ان جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التى سأعرض لها حالاً • وحسبى أن أشير هنا الى

أن الحضـــور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شـــديد عنيف من هول النازلة ، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدرامة وخطابى الاتهام والدفاع بقلوب يحرقها نفاد الصبر. وكان يبدو علىفيتوكوفتش أن أقوال كاترين ايفانوفنا قد أرهقته من أمره عسراً . أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. حتى اذا انتهت المناقشـــات رفعت الجلســـة نحو ساعة . وأعلن الرئيس أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة . وأظن أن الساعة كانت هى الثـــانية من المساء حين بدأ هيبوليت كيريلوفتش القاء مطالعته .

٦

مطالعة النيابة . عناصر بارزة



بدأ هيبوليت كيريلوفتش القاء مطالعته كان يرتعش ارتعاشــة عصــبية ، وكان يشعر بعرق بارد على جبينــه وصدغيه • انه يصــاب بحمى ثم يصاب بارتعــاد ، مرةً بعد مرةً • بهــذا وصف هــو نفســـه ، فيما بعد ، الحــالة التى كان عليهــا حينــذاك • كان يرى أن هــذا الخطاب « خــير انتاجــه » و « أحســن آثاره » ، وتاجــاً يتــوّج حياته فى آخر عهده بمهنته ، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته • وقد مات هيبوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر ، من سلٍ خبيث لم يمهله طويلاً ، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغنى قبل موتها ، اذا صدق أنه أوجس ذلك حقــاً • لقد وضع فى هذه المطالعة كل قلبه ، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً ، وبرهن فى هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعــاً منه ، وأنه يهتم هو أيضاً « بالمشكلات الحادة » ، على الأقل فى حدود قدرة صاحبنا المسكين هيبوليت كيريلوفتش على فهمها • وقد فتن الناس بصدقه خاصة : كان هيبوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجانى ، فكان لا يتهمــه ويطالب بانزال « العقاب » فى الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب ، وانما كان كذلك مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بما يقول ، وكان مشبعاً بعاطفة « انقاذ

المجتمع » • ان النساء من جمهور المشاهدين ، وهنّ يعادين بمشاعرهن هيبوليت كيريلوفتش ، لم يخفين الأثر العميق الذى أحدثه خطابه فى نفوسهن• ولقد بدأ وكيل النيابة القاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً ، ثم يدوّى فى القاعة كلها الى نهايته • ومع ذلك أوشك هيبوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين فرغ من القاء الخطاب • بدأ وكيل النيابة مطالعته هكذا :

« سادتى المحلفين ! ان القضية التى ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة فى روسيا كلها • ولكن فيم نُدهش وفيم نروّع ؟ هل من حقنا أن نُدهش وأن نُروّع ؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل ؟ ألا ان أشنع ما فى الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت لا تهز نفوسنا ! ذلكم هو بلاؤنا ! وان هذا التعود على الشر هو ما ينبغى أن نحزن له ، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين • فما هى أسباب قلة اكتراثنا ، ما هى أسباب عدم انفعالنا ازاء جرائم من هذا النوع ، جرائم هى فى حقيقة الأمر علامات شر مستطير تنذر بمستقبل مظلم ؟ هل ترجع تلك الأسباب الى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف ، هل ترجع الى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً فى مجتمعنا هذا الذى ما يزال فتياً ثم هو قد اهترأ قبل الأوان ؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا الى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت ، اللهم الا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً ؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة ، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة ، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن ، لا يحق له أن يطرحها فحسب ، بل يجب عليه أن يطرحها أيضاً • ان صحافتنا التى ماتزال فى بداياتها ، والتى تُظهر شيئاً من التهيب فى بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة ، فلولاها لما

استطعنا أن نعرف كل ما يعيث فى بلادنا فساداً من انحلال الارادة وفساد الأخلاق. انها تطلعنا على الأنباء فى أعمدتها كلَّ يوم ، وبذلك لا تقتصر معرفة الواقع المرير على الذين يحضرون المحاكمات التى يعد نشر وقائعها حسنة من حسنات النظام القائم ، وانما تتعداهم الى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا نقرأ كل يوم فى هذه الصحف ؟ وا أسفاه ! اننا نقرأ فى هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التى ننظر فيها اليوم ، ولا تعد هذه القضية بالقياس اليها الا حادثاً تافهاً مبذولاً . وأخطر ما فى الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية ، قضايانا الروسية ، يدل على نوع من سقوط جماعى عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعاً ، بلاء رسخ فى أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً ، فأصبحت محاربته أمراً شاقاً عسيراً . ضابط شاب لامع ينتمى الى الأوساط الارستقراطية . انه فى بداية حياته وبداية مهنته . ها هو ذا لا يتردد ، فى ذات يوم ، عن ذبح موظف بسيط متواضع كان قد قدَّم له خدمة ، وعن ذبح خادمة هذا الموظف ، دون أن يشعر بشىء من حياء ، ودون أن يحس بشىء من عذاب الضمير ، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرَّره له اعترافاً منه بدينه عليه ؛ ثم هو ينتهز الفرصة ، فيسطو على ما يجده فى منزل القتيل من مال ، قائلاً لنفسه : « سينفعنى هذا المال فى الاستمرار على معاشرة المجتمع الراقى ، وسيسهّل ارتقائى فى وظيفتى تبعاً لذلك »؛ حتى اذا فرغ من الاجهاز على ضحيتيه ، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة ، وانصرف . واليكم مثالاً آخر : شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته . ها هو ذا يقتل فى الطريق ، كما يفعل قاطع الطريق ، ها هو ذا يقتل أمَّ رئيسه المحسن اليه ؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه فى الجريمة ، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته فى ارتكاب الجريمة ، يقول لهم : « ان هذه المرأة تحبنى كابنها ، ولهذا

ستنبع نصائحى دون أن تتخذ أى احتياط من الاحتياطات » • صحيح أن هذا انسان شاذ • ولكننى لا أجرؤ أن أقول انه حالة مفردة فى هذا العصر الذى نعيش فيه • وهناك آخرون قد لا يقتلون ، ولكن نفوسهم تجيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التى تجيش بها نفس ذلك المجرم ، وهم خالون من الشرف خلوه هو منه ، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون : « ما هو الشرف ؟ أليس الخوف من سفك الدم وهماً من الأوهام الباطلة ؟ » • قد تأخذون على أننى متشائم تشاؤماً هو الى المرض أقرب ، وأننى أجتر رؤى مظلمة ، وأشهر بالناس تشهيراً خبيثاً ، وأغالى فى وصف الشر الذى ألاحظه مغالاة هاذية ! آه ••• كم أتمنى يا رب السماء أن يكون هذا المأخذ قائماً على أساس صحيح !• لكم أن لا تصدقونى اذا شئتم ، ولكم أن تعدوا قلقى هذا وخوفى هذا مرضاً ، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم : اذا لم يكن فى أقوالى الا عشر معشار من صدق ، فذلك وحده رهيب ! هل فكرتم ، أيها السادة ، فى العدد المروع من الشباب الذين ينتحرون فى بلادنا ؟ انهم يقتلون أنفسهم بلا كلام ، دون أن يتساءلوا ، كما فعل هاملت ، عما سيصيرون اليه بعد الموت • لكأن مشكلة النفس الانسانية ، لكأن مشكلة المصير الذى ينتظرنا فى الحياة الآخرة ، أصبحت غريبة عن عقولهم ، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل • وانظروا ، بعد ، الى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذى يتجلى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا • ان فيدور بافلوفتش ، الشقى المجنى عليه فى هذه القضية ، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً اذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين ، ولقد عرفناه جميعاً ، « وكان واحداً منا » ••• قد يجىء يوم تعكف فيه عقول متفوقة ، فى بلادنا وفى البلاد الأخرى ، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسى ، لأن الموضوع

يستحق عناء الدرس طبعاً • ولكن هذه الدراسة ستتم فى المستقبل ، حين يهدأ البال ويطمئن العقل ، حين تصبح ضروب المآسى التى يعانى منها عصرنا ذكرى لا أكثر ، فيكون من الممكن عندئذ أن تدرس دراسةً فيها من الانصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلى فى هذا الأوان ؛ نحن الآن مروّعون ، أو نحن نتظاهر بأننا مروعون ، مع تلذذنا بمشهد الجريمة ، لأننا نحب الاحساسات القوية الشاذة العنيفة التى توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار ؛ أو قولوا أيضاً اننا أشبه بأطفال صغار ، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا ، وندفن وجهنا فى الوسادة الى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة ، عازمين على أن ننساها فوراً بالمسرات واللعب • ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة مأخذ الجد ، وعلى أن نفكر فيما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا • لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم ، أو لنحاول أن نفهم ، على الأقل ، ما يجرى فى مجتمعنا • ان كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب ، * قد شبّه روسيا ، فى خاتمة كتابه الرائع ، بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعا نحو غاية مجهولة ، فهتف يخاطبها قائلا : « أيتها الترويكا ، يا طائراً سريعاً ، من ذا الذى أوجدك ؟ » وأضاف يقول فى اندفاعة كبرياء وعجب وزهو : ان الشعوب لتنتحى باحترام عن طريق الترويكا الجبارة • ليكن ، أيها السادة ! لنسلم بأن الشعوب تنتحى أو لا تنتحى • ولكننى أعتقد ، فى رأيى التواضع ، أن الفنان العبقرى انما استعمل هذه الصورة وهو فى حالة اندفاع مثالى طفولى يُغفر له ، أو لعله لجأ الى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات فى ذلك العهد ؛ اذ لو شُدّ الى هذه الترويكا أبطالُ روايته نفسها ، أمثال سوباكيفتش ونوزدريوف وتشيتشيكوف ، فهل تعلمون الى أين يمكن أن تقودنا الترويكا بهذه

الخيول أياً كان الحوذى الذى يقودها ؟ وتلك مع ذلك خيولٌ من عهد غابر لا تضارع خيول هذا الزمان . وقد رأينا بعدها كثيراً ... » .

هنا قطع خطابَ هيبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور . لقد طرب الجمهور مما فى صورة الترويكا هذه من لبرالية . ولكن التصفيق الذى انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك ، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن « يهدد باخلاء القاعة » ، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية . غير أن هيبوليت كيريلوفتش قد تشجع . انه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً فى حياته . لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الاصغاء اليه ، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن يسمع صوته روسيا كلها ! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال :

« ما الذى تمثله فى الواقع أسرة كارامازوف هذه التى اكتسبت فى بلادنا ، بين عشية وضحاها ، شهرةً سوداء هذا السواد كله ؟ قد تظنون اننى أبالغ ، ولكنى أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر ؟ صحيح أنها تعكسها مصغَّرة تصغيراً مكروسكوبياً ، كما « تعكس الشمسَ قطرةُ ماء » ، ولكننا نجد فيها قبسات ذات دلالة . انظروا أولاً الى ذلك العجوز الشقى ، ذلك الفاسق الجرئ ، ذلك « الأب » الذى لقى مصيراً حزيناً تعيساً . لقد بدأ حياته طفيلياً مسكيناً رغم نبالة محتده ؟ وأتاح له زواج موفق لم يكن بأمله ، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به . لم يكن الرجل فى ذلك الحين الا غشاشاً ضيِّق المدى ومهرِّجاً يتملق الأقوياء ، لكنه يملك مزايا ذكاء تُجحد . وهو قبل كل شىء مراب . وتنقضى السنون ، فيربو رأس ماله ، ويأخذ يرفع رأسه شيئاً بعد شىء . وتختفى المذلة والاستكانة وتزول الزلفى والمداهنة ، ولا يبقى من الرجل الا انسان فاجر عاهر ، انسان شرير خبيث ساخر . غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً

لا رجعة لها بعده ، وأصبح ظمؤه الى اللذة ظمأً جارفاً لا حدود له ، وغدا لا يرى فى الوجود الا المباهج والمتع والملذات ؛ وبهذه الروح انما نشّأ أولاده ، أما الواجبات الأخلاقية التى تقع على عاتق أب فانه لم يعبأ بها ولم يكترث لها . انه لا يبالى أبناءه ، بل يتركهم فى الفناء الخلفى من منزله ، ويعد نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه . ثم ينسى وجودهم آخر الأمر نسياناً تاماً . ان قاعدة السلوك التى ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تلخص فى قول القائل : من بعدى الطوفان ! * ان نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن ، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع ، فى عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع ، ولسان حاله يقول : « ألا فليهلك المجتمع كله ، شريطة أن أكون أنا بخير » . ولقد كان بخير فعلاً ، فهو راض عن مصيره ، مغتبط بما ناله ، يتمنى بحرارة أن يعيش عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى . وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه ؛ وبالمال الذى آل الى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردّه اليه ، يحاول الأب أن ينتزع من الابن عشيقته . لا ، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامى اللامع الذى وفد الينا من سان بطرسبرج ! سأقول الحقيقة بنفسى ، لأننى أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب فى نفس ابنه . ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز ، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً . ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا . أتقولون اننى أهين المجتمع اذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين ؟ واأسفاه ! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه ، فى عصرنا هذا ، الا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه ، بينما هم فى الواقع يشاطرونه آراءه ! لنسلّم جدلاً بأننى متشائم . لقد اتفقنا على أن تعذرونى هذه المرة . فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقوننى ، ولكننى سأعبّر عن آرائى تعبيراً حراً ،

وسأقول كل ما أعتقد به فى قرارة نفسى ٠ لكم أن لا تصدقونى ٠ ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى فى نفوسكم مهما يكن من أمر ٠

لننتقل الآن الى أبنـاء ذلك العجـوز ، ذلك الأب الذى هـو رب أسرة : ان واحداً منهم يجلس الآن أمامكم على دكة المتهمين ، وسأتحدث عنه ، فيما بعد ، حديثاً أطول ٠ أما الآخران ، فسأوجز الكلام عليهما٠ ان أكبرها هو واحـد من شـبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتـازة وذكاءً عظيماً ، ولكنه لا يؤمن بشىء ، لأنه كان قد نبذ وجحد أموراً كثيرة قبل ذلك ، كأبيه تماماً ٠ اننـا نعرفه جميعاً : لقد اسـتُقبل اسـتقبالاً حاراً فى مجتمعنا ، وأُحسنت وفادته ٠ وكان لا يخفى آراءه ٠ بالعكس : كان يجاهر بهـا ، وذلك يجيز لى أن أتكلم عنـه اليوم بشىء من الصراحة ، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً ، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف ٠ لقد انتحر بالأمس ، فى الطرف الأقصى من المدينة ، رجلٌ شقى ضعيف العقل مريض ، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً ، هو الخادم القـديم وربما الابن غير الشرعى لفيدور بافلوفتش ٠ أقصـد سمردياكوف ٠ لقد روى لى ذلك المسكين ، أثناء التحقيق الأولى ، وهو يبكى بكاءً متشنجاً ، كيف أن هذا الشـاب كارامازوف ، أعنى ايفـان فيدوروفتش ، قد روّعه بإباحيـة تفكيره ٠ كان يقـول له : « كل شىء مباح ، كل شىء مشروع ، كل ما قد يشـتهيه الانسـان فى هذا العالم حلال ، وما ينبغى أن يحرَّم شىء بعد الآن » ٠ ذلكم ما كان يعلّمه اياه ٠ ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صـوابه نهائياً بتأثير هذه الأفكار ، وان يكن من الجـائز أيضـاً أن يكون مرضـه ، وهو مرض الصرع ، قد أثر فى حالته العقلية كذلك ، وأن تكون الدرامة الرهيبـة المروّعة التى وقعت بالمنزل قد أسهمت فى اختلال عقله ٠ ومع ذلك فان هذا الأبله قد ساق فى يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن أن يفاخر

يمثلها رجل أذكى منه ، ولذلك أرى أن المفيد أن أذكرها هنا . لقد أفضى الىّ بقوله : « بين جميع أبناء فيدور بافلوفتش ، لا شك أن الذى يشبهه فى طبعه أكثر مما يشبهه سائرهم ، هو ايفان فيدوروفتش . » . أريد أن أختم ، بهذه الملاحظة ، التحليل السيكولوجى الذى عرضته لكم ، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الالحاح . ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبىء بالشقاء لشاب فى فجر حياته . لقد رأينا فى هذه القاعة ، منذ اليوم ، أن القوة التى لا سبيل الى مغالبتها ، أعنى قوة الحقيقة ، ما تزال تؤكد نفسها فى قلب هذا الفتى ، وأن عواطف التعلق العائلى لم يخنقها الكفر بالدين ولاقضى عليها الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان الى الوراثة أكثر مما يرجعان الى تفكيره الخاص .

« وانظروا بعد ذلك الى أصغر هؤلاء الأبناء . ان هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقياً يحاول ، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التى تدفع الى الانحلال والتى أخذ بها أبوه ، يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه « أسس روح الشعب » ، أو ما يطلق عليه فى أيامنا هذه ، فى صفوف بعض الأوساط المثقفة من مجتمعنا ، هذا الاسم الذى فيه شيء من الادعاء. لقد بحث عن النجاة فى الاعتصام بدير ، وكاد يرتدى هو نفسه مسوح الراهب . يخيَّل الىّ أنه لا بد أن يكون قد أحس ، ربما على غير شعور منه ، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسى منهما الآن ، فى بلادنا الشقية ، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروّعهم ما يشيع فى مجتمعنا من استهتار واستخفاف ، وتحلل من الأخلاق . واذ كان هؤلاء الأشخاص يعزون الشر كله الى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق ، فانهم يرجعون ، كما يُقال ، الى « تراب الوطن » ، ويسارعون الى الاحتماء بذراعى الأرض الأم التى أرضعتهم ،

مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روّعهم رؤى أشباح ، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة ، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير • وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم ، هرباً من منظر الأهوال التى تروّعهم • اننى ، من جهتى ، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق اللطيف المحبب الموهوب • وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وأن لا ينقلب ميله الى الأفكار الشعبية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، الى صوفيه ضبابية وغيبية جاهلة فى مجال الأخلاق ، والى تعصب قومى أعمى على صعيد السياسة• فهذان ضلالان هما فى نظرى أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقى المبكر الذى ولّدته فى أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثلها » •

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد ، على ذكر التعصب القومى والصوفية الغيبية • وواضح أن هيبوليت كيريلوفتش قد استرسل فى هذا الكلام المستفيض بدافع الفصاحة والبلاغة ، وأن ملاحظاته لا تمت الى القضية بأية صلة من الصلات • ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً ، ولكن هذا الرجل المصدور الحانق قد أراد أن يفصح عمّا بنفسه مرةً واحدة فى حياته على الأقل • وقد قيل فيما بعد انه انما انقاد فى تحليله النفسى لايفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شىء من حقد ، لان ايفان فيدوروفتش كان قد أحرجه وأربكه مراراً فى الأحاديث التى كانت تدور فى صالونات المجتمع ، فلم ينس هيبوليت كيريلوفتش ذلك ، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل • أما أنا فاننى أتساءل هل هذا الرأى صحيح له ما يسوّغه • مهما يكن من أمر ، فان هذا الجزء من خطابه لم يكن الا استهلالاً ، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب • واصل وكيل النيابة القاء خطابه فقال :

« أعود الآن الى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة .
انكم ترونه أمامكم جالساً على دكة المتهمين ، وأمام أبصاركم تخطر حياته كلها ، أعماله وسلوكه : لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء .
انه يمثل ، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية ، انه يمثل روسيا على حالتها الطبيعيــة ان صح التعبير ، ولكن لا روسـيا كلها من حسن الحظ ، لا روسيا كلها والحمد لله ! ولكننا نجـد روسـيا فيه ، نشم رائحتها المألوفة ، نحزر حضورها ! نعم ، نحن أناس على حالة الطبيعة ، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً . نحب الثقافة ونعجب بشيللر ، ولكننا نتحدث عن الفضائح في الكاباريهات ونجد لذةً في جرّ رفاق السكر من لحاهم . صحيح أننا نعرف كيف نكون أخيـاراً طيبين وكراماً أسخياء في المناسبات ، ولكن ذلك لا يحدث لنـا الا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا . نحن نحب الأفكار النبيلة ، ونلتهب حماسةً لها ، نعم ، نلتهب حماسةً لها ، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء بغير جهد نبذله ، وأن لا تكلفنا شيئاً ، خاصةً أن لا تكلفنا شيئاً . نحن لا نريد أن نبذل لها شـيئاً ، نحن نكره أن نكون مضطرين الى العطاء . ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ ، نحب الأخذ في جميع الميادين . لسـان حالنا يقول : اعطونا ، اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننـا لا نرضى بأقل من ذلك) ، ولا تعارضوا رغبـاتنا في شيء ، ترو! عندئذ كيف نستطيع ان نكون لطافاً محببين ؟ ما نحن بالطمّاعين النهمين طبعاً ، ولكننا نريد أن تعطونا مالاً ، أن تعطونا مالاً كثيراً ، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال : وسوف ترون عندئذ كيف نستطيع ، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس ، أن نبدّده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم ولهو مسعور . فاذا شـاء سـوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال ، أظهرنا ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت

حاجتنا اليه . ولكننى ألاحظ أننى أستبق الأمور . فلنعمد الى عرض الأشياء مرتبة منظمة . هذا هو الصبى الصغير يتركه أبوه ، « فيتسكع فى الفناء الخلفى حافى القدمين » ، على حد تعبير مواطننا المحترم المحبب ، الذى يرجع الى أصل أجنبى واأسفاه ! أعود فأقول : اننى لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم . سوف أكون المتهم له والمحامى عنه فى آن واحد . ذلك أننا بشر نحن أيضاً ، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوى من آثار فى النفس وما تتركه من بصمات على الطبع . ويكبر الصبى ، فيصبح مراهقاً ، ثم يصبح شاباً ، ويخدم فى الجيش ضابطاً . وفى أعقاب أعمال عنف بها ، وعلى أثر استفزاز الى مبارزة ، نُفى الى مدينة صغيرة نائية ، تقع قرب حدود وطننا الغنى الواسع . وهناك واصل حياته العسكرية ، واسترسل يستمر فى افراطه طبعاً ، فهو يلهو ويقصف ويعبث . ولا بد له من المال ، لا بد له من المال قبل كل شيء . لذلك قرر ، بعد مناقشات طويلة ومجادلات كثيرة ، أن يتساهل مع أبيه ، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل ، وقد تقاضى هذا المبلغ فعلاً . لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرّح فيها أنه يتنازل عن باقى الميراث ، وأنه يعد استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه فى أمر هذا الميراث . وفى تلك الفترة يلتقى بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة . أوه ! اعفونى من الدخول فى التفاصيل ، فقد سمعتم هذه القصة هنا ! ان المسألة مسألة شرف ومروءة ، مسألة تضحية ، فلا يسعنى الا أن أسكت باحترام واجلال . ان الصورة التى رُسمت لكم عن شاب هو انسان طائش منحل ولكنه يعرف كيف ينحنى أمام نفس نبيلة صادقة ، أمام مثل أعلى كريم رفيع ، ان هذه الصورة قد أحببناها جميعاً وأعجبنا بها جميعاً . ولكنكم قد اطلعتم بعد ذلك بلحظات ، فى هذه القاعة نفسها ،

على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، اطلعتم على قفا الصورة . سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض ، وسأعدل عن تحليل الأسباب التى دفعت الشاهدة الى تغيير موقفها . وهى أسباب موجودة حتماً . لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها ، وهى تبكى من آلام طال كظمها ، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذى قامت به ، العمل الذى ربما كان فيه طيش وعدم تبصر ، ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال . ففى منزل هذا الشاب ، فى منزل خطيبها ، انما رأت هذه الفتاة ، لأول مرة ، تلك النظرة التى تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية ، تلك النظرة التى لم تطق هذه الفتاة خاصة أن تحتملها . وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شىء ، حتى الخيانة) ، تعمّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهى تُفهمه بوضوح ، وربما بوضوح مفرط ، انها انما تعطيه هذا المال لتتيح له أن يمضى فى خيانته الى نهايتها . وكانت نظرتها الفاحصة تسأله : « هيه ! أتقبل المال أم لا ؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف ؟ » وقد قرأ هو نظرتها ، وأدرك ما يخفيه تفكيرها ، أدركه ادراكاً تاماً (ألم يعترف فى هذا المكان نفسه ، أمامكم ، أنه أدركه ؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد ، وأنفقها خلال يومين على لهوه فى حبه الجديد . فماذا نصدق ؟ هل الحقيقة قائمة فى الصورة الأولى التى رُسمت لنا عنه ، هل الحقيقة قائمة فى أسطورة تلك الاندفاعة النبيلة الكريمة التى حملت الضابط الشاب على أن يضحى بآخر ما يملك ، وعلى أن ينحنى أمام الفضيلة ؟ أم الحقيقة قائمة فى ظهر تلك الصورة ، فى ظهرها الذى يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز ؟ انه ليحدث فى الحياة عادةً أن توجد الحقيقة فى الوسط ، حين يكون هناك عنصران متناقضان . ولكن الأمر ليس كذلك فى الحالة التى ننظر فيها الآن . وانما أغلب الظن أن الشاب كان صادق النبل فى المرة الأولى

بقدر ماكان صادق الحسة والحطة فى المرة الثانية . فاذا سألتمونى : لماذا؟ قلت لأننا ازاء طبائع واسعة هى طبائع آل كارامازوف ــ وذلك ما أريد أن أخلص اليه ــ أعنى أننا ازاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة ، وعلى أن يرنوا بأبصارهم الى الهوتين كلتيهما فى آن واحد ، الهوة العليا التى تحلق فيها أنبل الصبوات وأرفع الأشواق ، والهوة السفلى التى تغوص فيها أحقر المخازى وأدنأ أنواع السقوط . تذكروا تلك الفكرة اللامعة التى عبَّر عنها ، منذ قليل ، السيد راكيتين، هذا الشاب الذى أوتى موهبة الملاحظة العميقة ، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب ، وذلك حين قال : « ان هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج الى الاحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها الى أرفع النبل » . ألا ان هذا لصادق كل الصدق : ان هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التى يقتضيها طبعهم بغير انقطاع . لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة ، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو اليهما معاً فى آن واحد ، والا شعرنا بالشقاء وعدم الرضى ، لأن حياتنا يعوزها الامتلاء عندئذ . نحن واسعون ، واسعون سعة أمنا الطيبة روسيا ؛ نحن نستطيع أن نضم فى أنفسنا كل شيء ، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء ! بالمناسبة ، أيها السادة : لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاسمحوا لى أن أستبق الأمور قليلاً . هل فى وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم ، الذى وصفت لكم طبعه ، قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه الذى أخذ فيه المال من خطيبته ــ لقاء مذلة لا مذلة بعدها ، وخزى لا يضارعه خزى ــ هل فى وسعكم أن تتصوروا أنه قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك فى عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال ، رغم الاغراءات التى لا حصر لها والحاجات التى

سبيل الى مغالبتها ، رغم هذه الاغراءات وهذه الحاجات التى تحفل بها حياته ؟ كيف يمكنه أن لا يمس هذه الذخيرة لا أثناء افراطه فى الشراب فى الكاباريهات ، ولا فى اللحظة التى قام فيها بمساع لا يعلمها الا الله فى سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التي يريد أن يوفيها ما يريده منها أبوه ، غريمه ومنافسه ؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفض الكيس ، ولو لم يكن له من هدف الا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذى يغار هو منه ، وأن يبقى الى جانبها حارساً يقظاً بانتظار اللحظة التى تقول له فيها اخيراً « أنا لك » ، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها الى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة . ولكن لا ، انه يأبى أن يمس حرزه ؟ وما حجته في ذلك ؟ ان الباعث الأول الذى ذكره ، كما قلنا منذ قليل ، هو رغبته فى أن يدخر هذا المال للحظة التى ستقول له فيها : « أنا لك ، فخذنى الى حيث تشاء » ، فيكون فى وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال . ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس الى الحجة الثانية ، وذلك باعتراف المتهم نفسه . كان المتهم يحدث نفسه قائلا : « ما ظللت أحمل هذا المال ، فاننى أكون شقياً ولكننى لا أكون لصاً ، لأننى أكون قادراً فى كل لحظة على أن أذهب الى خطيبتى التى أهنتها ، وأن أضع أمامها نصف المبلغ ، وأن أقول لها : « انظرى ! لقد أتلفت نصف مالك فى اللهو والقصف ، مبرهناً بذلك على أننى ضعيف مخل بما تقتضيه الأخلاق ، وعلى اننى شقى ان شئت (اننى استعمل تعابير المتهم نفسها) ، ولكنى ، مهما أكن شقياً ، لست بسارق ! فلو كنت سارقاً لما رددت اليك النصف الذى بقى لى من مالك ، وانما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول . » . يا لهذا التعليل لسلوكه ما أشد غرابته ! ان هذا الرجل العنيف ، ولكن الضعيف ، ان هذا الرجل الذى

عجز عن مقاومة اغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها فى ظروف تلطخ شرفه ذلك التلطيخ كله ، يجد فى نفسه على حين فجأة قوة رواقية تمكنه من أن يعلق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ فى لحظة من اللحظات ! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم ؟ اننى لا أتردد فى رفض هذا التعليل ؛ وسأجيز لنفسى أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف ، فى رأيى ، دمترى كارامازوف الحقيقى ، اذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه فى صدره • انه فى سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التى كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً ، كان سيفض الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل ، مثلاً ، فى أول الأمر ، قائلاً لنفسه عندئذ : « علام أدخر نصف المبلغ تماماً ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ؟ يكفى أن أرد اليها ألفاً واربعمائة ، فالأمران واحد » لأنه سيظل قادراً على أن يقول لها : ــ أنا شقى ولكننى لست لصاً ، فهأنا ذا أرد اليك ألفاً وأربعمائة روبل ، على حين أن اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئاً » • وبعد مدة من الوقت ، يفض الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى ، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة ، فمائة رابعة ، وهكذا دواليكم ؛ فما ينقضى الشهر الا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمائة ألف روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلاً لنفسه : « يكفى أن أرد اليها مائة روبل ، أليس الأمران واحداً ؟ « ــ أنا شقى ، ولكننى لست لصاً • لقد أتلفت فى اللهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل، ولكننى أرد اليك مائة روبل رغم كل شىء ، وما كان اللص أن يرد اليك شيئاً • » • وفى النهاية ، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة ، كان سيهتف قائلاً : « علام أرد اليها مائة روبل ؟ فلأنفقها كما أنفقت ما عداها ! » • ذلكم هو التصرف الذى كان سيتصرفه دمترى كارامازوف الحقيقى ، الذى نعرفه • على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع

تناقضاً مطلقاً • ان فى وسع المرء أن يتخيل كل شيء الا هذا • ولكننا سنعود الى هذا الأمر فيما بعد » •

وبعد أن عرض هيبوليت كيريلوفتش ، بالترتيب ، كل ما تبيّن من التحقيق الأولى فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الابن وأبيه ، وبعد أن أشار مرة أخرى الى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أى شيء يجيز لنا أن نقطع برأى حاسم وأن نجيب اجابة شافية على سؤالنا أى الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث ، انتقل هيبوليت كيريلوفتش الى الكلام عن الحالة النفسية التى كان عليها ميتيا حين غدا اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه فى لحظة من اللحظات ، فجاء فى هذه المناسبة على ذكر تقرير الخبرة الطبية •

٧

لمحة تاريخية

يريد تقرير الخبرة الطبية أن يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض « المانيا » . أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً ، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه : فلو كان لا يملك عقله كاملاً ، لكان من الممكن أن يتصرف تصرفاً أقرب الى الذكاء . أما أن يكون مصاباً بمرض « المانيا » ، فذلك أمر أسلّم به ، ولكن مرض « المانيا » عنده لا ينصب على نقطة واحدة هي تلك التى أشار اليها تقرير الخبير الطبى ، أعنى الفكرة التى رسخت فى ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم . ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحنق الذى يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل ، نستطيع لتعليل ذلك أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن بالمتهم استعداداً للجنون . اننى ، من جهتى ، أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذى يقول ان المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية ، وأنه طبيعى سليم من الناحية السيكولوجية ، ولكنه منفعل حانق حاقد . تلكم هى عقدة القضية : ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل ، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من

غضب متصل وحنق مستمر . ان هناك سبباً آخر كان يثير غضبه ، وهو سبب خاص : انه الغيرة ! » .

أفاض هيبوليت كيريلوفتش بعد ذلك فى الكلام على الهوى الجامح المشئوم الذى شدّ المتهم الى جروشنكا ؛ وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذى ذهب فيه المتهم الى « تلك المرأة الشابة » على نية أن «يضربها» ـ على حد تعبيره ـ فاذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها . قال وكيل النيابة : « تلك كانت بداية هذا الحب . وفى ذلك الأوان نفسه انما ألقى العجوز ، أبو المتهم ، عينيه على هذه المخلوقة . يا للمصادفة العجيبة المشئومة ! لقد اشتعل القلبان حباً فى آن واحد ، فى ساعة واحدة تقريباً ، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة . وكان الهوى الذى ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف . وفى وسعنا أن نصدّق أقوال هذه المرأة الشابة . لقد ذكرت لنا ، فى هذا المكان نفسه ، أنها قد ضحكت على الرجلين كليهما وسخرت منهما كليهما . وتلكم هى الحقيقة : لقد اشتهت فجأة أن تضللهما وأن تغرر بهما كليهما . لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل ، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها وفتنت فكرها على حين فجأة ، فاذا بالرجلين يزحفان وراء قدميها آخر الأمر . فالعجوز الذى كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً الا المال ، أعدّ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديها اليها متى ارتضت أن تمن عليه بزيارة فى منزله ، بزيارة لا أكثر؛ ثم اذا هو يعلن أنه مستعد لأن يلقى على قدميها اسمه وثروته متى قبلت أن تصبح زوجته الشرعية . ان أمامنا شهادات واضحة جداً فى هذا الموضوع . أما المتهم فان المأساة التى صار اليها وضعُه واضحة لنا مبسوطة أمامنا . وهى « لعبة » هذه الانسانة مع ذلك . ان المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً ، لأنه لم يعرف أملاً ، أعنى لم يعرف

أملاً حقيقياً ، الا فى آخر لحظة ، حين جئنا أمام المرأة التى سببت له تلك الآلام كلها ومدّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه ، غريمه ومنافسه . وقد قبض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فلما رأت أنه يعتقل، استولت عليها ندامة صادقة ، فهتفت تقول : « اسجنونى معه ، أريد أن أتبعه ، لأننى أنا التى أوردته موارد الهلاك ، لأننى أنا المذنبة ! » . ان السيد راكيتين ، الشاب الذى يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذى تحدثت عنه منذ قليل ، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية ، ووصف طبع بطلتنا فى بضع جمل موجزة ، فقال : « خيبة الآمال وتبدد الأوهام فى ميعة الصبا ؛ والمقاساة من كذب البشر فى سن مبكرة ؛ ثم السقوط ؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها ؛ وأخيراً موكب البؤس والفقر ، ولعنات أسرة محترمة ، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعده الى هذا اليوم محسناً اليها منعماً عليها . هكذا تجمّع الغضب وتراكم الحقد فى قلبها الذى لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة . فنشأ عن ذلك طبع حيسوب ، وميل الى كنز المال ، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام . » . ان هذا التحليل السيكولوجى يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما فى آن واحد ، بدافع النزوة وحدها ، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما الى الدمار . وفى أثناء ذلك الشهر الملىء بحب لا يعرف الأمل ، وبسقوط أخلاقى ، وبالخيانة للخطيبة ، وبالاستيلاء على مبلغ أؤتمن عليه وليس له ، فى أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف ، عدا هذا ، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذاباً قاسياً ؛ وممن كانت غيرته ؟ من أبيه نفسه ! وأخطر ما فى الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التى توله بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذى كان ابنه يعده حقاً آل اليه من ميراث أمه ،

ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه • نعم ، اننى لأعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه ، قاسى الوقع فى قلبه ! حتى ليمكن أن يتصور المرء أن يُصاب الشاب من ذلك بمرض « المانيا » • فليست المسألة مسألة مالٍ فى الواقع ، وانما هى مسألة أن هذا المال نفسه يُستخدم فى تحطيم سعادته باستهتار يثير الحنق والغيظ كل تلك الاثارة ! » •

بعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم فى قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً ، وذكر الوقائع التى تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة • قال :

« كان فى أول الأمر يذم ويقدح فى الكاباريهات ، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئاً غير أن يذم ويقدح • انه يحب صحبة الناس ، ويحلو له أن يفضى ، الى جميع من يلقاهم ، حتى بأشد أفكاره خطراً وايذاءً ، متوقعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يسمعون لبوحه الى حين ، أن يظهروا له عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم لأفكاره • كان يقتضيهم ، لا يدرى أحد لماذا ، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه ، وأن يؤيدوه تأييداً كاملاً ، فلا يعارضوه فى شىء مما عقد النية عليه ، والا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شىء فى الكاباريه (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التى وقعت للمتهم مع الكابتن سنيجيريف) • وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر الى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة ، وأن دمترى كارامازوف ، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره ، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلى الذى عُقد فى الدير ، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا ، وصوَّر ذلك المشهد الكريه الذى وقع فى منزل الأب بعد الغداء يومَ اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه

العنف ثم تابع وكيل النيابة كلامه) • لست أمضى الى حد الادعاء أن المتهم كان ، قبل وقوع مشهد العنف هذا ، قد فكر فى الجريمة ملياً ، وعزم عزماً جازماً قاطعاً على ارتكابها • ولكننى أقول ان فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعياً ، وهذا ما تثبته الوقائع ، وتثبته أقوال الشهود ، كما تثبته اعترافاته هو نفسه • اننى اعترف لكم ، يا سادتى المحلّفين ، أننى ظللت حتى هذا اليوم أتردد فى اتهام الرجل بأنه ارتكب ، عن سابق تصور وتصميم ، جريمة القتل هذه التى كان يحس بأنه مدفوع اليها • صحيح أننى كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً فى أن يقدم فى المستقبل على انهاء القضية بهذه الخاتمة الفاجعة ، ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر فى هذا الحل الا على أنه احتمال قد يتحقق ، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه ، وطريقة بعينها• وقد زالت اليوم ترddداتى هذه ، حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التى قدمتها الآنسة فرخوفتزيفا الى المحكمة • لقد سمعتم يا سادتى كيف صاحت تقول : « هذه خطة قتل ! » بهذا وصفت تلك الرسالة المشئومة التى كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو فى حالة سكر • والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة ، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت عن سابق تصور وتصميم • لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين ، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف ، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثمانى واربعين ساعة ، أنه اذا لم يستطع أن يحصل على المال فى الغد ، فليقتلن أباه ليستولى على المبلغ المخبأ تحت الوسادة فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هل سمعتم ؟ « شريطة أن يكون ايفان غائباً » • كان اذن فى تلك اللحظة قد عيّن جميع تفاصيل التنفيذ ، ووزن جميع الاحتمالات • ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذى ورد وصفه فى الرسالة ! ان التصور والتصميم

واضحان : لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة • المتهم نفسه أعلن هذا كتبه بخط يده وذيّله بتوقيعه • ولم ينكر المتهم توقيعه • فاذا قيل انه كان فى تلك اللحظة سكران ، قلت ان ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً • بالعكس : لقد كتب وهو فى حالة السكر ما سبق أن فكرّ فيه ملياً وهو فى حالة الصحو • فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر ، لما كشف عن نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر • وقد يقال أيضاً : فلماذا أعلن عن نياته قبل ذلك جهاراً فى الكاباريهات ؟ ان الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق تصور وتصميم حقاً ، يصمتون فى العادة ، ويكتمون ما يجول فى أذهانهم ، ويخفون ما عقدوا العزم عليه ! هذا صحيح ، ولكن المتهم لم يكن يصيح ذلك الصياح الا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبر ، وانما كان يشعر بمجرد الرغبة فى القتل والميل الى القتل • ولقد اصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر الا قليلاً • وفى المساء الذى كتب فيه تلك الرسالة ، بعد أن سكر فى كاباريه « العاصمة الكبرى » ، بدا صامتاً على غير عادته ، ولم يلعب البلياردو ، وظل منتحياً لا يقترب من أحد ، ولا يخاطب أحداً ، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل فى محل تجارى • ثم انه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً ، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد فى كاباريه • صحيح أن المتهم ، حين عزم عزماً حاسماً على ارتكاب الجريمة ، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف فى الكلام بالمدينة قبل ذلك ، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادةً عليه بعد تنفيذ خطته ، ولكن لم يكن له فى الأمر حيلة ، فقد فات الأوان وليس فى وسعه أن يسترد الأقوال التى أفلتت من لسانه • وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين ، فما يزال يعوّل على الحظ • لقد كان يتكل على نجمه يا سادتى ! على أن من واجبى أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة فى

سبيل أن يؤخر اللحظة المشئومة ، آملاً أن يتجنب هذا الحل الدموى • كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به : « سأحاول فى الغد أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف يسيل الدم » • هنا أيضاً يبوح وهو فى حالة السكر بما كان قد انتواه وهو فى حالة الصحو ، وسوف يتصرف فى حالة الصحو هذا التصرف نفسه الذى وصفه فى رسالته • • » •

عرض هيبوليت كيريلوفتش بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التى قام بها ميتيا فى سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة • روى مساعيه لدى سامسونوف ، والرحلة التى قادته الى عند لياجافى ، مستشهداً على ذلك بوقائع مستمدة من ملف القضية •

« عاد الى المدينة أخيراً وقد انهدت قواه ، وأرهقه التهكم عليه ، وأنهكه الجوع ، وباع ساعته ليدفع للحوذى أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمائة روبل ، فى زعمه ، فى زعمه !) ، ومزقته الغيرة لأنه ترك محبوبته التى تشعل نار قلبه ، ويخشى أن تذهب أثناء غيابه الى فيدور بافلوفتش ••• عاد الى المدينة أخيراً • الحمد لله ! لم تذهب حبيبته الى فيدور بافلوفتش • وها هو ذا يوصلها بنفسه الى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف • تلك سمة سيكولوجية خاصة تتميز بها هذه القضية) • ثم يسارع الى المرابطة فى مرصده خلف الحديقة • وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التى أصابت سمردياكوف ، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر • الساحة اذن خالية• وهو يعرف « الاشارات السرية » • أليس فى هذا اغراء قوى له ؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شىء ، ويذهب الى هوخلاكوفا ، السيدة الجليلة التى تقيم فى مدينتنا الى حين ، والتى نحمل لها جميعا هنا أعمق الاحترام • ان هذه السيدة تشفق عليه وترثى لحاله وتهتم بمصيره

منذ زمن ، فها هي ذي تسدى اليه بنصيحة حكيمة عاقلة ، وهي أن يعدل عن هذا الحب المخزى، وأن ينقطع عن هذا التنقل اللاهى بين الكاباريهات، وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه فى هذه الترهات الباطلة ، فيسافر الى سيبيريا ، الى مناجم الذهب . وقالت له : « هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التى تفور وتغلى فى نفسك ، وهنالك ستجد فرجاً لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات . . » .

وبعد أن قصّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث ، وحين وصل الى اللحظة التى علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف ، وصف الغضب الذى استولى على المسكين ، والغيرة التى تأججت نيرانها فى قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه ، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش . واعتقد هيبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا الى الدور الذى لعبته المصادفة ، فقال :

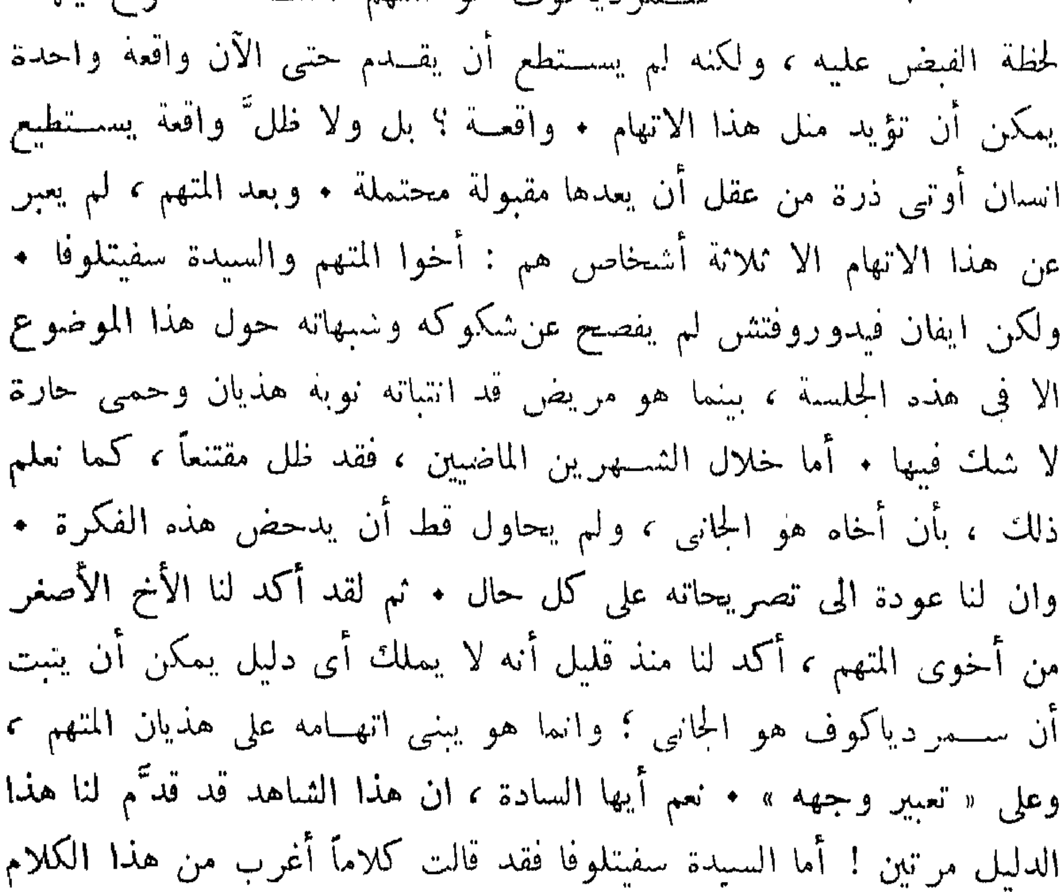
« لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له ان حبيبته موجودة فى موكرويه مع « الصديق القديم المشروع » ، لكان من الجائز أن لا يحدث شيء البتة . ولكن الخادمة ، وقد ماتت من الخوف ، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه ، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً ، فما ذلك الا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة فى الحال . ولكن لاحظوا هذه النقطة : ان المتهم ، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً ، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسى . فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر ؟ ما دام قد فكر فى ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل ، فمن الطبيعى أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً . لذلك أدرك عفو الخاطر أن هذا المدق يفى بالغرض ويحقق الهدف . معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشئوم على غير شعور منه ، على غير ارادة منه . وها هو ذا الآن فى حديقة

أبيه : الساحة خالية ، لا شهود ، لا شيء الا الليل العميق ، والظلمات ، والغيرة . وتصوّر أنها الآن هناك ، قرب غريمه ، مع منافسه ، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزىء به . استولت هذه الفكرة على المتهم . ليس الأمر فى هذه المرة أمر شكوك وشبهات ، ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال ، وا أسفاه . قال لنفسه : « الخيانة واضحة ! » هى هنا ، هنا ، فى هذه الغرفة التى يرى نافذتها مضاءة ... انها مختبئة وراء الستائر . ويتسلل المسكين نحو النافذة ... هل تريدون منه أن يكتفى بأن يلقى على الغرفة نظرة احترام ، ثم يهدأ على الفور ، وينصرف فى تعقل وحكمة ، تجنباً لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع فى عمل خطر مجافٍ للأخلاق ؟ ذلكم هو مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التى كان عليها فى تلك الدقيقة ! اننا نعرف الحالة النفسية التى كان عليها ، نعرفها من وقائع ثابتة ، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالاشارات التى يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب ، فيدخل الى البيت ! » .

حين جاء هيبوليت كيريلوفتش على ذكر الاشارات السرية ، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلاً ، وأن يقطع ، الى حين ، عرضَه للأدلة التى تدين المتهم ، وأن يندفع فى تحليلات تتناول شخص سمردياكوف. كان واضحاً أنه انما يريد أن يقضى على ذلك الافتراض الذى يذهب الى أن سمردياكوف قد يكون هو الجانى ، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالاً نهائياً . لم يهمل وكيل النيابة أى أمر من الأمور التفصيلية . وأدرك الجميع أنه ، وان كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء ، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً .

٨

مقالة عن سمردياكوف



بدأ هيبوليت كيريلوفتش كلامه عن سمردياكوف بهذا السؤال : « أولاً ، كيف نشأ هذا الافتراض ؟ » ثم قال : « ان أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه . صرخ يتهمه لحظة القبض عليه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام . واقعة ؟ بل ولا ظلّ واقعة يستطيع انسان أوتى ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة . وبعد المتهم ، لم يعبر عن هذا الاتهام الا ثلاثة أشخاص هم : أخوا المتهم والسيدة سفيتلوفا . ولكن ايفان فيدوروفتش لم يفصح عن شكوكه وشبهاته حول هذا الموضوع الا في هذه الجلسة ، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحمى حارة لا شك فيها . أما خلال الشهرين الماضيين ، فقد ظل مقتنعاً ، كما نعلم ذلك ، بأن أخاه هو الجانى ، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة . وان لنا عودة الى تصريحاته على كل حال . ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوى المتهم ، أكد لنا منذ قليل أنه لا يملك أى دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجانى ؛ وانما هو يبنى اتهامه على هذيان المتهم ، وعلى « تعبير وجهه » . نعم أيها السادة ، ان هذا الشاهد قد قدّم لنا هذا الدليل مرتين ! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب من هذا الكلام

أيضاً ، قالت : « ما عليكم الا أن تصدقوا المتهم ، فليس هو بالرجل الذى يكذب ! » • تلكم هى جميع الأدلة المادية التى أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن ، وقد قدمها الينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمهم كثيراً • ومع ذلك ، أيها السادة ، فان الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر ، رغم كل ما فى ذلك من غرابة ، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل • » •

وهنا اعتقد هيبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمردياكوف ، الذى « أنهى حياته أثناء نوبة جنون » ، فصوّره على أنه امرؤ ضعيف العقل ، يملك مبادىء ثقافة ، ولكن المفاهيم الفلسفية التى تتجاوز حدود ذكائه قد هزّت عقله ، كما أن بعض الآراء الحديثة فى الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روّعت قلبه • وقد تعلم هذه النظريات ، على الصعيد العملى ، من الحياة الفاسقة التى يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذى ربما كان أباه أيضاً ، وتعلمها على الصعيد النظرى من الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين ايفان فيدوروفتش ، الابن الثانى من أبناء مولاه • كان ايفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين الى حين ، من قبيل التفكه والتندر ، ومن قبيل الضحك على هذا المسكين فى أغلب الظن ، وذلك حين لا يكون لديه شىء آخر يسرّى به عن نفسه » •

وواصل هيبوليت كيرلوفتش كلامه قائلاً :

« لقد وصف لى هو نفسه الحالة النفسية التى كان عليها طوال الأيام الأخيرة التى قضاها فى منزل مولاه • وأيّد ذلك أشخاص آخرون : أيّده المتهم نفسه خاصةً ، وأيّده أخو المتهم ، بل وأيده جريجورى أيضاً ، أى أيده جميع أولئك الذين يعرفونه من كثب • ثم ان سمردياكوف ، الذى هدّه مرض الصرع ، « كان وجلاً كدجاجة » . لقد أسرّ الينا المتهم

فى عهد لم يكن يتصور فيه ، بعد ، ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من ضرر له ، أسرّ الينا قوله : « كان يرتمى على قدمى ويقبلهما » .
وقال لنا فى يوم آخر ، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه : « هو دجاجة مصابة بداء الصرع » . ومع ذلك فان هذا الرجل الضعيف هو الذى يتخذه المتهم نجياً له يفضى اليه بأسراره ويبوح له بخفايا نفسه (وذلك ما اعترف هو به) ، ويبلغ من ترويعه وارهابه وتخويفه أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً يزوده بالأخبار ويحمل اليه الأنباء ، فلما ارتضى أن يكون « مخبراً » ، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود الظرف المودع فيه المال ، وعلّمه فى الوقت نفسه الاشارات التى سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل . وهل كان فى وسعه أن لا يطلعه عليها ؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفاً ، رغم أن جلاّده كان قد قُبض عليه فى ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتص منه ، قال لنا : « لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلنى ، رأيت بعينىّ أنه سيقتلنى لو كتمتها عنه . كان لا ينفك يشتبه فىّ ويشك فى صدقى ؛ فكنت حين يروّعنى ويرهبنى ، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار التى أعرفها ، لأدفع عن نفسى غضبه ، مبرهناً له على براءتى وصدقى ، منقذاً بذلك حياتى » . تلكم هى الألفاظ التى أستعملها المسكين فى كلامه بنصها ، وقد دوّنتها . « كنت اذا أخذ يصرخ ، ارتمى جاثياً على ركبتىّ أمامه » . وكان الخادم المسكين ، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة ، قد حظى بثقة مولاه الذى أيقن من صدقه وأمانته يوم ردّ اليه الأوراق النقدية الضائعة . ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان مولاه هذا الذى كان يحبه ويرى أنه محسن اليه منعم عليه .
ان أطباء الأمراض العقلية البارزين يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء الصرع ميالون الى اتهام أنفسهم بغير انقطاع ، وأنهم يقاسون عذابا شديداً

من شعورهم بأنهم « مذنبون » فى حق أحد أو فى حق شىء ، وأن تبكيت الضمير يرهقهم ارهاقاً مضنيا دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فى كثير من الأحيان ، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع فى وهمهم أنهم ارتكبوها . فما بالكم بانسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالارهاب . يضاف الى ذلك أن سمردياكوف كان يحس سلفاً أن الأحوال التى يرى تطورها فى منزل مولاه قد تؤدى الى بلاء عظيم وشر مستطير . فحين أراد الابن الثانى من أبناء فيدور بافلوفتش أن يسافر الى موسكو قبيل وقوع الكارثة ، تضرع اليه سمردياكوف أن يبقى ، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل ، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التى تساوره ، واكتفى بالالماع اليها الماعاً ، ولكن ايفان لم يفهم عنه . يجب أن نلاحظ أن وجود ايفان فيدوروفتش فى المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له ، كأنه كان على يقين من أن شيئاً لن يحدث ما بقى ايفان حاضراً . تذكروا ما كتبه دمترى كارامازوف فى « رسالة السكر » التى بعث بها الى كاترين ايفانوفنا : « شريطة أن يكون ايفان غائباً » . كان حضور ايفان اذن ضمانة لاستتباب الأحوال وطمأنينة البال فى نظر الجميع . ولكنه سافر . فما أن انقضت على رحيله ساعة واحدة ، حتى انتابت سمردياكوف نوبة صرع . وذلك أمر مفهوم معقول . يجب أن لا ننسى أن سمردياكوف كان ، خلال الأيام الماضية ، وقد هدّه الخوف وأضناه نوع من اليأس النفسى ، كان يحس بدنوّ نوبة من نوبات الصرع هذه التى سبق أن انتابته مراراً فى ساعات التوتر العصبى والانهيار النفسى . صحيح أن من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة ، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا مقدماً بوشك حدوثها .

ما ان ابتعدت عربه ايفان فيدوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف الى القبو لشأن من شئون الخدمة . وكان فى تلك اللحظة يرزح تحت وطأة الشعور بالعزله والهجران ، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعاً ، وكان يتساءل وهو يهبط السلم : « هل ستوافينني نوبة ؟ ما عسى يحدث لو سقطت الآن ؟ » . وبسبب هده الحالة النفسيه ، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذى ألقاه على نفسه ، انما حدث له على حين فجأة تقلص فى الحلق هو ذلك التقلص الذى يسبق موافاة النوبة دائماً ، ثم اذا هو يتدحرج الى القبو مغشياً عليه . ان هذا الحادث ، الطبيعى تماماً ، قد ولد شكوكاً وشبهات ، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيَّتة ، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً . فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح . غير أن هناك سؤالاً ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو : ما عسى يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم ؟ ما عسى يكون الحساب الذى أجراه ، وما عسى يكون الغرض الذى سعى الى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها ؟ لنترك الطب جانباً . فانه يقال ان الطب يمكن أن يخطىء ، وكثيراً ما يؤدى الى ضلال الرأى وفساد الحكم ، وان الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض صادق ومرض مصطنع . لنسلم بأن هذا صحيح . ولكننى أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال : ما هى الفائدة التى كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع ؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة ، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت اليه انتباه جميع من فى المنزل سلفاً بنوبة صرع يفتعلها ؟ لاحظوا ، يا سادتى المحلفين ، أنه كان فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليلة حدوث الدرامة ، خمسة أشخاص لا أكثر : فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه . ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل ، وأما الثانى فهو خادمه جريجورى ، ولكن جريجورى أوشك

أن يكون قتيلاً هو نفسه ؟ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى ، الخادمة مارفا اجناتفنا ، ولكن من المضحك أن نتخيل أن تكون هى التى قتلت مولاها • لم يبق هنالك اذن الا شخصان ، هما المتهم وسمردياكوف • ولما كان المتهم يدعى أنه برىء ، فلا يمكن اذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد الا سمردياكوف • ليس هناك حل آخر ، اذ يستحيل اكتشاف شخص يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين • على هذا النحو انما نشأ اذن ذلك الافتراض « البارع » الذى سمح بتوجيه هذا الاتهام الرهيب الى أبله مسكين هو ذلك الشقى الذى انتحر بالأمس • لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا اليه اتهامهم ! ولو كانوا يملكون ولو ظل شبهة تسمح باتهام شخص سادس ، لاستحى المتهم نفسه ــ وأنا من هذا على يقين ــ أن ينسب الجريمة الى سمردياكوف ، ولوجه التهمة عندئذ الى ذلك الشخص السادس • ان الاشتباه فى سمردياكوف سخف محض !•

« ولكن دعونا من السيكولوجيا أيها السادة ، ودعونا من الطب ، ودعونا حتى من المنطق ، ولنقتصر على النظر فى الوقائع وحدها ، وفى الظروف المادية • لنترك للوقائع أن تتكلم • لنفرض أن سمردياكوف قد قتل ، ولنتساءل كيف قتل ؟ أقتل وحده ، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم• لننظر فى الافتراض الأول ، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده• من البديهى أنه اذا كان قد قتل ، ففى سبيل أن يجنى نفعاً ما ، ولما كان لا يجيش فى نفسه أى باعث من البواعث التى يمكن أن تحض المتهم على القتل ، كالكره والغيرة وما الى ذلك ، فان سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة الا بدافع الطمع فى المال طبعاً ، وذلك ليستولى على تلك الثلاثة آلاف روبل التى رأى مولاه يودعها فى ظرف ؛ حتى اذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضى الى شخص آخر ــ الى

شخص يعنيه الأمر كثيراً ، أعنى الى المتهم ــ بجميع التفاصيل المتصلة بالمال ، وبالاشارات السرية ، وبالمكان الذى خُبىء فيه الظرف ، وبالكتابة التى كتبت على الظرف ، وبالطريقة التى تسمح بدخول منزل رب الدار. أفقال هذا الكلام ليفضح نفسه ؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولى عليه ويحرمه منه ؟ رب قائل يقول انه انما تكلم من شدة خوفه ! عجيب ! هل يقبل رجلٌ لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها ، جريئة هذه الجرأة كلها ، أن يفضي ــ عن خوف ! ــ بمعلومات لا يعرفها أحد فى العالم سواه ، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد اذا هو كتمها ؟ لا ، لا ، ان الرجل مهما يكن شديد الخوف ، ما كان له أن يبوح لأحد ، بعد أن انتوى ارتكاب مثل هذه الجريمة ، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والاشارات ، ولو فعل ذلك لكان يشي بنفسه سلفاً . ان هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر، أن يكذب وأن يخترع ويلفق اذا هو أُجبر على الكلام ، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا ! ولو لم يذكر شيئاً عن المال ، ثم استولى على الظرف لنفسه ، لما خطر ببال أحد فى العالم ــ أكرر هذا ــ أن يتهمه بالقتل طمعاً فى المال ، لأن أحداً غيره فى العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ ، ولا رأى هذا المبلغ ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً فى المنزل . واذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل ، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه الى ارتكاب الجريمة . ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أى سبب يمكن أن يحضه على القتل ، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبه ويكرّمه بمحضه ثقته ، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله ، ولكان آخر من يمكن أن تُوجّه نحوه الشكوك ، ولفكّر الناس عندئذ فى اتهام ذلك الذى تجيش فى نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها فى كل مكان ، ولم يكتمها عن أحد ،

بل كان يصارح بها أول قادم ، أى لا تهم الناس عندئذ ابنَ المجنى عليه ، أعنى دمترى فيدوروفتش .أفلا يكون هذا فى مصلحة القاتل سمردياكوف ؟ فما قولكم اذا كان دمترى هذا نفسه هو بعينه الشخص الذى أفضى اليه سمردياكوف ، بعد أن عقد النية على القتل ، بالمعلومات التى تتصل بالمال والظرف والاشارات السرية ؟ ياللمنطق الواضح !

« ويجيء يوم ارتكاب الجريمة التى انتواها سمردياكوف ، ويتدحرج الى أرض الكهف « متظاهراً » بنوبة صرع . ولكن ما هو هدفه من ذلك ؟ أيكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجورى ، الذى كان قد قرر أن يداوى مرضه ، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها الى وقت آخر ، ليتولى بنفسه حراسة المنزل ، اذ يلاحظ أن المنزل أصبح بغير حراسة ؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار ، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذى يخشى أن يداهمه ولا يكتم خشيته هذه ، أن يبادر رب الدار الى مزيد من الحذر والاحتياط والتيقظ ؟ أكثر من ذلك : هل كان سمردياكوف يستهدف ، من التظاهر بنوبة الصرع ، أن يُنقل من المطبخ الذى كان ينام فيه عادةً والذى كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد ، هل كان يستهدف أن يُنقل الى الطرف الآخر من المبنى الملحق ، الى غرفة جريجورى ليُمدَّد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوز وامرأته الا ثلاث خطوات ، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافته نوبة من نوبات الصرع ، بأمرٍ من رب الدار ومن مارفا اجناتفنا الرحيمة الشفوق ، حتى اذا أُضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل ، ليحسن تمثيل دوره ، فاذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك

ما حدث فعلاً ، بشهادة جريجورى وامرأته) ؟ أيكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله ، قد تخيل هذه التمثيليـة كلهـا ، ليتسنى له أن ينهض فيمضى نقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر ؟

« رب معترض يقول لى ان سمردياكوف انما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه ، وانه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالظرف والاشارات السرية ، ليغرى المتهم بأن يجىء فيتولى القتل بنفسه ، حتى اذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال ، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان الدار ، نهض سمردياكوف ، نعم ، نهض فمضى ... مضى يفعل ماذا ؟ مضى ليقتل مولاه مرةً أخرى ، وليسرق مرة أخرى المال الذى سبقه اليه المتهم وذهب به . أتضحكون أيها السادة ؟ انى لأعترف لكم بأننى أشعر أنا نفسى بالخجل حين أرانى مضـطراً الى النظر فى افتراضـات من هذا النوع . ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسـير الذى يقدمه لنا المتهم . فتصوروا وتأملوا ! ان المتهم يدعى أن سمردياكوف قد قام بقتل مولاه وبسلبه ماله ، فى الوقت الذى كان هو فيه قد غادر المنزل بعد أن جندل جريجورى . لن أطيل الكلام على هـذا التسـاؤل : كيف تسـنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شىء هذا التنبؤ ، وأن يحسب حساباً دقيقاً ان الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيجىء لا لغرضٍ آخر غير أن يلقى من خلال النافذة نظرة احترام ، وأنه على علمه بالاشارات السرية سينصرف فى الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف ؟ أيها السادة ، اننى أسألكم جاداً : فى أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة ؟ دلُّونى على تلك اللحظة ، والا لم يمكن النظر فى هذا الافتراض أساساً .

« قد يقـال لعل نوبة الصرع كانت صـادقة غير مصطنعة ، ولعـل المريض صحا من غيبوبته فجـأة ، فسـمع صراخاً فخـرج . وماذا بعد

ذلك ؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة قائلا : « آ ... عندى فكرة ! سأمضى أقتل مولاى ! » . ولكن أنَّى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه ؟ اننى أتوقف عن الاسترسال في مثل هذا الكلام ، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً ...

« وقد يقول نفر ممن أوتوا فكراً مرهفاً : ربما كان هذا كله صحيحاً ، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة ، فارتكباها معاً واقتسما المال ؟

« ذلكم في الواقع افتراض له وزنه ، افتراض يستند الى قرائن قويه جداً ، كما سترون : أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده ، بينما الثانى يستريح متظاهراً بنوبة صرع ، لا لشيء الا أن يجعل جميع من بالمنزل في يقظة ، وأن لا يثير القلق فى نفس مولاه وفى نفس جريجورى ! ألا أنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التى دفعت الشريكين الى تخيل خطة حمقاء الى هذا الحد ! وقد يقول بعضهم ان مشاركة سمردياكوف فى الجريمة لم تكن مشاركة فعَّالة ، وانما كانت مشاركة سلبية لعله قبلها على مضض ، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه فى ارتكاب الجريمة ، وذلك من شدة ماشعر به من خوف ، وما كان يقاسيه من ارهاب صاحبه له ؟ واذ أدرك مع ذلك أنه سيتهم بأنه سهَّل مقتل مولاه لأنه لم ينبِّه ولم يسارع الى الدفاع عنه ، فلعله توسَّل الى دمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له : « اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل ، فذلك أمر لا شأن لى به » . ولكن لو صحَّ هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبِّه المنزل كله حتماً ، ولما قبل دمترى كارامازوف الذى لا بد أن يتنبأ بذلك ، لما قبل تدبيراً من هذا النوع . ومع ذلك فلنسلم بأن دمترى قد ارتضى هذا التدبير . سوف ينتج عن ذلك فى هذه الحالة

أن دمترى كارامازوف يكون هو القاتل ، هو المحرّض والفاعل فى آن واحد ، أما سمردياكوف فلا يكون الا شريكاً مستتراً ، بل انه يكون أقلّ من شريك ، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم ارادته من شدة الخوف ؛ ولن يفوت المحكمةَ عندئذ أن تحدد درجة مسئولية كل من الرجلين. ولكن ما الذى رأيناه بالفعل ؟ رأينا المتهم ، ما ان قُبض عليه ، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف ، واتهمه بأنه « وحده » الفاعل . انه لم يشِ به شريكاً له فى الجرم ، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل . صاح يقول : « هو القاتل ، هو وحده القاتل ، هو الذى قتل وسرق ! . الجريمة من صنع يديه وحده ! » . فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة ؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن . وانظروا أيضاً الى الخطر الذى يعرّض له دمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف : انه هو القاتل الرئيسى ، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة فى الأمر الا نصيب ضئيل وحصة تافهة ، فما هو الا شاهد لم يتحرك ساكناً ، ولبث راقداً على حصيرته وراء الحاجز ؛ فحين يلقى دمترى كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل ، فانما يعرّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر الى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور ، ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها . كان سمردياكوف سيروى عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً ، ولكنه لم يتولّ هو تنفيذ القتل ، وانما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل . ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة فى الجريمة نصيب ضئيل ، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه ، اذا هو عوقب ، أخفّ كثيراً من العقاب الذى ستنزله المحكمة فى الفاعل الرئيسى الذى يحاول أن يلقى الجرم كله على

عاتقه • فلو كان الأمر كذلك ، اذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع الى الاعتراف بكل شيء • ولكننا لم نر شيئاً من هذا • ان سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم ، رغم أن القاتل قد اتهمه اتهاماً قاطعاً صريحاً ، وكان يسمّيه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذى ارتكب الجريمة • وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه « هو » الذى زوّد المتهم بالمعلومات التى تتعلق بالمبلغ ، وبالاشارات السرية ، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً • فهل كان يمكن أن يكشف لقاضى التحقيق عن هذه الحقائق كلها ، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه ، لو كان شريكه فى الجرم فعلاً ؟ ألا انه لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل ، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها • ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً • ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف الا انسان برىء ، انسان لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك فى الجريمة • وأمس شنق هذا الرجل نفسه وهو فى حالة انهيار مرضى مرده الى داء الصرع والى النازلة التى ألمت بذويه ؛ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص : « أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً » • فلماذا لم يضف الى ذلك قوله : « أنا القاتل ، لا كارامازوف » ؟ انه لم يضف هذا الكلام • أيكون عنده من شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفى لدفعه الى قتل نفسه ، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفى لدفعه الى تبرئة برىء ؟ دعونا من هذا الكلام ايها السادة ، دعونا من هذا الكلام !

« واليكم الآن شيئاً آخر : لقد أُتى الى هذه المحكمة منذ قليل بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل (على زعم أن هذا المبلغ هو الذى كان مودعاً فى الظرف الموجود الآن على منضدة وثائق الاتهام ، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف) • ولكن المشهد الأليم الذى

جرى هنا منذ قليل ، ما يزال ماثلاً فى أذهانكم • لن أذكر تفاصيل هذا المشهد ، وسأكتفى بأن أسوق بعض الملاحظات فى هذا الصدد ، وهى ملاحظات تافهة ، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تُهمل ؛ فأقول أولاً : ان المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير • (فلولا عذاب الضمير لما ردّ المال) • وبالأمس اذن انما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لايفان كارامازوف لأول مرة ، كما ذكر لنا ايفان كارامازوف ذلك فى شهادته ؛ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن • ولكن اذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته ، فاننى أعود فأسأل : لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها فى الكلمة التى كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر فى حقه غداً حكم فظيع ؟ ان المال وحده لا ينهض دليلاً على شىء • من ذلك مثلاً أننى علمت منذ أسبوع ، بطريق المصادفة وحدها ، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران فى هذه القاعة أن ايفان كارامازوف قد صرف فى مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة فى المائة ، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل • واذا كنت أذكر هذا فاننى لا أذكره الا لأبيّن أن أى انسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال فى لحظة معينة ، وان ابراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذى كان مودعاً فى درج معين أو فى ظرف معيّن • ثم اننى أتساءل أخيراً : لماذا لم يبادر ايفان كارامازوف ، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقى على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، أقول لماذا لم يبادر الى القيام بعمل من الأعمال على الفور ، لماذا لم يبادر الى ابلاغ القضاء فى الحال ؟ لماذا أرجأ تصريحه الى الغد ؟ لماذا ؟ أحسب أننى أحزر : انه وهو مريض منذ ثمانية أيام ، انه وهو يعانى من هلوسات

ويرى أشباحاً وتهجس في نفســه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشــارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل ، انه وهو في عشــية نوبة من نوبات حمى حارة رأيتم كيف صرعته منذ قليل ، انه وهو في تلك الحال قد علم فجــأة بأن ســمردياكوف مات ، فاذا هو يفكر التفكير التالي : « لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه . أما أخي فسوف أنقذه . وعندي مال : ســوف آخــذ من هذا المال حــزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل ، فأصرح للمحكمة بأن ســمردياكوف أعطانيها قبــل موته » . قد تقــولون لي ان في هــذا مجــافاةً للشرف والأمانة ، وان من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت ، وان من الواجب على المرء أن لا يفترى ولو لانقاذ أخيه ». انني أسلّم بهذا . ولكن لعل ايفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب ، متخيلاً أن الأمور قد جرت فعــلاً على هــذا النحو ، لأن عقله قد اختل اختلالاً نهائياً حين علم بغتةً بنبأ موت ذلك الخادم . لقد شهدتم المشــهد الذى جــرى هنا ، فرأيتم الحالة التى كان عليها هذا الشاهد . كان واقفاً على قدميه وكان يتكلم ، ولكن أين كان عقله ؟ وبعد الأقوال التى أوردها هذا الرجل المريض ، قُدّمت الينا وثيقة هي رسالة كتبهــا المريض قبل وقوع الجريمــة بيومين ، وأرســلها الى الآنســة فرخوفتزيفا ، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة . فهل من الضرورى بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن فى التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل ؟ لقد تم ارتكاب الجريمــة على النحو الذى جاء وصفه فى هذه الرســالة تماماً ، فلا يمكن أن يكون الجانى الا ذلك الذى كتب الرسالة . نعم ، يا ســادتى القضــاة ، « ذلك مكتوب ! » . ان المتهم لم يترك نافذة أبيه لائذاً بالفرار فى احترام ووجل ، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته موجودة مع أبيه . وانما الواقع أنه دخل البيت ، ونفذ خطته الى النهاية . جائزٌ أن يكون قد قتل وهو فى حالة اهتياج شديد

وحنق مباغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت • جائز أن يكون قد قتل فى لحظة واحدة ، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحه بالمدق النحاسى ، ثم أدرك بعد ذلك ، حين فتش جميع أركان الغرفه ، أن تلك المرأة لم تكن هناك • ولكنه لم ينس ، بعد أن أنفذ جريمه القتـل ، لم ينس أن يدس يده تحت الوسـادة ، فيسل الظرف الذى يحتوى على المال ، ذلك الظرف الممزق الذى يوجد الآن على منضدة وثائق الاثبات • وانا أجىء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم الى أمر هو فى نظرى من الأمور الهامة جداً • لو كان الجانى مجرماً ذا خبرة ، لو كان قاتلاً يهدف الى سرقة مال ، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة ، قرب الجثة ، حيث عُثر عليه فيما بعد ؟ اذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سـمردياكوف بغية السطو على المال ، أفما كان يكتفى سـمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفضه ، لأنه موقن من أن المال مودع فيه ، فقد رأى مـولاه يضـع المال فى الظرف ويغلق الظرف على المـال ؟ لو كان سـمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قائلاً لنفسـه : متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة • اننى لأسألكم يا سـادتى المحلّفين : هل كان يمكن أن يتصرف سـمردياكوف على النحو الذى تكشف عنه وقائع القضـية ؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة ؟ لا ، ان هذا التصرف لا يمكن أن يكون الا تصرف قاتل خارج عن طوره ، قاتل أصبح لا يفـكر تفكيراً واضحاً ، قاتل لم يجىء من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك فى يوم من الأيام ، قاتل لا يتصرف حتى فى تلك اللحظة ، حين دس يده فى السرير ليسل المال ، تصرفَ سارق يسطو على غنيمـة ، وانما يتصرف تصرفَ رجل يسـترد مالاً كان قد سُلب منـه ؟ وتلك هى فى الواقع أفكار دمترى

كارامازوف فى هذا الشأن ، وهى أفكار كادت تصير فى ذهنه الى هوس يحاصره ولا يبارحه . لذلك فانه حين أمسك الظرف الذى لم يسبق أن رآه قبل ذلك ، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً ، ثم وضع المال فى جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير فى أنه يخلف وراء دليلا قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض . ذلك كله من فعل كارامازوف ، لا من فعل سمردياكوف ، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر ! ويهرب ايفان كارامازوف ، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذى لحق به فأمسكه ، وكان سيقبض عليه ، فاذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجندلا بضربة من المدق ؛ وعندئذ يثب المتهم من على السياج ، ويميل على العجوز . هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف ؟ ذلك ما يدعيه ، تخيلوا !... انه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً ورأفة ، ليرى هل فى وسعه أن يسعفه وينجده ! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً ؟ لا ، وانما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذى عرف جريمته ما يزال حياً ؟ ان كل باعث آخر ، وكل عاطفة أخرى ، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما فى مثل تلك اللحظة . لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى ، وأنه مسح رأسه بمنديله ، فلما أيقن أن الخادم قد مات ، مضى ينصرف كمجنون ، ملطخاً بالدماء ، ليركض مرة أخرى الى منزل حبيبته . كيف لم يخطر بباله فى تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه فيه ؟ ان المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه الى الدم الذى كان ملطخاً به . ان فى وسعنا أن نصدق كلامه فى هذه النقطة . ذلك جائز جداً ، وذلك ما يحدث للمجرمين فى مثل

تلك اللحظات على وجه العموم • انهم يجرون حسابات شيطانية فى بعض الأمور ، ثم هم ينســون التفكير فى أمور أخــرى نســياناً تاماً • ثم ان سؤالاً واحداً كان يشغل باله فى تلك اللحظة ، فهو لا يفكر الا فى ذلك السؤال : أين « هى » ؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عســاها تكون • وهرع الى منزلها ، فعلم هنالك بنبــأ لم يدر فى خلده ولا كان فى حســبانه ، نبأ هز نفســه هزاً قوياً عنيفاً ، وهو : أنهــا ســافرت الى موكرويه ، وأنها مع « صديقها القديم الذى لا يُجحد » •

٩

سيكولوجية سريعة

عربة الترويكا تعدو - خاتمة

واضح أن هيبوليت كيريلوفتش قد اختار لخطابه منهجاً فى العرض هو المنهج التاريخى الصارم الذى يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين أن يلتزموا أطراً ذات حدود دقيقة فى سبيل أن يضبطوا سيل اندفاعهم العارم • فلما وصل الى هذه النقطة من خطابه ، أفاض فى الكلام على الحبيب الأول الذى « لا يُجحد » ، فساق فى هذا الموضوع أفكاراً شائقة • قال ان كارامازوف ، الذى يشعر بغيرة كاسرة من الجميع ، قد امحى فجأة وزال أمام هذا الحبيب « القديم الذى لا يُجحد » ؟ وذلك أمر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وأنه لم يكد يفكر قبل الآن فى الخطر الجديد الذى كان يهدده به هذا الغريم الذى لم يكن فى حسبانه • كان يتصور هذا الخطر بعيداً ، فان رجلاً مثل كارامازوف لا يعيش الا فى اللحظة الحاضرة • ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التى عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت فى ذهنه صورة وهم من الأوهام أو خيال من الأخيلة لا يمت الى الواقع بصلة • ولكن ها هو ذا يدرك الآن ، محطمَ القلب ، ان هذه المرأة ان أخفت عنه حتى ذلك

الحين أمر وصول هذا الرجل فى القريب ، وان كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة ، فما ذلك الا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً فى حياتها بالفعل ، ولأنه يمثّل فى الواقع كل آمال روحها ، وأشواق قلبها • فلما أدرك هذه الحقيقة أذعن واستسلم • « ليس فى وسعى ، يا سادتى المحلفين ، أن أغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذى كان يبدو عاجزاً عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن • لقد استولت على نفسه فجأةً حاجةٌ قوية الى الحقيقة ، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقّها فى أن تحب كما يشاء لها هواها حرةً طليقة ، وذلك فى تلك اللحظة التى كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفى سبيلها • ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين ، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض : « ما أنا بالنسبة اليها بعد اليوم ، ما الذى أستطيع أن أهبه الآن لهذه الانسانة التى أحبها وأعبدها أكثر من أى شىء فى العالم ؟ ما أنا فى نظرها بالقياس الى الصديق « القديم » الذى عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التى هجرها فى الماضى ثم رجع يحمل اليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة فى حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً ؟ » • نعم ، ما الذى يستطيع أن يقدمه اليها فى هذه الساعة ، ما الذى يمكنه أن يهبه لها الآن ؟ لقد أدرك كارامازوف ذلك كله ، أدرك أن جريمته قد سدّت أمامه جميع سبل الحياة ، وأنه ليس بعد اليوم الا قاتلاً سينزل فيه العقاب ، وأنه أصبح لا ينتمى الى عالم الأحياء • أرهقته هذه الفكرة ودمّرته • وفى تلك اللحظة انما تصور ، على حين فجأة ، مشروعاً لا بد أن يكون بالنسبة الى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس • ذلك المخرج هو الانتحار • فها هو ذا يهرع الى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه ؟ وفيما هو فى الشارع ، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التى من أجلها

صبغ يديه بدم أبيه منذ قليل • ذلك أنه أصبح الآن فى حاجة الى المال أكثر من أى وقت مضى : فان كارامازوف سيموت ، ان كارامازوف سينتحر ، وينبغى أن يتذكر الناس هذا المشهد ! ليس عبثاً أننا شعراء ، ليس عبثاً أننا شعراء ، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها • « يجب أن أراها ، يجب أن أراها أولاً ••• وبعد ذلك ••• آه ••• بعد ذلك سأقصف وألهو ما شاء لى هواى أن أقصف وأن ألهو ، سأحتفل احتفالاً لم يُر له مثيل من قبل ، احتفالاً يظل يتحدث الناس عنه زمناً طويلاً بعدى • وفى وسط الصرخات الوحشية ، والأغانى الغجرية ، والرقصات المحمومة ، سأرفع كأسى ، فأشرب نخب السعادة الجديدة التى ستنعم بها المرأة المعبودة • وبعد ذلك ، فوراً بعد ذلك ، اهشم دماغى فأسقط على قدميها مكفراً عن ذنوبى وآثامى ! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف ، وسترى كم كنت أحبها ، وسترثى عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه ! » بهذا كان المتهم يحدث نفسه • ان فى هذا المشروع الذى عزم المتهم على انفاذه غيرَ قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية ، وان فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف ، وان فيه شيئاً آخر ، شيئاً آخر يا سادتى القضاة ، شيئاً كان يصرخ فى أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه ، ألا وهو ضميره ، يا سادتى القضاة ، ضميره الذى أدانه وحكم عليه ، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسراً ! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حداً لكل شىء ، فهو الحل الوحيد ، ولا حلّ سواه • أما عما سيحدث بعد ذلك ، فاننى لا أدرى هل تساءل كارامازوف فى ذلك الأوان عمّا سيصير اليه فى العالم الآخر • لا أدرى هل كان كارامازوف قادراً على أن يفكر فى حياته الآخرة كما فعل هاملت • لا يا سادتى القضاة ، نحن أناس

ليس عندنا أمثال هاملت ؟ ان بلادنا ليس فيها حتى الآن الا أمثال كارامازوف ! » •

وبعد ذلك وصف هيبوليت كيريلوفتش ما أعدّه ميتيا بالتفصيل ، وصف زيارته للموظف برخوتين ، ومروره بمتجر البقالة ، ومناقشاته مع أصحاب العربات ؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته واشاراته وحركاته ، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود • فكان للوحة التى رسمها تأثير كبير فى الحضور ، وكان تكامل الوقائع التى سردها هو الذى خطف الانتباه وأسر العقول خاصةً ، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذى كان يتخبط طائش العقل ولا يراعى نفسه هو الجانى فعلاً •

وتابع هيبوليت كيريلوفتش كلامه فقال :

« أصبح المتهم فى غير حاجة الى الحذر والتروى ، لذلك اتفق له مرتين أو ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شىء ؛ فكان يُلمع الى جريمته بدون انقطاع ، ولكنه لم يمض الى حد التحدث عنها صراحةً (هنا ذكّر وكيل النيابة بشهادات الشهود) ؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذى وهو فى طريقه الى موكرويه : « هل تعرف أنك تنقلُ فى عربتك قاتلاً ؟ » •

ومع ذلك كان لا يملك أن يمضى فى اعترافاته الى آخرها • فانما المهم أن يصل أولاً الى موكرويه وأن يكمل القصيدة • ولكن اليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك : لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى ، منذ أن وصل الى تلك القرية ، لاحظ أولاً ثم ادرك ادراكاً واضحاً بعد ذلك أن منافسه الذى « لا يُجحد » ، أو الذى كان يظن أنه « لا يُجحد » ، ليس بالمنافس الذى « لا يُجحد » حقاً ، وأن الحبيبة لا تنتظر منه ، هو ميتيا ، أن يهنئها بالسعادة الجديدة• على أنكم تعرفون الوقائع ياسادتى المحلّفين ، تعرفونها من نتائج التحقيق • لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً • وعندئذ ، عندئذ يا سادتى ، انما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات

قلبه وتباريح نفسه ، مرحلة هى أفظع المراحل التى عرفها والتى سيعرفها ايضاً • آه يا سادتى القضاة ! الا اننا لنستطيع أن نؤكد ان الطبيعة تنزل فيمن يسىء اليها عقاباً أشد هولاً من العقاب الذى تنزله فيه عدالتنا الأرضية : ذلك هو عذاب القلب ! بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذى يمكن أن توقعه العدالة الانسانية يخفف العقاب الذى توقعه الطبيعة ، وهو فى هذه الأحوال ضرورى لنفس المجرم ، لأنه السبيل الوحيد الى نجاة روحه من اليأس • ليس فى وسعنا أن نتخيل انواع الهول وضروب العذاب وصنوف الروع التى لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها وقاسى منها حين علم أن هذه المرأة تحبه ، وأنها تعدل فى سبيله عن صديقها « القديم الذى لا يُجحد » ، وأنها تدعوه هو ، هو ميتياء الى أن يبدأ معها حياة جديدة ، وأنها تَعِده هو ، هو ميتياء بالسعادة ؛ وذلك فى اللحظة التى كان فيها كلّ شىء فى نظره قد انتهى ، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأى أمل ، وأن يتشبث بأى رجاء • أحب فى هذه المناسبة أن أثبت واقعةً أحسب أنها هامة جداً لفهم الوضع الذى كان عليه المتهم فى تلك اللحظات : ان تلك المرأة التى كان يحبها ويشتهيها شهوة جياشة عارمة ، كانت قد ظلت الى آخر دقيقة ، الى حين القبض عليه ، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها • فرب سائل يسأل : لماذا لم ينتحر اذن ، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسى مسدسه ؟ الجواب على هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجىء فى ارضاء هذا الهوى لم يلبثا أن صدّاه عن انفاذ ما عقد النية عليه • انه وهو فى سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التى كانت تشاركه لهوه وقصفه ، والتى كانت تبدو له فى تلك اللحظات أجمل وأروع وأفتن وأحق بالحب والعبادة منها فى أى وقت مضى ، فهو لا يحوّل عنها بصره ، وهو لا ينفك يزداداً اعجاباً بها وامحاءً أمامها • حتى أن هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد الى الحب

قد خنقا فى نفسه ، أول الأمر ، لا الخوف من الاعتقال فحسب ، بل عذاب الضمير ايضا . ولكنهما لم يخنقاهما الا لحظات قصارا ايها السادة، لحظات قصارا أيها السادة ، لحظات لا اكثر ! اننى أتخيل الحالة النفسية التى كان عليها المتهم وقد استبدت به عناصر ثلاثة : اولها ابخرة الخمرة التى صعدت الى رأسه وضوضاء الرقصات والأغانى التى تدوى فى أذنيه وهذه المرأة التى تخضب وجهها بالحمـرة من أثر الشراب واخـذت تغنى وترقص سكرى هى أيضاً ، وكانت تبتسم له ابتساماً فتاناً ؛ وثانيها أملٌ فى أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة ، او أنها ليست وشيكة على الأقل ، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة ، وأنه لن يُقبض عليـه قبل طلوع الفجر ، وأن أمامه اذن ساعتين من الوقت هما وحدهما سعادة كبيرة عظيمة! وثالثها ان فى وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة . اننى أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذى يقاد الى الميدان الذى سيُشنق فيه ، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين : « ما يزال هناك شارع ، شارع طويل سأجتازه » ، ثم تنعطف العـربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذى نُصبت فيه المشنقة الرهيبـة الا فى نهايته ... يُخيل الىّ أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر ، فى بداية هذه الرحلة ، أنه ما تزال أمامه أبدية حياة . ولكن المنـازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر ، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة ، والرجل يقول لنفسه : « ما هذا بشىء ، ما يزال المنعطف بعيداً » ، ويظل يتفرس، رابطَ الجأش ، فى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث ، والذين تحـدق أبصـارهم اليه . انه يتصـور عنـدئذ أنه شـبيه بجميع هـؤلاء الخلق ، وأنه ما يزال ينتمى الى عالم الأحياء . وها هى ذى العربة تنعطف الى الشارع الآخر . أوه ! ما هذا

بشيء ، ما هذا بشيء ، فما يزال هناك هذا الشارع كله • وتخطر المنازل واحداً بعد آخر ، ولكنه يظل يردد : « ما يزال هناك منازل كثيرة » ، ويستمر على ذلك حتى النهاية ، حتى لحظة الوصول الى الميدان المحتوم المشئوم • تلكم هى فى رأيى الحالة النفسية التى كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات • كان يقول لنفسه : « لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة ، وفى وسعى أن أهتدى الى تعليل ما • أوه ! سوف أهتدى الى تعليل ما • أوه ! سوف أهتدى فى أثناء هذا الوقت الى خطة دفاع ، الى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسى ••• أما الآن ، أما الآن ، فما أجملها وما أروعها ! » • صحيح أنه كان مضطرباً مهموماً ، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذى جاء به ، واخفائه فى مكان ما ـ ذلك أننى لا أستطيع أن أفسِّر بغير هذا كيف أمكن أن يختفى نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التى استلها من تحت وسادة أبيه • كان قد جاء قبل ذلك الى موكرويه ، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبى الكبير القديم ، يعرفه حق معرفته ، يعرف جميع أركانه وزواياه ، طاف فى أروقته ، وتجول فى حجراته • اننى افترض أنه فى ذلك المنزل انما خبأ نصف المال قبل أن يُقبض عليه بلحظات ، دسّه فى شق من الشقوق أو تحت وتد من الأوتاد ، فى زاوية مظلمة ، أو بين القرميد ، هل أدرى ؟ فاذا سألتمونى ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ واخفائه ، قلت ان الهدف واضح • فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة الى لحظة ، وهو لمّا يفكر بعد فى وسائل حماية نفسه منها ، وليس فى وقته متسع للتفكير فى ذلك ، ما دام رأسه يضج هذا الضجيج كله ، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق انما كان يدفعه نحو الحبيبة ! • ولكن المرء يحتاج الى المال فى جميع الظروف • ومن ملك شيئاً من مال، فقد ظل فى هذا العالم شيئاً مذكوراً • رب قائل يقول ان مثل هذا

الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك الساعة • ولكنني أسألكم : ألم يقل لنا المتهم نفسه انه منذ شهر ، في ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته ، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً ؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً ، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل ، فان هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها ؛ حتى ليمكن أن نذهب الى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ في كيس (كيسٍ لم يوجد في يوم من الأيام على كل حال) ، انما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه ، أعني لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ في موكرويه ، قبل ساعتين ، وخبأه من باب الاحتياط الى الفجر ، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه ، خاضعاً في ذلك لوحي مباغت والهام مفاجيء • تذكروا الهوّتين ، يا سادتي القضاة ، تذكروا الهوّتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد معاً ! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء ؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجوداً فيه ، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أُخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم • مهما يكن من أمر ، فلقد كان المتهم قربَ هذه المرأة ، جاثياً على ركبتيه أمامها ، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه • كانت هي مستلقية على السرير ، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها ، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاءوا للقبض عليه • لم يكن قد هيأ بعدُ شيئاً يجيب به عن أسئلتهم • لقد داهموه على غير توقع منه •

« وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضاته الذين سيقررون مصيره • سادتي المحلّفين ، اننا ، أثناء ممارسة وظيفتنا ، نمر بلحظات يعترينا فيها ، على حين فجأة ، خوف ووجل أمام المتهم وأمام المصير الذي ينتظره ؛ وهي اللحظات التي نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزي الذي

يستولى عليه حين يدرك أن كل شيء قد ضاع ، ولكنه يظل يناضل ، ويظل يحاول أن يقاومنا • ان غريزة البقاء تستيقظ فى نفسه عندئذ قوية قوة هائلة ، فاذا هو وقد تسلطت عليه رغبة محمومة مسعورة فى الافلات منا ، يتفرس فينا بنظرة نافذة ، نظرة مستفهمة أليمة فى آن واحد ، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول فى خواطرنا ، متسائلاً ما هى الجهة التى سنأتيه منها ؟ وسرعان ما تقوم فى ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية ، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم ، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها تروٍ أو تبصر • ان هذه اللحظات التى يذل فيها الانسان ، وهذه الشدائد التى تقاسى منها النفس ، وهذه الرغبة البهيمية فى الافلات من العقاب ، ان هذا كله يبعث منظره أشد الألم ، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضى التحقيق • لقد شهدنا هذا المنظر حين القبض على كارامازوف • بدا فى أول الأمر مصعوقاً ، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته ، فأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر • قال : « سفحت دماً ! استحق هذا المصير ! » ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فماذا يقول ، ماذا يقول ؟ هو لا يعرف بعد ماذا يقول لأنه لم يهيىء شيئاً ، فلجأ فى أول الأمر الى انكارات قاطعة هاتفاً : « أنا لم أقتل أبى ! » • كان ذلك هو المتراس الوحيد الذى أقامه ارتجالاً ليحتمى به ، وفى نيته أن يقيم متاريس أخرى • قال لنفسه : « سأجد تعليلاً ، سأتخيل شيئاً ما ! » • وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التى لم يكن فيها شيء من التروى والتبصر ، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعد نفسه مسئولاً الا عن موت الخادم جريجورى • قال : « صحيح أننى سفحت دمه هو ، ولكن من الذى قتل أبى ، من الذى قتله أيها السادة ؟ من ذا الذى قتله اذن ، ما دمت لست أنا القاتل ؟ » هل سمعتم : انه يلقى علينا نحن هذا

السؤال ، نحن الذين انما جئنا لنلقى هذا السؤال نفسه عليه ! لاحظوا هذه الطريقة التى يعمد اليها فى استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً : « ما دمت لست أنا القاتل » ، انظروا الى هذا المكر البهيمى ، والى هذه السذاجة ايضاً ، والى هذا التسرع الذى يدل على نفاد الصبر والذى هو شيء من طبيعة رجل مثله ! لست أنا القاتل ، وانى لأحظر عليكم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها • ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (انه يتعجل ، يتعجل تعجلاً رهيباً) : « كنت أريد أن أقتله أيها السادة ، كان فى نيتى ذلك ؟ ولكن لست أنا الذى قتله ، لست أنا المسئول عن مقتله ! » • هو يسلّم لنا بأنه كان ينوى أن يقتله ، فكأنه يقول لنا : انظروا كم أنا صادق ، فعليكم أن تصدّقونى متى أكدت لكم اننى لم أقتل • ان المجرمين يبرهنون فى لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل • وفى تلك اللحظة نفسها سُئل ، كأنما بمصادفة ، وكأن الأمر عادى طبيعى الى أبعد الحدود : « أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ » • فعمد الى طريقة هى بعينها الطريقة التى تنبأنا بها : غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيئة نفسه بغتةً بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لاعداد متراسه واختيار أفضل لحظةٍ لالقاء التهمة على سمردياكوف ؟ فبادر يندفع الى الطرف الأقصى الآخرَ ، خاضعاً فى ذلك لقوانين الطبيعة ، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل ، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل • ولكن لا تصدّقوه ، فما كان هذا الا حيلة ومكراً ودهاء : انه لم يعدل أبداً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه • بالعكس : سوف يقدّم سمردياكوف متى آن الأوان ، وهل يوجد الا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمّله الجريمة ؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد ، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر•

قد يُخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام • سوف ينتظر الفرصة المواتية ليصيح قائلاً : « انظروا ! ألا تتذكرون أننى استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ ألا تتذكرون أننى دافعت عنه أكثر مما دافعتم انتم عنه ؟ ولكننى قد اقتنعت الآن بأنه هو الذى قتل ، وأنه الوحيد الذى يمكن أن يكون مرتكب هـذه الجريمـة ! » • أما فى تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الانكار القاطع والنفى الجازم ، متظاهراً بكثير من الغيظ والحنق • ومع ذلك فان نفاد الصبر وشـدة الغضب قد أوحيا اليه بتفسيرٍ لسلوكه هو بين جميع التفاسير الممكنة أقلها حذقاً وبراعة وأبعدها عن المعقول ، فأخذ يروى لنا كيف أنه اقتصر ـ فى زعمه ـ على أن نظر من خـلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام • يجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم لم يكن على علم فى تلك اللحظة بخطورة الأقوال التى وردت فى شهادة جريجـورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته • وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة ، فأحنقه هذا الاجراء ، ولكنه شجعه فى الوقت نفسه ، فاننا لم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً ، ولم نجد الا ألفاً وخمسمائة روبل • وواضح أنه فى أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والانكار المقهور انما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس • لا شك فى أنه كان هو نفسه يحس بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول ، ولا شك فى أنه كان يُعمل فكره جاهداً من أجل أن يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً ، دون أن يدرى ما الذى يجب عليه أن يتخيله حتى ينشىء رواية يصدقها العقل • ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين فى مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير اجابته ، وأن يقـودوه بذلك الى الكشف عمّا يضمره من حساب مع كل يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال ، ومع كل ما يحتويه من تناقضـات • ولا يمكن اجبـار

المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح الا اذا أُطلع بغتةً ، بما يشبه المصادفة العابرة ، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة ، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع اذن أن يستعد لها . وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة ... كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة ... ألا وهى شهادة الخادم جريجورى الذى صرّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذى هرب منه القاتل مفتوحاً . كان المتهم قد نسى نسياناً تاماً أن يفكر فى ذلك الباب ، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجورى قد رآه . فلما فاجأناه بهذه الواقعة ، كان لها فيه أثر فظيع ، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا : « سمردياكوف هو الذى قتل ! انه سمردياكوف ! » . هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة ، وفضح خطة دفاعه الأساسية ، ولكنه أسلمنا ذلك فى صورة هى أبعد الصور عن المعقول والمحتمل ، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل الا بعد أن جندل المتهمُ جريجورى وولّى هارباً . فلما قلنا له بعد ذلك ان جريجورى رأى الباب مفتوحاً قبل أن يهوى على الأرض مضرجاً بدمائه وانه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يئن ويتوجع وراء الحاجز ، حين قلنا له ذلك صُعق فعلاً . ان زميلى المحترم الذكى نيكولا بارفينوفتش قد روى لى بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم ، وتأثر تأثراً شديداً حتى كادت تفيض عيناه بالدموع . وفى تلك اللحظة انما سارع المتهم ، اصلاحاً للموقف ، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك ، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ : « طيب ... اليكم الآن هذه الرواية فابلعوها ! » . سبق أن ذكرت لكم رأيى فى هذه القصة يا سادتى المحلّفين ، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعدُّ اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر ، لماذا أعد اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسير من التفسيرات التى كان

يمكن اختلاقها فى حالة من هذا النوع • ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور شيئاً أبعد عن المعقول وأنأى عن الاحتمال من هذه القصة الملفقة • ان فى وسعنا فى هذه النقطة أن نربك قصّاصنا المرتجل الواثق من نفســـه ، وأن نفضح كذبه وندمّر حجتــه ، بأن نجابهــه ببعض التفاصيل ، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التى ما أكثر ما يحفل بها الواقع ، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير ارادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهــة زائدة لا قيمة لها ، بل ولا تخطر لهم على بال أصــلاً • فان وقتهم لا يتســع للاهتمـام بهــذه السفاسف ، وانما هم يتصورون حكاياتهم فى خطوطها العريضة وصورتها المجملة ... ولكن ها هم أولاء يجابـَهون بتلك التفاصيل الشقية ! وعندئذ انما نستطيع أن نضبطهم • ألقينا على المتهم هذا السؤال : « من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير ، ومن الذى خاطه لك ؟ » فأجابنا : « خطته بنفسى » • فألححنا نســأله : « والقماش ، من أين جئت به ؟ » فشــعر باســتياء وضيق ، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به • ولقد كان عندئذ صادقاً كل الصدق ، نعم كل الصــدق • فلا تعذّبوه • انهم جميعاً على هذه الشــاكلة ، هؤلاء المجـرمون ! قال : « انتزعت قطعة قماش من قميصى » • قلنا : « عظيم• اذن سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذى تنقصه قطعة » • انكم لتدركون يا سادتى المحلّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه فى حقيبته أو فى درج من الأدراج لو كان له وجــود حقاً) ، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله • ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله • واستأنف كلامه يقول : « لست أتذكر جيداً • أظن انى لم انتزع قطعة القماش من قميص ، بل قصصتها من طاقيةٍ لصاحبة المنزل الذى أســكن فيه » • ســألناه : « أية طاقية ؟ »

فأجاب : « طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً في غرفتها ، هي متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية » . قلنا : « هل ذكرياتك دقيقة ؟ » قال : « لا ، ليست دقيقة ! » ، وأخذ يغضب ويثور علينا . ألا انني لأسألكم : كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر ؟ ان التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود الى ذاكرة المرء في أشقى ساعات الحياة ، في لحظة الاعدام مثلاً ، فاذا بالمحكوم عليه ، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك ، يتذكر السطح الأحمر من منزل أبصره أثناء الطريق ، أو يتذكر غراباً أسود رآه واقفاً على صليب ، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة الى الأبد . ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس ، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممض حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتعش خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبساً بالفعل ؟ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يختبيء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة) ... على أنني أتساءل ، يا سادتي المحلَّفين ، لماذا أذكر لكم هذا كله ، لماذا أذكر لكم جميع هذه التفاصيل ، وجميع هذه الترهات !

بهذا هتف هيبوليت كيريلوفتش على حين فجأة ، ثم واصل كلامه قائلاً :

« انني مضطر الى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً في عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة . انه خلال هذين الشهرين الماضيين ، منذ تلك الليلة التي حملت اليه ذلك الشؤم كله ، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول ، ولم يستطع أن يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة الى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب . هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها ، وانما يجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده . والحق أننا لا نتمنى الا أن نصدقه ، والحق أننا نحب كثيراً أن

نثق به وأن نركن الى كلامه ولو على عهـد الشرف وحده . فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشـون الى دماء البشر ؟ ألا فاعطونا واقعـة واحدة ، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم ، فنفرح بذلك أشد الفرح ، ونغتبط له أشد الاغتباط. ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس ، لا بد لنا من عنصر واقعى ، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه ، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل ان المتهم حين ضرب صدره انما كان يدل على الكيس المخبأ فيه ، انما كان يشير الى هذا الكيس ، وذلك فى ظلمة الليل أيضاً ! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة ، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسـارع الى الاعتراف ببراءة المتهم . ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا فى هذه الساعة ، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التى تدين المتهم ، ولسنا نملك الا أن نظهركم عليها ».

هنا وصل هيبوليت كيريلوفتش الى خاتمة مطالعته . كان يرتجف عندئذ من الحمى ، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح ، دم الأب الذى قتله ابنه « بدافع حقير هو الطمع فى المال » ؛ وألح الحاحاً شديداً على أن الأدلة القاطعة التى تدين المتهم متوافرة توافراً تاماً لا يدع مجـالاً لشـك أو تردد . وختم كلامه قائلا : « أياً كان الكلام الذى سيقوله لكم بعدى وكيلُ المتهم ، المحامى المعروف بموهبته (لم يملك هيبوليت كيريلوفتش الا أن يضيف هذه الكلمات) الذى ستترجع فى هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم ، فلا تنسوا يا سادتى المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس . تذكروا أن رسالتكم هى أن تدافعوا عن الحقيقة ، وأن مهمتكم هى أن تحموا وطننا المقـدس روسيا ، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية ، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية ! نعم يا سادتى المحلفين ، انكم تمثلون الآن

روسيا كلها ، تمثلون روسيا التى تشخص بأبصارها اليكم فى هذه الساعه حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها ، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها وتتشجع حميتها ، أو أن يخيب ظنها ويخور عزمها • فلا تعذبوا روسيا ، لا تخيبوا رجاءها ، لأن الترويكا الجامحة التى تحمل مصائرنا القومية تعدو عدواً سريعاً ربما هوى بهذه المصائر الى الضياع والهلاك• ان العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم الى الخيول الهائجة ، منذ زمن طويل ، ضارعين مبتهلين أن يوقَف اندفاعها العنيف العارم • واذا كانت الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكا الطائشة ، فربما كانت لا تتنحى الآن من باب الاحترام ، كما أراد الشاعر أن يقول ، وانما هى تتنحى من قبيل الخوف والذعر ، من قبيل الخوف والذعر ، وربما من باب الاشمئزاز والتقزز أيضاً ••• ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى على كل حال ، لأنها ستكف فى يوم من الأيام عن الخوف منها ، فاذا هى تنتصب سداً منيعاً أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل الفاسد صيانةً لنفسها ، وانقاذاً للحضارة والثقافة • ان أصواتاً قلقة قد ارتفعت منذ الآن فى أوروبا ، ووصلت الى مسامعنا • ان احتجاجات قد أخذت تنطلق فى البلاد الأخرى • فلا تغروا بنا أعداءنا ، ولا تزيدوا كرههم لنا وحقدهم علينا باصدار حكم يسوِّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه ! ••• » •

جملة القول ان هيبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع بلاغته ، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً ، فكان الأثر الذى أحدثه فى نفوس الحضور أثراً كبيراً جداً • فلما انتهى من القاء مطالعته أسرع يخرج الى الغرفة المجاورة ، وكاد يُغمى عليه كما سبق أن ذكرت• ولم يصفق الجمهور ، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور قد شعروا بالارتياح والرضى • وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً

بطبيعة الحال ، ولكنهن قد تذوقن ، هنّ أيضاً ، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغة ، لا سيما وأن الشك فى نهاية المحاكمة لم يساورهن ، فهنّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية ، لأنهن يعوّلن كثيراً على فيتوكوفتش ، فانه « سيتكلم أخيراً ، وسينتصر لا محالة ! » • واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا : كان قد أصغى الى مطالعة النيابة صامتاً ، متشنج اليدين ، كازّ الأسنان ، خافض البصر • وكان فى بعض الأحيان يرفع رأسه ، ويصيخ بسمعه• وهذا ماحدث خاصةً حين جاء ذكر جروشنكا• فحين أورد وكيل النيابة رأى راكتين فيها ، ارتسمت على شفتى ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة ، وقال بصوت مسموع : « هؤلاء أناس من أمثال برنار ! » • وحين روى هيبوليت كيريلتوفتش كيف عذب المتهم فى موكرويه ، رفع ميتيا رأسه من جديد ، وبدا عليه أنه يصغى بانتباه شديد • وفى لحظة من اللحظات ، كاد يثب عن مكانه ، على نية أن يقول شيئاً ما بطبيعة الحال ، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً • وقد أثارت خاتمة المطالعة التى ألقاها وكيل النيابة ، ولا سيما حديثه عن المهارة التى قاد بها استجواب المتهم فى موكرويه ، أثارت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك فى مجتمعنا ؛ ولم ينس الناس أن يسخروا من هيبوليت كيريلوفتش ، فكانوا يقولون : « انه لم يستطع مقاومة الاغراء الذى يحضه على الزهو بنفسه والاعجاب بمقدرته » •

ورُفعت الجلسة ، ولكنها لم تُرفع الا مدة قصيرة جداً هى ربع ساعة أو عشرون دقيقة فى أكثر تقدير ، سُمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة اليكم بعض ما حفظته منها :

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه :

ــ خطاب جاد كل الجد ، خطير كل الخطورة !

فأجابه آخر :

ـ أسرف فى السيكولوجيا مع ذلك !

ـ ولكن ما قاله هو الحقيقة ، هو الحقيقة بعينها خالصة !

ـ نعم هو حجة فى هذا الميدان .

ـ عرض تاريخ حياة المتهم .

وتدخل ثالث فقال :

ـ وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً ، فى بداية مطالعته ، هل تتذكرون ؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيدور بافلوفتش .

ـ وفى نهاية خطابه كذلك . ولكنه كذب !

ـ ثم لقد تضمن خطابه فقرات كثيرة غامضة .

ـ انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة .

ـ كان ظالماً ، ظالماً جداً .

ـ لا أرى هذا الرأى . وقد كان بارعاً على كل حال . طال انتظاره ساعتَه ، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً ! هيه !

ـ اننى أتساءل عما سيقوله المحامى .

وفى جماعة أخرى ، دار الحديث التالى :

ـ أخطأ حين نال من هذا المحامى الآتى من سان بطرسبرج : « حتى يؤثر فى عواطفكم » . لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة .

ـ نعم ، لقد أخطأه التوفيق هنا !

ـ أسرف فى التعجل .

ـ هو رجل عصبى .

ـ نحن نضحك ، نحن ، أما بالنسبة الى المتهم فليس فى كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك •

ـ أى والله • مسكين ميتيا !

ـ وددت لو أعرف ما سيقوله المحامى !

وفى جماعة ثالثة جرى هذا الحوار :

ـ من هى تلك السيدة الجالسة فى الركن ، الواضعة على عينيها نظارة صغيرة ؟

ـ هى زوجة جنرال • انها مطلقة • أنا أعرفها •

ـ آ ••• لهذا تضع نظارة •

ـ هى هول من الأهوال •

ـ أما أنا فأرى أنها مثيرة •

ـ على مقربة منها ، بعد كرسين ، توجد صغيرة شقراء أوثرها عليها •

ـ لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة فى موكرويه ، ألا ترون هذا الرأى ؟

ـ لا أنكر أنهم كانوا بارعين • لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاغراء الذى يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى • لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مراراً قبل الآن ، فى بيوت بعض الأصدقاء !

ـ لا حيلة له فى دفع هذا الاغراء • غلبه حب الظهور على أمره •

ـ هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون ! هه !•••

ـ وهو الى ذلك سريع التأذى • وقد أسرف فى اصطناع أساليب البلاغة ، وكانت عباراته مفرطة فى الطول •

ـ ثم لقد حاول أن يخيفنا ، حاول أن يروّعنا باستمرار • هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا ؟ « ان عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت ، أما نحن فليس عندنا بعد الا أمثال كارامازوف ! » • تلك براعة منه •

ـ أراد أن يتملق اللبراليين • انه يخاف منهم •

ـ حتماً ! انى لأتساءل ما الذى سيقوله السيد فيتوكوفتش •

ـ مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا !

ـ أتظن ذلك ؟

وفى جماعة رابعة جرى هذا الحديث :

ـ أحببت كثيراً تلك الفقرة التى تكلم فيها عن الترويكا ، الفقرة التى تكلم فيها عن الأمم الأخرى •

ـ لقد قال الحقيقة بعينها ـ هل تتذكر ؟ ـ حين أكّد أن الشعوب الأخرى ستضيق ذرعاً بنا آخر الأمر !

ـ لماذا ؟

ـ ظهرت بوادر ذلك منذ الآن • ففى الأسبوع الماضى قام أحد أعضاء البرلمان الانجليزى ، فقدم سؤالاً الى الوزارة عن العدميين، وسأل: أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجى وردّه الى الصواب من أجل تأديبه • الى هذا انما ألمع هيبوليت كيريلوفتش • أنا أعرف ذلك • لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام •

ـ ان ايديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشىء •

ـ كيف ؟

ـ الأمر بسيط • يكفى أن نغلق ميناء كرونشتات ، وأن ننقطع عن امدادهم بالقمح • فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ ؟

ـ من أين ؟ أنسيت اذن أمريكا ؟ ان عندهم الآن قمحاً ، فى أمريكا !

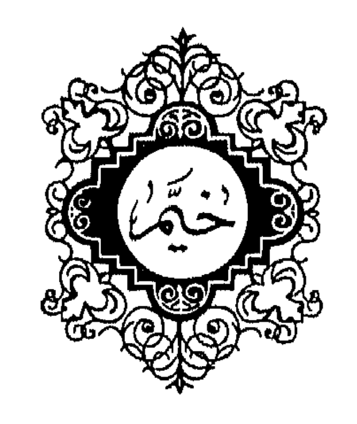
ـ غير صحيح !

ولكن جرس رئيس المحكمة دوّى رنينه ، فأسرع الجميع الى أماكنهم • وتقدم فيتوكوفتش لالقاء مرافعته •

١٠

المرافعة

سلاح ذو حدين



على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التى نطق بها الخطيب الشهير • وكانت جميع الأبصار متجهة اليه منصبة عليه • بدأ مرافعته بدون جمل طنانة ، ومضى الى هدفه رأساً ، ببساطة تامة مقنعة ليس فيها شىء من ادعاء أو غرور • خلا كلامه من كل ما يمكن أن يدل على رغبة فى الفصاحة وميل الى البلاغة ، أو ايثار للألفاظ الرنانة التى تسهل التأثير فى العواطف • لكأنه رجل يتحدث فى حلقة ضيقة من الأصدقاء • وكان له صوت جميل قوى محبَّب ينم جرسه عن الصدق وطيب السريرة وحسن النية • غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع الى مستوى الخطابة التى تؤثر فى السامعين تأثيراً قوياً حقاً ، وأن « يهزَّ أوتار القلوب هزاً عنيفاً لا يجاريه فيه أحد » • لعله كان يتحدث بلغة تقل سلامةً عن لغة هيبوليت كيريلوفتش ، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة ، وهو أميل منه الى الوضوح وأقرب الى الدقة • ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات

فيه : لقد كان يحنى ظهره دائماً ، ولا سيما فى بداية مرافعته ، لا كما يحنى المرء ظهره فى التحيـة ، وانما هو يحنى ظهره كمن يندفع نحو سامعيه • وأكثر من هذا أنه كان لا يحنى الا نصف ظهره الطويل الذى كان يبدو كأنه مزود بمفصَّلة فى وسطه تتيح له أن ينثنى زاويةً تكاد تكون قائمة •

وقد تكلم فى بداية خطابه على نحو مبعثر مشتت ، دون أن يلاحظ السامع وجود خيط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض ، وانما هو ينتقل من واقعة الى أخرى بما يشبه المصادفة ، غير أنه قد أخرج من ذلك فى النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط • وفى وسعنا أن نقسـم مرافعته قسـمين : فأما القسم فهو يشـتمل على نقد ودحض للاتهام ، وكان فى بعض مواضعه لاذع السخر كاوى التهكم • وأما القسم الثانى فقد غيَّر فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه فجأة ، فاذا هو يرتقى دفعـةً واحدة الى نبرة مؤثرة تهز أوتار القلب • وكأن القـاعة كانت تنتظر تلك اللحظة ، فأخذت ترتعش حماسة جياشة • وقد عمد المحامى الى مواجهة القضـية رأسـاً ، فأعلن قبل كل شىء أنه وان كان يمارس المحاماة عادةً فى سان بطرسبرج فقد اتفق له مراراً أن ذهب الى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك الا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسُّها • وأضاف يقول شارحاً :

« وهذا ما حدث لى أيضاً فى القضية التى يُنظر فيها الآن • فاننى منذ قرأت أولى المقالات التى نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهى ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم • على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذى همنى فى أول الأمر • لقد رأيت عندئذ ، رغم أن الملاحظات التى من هذا النوع كثيرة فى ممارسة القضاء ، رأيت أن الأمور التى تشهد ببراءة المتهم لم تكن فى أية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها

فى هذه القضية ، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التى تبلغها فى هذه القضية ، فيما يخيّل الىّ . وربما كان ينبغى لى أن أحتفظ بهـذه الآراء الى آخر المرافعـه ، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع ، ولكننى أوثر أن أعبّر عما يجول فى فكرى منذ البداية ، لأن من عيوبى أننى أمضى الى هدفى رأساً ، غيرَ مبالٍ بما يكون لكلامى من تأثير ، وغيرَ مكترث بما يجب على المحامى فى مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله الى نفوس السامعين . وقد أكون فى هذا متهوراً غير متروٍ ، ولكننى مخلص صادق على كل حال . اليكم الفكرة التى أريد أن أعبِّر عنها : اننا نرى ، من جهة أولى ، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجانى ، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التى تُتخذ أساساً للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأى تفنيد جدى ! وقد عزّز هذا الشعورَ فى نفسى كلُّ ما قاله النـاس أو نشرته الصحف عن هذه القضية. ثم هأناذا أتلقى من أهل المتهم، على حين فجأة، دعـوة الى تولى الدفاع عنـه . فقبلت على الفـور ، حتى اذا وصلت الى هذه المدينة ، صار اقتناعى الى يقين . فمن أجل أن أهدّم تلك القرائن المتراكمة التى تميل الى ادانة المتهم ، ومن أجل أن اكشف عن بطلانها واستحالتها ، ومن أجل أن أُظهر ضعف كل عنصر من عناصر الاتهام على حدة ، انما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم . » .

بهذه الكلمات استهل المحامى مرافعته ، ثم هتف يقول :

« سـادتى المحلّفين ، أنا امرؤ جـاء من مدينـة أخرى لا يحمل أفكاراً مبيتـة ، ولا أثّر فى مشـاعره أى تحيز . ان هـذا المتهم الذى يتصف بطبع عنيف جامح لم يسىء الىّ فى الماضى كما لعله أساء فى هذه المدينة الى عدد من الأشخاص اساءاتٍ تفسّر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير كله من الناس من شعور العداء . اننى اعترف طبعـاً بأن الرأى

العام ليس ثائراً عليه بغير سبب : فان المتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه • ومع ذلك كان يُستقبل فى المجتمع الراقى ، وكان يُدلَّل حتى فى أسرة السيد وكيل النيابة الذى أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً •

(ملاحظة : أثارت هذه الكلمات فى الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خُنقت ، ولكن جميع الناس لاحظوها ، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا فى منزله على مضض ، لمجرد أن زوجته رأت فى ميتيا فتى شائقاً . ان زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة ، وهى سيدة فاضلة الى أبعد الحدود ، ولكنها غريبة الطبع قليلاً ، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً ، ولا سيما فى الأمور التى ليس لها كبير شأن • على أن ميتيا لم يزرهما الا لماماً) •

تابع المحامى كلامه فقال :

« ولكننى أستطيع أن أؤكد مع ذلك أن موكّلى العاثر الحظ قد خلّف أثراً سيئاً حتى فى نفس خصمى الذى يتصف باستقلال الرأى ويتميز بالانصاف والعدل • اننى لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على اساءة الظن فيه واساءة الحكم عليه ، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة • ان مخالفة الشعور الأخلاقى ، ومجافاة الحس الجمالى خاصة ، أمران لا يغتفران • لقد سمعنا فى المطالعة اللامعة التى ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله ، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم ؛ وقد حاولت النيابة خاصةً ، فى سبيل أن تُفهمنا جوهر القضية ، أن تطل بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء أو سوء الظن • على أن هناك ، فى مثل هذه الحالات ، أموراً أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة

سيئة ، أو ما قد يتخـذه منه من موقف معـادٍ عن عمد وقصـد • ذلك ما يحدث خاصةً حين نقاد لنوعٍ من العبث الفنى ، لنوعٍ من الحاجة الى الخلق الشعرى ان صح التعبير ، لنوع من الرغبة فى انشـاء رواية وتأليف قصة ، وهذا أمر مفهوم معقول حين تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية • اننى وانا فى سـان بطرسبرج بينما كنت أسـتعد للمجىء الى هذه المدينة قد نُبِّهت ـ وما كنت أجهل ذلك على كل حال ـ اننى سأواجه فى هذه القاعة خصـماً أوتى احسـاساً سيكولوجياً خارقاً مرهفاً عميقاً ، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة فى هذا الميدان قدراً من السمعة والمجد لدى الأوساط التى ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة • ولكن السيكولوجيا ، يا سادتى ، سلاح ذو حدين ، مهما تـكن عميقة • (هنـا سُمعت فى الجمهور ضـحكات صغيرة) • اننى لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لى هذا التشبيه العامى ، فأنا أمرؤ لا أملك ما يملكه غيرى من جمال البيان وقوة البلاغة • لنأخذ مثالاً هو أول مثال يعرض لنا فى مطالعة النيابة • ان المتهم ، حين هرب فى جوف الليل من خلال الحديقـة ، تسـلق السـور ، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذى تشبث بساقه • وعاد يثب الى الحديقة بعد ذلك من جديد ، فقضى قرب العجوز الذى جندله خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف أهو قد قتله أم لا • ان النيابة ترفض رفضاً قاطعاً أن تسلِّم ، بحال من الأحوال ، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكّد أنه قد شُغل بجريجورى شفقةً عليه ورأفةً به • يقول خصمى : « لا ، ان هذه العاطفة لا محل لها فى مثل هذه الحالة ، ولا يمكن أن تكون طبيعيـة ، فانما قفز المتهم الى الحديقة من جديد لا لسبب الا أن يتأكد من ان الشاهد الوحيد قد مات ، فكأنه حين فعل ذلك قد وقّع اعترافاً بجريمته ، فما كان ليحضه على ذلك أى باعث آخر أو أن تحضه عليه أية عاطفة أخرى ،

حين عـاد يثب الى الحديقـة » • اننى أسـلم بأن هـذا الكلام هـو من السيكولوجيا • ولكن ألا فلنأخذ هذه السـيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة ، فنرى أن النتائج التى نصل اليها عندئذ لا تقل اقناعاً عن النتائج التى وصلت اليها النيابة • ان القاتل الذى وثب الى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات ، كان قد ترك ، منذ لحظات ، فى غرفة أبيه الذى قتله ، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابه نفسه بأنها قرينـة قاطعة ودليـل حاسم ، ألا وهى الظرف الممزق الذى تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل • فلو أن المتهم قد أخذ هذا الظرف ، اذن لما خطر ببال أحد أنه كان هنالك ظرف ، لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال ، ولما استطاع أحد أن ينسب الى المتهم فعل السرقة • ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة • فمن جهة أولى اذن ، نرى رجلاً طاش صـوابه وذهب عقله ، واستحوذ عليـه الخوف فهرب تاركاً فى أرض الغـرفة برهاناً على ارتكابه الجريمـة ؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسـه يسـترد على حين فجأة كل صحو ذهنـه وحضور بديهته ، ويبرهن علىأنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء ، ويمضى الى أقصى آماد النأى عن العاطفة الانسانية • لنسلِّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعـلاً ، لنسلِّم بأن كل رهافة السـيكولوجيا انما تكمن هنـا : فرب فرد واحد بعينـه يملك فى بعض الظروف بصيرة دموية كبصيرة نسر من نسـور القفقاس ، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى هلوعاً كخلدٍ مروَّع بائس • ولكن اذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدَّ الوثوب مرة أخرى الى أسـفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل ، لا لهـدف الا أن نتأكد من أن الشـاهد الذى قد يشهد علينا قد مات ، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه الينا شهود آخرون

فى أغلب الظن ؟ لماذا نبلل منديلنا بالدم الذى يسيل من رأس الضحية ، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا ؟ ألم يكن من الأفضل لنا ، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب ، أن نبادر بعد الوثوب عن السور الى الحديقة من جديد ، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوى بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته ، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهم وتخلصنا من هذا الخوف ! والكيم تناقضاً آخر : أأثب الى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج ، ثم أترك على ممرٍ فى الحديقة دليلاً قاطعاً علىَّ هو ذلك المدق الذى أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأننى أنا الذى أخذته من عندهما ؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق فى الممر نسياناً أو انه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب . لا ، فانما نحن رمينا ذلك السلاح رمياً عامدين ، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذى كان راقداً فيه جريجورى. فاذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك ، قلنا فانما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلاً هو خادم عجوز . فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذى استعملناه فى ارتكاب هذا الذنب ، ألقيناه بعيداً عنا . ذلكم هو التفسير الوحيد الممكن . وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع . ولكن اذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز ، فان معنى هذا أننا لم نقتل أبانا : فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب ، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين ، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كل الاختلاف ، ولما فكرنا عندئذ الا فى نجاتنا نحن وفى خلاصنا نحن ، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة . ذلك أمر بديهى لا سبيل الى المماراة فيه . بالعكس : كنا سنجهز عندئذ على

الضحية ، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة !... ولئن شعرنا بالشفقة ، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيّرة فى تلك اللحظة ، فما ذلك الا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير . ان هذا من السيكولوجيا أيضاً ، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف. وانما تعمدت ، يا سادتى المحلّفين ، أن أعمد أنا أيضاً الى استدلالات سيكولوجية ، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن فى وسع المرء أن يتخلص من أمثال هذه التحليلات الى ما يشاء الخلوص اليه من نتائج ، وأن يستخرج منها ما يحب له هواه أن يستخرجه من أحكام . والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات ، ويتوقف على الشخص الذى يقوم بهذه التحليلات . ان السيكولوجيا ، يا سادتى ، يمكن أن تغرى أحرص الناس على الجد وأكثرهم تمسكاً بالانصاف ، يمكن أن تغريهم بانشاء روايات وتأليف قصص ، وذلك على غير ارادة منهم . وطبيعى يا سادتى أن ما قلته الآن لا يتناول الا بعض مبالغات التحليل السيكولوجى ، وبعض اساءات استعماله » .

هنا سُمعت ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامى من وكيل النيابة . ولكننى لن أنقل كل المرافعة التى القاها المحامى ، وانما أقتصر على مقتطفات منها هى أهم ما ورد فيها .

١١

لم يكن ثمة مال ، ولا سرقة



المحامى كلامه فقال :

« سادتى المحلفين ، ان فى هذه القضية أمراً خاصاً يخطف انتباه كل انسان غير متحيز . هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلى بالسرقة مع انتفاء أى دليل قاطع على أن هناك مالاً قد سُرق . يُقال ان مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى ، ولكن ما من أحد يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود . فكروا قليلاً : من الذى أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل ، من الذى رآها ؟ لا أحد الا الخادم سمردياكوف الذى زعم أن هذا المال كان مودعاً فى طرف عليه الكتابة التى علمتم . وهذا الخادم سمردياكوف هو الذى نقل أيضاً هذا النبأ ، قبل وقوع الكارثة ، الى المتهم والى أخيه ايفان فيدوروفتش ، كما تحدث عنه كذلك الى السيدة سفيتلوفا . غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم . وما من أحد رآه الا سمردياكوف فيما زعم . ولكن لا بد لنا أن نلقى على أنفسنا عندئذ هذا السؤال : لنفرض أن سمردياكوف كان صادقاً فيما قال ، فمتى رأى هذا المبلغ آخر مرة ؟ لنتخيل مثلاً أن مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه فى صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك . لاحظوا أن أقوال

سمردياكوف تذهب الى أن المال كان مخبأً فى السرير تحت الفراش . فلا بد اذن أن يكون المتهم قد نبش السرير . فهل رأيتم السرير منبوشاً ؟ كلاً ... وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق . فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعّد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً ، بل كيف يمكن أن يكون قد دسّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج ، التى وُضعت على السرير فى ذلك المساء خصيصاً ؟ رب سائل يسأل : فما قولك بالظرف ؟ ألا فلنتكلم اذن عن هذا الظرف قليلاً . لقد دُهشت بعض الدهشة منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة ، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه ، فى مطالعته اللامعة ، حين رأيته هو نفسه ـ نعم هو نفسه أيها السادة ـ يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل : « لولا وجود ذلك الظرف ، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً ، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه ، اذن لما خطر ببال أحد فى العالم شىء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه ، ولما أمكن أن يُنسب الى المتهم أنه سرق » . معنى ذلك أن هذه القطعة الحقيرة من الورق الممزق ، مع العبارة المكتوبة عليها ، هى وحدها الأساس الذى يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة . فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت ، ولما كنا على يقين من وجود المال . فهل يمكن حقاً أن نزعم أن هذه المزقة الحقيرة من الورق الملقاة على الأرض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة ؟ قد يُعترض على هذا بأن « سمردياكوف قد رأى المال فى الظرف » ، ولكننا نسأل عندئذ : متى ، متى رأى هذا الظرف آخر مرة ؟ ذلكم هو السؤال الذى ألقيه عليكم . لقد تحدثت فى هذا الأمر مع سمردياكوف ، فذكر لى أنه رآه قبل حدوث الدرامة بيومين . فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن

العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة ، حين كان وحده في الغرفة منتظراً حبيبته على قلق ، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه ، قائلاً لنفسه : « اذا كان المال مودعاً في الظرف فقد يراودها شك ، أما اذا رأت في يدى ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل ، فسوف تقتنع رأساً ، وسوف يسيل لعابها طمعاً ! » . ها هو ذا اذن يمزق الظرف ويخرج منه المال ، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب الدار الذى لا يخشى طبعاً أن يكون في ذلك شهادة عليه . هل هناك حقاً ، أيها السادة ، افتراض أقرب الى المعقول وأدنى الى الجواز من هذا الافتراض الذى صورته لكم ؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ؟ ولكن اذا جرت الأمور على هذا النحو ، أو على نحو قريب من ذلك ، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها : فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال . اذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال ، فلا شيء يمنعنى أنا من أن أؤكد نقيض ذلك . وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض الا لأنه قد أفرغ من المال ، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً . رب سائل يسأل الآن : « ولكن اذا صح هذا ، اذا صح أن فيدور بافلوفتش هو الذى أخرج المال من الظرف ، فأين صار هذا المال ؟ اننا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل» . ان جوابى عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عثر عليه في صندوق القتيل ؛ وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة ، أو قبل ذلك بيوم ، لينصرف فيه تصرفاً آخر ، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله الى أحد ؛ وثالثاً أن من الجائز أن يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد ، فغير خطة عمله تغييراً كاملاً ، دون أن يرى اطلاع سمردياكوف على ذلك سلفاً . فاذا كان هناك أيسر امكان لتفسير الأمور على هذا النحو ، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار كله على

تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق ، وأنه سرق بعد أن قتل ؟ ألا ان هذا لرواية مؤلفة تأليفاً ! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق ، فانما ينبغي له ، على الأقل ، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء ، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً • أما في هذه القضية فان الشيء المسروق لم يره أحد • لقد حدث في سان بطرسبرج ، منذ وقت قصير ، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً ، في الثامنة عشرة من عمره ، يعمل بائعاً متجولاً ، قد داهم دكان صراف في وضح النهار ، متسلحاً ببلطة ، فقتل الصراف بجرأة قصوى ، وسطا على ألف وخمسمائة روبل • ولكنه قبض عليه بعد بضع ساعات ، فعثر على المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه الا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها • هذا الى أن أجير الصراف ، حين عاد الى الدكان بعد وقوع الجريمة ، استطاع أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب ، وانما ذكر للشرطة أيضاً ممَّ يتألف ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها ، وعدد الدنانير الذهبية التي حملها القاتل• وقد عُثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها• يضاف الى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة ، فقال انه قتل وسرق • ذلكم يا سادتي المحلَّفين ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة • ها هنا لا مجال للشك : فالمال أمامي ، أراه وألمسه ، ويستحيل عليَّ أن أزعم أنه لم يوجد • فهل الأمر على هذا النحو في القضية الراهنة ؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت ، مسألة مصير انسان ! رب قائل يقول : « طيب ••• ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها ، وأنه بعثر المال يمنةً ويسرة ، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمائة روبل • فمن أين أتى بهذا المال ؟ » • ولكنني أقول ان هذه الواقعة ، وهي أنه لم يُعثر معه الا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود المبذولة أن يُكتشف

النصف الثـانى من المبلغ الذى يـُزعم أن المتهم قد سرقه ، أقول ان هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعاً فى ظرف . ان التدقيق فى أجزاء الزمن الذى قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حـُسب هذا الزمن حسـاباً دقيقـاً) قد أوضح وبـّين أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب الى بيته بعد أن خرج راكضاً من عند الخادمتين ليمضى الى منزل الموظف برخوتين ، وانه لم يذهب الى أى مكان آخر ، وأنه عدا ذلك كان فى صحبة أشخاص آخرين طول الوقت بعد ذلك ، فمن المسـتحيل والحـالة هذه أن يكون قد اقتطع جـزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها فى مكان ما بالمدينة . وهذه الاعتبارات بعينها هى التى حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أ ُخفى فى جحر من الجحور أو شق من الشقوق فى قرية موكرويه ؟ لماذا لا نقول انه مخبأ فى أقبية قصر أودولف ؟ * أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً فى الواقع ؟ لاحظوا يا سادتى المحلـّفين أنه متى سقط هذا الفرض ، أعنى متى سقط الفرض الذى يذهب الى أن المتهم قد خبأ المال فى موكرويه ، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً ، والا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى ؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل الى أى مكان ؟ أبالاستناد الى روايات ينشئها الخيـال على هذا النحو ، يجوز لنا أن ندمـّر مصير انسان ؟ فاذا قيل لى ان المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصـدر الألف وخمسـمائة روبل التى عـُثر عليها معه ، وانه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة ، قلت : من يدرى ؟ ان المتهم قد قدم لنـا ، من جهته ، تفسـيراً واضحاً قوياً لمصـدر ذلك المبلغ ؛ وما أحسب الا أنكم تسمحون لى ، يا سادتى المحلـّفين ، بأن أنادى قائلاً انه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوالٌ أقرب الى الصحة وأدنى

الى الاحتمال من الأقوال التى أدلى بها المتهم حول هذه النقطة ، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية . لقد حلا للاتهام فى القصة التى ألفها أن يتخيل أن رجلاً ضعيف الارادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل نقدمها اليه خطيبته فى ظروف مخزية الى ذلك الحد ، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكّنه من أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه فى صدره ؟ وهبه فعل ذلك فانه ماكان ليستطيع الا أن يفتح الكيس كل يومين فيسل منه مائة روبل بعد مائة روبل ، الى أن يتلف المبلغ كله فى غضون شهر . ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة ، كما تتذكرون ، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد. فماذا اذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صوّرت قصتكم هذه التى حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم ؟ ألا ان البلاء هو انكم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها فى الواقع ! رب معترض يقول ان هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد مرةً واحدة فى موكرويه ، قبل وقوع المأساة بشهر ، كل الثلاثة آلاف روبل التى أخذها من الآنسة فرخوفتزيفا ، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود ؟ ان درجة الثقة التى يستحقون أن نوليهم اياها قد اتضحت لنا اتضاحاً كافياً أثناء المناقشات . ثم ان قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هى فى الواقع حين نراها فى يد غيرنا . يضاف الى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعدد المبلغ بنفسه ، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ الا على أساس رؤية العين . ألم يمض الشاهد ماكسيموف الى حد ادعاء أنه رأى فى يدى المتهم عشرين ألف روبل؟ هكذا ترون ، ياسادتى المحلّفين ، أن السيكولوجيا سلاح ذو حدين ، فاسمحوا لى لذلك أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها .

« قبل وقوع المأساة بشهر ، عهدت الآنسة فرخوفتزيفا الى المتهم

بثلاثة آلاف روبل ، وكلفته أن يرسلها بالبريد • اننى لأتساءل مع ذلك هل صحيح أن هذا المال قد سُلِّم اليه على النحو المذل المخزى الذى وُصف لنا منذ قليل ؟ ان الشهادة الأولى التى أدلت بها الآنسة فرخوفتزيفا كانت مختلفة عن هذا ، كانت مختلفة عن هذا اختلافاً كبيراً • أما شهادتها الثانية فلم تكن الا خليطاً مشوشاً مضطرباً من صرخات غضب وانتقام ، والا انفجاراً لكره طال أمد كبته • ويكفى أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً فى تصريحاته الأولى حتى نشك فى صدق التصريحات الأخرى التى أدلى بها بعد ذلك • ان السيد وكيل النيابة « لم يشأ ولم يجرؤ » ـ وتلك كلماته نفسها ـ أن يمسَّ هذا الجانب من المأساة • ليكن له ذلك ، وهأناذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا والتلبث عنده • غير أننى أسمح لنفسى مع ذلك بابداء هذه الملاحظة : حين نرى انسانة طاهرة فاضلة مثل الآنسة فرخوفتزيفا التى نحترمها جميعاً أكبر الاحترام ، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيِّع المتهم ، فانه يكون واضحاً عندئذ أن شهادتها لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية • فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور أن امرأة تجيش فى نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر ، هل حرام علينا أن نتصور أن هذه المرأة قد بالغت فى كثير من الأمور ، وضخمت كثيراً من الأشياء ؟ ان من الممكن خاصةً أن تكون قد ضخَّمت طابع الذل وصفة الخزى والعار فى تقديمها المال الى خطيبها • وانى لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدِّم الى المتهم تقديماً يمكِّن من قبوله ، لا سيما بالنسبة الى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا • ويجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم كان ينتظر أن يستلم من أبيه فى القريب مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذى يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الميراث • صحيح أن ذلك كان منه طيشاً

وتسرعاً ، ولكن الخفة هى بعينها التى جعلته لا يشك فى أن أباه سيرد اليه هذا المبلغ ، فيكون فى وسعه فى كل وقت أن يعيد الى الآنسة فرخوفتزيفا بالبريد المال الذى عهدت اليه به وائتمنته عليه ، فيسدّد دينها عليه ويبرىء تجاهها ذمته . ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع ، فى ذلك اليوم نفسه ، نصف المبلغ الذى أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً ؛ فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك « لا يتفق وطبع المتهم ، وأن المتهم ما كان له أن يشعر بمثل هذه العواطف » . ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين ان لأمثال كارامازوف طبيعة واسعة ، ألم تتكلموا هنا عن الهوّتين اللتين يمكن أن يتأملهما فى آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف ؟ ألا ان كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذى لا حدود لامكانياته فى الاتجاهين كليهما ، انه رجل الهوّتين الذى اذا انقاد لفرحة اتلاف المال واستسلم لظمأ الابتهاج واللهو والقصف كان يستطيع فى تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف . ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً : انه الحب الذى اشتعل فى نفسه ، وكان يحتاج من أجله الى المال احتياجاً أشد من احتياجه اليه فى سبيل اللهو والقصف مع حبيبته . فيوم تقول له حبيبته : « أنا لك . اننى لا أريد فيدور بافلوفتش » ، سيرحل معها ، وسيكون عندئذ فى حاجة الى مال . وذلك أخطر شأناً من القصف واللهو ، ما فى ذلك ريب . ان رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن الا أن يدرك هذا . وذلك بعينه هو ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير الى مرض ، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه فى لحظة من اللحظات . فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادخره من باب الاحتياط ؟ ولكن الوقت كان يمضى وفيدور بافلوفتش لا يرد الى المتهم الثلاثة آلاف روبل . والأدهى من

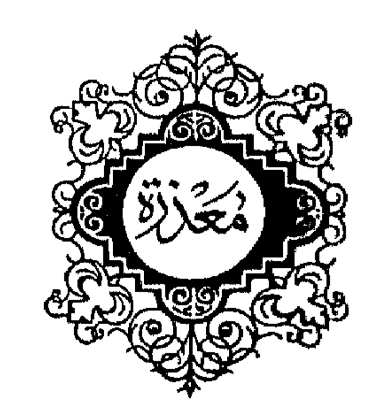
ذلك أن المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتش ينوى أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لاغواء حبيبته ، لاغوائها بماله هو • فقال لنفسه عندئذ : « ان لم يردّ الىّ فيدور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعدنى كاترين ايفانوفنا لصاً » • عندئذ وُلدت فى ذهنه تلك الفكرة ، وهى أن يمضى فى يوم من الأيام بالألف وخمسمائة روبل التى ما يزال يحملها فى عنقه ، أن يمضى بها الى الآنسة فرخوفتزيفا فيقول لها : « أنا شقى ولكننى لست لصاً » • أصبح هنالك اذن سببان يدفعانه الى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل ، والى المحافظة عليها محافظة شديدة والى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه والى أن لا يفض الكيس ليسلّ مائة روبل بعد مائة روبل• لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف ؟ لا يا سادتى ! ان هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف ؛ قد يكون فى احساسه بالشرف شىء من البعد عن طريق الصواب ، وقد يظهر هذا الاحساس فى بعض الأحيان مقلوباً ، ولكنه يحس بالشرف احساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع ، ولقد برهن على هذا ! ويتعقد الأمر مع ذلك، فهذه تباريح الهوى تبلغ أوجها ، وهذان سؤالان ، سؤالان قديمان ، ما يزالان يلحان على نفسه المضطربة الحاحاً شديداً ، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم : « سأرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولكن من أين أجىء بعد ذلك بما سأحتاج اليه من مال لأرحل مع جروشنكا ؟ » • ولعل السبب فى أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع ، لعل السبب فى هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة ، وأنه لم يفلح فى السيطرة على ألمه ؟ وتفاقمت الخواطر التى كانت تثيرها هذه المسائل فى ذهنه ، تفاقمت حتى أودت به الى اليأس• وأوفد أخاه الصغير الى أبيه يرجوه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل ، ولكنه داهم المنزل دون أن ينتظر جواباً ، وانتهى به الأمر

الى ضرب العجوز على مرأى من شهود • وبعد ذلك فقد أى أمل فى الحصول على هذا المبلغ ، لأنه أيقن أن أباه سيرفض حتماً اعطاءه المال ، حقداً عليه وانتقاماً منه • وفى ذلك اليوم نفسه ، حين التقى بأخيه فى المساء ، لطم صدره ، لطم أعلى صدره ، فى الموضع الذى يوجد فيه الكيس ، وحلف أن فى امكانه أن لا يصبح شقياً حقيراً ، ولكنه سيصبح كذلك ، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الامكان ، لافتقاده القوة النفسية التى تتيح له ذلك • انى لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسى كارامازوف وأن يركن الى شهادته التى أدلى بها بريئاً تلك البراءة كلها ، صادقاً ذلك الصدق كله ، عفوياً تلك العفوية كلها ، والتى هى من جهة أخرى معقولة محتملة الى أبعد الحدود ؟ ولماذا يُراد لى ، فى مقابل ذلك ، أن أُقسر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خبىء فى شق خفى من الشقوق أو فى قبو من أقبية قصر أودولف ؟ وفى ذلك المساء نفسه ، بعد حديثه مع أخيه ، كتب المتهم تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة التى هى أقوى قرينة ضده ، وأكبر دليل عليه ، والتى هى الأساس الرئيسى لاتهامه بالسرقة • « سأمضى ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف أقتل أبى ، وسوف استولى على المال المخبأ تحت الفراش فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، شريطة أن يكون ايفان غائباً » • هذه خطة قتل• فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه ، أليس كذلك ؟ « ذلك مكتوب » • بهذا صاح السيد وكيل النيابة • ولكننى أقول أولاً ان هذه الرسالة قد كتبت فى حالة سكر ، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير ؟ وأقول ثانياً ان المتهم لا يتكلم فى هذه الرسالة عن الظرف الا اعتماداً على أقوال سمردياكوف ، لأنه لم ير الظرف بنفسه ؟ وأقول ثالثاً ان هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً ، ولكن ما الذى يبرهن لنا على أن

المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء فى تلك الرسالة ؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش ، هل وجد فيه المال ، بل كان لهذا المال وجود ؟ تذكروا ان المتهم لم يهرع الى منزل أبيه بغرض الحصول على هذا المال ، تذكروا هذا أيها السادة ! وانما هو تسلل الى الحديقة كالمجنون ، لا ليسرق ، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة ، تلك المرأة التى يحبها حب العبادة ، فهو اذن لم يذهب الى منزل أبيه لينفذ الخطة الموصوفة فى الرسالة ، انه لم يذهب الى منزل أبيه لارتكاب سرقة مدبرة : وانما هو أسرع الى هناك بغير تدبير ولا تفكير ، وقد استبدت به وسيطرت عليه نوبة غيرة مسعورة • رب قائل يقول : « ولكن هذا لا ينفى أنه قتل أباه بعد ذلك ، واستولى على المال » • هنا أسألكم أخيراً : « هل قتل ؟ هل قتل حقاً ؟ » • اننى ارفض تهمة السرقة مستنكراً مستهجناً : فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين لا نستطيع أن نحدد الشىء المسروق على وجه الدقة : تلك بديهية من البديهيات • ولكن هل قتل المتهم ، هل قتل دون أن يسرق ؟ هل جريمة القتل ثابتة ؟ ألسنا ، هنا أيضاً ، بصدد رواية مؤلفة ؟

١٢

لا والا كان قتل



، سادتى المحلّفين ، ولكن الأمر يتوقف عليه مصير انسان ، فيجمل بالمرء أن يلتزم جانب الحكمة والحذر والتروى . لقد سمعتم السيد وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم ، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه ، فى أن ينسب الى المتهم جريمة قتلٍ عن سابق تصور وتصميم ، وأنه ظل يتردد فى ذلك حتى اللحظة التى قُدّمت فيها الى المحكمة تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة التى كتبها سكران . « ذلك مكتوب » . ولكننى أعود فأقول مكرراً ان المتهم قد تسلل الى الحديقة ليعثر على تلك المرأة ، وليس له من هدف الا أن يعرف أين هى . تلك واقعة ثابتة لا سبيل الى انكارها . فلو قد وجدها فى منزلها لما ذهب الى دار أبيه ، ولظلّ الى جانب تلك المرأة ، ولما نفّذ ما أعلن عنه فى رسالته . لقد هرع الى منزل أبيه بحركة مباغتة لم يكن يتوقعها ، ولعله كان فى تلك اللحظة قد نسى الرسالة التى كتبها وهو سكران . رب قائل يقول : « ولكنه أخذ مدق الهاون ، أليس كذلك ؟ » . ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التى اتخذ هذا المدق الشقى ذريعة لها وحجة ، وكيف أريدَ اقناعنا بأن المتهم لا بد

أن يكون قد عدّ هذا المدق سلاحاً ، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمه قتل الخ • ان فكرة بسيطة جداً تحضرنى فى هذه المناسبة : ترى ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على المائدة أو على رفٍ فرآه المتهم فتناوله ، وانما كان مودعاً فى خزانة مثلاً ؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم ، ولانصرف المتهم عندئذ خالى اليدين ، لا يملك سلاحاً ، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً • فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدّ ذلك المدق دليلاً على سابق تصور وتصميم ، وبرهاناً على نية التزود بسلاح ؟ رب قائل يقول : طيب ••• ولكن المتهم قد صرخ يقول هو نفسه ، فى الكاباريهات ، انه سيقتل أباه ؟ ومع ذلك فانه قبل الحادث بيومين ، فى المساء الذى كتب فيه رسالة السكران تلك ، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً فى أحد الكاباريهات مع مستخدم صغير من مستخدمى المتاجر : « لأن كارامازوف كان لا يستطيع الا أن يتشاجر مع أحد » • وأقول فى الردّ على هذه الحجة ان رجلاً فكر فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقترفها وفق خطة مرسومة سلفاً ، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد ،ولو مع مستخدمٍ فى متجر ؟ بل ولا كان له أن يدخل الى أحد الكاباريهات أصلاً ، لأن الرجل الذى يفكر فى اقتراف جريمة من هذا النوع ، انما ينشد الهدوء والعزلة ، ويحاول أن لا يلاحظه أحد، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد ، وكأنه يتمنى فى قرارة نفسه أن يقول للناس : « انسوا وجودى ، اذا أمكن ذلك » ، لا عن حساب وتدبير ، بل بغريزته وحدها • ان السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتى المحلّفين ، وانا لنحسن استعمالها نحن أيضاً • أما التهديدات التى أطلقها فى الكاباريهات طوال ذلك الشهر فما هى الا زعيق شبيه بزعيق الأطفال ، وما هى الا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يشتجرون

فيأخذون يعولون قائلين : « لأصرعنك ، لأقتلنك ! » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً . وأما تلك الرسالة المشئومة فليست الا صرخة سكر وغضب هى أيضاً ؛ ليست الا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة : « لأقتلنكم، يميناً لأقتلنكم جميعاً ! » . فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل ، فيم الاصرار على رفض هذا التعليل ؟ ان هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة ، أفليس الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ؟ نعم ... ان الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ! ولكن لا ... انهم لا يريدون لها الا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة ، لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً ، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفى يده سلاح ، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك ؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لخطة مرسومة من قبل ، فلا يمكن اذن أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً ، ولا يمكن الا أن تكون دليلاً قاطعاً ؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا الى النقطة الحاسمة فقالوا : « أما وأنه كان فى الحديقة فقد قتل » . ان هذه الكلمات الصغيرة الثلاث « أما وأنه » هى فى الواقع جوهر الأساس الذى تقوم عليه القضية ويستند اليه الاتهام . « كان فى الحديقة ، فهو اذن ... » . ماذا لو أسقطنا كلمة اذن ... » . ماذا لو أسقطنا كلمة « اذن » هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان فى الحديقة ؟ ألا اننى لأسلّم بأن الوقائع فى هذه القضية متوافقة ، وأن كثرتها تخطف البصر وتستأثر بالانتباه . ولكن هلاّ حملتم أنفسكم عناء تمحيص كل واقعة من هذه الوقائع فى ذاتها على حدة ، دن أن تهتموا بتوافقها ؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال انه انصرف عن نافذة أبيه ؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهكم الذى استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم فى هذا الموضوع فأشار الى مشاعر الاحترام وعواطف الفضيلة التى

اجتاحت نفس القاتل على حين فجأة • أى عجب فى أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا ، أى فى أن يكون المتهم قد استيقظت فى نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترام بالضرورة ، ولكنها مشاعر فضيلة • لماذا يكون هذا مستحيلا ؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق : « لا بد أن تكون أمى قد تشفعت لى فى تلك اللحظة » • فالمتهم قد هرب اذن منذ أدرك أن السيدة سفيتلوفا ليست فى صحبة أبيه • فان ردت النيابة على هذا قائلة : « ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة » ، قلت لم لا ؟ لقد فتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالاشارات المتفق عليها • ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه فى تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن السيدة سفيتلوفا ليست فى المنزل • لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلا يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله ؟ ان الواقع يشتمل فى كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها ، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤيه • رب معترض يقول : « طيب ، ولكن هذا لا ينفى أن جريجورى قد رأى الباب مفتوحاً ، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل ، وعلى أنه اذن قد قتل • » • ها نحن أولاء وصلنا الى حكاية الباب هذه ، يا سادتى المحلفين • تعلمون يا سادتى المحلفين أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً ، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ فى حالة خاصة ، كان فى حالة ••• ولكن لا داعى الى الالحاح ••• لنسلم جدلا ، اذا كنتم تحرصون على ذلك ، بأن الباب كان مفتوحاً ، وبأن المتهم قد كذب فى هذه النقطة أثناء التحقيق ، يدفعه الى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه ، وهو أمر مفهوم فى مثل وضعه • لنسلم جدلا بأنه دخل البيت ، نعم ، لنسلم جدلا بذلك • فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل ؟

ان من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت ، وطاف بالغرف راكضاً ، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً • فلما ثبت له بعد ذلك أن السيدة سفيتلوفا ليست في الدار ولىّ هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه • ولئن قفز الى الحديقة مرة ثانية بعد ذلك بدقائق فمال على المسكين جريجورى الذى صرعه فى لحظة من غضب شديد ، فانه لم يغفل ذلك الا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على اغراء قتل أبيه ، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراءة • ان السيد وكيل النيابة قد وصف لنا ، ببلاغة مظلمة قاتمة ، الحالة النفسية التى لا بد أنها كانت حالة المتهم فى موكرويه ، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له ، ويناديانه الى حياة جديدة ، بينما كان محظوراً عليه أن يحب ، لأنه خلّف وراءه جثة أبيه الدامية ، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذى لا مناص منه • ولكن السيد وكيل النيابة قد سلّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم فى قلب المتهم ، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية مرهفة ، فقال : « هذه حالة تشبه السكر ، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد الى ساحة الاعدام ، فيحدث نفسه قائلاً ان الطريق ما يزال طويلاً ، الخ » • ولكننى أتوجه الى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال : « ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال ؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعة تبلغ من قلة الاحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع ، بعد أن سفك دم أبيه ، أن يفكر فى الحب وأن يبنى خططاً ماكرة للدفاع عن نفسه ؟ كلا ثم كلا ! اننى لا أتردد لحظة واحدة عن أن أهتف قائلاً : كلا ثم كلا ! انى لأحلف بأغلظ الأيمان على أن المتهم ، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه ، وحين رآها تناديه الى حياة جديدة هانئة ، كان لا بد أن يشعر برغبة فى الانتحار لا تغالب ولا تقاوم ، وكان سينتحر حتماً ،

لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً ! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه ! اننى أعرف المتهم : ان ما ينسبه اليه جانب الاتهام من قسوة القلب وقلة الاحساس يناقض طبيعته . لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً ، هذا محقق ! واذا كان لم ينتحر فلأن « أمه قد تشفعت له ، فلم يسفح دم أبيه » ؟ واذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة فى موكرويه ، واذا ظل يلوم نفسه ويؤاخذها ، فان ذلك لم يكن الا بسبب جريجورى الذى كان المتهم قد صرعه ، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك العجوز الى الحياة ، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه ، وأن ينجو هو نفسه من العقاب . لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو ؟ ماالذى يبرهن لنا على أن المتهم يكذب ؟ رب سائل يسأل : « وجثة الأب ؟ اذا كان المتهم قد هرب دون أن يقتل فمن ذا الذى قتل اذن فيدور بافلوفتش ؟ » .

« أعود فأقول : ان كل المنطق الذى يستند اليه الاتهام هو هذا . من ذا الذى قتل ، اذا لم يكن المتهم هو القاتل ؟ ... يقال لنا : انه من المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر . فهل هذا صحيح يا سادتى المحلّفين ؟ هل يستحيل حقاً أن ننسب هذه الجريمة الى أشخاص آخرين ؟ لقد سمعنا السيد وكيل النيابة يحصى جميع من كانوا فى المنزل ليلة وقوع الجريمة . انهم خمسة اشخاص ، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً : المجنى عليه ، وجريجورى ، وامرأته . لم يبق اذن الا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف. وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة : لئن عمد المتهم الى تسمية سمردياكوف قاتلاً ، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يستطيع أن يشى به ؛ فلو كان هناك شخص سادس ، بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل ، اذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف

محمرّ الوجه من الخجل ، ولمضى يتهم ذلك الشخص السادس على الفور . ولكن ما الذى يمنعنى يا سادتى المحلّفين من أن أقلب هذا الدليل ؟ هناك شخصان لا ثالث لهما : المتهم وسمردياكوف . أفلا يجوز لى أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلى الا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون اليه التهمة ؟ ولكن لئن لم تجدوا شخصاً آخر توجهون اليه الاتهام فما ذلك الا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدة ، فاستبعدتم كل شبهة حوله ، ورفضتم كل شك فيه .

صحيح أن أحداً لم يسمّ سمردياكوف قاتلاً ، الا المتهم وأخويه والسيدة سفيتلوفا . غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه . ان شائعات غامضة تجرى فى المدينة عنه ، ان أسئلة وشبهات لا يفصح الناس عنها تدور فى الخواطر حوله ، ان قلقاً مبهماً يساور الأنفس ويستحيل الى توقع عام وانتظار شامل . ثم ان هناك وقائع مقلقة تشهد عليه رغم غموض دلالتها : من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التى وافته فى يوم وقوع الكارثة نفسه ، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه — لا أدرى لماذا — أن يهتم اهتماماً كبيراً بالالحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها . ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد . ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التى لم يكن يتوقعها أحد أيضاً ، أعنى شهادة أخى المتهم ، ايفان فيدوروفتش ، الذى ظل الى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل ، فاذا هو يجىء اليوم الى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً ان سمردياكوف هو القاتل ! صحيح أننى أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها فى حالة الشاهد النفسية . فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن ايفان كارامازوف مريض ، وأنه مصاب بنوبة حمى حارة ، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو فى حالة هذيان فى سبيل أن ينقذ أخاه بالقاء الجريمة على عاتق رجل

مات • ولكن هذا لا ينفى أن اسم سمردياكوف قد ذُكر فى هذه المناسبة مرة جديدة ، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون ألغازاً ، فكأن هناك ، يا سادتى المحلفين ، أشياء لم تُذكر الى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل ، وكأن الملاحظات التى قيلت فى حقه لم تكمل بعد ، ولعلها تكمل فيما بعد • ولكن ما ينبغى أن نستبق الأمور • لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات ، ففى وسعى ، ما دمنا الآن فى انتظار ذلك ، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التى صورها لنا السيد وكيل النيابه بكثير من البراعة والرهافه والموهبة • اننى على اعجابى بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن فى رسم تلك اللوحة النفسية ، لا أستطيع أن أشاطره رأيه فى هذا الرجل مشاطرة تامة • لقد ذهبت الى سمردياكوف ، رأيته وتحدثت معه ، فترك فى نفسى صورة تختلف عن الصورة التى رسمها لنا السيد وكيل النيابة • لا ، ان سمردياكوف ليس ذلك الشخص الضعيف الذى وصفه لنا الادعاء • اننى لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الهلوع الذى تكلم عنه السيد وكيل النيابة بالحاح شديد • أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة • بالعكس : لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً ، وان تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة ، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة • سادتى المحلفين ، فى رأيى أن السيد وكيل النيابة قد تسرع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل • لقد خلف سمردياكوف فى نفسى شعوراً واضحاً كل الوضوح : تركته مقتنعاً بانه انسان تفيض نفسه شراً وخبثاً ، وحقداً وحسداً ، وغروراً وميلاً الى الانتقام • ومن جهة أخرى ، فقد جمعت بعض المعلومات عنه : لقد كان يكره أصله ، ويحمر خجلاً منه ، ويكز أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة « نتنة » • وكان يسىء معاملة

الخادم جريجورى وامرأته اللذين أحسنا اليه وانعما عليه فى سنى طفولته . وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها ويستهزىء بها ، وكان حلمه هو أن يسافر الى فرنسا وأن يصبح فرنسياً . وكثيراً ما كان يقول انه يحتاج الى مال من أجل أن يرحل . وأعتقد أنه كان لا يحب الا نفسه ، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً . كان يعد نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءين لامعين . واذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعى لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً) ، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء مولاه الشرعيين قد أورثه مرارة وحقداً : كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا ، وكان هو لا يتمتع بأية مزية . كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم ، أما هو فلم يكن الا طباخاً . لقد أسرّ الىّ أنه ساعد فيدور بافلوفتش فى ايداع المال فى الظرف . والهدف الذى نُذر له هذا المبلغ ـ وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه فى تحقيق أغراضه ـ لا بد أن يكون قد أثار فى نفسه غيظاً شديداً . ثم انه رأى فى تلك اللحظة ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً) ، وأنتم تعلمون، يا سادتى ، أنه ما ينبغى لنا أن نلألىء مبلغاً ضخماً أمام عينى انسان حسود مغرور ؛ وكانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة فى يدى شخص واحد . فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الجديدة قد أحدثت فى نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شىء فى بداية الأمر . ان السيد وكيل النيابة الذى نعجب بموهبته كل الاعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التى يمكن اللجوء اليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل ، وقد ألحّ خاصةً على هذا السؤال : لأى سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً

وكذباً ؟ ولكن سمردياكوف لم يكن فى حاجة الى ذلك التظاهر ، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها ، ومن الجائز ان تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً . من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب الى وعيه . صحيح أنه لا يكون قد شفى عندئذ من مرضه ، ولكن كان لا بد أن يعود اليه شعوره عاجلاً أو آجلاً ، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع. ان الادعاء يسأل : فى أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل ؟ الحق ان الجواب عن هذا السؤال يسير جداً ، فما أسهل أن نعيّن تلك اللحظة . فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب الى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط ، فان نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق) ، فى تلك اللحظة نفسها التى تشبث فيها العجوز جريجورى بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معولاً بصوت حاد ملءَ حنجرته : « يا قاتل أبيه ! » . فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التى دوت فى صمت الليل قد أيقظت سمردياكوف من نومه الذى لعله لم يكن عندئذ عميقاً كل العمق ، لأن سمردياكوف لا بد أن يكون قد أخذ يفيق منذ ساعة ؟ فلما نهض اتجه على غير شعور منه ، وبدون أية نية معينة ، الى الجهة التى جاءت منها الصرخة . وكانت أفكاره ما تزال مبهمة ، وكان خياله ما يزال وسنان . ولكن ها هو ذا يصل الى الحديقة ، وها هو ذا يقترب من النافذة المضاءة ، فاذا هو يعلم بالنبأ الرهيب من فم مولاه نفسه ، الذى اغتبط لرؤيته طبعاً ؟ واذا بفكرة الجريمة تنبت فى رأسه فجأة . لقد أطلعه مولاه المذعور على ما جرى .

وها هى ذى الفكرة التى نبتت فى رأسه المريض المشوش تظهر الى النور واضحة المعالم بينة الحدود . انها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق

لا يرحم : وهى أن يقتل العجوز ويستولى على الثلاثة آلاف روبل ، ثم يلقى الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل ! من ذا الذى يمكن أن يُشتبه فيه الآن ، من ذا الذى يمكن أن يُتَّهم ، غير هذا الابن الذى تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة ؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات ؟ من الجائز اذن أن تكون قد استبدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة الى السطو على المال ، وظمأ شديد الى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب . ألا اننا لنعرفها ، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التى تشب فجأة فى نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة فى معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور فى خلدهم أنهم سيقتلون . من الجائز اذن أن يكون سمردياكوف قد دخل الى غرفة مولاه ، ونفذ خطته . فاذا سألتمونى ما هو السلاح الذى استعمله فى القتل ، قلت ان من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه فى الحديقة ؛ واذا سألتمونى ماهو الهدف الذى قتل من أجله قلت انه تلك الثلاثة آلاف روبل التى يمكنها أن تؤمن مستقبله ! لا ، لا ، اننى لا أناقض نفسى : فمن الجائز أن يكون المال موجوداً . ومن يدرى ؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذى كان يعرف المخبأ الذى أخفى فيه مولاه المال . رب معترض يقول: « والظرف ؟ الظرف الممزق الملقى على أرض الغرفة ؟ » ، فأجيب قائلاً : ان السيد وكيل النيابة قد أورد فى موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة ، وهى أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة الا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً ، وليس له خبرة سابقة أى لا يمكن أن يتركه الا لص مثل كارامازوف ، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل . سادتى المحلفين ، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدى

هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أننى أسمع صوت جرس معروف عندى مألوف لى • تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذى يمكن أن يسلكه كارامازوف فيما يتصل بهذا الظرف ، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لى ، منذ يومين ، شخص ليس الا سمردياكوف نفسه • وعدا ذلك ، فان وضعه فى تلك اللحظة قد خطف انتباهى ، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنعة كاذبة ، وأنه انما كان فى حقيقه الأمر يسبقنى فيوحى الىّ بهذه الفكرة بغية أن تتجسد فى نفسى بعد ذلك ، فأستخرج منها النتائج التى يريد أن يبثها بهذه الطريقة فى ذهنى• أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لَقّن قاضى التحقيق هذه الفكرة أيضاً ؟ أفلا يمكن أن يكون قد انبتها خلسةً فى فكر السيد وكيل النيابة الذى يمتاز بمواهب عظيمة ؟ رب قائل يقول : ولكن العجوز زوجة جريجورى قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاثة خطوات من سريرها طوال الليل ! لست أنكر أنها سمعت أنينه ، ولكن هذه الحجة من أوهى الحجج • عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم ، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض • وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح فى الواقع الا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً • ان أمثال هذه الأخطاء طبيعية : هذا انسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أُوقظ من نومه ؟ ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً ؟ وتنقضى على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات ، فاذا بأنين جديد ينطلق ، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما فى المرة السابقة ؟ وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث ، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثا لا أكثر • ولكن صاحبنا ، حين يستيقظ فى الصباح ، سيشكو من أن أنيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل • ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً ، لأنه لن

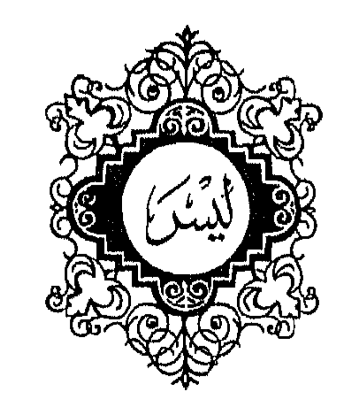
يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التى كان أثناءها نائماً ، ولن يحتفظ الا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة • لذلك سيتخيل أنه أوقظ ايقاظاً متصلاً غير منقطع • وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً : « ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التى كتبها قبل موته ؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الانتحار ، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الاعتراف ؟ » • هنا أقفكم لأقول : ان الضمير يتضمن الندم • ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأى ندم حين انتحر ، ولعله لم يختر هذا المخرج الا يأساً وقنوطاً • ان الندم واليأس شيئان اثنان يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف • فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما ؟ وحين ينتحر سمردياكوف فانه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته • سادتى المحلّفين ، اياكم والخطأ القضائى ! هل فى هذا التأويل الذى أضعه بين أيديكم شىء يخالف العقل ويجافى الاحتمال ؟ دلّونى على خطأ واحد فيما عرضته لكم ، دلونى على استحالة واحدة ، أو بطلان واحد ! ولكن اذا كان هذا الافتراض الذى بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال ، ولو على ظل امكان أو جواز ، كان عليكم أن تمتنعوا عن اصدار حكم يدين المتهم• فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة ! ألا اننى لأحلف لكم بكل ما أقدسه فى هذا العالم على أننى ، من جهتى ، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذى وصفت • وانى لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجانى عن طورى حين تراودنى هذه الفكرة التى تلاحقنى وتطاردنى بغير انقطاع ، وهى أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التى جمعها الادعاء قرينة واحدة يمكن أن تعدّ واضحة ، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض • ان اجتماع هذه القرائن بعضها الى بعض هو الشىء الوحيد الذى يوشك أن يكون سبباً فى هلاك

انسان . أنا أعلم ان اجتماع هذه القرائن رهيب : ذلك الدم السائل من يدى المتهم ، ذلك القميص الملوث بالدم ، تلك الصرخة التى دوّت فى ظلام الليل قائلة : « يا قاتل أبيه ! » ، وسقوط الرجل الذى أطلق تلك الصرخة ، سقوطه على الفور مهشّم الجمجمة ، ثم جميع تلك الشهادات المتوافقة التى أدلى بها الشهود ، وجميع تلك الحركات والصيحات التى صدرت عن المتهم ... آه ... ان ذلك كله يمكن أن يؤثر فى الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأ ... ولكن لا فى عقولكم أنتم يا سادتى المحلّفين ، لا فى عقولكم أنتم ، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو . تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها ، وأنكم قد أُعطيتم حق العقد والحل . وعلى قدر السلطة انما تكون المسئولية ! اننى لا أتراجع عن حرف واحد مما قلته ، ولكن فلنسلم جدلاً ، خلال دقيقة ، بالرأى الذى يذهب اليه الادعاء حين يزعم أن موكلى قد غمس يديه بدم أبيه . أكرر أن هذا افتراض ، فأنا لا أشك لحظة واحدة فى براءة موكلى . ولكننى اتنازل هذا التنازل ، فاسلم جدلاً بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب . ألا فاسمعوا اذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض . اننى أحرص على أن أكلمكم بصراحة فى هذه النقطة ، لأننى أحس وأقدّر أن معركة تنشب الآن فى نفوسكم وعقولكم ... سادتى المحلّفين ، اغفروا لى هذا الدخول الذى لا حقّ لى فيه ، الى مشاعركم الصميمة . فقد آليت على نفسى لأبقينّ مخلصاً وصادقاً الى النهاية . نعم ، يا سادتى المحلّفين ، لنكن جميعاً مخلصين صادقين ! ... » .

هنا قطع مرافعةَ الدفاع تصفيقٌ متصل . ذلك أن المحامى قد نطق هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس

يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً ، وأن ما سيعبر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً • ولكن رئيس المحكمة ما ان سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً باخلاء القاعة اذا « تكرر شيء من هذا مرةً أخرى » • فعاد الجميع الى الصمت ، واستأنف فيتوكوفتش مرافعتـه بصـوت تغيرت نبرته على حين فجـأة وأصبح نافذاً قاطعـاً يختلف اختـلاف التعـارض والتناقض عن اللهجة التى تحدث بها حتى ذلك الحين •

١٣
سفسطائي



اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشئوم الذى يدين موكلى • لا يا سادتى المحلّفين ، وانما تدينه فى الواقع جثة أبيه ! فلو كانت جريمة القتل هذه جريمة عادية ، لترددتم كثيراً أمام هذه الوقائع التى تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولا محتملة متى مُحّصت كل واحدة منها على حدة بدلاً من النظر اليها فى مجموعها ، ولتراجعتم أمام افتقاد الأدلة والبراهين ، ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة ؟ أو لرفضتم على الأقل أن تدمّروا مصير انسان بسبب ما قام فى الأذهان من رأى سيء فيه ، وهو رأى يستحقه فى الحقيقة وا أسفاه ! ولكن الجريمة ليست جريمة عادية • وانما هى جريمة قتل ابن أباه ! فهذا الظرف يؤثر فى النفوس والعقول تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفى على أتفه الأدلة وأوهن القرائن خطورة خارقة، فاذا الضمائر لا يقلقها عندئذ أن يستحيل البرهان القاطع على أن المتهم هو الجانى • هل يخطر ببال أحد أن يبرىء مجرماً من هذا النوع ؟ ان الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن أن يبرأ • كيف يرتكب جريمة كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً ؟ تلك فكرة تثير النفوس • هذا ما يحسه كل انسان فى قرارة نفسه ، على غير ارادة منه تقريباً • نعم ، انه لشىء رهيب أن نسفح دم أب ، دم

انسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه ، دم رجل لم يدخر فى سبيلنا وسعاً ، وكان فى طفولتنا يتألم اذا مرضنا ، ولم يفكر طوال حياته الا فى سعادتنا ، ولم يغتذ طوال حياته الا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح ! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب ، فذلك يا سادتى شىء لا يتصوره العقل ؛ ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع جريمة كهذه الجريمة . ما الأب يا سادتى المحلفين ؟ ما الأب الحق ؟ ماذا تضمه هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا ، ما هى الدلالة الرفيعة الهائلة التى تختفى فى اسم الأب هذا الذى يستأثر باحترامنا جميعاً ؟ لقد وصفنا منذ هنيهة ، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقى ، فهل كان فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وهو الضحية فى هذه القضية التى تشغلنا وتدمى قلوبنا ، هل كان ينطبق على هذا المثل الأعلى الذى رسخ فى أعماق نفوسنا عن الأبوة ؟ ذلك شقاء يا سادتى . ان بين الآباء من هم كارثة . فلننظر فى هذه المسألة من قرب ، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شىء ، يا سادتى المحلَّفين ، فان القرار الذى ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة . يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه ، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة ، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذى استعمله رجل القضاء اللامع الذى استمعتم الى خطابه منذ قليل . على أن خصمى المحترم (ولقد كان خصماً لى حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول انه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم ، وانه لن يتكل فى أمر الدفاع عنه على المحامى الوافد من سان بطرسبرج ، وانه سينهض بمهمتى المدعى والمدافع فى آن واحد . لقد نادى بذلك عدة مرات . ولكنه نسى أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور

الامتنان بسبب رطل من بندق أهداه عليه رجل كان هو الانسان الوحيد الذى دلله فى منزل أبيه • وفى مقابل ذلك لم يكن فى وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافى القدمين فى الفناء الخلفى من المنزل ، « مرتدياً سروالاً لا يمسكه الا زر واحد » ، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الطيب الشهم الرحيم • انى لأسألكم يا سادتى المحلفين هل من اللازم حقاً أن نتلبث طويلاً على الكلام عن هذه « الكارثة » الأبوية ، وأن نلح على أمور يعرفها جميع الناس قبل الآن ؟ أى استقبال لقيه موكلى حين جاء الى هذه المدينة ليزور أباه ؟ لماذا ، نعم لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلى فى صورة رجل عديم الاحساس ، أنانى الطبع ، شاذ الخلقة ؟ هو عنيف مندفع ، هو متوحش صخاب ، وبسبب هذا انما نحكم عليه اليوم• ولكن من المسئول عن مصيره ، وعلى من يقع الذنب اذا هو ربى تربية يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه ؟ هل تولى أحد فى يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله ، بأن يكشف له عن جمال العلم ؟ هل مال عليه أحد فى حب وحنان أثناء سنى طفولته ؟ لقد شب موكلى فى رعاية الله وحده ، شب كحيوان متوحش • لعله كان ظامئاً الى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها ، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك ، الأشباح المقيتة التى ملأت أيام طفولته والتى كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل ، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة فى سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه. ولقد أسرع يحتضن أباه بذراعيه • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أن تلقاه بالسخريات والأمازيح المستهترة عجوز شكاك ريّاب، لا يخشى على شىء كما يخشى على مال الميراث • ولا بد أن الشاب قد شهد محادثات كان المتوفى يعرض فيها فلسفته فى الحياة وهى فلسفة تثير فى نفوسكم التقزز وكان العجوز

يبسطها وهو يشرب أقداحاً صغيرة من الكونياك . وزاد الطين بلةً في آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته ، هو ابنه ، مستعملاً في ذلك مالاً يعده الشاب ماله . آه يا سادتي المحلَّفين ، ذلك كله رهيب قاسٍ الى أبعد الحدود . وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام له والعاطفة نحوه ، وكان لا يتردد عن التشهير به في المجتمع ، والاساءة اليه بالنمائم والوشايات ، وشراء سندات ديونه لايداعه السجن ! سادتي المحلَّفين ، ان الرجال الذين هم من طينة موكلي ، ان هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع ، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً الى أبعد حدود الرقة ، ولكن نوعاً من الحياء يمنعهم من اظهار ذلك . تلك حالة شائعة جداً . آه ... لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه! ان السيد وكيل النيابة الذي أُعجبْ بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله الى شيللر وحبه للأمور « النبيلة الرفيعة » . ولو كنت في مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت ، عند القاء مطالعة النيابة ، عن الاستهزاء بما يجيش في نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية . ان النفوس التي من هذا النوع ـ واسمحوا لي يا سادتي أن أدافع عن أمثال هذه النفوس التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق ! ـ أقول ان النفوس التي من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى الى الحنان والجمال والطهارة ، كأنما تبحث بذلك عن ملجأ يقيها من عنفها نفسه ويجنبها قسوتها نفسها . قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية ، ولكنها مع ذلك عارمة قوية . ان هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب ، قادرون على الحب الى درجة الألم ، قادرون على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً الى أقصى حدود الروحية والسمو . لا ، لا ، لا تضحكوا

يا سادتى ! فذلك ما يحدث ، دائماً على وجه التقريب ، لدى الطبائع التى تشبه طبيعة هذا الرجل . والبلاء كله فى هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التى تكون فى بعض الأحيان عنيفة فظة ؛ ومايخطف بصرَ الناس فيها هو ما يُلاحظ من ظاهر سلوكها ، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد . ومع ذلك فان أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة ، فاذا الرجل الذى كان يُظن أنه عديم الاحساس ، وأنه فظ غليظ ، اذا هو يحاول أن يجدد نفسه وأن يجدد حياته قرب انسان نبيل طاهر متمنياً اصلاح حاله بالاتصال به ، آملاً أن يصبح طاهراً هو أيضاً . «النبل والسمو» ... آه ... فيم الاستهزاء بهاتين الكلمتين ؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أننى لن أجيز لنفسى أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع الآنسة فرخوفتزيفا . ولكن يجب أن يباح لى مع ذلك أن أشير الى هذه القصة اشارة سريعة مقتضبة . ان ما سمعناه فى هذه القاعة المغلقة لم يكن شهادة شاهد ، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنَّ جنونها ! لا ، ما هى بالتى كان يحق لها أن تتهم موكلى بالخيانة ، لأنها هى التى خانته فى الواقع ! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً ، اذن لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة . لا تصدقوها يا سادتى . ليس موكلى بالرجل الذى وصفته الآنسة فرخوفتزيفا بأنه « شيطان رجيم » . ان المصلوب الذى كان يحب بنى الانسان قد هتف يقول وهو يصعد التل الذى نصب عليه الصليب : « أنا الراعى الصالح الذى يبذل حياته فى سبيل خرافه . فلن يهلك واحد من الخراف »* ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً انسانية ! لقد سألت منذ هنيهة : ما الأب ؟ وهتفت أقول : هذه كلمة كبيرة ، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر فى القلب الى غير حد . ولكن يحسن بالمرء أن يكون صادقاً أميناً فيما يقول يا سادتى المحلفين ؛ ولهذا سأسمح لنفسى أن أسمى الأشياء بأسمائها فأقول : ان

رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق فى أن يسمى أباً ، لأنه غير جـدير بهذا الاسـم • ان حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً حين لا يسوّغه خُلُق الأب • ان مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل • ما كان للحب أن يقوم على العدم ، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم • ان الرسول بولس الذى كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقـول : « وانتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » * • اننى أبيح لنفسى أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأننى أفكر فى موكلى فحسب ، وانما أنا استشهد بها متجهاً الى جميع الآباء • من الذى وهب لى حق أن أعظهم بما يقع على عاتقهم من واجب ؟ لا أحد ! ولكننى أناديهم بصفتى انساناً ومواطناً ! ان اقامتنا على هذه الأرض قصيرة ، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة ، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة • فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه الدقيقة التى تجمعنا فى مكان واحد ، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيِّرة طيبة تواسى القلب وتشد الأزر وتقوى العزيمة • وذلك ما أفعله الآن : اننى أهتبل الفرصة لأخاطبكم جميعاً • ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنـا هذا المنبر : ان الكلمـات التى ننطق بها هنا تسـمعها روسـيا كلها • فالى جميع الآباء انما اتجـه اذن بالـكلام ، لا الى الآباء الحاضرين فى هـذه القـاعة ، فحسب ، فأهتف قائلاً : « وأنتم أيها الآباء ، لا تغيظوا أولادكم ! » • يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعـاليم المسيح ، وبعد ذلك انمـا يحق لنـا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها • فاذا لم نفعل ذلك لم نكن آبـاء ابنائنـا بل كنـا أعـداءهم ، وسيصبحون اعداءنا هم أيضاً ، سيصبحون اعداءنا بسبب خطئنا نحن • « بالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم » *• لست أنا من يقول هذا الكلام ، وانما يقوله الانجيل : كيلوا بالكيل الذى يكال به لكم • فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنـا بالكيل الذى نكيل لهم به ؟ لقد وقع فى فنلنـدة ،

فى الآونة الأخيرة ، أن اشتبه الناس فى امرأة خادمة واعتقدوا أنها ولدت ولداً • فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا فى عنبر المنزل حقيبةً لها كانوا يجهلون وجودها ، وقد أُخفيت الحقيبة فى ركن من العنبر وراء بعض القرميدات • فلما فتحوا الحقيبة وجدوا فيها جثة طفل وليد ، ووجدوا فى الحقيبة أيضاً هيلكين عظيمين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما ، وذلك ما اعترفت به هى نفسها • فهل نستطيع يا سادتى المحلفين أن نسمى تلك المرأة أماً ؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد ، ولكن هل كانت أمهم حقاً ؟ هل يجرؤ أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس ، لقب الأم ؟ ألا فلنتجمل بشجاعة الفكر يا سادتى المحلّفين ! ألا فلنكن جسورين بل ومتهورين فى هذا الأمر ، لأن من واجبنا فى هذه اللحظة أن لا نتهيب بعض الألفاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار ، وأن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو أولئك اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتى « معدن » و « كبريت » *• بالعكس : يجب أن نبرهن على أن التقدم الذى تحقق فى هذه السنين قد شمل تطورنا الروحى الأخلاقى • يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفى المرءَ أن ينسل نسلاً حتى يكون أباً ، وانما ينبغى له أن يستحق شرف هذا الاسم • أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأى ، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب ، هو أن أبى يظل أبى ولو كان شيطاناً رجيماً ومجرماً عاتياً فى حق أولاده ، وذلك يا سادتى لمجرد أنه أوجدنى • ولكن هذا التصور تصور غيبى ان صح التعبير ، تصورٌ لا يستطيع أن يدركه العقل ، ولا يمكن قبوله الا على أنه عقيدة وايمان ، مثله كمثل كثير من الأمور التى لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها • ومثل هذا التصور يبقى عندئذ فى خارج الحياة الواقعية • أما فى واقع الحياة الذى لا يشتمل على حقوق فحسب ، بل يفرض علينا

واجبات أيضاً ، فانه ينبغي لنا ، اذا أردنا أن نكون انسانيين واذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين ، أن نقتصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة ، أفكار مرت ببوتقة التحليل المنطقي ؟ أي ينبغي لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء ، لاتصرف أناس طاشت عقولهم فهم يتحركون في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الانسان وحتى لا نعذب أحداً من الناس ظلماً بغير حق ، وحتى لا نضـيع امرءاً من مخلوقات الله • ذلكم هو الموقف المسيحي حقاً ، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب ، بل يكون في الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر ••• » •

هنا انطلقت الأكف بتصـفيق حاد من جميع أرجاء القاعة ، ولكن فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده ، كأنه يضرع اليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له باتمام كلامه • فسرعان ما ساد الصمت من جديد ، وواصل الخطيب حديثه فقال :

« أتراكم تظنون يا سادتي المحلفين أن المسائل التي من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سن المراهقة مثلاً ، فيأخذون يفكرون ويبحثـون ويناقشـون ؟ ألا انكم اذن لتتوهمـون ! ان ابنـاءنا لا يمكن الا أن يتساءلوا في هذه الحالة ، وليس في وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك ، والا كنـا نطلب المستحيل • ان المراهق لا بد أن يشـعر باضطراب كبير وحيرة شديدة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً ، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخـرين هم رفاقه ، فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض • قد يقال له عندئذ ، على ما جرت به العادة المألوفة المبتـذلة : « لقد وهب لك الحيـاة ، وأنت دم دمه ، فعليـك أن تحبه » • ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير ارادة منـه : « فهل كان يحبني حين وهب لي الحيـاة ؟ » ، وسـيزداد اضطراب الفتى أثنـاء

تأملاته ، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه : « لا ، انه لم يهب لى الحياة حباً بى أنا ؛ انه لم يكن يعرفنى ، بل انه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى فى لحظة الخلق تلك ، فى لحظات الهوى تلك التى لعل الخمرة هى التى كانت توقدها ، فلم يورثنى الا حب الشراب والميل الى السكر . تلك كانت كل نعمه وآلائه علىّ ... فلماذا يُراد منى أن أحبه لا لسبب غير أنه ولدنى ، مع أنه لم يكترث بى بعد ذلك فى يوم من الأيام ؟ » . قد تجدون هذا التفكير فظاً قاسياً يا سادتى ، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق : « اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » * . ولنحاذر خاصةً ، يا سادتى ، لنحاذر قبل كل شىء ، أن يسيطر علينا الخوف من « المعدن » و « الكبريت » ؛ ولنقض فى الأمر بما توجبه قوانين العقل الانسانية ، لا بما تفرضه التصورات الغيبية . فما الذى نقرره عندئذ ؟ اليكم الأمر : ليتقدم الابن الى أبيه وليلق عليه فى أناة وروية هذا السؤال « قل لى يا أبى لماذا يجب علىّ أن أحبك » * ، فاذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال ، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه ان يحبه ، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً ، أسرةٍ قائمة لا على أوهام غيبية ، بل على وقائع واضحة التصور انسانية الحدود . أما فى غير هذه الحالة ، أى اذا عجز الأب عن الاتيان بالبرهان المطلوب ، فقد انتهت تلك الأسرة ، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب ، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر الى أبيه نظرته الى غريب ، بل والى عدو . ان على منبرنا هذا ، يا سادتى المحلَّفين ، أن يكون مدرسةً للحقيقة والمعانى السليمة » .

هنا قاطعت الخطيب عاصفةٌ من تصفيق مسعور . ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو ، فاننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق . كما أن صرخات

حادة وصيحات اعجاب قد قامت فى الجزء الأعلى من القاعة ، وهو الجزء الذى توجد فيه السيدات ؛ وأخذت الأيدى تلوّح بالمناديل ؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع • كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور ، ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى حد « اخلاء القاعة » عملاً بتهديداته السابقة : ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى فى صــف الكراسى الموضــوعة فى خلف ، الموقوفة على كبار الموظفين ، وأكثرهم شـيوخ يرتدون ملابس رسـمية تزينها الأوسـمة والنياشين • لذلك اكتفى الرئيس ، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب ، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً انه سيخلى القـاعة اذا تكرر ما حـدث مرة أخـرى • وهذا فيتوكوفتش يسـتأنف مرافعة منفعلاً ، فيقول :

« سادتى المحلَّفين ، انكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التى طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة ، تلك الليلة التى دخل فيها المتهم الى منزل أبيه بعد أن تسلق السور ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذى ولده وأساء اليه وأهانه وكان عدوه • اننى أعود فأقول ملحاً : ان المتهم لم يجىء ليسطو على المال ، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك ؛ لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل ! كلا ثم كلا • فلو قد كان ينوى

ارتكاب جريمة ، اذن لاحتاط للأمر سلفاً وتزود ، على الأقل ، بسلاح ، بسلاح حقيقى ، لا بمدق الهاون هذا الذى تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة • لنسلّم جدلاً اذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجـوء الى تلك الاشـارات السرية ، فدخل البيت • لنسلّم بهذا جدلاً ، لأننى لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات ، كما سبق أن قلت ذلك • ولكن فلنسلم جـدلاً ، خلال بضع دقائق ، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً • انى لأقسـم لكم بكل ما أقدسـه فى هذه

الحياة يا سادتى المحلفين ، أن المتهم ، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً فاقتنع بأن المرأة التى يبحث عنها ليست فى المنزل ، كان سينصرف مسرعاً دون يُلحق بمنافسه أى أذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه . لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً فى أكثر تقدير ، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله . لقد كان فى عجلة من أمره ، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة. ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه ، أمام أبيه ، وجهاً لوجه ... آه يا سادتى ! ان رؤية ذلك الأب هى التى كانت سبب كل شىء ، ذلك الأب الذى كان عدوه منذ طفولته ، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب ، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه ! ان شعوراً ابالكره لا يغالَب قد استولىعليه حينذاك واستبد بروحه، فأصبح لا يستطيع أن يفكر . ثار كل شىء فى نفسه حينذاك . كان ذلك انفجار جنون ، ولكنه جنون طبيعى ، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التى تحكم الانسان بغير شعور وغير لجام ، شأن كل ما هو من الطبيعة . ولكن القاتل ، حتى فى تلك الدقيقة ، لم يقتل ! اننى أؤكد هذا وأصيح به هنا ! كلا ، وانما هو اكتفى بأن رفع مدقه بحركة اشمئزاز ، دون أن يكون فى نيته أن يقتل ، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق المشئوم فى تلك اللحظة ، فلربما كان سيكتفى بأن يضرب أباه ، أما أن يقتله فلا . وحين هرب بعد ذلك كان لا يدرى أقتل العجوز الذى ضربه أم لا . ان قتلاً يحدث فى هذه الظروف ليس بقتل . وان قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن اباه أيضاً. لا يا سادتى ، ليس يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب . اننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب الا بسبب وهم قائم فى الأذهان ! ولكننى أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق ، بكل نفسى : هل كان ثمة قتل فعلاً ؟ تخيلوا ياسادتى المحلفين أننا حكمنا على

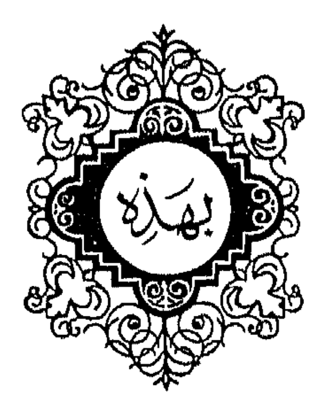
هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك : « ان هؤلاء الناس لم يفعلوا فى سبيلى شيئا من اجل ان يصلحوا أمرى ويحسنوا مصيرى . لم يهتموا بتربيتى ، ولم يحاولوا ان يجعلوا منى انسانا افضل . ان هؤلاء الناس لم يعطونى ما أشربه ولا ما آكله ، ولم يساعدونى يوماً فى حبسى المظلم ، وها هم أولاء يرسلوننى الان الى السجن فى المنفى ! ألا انى اذن اليوم براء حيالهم ، لا أدين لهم بشىء ، ولن أدين بشىء لأحد من الناس فى هذا العالم بعد هذه الساعة قط ! انهم جميعاً أشرار ، فسأكون شريراً مثلهم . انهم جميعاً قساة ، فسأكون قاسياً مثلهم » . ذلكم ما سيقوله يا سادتى المحلفين . أحلف لكم أنكم اذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذى سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره . صحيح أنه سيلعن الجريمة التى ارتكبها ، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة . انكم اذا حكمتم عليه كنتم تحطمون الى الأبد ما فى نفسه من امكانيات اصلاح حاله ، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر الى آخر عمره . فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره ، مع انقاذكم نفسه ، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً الى الأبد ؟ ألا فأرهقوه برحمتكم ، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروَّع النفس عندئذ ، قائلاً : « هل أستطيع أن احتمل هذه الرحمة ، هل أنا جدير بهذا الحب كله ، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً ؟ » . كذلك سيكون ردُّه على رحمتكم . اننى أعرف هذا الرجل يا سادتى المحلّفين ، أنه متوحش ، ولكنه نبيل القلب فى قرارة نفسه . لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم ، لأنه ظامىء الى الحب قبل أى شىء آخر ، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً ، وسيولد ولادة جديدة نهائية . ان هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل انسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة . فاشملوا هذه النفس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم ، فاذا هى

تلعن وضعها السابق وموقفها الماضى ، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشـواق النبيلة المكبوتة • لسوف تتفتح روح هذا الانسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الانسان وعدالة البشر • لسوف تروّعه عندئذ جريمته ، فيسحقه عذاب الضمير ، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذى يقع على عاتقه بعد الآن • لن يقـول بعـدئذ : « أنا الآن براء لا أدين لأحـد بشيء » ، بل سيهتف قائلاً : « أنا آثم أمام جميع الناس ، لأننى أحط الناس قاطبة » • ومن خلال دموع ندامته وتوبته ، سيصيح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها حرق: « جميع الناس خير منى لأنهم أرادوا خلاصى لا ضياعى ! » • سهلٌ عليكم يا سـادتى المحلفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا ، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً اذا أنتم أصدرتم حكمكم باداتته رغم عدم توفر الأدلة المقنعة حقاً ! لأن نبرىء عشرة مجرمين خير من أن نجـرّم بريئاً ــ هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذى انطلق فى آخر قرن من تاريخنا المجيد ؟ هل علىّ أنا ، أنا المخلوق الضعيف ، أن أذكّركم بأن القضاء الروسى لا يهدف الى العقاب فحسب ، وانما يهدف كذلك الى انقاذ الانسان الذى زلت قدمه فسقط ؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية النص ما شاءت ، ولها أن لا تفكر الا فى العقاب ما حلا لها ذلك ؟ أما نحن الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القـانون ، ونريد قبل كل شيء آخر أن نقيل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثاً جديداً• ما دام الأمر كذلك، ما دام هذا هو الطابع الذى تتصف به بلادنا ويتميز به قضـاؤنا ، فاننـا نستطيع أن نؤكد أن المستقبلَ لوطننا • لا يا سـادتى ، ليست روسـيا ترويكا مسعورة ! كفوا عن ترويعنا بهذا التشبيه ! ليست روسيا ترويكا

جامحة تتنحى الشعوب الأخرى من أمامها مشمئزة ! فانما روسيا مركبة فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متئدة مظفرة. ياسادتي ، ليس بين أيديكم مصير موكلي فحسب ، بل مصير العدالة الروسية أيضاً . فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التي عهد بكم اليها وأؤتمنتم عليها ، دافعوا عنها فتبرهنوا بذلك على أننا أوفياء لها ، وعلى أنها في أيدٍ أمينة » .

١٤

صدفلاحونا



الكلمات ختم فيتوكوفتش مرافعته ، فاذا بالحماسة المحمومة الهاذية تنفجر فى الجمهور انفجاراً لا سبيل الى دفعة كأنها العاصفة • كان يستحيل وقف هذا الانفجار : فالنساء تنشج وتنتحب ، وعدد كبير من الرجال يبكون ، حتى لقد شوهدت دموع فى أعين اثنين من كبار الموظفين • وبدا على الرئيس أنه يذعن ، حتى أنه تأخر فى هزّ جرسه • « لو شاء أن يلجم حماسةً كتلك الحماسة لكان ذلك منه تدنيساً للمقدسات ! » ، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا فيما بعد • وكان المحامى منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً • وفى تلك الدقيقة انما اعتقد صاحبنا هيبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض « ليثير بعض الاعتراضات » • نظر اليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبغضاً : « كيف ! ماذا يريد ؟ أهو من يجيز لنفسه أن يردّ الآن ؟ » • كذلك دمدمت السيدات • ولكن ما كان لجميع نساء الأرض ، وعلى رأسهن زوجة هيبوليت كيريلوفتش ، أن يجدى احتجاجهن فى شىء ، لأنه كان يستحيل ، حتى فى هذه الحالة ، أن يُصدّ وكيل النيابة عن الكلام فى تلك اللحظة • كان هيبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون ، وكان يرتعش انفعالاً • ان الكلمات الأولى التى قالها كانت مضطربة غير

مفهومة ، لأن الرجل كان يختنق بكلامه ، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز ، وكانت عباراته مختلطة مشوشة • ولكنه لم يلبث أن استرد سيطرته على نفسه • وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من رده :

« ••• يعاب علينا أننا ألفنا رواية أو أنشأنا قصة • ولكن ما الذى فعله الدفاع غير تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل ؟ ألا ان مرافعته لم يكن يعوزها الا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة • هو يرى اذن ان فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته !••• بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها فى تلك الظروف الغريبة !••• كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف ؟ من ذا الذى سمع الكلمات التى قالها حينذاك ؟ وهذا الانسان الضعيف العقل ، سمردياكوف ، الذى يصوره لنا الدفاع فى صورة بطل رومانسى يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية ، هل الكلام عنه على هذا النحو الا قصيدة من طراز قصائد بايرون ؟ أما ذلك الابن الذى اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك ، فان الكلام الذى قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة ، وانما هو أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلها • من قتل فقد قتل • كيف يقتل انسان دون أن يقتل ، من ذا الذى يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام ؟ ولقد نودى بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوى فى الأرجاء ، ثم ها هم يعلموننا من على منبر « الأفكار السليمة » هذا ، كما يعلمون بديهية من البديهيات ، أن اطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أب بيد ابنه انما هو وهم من الأوهام الاجتماعية ! ولكن اذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام الاجتماعية ، واذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الاسباب التى توجب عليه أن يحبه ، فما عسى تصير اليه بلادنا ،

ما عسى تصير اليه الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا ، ما عسى تصير اليه الأسرة ؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بذلك الخوف الذي تحسه النفوس المؤمنة بالخرافات ، شبيه بخوف بائعات موسكو من « الكبريت » ! ألا انهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية ، ويعبثون بمصيرنا ومستقبلها ، وذلك كله في سبيل الوصول الى الهدف الحقيقي الذين يسعون اليه ، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه ، والعفو عما لا يمكن العفو عنه . لقد صاح المحامي يقول : « حطّموه برحمتكم ! » . ألا ان هذا هو كل ما يتمناه المتهم ، ولترونّ غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه ! يخيّل الىّ أن المحامي كان متواضعاً جداً وكان قنوعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم . تُرى لماذا لم يطالب بانشاء جائزة تسمى باسم قاتل ابيه ، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الأعقاب والجيل الجديد ؟ ويريدون أن يصححوا الانجيل وتعاليم الدين ، فيقولون : « هذا من الأمور الغيبية ! » . ألا اننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقة التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة ! ومضوا الى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة ! « سيُكال لكم بالكيل الذي كلتم به » : بهذا هتف المحامي ، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به . فانظروا الى ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا ! واضح انهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الانجيل الا عشية القائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس، ما احتاجوا الى ذلك طبعاً ! ألا ان المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم خبيث فاسد شرير ؟ وانما هو يأمرنا ، على خلاف ذلك ، أن نغفر الاساءات التي أُلحقت بنا ، وأن نمد خدنا الأيسر ، بدلاً

من أن نكيل للمسيئين الينا بالكيل الذى كالوا لنا به : ذلكم ما يعلمناه اياه الرب ؛ ان الرب لم يقل ان منع الأبناء من قتل آبائهم وهم من الأوهام الاجتماعية ! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر ، منبر الحق والمعانى السليمة ، فى تصحيح تعاليم ربنا الذى اقتصر المحامى فى مرافعته على أن يسميه باسم « المصلوب الذى كان يحب بنى الانسان » ، خلافاً لما تفعل روسيا الارثوذكسية كلها التى تبتهل الى الرب قائلةً : « انت الهنا ! » .

عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيابة بالقصد والاعتدال ، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو ، وأن لا يبتعد عن الموضوع ، الى آخر ما هنالك ، مستعملاً اللغة المعهودة فى الرؤساء . وكانت القاعة تضطرب وتتحرك . لقد أصبح الجمهور عصبياً ، وأصبحت تسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك . وعدل فيتوكوفتش عن الرد ، ولم يزد على أن تقدم واضعاً يده على قلبه ، فقال بضع كلمات تفيض وقاراً ورصانة ، قالها بلهجة انسان أوذى شعوره وأسيء اليه ؛ وعاد يشير اشارة عابرة ساخرة الى « الروايات » و « السيكولوجيا » ، ووجد السبيل الى أن يستشهد بالقول المأثور : « قد غضبت يا جوبتر ، فأنت اذن على خطأ » ، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد صغيرة ، لأن هيبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبتر البتة ؛ ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة انه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم ؛ أما فيما يتعلق « بالصورة الباطلة التى قال وكيل النيابة ان المحامى رسمها للمسيح » ، وفيما يتعلق بأن المحامى لم يتنزل فيسمى المسيح الهاً وانما اقتصر على تسميته باسم « المصلوب الذى يحب بنى الانسان » « مخالفاً بذلك الارثوذكسية مخالفةً ما ينبغى أن يسمح بها من على منبر الحقيقة والمعانى السليمة » ، فقد قال فيتوكوفتش ان فى هذا « غمزاً » ، وانه حين جاء الى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا

المنبر بحرية ، دون أن يتعرض لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم » ... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام، فما كان من فيتـوكوفتش الا أن انحنى قائلاً انه أنهى كلامه ، ولم يبق لديه ما يضيفه ؛ وعاد الى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور . أما هيبوليت كيريلوفتش فقد كان « منسحقاً انسحاقاً نهائياً » فيما أكدت سيداتنا من بعد .

وطُلب الى المتهم أن يتكلم ، فنهض ميتيا ، ولكنه لم يقل الا بضع كلمات . كان يبدو مهدود القـوى روحـاً وجسـماً . ان هيئة الكبرياء والقوة التى كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة فى الصباح قد اختفت الآن أو كادت . كان يلوح عليـه أنه قد عاش فى هذا النهـار سـاعات حاسمة تعلم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك. ان صوته ضعيف واهن ، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ فى بداية الجلسـة ؛ وفى كلامه الآن نبرة جديدة ، نغمـة فيها اذعان وانكسـار ومذلة . قال :

« ماذا أستطيع أن أقول لكم يا سادتى المحلَّفين ؟ لقد دقت ساعة حسابى ، ووضع الله يده علىّ . ذلك تكفير عن حياتى المضطربة الفاسدة ! ولكننى أؤكد هنا ، أؤكد تأكيد من يعترف أمام الله : « أننى لم أسفح دم أبى » ؛ لا ، لست أنا مرتكب هذه الجريمـة ! أعـود فأكرر لكم « أننى لست الذى قتله » . لقد عشت حياة فاسقة ، ولكننى كنت أحب الخير . كنت أفـكر دائمى فى اصـلاح نفسى ، ومع ذلك ظللت أعيش كمـا يعيش حيوان متوحش . أشكر للسيد وكيل النيـابة أنه قال عنى أموراً كنت أجهلها أنا نفسى . ولكن قوله اننى قتلت أبى قول خطأ . لقد أخطأ السيد وكيل النيابة ! وأشكر للمحامى دفاعه عنى أيضاً . لقد بكيت وأنا أصغى الى كلامه . ولكن من الخطأ أن يُقـال اننى قتلت أبى ؛ وما كان

ينبغى حتى أن يفترض افتراضاً أننى فعلت ذلك ! أما الأطباء فلا تصدقوهم ! اننى أملك عقلى كاملاً ، ولكن نفسى مرهقة . ان تسامحتم معى فاطلقتم سراحى دعوت لكم وصليت من أجلكم ؛ وانى لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمرى ، أحلف لكم على ذلك أمام الله ؛ وان حكمتم علىّ توليت بنفسى تحطيم سيفى وقبلت حطامه . ولكن ترفقوا بى : لا تحرمونى من الهى . اننى أعرف نفسى ، فلو فعلتم لثرت وتمردت ! ان نفسى مرهقة أيها السادة ... فترفقوا بى ! » .

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه السقوط . لقد تهدم صوته ، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة الا فى كثير من العناء .

وانتقلت المحكمة بعد ذلك الى تحرير الأسئلة التى يجب أن تلقى على المحلفين ، ودُعيت الأطراف الى الادلاء بالنتائج التى انتهت اليها . لن أدخل فى وصف التفاصيل . ونهض المحلفون أخيراً للمداولة . وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه اليهم الا جملة واحدة ، قال : « لا تتحيزوا ، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التى تضمنها خطاب الدفاع ، بل زنوا قراركم ، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة اليكم ، الخ الخ ... » . وعُلّقت الجلسة بعد خروج المحلفين . أصبح يحق للحضور أن ينهضوا ، وأن يسيروا ، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر مع الأصدقاء ، وأن يمضوا الى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب . وكان الوقت متأخراً ، فالساعة هى الواحدة من الصباح ، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف . كانت أعصاب الجميع مشدودة متوترة ، وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر فى خلده أن ينصرف ليرتاح . كان الناس ينتظرون قرار المحكمة بما يشبه الحمى . على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً ؛ ان السيدات خاصةً هنّ اللواتى سيطر

عليهن نفاذ الصبر الى حد الهستريا • ومع ذلك لم يساورهن أى خوف•
كن وهن يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة ، كن يقلن : « لا شك
أنه سيبرأ » • ويجب عليّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من
الرجال أيضاً كان يشاطرهن هذا اليقين من أن المتهم سيبرأ ، فبعضهم
مغتبط بذلك مبتهج له ، وبعضهم يقطب الجبين استياءً ، بل ان منهم من
استطالت أنوفهم امتعاضاً واستهجاناً : كان هؤلاء لا يريدون البراءة •
أما فيتوكوفش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه • وكان الناس يحيطون به ،
ويهنئونه ، ويمدحونه • فقل لجماعة منهم ، كما رُوى ذلك فيما بعد :

ـ هناك تيارات تعاطف تشد المحامى الى المحلفين كخيوط لا تُرى،
وهذه الخيوط تنعقد وتدرَك أثناء المرافعة نفسها • لقد ربحنا القضية ،
لا تخافوا •••

ـ انى لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الصغار الآن !

كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين عابس الوجه وهو
يقترب من جماعة حمى فيها وطيس المناقشة • انه أحد مالكى الأطيان
فى ضواحى مدينتنا •

فأجابه آخر :

ـ ان هيئة المحلفين لا تضم فلاحين فحسب ، ففيها أربعة موظفين
أيضاً •

فقال أحد أعضاء « مجلس المدينة » مؤمّناً وهو ينضم الى الجماعة :

ـ نعم نعم ، يوجد موظفون •••

ـ هل تعرفون نازارييف ، بروخور ايفانوفتش نازارييف ؟ انه
ذلك التاجر الموشح الصدر بوسام • هو عضو فى هيئة المحلفين •

ـ وماذا ؟

ـ هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة .

ـ ولكنه يصمت طول الوقت .

ـ صحيح . يصمت . هذا أفضل . ليس أناس بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً . انه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك . ان له اثنى عشر ولداً ، تصوروا !...

وفى جماعة أخرى هتف أحد الموظفين يقول :

ـ هه ! وكيف لا يبرئونه ؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة :

ـ سيبرئونه حتماً .

فعاد الموظف يقول :

ـ عار أن لا يبرئوه ، خزى أن لا يبرئوه . صحيح أنه قتل ، ولكنه قتل أباه ، قتل ذلك الأب . ثم انه كان فى حالة اهتياج شديد ... من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون فى نيته أن يقتل ، فاذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة . على أننى أرى أن اقحام ذلك الخادم فى القضية أمر مؤسف . كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر . لو كنت فى مكان المحامى ، لصحت أقول صراحة : « نعم قتل ، ولكنه ليس مجرماً ؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً ! » .

ـ ولكن هذا بعينه هو ما قاله ، باستثناء حكاية الشيطان هذه .

فتدخل صوت ثالث يقول :

ـ بل كاد يقول لهم « فليأخذكم الشيطان » يا ميشيل سيميونتش.

ـ تصوروا يا سادة ! لقد برأوا عندنا ، أثناء الصيام ، ممثلة ذبحت عنق زوجه عشيقها الشرعية •

ـ نعم ، ولكنها لم تقطعه الى آخره •

ـ أوشكت أن تقطعه على كل حال •

ـ هل سمعتم ما قاله عن الأبناء ؟ كان كلامه رائعاً •

ـ **رائعاً !**

ـ وقوله عن الغيبية أو الصوفية ، هه ؟

ـ دعوكم من الغيبية أو الصوفية • أولى بكم أن تفكروا فى هيبوليت وفى المصير الذى ينتظره • لسوف تفقأ امرأته عينيه بسبب ميتيا •

ـ أهى فى القاعة ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ لو كانت فى القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة • ولكنها فى الدار ، لأنها تشكو من أوجاع فى أسنانها ، هىء هىء !

وفى جماعة ثالثة دار الحديث التالى :

ـ من الجائز أن يُبرأ ميتيا !

ـ لا ينقصنا الا هذا ! لسوف يقلب غداً كل شىء فى كاباريه « العاصمة الكبرى » ، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام •

ـ انه لشيطان رجيم حقاً !

ـ الشيطان هو الشيطان ، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا • أين عسى يوجد الشيطان ان لم يوجد فى هذه القاعة ؟

ـ كفاكم بلاغة وفصاحة أيها السادة ! ليس يجوز تحطيم جمجمة أبٍ على كل حال . والا فالى أين المصير ؟

ـ وما قاله عن المركبة المظفرة ، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة المظفرة ؟

ـ نعم ، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة !

ـ سيردها فى الغد عربة بسيطة « ما احتاج الى ذلك » ، على حد تعبير وكيل النيابة . لا شيء الا الانتهازية !

ـ لقد زادت براعة الناس . قل لى : ألا تزال توجد حقيقة فى روسيا ؟

ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن . لقد تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة . ساد صمت عميق منذ عاد الحضور الى أماكنهم . هأناذا أرى هيئة المحلفين تدخل القاعة . ولكن فلأوجز ! لن أذكر ، بالترتيب ، الأسئلة التى كان عليها أن تجيب عنها ، لأننى نسيتها . كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس : « هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق تصور وتصميم بقصد السرقة ؟ » (نسيت النص الدقيق) . خيمّ على القاعة صمت كصمت الموت . وقال رئيس هيئة المحلفين ، وهو أصغر الموظفين سناً ، قال بصوت قوى واضح دوى فى أرجاء القاعة دوىّ قرع الناقوس حين ينعى ميتاً :

ـ نعم ، انه مذنب .

وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة : نعم ، مذنب ، مذنب فى كل مرة ، دون وجود أى ظرف مخفِّف . لم يكن أحد يتوقع ذلك ، لأن جميع الناس كانوا يقدرون أن تكون هنالك أسباب مخففة على

الأقل • استمر الصمت الذى يشبه أن يكون صمت الموت ، وأصبح الجمهور كالمتجمد دهشة ، يستوى فى ذلك الذى كانوا يتمنون أن يُحكم على ميتيا ، والذين كانوا يتمنون أن يُبرَّأ • ولكن هذا السكون لم يدم الا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة • فأما الرجال فان عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى ، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدى غبطة وسروراً دون أن يحاول اخفاء فرحته ؛ وصُعق المستاءون منهم فأخذوا يرفعون اكتافهم ويتهامسون ، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد• وأما السيدات ، فيارب السماء ! لقد خيِّل الىَّ أنهن سيقمن بثورة ! انهن فى أول الأمر لم يصدقن آذانهن ؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات فى جميع أرجاء القاعة : « ما معنى هذا ؟ ما هذه الحكاية ؟ » ، وأخذن يثبن عن أماكنهن • واضح أنهن كان يخيل اليهن أن كل شىء يمكن أن يتغير ، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر • وفى تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وأعول يقول بصوت ممزَّق ، ماداً ذراعيه الى أمام :

ــ اننى أحلف أمام الله ، بانتظار عدالته الرهيبة ، أننى برىء من دم أبى ! أما أنت يا كاتيا فاننى أغفر لك • ويا اخوتى ، يا أصدقائى ، ترفقوا بالأخرى وأحيطوها برعايتكم •••

لم يكمل ميتيا كلامه ، وانفجر ينتحب • كان ينشج نشيجاً صاخباً ، بصوت ليس صوته ، صوت مخيف ، لا يدرى المرء من أين يصدر • وفى أعلى القاعة ، من ركن مظلم بالشرفة ، انطلقت صرخة حادة : انها جروشنكا • كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة الى القاعة ، قبل القاء مطالعة النيابة •

واقتيد ميتيا • وأرجىء اعلان الحكم الى الغد • ونهض الجمهور فى جلبة شديدة • ولكننى كنت قد أصبحت لا أصغى الى شىء • كل ما وعته ذاكرتى لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة :

ـ لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالسجن مع الأشغال الشاقة*.

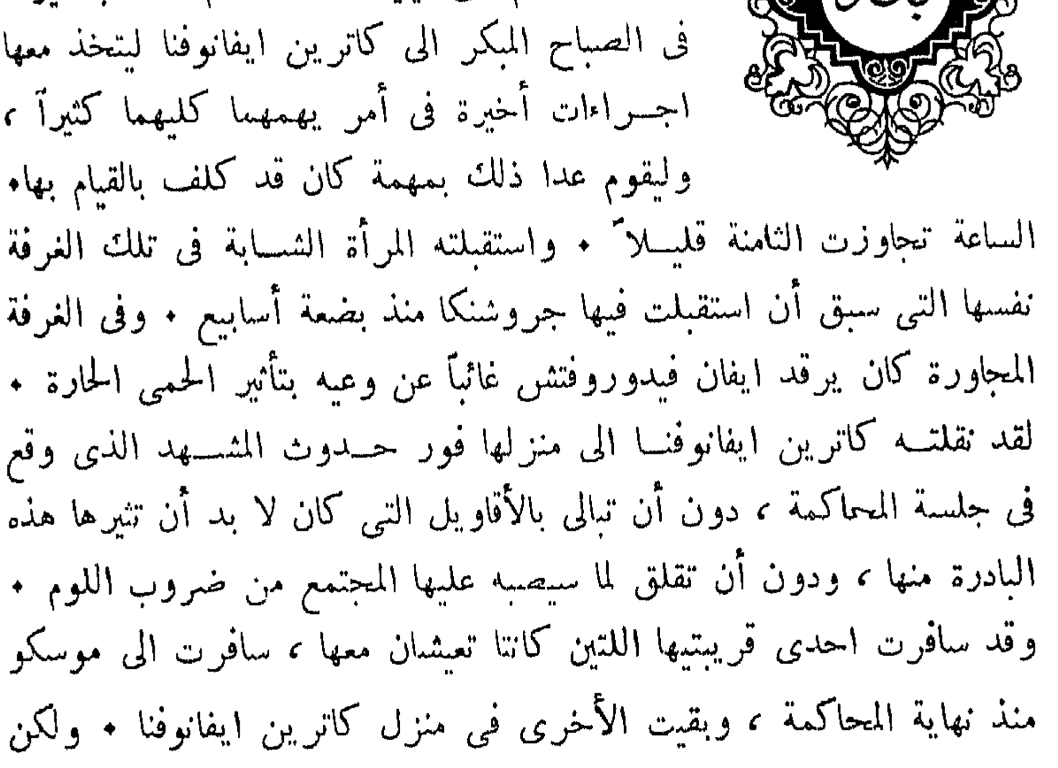
ـ لن يقل عن ذلك !

ـ نعم ، لقد صمد فلاحونا .

ـ انتصفوا من ميتيا !

خاتمة :

١
مشاريع فرار



بعد صدور الحكم على ميتيا بخمسة أيام ، ذهب أليوشا فى الصباح المبكر الى كاترين ايفانوفنا ليتخذ معها اجراءات أخيرة فى أمر يهمهما كليهما كثيراً ، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها. الساعة تجاوزت الثامنة قليلاً . واستقبلته المرأة الشابة فى تلك الغرفة نفسها التى سبق أن استقبلت فيها جروشنكا منذ بضعة أسابيع . وفى الغرفة المجاورة كان يرقد ايفان فيدوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى الحارة . لقد نقلته كاترين ايفانوفنا الى منزلها فور حدوث المشهد الذى وقع فى جلسة المحاكمة ، دون أن تبالى بالأقاويل التى كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها ، ودون أن تقلق لما سيصبه عليها المجتمع من ضروب اللوم . وقد سافرت احدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها ، سافرت الى موسكو منذ نهاية المحاكمة ، وبقيت الأخرى فى منزل كاترين ايفانوفنا . ولكن كاترين ايفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن انفاذ ما عزمت أمرها عليه ولو كانت وحيدة فى منزلها ، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً . وكان الطبيبان فارفنسكى وهرتسنشتوبه يعالجان ايفان . أما الاخصائى الذى جاء من موسكو فقد سافر دون أن يرضى أن يفصح

عن رأيه فيما عسى تصير اليه حالة المريض ، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض • وكان الطبيبان يبذلان لكاترين ايفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع ، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالاً قاطعة • وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين فى اليوم • على أنه انما جاء الآن لأمر محرج احراجاً خاصاً ، مربك ارباكاً شديداً ، وهو يشعر بمدى الصعوبة فى مواجهة الموضوع ، ولا يعرف من أين يأتيه• وكان عدا ذلك فى عجلة من أمره ، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبء ثان ، فى حى غير هذا الحى من المدينة ، فكان يحسن به اذن أن يسرع • انهما يتحدثان منذ ربع ساعة • وكاترين ايفانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون ، تبدو مرهقة مهدودة القوى ، ولكنها فى الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً ، لأنها كانت فى الواقع تدرك الهدف الذى جاء من أجله أليوشا • قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة :

ـ لا يقلقنك أمر القرار الذى سيتخذه ، فانه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً : فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار ! ان هذا المسكين ، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير ـ أوه ! لا ! لست أقصد دمترى فيدوروفتش ، وانما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب ، ذلك الذى ضحى بنفسه فى سبيل أخيه ـ (كذلك أضافت تقول كاتيا وقد سطعت عيناها) قد أطلعنى منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا • ولعلك تعلم أنه اتصل باشخاص عدة من أجل انفاذ هذا المشروع ••• وقد ألمعت لك الى هذا من قبل على كل حال ••• سيتم الفرار فى المرحلة الثالثة من مراحل الطريق فى أغلب الظن ، أثناء سفر قافلة السجناء الى سيبيريا • أوه ! ما يزال الأمر بعيداً • وقد زار ايفان فيدوروفتش رئيس المحطة الثالثة • ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذى سيقود القافلة ، لأن ذلك يستحيل أن يُعرف سلفاً • وقد أطلعك

غداً على تفاصيل الخطة التى تركها لى ايفان فيدوروفتش قبل المحاكمة بيوم ، احتياطاً لما قد يحدث له ... تمّ هذا فى ذلك اليوم نفسه الذى رأيتنا نتشاجر فيه ... أنت تذكر هذا ... لقد خرج من عندى فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية . تتذكر هذا ، أليس كذلك ؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر ؟

قال أليوشا :

ـ لا ، لا أعرف .

ـ أخفى عنك هذا طبعاً ! فاعلم اذن أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا نفسه . كان قد عرض لى ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، الأمور الأساسية من هذه الخطة ؛ وفى تلك اللحظة انما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام . فحين أعلن لى ان دمترى فيدوروفتش سيهرب الى الخارج مع تلك المخلوقة اذا حُكم عليه ، شعرت فجأة بغضب شديد. لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت ، لأننى أجهل أنا نفسى سبب غضبى ... آه ! السبب هو تلك المخلوقة طبعاً ! فبسببها انما ثارت ثائرتى ، لأن تلك المخلوقة تطمع فى أن تسافر الى الخارج مع دمترى فيدوروفتش !

بهذا صاحت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتاها تختلجان من فرط الغضب . ووالت كلامها تقول :

ـ فلما لاحظ ايفان فيدوروفتش أننى غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أننى أغار منها ، وأننى اذن مازلت أحب دمترى فيدوروفتش. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى فى ذلك اليوم . لم أشأ أن أقدم له شرحاً ، ولا كنت أستطيع أن اعتذر اليه أيضاً . ولكن كان يحز فى نفسى أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة ايفان فيدوروفتش يمكن أن يهجس فى نفسه

اننى ما زلت أحب ذلك الـ ••• مع أننى كنت قد أكدت له أنا نفسى منذ مدة طويلة أننى أصبحت لا أحب دمترى ، وأننى لا أحب أحداً الا هو ايفان !••• فلما غضبت من تلك المخلوقة ، ثارت ثائرته على • وبعد ذلك بثلاثة أيام ، فى ذلك المساء نفسه الذى جئت فيه الىّ ، جاءنى ايفان بظرف مختوم وطلب منى أن لا أفض الظرف الا اذا وقع له شىء • أوه ! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه • وقال لى ان الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار ، وان علىّ أن أتولى وحدى انقاذ ميتيا ، اذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً • وفى تلك المناسبة نفسها ترك مالاً ، قرابة عشرة آلاف روبل ـ هو ذلك المبلغ نفسه الذى جاء على ذكره وكيل النيابة فى مطالعته بعد أن علم مصادفة أن ايفان قد كلف أحد الناس باحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدّلها • وقد أدهشنى أشد الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن ايفان فيدوروفتش ، رغم غيرته علىّ ورغم اقتناعه باننى ما زلت أحب ميتيا ، لم يعدل عن فكرة انقاذ أخيه ، وأنه يعهد الىّ ، الىّ أنا ، بالقيام بهذه المهمة • آه ••• ما كان أقوى روح التضحية فى سلوكه هذا ! لا يا ألكسى فيدوروفتش ! انك لا تستطيع أن تدرك ادراكاً كاملاً كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات ! تمنيت لو اسقط على قدميه ، شعوراً باعجاب لا حدود له • ولكن هجس فى نفسى فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة منى الى فرحتى بانقاذ ميتيا (كان سيؤول بادرتى هذا التأويل حتماً) ، فما ان تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم فى حقى حتى ثارت ثائرتى من جديد ، واشتد حنقى ، فبدلاً من أن أقبل قدميه ، رحت أضايقه • آه ••• ما أشقانى ! ذلك هو طبعى ••• انه طبع رهيب ••• عجيب ! سوف ترى ، سوى ترى : سوف أعمل كل ما من شأنه أن يبعث فى نفسه التعب والسأم والضجر منى ، فاذا هو يهجرنى أخيراً الى امرأة أخرى

يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يسـهل عليه أن يتفاهم معي ، تماماً كما فعل دمتري • ولكن في هذه الحالة ••• لا ••• لن احتمل في هذه المرة ••• سوف أنتحر ! وحين دخلت علي ، بعد أن أمرتُه بالصعود ثانية ، جُنَّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة• وعندئذ ـ هل تتذكر ؟ ـ عندئذ انما صرخت أقول انه « هو وحده » الذي جعلني أعتقـد بأن ميتيـا قاتل !••• لقد كذبت عندئذ عامدة ، بغية أن أجرحه مرة أخرى • والحقيقة هي عكس ذلك : فانا التي كنت قد سعيت الى اقناعه بأن ميتيا قاتل • آه•••• ان طبعي اللعين هو سبب البلاء كله ! أنا ، أنا المسئولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة ! لقد أراد أن يبرهن لي على نبل نفسه ، أراد أن يبيِّن لي أنه ، رغم حبي أخـاه ، لن يقبـل أن يضيِّـعه غيرةً وانتقاماً • لهذا انما تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة ••• أنا سبب كل شيء ، أنا وحدي الآثمة !

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشـا بمثل هذه الاعترافات في يوم من الأيام ، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعاني من ذلك العذاب الذي لا يطاق ، ذلك العذاب الذي يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم • ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتباريحها سبباً آخر أيضاً ، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا ، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه الى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها ، وأن تحدثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها في هذه اللحظة نفسها : الواقع ان كاتيـا كانت تتألم من « الخيانة » التي قارفتها في المحكمة • وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها الى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً ، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة ، وربما برطم جبينها بالأرض في نوبة هسترية من نوبات

عذاب الوجدان . وكان أليوشا يخشى هذا المشهد ، ويرفق بحال المرأة الشقية . وكان هذا يفاقم حرجه وارتباكه من القيام بالمهمة التى كُلِّف بها . وعاد يتكلم عن ميتيا .

فقاطعته بعناد جازم :

ـ لا تقلق له ! صدقنى أن معارضته لن تستمر طويلاً . أنا أعرفه، أعرف طبعه حق المعرفة . ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً . لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب، وسيكون فى وقت ميتيا متسع لاتخاذ قراره ومن الآن الى أن يحين الموعد ، يكون ايفان قد أبل من مرضه ، فيتولى القضية بنفسه ، ولن يكون علىّ أنا أن أهتم بها . لا تخف ، سيوافق على الهرب . بل انه لموافق منذ الآن : فأنّى له أن يترك تلك المخلوقة ! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة الى المعتقل ، فلم يبق له الا أن يهرب . هو يخاف منك خاصةً ، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية . فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق ، ومن واجبك أن تأذن له ما دام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه .

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة . وصمتت بضع لحظات ، وابتسمت ، ثم أردفت تقول :

ـ انه يتحدث فى السجن عن نشيد ، عن صليب عليه أن يحمله ، عن واجب عليه أن يقوم به ... هل أدرى ماذا أيضاً ؟ اننى أتذكر هذا الكلام لأن ايفان فيدوروفتش قد روى لى تفاصيل كثيرة فى هذا الموضوع . ليتك تعلم بأى طريقة كان ايفان يتكلم ! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة فى اندفاعة لا تقاوم) . ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقى حين كان يتكلم عنه ، وكم لعله كان يبغضه فى الوقت نفسه أيضاً ! أما أنا ، فقد أصغيت عندئذ الى هذه القصة التى رواها لى باكياً ، أصغيت اليها

وأنا أتفرس فيه متكبرة متعجرفة ساخرة ! ألا ما أحطني من مخلوقة ! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة ! بسببي انما أصيب بالحمى الحارة ! أما الآخر ، الذي حكم عليه ، فانه غير مستعد لأن يتألم البتة . وهل في وسع امرىء مثله أن يتألم ؟... ان رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً .

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة . ان نبرة بغض واستفزاز واحتقار قد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة . ومع ذلك فانها هي التي خانته . قال أليوشا لنفسه : « انما هي تكرهه في بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت في حقه » . كان أليوشا يتمنى أن لا تكرهه الا في بعض اللحظات . وقد لاحظ أليوشا في الكلمات الأخيرة التي قالتها كاتيا شيئاً من تحد ، ولكنه لم يحفل بالأمر .

وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز :

ـ انما كان هدفي من استدعائك اليوم هو أن تعدني بأن تمارس تأثيرك فيه لاقناعه ، اللهم الا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف ، مناقضاً للكرامة ، أو ... ماذا أقول ؟... ربما كنت تعد الفرار مخالفاً للمسيحية ، هه ؟

فتمتم أليوشا يجيبها :

ـ لا ... لماذا ؟ سأقول له كل شيء .

ثم قال لها فجأة وهو يحدق الى عينيها بحزم :

ـ هو يرجوك أن تجيئي اليه اليوم .

فارتعشت كاتيا بكل جسمها ، وتقهقرت قليلاً الى وراء ، ودمدمت تقول وقد اصفر وجهها اصفراراً شديداً :

ـ أنا ؟... ولكن هل هذا ممكن ؟

فعاد أليوشا يقول بالحاح وقد انتعش فجأة :

ـ ليس هذا ممكناً فحسب ، بل هو ضرورى أيضاً . لا بد أن يراك ، الآن خاصةً . ولولا أن ذلك واجب حتماً ، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أولمك فى غير طائل . انه مريض . انه يشبه أن يكون مجنوناً . انه لا يكف عن مناداتك . وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك . كل ما يطلبه هو تذهبى اليه وتظهرى له عند باب غرفته . ان تحولاً كبيراً قد حدث فى نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم . لقد أدرك مدى الاثم الذى اقترفه فى حقك . ليس يسألك أن تغفرى له . هو نفسه يقول : « أنا لا أستحق الغفران » . كل ما يرجوه هو أن تظهرى له عند باب غرفته ...

تمتمت كاتيا تقول :

ـ أنت تحرجنى ... كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئنى طالباً منى ذلك ... كنت واثقة بأنه سيدعونى . ولكن لا ... مستحيل .

ـ مستحيل ، غير مستحيل ... يجب عليك أن تفعلى . تذكرى أنه لأول مرة فى حياته يدرك مدى الاساءة التى ألحقها بك . يدرك هذا لأول مرة فى حياته . انه لم يدركه فى يوم من الأيام ادراكاً كاملاً كما يدركه الآن . قال لى : « اذا رفضت أن تجيء فسأكون تعيساً بقية عمرى » . هل تفهمين ؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً ! أليس هذا مما يستحق الشفقة ؟ تذكرى أيضاً أنك تزورين انساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحد) . ان يديه طاهرتان لم يلوثهما دم . فاذهبى اليه ، اذهبى اليه بسبب هذه الآلام الذى لاحدود لها !... اذهبى، مدّى اليه يدك فى هذه الليلة ... اظهرى له على الباب فحسب ، على الباب فحسب ... هذا واجب عليك ، هذا واجب عليك ...

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة « واجب » الحاحاً يكاد يشتمل على عنف وقسوة .

قالت كاتيا بصوت فيه أنين :

ـ هذا واجب عليّ ، ولكن ... لا أستطيع ... سينظر اليّ ... لا ، لا ، لا أستطيع .

ـ يجب أن تلتقى نظراتكما . كيف يمكنك أن تعيشى فى المستقبل اذا لم تعزمى أمرك ؟

ـ أوثر أن أظل أتألم طول حياتى !

ـ يجب أن تذهبى اليه ، يجب .

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثنى عن عزمه .

قالت كاتيا :

ـ ولكن لماذا اليوم ؟ لماذا حالاً ؟ يستحيل عليّ أن أترك المريض وحده .

ـ بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات. لن يطول غيابك . ماكنت لأقول لك هذا لولا أنه حق . ليكن فى قلبك شيء من شفقة .

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر :

ـ أنا أولى بالشفقة .

وأخذت تبكى .

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها :

ـ معنى هذا أنك آتية . سأبلغه أنك ستجيئين .

هتفت كاتيا تقول مذعورة :

ـ بل لا تقل له شيئاً البتة • سأذهب اليه ، ولكن لا تبلغه ذلك ••
وقد لا أدخل عليه ••• لا أدرى بعد •••

قالت ذلك وتحطم صـوتها • كانت تتنفس فى منسـقة • ونهض أليوشا لينصرف • فسألته فجأة بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد :

ـ فماذا لو لقيت أحداً هناك ؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من تعنى :

ـ فانما أسألك أن تجيئى الآن لأنك لن تلقى أحـداً • لن يكون هناك أحد • ثقى بذلك •

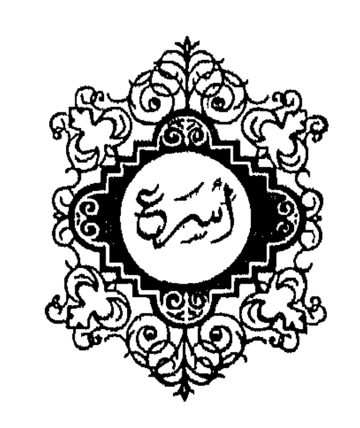
وختم كلامه يقول بالحاح :

ـ سننتظرك •

وخرج من الغرفة •

٢

صار الكذب إلى حقيقة لحظة



أليوشا الى المستشفى الذى كان فيه ميتيا الآن • لقد أصيب ميتيا بحمى عصبية بعد صدور الحكم بيومين ، فنُقل الى مستشفى مدينتنا ، وأودع القسم المخصص للسجناء • ولكن الدكتور فارفنسكي رضى أخيراً بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة هوخلاكوفا، ليزا ، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء ، ونقله الى غرفة صغيرة مستقلة ، هي تلك الغرفة نفسها التي أقام بها سمردياكوف • ان على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية ، وأن موظفاً من الموظفين كان يرابط في آخر الدهليز ، فليس على فارفنسكي أن يخشى اذن شيئاً من هذه الميزة التي تفضل بها على السجين والتي تخالف القانون قليلاً • كان الطبيب شاباً طيب القلب رحيم النفس ، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وألم اذا هو وجد نفسه فجأة يعيش في وسط قتلة ولصوص، وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تتهيأ له فيها أسباب التعود على الوضع الجديد • وقد أُذن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه ، أذن بذلك الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة • ولكن أليوشا وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان الى ميتيا أثناء تلك الأيام •

وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرةً أو مرتين ، ولكن ميتيا رجا الدكتور فارفنسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول .

وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى . كان به شيء من حمى ، وكان رأسه ملفوفاً بفوطة مبتلة بخل . فلما أبصر ميتيا أخاه أليوشا حدّق اليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف .

وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم . وكان يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر فى أمر من الأمور تفكيراً أليماً ، وكان يبدو عليه فى مثل تلك اللحظات أنه نسى مَنْ حوله نسياناً تاماً . حتى اذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم ، استرسل فى حديث من الأحاديث ارتجالاً ، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف عما كان يهمه أن يقوله فى الواقع . وكان يثبت على أخيه فى بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم والعذاب . وكان يرتاح الى وجود جروشنكا أكثر من ارتياحه الى وجود أليوشا . صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها ، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت .

جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة . وكان أخوه ينتظره فى هذه المرة مهموماً قلقاً ، ولكنه يخشى أن يسأله . كان يقدّر أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء اليه ، وكان يحس فى الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق . وكان أليوشا يحزر عواطفه .

بدأ ميتيا الكلام فقال بعصبية :

ــ يُقال ان تريفون بوريسيتش كاد يخرب فندقه . فهو يقتلع أخشاب الأرض ، وينزع ألواح الجدران ، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً . انه يبحث عن الكنز ، عن الألف وخمسمائة روبل التى اتهمنى

وكيل النيابة باخفائها هناك • انه منذ أن عاد الى موكرويه قلب كل شيء عاليه سافله • يستحق هذا الوغد ذلك • علمت هذا من حارس هناك قصّه عليّ أمس •

قال أليوشا :

ـ اسمع • انها ستجيء • ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء • ربما جاءت اليوم ، أو غداً ، أو في يوم قريب ، لا أعرف على وجه الدقة • ولكنها ستجيء ، حتماً •

انتفض ميتيا ، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً ، ولكنه صمت • لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً • كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً الى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين أليوشا وكاتيا ، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه في ذلك : فان كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كخنجر •

ـ اليك ما قالته فيما قالت من أمور أخرى : انها تطلب مني ملحة أن أهدىء ضميرك فيما يتعلق بالفرار • وستتولى هي تدبير الأمر اذا لم يُشف ايفان من مرضه الى ذلك الحين •

قال ميتيا مفكراً :

ـ سبق أن ذكرتَ لي ذلك •

فأجابه أليوشا :

ـ ونقلتَ أنت هذا الكلام الى جروشنكا •

فقال ميتيا معترفاً :

ـ صحيح •

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة وجلة :

ـ لن تأتى جروشنكا هذا الصباح • لن تأتى الا فى المساء • حين حكيت لها أمس أن كاتيا تهىء أمر فرارى ، سكتت فى أول الأمر وتقبضت شفتاها ، ثم دمدمت تقول : « لها ما تشاء » • لقد أدركت أن الأمر جد • لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك • أحسب أنها تدرك الآن أن كاتيا لا تحبنى أنا ، وانما تحب ايفان •

فأفلت من أليوشا هذا السؤال :

ـ أأنت متأكد من هذا ؟

ـ ربما كنتُ مخطئاً فى ظنى •

ثم أسرع يضيف قوله :

ـ على كل حال ، لن تأتى هذا الصباح • لقد كلفتها بمهمة ستقوم بها ••• أما ايفان فانه خير منا جميعاً• هو الذى يستحق الحياة ، لا نحن• وسيُشفى •

قال أليوشا :

ـ تصور أن كاتيا رغم خوفها الشديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه سيُشفى •

ـ هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت • فمن الخوف انما تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيُشفى •

قال أليوشا فى قلق :

ـ ان أخانا ايفان قوى الجسم متين البنية • أنا أيضاً أتمنى بحرارة وقوة أن يبل من مرضه •

ـ سوف يبل من مرضه • ولكنها، هى ، واثقة بأنه سوف يموت•

وصمت الأخوان بضع لحظات • كان واضحاً أن هنـاك هماً ثقيـلاً يعذب ميتيا •

وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعش مثقل بالدموع :

ــ أليوشا ، اننى أحب جروشنكا حباً رهيباً •

فأسرع يقول له أليوشا :

ــ لن يسمحوا لها بأن تتبعك الى « هناك » !

فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصـوت أصبح مهتزاً مختلجاً على حين فجأة :

ــ اليك ما كنت أريد أن أقـوله لك أيضـاً • اذا ضربونى أثنـاء الطريق ، أو «هناك» ، فلن أحتمل ذلك وان أسمح به : سـأقتل أحـداً فيرمونني بالرصاص • أنّى لى أن أحتمل هذا عشرين سنة ! لقد بدأوا يخاطبوننى منذ الآن بصيغة المفرد هنا • الحرس ينادوننى بقولهم «أنت» • لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل • لا ، لست مستعداً ، لست قادراً على أن أحتمل هذا المصير ! لقد أردت أن أنشد «نشيداً» ، وهأنا ذا أعجز عن احتمال أن يخاطبنى حارس من الحرس بصيغة المفرد ! لو كانوا سيأذنون لجروشـنكا بأن تصحبنى لاحتملت كل شيء فى سـبيلها ••• الا الضرب طبعاً ••• ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك •

ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة ؟ وبدأ الكلام فقال :

ــ اسمع يا أخى • اليك رأيى فى هذا الموضوع ، أعلنه لك مرةً واحدة الى الأبد • أنت تعلم حق العلم أننى لن أكذب عليك • فاسمع : أنت غير مهيأ ، وذلك الصليب لم يُخلق لك • أكثر من ذلك : ليس من الضرورى البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك • لو كنت قد قتلت

أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنـة • ولكنك بريء ، وهذه الكفارة فوق ما تطيق • كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً ، ولتصبح انساناً آخـر • فى رأيى أنه يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر فى هذا الانسـان الآخـر ، وأن يظل هذا الانسـان الآخر ماثلاً أمامك حيثما وُجدت ، وأينما هربت • ذلك كاف من جهتك • وأن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شـأنه الا أن يعزز شـعورك بواجبك ، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التى ستتبعك حيثما تذهب قد تسـاهم مزيداً من المساهمة فى خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك « هناك » ؟ ذلك أنك لن تحتمل نظام الحياة هنـاك ، فاذا أنت تثور وتتمرد وتقـول لنفسك آخر الأمر فعلاً : « هأنا ذا الآن براء تجاه المجتمع » • لقد صدق المحامى حين قال هذا الرأى • ان من المحن القوية ما لا طاقة لكل انسـان به • ان من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن • تلك هى آرائى ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها •

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً :

ـ لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخـرون ـ كالضـباط أو الجنـود ـ لما « سمحتُ » لك بأن تهرب • ولكن يظهر أن فى امكاننا ، بشىء من الحذق والبراعة ، أن نجنبهم المتاعب ، وفى امكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا لايفان) • صحيح أن رشوة الموظفين عمـل غير شريف ، حتى فى حـالة من هذا النوع ؟ ولكننى أمتنع هنا عن ابداء رأى واصـدار حكم • فلو كلفنى ايفـان أو كلفتنى كاتيا بأن أتولى هذا الأمر من أجلك ، لما أحجمت عن اسـتعمال الرشوة • أنا أعلم ذلك • ان من واجبى أن أقول لك الحقيقة كلها فى هذا الموضـوع • ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله • ولكن ثق على الأقل أننى لن ألومك ولن أدينـك • وأنَّى لى أن أكون

قاضيك فى هذه المسألة ! هذا كل شيء . أحسب انني قلت كل ما كان يجب عليّ أن أقوله فى هذا الصدد .

هتف ميتيا يقول :

ـ ولكنني سأدين نفسى بنفسى . سوف أهرب ، هذا أمر مفروغ منه ، هذا أمر تقرر حتى قبل أن تكلمنى فيه . وهل يستطيع ميتكا كارامازوف الا أن يهرب ؟ هه ! ... ولكننى سأدين نفسى بنفسى بعد ذلك ، وسأكفر عن هذا الذنب طوال حياتى فى البلد الذى سألجأ اليه . قل لى : أليس يفكر اليسوعيون هكذا ؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن ؟

ـ بلى ... هكذا يفكرون .

بهذا أجاب أليوشا وهو يبتسم برفق وهدوء . فصاح ميتيا يقول وهو يضحك بفرح ومرح :

ـ أحب فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفى شيئاً . هأنا ذا اذن قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعى ! وددت لو أقبلك من أجل هذا ، هل تعلم ؟ اسمع اذن ما أريد أن أقوله لك أيضاً ، لأننى أريد أن أفتح لك النصف الثانى من نفسى كذلك . اليك القرار الذى اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحى : هبنى هربت ، بمال وجواز سفر ، فأقمت فى أمريكا . سوف يعزينى ويواسينى ويشد أزرى ويقوى عزيمتى أن أتصور أننى اذ أهرب لا أهرب لأفرح وأسعد ، وانما أهرب لألقى نفسى فى سجن آخر مختلف عن السجن الذى كنت سأودع فيه هنا ، ولكنه سجن على كل حال ، سجن يعدل السجن هنا أو هو أسوأ منه . أوه ! اننى أمقت أمريكا هذه منذ الآن ... شيطان يأخذها !... وستكون جروشنكا معى ...

طيب ••• ولكن فكّـر قليلاً : ما الذى فى جروشنكا من امرأة أمريكية ؟ فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية ؟ انها روسية ، روسية حتى النخاع من عظامها ، وستشعر هنالك بالحنين الأليم الى الارض التى ولدت فيها • وسوف أرى فى كل لحظة أنها من أجلى انما ارتضت عذاب النفس هذا ، وأنها فى سـبيلى انما حملت ذلك الصليب ، هى التى لم تقترف ذنباً ولم ترتكب اثماً ! وأنا ؟ هل تظن اننى سأستطيع أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا كلهم خيراً منى ؟ أننى أكرهها منذ الآن ، أمريكا هذه ! شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، تكنيكيين من الطراز الأول ! ذلك أنهم ليسوا هم الناس الذين يحبهم قلبى ، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادى ! أنا أحب روسيا يا ألكسى ، أنا أحب الهنا الروسى ، رغم أننى لست أنا نفسى الا انساناً شقياً تافهاً • ولكنى سأختنق هنالك ، سأختنق •••

بهذا هتف ميتيا فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته • ثم أردف يقول مسيطراً على انفعاله :

ـ فاليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسى • اصغ الىّ : سأذهب مع جروشا ، فمتى وصلنا الى هنـاك اندفعنا نعمل فوراً : نستصلح الأرض ونحييها فى مكان بعيد لا تجاورنا فيه الا الدببة ، مكان هو أنأى ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان • لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة ! يُقال انه ما يزال يوجد فى أمريكا سكان حمر يعيشون فى أقاصى البلاد• فالى هناك سنذهب ••• الى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ ••• وسنشرع ، أنا وجروشا ، فى دراسة قواعد اللغة على الفور ، لا نضيّع يوماً واحداً• ونقضى فى ذلك ثلاث سـنين : نزرع الأرض وندرس قواعـد اللغـة • وفى نهاية تلك السنين الثلاث ، نكون قد أتقنا اللغة الانجليزية ، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين • فمتى تم لنا اتقان اللغة الانجليزية

اتفاقاً كاملاً فلنا لأمريكا وداعاً ، وعدنا الى روسيا كمواطنين أمريكيين. ولكن لا تخف : لن نرجع الى هذه المدينة . وانما سنختفي في مكان ما ، بعيد عن هنا ، بالشمال ، وربما بالجنوب . والى أن نعود يكون قد تغير مظهري ، وتبدلت هيئتي ، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك . ثم ان أحد أولئك الأطباء الأمريكيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي ، كأن يزرع في خدي شامة اصطناعية مثلاً ! انهم هناك بارعون في التكنيك ! وسأفقأ احدى عيني اذا اقتضى الأمر ذلك ، وسأرخي لحيتي طويلة جداً ، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ماأكون قد قاسيت من حنين الى الوطن). وبذلك آمل أن لا أعرف حين أعود . واذا افتضح أمري رغم ذلك ، فلا ضير ... سيرسلونني عندئذ الى المعتقل في سيبيريا ... سيكون ذلك قدراً ولا شك ! ... وهنا أيضاً ، في روسيا ، سنحرث الأرض في ركن ناء بعيد ، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أمريكي . هكذا سيتاح لنا على الأقل أن نموت في وطننا وأن نُدفن في تراب بلدنا . تلك هي خطتي ، وذلك هو قراري الذي لن أرجع عنه . هل تؤيدني في هذا ؟

ـ أؤيدك .

كذلك قال أليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه ويغيظه . وصمت ميتيا لحظة ثم هتف يقول :

ـ ما أشد ما شوّهوا الوقائع في المحاكمة ! يا لها من مسرحية !

فقال أليوشا وهو يتنهد :

ـ حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك .

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم :

ـ نعم ، لقد ضاقوا بى فى هذه المدينة ؛ سامحهم الله ، ولكن هذه قسوة فظيعة ...

وساد الصمت مرة أخرى . ثم قال ميتيا فجأة :

ـ أليوشا ، يجب أن أعرف حتماً : أهى آتية أم لا ؟ أجب ... ماذا قالت لك ؟ بماذا وعدتك ؟

قال أليوشا :

ـ وعدتنى بأن تجىء ، ولكننى لا أدرى هل تستطيع أن تجىء اليوم .

ثم أضاف وهو يلقى على أخيه نظرة خجلى :

ـ ليس هذا سهلاً عليها .

قال ميتيا :

ـ أقدّر ان هذا ليس سهلاً عليها . وكيف يكون سهلاً ! أليوشا ، اننى أكاد أُجن . ان جروشا لا تكف عن التفرس فىّ . يبدو أنها تدرك . آه ... رباه ! اللهم ألهمنى الصبر ! أنظر ماذا اطلب الآن : اننى اطلب كاتيا ، لا بد لى من كاتيا ... أأنا أدرك ما الذى أريده بهذا ؟ هذه حمى آل كارامازوف ! هذا هو اندفاعنا المخزى ! لا ، لست قادراً على على أن أتألم ، واأسفاه ! ما أنا الا انسان شقى تافه ... ذلك كل شىء !...

فى تلك اللحظة صاح أليوشا :

ـ هى ذى !

كانت كاتيا قد ظهرت فى عتبة الباب . وتوقفت بضع لحظات تتأمل

ميتيا بنظرة زائغة تائهة • وثب ميتيا واقفاً على قدميه ، وعبّر وجهه عن ذعر ، وامتقع لونه ، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مذلة وضراعة ، ومدّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوَم • فاستجابت كاتيا لهذه البادرة ، واندفعت اليه ، فأمسكت يديه ، وأجلسته على مضجعه عنوةً ، وجلست الى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه ، وأخذت تضغط عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً • وأرادا أن يتكلما عدة مرات ، ولكنهما أمسكا عن الكلام في كل مرة ، لينظر كل منهما في الآخر صامتاً ، مبتسماً ابتسامة غريبة ، وكأن كلاً منهما قد شُدّ الى صاحبه والتصق به •

دمدم ميتيا أخيراً :

ـ هل غفرت لي ؟

والتفت في اللحظة نفسها نحو أليوشا ، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم :

ـ هل تسمع ماذا أسألها ؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة :

ـ لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم انما أحببتك • ولكن لست أنا من يغفر لك ، لأنني أنا التي احتاج الى غفرانك • ولكن ليس هذا بالأمر الهام ••• لأن هذا الجرح سيظل نازفاً في قلبي طول حياتي سواء أغفرت أم لم تغفر • ستكون أنت عذابي ، وسأكون أنا عذابك • حسن هذا •••

وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها ؛ ثم استأنفت تقول متعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة على حين فجأة :

ـ هل تدري لماذا أتيت اليك ؟ لأقبّل قدميك ، لأشد على يديك ، هكذا ، الى حد ايلامك ، كما كنتُ أفعل في موسكو ، أما زلت تتذكر ؟

نعم ، جئت لأقول لك مرةً أخرى انك أنت الهى ، انك أنت فرحتى ، ولأصرخ أمامك ملء حنجرتى : انى أحبك حب الجنون .

صاحت تقول ذلك بصوتٍ كأنه الأنين ، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا فجأةً ، وأخذت تتدفق من عينيها دموع .

لبث أليوشا صامتاً متحيراً : انه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا المشهد .

وتابعت كاتيا كلامها فقالت :

ـ الحب قد انقضى يا ميتيا ، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً فى نفسى الى حد الألم . تذكر هذا الى الأبد .

ثم دمدمت تقول وهى تبتسم ابتســامة متشنجة ، وتحدق الى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح :

ـ لنفرض ، خلال لحظة ، أن ما حلمنــا به قد تحقق . أنت تحب الآن امرأة أخرى ، وأنا أحب رجلاً آخر . لا بأس ... سأظل أحبك مع ذلك الى الأبد ... وستظل تحبنى أنت أيضاً . أكنت تعرف ذلك ؟ هل تسمع ؟ أريد أن تحبنى ، أريد أن تحبنى مدى الحياة !

كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفى صوتها ارتعاش يشبه أن يكون تهديداً .

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترد أنفاسه :

ـ سأحبك ، نعم ... هل تعلمين أننى كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام ، فى ذلك المســـاء ... حين أُغمى عليك ونُقلت من قاعة المحكمة ... سأحبك طول حياتى ! ذلك ما سيكون ، ذلك ما سيكون الى الأبد ...

هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة وحمياً ، ولعلها تفيض كذباً . ولكن كل شيء قد أصبح فى تلك اللحظة صدقاً وحقيقة ، وكانا كلاهما مخلصين كل الاخلاص .

وصاح ميتيا يسألها فجأة :

ـ كاتيا ، أتعتقدين بأننى قتلت ؟ أنا أعلم أنك لا تعتقدين الآن بذلك ... ولكن فى تلك المرة ... أثناء ادلائك بشهادتك أمام المحكمة ... هل يمكن حقاً أن تكونى قد اعتقدت بأننى قتلت ؟

ـ لا ، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك ! لم أعتقد بذلك فى وقت من الأوقات ! ولكننى كرهتك فى تلك الآونة ، فأقنعت نفسى خلال لحظات بأنك القاتل ... أقنعت نفسى بذلك فى تلك الدقيقة ذاتها التى أدليت فيها بشهادتى ... أقنعت نفسى بذلك ، فسرعان ما اقتنعت ... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الادلاء بشهادتى . أريد أن تعرف هذا . لقد نسيت اننى انما جئت الى هنا لأعاقب نفسى .

أضافت كاتيا ذلك وقد تبدل تعبير وجهها فجأة وأصبح صوتها لا يشبه فى شيء ذلك الصوت الذى كان يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل .

قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ :

ـ روحك معذبة يا امرأة .

فدمدمت كاتيا :

ـ دعنى انصرف . سأعود اليك ، أما الآن فلا أطيق البقاء . اننى متألمة .

ونهضت لتنصرف . ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة

وتراجعت الى وراء • كانت جروشنكا قد ظهرت فى الغرفة • لقد دخلت بغير ضجة ، ولم يكن يتوقع احد أن يراها • اتجهت كاتيا نحو الباب مسرعةً ، ولكنها ما ان وصلت الى مستوى جروشنكا حتى توقفت فجأة ، ودمدمت تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع اصفراراً :

ــ اغفرى لى !

فحدقت اليها جروشنكا تحديقاً متفرساً ، حتى اذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره :

ــ كلتانا شريرة • نحن متساويتان فى الشر • فعلام تغفر كل منا للأخرى • أنقذيه ، فأدعو لك الله الى آخر أيامى !

صرخ ميتيا يقول لجروشنكا بلهجة عتاب شديد :

ــ لم تشائى أن تغفرى لها ؟

ودمدمت كاتيا تقول بسرعة :

ــ لا تخافى ! سأنقذه •

وأسرعت تفر من الغرفة •

وعاد ميتيا يهتف قائلاً بمرارة :

ــ كيف رفضت أن تغفرى لها ؟

فتدخل أليوشا يقول بحرارة :

ــ لا تلمها يا ميتيا ! ليس من حقك أن تلومها !

وأجابت جروشنكا تقول باشمئزاز :

ـ لم يصدر كلامها من أعماق نفسها ، وانما أوحاه اليها العجب والكبر والصلف . ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء !

وصمتت كأنما لتكبت العواطف التى كانت تجتاح نفسها . لم تكن قد ثابت الى هدوئها ، وقد جاءت مصادفة كما اتضح ذلك فيما بعد ، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء .

قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه :

ـ أليوشا ، حاول أن تلحق بها ... واشرح لها ... قل لها ... لا أدرى ماذا ... ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال !

فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع فى اثرها :

ـ سأعود اليك هذا المساء !

وأدركها فى الشارع . كانت تسير بخطى سريعة ، وتبدو مستعجلة ، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية :

ـ لا ، يستحيل علىّ أن أذل نفسى أمام تلك المرأة ! وانما سألتها أن تغفر لى ، لأننى أردت أن أمضى فى التضحية الى نهايتها ، أن أشرب الكأس حتى الثمالة . وقد منعت عنى غفرانها . فمرحى لها ... اننى أحبها لموقفها هذا !...

أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج ، وطاف بعينها لهيب من كره وحشى !

دمدم أليوشا يقول :

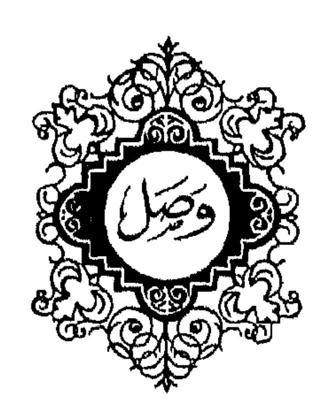
ـ لم يكن يتوقع أخى حضورها . كان واثقاً بأنها لن تجيء !

فقالت تحسم الحديث :

ـ لا أشك في ذلك • ودعنا من هذا • اسمع : يستحيل على أن أذهب معك الآن الى الجنازة • لقد بعثت اليهم بأزهار للنعش • أظن أنهم ما يزال معهم بقية من مال • قل لهم ، اذا لزم الأمر ، أنني لن أتركهم في المستقبل أبداً ••• والآن دعني ، دعني ، أرجوك ••• هأنت ذا قد تأخرت منذ الآن ، فلن تدرك الا القداس الثاني ••• اتركني ، أضرع اليك !

٣

جنازة ايليوشا . التأبين قرب الصخرة



أليوشا متأخراً بالفعل • كانوا ينتظرونه ، وقد هموا أن يذهبوا الى الكنيسة بدونه ، حاملين النعش الصغير المزيَّن بالأزهار تزييناً جميلاً • انه نعش ايليوشا ، الصبى المسكين • لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين • استُقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبى الراحل • كانوا جميعاً ينتظرونه بصبر نافد ، وابتهجوا أخيراً بوصوله • ان عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم • كان ايليوشا قد قال لهم قبل موته : « سيبكى بابا ، فابقوا الى جانبه » ، وتذكر الأطفال وصيته • وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين •

هتف كوليا وهو يمد يده الى أليوشا :

ـ ما أسعدنى برؤيتك يا كارامازوف ! ان ما يجرى هنا رهيب • ان ما يجرى هنا تمزق رؤيته القلب • ليس سنيجريف سكران • نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة ، ولكنه كالسكران • اننى قوى القلب رابط الجأش ، ولكن هذا المنظر رهيب • لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف ، ولكن هل يمكننى أن ألقى عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل ؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير :

ـ ماذا يا كوليا ؟

ـ هل أخوك مذنب أم هو برىء ؟ أهو الذى قتل أباك ، أم القاتل هو ذلك الخادم ؟ سوف أؤمن برأيك ايمانى بقانون . ان هذا السؤال قد حرمنى النوم أربع ليال .

أجابه أليوشا :

ـ الخادم هو الذى قتل . أخى برىء .

فهتف الفتى سموروف يقول فجأة :

ـ ذلك هو رأيى أنا أيضاً .

صاح كوليا يقول :

ـ اذن سيهلك بريئاً ، سيهلك شهيداً من شهداء الحقيقة . لقد هوى ، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً ! ألا اننى ، من جهتى ، لمستعد أن أغبطه وأحسده !

قال أليوشا مدهوشاً :

ـ كيف ؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام ؟

فأجابه كوليا بحماسة :

ـ أوه ! لشد ما أتمنى أن أضحى بنفسى يوماً فى سبيل الحقيقة .

قال أليوشا :

ـ ولكن لا فى قضية من هذا النوع ، فيما أتخيل ... لا فى مثل هذا الجو من الخزى والهول !

ـ طبعاً ... أنا أتمنى أن أموت في سبيل الانسانية كلها . أما هذا الخزي الذي تشير اليه فلا قيمة له ! ألا سحقاً لأسمائنا ! انني أحترم أخاك .

ـ وأنا أيضاً احترمه .

كذلك قال صوت آخر في جماعة التلاميذ ، على نحو لم يكن متوقعاً . انه صوت ذلك الصبي الذي أكد في الماضي أنه يعرف أسماء بناة طروادة ؛ وكما حدث في المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل أليوشا الغرفة . كان ايليوشا مسجَّى في نعش صغير أزرق مزدان بتخريم أبيض ، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه . ان ملامح وجهه الناحل لم تكد تتغيرّ . والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن تفوح من جثته . وكانت يداه جميلتين جمالاً خاصاً . انهما متصالبتان على صدره ، يحس المرء حين يراهما أنهما مقدودتان من مرمر . وكان وجهه يعبِّر عن الجد ، وكأنه يعبر عن تفكير . وقد وضعت بين أصابعه أزهار . وكان النعش كله ، من جهة أخرى ، مزداناً في الباطن والظاهر بأزهار أرسلتها ليزا هوخلاكوفا منذ الصباح.. وقد وصلت الآن أزهار أخرى أرسلتها كاترين ايفانوفنا ، ففي اللحظة التي فتح فيها أليوشا الباب كان الكابتن ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيد مرتعشة . لم يكد ينظر الى أليوشا . وكان غير عابىء بأحد على كلّ حال ، حتى ولا بامرأته الخرفة التي كانت تبكي وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب . أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش ، فهي الآن مسندة رأسها الى النعش ، ولا شك أنها تبكي هي أيضاً في صمت . وكان وجه سنيجيريف يعبِّر عن حركة ونشاط ، غير أن فيه شراسة وشكاسة على شيء من قسوة . كان في اشاراته وحركاته جنون ، وكذلك في الأقوال الذي

تنطلق من لســـانه • كان يصيح فى كل لحظة قائلاً : « بنىّ الصــغير الشهم ، بنىّ الصغير الشجاع ! » • لقد كان يحب ، حتى أثناء حيــاة ابنه ، أن يناديه بقوله : « بنىّ الشهم الشجاع ! » •

قالت الأم الخرفة وهى تنتحب :

ـ بابا ، اعطنى بضـــعة أزهـــار أنا أيضــاً • خذ منه هذه الزهرة البيضاء التى يمسكها بيده ، واعطنى اياها !

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هى التى أعجبتها ذلك الاعجاب كله ، أم هى كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التى يمســكها ابنها بيــده ، ذكرى منه ؟ لا أحد يعلم ، ولكن الأم كانت تضطرب اضطراباً رهيبــاً وهى تمد يديها نحو الزهرة المشتهاة •

صرخ سنيجيريف يقول بلهجة قاسية :

ـ لن أعطيها أحداً ، لن أعطى شيئاً • هذه الأزهار له هو ، لا لك أنت ! كل شىء له هو ، وليس لك شىء البتة !

قالت نينا فجأة وهى ترفع وجهها المبلل بالدموع :

ـ بابا ، اعط ماما زهرة !

ـ لن أعطى شيئاً ، لن أعطيها هى خاصةً ، لأنها لم تكن تحبه ! لقد أخذت منذ هذا المدفع الصغير من قبل ، وارتضى هو أن يهديه اليها •

كذلك قال الكابتن وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذى تنازل فيه ايليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه •

غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها ، وأخذت دموعها تسيل •

واذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه ، مع أنه آن أوان نقله ، فقد تحلقوا حول الميت الصغير حلقة كثيفة ، وأخذوا يُنهضون النعش •

زأر سنيجيريف يقول فجأة :

ـ لا أريد دفنه فى المقبرة • سوف أدفنه قرب الصخرة ، قرب صخرتنا • هذا ما أراده ايليوشا • لن أسمح بنقله •

الواقع أن سنيجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب الصخرة • احتج الحاضرون • وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت وأختها وسائر الصبية ، أخذوا يحاولون اقناعه •

قالت صاحبة البيت العجوز :

ـ يا للفكرة العجيبة ! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه منبوذ • المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة • والناس يجيئون اليها فيصلون على روحه • وأناشيد الكنيسة تصل الى هناك ، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبى كأنها تُتلى على قبره •

وأخيراً حرّك الكابتن يده باشارة تنم عن الاذعان والرضوخ وكأنه يقول : « خذوه حيث شئتم ! » • أنهض الصبية النعش وساروا به ، حتى اذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وأحنوه لتستطيع أن تودع ايليوشا الوداع الأخير • فلما رأت الأم فجأةً ، من قرب ، ذلك الوجه الصغير الغالى الذى كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد ، أخذت ترتعش وهى ترجح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام الى وراء ، فوق النعش •

صرخت نينا تقول للأم :

ـ ماما ، ارسمى عليه اشارة الصليب وباركيه !

ولكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير ارادة ، وقد تشنج وجهها على ألم شديد ؛ وفجأةً أخذت تلطم صدرها

بقبضة يدها . وابتعد الصبية بالنعش . فلما مروا باخته نينا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتى أخيها المتوفى مرة أخيرة . وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا الى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين ، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت :

ـ أعرف واجبى . لن أتركهم . نحن أيضاً مسيحيون !

وكانت العجوز تبكى أثناء كلامها .

لم تكن الكنيسة بعيدة . انها على مسافة ثلاثمائة خطوة فى أكثر تقدير . وكان النهار مضيئاً هادئاً ، على شىء من صقيع . وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنةً بالصلاة . ان سنيجيريف يركض وراء النعش مضطرب الحركة ، زائغ البصر ، تائه الهيئة ، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذى يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف ، حاسرَ الرأس يمسك بيده قبعته المهترئة الطويلة الحواف ، المصنوعة من لباد . كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا سبيل حلها ؛ هو تارةً يمد ذراعه على حين فجأة ليساعد فى حمل النعش فلا يزيد على أن يعوق أولئك الذين يحملونه ، وهو تارةً أخرى يهرع الى جانب محاولاً أن يصطف فى الموكب . وسقطت زهرة على الثلج ، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدى الى عواقب خطيرة لا يعلم الا الله ما هى !

وصرخ يقول مذعوراً على حين فجأة :

ـ رغيف الخبز ! نسينا الرغيف !

ولكن الصبية نبهوه الى أنه قد أخذ الرغيف ، وأن الرغيف هو الآن فى جيبه . فأسرع يخرجه ، حتى اذا تأكد من وجوده اطمأن باله . وقال لأليوشا شارحاً :

ـ ان ايليوشـا هو الذى أمر بهذا . كان لا ينـام الليل ، وكنت أجلس قربه . وفجـأة أمرنى قـائلاً : « بابا ، حين يهيلون على قبرى التراب ، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير ، فأسمع صوتها ، فلا أشعر بأننى وحيد . » .

قال أليوشا :

ـ فكرة حسنة . يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة .

ـ كل يوم . سأفعل هذا كل يوم !

بهذا أجاب الأب متحمساً .

ووصل الموكب أخيراً الى الكنيسـة ، ووضع النعش فى وسـطها ، وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال الى آخر القداس . انها كنيسة قديمة فقيرة ، وان عدداً كبيراً من أيقوناتها معلق بغير أُطر . وفى كنائس من هذا النوع انما يُصلى أحسن الصـلاة فى أكثر الأحيـان . بدا على سنيجريف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً ، غير أن قلقاً لاشعورياً ، قلقاً ليس له سبب ظاهر ، كان يجتاح نفسه من حين الى حين . واقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت * . وفى مرة أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها الى موضعها فشُغل بهذا العمل مدة طويلة . وعاد اليه الهدوء بعد ذلك من جديد ، فوقف عند التابوت مذعناً ، على شىء من قلق وحيرة فى تعبير وجهه . حتى اذا انتهت قراءة ما قرىء من الانجيل ، قال سنيجيريف لأليوشـا هامسـاً فى أذنه (وكان أليوشا الى جانبه) : لم تكن القراءة « كما يجب أن تكون » ، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته . وحين أُنشـد نشـيد الكروبيين ، صاحب الأب الانشاد بصوت خافت ، ولكنـه لم يلبث أن توقف عن الانشـاد فجـأة وارتمى جاثياً على ركبتيه ، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط ، ولبث

على هذا الوضع مدة طويلة • وأخيراً تُليت صلاة الجنازة ، ووزّعت الشموع ، فاضطرب الأب عندئذ من جديد ، ولكن مهابة الغناء الجنائزى المؤثر لم تلبث أن نفذت الى قلبه فهدأت روعه ، ثم عاد الى ذاته ، وتجمع على نفسه ، وأخذ يبكى بنشيج قصير سريع ، خانقاً صوته فى أول الأمر ، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً غير مكظوم • حتى اذا آن أوان التوديع وأُريد اغلاق التابوت ، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون اغلاقه ، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت ، وراح يغمره بالقبل فى ظمأ لا يرتوى ، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقبيل لا يريد أن يتوقف • وردّوه أخيراً الى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه • وفيما هو ينزل على الدرجات ، غيّر رأيه فجأة ، فأغار بذراعه على التابوت فاختطف منه بضع زهرات ، وأخذ يتأملها • ان فكرةً جديدة قد نبتت فى نفسه عندئذ ، حتى لكأنه نسى ، خلال لحظات ، الأمرَ الذى هو فيه• وهوى ، شيئاً فشيئاً ، الى نوع من تأمل عميق ، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين أنهض التابوت الصغير لنقله الى القبر • كان القبر قريباً كل القرب ، فهو فى الحوش الى جانب الكنيسة • وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترين ايفانوفنا • وقام الحفارون بانزال التابوت فى القبر بعد اجراء الطقوس المألوفة ؛ فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه الى وراء • غير أن من يراه فى تلك اللحظة يخيّل اليه أنه أصبح لا يفهم ما يجرى حوله فهماً واضحاً • حتى اذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب ، خرج من خدره فجأةً ، فأشار بيده الى التراب الذى كان يتكوم ، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهمها أحد • على أنه لم يلبث أن صمت فوراً • وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز ، فاضطرب فجأة ، وأخرج الرغيف من جيبه ، وأخذ يفتته ،

مبعثراً فتاته على القبر ، مدمدماً فى تشفع قلق : « هيَّا أسرعى ياعصافيرى الصغيرة ! » • وقال له أحد الصبية ان الازهار التى يمسكها بيده تعوق حركته ، واقترح عليه أن يحملها عنه لحظات ، ولكنه أبى أن يعطيها ، حتى لقد بدا عليه ذعرٌ من تصور أن أحداً يريد انتزاعها منه • حتى اذا ألقى نظرة على القبر ، فاطمأن الى أن كل شىء قد تم على ما يرام ، وأن فتات الخبز قد نثر ، استدار فجأة ومضى متجهاً الى البيت وقد هدأ هدوءاً كبيراً على حين بغتة • ولكن خطواته اخذت تسرع شيئاً بعد شىء ، وأخذ يتعجل المشى مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً • ولم يتركه أليوشا والصبية •

هتف يقول :

ـ أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لا بد من أزهار للأم • لقد أوذيت الأم وأولمت •

ولفت أحدهم انتباهه الى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد ، فاذا بهذه الملاحظة تغضبه ، واذا هو يرمى قبعته على الثلج بعنف قائلاً :

ـ لا أريد قبعة ، لا أريد قبعة !

فمال الفتى سموروف على الثلج ، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها• وكان جميع الصبية يبكون ، ولا سيما كوليا والصبى الذى اكتشف بناة طروادة • أما سموروف فكان يبكى بكاءً غزيراً هو أيضاً ، ممسكاً قبعة الكابتن بيده ، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها فى الثلج ، فرماها فى الهواء على سرب من العصافير ؟ فلم يصبها طبعاً ، فعاد ينضم الى جماعته وهو يبكى • وفى منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة ، وشرد فكره نصف

دقيقة ، ثم اذا هو يستدير كأن فكرة مباغتة قد انبجست فى ذهنه ، واندفع يمضى نحو الكنيسة ، نحو القبر الصغير المهجور • ولكن الصبية لحقوا به وأدركوه فى مثل لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات ليصدوه ، فتهاوى عندئذ على الثلج محطماً مهدم القوى ، وأخذ يئن منتحباً صائحاً :

ـ بنىّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىّ الشهم الشجاع !

أنهضه أليوشا وكوليا محاولين أن يواسياه ويهدئاه •

دمدم كوليا يقول له :

ـ ما هذا يا كابتن ؟ ان على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم !

وقال له أليوشا :

ـ سوف تُفسد الأزهار ، بينما الأم تنتظرها • هى الآن فى البيت لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار ايليوشا • وفى البيت أيضاً السرير الصغير الذى كان يرقد عليه ايليوشا •

فصاح سنيجيريف يقول وكأنه ذاكرته قد عادت اليه فجأة :

ـ نعم نعم ، لنركض الى البيت •

وأضاف يقول مذعوراً من تصور أنهم قد يُبعدون سرير ابنه :

ـ سوف يرفعون السرير ، سوف ينقلون السرير !

وأخذ يركض نحو البيت • ولم تكن المسافة الباقية طويلة • ووصل الجميع فى وقت واحد • وفتح سنيجيريف الباب بسرعة ، وصاح يقول لامرأته التى خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل :

ـ ماما ، ماما العزيزة ، ان ايليوشا يرسل اليك هذه الأزهار •

ثم أضاف يقـول وهو يمد اليها الأزهـار التى تجلدت وتكسرت بعض التكسر حين كان يتخبط فى الثلج :

ـ ماما المسكينة ! ان ساقيك مريضتان !•••

ولكنـه فى تلك اللحظة نفسـها أبصر فى ركن من الأركان أمام سرير ايليوشـا ، حذاءى ابنـه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هنـاك منذ هنيهة ـ وهما حذاءان عتيقـان حـال لونهما واهترأت أطرافهما ورقّعتا فى كل موضع ؛ فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما ، فتناول أحدهما ، وأطبق عليه بشفتيه يقبلهما تقبيلاً نهماً ، ويئن قائلاً :

ـ بنىّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىّ الشهم الشجاع ، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان ؟

فأعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق :

ـ الى أين أخذته ؟ الى أين أخذته ؟

وأجهشت نينـا تبكى وتنتحب أيضـاً • فخرج كوليـا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخـرون ، ولحق بهم أليوشـا الى الخارج ، وقال يخاطب كوليا :

ـ لندعهم يبكون • ليس هناك ما نعمله الآن ، فلسنا نسـتطيع أن نعزيهم • لننتظر هنا بضع لحظات ، ثم نعود ندخل الغرفة •

قال كوليا مؤيّداً :

ـ نعم ، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً • فظيع ، فظيع !

ثم أضاف يقول خافضاً صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد غير أليوشا :

ـ هل تعلم يا كارامازوف ! اننى أشعر بحزن رهيب ، وانى لمستعد أن أهب كل شىء فى العالم من أجل يُبعث حياً ، لو كان ذلك فى الامكان.

قال أليوشا ·

ـ وأنا أيضاً • ولكن ذلك غير ممكن وا أسفاه !

ـ هل يجب علينا أن نعود اليهم فى هذا المساء ؟ ما رأيك يا كارامازوف ؟ ان من الجائز أن يكب على الشراب ويسكر !

ـ من الجائز فعلاً أن يسكر • ولكننا سنجىء وحدنا نحن الاثنين• هذا كاف • وسنقضى فى صحبتهم ساعتين ، مع الأم ونينا • أما اذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم •

كذلك اقترح أليوشا •

قال كوليا :

ـ ان صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن • أغلب الظن أنها تفعل ذلك اعداداً لوجبة احياء ذكرى الميت • وسيجىء القس • هل علينا أن نعود الى الغرفة يا كارامازوف ؟

أجابه أليوشا :

ـ حتماً !

ـ ما أغرب هذا كله يا كارامازوف ؟ أيكون الناس فى مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر ؟ ما أكثر ما هنالك من أمور غريبة فى ديانتنا !

قال الفتى الذى اكتشف بناة طروادة ، قال فجأة بصوت عالٍ :

ـ هناك أيضاً سمك سومون •

فقال له كوليا بصوت حانق :

ـ أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء ، وأننا نؤثر أن نجهل وجودك !

فاحمر وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب. وكان الصبية يسيرون في الطريق على مهل ، فصاح سموروف يقول فجأة :

ـ تلكم هي صخرة ايليوشا ، الصخرة التي كان يراد أن يدفن تحتها .

توقف الجميع أمام الصخرة ولبثوا صامتين ، فنظر اليهم أليوشا ، ورأى بخياله المشهد الذي قصه عليه سنيجيريف ، ورأى ايليوشا باكياً معانقاً أباه قائلاً له : « بابا ! حبيبي بابا ! ما أشد ما أذلك ! » . وتحرك شيء ما في نفس أليوشا عندئذ ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية ، وجوه التلاميذ ، رفاق ايليوشا ، وقال لهم :

ـ يا أصدقائي ، أحب أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا ، في هذا المكان بعينه .

فأحاط به الصبية وحدقوا اليه بأعينهم المنتبهة .

قال أليوشا :

ـ يا أصدقائي ، سنفترق عمّا قريب . أنا الآن مقيم في هذه المدينة قرب أخوي اللذين سيرحّل أحدهما بعد مدة قصيرة ، أما الثاني فيحتضر . ولكنني سأبارح هذه الديار قريباً ، وربما غبت عنها سنين طويلة . سنفترق اذن يا أصدقائي . لذلك اقترح عليكم أن نتعاهد هنا ، قرب هذه الصخرة التي كان ايليوشا يحب أن يقف عندها ، على أن لا ننسى الراحل الصغير أبداً . هذا أولاً ؛ وأن نتعاهد ثانياً على أن يتذكر

بعضنا بعضاً على الدوام . يجب علينا ، مهما يقع لنا فى هذه الحياة ، ولو طال فراقنا عشرين عاماً ، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذى دفنّا فيه الصبى المسكين الذى كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك ـ قرب الجسر الصغير ، هل تتذكرون ؟ ـ ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب . لقد كان فتى شهماً ، طيب القلب ، شجاعاً ، قوى الشعور بالشرف والاباء والشمم ، عميق الاحساس بالمرارة من الاهانة التى أُلحقت بابيه ، تلك الاهانة التى تمرد بسببها وثار . يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا . مهما يكن مصيرنا المقبل ، وأيةً كانت الأمور الخطيرة التى ستشغل فكرنا ، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن فى الحسبان ، يجب أن لا ننسى أبداً هذا العهد الذى أسعدنا فيه شعورُنا بالاتحاد فى هذه المدينة على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبى الراحل ، وأسعدنا فيه هذا الحب الذى حملناه له والذى لعله جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن فى الواقع . يا طيورى الصغار ـ اسمحوا لى أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة ـ اننى أتأمل الآن وجوهكم التى تفيض طيبة ولطفاً ورقة ، فأقول لنفسى ، يا أبنائى الأعزة ، انكم قد لا تدركون أقوالى الآن لأننى فى كثير من الأحيان أعبِّر تعبيراً غامضاً ، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل ، ثم يأتى يوم تقروننى فيه على رأيى . ألا فاعلموا اذن أنه ليس فى حياتنا شىء أقوى ولا أطهر ولا أقدس من ذكرى طيبة ، ولا سيما اذا نفذت الى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء . ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم . ألا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة يحملها المرء فى نفسه منذ طفولته هى خير تربية وأفضل تهذيب . ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافيةً لخلاصنا ولو لم يبق فى قلوبنا أى شىء سواها . قد نصبح أشراراً فيما بعد ، قد نعجز فى المستقبل عن مقاومة

فعل سيء ، قد نسخر من ألم الانسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً الى « التألم في سبيل الانسانية » ، كما قال كوليا منذ قليل ، قد نستهزىء بمثل هؤلاء الناس في خبث وشر ، ولكن مهما نصبح أشراراً ، لا سمح الله ، فسنظل نتذكر اليوم الذي دفنا فيه ايليوشا ، والحبّ الذي حملناه له في الآونة الأخيرة ، وهذه المودة والصداقة والمحبة التي ترين على حديثنا في هذه الدقيقة قرب هذه الصخرة . ان أشدنا ميلاً الى القسوة وحباً بالتهكم — هذا اذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام — لن يجرؤ ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى ، لن يجرؤ ، في قرارة نفسه ، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعر الكريمة النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات . ومن يدري ؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصده في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيء ، فمتى تذكرها ثاب الى ذاته وحدث نفسه قائلاً : « نعم ، لقد كنت في ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً » . قد يبتسم قليلاً حين يتذكر هذا العهد ... لا ضير ... انه لأمر طبيعي أن يتندر الانسان على ما هو خير وطيب وبراءة . تلك خفة وطيش لا أكثر . ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أن أحدنا ما ان يبتسم قليلاً حينذاك حتى يبادر الى لوم نفسه في قرارة قلبه قائلاً : « لا ، لقد أخطأت حين ابتسمت ، فلا مزاح في هذه الأمور ! » .

هتف كوليا يقول وقد اسطعت عيناه :

— ذلك ما سيكون يا كارامازوف ! انني أفهمك يا كارامازوف !

واضطرب الصبية الآخرون أيضاً ، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما ، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم ، وحدّقوا الى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال . وتابع أليوشا كلامه فقال :

— انما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً . ولكن لماذا نتصور هذا الامكان ، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً ؟

أليس كذلك يا أصدقائى ؟ ألا فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شىء ، ولنكن شرفاء بعد ذلك ، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً الى الأبد . اننى ألح على هذا ؛ وأعاهدكم ، من جهتى ، على اننى لن أنسى أى واحد منكم ! سأظل أتذكر ، ولو بعد ثلاثين عاماً ، كل وجه من وجوهكم هذه التى تنظر الىّ الآن . منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر « أن نجهل وجوده بيننا » . ولكن انّى لى أن أنسى وجود كارتاشوف الذى أصبح لا يحمر فى هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة ، والذى ينظر الىّ الآن بعينيه الطيبتين الباشتين الفرحتين . يا أصدقائى ، يا أصدقائى الأعزة ، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان الصغير ايليوشا ، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكياء مثل كوليا (الذى سيتوهج ذكاؤه مزيداً من التوهج حين يكبر) ، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف ! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين فحسب ؟ اننى من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائى ، فستحيون جميعاً فى قلبى ، وأرجو أن أحيا فى قلوبكم أيضاً ! من ذا الذى وحّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التى سنظل نتذكرها بغير انقطاع ، والتى سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر ؟ من ذا الذى وحّدنا على هذه العاطفة الا ايليوشا ، ذلك الفتى الطيب الرائع ، ذلك الفتى الذى سنظل نحمل ذكراه الغالية الى الأبد ؟ نعم ، يجب أن نتذكر ايليوشا مدى الحياة ، يجب أن لا ننساه قط . ألا فلتعش فى أرواحنا ، ألا فلتعش فى قلوبنا ذكرى هذا الفتى الأبدية ، الآن والى آخر الزمان !

ـ نعم نعم ، ذكراه الأبدية !

كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة .

ـ ألا فلنتذكر وجهه ، فلنتذكر ثيابه ، وحذاءيه الصغيرين

الفقيرين ، ونعشه ، ألا فلنتذكر أيضاً أباه الشقى الخاطى ، ولنتذكر تلك الجرأة التى أظهرها ايليوشا فى دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف !

ـ نعم نعم ، فلنتذكر هذا كله ! لقد كان شجاعاً ، وكان طيباً !

بهذا راح يهتف الصبية من جديد .

وصاح كوليا قائلاً :

ـ آه ... كم كنت أحبه !

ـ يا أصدقائى الأحبة ، يا أبنائى ، لا تخافوا الحياة ! ما أجمل الحياة حين يحقق المرء فى هذا العالم شيئاً من خير وعدل !

ـ نعم نعم ، صحيح ...

كذلك ردّد الصبية فى حماسة .

وقال صوت على حين فجأة ، هو صوت كارتاشوف فيما يبدو :

ـ نحن نحبك يا كارامازوف !

فكرر جميع الصبية قوله :

ـ نحن نحبك ، نحبك !

وسالت دمعة من أعين عدد كبير منهم .

وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة :

ـ مرحى كارامازوف !

فأضاف أليوشا يقول بانفعال :

ـ وعاشت أبديةً ذكرى الميت الصغير !

فردد الصبية بصوت واحد :

ـ عاشت أبدية !

وقال كوليا سائلاً :

ـ كارامازوف ، هل صحيح ما يعلمنا اياه الدين من أننا سنُبعث أحيـــاء بعد الموت في يوم من الأيام ، فيرى بعضـنا بعضـــاً ، ونرى ايليوشا ؟

ـ هذه حقيقة مطلقة • لا شك في أننا سنبعث أحياء بعد الموت ، فنلتقي جميعاً ، ويقص بعضنا على بعض ضاحكاً ما وقع له •

بهذا أجاب أليوشا بين هزل وحماسة • فقال كوليا صائحاً :

ـ آه ••• ما أروع هذا !

ـ كفانا الآن كلاماً ، وهيَّا بنا الى وجبـة احيـاء ذكرى الميت • ولا تقلقنكم الفطائر التي سنأكلها • هذه عادة قديمة جديرة بالاحترام ، لها جانبها الجميل أيضاً • هيَّا بنا الى الطعام يداً بيد •

كذلك قال أليوشا ضاحكاً • فصاح كوليا يقول من جديد بصوت يفيض حماسة :

ـ نعم ، يداً بيـد ، وليكن الأمر كذلك على مدى حيـاتنا كلها • مرحى كارامازوف •

وردَّد سائر الصبية هتاف كوليا بصوت واحد •

حواش

٧ ★ « كان سكرتيراً حكوميا » : السكرتير الحكومى موظف من الدرجة الثانية عشرة وهى رتبة تقابل فى الجيش رتبة ملازم ثان ٠

٨ ★ « كوليا » : تصغير نيقولا

١٣ ★ « كتـــاب سماراجدوف » : هو « كتاب التاريخ العلم » الذى ســـبق أن جاء ذكره فى الجزء الأول من هذه الرواية ٠ راجع حاشية الصفحة ٢٩٩ من المجلد الاول من هذه الرواية ٠

١٧ ★ « ناستيا » : تصغير آناستازيا

١٩ ★ « كوستيا » : تصغير كونستانتين

٧١ ★ « قريب محمد أو الجنون النافع » : رواية فرنسية ماجنة من تاليف فروماجيه (١٧٤٢) وقد ترجمت الى الروســية ســنة ١٧٨٥ فى عهد « حرية الطباعة » ٠ ولم تنشأ الرقابة الوقائية الا سنة ١٧٩٢ بعد ظهور الكتاب الثورى الذى ألفه ن ٠ آ ٠ راديشتيف ٠

٨٢ ★ « اللغات المندثرة » : المقصــود بهـــا هنا اللاتينية واليونانية القديمة ، أو ما يسمونه فى الغرب اللغات الكلاسيكية ٠ ومن المعروف أن وزير التعليم ، الكونت دمترى تولوستوى قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القــديمة فى المدارس الثــانوية ٠ وذلك اجراء كانت الاوساط اللبرالية تعده رجعيا ٠

٨٩ ★ « واعلم من جهة أخرى أننى لا آخذ على المسيح شيئا ٠٠٠ ولو عاش فى عصرنا لانضم الى الحركة الشـــورية ٠٠٠ » : يروى دوستويفسكى فى «يوميات كاتب» (مجلة «المواطن» ١٨٧٣ ،

صفحة

العدد الاول) حديثه مع الناقد الشهير ف٠ج٠ بيلنسكى الذى مات سنة ١٨٤٩ ، فيقول ان بيلنسكى قال له : « ثق أن مسيحك لو ولد فى عصرنا لما كان الا انسانا تافها عاديا ، ولا محى أمام العلم المعاصر ومحركى الانسانية ٠٠٠ » ٠

٩٠ ★ « قرأت كلامه عن تاتيانا ٠٠٠ » : ان تاتيانا هى الشخصية الرئيسية فى رواية بوشكين التى هى أجمل أعماله : «أوجين أونيجين» ٠

٩١ ★ « الشعبة الثالثة » : هى ادارة الشرطة السياسية التى كان مقرها قرب «جسر الجنازير» على نهر فونتانكا ٠ والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهى د٠ مينايف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية فى مبنى قريب ، ولكن ما لبث هذان البيتان أن أصبحا يقصدان «الشعبة الثالثة» ٠

٩١ ★ « الناقوس » : مجلة ثورية أصدرها آ٠ج٠ هرتسن فى لندن ٠

١٠٧ ★ « ألا فليعقل لسانى اذا نسيتك يا أورشليم ٠٠٠ » : المزمور المائة والسابع والثلاثون ، ٥ ـ ٦ ٠

١٣٠ ★ « الشائعات » : لعل الاشارة هنا الى مجلة « الصوت » ، التى أصدرها آ٠آ٠ كرايفسكى من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣ ، وكانت ذات اتجاه لبرالى معتدل ٠

١٣١ ★ « سكوتو يريجونيفسك » : اسم فكه من اختراع المؤلف ٠

١٣٥ ★ «ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين ٠٠٠» : كان الناس منذ سنة ١٨٦٠ يتكلمون عن اقامة نصب تذكارى للشاعر الكبير بوشكين ، وفى سنة ١٨٧١ أعلن فى الجرائد عن اكتتاب تبرعات ٠

١٦١ ★ « الايطيقا » : هى كلمة يونانية معناها علم الاخلاق ٠

١٦٢ ★ « كلود برنار » (١٨١٣ ــ ١٨٧٨) : هو عالم الفزيولوجيا الفرنسى المشهور ، مؤسس علم الامراض التجريبى . وقد نشرت عنه فى الآونة التى بدأ فيها دوستويفسكى كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات . وان ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين .

١٦٣ ★ « لا جدال فى الآراء » : قالها كوليا باللغة اللاتينية (de opinionibus non est disputandum) ، وهى تحريف للمثل اللاتينى القائل : « لا جدال فى الأذواق » (de gustibus non est disputandum)

٢٣١ ★ « بيتر » : هو اسم التحبب المألوف الذى كان سكان بطرسبرج يطلقونه فى الماضى على مدينتهم .

٢٣٦ ★ « لم أكن الا خادمك لتشاردا » : تعبير مستمد من قصة «بوفا، ابن الملك» ، وهى قصة شعبية جدا فى روسيا . واسم لتشاردا هو تحريف لاسم رتشارد ، الخادم الوفى الأمين للملكة « الشقراء » .

٢٤٠ ★ « مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى » : اسحق السورى ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكى خطبه ومواعظه مترجمة الى الروسية .

٢٤١ ★ « لا تسقط أى تفصيل من التفاصيل » : تروى أرملة دوستويفسكى ان هذه العبارة كانت من العبارات الأثيرة عند زوجها الراحل .

٢٧٠ ★ « أنا شيطان ، ولا شىء مما هو انسانى غريب عنى » : وردت هذه الجملة باللغة اللاتينية ، وهى تحريف فكه لجملة الشاعر اللاتينى الهزلى تيرانس الذى يقول : « أنا انسان ، الخ .. » .

٢٧٣ ★ « وسيدون جاتسوك ذلك فى التقاويم» : هو الكسندر جاتسوك (١٨٣٢ ــ ١٨٩١) ، ناشر حولية « تقويم الصليب » ، التى كانت رائجة جدا فى ذلك الحين .

٢٧٦ ★ « كتبت أيضا مسرحيات هزلية » : أقوال المتفاخر هلستاكوف، شخصية قصة جوجول « المراجع »

٢٧٦ ★ « لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشــكوك ٠٠٠ » : كتب دوستويفسكى فى دفتر من دفاتره يقول : « المفتش والفصل المخصص للحديث عن لاطفال ٠٠٠ حتى فى أوروبا لا يوجد ولم يوجد تعبير عن الالحاد يبلغ هذا المبلغ من القـــوة ٠ فأنا لا أومن اذن بالمسيح ايمان صبى ولا أعترف به اعتراف فتى غر ٠٠ ان تسبيحى قـد مر بهوة من الشكوك ، كما يقول الشيطان فى روايتى» ٠

٢٧٨ ★ « أنا أفكر فأنا اذن موجود » : هى القاعدة الشهيرة التى تقوم عليها فلسفة الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) . والتى وردت فى كتابه « مقالة فى المنهج » (الجزء الرابع)

٢٧٩ ★ « ينكر كل شيء ، ينكر القوانين والشـعور والايمان » : جملة مســتمدة من المسرحية المشــهورة التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » (الفصل الرابع ، المشهد الرابع) ٠

٢٨٥ ★ «وأرجلهم فى الفضاء ، على حد التعبير الذى يحبه جوربونوف»: هو ايفان جوربونوف (١٨٣١ ـ ١٨٩٠) ، الفنان الهزلى الذى اشتهر كثيرا بقصصه المضـــحكة ونوادره التى كان يلقيها فى الجمهور ٠

٢٨٨ ★ « ٠٠٠ أن أرتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام «الاسد»و «الشمس» ٠٠٠ » : أى موظف من الدرجة الخـامسة نال فى القفقاس هذا الوسام من شاه ايران (فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد) ٠

٢٨٨ ★ « حين جاء مفســتوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم هو لا يستطيع أن يفعل الا الخير» : هذه هى الكلمات التى قالها الشــيطان فى الفصـــل الاول من «فاوست» جوته (الفصل الثالث) ٠

٢٨٨ ★ « لص اليمين » : لص اليمين ولص الشـــمال هما فيما تقول

الأناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح ، وآمن أولهما قبل موته .

٢٩٣ ★ « تذكر محبرة لوتر » : ان المصلح الديني مارتان لوثر قد تراءى له الشيطان أثناء اقامته في قصر فارتبورج ، فرماه بمحبرته . وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النسك التي كان يقيم فيها لوتر . وان هلوسات ايفان كارامازوف تذكر بعض الشيء بذلك « الحوار مع الشيطان » الذي تحدث عنه المصلح الديني .

٣٣٥ ★ « خدما التاج » : أي خدما العرش ، أي خدما المملكة ، أي خدما الدولة . كان تعبير «خدمة التاج» شائعا جدا في بولندا حيث كان تستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة ، ولم يكن هذا التعبير شائعا في روسيا مثل هذا الشيوع .

٣٣٨ ★ «الاخوان المورافيين» : ملة بروتستانتية ظهرت في مورافيا في القرن السادس عشر .

٣٤٥ ★ « باسم الاله الاب ، باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس»: بالألمانية في الأصل .

٣٦٨ ★ «خبزا ومشاهد سيرك !» : باللاتينية في الأصل . وذلك ماكان يطلبه الشعب في روما القديمة .

٣٨٦ ★ « ان كاتبا كبيرا من كتاب عهد قريب ، قد شبه روسيا بعربة ترويكا تعدو عدوا سريعا نحو غاية مجهولة ... » : هو الكاتب الروسي الكبير جوجول في كتابه « النفوس الميتة » (الجزء الاول ، الفصل ١٠) . والترويكا عربة تجرها ثلاثة أحصنة .

٣٨٨ ★ « من بعدي الطوفان » : عبارة تنسب الى لويس الخامس عشر.

٤٥٨ ★ « ... مخبأ في قبو من أقبية قصر أودولف » : الاشارة هنا الى الرواية التي كتبتها آن رادكليف بعنوان « أسرار قصر أودولف (١٧٩٤) » ، والتي أصابت نجاحا كبيرا في أوروبا كلها .

٤٨٤ ★ « أنا الراعي الصـــالح ... » : من أقوال المسيح في انجيل القديس يوحنا (الاصحاح العاشر ، ١١) .

٤٨٥ ★ « وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم » : رسالة بولس الرسول الى أهل أفسس (الاصحاح السادس ، ٤) .

٤٨٥ ★ « بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم » : من أقوال المســيح في انجيل متى (الاصحاح السابع ، ٢) وانجيل مرقس (الاصحاح الرابع ، ٢٤) .

٤٨٦ ★ « أن لا نكون شبيهين ببائعات موسكو السمينات اللواتي يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت» : ان الخشية الخرافية من هاتين الكلمتين الأجنبيتين قـــد أبرزها آ. ن. أوستروفسكي في مسرحيته الهزلية «الايام المشئومة» (الفصل الثاني ، المشهد الثاني) التي مثلت سنة ١٨٦٣ .

٤٨٨ ★ « اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة » : تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن.م. كارامزين ، وقد أصبح هذا التعبير من الامثال السائرة في روسيا .

٤٨٨ ★ « قل لي يا أبي لماذا يجب علي أن أحبك » : لعـــل هذه الجملة مســـتمدة من مسرحية «اللصوص» للشاعر الالماني شيللر ، (الفصل الاول ، المشهد الاول) .

٥٠٥ ★ « لن يقــل الحكم عليه عن عشرين عاما بالسجن مــع الاشغال الشـــاقة » : كانت عقوبة جريمة قتـــل الأب في قانون الجزاء الروسي لعـــام ١٨٤٥ هي الاشـــغال الشاقة المؤبدة . ولكن الليوتنان ايلنسكي ، الذي تشـــبه حالته حالة ميتيا ، لم يحكم عليه الا بعشرين عاما ، بسبب الشك في ارتكابه الجريمة .

٥٣٨ ★ « ليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت » : هي عصابة من قماش الساتان أو من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت .

٥٣٩ ★ « راح يغرقه بالقبل في ظمأ لا يرتوي » : في روســـيا يبقى التابوت مفتوحا أثناء قداس الجنازة ، حتى اذا انتهى القداس جاء الأهل وغيرهم يقبلون الميت قبلة أخيرة . وبعد ذلك يغلق التابوت .

فهرس

الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف